دكتور عبد المحسن طه رمضان

الحروب الصليبية في الأندلس

ميلادها وتطورها حتى القرن العاشر

مع دراسة نقدية لمصادرها العربية والأسبانية



مكتبة الأنجلو المصرية



الحروب الصليبية فى الأندلس

ميلادها وتطورها حتى القرن العاشر مع
دراسة نقدية لمصادرها العربية والاسبانية

دكتور
عبد المحسن طه رمضان
كلية الآداب - جامعة عين شمس



مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اســـــم الكتاب : الحروب الصليبية فى الاندلس
اســـــم المؤلف : دكتور عبد المحسن طه رمضان
اســـم الناشـــر : مكتبة الانجلو المصرية
اســـم الطابـــع : مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقـــم الايداع : ١٦٧٦٥ لسنة ٢٠٠١
الترقــيم الدولى : I.S.B.N. 977-05-1875-1

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط. ﴾

صدق الله العظيم .

سورة الأنفال: ٤٦ـ ٤٧ .



أهم الاختصارات

Anal. Uni. Hisp. : Anales de la Universidad Hispalense, Publicaciones de la Universidad de Sevilla, Serie Filosofia y Letras.

Anal. Uni. Madrid: Anales de la Universidad de Madrid.

Annal. IEO: Annales de L' Institut d' Etudes Oriental de la Faculté des lettres d' Alger.

A P H. : Academia Portuguesa da Historia, Lisboa.

BAAL. : Boletin de la Academia Argentina de Letras.

BAHE. Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis, 2 vols, Matriti 1760 - 1770 .

Bol. IAEV. : Boletin del Instituto Americano de Estu. ios Vascos.

Bol. RSG. : Boletin de la Real Socieded Gografica de Madrid.

BRAH. : Boletin de la Real Academia de la Historia de Madrid.

Bul. Hisp. : Buletin Hispanique, Bordeaux.

CHE. : Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires.

Col. DIHE. : Coleccion de Documentos Inéditos para la Historia de Espana, Madrid.

Col. EA. : Coleccion de Estudios Arabes, Saragosa.

Col. OAHG. : Coleccion de Obras Arabigas de Historia y Geografia, la Real Academia de Historia, Madrid.

CSAA. : Cuadernos del Seminario de Arte y Arqueologia.

EIUO. : Istrato dagli Annali dell' Instituto Universitario Orientale di Napoli, Roma .

EMA. : Estudios sobre la Monarquia Asturiana, Coleccion de Trabajos Realizados con Motivo del II Centenario de Alfonso el Casto, Celebrado en 1942, 2 ed., Oviedo 1971.

Esp. Sagr. : Espana Sagrada, Theatro Geographico - Historico de la Iglesia de Espana, 56 Tomos, Madrid 1747 - 1957.

Est. EMCA. : Estudios de Edad Media de la Corona de Aragon.

Extr. TSFHL. : Extret de Treballs de la Seccio de Filologia i Historia Literaria II, Istitut d' Estudis Tarraconenses Ramon Berenguer IV.

FCHE. : Fuentes Cronisticas de la Historia de Espana, Seminario R. M. Pidal, Facultad de Filosofia y Letras de Madrid.

MGH. : Monumenta Germaniae Historica Scriptorum, ed. G. H. Pertz, Hannoverae.

MRAH. : Memorias de la Real Academia de la Historia de Madrid.

N. Bibli. AE. : Nueva Biblioteca de Autores Espanoles, Madrid.

Pat. Lat. : Patrologiae Cursus Completus, Series Prima (Latina), ed. J. P. Migne, Paris.

RABM. : Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos, Madrid.

R. CEHG. : Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y Su Reino, Granada .

R. EPL. : Revue de la Facultad de Filosophie et Lettres de Buenos - Aires.

R. Esp. : Revista de Espana, Madrid .

R. Filo Hisp. : Revista de Filologia Hispanica de Buenos - Aires.

R. Hisp. : Revue Hispanique, Paris - New York.

RIEIM. : Revista del instituto de Estudios Islamicos en Madrid.

RMFLC. : Revista Mensual de Filosofia, Literatura y Ciencias de Sevilla, Sevilla.

R. Oc. : Revista de Occidente, Madrid .

التمهيـــد

أولاً : مقــــــــدمة .

ثانياً : تعريف بأهم المصادر والمراجع .



أولاً : مقدمة



اندفعت الجيوش الإسلامية فى موجات متتابعة من قلب شبه الجزيرة العربية، منذ مطلع القرن الأول الهجرى/ أواخر النصف الأول من القرن السابع الميلادى، مكتسحة أراضى الفرس والروم فى العراق والمشرق والشام ومصر وما يلى مصر غربا، بحيث لم يكد يقترب ذلك القرن الهجرى من نهايته حتى كان الشمال الأفريقى قد انتظم - على أيدى خلفاء بنى أمية - فى حوزة الدولة الإسلامية . ومن هذا الشمال الأفريقى تطلع المسلمون إلى الشاطىء الأوربى المقابل، تجاه شبه جزيرة إيبيريا La Peninsula Ibérica - إسبانيا والبرتغال الحاليتين - الواقعة فى أقصى جنوب غربى قارة أوربا . فعبرت إليها جيوشهم ونزلت على ساحلها الجنوبى فى رجب من عام ٩٢هـ/ أبريل ٧١١ م، وتقدمت فى أراضيها منتصرة حتى قضت فى أقل من عام على المملكة القوطية الجرمانية التى كانت قائمة فيها، ولم ينته عام ٩٥هـ/ ٧١٤م حتى كانت قد وصلت الجيوش الإسلامية إلى أقصى الأطراف الشمالية من شبه الجزيرة، الواقعة على ساحل بحر كنتبرية EL Mar Cantabrico . وبذلك سيطر المسلمون على معظم نواحى شبه الجزيرة، الذى عرف منذ ذلك الحين باسم الأندلس، فأقاموا بها مدة تقارب ثمانية قرون تالية، إلى أن اضطروا إلى إخلائها كلية فى أواخر القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) .

ومع أن الدراسات الأندلسية قد نشطت منذ القرن الماضى لاستجلاء جوانب تاريخ المسلمين بالأندلس طوال تلك القرون الثمانية، وما أسهم به المسلمون فيها حضارياً، حتى تكشفت بفضل ذلك حقائق باهرة تبرز ما تبوأه المسلمون من مكانة ذات شأن حضارى عظيم، سطرت صفحة من أمجد صفحات تاريخ إيبيريا فى العصور الوسطى . بيد أنه لا يزال مع ذلك كثير من الغموض يحيط ببعض جوانب هذه الفترة، ومنها ما يتعلق بمدى امتداد الحكم الإسلامى بعد معارك الفتح الأولى على النواحى الشمالية والشمالية الغربية من شبه جزيرة إيبيريا، وبخاصة على إقليم أشتوريس Asturias المطل على الجزء الأوسط من ساحل بحر كنتبرية، إذ ظل فى حكم المجهول حتى وقتنا الحاضر ما إذا كان هذا الإقليم قد انضوى تحت طاعة المسلمين كغيره من باقى أقاليم إيبيريا، أم أنه أفلت وظل بمنأى عن سيطرتهم .

وتتمثل أهمية إقليم أشتوريس فى أنه سبق غيره من أقاليم إيبيريا ليكون مسرحاً لأول حركة تمرد قام بها سكانه على المسلمين فى أواخر عام ٩٩هـ/ ٧١٨م، أى بعد نحو سبع سنوات فقط من فتح المسلمين إيبيريا . ولم تلبث أحداث هذا التمرد أن تطورت إلى ثورة فعلية على المسلمين فى عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م، وهى ثورة جرت إلى

صدام عسكرى بين الفريقين فى آكام كويادونجا Covadonga ، المعروفة للمسلمين بصخرة بلاى La Pena de Pelayo أو الصخرة فقط، التى تقع فى بطن جبل أوسبة Auseva أحد جبال قمم أوربا Los Picos de Europa الوعرة، الممتدة فى أقصى شرقى أشتوريس . وهو صدام أصيبت فيه القوات الإسلامية بأول هزيمة لها على مستوى إيبيريا كلها منذ فتحها .

ولا جدال فى أن انتصار مسيحيى أشتوريس على المسلمين فى تلك المعركة كان ضعيفا هزيلا فى حد ذاته، إذ اقتصر على انحسار النفوذ الإسلامى عن الجزء الجبلى القاحل الذى دارت عليه وحوله المعركة فى أقصى شرقى أشتوريس . إلا أن مجاورة ذلك الجزء لدوقية كنتبرية Cantabria ـ التى لم تكن قد شملتها موجة الفتح الإسلامى الأولى، أو امتدت إليها السيطرة الإسلامية فيما بعد ـ قد نفس من خناقها، فانتهز دوقها ألفونسو (أذفونش) Alfonso الفرصة وضمه إلى دوقيته منذ العام الأول لاعتلائه الحكم فى عام ٧٣٩م (١٢١هـ)، وأعلن ميلاد أول كيان سياسى مسيحى فى الشمال مستقل عن الكيان الإسلامى الأندلسى فى الجنوب، عرف بمملكة أشتوريس El Reino de Asturias ، التى كانت بمثابة أول تعبير ملموس نحو تكوين جبهة إسبانية مسيحية فى شمالى إيبيريا ضد المسلمين فى تلك الفترة المبكرة .

وتبعاً لذلك، تغير شكل الخريطة السياسية لإيبيريا لأول مرة منذ أن فتحها المسلمون، وصارت موضع نزاع دائم وصراع لم يهدأ إلا قليلاً بين ما يسيطر عليه المسلمون أى الأندلس ـ أو ما عرف بإسبانيا الإسلامية أيضا ـ وبين إسبانيا المسيحية التى ظلت مملكة أشتوريس تجسيدا لها طوال مدة وجودها، التى استمرت ما يقرب من قرن وثلاثة أرباع قرن انتهت فى عام ٩١٠م (٢٩٧هـ) .

حقيقة لقد بدأت مملكة أشتوريس على هذا النحو متواضعة ضعيفة من حيث مساحتها وقدراتها إذا ما قيست بالأندلس، ومن حيث أهدافها التى لم تنشد من ورائها سوى محاولة إثبات وجودها فى إيبيريا كقوة منعزلة عن المسلمين ومستقلة عن كيانهم السياسى، دون أن تتطلع وقتذاك إلى الاستئثار بالسلطة فيها من دونهم . ومع ذلك، فسرعان ما تضخمت مساحتها على نحو لم يكن فى الحسبان، بحيث امتدت سيطرتها على كل ما يقع شمال نهر دويرة Duero من إقليم جليقية (غاليسيا) Galicia المطل على المحيط الأطلنطى غربا حتى بلاد البشكنس (الباسك) Vascones شرقا، أى ما يوازى نحو ربع مساحة إيبيريا . وحينذاك ازدادت قوتها وقدرتها وثبتت أقدامها وأمنت جبهتها الداخلية، وتطورت استراتيجيتها من مجرد الدفاع عن نفسها إلى الهجوم والضغط على المسلمين، ثم تبلورت أهدافها النهائية فى تقرير أحقيتها وحدها

فى الحياة والسيطرة على إيبيريا، الأمر الذى لم تقدر معه لوجهتى نظر أشتوريس والأندلس أن تلتقيا على هدف، أو أن تتعايشا فى سلام ومودة أو حسن جوار، وإنما اتسمت العلاقات بينهما بالعداء الصارخ؛ وهو عداء ورثته أشتوريس للقوى المسيحية التى خلفتها، مثل : ليون Léon وقشتالة Castilla وجليقية Galicia، التى انتقل الصراع فى عهدها إلى مرحلة أخرى جديدة .

ومن أسف، فقد أوصل المسلمون بأنفسهم مملكة أشتوريس إلى هذه الغايات، وأفسحوا لها بطريقة غير مباشرة الطريق إلى تحقيقها، إذ واكب الفترة الملازمة واللاّحقة لنشأتها انشغال المسلمين عنها فيما نشب بين بعضهم البعض من صراعات؛ بدأت بصراع العرب والبربر، الذى ما كاد ينتهى بإخلاء البربر طواعية لمناطق استيطانهم فى إقليمى أشتوريس وجليقية، حتى حلت محله حروب ضارية بين العرب أنفسهم، ولم تنته هى الأخرى إلا ووجه المسلمون معظم نشاطاتهم الحربية إلى نواحى أخرى فى خارج إيبيريا أو فى داخلها، وعلى الأخص إلى إقليم سرقسطة Zaragoza، الذى عرف للمسلمين بالثغر الأعلى الأندلسى وفيما بعد باسم أراجون Aragon ، إذ كان على وشك أن يخرج من أيديهم بسبب تطلعات حكامه المستمرة إلى الاستقلال . وقد استنفدت تلك الجهود ـ فضلا عن غيرها ـ جل طاقات المسلمين وأتت عليها أو كادت، بحيث لم يصبح لديهم متسع من الوقت أو وفرة فى الجهد للاهتمام بأمر أشتوريس الاهتمام الكافى .

وفى الجانب المقابل، فلم تأل أشتوريس جهدا للفت من عضد المسلمين بكل ما وسعها ذلك من أساليب سرية وعلنية، فخاضت ضدهم حروبا مباشرة متعددة اعتبرتها حرب وجود لا حرب حدود، وعاونت ثوار المدن الأندلسية ذاتها ضدهم، وألبت عليهم عمال الثغور الأندلسية، فضلا عن محاولات حكامها المستميتة لفرض سيطرتهم على مراكز التجمعات المسيحية الأخرى فى منطقة الشمال الإيبيرى، مثل نبرة (نافار) Navarra بغرض إيجاد جبهة مسيحية ضد المسلمين داخل إيبيريا . كما وسعت نطاق الصراع ضدهم خارجها؛ فأقامت علاقات مع ملوك الفرنجة فى غالة للحصول على عونهم العسكرى، واتصلت بباباوات روما لإضفاء الشرعية الدينية على صراعهم السياسى ومباركته وطوعت الدين لخدمة هذا الهدف، واستخدمت رجال الدين لما لهم من تأثير على نفوس الرعية؛ وهى أساليب أضفت على هذا الصراع مسحة صليبية واضحة؛ ساعدت على اشتداد حدته وتنوع أشكاله بين الأندلس وأشتوريس، وكان الحظ فيه حليفا لأشتوريس .

وهنا نود التنويه إلى أن مملكة أشتوريس لم تكن المملكة المسيحية الوحيدة فى الشمال الإيبيرى، وإنما ظهرت بجانبها قوى مسيحية أخرى معاصرة لها، وأبرزها

قطلونية Cataluna فى أقصى شمال شرقى إيبيريا، ولكنها كانت خاضعة لنفوذ الفرنجة فى غالة، الذين اتخذوها قاعدة متقدمة لهم فى إيبيريا لتأمين بلادهم، ولمدافعة محاولات التقدم الإسلامى فيها . كما ظهرت إلى الوجود إمارة نبرة (نافار) Navarra فى أوائل القرن التاسع الميلادى، عند الطرف الجنوبى الغربى من جبال البرتات Pyrenaei ، ولكن بسبب استراتيجية موقعها كمعبر بين إيبيريا وغالة، فقد ظلت مجالا لتنافس القوى المحيطة بها من الفرنجة فى غالة، والمسلمين فى الأندلس، فضلاً عن ملوك أشتوريس، فانشغلت نبرة فى مدافعة مطامعهم . ومن ثم فلم يتهيأ لأى من قطلونية ونبرة أن تلعب دوراً يضاهى دور أشتوريس فى مقاومة المسلمين، واستأثرت أشتوريس وحدها فى الغالب بهذا العبء خلال تلك الفترة المبكرة .

ولذلك كانت حركة التمرد فى إقليم أشتوريس بشمالى إيبيريا، وما أعقبها من قيام مملكة فيه مستقلة عن النفوذ الإسلامى فى الأندلس، أول تعبير إسبانى مسيحى لإعاقة المسلمين على نطاق إيبيريا كلها، ويشكل فترة هامة وحرجة للغاية من تاريخ المسلمين فيها، إذ صارت أشتوريس على هذا النحو البؤرة التى انبثقت منها فكرة المقاومة الصليبية ضدهم، قبل أن تظهر فى غيرها من أقاليم إيبيريا، وتحملت وحدها الدور الأكبر فى بلورتها وتطويرها، فابتدأت بها أولى مراحل التقلص التدريجى البطىء للنفوذ الإسلامى فى إيبيريا، وهو تقلص تكفلت القوى المسيحية التى تلت مملكة أشتوريس بإتمام مراحله على صورة أشد وأقسى، وذلك فيما عرف بحركة الاسترداد La Reconquista التى انتهت بالفعل بإجلاء المسلمين عن آخر معاقلهم فى إيبيريا، واستعادة المسيحيين الإسبان السيطرة عليها كلية فى عام ١٤٩٢م (٨٩٧هـ)، أى بعد ما يقرب من ثمانية قرون على فتح المسلمين لها فى عام ٧١١م (٩٢هـ) .

ومع هذه الأهمية المتعددة الجوانب، فلا تزال المكتبة الأندلسية تفتقر إلى دراسة متكاملة تستجلى جوانب هذا الموضوع، وتكشف النقاب عن حقيقته وطبيعته، وتضعه فى إطاره الصحيح . ولا زالت أيضاً عوامل وظروف نشأة حركة التمرد المسيحى ضد المسلمين فى إقليم أشتوريس، والملابسات المحيطة ببداياتها وتطوراتها، وطبيعة موقف مسلمى الأندلس منها، ودورها الحقيقى فى مناوأتهم غير واضحة المعالم؛ وكل ما كتب عنها ورد فى ثنايا دراسات عامة عن تاريخ المسلمين فى الأندلس، واعتمد مؤلفوها فى الغالب على المصادر العربية وحدها من دون اللاتينية والإسبانية أو العكس، مما جعلها دراسات مبتورة تعبر عن وجهة نظر واحدة.

وأبرز ما يؤكد هذا القصور المزدوج، أن الدراسات العربية التى تناولت موضوع الحركة الصليبية الإسبانية ضد مسلمى الأندلس - خلال تلك الفترة المبكرة - قد

انحصرت حتى وقتنا الحاضر فى دراستين وحيدتين، إحداهما لباحث مصرى بعنوان : « العلاقات بين الممالك الإسلامية والنصرانية فى إسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى » [١]؛ وهى دراسة لم تخرج عن كونها نفس الخطوط العريضة العامة التى أوردها المؤرخون العرب الحديثون فى دراساتهم عن تاريخ المسلمين فى الأندلس، وذلك بسبب طول الفترة التى تعالجها الدراسة فهى تقارب خمسة قرون؛ وأيضاً بسبب تعدد الممالك المسيحية التى تعرضت الدراسة لمعالجة علاقاتها مع المسلمين فى الأندلس، فضلا عن أنها اقتصرت فى مصادرها الأصلية على المصادر العربية وحدها؛ مما يجعلها أصدق دليل على التعبير عن وجهة النظر العربية . وينسحب هذا القول على الدراسة الثانية، التى كان قد أعدها باحث عربى آخر [٢] عن نفس الموضوع، فى جامعة كمبردج Cambridge بانجلترا فى عام ١٩٦٦م، وإن اقتصر على دراسة الفترة بين عامى ١٣٨ - ٣٦٦هـ/ ٧٥٥ - ٩٧٦م . وبذلك فلم تكشف أى من هاتين الدراستين عن جديد يذكر فيما يتعلق بعلاقات المسلمين بتلك الحركة الصليبية الإسبانية المناوئة وهى فى مراحلها الأولية، كما لم تنجح فى إزالة الغموض الذى غلفها به المؤرخون المسلمون الأوائل أنفسهم، فبقيت حقيقة تلك الحركة الصليبية الإسبانية وتفاصيلها المتكاملة المترابطة إحدى علامات الاستفهام الكبيرة بين أوساط العرب المتخصصين فى تاريخ المسلمين بالأندلس .

أما الدراسات الأوربية فهى وإن أولت اهتماما أكبر لهذا الموضوع الشائك إلا أنها دراسات غير متكاملة، إذ انصبت بالأولى على إبراز جوانب معينة فيه . كما أن أغلبها - وعلى الأخص الدراسات الإسبانية - يتسم بالغلو فى تقييم حركة التمرد المبكرة ضد المسلمين فى إقليم أشتوريس، ثم فى دور مناهضة مملكة أشتوريس لهم؛ ويتصف

---

(١) أعدها رجب محمد عبد الحليم، للحصول على درجة الدكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

(٢) هو عبد الرحمن الحجى، وقد نشر فصول دراسته بالإنجليزية فى إحدى المجلات ثم ترجمها إلى العربية ونشرها كمقالات إما فى كتيبات أو مجلات عربية، فمثلا نشر فصلا بعنوان " Christian States in Northern Spain during the Umayyad period " فى مجلة : The Islamic Quarterly, London 1965, 9pp. 46 _ 55. وهو نفس الفصل الذى ترجمه إلى العربية ونشره ضمن المجموعة الثانية من كتيب : أندلسيات، ط١ ، بيروت ١٩٦٩م، ص ٣٩ - ٥٦ . كما نشر فصلا آخر بعنوان : " Relations Between the Andalusian Rebels and Christian Spain during the Umayyad period ". فى نفس المجلة السابقة . 94 _ 84 1, 10 pp. ثم ترجمه إلى العربية ونشره فى مجلة الأبحاث، التى تصدرها الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة ١٨ ، مارس ١٩٦٥م، ثم نشره مرة أخرى فى كتيب : أندلسيات، المجموعة الثانية السابق الإشارة إليها، ص ١٠٧ - ١٢٧ .

بطابع قومي متطرف وديني متعصب، بحيث اعتبرته مقاومة إسبانية قومية هي أمجد مراحل الكفاح الإسباني خلال تاريخ إيبيريا على مر العصور؛ وصورته على أنه صراع صرف بين الإسلام والمسيحية في تلك الفترة المبكرة . فضلا عن أنها أفسحت المجال لكثير من الأساطير الخارقة تأكيدا للتأييد الإلهي للإسبان في مقاومتهم لأعدائهم المسلمين؛ الأمر الذي أبعد هذا الدور عن طابعه الواقعي، وأوشكت معه أن تضيع معالمه في طيات تلك المغالاة المتعمدة .

وإزاء هذا التهويل الأوربي وذاك التحرج العربي، أصبح لزاما علينا - نحن العرب - أن نتخطى مرحلة التأمل الجامد القاصر على التغني بأمجاد وإنجازات أجدادنا، إلى مرحلة جديدة من التأمل الواعي في الجوانب المشرقة والكئيبة - على السواء - من تاريخ هؤلاء الأجداد؛ لنتعرف في صدق على أسرار كبواتهم وعثراتهم الماضية . وبهذا وحده تتوفر لنا الوسائل المطلوبة للانسجام مع حاضرنا والتغلب على مشكلاته، بما في ذلك من مقدرة على التصدي لمحاولات الأوربيين المغرضة التي تستهدف تزييف أو تشويه تاريخ أجدادنا .

وليس هناك من شك في أن دراسة تاريخ حركة المقاومة الإسبانية - وهي في حقيقتها حربا صليبية - منذ أن ظهرت بداياتها في أعقاب الفتح الإسلامي لإيبيريا إلى أن انتهت بإجلاء المسلمين عنها في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري، يعتبر أحد الموضوعات البارزة التي تكشف عن أسرار كثير من عثرات المسلمين في ماضيهم؛ وهي عثرات تتشابه معظم أسبابها وعناصرها وأشكالها مع تلك التي يعانيها أحفادهم في الوقت الحاضر، إذ ما أشبه اليوم بالبارحة .

وإذا كان من المسلم به أن تلك الحركة قد تكونت وأرسيت أصولها في إقليم أشتوريس الواقع في أقصى شمالي إيبيريا، خلال تلك الفترة القصيرة التي أعقبت الفتح الإسلامي، إلا أنها لم تعبر وقتذاك عن معارضة قوية واسعة النطاق للمسلمين هناك، إذ لم ينشأ لها كيان سياسي مستقل عن الكيان الأندلسي، وبالتالي فلم تشكل خطرا ملحوظا أو أن تتآمر ضد الوجود الإسلامي في تلك البلاد؛ ويؤيد ذلك أن المسلمين صرفوا نشاطهم وقتذاك إلى تنظيم الأندلس إداريا واقتصاديا، فضلاً عن متابعة جهادهم في غالة من بلاد الفرنجة .

أما منذ عام ٧٣٩م (١٢١هـ) فصاعدا فقد أخذ ساعد حركة المقاومة في إقليم أشتوريس في القوة والتطور، حينما اكتمل لها عناصر الدولة ومقوماتها، وظهر لها كيان سياسي عرف بمملكة أشتوريس كانت بدءا لمرحلة أخرى جديدة في تاريخ تلك

الحركة، إذ تبلورت أهدافها واتضحت مطامعها السياسية، وظلت هذه القوة المسيحية المناوئة تنتقل من طور إلى آخر حتى وضح ميل ميزان القوى لصالحها مع أوائل القرن الخامس الهجرى/ النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى، ثم انتهى الأمر بنجاحها فى استرداد كل أراضى إيبيريا من المسلمين مع أواخر القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى .

هذا وقد قسمنا دراسة الفترة التى يشغلها هذا البحث إلى تمهيد وأربعة أبواب، يحتوى التمهيد على مقدمة وتعريف بأهم المصادر والمراجع التى اعتمدنا عليها . أما الباب الأول وعنوانه : إقليم أشتوريس حتى الفتح الإسلامى فى عام ٧١٤م/ ٩٥هـ؛ فقد خصصناه للتعرف على تاريخ وحضارة إقليم أشتوريس باعتباره مهد حركة المقاومة، حيث ظهرت فيه قبل أن تظهر فى غيره من أقاليم إيبيريا . وانقسم هذا الباب إلى فصلين، أولهما بعنوان : أشتوريس قبل الفتح الإسلامى؛ ويختص بتحديد موقع إقليم أشتوريس بشبه جزيرة إيبيريا، وحدوده وأهم ملامح جغرافيته، والأجناس البشرية المختلفة المكونة لسكانه منذ القدم، وأثر الظروف الجغرافية والبيئية على تكوين طبائعهم وأنماط حياتهم وأنشطتهم، ثم من تعاقب على حكمهم من الرومان اللاتين والجرمان البرابرة حتى أواخر القرن الهجرى الأول/ أوائل الثامن الميلادى، وما تركوه من آثار واضحة على الإقليم وسكانه ميزت جوانب الحياة هناك بخصائص معينة عشية الفتح الإسلامى .

أما الفصل الثانى فهو بعنوان : الفتح الإسلامى لإقليم أشتوريس؛ واختص بدراسة تحليلية نقدية لتتبع وتحديد مدى ونوعية المقاومة التى اعترضت المسلمين فى أنحاء إيبيريا، لا سيما وأن الذين قاموا بهذه المقاومة قد التجأوا فيما بعد إلى إقليم أشتوريس، ولعبوا الدور الرئيسى فى التمهيد لظهور الحركة الصليبية فيه ضد المسلمين . ثم تحديد وقت وأسباب وأهداف فتح المسلمين لإقليم أشتوريس، وكيفية تقدمهم فى أراضيها، وتحليل حالة اللآجئين إليها وموقفهم من المسلمين أثناء فتحها، وهل اقتصر الفتح على بعض نواحيها أم شملها كلها، وهل كان بصلح أم عنوة، فضلا عن الأسس التى حددت العلاقة بين سكان أشتوريس وأولئك اللآجئين من ناحية وبين المسلمين من ناحية أخرى، وذلك حتى وقت وقوع التمرد فيها على المسلمين .

فى حين اشتمل الباب الثانى وهو بعنوان : المقاومة الإسبانية فى طور التكوين ٧١٤ - ٧٣٩م/ ٩٥ - ١٢١هـ، على ثلاثة فصول؛ تناول الفصل الأول وعنوانه : بلاجيوس وميلاد المقاومة فى إقليم أشتوريس، دراسة دقيقة مستفيضة لأصل ونسب بلاجيوس (بلاى) Pelagius القوطى، الذى نسبت الروايات اللآتينية إليه فضل قيادة

المقاومة الإسبانية ضد المسلمين فى إقليم أشتوريس، ومناقشة الآراء المختلفة التى نفت وجوده واعتبرته مجرد شخصية وهمية، أو التى خلطت بينه وبين شخصيات أخرى؛ ثم التعرف على نشأته وحياته قبل الفتح الإسلامى لإيبيريا، ودوره فى مقاومة المسلمين أثناء فتحهم أقاليمها، وعلاقته بهم بعدما فتحوا إقليم أشتوريس، والظروف والملابسات التى بلورت لديه فكرة التمرد عليهم، وأسلوبه فى إثارة سكان أشتوريس المسيحيين ضدهم ومدى تقبلهم لفكرته، وما تلا ذلك من وقائع وأحداث شكلت وجود حركة عصيان ذات ملامح معينة ضد المسلمين فى إقليم أشتوريس .

أما الفصل الثانى وعنوانه : تطور المقاومة ضد المسلمين فى أشتوريس حتى عام ٧٢٢م/ ١٠٣هـ؛ فتناول تحديد بداية وقائع تمرد سكان أشتوريس، والعوامل التى عاونتهم وأخذت بأيديهم وأدت إلى تطور حركتهم، مما أعطاها طابع ثورة حقيقية أحس المسلمون بخطرها، وجرت إلى صدام مسلح بين الطرفين . وقد نوقشت بداياته ووقائعه وتطوراته ونتائجه، بصورة أخرجته من حيز الصمت الذى التزمته الروايات الإسلامية من ناحية، وأبعدته عن الطابع الأسطورى الخيالى الذى أحاطته به الروايات اللاتينية من ناحية أخرى .

فى حين كان اهتمام الفصل الثالث وعنوانه : رد الفعل الإسلامى للمقاومة فى إقليم أشتوريس حتى عام ٧٣٩م/ ١٢١هـ، هو إبراز طبيعة العلاقة بين كل من المسلمين والمسيحيين الثائرين فى أشتوريس بعد أول صدام مسلح بينهما؛ وذلك من خلال دراسة أحوال ومشاغل كل من الطرفين، ومدى مساهمتها فى تشكيل سياسة كل منهما تجاه الآخر . فضلا عن دراسة تحليلية مدعمة بما أمكن الحصول عليه من نقوش ووثائق لسبرغور حصيلة هذا الصراع بالنسبة لمسيحيى أشتوريس، ونتائجه على أنماط حياتهم السياسية والدينية حتى عام ٧٣٩م/ ١٢١هـ .

أما الباب الثالث وهو بعنوان : فرض الوجود الإسبانى ورد الفعل الأندلسى ٧٣٩ ـ ٧٨٨م/ ١٢١ ـ ١٧٢هـ؛ ففيه فصلان الأول منهما بعنوان : قيام مملكة أشتوريس وتجرؤها على الأندلس ٧٣٩ ـ ٧٥٧م/ ١٢١ ـ ١٤٠هـ، وقد اختص بدراسة تحليلية لظروف نشأة مملكة أشتوريس كأول كيان سياسى مسيحى مستقل عن المسلمين فى إيبيريا، ومدى امتدادها فى الشمال الإيبيرى فى إقليم أشتوريس وما جاوره شرقا فى إقليم كنتبرية؛ وأحوال مسلمى الأندلس وقتذاك وانشغالهم بصراعاتهم وفتنهم الداخلية، وأثرها على موقف ولاة الأندلس من قيام هذه المملكة المناوئة، ومن محاولات أول ملوكها الدائبة فى استغلال مواطن الضعف فيهم لإبعاد خطرهم عنها، ونجاحه فى التغلب عليهم وفى القضاء على التواجد الإسلامى فيما يجاور مملكته غربا فى جليقية

وشرقا فى ألبة وجنوبا فى حوض نهر دويرة ، وأساليبه المرنة فى تقوية دولته الناشئة وتنمية طاقاتها البشرية والمادية، فضلا عن توفير الحماية اللازمة لأمنها على حدودها، حتى جعلها نواة صلبة تجرأت على المسلمين وأصبحت خطرا حقيقيا يهدد وجودهم فى شبه الجزيرة كلها .

فى حين اختص الفصل الثانى وعنوانه : الانتكاسة الإسبانية ومهادنة الأندلس ٧٥٧ ـ ٧٨٨م/ ١٤٠ ـ ١٧٢هـ، بدراسة مقارنة تفصيلية لأحوال كل من أشتوريس والأندلس خلال تلك الفترة؛ وأجواء الاضطرابات الداخلية من ثورات وحركات انفصال ومطامع فى السلطة وغيرها من المتاعب التى سيطرت على كل منهما؛ وأثرها فى ميل كل من القوتين إلى المهادنة بهدف التفرغ للقضاء على هذه المتاعب، ومن ثم إحلال السلم بينهما على مدى ربع قرن من الزمان؛ وتسابق كل منهما خلال تلك الفترة فى تدعيم جبهتها الداخلية وتقوية تحصينات دفاعاتها فى منطقة الحدود بينهما، استعدادا لجولات أخرى من الصراع؛ ونتائج ذلك فى الإحساس بعداء كل منهما للأخرى حتى أصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين حين وآخر .

أما الباب الرابع والأخير من هذه الدراسة بعنوان : الصحوة الإسبانية واشتداد الضغط على الأندلس ٧٨٨ ـ ٩١٠م/ ١٧٢ ـ ٢٩٧هـ فيشمل هو الآخر فصلين، أولهما بعنوان : مرونة أشتوريس وصمودها للضغط الأندلسى ٧٨٨ ـ ٨٥٢م/ ١٧٢ ـ ٢٣٨هـ، فقد تقصى فى إسهاب عوامل وظروف تجدد الصراع بين الدولتين خلال تلك الفترة، والأساليب المختلفة التى انتهجتها كل منهما لمواجهة الآخر . فعرض لسياسة الأندلس فى إضعاف قوة أشتوريس وتشتيت جهودها، ونجاح المسلمين بادىء الأمر فى تقليص مساحة أشتوريس على الجبهة الشرقية، ورد فعل الأخيرة للتصدى لهذا الضغط الإسلامى؛ كتأييدها للحركات الانفصالية داخل الأندلس، وتكوينها تحالفات مع غيرها من القوى المسيحية سواء فى داخل الأندلس أو فى خارجها، مما أدى إلى استمرار الصراع بين القوتين على مدى ستين عاما دون هوادة،؛ تبادلا خلاله النصر والهزيمة، وإن كان اتساع جبهة الصراع أمام مسلمى الأندلس، بتعدد خصومهم فى الداخل وفى الخارج فضلا عن متاعبهم الداخلية، قد أمال ميزان القوى لصالح أشتوريس فاستعادت منهم ما كانوا قد انتزعوه منها من قبل، وأنهكت قواهم بطريقة أعجزتهم عن النيل منها، بحيث انطبعت حملاتهم إليها بطابع الإغارة لمجرد إبعاد مطامعها عن الأندلس .

أما الفصل الثانى فهو بعنوان : تمزق وحدة الأندلس وتفوق أشتوريس ٨٥٢ ـ ٩١٠م/ ٢٣٨ ـ ٢٩٧هـ؛ فقد تناول تطور علاقات الدولتين على مدى نحو ستين عاما

أخرى انتهت بتقسيم مملكة أشتوريس إلى عدة ممالك مسيحية؛ بدأت بها مرحلة جديدة فى تاريخ الحركة الصليبية الإسبانية . وعرض فى تفصيل واف لعوامل اشتداد الصراع بينهما ومراحل تطوره، وانتهاج أشتوريس فيه سياسة مطورة نقلت بها ولأول مرة مسرح العمليات ـربية مع مسلمى الأندلس إلى داخل الأراضى الأندلسية ذاتها، فضلا عن حرصها الشديد على تكوين التحالفات ضد المسلمين مع غيرها من القوى المسيحية وحتى الإسلامية فى داخل الأندلس وفى خارجها؛ ورد الفعل الأندلسى بتوجيه الحملات الانتقامية التأديبية لأشتوريس، ثم توقف الجهاد الإسلامى ضدها تحت ضغط الهزات السياسية والاقتصادية العنيفة التى تعرض لها مسلمو الأندلس، واستغلال أشتوريس تلك الفرصة للضغط عليهم فى غارات تخريبية دون رادع، حتى صار لها اليد الطولى على المسلمين؛ ووصلت بحدودها الفعلية إلى شاطىء نهر دويرة الشمالى، الذى نقلت ثغورها على امتداد مجراه، فاتسعت مساحتها اتساعاً كبيراً اقتضى تقسيمها فى عام ٩١٠م/ ٢٩٧هـ إلى عدة ممالك بدأت بها مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الأندلس فى الجنوب وهذه الممالك الإسبانية فى الشمال .

وأخيراً، فقد اختتم البحث بخاتمة تبرز أهم النتائج التى ترتبت عليه، ومنها خضوع أشتوريس للمسلمين منذ فتحهم لها فى أواخر عام ٧١٤م/ ٩٥هـ، وإن تميزت أشتوريس دون غيرها من أقاليم إيبيريا بأن شهدت أطرافها الشرقية وقوع أول تمرد على المسلمين بعد سنوات قليلة من فتحها، وهو وإن لم يكن من صنع سكان أشتوريس الأصليين بقدر ما بدأته العناصر القوطية الجرمانية اللاّجئة بينهم، فإنه أدى إلى أول هزيمة عسكرية حلت بالمسلمين على الأرض الإسبانية فى عام ٧٢٢م/ ١٠٣هـ، فقدوا معها وإلى الأبد الجزء الشرقى الجبلى من أشتوريس، الذى عرف عند المسلمين بصخرة بلاى أو الصخرة فقط، التى صارت بؤرة تمركزت فيها العناصر المناوئة للمسلمين، وهو ما هيأها لأن تكون أول قوة إسبانية مسيحية ذات كيان سياسى مستقل عن المسلمين فى الأندلس، وقامت بالعبء الأكبر فى مناوأتهم ومناهضتهم، فأثبتت وجودها فى شبه الجزيرة كقوة منعزلة عنهم؛ ثم زاحمتهم فيما يسيطرون عليه من أراضى غلبتهم على كثير منها، فمهدت الطريق لما خلفها من قوى إسبانية مسيحية أخرى لتقرير أحقيتها وحدها فى الحياة وفى السيطرة على شبه الجزيرة كلها من دونهم، إلى أن تمكنت تلك القوى من إخراج المسلمين جملة فيما بعد من شبه الجزيرة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

وانتهز الفرصة لأقدم الشكر إلى كل من عاوننى فى تلك الدراسة وهم كثيرون، وأخص المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد أستاذ التاريخ الإسلامى بآداب عين

شمس، والأستاذ الدكتور إسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بنفس الكلية، والمرحوم الأستاذ الدكتور بتلر L. Butler أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية رويال هولواى Royal Holloway College إحدى جامعات لندن، والأستاذ الدكتور ساندرسون N. Sanderson الأستاذ بنفس الكلية، والأستاذ الدكتور هارفى L. P. Harvey أستاذ ورئيس قسم الدراسات الإسبانية بكلية كنجس King's College بجامعة لندن؛ والعاملين بمكتبات انجلترا وإسبانيا، لا سيما مكتبة المتحف البريطانى The British Museum Library ، ومكتبة لندن London Library ، ومكتبة مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية The School of Oriental and African Studies Library ، ومكتبة البودليان The Boudlian Library بأكسفورد، والمكتبة الأهلية بمدريد La Biblioteca Nacional ، ومكتبة المجمع الملكى للتاريخ La Biblioteca de la Real Academia de la Historia ، ومكتبة المجلس الأعلى للأبحاث العلمية La Biblioteca del Consejo Superior de Investigaciones Cientificas ، ومكتبة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد La Biblioteca del Instituto de Estudios Islamicos ، ومكتبة المعهد الإسبانى للثقافة العربية La Biblioteca del Instituto Hispano - Arabe de Cultura ، وأرشيف مدينة سيمانكس El Archivo de Simancas ، إلى كل هؤلاء وغيرهم كثير أكرر خالص شكرى وتقديرى وامتنانى .

وأرجو أن أكون بهذه الدراسة المتواضعة قد أسهمت فى كشف النقاب عن فترة هامة من تاريخ المسلمين فى الأندلس، وعرضت لمرحلة دقيقة من مراحل حركة المقاومة الإسبانية وهى فى طور تكوينها؛ وهى الحركة التى مهدت منذ ذلك الحين فصاعدا للحروب الصليبية فى الأندلس فيما عرف بحركة الاسترداد الإسبانية La Reconquista .

مصر الجديدة

يوليو ٢٠٠١م

والله ولى التوفيق



ثانيا: تعريف بأهم المصادر والمراجع

المصادر الأولية : الوثائق والنقوش والآثار – المصادر العربية : تاريخية – وجغرافية – وتراجم وأدب وأنساب – المصادر اللاتينية والإسبانية – أهم المراجع الأوربية والعربية .



اعتمدنا في هذه الدراسة على كل ما أمكن الحصول عليه من مصادر ومراجع كتابية متنوعة عربية وأوربية، فضلاً عما توفر من مصادر غير كتابية لها أهميتها الخاصة فى البحث التاريخى . وتأتى الوثائق فى مقدمتها، ونصنف ما توفر لنا منها إلى نوعين :

النوع الأول، هو الوثائق اللاتينية الصادرة فى أشتوريس [١] قبيل وبعد قيام مملكة مستقلة فيها، وهى وثائق تحمل توقيعات من أصدرها من الملوك أو غيرهم من الشخصيات السياسية أو الدينية . وقد عثر على أصول هذه الوثائق فى أرشيفات الكنائس والأديرة، مع أنه قد اختص بإصدارها وحفظها ديوان خاص فى أشتوريس - مثلما تصدر الوثائق عادة - حيث ظهرت فيها وظيفة الكاتب الملكى Notarius Regis لصياغتها وحفظها [٢] .

ولدينا العديد من هذا النوع من الوثائق التى احتوت على إشارات ومعلومات أفادتنا فى تقرير بعض الحقائق الهامة؛ كتحديد وقت بدء التمرد على المسلمين فى أشتوريس بعد احتلالها، وأعداد الجيش الإسلامى الذى أنيطت إليه مهمة إخماده، وحقيقة أوضاع المتمردين السياسية بعد أول صدام عسكرى لهم مع المسلمين .

كذلك فتعكس هذه الوثائق طبيعة روح العصر الدينية، إذ تتعلق فى معظمها بتأسيس كنائس وأديرة فى أشتوريس، أو بما منحه ملوكها لها من عطايا وهبات

---

(١) جمع أنطونيو فلوريانو Antonio Floriano معظم هذه الوثائق، مع دراسة تحقيقية لكل وثيقة من حيث تاريخها والأسماء الواردة فيها، ورأيه فى الزائف منها والحقيقى، وذلك فى كتاب له من جزأين بعنوان : Deplomatica Espanola del Periodo Astur, 2t, Oviedo 1949-51 . كما قام براو ديهجو Barrau Dihigo بدراسة بعض تلك الوثائق دراسة تحقيقية أيضاً فى مقاله بعنوان : " Etude sur les Actes de Rois Asturiens ", R. Hisp. 1919, 46 ppI-191 . ثم قام بلدا Belda بجمع العديد منها فى كتابه: Documentos Reales de la Edad Media Referentes a Galicia, Madrid 1953 ؛ هذا فضلا عن الوثائق العديدة المنشورة فى مجلة CHE التى تصدر فى بوينس أيرس Buenos - Aires ، وعلى الأخص الأجزاء ١ - ٢ ، ٤ ، ١٠ ، وكذلك الوثائق التى نشرت ذيلا على بعض الكتابات لا سيما المجموعة المسماة Espana Sagrada ، التى بدأ بإصدارها فلوريث H. Florez فى مدينة مدريد Madrid فى عام ١٧٤٧م واستكملها من بعده ريسكو M Risco وآخرون حتى بلغت ستة وخمسين مجلدا فى عام ١٩٥٧م، وتوجد فيها وثائق هامة فى الأجزاء ١٦ ، ١٩ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ على الخصوص؛ وهذه المجموعة عبارة عن منجم غزير للمعلومات عن تاريخ الكنيسة الإسبانية، على غرار المجموعة المسماة : Gallia Christiana بالنسبة لتاريخ فرنسا؛ كما نشرت فيها أيضاً معظم المدونات التاريخية المتعلقة بتاريخ إسبانيا على ما سيأتى ذكره .

(٢) أنظر : Suarez Fernandez, Historia de Espana, Madrid 1970, p. 31 .

وامتيازات، أو بتبديل تبعية بعض الكنائس من أسقفية لأخرى حسب الاتساع التدريجي لمساحة أشتوريس على حساب الأندلس؛ أو بتأسيس مدن وحصون جديدة فيها صار لها شأنها في تاريخ أشتوريس، أو مراكز دفاعية ضد الهجوم الإسلامي. كما تظهر تلك الوثائق سمو مكانة الرهبان ورجال الدين في أشتوريس، ودورهم في تعمير الأراضي القريبة من الحدود الفاصلة بين أشتوريس والأندلس، وسياسة ملوك أشتوريس في تشجيعهم على المضي في هذا الاتجاه أو في مناهضة المسلمين . ومن ثم فإن تلك الوثائق تزيح الستار عن خصائص هامة للحياة العسكرية والدينية وحتى الاقتصادية والاجتماعية في أشتوريس وقتذاك . هذا فضلا عن بعض المراسلات بين ملوك أشتوريس والبابوية، يظهر منها مدى تحفيز البابوية لأشتوريس في مناهضة المسلمين .

أما النوع الثاني من الوثائق فهو الوثائق العربية الصادرة في الأندلس، ومن أسف فلم يصلنا منها سوى وثيقة عربية فريدة [1] ، هي عهد أمان أحد أمراء الأندلس إلى « أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان »، وكانت قشتالة وقتذاك إحدى مناطق السيطرة الأشتورية . وفيما عدا ذلك فلا وجود لأي وثيقة عربية أخرى تتعلق بعلاقات أشتوريس والأندلس .

ولا تقل النقوش الكتابية والآثار المادية [2] عن قيمة الوثائق في البحث التاريخي إذ هي مصادر غير عادية؛ وما توفر منها عن أشتوريس يؤكد بعض الحقائق التي اختلفت حولها الآراء ولم تكن قد استقرت بعد . ومن النقوش لدينا العديد الذي يوجد على شواهد قبور ملوك أشتوريس وزوجاتهم، أو على أحجار تأسيس المباني العامة وبخاصة الكنائس . أما ما توفر من الآثار فهو الآخر كثير وإن اقتصر على كنائس لا زال بعضها قائما حتى وقتنا الحاضر، فضلا عن بعض الصلبان المصنوعة من الذهب الخالص المطعم بالأحجار الكريمة، وتحتوي على نقوش كتابية .

ولعل وفرة تلك الآثار الفنية والمعمارية الدينية لتبين حالة الفن المعماري والزخرفي في أشتوريس منذ أن صارت مملكة، ومدى ما اصطبغت به من طابع ديني، وما بلغته أشتوريس من قوة مادية وروحية مكنتها من مناوأة المسلمين، إذ

(١) أوردها : Casiri, Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis, Matriti 1770, 2p . 104 .

(٢) جمع بعض المؤرخين والأثريين تلك النقوش، ومن أهمهم :

- Hubner : Inscriptiones Hispaniae Christianae, Berolini 1871

Supplementum, Berolini 1900 .

- Vigil : Asturias Monumental, Epigrafica y Deplomatica, 2 Vols, Oviedo 1887 .

هذا فضلاً عن بعض النقوش التي وردت في ثنايا بعض المصادر وسنشير إليها في حينها .

الآثار - حسبما لاحظ ابن خلدون [١] - « إنما تحدث عن القوة التى بها كانت - الدولة - أولا، وعلى قدرها يكون الأثر » .

أما المسكوكات، فعلى الرغم من أن أشتوريس قد صارت كيانا سياسيا مستقلا عن الأندلس منذ عام ٧٣٩م/ ١٢١هـ، فإنها لم تتخذ لنفسها عملة خاصة بها، وربما يرجع ذلك إلى أنها اكتفت باستخدام العملات الرومانية والقوطية [٢] أو حتى الإسلامية [٣] . ومع ذلك فلم يصلنا منها عملة يكون قد عثر عليها فى أشتوريس أو تشير إليها خلال فترة الدراسة .

وفيما عدا تلك المصادر الأولية، تأتى المصادر التاريخية الإسلامية الأندلسية وهى التى عاش مؤلفوها إما فى الأندلس ذاتها، وإما فى شمالى أفريقيا قريبا منها وكانوا على اتصال بها، ولذلك كانوا على معرفة بأحوال الأندلس وأخبارها أكثر من غيرهم من المؤرخين المشارقة . وتتميز تلك المصادر الأندلسية بانفرادها بمعلومات عن تاريخ المسلمين فى الأندلس بنسب تتفاوت إيجازا وإطنابا فيما بينها، ولفترات قد تطول أو تقصر بحسب وقت كتابة كل منها؛ فزودتنا بروايات متنوعة عاونتنا على رسم صورة شبه وافية لكيفية فتح المسلمين إيبيريا، وتتبع فلول المقاومة القوطية أثناء تقدمهم بالبلاد، ثم طبيعة الحكم الإسلامى فيها، وتفهم مهام المسلمين ومشاغلهم فى داخل الأندلس وفى غالة من بلاد الفرنجة .

ومن الجدير بالذكر أن معظم مؤرخى الأندلس حتى أواخر القرن الرابع الهجرى (١٠م) قد نظروا إلى تاريخ الأندلس من وجهة نظر واحدة، إذ كانوا موالى بنى أمية؛ مما جعلهم - كمؤرخين للبلاط الأموى فى الأندلس - يهتمون فى الغالب بتاريخ ولاتهم وأمرائهم وسيرتهم الذاتية، أى تاريخ الأسرة الحاكمة؛ فصارت كتابات معظمهم كسجلات عائلية، أهملت أحداثاً حيوية فى تشكيل التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى، بحيث يصعب فهم الإطار العام للحقيقة التاريخية من هذه الكتابات إلا فيما بين نوع من الضباب .

أما بالنسبة لإقليم أشتوريس الذى ظهرت فيه بوادر المقاومة ضد المسلمين، فلم يركز المؤرخون الأندلسيون وقتذاك على كيفية فتح المسلمين له، أو طبيعة حكمهم

---

(١) المقدمة، دار التحرير ١٣٨٦هـ، ص ١٥٣ .

(٢) Altamira, " The Western Caliphate ", Camb. Med. Hist. 1936, 3p 441 .

(٣) Vives, Approaches to the History of Spain, London 1970, p 36 ؛ الخربوطلى، العرب فى أوربا، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م، ص ١٢٥ .

فيه بصورة تتكافأ مع ما ذكرته عن بقية أقاليم إيبيريا، وما أورده بعض هؤلاء المؤرخين لا يعدو أن يكون إشارات متفرقة مقتضبة مضغوطة، زاد في غموضها اعتبار مؤلفيها إقليم أشتوريس جزءا من إقليم جليقية المجاور له غربيا؛ فجاء الحديث عنهما عاما دونما تخصيص لأشتوريس أو حتى ذكر لها في معظم الأحيان.

كذلك فإن المطلع على المصادر الأندلسية خلال تلك الفترة يظهر له أن مؤلفيها لم يتتبعوا بدايات حركة النشاط المسيحي المضاد للمسلمين في إقليم أشتوريس، في السنوات التالية مباشرة لفتح المسلمين إيبيريا واستقرارهم فيها؛ واقتصروا في كتاباتهم على مجرد فقرة واحدة عنها، لا تقوم وحدها إلا لتحديد جزئية معينة خاصة بأشتوريس، مما جعل هذه الحركة تبدو في رواياتهم وكأنها مجرد أمر غير مرئي، أو حتى مسألة خلفية جانبية لم يتوقعوا لها نجاحاً أو توفيقاً، فأهملوها تقليلا من شأنها واحتقاراً، وأشاروا إلى ذلك قائلين : « ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم » [1] .

ولا يعني ذلك أن كل مؤرخي تلك الفترة قد كرسوا جهدهم للتأريخ للمسلمين في الأندلس فقط، وإنما تناول بعضهم حركة النشاط المسيحي المضاد؛ بيد أن ما يتعلق ببداياته وأصوله وتطوراته في مراحله الأولى قد فقد، وما حفظته بعض الكتابات المتأخرة فهو قليل لا يفي وحده لتتبعه ورسم إطار له في تلك الفترة المبكرة.

أما العصر الذهبي للتأريخ في الأندلس فيبدأ منذ القرن الخامس الهجري (١١م) فصاعدا، واهتم مؤرخوه بالكتابة عن كل أو معظم جوانب الحياة في الأندلس، كما تتبعوا علاقاتها مع إسبانيا المسيحية، فألقوا الضوء على بعض مشاكل الأخيرة ومصاعبها الداخلية التي أثرت على طبيعة علاقاتها مع الأندلس . بل إن بعض هؤلاء المؤرخين الأندلسيين كابن الخطيب [2] وابن خلدون [3] ؛ وبعض المؤرخين المشارقة كالقلقشندي [4] ، قد اهتم بالتأريخ لدويلات إسبانيا المسيحية بما فيها أشتوريس، بأن أفردوا لها في كتاباتهم فصولا قائمة بذاتها، وإن كان جل اهتمامهم

---

(١) أنظر : أخبار مجموعة، تحقيق لافونتي إي الكانترا Lafuente y Alcantura كأول مجموعة Coleccion : de Obras Arabigas de Historia y Geografia، مجريط ١٨٦٧م، ص ٢٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب، نشر ليفي بروفنسال وكولان، بيروت، ٢ ص ٢٩؛ المقري، نفح الطيب، القاهرة ١٣٦٧ هـ، ٤ ص ١٥ - ١٦؛ ٦ ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) أنظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق ليفي بروفنسال Lévi - Provencal ، بيروت ١٩٥٦م، ٢ ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٣) أنظر : العبر، بيروت ١٩٦٨م، ٤ ص ٣٨٥ وما بعدها .

(٤) أنظر : صبح الأعشى، القاهرة ١٩١٣م، الجزء الخامس على الخصوص .

فيها قد انصب على ذكر تتابع حكامها ومدة حكم كل منهم، فهذا لا يقلل من قيمتها لموضوع الدراسة، حيث تحتوى على معلومات تاريخية هامة ومفيدة .

وأقدم ما وصلنا من الكتب الأندلسية كتاب بعنوان طويل يبدأ بعبارة : « مبتدأ خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها ... » [١] ، الذى ينسب تارة إلى فقيه الأندلس وعالمها وأقدم مؤرخيها [٢] عبد الملك بن حبيب [٣] (١٧٤ ـ ٢٣٨هـ/ ٧٩٠ ـ ٨٥٣م)، وتارة ينسب كله أو بعضه إلى أحد تلامذته ابن أبى الرقاع [٤] ، خاصة وأن رواية الكتاب تصل إلى أحداث عام ٢٧٥هـ/٨٨٩م، أى بعد وفاة ابن حبيب نفسه بنحو سبع وثلاثين عاماً .

ويدل عنوان الكتاب على أن مؤلفه خصصه لقصة أولية خلق الدنيا، وسير الأنبياء حتى الرسول ﷺ، ثم تاريخ الخلفاء بعده حتى عصر المؤلف، وما قدر الله فى علمه لهذه الدنيا من العمر، وما مضى منه وما تبقى حتى قيام الساعة، ثم يختتمه بفصول فى الفقه والأخلاق والآداب وطائفة من الأشعار، وطرفاً من أخبار قضاة الأندلس؛ وباختصار فالكتاب تناول التاريخ العام كمقدمة لتاريخ الأندلس [٥] الذى لم يتوسع فيه المؤلف كثيراً [٦] .

ولا زال الكتاب مخطوطا ومحفوظا فى مكتبة البودليان بجامعة أكسفورد تحت رقم Marsh 288 ، ولم ينشر منه سوى القسم الخاص بالأندلس بتحقيق الدكتور

---

(١) أنظر : بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة حسين مؤنس، ط١، القاهرة ١٩٥٥م، ف ٦٢ ص ١٩٤ .

(٢) أنظر : ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، دار المعارف مصر ١٩٥٥م، ٢ ص ٩٦؛ المقرى، نفح الطيب، القاهرة ١٩٤٩م، ٢ ص ٢١٥؛ سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، دار المعارف ١٩٦٥م، ص ١٩٤؛ بويكا، المصادر التاريخية، ترجمة نايف أبو كرم، دمشق ١٩٩٩م، ص ٤٦ وما بعدها .

(٣) عنه بتفصيل، أنظر : ابن خاقان، مطمح الأنفس، قسطنطينية ١٣٠٢هـ، ص ٣٦؛ ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م، ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٢؛ الضبى، بغية الملتمس، مجريط ١٨٨٤م، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، دار المعارف مصر ١٩٦٢م، ٣ ص ٨٦، بالنثيا، نفسه، ف ٦٢ ص ١٩٣ ـ ١٩٤؛ بويكا، المصادر التاريخية العربية فى الأندلس، ترجمة نايف أبو كرم، ط ١، دمشق ١٩٩٩م ، ص ٤٦ وما بعدها Pons Boigues, Los Historiadores y Geografos Arabigo - Espanoles, Amesterdam 1972, pp. 29 - 30 .

(٤) عنه أنظر: Sanchez Albornoz, En Torno a los Origénes del Fuedalismo, Buenos - Aires: 1977, 2 pp 80 - 85; Dozy, Recherches, Paris - Leyde 1881, Ip 28 .

(٥) أنظر : M. Makki, " Egipto y la Historiografia, " RIEIM Madrid 1957, 5 p. 192 . ، وعن محتويات الكتاب بتفصيل أنظر : بالنثيا، نفسه، ف ٦٢ ص ١٩٤ ـ ١٩٥؛ بويكا، نفسه، ص ٤٦ .

(٦) لطفى عبد البديع، الإسلام فى إسبانيا، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٦٧؛ بويكا، نفسه، ص ٤٦؛ Dozy, Introducion a la Histoire de L' Afrique de Ibn - Adhari, Leiden 1848, p. 13 .

محمود مكى، الذى نشره بنصه العربى بعنوان : « باب استفتاح الأندلس » فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٧م، المجلد الخامس، عدد ١ ـ ٢، صفحات ٢٢١ ـ ٢٤٨، كملحق على مقال له بالإسبانية عن مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى [١] .

وتناول المؤلف فى هذا القسم قصة فتح الأندلس ومن دخلها من التابعين، وما يتواتر من أخبار بلدانها، وتتابع حكامها حتى بداية عصر الأمير عبد الله بن محمد فى عام ٢٧٥هـ/٨٨٩م .

ورغم ما أثير عن ضآلة القيمة التاريخية للكتاب بصفة عامة، لما يحويه من أساطير وقصص اعتمدت على الرواية الشفهية [٢] ، فهذا لا ينسحب كثيراً على روايته عن تاريخ الأندلس، لأن المؤلف عاصر معظم أحداثها فيما بين مولده عام ١٧٤هـ/ ٧٩٠م ووفاته عام ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م؛ فى حين استقى معلوماته السابقة على ذلك ـ وهى لا تبعد كثيرا عن عصره ـ مما تواتر بين الأندلسيين أنفسهم وهو منهم؛ أما ما تلى وفاته من أحداث وحتى اعتلاء عبد الله إمارة الأندلس فهى من تصنيف أحد تلامذته ممن عاصروا ولا شك أحداثها، وهو ما يجعل للكتاب ثقلا تاريخياً لموضوع الدراسة .

أما ثانى المؤرخين الأندلسيين فهو أحمد بن محمد بن موسى الرازى [٣] (٢٧٤ ـ ٣٤٤هـ/ ٨٨٩ ـ ٩٥٥م)، الملقب بعالم الأخبار وبالتأريخى لكثرة تآليفه التاريخية وحتى الجغرافية، بحيث تنسب إليه أعمال عديدة هامة عن تاريخ الأندلس وجغرافيتها [٤] ؛ مفقودة كلها ـ من أسف حتى وقتنا الحاضر ـ ومن بينها النص العربى لكتاب : « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم » الذى كان

---

(١) عنوانه : Egipto y los Origénes de la Historiografia Arabigo - Espanola, RIEIM, Madrid 1957, 5 pp 157 - 248 .

(٢) بروكلمان، تاريخ الأدب، ٣ ص ٨٧؛ سعد زغلول، نفسه، ص ١٩٤؛ بالنثيا، نفسه، ف ٦٢ ص ١٩٥؛ Dozy, Recherches, Ipp 28 - 34

(٣) عنه أنظر : ابن الفرضى، نفسه، ١ ص ٤٢؛ الضبى، نفسه، رقم ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ص ١٤٠؛ بوريكا، نفسه، ص ١٠١ وما بعدها؛ Casiri, BAHE, 2 p 330; Pons - Boigues, op cit, p 62; Sanchez Alonso, Historia de la Historiografia Espanola, Madrid 1941, 1p167 .

(٤) عن هذه الأعمال راجع : الحميدى، جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، القاهرة ١٩٥٢م، ص ١٩٧؛ الضبى، نفسه، رقم ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ص ١٤٠؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، ٣ ص ٨٧؛ بالنثيا، نفسه، ف ٦٣ ص ١٩٧؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، مدريد ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م ، ص ٥٦ وما بعدها؛ ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود مكى، بيروت ١٩٧٣م، ص ٥٨١ ـ ٥٨٢ .

موضوعه الرئيسى التأريخ للأندلس منذ الفتح الإسلامى فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م حتى عصر مؤلفه، أى حتى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى/ منتصف العاشر الميلادى .

وهذا الكتاب ترجم قبل فقده إلى اللغة البرتغالية فى عام ١٣٠٠م، أى خلال عهد الملك البرتغالى دون ديونيسيو Don Dionisio (١٢٧٩ - ١٣٢٥م)، وقام بهذه الترجمة الراهب خيل بيريث Gil Pérez مع بعض العرب الذين يدعى أحدهم العريف محمد [١]؛ وهى الترجمة التى استفاد منها مؤرخ برتغالى آخر مجهول الاسم فى عام ١٣٤٤م، وضمنها كتابا له عن تاريخ إسبانيا العام، وظل هذا الكتاب بدوره مخطوطا حتى قام العالم البرتغالى لويس فيليب لندلى سنترا Luis Filipe Lindley Cintra بتحقيقه ونشره كاملا بعنوان:
La Cronica Geral de Espanha de 1344, APH,Lisboa,2 tomos, 1954, 1961, وجاء النص البرتغالى لكتاب الرازى بالجزء الأول منهما فى الصفحات٣٩ - ٣٧٨ .

وأخيرا عثر كل من دييجو كتلان Diego Catalan وماريا سوليداد دى أندريس Maria Soledad de Andrés على ترجمة إسبانية لهذا النص البرتغالى فحققا ما يتعلق منه بكتاب الرازى فقط؛ ونشراه بعنوان : La Cronica del Moro Rasis, Version del Ajbar MulukAL - Andalus de Ahmad Ibn Muhammad Ibn Musa AL - Razi 889 - 955, Romanzada para el Rey Don Dionis de Portugal Haci 1300 por Mohamed Alarif, y Gil Pérez Clérigo de don Perianes Porcel, FCHE, t3, Madrid 1974 .

ويتضمن كتاب الرازى ثلاثة أقسام رئيسية هى :

١ - مقدمة طويلة تشمل وصفا جغرافيا لإيبيريا وحدودها حتى عصر المؤلف، وهى المقدمة التى حققها المؤرخ دى جايانجوس P. de Gayangos ونشرها بالإسبانية كملحق أول (صفحات ٣٣- ٦٣) على مقاله بعنوان:
La Cronica del Moro Rasis, MRAH, Madrid 1850, 8 pp 5 - 100
وهى ذات القطعة التى ترجمها المؤرخ ليفى بروفنسال Lévi - Provençal من النص البرتغالى إلى الفرنسية، ونشرها مع تعليقات وافية، بعنوان : La Discription

---

(١) أنظر : Ballester, Las Fuentes Narrativas de la Historia de Espana, Mallorca 1908, pp 68 - 69; Dozy, Introducion,p 24؛ السيد سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الاسكندرية ١٩٨١م، ص ١١١ - ١١٢ .

de L' Espagne d' Ahmad AL-Razi, Essai de Reconstitution de L' Original Arab et Traduction Française, AL _ Andalus, 1953, t 18 pp 108_51 ; ونظراً لدقة ما ورد فى هذه القطعة من معلومات جغرافية عن وصف إسبانيا، صارت موضوع دراسة لبعض المستشرقين مثل كلمنسين دييجو Clemencin Diego ، الذى تناول تحليل معلوماتها وتقييمها فى مقاله : Examen y Juicio de la Descripcion Geografica de Espana Atribuida al Moro Rasis, MRAH, 1832, t 7 pp 237 - 248 .

٢ - مختصر لتاريخ إيبيريا منذ القديم حتى عشية الفتح الإسلامى؛ وهو الذى حقق المؤرخ الإسبانى إدوارد سابدرا E.Saavedra قطعة منه تتعلق بتاريخ ملوك القوط الأواخر منذ واميا Wamba حتى الفتح الإسلامى، ونشرها مترجمة إلى الإسبانية كملحق (صفحات ١٤٥ - ١٥٤) على كتابه : Estudio sobre la Invasion de los Arabes en Espana , Madrid 1892 . ثم نشرها المؤرخ سانشيث البورنوث Sanchez Albornoz بالإسبانية أيضاً، لكن مع زيادة فى أولها للفترة السابقة على عهد الملك رامبا، فى الوقت الذى حذف فى آخرها ما يتعلق بالفتح الإسلامى حتى مقتل آخر ملك قوطى؛ وذلك ملحقة على مقاله بعنوان : La Cronica del Moro Rasis y La Continuatio Hispana, An. Uni. Madrid, 1934, t 3 pp 229 - 265 . ؛ ثم أعاد نشرها (صفحات ٢٦٧ - ٣٠٢) ضمن كتابه : Investigaciones sobre la Historiografia Hispana Medieval (Siglos 8 al 12), Buenos - Aires 1967 .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن دى جاينجوس De Gayangos ينفى نسبة هذا القسم من تاريخ إيبيريا إلى الرازى، ويعتقد أنه من وضع المترجم البرتغالى خيل بيريث Gil Pérez [١] ، إلا أن هذا الاعتقاد يلقى معارضة جمهرة المؤرخين الحديثين [٢] .

٣ - تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى حتى عصر المؤلف، وهو القسم الذى ترجمه إلى الإسبانية أيضا دى جاينجوس، ونشره كملحق ثانى على مقالته السابقة الذكر، صفحات ٦٤ - ١٠٠ .

وعلى هذا النحو فكتاب الرازى يعتبر أول تاريخ عام بالعربية يعالج تاريخ وجغرافية إيبيريا منذ فجر التاريخ حتى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى،

---

(١) La Cronica del Moro Rasis, MRAH, Madrid 1850, 8 pp 8 - 11 .

(٢) أمثال : Saavedra, Estudio, Madrid 1892, p. 9; Sanchez Albornoz, Adiciones al Estudio de la Cronica del Moro Rasis, Madrid 1978, p 37 sqq.

وبالتالى فلا يستغنى عنه أى باحث فى تاريخ إيبيريا وجغرافيتها خلال تلك الفترة؛ بحيث يقدره مؤرخو إسبانيا الحديثين ويضعونه على قمة كتب العصور الوسطى (١) .

وتزداد أهمية الكتاب لأنه تعدى التأريخ للأندلس إلى التأريخ لإسبانيا المسيحية وعلاقتها بالأندلس، ولا غرو فقد كان المؤلف أول من استقى معلوماته عنها من مصادرها اللاتينية التى دونت فى كل من الأندلس وإسبانيا المسيحية، ولا زال بعضها مفقودا حتى الوقت الحاضر؛ وعلى هذا النحو احتفظ لنا ببعض ما كانت تحويه من معلومات .

وبالإضافة إلى ذلك، أصبح الكتاب مصدراً أساسياً لمؤرخى الأندلس الذين جاءوا بعده كابن حيان والمقرى وغيرهما، وللمؤرخين المشارقة كابن الأثير والنويرى الذين أرخوا للمسلمين فى الأندلس وعلاقتهم بإسبانيا المسيحية بوجه عام (٢) . وبذلك صار كتاب الرازى المدرسة التى ستمضى على أصولها حركة التأليف التاريخى والجغرافى فى الأندلس حتى نهاية الوجود الإسلامى فيها (٣) .

يلى ذلك كتاب : « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، وذكر من وليها من الأمراء إلى دخول عبد الرحمن بن معاوية وغلبه عليها وملكه فيها هو وولده، والحروب الكائنة فى ذلك بينهم » (٤) ، الذى حققه لأول مرة المستشرق الإسبانى لافونتى إى الكانترا Lafuente y Alcantara ، ونشره بلغته العربية مصحوبة بترجمة إسبانية، كأول أجزاء مجموعة : Col. OAHG, Madrid 1867 . ثم أعاد إبراهيم الإبيارى تحقيقه ونشره بنفس العنوان، كأول أجزاء سلسلة المكتبة الأندلسية التى تصدرها دار الكتب الإسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة - بيروت ١٩٨١م .

ومن المعتقد أن الكتاب من تصنيف اثنين أو ثلاثة من المؤلفين مجهولى الإسم عاشوا فى مدينة قرطبة، عاش أولهم فى أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)، وآخرهم فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجرى (١٠ - ١١م)(٥) .

---

(١) Sanchez Albornoz, En Torno, 2 p 123; Ballester, op cit, p 68 .

(٢) Sanchez Albornoz, Una Cronica Asturiana Perdida, R. Filo. Hisp., Buenos - Aires 1945, 7 pp 112 - 118 .

(٣) مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٥٦ .

(٤) كما يطلق على الكتاب اسم : Anonimo de Paris أى مجهولة باريس، بسبب وجود مخطوطته فى المكتبة الأهلية بباريس .

(٥) قارن فى ذلك : Lafuente, op. cit, p VI, Dozy, Introducion, pp 11 - 12; Ballester, op cit, pp. 66 - 68; Barrau - Dihigo, Recherches sur L' Histoire Politique de Royaume Asturien, R Hisp, Paris 1921, 50 p. 56; Sanchez Alonso, op cit, I pp 170 - 171 .

وما يـدل على تعـدد مؤلفى الكتاب ما يرد فيـه بما نصـه : « أخـبرنى من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من البدو حديث هربه قال ... » [١] أى أن المؤلف استقى معلوماته مباشرة من أحد المعاصرين للأمير عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨ ـ ١٧٢هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٨٨م) . وفى مكان آخر من الكتاب يقول المؤلف : «أخبرنا محمد بن وليد » [٢] وهو أحـد رواة الحـديث الذين توفـوا فى عـام ٣٠٩هـ/ ٩٢١ ـ ٩٢٢م. ثم فى مكان ثالث ما نصه : « واتصل ملك عبد الرحمن (بن محمد) خمسين سنة » [٣] وعبد الرحمن أنتهى حكمه فى عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م؛ وفى مكان رابع يقول ما نصـه : « وله فى عبد الرحمن رحمه الله تعالى » [٤] أى أن المؤلف عـاش بعد التاريخ الأخير؛ وعلى ذلك يكون من المستحيل أن يعيش مؤلف واحد طوال هذه المدة كلها التى تربو على القرنين من الزمان .

ومع تعدد هؤلاء المؤلفين فيلاحظ أن مجموع المادة الواردة فى الكتاب تدل على أنهم كانوا من أسرة الأمويين ذاتها، أو من مواليها المتعصبين لها؛ إذ اقتصرت عنايتـهم فى الكتاب على أخبـار عرب الأندلس والبيت الأموى بخـاصـة، مهملين التأريخ لبقية طبقات أهل البلاد [٥] .

والكتاب يؤرخ للأندلس منذ فتحها فى عـام ٩٢هـ/ ٧١١م حتى نهـاية حكم الخليفة الأموى عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر، أى حتى عـام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م؛ على أن القسم الذى يتوقف بأحداث عـام ١٧٢هـ/ ٧٨٨م ـ أى حتى نهـاية حكم عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل ـ يعتبر سجلاً تاريخياً من الطراز الأول ويمثل أوفر مـادة الكتاب وأوضحها؛ فيحوى روايات متكاملة مطولة حافلة بالتفاصيل الهامة لموضوع الدراسة عن مراحل الفتح الإسلامى لإيبيريا، وعن الأوضاع الداخلية فى الأندلس؛ كـبدايات النزاع بين العرب والبـربر من ناحـية وبين العرب بعضـهم البعض من نـاحية أخرى؛ وتطور هذا النزاع إلى حروب أهلية استمـرت حتى قيام الإمـارة الأمـوية فى عـام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م؛ ثم الثـورات والمصـاعب المتـعددة التى واجهت أول أمير أموى؛ فضلاً عن معلومات طيبة عن طبيعة علاقة الأندلس بأشتوريس وبلاد البشكنس، وهى معلومات توضح مدى الارتباط العضوى بين هذه العلاقات وبين ما كانت تمر به الأندلس من محن داخلية آنذاك .

---

(١) أنظر : النص، تحقيق لافونتى، ص ٥٠ .
(٢) نفسه، ص ١٤٧ .
(٣) نفسه، ص ١٥٤ .
(٤) نفسه، ص ١٦٤ .
(٥) أنظر : بالنثيا، نفسه، ف ٦٤ ص ٢٠٢ .

ومجموع المادة الواردة فى هذا القسم تجعل البعض يعتقد أن مؤلفه لابد أن يكون رجل حرب لأنه لا يقف باهتماماته عند سرد أخبار الحملات الحربية فحسب، وإنما يعرض لما كان يستخدم فيها من ذكاء وحيلة وصراع، ويشرح التحركات الفنية القتالية كما لو كان خبيرا واسع التجربة، ويعتمد فى معرفته على العلم والتقاليد العسكرية . وهو سياسى أيضا، يرد الأحداث إلى أسبابها الحقيقية ويستخف بأقاويل العامة . وهو قرطبى يتحدث عن الأمكنة فيها كمن شهدها؛ فيعرض لما طرأ عليها من عمران ويقدم تفسيرا لما أصابها من تغيير . وهو عربى يحفظ فى ذاكرته أسماء القبائل العربية الكثيرة وروابط الصداقة أو العداوة بينها . وهو من البيت الأموى إذ يهتم بذكر الأحداث التى قام بها أفراد يرتبطون بأسرته [١] .

أما القسم الذى يؤرخ للأندلس منذ عام ١٧٢هـ/ ٧٨٨ م فصاعدا ويتوقف بأحداث عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م الذى توفى فيه عبد الرحمن بن محمد، فلا يعتبر تاريخا بالمعنى المعروف مثل القسم السابق عليه، وإنما مجموعة من الموضوعات الدينية والحكايات والنوادر الموجزة والقصائد الشعرية عن أمراء الأندلس خلال هذه الفترة، مما يوحى بأن كاتب هذا القسم فقيه أديب ينتسب إلى قبيلة قريش . وإن كانت مثل تلك الموضوعات تبرز مدى الميول الأدبية لأمراء أندلس تلك الفترة وفضائلهم وعنايتهم بالعلم؛ فهذا لا ينفى احتوائها على بعض الإشارات التاريخية، التى تفيدنا فى التعرف على أحوال الأندلس أو علاقتها بأشتوريس .

ومع هذا التفاوت بين قسمى الكتاب، فإن مؤلفيه تتبعوا أخبارهم من جميع مصادرها السماعية والكتابية وتوخوا فيها الدقة [٢] والبعد عن الأساطير [٣] ، وهو ما جعل للكتاب قيمته التاريخية الكبيرة وأحقيته ليكون مصدرا أساسياً وهاما لدراسة تاريخ المسلمين فى الأندلس حتى منتصف القرن الرابع الهجرى/ منتصف العاشر الميلادى .

وإلى القرن الرابع الهجرى أيضا ينتمى كتاب : « تاريخ افتتاح الأندلس »، الذى حققه لأول مرة المؤرخ شيربونيه Cherbonneau ونشره لكن مترجماً إلى الفرنسية بعنوان : Histoire de la Conquete de L' Espagne par les Musulmans, Traduite de la Chronique d' Ibn El Kouthya, Journal Asiatique,

---

(١) أنظر بتفصيل : الطاهر مكى، دراسات أندلسية، دار المعارف ١٩٨٣م، ص ٣٤ ـ ٣٧ .

(٢) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية، ص ٣٣٩؛ Ballester, op cit, p 67

(٣) بالنثيا، نفسه، ص ١٩٩ .

Paris t 1(1853), t 8 (1856). ومنذ ذلك الحين بدأت تظهر أهمية الكتاب وقيمته التاريخية التى استحوذت على اهتمام المؤرخين لا سيما الإسبان، بحيث نشر مرتين بنصه العربى فى مدريد عام ١٨٦٨م، إحداهما قام بها المؤرخ الإسبانى دى جايانجوس P. de Gayangos ، والثانية للمؤرخ الإسبانى أيضاً ريبيرا J. Ribera ، الذى عاد وترجمه إلى الإسبانية ونشره بعنوان : Historia de la Conquista de Espana de Abenalcotia el Cordobes, Madrid 1926 . أما فى المشرق العربى فقد حققه عبد الله أنيس الطباع تحقيقا مستندا على طبعة ريبيرا ونشره بنفس العنوان فى بيروت ١٩٥٨ م؛ ثم أعاد إبراهيم الإبيارى نشره ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية (رقم ٢)، دار الكتب الإسلامية، القاهرة - بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

والكتاب ينسب لأبى بكر محمد القرطبى المتوفى عام ٣٧٦هـ/ ٩٧٧م [١] ؛ المعروف بابن القوطية لأصله القوطى، فهو يتحدر - كما يروى بنفسه فى مقدمة الكتاب - من سلالة الأميرة سارة حفيدة الملك القوطى وتيزا Witiza المعروف عند العرب بغيطشة؛ وإن صار ابن القوطية مولى لبنى أمية حيث كان جده الأعلى مولى للخليفة عمر بن عبد العزيز . ويوصف ابن القوطية بأنه كان : « حافظا للخبر النادر، مضطلعا بأخبار الأندلس، مليا برواية سير أمرائها وأحوال فقهائها وشعرائها، يملى ذلك عن ظهر قلب » [٢] .

ومع ذلك، فالراجح أن الكتاب ليس من تأليف ابن القوطية وإنما من إملائه على تلامذته، حيث يبدأ الكتاب بعبارة : أخبرنا أبو بكر محمد (أى ابن القوطية)، كما أن الرواية ترد فيه على لسان أحد تلاميذه؛ يضاف إلى ذلك أن تلاميذه من مؤلفى كتب التراجم لم يذكروا الكتاب ضمن تآليفه [٣] .

والكتاب لا يقتصر على أخبار فتح الأندلس فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م كما يوحى عنوانه، وإنما يتعداها إلى سرد مجموعة من الأخبار المتفرقة عن تاريخها فيما بعد الفتح، وخلال عصرى الولاة والإمارة حتى وفاة الأمير عبد الله بن محمد فى عام ٢٩٧هـ/ ٩١٠م . ومن ثم يحوى مادة علمية متنوعة وتفاصيل لم يرد معظمها فى غيره من الكتابات التى أشرنا إليها قبلا؛ مثل فتن العرب والموالى خلال عصر

---

(١) عنه أنظر : بروكلمان، تاريخ الأدب، ٣ ص ٨٩ - ٩٠؛ بالنثيا، نفسه، ف ٦٥ أ ص ٢٠٢؛ بويكا، نفسه، ص ١١٥ - ١١٦؛ Pons Boigues, op cit, pp 83 - 84.

(٢) قارن : ابن الفرضى، نفسه، ٢ ص ٧٦ - ٧٧ رقم ١٣١٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، بيروت ١٩٧١م، ٤ ص ٣٦٨ رقم ٦٥٠ .

(٣) أنظر : الطاهر مكى، دراسات أندلسية، ص ٣٩ - ٤٠ .

الإمارة؛ ومحاولات المولدين الإسبان الانفصال عن سلطانها أو الخروج عليها ومناوأتها بمعاونة ملوك أشتوريس الإسبان أحيانا، أو الفرنجة فى غالة أحيانا أخرى؛ فضلاً عن محاولات خلفاء بغداد فى القضاء عليها؛ وتهديدات النورمان لشواطىء الأندلس؛ إلى غير ذلك من التفاصيل التى تجعل الكتاب فى طليعة المصادر التاريخية الأندلسية التى لا غنى عنها؛ حتى أن المؤرخ الهولندى دوزى R. Dozy يصفه بقوله : « قل أن يوجد مثله عند الموالى الآخرين » (١) ؛ يضاف إلى ذلك بساطة الكتاب وأمانة كاتبه التاريخية .

ومع ذلك فلم يخل الكتاب - بسبب انتساب مؤلفه لأصل قوطى - من تلميحات ذات طابع متعصب لأصله ضد العرب والسيادة العربية بعامة (٢) ؛ وفى ذات الوقت لم ينس انتسابه إلى بنى أمية عن طريق الولاء فلم يبد أى تعاطف مع المناوئين لهم فى الأندلس (٣) .

يلى ذلك كتاب : « المقتبس » لأبى مروان حيان بن خلف بن حسين، المعروف بابن حيان القرطبى (٤) (٣٧٧ - ٤٦٩هـ/ ٩٨٧ - ١٠٧٦م) شيخ مؤرخى الأندلس(٥)، وصاحب لواء التاريخ فيها وأفصح الناس فيه وأحسنهم نظماً له (٦) ، حتى أنه ألف فيه تآليف هامة (٧) فقدت كلها مع الأسف، باستثناء أجزاء قليلة منها ومن بينها بعض أجزاء الكتاب المشار إليه، الذى يؤرخ فيه للأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى عام ٣٦٦هـ/ ٧٩٦م على وجه التقريب . ولحسن الحظ فإن بعض ما عثر عليه

---

(١) Introducion, p 30 .

(٢) عن أمثلة لهذه التلميحات أنظر : بالنثيا، نفسه، ص ٣٠٣ - ٣٠٤؛ أحمد مختار العبادى، نفسه، ص ٣٣٨؛ الطاهر مكى، دراسات أندلسية، ص ٤٤ وما بعدها؛ Sanchez Albornoz, En Torno, 2 pp 168 - 169.

(٣) Dozy, Introducion, p 30, Sanchez Alonso, op cit, 1 pp 173 - 174 .

(٤) كان جده الأعلى مولى للأمير عبد الرحمن بن معاوية؛ وقد ولد ابن حيان وتوفى فى قرطبة، وعنه بتفصيل أنظر : Gendron, Historiografia Medieval Hispana Arabica, AL _ Andalus 1972, 37 p 379; Garcia Gomez, A Proposito de Ibn - Hayyan, AL - Andalus 1946, 2 pp 400 - 406; Antuna, Ibn Hayyan de Cordoba y su Historia de la Espana Musulmana, CHE, 1946, 4 pp 11 - 18; Sanchez Alonso, op cit, pp 175 - 176. محمود مكى، المقتبس لابن حيان، بيروت ١٩٧٣م، ص ١٩ وما بعدها .

(٥) ابن سعيد، المغرب، ١ ص ١١٧ .

(٦) ابن خلكان، وفيات، ٢ ص ١٨ ؛ ابن بشكوال، كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م، ١ ص ١٥٣ رقم ٣٤٥؛ الضبى، بغية، ص ٢٦٠ رقم ٦٧٩ .

(٧) عنها قارن : Garcia Gomez, op cit, pp 406 - 418; Gendron, op cit, pp 373 - 380; Antuna, op cit, pp 18 - 34 ؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٥٦ - ٦١، ٦٥ - ٨٥؛ بالنثيا، نفسه، ص ١٤٦ - ١٥٣ .

من قطع هذا الكتاب يغطى أحداث عدد من السنين التى تتناولها هذه الدراسة؛ ولذا سنكتفى بالإشارة إلى ما يتصل منها بهذه الدراسة [١] .

فالقطعة الأولى حقق المؤرخ الفرنسى ليفى بروڤنسال Lévi - Provençal بالتعاون مع المؤرخ الإسبانى جومث غرسية Gómez Garcia فقرات منها ونشراها مع ترجمة إسبانية، بعنوان : Textos Inéditos del Muqtabis de Ibn Hayyan sobre los Origénes del Reino de Pamplona, AL - Andalus 1954, 19 pp 295 - 315 . أى : نصوص غير منشورة من المقتبس لابن حيان عن أصول مملكة بمبلونة . وهى نصوص انتقاها من قطعة عثر عليها من كتاب المقتبس، تعالج أحداث الفترة بين عامى ١٨٠ - ٢٣٢هـ/ ٧٩٦ - ٨٤٦م، وتتعلق ببدايات مملكة بمبلونة (نبرة - نافار) الإسبانية - المعروفة لمؤرخي العرب ببلاد البشكنس - وعلاقتها بأمراء الأندلس، وموقف حكام الثغر الأعلى وملوك أشتوريس الإسبانية من هذه المملكة التى ظهرت خلال القرن التاسع الميلادى .

أما بقية هذه القطعة فهى فى حكم المجهول، منذ أن أودع ليفى بروڤنسال نسخة كاملة منها بجامعة الاسكندرية فى عام ١٩٣٨م بنية تحقيقها ونشرها مع المرحوم عبد الحميد العبادى [٢] ، إلا أن الأجل لم يسعف كليهما فتوفيا تباعا، واختفت أخبار تلك القطعة الهامة، إلى أن نما إلى علمنا مؤخرا أنها بحوزة إحدى باحثات التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بالجامعة المذكورة، والأمل معقود عليها فى أن تخرجها إلى النور ليستفيد منها الباحثون فى تاريخ الأندلس وعلاقتها بإسبانيا المسيحية فى كل من بمبلونة وأشتوريس [٣] .

---

(١) أما ما نشر من بقية أجزاء الكتاب وتخرج عن نطاق دراستنا فهى : (١) القطعة التى حققها ونشرها بنصها العربى شالميتا P. Chalmeta وكورينتى F. Corriente بعنوان : المقتبس لابن حيان، مدريد ١٩٧٩م؛ وتؤرخ لأحداث الثلاثين عاما الأولى من حكم عبد الرحمن الناصر فيما بين عامى (٣٠٠ - ٣٣٠ هـ) . (٢) القطعة التى حققها عبد الرحمن الحجى، ونشرها بعنوان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس، بيروت ١٩٦٥م (ط٢ عام ١٩٨٣م) وتعالج خمس سنوات غير كاملة من حكم الحكم المستنصر، من شعبان ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م حتى ذى القعدة من عام ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م .

(٢) أنظر : Lévi - Provencal, Histoire, 1 p 151 No 1 ؛ مكى، المقتبس لابن حيان ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣) أثناء طبع هذا الكتاب وصل إلى مسامعنا أن أحد الباحثين المصريين الدارسين فى إسبانيا قد عثر على هذه القطعة كاملة وبدأت تنتشر نسختها المخطوطة بين أيدى الباحثين فى مصر؛ وأن الدكتور محمود مكى يعكف حاليا على تحقيقها . وقد حصلنا على نسخة منها فاستفدنا منها فى هذه الدراسة .

أما القطعة الثانية فقد حققها الدكتور محمود مكى، ونشرها مع تعليقات ومقدمة وافية للغاية بعنوان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس، بيروت ١٩٧٣م . وتتناول أحداث السنوات الأخيرة من إمارة عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) والجزء الأكبر من إمارة ابنه وخليفته محمد، أى بين عامى ٢٣٢ - ٢٦٧هـ/ ٨٤٦ - ٨٨٠م؛ وتشتمل على معلومات هامة ومتنوعة عن بلاط قرطبة والصقالبة والوزراء والعمال، وأحوال الأندلس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية خلال تلك الفترة . وفيها أيضاً تفاصيل جديدة ومثيرة عن علاقة هذين الأميرين بحكام الثغر الأعلى من بنى قسى؛ وبالبشكنس فى بمبلونة؛ وبمملكة أشتوريس الإسبانية؛ وبالفرنجة فى غالة؛ وهو ما يلقى الضوء الأكبر على طبيعة العلاقات بين الأندلس من ناحية والخارجين على سلطانها من ناحية أخرى، سواء فى داخل الأندلس كأسرة بنى قسى، أو فى خارجها مع أشتوريس وبمبلونة على الخصوص؛ واستراتيجيات وأهداف هذه العلاقات .

أما القطعة الثالثة فقد حققها ملشور أنطونية Melchor Antuna ، ونشرها بنصها العربى بعنوان : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس، باريس ١٩٣٧م؛ وهى التى ترجمها خوسيه جوريب José E. Guraieb إلى الإسبانية ونشرها تباعا فى مجلة : CHE, 1950 - 1960, t 13 - 32 . ثم صدر منها طبعة جديدة غير جيدة فى الشرق العربى، أعدها إسماعيل العربى، ضمن منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، المغرب ١٩٩٠م . وتتناول هذه القطعة تاريخ الأندلس فى عصر الأمير عبد الله بن محمد، فيما بين عامى ٢٨٥ - ٢٩٨ هـ/ ٨٨٧ - ٩١٠م؛ وتركز على أخبار المخالفين والمناوئين لسلطان الأميرمن العرب والبربر والمولدين؛ وأحوال الثغر الأعلى وطبيعة علاقة حكامه بالأمير وتطوراتها؛ فضلا عن انعكاساتها على موقف مملكة أشتوريس الإسبانية من هذا الأمير ومن الخارجين عليه فى داخل الأندلس؛ وهى معلومات بالغة القيمة لا توجد معظمها فى غيرها من الكتابات الأندلسية السابقة عليها .

وفى الواقع، فإن كتابات ابن حيان تستحق نظرة تأمل، إذ أنها تمثل طفرة فى تطور علم التاريخ ومنهجه فى الأندلس [١] ، فتعالج تاريخ الأندلس معالجة شاملة لنواحى النشاط الإنسانى فى الحقبة التى يؤرخ لها؛ واتبع فيها منهج الكتابة على

---

(١) عن هذا المنهج أنظر بتفصيل : السيد سالم، التاريخ والمورخون، ص ٧٨؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٨٥ - ٨٨، ١٠٤ - ١١١؛ لطفى عبد البديع، نفسه، ص ٧٠ .

حسب العهود عهدا بعد الآخر، وأيضا على حسب المنهج الحولى . إذ يبدأ بالحديث عن سيرة الأمير وشخصيته وأخلاقه ورجال دولته والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية والأحداث الكبرى فى عصره؛ وطرفا من حياة الناس اليومية؛ ثم ينتقل إلى سرد الأحداث فى تفصيل بترتيب السنوات، مهتما بإبراز المادة التاريخية فى أسلوب واضح ودقة فى اختيار الألفاظ، والتزام فى تحديد التواريخ وضبطها .

كذلك فكان اعتماد ابن حيان على مصادر مكتوبة وليس على الرواية الشفهية، واستطاع بحسه التاريخى الدقيق الاستفادة منها، مستصفيا ما فيها من مادة تاريخية؛ بحيث لم يكن مجرد ناقل من هذه المصادر، وإنما أخضع روايتها لميزان علمى نقدى؛ بأن قارن بينها وفحصها ليتحرى الحقيقة فى نزاهة وحياد [١] ، بحيث اشتهر عنه عدم اعتماد الكذب [٢] .

ومن ناحية أخرى، فإن ما أورده ابن حيان من أخبار عن إسبانيا المسيحية بما فيها أشتوريس ينم عن معرفته الدقيقة بكل أحوالها وأنساب حكامها، أكثر من معرفة كثير من مؤرخى عصره من المسيحيين؛ مما جعل المؤرخين الحديثين ـ والأوربيين بخاصة ـ يقدرون كتاباته ويعكفون على دراستها لأهميتها الفائقة فى استجلاء جوانب التاريخ الإسبانى بشطريه الإسلامى والمسيحى [٣] .

وإذا كان لابن حيان فضل الاحتفاظ ببعض ما احتوته الكتب التى اعتمد عليها من مادة تاريخية؛ فقد أصبحت كتاباته بدورها أساسا للمؤرخين اللاحقين له، فاعتمدوا عليها اعتمادا كبيرا [٤] بحيث أن كتاباتهم تشتمل على نقول كثيرة من كتاباته التى ما زالت مفقودة حتى وقتنا الحاضر .

فمن القرن السادس الهجرى لدينا كتابان يتضح منهما استفادة مؤلفيهما من ابن حيان؛ وأولهما لمؤلف لا زال مجهول الاسم، يعتقد أنه أحد علماء القيروان فى إفريقية [٥] ؛ كتبه خلال السنوات الأولى من القرن الثانى عشر الميلادى [٦] ليؤرخ

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٨٩ ـ ٩٢؛ Garcia Gómez, op. cit., p. 419 - 420; Antuna, op cit., pp 34 - 46, Sánchez Albornoz, En Torno, 2 pp. 207 - 208 .

(٢) ابن خلكان، نفسه، ٢ ص ٢١٩؛ ابن بشكوال، نفسه، ١ ص ١٥٣ .

(٣) بالنثيا، نفسه، ص ٢١١؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٩٨ ـ ١٠٤؛ Dozy, Introducion, pp. 64, 73; Gendrón, op. cit, pp. 391 - 392 .

(٤) Garcia Gómez, op. cit., pp. 420 - 423; Antuna, op. cit., pp 63 - 71 .

(٥) Sánchez Alonso, op cit, 1 p 179 .

(٦) Sánchez Albornoz, En Torno, 2 p 211 .

فيه للفتح الإسلامى لإيبيريا وتاريخ ولاتها وأمرائها حتى قريبا من عصره [١] . والكتاب حققه لأول مرة المؤرخ الإسبانى دون خواكين دى جونثالث Don Joáquin de González ونشره بنصه العربى مصحوبا بترجمة إسبانية ومقدمة كتبها المؤرخ الإسبانى سابدرا E. Saavedra ، وذلك بعنوان : Fatho - L - Andaluçi, Historia de la Conquista de Espana, Codice Arabigo del siglo XII, dado a luz por primera vez, Argel 1889 . أى : « فتح الأندلس، تاريخ فتح إسبانيا من مخطوط عربى من القرن الثانى عشر، ينشر ويترجم لأول مرة » . وهو عنوان من وضع المحقق وليس المؤلف استنادا على ما ورد فى مقدمة المخطوط عن وصف الكتاب بأنه : « كتاب فيه سبب ذكر فتح الأندلس وأمرائها » .

ورغم صغر حجم الكتاب فيمكن تقسيم محتواه إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى :

القسم الأول الذى يبدأ بقصة الفتح الإسلامى فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م وتتبع مراحله ثم تاريخ ولاتها واحداً بعد الآخر؛ حيث يعرض بتفصيل واف لوقائع وتطورات النزاع العربى البربرى، ثم الصراع بين العصبيات العربية خلال تلك الفترة؛ فضلا عن القحط الذى أصاب البلاد آنذاك؛ وأثر ذلك كله فى إخلاء البربر لمناطق استيطانهم فى إقليمى جليقية وأشتوريس بالشمال الإيبيرى، ونجاح أول ملوك أشتوريس فى الاستيلاء على هذه المنطقة . ثم قصة عبد الرحمن بن معاوية منذ هروبه من الشام حتى دخوله الأندلس وانتزاع حكمها بإعلان قيام دولة بنى أمية فيها؛ وصراعه ضد المناوئين له فى الداخل حتى نهاية حكمه فى عام ١٧٢هـ/ ٧٨٨م؛ وخلال ذلك لا يغفل المؤلف الإشارة إلى بعض حملات المسلمين إلى إسبانيا المسيحية حتى بدايات عصر الإمارة، وإن كنا سنلاحظ أنه يغفل ذكر هذه الحملات بقية عصر الإمارة .

وهذا القسم يشغل وحده أكثر من ثلاثة أرباع حجم الكتاب، ويتميز بالتفصيل الدقيق المتنوع لمعلوماته؛ مما قد يدل على أنه الموضوع الرئيسى فى الكتاب . لا سيما وأن القسم الثانى لا يعدو أن يكون قائمة بأسماء الأمراء خلفاء عبد الرحمن، وبالتحديد منذ بداية حكم ابنه وخليفته هشام فى عام ١٧٢ هـ/ ٧٨٨م حتى نهاية حكم المنذر بن محمد فى عام ٢٧٥ هـ/ ٨٨٩م . وفى هذا القسم يكتفى المؤلف بتحديد بداية ونهاية حكم كل أمير مع نبذة مرجزة لأشهر صفاته وأخلاقياته؛ بحيث إنه رغم طول الفترة الزمنية التى يتناولها هذا القسم - نحو قرن من الزمان - فلا تتجاوز

(١) عن المصادر المرجح اعتماد المؤلف عليها أنظر : Loc. Cit , 2 pp 212 - 216 .

صفحاته أربع صفحات وبعض الخامسة مقارنة بإحدى وسبعين صفحة خصصها المؤلف للقسم الأول .

أما القسم الثالث والأخير فقد خصصه المؤلف لثوار الأندلس بعد الأربعمائة، أى بعد سقوط خلافة بنى أمية بالأندلس عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م؛ فيذكر أشهر ملوك الطوائف فى قرطبة وإشبيلية ومالقة وطليطلة وبطليوس وبلنسية والمرية وسرقسطة؛ مع نبذة شديدة الإيجاز عن أشهر أخبارهم؛ التى وصل فى بعضها إلى نهاية القرن الخامس وبالتحديد حتى عام ٤٩٥هـ(١١٠١ - ١١٠٢م)؛ ومع ذلك فلا تتجاوز صفحات هذا القسم ست صفحات وبعض السابعة .

وإذا ما قورنت هذه الأقسام الثلاثة من حيث حجمها ودقة معلوماتها وتفصيلاتها ومنهج عرضها وأسلوبها، لتأكد لنا أن مؤلف القسم الأول لا يمكن أن يكون هو نفسه مؤلف القسمين الأخيرين . ومع ذلك فلا يقلل هذا من القيمة التاريخية للكتاب ككل، بحيث حظى باهتمام المستشرقين ودارت حوله دراسات متعددة؛ من أشهرها تلك التى كتبها غرسية جومث Garcia Gómez بعنوان: Novedades sobre la Cronica Anónima, titulada : Fath AL- Andalus, Annal . IEO., 1945, t 14 pp 31 - 42 . وهى دراسة علق عليها المستشرق إلياس تيريس سادابا Elias Terrés Sadaba بمقالة فى مجلة : AL- Andalus, 1955, t 20, fasc. I, p 237 . كما علق عليها سانشيث البورنوث Sanchez Albornoz بمقالة عنوانها : Precisione Sobre Fath al - Andalus, RIEIM, 1961- 1962, t 9 - 10 pp 1 - 22.

أما الكتاب الآخر فهو لابن مروان عبد الملك بن الكردبوس، الذى عاش فى النصف الثانى من نفس القرن بمدينة توزر بإفريقية فنسب إليها وعرف بالتوزرى [١] وكتابه بعنوان : الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، الذى لا زال مخطوطا، ويتناول فيه مؤلفه سيرة الرسول ﷺ، وتاريخ الخلفاء من بعده من راشدين وأمويين وعباسيين حتى بدايات القرن السادس الهجرى؛ فضلاً عن التأريخ لدولة بنى أمية بالأندلس على اعتبار أنها امتداد لتاريخ أمويى المشرق؛ ومهد لها بتأريخ مختصر للأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى عصره، أى حتى بدايات عهد الموحدين [٢] . ولم ينشر من هذا المخطوط سوى هذه القطعة المتعلقة بتاريخ الأندلس؛ والتى حققها الدكتور أحمد

---

(١) عنه أنظر : ياقوت، معجم البلدان، مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ، ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩؛ أحمد مختار، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦٥ - ١٩٦٦م، مجلد ١٣ ص ٨.

(٢) أحمد مختار، نفسه، ص ٩ - ١٠ .

مختار العبادى، ونشرها لأول مرة بعنوان : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦٥ - ١٩٦٦م، المجلد ١٣، ص ٧ - ١٢٦؛ ثم أعاد نشرها - مع نص جغرافى آخر سنشير إليه فيما بعد - فى كتاب بعنوان : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م .

ومع أن هذه القطعة تتناول تاريخا مختصرا للأندلس لكنها مع اختصارها تحوى مادة خصبة قيمة تمتاز بالدقة والعمق، وتنفرد بمعلومات جديدة غير متوفرة فى غيرها من المصادر [١] . وفضلا عن ذلك فقد وجد الكتاب صدى له فى نفس عصره فى الممالك الإسبانية المسيحية، بحيث صار مصدرا لمؤلفى مدونة : La Primera Cronica General فنقلوا منه ما يتعلق بتاريخ المسلمين فى الأندلس أو فى المشرق [٢] .

ولم تقف أهمية الكتاب عند هذا الحد وإنما امتد حتى وقتنا الحالى إذ اهتم به بعض المستشرقين؛ فترجموا منه قطعا مطولة إلى لغاتهم واستفادوا منه فى دراساتهم، ويكفى أن نشيرإلى المؤرخ الإسبانى جايتجوس Gayangos الذى ترجم معظم القطعة المتعلقة بالأندلس إلى الإنجليزية كذيل على كتابه : The History of the Mohamedan Dynasties in Spain, London 1840 - 1843, vol I Apen. D; vol II Apen C ، وإن نسبها خطأ إلى مؤرخ آخر غير ابن الكردبوس . ثم انتقى منها المؤرخ الهولندى دوزى R. Dozy الفقرات المتصلة بعصر ملوك الطوائف فقط ونشرها فى كتابه : Recherches sur L' Histoire et La Litterature de L' Espagne, Paris - Leyde 1881, t II pp XVII - XXII ، وهى التى أعاد نشرها فى كتابه الآخر بعنوان : Scriptorum Arabum Loci de Abbadidis, Brill 1882, vol. II pp 11 _ 27, vol III, p 189.

ومع هذه الأهمية فقد أهمل ابن الكردبوس الإشارة إلى الممالك الإسبانية أو طبيعة علاقتها بالأندلس فى عصرى الولاة والإمارة، ومن ثم ستقتصر أهمية كتابه لدراستنا على تاريخ الأندلس الداخلى الصرف .

وفيما بين أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجرى عاش مؤرخ مغربى آخر، لا نعرف عنه من أسف سوى اسمه وهو عبد الله بن محمد المشهور بابن عذارى

---

(١) عن أمثلة لهذه المعلومات الجديدة أنظر : أحمد مختار، نفسه، ص ١٢ - ١٥ .

(٢) أنظر : أعلاه، ص ١١؛ وأنظر أيضاً : Dozy, Recherches, 2 pp 44 - 45

المراكشي [١] ، الذى ترتكز شهرته على كتاب : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، فى عدة أجزاء [٢] يهمنا منها الجزء الثانى، الذى نشره ليفى بروفنسال Lévi - Provencal وكولان Colin ، فى ليدن ١٩٥١م .

ويعتبر هذا الجزء من المصادر التاريخية الفائقة الأهمية التى تؤرخ للأندلس من الفتح حتى نهاية عصر المنصور بن أبى عامر فى عام ٣٩٢هـ . إذ يمدنا بموضوعات عديدة ومفيدة لموضوع الدراسة؛ كثورة بربر الأندلس ونتائجها على بربر إقليمى جليقية وأشتوريس؛ ونزاعات العرب وتطوراتها حتى نهاية عصر الولاة؛ ومتاعب أمراء الأندلس مع فئات المجتمع المتنوعة المتنافرة من عرب وبربر ومولدين وحتى مستعربين، الذين استمد بعضهم بالمسيحيين من خارج الأندلس سواء فى أشتوريس أو بمبلونة أو حتى الفرنجة فى غالة؛ ورد الفعل الإسلامى على مثل هذا الإفتئات، وحملات المسلمين المتوالية على أراضى إسبانيا المسيحية بما فيها أشتوريس، وغارات النورمان على كل من سواحل الأندلس وإسبانيا المسيحية . وقد جرى ابن عذارى فى عرض هذه المعلومات على طريقته إما بتصنيفها إلى فصول أو إلى حوليات سنوية، ملتزما الحياد التام فى إيراد أحداثها أو تقديم شخصياتها دون أن يتورط فى عبارات المدح أو الذم .

---

(١) أنظر : Sánchez Albornoz, En Torno, 2 p 255 Sqq; Gendrón, op cit, p 401; Dozy , Introducion, p 6. ؛ السيد سالم، المغرب الكبير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦م، ص ١٠٠ - ١٠٢؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ط١ القاهرة ١٩٦٤م، ص ١٤ .

(٢) كتاب يؤرخ للمغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى أواخر أيام دولة الموحدين وبدايات عصر بنى مرين؛ وكان أول من تنبه إلى أهميته المؤرخ الهولندى دوزى R. Dozy ، فحقق الجزأين الأولين ونشرهما بين عامى ١٨٤٨ - ١٨٥١م؛ يختص الجزء الأول منهما بتاريخ المغرب حتى نهاية الفاطميين بالمغرب؛ والثانى بتاريخ الأندلس حتى نهاية عصر المنصور بن أبى عامر عام ٣٩٢هـ . وقد أعاد المؤرخ الفرنسى ليفى بروفنسال بالاشتراك مع كولان نشرهما فى مدينة ليدن عام ١٩٣٠م؛ مع إضافة جزء ثالث عن تاريخ الأندلس منذ وفاة المنصور حتى عام ٤٦٠هـ؛ وأعيد نشر هذه الأجزاء الثلاثة عام ١٩٥١م فى نفس المدينة . وفى عام ١٩٦٠م نشر ويسى ميراندا M Huici قطعة رابعة من الكتاب تتعلق بتاريخ المرابطين فيما بين عامى ٤٤٠ - ٥٤٠هـ، وذلك فى مجلة Hesperis ؛ وهى القطعة التى حققها أيضا إحسان عباس ونشرها مع الأجزاء الثلاثة السابقة ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية (٢٢، ٢٣، ٢٤) التى تصدرها دار الثقافة ببيروت، وأعيد طبعها مرتين آخرها الطبعة الثالثة عام ١٩٨٣م .

أما الجزء الخامس والأخير من هذا الكتاب فقد نشرته كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط عام ١٩٦١م؛ بتحقيق ويسى ميراندا ومحمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتانى؛ ويتناول تاريخ الموحدين حتى بداية عصر بنى مرين، أى فيما بين عامى ٥٣٣ هـ - ٦٦٥ هـ .

وفضلاً عن ذلك فللكتاب أهمية أخرى، إذ أن كثيرا مما ورد فيه نقله ابن عذارى بأمانة دون تغيير أو تبديل من مصادر أندلسية ومغربية، كانت متوفرة فى أيامه - وعلى رأسها كتابات ابن حيان - ثم فقدت حتى وقتنا الحاضر، وربط بينها ربطا زمنيا؛ وبذلك احتفظ بما كانت تحويه هذه المصادر من مادة تاريخية؛ تعوض لنا بعض النقص فى أخبار الفترة التى تؤرخ لها الأجزاء التى لا زالت مفقودة من كتابات ابن حيان السابق الإشارة إليه .

فإذا ما انتقلنا إلى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى صادفنا قمماً تاريخية فى مقدمتها لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦هـ/ ١٣١٣ - ١٣٧٤م) وهو شخصية فذة ذات ثقافة متنوعة، واهتمامات لأنواع من الفنون والمعارف متعددة، ومن بينها التاريخ إطلاعا وتأليفا . فضلا عن مكانة سياسية رفيعة فى مملكة بنى نصر على مدى نحو ربع قرن، أكسبته خبرة بشئون الإدارة والحكم، وهيأت له إطلاعا على وثائق الدولة الرسمية؛ وأتاحت له فرص الاتصال بملوك الدول المجاورة والتعرف على أحوالها، لا سيما الدول الإسبانية مثل قشتالة و البرتغال وأراجون، التى تبادل عديدا من الرسائل مع ملوكها [1] .

على أن مثل هذا النشاط السياسى الواسع لم يؤثر على اهتماماته الشخصية من إطلاع وتأليف؛ ويكفى دليلا على ذلك ما خلفه من كم هائل من المؤلفات المتنوعة فى الجغرافية والأدب والتاريخ وغيرها [2]؛ ومنها كتابه : « أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجره ذلك من شجون الكلام »؛ وهو موسوعة تاريخية للعالم الإسلام كله فى ثلاثة أجزاء؛ يهمنا منها الجزء الثانى الذى حققه المؤرخ الفرنسى ليفى بروفنسال Lévi - Provençal ونشره بعنوان : تاريخ إسبانيا الإسلامية، الرباط ١٩٣٤م؛ ثم أعيد طبعه فى بيروت عدة مرات وصلت حتى الطبعة الثالثة عام ١٩٥٦م . فقد خصص المؤلف هذا الجزء لتاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى حتى عصره أى حتى القرن الثامن الهجرى؛ ورتبه على حسب تتابع ولاتها وأمرائها وخلفائها، متبعا فى ذلك منهج ابن عذارى دون اختلاف كبير .

وإلى جانب ذلك يعتبر الكتاب أول كتب التاريخ الشاملة لإسبانيا الإسلامية والمسيحية يصل كاملا من بين المصادر الإسلامية الأندلسية والمشرقية على السواء؛

---

(١) قارن : بالنثيا، نفسه، ف ٨١ ص ٢٥٢ وما بعدها؛ الحسن بن محمد السائح، منوعات ابن الخطيب، المغرب ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٢٥ - ٤٢؛ أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٦١ - ٣٦٤؛ ولنفس المؤلف مقدمة كتاب أعمال الأعلام، جـ ٣، الدار البيضاء ١٩٦٤م؛ عنان، الإحاطة فى أخبار غرناطة، ط٢، القاهرة ١٩٧٣م، ١ ص ١٧ وما بعدها؛ ولنفس المؤلف، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط ٢، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٤٥٣ - ٤٦١؛ Pons Boigues, op cit, p 334 sqq .

(٢) عن هذه المؤلفات المنشورة والمفقودة والمخطوطة أنظر : عنان، الإحاطة، ١ ص ٥٣ – ٦٩ .

إذ فضلا عن أنه يؤرخ للأندلس فقد أفرد فيه المؤلف فصلا قائما بذاته عن تاريخ الممالك المسيحية الإسبانية حتى عصره، بعنوان: «ذكر التعريف بما أمكن من ملوك النصارى بالأندلس على الاختصار» [١] انتقى مادته من مختصر لمدونة الفونسو العاشر ملك قشتالة، وافاه به أحد أصدقائه من يهود قشتالة [٢]. وهو وإن اقتصر فيه على تتابع ملوكهم ومدة حكم كل منهم، فلا يخلو من بعض الإشارات التاريخية المتفرقة المفيدة؛ بحيث بلغ من أهميته أن نشره ملشور أنطونية M. Antuna متنا وترجمة إسبانية بعنوان: Una Version Arabe Compendiada de la Estoria de: Espana de Alfonso El Sabio, AL - Andalus 1933, t 1 pp 105 - 154 .

أما القمة الثانية من قمم القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، فهو المؤرخ التونسي المولد عبد الرحمن بن خلدون [٣] (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢- ١٤٠٦م)؛ الذى تهيأت له هو الآخر فرص التقلب فى الوظائف الديوانية والسياسية فى بلاط بنى مرين بفاس حتى وصل إلى مرتبة الحجابة فى عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤ - ١٣٦٥م . ولما زار الأندلس ونزل بغرناطة عند ثالث سلاطين بنى نصر محمد بن يوسف، اختصه بالسفارة بينه وبين ملك قشتالة فى إشبيلية لإبرام الصلح بينهما . لكنه بعد ذلك تفرغ تفرغا كاملا للإطلاع؛ فلما نضجت معارفه وارتقى تفكيره، مستفيدا من تجاربه ومشاهداته فى شئون الاجتماع الإنسانى، خاصة وأنه قضى نحو ربع قرن فى غمار السياسة متقلبا فى خدمة الدول المغربية والأندلسية يدرس أمورها ويستقصى سيرها وأخبارها، ويتأمل أحوالها وتقاليدها؛ عكف على كتابة كتابه الشهير: «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» [٤] . فى عدة أجزاء يهمنا منها المقدمة وهى الجزء الأول ثم الجزء الرابع .

---

(١) أنظر: ابن الخطيب، نفسه، ٢ ص ٣٢٢ ـ ٣٣٨ .

(٢) نفسه، ٢ص ٣٢٢؛ Sanchez Alonso, op cit, 1 p 279

(٣) عنه وعن حياته بتفصيل قارن: على عبد الواحد، عبدالرحمن بن خلدون، الأعلام (٧)، القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٣ ما بعدها؛ بالنثيا، نفسه، ف ٨٢ ص ٢٥٩ وما بعدها؛ Pons Boigues, op cit, p 350 sqq

(٤) طبع الكتاب عدة مرات من أهمها طبعة بولاق ١٨٦٨م فى سبعة مجلدات . وكان قصد ابن خلدون من تأليف هذا الكتاب التأريخ للمغرب فقط، لكنه عدل عن ذلك وجعله تاريخا عاما شاملا لجميع الأمم المشهورة المعروفة فى عصره (أنظر: مقدمة ابن خلدون، كتاب التحرير، القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، ص ١١، ٣٣) فبوبه على مقدمة وثلاث كتب . تناولت المقدمة شيئا عن فضل علم التاريخ ومذاهبه والإلمام ببعض أوهام ومغالطات المؤرخين السابقين عليه؛ ثم العديد من الظواهر الحضارية . أما الكتاب الثانى فقد خصصه لتاريخ العرب حتى ظهور الإسلام؛ وحياة الرسول ﷺ؛ وتاريخ الخلفاء من راشدين وأمويين وعباسيين وفاطميين، أما الكتاب الثالث فقد أفرده لتاريخ شمالى أفريقيا حتى عصره، والرابع عن تاريخ الأندلس .

فالمقدمة [١] تضمنت ظواهر حضارية مثل أصول المدنيات، ونظم الحكم وشئون السياسة، والظواهر الاقتصادية والتربوية وأنواع العلوم والفنون والآداب؛ وغيرها مما تضمن معلومات هامة عن حضارة العرب بالأندلس وأنظمة الحكم فيها.

أما الجزء الرابع [٢] فقد تضمن تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى حتى عصر دولة بنى نصر فى غرناطة؛ التى توقف بتاريخها عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م أى حتى قبل وفاته بسنوات قليلة؛ وهو كتاب له قيمته وبخاصة أن ابن خلدون أورد فيه - مثل ابن الخطيب - فصلا خاصا عن الممالك المسيحية فى إسبانيا بعنوان : « الخبر عن ملوك بنى أذفونش من الجلالقة ملوك الأندلس بعد القوط ولعهد المسلمين وأخبار من جاورهم من الفرنجة والبشكنس والبرتغال والإلمام ببعض أخبارهم » [٣] ؛ وهو فصل أثنى عليه بعض المؤرخين الأوربيين فيرون « أنه منقطع النظير لا يوجد ما يمكن أن يقارن به فى أبحاث مؤرخى الغرب، الذين لم يوفقوا فى تدوين تاريخ هذه الممالك بمثل الدقة والوضوح اللذين يتسم بهما تاريخ ابن خلدون » [٤] .

وفى واقع الأمر فقد زودنا ابن خلدون - فى هذا الفصل عن تاريخ إسبانيا المسيحية وفى غيره من الفصول التى تناولت تاريخ الأندلس - بمعلومات استقاها إما من ابن حيان وابن الخطيب؛ أو من قراءاته لمصادر كانت موجودة على أيامه ثم فقدت حتى وقتنا الحاضر . وإن كان يشوب بعض معلوماته أخطاء تحتاج إلى تقويم؛ مثل نسبة بلاجيوس قائد حركة المقاومة فى أشتوريس إلى أصل أشتورى وليس قوطى، وكذلك تاريخ وفاته؛ فضلا عن إغفال ذكر بعض ملوك أشتوريس وإسقاط مدة حكمهم كلية؛ إلى غير ذلك مما سنشير إليه فى حينه .

ومما يحسب لابن خلدون أنه نظم مادته التاريخية تنظيما أدنى إلى التنسيق والدقة؛ فقسمها إلى كتب وكل منها إلى فصول متصلة تتناول كل دولة على حدة؛ مع مراعاة نقط الوصل والتداخل بين مختلف الدول . ومع أنه لم يكن أول من ابتدع هذه الطريقة - فقد سبقه إليها غيره مثل ابن عبد الحكم والمسعودى - إلا أنه تميز عنهم ببراعة التنظيم والربط والوضوح مع الدقة فى تبويب الموضوعات .

وإذا كانت أصالته وتجديده [٥] تبدو فيما أجراه من تحقيقات علمية هامة على

---

(١) كتاب التحرير، القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م مع ملاحظة أنها طبعت مرارا .

(٢) بيروت ١٩٦٨م؛ وهو الآخر طبع عدة مرات .

(٣) أنظر : أعلاه، ٤ ص ٣٨٥ وما بعدها .

(٤) Dozy, Recherches, 1 p 60 .

(٥) ظهرت دراسة حديثة تنفى عنه هذه الأصالة، أنظر : محمود إسماعيل، نهاية أسطورة نظريات ابن خلدون، ط١ ، عامر للطباعة والنشر، المنصورة ١٩٩٦م .

تراث أسلافه الذين أرخوا لتاريخ العرب والإسلام، فاستبعد بعض ما كتبوه على أنه محض اختلاق ولا يتفق مع قوانين العمران؛ مستندا على ما قرره فى مقدمته بشأن الاجتماع الإنسانى ومناهج البحث العلمى وقواعد التحرى التاريخى؛ لكن يعاب عليه أنه أغفل فى بعض الأحيان المنهج الذى رسمه فى هذه المقدمة، فلم يستخدم مثلا ما أشار به لتمييز الأخبار صحيحها وغثها؛ ونقل روايات ضعيفة لا تقوى للنقد وتفتقر إلى سند موثوق .

وإلى نفس قرن ابن الخطيب وابن خلدون أو بدايات القرن الذى يليه ينتمى مؤرخ مغربى آخر مجهول الاسم عاش فى مدينة فاس [١]، وألف كتابا عن تاريخ الأندلس من الفتح حتى عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، حققه لويس مولينا Luis Molina ونشره بعنوان : ذكر بلاد الأندلس، لمؤلف مجهول، منشورات معهد ميخيل أسين [٢] Instituto Miguel Asin ، مدريد ١٩٨٣م، فى جزأين؛ أفرد أولهما للنص العربى مع مقدمة قيمة للتعريف بالمؤلف ومحتويات كتابه، ينوه فيها بأن نسخ المخطوط تنقص صفحة العنوان واسم المؤلف، مما دعاه إلى اقتباس العنوان السابق من مقدمة المؤلف ليدل به على المحتوى [٣] . فى حين خصص الجزء الثانى لترجمة إسبانية للنص، بعنوان : Una Descripcion Anonima de Al - Andalus، الذى ذيله هو الآخر بدراسة أخرى باللغة الإسبانية عن تاريخ تدوين الكتاب ومؤلفه ومصادره المتعددة .

وهذا الكتاب جغرافى تاريخى اتبع فيه مؤلفه تقليدا سبقه إليه بعض المؤرخين والجغرافيين مثل الرازى؛ بأن جمع بين الجغرافية والتاريخ وجعل القسم الجغرافى مقدمة طويلة للقسم التاريخى، تبدأ بهيئة الأندلس وفضائلها ومنتجاتها ووصف مدنها وصفا حافلا بمادة جغرافية واقتصادية خصبة وفريدة أحيانا . أما القسم التاريخى فبدأه بعرض موجز لتاريخ إيبيريا منذ القديم حتى الفتح الإسلامى؛ ثم تاريخ الأندلس خلال عصور الولاة والأمراء والخلفاء وتوقف بعصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى .

وتدل مادة الكتاب الجغرافية والتاريخية على أن المؤلف تصور جغرافية البلاد تصوراً سليما، واطلع على أحوالها وألم بتاريخها . ومع أنه اعتمد على كتابات من

---

(١) أنظر : مجهول، ذكر بلاد الأندلس، مدريد ١٩٨٣م، مقدمة المحقق ١ ص ٩، ٢ ص ٣٠٤ وما بعدها .

(٢) معهد تابع للمجلس الأعلى للأبحاث العلمية بمدريد Consijo Superior de Investigaciones Cientificas de Madrid .

(٣) أنظر : مقدمة المحقق، ١ ص ١٣ .

سبقه - مثل الرازى والعذرى والزهرى والحميرى وغيرهم من مؤرخى وجغرافيى الأندلس [1] - حتى ليبدو كتابه مجرد نقل وتجميع؛ فإنه يقدم مادة تسد فراغات فيما بين أيدينا من كتب عن جغرافية الأندلس وتاريخها؛ وهى مادة تحوى معلومات طيبة عن أحوالها الداخلية ونشاطات حكامها؛ وتحفظ فقرات ضائعة من كتابات بعضهم اعتبرها المؤرخون والجغرافيون الحديثون جديدة فنشروها على أنها جديدة، مثل الفقرة التى حققها الدكتور حسين مؤنس ونشرها بعنوان : وصف جديد لقرطبة الإسلامية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد ١٣، لسنة ٦٥ - ١٩٦٦م، ص ١٦١ - ١٨١ ؛ وإن كان قد اعتقد خطأ بأن هذا النص لمؤلف مجهول آخر صاحب كتاب المجموع المفترق . ودراسة أخرى له بعنوان : رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس، بنفس الصحيفة السابقة، العدد ١٨ ، لسنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥م، ص ٧٩- ١٣٠ . والقطعة التى حققها Pere Bolana i Abadia عن وصف مدن قطالونية جغرافيا بعنوان : Toponimia arabigo _ catalana, LLeida, TortosaTarragona segons un manuscrit arab inedit de la Biblioteca Reial de Rabat, Extr. TSFHL, Tarracona 1981 . والقطعة التى حققها لويس مولينا Luis Molina عن حملات المنصور العسكرية، بعنوان : Las Campanas de Almanzor a la luz de neuvo texto, AL _ Qantara, 1981, t 2 pp 209 _ 263 .

ومن أواخر القرن العاشر والنصف الأول من القرن الذى يليه (أواخر السادس عشر الميلادى وأوائل الذى يليه) يطالعنا مؤرخ أديب مغربى أيضا، هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بالمقرى [2]؛ نسبة إلى بلدة مقرة بالمغرب الأوسط التى كانت مقر أجداده ، وإن عاش فى تلمسان التى تلقى فيها تعليمه؛ ومنها ارتحل لطلب العلم فى مدن العالم الإسلامى المختلفة مثل فاس ومدن الحجاز والشام ثم القاهرة التى اتخذها مقاما حتى وفاته فى جمادى الآخرة عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م.

---

(١) عن مصادره أنظر : مقدمة المحقق، ٢ ص٣٠٨ - ٣٣٠؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص٥٩٧ - ٥٩٨ .

(٢) عنه بتفصيل أنظر : محمد عبد الغنى حسن، المقرى صاحب نفح الطيب، سلسلة أعلام العرب (٦٠)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ؛ عنان، تراجم أندلسية، ط٢، القاهرة ١٩٧٠م، حيث يخصص فصلا عن المقرى ص ٣٧١ - ٣٨٦؛ الطاهر مكى، دراسة فى مصادر الأدب، دار المعارف ١٩٨٠م، ص ٢٧٩ - ٢٩٦؛ بالنثيا، نفسه، ف ٩٣ ص ٣٠٢ - ٣٠٤ .

وفى الأخيرة عكف على تأليف كتاب ارتكزت عليه شهرته [١] وهو : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب [٢] .

وهذا الكتاب فريد فى بابه، إذ جعل المقرى من الترجمة لابن الخطيب الأندلسى مركزا تدور حوله طائفة من المعلومات والمعارف المتنوعة؛ فى التاريخ والجغرافية والأدب والشعر والأخبار عن الأندلس التى ينتمى إليها ابن الخطيب؛ فضلا عن تتبع تاريخ صراعها مع ممالك إسبانيا المسيحية حتى قضت الأخيرة على سلطانها فى البلاد . وبذلك صار الكتاب موسوعة حافلة بالمتنوعات عن الأندلس وابنها لسان الدين وعصره كله؛ استقاها المؤلف من كم هائل من المصادر المعاصرة له؛ ومن هنا تأتى عظم فائدته وقيمته كمصدر أساسى لا غنى عنه للباحثين فى تاريخ الأندلس وآدابها رغم تصنيفه المتأخر .

حقيقة يؤخذ على المؤلف استطراداته المتنوعة بحيث ينتقل من التاريخ إلى الجغرافيا، ومن الأخيرة إلى الشعر، ثم إلى الفقه وإلى الأدب وغيره؛ فضلا عن ميله إلى النقل دون أن يلتزم فيه منهجاً معينا؛ كأن يأتى على رسالة بكاملها مهما طالت، أو يبترها ولو قصرت، أو يكرر رواية فى أكثر من موضع بصورة تشتت القارئ [٣]؛ إلا أنه بفضل أمانته فيما نقل فقد احتفظ بفقرات إما بنصها أو ملخصة من كتابات مفقودة لمؤرخى الأندلس الأوائل كالرازى وابن حيان وغيرهما؛ وهى فقرات تحوى معلومات هامة للغاية عن وصف الأندلس جغرافيا، وتاريخ مسلميها وعلاقتهم بإسبانيا المسيحية .

وحقيقة أيضا أن بعض هذه الفقرات مقتضبة ومضغوطة بسبب ما عمد إليه المقرى أحيانا من اختصارات؛ لا سيما ما تعلق ببدايات ثورة إقليم أشتوريس على المسلمين وتطور أحداثها؛ والحملات الإسلامية على أشتوريس وبلاد البشكنس؛ إلا أنها

---

(١) فضلا عن كتاب آخر هام هو : أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، ولكنه خارج عن الإطار الزمنى لدراستنا .

(٢) حقق وطبع عدة مرات منها طبعة بولاق فى أربعة أجزاء عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م؛ والمطبعة الأزهرية فى أربعة أجزاء أيضاً عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م؛ ثم مرة ثالثة فى القاهرة عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٩م حيث قامت المكتبة التجارية بإصداره فى عشر مجلدات حققها محمد محى الدين، التى اعتمدنا عليها فى الجزأين الأول والرابع على الخصوص؛ وأخيرا حققه إحسان عباس فى ثمانية مجلدات شاملة الفهارس ببيروت عام ١٩٦٨ م .

(٣) عن منهجه راجع : محمد عبد الغنى حسن، نفسه، ص ٨٧ - ٨٨، ١١٢ - ١١٣، ١١٨، ١٥٢ - ١٥٣؛ الطاهر مكى، دراسة فى مصادر الأدب، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

مع ذلك هامة ومفيدة حين مقارنتها وربط خيوطها وعناصرها بما ورد عنها فى المصادر الإسلامية والإسبانية الأخرى؛ بحيث حظى الكتاب باهتمام المستشرقين؛ فحقق المؤرخ الهولندى دوزى R. Dozy القسم الأول المتعلق بتاريخ الأندلس، ونشره بعنوان : Analectes sur L' Histoire et Litterature des Arabes d' Espagne, 2t, Leyde 1855 - 61 . وهى طبعة تمتاز بكثرة تعليقاتها وتصويباتها وهوامشها، وضبط أعلامها وكلماتها غير العادية فضلا عن فهارس كاملة . ثم ترجم المؤرخ الإسبانى جايَنجوس P. de Gayangos هذا القسم أيضاً إلى الإنجليزية، بعدما أعاد ترتيب أحداثه زمنيا معلقا عليها بهوامش لا بأس بها؛ ونشره بعنوان : The History of the Mohamedan Dynasties in Spain, London 1840 - 1843 .

أما المصادر التاريخية الإسلامية التى ألفها المؤرخون المشارقة، وقت أن كانت الأندلس تابعة للمشرق أو بعد أن استقلت عنه، فلها هى الأخرى أهميتها لموضوع الدراسة؛ إذ اعتمدت على كتابات أندلسية لا زلنا نفتقد بعضها حتى الوقت الحاضر، وتناولت التأريخ للمسلمين فى الأندلس؛ فألقت الضوء على الجذور البعيدة لأسباب معاناتها من صراعات العرب والبربر، ومدى تأثيرها على أوضاع المسلمين هناك؛ وعلاقات الأندلس بإسبانيا المسيحية؛ إلى غير ذلك من المعلومات التاريخية التى لا غنى عنها لدراس إسبانيا العصور الوسطى . ومن أمثلة هذه الكتب كتاب : «فتوح مصر والمغرب والأندلس» [1]، للمؤرخ المصرى عبد الرحمن بن عبد الحكم[2] (١٨٧ ـ ٢٥٧هـ/ ٨٠٣ ـ ٨٧١م) كأقدم كتاب عربى يصلنا عن تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن الميلادى تقريبا؛ وأبعدها عن الأساطير أو المبالغات [3]؛ لأنه اعتمد فيه على رواة موثوق فيهم، واجتهد فى تحقيق ما وصل إليه من أخبار على طريقة أهل الحديث؛ فانتشر كتابه فى الأندلس وأخذ عنه كثير من المؤرخين اللآحقين له مثل ابن الفرضى والحميدى وغيرهم .

---

(١) نشر بالعربية عدة مرات آخرها التى قام بها عبد الله أنيس الطباع، بعنوان : فتوح إفريقية والأندلس، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٦٤م . كما نشر مع ترجمات انجليزية أو فرنسية، فنشره بالعربية مع ترجمة إنجليزية شارلز تورى Charles Torrey بعنوان : The History of the Conquest of Egypt, North Africa and Spain, Leyden 1920 . كما نشر البرت جاتو A Gateau القسم الخاص بالمغرب والأندلس فقط مع ترجمة فرنسية بعنوان : Conquete de l'Afrrique du Nord et d'Espagne

(٢) عنه أنظر : بروكلمان، تاريخ الأدب، ٣ ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(٣) أنظر : أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧؛ Sanchez Albornoz, En Torno, 2 pp 65 - 66 .

على أن الكتب المشرقية التي تبذ غيرها في قيمتها الحقيقية لموضوع الدراسة كتابان لم يقتصرا على تاريخ الأندلس وحدها، وإنما اشتملا على تاريخ إسبانيا المسيحية وعلاقاتها بالمسلمين . ورغم أن تصنيفهما متأخر فإنهما اعتمدا على كتب المؤرخين الأندلسيين التي لا زال بعضها مفقودا؛ فاحتفظا لنا بأخبار يصعب الحصول عليها . وأول هذين الكتابين كتاب : « الكامل في التاريخ » [١]، لعلى بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير [٢] (٥٥٥ - ٦٣٠هـ/ ١١٦٦ - ١٢٣٣م)؛ الذي اتبع فيه النظام الحولي في التأريخ للمسلمين بعامة حتى عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م؛ وإن كانت روايته عن تاريخ الأندلس تقف عند النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ربما بسبب توقف المصدر الذي كان ينقل عنه .

وثاني هذين الكتابين كتاب : « نهاية الأرب في فنون الأدب »، لأحمد بن عبد الوهاب النويري [٣] (٦٧٧ - ٧٣٢هـ/ ١٢٦٧ - ١٣٣٢م)، وهو كتاب موسوعي ضخم يتناول عدة فنون من بينها التاريخ، الذي خصصه المؤلف لتاريخ الدول الإسلامية واحدة بعد الأخرى؛ متبعا - مثل ابن الأثير - المنهج الحولي في ذكر تاريخ كل دولة . وتحوي روايته عن الأندلس [٤] معلومات قيمة وهامة مثل التي أوردها ابن الأثير، وإن لم يتوقف مثله بتاريخها حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري؛ وإنما واصل روايته عنها حتى قريبا من عصره . وأول من حقق القسم الخاص بتاريخ الأندلس من هذه الموسوعة، المؤرخ الإسباني جسبار رميرو Gaspar Remiro ، ونشره متنا

---

(١) طبع عدة مرات في ليدن ومصر وآخر طبعاته هي التي صدرت في دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م في أحد عشر جزءاً . واعتمدنا على طبعة القاهرة ١٣٥٧هـ، وعلى الأخص الأجزاء من ٤ - ٦ .

(٢) عنه أنظر : ابن خلكان، نفسه، ٣ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ رقم ٦٠ عبد القادر أحمد طليمات، ابن الأثير الجزري، سلسلة أعلام العرب (٨٣)، القاهرة ١٩٦٩م . A. Bleye, Manual de Historia de Espana, Madrid 1975, 1 p 542 .

(٣) عنه أنظر : السيد سالم، المغرب الكبير، ٢ ص ٩١؛ أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، القاهرة ١٩٧٤م، ص ٣٢ - ١٣٤ Sanchez Albornoz, En Torno, 2 p 265; Sanchez Alonso, op. cit, 1 pp 281 - 282 .

(٤) أورد النويري تاريخ الأندلس في البابين الخامس والسادس من الفن الخامس الذي خصصه لتاريخ الدول الإسلامية، ففي الباب الخامس أورد تاريخ الأندلس منذ قيام الدولة الأموية عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م حتى نهاية عصر الطوائف قرب نهايات القرن الخامس ا لهجري وبالتحديد عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م . أما تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر الولاية (٩٢ - ١٣٨هـ/ ٧١١ - ٧٥٦م) ثم تاريخها منذ نهاية عصر ملوك الطوائف في نهايات القرن الخامس الهجري وخلال عصري المرابطين والموحدين فقد أورده ضمن تاريخ المغرب على اعتبار أن الأندلس خلال هاتين الفترتين كانت تابعة للمغرب .

وترجمة إسبانية فى مجلدين بمدينة غرناطة ١٩١٧م؛ وهما المجلدان اللذان نشرتهما الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة، ضمن الجزء الثالث والعشرين (١٩٨٠م) والرابع والعشرين (١٩٨٣م) .

ولا غنى للباحث فى التاريخ عن الرجوع أيضاً إلى المصادر الجغرافية فلها هى الأخرى ضرورتها؛ لأن دراسة البيئة بتضاريسها ومناخها ومواردها البشرية والاقتصادية لأى قطر لازمة لفهم تاريخه .

ومع أن اليونان ومن بعدهم الرومان كانوا أول من كتبوا عن إيبيريا، إلا أن معلوماتهم عنها قامت فى معظمها على السماع وحده؛ عكس ما كان عليه الحال عند جغرافيى المسلمين الذين اعتمدوا على المشاهدة أو الرحلة والتجربة الشخصية، لأنهم كانوا من أهل البلاد أو ممن رحلوا إليها من المغرب؛ وهو ما جعل معلوماتهم عنها أوفى وأوثق؛ فضلا عن أنهم لم يقتصروا على وصف هيأتها العامة وإنما اهتموا أيضاً بوصف أقاليمها وبلدانها ومدنها والمسافات بينها وأطوالها؛ وذكر أوجه النشاط البشرى فيها، وصفات أهلها وعاداتهم؛ أى أنهم تعدوا الجغرافية الطبيعية فى وصف هيأتها إلى جغرافيتها البشرية والاقتصادية، وضمنوا كل ذلك ما يتصل بها من أخبار ووقائع تاريخية .

ويعتبر الرازى - الذى أشرنا إليه كأحد أوائل مؤرخى الأندلس - أول من وضع مفهوم هذا الاتجاه الجغرافى فى الأندلس، فهو أول من مهد لكتابه التاريخى بمقدمة جغرافية طويلة عن تحديد موقع إيبيريا ووصف هيأتها العامة وطبوغرافيتها؛ وذكر أقسامها الإدارية ووصف مدنها وحصونها وقلاعها وأهميتها الحربية؛ وحاصلاتها الزراعية وثرواتها المعدنية وأوجه الانتفاع بها؛ إلى غير ذلك من أوجه النشاط البشرى والاقتصادى فيها [١] . وهذا الأساس - الذى وضعه الرازى - صار نقطة انطلاق لمن جاء بعده من جغرافيى الأندلس، وأولهم أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى المعروف بالدلائى [٢] (٣٩٣ - ٤٧٨هـ/ ١٠٠٢ - ١٠٨٥م) .

فقد ألف العذرى كتابا فى الجغرافية بعنوان : « ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك » مفقود مع الأسف؛ وما عثر

(١) بتفصيل راجع : مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٥٦ - ٥٧؛ بويكا، نفسه، ٨١، ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) نسبة إلى قرية دلاية إحدى قرى مدن دلاية بجنوب شرقى الأندلس، وعنه راجع : ابن الأبار، التكملة، مصر ١٣٧٥هـ، ١ ص ٢١٢ رقم ٥٦٨، ابن بشكوال، الصلة، ١ ص ٦٦ - ٦٧ رقم ١٤١؛ الضبى، بغية، ص ١٨٢ - ١٨٤ رقم ٤٤٦؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٨١ - ٨٣ .

عليه منه يتعلق بجغرافية الأندلس وتاريخها؛ حققه الدكتور عبد العزيز الأهوانى، ونشره بعنوان : نصوص عن الأندلس، منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مدريد ١٩٦٥ م . وهى ذات القطعة التى ترجمها دى لاجرانخا F. de la Granje إلى الإسبانية ونشرها بعنوان : La Marca Superior en la Obra de Al - Udri, Est. EMCA, Zaragoza 1967, vol 8.

ومن هذه النصوص يبدو واضحا أن العذرى سار بالجغرافية الأندلسية خطوة متقدمة عن الرازى، من حيث الطريقة التى اتبعها فى التأليف وفى تنوع مادتها؛ فأضاف إلى وصف هيأة إيبيريا وتقسيماتها الجغرافية تفصيلات جديدة؛ كما توسع فى جغرافيتها البشرية والاقتصادية [1]؛ إذ اهتم بوصف أقاليم الأندلس ومدنها والطرق إليها وتقدير مسافاتها؛ وصفا دقيقا حافلا بمعلومات لا تصدر إلا عن مشاهدة شخصية ومعرفة تامة لما تحويه هذه الأقاليم من مدن وقرى وأجزاء؛ ولا غرو فى ذلك فقد كانت الأندلس وطنه ومن ثم كانت معرفته بها أكمل من معرفته بأى بلد آخر . ولم يفته أيضاً أن يصف سكان كل مدينة وموارد ثروتهم ومقدار ضرائبهم ونوعيتها ومساحة أراضيهم، وغيرها من معلومات لا تصدر إلا عن مطلع على وثائق رسمية وليس المشاهدة وحدها . وإلى جانب ذلك يذكر ما يتصل بكل إقليم أو مدينة من أخبار وأحداث تاريخية متنوعة مثل : فتن العرب والبربر والمولدين، وبخاصة فى منطقة الثغور المتاخمة لأراضى إسبانيا المسيحية فى الشمال؛ وعلاقات الأسر الحاكمة فيها بممالك إسبانيا المسيحية لا سيما مملكتى أشتوريس وبمبلونة؛ . وبعض هذه الأخبار يقف بها عند منتصف القرن الرابع الهجرى مما يعنى أنه استقاها ممن سبقه من المؤرخين كالرازى؛ وبعضها الآخر يصل بها إلى ما بعد منتصف القرن الخامس، وبالتحديد حتى عام ٤٧٦هـ/١٠٨٣م أى حتى قبل وفاته بعامين فقط . الأمر الذى جعل من هذه القطعة أهمية تاريخية فائقة إلى جانب أهميتها الجغرافية .

أما عبد الله بن عبد العزيز بن محمد المعروف بأبى عبيد الله البكرى [2] (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، أكبر جغرافيى الأندلس بكتابه : « المسالك والممالك » الذى وصل فيه إلى درجة من الشمول والاتساع والدقة لم يصل إليها أحد قبله؛ إذ تناول فيه ممالك العالم كله على طريقة المسالك والممالك؛ بادئا بالحديث المطول عن المملكة

---

(١) أنظر : مقدمة محقق النص؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٨٤ ـ ٩٦ .

(٢) عنه وعن مؤلفاته راجع : عبد الله يوسف الغنيم، حصاد البكرى ومنهجه الجغرافى، منشورات دار ذات السلاسل، الكويت ١٩٧٤م؛ وانظر أيضا : مؤنس ، تاريخ الجغرافية، ص ١٠٨ ـ ١٤٨ ؛ بالنثيا، نفسه، ف ٩٥ ص ٣٠٩ ـ ٣١١؛ Pons Boigues, op cit, pp 160 - 163 .

وحدودها ومسالكها وطرقها والمسافات بينها، ثم طرفا من تاريخها وعادات أهلها؛ حتى صار كتابا من الطراز الأول فى الجغرافية الوصفية بشرية واقتصادية .

وما عثر عليه من مخطوطات الكتاب - وهى غالبيته - حققها مؤخرا كل من أدريان فان ليوفن A. P. Van Leeuven وأندرى فيرى A. Ferre ، ونشراها بالعنوان السابق فى جزأين، ضمن منشورات الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة بقرطاج - تونس ١٩٩٢م . ويهمنا منه القسم المتعلق بوصف الأندلس، ويقع فى نهاية الجزء الثانى صفحات ٨٩٠ - ٩١٣ ، وهو القسم الذى كان دى سلان De Slane حققه من قبل، وإن نشره مع ما يتعلق بإفريقية الشمالية وبلاد السودان فى مدينة الجزائر عام ١٨٥٧م؛ ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشره فى العام الذى يليه . أما المؤرخ الفرنسى ليفى بروفنسال Lévi _ Provencal فاقتصر على تحقيق مقتطفات من هذه القطعة الأندلسية ونشرها ذيلا على كتاب : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، القاهرة ١٩٣٧م، بعنوان : Texte et Traduction de : Passages du Debut de la Description de L' Espagne D' AL _ Bakri, Non utilisés par le Reducteur D' Ar _ Rawd Almi'tar, pp 245 - 252 . وأخيراً حقق الدكتور عبد الرحمن الحجى هذه القطعة الأندلسية كاملة، ونشرها بعنوان: جغرافية الأندلس وأوربا، بيروت ١٩٦٨م .

ويصف البكرى فى هذه القطعة الأندلسية هيئة إيبيريا وحدودها وأسمائها المختلفة التى عرفت بها على مر العصور؛ ومناخها وتقسيماتها الإدارية التى ظلت قائمة حتى الفتح الإسلامى؛ وأشهر مدنها وحصونها وثغورها وجبالها وأوديتها وثرواتها استقاها من كل من الرازى والعذرى؛ مع ما يتخلل ذلك من معلومات تاريخية هامة عن المواضع التى يذكرها . ثم يختتم هذه القطعة بوصف جغرافى فريد لمملكة جليقية الإسبانية، وحدودها وأقسامها الإدارية، مع وصف سكانها وعاداتهم ومنتجاتهم؛ وفيه تتجلى دقة البكرى فى رسم الأعلام والتثبت منها فى كتابات الجغرافيين الإغريق والرومان وحتى القوط مثل إيزيدور الإشبيلى .

أما كتاب : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » [١] للجغرافى الشهير أبى

---

(١) نشر الكتاب كاملا بالعربية بإشراف معهدين إيطاليين هما : Instituto Universitairio Orientalo di Napoli, Instituto Italiano per il Medio ed Estemo Oriente فيما بين عامى ١٩٧٠ - ١٩٧٥م، وأشرفت لجنة من كبار المستشرقين فى إيطاليا على هذا العمل، وصدرت الطبعة فى ثمانية فصول جمعت كلها فى مجلدين كبيرين عدا الفهارس؛ وأعادت مكتبة الثقافية الدينية تصويره بالقاهرة عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. وتوجد طبعة مختصرة من هذا الكتاب بعنوان : نزهة المشتاق فى ذكر البلدان والأمصار، روما ١٥٩٢م، هذا وكان المستشرق جوبيرت A De Joubert أول من ترجم الكتاب إلى الفرنسية؛ ومن بعده اعتزم كل من دى خوية Goeje ودوزى Dozy نشره مرة أخرى وإعادة ترجمته، لكنهما لم يوفقا إلا فى نشر القسم الخاص بالمغرب والأندلس فقط، فى ليدن ١٨٦٦م .

عبدالله محمد بن محمد الإدريسى (٤٩٣ ـ ٥٦٠هـ/ ١١٠٠ ـ ١١٦٥م) الذى يلقب بالشريف الإدريسى (١)، الذى وصف فيه الكرة الأرضية ـ بما فيها القارة الأوربية لأول مرة فى الجغرافية العربية ـ وصفا جغرافيا خالصا، قائما على الحقائق والمشاهدة والقياس والمقارنة؛ بطريقة جعلت أحد المستشرقين يصفه بأنه يحتل مركز الصدارة بين كل ما ألف الناس فى الجغرافية فى العصور الوسطى، وجعلته يمثل ذروة ما وصل إليه هذا العلم من تطور سواء فى الشرق أو الغرب، بحيث لم تكن المؤلفات الجغرافية بعده سوى نسج على طرازه (٢) .

وما يتصل فى هذا الكتاب بإيبيريا يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام؛ أولها قصير عن هيأتها العامة وانقسامها إلى قسمين، أحدهما إسلامى فى الجنوب يسميه إشبانيا والآخر مسيحى شمالى يسميه قشتالة؛ نسبة إلى مملكة قشتالة رأس الممالك الإسبانية وأكبرها على أيامه . والقسم الثانى أطول قليلا يصف فيه أقاليم إيبيريا؛ أما القسم الثالث فهو الأطول والأهم ويتناول بالوصف مدن إيبيريا واحدة بعد الأخرى؛ من حيث هيأتها العامة وموقعها بحرية أو برية أو نهرية، ويصف مرفأها وأهميتها وأصناف تجارتها؛ وأهم معالمها المعمارية من أسوار وخلافه، وزمامها وما يزرع فيها أو يستخرج منها، ومقداره ومدى جودته وما يصنع فيها؛ ثم أعلامها الجغرافية من جبال ووديان، وأراضيها مقفرة أو منتجة، والطرق الموصلة إليها ومعالمها؛ وأهلها وأحوالهم من فقر أو غنى؛ ونادرا ما يختلط ذلك عنده بالتاريخ .

والمدقق فى هذا القسم يلاحظ أن الإدريسى اتخذ من المدينة وليس الإقليم مركزا للوصف؛ استند فى معلوماته عنها إما على مشاهداته المباشرة حيث أقام فيها ردحا من الزمن مترددا على نواحيها، وإما على كتابات السابقين عليه من جغرافيى المسلمين كالرازى والعذرى والبكرى، ومن جغرافيى اليونان مثل أوروسيوس

---

(١) توجد دراسات عديدة عن الإدريسى ومؤلفاته ومنهجه مثل:عبد الله بن كنون، الشريف الإدريسى، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب (٢٤)، تطوان بدون تاريخ؛ أحمد سوسة، الشريف الإدريسى فى الجغرافية العربية، جزءان، بغداد ١٩٧٤م؛ والدراسة القيمة التى أفردها حسين مؤنس فى كتابه : تاريخ الجغرافية، ص ١٦٥ ـ ٢٨٠؛ وما خصصه له نفيس أحمد فى كتابه : جهود المسلمين فى الجغرافية، ترجمة فتحى عثمان، مجموعة الألف كتاب، القاهرة بدون تاريخ؛ فضلا عن الدراسة التى قام بها جيوڤانى أومان Giovanni Oman كأحسن دراسة ببليوغرافية عن الإدريسى وما نشر من كتابه بعنوان : Notizie Bibliograpiche sul Geografo Arabo AL _ Idrisi (xii Secolo) a sulle sue Opere . EIUO, Nuova serie, Volume XI,Roma 1961 .

(٢) عن آراء المؤرخين فى تقييم الكتاب أنظر : مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

وبطليموس . وما يثير الدهشة أن الإدريسى رغم عدم زيارته لإسبانيا المسيحية فقد جاء وصفه الجغرافى لها وصفا دقيقا يطابق الواقع؛ بما فى ذلك سواحلها وجبالها وأنهارها ومدنها وقراها، والطرق إليها والمسافات بينها مبينا مراحلها . فأوفى بذلك الشمال المسيحى حقه من الوصف بأكبر قدر من المعلومات فى أصغر حيز ممكن؛ وهذا إن دل على شىء فعلى ملكته الجغرافية وقدرته على جمع المعلومات وتصنيفها؛ فاستحق بالتالى هو والبكرى أن يكونا رائدين جغرافيين إسلاميين فى وصف هذه المنطقة المسيحية .

ولا شك أن أهمية ما أورده الإدريسى عن إيبيريا بشطريها الإسلامى والمسيحى هو الذى دفع كثيرا من المستشرقين إلى تحقيق نصه ودراسته، وأهم هذه الدراسات ما يلى :

١ ـ الدراسة التى قام بها خوسيه أنطونيو كوندى José Antonio Condé ، عن النصف الشمالى من شبه جزيرة إيبيريا حتى جبال الشارات الواقعة شمال مدريد بقليل، ونشرها بالعربية بعنوان : ذكر بلاد الأندلس تأليف الشريف الإدريسى؛ وأرفق بها ترجمة إسبانية بعنوان : Descripcion de Espana de Xerif Aledrisi, Conocido por el Nubiense, Con Traduccion y Notas, Madrid 1799.

٢ ـ الدراسة التى قام بها المستشرقان الهولنديان دى خوية J. de Goeje ودوزى R. Dozy ، اللذان حققا فيها قطعة تشمل بلاد المغرب والسودان ومصر ومعها الأندلس، ونشراها بالعربية مع ترجمة فرنسية مضافا إليها تعليقات وشروحا وافية بعنوان : Description de L' Afrique et de L' Espagne par Edrisi, Leiden 1866 ؛ وعنوان النص العربى هو : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسى .

٣ ـ وقد قام بدراسة هذا القسم أيضاً المستشرق خوسيه أليمانى بولوفر José Alemany Bolufer فى بحثه القيم عن شبه جزيرة إيبيريا عند الجغرافيين العرب، بعنوان : La Geografia de la Péninsula Iberia en los Escritores Arabes, R. CEHG, t IX, mans 3 - 4, 1919 .

٤ ـ ثم الدراسة التى قام بها المؤرخ الإسبانى سابدرا E. Saavedra لنشر بقية وصف إيبيريا بعنوان : La Geografia de Espana del Edrisi, Bol. RSG Madrid 1885, t XVIII, p 224 _ 242 .

٥ ـ الدراسة التى قام بها المستشرق السويسرى سيزار دوبلر César Dubler

التى تناول فيها وصف الطرق إلى مدينة كمبوستلا كما وردت عند الإدريسى، بعنوان Los Caminos a Compostella en la Obra de Idrisi, AL _ Andalus : 1949, t XIVpp 59 - 122 . وله دراسة أخرى وهى بعنوان : Las Laderas del Pirineo Segun Idrisi, AL- Andalus, t XVIII pp 337 - 373 ، أى ممرات جبال البرتات كما وردت عند الإدريسى .

وترتبط المعاجم الجغرافية أيضاً بكتب الجغرافية لأنها تجمع بين المادة الجغرافية والتاريخية المتنوعة، ولذا تحتل هى الأخرى أهمية بالغة فى دراسة تاريخ الأندلس وجغرافيتها؛ ويأتى على رأس هذه المعاجم : « الروض المعطار فى خبر الأقطار » [1] لمؤلفه أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى [2] الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى. وهو معجم جغرافى تاريخى فى آن واحد، جمع المؤلف فيه مادة جغرافية صحيحة ودقيقة نسقها على نحو مترابط؛ بحيث تبدو بعضها كدراسة جغرافية للمواقع التى اختارها، ثم يكمل هذه الدراسة الجغرافية بما يتعلق بهذه المواقع من أخبار تاريخية مختلفة؛ وهو منهج أشار إليه فى مقدمة معجمه بقوله : « صار هذا الكتاب محتويا على فنين مختلفين، أحدهما ذكر الأقطار والجهات ..... وثانيهما الأخبار والوقائع المختلفة بها » [3]؛ ومن ثم تنوعت مصادر المعجم بين تاريخية وجغرافية وحتى أدبية .

وقد انتقى المؤرخ الفرنسى ليفى بروفنسال Lévi - Provençal المواد الأندلسية من هذا المعجم وحققها ثم نشرها بعنوان : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، القاهرة ١٩٣٦م . ثم ترجمها إلى الفرنسية مع مقدمة تتضمن دراسة وافية عن المؤلف وتاريخ تأليف المعجم فضلا عن تعليقات قيمة، ونشرها فى القاهرة أيضا فى العام الذى يليه . ثم أعاد نشر هذا المجموع بعنوان : La Péninsula Ibérique au Moyen - Age daprés le Kitab al _ Rawd al _ Mi' tar fi Habar al _ Aktar, d' Ibn Abd al - Mun' im al - Himyari, Leiden 1938 .

وتبدأ المادة المتعلقة بالأندلس بمجموعة من الفقرات التمهيدية ـ التى تذكر

---

(١) حققه كاملا إحسان عباس، ط١، بيروت ١٩٧٥م (ط٢، ١٩٨٤م) .

(٢) عنه أنظر : بالنثيا، نفسه، ف ٩٦ ص ٣١١ ـ ٣١٢؛ صالح الحمارنة، من هو مؤلف الروض المعطار، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٧، بغداد، ص ١٧٥ وما بعدها؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٥٢٩ وما بعدها .

(٣) أنظر : مقدمة المحقق، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م، ص ١ .

عادة فى كتب الجغرافية الأندلسية كمدخل لتاريخها - وهى فقرات مقتبسة من الجغرافيين والمؤرخين السابقين كالرازى والبكرى وابن حبيب وابن حيان وغيرهم؛ ولكن ما يميزها أنها خليط من الجغرافية الطبيعية والفلكية ودراسات فيلولوجية فى أصل اسم الأندلس، وموقعه من الأقاليم وهيأته ومناخه وفضل أهله فى الجهاد؛ ومسافة ما يملكه المسلمون فيه على أيامه، ومن سكنه من أجناس قبل المسلمين؛ ثم يسترسل المؤلف مع التاريخ حتى يصل إلى الفتح الإسلامى فيذكره بتفصيل، ثم يسير على هذا المنهج فى الكلام بعد ذلك على كل موضع من مواضع الأندلس .

ولا تقتصر أهمية هذه المواد الأندلسية على قيمتها الجغرافية والتاريخية المتنوعة، وإنما على ما يرد فى ثناياها أيضا من معلومات اجتماعية واقتصادية ذات قيمة فائقة؛ مثل مصادر الثروة الطبيعية المعدنية والنباتية، والأنشطة الصناعية، والضرائب والأسواق، والعادات والتقاليد والملبس؛ إلى غير ذلك مما يحتاجه الباحث فى التاريخ .

وإلى جانب المصادر التاريخية والجغرافية السابقة، تحتل كتب الطبقات والتراجم الأندلسية مكانة هامة أيضاً، فهى وإن كانت فى ظاهرها تراجم لفقهاء الأندلس وقضاتها وعلمائها ورواتها وولاتها وأمرائها والمشهورين منهم؛ ولا تندرج بالتالى ضمن كتب السيرة التى تعنى بالأخبار وتتبعها والاستطراد فيها؛ فإنها ذات فائدة كبيرة بما تزخر به فى ثنايا تراجمها من معلومات متنوعة عن أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية أى الحضارية بصفة عامة، أكثر من اهتمامها بالجانب السياسى الذى هو غاية المصادر التاريخية ومحورها .

ويكفينا من هذه الكتب الإشارة إلى بعضها مثل : كتاب : تاريخ علماء الأندلس [(١)]، لأبى عبد الله بن محمد الأزدى المعروف بابن الفرضى[(٢)] (٣٥١ - ٤٠٣هـ/ ٩٦٢ - ١٠١٢ م)، شيخ أصحاب معاجم التراجم الأندلسية ومقرر أصوله . وكتابه هذا تراجم لعلماء الفقه ورواة الحديث ومن فى

---

(١) أول من حققه فرانسيسكو كوديرا F. Codera ، ونشره بنصه العربى ضمن مجموعة المكتبة العربية الإسبانية Biblioteca Arabica - Hispana جـ٢، مدريد ١٨٨٤ م؛ ثم أعيد نشره فى القاهرة عام ١٩٥٤م، وأخيرا نشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة، المكتبة الأندلسية (٢)، قسمان فى مجلد واحد، القاهرة ١٩٦٦م وعليها اعتمدنا .

(٢) عنه أنظر : بالنثيا، نفسه، ف ٨٤ ص ٢٧٠ وما بعدها؛ ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الثانى، القاهرة ١٩٤٢م، ص ١٣٠ ؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٩٩ - ١٠٠؛ بويكا، نفسه، ص ٢٢١ - ٢٢٣؛ Pons Boigues, op cit, pp 105 _ 108

حكمهم من الأندلسيين، منذ الفتح الإسلامى حتى مطلع القرن الخامس الهجرى (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)؛ ومع أنها تراجم مختصرة تخلو من التفاصيل والاستطرادات والروايات على النحو الذى أراده مؤلفه كما يذكر فى المقدمة [١]، فإنه تحرى فيها غاية الدقة .

أما كتاب : القضاة بقرطبة [٢] لأبى الحارث الخشنى [٣] (ت حوالى عام ٣٦٠هـ/ ٩٧١م) فهو تراجم لقضاة قرطبة؛ وأهميته بالغة فى التعرف على نمط النظام القضائى والحياة الاجتماعية بالأندلس حتى منتصف القرن الرابع الهجرى، بما يشير إليه من عادات الأندلسيين وتقاليدهم ولباسهم وحتى لغتهم؛ مثل إشارته إلى انتشار اللغة الأعجمية بين الأندلسيين إلى درجة أن بعض القضاة كانوا يتقنونها ويناقشون بها المتهمين أثناء المحاكمة .

ولا يقل أهمية عن الكتاب السابق الذكر، من حيث التعرف على الحياة القضائية والاجتماعية فى الأندلس من الفتح وحتى القرن الثامن الهجرى، كتاب : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، والمعروف أيضاً بتاريخ قضاة قرطبة [٤]، لمؤلفه على بن عبد الله بن محمد النباهى الأندلسى المولود عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م .

ثم كتاب : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس [٥] ، لأبى عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى [٦] (٤٢٠ ـ ٤٨٨هـ/ ١٠٢٩ ـ ١٠٩٥م)؛ وهو تراجم لرواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوى النباهة والشعر والرياسة والحرب؛ ويشوبه بعض الأخطاء لكنه فى مجمله عظيم الفائدة، لدرجة جعلته أساسا لمن جاء بعد الحميدى فاعتمدوا عليه اعتمادا كليا وصل إلى حد نقل عباراته حرفيا .

---

(١) طبعة القاهرة ١٩٦٦م، ص ١ .

(٢) أول من حققه خوليان ريبيرا J. Ribera ونشره مع ترجمة إسبانية، مدريد ١٩١٤م؛ وأعيد تصويره فى القاهرة كطبعة ثانية عام ١٩٥٢م، وطبعة ثالثة عام ١٩٦٦م؛ وأخيرا نشره إبراهيم الإبيارى ضمن مجموعة الكتب الأندلسية (٤)، دار الكتب الأندلسية، القاهرة ـ بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

(٣) راجع عنه مقدمة كتابه، طبعة القاهرة ١٤٠٢هـ، ص ٢ ـ ١٧؛ بويكا، نفسه، ص ١٨٤ – ١٨٩ .

(٤) حققه ليفى بروفنسال Lévi - Provençal ونشره فى القاهرة عام ١٩٤٩م؛ ثم حققته لجنة إحياء التراث العربى، ونشرته دار الآفاق الجديدة ببيروت ضمن مجموعة ذخائر التراث العربى عام ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م؛ ثم توالت طبعاته بعد ذلك حتى الطبعة الخامسة عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

(٥) أول من حققه محمد بن تاويت الطنجى، ونشره ضمن سلسلة تراث الأندلس (١)، مصر ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م؛ وأعيد طبعه عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، ثم نشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦١م؛ وأخيرا نشره إبراهيم الإبيارى، ضمن مجموعة الكتب الأندلسية (٥)، القاهرة ـ بيروت ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤م .

(٦) عنه أنظر : ابن خلكان، نفسه، ٤ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ رقم ٦١٦؛ ابن بشكوال، الصلة، ٢ ص ٥٦٠ ـ ٥٦١؛ Pons Boigues, op cit, pp 164 _ 167 .

وكتاب بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس [1] ، لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى [2] (ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠١م)، أحد أعلام مؤرخى العلم فى الأندلس المشهود لهم بالصدق والثقة والضبط؛ وهو كتاب يواصل فيه تراجم ابن الفرضى عن رواة الحديث وأهل الفقه وغيرهم، من الفتح الإسلامى حتى القرن السادس الهجرى؛ واعتمد فيه على كتاب الحميدى السابق بصفة أساسية .

أما أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الأبار [3] (٥٩٥ ـ ٦٥٨هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢٦٠م)، صاحب التواليف العديدة فى الأدب والحديث والتاريخ؛ فيهمنا من كتاباته كتاب : الحلة السيراء [4] ، أى الثوب المخطط كناية عما يتضمنه الكتاب من قدر هائل من المعلومات فى شتى الموضوعات أدبية وشعرية وتاريخية تتخلل تراجمه لأمراء ورؤساء وخلفاء المغرب والأندلس، حتى منتصف القرن السابع الهجرى؛ ويصور تاريخ الأندلس على نحو يدعو إلى الإعجاب بحيث ينفرد بكثير مما يحدثنا عنه فلا نظفر به فى موضع آخر [5] .

وفى نفس الوقت كان للمصادر الأدبية نصيب فى المساهمة فى موضوع الدراسة لما لها من أهمية فى تصوير الحياة الأدبية فى الأندلس، فضلا عما تحويه من معلومات متنوعة تتصل بالجوانب الحضارية الأخرى ـ سواء الاجتماعية أو الاقتصادية ـ قد لا نجد لها مثيلا فى غيرها من الكتابات، وأهم تلك المصادر الأدبية كتاب : « المغرب فى حلى المغرب » [6] ، الذى أتمه أبو الحسن على بن موسى بن

---

(١) أول من حققه كوديرا F. Codera ونشره بنصه العربى فى مدريد عام ١٨٨٤م، ثم نشر ضمن سلسلة الكتب الأندلسية (٦)، القاهرة ١٩٦٧م .

(٢) عنه أنظر : ابن الأبار، التكملة، ١ ص ٩٣ ـ ٩٤ رقم ٢٤٢؛ بالنثيا، نفسه، ف ٨٥ ص ٢٧٦ وما بعدها؛ Pons Boigues, op cit, pp 257 - 259 .

(٣) عنه أنظر : بالنثيا، نفسه، ف ٨٦ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨؛ Sanchez Alonso, op cit, 1p 193; Pons Boigues, op cit, 1p 291 - 296 .

(٤) كان دوزى Dozy أول من حقق التراجم الأندلسية منه، ونشره فى مقدمة كتاب البيان المغرب، جـ ١، ليدن ١٨٤٧م، ثم حققه كاملا حسين مؤنس، ونشره فى جزأين، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب (٥٨)، القاهرة ١٩٦٣م (ط٢، ١٩٨٥م) .

(٥) بالنثيا، نفسه، ص ٢٧٩ .

(٦) تحقيق شوقى ضيف، جزءان، ذخائر العرب (١٠)، دار المعارف ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥م، وأعيد طبعهما عدة مرات : وهما الجزءان المتعلقان بالأندلس، ويمثلان القسم الثانى من مجموع الكتاب . والكتاب ثمرة جهود ستة أدباء من أسرة بنى سعيد على مدى مائة وخمس عشرة سنة، وعن ذلك أنظر : بالنثيا، نفسه، ف ٨٤ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣، ف ٧٩ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ Pons Boigues, op cit., pp 221 _ 223, 303 _ 310; Sanchez Albornoz, En Torno, 2 p 219 _ 233

سعيد (٦٠٥ - ٦٧٣هـ/ ١٢٠٩ - ١٢٧٤م) [1]، عن وصف الأندلس وتاريخ أمرائها منذ أواخر القرن الثانى حتى منتصف القرن السابع الهجرى . والمدقق فى هذا الكتاب يرى أنه أدبى جغرافى تاريخى عن كل كورة من كور الأندلس، وأهميته تعود إلى اعتماد مصنفيه على مصادر تاريخية وجغرافية لا زالت مفقودة؛ واحتوائه على معلومات تاريخية عديدة من فتن البربر والعرب والمولدين، وعصيان حكام الثغر الأعلى لأمراء الأندلس، وغزوات المسلمين إلى إسبانيا المسيحية؛ وعلاقات أمراء قرطبة أو الثائرين عليهم بملوك إسبانيا المسيحية .

ثم كتاب « العقد الفريد » [2] ، الذى ترتكز عليه شهرة أحمد بن محمد بن عبد ربه [3] (٢٤٦ - ٣٢٨هـ/ ٨٦٠ - ٩٣٩م)، وهو أقدم كتاب أدبى يحوى فصلا عن تاريخ أمراء بنى أمية فى الأندلس حتى عصر المؤلف، يبين مدى اهتمامهم بتحصين ثغورهم؛ والحفاظ على حدود دولتهم ومجاهدتهم إسبانيا المسيحية؛ فضلا عن قصائد شعرية تصف بعض غزواتهم إليها .

كذلك، فقد اعتمدنا على كتب الأنساب، مثل كتاب : « جمهرة أنساب العرب» [4] لابن حزم [5] (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)، وهو من أهم كتب هذا النوع وأوثقها فيما يخص الأندلس؛ ويتناول الكلام عن الأسر العربية والبربرية والإسبانية الأصل التى عاشت فيها، فأفادنا فى تحقيق أنساب الأسرات التى وليت الثغر الأعلى الأندلسى المواجه لإسبانيا المسيحية؛ فضلا عن احتوائه على معلومات تاريخية هامة

---

(١) عنه أنظر : المقرى، نفح، ٣ ص ٢٩ وما بعدها؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١ ص ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) طبع عدة مرات؛ أولها طبعة بولاق عام ١٢٦٣هـ، ثم فى المطبعة العثمانية عام ١٣٠٢هـ، وفى المطبعة الشرقية عام ١٣٠٥هـ ثم عام ١٣١٦هـ؛ وفى المطبعة الأزهرية عام ١٣٢١هـ، وفى المطبعة الجمالية عام ١٣٣١هـ؛ وفى مطبعة مصطفى محمد عام ١٣٥٣هـ؛ ثم طبعته المكتبة التجارية لمصطفى محمد طبعة أخرى بتحقيق محمد سعيد العريان عام ١٩٤٣م فى عدة أجزاء؛ إلا أن أجود الطبعات وأدقها التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرين عام ١٩٤٠م، ١٩٤٤ م .

(٣) كان مولى لبنى أمية الأندلس وشاعر بلاطهم، وعنه أنظر بتفصيل : بالنثيا، نفسه، ف ١١ ص ٦٢؛ ف ٥٤ ص ١٦٩ - ١٧٢؛ ابن خلكان، نفسه، ١ ص ١١٠ - ١١٢ رقم ٤٦؛ الضبى، بغية، ص ١٣٧ - ١٣٩ رقم ٣٢٧؛ الطاهر مكى، دراسة فى مصادر الأدب، ص ٢٢٠ - ٢٣٢؛ بويكا، نفسه، ص ٩٣ وما بعدها.

(٤) تحقيق عبد السلام هارون، ذخائر العرب (٢)، دار المعارف ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م؛ وأعيد طبعه عام ١٩٧٧م وكان قد حققه ليفى بروفنسال من قبل، ونشره ضمن مجموعة ذخائر العرب ١٩٤٨م/١٣٦٨هـ.

(٥) من أسرة إسبانية اعتنقت الإسلام، ولكنه كان يخجل من أصله الإسبانى، فزيف تاريخ عائلته وادعى أنه فارسى الأصل من اصطخر أنظر عنه بتفصيل : Dozy, Introducion, pp 65 - 66; Pons Boigues, op. cit., p 130 Sqq.; Sanchez Albornoz, En Torno, 2 pp 199 - 200 .

وعلى الأخص الدور الخطير لأسرة بنى قسى - التى حكمت الثغر الأعلى - فى الصراع بين الأندلس وإسبانيا المسيحية .

هذا عن أهم المصادر الإسلامية، لكنهما مع أهميتهما فلا تمثل فى حقيقة الأمر لدارس تاريخ إسبانيا العصور الوسطى سوى وجهة النظر العربية فى بلد إسلامى أوربى، تشكل فيه العناصر الأوربية البعد الآخر من تكوينه البشرى والطبيعى؛ وبالتالى فلا تنجلى الصورة إلا بالإطلاع أيضاً على المصادر الأوربية لاتينية وإسبانية . ومن أسف فهى مصادر لم تستغل - حتى وقتنا الحاضر - فى المشرق العربى استغلالاً كافيا؛ ربما لتبعثرها بين مكتبات أوربا وخلو مكتبات المشرق منها؛ أو لطبيعتها فى أنها مكتوبة إما باللآتينية أو القشتالية دون أن تترجم بعضها إلى أى لغة أوربية حديثة إلا مؤخرا [1] .

وتعرف هذه المصادر فى اللآتينية باسم Cronica (مفردها Cronicon ، وهى من أصل يونانى Xpovlka (مفردها Xpovlkov) ثم انتقلت إلى اللغات الأوربية الحديثة، فهى بالإسبانية Cronica (مفردها Cronicon وبالإنجليزية Chronicle وبالفرنسية Chronique) . وتعنى طريقة تدوين الأحداث التاريخية وفق تسلسلها الزمنى، دون أن يشترط التأريخ لها اتباع المنهج الحولى الذى يؤرخ للأحداث عاما بعد آخر، مثلما هو الحال فى حوليات مؤرخى المسلمين الأوائل؛ وإنما تقسيم الأحداث إلى فترات زمنية بحسب تتابع الحكام والملوك والتأريخ لها دفعة واحدة، دون الاهتمام كثيراً بربط هذه الأحداث بسنوات وقوعها؛ الأمر الذى يصعب معه تسمية تلك الكتابات بالحوليات، وإنما بالمدونات أو التقييدات؛ وهما لفظان شاع استخدامهما بين المؤرخين الحديثين المهتمين بالدراسات الإسبانية خلال العصور الوسطى .

لكن لما كانت الأحداث فى معظم هذه الكتابات غير مرتبطة بسنوات وقوعها، فهى لا تعين وحدها على تحديد تسلسل وقوعها إلا بمقارنتها برواية المصادر الإسلامية أو غيرها؛ ومع ذلك فهى تفيد فى تحديد أسماء الملوك الذين ارتبطت بهم

---

(١) قام بعض المؤرخين الإسبان فى الآونة الماضية بترجمة بعض هذه المدونات من اللآتينية إلى الإسبانية، ومن أبرز هؤلاء المؤرخ ميراندا ويسى M. Huici حيث ترجم عدداً منها ونشرها مع النصوص اللآتينية الأصلية فى كتابه : Las Cronicas Latinas de la Reconquista, 2t, Valencia 1913 ، وعن بقية الترجمات أنظر قائمة المصادر .

أحداث لا زالت موضع جدل بين المؤرخين الحديثين؛ الذين يعتمدون على المصادر الإسلامية وحدها من دون اللاتينية أو العكس .

ومعظم هذه المدونات دونها الرهبان ورجال الدين على وجه الخصوص، إما من تلقاء أنفسهم أو بتكليف من ملوكهم في أحيان أخرى؛ وبسبب أن معظمها لا زالت مجهولة اسم المؤلف فقد نسبت إلى أماكن العثور عليها، أو إلى من يعتقد أنه قام بتأليفها .

كذلك يلاحظ أن هؤلاء المدونين - لا سيما الأوائل منهم - قد حرصوا على اعتبار مملكة أشتوريس وريثة واستمراراً لمملكة القوط؛ ومن هذا المنطلق ربطوا بين آخر ملك قوطى وأول ملك أشتورى، فجعلوا الأخير يلى زمنيا آخر ملك قوطى؛ دون اعتبار للمدة الزمنية التى تزيد عن ربع قرن وتفصل بين زوال مملكة القوط بالفتح الإسلامى عام ٧١١م /٩٢هـ وقيام مملكة أشتوريس عام ٧٣٩م / ١٢١هـ . وهذه رؤية ليست بغريبة على هؤلاء المدونين باعتبارهم كانوا قوط الأصل، يعز عليهم القول بسقوط أو زوال مملكتهم؛ ومن ثم وجدوا العزاء فى القول باستمرارها؛ أو أنها رؤية كانت انعكاسا للاعتقاد السائد بين الإسبان وقتذاك باعتبار التواجد الإسلامى هناك عارضا، لن يلبث أن يزول لتعود السيطرة القوطية من جديد؛ بحيث إن أحد مدونى هذه المدونات قد تنبأ بأن هذا التواجد لن يطول أكثر من اثنين وسبعين عاما فقط .

وبعض هذه المدونات سابق على أقدم الكتابات الإسلامية - التى تناولت تاريخ أشتوريس ضمن موضوعاتها - بما يقرب من قرن من الزمان، وبعضها يؤرخ لمملكة أشتوريس فى الفترة المعنية بالدراسة؛ وبعضها الآخر يتعداها إلى فترات لاحقة تصل فى كثير من الأحيان حتى القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى، بحيث تعتبر تواريخ محلية أو إقليمية تخص أشتوريس وحدها . فى حين لم يقتصر بعضها على التأريخ لأشتوريس وحدها وإنما لإيبيريا كلها، ولتاريخ الرومان والروم البيزنطيين والقوط والمسلمين فى المشرق وفى المغرب الإسلامى؛ وذلك منذ بداية الخليقة أو فترات ماضية بعيدة؛ مما يجعلها من نوع التواريخ العامة العالمية . يضاف إلى ذلك أن اللاحق منها قد نقل عن السابق عليها - كما كان حال كثير من الكتابات التاريخية الإسلامية - نقلاً وصل إلى حد التقيد باللفظ والأسلوب والتبويب، حتى ليبدو مجرد تجميع أو اختصار لها؛ مما أوقع المؤرخين الحديثين فى الغرب فى مشكلة تحديد أيهما أسبق من الأخرى فى التدوين، وبخاصة المدونات المجهولة المؤلف التى كتبت فى فترات زمنية واحدة أو متقاربة .

كما يلاحظ أن المدونات التى كتبت فيما بين القرنين التاسع والحادى عشر الميلاديين على وجه التحديد، وعاش مؤلفوها قريبا من مكان الأحداث فى الشمال الإسبانى؛ وعاصروا معظم الفترة التى يؤرخون لها؛ لا تخرج عن كونها تقييد جاف مختصر للأحداث وبأسلوب جامد يشوبه بعض الغموض أحيانا، دون أن تقدم صورة وافية عن أحوال إسبانيا المسيحية الاجتماعية والاقتصادية خلال تلك الفترة، أو تعالج تاريخها معالجة شاملة لنواحى النشاط البشرى فيها، ربما لكون هؤلاء المؤلفين وهم رجال دين لم يكن قصدهم التأليف التاريخى بالمعنى المفهوم، بقدر تسجيل وتدوين ما كان يرتبط باهتماماتهم الدينية على الصعيدين المحلى والعالمى، وهى اهتمامات ارتبطت وقتذاك بأمور الدين الخالصة، وبقضية الصراع المصيرى مع المسلمين فى الأندلس؛ من خلال تدوينها لهذه الأحداث على حسب التتابع الزمنى لملوكهم . ومن ثم أولى هؤلاء المدونون جل اهتمامهم فى المجال الداخلى للجوانب الدينية روحية وعمرانية، وللنشاط التعميرى المدنى والحربى فى مناطق التخوم مع المسلمين فى الأندلس؛ أما فى المجال الخارجى فكان أبرز اهتمامهم هو التركيز على إبراز دور ملوكهم فى مجاهدة المسلمين .

لكن منذ القرن الثانى عشر الميلادى فصاعدا، يبدأ جفاف المادة وجمود الأسلوب يختفى تدريجياً فى المدونات ليحل محله تصوير حى للأحداث وبأسلوب روائى مرن؛ ونظرة أشمل فى المعالجة التاريخية الشاملة لمعظم نواحى النشاط البشرى فى إسبانيا المسيحية، وعلاقاتها الخارجية بغيرها من القوى المسيحية والإسلامية فى داخل وخارج إيبيريا . ولا شك أن ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى ثقافة العصر وظهور عدد من العلمانيين ذوى الثقافة الواسعة والاهتمامات المتنوعة، ومن ثم حرصوا على تصوير حركة الحياة الإسبانية فى شتى جوانبها، مما طبع كتاباتهم بطابع الكتابة التاريخية .

وبطبيعة الحال فإن معرفة هؤلاء المدونين الإسبان بلا استثناء بتاريخ المسلمين فى الأندلس لا ترقى إلى مستوى معرفتهم بتاريخ ممالكهم الإسبانية، ولذلك تنقصهم الدقة أحيانا؛ حتى ليظهر الاضطراب فى روايات بعضهم فى تتابع حكامهم ومدة حكم كل منهم، وتحريف أسمائهم وأسماء قادة جيوشهم وشخصيات عصرهم البارزة كالوزراء والحجاب ومن فى حكمهم .

وعلى الرغم مما يظهر فى روايات هذه المدونات من تحامل واضح على المسلمين - وهو أمر طبيعى - ومبالغات فى تقدير مدى العناية الإلهية لملوك إسبانيا

المسيحية، وأخذها بأيديهم فى صراعهم ضد المسلمين؛ حتى جعلت الصراع ينتهى على الدوام لصالح إسبانيا المسيحية، مع التهويل فى تقدير خسائر المسلمين فى العتاد والأرواح؛ مما يتطلب حذرا فائقا ونظرا دقيقا فى انتقاء واستخلاص الحقائق التاريخية. فإن الواقع التاريخي يؤكد أنه بينما كانت الأندلس فى كثير من الأحايين فريسة التمزق والاضطراب، كانت إسبانيا المسيحية تسير بخطوات متعاقبة نحو التقدم وتجميع طاقاتها وتوحيد قواها فى مواجهة المسلمين؛ فى محاولات كانت تتعثر أحيانا لكنها كانت مع ذلك تستعاد دون كلل، لترسم للإسبان طريق التحرر وتحمل أمامهم مشعل الاسترداد؛ الذى كان يزداد سطوعا كلما انطفأت شمعة فى مدينة أو قرية إسلامية .

والجدير بالملاحظة أيضاً فى هذه المدونات أن إسبانيا المسيحية - مملكة أشتوريس أو الممالك التى عاصرتها أو خلفتها - قد استمدت طاقة روحية من البابوية؛ التى صار لها نفوذ متزايد فى توجيه سياسة هذه القوى الإسبانية؛ حتى أن الأخيرة ما كانت تتردد فى أن ترجع إلى البابا فى كل ما يمس شئونها الروحية، وما كانت البابوية بدورها تتحرج من إمدادها معنويا وماديا ضد المسلمين فى خارج إسبانيا ذاتها؛ مثلما حدث مع الفونسو الثالث ملك أشتوريس الذى حينما استأذن البابا فى عقد المجلس الكهنوتى وتعيين أساقفة مملكته، أذن له على أن يبعث بفرقة من الفرسان الإسبان لمعاونة إخوانهم مسيحيى صقلية وجنوبى إيطاليا فى محاربة المسلمين هناك؛ كذلك استبدلت إسبانيا المسيحية - بتوجيه وتأثير البابوية - القانون القوطى بالقانون الرومانى الذى صار أساس التقاضى والتعامل منذ ذلك الحين فصاعدا .

وبسبب كثرة وتنوع المدونات المتصلة بموضوع الدراسة نفضل أن نقسمها تقسيما جغرافيا بحسب أماكن كتابتها إلى نوعين : النوع الأول ما كتبه المسيحيون الخاضعون للنفوذ الإسلامى - أى المستعربون - فى الأندلس ذاتها؛ والثانى ما كتب فى إسبانيا المسيحية المستقلة عن النفوذ الإسلامى بالأندلس .

وأقدم مدونات النوع الأول مدونة على جانب كبير من الأهمية، لأنها المصدر اللاتينى الوحيد على نطاق إيبيريا كلها - بشطريها الإسلامى والمسيحى - على مدار القرن الثامن الميلادى كله، كتبها مؤلفها فى عام ٧٥٤م (١٣٦ - ١٣٧هـ)، وقتما كان أول ملوك أشتوريس الإسبانية نشطاً فى محاربة مسلمى الأندلس والضغط عليهم؛ مستغلا فى ذلك ما كانت تعانيه الأندلس وقتذاك من تمزق وصراعات داخلية متفاقمة .

وواضح من رواية المدونة أن كاتبها أحد رجال الدين المستعربين المقيمين فى الأندلس لكنه مجهول الإسم، ومن ثم تعددت تسميات المدونة؛ فنسبت تارة إلى المدينة التى يعتقد أنها كتبت فيها، ولذا عرفت إما بتاريخ قرطبة مجهول المؤلف EL Anonimo de Cordoba أو بتاريخ طليطلة مجهول المؤلف EL Anonimo de Toledo ؛ ونسبت تارة أخرى إلى العام الذى دونت فيه فعرفت بالمدونة المستعربة لعام ٧٥٤م La Cronica Mozarabe de 754 ؛ وتارة ثالثة اعتبرت صلة واستكمالا لما كتبه إيزيدور أسقف مدينة إشبيلية (٥٦٠ - ٦٣٦م) عن تاريخ الجرمان من ألان وسويف ووندال وقوط، ولذا عرفت بالصلة الإسبانية لتاريخ إيزيدور El Continuatio Hispania de San Isidore ؛ وأخيراً أطلق عليها تسمية عامة هى المدونة اللاتينية مجهولة المؤلف EL Anonimo Latino . ومع ذلك كله فالراجح أن كاتبها هو إيزيدور Isidore أسقف مدينة باجة Beja إحدى مدن البرتغال الحالية؛ التى كانت وقتذاك تابعة للحكم الإسلامى، ومن ثم اشتهرت المدونة باسمه أى : مدونة الأسقف إزيدور الباجى Isidori Pacense Episcopi Chronicon [(١)] .

والمدونة من نوع التواريخ العامة فهى تؤرخ للرومان والبيزنطيين والقوط فى إيبيريا؛ فضلا عن التأريخ للمسلمين فى المشرق والمغرب والأندلس، فيما بين عامى ٦١١ - ٧٥٤م [(٢)] . وما يهمنا منها ما خصصه المؤلف لتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامى فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م حتى عام ١٣٧هـ/ ٧٥٤م على التوالى، الذى تناول فيه أحداث الفتح الإسلامى وتتابع ولاة الأندلس واحداً بعد الآخر؛ وأهم أحداث عصرهم فى الداخل وفى الخارج؛ كجهاد بعضهم فى بلاد غالة؛ وما أجراه البعض الآخر من إصلاحات وتنظيمات إدارية ومالية وقضائية؛ فضلا عن تركيزه الواضح على قصة الحروب الأهلية وتطوراتها بين مسلمى الأندلس وقتذاك فى تفصيل تفتقر إليه المدونات اللاتينية اللاحقة لها؛ وهو تفصيل نادر ومع ذلك يصفه المؤلف بأنه ليس إلا تلخيص واختصار لما كان قد كتبه عن هذه الحروب فى أحد كتابيه الآخرين؛ إما تاريخ أزمنة العالم Libre Verborum Deirum Saeculi ، أو المختصر الزمنى Epitome Temporum [(٣)] وكلاهما مفقود فى وقتنا الحاضر.

---

(١) راجع فى ذلك : Florez, Esp. Sagr.,Madrid 1769, 8 pp 269 - 270, Dozy, Recherches, 1 pp 1 - 3, Sanchez Albornoz, Cronica del Moro Rasis, Anal . Uni . Madrid 1934, 3 pp 232 - 236; M. de Escobar, la Cronica de Isidore Pacense, RMFLC, Sevilla 1870, 21p 412 - 417 .

(٢) بتفصيل أنظر : Florez, op cit, 8 pp 326 - 339, Saavedra, Estudio, pp 3 - 5 ; Sanchez Alonso, op cit, 1 pp 105 - 108

(٣) عن هذين الكتابين ومحتوياتهما أنظر : Sanchez Albornoz, En Torno, 2p14; Cabal, Covadonga, Madrid 1918, pp 36 - 46؛ مؤنس، فجر، ص ١٥١ - ١٥٢ هامش ٢ .

حيث يشير المؤلف إلى ذلك فى نهاية حديثه عن وقائع الحروب بين العرب الشامية والبلدية على عهد بلج بن بشر وعبد الملك بن قطن، قائلا[١] : "Sed quia nequaquam eaignorat omni Hispania, ideo illa minimé recenseri tam tragica bella ista decrevit historia; quia jam in alia Epitome, qualiter cuncta extiterunt gest patenter et paginaliter manent nostro stylo conscripta".

أى أن كل هذه الحروب والوقائع العنيفة الدموية معروفة على نطاق إسبانيا كلها، وأنه فصل الحديث عنها فى كتابه الآخر (Epitome)، ولذا فلن يكرر ذكرها فى هذه المدونة . وفى موضع آخر يعلق على نزاعات القيسية واليمنية على عهد الصميل بن حاتم وأبى الخطار قائلا : أن من يريد التعرف على تفاصيلها فليراجعها فى كتابنا المختصر الزمنى، الذى فرغنا من كتابته منذ وقت قصير مضى، ففيه تفاصيل كل الأخطار والحروب التى هددت إسبانيا وقتذاك [٢] . ثم يعتذر المؤلف فى موضع ثالث عما عمد إليه من اختصار فى مدونته، سواء حين تأريخه لفترة حكم يوسف الفهرى، أو على عهد من سبقه من الولاة، فيقول : ألم نفصل تلك الأخبار فى كتابنا تاريخ أزمنة العالم، الذى يتضمنها كلها !؟ [٣] .

وقد أولى المؤلف عناية خاصة فى المدونة إلى تاريخ الأندلس باعتبارها وطنه بحيث قدم عنها معلومات طيبة، لكنه من أسف لم يلق بالا لعلاقتها بالمناوئين لها فى إسبانيا المسيحية التى لا نعتقد أنه كان يجهل أخبارها؛ إذ كانت أقرب إليه من الفرنجة فى غالة الذين تتبع أخبارهم وأخبار غزوات المسلمين إليهم ؛ كما تتبع أخبار الروم وأخبار خلفاء بنى أمية فى المشرق . ولذلك نرجح أنه تناول الحديث عنها فى أحد كتابيه المفقودين المشار إليهما .

والمتصفح للمدونة يلاحظ أن شعورا بالمرارة قد انطبع فى نفس المؤلف نحو مسلمى الأندلس، فنظر إليهم نظرة شبه معادية - وهذا أمر طبيعى - لأنه عاصر فتحهم وطنه؛ وشاهد فقدانه على أيديهم؛ وهو شعور يلمحه القارئ مثلا من تركيز المؤلف على ذكر تفاصيل ما رافق فتوحاتهم فى الأندلس وحتى فى غالة من تدمير وتخريب وسلب ونهب؛ وتشفيه الواضح فيهم حين ذكر هزائمهم، مثلما يتضح من روايته عن هزيمة عبد الملك بن قطن والى الأندلس فى منطقة جبال البرتات أمام

---

(١) أنظر : نص المدونة نهاية الفقرة ٦٥ عند : .Florez, Esp. Sagr., 8 pp 316 - 317

(٢) أنظر : نهاية الفقرة ٧٠، المصدر السابق ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٣) أنظر : نهاية الفقرة ٧٨، المصدر السابق ص ٣٢٢ .

المسيحيين (١) ؛ فى حين اختلفت نظرته إلى من عداهم كالفرنجة فى غالة الذين كان كثيراً ما يشيد بهم حينما يرد ذكرهم .

ومع ذلك فقد تميز المؤلف عن غيره من مؤرخى إسبانيا اللاتين باعتدال رأيه وبعده عن التعصب الدينى (٢) ؛ فلم يتردد مثلا فى الإشارة إلى إيجابيات بعض ولاة الأندلس وما أدخلوه من إصلاحات وتنظيمات، وحرصهم على تحقيق العدالة والمساواة بين رعاياهم مسلمين وغير مسلمين (٣). ولذلك يقدر كثير من المؤرخين الحديثين أهمية مدونته من الناحية التاريخية (٤) ؛ وعلاوة على ذلك يصفها المستشرق دوزى Dozy بأنها تكاد تكون أكثر الحوليات شمولا إذا ما قورنت بنظيراتها الإسلامية(٥) ؛ وإن كنا سنرى أن لهذه الأخيرة طبيعتها التى تختلف فيها عن المدونات اللاتينية.

ومن ناحية أخرى فيؤخذ على المدونة أسلوبها المعقد الملئ بالإشارات الغامضة التى تحول أحيانا دون الفهم السليم لبعض ما يرد فيها، أو معرفة قصد المؤلف من بعضها الآخر؛ بسبب استخدامه لغة تلاشت منها كلمات كثيرة دون أن يكون لها مرادف فى اللغات الحديثة المشتقة منها . فضلا عن وقوع المؤلف فى بعض الأخطاء المتعلقة بالترتيب الزمنى لا سيما مدد حكم بعض ولاة الأندلس وخلفاء المشرق (٦)؛ وهى أخطاء يمكن تداركها حين مقارنتها بما ورد عنها فى المصادر الإسلامية أو اللاتينية الأخرى؛ خاصة وأن المؤلف يستخدم التقاويم الرومانية إلى جانب الميلادية والهجرية ويربطها جميعا باسم البابا وقتذاك .

ولكل ذلك حظيت المدونة باهتمام المؤرخين الحديثين، فعكف كثير منهم على تحقيقها ونشرها على النحو التالى :

١ـ أول من حققها المؤرخ الإسبانى ساندوبال Sandoval ونشرها مع بعض المدونات الأخرى فى كتابه « خمسة أساقفة »: Cinco Obispos, 1st ed, Pamplona, 1615 (2nd ed. 1634) . (٧)

---

(١) أنظر: مثلا نص المدونة فقرة ٦٠، المصدر السابق، ص ٣١٢ .

(٢) مؤنس، فجر، ص ١٥١ ـ ١٥٢ حاشية ٢ .

(٣) أنظر مثلا المدونة ص ٢٦٤ – ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٩، ٣٢١ – ٣٢٢، ٣٦٦ من طبعة المؤرخ الإسبانى : Escobar, RMFLC, t 2, 1870 .

(٤) أنظر مثلا : Ballester, Las Fuentes Narrativas, pp 26 - 27; Saavedra, Estudio, p 5 .

(٥) Recherches, 1 p 3 .

(٦) عن أمثلة لهذه الأخطاء أنظر : Dozy, op cit, 1p 4 Sqq; Diccionario de la Historia de Espana, Madrid 1952, 1p 814 .

(٧) عنوانه بالكامل يدل على ما تضمنه من مدونات وهو : Cinco Obispos, Historias de Idacio Obispo que escriuio Poco Antes que Espana se perdiese; de Isidoro Obispo de Badajoz que escriuio en los tiempos que se perdio Espana, treynta y ocho anos despues; de Sebastian Obispo de Salamanca que escriuio desde el Rey don Pelayo hasta don Ordono Primero deste nombre; de Sampiro Obispo de Astorga que escriuio desde el Rey don Alonso el Magno, tercero deste nombre, hasta el Rey don Vermudo el Gotoso; de Pelagio Obispo de Oviedo que escriuio desde el Rey don Vermudo el Gotoso, hasta don Alonso Septimo deste nombre, Emperador de Espana, nunca hasta agora impressas

٢ ـ ثم حققها المؤرخ الإسبانى فرنسيسكو بيرجنثا Francisco Berganza ونشرها مع بعض المدونات الأخرى فى كتابه : Ferreras Convencido con critico desengano en el tribunal de los doctos con los chronicones corregidos, que escribieron el Rey don Alonso III dicho el Magno, Sampiro obispo de Astorga, Pelagio obispo de Oviedo, Isidoro obispo Pacense, el Anonymo Iriense, Madrid 1729 .

٣ ـ كما حققها المؤرخ الإسبانى هنريك فلوريث H. Florez ونشرها فى الجزء الثامن من موسوعة : Espana Sagrada, Madrid 1769, apen. 2, pp 269 - 325.

٤ ـ ثم نشرها J. P. Migne فى موسوعة : Patrologiae Cursus Completus, Series Prima (Latina), Paris 1851, t 95, pp 1251 - 1280.

٥ ـ وكان المؤرخ الإسبانى مارتينيث دى اسكوبار Martinez de Escobar أول من ترجمها إلى الإسبانية ونشرها مصحوبة بنصها اللاتينى؛ مع خاتمة تناولت مناقشة الآراء المختلفة عن هوية المؤلف ومكان تدوينه المدونة، وذلك فى مجلة : RMFLC, Sevilla 1870, t 2 pp 21 - 28, 74 - 79, 118 - 126, 216 - 226, 264 - 272, 317 - 327, 361 - 371, 412 - 417 .

٦ ـ أما المؤرخ الإسبانى لافونتى إى الكانترا Lafuente y Alcantara فقد اقتطف منها الفقرات المتصلة بنهايات العصر القوطى وبتاريخ الأندلس فقط، ونشرها بنصها اللاتينى ملحقة بكتاب : أخبار مجموعة لمجهول، مجريط ١٨٦٧م، الملحق الثانى، ص ١٤٦ ـ ١٦٢ .

٧ ـ ونفس هذه الفقرات كان قد نشرها المؤرخ الفرنسى تيلهان R. P. Tailhan وإن أعطاها عنوان : Anonyme de Cordoue, Chronique de rimée de derniers rois de Tolédo et de la Conquete de l' Espagne par les Arabes, Paris 1885 .

٨ ـ وكان آخر من نشرها الألمانى تيودور مومسن Theodorus Mommsen ضمن موسوعة : Chronica Minora, Saec 4, 5, 6; Volume 2 (M G H) t XI, Berolini 1961, pp 323 - 369 .

أما المدونة الثانية التى كتبت فى الأندلس فقد دونها هى الأخرى مستعرب مجهول الاسم فى عام ٨٨٣م [1] (٢٦٩هـ)؛ واشتقت اسمها الذى عرفت به

---

(١) يحدد بعض المؤرخين الحديثين بداية كتابتها فى يوم ١١ أبريل عام ٨٨٣ م (٢٩ رمضان ٢٦٩هـ) أنظر: Sanchez Alhomoz, Una Cronica Asturiana, R. Filo. Hisp. 1945, 7 pp 106 - 107; Valdeavellano, Historia de Espana, Madrid 1952, 1p 44 .

وهو : La Cronica Profética من النبوءة التى تنبأها مؤلفها؛ ومؤداها أن السيطرة القوطية ومعها السيادة الكنسية الإسبانية ستعودان إلى إسبانيا فى فترة لن تجاوز مائة وسبعين عاما من تاريخ مقتل آخر ملك قوطى فى عام ٧١٣م [١] ؛ أى أن السيادة الإسلامية وفقا لذلك كانت وشيكة الانتهاء فى عام كتابة المدونة أو العام الذى يليه .

وكان تحقيق تلك النبوءة أملاً يراود آخر ملوك أشتوريس وقتذاك وهو الفونسو الثالث الملقب بالعظيم Alfonso III El Magno (٨٦٦ - ٩١٠م/ ٢٥٢ - ٢٩٧هـ)؛ إذ تشير إليه المدونة على أنه سيصبح سيد كل إسبانيا - إسلامية ومسيحية بطبيعة الحال - قائلة:
" Hic Princebs Gloriosus Domnus Adefonsus proximiori tempore in omni Spanie predicetur regnaturus " [٢].

وعلى ذلك فالمدونة تمدنا بنموذج طريف للحالة النفسية والروحية، التى انتشرت ليس فقط بين مستعربى الأندلس وإنما أيضا فى إسبانيا المسيحية ذاتها؛ وربما كان السبب فى ذلك هو ما ساد الأندلس وقتذاك من حركات انفصالية متعددة هددت سلطة الأمير الأندلسى فى داخل الأندلس؛ بحيث لم يتجاوز سلطانه مدينة قرطبة مع بعض نواحيها؛ فى وقت نجحت فيه مملكة أشتوريس فى اقتطاع مساحات واسعة من أطراف الأندلس ووصلت بحدودها حتى ضفاف نهر دويرة؛ وفى ذلك دلالة على عدم صحة الرأى الشائع بأن حركة الاسترداد لم تبدأ إلا مع سقوط طليطلة فى أيدى إسبانيا قرب أواخر القرن الخامس الهجرى (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)؛ وإنما بدأت مبكرا عن ذلك بنحو قرنين من الزمان وإن اشتدت مع سقوط طليطلة .

وبجانب ذلك فللمدونة أهمية تاريخية بما أوردته من أخبار بعض الأحداث التاريخية الهامة، وقوائم لأسماء كل من ولاة الأندلس وأمرائها وملوك أشتوريس؛ مرتبة على حسب تتابعهم الزمنى، ومدة حكم كل منهم بالسنين والشهور والأيام تحديداً يتسم بالدقة والصحة [٣] ؛ وخاصة بالنسبة لملوك أشتوريس بحيث يمكن أن يكون أساسا لضبط مدة حكم كل منهم . وفضلا عن ذلك فقد أصبحت هذه المدونة مصدرا رئيسياً لما جاء بعدها من مدونات لاتينية كتبت فى إسبانيا المسيحية [٤] .

ورغم ذلك فلم تحظ المدونة حتى الوقت الحاضر بما تستحقه من اهتمام المؤرخين، فلم تطبع سوى مرة واحدة، وهى التى قام بها المؤرخ الإسبانى مانويل

---

(١) أنظر : نص المدونة، ص ٦٢٢ - ٦٢٣، من الطبعة التى سنشير إليها .

(٢) أعلاه ص ٦٢٣ .

(٣) Gomez Moreno, Las Primeras Cronicas, BRAH, 1932, t 100 p 578 .

(٤) راجع : Gomez Moreno, op cit, p 588, Sanchez Albornoz, Una Cronica Asturiana, p 107 .

جومث موريثو Manuel Gomez _ Moreno ، ونشرها مع بعض المدونات الأخرى بعنوان : Las Primeras Cronicas de la Reconquista, el Ciclo de Alfonso III, BRAH, Madrid 1932, t 100 pp 622 - 628 .

أما مدونات النوع الثانى - أى التى كتبت فى إسبانيا المسيحية - فأقدمها مدونة كتبت فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى بمدينة أوبييدو Oviedo عاصمة مملكة أشتوريس [١]؛ فنسبت إليها وعرفت بمختصر أوبييدو Epitome Ovetense [٢]. لكن بسبب أن إحدى نسخ المخطوط قد وجد بدير سان ميلان San Millan [٣] فى مدينة البلدة Albialde [٤] ، فقد نسبت المدونة إليهما أيضا وعرفت إما بمدونة البلدة La Cronica Albeldense أو بمدونة إميليان Chronicon Emilianense [٥] . كما أطلق عليها اسم مدونة الراهب بيخيلا Vigila [٦] ؛ رئيس الدير المذكور خلال الثلث الأخير من القرن العاشر الميلادى (٤هـ)؛ الذى ذيل المدونة فى شهر مايو من عام ٩٧٦م (رمضان ٣٦٥هـ)؛ ببعض القوائم لأسماء ملوك أشتوريس بعد عام ٨٨٣م؛ وأسماء ولاة الأندلس وأمرائها وحكام نبرة؛ وقائمة بمعلومات عن أصول القوط الجرمان . بل نسبت المدونة أيضاً إلى درلسيدير Dulcidio ؛ وهو أسقف طليطلى الأصل من مواطنى أشتوريس ورد ذكره فى المدونة على أنه مبعوث الملك الفونسو الثالث إلى أمير قرطبة فى عام ٨٨٣ م لإبرام الصلح بينهما، رغم أنه لم يكن قد عاد من سفارته هذه حتى شهر نوفمبر وقت كتابة المدونة [٧] .

---

(١) Sanchez Albornoz, Origénes de la Nacion Espanola, Oviedo 1975, 3 p 785; M. Pidal, La Historiografia Medieval Sobre Alfonso III, EMA, Oviedo 1971, p 11; Barrau - Dihigo, Recherches, pp 13 - 14, Cotarelo, Historia Critica y Documentada de la Vida y Acciones de Alfonso III, Madrid 1933, p 15 .

(٢) أنظر : Valdeavellano, op cit, 1 p 44; Pidal, Historia de Espana, Madrid 1956, 6 p 4 .

(٣) دير أقامه ملك نبرة سانشو أباركا Sancho Abarca فى عام ٩٢٤م (٣١١ - ٣١٢هـ) قريبا من مدينة لكرونيو Logrono فى مقاطعة بنفس الاسم؛ وعن وثيقة تأسيسه أنظر : Florez, op cit, 37 p 466 ؛ وانظر أيضا Somoza, Gijon en la Historia General de Asturias, Gegoine 1908, 2p 518; Ballester, op cit, pp 29 - 30 .

(٤) مدينة أنشأها عامل الثغر الأعلى موسى بن موسى على سفح جبل لاتورثى Laturce جنوب مدينتى لكرونيو وفجيرة Viguera ، أنظر : ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ١١٦؛ ولم يكد موسى يتم بناءها حتى حاصرها ملك أشتوريس فى عام ٨٥٩ - ٨٦٠ م (٢٤٥هـ) ودمرها بعد الاستيلاء عليها، أنظر : Ballester, op cit, pp 29 - 30, Florez, op cit, 13 p 418 .

(٥) Sanchez Albornoz, En Torno, 2 pp 71 - 71; Somoza, op cit, 2 p 513 .

(٦) Florez, op cit, 13 pp 418, 422, Danham, The History of Spain and Portugal, London 1832, 4 p 199 .

(٧) أنظر نهاية الفقرة ٧٥ من المدونة عند : Florez , Esp . Sagr, 8pp 458 - 459؛ إذ تقول : " Pro quo : etiam & Rex noster legatum nomine Dulcidium, Toletanae urbis Presbyterum cum Epistolis ad Cordobensem Regem direxit Septembrio mense : Unde adhucusque non est reversus Novembrio discurrente . "

وفى الواقع فإن تعدد أسماء المدونة على هذا النحو الفريد يعود إلى الاختلاف حتى وقتنا الحاضر فى تحديد اسم كاتبها الحقيقى . فيرى جومث مورينوGomez Moreno [١] أن الاستدلال عليه مستحيل؛ وإن افترض أن يكون مستعربا مقيما بدير البلدة السابق ذكره، مستنداً على ما ورد فى المدونة من تفصيلات دقيقة لأحداث وقعت هناك عام ٨٥٩م (٢٤٥هـ) . فى حين يرفض سانشيث البورنوث Sanchez Albornoz [٢] هذا الاستدلال على أساس أن الدير المذكور لم ينشأ قبل عام ٩٢٤م (٣١٢هـ) . ويعترض بعض آخر [٣] على الاعتقاد بأن يكون الأسقف دولسيديو هو كاتب المدونة؛ لأنه لم يكن قد عاد من سفارته ـ كما هو منصوص فى المدونة ـ حتى وقت الانتهاء من كتابتها فى شهر نوفمبر عام ٨٨٣م .

ومع كل هذا الاختلاف فلم يخرج المؤلف عن كونه أحد رجال الدين المقيمين فى مدينة أوبييدو عاصمة أشتوريس، والمقربين من الملك الفونسو الثالث ٨٦٦ـ ٩١٠م (٢٥٢ – ٢٩٧هـ) ؛ الذى كتبت المدونة خلال فترة حكمه على مرحلتين، إحداهما فى عام ٨٨١م (٢٦٧ ـ ٢٦٨ هـ) والثانية فى شهر نوفمبر من عام ٨٨٣هـ (جمادى أول ٢٧٠ هـ) . فمن دلائل هوية الكاتب الدينية استخدامه على مدار المدونة تعبيرات دينية مثل : آمين، والحياة الآخرة، ويعلم الله وحده، ومشيئة العناية الإلهية، وتوهج شعلة الانتصار المقدس؛ فضلا عن استشهاده بنصوص من الكتاب المقدس، وتضمينه المدونة قائمة بأسماء أساقفة المملكة على عهده ومقار أسقفياتهم؛ إلى جانب اهتمامه بوصف المنشآت الدينية التى أقامها الفونسو الثالث، وإطرائه وامتداح ورعه وتقواه . وفى الفقرة الثامنة والخمسين من المدونة ما يدلل على أنه يكتب فى مدينة أوبييدو مقر البلاط، إذ بعد ما أشار إلى الإنشاءات الدينية التى أقامها الفونسو الثانى فى هذه المدينة، وجاء على ذكر نبأ وفاته أكد أنه دفن فى إحدى هذه المنشآت قائلاً:

" Bissena quibus haec altaria Sancta Fundataque vigent, hic tumulatus jacet " [٤].

أما فى الفقرات الثامنة والحادية وستين والرابعة وسبعين والخامسة وسبعين والثمانين [٥] ما يؤكد دون أدنى شك أنه كان يكتب عام ٨٨٣ م وبالتحديد خلال شهر نوفمبر .

---

(١) Las Primeras Cronicas, op cit, 100 pp 565 - 566, 570 .

(٢) Origénes, 3pp 776 - 780 ؛ ولنفس المؤلف أيضاً أنظر : EL Autor de La Cronica llamada de Al-belda, CHE, 1942, t7 ، وهى نفس المقالة المنشورة أيضاً فى مجلة : Bul Hisp, 1948, 50 pp 291 - 304 ؛ وفى كتابه - Investigaciones : Sobre la Historiografia Hispana Medieval, Buenos Aires 1967, pp 66 - 79 .

(٣) Florez, op cit, 13 pp 419 - 421, 429 - 430, Cotarelo, op cit, pp 15 - 16, Bullester, op cit, p 29 .

(٤) أنظر : نص المدونة نهاية الفقرة ٥٨ عدد : Florez, Esp. Sagr, 13 p 452

(٥) أنظر نصوص هذه الفقرات على التوالى فى المصدر السابق، ص ٤٣٦، ٤٥٣، ٤٥٧، ٤٥٨ ، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١.

وهذه المدونة من نوع التواريخ العامة إذ لم تقتصر على التأريخ لأشتوريس وحدها، وإنما للرومان والبيزنطيين والقوط والمسلمين؛ ومهد مؤلفها لذلك بمقدمات متنوعة طويلة جغرافية وغير جغرافية، كجغرافية العالم بما فيه إيبيريا، وموقع إيبيريا وأسمائها، وأشهر مدنها والمسافات بينها من ناحية وبين أشهر مدن العالم وعلى وجه التحديد مدن جنوب غالة وروما والقسطنطينية؛ فضلا عن ذكر أنهار إيبيريا وأطوالها؛ وغلاتها ومنتجاتها وثرواتها الطبيعية، وعجائب الدنيا السبع، وخصائص كل شعب من شعوب العالم ... ويختتم هذه المقدمة بقائمة تضم أسماء أساقفة إسبانيا المسيحية على عهده ومقار أسقفياتهم [١] .

وما يهمنا من المدونة ما تناول تاريخ كل من الأندلس ومملكتى أشتوريس ونبرة . ويلاحظ أن ما تضمنته المدونة عن تاريخ المسلمين فى الأندلس حتى عام ٨٨٣م يكاد يكون نقولا حرفية لرواية مدونة Profética بما فيها من أخطاء؛ كاعتبار يوسف الفهرى من سلالة بنى أمية وأول أمرائهم فى الأندلس . أما ما تناول تاريخ مملكتى أشتوريس ونبرة حتى وقت الانتهاء من تدوين المدونة في شهر نوفمبر من عام ٨٨٣م؛ فقد كتبه المؤلف على مرحلتين الأولى خلال عام ٨٨١م الذى أرخ فيه لمملكة أشتوريس منذ قيامها مرتبا على حسب تتابع ملوكها واحدا بعد الآخر حتى العام السادس عشر من حكم الفونسو الثالث، أى لما يزيد عن قرن ونصف من الزمان؛ وكذلك الحال بالنسبة لمملكة نبرة . أما المرحلة الثانية فكانت عام ٨٨٣م وأرخ فيها المؤلف فى إسهاب لتاريخ مملكة أشتوريس وعلاقتها بالأندلس خلال عامى ٨٨٢ - ٨٨٣م (٢٦٩ - ٢٧٠هـ) فقط . وما تجاوز أحداث العام الأخير وحتى عام ٩٧٦م فهو من استكمال الراهب بيخيلا Vigila فى الخامس والعشرين من مايو عام ٩٧٦م (رمضان ٣٦٥هـ) .

ولا شك أن هذا القسم التاريخى يعتبر أقدم وثيقة تاريخية لاتينية تضم أخباراً متنوعة عن أحوال أشتوريس وما وقع فيها من مؤامرات وثورات، وما سادها من نشاط عمرانى ارتبط معظمه بالأمور الدينية؛ فضلا عن علاقات أشتوريس الخارجية بالمسلمين فى الأندلس، أو بالمناوئين لهم فى داخلها وبخاصة أسرة بنى قسى فى الثغر الأعلى؛ وأخبار الخلافات بين أفراد هذه الأسرة من ناحية وانعكاساتها على علاقاتهم بأمراء الأندلس وملوك أشتوريس ونبرة من ناحية أخرى .

---

(١) أنظر بتفصيل : Sanchez Alonso, op cit, 1 pp 108 - 109, Gomez Moreno, Las Primeras, 100 pp 568 - 570 .

وما يزيد من قيمة المدونة وأهميتها التاريخية أن ما يرد فيها من معلومات وأخبار واقعية دقيقة [١] ، تتفق مع ما يرد فى غيرها من المصادر لا سيما الإسلامية؛ بسبب أن مؤلفها قد استقى مادته عن الفترة التى لم يعاصرها من مدونات لاتينية وجدت فى أيامه؛ وصل إلينا بعضها كمدونة بروفتيكا السابقة الذكر، وبعضها الآخر لا زال مفقودا [٢]، وكان مؤلفوها ممن عاصروا الأحداث التى كتبوا عنها سواء فى الأندلس أو فى أشتوريس. أما أحداث الفترة اللاحقة لذلك فقد عايشها المؤلف وعاصرها فدونها من مشاهداته ومعاينته لها . ولأنه لم يكن مؤرخا رسميا مثل معظم من جاءوا بعده فقد انتفت عنده الرغبة فى التزلف أو التملق سعيا وراء كسب مادى أو شخصى؛ وهو ما يبرز من خلال أحكامه على ملوك أشتوريس أنفسهم .

لكن يؤخذ على المؤلف إيجازه أحياناً فى تفصيلات بعض ما يورده من أحداث داخلية وخارجية، رغم أنه كان يعمد إلى الإضافات ذات الدلائل التاريخية؛ والتى ينفرد بها عن غيره من مؤلفى المدونات اللاحقة؛ مثل دوافع الملك فرويلة Fruela لقتل أخيه وتاريخ انتقال عاصمة أشتوريس من أوبييدو إلى برافيا Pravia ، وأسباب ما ساد ن مودة بين الملك سيلو Silo وأمير الأندلس، وظروف اغتصاب العرش من الملك الفونسو الثانى الملقب بالعفيف El Casto ، إلى غير ذلك من إضافات [٣] .

وبسبب الأهمية التاريخية لهذه المدونة فقد حظيت بعناية كثير من المؤرخين الحديثين الذين حققوها وطبعوها عدة مرات على النحو التالى :

١ - أول من حققها المؤرخ جوزيف بليسر Joseph Pellicer ونشرها بعنوان : Chronica de Espana de Dulcidio, Presbytero de Toledo, Obispo de Salamanca, Barcelona 1663 ؛ وقد نشرها كاملة فيما عدا الفقرات ٤٧ - ٤٩، ٨٤ - ٨٧، التى تتضمن قوائم بتتابع ملوك كل من أشتوريس وبمبلونة، فضلا عن فقرة تتعلق بأصل القوط .

٢ - المؤرخ فرنسيسكو بيرجنثا Francisco Berganza الذى نشرها بعنوان : Chronicon Emilianense ضمن ملاحق الجزء الثانى من كتابه : Antiguedades de Espana, Madrid 1721, pp 548 _ 560 . ؛ فيما عدا الفقرات ٤٧ - ٥٠ التى تتضمن قوائم بتتابع ملوك كل من أشتوريس ونبرة، فضلا عن مدة حكم بلاجيوس .

---

(١) Cotarelo, op cit, p 14, Barrau - Dihigo, Recherches, pp 15 - 18; Ballester, op cit, p 30 .

(٢) مثل المدونة التى كتبت فى أشتوريس حوالى عام ٨٠٠م (١٨٤هـ) وتوقفت بتاريخ أشتوريس حتى عام ٧٩١م (١٧٤ - ١٧٥هـ)، أنظر عنها : Villada, La Cronica de Alfonso III, Madrid 1918, pp 44 - 46, Sanchez Albornoz, Una Cronica Asturiana, pp 105 - 107

(٣) راجع عنها بتفصيل : Sanchez Albornoz, Investigaciones, pp 50 - 53 .

٣ ـ خوان دل ساث P. M. Juan del Saz ونشرها بعنوان : Chronica de Espana Emilianense, explicada con notas latinas y traducida con adiciones al idioma castellana, Madrid 1724 . فيما عدا الفقرات التى لم ينشرها كل من بليسر وبيرجنثا، أى الفقرات ٤٧ – ٥٠ ، ٨٤ – ٨٧ .

٤ ـ خوان دى فريراس Juan de Ferreras ونشرها بعنوان : -Chronicon Al bialdense بالجزء السادس عشر من كتابه : Historia de Espana, Madrid 1727 .

٥ ـ المؤرخ الإسبانى فلوريث H. Florez ونشرها كاملة بعنوان : Chronicon Albeldense (llamado tambien Emilianense) escrito en el ano de 883 y continuado en el de 976 . ؛ وذلك فى الجزء الثالث عشر من موسوعة : Espana Sagrada, Madrid 1756, apen 6, pp 417 - 464 .

٦ ـ كما نشرها كاملة J. P. Migne فى الجزء التاسع والعشرين بعد المائة من موسوعة : Patrologiae Cursus Completus, Series Prima (Latina), Paris 1853, pp 1124 - 1146 .

٧ ـ لافونتى إى الكانترا Lafuente y Alcantara الذى نشر منها الفقرات المتعلقة فقط بأخبار الفتح الإسلامى، وقائمتى تتابع ولاة الأندلس وأمرائها؛ وذلك فى الملحق الثالث من كتاب : أخبار مجموعة لمجهول، مجريط ١٨٦٧م، ص ١٦٣ ـ ١٦٥ .

٨ ـ رافائيل بوكانيجرا Rafael Bocanegra الذى نشرها كاملة بنصها اللاّتينى مع ترجمة قشتالية بعنوان : La Cronica Albeldense, RMFLC, Sevilla 1871, t3 pp 171-176, 217- 221, 270 - 274, 306 - 310, 342 - 347, 403 - 408, 446 - 456, 550 - 558 .

٩ ـ أمبروسيو ويسى ميراندا Ambrosio Huici Miranda ، الذى نشرها كاملة أيضاً بنصها اللاّتينى مع ترجمة قشتالية بعنوان : Chronicon Albeldense فى كتابه : Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, 1 pp 114 - 197.

١٠ ـ وأخيراً جومث مورينو Gomez Moreno الذى نشر بعض فقراتها لا سيما ما يتعلق بتتابع ملوك القوط الأواخر من وامبا حتى لذريق، وتاريخ أشتوريس من بلاجيوس حتى الفونسو الثالث؛ ثم قائمة أسماء أساقفة إسبانيا؛

وذلك ضمن مقالته التى ضمنها نصوصاً لبعض المدونات الأخرى بعنوان
Las Primeras Cronicas de la Reconquista, el Ciclo de Alfonso III, BRAH, Madrid 1932, t 100 pp 562 - 628 .

ومن نفس عصر الملك الفونسو الثالث تنتمى مدونتان أخريتان، كتبتا أيضاً فى أشتوريس مثلما يستدل من عبارة تتكرر فيهما ونصها : In Hac Patria Asturiensium أى فى هذا الوطن الأشتورى . والاعتقاد السائد أن إحداهما من تأليف الملك الفونسو نفسه، والثانية تنقيحا لما كتبه أو ربما تأليفا مستقلا قام به أحد أساقفته ويدعى سباستيان Sebastian الذى كان إما أسقف مدينة سلمنقة Salamanca، أو سميه أسقف مدينة أورنس Orense وكلاهما من معاصريه (١) .

ومشكلة هاتين المدونتين تكمن فى تعدد نسخهما المخطوطة، وهى وإن تطابقت جميعها من حيث التبويب والفترة الزمنية التى تعالجها؛ إلا أن بينها بعض الاختلافات فى تفاصيل مضمونها من تعديل لجزئيات أو إضافة لتفصيلات أو حذف لمعلومات؛ دونما تعارض بينهما فى الحقائق التاريخية . فمن الإضافات التى تختفى فى بعض النسخ أصل زوجة الملك فرويلة الأول Fruela I وعلاقته برجال دين دولته، وملابسات اقتحام جيش الأندلس أراضى أشتوريس فى عهد الملك راميرو الأول Ramiro I ، ونوعية السكان الذين هجرهم الملك أردونيو الأول Ordono I إلى مناطق منتزعة من الأندلس بهدف تعميرها؛ إلى غير ذلك من الإضافات والتعديلات (٢) التى يصعب معها التفرقة بين النص الذى كتبه الملك وما كتبه أسقفه.

وفى محاولة للتمييز بين النصين اعتبر المؤرخون الحديثون النسخ التى يتصدرها خطاب تكليف الملك لأسقفه - مثل نسختى مدينتى أوبييدو Oviedo وسورية Soriense - من تدوين الأسقف سواء كانت تنقيحا لما كتبه الملك أو تأليفا مستقلا؛ ولذا نشروها منسوبة إليه أى : مدونة سباستيان، La Cronica de Sebastian مع أن خطاب التكليف هذا غامض فيما إذا كان لتنقيح ما كتبه الملك أم لتأليف تاريخ مستقل عن أشتوريس . فى حين اعتبروا النسخ الخالية من هذا الخطاب - مثل

---

(١) لمعرفة التفاصيل راجع : Florez, op cit, 13 pp 488 - 469, Villada, La Cronica de Alfonso III, pp 11 - 12; L. P. Fita, Sebastian Obispo de Arcaveca y de Orense, su Cronica y la del rey Alfonso III, BRAH, 41 pp 324 - 344

(٢) أنظر بتفصيل : Sanchez Albornoz, Investigaciones, pp 768 - 770, Villada, op cit, 13 - 33, 87 - 88, 133 - 137, 141 - 149, Cirot, La Chronique Leonaise et de Sebastien et de Silos, Bul Hisp, 18 pp 14 - 18; Barraue - Dihigo, Remarques sur la Chronique dite d' Alphonse III, R. Hisp, 46 pp 351 - 356 .

نسخة روتنسى Rotense ـ من تأليف الملك؛ لا سيما وأن لغتها تقترب من العامية وتحوى ألفاظا وتعبيرات لا تصدر إلا عن ملك [١] ؛ ولذا نشروها إما منسوبة إليه أى : مدونة الفونسو الثالث La Cronica de Alfoso III ، أو منسوبة إلى مكان تواجد المخطوط أى : مدونة روتنسى La Cronica Rotense .

وأيا ما كانت صحة هذه النسبة، فالمدونتان تختلفان عما سبقهما من مدونات فى أنهما أول إنتاج تاريخى يمثل وجهة النظر الرسمية فى أشتوريس؛ فإحداهما من تأليف الملك والثانية بتكليف منه؛ كما أنهما أول التواريخ اللآتينية المحلية التى دونت بعد الفتح الإسلامى، واقتصرت على التأريخ لإيبيريا فى عصر ملوك القوط الخمسة الأواخر أى منذ وامبا Wamba فى عام ٦٧٢ م (٥٢ هـ)؛ ثم التأريخ لأشتوريس وحدها منذ قيام مملكتها حتى وفاة الملك أردونيو الأول Ordono I فى عام ٨٦٦م (٢٥٢ هـ)، أى لمدة تقل قليلا عن قرنين من الزمان .

ولذلك فهما على جانب كبير من الأهمية التاريخية للتعرف على أحوال أشتوريس الداخلية وعلاقتها الخارجية خلال تلك الفترة؛ إذ حرصتا على إبراز نشاطات كل من ملوكها لا سيما ما يتعلق بالعمران الدينى وأحوال الكنيسة؛ وما واجههم من متاعب كمحاولات اغتصاب العرش وما حيك حوله من دسائس ومؤامرات؛ وثورات بعض أقاليم مملكتهم . ولا يقل عن ذلك فى الأهمية أخبار علاقاتهم بالأندلس وبالخارجين على سلطانها، وحتى بأعداء الأندلس فى غالة؛ بصورة تكشف عن تفاصيل جديدة ومثيرة تضيف قيمة تاريخية للمدونتين .

وجدير بالذكر أن المدونتين ربطتا بين مملكتى القوط وأشتوريس، فوصلتا بينهما وصلا جعل الأخيرة تلى الأولى مباشرة وكأنها امتداد طبيعى واستمرار لها؛ دون اعتبار للفارق الزمنى الذى يزيد عن ربع قرن بين سقوط الأولى وقيام الثانية؛ على النحو الذى فعله صاحب مدونة البلدة ـ المشار إليه من قبل ـ الذى أرخ لملوك أشتوريس تحت عنوان : " Item Ordo Gothorum Ovetensium Regum " أى تتابع ملوك أوبييدو القوط؛ معتبرا إياهم قوطا وبالتالى امتدادا لملوك القوط ومملكتهم البائدة .

---

(١) قارن : Villada, op cit, pp 7 - 12, 43 - 45, 89 - 93; Miguel Stero, El Latin de la Cron . de Alfonso III, CIIE, 4 pp 125 Sqq, Sanchez Albornoz, La Redaccion Original de la Cron . de Alfonso III . المنشور فى كتابه : Orígenes, 3 pp 755 - 774, Investigaciones, pp 19 - 43 .

وأنظر أيضاً : Barrau - Dihigo, Remarques, 46 pp 323 - 331, 342 - 351 .

ومن ناحية أخرى فيؤخذ على المدونتين الغموض فى روايتهما لبعض أحداث الفترة المنتهية بعام ٧٩١م (١٧٥هـ) بسبب إيجازهما الشديد، وعدم معاصرة مؤلفيهما لأحداثها واعتمادهما على مدونات سابقة عليهما اتصفت هى الأخرى بالإيجاز؛ مثل تاريخ سان جوليان الطليطلى عن ملوك القوط الأواخر، ومدونتى إيزيدور الباجى والبلدة السابق الإشارة إليهما؛ فضلا عن مدونات أخرى مفقودة فى وقتنا الحاضر[1] . وإن لم يمنع هذا من انفرادهما بإضافات جديدة ومنها على سبيل المثال : معاونة فرويلة Fruela لأخيه الملك الفونسو الأول فى محاربة المسلمين؛ وتعيين المدن التى استرداها منهم؛ وعلاقة الملكين سيلو وفرويلة بكل من البشكنس فى نبرة والجلالقة سكان جليقية .

أما أحداث الفترة التالية لعام ٧٩١م وحتى انتهاء رواية المدونتين بأحداث وفاة أردونيو الأول عام ٨٦٦م؛ فتمتاز بغزارتها ودسامتها بسبب معاصرة مؤلفيهما لها .

ومما يزيد من قيمة المدونتين أن ما يرد فيهما يستوجب الثقة لخلوهما من الأخطاء التاريخية، واتفاقهما مع ما يرد فى النصوص والوثائق اللاتينية والإسلامية أيضا[2] ؛ فيما عدا بعض المبالغات والهنات القليلة المتناثرة التى يسهل الوقوف عليها. يضاف إلى ذلك أنهما صارا من المصادر الأساسية لما تلاهما من مدونات لا سيما مدونات القرن الثانى عشر فصاعدا، وذلك فيما يتصل بتاريخ أشتوريس خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين .

هذا وقد حققت مدونة الفونسو الثالث ونشرت على النحو التالى :

١ ـ المؤرخ الإسبانى خوان دى فريراس Juan de Ferreras . الذى نشرها بالجزء السادس عشر من كتابه : Historia de Espana, Madrid 1727, pp 9 - 25.

٢ ـ المؤرخ الإسبانى فرنسيسكو بيرجنثا F. Berganza فى كتابه المشار إليه من قبل : Ferreras Convencido, Madrid 1729, pp 371 - 389 .

٣ ـ المؤرخ الإسبانى جومث مورينو Gomez Moreno الذى نشرها بعنوان: La Cronica Rotense ، مع بعض المدونات الأخرى ملحقة على مقاله بعنوان:

---

(١) عنها أنظر : Villada, op cit, pp 39 - 46; Sanchez Albornoz, La Cronica de Albelda y la de Alfonso III, Bul. Hisp, 1930, p 32 p 305 - 325، وهى نفس المقالة التى نشرها فى كتابه المعنون : Investigaciones, pp 44 - 65 .

(٢) أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 82 - 96

Las Primeras Cronicas de la Reconquista,BRAH, Madrid 1932, t 100 pp 609 - 621.

أما مدونة سباستيان فقد حققت هى الأخرى عدة مرات ونشرت على النحو التالى :

١ ـ أول من نشرها المؤرخ الإسبانى ساندوبال Sandoval فى كتابه السابق الذكر : Cinco Obispos, 1st ed Pamplona 1615 (2nd ed 1634) .

٢ ـ تلاه المؤرخ الإسبانى فلوريث H. Florez الذى نشرها فى الجزء الثالث عشر من موسوعة : Espana Sagrada, Madrid 1756, apen. 7, pp 464 - 489.

٣ ـ ثم نشرها Migne فى الجزء التاسع والعشرين بعد المائة من موسوعة : Patrologia Cursus Completus, Paris 1853, pp 1111 - 1124 .

٤ ـ كما نشرها رامون كابو إى سامبدرو Ramon Cabo y Sampedro بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية لأول مرة فى مجلة : RMFLC, Sevilla 1870, t2, p 453 - 461, 490 - 494, 535 - 541.

٥ ـ ثم نشرها المؤرخ الفرنسى براو دييجو Barrau - Dihigo بعنوان : Une rédaction Inédite du Pseudo - Sebastien de Salamanque، فى مجلة: R. Hisp, Paris 1910, t 23 pp 235 - 264 .

٦ ـ كما نشرها أمبروسيو ويسى ميراندا A. Huici Miranda بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية فى الجزء الأول من كتابه : Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, pp 196 - 239 .

٧ ـ وأخيرا نشر زكريا بيادا Z. Villada المدونتين مع مقدمة لهما فى كتابه : La Cronica de Alfonso III, Madrid 1918 ، وقد تناول هذه الطبعة بالنقد كل من :

_ Gomez Moreno, La Cronica de Alfonso III, por el Padre Zacarias Villada, BRAH, Madrid 1918, t73 pp 54 - 58 .

_ G. Cirot, A Propos d' une édition récente de la Chronique d' Alfonse III, Bul. Hisp., Bordeaux 1919, t 21 pp 1 - 8 .

ولا تفوتنا الإشارة إلى نص لاتينى هام أثار انتباه المؤرخين الحديثين منذ أن عثر عليه فى أواخر العقد الثالث من القرن الحالى، ويختص بأنساب وأصول الأسرات الحاكمة فى مملكة نبرة وروابطها الأسرية منذ قيام هذه المملكة فى القرن التاسع

الميلادى . وينسب هذا النص إلى أماكن وجوده بسبب عدم معرفة كاتبه، فعرف باسم : أنساب رودا Genealogias de Roda ، التى كان النص محفوظا فى أرشيف كاتدرائيتها فى نهاية القرن السابع عشر الميلادى؛ أو باسم : أنساب ميا Genealogias de Meya ، إحدى مدن ولاية لاردة Lérida التى انتقل إليها المخطوط ليحفظ فيها فيما بين عامى ١٧٧٣ - ١٧٨٥م؛ وبعدها اختفى حتى عثر عليه من جديد فى عام ١٩٢٨م [١] . وحينذاك حققه المؤرخ خوسيه م. لاكارا José M. Lacarra ونشره بعنوان : Textos Navarros del Codice de Roda, Est. EMCA 1945, t 1 pp 193 - 283 . وبعدها أعاد تراجيا Traggia نشره فى مجلة BRAH, t 4 p 52 Sqq : كما نشره خوركين Jaurqain فى الجزء الأول من كتابه La Vasconie, Pau 1898, apen 1, pp 267 - 282 . :

وتدل بعض محتويات المخطوط ونوعية خطه على أنه كتب على الأرجح فى مدينة ناجرة Najera مقر البلاط النبرى، خلال الثلث الأخير من القرن العاشر الميلادى . كما تدل على أن كاتبه كان علمانيا ليست له اهتمامات دينية منعكسة على النص؛ عكس ما كان عليه حال معظم كتابات ذلك العصر . ثم إنه لم يهدف إلى كتابة تاريخية صرفة بقدر تقصى أنساب الأسرات الحاكمة فى نبرة؛ ربما لتدعيم أحقيتها وشرعيتها على منافسيها . ومع ذلك فقد استطرد الكاتب فى تاريخ هذه الأسرات وعلاقاتها المتنوعة بغيرها من الأسرات الحاكمة فى إسبانيا المسيحية كأشتوريس؛ وفى الأندلس كأسرة بنى قسى فى الثغر الأعلى الأندلسى - أى إقليم سرقسطة وهو أراجون الحالية - وحتى بأمراء الأندلس أنفسهم [٢] . واعتمد المؤلف فى ذلك على وثائق وملاحظات رسمية توفرت لديه فى البلاط النبرى، مما جعل النص أقدم وثيقة تاريخية تعالج هذا الجانب [٣] ، خاصة وكانت نبرة وقتذاك محط أنظار كل من أشتوريس والأندلس بل والفرنجة .

كذلك فيمتاز النص بوضوحه وبساطته ونزاهة كاتبه، الذى آثر أن يترك عمله منقوصا عن أن يملأه بأسماء وهمية خاطئة؛ حتى أنه ترك على بياض كل الأسماء التى لم يكن قد تحقق من صحتها، وربما كان ينوى استكمالها ولكنه لم يقم بذلك على أى حال [٤] .

---

(١) عن حركة تنقل المخطوط وتاريخ تدوينه أنظر : Lacarra, Textes Navarros, Est EMCA 1945, Ipp 194 - 201

(٢) عن محتويات النص بتفصيل أنظر : أعلاه، ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) أنظر : Sanchez Alonso, Fuentes de la Historia Espanola, Madrid 1952, I p 162 .

(٤) أنظر: Lacarra, op cit. Ipp 213 - 214

ولما كان المؤلف يؤرخ لأنساب الأسرات الحاكمة فى نبرة وروابطها الأسرية بغيرها من الأسرات الحاكمة فى إيبيريا، فيلاحظ أنه قد فاته - ربما عن قصد - ذكر بعض روابطها مع أشتوريس؛ وخاصة ما يتعلق منها بزواج إحدى بنات الملك أردونيو الأول بأحد ملوك نبرة، وما يتعلق بزواج الملك الفونسو الثالث بإحدى أميرات البيت النبرى . على أن هذا القصور قد تم تداركه من قبل أحد النساخ، الذى حينما استنسخ النص فى القرن الثالث عشر الميلادى بمدينة ناجرة ذاتها، أضاف الأسماء التى تركت على بياض فى النص الأصلى وصحح بعضها الآخر؛ وأضاف ما لم يرد فى النص الأصلى من معلومات رآها ضرورية لاستكمال شجرة الأنساب [١] ؛ وقد استعان فى ذلك بمدونات لاتينية كانت متوفرة لديه وقتذاك بعضها مفقود فى الوقت الحاضر، والبعض الآخر وصل إلينا مثل مدونة سامبيرو Chronicon Sampiri .

وتنسب هذه المدونة إلى أسقف بنفس الإسم من مواطنى مدينة سمورة Zamora، شغل منصب الكاتب الملكى Notario فى بلاط مملكة ليون - وريثة أشتوريس - لمدة طويلة؛ خلال عهدى ملكيها برمودو الثانى Bermudo II وابنه الفونسو الخامس Alfonso V فيما بين عامى ٩٨٢ - ١٠٢٨م (٣٧٢ - ٤١٩هـ)؛ ثم عين أسقفا لمدينة أستورقة Astorga نحو عام ١٠١٩م (٤٠٩ - ٤١٠هـ) فظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٠٤١م (٤٣٢ - ٤٣٣هـ) أى قبل وفاته بعام واحد . ويكاد يجمع المؤرخون الحديثون على أنه كتب هذه المدونة وقتما كان كاتبا فى تاريخ غير معلوم فيما بين أواخر القرن العاشر الميلادى وأوائل الذى يليه [٢] .

ورواية هذه المدونة تعتبر استكمالا على روايتى مدونتى الفونسو الثالث وسباستيان السابقتين، إذ تبدأ من حيث توقفتا باعتلاء الفونسو الثالث عرش مملكة أشتوريس فى عام ٨٦٦م (٢٥٢هـ) خلفا لأبيه أردونيو الأول . ثم تواصل التأريخ لأشتوريس فى عهد خلفائه واحدا بعد الآخر حتى تتوقف عند أحداث وفاة راميرو الثالث Ramiro III فى عام ٩٨٢م (٣٧٢هـ)؛ من غير أن يؤرخ كاتبها لفترة حكم الملكين اللذين عمل فى خدمتهما .

والمدونة على هذا النحو تتجاوز الفترة الزمنية لموضوع دراستنا، وتقتصر إفادتنا منها على فترة حكم الفونسو الثالث؛ التى ترجع أهميتها الفائقة إلى كونها فترة انتقالية فى حياة إسبانيا المسيحية؛ حيث شهدت تقسيم مملكة أشتوريس بتنازل الفونسو

---

(١) أعلاه، ص ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) أنظر : Florez, op cit, 14 pp 240 - 432, Ballester, op cit, pp 33 - 34, Sanchez Alonso,

Fuentes, Ipp 114 - 115

عن الحكم لأبنائه فى عام ٩١٠م (٢٩٧هـ) ليختفى اسم أشتوريس ويحل مكانه اسم مملكة ليون نسبة إلى عاصمتها الجديدة مدينة ليون Léon، وهى المملكة التى قدر لها أن تقود الحركة الصليبية الإسبانية ضد مسلمى الأندلس ردحا من الزمن .

ومن ناحية أخرى، فمع أن المؤلف اعتمد على ما سبقه من مدونات؛ كمدونة البلدة على وجه الخصوص لما يلاحظ من وجود عبارات ترد فيهما بصيغة واحدة[1]؛ فلم يمنعه هذا من الاستفادة من وثائق البلاط الملكى التى كانت فى متناول يديه؛ ومن ثم جاء بمعلومات جديدة عن الفونسو الثالث ما تمكن مؤلف مدونة البلدة من الحصول عليها؛ مثل قصة زواجه وثورات إخوته وأبنائه عليه، وعلاقته بالبابا فى روما ونصوص ما تبادلاه من رسائل تفصح عن حجم التأييد البابوى لإسبانيا المسيحية ومساندتها ضد مسلمى الأندلس؛ إضافة إلى ما أورده المؤلف عن وقائع الاحتفال بافتتاح كنيسة القديس يعقوب بمدينة سنتياجو دى كمبوستلا Saintiago de Compostela ، وكانت أكبر كنائس مملكة أشتوريس وقتذاك وأشهر مزارات أوربا؛ فضلا عما سجله المؤلف من تفاصيل المجمع الدينى الذى عقد فى العاصمة، وأهدافه التى توضح الدور الخطير الذى قام به رجال الدين فى تعمير وتنمية المناطق الخالية فى أشتوريس المتاخمة للحدود للأندلسية، وفى بث الروح الصليبية بين الرعايا وإلهاب حماستهم ضد المسلمين؛ وما أغدقه عليهم الفونسو من منح وأعطيات وامتيازات ساعدتهم فى مهمتهم؛ وما أنشأه لهم من كنائس وأديرة ومنشآت مدنية وعسكرية؛ وما زودهم به من سكان وجند ساعدتهم فى التنمية ووفرت لهم الحماية فى هذه المنطقة الحدودية .

أما على الصعيد الخارجى فقد فصلت المدونة أخبار تطور الصراع الإسبانى الأندلسى حربا أو مهادنة؛ تفصيلا يؤكد ارتكاز سياسية إسبانيا المسيحية على مداومة الإغارة على أراضى الأندلس لإنهاك قواها؛ وتحريض الثوار وإنجادهم ضدها؛ مثلما حدث مع حكام الثغر الأعلى من أسرة بنى قسى ومع سكان مدينة طليطلة؛ مما جعل صراعها ضد الأندلس صراع وجود لا صراع حدود .

ولكل ما سبق فالمدونة مصدر تاريخى هام عن تاريخ مملكة أشتوريس وعلاقتها بالأندلس فى تلك الفترة، خاصة وأن روايتها يغلب عليها الدقة والاعتدال، وصارت من أهم مصادر المدونات اللاّحقة لها .

---

(١) عن أمثلة لها أنظر : Barrau - Dihigo, Recherches, pp 20 - 23 .

وقد حققت هذه المدونة ونشرت عدة مرات بعنوان : Chronicon Sampiri Asturicensis Episcopi بالترتيب التالى :

١ - المؤرخ الإسبانى ساندوبال Sandoval الذى نشرها فى كتابه السابق الذكر : . Cinco Obispos, 1st ed., Pamplona 1615 (2nd ed. 1634)

٢ - المؤرخ الإسبانى خوان دى فريراس J. de Ferreras ونشرها بالجزء السادس عشر من كتابه : . Historia de Espana, Madrid 1727

٣ - المؤرخ الإسبانى ف. بيرجنثا F. Berganza فى كتابه السابق الذكر :
Ferreras Convencido, Madrid 1729 .

٤ - المؤرخ الإسبانى فلوريث H. Florez فى الجزء الرابع عشر من موسوعة :
Espana Sagrada, Madrid 1758, pp 419 - 457 .

٥ - المؤرخ الإسبانى رامون كابو إى سامبدرو Ramon Cabo y Sampedro الذى نشرها بنصها اللآتينى مصحوبا بترجمة قشتالية فى مجلة : RMFLC, Sevilla., t4 (1872) pp 62 - 71; t5 (1873) pp 379 - 383, 422 - 428, 449 - 458 .

٦ - وأخيراً أمبروسيو ويسى ميراندا A. Huici Miranda الذى نشرها هو الآخر بنصها اللآتينى مع ترجمة إسبانية بالجزء الأول من كتابه السابق الذكر : Las Cronicas Latinas, Valencia 1913, pp 240 - 306 .

ومن القرن الثانى عشر الميلادى تنتمى مدونة تعرف بمدونة راهب سيلوس Chronicon Monachi Silensis ، لمؤلف عاش أيام الملكة دونيا أوراكا Dona Urraca ملكة قشتالة وابنها الفونسو السابع Alfonso VII اللذين حكما فيما بين عامى ١١٠٩ - ١١٥٧م (٥٠٣ - ٥٥٢هـ) ، ليؤرخ - كما يذكر فى مقدمة مدونته - لفترة حكم أبيها الملك الفونسو السادس Alfonso VI الذى حكم فيما بين عامى ١٠٦٥ - ١١٠٩ م (٤٥٨ - ٥٠٣هـ) ؛ إما رغبة حقيقية منه لتخليد ذكرى هذا الملك أو وسيلة منه للتقرب من ابنته أوراكا الحاكمة وقتذاك هى وابنها الفونسو السابع؛ إذ يقول : "Prescribere carptim res gestas domini Aldefonsi Ortodoxi Imperatoris Hispaniae que vitam ejusdem " [1].

ولا زال اسم مؤلف المدونة وهويته الدينية ومكان التدوين وتاريخه مختلف فيه؛ فهو إما أن يكون أحد رهبان دير القديس دومنجو San. Domingo بمدينة سيلوس Silos فى إقليم قشتالة، وهى المدينة التى نسبت إليها المدونة؛ أو أنه أحد

---

(١) أنظر فقرة ٧ من نص المدونة عند : . Huici, Las Cronicas Latinas, Valencia 1913, 2 p 21

أساقفة كنيسة القديس إيزيدور San. Isidoro بمدينة ليون التى عثر على مخطوط المدونة فيها (١) . وسواء صدق هذا الرأى أو ذاك فلن يغير هذا من كون المؤلف أحد رجال الدين فى مملكة قشتالة، وأنه كتب مدونته فى مكان ما بإسبانيا المسيحية فى تاريخ غير معلوم لا يتجاوز نهاية الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى (٢) .

ولكى يؤرخ الكاتب لحياة الفونسو السادس أدخل نفسه فى متاهات مقدمات متنوعة وطويلة، تناولت التأريخ على وجه الإجمال للقوط فى إيبيريا منذ عهد الملك ليوفيجيلد Leovigild (٥٦٨ - ٥٨٦م)، ثم ينتقل إلى وصف نشأة الفونسو السادس وصفاته وخلاله، وتقسيم أبيه المملكة الإسبانية بين أبنائه وما أشعله ذلك من حروب أهلية بين الأخوة، وعلاقة الفونسو بالمأمون بن ذى النون حاكم طليطلة أحد ملوك الطوائف، واهتمامات الفونسو ورعايته للكنيسة حتى وفاته؛ وبعدها يعود المؤلف إلى التأريخ لإيبيريا فى عهد آخر ملكين قوطيين وانتهاكاتهما وإساءتهما للكنيسة وللشعب الإيبيرى؛ وما ترتب عليه من ضياع إيبيريا كعقاب إلهى على أيدى المسلمين؛ يتلو ذلك بفقرتين إحداهما عن أخبار الفتح الإسلامى، وثانيتهما عن اقتحام شارلمان الفرنجى للأندلس بدعوة من حاكم سرقسطة وهزيمة جيشه هزيمة منكرة فى رونسفالة؛ وفى هاتين الفقرتين يتحامل الكاتب على المسلمين والفرنجة معا؛ فيصف المسلمين بالوحشية والبربرية، ويركز على تخريبهم للعمران وتدميرهم للأسوار والتحصينات وتقويضهم الكنائس والأديرة؛ فى حين يبدى تشفيه فى الفرنجة معلقا على هزيمتهم بأنهم لم يتمكنوا من الثأر لها حتى وقته .

بعد تلك المقدمات غير المتناسقة يبدأ فى التأريخ لإسبانيا المسيحية - على نفس نهج المدونات السابقة على عصره - أى منذ بلاجيوس ومن تلاه من الحكام والملوك واحدا بعد الآخر حتى نهاية عهد الملك فرناندو الأول Fernando I ؛ ويتوقف فجأة عند أحداث وفاته فى ٢٧ ديسمبر ١٠٦٥م (٣) (٤٥٨ هـ)؛ دون أن يحقق الهدف

---

(١) قارن : Florez, op cit, 17 pp 258 - 260; Ballester, op cit, p 36; Sanchez Albornoz, En Torno, 2 p 224; Sanchez Alonso, Fuentes, 1p 116

(٢) قيل قبل عام ١١١٥ م أو عام ١١١٨م أو عام ١١٢٥م، قارن : Florez, op cit, 17 p 257, A Bleye, op cit, 1p 322; Valdeavellano, op cit, 1p 45, Cirot, la Chronique Léonaise y la Chronique dite de Silos, Bul. Hisp 1914, 15 pp 15 - 34; Antonio Blazquez, Pelayo de Oviedo y el Silense, observaciones acerca del cronicon del Monje Silense, RABM 1908 .

(٣) عن محتوياتها بتفصيل أنظر : Sanchez Alonso, Fuentes, 1 pp 116 - 118; Ballester, op cit, p 36 .

الذى كتب من أجله مدونته، وهو التأريخ لعصر الفونسو السادس [١] ؛ ربما بسبب موته المفاجىء أو شيئا من هذا القبيل . ولم تخرج اهتمامات الكاتب فى هذا القسم التاريخى عن اهتمامات سلفه من المدونين اللاتين، إذ أشار فى إيجاز إلى أحوال إسبانيا المسيحية الداخلية، كأنباء النزاعات على العرش والحروب الأهلية؛ فضلا عن الإصلاحات والتنظيمات المدنية والدينية . أما على صعيد علاقاتها الخارجية فتتبع فى إيجاز أيضاً علاقاتها بالأندلس حربا أو سلما؛ ولم يستثن من هذا الإيجاز سوى مدة حكم فرناندو الأول (١٠٣٧ - ١٠٦٥م)، التى فصل فى أخبار أحداثها تفصيلا استحوذ وحده على نحو نصف حجم المدونة كلها .

وما يهم موضوع الدراسة من أجزاء المدونة نقسمه قسمين : القسم الأول الذى يتناول أحداث الفترة المنتهية بعام ٨٦٦م (٢٥٢هـ) ، وفيه يستفيد الكاتب مما سبقه من مدونات لا سيما مدونتى الفونسو الثالث وسباستيان [٢] ؛ إذ ينقل عنهما نقلا يكاد يكون حرفيا فى بعض الأحيان . وأحيانا أخرى يتصرف فيضغط الأحداث ضغطا جعله يتجاوز عهود بعض الملوك فأسقطها كلية من روايته؛ مثل مدة حكم فافيلا Favila (٧٣٧ - ٧٣٩م) وأوريليو Aurelio (٧٦٨ - ٧٧٤م) وسيلو Silo (٧٧٤ - ٧٨٤م) وموريجاتو Mauregato (٧٨٤ - ٧٨٨م)؛ فى حين يفصل فى رواية أحداث أخرى كما هو الشأن فى ذكر وفاة الفونسو الثانى (العفيف) Alfonso II EL Casto فى عام ٨٤٢م (٢٢٧هـ) .

أما القسم الثانى الذى يؤرخ فيه لفترة حكم الفونسو الثالث آخر ملوك أشتوريس فيتصف هو الآخر بالإيجاز، وتتفق روايته مع روايات المدونات السابقة عليه؛ فيما عدا بعض المعلومات الإضافية المتفرقة كاعتبار الفونسو الثالث ابنا وحيدا لأردونيو الأول Ordono I واستخلافه له دونما مصاعب، وزواجه من إحدى بنات ملوك القوط. الأمر الذى يدعونا إلى الاعتقاد بأن المؤلف اعتمد فى تأريخه عن الفونسو الثالث - إلى جانب المدونات المشار إليها - على مدونة كانت متوفرة على أيامه ومفقودة فى وقتنا الحاضر [٣] .

ومع أن المدونة ليست - فى رأى البعض [٤] - تأليفا بالمعنى المفهوم، وإنما فقرات منقولة عن غيرها من المدونات؛ فهذا لا يقلل من أهميتها التاريخية خاصة

(١) Sanchez Albornoz, En Torno, 2 p 224 .

(٢) أنظر : Barrau - Dihigo, Recherches, pp 37 - 40; Diccionario, op cit, 1 p 816

(٣) Barrau - Dihigo, op cit, pp 44 - 45; Ballester, op cit, p 36 .

(٤) Ballester , op cit, pp 37 - 39 .

وأن المؤلف كان أمينا فيما نقل؛ واستفاد لأول مرة من التراث الشعبى فأضاف بعض التفصيلات لموضوعات منه مثل : قصة ابنة يوليان Julian، والمعجزات الإلهية الخارقة فى معركة كوبادونجا Covadonga؛ وقصة صندوق المقدسات التى جاءت من أورشليم إلى إشبيلية فى وقت غير معلوم، إلى أن نقلت على أيام القوط إلى طليطلة؛ فلما سقطت الأخيرة فى يد المسلمين نقل الصندوق إلى أشتوريس؛ ثم قصة صنع صليب النصر فى عهد الفونسو الثالث، إلى غير ذلك من قصص التراث الشعبى التى بدأت تحتل مكانة فى الكتابة التاريخية منذ ذلك الحين فصاعدا .

وإلى جانب ذلك سار المؤلف على نهج المدونين اللآتين السابقين عليه فى الربط بين مملكتى القوط وأشتوريس، فاعتبر الثانية امتداداً للأولى؛ وجاءت روايته عن أول ملوك أشتوريس استمراراً لروايته عن آخر ملوك القوط . كذلك فيلمح قارئ المدونة ميل المؤلف إلى التخلى عن أسلوب العرض الجاف الذى كان سمة من سمات المدونات السابقة عليه، ليستخدم أسلوبا وصفيا تجسيديا حيا للأحداث؛ وهو ميل سيزداد وضوحا فيما يلى ذلك من مدونات .

وقد حققت المدونة ونشرت عدة مرات على النحو التالى :

١ ـ أول من حققها ونشرها ساندوبال Sandoval فى كتابه السابق الإشارة إليه: Cinco Obispos, 1st ed., Pamplona 1615 (2nd ed. 1634) .

٢ ـ المؤرخ بيرجنثا F. Berganza الذى نشرها مرتين، الأولى فى الجزء الثانى من كتابه : Antiguedades de Espana, Madrid 1721, pp 521 - 548 ؛ والثانية ضمن ملاحق كتابه الآخر : Ferreras Convincido, Madrid 1729 .

٣ ـ كما نشرها فلوريث H. Florez فى الجزء السابع عشر من موسوعة : Espana Sagrada, Madrid 1789, pp 256 - 323 .

٤ ـ وكذلك ويسى ميراندا A. Huici Miranda الذى نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة إسبانية لأول مرة فى الجزء الثانى من كتابه : Las Cronicas Latinas, Valencia 1913, pp 8 - 169 .

٥ ـ وأخيرا نشرها فرنسيسكو سانتوس كوكو Francisco Santos Coco بعنوان: La Cronica Silense, Madrid 1919 . ؛ وأعاد نشرها بعنوان جديد هو : La Historia Silense, Madrid 1921 ضمن منشورات Centro de Estudios Historicos de Madrid .

وفى ذات العام الأخير تولى هذا المركز نشر ترجمة إسبانية لها قام بها المؤرخ الإسبانى جومث موريتو Gomez Moreno .

ومن القرن الثانى عشر الميلادى أيضاً تنتمى مدونة كتبها أحد رجال الدين مجهولى الاسم فى حوالى عام ١١٦٠م (٥٥٥هـ)، بمدينة ليون التى تحتفظ إحدى أديرتها بنسخة خطية منه؛ فنسبت إليها وعرفت بمدونة ليون La Chronique Léonaise ، وإن يطلق عليها أيضاً اسم مدونة ناجرة La Cronica Najerense للاعتقاد بأن كاتبها أحد رهبان دير سانتا ماريا Santa Maria الواقع بمدينة ناجرة Najera بإقليم قشتالة [١] .

وتتناول هذه المدونة تاريخ القوط فى إيبيريا منذ عام ٦٣٩م (١٨ هـ)، فالفتح الإسلامى، فتاريخ إسبانيا المسيحية مرتبا على حسب تتابع ملوكها منذ بلاجيوس حتى وفاة الفونسو السادس ملك قشتالة وليون فى ٣٠ يونيو ١١٠٩م (٥٠٣ هـ) [٢] . وما يؤرخ لأشتوريس فى هذه المدونة ويتعلق بدراستنا منذ عام ٧١١م / ٩٢هـ فصاعدا حتى عام ٩١٠م/ ٢٩٧هـ، عبارة عن فقرات تكاد تكون منقولة حرفياً من المدونات السابقة عليها والمعاصرة لها [٣] ؛ مما يجعلها نصا غنيا بالمتنوعات بحيث أطلق عليها البعض اسما يدل على ذلك وهو La Cronica Miscelanea [٤] .

---

(١) فى ذلك راجع : A. Bleye, Historia, 1p 546; G. Cirot, La Chronique Léonaise, Bul. Hisp. 1911, 13pp 133 - 156; Vazquez de Braga, Sobre La Cronica Najerense, Hispania 1941, 1pp 108 - 109; M. Pidal, op cit, 6p 9 .

(٢) عن محتوياتها بتفصيل أنظر : Sanchez Alonso, Fuentes, 1pp 123 - 124 .

(٣) تناول المؤرخ كيروت G. Cirot علاقة هذه المدونة بغيرها من المدونات السابقة عليها والمعاصرة لها فى المقالات التالية :

1 - La Chronique Leonaise et la Chronique dite de silos, Bul Hisp, 1914, 15 No 1, pp 15 - 34 .

2 - La Chronique Léonaise et les Chroniques de sebastien et de silos, Bul. Hisp. 1916, 18 No 1,pp 1 - 25 .

3 - La Chronique Léonaise et les Chroniques de pelage et de silos, Bul. Hisp, 1916, 18 No 3, pp 141 - 154 .

4 - La Chronique Léonaise et les petites annales de Castilla, Bul. Hisp 1919, 21 No 2, pp 93 - 102 .

5 - Index Onomastique et Geographique de la Chronique Léonaise, Bul. Hisp, 1934, 36 pp 401 - 425 .

(٤) Barrau - Dihigo, Recherches, p 46; vazquez, op cit, 1 pp 107 - 108; Valdeavellano, op cit, 1p 46 .

وترتكز أهمية هذه المدونة على كونها تتضمن نصا من أقدم النصوص عن تاريخ مملكة نبرة التى كانت إحدى مناطق الصراع بين أشتوريس والأندلس؛ وتاريخ كونتيات بيارش Pillars وطولوشة Toulousa وغسقونية Gasconia ؛ وتتابع حكام كل منها ومصاهراتهم السياسية وعلاقاتهم الخارجية بغيرهم من حكام إسبانيا المسيحية والأندلس، فيما بين القرنين الثامن والثانى عشر الميلاديين . وفضلا عن ذلك فهى أول المدونات اللآتينية التى يظهر فيها الاتجاه القشتالى واضحا؛ إذ جعلت من تاريخ إقليم قشتالة أساسا يدور حوله تاريخ الأقاليم المسيحية الأخرى .

ومع ذلك فلم تحقق هذه المدونة إلا مرة واحدة قام بها المؤرخ الإسبانى ج كيروت G. Cirot ونشرها بنصها اللآتينى بعنوان : Une Chronique Léonais Inédite فى مجلة :- Bul. Hisp., Bordeaux 1909 (vol 11 No 3) pp 259 - 282; 1911 (vol 13 No 4) pp 381 - 439 .

وإذا كانت المدونة السابقة أول المدونات اللآتينية التى يظهر فيها الاتجاه القشتالى، فتنتمى إلى أواخر نفس القرن الثانى عشر الميلادى مدونة تعتبر هى الأخرى أول مدونة يظهر فيها الاتجاه البرتغالى [1] . مما يدفعنا إلى القول بأن هذا القرن كان عصر ظهور القوميات فى إيبيريا؛ إذ على الرغم من أن مؤلف المدونة الأخيرة - الذى لا زال مجهول الاسم - يبدأها بتاريخ القوط فى إيبيريا منذ عام ٣٤٩م، ثم يتلوه بتاريخ أشتوريس؛ فإنه يمر على ذلك سريعا، باستثناء ما يذكره من بعض التفصيلات عن آخر ملوك أشتوريس، كأحداث اغتصاب العرش منه واستعادته له، ونشاطه المدنى العمرانى وعلاقته بالمسلمين؛ وفيما عدا ذلك يقصر المؤلف روايته على تاريخ البرتغال الذى يجعله محورا للتأريخ لإسبانيا المسيحية حتى عام ١١٨٤م (٥٨٠هـ)، مما يؤكد أصله البرتغالى .

وتعرف هذه المدونة إما باسم المدونة القوطية Chronicon Gothorum [2] ، أو بمدونة لوزيتانيا Chronicon Lusitanum نسبة إلى إقليم لوزيتانيا فى البرتغال الحالية . وقد نشرها أولا فلوريث H. Florez فى الجزء الرابع عشر من موسوعة Espana Sagrada, Madrid 1758, apen. 12 pp 402 - 419 . ثم نشرها أنطونيو برانداو Antonio Brandao فى ملاحق الجزء الثالث من كتابه المعنون : Monarchia Lusitana . كما نشرت بالجزء الأول من موسوعة : Portugal Monumenta Historica Scriptores, Lisboa 1806, pp 8 - 17 .

---

(١) أنظر : Sanchez Alonso, Fuentes, 1 p 147; Rodriguez de Castro, Biblioteca Espanola, Madrid 1786, 2p 500 .

(٢) A. Bleye, op cit, 1p 550 .

أما القرن الثالث عشر الميلادى فيتميز بأنه العصر الذهبى للنشاط الرسمى فى التدوين التاريخى فى إسبانيا المسيحية لا سيما فى مملكة قشتالة، حيث شكل هذا النشاط ركنا أساسيا فى سياسة ملوكها؛ ومن ثم نشطت حركة التأليف فيها وصار تاريخ قشتالة محورا تدور حوله تواريخ بقية ممالك إسبانيا المسيحية مثل نبرة والبرتغال وأراجون . وقد بدأت بوادر هذا النشاط فى عهد الملك القشتالى فرناندو الثالث Fernando III (١٢١٧ ـ ١٢٥٢م)، بتشجيع من والدته دونيا برنجيلا Dona Berenguela ؛ ثم بلغ ذروته فى عهد ابنه وخليفته الملك ألفونسو العاشر Alfonso X الملقب بالعالم EL Sabio (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤م) .

ذلك أن برنجيلا حينما سيطرت عليها فكرة تجميع ما كتب عن إيبيريا على مر العصور فى مجموعة واحدة متصلة، مع استكمال التأريخ لها حتى عصرها؛ عهدت بهذه المهمة إلى أحد أشهر مثقفى عصرها لا سيما فى الدراسات اللاهوتية، وهو الأسقف دون لوكاس Don Lucas ، الذى كان قد تقلب فى عدد من الوظائف الدينية حتى قلده الملك فرناندو الثالث أسقف كاتدرائية مدينة توى Tuy بإقليم جليقية، فظل شاغلا إياه حتى وفاته بعد ذلك بعشر سنوات أى فى عام ١٢٤٩م (١) .

بدأ لوكاس مهمته فجمع أولا الكتابات التى ألفت عن إيبيريا منذ القديم حتى عصره، ثم عكف على وضع هذا التجميع فى صورته النهائية؛ بعدما أضاف إليه تاريخ عصره؛ وقدم لذلك كله بمقدمة إطرائية عن إيبيريا، ثم وضع لهذا العمل عنوانا هو : Chronicon Mundi أى مدونة تاريخ العالم، على اعتبار أنه لا يقتصر على التأريخ لإيبيريا وحدها، وإنما للبشرية بعامة منذ بدء الخليقة وحتى عصره .

وقد قسم لوكاس هذا العمل إلى أربعة كتب (أبواب) رئيسية، كل منها يحوى عددا من الفصول؛ تتناول الكتب الثلاثة الأولى تاريخ البشرية منذ بداياتها حتى نهاية العصر القوطى بالفتح الإسلامى لإيبيريا عام ٩٢هـ/ ٧١١م . أما الكتاب الرابع فأفرده لتاريخ إسبانيا المسيحية فى أعقاب الفتح الإسلامى حتى عصر الملك فرناندو الثالث Fernando III وتوقف بأحداث استيلائه على مدينة قرطبة من المسلمين فى عام ١٢٣٦م/ ٦٣٤هـ (٢).

وهذا الكتاب الأخير ـ الذى يهم موضوع دراستنا ـ استعان المؤلف فيه استعانة تكاد تكون كاملة بما سبقه من مدونات فيما يتصل بأحداث الفترة المنتهية بوفاة

---

(١) عن حياته بتفصيل أنظر : Ballester, op cit, pp 72 - 74, Diccionario, 1 pp 816 - 817 .

(٢) أنظر : Sanchez Alonso, op cit, 1 pp 130 - 133 .

الفونسو السابع Alfonso VII فى عام ١١٥٧م (٥٥٢هـ)؛ فاتبع أسلوب مدونة ليون اتباعا حرفيا، وأورد عبارات مدونة راهب سيلوس كما هى، وملأ فجواتهما من مدونتى الفونسو الثالث وسباستيان وغيرهما؛ مما جعل بعض المؤرخين يحكمون على هذا العمل بأنه ليس إلا تجميع للنصوص السابقة دون أى جديد عليها، فيما عدا بعض التخمينات وأسماء الأعالم والأنساب التى يحوم الشك حولها؛ فضلا عن فيض من الأساطير كأسطورة فقدان إيبيريا، وقصة العذارى مع الملك موريجاتو، وملحمة برناردو دل كاربيو Bernardo del Carpio ، وغيرها من الأساطير والقصص الشعبى [١] . أما بقية الكتاب التى تتناول أحداث الفترة ما بين عامى ١١٥٧ ـ ١٢٣٦م (٥٥٢ ـ ٦٣٤هـ)، فقد عاصرها المؤلف وعاين أحداثها، ولذا جاءت معلوماته عنها جديدة وحافلة بكثير من التحليلات والتنصيلات النادرة التى جعلت فريقا آخر من المؤرخين يشيدون بقيمتها التاريخية [٢] .

ظلت المدونة فى لغتها اللآتينية مخطوطة حتى قام بعض اللآحقين للوكاس بترجمتها إلى الإسبانية (القشتالية)؛ ثم استكملوا عليها التأريخ لبقية عهد فرناندو الثالث فيما بين عام ١٢٣٦م ـ الذى توقف لوكاس عنده ـ حتى وفاته فى عام ١٢٥٢م واستخلاف ابنه الفونسو العاشر له على عرش المملكة . وظلت هذه الترجمة بإضافاتها مخطوطة هى الأخرى، حتى قام العالم الألمانى أندريه سكوت A. Schott بنشر النص اللآتينى للمدونة بنفس الاسم الذى وضعه لوكاس، فى كتابه : Hispaniae Illustratae, Francfort 1608, t 4 pp 1 - 116 . ثم قام المؤرخ الإسبانى خوليو بويول Julio Puyal بتحقيق إحدى النسخ القشتالية للمدونة ـ وهى المحفوظة فى الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد ـ ونشرها بعنوان : La Cronica de Espana por: Lucas Obispo de Tuy, Primera edicion del texto romancado, conforme a un codice de la Academia de Madrid, Madrid 1926 ؛ وهى الطبعة التى علق عليها المؤرخ بول هوجبيرج Paul Hogberg بدراسة نقدية عنوانها : La Chronique de Lucas de Tuy, R. Hisp., Paris 1933, t 80, part I, pp 402 - 420 ؛ التى خلص فيها إلى أن بويول لم يعتمد فى هذه الطبعة إلا على نسخة مخطوطة واحدة متأخرة، يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلاديين؛ دون أن يطلع على غيرها من النسخ التى تبلغ

---

(١) أنظر : Ballester, op cit, pp 71 - 72, 74, Barrau - Dihigo, Recherches, p 49 sqq .

(٢) M. Pidal, op cit, 6 p 9; Danham, op cit, 4 p 202; Diccionario, 1p 817; A Bleye, op cit, 1 p 548 .

عشرة؛ ونوه إلى وجود إحداها في المكتبة الملكية باستكهولم Stockholm على أنها أقدم زمنيا من التي اعتمد عليها بويول؛ إذ يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الثالث عشر وبدايات الرابع عشر الميلاديين (ص ٤٠٤ ـ ٤٠٧ من المقالة)؛ ثم أشار (في الصفحات ٤٠٨ ـ ٤٠٩) إلى أن نص استكهولم يحوى بعض الاختلافات عن النص اللاتيني الذي نشره سكوت والنص القشتالي الذي نشره بويول، ويسوق (في الصفحات ٤١٠ ـ ٤١٥) أمثلة لهذه الاختلافات؛ وما يلي ذلك من صفحات يشير فيه إلى دقة نص استكهولم ويدلل على أصله الأراجوني القطلوني .

ومن معاصري لوكاس وكان فريد عصره المطران لذريق خيمنيث Rodrigo Jiménez [1] المولود في رادا Rada بنبرة عام ١١٧٥م، الذي بعدما أتم تعليمه في وطنه درس الفلسفة والقانون خارجها في بولونيا Bolonia بإيطاليا وفي باريس Paris بفرنسا؛ وبدأ حياته الكنسية حينما عاد إلى وطنه فشغل منصب أسقف مدينة أوسمة Osma بقشتالة في عام ١٢٠٦م ولمدة عامين؛ اعتلى بعدهما منصب مطران طليطلة حتى وفاته في يونيو من عام ١٢٤٧م، ولذا اشتهر بلذريق الطليطلي . وخلال تلك المدة ترك بصماته الواضحة على شئون بلاده الدينية والتعليمية، إذ ينسب إليه فضل تشييد كاتدرائية طليطلة العظمى، وتأسيس عدد من المعاهد التي أطلق عليها وقتذاك معاهد الدراسات العامة Estudios Generales ، التي كانت نواة لجامعات إسبانيا فيما بعد؛ كما شارك في العديد من المجامع المسكونية في داخل وخارج إسبانيا .

وبجانب صفته الدينية، ساهم بنصيب وافر في حياة بلاده السياسية على عهد ملكي ليون ألفونسو التاسع وابنه فرناندو الثالث (١١٨٨ ـ ١٢٥٢م)، ومن عاصرهما

---

(١) تتوفر عنه عدد من السير الذاتية وأهمها :

1 - Gil Gonzalez Davila: Teatro Eclesiastico de las Iglesias Metropolitanas etc.., Madrid 1645 - 1650 .

2- Loperraez· Descrip. del Obispado de Osma,t1 المنشور في الجزء الثالث من أعمال الآباء الطليطليين Obras de Los p.p Toledanos .

3 - D. Vicente de La Fuente: Elogio del Arzobispo D. Rodrigo Ximénez de Rada Y Juicio de sus Escritos Historicos, Madrid 1862 .

4 - Marqués de Cerralbo. EL Arzobispo D. Rodrigo Ximénez de Rada y el Monasterio de sta. Maria de Huerta, Madrid 1908 . وهي مقالة ألقاها في حفل استقباله بأكاديمية التاريخ بمدريد في ٣١ مايو ١٩٠٨م .

5 - Javier Gorosterratzu : Don Rodrigo jiménez de Rada, estadista, escritor y prelado, Pamplona 1925 .

من ملوك قشتالة - قبل اتحادها مع ليون - الفونسو الثامن وابنه هنرى الأول (١١٦٩ - ١٢١٧م) ؛ فقام بدور فعال فى إحباط مؤمرات نبلاء قشتالة وليون ضد العرش؛ وفى مفاوضات الصلح بين ملكى ليون وقشتالة وبين سانشو الخامس Sancho V ملك نبرة فى عام ١٢٠٧م؛ وهى المفاوضات التى اكتسب خلالها احترام ملوك عصره جميعا، لدرجة جعلت فرناندو الثالث لا يبرم أمراً إلا بمشورته [١] ؛ ويختصه بالوفادة فى مهام متعددة إلى البابوية فى روما التى توطدت علاقته معها أيضاً؛ إلى جانب ما اختصته به برنجيلا زوجة الملك الفونسو التاسع بالمشاورة من دون غيره .

وقد اشتهر لذريق بولائه الأعمى للملكية الإسبانية فى قشتالة وليون، وغيرته الدينية الفريدة لكنيستها الكاثوليكية؛ بحيث أبدى عداء متطرفا لكل من يخالفهما سواء على المستوى الداخلى ممثلا فى نبلاء المملكة المناهضين للملكية، أو على المستوى الخارجى وعلى رأسهم المسلمين بعامة ومسلمى الأندلس خاصة؛ فضلا عن الفرنجة فى غالة. فلم يكتف مثلا بإعلان الحرب الصليبية ضد مسلمى الأندلس، والضغط على البابا لمباركتها؛ وحث أمم أوربا على تنظيم حملة صليبية أوربية مشتركة ضدهم؛ وإنما اقتحم بنفسه ميدان القتال مقاتلا إما إلى جانب ملكه كما حدث فى معركة العقاب عام ١٢١٢م (٦٠٩هـ) أو منفردا يقود أتباعه بنفسه فى حملات متكررة على أراضيهم [٢]. أما الفرنجة فقد وقف من ملاحمهم الشعبية التى تمجد شارلمان وغزواته فى إسبانيا موقف المناهض، وجعل من هزيمته فى رونسفالة انتصاراً إسبانيا خالصاً حيث أرجع الفضل فيه إلى ملك ليون الإسبانى وقتذاك !!!

وقد حدث مع لذريق هذا مثلما حدث مع لوكاس، إذ كلفه الملك فرناندو الثالث بتأليف تاريخ عن إيبيريا حتى عصره، فجمع كل ما توفر عنها من كتابات لاتينية وحتى عربية واستخدم مادتها التاريخية المتنوعة، مع كم المعلومات الهائل الذى أتيح له خلال سفرياته أو منصبه ومشاركاته السياسية؛ وصاغها جميعا بأسلوبه - عكس لوكاس الذى عمد إلى النقل - وأخرج منها مدونة على جانب كبير من الأهمية كموسوعة تاريخية شاملة لإيبيريا منذ العصور القديمة حتى عصره؛ وبالتحديد حتى عام ١٢٤٣م (٦٤١هـ)، وهو عام يسبق نهاية عهد فرناندو بتسع سنوات فقط .

وهذه المدونة قسمها لذريق - على نحو ما فعل لوكاس - إلى كتب (أبواب) أربعة فى كل منها عدد من الفصول؛ كل فصل يتناول التأريخ لعصر من العصور الزمنية حسب تتابع حكامه واحدا بعد الآخر، ويعالج فى ذات الوقت فترة حكم كل

---

(١) Danham, op cit, 4 p 201 .

(٢) أنظر مثلا : Ferré, Una Source Nouvelle por L' Histoire de l' Espagne, Arabica 1967, 14 pp 320 - 321; Sanchez Albornoz, En Torno, 2p 240, Ballester, op cit, pp 75 - 78

منهم حسب التتابع الزمنى عاما بعد آخر، أى بطريقة المزاوجة بين المنهجين الموضوعى والحولى . وخصص الكتب الثلاثة الأولى لتاريخ إيبيريا منذ الطوفان حتى نهاية عصر ملوك القوط - الذين يعتبرهم أساس الشخصية الإسبانية - كما عالج تاريخ إيبيريا فى تلك الفترة مستقلا عن التاريخ العالمى عكس ما فعل لوكاس . وبنهاية عصر القوط ينتقل المؤلف ليؤرخ لظهور الإسلام فى شبه الجزيرة العربية، ولمن خلف الرسول ﷺ من راشدين وأمويين حتى يصل إلى الفتح الإسلامى لإيبيريا؛ فتاريخ المسلمين فيها عصرا بعد آخر ويتوقف بنهاية حكم المرابطين فيها . ويلاحظ هنا أن لذريق يأتى بتفصيلات نادرة لم نشهدها فى أى من المصادر اللآتينية؛ فضلاً عن دقته المتناهية فيما يورده من معلومات، بسبب استفادته من المصادر العربية التى كانت متوفرة له استفادة واعية لإجادته التامة للغتها العربية [١] ، بحيث كان يحتفظ بهذه المصادر فى مكتبته الخاصة، وإن نقلت بعد وفاته إلى مكتبة دير سانتا ماريا دى ويرتا Santa Maria de Huerta بمدينة برغش Burgos فى إقليم سورية القشتالى، حيث التهمها حريق أفقدنا إياها [٢] . لكن مع أمانته فى رواية تاريخ المسلمين فلم يمنعه ذلك من إبداء كراهيته ومقته الشديد لهم؛ بحيث لم يتورع عن تكرار وصفهم بالكفار وبالوثنيين وما شابه ذلك من صفات .

أما الباب الرابع من المدونة فقد أفرده لتاريخ الممالك الإسبانية التى ظهرت تباعا فى أعقاب الفتح الإسلامى حتى عصره، مثل : أشتوريس وليون وقشتالة ونبرة والبرتغال وأراجون وحتى قطلونية . وقد دفعه ولاؤه الشديد للملكية القشتالية لأن يجعل تاريخها محورا تدور حوله ومن خلاله تواريخ بقية الممالك الإسبانية الأخرى المعاصرة لها؛ والتى يفصل فى التأريخ لكل جوانب حياتها الداخلية دينية ومدنية؛ فضلا عن علاقاتها الخارجية بعضها ببعض من ناحية وبالمسلمين فى الأندلس من ناحية أخرى؛ كما وظف فى هذا القسم الملاحم الإسبانية إلى أبعد مدى، مثل : قصة ابنة يوليان، وأسطورة بيت الحكمة، وقصة العذارى المائة، وملحمة برناردو، وقصة ظهور القديس يعقوب فى إحدى معارك الإسبان ضد المسلمين، إلى غير ذلك من ملاحم التراث الشعبى ومعظمها أقرب إلى الأساطير المستندة على فكر دينى أو شعبى صرف .

---

(١) Ballester, op cit, p 79, Saavedra, Estudio, p 7, A. Beleye, op cit, I p 549 .

(٢) Cerralbo, op cit, p 247 .

والمدونة بأبوابها الأربعة وضع لها لذريق عنوانا هو : Rerum In Hispania Gestarum Chronicon أى مدونة أعمال ملوك إسبانيا؛ ومن منطلق اعتباره القوط أساس الشخصية الإسبانية مثلما أشرنا من قبل، فقد أطلق عليها أيضا عنوان : Historiae Gothica أى تاريخ القوط، وقد نشرت بنصها اللاتينى على النحو التالى:

١- أول من نشرها أندريه وشيلى Andreae Wechelus بالجزء الأول من مجموعة : Rerum Hispanicarum Scriptorum aliquot quorum nomina versa pagina Indicabit, Francofurti 1579, pp 135 - 290.

٢-تلاه العالم الألمانى أندريه سكوت Andreas Schott الذى نشرها بالجزء الثانى من كتابه : Hispaniae Illustratae, Francfort 1603, pp 25 - 194.

٣-الإسبانى مونديخار Mondejar حيث نشرها بالجزء الأول من كتابه : Memorias Historicas de la vida y acciones del Rey Don Alfonso VIII de este nombre llamado el Noble y el Bueno, Madrid 1783.

٤- الاسبانى دى لورنثانا F. de Lorenzana فى الجزء الثالث من مجموعة بعنوان : Patrum Ecclesiae Toletanae P.P. Toletanorum quotquot extant opera, tomus tertius, Roderici Ximeni de Rada, Toletanae ecclesiae praesulis, opera praecipua complectens, matriti 1793.

٥- كما نشرها G.H. Pertz فى الجزء الأول من مجموعة : MGH, Berolini 1826.

٦- أما القسم الذى خصصه لذريق لتاريخ المسلمين فى مدونته فقد نشره خوسيه لوثانو سانشيث José Lozano Sanchez بعنوان : Historia Arabum, فى مجلة Anal. Uni. Hisp., publicaciones de la Universidad de Sevilla, Serie Filosofia y letras, 1974, t 21pp 1-79.

ولما كان لذريق قد ترجم بنفسه مدونته ملخصة من اللاتينية إلى القشتالية فقد أطلق على هذه الترجمة الملخصة عنوان : Estoria de los Godos أى تاريخ القوط؛ ثم تاهت هذه النسخة الأصلية بين ما انتسخه منها النساخ اللاحقون له [1] -وهذا فى حد ذاته دليل على مدى انتشار اللغة القشتالية على حساب اللاتينية وقتذاك- فاضطر كل من خوسيه سانشو رايون D. José Sancho Rayon وفرنسيسكو دى ثابالبورو

---

(١) أنظر: Amader de los Rios, Historia critica de la lit Espanola, Madrid 1865, 3p421 sqq. Ballester, op cit, pp80-81; Rodriguez de castro, op cit, 2p 522 sqq

Francisco de Zabalburu إلى نشر إحدى هذه النسخ القشتالية بالعنوان السابق فى مجموعة: Col. DIHE, Madrid 1887, t 88pp 1- 173.

أما نص المدونة اللاتينى كما وضعه لذريق فلم يترجم كاملا إلى القشتالية إلا فى الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادى، وهى الترجمة التى قام بها جونثالو دى لا هينوخوسا Gonzalo de la Hinojosa الذى شغل منصب أسقف مدينة برغش فيما بين عام ١٣١٣ - ١٣٢٧م؛ حيث استكمل عليها التأريخ لأحداث الفترة التى تلت عام ١٢٤٣م وحتى بدايات القرن الرابع عشر الميلادى؛ وظلت كذلك حتى واصل مؤلف آخر مجهول الإسم ،عاش بعد منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، التأريخ عليها وتوقف بأحداث وفاة خوان الثانى Juan II ملك قشتالة وليون فى عام ١٤٥٤م؛ وإن كانت هاتان الإضافتان تتناولان مدة تجاوز قرنين من الزمان بقليل، فإن معلوماتهما لا تتكافأ مع معلومات لذريق حجما أو تفصيلا أو شمولا. ولم تنشر هذه الترجمة مع الإضافتين السابقتين إلا على يد الماركيز دى لا فوينزانتا دل فالى Marqués de la Fuensanta del Vallé بعنوان: La Cronica de Espana del Arzobispo Don Rodrigo Ximénez de Rada, Tradujola en castellano y la continuo hasta su tiempo Don Gonzalo de la Hinojosa, Obispo de Burgos, y después Un Anonimo hasta el ano de 1454, Col. DIHE, Madrid 1893, t 105 pp1-509, t 106 pp 3-141. ؛ اختص الجزء الخامس بعد المائة بنص مدونة لذريق ، أما الجزء الذى يليه فاختص بالإضافتين اللتين أضيفتا عليه؛ ولذلك يطلق البعض على هذه المدونة بتلك الإضافات اسم : Traduccion Ampliado de Toledano أى ترجمة موسعة لتاريخ الطليطلى .

وقد بلغ من أهمية مدونة لذريق هذه أن صارت أساسا لما جاء بعدها من مدونات، بحيث اعتمدت عليها اعتماداً وصل إلى حد نقل بعض فصولها كاملة [(١)] ؛ مثلما حدث فى المدونة المشهورة المنسوبة للملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم Alfonso X EL Sabio التى نقلت منها كل الفصول المتصلة بتاريخ المسلمين سواء فى المشرق أو فى المغرب والأندلس.

والمدونة الأخيرة هى التى أمر الملك الفونسو العاشر بتدوينها مواصلا بذلك التقليد العائلى الذى بدأته جدته برنجيلا ووالده فرناندو الثالث. وكان الاعتقاد السائد حتى منتصف القرن الماضى أن الملك هو الذى دونها بنفسه، استنادا على ماورد فى

(١) أنظر : Ballester, op cit , pp 80,91.

مقدمتها ونصه : "قمنا بكتابة هذا الكتاب [١] ؛ إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن مثل هذا الإنتاج الضخم يستحيل أن يكون نتاج فرد واحد سواء كان الملك أو غيره [٢] ، وأنه نتاج جهود فريق من المتخصصين يمكن أن نميز منهم شخصيات مثل : مارتين القرطبى Martin de Cordova ؛ وبرناردو البرويجى Bernardo de Brihuega الذى كان الملك يلقبه بالكاتب ، وكان متبحرا فى التواريخ الدينية والدنيوية وله فيهما تآليف عدة ؛ وجوان خيل السمورى Juan Gil de Zamora من الآباء الفرنسيسكان ومؤدب الأمير سانشو Sancho ابن الفونسو؛ وجوفرى اللوايسى Jofré de Loaysa أسقف طليطلة ثم رئيس دير سانتاندر Santander ، الذى ينسب إليه أيضا تاريخ ملوك قشتالة وليون فيما بين عامى١٢٤٨ - ١٣٠٥م [٣] .

وقد بدأ العمل فى هذه المدونة بتكليف الملك الفونسو العاشر فى عام ١٢٧٥م، واستغرقت كتابتها بقية عهده الذى انتهى عام ١٢٨٤م ؛ وتناولت التأريخ لإيبيريا منذ تعمير أبناء يافث أوربا؛ والحقب الزمنية المتعاقبة فيها حتى عصر الرومان ومن بعدهم القوط حتى انتهاء دولتهم فى إيبيريا بالفتح الإسلامى عام ٩٢هـ/٧١١م . ومهدت المدونة لذلك كله ببعض المقدمات المتنوعة ، إحداها عن وصف محتوى كتاب سفر التكوين ، وأخرى عن وصف أقاليم العالم ، وثالثة عن تحديد موقع أوربا وحدودها بما فيها إيبيريا .

فلما توفى الفونسو فى عام ١٢٨٤م وخلفه ابنه سانشو الرابع الملقب بالباسل Sancho IV El Bravo ، توقف العمل فى المدونة حتى أمر سانشو فى عام ١٢٨٩م فريق العمل بمعاودة مواصلة التأريخ فيها تغطية لأحداث الفترة التى تلت الفتح الإسلامى لإيبيريا؛ فأرخوا للممالك الإسبانية التى ظهرت تباعا فى أعقاب هذا الفتح ، وتوقفوا بأحداث وفاة فرناندو الثالث جد سانشو فى عام ١٢٥٢م [٤] .

وقد سار مؤلفو المدونة على نفس نهج مدونتى لوكاس ولذريق فى المزاوجة

---

(١) راجع: Mondejar, las Memorias Historicas de Rei D. Alfonso el Sabio, observaciones a su cronica, Madrid 1777 ; Ballester, op cit, pp 92-93.

(٢) Amador de los Rios, Cronica General de D. Alfonso el Sabio, y los elementos que concurren a la cultura de la época, Discursos leido ante la Academia de la Historia, Madrid 1869.

(٣) عنهم أنظر: Ballester, op cit, pp 98 - 101; A. Bleye, op cit, 1p 584; Diccionario, 1 p118; Danham, op cit, 4 p 202.

(٤) عن محتوياتها بتفصيل أنظر: Sanchez Alonso, Fuentes, 1p213.

بين المنهجين الحولى والموضوعى ، واعتمدوا على التراث النثرى اللاتينى والعربى السابق عليهما ، فضلا عن استخدامهم التراث الشعبى والأدبى على نطاق واسع، وإن فضلوا القصائد الأدبية على مثيلاتها الشعبية باعتبارها أقرب إلى الحقيقة التاريخية، فانتشرت هذه القصائد بين ثنايا المدونة دون أن تفقد سوى القافية بحكم استخدامها فى الوصف النثرى التاريخى [١] . وهذه المدونة تعتبر أول إنتاج تاريخى جماعى - وليس فردى كمدونتى لوكاس ولذريق السابقتين - يمثل وجهة النظر الرسمية فى مملكة قشتالة وليون . وأول مدونة تستخدم اللغة القشتالية وليس اللاتينية، مما يدل على شيوع استخدام هذه اللغة وانحسار اللغة اللاتينية بصورة ملحوظة؛ وهى اللغة التى ظلت الفئة الأرستقراطية المثقفة القليلة تحتكرها قراءة وكتابة حتى ذلك القرن. وبالتالى حظيت هذه المدونة بإقبال جماهيرى منقطع النظير جعل النساخ يتسابقون فى نسخها بشكل غير مسبوق ؛ بحيث يمكن القول أن حركة التدوين التاريخى ظلت فى معظمها وعلى مدى ثلاثة قرون تالية منحصرة فى إعادة نسخ المدونة أو تنقيحها وتلخيصها أو اختصارها أو حتى استكمالا عليها ، إلى أن ظهرت كتابات مؤرخى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين التى صارت بدورها أساسا لمؤرخى إسبانيا فى العصر الحديث.

وقد جرت محاولات عدة للتعرف على النص الأصلى لهذه المدونة وسط هذا الكم الهائل المنسوخ منها، لكن تعثرت جميعها [٢] إلى أن تمكن العالم الإسبانى رامون

---

(١) قـارن : José Caveda, La Poesia Castellana Considerada Como Elemento de la Historia, Discursos de recepcion en la Academia Espanola, tI, Madrid 1860; Ballester, op cit , pp 86 - 69 وأنظر مقدمة بيدال Pidal على طبعة المدونة التى سنشير إليها ص xlviii - xliv ;

(٢) من هذه المحاولات نذكر:

(أ) محاولة الأكديمية الملكية للتاريخ بمدريد بتكليف من الملك كارلوس الرابع عام ١٧٨٩ م، ولم تتوصل إلى النص الأصلى للمدونة فتوقفت محاولتها.

(ب) محاولة Don Gaspar Ibanez de Segovia التى نشرها Marques de Mondejar بعنوان Memorias Historicas del Rei D. Alfonso el Sabio, observaciones a su cronica,Madrid - sanch 1777.

(جـ) دراستان قام بهما Amador de los Rios ، أولهما بعنوان: Historia critica de la Literatura Espanola,3t, Madrid 1861 - 1865 ، والثانية بعنوان : Cronica General de D. Alfonso el Sabio y los elementos que concurren a la cultura de la época. Madrid 1869

وهى مقالة ألقيت فى حفل استقباله بأكاديمية التاريخ وقد تولى نشرها D. Juan Facundo Riano

مننديث بيدال Ramon Ménendez Pidal بعد دراسات عدة [1] لمخطوطاتها من التعرف عليه؛ فعكف على تحقيقه تحقيقا علميا ونشره لأول مرة فى مجلدين كبيرين بعنوان : La Primera Cronica General, Estoria de Espana que mando componer Alfonso el Sabio y su continuaba bajo Sancho IV en 1289, N.Bibli. AE.,t5, Madrid 1906 أى المدونة العامة الأولى ، تاريخ إسبانيا الذى أمر بجمعه الفونسو العالم، واستكماله فى عهد ابنه سانشو الرابع فى عام ١٢٨٩م.

وهى الطبعة التى أعيد تصويرها فى عام ١٩٥٥م على نفقة كلية الآداب والفلسفة Facultad de Filosofia y Letras بجامعة مدريد Universidad de Madrid؛ ثم أعيد طبعها للمرة الثالثة بعنوان : La Tercera Reimpresion de la Primera Cronica General de Espana, editada por Ramon ménendez Pidal con un estudio actualizador de Diego Catalan, Universidad Complutense de Madrid (editorial Gredos) 1977.

ويتميز القرن الثالث عشر الميلادى أيضاً بتوفر عدد آخر من المصادر اللاتينية و القشتالية، يطلق على بعضها مدونة Chronicon وعلى بعضها الآخر حولية أو حوليات Annales، لكنها تختلف من حيث مضمونها ومنهجها عما سبقها من مدونات سبقت الإشارة إليها، فلم تهتم أى منها بالوصف التاريخى للأحداث ورسم صورة شاملة لها، وإنما اقتصرت على تسجيل تاريخ وقوع ما كان يراه واضعوها مهماً من أحداث؛ ومن ثم فهى أقرب إلى القوائم أو التقاويم لما كان يحتاجه مؤلفوها من تواريخ أو بيانات تلبى متطلبات أعمالهم أو اهتماماتهم .

ولما كانت اهتمامات كل من هؤلاء قد اختلفت عن اهتمامات غيره، فتفاوتت بالتالى نوعية ما سجله كل منهم من أحداث، وكان القاسم المشترك بينهم جميعاً هو الحرص على تحديد تاريخ اعتلاء كل ملك ومدة حكمه وتاريخ وفاته أو تنازله عن

---

(١) من أهم هذه الدراسات دراستين هما :

1- La leyenda de los Infantes de Lara, Ist. ed, Madrid 1896 (2 nd. ed. 1934, 3rd.ed 1970).

2- El Catalogo de la Biblioteca de S.M. , Madrid 1898.

لم يكتف بيدال بالتعرف على نص المدونة الأصلى وتحقيقه، وإنما واصل دراساته للتعرف على المختصرات التى استخرجت منها، ونجح فى تمييز عشر منها، وصف محتواها فى الفصل الذى خصصه لذلك بعنوان : Sumario de Cronicas hasta el ano 1368, Sumario hecho en tiempo de Enrique III , edades del Mundo trovadas por D. pablo de Santa Maria ... etc. ضمن كتاب : EL Catalogo السابق الذكر، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

العرش؛ وتتابع حكمهم واحداً بعد الآخر، وتاريخ ثورة أو مؤامرة واجهته؛ أو تاريخ معركة حربية خاضها وهزيمته فيها أو انتصاره؛ أو تاريخ إقامته أو تعميره لمدينة أو حصن أو ناحية إثر حرب أو غيرها؛ أو تاريخ كارثة أو نازلة من زلزال ومجاعة ووباء أو حتى تقلب مناخى حاد ...الخ.

ولما كانت هذه الكتابات فى معظمها مجهولة المؤلف فقد نسبت إلى أماكن كتابتها أو العثور عليها. ولأنها كتبت أو عثر عليها فى أديرة وكنائس؛ فضلاً عن حرص مؤلفيها على استفتاحها بتاريخ مولد ومكان السيد المسيح، وذكر أشهر رجال الدين ممن عاصروهم أو سبقوهم من ذوى المناصب الدينية والبابوية، وتواريخ اعتلائهم هذا المنصب أو ذاك فضلاً عن تواريخ وفاتهم؛ فلا بد وأن يكون هؤلاء الكتاب رهباناً أو رجال دين، وما يؤكد هذا أن من عرف اسمه منهم لم يخرج عن هذه الهوية الدينية.

وبالرغم مما يشوب هذه الكتابات من قصور منهجى، فإنها تتميز ببساطة الأسلوب ووضوحه ، وخلوها من الأساطير والخرافات أو المعجزات، واحتوائها رغم إيجازها على معلومات تاريخية هامة متناثرة؛ وهى معلومات تتصف بدقة قلما نجدها فى غيرها من المدونات المطولة، مما يفيد فى تقرير بعض الحقائق أو استيضاح بعض ما غمض فى غيرها من مدونات سابقة أو معاصرة لها.

ولا زالت مخطوطات هذا النوع من المدونات والحوليات محفوظة فى الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد La Real Academia de la Historia de Madrid ضمن مجموعات العالمين Abela, Blazquez ، وأهم ما نشر منها نقسمه على النحو التالى :

أولاً : المدونات والحوليات اللاتينية :

١- مدونة كمبلوتى Chronicon Complutenses ، التى عثر عليها ضمن مخطوط بكلية القديس الفونسو العليا Colegio Mayor de San Ildefonso فى مدينة القلعة دى هنارس Alcala de Henares [(١)] . وهى مجهولة المؤلف وإن يرجح أن يكون فردا واحدا أو أكثر من أصل برتغالى [(٢)] ، إذ على الرغم من أنه بدأ المدونة بتحديد تاريخ هجرة القوط من موطنهم الأصلى إلى إيبيريا، وتاريخ دولتهم

---

(١) Sanchez Alonso, op cit, 1p145; Sànchez Albornoz, Una Cronica Asturiana Perdida, p116 No 1.

(٢) Florez, Esp. Sagr. , 23pp299 - 300 ; Ballester, op cit , p51 .

فيها حتى انقضائها بالفتح الإسلامى عام ٩٢هـ/٧١١م، ثم بعض المعلومات المتفرقة المرتبطة بتاريخ مملكة أشتوريس وليون وجليقية، فإن روايتها تنصب كلية على أحداث برتغالية حتى نهاية عام ١٠٦٥م (٤٥٨هـ)؛ ولم تكن البرتغال حتى ذلك التاريخ قد أصبحت مملكة مستقلة، وإنما دارت فى فلك الأندلس أولاً ثم فى فلك مملكة قشتالة وليون الإسبانية بعد ذلك .

وقد حقق المؤرخ فلوريث H. Florez هذه المدونة ونشرها بنفس العنوان فى الجزء الثالث والعشرين من موسوعة : Esp. Sagr, Madrid 1767,apen. 4, pp 298 - 299, 315 - 317 . كما نشرها ويسى ميراندا Huici Miranda بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية فى الجزء الأول من كتابه : Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, pp 52 - 57.

٢- حوليات كمبلوتى Annales Complutenses ، التى عثر عليها أيضاً فى مدينة القلعة دى هنارس [١] وتعرف أيضاً باسم : حوليات قشتالة الثانية Annales Castellanos Segundos للاعتقاد بأنها كتبت فى قشتالة؛ استنادا إلى تركيز روايتها على تاريخ قشتالةوحدها [٢]؛ وإن كانت من وجهة نظر آخرين كتبت فى إقليم أشتوريس بدير سان جوان دى كورياس San Juan de Corias [٣] .

وتتصل رواية هذه الحولية فيما بين تاريخ مولد السيد المسيح فى العام الميلادى الأول حتى عام ١١٢٦م (٥٢٠هـ)، وهو عام وفاة الملكة أوراكا واعتلاء ابنها الفونسو السابع عرش مملكة قشتالة وليون الموحدتين. ومعلوماتها هامة فيما يتصل بنشاط ملوك أشتوريس وليون العمرانى المدنى والدينى فى أراضى قشتالة، فضلاً عن غزوات المسلمين لها .

وكان أول من حقق هذه الحولية ونشرها المؤرخ بيرجنثا F. Berganza فى ملاحق الجزء الثانى من كتابه : Antiguedades de Espana, Madrid 1721, pp565 - 567؛ ثم نشرها فريراس Ferreras بالجزء السادس عشر من كتابه : Historia de Espana ؛ كما نشرها فلوريث H. Florez فى الجزء الثالث والعشرين من موسوعة: Esp. Sagr., apen 3,pp 310 - 314؛ وأخيرا نشرها ويسى ميراندا Huici Mirandaبنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية بالجزء الأول من كتابه المذكور Las Crónicas Latinas, Valencia 1913, pp 40 - 53.

---

(١) Ballester, Loc .cit.

(٢) A. Bleye,op cit, 1p 550.

(٣) Florez,op cit, 23pp298 - 299 ; Sanchez Alonso, op cit, 1 p150.

٣- حوليات كمبوستلا Annales Compostellani ، نسبة إلى مدينة سنتياجو دى كمبوستلا Saintiago de Compostella بإقليم جليقية التى عثر عليها فيها، مع أنها لم تكتب فى هذه المدينة أو ذلك الإقليم كما يوحى عنوانها، بل لم تشر إلى أى منهما فى روايتها قط؛ ولكنها كتبت إما فى أحد أقاليم مملكة قشتالة أو نبرة [١] لأنها تركز على تاريخ هاتين المملكتين، لاسيما بداية ظهور مملكة نبرة؛ فضلا عن نشاط ملوك أشتوريس العمرانى الدينى والمدنى فيها وفى قشتالة، وكذلك غزوات المسلمين إليهما. وتصل روايتها ما بين مولد السيد المسيح وأحداث عام ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) أى حتى قبل نهاية عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون بنحو أربع سنوات . وتمتاز معلومات هذه الحولية بدقتها ووفرتها أكثر من الحوليات المشابهة لها.

وكان أول من نشرها المؤرخ بيرجنثا F. Berganza فى الجزء الثانى من كتابه السابق الذكر، ص ٥٦٢ـ ٥٦٥؛ ثم نشرها فريراس Ferreras فى الجزء السادس عشر أيضاً من كتابه السابق؛ كما نشرها فلوريث Florez بالجزء الثالث والعشرين من الموسوعة السابقة ، الملحق الخامس ، ص ٣١٧ـ ٣٢٤ ؛ وأخيراً نشرها ويسى ميراندا Huici Miranda بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية، فى الجزء الأول من كتابه السابق، ص ٥٨ـ٨٠ .

٤- مدونة شرطانية Chronicon Cerratensis ، وكاتبها راهب يدعى لذريق Rodrigo ألفها فى مدينة شرطانية Cerrato حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى [٢]؛ وابتدأها أيضاً بمولد السيد المسيح، فبعثة الرسول ﷺ، فتاريخ الفتح الإسلامى لإيبيريا، ثم تاريخ الممالك الإسبانية بدءا من مملكة أشتوريس فليون فقشتالة ويتوقف بعام ١٢٥٢م (٦٥٠هـ)، وهو تاريخ وفاة فرناندو الثالث وإعتلاء ابنه الفونسو العاشر عرش مملكة قشتالة وليون . وهذه المدونة هامة للتعرف على بعض جوانب من تاريخ قشتالة ، منذ أن كانت ولاية تابعة لمملكة ليون حتى صارت مملكة قائمة بذاتها .

وأول من نشرها فلوريث Florez وذلك فى الجزء الثانى من الموسوعة السابقة Esp.Sagr., Madrid 1747,p 210 sqq ؛ ثم نشرها ويسى ميراندا Huici Miranda فى الجزء الأول من كتابه السابق ، ص ٩٠ -٩٥.

٥- مدونة برغش Chronicon Burgense ، نسبة إلى مدينة بنفس الاسم بإقليم

---

(١) راجع : Florez, op cit, 23 p300; A. Bleye.op cit. 1p550; Sanchez Alonso, op cit, 1p150.

(٢) Florez, op cit, 23 p 204, Sanchez Alonso, op cit, 1 p 256; Ballester, op cit, p52.

سورية Soria أحد أقاليم مملكة قشتالة حيث عثر عليها في كتدرائيتها [١]؛ وهي مجهولة المؤلف أيضا، ويتصل تاريخها كسابقتها بين العام الميلادي الأول وعام ١٢١٢م (٦٠٨ - ٦٠٩ هـ)؛ وهي الأخرى هامة لتاريخ قشتالة فضلاً عن نبرة، ومدى امتداد سلطان ملوك أشتوريس ومن بعدهم ملوك قشتالة وليون عليها [٢].

وأول من نشرها بيرجنثا F.Berganza في نفس الجزء الثاني من كتابه السابق، بعنوان: Cronicon Sacado del Libro de la Calenda Antigua de la Catedral de Burgos, pp 560 - 562. ؛ أي مدونة مأخوذة من كتاب لتقويم قديم خاص بكاتدرائية برغش. ثم نشرها فلوريث Florez في الجزء الثالث والعشرين من الموسوعة السابقة، الملحق الثاني، ص ٣٠٥-٣١١؛ وأخيراً نشرها ويسي.ميراندا Huici Miranda في الجزء الأول من كتابه السابق، ص ٢٨-٤١.

٦. مدونة قلمرية Cronicon Conimbricense، نسبة إلى مدينة قلمرية التي عثر عليها في ديرها سانتا كروث Santa Cruz. والشائع أن عدداً من رهبان هذا الدير تتابعوا على كتابتها، ولا نعرف منهم سوى آخرهم وهو الراهب فرناندو جونثالث Fernando Gonzalez الذي أنهاها بكتابة آخر أجزائها باللغة البرتغالية وليس باللآتينية مثل بقية أجزائها [٣]؛ ومما يدل على هذا التعدد انقسام المدونة إلى أقسام، كل منها يكاد يكون مستقلا بذاته عن غيره، من حيث بدايته ونهايته ومحتواه على النحو التالي:-

القسم الأول: يبدأ بهجرة القوط أراضيهم في عام ٣٨١م في اتجاه إيبيريا؛ ثم تاريخهم فيها حتى الفتح الإسلامي، فتاريخ إسبانيا المسيحية حتى عام ١١٦٨م (٥٦٣ - ٥٦٤ هـ).

القسم الثاني: يتضمن الفترة بين عامي ٨٦٦ - ١١٠٩م (٢٥٢ - ٥٠٣هـ) من تاريخ إسبانيا المسيحية؛ ويحرص فيه كاتبه على ذكر تاريخ ووفاة أساقفة قلمرية من مدن البرتغال خلال تلك الفترة.

القسم الثالث: ويبدأ بالعام الميلادي الأول وينتهي بعام ١٢٣٦م (٦٣٤هـ).

القسم الرابع: ويبدأ مثل القسم الأول بهجرة القوط أراضيهم في اتجاه إيبيريا، وتاريخ إسبانيا المسيحية حتى عام ١٢٣٦م (٦٣٤هـ)، وتتوفر في هذا

---

(١) راجع: Ballester, op cit, p51

(٢) راجع: Florez, op cit, 23pp297-298

(٣) أنظر: Florez, op cit, 23pp 301 - 304

القسم معلومات عن تاريخ البرتغال بنسبة تفوق معلوماته عن قشتالة وليون.

أما القسم الخامس: فهو مكتوب بالقشتالية بخلاف الأقسام الأربعة السابقة المكتوبة باللاتينية ، ويؤرخ للفترة الواقعة بين عامى ١٢٩٦ - ١٤٠٤م (٦٩٥-٨٠٧هـ) .

وقد نشر كايتانو دى سوسا Caetano de Sousa هذه المدونة فى ملاحق الجزء الأول من كتابه المعنون : Las Pruebas de la Historia Genealogica de la Casa Real de Portugal,p 375 sqq. ؛ كما نشرها فلوريث H.Florez وذلك فى الجزء الثالث والعشرين من الموسوعة السابقة ، الملحق السابع، ص ٣٢٩ - ٣٥٥.

ثانياً : المدونات والحوليات القشتالية :

١- مدونتا كارديبا الأولى والثانية Cronicon de Cardena I-II ، نسبة إلى دير مدينة بنفس الاسم قريباً من برغش بإقليم قشتالة عثر عليهما فيه ؛ تؤرخ المدونة الأولى منهما - بعد ذكر تاريخ ميلاد السيد المسيح - لمملكة أشتوريس منذ عام ٨٥٦م (٢٤١-٢٤٢هـ) ، ثم تاريخ مملكتى ليون وقشتالة حتى عام ١٣٢٧م (٧٢٧هـ). أما المدونة الثانيةفتبدأ بحكم الفونسو الثانى (العفيف)ملك أشتوريس فى عام ٧٩١م (١٧٥هـ) وتنتهى بحكم فرناندو الرابع ملك قشتالة وليون فى عام ١٣١٢م (٧١١-٧١٢ هـ). ولهاتين المدونتين أهمية فائقة لتاريخ المملكة الإسبانية، لأنهما تلقيان الضوء على نشاطات ملوكها العمرانى المدنى والدينى فى نواحى إقليم قشتالة، وغزوات المسلمين إليه.

وأول من نشر المدونتين بيرجنثا F. Berganza فى ملاحق الجزء الثانى من كتابه : Antiguedades ، ص ٥٧٨ -٥٩٠؛ تلاه فلوريث Florez فى الجزء الثالث والعشرين من الموسوعة السابقة ، الملحق الأول ،ص ٣٧٠-٣٨١؛ وأخيرا ويسى ميراندا Huici Miranda فى الجزء الأول من كتابه السابق الذكر، ص ٣٧٣ -٣٨١.

٢- حوليات طليطلة الأولى والثانية والثالثة Anales Toledanos I- II- III ، نسبة إلى مكان العثور عليها فى كاتدرائية هذه المدينة ؛ وكلها مجهولة المؤلف. كتبت الأولى منها فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى ، وتتضمن روايتها من ميلاد السيد المسيح حتى عام ١٢١٩م (٦١٦هـ) على التوالى، ويعتقد أنها ليست سوى ترجمة قشتالية لحوليات كمبلوتى (أى حوليات قشتالة الثانية السابقة الذكر) [١] .

---

(١) أنظر: A. Bleye, op cit, 1p 551

أما الحولية الثانية فقد كتبت فى تاريخ لاحق فيما بين عامى ١٢٤٤ - ١٢٥٠م(٦٤٢-٦٤٨هـ) . وتشمل مقدمة عن الحقب الزمنية القديمة من آدم عليه السلام حتى بعثة الرسول ﷺ ونسبه، فتاريخ فتح المسلمين إيبيريا، ثم تاريخ دخول عبد الرحمن الداخل الأندلس، فوفاة المنصور بن أبى عامر، فأحداث ووقائع متفرقةوقعت فى إسبانيا المسيحية حتى أغسطس من عام ١٢٥٠م (٦٤٨هـ) .ومن المعتقد أن كاتب هذه الحولية مستعرب، لأنه أول من يستخدم التقويمين الهجرى والميلادى [١] ، بدلا من التقويم الإسبانى كعادة معظم المدونين الإسبان، ولاشك أن هذا تأثير إسلامى .

فى حين اكتشفت الحولية الثالثة فى القرن السابع عشر الميلادى ، وتتكون من فقرات لارابط بينها ، تصل بعضها حتى عام ١٢٨٤م (٦٨٣ هـ) ؛ وبعضها الآخر حتى عام ١٣٩١م (٧٩٣هـ) ؛ مما يدل على أنها من تدوين أكثر من مؤلف . ومع ذلك فلها أهمية فائقة إذ تتوفر فيها معلومات قلما توجد فى غيرها من الحوليات أو المدونات المعاصرة لها؛ مثل تلك المعلومات الجديدة عن المدافن الملكية فى كاتدرائية طليطلة .

ولما كانت هذه الحوليات الثلاثة ترجع إلى أصل قشتالى فقد ركزت معظم معلوماتها على غزوات المسلمين إليها ، وتعمير ملوك أشتوريس ثم ليون فقشتالة بعض مدنها أو استحداث بعضها الآخر.

وقد نشر فلوريث Florez الحوليات الثلاثة كاملة فى الجزء الثالث والعشرين من الموسوعة السابقة الذكر، الملحق الثانى، ص ٣٨٢-٤٢٣؛ كما نشرها ويسى ميراندا Huici Miranda فى الجزء الأول من كتابه المشار إليه سابقاً ، ص ٣٣٩ -٣٧٣ . أما بيرجنثا Berganza فلم ينشر منها سوى الحوليتين الأولى والثانية،فى ملاحق الجزء الثانى من كتابه السابق الذكر : Antiguedades ، ص ٥٦٧ - ٥٧٧ .

٣- مدونة سهاجون مجهولة المؤلف EL Anonimo de Sahagun، وهى عبارة عن تاريخ لهذا الدير المشهور الذى أقامه الفونسو الثالث ملك أشتوريس فى القرن التاسع الميلادى . ويصل تاريخها حتى عام ١١١٧م (٥١٠ -٥١١ هـ) ، أى حتى منتصف عهد أوراكا ملكة قشتالة وليون ؛ ثم أكملها أحد رجال الدين مجهولى الاسم أيضاً حتى أحداث عام ١٢٥٥م (٦٥٣هـ) أى حتى السنوات الأولى من عهد الفونسو العاشر ملك قشتالة وليون.

---

(٢) أنظر: M Pidal, Estudios Literarios, Madrid 1920, p216 وعن الحوليات الثلاثة أنظر: Florez, op cit, 23 pp 358 - 366, Sanchez Alonso, op cit , 1pp 151 - 152

وترجع أهميتها إلى اعتماد مؤلفيها فى تاريخهم لهذا الدير على وثائق كانت محفوظة فيه، نشر منها ثلاثمائة سبع وعشرون وثيقة مع هذه المدونة فى ملاحق الجزء الأول من كتاب : La Historia del Real Monasterio de Sahagun, Sacada de la que dejo escrita el. Mtro. P. José Pérez, Revisada por el P. R. Escalona, Madrid - Ibarra 1782. ؛ ثم نشر بويول J.Puyol المدونة أخيراً بعنوان : Las Cronicas Anonimas de Sahagun, فى الجزء السادس والسبعين من مجلة : BRAH, 1920 .

تأتى بعد ذلك مدونات القرن الرابع عشر وحتى الثامن عشر الميلاديين، وكلها إما مقتبسة من المدونة العامة الأولى المنسوبة للملك الفونسو العاشر السابق الإشارة إليها، أو إستكمالا على روايتها لتاريخ إسبانيا ككل ؛ وليس أدل على ذلك أن أشهر مدونات القرن الرابع عشر تعرف باسم : La Segunda Cronica General أى المدونة العامة الثانية ، لأنها اشتقت مباشرة من المدونة العامة الأولى ولا تعدو أن تكون هى ذات روايتها من بدايتها حتى نهايتها بأحداث وفاة فرناندو الثالث فى عام ١٢٥٢م (٦٥٠هـ) ؛ فيما عدا ما أدخله الكاتب من معلومات ليسد بها فجواتها، مثل أنساب ملوك أراجون ونبرة و فرنسا وانجلترا، وما فصله فى أخبار بعض الأحداث التى وردت مختصرة فى المدونة العامة الأولى .

لكن لما كان الكاتب لم يتوقف كالمدونة العامة الأولى عند أحداث عام ١٢٥٢م، وإنما استكمل التأريخ لإسبانيا المسيحية بعد هذا العام، ولم يتوقف إلا مع بدايات عام ١٣٤٤م (٧٤٤هـ) ،الذى استولى فيه الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة وليون على مدينة الخضراء من المسلمين؛ فقد نسبت المدونة إلى العام الذى توقفت عند أحداثه وعرفت باسم : La Cronica de 1344، أى مدونة عام ١٣٤٤م .

وتعتبر هذه الإضافة، التى تؤرخ لاسبانيا المسيحية لمدة تقارب القرن ؛ الإسهام الحقيقى لكاتب المدونة ؛ على عكس ما يتصل بالفترة السابقة عليها التى كان فيها مجرد ناقل من المدونة العامة الأولى ؛ بحيث صارت هذه الإضافة هى المصدر الذى اعتمد عليه المؤرخون اللاحقون وحتى القرن السادس عشر الميلادى، فيما يكتبونه عن تاريخ إسبانيا المسيحية خلال تلك الفترة [١] .

وما يحسب أيضاً لهذه المدونة أنها المصدر الوحيد الذى احتفظ بترجمة للنص العربى المفقود لكتاب الرازى الذى أشرنا إليه من قبل . لكن لازال مؤلف المدونة فى

---

(١) أنظر: M. Pidal, La Leyenda, p 59 Sqq; A . Bleye, op cit, 1p 555.

حكم المجهول ؛ كما أن دوافع كتابته لها ومكان تدوينها مختلف فيه أيضاً [١] . فمن قائل أنها كتبت في مملكة البرتغال بتكليف من بدرو الفونسو Pedro Alfonso كونت برسيلوس Barcelos ، وهو الابن غير الشرعي للملك البرتغالي دون ديونيسيو Don Dionisio (١٢٧٩ - ١٣٢٥م) ، ومن قائل أنها كتبت في مملكة قشتالة بتكليف من ملكها الفونسوالحادي عشر Alfonso XI (١٣١٢ - ١٣٥٠م) ، رغبـة منه في مواصلة التقليد الذي بدأته عائلته منذ أيام برنجيلا.

وترجع دوافع هذا الاختلاف - إلى جانب كون المؤلف مجهولا - إلى وجود نصين لهذه المدونة إحداهما بلغة برتغالية والأخرى بلغة قشتالية ؛ وهما نصان يوجد بينهما بعض الاختلافات في المحتوى، وإن كان أبرز ما يميزهما أن كاتب النص البرتغالي يبدي عداءاً صارخا نحو مملكة قشتالة ؛ ويجعل من تاريخ مملكة البرتغال أساسا لتاريخ الممالك الإسبانية ؛ وذلك على عكس كاتب النص الإسباني الذي يجعل من تاريخ مملكته القشتالية مركزاً تدور في فلكه بقية تواريخ هذه الممالك الإسبانية.

وقد حقق لويس فيليب لندلي سنترا Luis Filipe Lindley Cintra النص البرتغالي ونشره بعنوان : La Cronica Geral de Espanha de 1344 في ثلاثة أجزاء ضمن منشورات APH, lisboa ، صدر الجزء الأول منها عام ١٩٥١ لمقدمة المحقق ؛ أما الجزآن الثاني (١٩٥٤م) والثالث (١٩٦١م) فيشملان نص المدونة.

في حين حقق كل من دييجو كتلان Diego Catalan وماريا سوليداد دي أندريس Maria Soledad de Andrés النص الإسباني ونشراه بعنوان : Edicion Critica del Texto Espanol de la Cronica de 1344; que ordeno el Conde de Barcelos don Pedro Alfonso, tomo segundo de las Fuentes Cronisticas de la Historia de Espana, Madrid 1970 .

أما مدونات ما بعد القرن الرابع عشر الميلادي فيكفي أن نشير فقط إلى أهمها مثـل: مـا كتبـه المؤرخ جاريبي E. de Garibay (١٥٣٣-١٥٩٩م) بعنـوان: Compendio Historial de las Cronicas ,4t, Barcelona 1628 [٢]، وكتاب موراليز [٣] A. de Morales (١٥١٣ - ١٥٩١م) بعنوان : La Cronica General de

(١) قارن ؛ M. Pidal, las Cronicas Generales de Espana, 3 ed , Medrid 1918, pp19-22 ، Ballester, op cit, p107، وانظر أيضاً مقدمة Diego Catalan محقق النص الإسباني للمدونة، التي سنشير إليها ، ص xxi وما يليها.

(٢) عن محتوياته أنظر : Sanchez Alonso, op cit, 2 pp 23 - 25

(٣) عنه أنظر : Loc Cit, 2 pp 25- 30

de Espana, 4t, Alcala de Henares 1574-1582؛ والمؤرخ ماريانا J. de Mariana (١٥٣٦ – ١٦٢٤م) بعنوان: Historia General de Espana, 2t, Madrid 1650؛[1] وما كتبه المؤرخ بيرجنثا[2] F. de Berganza (١٦٦٣ – ١٧٣٨م) بعنوان: Antiguedades de Espana, 2t, Madrid 1719-1721، إضافة إلى كتابه الآخر: Ferreras Convecido, Madrid 1729; وما أشرف فلوريث H. Florez (١٧٠٢ – ١٧٧٣م) على إصداره لا سيما الموسوعة المشهورة المعروفة بعنوان Espana Sagrada [3]؛ وما كتبه المؤرخ ويرتا إى فيجا Huerta y Vega [4] Manuel de las (١٦٩٧ – ١٧٥٢م) بعنوان: Anales del Reyno de Galicia, 2t, Santiago 1733 - 36 .؛ وما كتبه كارباللو Carvallo بعنوان: Antiguedades y Cosas Memorables del Principado de Asturias, Salinas - Asturias 1977؛ وما كتبه أسكاندون Escandon بعنوان: Historia Monumental del Héroico Rey Pelayo y Sucesores en el Trono Cristiano de Asturias, Madrid 1865.؛ إلى غير ذلك من المصادر الإسبانية واللاتينية التى لا تعدو أن تكون نقولا من مدونات القرن الرابع عشر الميلادى وما سبقه .

وبجانب هذه المصادر القديمة توجد مراجع حديثة بعضها من تأليف مؤرخى الإسبان والأوربيين بصفة عامة، وبعضها الآخر من تأليف مؤرخى الشرق الذين اهتموا بالدراسات الأندلسية. واعتمدت بعض هذه المراجع على التحليل والتفسير؛

---

(١) ألفه باللاتينية ونشره سكوت Schott فى كتابه: Hispaniae Illustratae, Francfort 1603, 2pp 258 - 801؛ ثم ترجم مارجل Margell النص إلى الاسبانية ونشره فى الجزأين ٣٠، ٣١ من مجموعة: N.Bibli . AE, Madrid 1912 - 1913، ثم ترجمة ستيفنز J stevens إلى الانجليزية ونشره ملخصا بعنوان The General History of Spain, London 1699 .

(٢) عن المؤلف وكتابه أنظر: Sanchez Alonso, op cit, 3 pp16 - 19

(٣) بدأها فلوريث كما أشرنا من قبل؛ ونضيف أنه أصدر منها فى مدينة مدريد الأجزاء ١ – ٣٧ منذ عام ١٧٤٧م فصاعدا، فلما توفى قررت الحكومة الإسبانية مواصلة نشر هذه المجموعة لأهميتها، وعهدت إلى ريسكو M. Risco بذلك فاستكمل إصدارها حتى الجزء ٤٢؛ ثم من بعده مرينو Merino الذى أصدر الجزأين ٤٣–٤٤، ثم كانال de La Canal فأصدر الجزأين ٤٥ –٤٦؛ ثم تولت الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد إصدار الأجزاء ٤٧ – ٥٦، اللذين توقفت بهما حتى عام ١٩٥٧م، وكان بالنثيا A. G. Palencia قد أصدر فهرسا موضوعيا لها بعنوان: Indice de la Espana Sagrada, Madrid 1918، كما أصدر منديث F. Mendez فهرسا آخر بعنوان: Indice - Catalogo de Espana Sagrada, Madrid 1952 . راجع عن مؤلفى هذه الموسوعة: Sanchez Alonso, op cit, 3 pp 88, 115 - 124

(٤) عنه وعن كتابه أنظر: Sanchez Alonso, op cit, 3p92

فعاونتنا على التعرف على وجهات النظر المختلفة حول بعض القضايا وخاصة فى الجانب السياسى، لأنها لم تتعرض للجوانب الاجتماعية والاقتصادية فى مملكة أشتوريس خلال فترة الدراسة، بسبب خلو المصادر اللآتينية والإسبانية من معلومات كافية عنها.

ولا شك فى أن المراجع الإسبانية تأتى فى الدرجة الأولى من الأهمية بين هذه المراجع الحديثة، لأنها تعبر عن وجهة نظر الإسبان فى تاريخ بلادهم، كما أنها تفوق غيرها من المراجع فى الاهتمام بدراسة تاريخ إسبانيا المسيحية التى ناوأت المسلمين فى إيبيريا. ولا يقلل من قيمة الإستفادة منها ما اتصفت به بعضها من تعصب مؤلفيها الواضح بدافع القومية والانتماء للأصل الإسبانى ؛ أو ما اتضح فى بعضها الآخر من مغالاة هى فى الواقع استمرار ومجاراة لمغالاة المدونات اللآتينية والإسبانية ؛ هذا فضلاً عن اختلاف مؤلفيها البين فى تقييمهم لبعض نقاط حيوية فى موضوعنا مثل: قضية خضوع أشتوريس للمسلمين وطبيعة علاقتهم بسكانها ، ونظرة بعضهم إلى حركة التمرد التى ظهرت فيها بعد الفتح الإسلامى بسنوات قلائل على أنها ثورة شعبية إسبانية خالصة، فى حين لم يخرجها البعض الآخر عن ثورة قوطية الأصل؛ وإن اتفقوا جميعا على أنها تمثل ذروة الشعور القومى لدى إسبان العصور الوسطى، تمخض عنه قيام مملكة أشتوريس إما فى السنوات القليلة التالية للفتح الإسلامى لإيبيريا، أى فى عام ٧١٨م/٩٩-١٠٠هـ ، أو فى عام ٧٣٩م/١٢١هـ. كما أن بعضهم يلوى كثيراً من الحقائق التاريخية التى تتعلق على الأخص بطبيعة العلاقة بين مملكة أشتوريس والأندلس – لصالح أشتوريس بطبيعة الحال – فجعلوا لها اليد الطولى فى صراعها ضد مسلمى الأندلس؛ منذ قيامها وحتى اختفائها .

وعلى كل حال ، فلن نفصل فى هذا العرض بين المراجع الإسبانية والأوربية، تجنبا لما قد يحدث من تكرار حين مناقشة محتويات كل منها؛ ونفضل أن نجمع بينها ونقسمها إلى مجموعات حسب موضوعات تصنيفها ؛ ثم نذكرها مرتبة على قدر أهميتها لموضوع الدراسة .

ونبدأ بالأبحاث والمقالات التى تتناول جزئيات محددة، وتمتاز بالتعمق والتحليل فكانت إفادتها مباشرة . وتأتى فى مقدمتها ما ألفه المؤرخ الإسبانى سانشيث البورنوث Sanchez Albornoz من مقالات عديدة خلال القرن الحالى، نشرها فى حينها فى الدوريات المختلفة، ثم جمعها فى كتاب بعنوان Origénes de la Nacion Espanola, 3 tomos, Oviedo 1973 - 1975 أى : « أصول الأمة الإسبانية ».

وقد اهتم البورنوث فى أبحاث هذا الكتاب بالعديد من الموضوعات ومنها على الأخص قصة الفتح الاسلامى لإيبيريا بما فيها إقليم أشتوريس، التى يخلص فيها إلى أنه وإن كان المسلمون قد فتحوا أشتوريس إلا أن ذلك فى رأيه لم يتم إلا فى وقت لم يحدد تاريخه سوى أنه فى فترة تلت موجة الفتح الاسلامى الأولى لإيبيريا (١) . كما ناقش فى مقالات أخرى نسب بلاى - بلاجيوس Pelagius- الذى وإن وافق على أنه قوطى الأصل إلا أنه لم ينسبه للأسرة المالكة (٢) . وكذلك أحداث التمرد على المسلمين التى ينسب الدور فيها للأشتوريين دون العناصر القوطية الأخرى التى سكنت أشتوريس، معتبرا التمرد ثورة أشتورية إسبانية (٣) ؛ ووقت بداية المعركة التى تلاقت فيها القوات الاسلامية بالأشتورية وعرفت بموقعة كوبادونجا (٤) Covadonga ، وأحداثها التى ساير فيها مغالاة المدونات اللاتينية القديمة وعلى الأخص مدونة الفونسو الثالث (٥) . كما وصف فى مقالة أخرى جغرافية المنطقة التى دارت على أرضها المعركة (٦)؛ وهو وصف تناوله أيضا مؤرخ إسبانى آخر هو Pérez de Cao، فى مقاله: La Batalla del Monte Auseva فى مجلة : La Revista de Espana (٧) .

كذلك فقد انصب اهتمام البورنوث على دراسة المواقع الحربية بين كل من الأندلس وأشتوريس، لا سيما تلك الحملات التى انهزمت فيها القوات الاسلامية؛ وتحديد خط سير تلك الحملات العسكرية، وهو ما يتضح من عناوين مقالاته التالية : « هزيمة بوربيا، La Derrota del Burbia (٨) » ، « وموقعة وادى أرون، La Batalla de Wadi Arun (٩) » ، « وهزيمة وادى سليط ، La Jornada del Guadacelete (١٠) » ، « وموقعة

---

(١) المقال بعنوان : Itinerario de la Conquista de Espana بالجزء الأول من الكتاب المذكور، صفحات ٤١٣ - ٤٨٤؛ وكان قد نشر المقال بنفس العنوان فى مجلة CHE ، بمدينة Buenos Aires الجزء العاشر، ١٩٤٨م، صفحات ٢١ - ٧٤.

(٢) المقال بعنوان : Pelayo Antes de Covadonga، بالجزء الثانى من الكتاب ؛ صفحات ٧٧- ٩٥ .

(٣) المقال بعنوان: La Rebelion Astur، بالجزء الثانى ، صفحات ٧ - ٤٠.

(٤) المقال بعنوان : Data de la Batalla de Covadonga, بالجزء الثانى، صفحات ٩٧ - ١٣٥.

(٥) المقال بعنوان : El Relato de Alfonso III Sobre Covadonga بالجزء الثانى ، صفحات ٤١-٧٦ .

(٦) المقال بعنوان: A travé de los Picos de Europa ، بالجزء الثانى أيضاً ؛ وكان قد نشره بنفس العنوان فى مجلة Rvista de Occidente الجزء التاسع ١٩٣١م، صفحات ٢٥٠-٢٧٥.

(٧) العدد الحادى والعشرون ، ١٨٧١م ، صفحات ١٦٨-١٧٥.

(٨) Origénes,op cit, 2pp. 469-481

(٩) Op. Cit., 2pp. 603-621.

(١٠) Op. Cit., 3pp. 195-218

كلابيخو الحقيقية، La Auténtica Batalla de Clavijo [١]، التى كانت مجال دراسة المؤرخ كانتيرا أوريف Cantera Orive فى كتابه: La Batalla de Clavijo [٢] أى معركة كلابيخو. ثم ، حملة مركويرا، La Campana de la Morcuera [٣]؛ ثم ،موقعة لوتس، La Batalla de Lutos [٤]؛ وهى موقعة تناولها بالدراسة والتحليل أيضاً المؤرخ الإسبانى روى Riu ضمن مقال له عن حملات الأمير الأندلسى هشام بن عبد الرحمن إلى مملكة أشتوريس، بعنوا ن : "Las Campanas Enviadas por Hixesm I Contra Asturias" [٥]

كذلك فلدينا عدد آخر من الأبحاث لنفس المؤرخ سانشيث البورنوث نشر بعضها فى الكتاب السابق ، مثل: Advertencia Sobre el Kitab Aman de Abd al-Rahman I a Castilla [٦]؛ الذى ناقش فيه عهد الأمان الذى منحه عبد الرحمن بن معاوية لأهل قشتالة، وما إذا كان الأمان يخص إقليم قشتالة الذى كان آنذاك تابعا لأشتوريس ، أم أنه يخص مدينة بنفس الاسم فى الأندلس ذاتها، وجدير بالذكر أن المؤرخ يحاول أن يؤكد اختصاص الأمان بمدينة قشتالة ، وعدم ارتباطه بإقليم قشتالة .

ثم لدينا بحث آخر له بعنوان: La Succesion al Trono en los Reinos de Léon y Castilla [٧]، وهو البحث الذى ناقش فيه نظام الحكم وكيفية اعتلاء العرش فى مملكتى ليون وقشتالة ؛ وتتبع أصل ونسب حكام كل منهما؛ ولما كانت هاتان المملكتان من ورثة مملكة أشتوريس، فقد امتد بحثة ليشمل مناقشة هذا الجانب أيضاً فى مملكة أشتوريس. وهو موضوع كان مجال بحث لمؤرخ إسبانى آخر هو جوبانتس Govantes وإن اقتصر فيه على نظام تتابع العرش فى أشتوريس وحدها، وذلك بعنوان : Disertacion Que Contra el Nuevo Sistema Establecido por el [٨]

---

(١) Op. Cit., 3pp. 281-311.

(٢) طبع مدينة فيتوريا Vitoria فى عام ١٩٤٤م.

(٣) Origénes., 3pp.338-363.

(٤) Op. Cit., 2pp.491-508.

(٥) نشر هذا البحث ضمن كتاب Estudios sobre la Monarquia Asturiana, 2ed.. Oviedo 1971, pp. 469-515، وهو كتاب يضم عدة أبحاث لمؤرخين متعددين ، صدر بمناسبة إحياء ذكرى الفونسو العفيف (الثانى) أحد ملوك أشتوريس ، وكانت قد صدرت الطبعة الأولى منه فى عام ١٩٤٢م.

(٦) Origénes, 2pp. 323-

(٧) نشر فى مجلة : BAAL. 1914, 14 pp. 35-124

(٨) نشر فى مجلة : MRAH, Madrid 1847, 8 pp 3-20.

Abate Masdeu en la Cronologia de los Ocho Primeros Reyes de Asturias. وكان قد تناول هذه الناحية أيضاً مؤرخ إسبانى ثالث هو كابيدا J.Caveda بعنوان: Examen Critico de la Restauracion de la Monarquia Visigoda.[١] ولعل من أبرز خصائص هذا البحث - كما هو واضح من عنوانه - أن المؤلف يخلص منه إلى أن مملكة أشتوريس كانت امتدادا لمملكة القوط التى قضى المسلمون عليها فى عام ٩٢هـ / ٧١١م؛ وهو يجارى فى ذلك مؤلفى المدونات اللآتينية ويخالف وجهة نظر معظم مؤرخى الإسبان الحديثين الذين يعتبرونها مملكة إسبانية خالصة لم يكن للقوط فيها إسهام.

أما المقالة الثالثة للمؤرخ سانشيث البورنوث فهى بعنوان: Los Vascos y los Arabes durante los dos primeros siglos de la Reconquista.[٢]، وهى مقالة تناول فيها بدايات علاقات البشكنس سكان بمبلونة بالمسلمين، وتطوراتها فى القرنين الأولين من استقرار المسلمين فى إيبيريا؛ وهو موضوع درسه أيضاً بعض المؤرخين مثل المؤرخ الإسبانى أوربل P. de Urbel، فى مقاله : Lo Viejo y lo Nuevo Sobre el Origen del Reino de Pamplona[٣]؛ والمورخان الفرنسيان ليڤى بروڤنسال Lévi-Provencal فى مقاله: Du Nouveau sur le Royaume de Pampelune au IX Siécle.[٤]، وبرار - ديبجو Barrau-Dihigo فى مقالين، الأول بعنوان Les Origines du Royaume de Navarre.[٥]. أما المقال الثانى بعنوان : Les Premiers Rois de Navarre, Notes Critiques.[٦]

وإذا كانت هذه الأبحاث الخمسة السابقة تتعلق بعلاقات المسلمين والبشكنس فى نبرة (بمبلونة)، فإن علاقات كل من البشكنس وأشتوريس وأثر علاقاتهما على المسلمين فى الأندلس تكتمل بالمقال الذى كتبه المؤرخ الاسبانى لاكارا Lacarra وذلك بعنوان: Las Relaciones entre el Reino de Asturias y el de Pamplona[٧]؛ كما تكتمل صورة علاقات أشتوريس بغيرها من القوى المسيحية بما كتبه المؤرخ

---

(١) نشر فى مجلة : MRAH, Madrid 1879, pp 1 - 107.

(٢) نشر فى مجلة : Bol. IAEV. 1952. 3pp. 65-75.

(٣) نشر فى مجلة : AL- Andalus Madrid - Granada 1954. 19pp. 1-42.

(٤) نشر فى مجلة : Bul. Hisp. Bourdeaux 1953. 55pp 5-22.

(٥) نشر فى مجلة : R. Hisp., Paris 1900 7pp 141-222

(٦) نشر فى المجلة السابقة ، فى الجزء ١٥ ص ٦١٤ - ٦٤٤ .

(٧) نشر ضمن أبحاث كتاب : Estudios Sobre La Monarquia Asturiana, pp 223-243

الفرنسى ديفورنيه Defourneaux عن علاقات أشتوريس بالفرنجة فى غالة وأثرها على مسلمى الأندلس بعنوان: Carlomagno y el Reino Asturiano [١] .

كذلك فلدينا بعض الأبحاث الموجزة التى تعبر عن وجهات نظر مؤلفيها فى تحديد بداية حركة المقاومة المسيحية، وما إذا كان الفرنجة هم أول من بدأها أم الإسبان . فجعل بعضهم بدايتها فرنجية حين اصطدم المسلمون بهم فى شمال شرقى إيبيريا على عهد شارلمان؛ ثم ربطوها بالمقاومة الإسبانية التى بدأت فيما بعد فى إسبانيا المسيحية، مع أن مقاومة الفرنجة للمسلمين فى شمال شرقى إيبيريا وجنوبى غالة – فى ذلك الوقت المبكر– لم يكن قد تم تنسيقها مع إسبانيا المسيحية، ولم تكن بهدف الدفاع عن الأراضى الإسبانية أو استردادها من المسلمين، وإنما بهدف الدفاع عن أراضيهم الفرنجية فى غالة. والبحث الذى يمثل وجهة النظر السابقة هو للمؤرخ الإسبانى دى لا تورى De La Torre بعنوان: Las Etapas de la Reconquista hasta[٢] Alfonso II؛ أما المؤرخ الفرنسى فليشيه Fliche فى مقاله بعنوان Alphonse II et[٣] les Origines de la Conquete Chrétienne، فيعارض وجهة النظر السابقة ويجعل حركة المقاومة المسيحية إسبانية خالصة تظهر فى إقليم أشتوريس بالشمال الإيبيرى، وإن يؤخر بدايتها إلى عهد ملكها الفرنسو الثانى، أى إلى منتصف القرن التاسع الميلادى.

هذا عن الأبحاث والمقالات، أما عن الكتب الإسبانية والأوربية فلدينا منها أنواع متعددة ، تناول بعضها التأريخ لفترة حكم بعض ملوك أشتوريس مثل كتاب : الفونسو الثانى ، Alfonso II [٤] للمؤرخ الإسبانى كابال Cabal؛ وكتاب : Historia Critica y Documentada de la Vida y Acciones de Alfonso III [٥] للمؤرخ الإسبانى كوتاريلو Cotarelo. وتناول بعضها الآخر التأريخ لدور بعض مدن أشتوريس الهامة فى تاريخ أشتوريس وما يوجد فيها من آثار تتعلق بفترة الدراسة والفترات التى تليها، مثل كتاب Gijon en la Historia General de Asturias [٦]، للمؤلف الإسبانى سوموثا J, Somoza .

---

(١) نشر ضمن أبحاث الكتاب السابق ، ص ١٩ – ١١٤ .

(٢) نشر ضمن أبحاث الكتاب السابق أيضاً ، ص ١٣٣ – ١٧٤ .

(٣) نشر ضمن أبحاث الكتاب السابق أيضاً ، ص ١١٧ – ١٣١ .

(٤) Oviedo 1943.

(٥) Madrid 1933.

(٦) Gejione 1958 فى جزأين ، يختص الثانى منهما بالعصور الوسطى.

كـذلك فـمن الكتب مـا تناول بالدراسـة عناصـر سكان أشـتـوريس الأول وخصائصهم؛ والقوى الأجنبية التى سيطرت عليهم قبل الفتح الإسلامى ؛ وتقسيماتها الادارية منذ عصر الرومان؛ وهو التقسيم الذى ظل قائما حتى بدايات العصر الحديث، مثل كتاب : Memorias de los Astures Antiguas [١] ، للمؤرخ الإسبانى فلوريث H, Florez. ثم كتابان يختصان بتاريخ أشتوريس السياسى أولهما هو Antiguedades de los Astures Transmontanos desde los Tiempos mas Remotos hasta el Siglo X [٢]، للمؤرخ الإسبانى ريسكو Risco ، الذى تتمثل أهميته فى احتوائه على مجموعة من النقوش والوثائق النادرة عن أشتوريس خلال فترة دراستنا ، أما قيمته التاريخية فلا تخرج عن كونها تجميع لروايات المدونات اللاتينية؛ وهو نقص أكمله المؤرخ الفرنسى برار - ديبجو Barrau-Dihigo فى بحث له بعنوان : Recherches sur L'Histoire Politique de Royaume Asturien [٣] ، الذى جمع فيه روايات المصادر الإسلامية جنبا إلى جنب مع روايات المصادر اللاتينية دون أن يحللها؛ تاركا للقارئ مهمة استنتاج ما يراه بنفسه. على أن أبرز ما عند هذين المؤرخين إنكارهما خضوع إقليم أشتوريس للمسلمين، ومحاولتهما التدليل على ظهور مملكة أشتوريس المستقلة عن الحكم الإسلامى منذ عام ٧١٨م / ٩٩-١٠٠هـ .

يضاف إلى ذلك كثير من المراجع الإسبانية والأوربية بعامة، التى أرخت لتاريخ شبه جزيرة إيبيريا، إما منذ القديم حتى العصر الحديث ، أو اقتصر بعضها على فترة العصور الوسطى، أو على تاريخ المسلين فى الأندلس وحدها ؛ وهى مراجع اهتمت بابراز الخطوط العامة والأحداث البارزة دون الركيز على فترة بعينها. ومن هذه الكتب الموسوعة المعروفة بعنوان : Cronica General de Espana [٤] والمجموعة المنشورة بعنوان: Espana sus Momuments y Artes su Naturaleza é Historia [٥] التى انفرد المؤرخ كوادرادو Quadrado بتأليفها؛ ومجموعة: Historia de Espana [٦]

---

(١) هو الجزء الثالث عشر من مجموعة : Espana Sagrada. Madrid 1789.

(٢) هو الجزء السابع والثلاثون من المجموعة السابقة ، مدريد ١٧٨٩ م .

(٣) نشر ضمن منشورات مجلة R. Hisp. Paris 1921, 52pp 1-360.

(٤) فى أربعة عشر جزءا ، تتناول تاريخ مقاطعات إيبيريا منذ العصور القديمة حتى بدايات العصور الحديثة، وقد ألف الجزء الخاص بأشتوريس اسكاليرا Escalera وأشرف على إصداره دون كيتانو رسل Don Cayetano Rosell. ، فى Madrid عام ١٨٦٥م،

(٥) فى عدة أجزاء، أما الجزء الخاص بأشتوريس رليون فقد نشر فى مدينة برشلونة Barcelona عام ١٨٨٥م.

(٦) يهمنا منها الجزء السادس، بعنوان : Espana Cristiana Comienzo de La Reconqista, Madrid 1956. فضلاً عن الجزء الرابع؛ الذى صدر عام ١٩٥٠م وهو ترجمة إسبانية للجزء الأول من كتاب المؤرخ ليفى بروفنسال بعنوان : Histoire de l'Espagne Musulmane

التى أصدرها بيدال M Pidal ؛ وكتاب: Manual de Historia de Espana (١) للمؤرخ أجوادو بليى Aguado Bleye ؛ وكتاب A History of Spain (٢) لألتاميرا Altamira ؛ وكتاب: History of The Dominion of The Arabs in Spain (٣) ، لكوندى Condé ؛ وكتاب: Estudios Criticos de Historia Arabe Espanola (٤) ، الذى كتبه المؤرخ كوديرا F. Codera ؛ وكتابى المستشرق الهولندى دوزى R. Dozy الأول بعنوان : Histoire des Musulmans d'Espagne (٥) أما الثانى فهو بعنوان: Recherches sur L'Histoire et Litterature d'Espagne Pendant le Moyen Age (٦) ؛ وكتابات المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال Lévi-Provencal وعلى الأخص كتاب Histoire de L'Espagne Musulman (٧) ، إلى غير ذلك من المراجع الأوربية المتنوعة .

ولا يحب أن تفوتنا هنا الإشارة إلى كتابات مؤرخى الشرق الحديثين ، الذين تخصصوا فى دراسة التاريخ الأندلسى والإسبانى بعامة . وفى الواقع فإن دور مؤرخى مصر الحديثين فى هذا المجال يعتبر دورا قياديا ، ويظهر هذا الدور الريادى من مؤلفاتهم العديدة فى التاريخ الأندلسى التى نكتفى منها بذكر ، كتاب : المجمل فى تاريخ الأندلس (٨) للمرحوم عبد الحميد العبادى؛ وكتابات حسين مؤنس المتعددة ومنها على الخصوص كتاب : فجر الأندلس دراسة فى تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الأموية ٧١١ - ٧٥٦ م (٩) ، وأبحاثه عن : صورة

---

(١) فى ثلاثة أجزاء، فى مدينة مدريد ، ويهمنا منها الجزء الأول الصادر عام ١٩٧٥م .

(٢) صدر فى مدينة نيويورك New york عام ١٩٤٩م ، وهو ترجمة للنص الإسبانى .

(٣) فى ثلاثة أجزاء ، صدر الجزء الأول منه عام ١٨٥٤ م فى لندن . وهو ترجمة للنص الإسبانى.

(٤) فى ثلاثة أجزاء هى الأجزاء ٧-٩ التى نشرت ضمن مجموعة : Col. EA., Saragosa 1903-1917.

(٥) فى ثلاثة أجزاء، صدرت فى Leyde عام ١٨٣٢م، وترجمه استوكس Stokes إلى الانجليزية بعنوان : A History of The Moslems in Spain, London 1913 ، ثم ترجم الدكتور حسن حبشى، الجزء الأول منه بعنوان : تاريخ مسلمى أسبانيا، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م، ثم استكمل ترجمة بقية الكتاب فى ثلاثة أجزاء أخرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ ـ ١٩٩٨ م.

(٦) فى جزأين، ط٣، باريس Paris ، ١٨٨١م .

(٧) فى ثلاثة أجزاء، باريس عام ١٩٥٠م وما بعدها . وقد ترجم غرسيه غومث Garcia Gomez الجزء الأول إلى الإسبانية، وصدر بعنوان : Historia de Espana Musulmana, Madrid 1950 ، وهو الجزء الرابع من أجزاء المجموعة التى يصدرها بيدال M. Pidal ، ومؤخرا نقل على البمبى وآخرون هذه الترجمة إلى العربية ونشروها بعنوان : تاريخ إسبانيا الإسلامية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م.

(٨) ط٢، القاهرة ١٩٦٤م .

(٩) ط١، القاهرة ١٩٥٩ م .

الأندلس[١]، وثورات البربر فى إفريقية والأندلس [٢]، وغارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ و٢٤٥ هـ / ٨٤٤ ، ٨٥٩م [٣]؛ ثم كتابات السيد عبد العزيز سالم ومن أهمها لموضوع الدراسة كتاب : تاريخ المسلمين وأثارهم فى الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية [٤]؛ ثم كتاب : فى تاريخ المغرب والأندلس[٥] لأحمد مختار العبادى ؛ وكتابات محمد عبد الله عنان، وأهمها كتابه الموسوعى : دولة الاسلام فى الأندلس [٦]، الذى لازال أول موسوعة شاملة لتاريخ الأندلس على مستوى الشرق العربى فى العصر الحديث ؛ وكتاب : تاريخ العرب فى إسبانيا [٧] لمحمد دياب ؛ وكتاب تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى[٨] لعلى حموده؛ ثم كتاب : مع المسلمين فى الأندلس [٩] لعلى حبيبة؛ وكتابى التاريخ السياسى للدولة العربية [١٠] والعلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى [١١] لعبد المنعم ماجد .

وفى مقابل هذا الانتاج الوفير لمؤرخى مصر الحديثين عن تاريخ الأندلس، يوجد قليل من الكتب لمؤرخى العرب الحديثين، يتقدمها كتاب شكيب أرسلان بعنوان : الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية [١٢]؛ وكتاب عبد الرحمن الحجى بعنوان : التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة [١٣]؛ وكتاب إبراهيم بيضون بعنوان: الدولة العربية فى إسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة [١٤].

---

(١) مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، مجلد ١٤ لسنة ١٩٦٠م، ص ٣٣ - ٦٠ .

(٢) مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، مجلد ١٠/١ لسنة ١٩٤٨م، ص ١٤٣ - ٢٠٦ .

(٣) المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١/٢ لسنة ١٩٤٩ م، ص ١٩ - ٧٣ .

(٤) دار المعارف بمصر ١٩٦٢م .

(٥) الاسكندرية بدون تاريخ .

(٦) فى عدة أجزاء، الجزء الأول على الخصوص، ط٣، القاهرة ١٩٦٠م .

(٧) الجزء الأول على الخصوص، القاهرة ١٩١٣م .

(٨) الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م .

(٩) القاهرة ١٩٧٢ م .

(١٠) الجزء الثانى على الخصوص، ط٤، القاهرة بدون تاريخ .

(١١) بيروت ١٩٦٧م .

(١٢) فى ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦م وما يليها .

(١٣) الطبعة الأولى، دمشق ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م .

(١٤) الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية ببيروت ١٩٨٦م .

ولعله يتضح من عناوين المؤلفات العربية السابقة أنها اختصت فى معظمها بتاريخ المسلمين فى الأندلس، منذ الفتح الإسلامى لإيبيريا ولفترات متفاوتة تصل فى بعضها إلى إخلاء المسلمين لها فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . على أن بعضها قد اهتم أيضاً بالتأريخ للقوى المسيحية الإسبانية - ومنها أشتوريس- إلا أن روايتها فى هذا الصدد تتسم بالعمومية والإيجاز وأحياناً بالغموض، وتفتقر إلى التحليل والتمحيص؛ بسبب اعتماد مؤلفيها على المصادر الإسلامية وحدها من دون اللاتينية ؛ باستثناء بعض المؤرخين المصريين الذين تقف كتاباتهم كدليل قاطع أيضاً على السبق المصرى فى الانفراد حتى وقتنا الحاضر بالاطلاع عليها والاستفادة منها جنبا إلى جنب مثيلاتها الاسلامية .

تلك نظرة سريعة استعرضنا فيها أهم المصادر والمراجع المختلفة التى أعانتنا فى هذه الدراسة ، التى اتجهت فكرتها إلى استغلال كل ما توفر عنها من مادة علمية فى جميع المصادر قدر المستطاع وتحليلها ومقابلتها وربط خيوطها وعناصرها وإقامة الدليل عليها ، بهدف وضع تصور لأصول وبدايات حركة المقاومة الإسبانية ضد المسلمين فى إقليم أشتوريس وتطوراتها ومراحلها المختلفة، وذلك فيما بين عامى ٩٢ - ٢٩٧ هـ / ٧١١ - ٩١٠ م ، وهى الفترة التى كانت فيها أشتوريس أول قوة إسبانية مسيحية تبدأ مناهضة المسلمين من معقلها فى شمال إيبيريا لترسى أساس الحروب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس؛ وهى الحروب التى كانت ممهدة للحروب الصليبية فى الشرق العربى فيما بعد .



البــــاب الأول

إقليم أشتوريس حتى الفتح الإسلامى

فى عام ٧١٤م (٩٥هـ)



الفصـــل الأول

أشتوريس قبل الفتـــح الإسلامى

أسماء شبه جزيرة إيبيريا ـ موقعها وأهم معالمها الجغرافية ـ أثرها فى انعزال إقليم أشتوريس عن بقية أقاليمها ـ أثر البيئة الأشتورية على أنماط حياة سكانها ـ الغزو الرومانى وتغلغل الحضارة اللاتينية فى أشتوريس ـ استيلاء السويف على أشتوريس ومنازعة القوط لهم فى السيطرة عليها ـ تفوق مظاهر الحضارة اللاتينية فى أشتوريس حتى الفتح الإسلامى فى أواخر القرن الهجرى الأول .



اتخذت شبه الجزيرة الإيبيرية أسماء متعددة على مر العصور، اشتق بعضها من أسماء أنهارها وبعضها الآخر من أسماء قبائل وشعوب سكنتها، أو ارتبطت باسم أحد الكواكب، أو حتى باتجاه الغرب الجغرافى؛ فضلاً عما حملته إلينا كتب التاريخ والجغرافية من معلومات مبهمة أحيانا وأسطورية أحيانا أخرى فى تفسيرها لهذه الأسماء . فسميت فى القديم إيبيريا Iberia من نهر إيبيروس Eberus (١) وهو إبرة Ebro الحالى؛ أو نسبة إلى قبائل بنفس الإسم كانت قد سكنت حول هذا النهر بالجزء الشرقى؛ ثم شمل اسمهم كل شبه الجزيرة مع انتشارهم فى أنحائها (٢) . ثم عرفت بباطقة Baetica من نهر بيطى Baetis أى نهر قرطبة (٣) ، الذى عرفه المسلمون فيما بعد بالوادى الكبير (٤) Guadalquivir ، وكان اليونان قد نزلوا على ضفتيه (٥) ؛ وعمموا اسمه على كل شبه الجزيرة، وإن قصره الرومان على جنوبيها فقط (٦) . كذلك فقد أسماها اليونان باسم إشبانية Ispania (Spania) ، وهو الإسم الذى استخدمه الرومان من بعدهم إما على اسم رجل ملكها فى القديم كان يدعى إشبان (شبان) Sphan أو Span ؛ وإما نسبة إلى شعب بهذا الاسم (٧) ؛ أو اشتقاقا من اللفظ

---

(١) أنظر : ;Pliny , Natural History, London 1947, 2p 19; Chron, Albeldense, ed Florez, p 433 ؛ Atlas Geographus, Savoy 1711, 2p 1176 البكرى، جغرافية الأندلس وأوربا، ص ٥٧؛ الحميرى، صفه، ص٢ ؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢١٢ ويسميها ، أفارية ،؛ الطاهر مكى، الأندلس تاريخ اسمه وتطوره، مجلة الثقافة، السنة الثانية، العدد ٢٢، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٢٥ . ونهر إبرو ينبع من جبال السيرطانيين بكنتبرية بشمال شبه الجزيرة ويصب فى البحر المتوسط بناحية طرطوشة، وعنه، أنظر : Strabo, Geography, Great Britain 1916, 2p. 91, Lévi - Provençal, La Description, pp. 103 - 104 .

(٢) أنظر : مؤنس، تاريخ الجغرافية، صفحات ١٣٨ ـ ١٣٩ ؛ الطاهر مكى، نفس الصفحة والمكان؛ Altamira, A History of Spain, Philadelphia 1946, p 22 .

(٣) أنظر : البكرى، نفسه، ص ٥٨؛ الحميرى، نفسه، ص ٢ ، ونهر بيطى من الأنهار المشهورة بشبه الجزيرة، وينبع من جبال البيرة ويصب فى المحيط الأطلسى وطوله ثلاثمائة وعشرة أميال، أنظر : Lévi - Provençal, La Description, p. 101; Strabo, op. cit , 2 pp 13, 23 - 24 .

(٤) أو النهر الكبير أنظر : الإدريسى، نزهة، طبعة ١٩٧٥م، ص ٥٦١ .

(٥) أنظر : البكرى، نفسه، ص ٥٨ .

(٦) أنظر : مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ١٣٩ .

(٧) قارن بتفصيل : البكرى، نفسه، ص ٥٨؛ الحميرى، نفسه، ص ١ ـ ٢ ؛ المقرى عن ابن النظام، نفح، ١ ص ١٣٣ ؛ الإدريسى، نزهة، ص ٥٢٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢ ؛ المراكشى، المعجب، ص ٣٣٦. وعن مناقشة مدلول اسم إشبان وإشبانيا وتطورهما، أنظر : محمد دياب، تاريخ العرب فى أسبانيا، القاهرة ١٩١٣م، ١ ص ٧؛ مؤنس، تاريخ الجغرفية، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ، ويخلص فيه إلى تحريف بعض المؤرخين القدامى لهذا الاسم فجعلوه أصبهان . وأنظر أيضاً، الطاهر مكى، نفسه، صفحات ٢٦ ـ ٢٧ . هذا وقد استخدم الرومان اللفظ اليونانى Ispania بعد مازادوا عليه حرف H فأصبحت شبه الجزيرة تعرف عندهم باسم Hispania ، أو باسمها القديم Iberia ؛ : أنظر Strabo , op . cit., 2p119 . كذلك فقد استخدم الرومان اللفظ اليونانى الآخر وهو Spania كما هو، وهو اللفظ الذى تطور فى اللغة الإسبانية الحديثة إلى Espana .

الفينيقى سبان Span الذى يعنى ساحل أو بلاد الأرانب البرية، وكانت شبه الجزيرة غنية بها؛ حتى أن إحدى عملاتها من عصر الإمبراطور الرومانى أدريان Adriano (١١٧ - ١٣٨م) تمثل شبه الجزيرة فى شكل أم جالسة وبين قدميها أرنب [١] .

كذلك فقد عرفت إيبريا بإشبانية (هسبيريا) Hesperia (Esperia) من أشبرس Hesperus (Espero) وهو الكوكب المعروف بالكوكب الأحمر [٢]؛ أو ما يعنى أرض الغرب أو المغرب [٣] إذ كانت شبه الجزيرة تقع فى أقصى غرب العالم المعروف آنذاك، وتشرف على بحر أوقيانس - المحيط الأطلسى - الذى كان من المعتقد أنه لا عمارة وراءه [٤] .

على أنه بعد ما فتح المسلمون شبه الجزيرة أواخر القرن الأول الهجرى أوائل الثامن الميلادى، أصبحت تعرف عندهم باسم الأندلس الذى عربوه من لفظ الأندليس[٥] ؛ الذى عرف لهم من قبل وهم بالمغرب عن طريق البربر [٦] ، ويعنى قبائل الوندال Vandalos الجرمانية التى وفدت أوائل القرن الخامس الميلادى إلى شبه

---

(١) أنظر : محمد دياب، نفسه، ١ ص ١٧؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ١٣٩ - ١٤٠؛ الطاهر مكى، نفسه، ص ٢٥ .

(٢) Chron. Albeldense,ed Florez, pp 433 - 434; Huici, op cit, 1p 116; Atlas, op . cit., 2p. 1176
البكرى، نفسه، ص ٥٨ .

(٣) أنظر : محمد دياب، نفسه، ١ ص ١٧؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ١٤٠؛ الطاهر مكى، نفسه، ص ٢٦ .

(٤) أنظر : ابن الشباط، وصف الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦٧م، ١٤ص ١٠٣؛ الحميرى، صفة، ص ١، ٢؛ المراكشى، المعجب، ص ١٧؛ الإدريسى ، نزهة، ص ٥٢٥ .

(٥) أنظر: البكرى، نفسه، ص ٥٩؛ الحميرى، صفة، ص ٢؛ القلقشندى، صبح، القاهرة ١٩١٥م، ٥ص ٢١١ - ٢١٢ ؛ Lévi - Provençal, Histoire, 1pp 71 - 73; Ency. of Islam (art; AL _ Andalus)1p 486 .

(٦) عن وقت وكيفية تعريب لفظ الأندلس بتفصيل، أنظر : الطاهر مكى، نفسه، صفحات ٢٨ - ٣٠، ويخلص إلى أن أول استخدام رسمى له يعود إلى عام ٩٨ هـ، أى بعد ستة أعوام من الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة، وإن كان قد عرف لبربر شمال أفريقيا قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون، وأن اللفظ دخل اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية وليس عن طريق اللاتينية أو الجرمانية .

هذا وقد ضربت بعض المصادر التاريخية والجغرافية الإسلامية فى بيداء الأسطورة حينما فسرت أصل لفظ الأندلس، ونسبته إلى بنى طوبال أو إلى أندلس بن طوبال بن يافث بن نوح، واعتبرته أول من احتل شبه الجزيرة بعد الطوفان فى أيام نوح عليه السلام، أنظر بتفصيل : الحميرى، نفسه، ص ١، ٤؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٠، ١٠٣؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٢٨؛ المقرى، نفسه، ١ ص ١٢٤، ١٣٠؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١ - ٢ .

الجزيرة الإيبيرية، واستقرت فى سهلها الجنوبى باطقة Baetica ما يقرب من عشرين عاما (٤١١ - ٤٢٩م)؛ ثم عبرت إلى شمالى أفريقيا حيث قضى عليهم هناك [١] .

ولأن سهل باطقة Baetica قد نسب للوندال وصار يعرف بالأندلس Vandalizia و Andalizia و Andaluci [٢] ، وكان أول ما فتحه المسلمون من أقاليم شبه الجزيرة، وتقع فيه مدينة قرطبة Cordoba التى اتخذوها عاصمة لهم هناك؛ فقد أطلقوا اسمه على سائر شبه الجزيرة التى صار معظمها فى أيديهم .

وبسبب أن لفظ الأندلس كان يعنى إسبانيا الإسلامية فكان طبيعيا أن ينكمش مدلوله الجغرافى؛ تبعاً للتقلص التدريجى للحكم الإسلامى فى شبه الجزيرة نتيجة ضغط المقاومة الإسبانية؛ حتى صار الإسم قاصرا على آخر تمثيل إسلامى فى مملكة غرناطة بجنوب شرقى شبه الجزيرة . فلما انتهى التواجد الإسلامى فيها أواخر القرن التاسع الهجرى (أواخر القرن الخامس عشر الميلادى)، عاد اسم الأندلس مرة أخرى - حتى الوقت الحاضر- ليدل فقط على مديريات سهل إيبيريا الجنوبى الواقع جنوب نهر الوادى الكبير [٣] .

وتعتبر شبه الجزيرة الإيبيرية كتلة هائلة ناتئة فى أقصى الطرف الجنوبى

---

(١) اكتسحت قبائل الوندال الجرمانية بقيادة Gundric مع قبائل جرمانية أخرى مثل السويف والألان شبه جزيرة إيبيريا فى حوالى عام ٤٠٩م، وأحدثوا فيها تخريبا وتدميرا كبيرا لم تشهده البلاد من قبل، ثم اقتسموها فيما بينهم فى عام ٤١١م واستقرت قبيلة Silingians وهى أكبر قبائل الوندال فى سهل باطقة وامتدت سيطرتها إلى الشمال والغرب والشرق من شبه الجزيرة إلى أن اضطرتها قبائل القوط بعد صدامات عنيفة إلى إخلاء كل شبه الجزيرة والعبور إلى شمال أفريقيا فى حوالى عام ٤٢٩م حيث أقاموا لهم مملكة هناك، وهى المملكة التى قضى عليها الامبراطور البيزنطى جستنيان فيما بين عامى ٥٤٦ - ٥٤٨م . وعن أصل الوندال وكيفية احتلالهم إيبيريا، وعلاقتهم بكل من القوط والبيزنطيين أنظر : Historia de los Vandalos de Isidore, ed. Florez, Esp. Sagr , Madrid 1769, 6 pp 498 - 500, Donini, Isidore of seville's History, Leiden - Brill 1966, pp 35 - 36, Romero, La Historia de los Vandalos, CHE, t1 - 2 pp. 292 - 293 . ، وانظر أيضاً : اسحق عبيد ، من ألاريك إلى جستنيان، ط١، دار المعارف ١٩٧٧م، ص ٥٤ وما بعدها، ص ٨٢ وما بعدها، ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) أنظر : Morales, La Cronica General, Alcala de Henares 1574, 1 fol XXXII .

(٣) قارن : على محمد حمودة، تاريخ الأندلس، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٣٤؛ عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، العصر الأول- القسم الأول، ص ٥٠ حاشية ٢؛ أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٩ - ٢٠؛ الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ٣٧؛ الطاهر مكى، نفسه، ص ٢٦ - ٢٧ - ٣٠؛ مؤنس، رحلة الأندلس، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٢٢ - ٢٣؛ السيد سالم، دائرة معارف الشعب ٦١ ص ٣ .

الغربى من قارة أوربا [١] ، ولا يفصلها عن غالة La Gaule - بلاد الفرنجة - سوى جبال البرت أو البرتات[٢] Pyrenaei ، وهى جبال عظيمة تمتد من أرض برشلونة فى الشرق حتى مدينة بيونة فى الغرب [٣] ؛ ولذلك تربط البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى [٤] ؛ وتشكل الحد الشمالى الشرقى لشبه الجزيرة الذى هو أقصر حدودها طولا [٥] . وفيما عدا تلك الناحية فإن المياه تحيط بشبه الجزيرة من كل جانب، مما

---

(١) تصور معظم الجغرافيين اليونان والرومان شبه الجزيرة على أنها فى غرب أوربا وليس فى الجنوب الغربى، فبدت حدودها عندهم فى اتجاه غير صحيح، إذ جعلوا حدها الشمالى الشرقى حدا شرقيا، والساحلين الشرقى والجنوبى ساحلا واحدا هو الجنوبى، وظل عندهم ساحلاها الغربى والشمالى فى وضعهما السليم، وعلى سبيل المثال، أنظر : Strabo, op. cit, 2pp. 3 - 7 ، وبتفصيل أنظر : مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ١٤ وما بعدها . وقد ساير الجغرافيون المسلمون هذا التصور الخاطىء، قارن : المراكشى، المعجب، ط١ ، القاهرة ١٩٤٩م، ص ٥ - ٦؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٢ ؛ الحميرى، نفسه، ص ٢؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١ ؛ المقرى، نفسه، ١ ص ١٢٦، ١٢٨ ؛ البكرى، نفسه، ص ٦٥ - ٦٨ .

(٢) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ١٢٦ ، ١٢٨ ؛ المراكشى، نفسه، ص ٦؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٣ ؛ البكرى، نفسه، ص ٨٥؛ Lévi - Provencal, La Description, p 100 . وقد يطلق على هذه الجبال جبل، ولفظ البرتات مشتق من اللفظ اللاتينى Portus بمعنى ممر أو مدخل أو باب نسبة إلى ممرات هذا الجبل، واستخدم الجغرافيون المسلمون اللفظ كما سمعوه فقالوا برت وبرتات، وعربوها أحيانا إلى أبواب . ويقع فى الجبل بالقرب من شاطىء البحر المتوسط معبد يسمى هيكل الزهرة وهو Port Vendres الحالى، ولذلك سمى بعض المؤرخين الجبل باسم المعبد فقالوا جبل هيكل الزهرة فى حين قال البعض الجبل الذى فيه هيكل الزهرة قارن : ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٢ ؛ المقرى، نفسه، ١ ص ١٢٦، ١٢٨ ؛ المراكشى، نفسه، ص ٦؛ البكرى، نفسه، ص ٦٧ ؛ القلقشندى، نفسه، ٥ ص ٢١٣ ؛ الإدريسى، نزهة، طبعة ١٥٩٢م، ص ٢٥٣ ؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٢٦٦ . هذا وقد انفرد الإدريسى (ص ٢٥٣ - ٢٥٤ طبعة ١٥٩٢م) بذكر أبواب هذا الجبل وجعلها أربعة هى من الشرق ناحية البحر المتوسط إلى الغرب ناحية المحيط الأطلسى عند خليج بسكاية : برت جاقة نسبة إلى مدينة بنفس الاسم ناحية برشلونة، وبرت أشبرة، وبرت شازرو مما يلى مدينة بنبلونة وطوله فى عرض الجبل ثلاثون ميلا، وبرت بيونة . وانظر أيضاً، الحجى، التاريخ الأندلسى، صفحات ٩٦ - ٩٨ إذ يضيف بابا خامساً . وعن الجبل بتفصيل أنظر : أرسلان، الحلل، ٢ ص ١٠٨ وما بعدها .

(٣) أنظر : الإدريسى، نفسه، ص ٢٥٣ (طبعة ١٥٩٢م) ؛ ابن سعيد، الجغرافية، تحقيق اسماعيل العربى، بيروت ١٩٧٠م، ١ ص ١٨٠ .

(٤) ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٢ ؛ المقرى، نفسه، ١ ص ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠ ؛ المراكشى، نفسه، ص ٦ ؛ القلقشندى، نفسه، ٥ ص ٢١٣ . هذا وكان البحر المتوسط يعرف بالبحر الرومى أو الشامى أو بحر تيران أو مانطس . أما المحيط الأطلسى فعرف بالأقيانس والبحر الأخضر أو البحر المحيط أو المظلم أو بحر الظلمة والظلمات، قارن : الحميرى، نفسه، ص ٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ؛ المراكشى، نفسه، ص ٥، ٦ ؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١ ؛ الاصطخرى، مسالك الممالك، ليدن ١٩٦٧م، ص ٤١ ؛ البكرى، نفسه، ص ٦٨ ، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣ .

(٥) أنظر : ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٢ ؛ المراكشى، نفسه، ص ٦؛ Strabo, op cit., 2 p 5

حدا بالجغرافيين المسلمين إلى اعتبارها جزيرة [١] . إذ يمتد البحر المتوسط على طول ساحليها الشرقى والجنوبى [٢] ، بادئا من الأقدام الشرقية لجبال البرتات، وينتهى عند مضيق جبل طارق (الزقاق) الذى يفصل شبه الجزيرة عن شمالى أفريقيا بما لا يزيد عن اثنى عشر ميلا [٣] ؛ وعنده يلتقى البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى، الذى يكمل تطويق شبه الجزيرة من ناحيتى الغرب والشمال [٤] ؛ وتتكسر أمواجه هو الآخر عند الجانب الغربى لجبال البرتات، حيث يعرف فى هذه الناحية الشمالية بالبحر الكانتبرى EL Mar Cantabrico أو بخليج بسكاى ـ بسكاية ـ Golfo de Vizcaya، وهو ما يسميه بعض الجغرافيين المسلمين ببحر الانقليشيين [٥] . وبذلك تنعزل شبه الجزيرة الإيبيرية عن جيرانها بسبب إحاطة المياه وجبال البرتات بها، حتى شبهها أحد الأوربيين الحديثين بسفينة ضخمة تطفو على سطح الماء [٦] .

ومع أن شبه الجزيرة الإيبيرية تتكون فى معظمها من هضبة كبيرة تعرف بالمسيتا La Meseta ، يتراوح ارتفاعها بين ٦٠٠ ـ ٩٠٠ مترا فوق مستوى سطح البحر؛ وهو ما يجعلها تبدو وكأنها وحدة جغرافية واحدة؛ إلا أن كثرة الجبال التى تمتد معظمها فى اتجاه أفقى من الشرق إلى الغرب هابطة جبلا بعد الآخر [٧] ؛ فضلا عن تعدد الأودية العميقة فيما بينها؛ قد فتت هذه الوحدة وأعاق الاتصال بين الأجزاء المختلفة لشبه الجزيرة، فنشأت وحدات محلية تنفصل كل منها عن الأخرى بحواجز طبيعية؛ مثلما ينعزل الجنوب عن الوسط بجبال مورينا La Sierra Morena [٨] ؛

---

(١) قارن : الحميرى، نفسه، ص٢؛ المقرى، نفسه، ١ ص ١٢٦، ١٣٠؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١؛ الإدريسى، نفسه، ص ٥٢٥؛ القلقشندى، نفسه، ٥ص ٢١٢؛ الذهبى، تاريخ الإسلام، مطبعة السعادة ١٣٦٩هـ، ٣ ص ٣٢٤ .

(٢) قارن : ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٢؛ المقرى، نفسه، ١ص ١٢٨؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١؛ المراكشى، نفسه، ص ٥؛ الحميرى، نفسه، ص ٢؛ الإدريسى، نزهة، ص ٥٣٥؛ البكرى، نفسه، ص ٦٨؛ Atlas Geographus, 2p. 1176

(٣) أنظر : ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٢؛ المراكشى، نفسه، ص ٦ .

(٤) أنظر : المراكشى، نفسه، ص ٦؛ الحميرى، نفسه، ص ٢؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٢؛ البكرى، نفسه، ص ٦٨، الإدريسى، نفسه، ص ٥٣٥ .

(٥) أنظر : الحميرى، نفسه، ص ٢؛ الإدريسى، نفسه، ص ٥٣٥ . وربما يكون لفظ الانقليشيين تحريفا للفظ الإنجليز لقرب بحر كنتبرية من جزيرة بريطانية موطن الإنجليز .

(٦) أنظر : دوروثى، إسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة طارق فودة، سلسلة حول العالم فى كتب (٧)، القاهرة ١٩٦٥م، ص ٢١ .

(٧) أنظر : المقرى، نفسه، ٢ ص ١٢٩ .

(٨) أنظر : Peers, Spain a Companion to Spanish Studies, London 1929, p 29 .

وينشطر الوسط ذاته بجبال الشارة أو الشارات [١] ، التى تأخذ من ظهر مدينة سالم حتى قرب مدينة قلمرية فى أقصى الغرب على ساحل المحيط الأطلسى [٢] ، وهى الجبال التى يقع خلفها نحو الشمال نهر دويرة [٣] Duero الذى ينبع من نواحى مدينة نومانتيا Numantia [٤] فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة، ويجرى غربا ليصب فى المحيط الأطلسى فيما بين مدينتى قلمرية Coimbra والبرتقال Portucale [٥] . أما الجزء الشمالى من شبه الجزيرة فتخترقه هو الآخر سلسلة جبال كنتبرية La Cordillera Cantabrica التى تعتبر امتداداً غربياً لجبال البرتات حتى ساحل المحيط.

ويشكل نهر دويرة Duero الحد الجنوبى لمنطقة الشمال والشمال الغربى لشبه الجزيرة - وهى المنطقة التى كانت تعرف باسم لوزيتانيا Lusitania - التى اشتهر معظم سكانها بالجليقيين أو الجلالقة وكانوا يشكلون معظم شعب إيبيريا [٦] . أما حداها الغربى والشمالى فهو المحيط الأطلسى المعروف فى الناحية الشمالية بالبحر الكانتبرى EL Mar Cantabrico ، الذى يوصف ساحله بأنه ذراع يخرج من البحر المظلم - المحيط الأطلسى - ويمر من الغرب إلى الشرق وينعطف قليلاً إلى جهة الجنوب حتى يصل مدينة بيونة [٧] Bayonne . فتمتد هذه المنطقة من المحيط الأطلسى فى الغرب حتى بلاد البشكنس [٨] Vascones فى الشرق؛ مما يجعلها قلعة طبيعية محصنة محاطة بالمياه من جوانبها الثلاث فيما عدا ناحيتها الشرقية . وفضلاً عن ذلك فإنها

---

(١) أنظر : الإدريسى، نفسه، ٥٣٦؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢١٣ . وكانت هذه الجبال تعرف أيضاً باسم كاربتانيا (Carpeto - Vetonica) Carpetania ربما نسبة إلى قبائل Vettonia وقبائل Carpetania التى سكنت حولها، أنظر : Strabo, op. cit., 2p 13 . وقد عرفها المسلمون بجبال وادى الرملة ربما لكثرة رمالها، وحرفها الإسبان إلى وادى رامة Guadarrama ، أنظر : أرسلان، الحلل، ١ ص ١٢٩ ؛ Altamira, A History of Spanish Civlization, London 1930, pp 4 _ 5; Chapman, A History of Spain, New. York 1948, p3 .

(٢) أنظر : الإدريسى، نفسه، ص ٥٥٢ . وعن مدينتى سالم وقلمرية، أنظر : Lévi - Provençal, La Description, pp. 79 - 80, 89 .

(٣) عنه أنظر : الإدريسى، نفسه، ص ٢٥١ (طبعة ١٥٩٢م) ؛ أرسلان، الحلل،، ١ ص ٣١٨ حاشية؛ Morales, op. cit , 4pp 105 - 106

(٤) أنظر : Strabo, op. cit , 2p. 69 .

(٥) أنظر : Lévi - Provençal, La Description, p. 103 .

(٦) Strabo, op. cit., 2p. 65, 67 .

(٧) أنظر : الإدريسى، نفسه، ص ٢٥٢ (طبعة ١٥٩٢م) .

(٨) عنها أنظر : أرسلان، الحلل، ١ ص ٣٢١ وما بعدها .

تمثل وحدة جغرافية وإثنولوجية واحدة، إذ سكنتها منذ أقدم العصور عناصر معينة من السكان فارتبطت بروابط طبيعية وسياسية وثيقة؛ وكان لها طابعها الخاص الذى تميزت به عن غيرها من مناطق شبه الجزيرة الإيبيرية .

ومع أن بعض الجغرافيين العرب يصفون تلك المنطقة بأنها سهلية جميعها تكثر فيها الرمال [١] فإن الجزء الشرقى منها جبلى وعر [٢] ؛ كما تخترق تلك المنطقة من وسطها سلسلة جبلية تعرف بجبال كنتبرية [٣] La Cordillera Cantabrica مبتدئة من حصن الفارو Faro بالزاوية الشمالية الغربية لشبه الجزيرة، وتتمادى متصلة غير منفصلة حتى تصل مدينة بيونة، وتتصل بجبل الزهرة ـ البرتات ـ وتمتد بموازاة مجرى البحر الكانتبرى؛ فمرة تبعد عنه حتى يكون بينهما يوم، ومرة تقرب منه حتى يكون بينهما خمسة عشر ميلا [٤] وتشطر بذلك المنطقة شطرين، أحدهما جنوبى أقل وعورة وأكثر اتساعا واعتدالا فى المناخ من نظيره الشمالى الساحلى، الذى تزيده سلسلة جبال قمم أوربا Los Picos de Europa [٥] ضيقا وتعقيدا من ناحية الشرق، بطول يقترب من أربعين كيلو مترا فى عشرين مثلها عرضا، وتتميز بقممها العالية التى تصل فى معظمها إلى ثلاثة آلاف متر فوق مستوى سطح البحر، وأهمها القمم المعروفة بالصخور المقدسة Las Penas Santas ، التى نالت شهرة تاريخية وقومية فائقة فى إسبانيا المسيحية، لاحتوائها على مغارة عرفت فى اللاتينية بالمغارة المقدسة Cova Dominica ـ وفى اللغة الإسبانية كوبادونجا Covadonga[٦].

وهى المغارة التى التجأ إليها مسيحيو أشتوريس وعلى رأسهم الزعيم القوطى بلاجيوس Pelagius ـ ومنها بدأوا مقاومة المسلمين مع نهاية العقد الثانى وبداية

---

(١) أنظر : البكرى، نفسه، ص ٨٠؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص ١٧٠ .

(٢) Strabo, op. cit., 2p. 67 .

(٣) قارن : البكرى، نفسه، ص ٨٥؛ على محمد حمودة، نفسه، ص ١٢٤؛ محمد أحمد حسونة، الجغرافية التاريخية الإسلامية، القاهرة ١٩٥٠م، ص ٧٧ ـ ٧٨, Lévi - Provençal, La Description, p. 100, Bouchier, Spain, Oxford 1914, p1; Chapman, op cit , p 2 .

(٤) أنظر : الإدريسى، نفسه، ص ٢٥٣ (طبعة ١٥٩٢م) .

(٥) عن وصفها بتفصيل، أنظر : Sanchez Albornoz, " A Travès de los Picos de Europa ", R . OC 1931, 9p 254 Sqq : Burguete, Rectificaciones Historicos de Guadalete a Covadonga, Madrid 1915, p. 148 Sqq. : Somoza, Gijon en la Historia General de Asturias, Gegione 1908, 2p 439 Sqq .

(٦) عن تطور اسمها من اللاتينية إلى الإسبانية أنظر : Cabal, Covadonga, Madrid 1918, pp 15 - 25 .

الثالث من القرن الثامن الميلادى؛ بحيث اشتهرت تلك الصخور المقدسة فى كتب المؤرخين المسلمين باسم الصخرة أو صخرة بلاى Pena de Pelayo .

كذلك فتتعدد الأنهار فى هذه المنطقة، فيصب بعضها فى البحر الكانتبرى شمالا [١] ، وبعضها - وهو يبلغ نحوا من عشرة أنهار- يصب فى نهر دويرة Duero بالجنوب [٢] ؛ أما أودية الجانب الغربى التى تجرى من الشرق إلى الغرب فتصب فى المحيط الأطلسى [٣] ، وجميعها صالح للملاحة فى معظم أجزائه [٤] .

على أننا لا نعلم شيئاً عن السكان الأول لهذه المنطقة الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة، ولا زال الخلاف بشأنهم قائماً بين علماء الأجناس Anthropologists ؛ وإن كانوا يتفقون فيما بينهم على أن أقدمهم عناصر تعرف فى اللاتينية باسم الإيبيريين Iberi ، التى جاءتها من الشمال الأفريقى منذ عصور سحيقة[٥] . ثم وفدت عليها من غالة عناصر الكلت Celts الأوربية، فيما بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد [٦] ؛ ونازعت الإيبيريين على سيادة المنطقة والسيطرة عليها حتى أجبروهم- أو أن اتفاقا تم بين الفريقين- على إخلاء الإيبيريين لها [٧] ؛ فصارت كلتية خالصة انتشرت فيها قبائلهم دون أن تعرف الوحدة فيما بينها [٨]؛ مما سهل على كل منها أن تتخذ فيما بعد اسما محليا يدل عليها وعلى ما حلت به من أجزاء هذه المنطقة؛ فعرف

---

(١) أنظر : Florez, Esp. Sagr., 16 p 4, Bouchier, op. cit., p1 .

(٢) أنظر : Lévi - Provencal, La Description, p. 103 .

(٣) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ١٣٠ .

(٤) أنظر : Strabo, op. cit, 2p 67 وأهم هذه الأنهار : نهر ليث Lethe (Limacas) ، يليه نهر Baenis أو Minius ، أنظر : Strabo, op. cit., 2p 69 ، وهو نهر كبير واسع يزيد طوله عن ثلاثمائة ميل وثلاثة (Lévi - Provençal, La Description, p. 104) ويقع شمال دويرة بستين ميلا؛ ثم نهر طرون الذى يسمى كذلك لمدينة بنفس الاسم تقع عليه، ويبعد عن الميليو بستين ميلا أيضا؛ يليه نهر الأذر Lerez على بعد ستة أميال؛ ثم نهر فرار Ferreira (الآن Umia) على بعد ستة أميال أخرى، وهو نهر كبير؛ يليه سنت ياقوب أو أناشت نسبة إلى قلعة عليه بنفس الاسم (الآن Torres del Oeste) وهو نهر كبير كثير الماء، أنظر : الإدريسى، نزهة، ص ٢٥١ - ٢٥٢ (طبعة ١٥٩٢م) ؛ وانظر أيضاً . مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٥) قارن O'callaghan, Medieval Spain, USA 1975, p. 27; Merriman,The Rise of Spanish Empire, New York 1918, 1p. 6; Smith, Spain, USA 1965, p3; Altamira, A History of Spain, p 23; Chapman, op. cit., pp 7 - 8; Madariaga, Spain, Oxford 1956, p 19; Diccionario, op cit, pp 5 - 6

(٦) أنظر : Entwistle, the Spaish Language, London 1962, p. 37, Hume, The Spanish People, London 1901, p7; Chapman op cit., p 8; O'callaghan, op cit, p 27 .

(٧) أنظر : Danham, op. cit., 1 p 2 .

(٨) أنظر : Strabo,op. cit , 2p 87 .

الجزء الشرقى منها بكنتبرية Cantabria ، والغربى بجليقية (Galicia (Gallaecia ، أما الجزء الأوسط فقد عرف بأشتوريس Asturias وسكانه بالأشتوريين Astures نسبة إلى وادى أشتورا Astura [١] ؛ الذى كان يسميه الجغرافيون المسلمون بوادى أشترو [٢] ، ثم تطور اسمه بمضى الوقت حتى صار إسلاEsla الحالى [٣] ؛ الذى ينبع من جبال كنتبرية La Cordillera Cantabrica ، ويجرى جنوبا حتى يلتقى بنهر دويرة Duero فيما بين مدينتى سمورة Zamora شرقا وميراندا Miranda غربا [٤] .

وبذلك انقسمت منطقة الشمال والشمال الغربى الإيبيرى لأول مرة فى تاريخها إلى ثلاثة أقسام؛ وإن كنا سنلاحظ أن المسلمين فيما بعد أطلقوا على هذه المناطق الثلاثة اسم جليقية وعلى سكانها الجلالقة . ومع أن الحدود فيما بينها لم تكن ثابتة إذ كان تقسيما قبليا يتراوح بين مد وجزر تبعا لقوة وضعف القبائل، فقد شكلت المعالم الجغرافية البارزة - كالأنهار والجبال - الحدود فيما بينها على الدوام؛ وانعزلت أشتوريس Asturias عن جليقية فى الغرب بجبال بونفرادا Ponferrada وسنابريا Sanabria ، وعن كنتبرية فى الشرق بمجرى نهرى أشتورا (إسلا) Esla وديبا Deva [٥] .

ومن ناحية أخرى، فقد توغلت أراضى إقليم أشتوريس مسافة طويلة ناحية الجنوب فى داخل شبه الجزيرة حتى لامست نهر دويرة Duero [٦] ، فيما بين مدينتى سمورة Zamora شرقا وميراندا Miranda غربا، وهو حد أقصر من حدها الشمالى الذى تطل به على بحر كنتبرية، مما جعل أشتوريس تتخذ فى العصور الوسطى شكل مثلث رأسه فى الجنوب بين هاتين المدينتين، وقاعدته ساحل بحر كنتبرية فى الشمال [٧] .

على أنه لم يقدر لأشتوريس أن تحتفظ بهذا الامتداد الداخلى فى شبه الجزيرة طوال تاريخها، وإنما اقتطع منها جزؤها الجنوبى الواقع بين جبال كنتبرية La

---

(١) أنظر : Atlas Geographus, op. cit., 2p 1183 .

(٢) أنظر : البكرى، نفسه، ص ٧٢ .

(٣) وإن تطور اسمه من Astura إلى Extula إلى Estola وأخيرا Ezla (Esla) ، أنظر : Florez, Esp. Sagr , 16 pp 2 - 3; Risco, Esp Sagr, 37 p 9 .

(٤) Florez, op. cit., 16 p 4 .

(٥) أنظر : Ibid, p. 5 .

(٦) هو أعظم أنهار شبه الجزيرة، وينبع من فوق جبال ناجرة Najera فى الشمال ويمتد غربا ويصب فى المحيط الأطلنطى قرب مدينة البرتقال (Oporto الحالية) ، أنظر : ابن غالب، « تعليق ملتقى من فرحة الأنفس »، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثانى، نوفمبر ١٩٥٥م، ص ٣٠٨؛ Strabo, op cit, 2p 69; Lévi - Provençal, La Description, p. 103 .

(٧) أنظر : Florez, op cit, 16 p 5 .

Cordillera Cantabrica شمالا ونهر دويرة جنوبا، وذلك خلال السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)؛ لتقوم فيه وقتذاك مملكة ليون Léon ، التى صارت نواة محافظة بنفس الاسم فى التقسيم الإدارى الحديث لإسبانيا [١] . ومنذ ذلك الحين اقتصرت مساحة أشتوريس على ما يقع شمال جبال كنتبرية حتى ساحل بحر كنتبرية؛ وهى تقريبا نفس المساحة التى تشغلها فى وقتنا الحاضر محافظة أشتوريس، أو ما يعرف أيضا باسم أشتوريس دى أوبييدو Asturias de Oviedo وذلك اشتقاقا من اسم عاصمتها . ومن ثم كانت أشتوريس خلال السنوات التى تعالجها الدراسة أوسع مساحة مما هى عليه فى العصر الحديث .

وقد أثرت بيئة أشتوريس الجبلية الباردة فى أبدان وطباع سكانها [٢]؛ فيوصفون بقوة البنية، والقدرة على احتمال المشاق، وشدة المراس، وخشونة الطباع؛ كما يتصفون بالنجدة والإقدام، حتى أنهم كانوا يضحون بأنفسهم لافتداء أو حماية من يلجأ أو يتقرب إليهم ويتعلقون به [٣] . واتسمت حياتهم بالبساطة والتقشف والاقتصاد فلم يكونوا يتناولون إلا وجبة واحدة فى اليوم [٤] ؛ تتكون من خبز جاف يصنعونه من حبوب بعض النباتات بعد تجفيفها وطحنها [٥] ؛ وأكثر قوتهم الدخن والذرة [٦] ، فضلا عن لحوم الماعز [٧] المتوفرة فى بلادهم [٨]؛ وكانوا يفضلون فى طعامهم الزبد على الزيت . أما شرابهم فهو البيرة [٩] وأنواع أخرى من المشروبات التى كانوا يستخلصونها من الثمار كشراب التفاح والبشكة [١٠] ، فى حين كان النبيذ للمناسبات

---

(١) Risco, op. cit, 37 p 39; Atlas Geographus, 2p 1179 .

(٢) أنظر: Strabo, op cit, 2p 77 هذا وقد اعتمدنا أساسا فى معلوماتنا عن طباع ونمط حياة الأشتوريين على ما أورده استرابون، وإن يلاحظ أنه أحيانا لم يقرنها بهم مباشرة، وإنما لجيرانهم الجلالقة أو الكانتبريين، أو عممها على العناصر الكلتية بصفة عامة، من أشتوريين وجلالقة وكانتبريين . على أنه لم يكتف بالقول أن عادات وأنماط حياة الكلت واحدة متشابهة (أنظر :. 2p 111)، وإنما أكد أيضا وبصراحة أن نمط حياة الأشتوريين وجيرانهم الجليقيين والكانتبريين والبشكنس واحدة لا اختلاف فيما بينها (أنظر :. Ibid, 2p 77) .

(٣) أنظر : Strabo, op. cit., 2p 115

(٤) أنظر : Ibid, 2p 73

(٥) Ibid, 2p 75; Bouchier, op cit., p 71; Danham, op cit., 1p 5 .

(٦) أبو الفدا : تقويم، ص ١٧٠؛ البكرى، نفسه، ص ٨٠ .

(٧) أنظر : Strabo, op cit, 2p 73

(٨) أنظر : Ibid, 2p 71

(٩) أنظر : Ibid, 2p 75

(١٠) أنظر : البكرى، نفسه، ص ٨١، ويشير أن البشكة شراب يتخذ من الدقيق .

الدينية ويصحبة الأقرباء [١] . ومع وفرة ما يحويه باطن أرضهم من معادن [٢] كالذهب[٣] والفضة وغيرهما [٤] ، من نحاس وبرونز ورصاص وقصدير [٥] فإنهم كانوا يجهلونها [٦] ؛ أو أنهم لم يعرفوا منها إلا البرونز إذ كانوا يصنعون منه رؤوس سيوفهم ورماحهم [٧] ؛ وكذلك الفضة التى كان سكان المنطقة الداخلية يستخدمون أحيانا قطعا منها فى شكلها الخام عوضا عن العملة التى لم يكونوا يعرفونها، وظل تعاملهم فيما بينهم بالمقايضة فى أغلب الأحيان [٨] .

وبسبب غزارة الأمطار فقد جادت عليهم البيئة بغابات ومراع غنية انتشرت فيها تربية الماشية [٩] ، إلا أنه بالرغم من تعدد الأنهار التى تخترق أشتوريس مثل أنهار : إسلا Esla ، وسلا Sella ، وكارس Cares ، وديفا Deva، ونالون Nalon [١٠] وغيرها؛ مما يتيح إمكانية القيام بالزراعة فقد أعرض الأشتوريون عنها؛ إذ اعتبروها حرفة لا تليق بهم؛ وتركوا نساءهم يقمن بأعبائها وحدهن [١١] إلى جانب أعمالهن المنزلية [١٢] ؛ فأقحلت الأرض وقل إنتاجها، ولم تعد البلاد - بتعبير استرابون - إلا وكرا للصوصية وقطاع الطرق [١٣] . وانشغلت القبائل فيما بينها بالحروب المستمرة التى كانت النساء تشاركن فيها [١٤] ؛ وبالغارات المتكررة على ما يجاورها من أراض سهلية لسلب ونهب منتجاتها .

وفى هذه الحروب والإغارات - التى لم تتوقف إلا بعد غزو الرومان للمنطقة

---

(١) أنظر : Strabo, 2p 75

(٢) . Castro, The Structure of Spanish History, New York 1954, p 77

(٣) Strabo, op cit, 2p 71; Florus, Epitome of Roman History, London 1960, p 349; Florez, op cit, 16 p 7 .

(٤) أنظر : Strabo, op cit, 2p 71

(٥) Bouchier, op cit., pp 88 - 90 ، ويشير أن النحاس يوجد فى جبل Aramo بالقرب من مدينة Oviedo، والرصاص بالقرب من ميناء Linares على الساحل الكانتبرى .

(٦) أنظر : Florez, op cit., 16 p 7

(٧) أنظر : Strabo, op. cit, 2p 73

(٨) . Ibid, 2p 75 وأنظر أيضا : Bouchier, op. cit, 2p 75

(٩) . Strabo, op cit, 2p. 71; Castro, op. cit, p 77

(١٠) عن هذه الأنهار، أنظر : Somoza, op cit, 2pp 439 - 440

(١١) أنظر : Strabo, op cit, 2p 65، وانظر أيضاً صفحة ١١٣ التى يسوق فيها أمثلة من الأعمال التى شاركت فيها النساء، وكيفية تفانيهن فى هذا العمل حتى فى أوقات مرضهن .

(١٢) أنظر : Danham, op cit., 1 p 7

(١٣) . Strabo, op. cit, 2pp 71, 79; Danham, op cit, 1 p 4

(١٤) أنظر : Bouchier, op cit, p. 65

فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد [١] - كان المحاربون الأشتوريون يذهبون إليها أزواجا على جيادهم - التى كانت تجود فى بلادهم [٢] - على أن يترجل أحدهم عند بدء القتال [٣] ؛ الذى كانوا يتسلحون له بأسلحة بسيطة ولكنها مرعبة مخيفة [٤] ؛ فهى رماح لا تعدو ثلاثة أقدام للراجل وستة للفارس وسيوف قصيرة ذات حدين؛ فضلاً عن المقاليع والبلط والمطارق التى ينفرد بها الفارس دون الراجل [٥] ؛ ويحتمون بدروع خفيفة يلبسونها فوق سترات قصيرة من الكتان المتوفرة فى بلادهم[٦] . وقد عاونتهم طبيعة البلاد الجغرافية وكثرة غاباتها على إجادة فن حرب العصابات والفروسية [٧] ، التى لم يكتفوا بتدريب أنفسهم عليها بممارسة أنواع معينة من الرياضة؛ كالملاكمة وركوب الخيل والمناورات الحربية وعقد المسابقات والمباريات المتعددة لها [٨] ؛ وإنما أيضاً بتدريب جيادهم على تسلق الجبال، وترويضها على الركض فى حركات سريعة إذا ما طلب منها ذلك وقت الحاجة [٩] .

وقد انتشرت بين الأشتوريين بعض العادات كتناول الطعام على الأرض [١٠] ، والنوم على الأرض أيضاً [١١] ؛ والاستحمام إما ببخار الماء الساخن أو بالماء البارد[١٢] ؛ وتوريث البنات اللآتى كن يقمن بدور الخاطبات لأخواتهن، وهى عادة - بملاحظة استرابون - ليست إلا نوعا من أنواع سيطرة النساء، وظاهرة لا تعبر عن المدنية فى شيء [١٣] . كذلك فقد كانوا يقدمون المهر للعروس [١٤] ويتبعون طريقة

---

(١) Strabo, op cit., 2p 71 .

(٢) تنتج أشتوريس سلالات من الجياد تمتاز بعدوها السريع وخفة حركتها، تسمى Geldings أو حتى تنسب إلى المنطقة فتسمى Asturcones ، أنظر : Atlas Geographus, op. cit, 2p 1183

(٣) أنظر : Strabo, op cit., 2p 113; Danham, op cit., 1p 5

(٤) أنظر : Danham, op cit, 1p 5

(٥) Strabo, 2p 107; Bouchier, op cit, p 67; Danham, op cit, 1p 5 .

(٦) Strabo, op. cit., 2p 73; Bouchier, op Cit., p 83; Danham, op cit., 1p 5 .

(٧) أنظر : Bouchier, op cit., pp 62, 65 ؛ دوروثى، نفسه، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٨) Strabo, op cit, 2p 75; Bouchier, op. cit, p 75 .

(٩) Strabo, op. cit, 2p 105; Bouchier, op cit, p 78 .

(١٠) Strabo, op cit, 2p 75 .

(١١) Ibid, 2pp 73, 109 .

(١٢) Ibid, 2p 73 . ، وإن كان المؤرخون والجغرافيون المسلمون يشيرون إلى أنهم لم يكونوا يستحمون إلا مرة واحدة أو مرتين فى العام، أنظر : البكرى، نفسه، ص ٨١ .

(١٣) Strabo, op cit, 2p 115 .

(١٤) Loc. cit .

الإغريق فى الزواج [١] ؛ ثم إنهم كانوا حريصين على تنفيذ عقوبات صارمة على منتهكى تقاليدهم، كالرجم بالحجارة حتى الموت أو القذف بهم من أعلى قمم الجبال، أما قتلة الآباء منهم فكانوا يذبحونهم خارج حدود المدينة دون أن تدفن جثثهم بها لاعتبارها مدنسة [٢] . وكانت جنازة ذوى الشأن منهم مهيبة، فتكفن رفاتهم بثياب فاخرة وتترك على مرأى من العامة أياما لتلقى عليها نظرة الوداع الأخيرة؛ ثم تحرق فى الوقت الذى تعلن فيه على الجموع الحاضرة مآثر صاحبها ووصاياه وذريته، ثم يصاحب دفنها عرض عسكرى عند المقبرة [٣] .

أما عقيدة الأشتوريين فكانت الوثنية، التى يعبدون فيها آلهة منها أرس Ares[٤] ، ولم تعرف أسماء آلهة بعض قبائلهم؛ كما أن بعضها الآخر لم يكن له إله على الإطلاق [٥] ؛ وكانوا يقدمون القرابين لهذه الآلهة بالمئات من الأسرى بعد تقطيع أياديهم اليمنى [٦] - كما كانت العادة لدى الإغريق - أو من السجناء وذكور الماعز والخيل [٧] ؛ وذلك أثناء الليل وقت اكتمال القمر مما يحتمل معه أنه كان محل عبادتهم؛ وكانوا يقيمون أمام منازلهم الحفلات الراقصة الصاخبة على دقات الطبول، والتى كانت تظل قائمة حتى الصباح الباكر [٨] ؛ وذلك ابتهاجا بتقديم قرابينهم .

وقد ظل الأشتوريون - والجليقيون والكانتبريون أيضاً - على هذه الحالة من البداوة والانعزال عن غيرهم من سكان شبه الجزيرة، وبعيداً عن الخضوع لأية قوة أجنبية حتى السنوات الأخيرة من القرن الأول قبل الميلاد؛ حينما شخص الإمبراطور الرومانى أوغسطس Augustus إليهم عام ٢٦ ق . م على رأس قواته [٩] ، ويرفقته عدد من خيرة قواده [١٠] ، فغزا بنفسه كنتبرية وأوكل غزو جليقية لواحد من

---

(١) Ibid, 2p 77 .

(٢) Strabo, op cit, 2pp 75 - 77; Dubois, L'Espagne Ancienne et Moderne, Rouen 1859, p 12; Danham, op cit, 1 p 6 .

(٣) Dubois, op cit, p 12; Danham, op cit, 1 p 6 .

(٤) Strabo, op. cit, 2p 73 .

(٥) Ibid, 2p. 109; Bouchier, op cit, p 78 .

(٦) Strabo, op. cit, 2p 73 .

(٧) Ibid, 2p 75 .

(٨) Ibid, 2p 109 .

(٩) Florez, op cit, 16 p 6; Cayetano, Cronica General, Madrid 1865, p 11; Quadrado, Espana, Barcelona 1885, p 11 .

(١٠) منهم : Furnius و Antistius ؛ أنظر : Florus, op cit, p 345;

قواده(١)، فى نفس الوقت الذى أرسل فيه إلى أشتوريس قوة أخرى بقيادة قائده كاريسيوس Carisius (٢) ؛ الذى اتخذ من مدينة أستورقة Astorga - التى ستعرف فيما بعد باسم Asturica Augusta - قاعدة لهجومه عليها، فاكتسح أراضيها عبر منطقة إلبيرزو EL Bierzo حتى أدرك مدينة لوجو Lucus Asturum - وهى Lugo الحالية - ، وأنزل بالأشتوريين هزيمة منكرة عند مدينة برجيدوم Bergidum، الواقعة على هضبة كاسترو دوى بنتوسا Castro de Ventosa الحالية؛ بحيث كانت هزيمة حاسمة اضطر بعدها الأشتوريون إلى إخلاء المدينة والفرار إلى جبل بنيدو Vinido المجاور (Sierras del Caurel y de Picos الحالى)، فلاحقتهم القوات الرومانية وحاصرتهم به؛ حتى فنيت أزودتهم ولقى جمع منهم حتفه جوعا، واضطر الباقون إلى الاستسلام دون مقاومة تذكر (٣) ، ثم أشرف الإمبراطور أوغسطس بنفسه على استلام رهائنهم وأسراهم ضمانا لولائهم (٤) .

وترجع سهولة انتصار الرومان على الأشتوريين وقتذاك إلى تفوق الرومان فى العدد والعدة، وإلى عدم إمكان تعاون الجلالقة والكانتبريين مع الأشتوريين (٥) ؛ إذ باغتهم الرومان جميعا فى وقت واحد، وشغلوا كلا منهم بالحرب فى ناحيته برا وبحرا، وحالوا بينهم وبين استخدام حرب العصابات التى كانوا يجيدونها، وأجبروهم على المواجهة المباشرة أو حصارهم والتضييق عليهم؛ بحيث شتتوا جهودهم وأضعفوا مقاومتهم، التى اتخذت آنذاك مظهرا سلبيا تمثل فى تسارع معظم الأشتوريين ليس فقط إلى إلقاء أنفسهم فى النيران؛ أو الطعن بالسيوف أو تجرع شراب سموم (٦) ، كانوا يستخلصونه من بعض الأعشاب، ويحملونه معهم دوما لمثل هذه الحالات (٧) ؛ وإنما تمثل أيضاً فى إقدام الأمهات على قتل أبنائهن (٨) ، بحيث فقد الأشتوريون معظم

---

(١) عن فتحهما بتفصيل أنظر : Florus, op cit, p. 347; A. Bleye, op cit, 1 pp 230 - 231. ولن يلاحظ أن Florus يخلط فى روايته بين المعارك التى دارت على الأرض الجليقية والأشتورية، وربما كان ذلك بسبب عدم تمييزه بين الجلالقة والأشتوريين واعتبرهما شعباً واحداً، وبخاصة أنه عندما بدأ حديثه عن هذه الحروب (ص ٣٤٣) لم يشر إلى الجلالقة، وذكر أنه يسكن هذه المنطقة الكانتبريون والأشتوريون فقط .

(٢) Danham, op cit, 1p 64; A. Bleye, op cit, 1p 231 .

(٣) قارن : Florus, op cit., p 345; A. Bleye, op.cit., 1pp 230 - 231 .

(٤) Florus, op cit., p. 347 .

(٥) Ibid .

(٦) Florus, op cit., p 345; Florez, op cit., 16 p 7; A. Bleye, op cit., 1p 231 . وهى عادة كانت سائدة فى كنتبرية وجليقية أيضاً .

(٧) Strabo, op cit., 2p 115 .

(٨) Ibid, 2p 111 .

خيرة محاربيهم؛ ولم يتطلب إخضاع الرومان لهم أكثر من معركتين وفى مدة وجيزة لم تتجاوز صيف عام ٢٦ ق . م .

ومع ذلك فقد تجمع الأشتوريون فى ربيع العام التالى لمباغتة القوة الرومانية المقيمة بنواحى أستورقة Astorga ، إلا أن خطتهم انكشفت فى الوقت المناسب للقائد الرومانى كاريسيوس Carisius ؛ فأحبطها فى مهدها وانتصر عليهم فى معركة على نهر أشتورا Astura (إسلا Esla الحالى) قضى فيها على كثير منهم؛ بحيث كان اللقاء دمويا قاسيا، ثم تعقب فلولهم الهاربة إلى مدينة لانسيا Lancia المجاورة الحصينة فحاصرهم بها حتى استسلموا، وأوشك الجند الرومان على حرق المدينة وتدمير أسوارها حين دخلوها؛ لولا أن أثناهم قائدهم عن ذلك وأقنعهم بصعوبة بأهمية الإبقاء عليها ذكرى لانتصارهم [١] .

وقد عاد الأشتوريون للثورة على الرومان فى الأعوام ٢٤، ٢٣، ٢٢ ق . م؛ واستعصوا على القائد الرومانى إميليانوس Emilianus ومن بعده فورنيوس Furnius ، حتى اضطر الإمبراطور أوغسطس إلى أن يعهد إلى قائده المحنك أجريبا Agrippa بقيادة القوات الرومانية ضد أشتوريس، فتمكن من القضاء نهائياً على ثوراتهم؛ حتى استسلموا فى عام ١٩ ق . م [٢] . وصار الأشتوريون - حسبما يشير أحد النقوش - أصدقاء للرومان اللاتين منذ ذلك الوقت [٣] ، وانتهت حروب الرومان المتعددة فى شبه الجزيرة الإيبيرية بالسيطرة على كل أنحائها بما فيها أشتوريس [٤] .

وباستيلاء الرومان على أشتوريس فقد ألحقوها إداريا - هى وجارتيها كنتبرية

---

(١) قارن Florus, op cit, p 347; Florez, op cit, 16 pp 6 - 7; Cayetano, op cit, p 12; Quadrado, op cit, pp 11 - 12; A. Bleye, op cit, 1 p 231 . ؛ هذا وقد عثر على نقش بنفس المدينة ينص على خضوع سكانها للإمبراطور أوغسطس، ولا زال النقش محفوظا فى كنيسة سان ميجيل دى لينو San Miguel de Lino ، بالقرب من مدينة أوبييدو Oviedo فى أشتوريس، ونصه CAES OMITA LANIA أى Caesar Domita Lancia . وهناك نقش آخر عثر عليه على شاطىء أشتوريس الشمالى ونصه : " In Asturum Littore Noega Est Oppidum et Tres Aroe, Quas Sestianas Vocant, In Pene Insula Sedent, Sunt Augusti Nomine Sacroe, Illustrant que Terras Anté Ignobiles " وعن النقش أنظر : . Risco, Esp. Sagr., 37 pp 39 - 40.

(٢) قارن : Florez, op cit, 16 p 7; A. Bleye, op cit, 1 p 231; Mommsen, The History of Rome, London 1886, 1p 65 .

(٣) عن نصه، أنظر : . Morales, op cit, 2, p 203

(٤) Strabo, op cit., 2pp 79, 87, Florus, op cit, p 349 ؛ وانظر أيضاً النقوش التى يثبتها Morales فى كتابه السابق، ٢ ص ٢١٠، ٢٢١ . والتى تدل على استقرار حكم الرومان بكل إيبيريا حتى البحر المحيط.

وجليقية - بولاية طركونة Provincia Tarraconensis [١]، إحدى ولايات إسبانيا الرومانية؛ التى عرفت أيضاً بإسبانيا الدنيا Hispania Citerior [٢]، إلا أنها صارت ولاية كبيرة الحجم، واقتضت سهولة إدارتها وحكمها ضرورة إعادة تنظيمها؛ فقسمت فى القرن الثالث الميلادى إلى ثلاث ولايات إدارية [٣]، أصبحت فيها أشتوريس مع جليقية وكنتيرية إحداها، وعرفت بولاية إسبانيا الدنيا الجديدة Hispania Nova Citerior أو إسبانيا الدنيا الجديدة الأنطونية Hispania Nova Citerior Antoniana، أو حتى بولاية جليقية Galliciensis (Gallaecia) [٤]، وهى التى يسميها الجغرافى الإسلامى البكرى: حوز جليقية، [٥] أى نواحى (زمام) جليقية.

وكانت قاعدة تلك الولاية الجليقية مدينة براقرة Bracara Augusta (Braga الحالية)؛ وأهم مدنها دوميو Dumio، وبرتقال Portucale (Oporto)، وتودى Tude (Tuy)، وأورية Auriense (Orense)، وإيرية Iria (EL Padron)، ولوجو Lugo (Luco) وبريتونيا Bretona (Vittania)، وأستورقة (Astorga) Asturica Augusta [٦]. فكان لهذا التنظيم الإدارى أثره المباشر الواضح فى إنهاء

---

(١) أنظر: Danham, op. cit 1 p 63، وإن كان البعض يشير أنها ألحقت أولا بولاية لوزيتانيا، ثم انفصلت عنها لتلحق بولاية طركونة؛ أنظر: Mommsen, op. cit, p 65 ولدينا نقش إلحاقها بولاية طركونة، ونصه: " Proc. Hispaniae Citerioris Asturicam et Gallaeciam "، وعنه أنظر: Florez, op cit, 16 p 8.

(٢) قسم الرومان ما استولوا عليه من أراضى إيبيريا إلى ولايتين إداريتين فى عام ١٧٩ ق. م. أولهما طركونة بالركن الشمالى الشرقى، وقاعدتها مدينة بنفس الاسم، وثانيهما إسبانيا القصوى Hispania Ulterior إلى الجنوب من الولاية الأولى وشملت منطقتى باطقة ولوزيتانيا، وقاعدتها مدينة قرطبة. واستمر هذا التقسيم حتى امتدت سيطرة الرومان على أقصى غربى إيبيريا واتسعت ولاية إسبانيا القصوى، فقسمها الرومان فى حوالى عام ٢٧ ق. م إلى ولايتين، هما باطقة فى الجنوب وقاعدتها قرطبة، ولوزيتانيا فى الغرب وقاعدتها مدينة ماردة. أما ولاية إسبانيا الدنيا (طركونة) فظلت كما هى. قارن عن هذا التقسيم: Strabo, op cit, 2p 119; Van Nostrand, The Reorganization of Spain By Augustus, California 1916 - 1917, pp 86, 96; Sanchez Albornoz, Origénes, 1pp 86 - 88.

(٣) أنظر: A. Bleye, op. cit., 1p 235; Danham, op cit., 1pp 69 - 70 وأولى هذه الولايات هى طركونة بعاصمتها طركونة، واقتصرت على منطقة قطالونيا Catalonia وجزء من فالنثيا Valentia، والولاية الثانية هى قرطاجنة Carthaginiensis بعاصمتها قرطاجنة الجديدة، واشتملت على منطقة قشتالة ومرسية ومعظم فالنثيا، أنظر: Atlas Geographus, op cit, 2pp 1177, 1185.، وأنظر الخريطة

(٤) أنظر: Huici, Las Cronicas, 1p 116; Atlas Geographus, 2p 1185; Diccionario, 1p 1356.

(٥) جغرافية الأندلس وأوربا، ص ٦١. إذ الحوزة بمعنى الناحية، وجمعها الحوز.

(٦) قارن: البكرى، نفسه، ص ٧١ - ٧٢؛ Huici, op. cit, 1p 116; Lévi - Provençal, La Peninsula Ibérique au Moyen - Age, Leiden 1938, p 264; O'callughan, op. cit, pp 29 - 30. وعن مدينة أستورقة، أنظر: Diccionario, 1p 314

التقسيمات القبلية القديمة بين أشتوريس وجارتيها شرقا وغربا، وفى ربط تاريخهم بعضه ببعض منذ ذلك الحين فصاعدا؛ بحيث أن المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى لم يميزوا فى رواياتهم بين تلك الأقاليم الثلاثة، وإنما غالبا ما كانوا يشيرون إليها كلها أو إلى أى منها بلفظ جليقية .

أما الشئون القضائية فى هذه الولاية الجليقية فقد تولاها قاضى أعلى [1]، يشرف على المناطق القضائية الأربع Conventus Juridici التى اشتملت عليها الولاية؛ وكانت فيها أشتوريس Asturicensis منطقة قضائية قائمة بذاتها، وقاعدتها مدينة أستورقة (Asturica Augusta (Astorga [2] . وتبعا لذلك فقد وجدت القوانين الرومانية (اللآتينية) طريقها فى أشتوريس، وحلت تدريجيا محل ما كان سائدا من عادات وتقاليد قبلية قديمة . وصار هذا التقسيم القضائى أساسا لتقسيم منطقة شمالى إيبيريا بما فيها أشتوريس، تقسيماً كنسياً إلى مطرانيات وأسقفيات [3] وهو التقسيم الذى ظل قائما حتى الفتح الإسلامى .

ومن جهة أخرى، فقد عهد الإمبراطور الرومانى بحكم ولاية جليقية - الشاملة لأشتوريس - إلى نائب له برتبة قنصل Consular [4] ، الذى أخضع الولاية لمراقبة عسكرية صارمة؛ بحيث رتب فيها جيشاً رومانياً كبيراً رابطت فرقه الثلاث فى نواحيها [5] ، للحفاظ على استقرارها وهدوئها؛ ثم أجبر السكان على إخلاء معاقلهم الجبلية ليقيموا فى الأراضى السهلية المكشوفة [6] ، حتى يسهل رصد تحركاتهم

---

(١) هذا ما يفهم مما لدينا من نقوش، مثل النقش التالى : " Legato Aug Et. Juridico Astyriae Et Galleciae " ، وقد زودتنا تلك النقوش أيضاً بأسماء بعض من تولوا هذا المنصب، مثل : Culpurni Guadrato و Albinio Saturniho ، وعن نصوص تلك النقوش، أنظر : Florez, op cit, 16 pp 8 - 9

(٢) عن هذا التقسيم القضائى، أنظر : البكرى، نفسه، ص ٧١ - ٧٣، وإن كان لا يشير إلى أنه تقسيم قضائى؛ Diccionario, 1pp 1198, 1356; Atlas Geographus, 2p 1185 . وقد ظلت كنتبرية هى الأخرى منطقة قضائية تعرف باسم Cluniensis على اسم قاعدتها مدينة قلونية Clunio ؛ فى حين اشتمل إقليم جليقية على منطقتين إحداهما فى الشمال وهى منطقة لوجو Lucensis من اسم قاعدتها، والثانية فى الجنوب وهى براقرة أورغسطا Bracara Augusta نسبة إلى مدينة براقرة (براجا Braga الحالية) ؛ وأنظر الخرائط .

(٣) أنظر: مؤنس، فجر، ص ٤٨٨-٤٩٢، ٥٤٤- ٥٤٥، وعن التقسيم الكنسى لإيبيريا حتى أواخر عصر القوط، أى قبيل الفتح الإسلامى، أنظر بتفصيل : Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, Col. DIHE, 105pp 170 - 177 .

(٤) Strabo, op cit., 2p 121 .

(٥) Strabo, op. cit , 2pp 79, 121, 123. Hume, op cit, p 33 .

(٦) Florus, op cit., p 349; Risco, op cit, 37p 39 .

وإحكام السيطرة عليهم؛ وميز سكان المنطقة الواقعة إلى الشمال من جبال كنتبرية حتى بحر كنتبرية باسم Transmontani ومنطقتهم باسم Asturias Transmontana أي أشتوريس ما وراء الجبال، أما المنطقة الممتدة إلى الجنوب من نفس الجبال حتى نهر دويرة فأطلق عليها اسم أشتوريس أوغسطانا Asturias Augustana وسكانها باسم Augustani ؛ إما نسبة إلى عاصمتهم براقرة أوغسطانا [١] ، أو تخليدا لاسم الامبراطور الروماني أوغسطس Augustus ذاته، الذي كان يخشى من معاودتهم إلى إثارة القلاقل وهم في معاقلهم الجبلية [٢] . فكان لذلك كله أثره عند السكان إذ ركنوا إلى الهدوء، وتخلوا نهائيا عن الحروب فيما بين بعضهم البعض؛ أو الإغارة على ما يجاورهم من أراض بهدف سلب منتجاتها كما كان الشأن من قبل [٣] ، وانخرطوا في الخدمة العسكرية في الفرق الرومانية بحيث أسهموا فيها بثلاث كتائب عرفت بالكتائب الأشتورية [٤] ؛ وإن كنا لا نعرف طبيعة ما كانت تؤديه هذه الكتائب من أعمال؛ فاعتادوا على فنون الحرب المنظمة وأقلعوا عن حرب العصابات القديمة .

ومن ناحية ثالثة، فقد صارت معسكرات الفرق الرومانية التي أقامت في نواحي ولاية جليقية مدنا فيما بعد، مثل مدينة ليون Léon التي اشتقت اسمها من الفرقة التي أقامت هناك [٥] . هذا فضلا عما أقامه الرومان من مدن جديدة في أشتوريس [٦] صار لها أهميتها في تاريخ المنطقة على مر العصور؛ ومن تلك المدن الجديدة مدينة لوجو الأشتورية (Santa Maria de Lugo (Lucus Asturum الحالية،وخيخون Gigia (Gijon الحالية) وهي المدينة التي اتخذها حاكم أشتوريس المسلم فيما بعد مقراً له، ومدينة كانجاس Canicas (Cangas de Onis الحالية) التي اتخذها المناهضون المسيحيون في أشتوريس مركزا لتجمعاتهم وقت أن كانت حركتهم ضد المسلمين في طور التكوين؛ ثم صارت أول عاصمة لمملكة أشتوريس في عام ٧٣٩م/ ١٢١ هـ . والمهم في أمر تلك المدن أنها اجتذبت السكان فأقاموا فيها واستقروا، وسهل على الرومان استخدامهم في زراعة الأرض وفي استخراج كنوزها؛ التي لم يكن السكان يعرفون عنها شيئا من قبل [٧] ، ولا سيما الذهب الذي فاق

---

(١) Florez, op cit, 16p 5, Risco, op cit, 37 pp 1, 39 .

(٢) Florus, op cit., p 349 .

(٣) Strabo, op cit., 2pp 71, 79 .

(٤) Florez, op cit, 16p 7 . ويثبت النقش الدال على ذلك، ونصه : " COH. III ASTURUM "

(٥) واسمها كما يحددها أحد النقوش التي عثر عليها بنفس المدينة هو Legio VII Gemine ، وعن نصه أنظر: Risco, Historia de la Ciudad de Léon, Madrid 1792, 1p 2 .

(٦) عنها بتفصيل أنظر : Caveda, op. cit, p 28 .

(٧) Florus, op. cit., p 349; Florez, op. cit., 16p 7; Caveda, op. cit, pp 27 - 28 .

الأشتوريون غيرهم من سكان الإمبراطورية الرومانية فى نسبة ما زودوا به الرومان منه (١) . وبذلك ازداد الإنتاج الزراعى والتعدينى فراجت التجارة، التى ساعد على ازدهارها أيضاً ما أقامه الرومان من شبكة طرق برية جيدة ربطت أجزاء ولاية جليقية ببعضها من ناحية (٢)، وبغيرها من أجزاء إيبيريا من ناحية أخرى. وقد كانت تلك الطرق هى التى سلكتها الجيوش الإسلامية فيما بعد، وكانت من بين العوامل التى سهلت لهم التقدم فى أراضى إيبيريا؛ والسيطرة على أهم مدنها ومراكزها الاستراتيجية الواقعة على طول تلك الطرق فى مدة وجيزة .

وقد نتج عن توافد كثير من العائلات الرومانية إلى أشتوريس بعد فتحها - فضلا عن الجنود الرومان (٣) - أن تقارب الرومان من سكان أشتوريس الذين كان معظمهم من الكلت الأوربيين واختلطوا بهم (٤) ؛ بحيث نشأت أجيال مولدة تكاثرت مع الزمن وزادت فيه نسبة الدم اللاتينى؛ مما ساعد على تقبلهم أنظمة الرومان اللاتين وأنماط حياتهم . كذلك فقد أخذت اللغة اللاتينية - التى أصبحت لغة الإدارة ثم التعامل - فى الانتشار التدريجى وحلت محل لغة الأشتوريين، التى أخذت فى الاضمحلال السريع حتى تلاشت؛ ولم يعد السكان - على حد تعبير استرابون - يتذكرون منها شيئا (٥) . وكان أن قدمت المسيحية عاملا جديدا من عوامل تقوية الروابط والاندماج بين الأشتوريين واللاتين حينما اعتنقوها (٦) ؛ بحيث يمكن القول أن أشتوريس هى وباقى شبه الجزيرة قد اندمجت فى الجسد الرومانى بفضلها، وتدعم الاندماج أكثر حينما أصدر الإمبراطور الرومانى كاراكالا Caracalla فى عام ٢١٢ م قراراً يمنح سكان الإمبراطورية حقوق المواطنة الرومانية (٧) ، حتى صار الأشتوريون فى نهاية الأمر لاتينا كالرومان اللاتين أنفسهم (٨) . وهكذا فقد أثر الغزو الرومانى

---

(١) Strabo, op. cit , 2p 79; Florez, Loc. cit ; Bouchier, op. cit, p 88 .

(٢) عن أهم تلك الطرق أنظر : Saavedra, Estudio, p 114; Sanchez Albornoz, " Itinerario de La Conquista de Espana ", CHE, Buenos Aires 1948, 10 pp 64 - 65 السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٠٢، وأنظر الخريطة .

(٣) Strabo, op cit , 2p 60; Caveda, op cit., p 27 .

(٤) Chapman, op cit., p 19 .

(٥) Strabo, op cit , 2p 59 .

(٦) عن كيفية دخول المسيحية إسبانيا وأثرها، قارن : O'Callaghan, op cit., pp 31 - 33; Chapman, op. cit., pp 22 - 33; Smith, Op cit, p 11; Danham, op cit., 1p 77 Sqq

(٧) Hume, op cit., pp 36 - 37; Russell, Spain, p 66; O'Callaghan, op cit., p 28; Smith, op. cit , p 9 .

(٨) Strabo, op cit., 2p 59; Smith, op. cit , p 19 .

لأشتوريس تأثيرا عميقا فى وسائل وأنماط حياة سكانها من جميع نواحيها [١]، واتخذت نمطا رومانيا تأصل وازداد عمقا مع الزمن .

وإذا كان تاريخ أشتوريس - منذ استيلاء الرومان اللاتين عليها فى عام ١٩ ق . م - قد ارتبط بتاريخ ولاية جليقية وصار جزءا لا يتجزأ منها، فإنه بسبب قلة المصادر التاريخية التى تناولت تاريخ هذه الولاية منذ انتهاء السيطرة الرومانية عليها أوائل القرن الخامس الميلادى حتى بداية القرن الثامن، وغموضها فيما يتعلق بأشتوريس؛ فضلا عن تعدد القوى المسيطرة على أقاليم شبه الجزيرة خلال هذه الفترة؛ وتأرجح سيطرة كل منها على هذه الأقاليم نتيجة للصراع المستمر فيما بينها، فقد غدت هذه الفترة فترة اضطراب فى تاريخ شبه الجزيرة ككل؛ وفجوة عميقة فى تاريخ أشتوريس بالذات، يواجه فيها الباحث ندرة حقيقية فى المعلومات المتصلة بها؛ بحيث لا يمكن إلقاء الضوء عليها إلا من خلال ما أوردته المصادر التاريخية عن ولاية جليقية ككل خلال تلك الفترة .

فقد اكتسحت شبه جزيرة إيبيريا فى بداية القرن الخامس الميلادى قبائل جرمانية من عناصر متعددة [٢] ، وعاثت فيها فسادا وتخريبا مدة عامين [٣] ؛ ثم

(١) أنظر بتفصيل : Altamira, A History of Spain, p 44 Sqq, Danham, op. cit., 1 p 69 Sqq .

(٢) هى قبائل السويف والوندال والألان، وقد وفد السويف من المنطقة الواقعة بين نهرى الراين والدانوب أما الألان فمن المنطقة الواقعة بين بحرى أزوف والقوقاز، فى حين وفد الوندال من بين نهرى الأودر والدانوب، وتحركت من وراء الدانوب عام ٤٠٦م وغزت غالة، ومنها تقدمت إلى إيبيريا، فتصدى لها القائدان الرومانيان Didymus و Veranianus عند جبال البرنات، وظلت تتجول فى غالة ثلاث سنين حتى قتل القائدان، فسهل عليها اقتحام إيبيريا عام ٤٠٩م . وعن ذلك ومواطن الجرمان الأولى وأسباب سهولة اقتحام إيبيريا، قارن : Isidore of Seville's History, Leiden - Brill 1966, p 34; O'Callaghan, op. cit., p 39; Chapman, op. cit., pp 26 - 27 . ؛ السيد سالم، المغرب الكبير (العصر الاسلامى)، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦م، ٢ ص ٣ - ٤؛ إسحق عبيد، نفسه، ص ٨ وما بعدها، ص ٥٤ وما بعدها؛ سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ط١، القاهرة ١٩٥٨م، ١ ص ٥١ وما بعدها، ص ٦٣، طرخان، دولة القوط الغربيين، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٣) صارت إيبيريا بسبب هذه الغزوات مشهدا سيئا من مشاهد البؤس والفاقة فيصور ايزيدور الإشبيلى - الذى كان معاصرا - هذه الغزوات بقوله : « أنها كانت غزوات وحشية دموية ضارية، استنزفت كل ثروات البلاد ومواردها، وأحرقت كل مدنها وقراها وعمرانها، حتى لم يجد السكان بدا من التهام جثث الموتى من آدميين وحيوانات بسبب ما حل بهم من جوع قاتل، كما أكلت الأمهات أبناءهن »، وعن هذه الحالة، أنظر: Isidore of Seville's History, p 34, Bruke, A History of Spain, London 1900, 1 pp 43 - 48.

اقتسمت تلك العناصر أقاليم إيبيريا فيما بينها فى عام ٤١١م [١] ، واختصت قبائل السويف Suevos وبعض قبائل الوندال Vandalos - المعروفة بالأسدنج Asdingi [٢] - بجليقية [٣] ، وأقامت بها مملكة عرفت بمملكة السويف [٤] ، واتخذت من مدينة براقرة أورغسطا Bracara Augusta عاصمة لها .

وقد اختلف المؤرخون الحديثون فيما بينهم فى تفسير المقصود بجليقية التى استولى عليها السويف، أهى الولاية بأسرها المشتملة على أشتوريس [٥] ؛ أم أنها منطقة جليقية إحدى أجزاء الولاية؛ مما يعنى أن أشتوريس لم تكن من نصيب السويف وظلت تابعة للرومان [٦] . على أنه باستقراء عبارات المؤرخ إيزيدور الإشبيلى - الذى عاش فى القرن السابع الميلادى، ويعتبر تاريخه من أوثق ما كتب عن الجرمان فى إيبيريا - نجده يشير فى صراحة إلى أن الجرمان قد اقتسموا إيبيريا على أساس الولايات [٧] ، وأن السويف انفردوا باحتلال كل جليقية أى ولاية جليقية؛ وأن الجلالقة وإن حافظوا فى بادىء الأمر على استقلالهم عن السويف، فإنهم لم يلبثوا أن خضعوا لأول ملك سويفى [٨] . مما يعنى أن سيطرة السويف قد شملت ولاية جليقية؛ وأن هذه السيطرة قد امتدت إلى كل أنحائها بما فيها أشتوريس .

ويتأكد استيلاء السويف على أشتوريس مما أشار إليه المؤرخ السابق بأن أراضى السويف فى جليقية قد اقتحمتها عناصر جرمانية أخرى، وهاجمت فيها مدينة أستورقة Astorga [٩] فى عام ٤٥٦م؛ وكانت حسبما أوضحنا عاصمة أشتوريس فى

---

(١) عن التقسيم أنظر: Isidore of Seville's History, p 35; Bouchier, op. cit., p 48, Chapman, op. cit., p 27; O'Callaghan, op. cit., p 39; Livermore, A History of Portugal, Cambridge 1947, p 16; Smith, op cit., p 14; Entwistle, The Spanish Language, London 1962, p 77 .

أشباخ، تاريخ الأندلس، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٢٣٦؛ السيد سالم، المغرب الكبير، ٢ ص ٤ .

(٢) كانت بقيادة Genderic ، أول قوادهم بإيبيريا، وحكم مع السويف فى جليقية ثمانية عشر عاما، حتى نقض الاتفاقية معهم، وهاجمهم فى نواحى جبال Erbasian ، ثم ترك جليقية للسويف واتجه إلى باطقة ليلحق بغيره من الوندال، أنظر : Isidore of Seville's History, p 35

(٣) Isidore of Seville's History, p 35 .

(٤) Davis, Medieval Europe, London 1919, p 31; Altamira, A History of Spain, p 76 .

(٥) Castro, op cit , p 77, O'Callaghan, op cit., p 39 .

(٦) Risco, Esp, Sagr., 37 p 50 Sqq; Bouchier, op cit, p 48 .

(٧) Isidore of Seville's History, p 35 .

(٨) Ibid, p. 40 .

(٩) Ibid, p16, Chron. Albeldense, ed. Florez, p 446 .

التقسيم الإدارى الرومانى الذى لم يغير منه الجرمان شيئا . ويضيف نفس المؤرخ أن السويف كانوا قد مدوا سيطرتهم، فيما بين عامى ٤٤٨ - ٤٥٣م، إلى مناطق تقع إلى الشرق من أشتوريس مباشرة مثل كنتبرية وسرقسطة وأراجوان [١] . ولا يعقل إذن أن يتطلع السويف إلى هذه النواحى قبل السيطرة على أشتوريس ذاتها، التى كانت معبرا لجيوشهم فى ذهابها وعودتها . يضاف إلى ذلك أن بعض الأماكن فى أشتوريس لا زالت تحمل أسماء اشتقت من اسم السويف Suevos، مثل Puerto de Suegos وSueve وغيرهما [٢] . الأمر الذى نرجح معه خضوع أشتوريس للسويف، وإن كنا نجهل ما إذا كان ذلك وقت اقتسام الجرمان لولايات شبه الجزيرة عام ٤١١م، أم فى سنوات تلت قبل عام ٤٤٨م؛ حينما أخذ السويف يتوسعون فى شمال شرقى شبه الجزيرة إلى الشرق من أشتوريس .

على أن السويف لم يهنأوا بالاستقرار طويلا فى ولاية جليقية المشتملة على أشتوريس، إذ نازعهم فى السيطرة عليها عناصر جرمانية أخرى وافدة عرفت بالقوط الغربيين Visigoths [٣] ؛ وازداد النزاع بينهما حدة بسبب اختلافهما الدينى؛ فالسويف كانوا على الوثنية ثم هجروها بين عامى ٤٤٨ - ٤٥٧م إلى المسيحية وإن تأرجحوا فيها بين المذهبين الكاثوليكى والأريوسى [٤] . أما القوط فكانوا على الأريوسية منذ عام ٣٧٧م[٥] ولم يعتنقوا الكاثوليكية إلا عام ٥٨٧م [٦] ، أى بعد

---

(١) أنظر : Isidore of Seville's History, p 41

(٢) أنظر : Entwistle, op cit, p 78

(٣) عنهم وعن أصلهم أنظر : Isidore of Seville's History p3 Sqq

(٤) اعتنقوا المسيحية على المذهب الكاثوليكى أولا ليوجدوا توائما بينهم وبين الرعية، وتحولوا عنه إلى المذهب الأريوسى حوالى عام ٤٦٥م استجلابا لمودة القوط ولعقد صلح معهم، حتى أن الملك القوطى أرسل إليهم أحد مبشرى هذا المذهب، ولم تلبث أن انتهكت شروط هذا الصلح، فارتد السويف إلى الكاثوليكية حوالى منتصف القرن السادس، على أيدى القديس Martin الذى صار رئيسا لأساقفة العاصمة السويفية براقرة، وأسس بجليقية عديداً من الكنائس . وعن ذلك وعن طبيعة المذهبين الأريوسى والكاثوليكى قارن : Isidore of Seville's History, p 6 No 8, p 41 No. 87, p 42 No. 90 - 91; Livermore, Hist. of Portugal, pp 25 - 26; O'Callaghan, op. cit., p 118; Burke, op cit., 1p 74 . وعن آثار القديس Martin العلمية ، أنظر : الوثيقتين رقم ١ بتاريخ أول مايو عام ٥٦٩م، ورقم ٢ بتاريخ عام ٥٧٢م، فى كتاب : Belda, Documentos Reales de la Eedad Media, Madrid 1953, p 23 .

(٥) اعتنقوها فى عهد الامبراطور الرومانى Valens حوالى العام الثالث عشر من حكمه، وظلوا عليها حوالى ٢١٣ عاما . أنظر : Isidore of Seville's History, p 5 No. 7, p 6 No. 8 .

(٦) عن طبيعة المذهب الكاثوليكى وكيفية اعتناق القوط له، أنظر : Isidore of Seville's History, p 25 No 52 - 53; Chron Biclarense, ed Arias, CHE 1932, 10 p 138 No. 5, Chron. Albeldense, ed . Florez, p 447; Altamira, A History of Spain, p 81; Bradley, The Goths, London 1891, p 327 Sqq; Coppée, History of the Conquest of Spain, Boston 1881, 1p 126 Sqq .

قضائهم على مملكة السويف بعامين . ومن ثم فقد ظل العداء بينهما مستحكما وصار تاريخ علاقاتهما سجلا حافلا بالحروب، التى بدأها القوط حوالى عام ٤٥٦م وانتصروا فيها على السويف انتصارا ساحقا؛ أرشكت معه مملكة السويف على الانهيار وهى فى بدايتها، خاصة وأن التفكك الداخلى قد أخذ يسرى فى جسدها منذ عام ٤٥٧م؛ بسبب التنازع على عرشها وانقسام الرعية بين المتنازعين؛ ولم تنفرج الأزمة إلا بإقلاع الجيش القوطى فجأة إلى غالة، وانفراد روميسموند Romismund فى عام ٤٦٤م بالعرش، ومسارعته إلى درء خطر القوط بعقد الصلح معهم [1] .

على أن هذا الصلح لم يطل أمده، إذ اقتحم الملك القوطى ليوفجلد Leovigild مملكتهم فى سنوات أربع متتالية انتهت فى عام ٥٧٦م باقتطاعه كثيرا من أراضيهم[2]، وإملاء شروطه على ملكهم ميرو Miro ؛ بحيث لم يبق للسويف سوى الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة، أى منطقة جليقية فقط . ومع ذلك فلم يستطع ميرو Miro الحفاظ عليها إذ أقدم على إقحام نفسه فى الخلاف بين الملك القوطى ليوفجلد وابنه [3] ، فساعد الابن ضد أبيه [4]؛ مما كان سببا فى مهاجمة ليوفجلد لهذه المنطقة فسيطر عليها عام ٥٨٥ فى سهولة [5]؛ خاصة وأن السلطة فيها كانت قد تداعت بعد موت ميرو عام ٥٨٣م [6]، وبذلك تلاشت المملكة السويفية ولم يشفع لها عند القوط ما أقامته معهم من علاقات المصاهرة [7] أو ما عقدته معهم من

---

(١) قارن : Isidore of Seville's History, pp 16 - 17 No. 31 - 33, pp 41 - 42 No. 87 - 90; Chron. Albeldense, ed. Florez, p 446 .

(٢) أنظر بتفصيل : Isidore, of Seville's History, pp 23 - 24 No. 49; Chron. Biclarense, ed. Arias , p 132 No. 2, p 133 No. 2, p 134 No. 3 .

(٣) عن الخلاف، أنظر: Chron. Biclarense, ed. Arias, p 135 No 3; Bradley, op cit., pp 322 - 324 .

(٤) Chron. Biclarense, p 137; Danham, op cit, 1p 119 ، وانظر أيضاً : Isidore of Seville's History, pp 42 - 43 . وإن كان يخطىء فى القول بأن ميرو ساعد ليوفجلد ضد ابنه والعكس هو الصحيح .

(٥) Chron. Biclarense, ed. Arias, p 137 No. 2; Isidore of Seville's History, p 24 No. 49, p 43 No 92; Chron. Albeldense, ed. Florez, p 447; Chaytor, A History of Aragon and Catalonia, London 1933, p 8; Hadrill , The Barbarian West, London 1967, p. 119; Castro, op. cit., p 60; Bradley, op cit, p 321 .

(٦) إذ كان قد خلفه ابنه الصغير Eborico ، فاغتصب Andeca العرش منه عام ٥٨٤م أنظر : Chron Biclarense, ed Arias, p 137; Isidore of Seville's History, pp 24, 43 .

(٧) عنها أنظر : Isidore of Seville's History, pp 17, 22 .

معاهدات لتخفيف حدة النزاع، وإنما فشلت جميعها فى خلق أى روح من المودة أو حسن الجوار فيما بينهما .

ولا نعلم على وجه الدقة متى اقتطع القوط أشتوريس من السويف خلال هذا الصراع، وإن كنا نستبعد حدوثه عام ٥٨٥م؛ حينما قضى القوط على مملكة السويف كلية؛ إذ كانت أملاك الأخيرة تقتصرعلى منطقة جليقية فقط بالركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة، مما يعنى خضوع أشتوريس للقوط قبل ذلك التاريخ . ولا نميل أيضاً إلى فكرة الاعتقاد باستيلائهم عليها فى أول هجوم لهم على أراضى السويف عام ٤٥٦م؛ إذ كان هجوما للإغارة ولم تشر المصادر التاريخية إلى مناطق استولوا عليها فى هذا الهجوم؛ كما أن السويف كانوا لا يزالون يتوسعون إلى الشرق من أشتوريس بعد هذا التاريخ (٤٥٦م) . ومن ثم فلا تتبقى إلا الفترة ما بين عامى ٥٧٣ - ٥٧٦م؛ التى استولى فيها القوط على مناطق تحيط بأشتوريس شرقاً وغرباً مثل مناطق سنابريا (Sabaria)Sanabria ، وأرجنس Aregenes وكنتبرية Cantabria[(١)]. بل ويضيف بعض المؤرخين الحديثين إلى هذه الفتوحات فتح القوط لمدينتى سمورة Zamora الواقعة على حدود أشتوريس الجنوبية، وليون Léon [(٢)] بقلب أشتوريس أوغسطانا ذاتها .

وتتمادى المصادر التاريخية فى صمتها التام نحو أشتوريس، وإن كانت تطالعنا فجأة بأنباء ثورة للأشتوريين على الملك القوطى سيسبوت Sisebut (٦١٢ - ٦٢١م)؛ الذى استطاع إخمادها وإعادة الأشتوريين لطاعته [(٣)] ؛ فإنها تعود إلى صمتها مرة أخرى حتى لتختفى أى أنباء فى التسجيلات التاريخية عن أشتوريس كلية حتى أواخر القرن الأول الهجرى/ أوائل الثامن الميلادى؛ وإن كان ذلك لا ينفى أن أشتوريس قد ظلت خاضعة لحكم القوط الجرمان حتى أقدم المسلمون على فتحها فى عام ٩٥هـ/ ٧١٤م .

وهكذا نلاحظ أن أشتوريس خضعت للسيطرة الرومانية، وإن تلاشت عنها فى أوائل القرن الخامس الميلادى على أيدى السويف الجرمان، ثم خضعت فى النصف

---

(١) عن هذه المناطق واستيلاء القوط عليها، أنظر : Chron. Biclarense, ed Arias, p 132 No. 5, p 133 No. 2, p 134 No. 2 - 3, p 135 No. 2, Isidore of Seville's History, p 23 No. 49; The Camb. Med. Hist., 2 pp 166 - 167 .

(٢) The Camb. Med. Hist , 2p 166; Deanesly, A History of Med. Europe, London 1956, p 100 .

(٣) Isidore of Seville's History, p 28 No. 61; Chron, Albeldense, ed. Florez, p 448 .

الثانى من القرن السادس لعناصر القوط الجرمانية؛ فحوت أشتوريس بذلك خليطا متعددا من أجناس مختلفة من كلت وروما‌ن وسويف وقوط . ومع ذلك فقد ظلت الحضارة اللاتينية بمظاهرها المختلفة من لغة وقوانين وأنظمة هى السائدة بسبب تأصلها فيها .

وإذا كان السويف والقوط الجرمان قد تأثروا بهذه الحضارة اللاتينية قبل أن يسيطروا على أشتوريس بسبب علاقتهم مع الرومان [١] ، فإن هذا التأثير كان محدوداً؛ إذ ظل القوط حتى منتصف القرن الخامس الميلادى يعيشون وفق تقاليدهم وعاداتهم دون أن يكون لهم قانون مكتوب [٢] . وحينما سيطروا على أشتوريس فى النصف الثانى من القرن السادس كانوا قد قولبوا تقاليدهم لأول مرة فى تاريخهم فى قانون مكتوب، لكنهم لم يفرضوه على الأشتوريين الرومان وإنما تركوا لهم حرية ممارسة قوانينهم وأنظمتهم الرومانية الأصل [٣] ؛ مما أدى إلى ازدواج فى تطبيق القوانين فى أشتوريس، فضلاً عن الاختلاف المذهبى بين الفريقين؛ ولذلك كان التباعد بينهما عميقا حتى عمل القوط على إزالته - وإن كان لأسباب سياسية أصلا- باعتناقهم مثل الأشتوريين اللاتين للكاثوليكية فى عام ٥٨٧م؛ وبمراجعة القوانين وتعديلها بهدف توحيد تطبيقها على كل الرعايا من القوط الجرمان أو الأشتوريين اللاتين؛ وهو ما تم فى منتصف القرن السابع (حوالى ٦٥٤م) [٤] . وتبنى القوط هم

---

(١) Altamira, History of Spanish Civilization, p 40, Peers, op cit, p 35 .

(٢) Isidore of Seville's History, pp 17 - 18 No. 35 .

(٣) Altamira, op cit., p 41, Livermore, A History of Portugal p 24 .

(٤) كان القوط يعيشون وفق قانونهم الذى وضعه يوريك ٤٦٦ - ٤٨٣م، أما الأشتوريون اللاتين فكانوا خاضعين للتشريع المسمى Lex Romana Visigothorum أو Breviarium Alaricianum الذى كان قد وضعه الملك القوطى الأريك الثانى حوالى عام ٥٠٦م ليطبق على الرعايا الإسبان اللاتين، وهو القانون الذى ألغاه رسسفنت حوالى عام ٦٥٤م وأحل محله التشريع الذى سمى Liber Iudicum أو Forum Iudicum وحوى ٩٨ مادة من وضع أبيه تشنداسفنت و ٨٩ مادة من وضعه هو، وصار يطبق على كل الرعايا من قوط وأشتوريين لاتين . قارن : Isidore of Seville's History, pp 17 - 18 No 35, p 24 No 51, O'Callaghan, op cit., pp 48 - 49, 63 Sqq; Ziegler, Church and State in the Visigothic Spain, Washington 1930, pp 59 - 65, 73 - 74; Altamira, A History of Spain, pp 78, 81; Peers, op cit., p. 53; Smith, op. cit., pp 16 - 17; طرخان، دولة القوط، ص ١٤٢ وما بعدها .

الآخرون اللغة اللاتينية [١] ونسوا بذلك لغتهم القوطية، وساروا على نهج أنظمة الرومان الإدارية والقانونية والاجتماعية [٢] .

وعلى ذلك، فقد فاق الرومان اللاتين غيرهم من العناصر البشرية التى سكنت أشتوريس فى التأثير على أنماط وحياة السكان فيها تأثيرا قويا، بحيث لم يكن بمقدور أى من الأجناس التى تلت هؤلاء الرومان أن تغير من طابع أشتوريس اللاتينى شيئا ذا بال بقدر ما شاركت الحياة وفقا له؛ فتأصلت مظاهر الحضارة اللاتينية فى أشتوريس، وظلت هى السائدة حتى وقت الفتح الإسلامى . ويرجع هذا التأثير الرومانى القوى إلى أصالة وجدية وتعدد الأنظمة التى حرص الرومان على تطبيقها فى أشتوريس، منذ أن استقروا فيها مع أواخر القرن الأول قبل الميلاد وطوال أربعة قرون كاملة تلت .

---

(١) تدل العملات التى ضربوها بعد تحولهم إلى الكاثوليكية على أنهم اتخذوا اللاتينية لغة لنقشها، وعن نصوص هذه العملات أنظر : Morales, op cit., 3 pp 99, 103, 106, 140, 154 .

(٢) قارن : Peers, op cit., p 35; O'Callaghan, op cit , p 21; Livermore, History of Portugal, p 23; Smith, op cit., p 24 Sqq .

الفصل الثانى

الفتح الإسلامى لإقليم أشتوريس

فتوحات طارق بن زياد فى أقاليم جنوب ووسط إيبيريا ـ عبور موسى بن نصير وتأمين فتوحات طارق بفتح أقاليم غربى إيبيريا وجنوبها الشرقى ـ خطة القائدين موسى وطارق لفتح أقاليم الشمال الإيبيرى الشاملة لأشتوريس ـ إجمال المصادر لفتوحاتهما فيها ودلائله ـ مراحل الفتح على يد موسى وطارق حتى مغادرتهما إيبيريا إلى دمشق ـ تقييم فتوحاتهما فى ولاية جليقية الشاملة لأشتوريس ـ استكمال عبد العزيز بن موسى فتح بعض ما خلفه والده فى أقاليم الشمال الإيبيرى ـ طبيعة الحكم الإسلامى فى إقليم أشتوريس .



لم تكن إيبيريا مجهولة للمسلمين فى شبه الجزيرة العربية، وإنما تردد اسمها بينهم منذ وقت مبكر . لكن من المستبعد أن يرجع فتحها إلى عهد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥ هـ)؛ الذى تنسب إليه بعض المصادر الإسلامية انتداب المسلمين إلى غزوها [١] ، فدخلوها من برها وبحرها فى عهده عام ٢٧هـ [٢] (٦٤٨م) . إذ من غير المنطقى أن يقدم المسلمون على فتح إيبيريا قبل أن يتم لهم السيطرة على بلاد المغرب من أدناه إلى أقصاه؛ وقبل القضاء على مراكز النفوذ البيزنطى ومعه أسطورة التفوق البحرى فى البحر المتوسط؛ وكلاهما لم يتحقق إلا مع بدايات العقد الأخير من القرن الأول الهجرى، وصار اتجاه القوات الإسلامية نحو إيبيريا فى الشمال هو الاتجاه الطبيعى المقبول، الذى تفرضه ظروف سياسة التوسع؛ فضلاً عن الظروف الجغرافية والتاريخية التى تجعل إيبيريا أقرب إلى المغرب وطبيعته .

ومن هنا فلم تتم أولى محاولات المسلمين الجدية لفتح إيبيريا فتحا ثابتاً مستقراً إلا فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك، حينما أعد موسى بن نصير [٣] واليه على المغرب ـ فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م [٤] ـ جيشاً إسلامياً عدته سبعة

---

(١) الحميرى، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٣٢ .

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ٢ ص ٤؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، القاهرة ١٢٩٠هـ، ٣ ص ٣٨ ـ ٣٩، ٤ ص ٢٣٠؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ط١ ، المطبعة الحسينية المصرية د ت، ٥ ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٣) يكنى أبا عبد الرحمن، واختلف عما إذا كان بكريا أم لخميا، وعنه انظر : ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ٢ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ رقم ١٤٥٦؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٣١٧ رقم ٧٩٣؛ الضبى، بغية الملتمس، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ رقم ١٣٣٤ .

(٤) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢١٤، ٢٣٧ ـ ٢٣٨؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء، ٤٥ ـ ٤٦؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٠٣؛ أخبار مجموعة، ص ١٦؛ ابن الفرضى، تاريخ، ٢ ص ١٤٦؛ الحميرى، صفة، ص ٨، ١٢٧؛ وانظر أيضاً : Dozy, Hist. de Musulmans d'Espagne, leyde 1932, 1p 271; Saavedra, Estudio, pp 63 - 64; Lévi _ Provençal, Histoire, 1p 16 .

هذا وتقدم المصادر الإسبانية تواريخ مختلفة لهذا الفتح، فهو عام ٧١٠م أنظر : Chron Compostellani, ed. Huici, 1p 80؛ أو عام ٧١١م أنظر : Isidore Pacense, ed. Florez, P 298; Annales Compostellani, ed. Huici, 1p 60، أو عام ٧١٢م أنظر : Chron. Lusitnum, ed. Florez, p 402؛ أو عام ٧١٤م أنظر: Anales Complutense, ed. Huici, 1p 40؛ وأنظر مناقشة Sanchez Albornoz المستفيضة لهذه التواريخ فى مقاله: Donde y Cuando Murio Don Rodrigo CHE 1945, 3p 52 Spp.

آلاف مقاتل [١]؛ جله من البربر بقيادة مولاه طارق بن زياد [٢] ، الذى عبر إليها وأرسى بساحلها الجنوبى [٣] أمام جبل كالبى Calpe المنيع؛ فنسب إليه منذ ذلك الحين وقيل له جبل طارق Gibraltar وحتى جبل الفتح [٤] .

ويفهم من المصادر الإسلامية أن طارق قد حط فى هذا الجبل دون أن يلقى مقاومة، وهو ما لفت انتباه أحد المؤرخين الحديثين ودعاه إلى شىء من التفكير؛ لأن هذا الجبل يمثل موقعاً استراتيجياً هاماً باعتباره همزة الوصل بين عدوتى المغرب والأندلس، والمتحكم فى المضيق الفاصل بينهما ضد أى عدوان على إيبيريا من الناحية الجنوبية؛ بحيث أن الفنيقيين أدركوا أهميته حينما احتلوا شواطىء عدوتى المغرب وإيبيريا، فأقاموا عليه أبراجاً للمراقبة ولم يسمحوا لأى دولة أخرى مشاركتهم فى استغلاله؛ كما لم يترددوا فى إغراق أى سفينة أجنبية تحاول عبور المضيق، وهم الذين أطلقوا على هذا الجبل اسم جبل كالبى، أى الجبل المجوف لوجود مغارة كبيرة فيه؛ ثم عرفه الإسبان فيما بعد بمغارة القديس ميخائيل San Miguel ، وهى المغارة التى أشار إليها الجغرافى الإسلامى الحميرى بقوله أنها كانت تعرف بغار « الأقدام » لوجود آثار أقدام فيه .

فلما انتهى حكم الفنيقيين لإيبيريا وتداولها من بعدهم القرطاجنيون والرومان ثم القوط، حرصوا جميعا على بسط سيطرتهم على المضيق؛ واتخذوا من جبل كالبى قاعدة حربية لهذا الغرض . ولا شك أن القوط فى أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين فى الجانب الأفريقى المقابل، وعلى علم أيضاً بنواياهم وخططهم بالنسبة لإيبيريا؛ لأن المضيق الذى يفصل بينهما ذراع من الماء يبلغ فى أوسع جهاته

---

(١) هو العدد الأرجح، وقد أردفوا بعد العبور بخمسة آلاف آخرين، أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢١٦، ٢٤١؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠؛ أخبار مجموعة ص ٦، ٧ . وعن الأعداد المختلفة التى يقدمها المؤرخون قارن : المقرى، نفح، ١ ص ٢١٦، ٢٢٤، ٢٣٨؛ الحميرى، صفة، ص ٩؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٦؛ الطبرى، تاريخ الأمم، ٨ ص ٨٢؛ ابن خلدون، العبر، القاهرة ١٩٣٠م، ٤ ص ١١٧؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، مصر ١٣٣١هـ، ٢ ص ٥٩؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٤؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٠٦، ١٤٠؛ عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٢؛ ابن الكرديوس، الاكتفاء، ص ٤٦ .

(٢) اختلف فى أصله فقيل عربى أو فارسى همذانى أو بربرى - وهو الأرجح - وعما إذا كان مولى لموسى بن نصير من عدمه، أنظر : الضبى، بغية الملتمس، ص ١٠ - ١١، ص ٣١٥ رقم ٨٦٤؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٥، ص ٢٣٠ - ٢٣١ رقم ٥١٩؛ ابن عذارى، البيان، ١ ص ٤٣، ٢ ص ٥؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٠٣، ١٠٤؛ الإدريسى، نزهة، ص ٥٣٩ .

(٣) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٩ س ٩ .

(٤) قارن : المقرى، نفح، ١ ص ٢١٦، ٢١٧؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩؛ المراكشى، المعجب، ص ٣٦٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠ .

اثنى عشر ميلا على الأكثر، وهى مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكرى بين الشاطئين . يضاف إلى ذلك أن ما قام به المسلمون من غارات على سواحل إيبيريا الجنوبية قبيل حملة طارق، كانت بمثابة إنذار صريح للقوط كى يأخذوا حذرهم من أى هجوم إسلامى من تلك الناحية؛ ولا يعقل والحال كذلك أن يغفل القوط مهما بلغ ضعفهم واضطراب شئونهم هذه القاعدة الاستراتيجية الهامة دون حراسة أو مراقبة، وهذا ما جعل المؤرخ المذكور يميل إلى الاعتقاد بأن نزول المسلمين عند هذا الجبل لم يتم بمثل ما تصوره كتب التاريخ من سهولة [١] .

وقد يؤيد هذا الاعتقاد ما أورده المؤرخ ابن الكردبوس ـ الذى عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى ـ عن وصف نزول المسلمين بقيادة طارق عند سفح هذا الجبل، والمقاومة القوطية التى اعترضتهم بهدف الحيلولة دون توغلهم، ثم حركة الالتفاف البارعة التى قام بها المسلمون أثناء الليل حول عدوهم المرابط فى الجبل، وكيفية الانقضاض عليه فجأة وإبادته عن آخره؛ وفى ذلك يقول ابن الكردبوس : «فمضى طارق لسبتة وجاز فى مراكبه إلى جبل فأرسى فيه ... وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، ووجد بعض الروم وقوفاً فى موضع وطىء كان عزم على النزول فيه إلى البر فمنعوه، فعدل عنه ليلا إلى موضع وعر، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب، ونزل فيه فى البر وهم لا يعلمون فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم» [٢] .

فهذا الوصف يدل بوضوح على عظم المقاومة القوطية التى لقيها المسلمون منذ بدء نزولهم فى أراضى إيبيريا، لدرجة أنهم اضطروا إلى تغيير خطتهم العسكرية التى قرروها من قبل والنزول ليلاً فى مكان آخر صخرى وعر؛ مستخدمين براذع الدواب ومجاذف السفن كى تعينهم على خوض المياه وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو، والانقضاض عليه قبل أن يشعر بهم . وبهذا الأسلوب انتصر المسلمون وتمكنوا من احتلال الجبل [٣] ، فى يوم الاثنين الخامس من رجب عام ٩٢هـ [٤] /

---

(١) أحمد مختار، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، اسكندرية بدون تاريخ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) الإكتفاء، ص ٤٦؛ وانظر أيضاً : أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، اسكندرية، ص ٥٩ .

(٣) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٦ .

(٤) أنظر : ابن عذارى، نفس الصفحة والمكان؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢١٥، ٢٢٤؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠، عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٢ . وإن تأرجح البعض بين هذا التاريخ وبين السبت من شعبان ٩٢هـ/ أغسطس ٧١١م، أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٣٨؛ الحميرى، صفة، ص ٩ . أما ابن الشباط (وصف الأندلس، ص ١٠٦، ١٤٠) والمقرى (نفح، ١ ص ٢١٦) فقد أصرا على السبت من شعبان ٩٢هـ . فى حين يجعله ابن القوطية (تاريخ افتتاح الأندلس، بيروت ١٩٥٨م، ص ٣٣) رمضان ٩٢هـ. وقد دعا هذا الاختلاف ابن الخطيب (الإحاطة فى أخبار غرناطة، دار المعارف ١٩٥٥م، ١ ص ١٠٧) إلى إيراد كل هذه التواريخ وإن أيد السبت من شعبان . أما ابن قتيبة (الإمامة والسياسة، ٢ ص ٥٩) فقد رقع فى خطأ ظاهر حين جعل التاريخ رجب عام ٩٣ هـ، أى بفارق عام كامل .

أبريل ٧١١م [1] ؛ وأقاموا به عدة أيام بنوا خلالها سورا يحيط بهم على هيئة معسكر يأمنون فيه على أنفسهم .

ثم بادر طارق إلى استكشاف المنطقة بواسطة حملات صغيرة - قبل أن يتخذ مع أصحابه قرار الزحف نحو الشمال - واتخذت إحداها بقيادة عبد الملك بن أبى عامر حذاء الساحل فى اتجاه شمالى غربى واستولت على حصن فى سفح الجبل [2] ، عند مصب نهر وادى البحر [3] هو قرطاجنة [4] Carteya ؛ ومنه زحفت جنوبا باتجاه مدينة الجزيرة الخضراء [5] Algeciras ، فاشتبكت مع فرقة قوطية يقودها بنثيو Bencio وتمكنت من القضاء عليها قضاء مبرما وإن تمكن قائدها من الهرب[6]؛ ونجحت فى دخول الجزيرة الخضراء فسيطرت عليها، وأعدت بها قاعدة عسكرية [7] صارت أولى مراكز المسلمين المحصنة بإيبيريا . ويلاحظ أنه رغم وقوع هذه المدينة فى داخل إيبيريا إلا أنها سهلة الاتصال بالساحل المغربى المقابل، بينما يصعب اتصالها بداخل إيبيريا ذاتها لوجود مرتفعات بينهما؛ مما يدل على حسن اختيار المسلمين لهذا الموقع الاستراتيجى الهام . كما أقام المسلمون قاعدة أمامية أخرى فى مدينة طريف Tarif . وبذلك سيطروا على المضيق الذى يفصل إيبيريا عن المغرب، التى ربطوا خطوط مواصلاتهم معها بهاتين القاعدتين، وأمنوا ظهورهم فى حالة الانسحاب أو الهزيمة؛ ثم زحفوا غربا فى اتجاه إقليم شذونة Sidonia قاصدين مدينة

---

(١) اعتمدنا فى مقارنة التواريخ الهجرية بالميلادية على الجداول التالية : محمد مختار، التوفيقات الإلهامية، بولاق ١٣١١هـ؛ Wustenfeld, Vergleichungs _ tabellen der Mohammedanishen und Christlichen Zeitrechnung, Leipzig 1926 .

(٢) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٩ .

(٣) الحميرى، صفة، ص ١٥١ .

(٤) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٩؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٦؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠؛ الحميرى، صفة، ص ١٥١ .

(٥) ابن الأثير أعلاه . وتقع المدينة مقابل سبتة ، وهى على نهر البرباط شرقى شذونة وقبلى قرطبة بخمسة وخمسين فرسخا، ومرساها من أجود المراسى للجواز وأقربها من المحيط الأطلسى، وعنها بتفصيل أنظر: الإدريسى، نزهة، ص ٥٣٩ - ٥٤٠؛ ياقوت، معجم البلدان، ط١، مصر ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، ٣ ص ٩٩؛ العذرى، نصوص، ص ١١٧، ابن غالب، تعليق منتقى، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثانى ١٩٥٥م، ص ٢٩٤ . وتسمى أيضاً جزيرة أم حكيم إذ كان طارق قد خلف بها جارية بهذا الاسم مع فرقة من رجاله، أنظر: الحميرى، صفة، ص ٧٣؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٦ .

(٦) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٨ - ٩؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٣٣؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٦ .

(٧) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٦ .

قرطبة [١] Cordoba ، متخذين من المرتفعات الجنوبية لإيبيريا حاميا لهم من هذه الناحية .

وقتذاك كان الملك القوطي لذريق مشغولا فى إخماد ثورة قام بها البشكنس Vascones فى أقصى شمالى إيبيريا [٢] ، من المحتمل أن تكون ثورة مفتعلة بإيعاز من أعدائه لشغل أنظاره عن عملية نزول المسلمين فى بلاده . وهناك وافته التقارير بأنه : « نزل بأرضنا قوم لا ندرى من السماء نزلوا أم من الأرض نبعوا » [٣] ، « فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك قد حرقوا مراكبهم إياساً فى التعلق بها، وصفوا فى السهل موطنين أنفسهم على ا لثبات، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب » [٤] . ولا شك أن الخبر وقع على لذريق وقوع الصاعقة فاغتم لذلك كثيرا ووجم [٥] ، واضطر أن يسوى أمره مع البشكنس، ثم أقلع من هناك فى عجلة من أمره عائدا إلى الجنوب؛ فتوقف بقرطبة أياما يستجمع قواته وعدته ويأخذ للأمر أهبته [٦] ، مستنفراً كل طاقات مملكته بما فيها خصومه السياسيين من أتباع الملك السابق عليه؛ بحيث جمع جيشاً جراراً اختلفت المصادر [٧] فى تقديره بين ستمائة ألف أو مائة ألف أو سبعين ألف أو حتى أربعين ألف . وجميعها أرقام مبالغ فيها لأنه من غير السهل على دولة منهكة، نخرتها الحرب الأهلية خلال السنوات السابقة، توفير مثل هذا العدد الضخم من الجند؛ وفى ذلك الوقت بالذات حيث طاقاتها مبعثرة وجبهتها الداخلية متصارعة ممزقة . ومع ذلك فكان فى كل الأحوال أضخم بكثير من جيش المسلمين، إذ تشير الروايات أن لذريق نهض يجر أمم الأعاجم

---

(١) ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص ٤٦؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١١٣ . ويشير الإدريسى (نزهة، ص ٥٤٠ ـ ٥٤١) إلى وجود طريقين من الجزيرة الخضراء حتى إشبيلية أحدهما مائى والآخر برى الذى يغلب على الظن أن يكون المسلمون قد سلكوه فى طريقهم إلى قرطبة . وعن قرطبة أنظر : البكرى، جغرافية الأندلس، ص ١٠٠ ـ ١٠١؛ الإدريسى، نزهة، ص ٥٧٤ وما بعدها؛ الحميرى، صفة، ص ١٥٣ وما بعدها؛ ويذكر الهمذانى (البلدان، ليدن ١٩٦٧م، ص ٨٢)، وابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن ١٩٦٧م، ص ٨٩) أن بينها وبين ساحل المحيط مسيرة خمس ليال .

(٢) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٨ ـ ٩؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٣؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٦ .

(٣) المقرى، نفح، ١ ص٢٢٥؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢ص ٥٩ ـ ٦٠؛ عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٢ .

(٤) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٢ ؛ ابن الكردبوس، نفسه، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٥) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٣٩، ٢٤٢؛ أخبار مجموعة، ص ٧؛ الحميرى، صفة،. ص ٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠ .

(٦) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٣٩، ٢٤٠ ؛ ابن الكردبوس، نفسه، ص ٤٧ .

(٧) ابن عبد الحكم، نفسه، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ؛ ابن قتيبة، نفسه، ٢ ص ٦٠؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢١٦، ٢٢٥ ـ ٢٢٦، ٢٤١؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٧؛ الطبرى، نفسه، ٨ ص ٨٢ .

وملوكها وأملاكها وفرسانها؛ ومضى بهم نحو كورة شذونة Sidonia [1] للقاء المسلمين وهو لا يشك في الظفر بهم، بحيث إنه اصطحب معه دوابا تحمل حبالا ليقيد بها أسراهم [2] .

وما أن أدرك لذريق بهذا الجيش الضخم نهر البرباط في وادى لكة، واتخذ مواقعه على ضفته اليمنى الشمالية؛ حتى كان المسلمون قد أطلوا بدورهم على ضفته اليسرى الجنوبية، واتخذوا هم الآخرون مكاناً مناسباً للمعركة المقبلة معه؛ إذ جعلوا من النهر ومن بحيرة لاخندا Laguna de Lajanda حاجزا بينهم وبينه من ناحية، وتركوا الطريق وراءهم إلى قاعدتي طريف والجزيرة الخضراء مفتوحا كي ينسحبوا منه إذا ما اضطرتهم الظروف لذلك من ناحية أخرى .

وفي يوم الأحد ٢٨ من رمضان عام ٩٢ هـ [3] / ١٩ يوليو ٧١١م تلاقى الطرفان في معركة بدأت بمناوشات استمرت عدة أيام [4] ، كان لها أثرها الحاسم في نفسية المقاتلين من كلا الجانبين؛ ففي الوقت الذى كان المسلمون متحمسين للقتال يدفعهم الإيمان إلى الاستبسال، وتتحول في نفوسهم الرهبة من كثرة العدو إلى عزيمة وإصرار على النصر؛ كان جيش القوط يموج بعوامل الحقد والكراهية وعدم الاتفاق وعوامل الخلاف ضد الملك لذريق، وأصبح هدف بعضهم تحقيق المكاسب الشخصية أو الاقتصاص لكل ما عانوه في الماضي .

---

(١) ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٦؛ وتقع كورة شذونة شمال إقليم البحيرة، ومن مدنها شذونة وقرمونة وحصون كثيرة، أنظر: الحميرى، صفة، ص ١٠٠ - ١٠١؛ الإدريسى، نزهة، ص ٥٣٧؛ ابن غالب، تعليق منتقى، ص ٤٩٢ .

(٢) عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٢.

(٣) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٨؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٤٢؛ الحميرى، صفة، ص ١٦٩؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٠٧؛ وإن كان ابن حيان برواية المقرى (١ ص ٢٣٣) يخالف هذا التحديد جاعلاً إياه في السابع من ربيع الأول عام ٩٢هـ فإنه يبرز بنفسه خطأه حينما يشير في صفحة ٢٥٢ بنفس المكان، أن موسى دخل إيبيريا في رمضان ٩٢ هـ متفقا في ذلك مع صاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) وابن عذارى (البيان، ٢ ص ١٢) وصاحب الرسالة الشريفية (ص ٢٠٠) وابن الشباط (وصف، ص ١٠٣، ١١٧) .

ولما كان مؤكدا أن طارق سبق موسى بسنة كاملة (ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٠؛ الحميدى، جذوة، ص ٦؛ المراكشى، المعجب، ص ١١؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨ - ٢٥٩) فيكون من المقبول أن اللقاء بين الجيشين تم في أواخر رمضان وأوائل شعبان، ويكون ابن حيان قد ناقض نفسه .

(٤) قيل يوم أو يومان أو ثلاثة والراجح هو ثمانية، أنظر: ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٨، ٩؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٣؛ الحميرى، نفسه، ص ١٦٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٧ الذى يجعل نهايتها يوم الأحد السابع من شوال عام ٩٢هـ، وبذلك تكون المعركة قد امتدت عشر أيام بتقديره .

ولا شك أن أبناء الملك غيطشة Witiza كانوا أكثر الفئات حقداً على لذريق، رغم أنه استرضاهم وولاهم ميمنة وميسرة جيشه، غير أنهم كانوا قد أجمعوا على الانتقام والغدر به؛ فأرسلوا إلى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعا وخادما لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه، وأنهم غير تاركين حقهم لديه، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء هم ومن يتبعهم، وأن يسلم إليهم ضياع أبيهم؛ فأجابهم طارق إلى ذلك وعاقدهم عليه (١) . أما كبار قواد الجيش فتآمروا ضد لذريق لإسقاطه، اعتقادا منهم أن المسلمين ليسوا سوى مجرد وافدين مقامهم موقوت؛ وأنهم ما جاءوا إلى الأندلس إلا ليملأوا أيديهم من الغنائم ثم يعودوا من حيث أتوا؛ فقال بعضهم لبعض : هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله وإنما كان من سفالنا، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بإيطان بلدنا إنما يريدون ملأ أيديهم بالغنائم ثم يخرجوا عنا، فانهزم بنا بابن الخبيثة إذا لقينا القوم (٢) . وهكذا أجمعوا على خذلان لذريق فى المعركة الفاصلة؛ وتكون قد تجمعت عوامل الهزيمة على القوط رغم كثرة أعداد جيشهم، وعوامل النصر لدى المسلمين رغم قلة أعدادهم .

وهناك اتفاق بين مؤرخى المسلمين الأوائل على أن المعركة الفاصلة التى دارت بين جيشى المسلمين والقوط حدثت فى إقليم شذونة بأقصى جنوب غربى إيبيريا، وأنها دامت ثمانية أيام من يوم الأحد ٢٨ من رمضان إلى يوم الأحد التالى الخامس من شوال ٩٢ هـ/١٩ ـ ٢٦ يوليو ٧١١م ، وأن القتال اشتد فيها حتى ظن المقاتلون من الجانبين أنه الفناء (٣) ؛ إلى أن دارت الدائرة فيه على القوط فانهزموا هزيمة ساحقة، إذ تراجع جناحا لذريق وفقا للخطة المرسومة، ونكص عدد كبير من قواده فانكشف قلب جيشه وانهار خط دفاعه؛ فأذرع المسلمون فيه بالقتل ولم يرفعوا السيف عنه ثلاثة أيام كاملة، جرت فيها معارك طاحنة لم يكن بالمغرب أعظم منها، قتل المسلمون خلالها من القوط خلقاً عظيماً؛ أقامت عظامهم بأرض المعركة دهراً طويلاً، وكان المسلمون يتعرفون على كبارهم بخواتم الذهب التى يجدونها فى أصابعهم، وعلى من دونهم بخواتم الفضة، فى حين كانوا يميزون العبيد منهم بخواتم النحاس (٤) . أما الملك لذريق فاختلفت الروايات بشأنه، فمنها من ذكر أنه رمى نفسه فى الوادى فغرق وغاب شخصه ولم يعثر له أحد على أثر أو يدرى ما آل إليه

(١) المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨ .

(٢) أنظر : أعلاه، ١ ص ٢٥٧ .

(٣) أنظر : ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٧؛ ابن عبد الحكم، نفسه، ص ٢٠٨؛ عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٢ .

(٤) قارن : المقرى، نفح، ١ ص ٢٤٣؛ الحميرى، صفة، ص ١٦٩ ـ ١٧٠؛ ابن الأبار، الحلة، ١ ص ٣٣٣ .

مصيره[١]؛ بينما ذهبت أخرى إلى أنه سقط صريعا فى أرض المعركة [٢] ؛ أو أنه أفلت منها [٣] وهو ما تؤيده الروايات الإسبانية لأنها حددت تاريخ وفاته فيما بعد هذه المعركة بما يزيد عن عامين وبالتحديد فى الثالث عشر من نوفمبر عام ٧١٣م [٤] (١٩ صفر عام ٩٥ هـ) .

لكن إذا كانت المصادر الإسلامية والإسبانية قد اتفقت على وقوع تلك المعركة فى إقليم شذونة، فإنها اختلفت فيما بينها حول المكان الذى دارت فيه بنواحى هذا الإقليم الواسع [٥] ، فهى برأى بعضها وقعت فى شمالى الإقليم عند وادى ليط ، لكة ، Guadalete أو مدينة شريش، وبرأى بعضها الآخر حدثت فى جنوبه عند بحيرة لاخندا ووادى البرباط Barbate الذى يخترقها، فى حين تصر ثالثة على أنها حدثت فى مكان وسط بين المكانين السابقين وبالتحديد عند نهر سلادو Slado . ومع كل هذا الاختلاف فإن بعض المؤرخين الحديثين يرون أن المعركة التى توقف عليها مصير إيبيريا كانت أكبر وأعظم من أن تحدد بمثل هذه الأماكن المحدودة الضيقة؛ لأنها كانت واسعة النطاق بدأت طلائعها منذ نزول المسلمين أراضى إيبيريا، وما حشده لها ملك القوط من مال ورجال وعتاد لدرجة روعت طارق وأزعجته وجعلته يطلب النجدة من موسى؛ وأن معركة بهذه الحشود الضخمة وتلك المدة الطويلة فى صراع ومتابعة لم يقتصر رحاها على جنوب الإقليم أو شماله أو وسطه؛ وإنما شملت أنحاءه فهى معركة الإقليم بأسره؛ وبالتالى فإن ما ورد فى المصادر من تسميات مختلفة لها ما هى إلا تسميات لتلك الأماكن المتعددة التى دارت وتشعبت عندها فى أراضى هذا الإقليم[٦] .

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٣٤؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٢؛ أخبار مجموعة، ص ٩؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٩ .

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٧؛ ابن قتيبة، الإمامة، ٢ ص ٦٠؛ الحميرى، صفة، ص ١٩٤؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٢٧ .

(٣) قارن : ابن الشباط، وصف، ص ١٠٧ ؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص ٤٨ ؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧. ويؤيد هذا الرأى كل من : أحمد مختار، نصان جديدان، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد ١٣ ، ص ٣٣؛ Saavedra, Estudio, p 100

(٤) Cron. Rotense, ed Moreno, p 612; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 386; Cron. Profetica, ed. Moreno, p 625؛ ولمناقشة آرائهم أنظر : Danham, The History of Spain, London 1832, 1p 331 Sqq .

(٥) قارن : ابن عبد الحكم، نفسه، ص ٢٠٦ ؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٨؛ المقرى، ١ ص ٢٣٣، ٢٤٢؛ ابن الأثير، نفسه، ٤ ص ٢٣٠ ؛ ابن الأبار، نفسه، ٢ ص ٣٣٣؛ أخبار مجموعة، ص ٨؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٧ ؛ ابن القوطية، نفسه، ص ٣٢؛ وأنظر الخريطة .

(٦) أنظر المناقشة القيمة لهذا التحديد عند : أحمد مختار، نصان جديدان، ص ٣٢ ـ ٤٠؛ Sanchez Albornoz, Otra Vez de Guadalete y Covadonga, CHE 1944, 1 - 2 p 13 Sqq .

ولا شك أن معركة شذونة هذه كانت بداية نهاية دولة القوط؛ فقد أثبتت مدى تعثر حكامها وارتباكهم وعجزهم عن اتخاذ قرار إزاء النتائج التى أسفرت عنها المعركة؛ وتشتت فلول جيشهم ففرت إلى القلاع والحصون المجاورة؛ وبات من المستحيل إمكانية قيامهم بمحاولة جديدة على مستوى التصدى الذى قام به لذريق؛ وامتدت آثار المعركة إلى السكان فأحدثت بينهم هلعا بالغاً دفعهم إلى التهارب من السهول واللجوء إلى الجبال يتحصنون بها [١] ؛ فاضطربت على وجه الإجمال شئون البلاد حتى إنه على حد تعبير مؤرخ إسلامى لم تقف هزيمة القوط بعد ذلك على موضع، وكانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً [٢] .

أما بالنسبة للمسلمين فكانت المعركة البوابة الواسعة التى دخلوا منها ليرسخوا أقدامهم في البلاد خلال القرون التالية، ولكم كان موسى بن نصير معبراً فى تقريره الذى أرسله إلى الخليفة بدمشق يصف عظمة هذه المعركة بقوله : إنها ليست الفتوح ولكنها الحشر [٣] . وكان مصيبا أيضاً فى تصوراته إلى حد كبير، فالارتباك الذى أصاب مقاتلى القوط، والذعر الذى عم مملكتهم، أتاحا لطارق أن يعمل بسرعة دون أن يفقد أية فرصة كى لا يتيح للجيش القوطى فرصة للتجمع . وبدأ ما يمكن أن يسمى بحرب المدن؛ إذ أقبلت الجموع الإسلامية على مدينة شذونة وفتحتها عنوة [٤]، ولم يجد امتناع أهلها عليهم شيئاً؛ وبعدها قصدت مدينتى المدور Almodovar وقرمونة Carmona [٥] تقتل وتغنم حتى قذف الله الرعب فى قلوب القوط، الذين لم يلتفت أحد منهم إلى شيء سوى الهرب والفرار [٦] ؛ مما سهل على المسلمين إدراك مدينة إشبيلية Sevilla فصالحوا أهلها على دفع الجزية [٧] ؛ ثم نازلوا حامية مدينة

---

(١) المقرى عن الرازى، نفح، ١ ص ٢٤٣ .

(٢) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٢٧ .

(٣) المقرى عن ابن حيان، نفسه، ١ ص ٢٨٥ .

(٤) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٣؛ ابن الشباط، وصف، ص ١٠٧ . وعن مدينة شذونة أنظر: ابن الشباط، نفس الصفحة والمكان؛ ياقوت، معجم، ٥ ص ٢٤٤ .

(٥) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٣؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٩ . والمدور حصن مشهور قرب قرطبة، أنظر عنها : ياقوت، معجم، ٧ ص ٤١٧؛ ومحتمل أن تكون موررور حسبما يشير ابن الشباط .

(٦) ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٩ .

(٧) ابن الشباط، نفسه، ١١٠، ١١٢؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٣ . وإشبلية مدينة قديمة غرب قرطبة ولها أسوار حصينة وهى على الضفة الشرقية للوادى الكبير أنظر : الحميرى، صفة، ص ١٨ - ٢٢؛ الإدريسى، نزهة، ٥٤١؛ البكرى، جغرافية الأندلس، ص ١٠٧ - ١٠٨، ١٠٩ - ١١١؛ المراكشى، المعجب، ص ٢٧٣ - ٢٧٤؛ وعن كورة شذونة أنظر : ابن غالب، تعليق ملتقى، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

استجة Ecija وكانت قد تجمعت فيها فلول الجيش القوطى لمناعتها وحصانة أسوارها، وصارت تؤلف مركزا للمقاومة القوطية؛ فأقام المسلمون على حصارها أشهرا لقوا فيها مقاومة عنيفة حتى كثر القتل والجراح بينهم بصورة لم يعهدوها من بعد [١]، لكن ما أن ظفر طارق بحاكم المدينة حتى أجبره على الصلح وأداء الجزية ودخل المسلمون المدينة [٢].

عند ذلك أيقن سكان البلاد وقوطها أن المسلمين يبغون الاستيلاء على البلاد، وكانوا يعتقدون أنهم يرغبون فى الغنيمة فقط ثم القفول من حيث أتوا؛ فأسقط فى أيديهم واضطربوا وتهارب ذوو القوة منهم إلى العاصمة طليطلة Tolédo، فى حين لجأ معظم الأهالى إلى المعاقل تاركين وراءهم مدنهم قليلة الأهل [٣]. وبذلك انفتح الطريق إلى طليطلة أمام المسلمين الذين تكاثرت أعدادهم بمن وفد عليهم من المغرب بعد ما تسامعوا بانتصاراتهم [٤]؛ فعمل طارق على تفريقهم من استجة فى بعوث جانبية، بينما أعد هو عدته للسير إلى العاصمة طليطلة [٥].

أرسل طارق مغيث الرومى [٦] - مولى الوليد بن عبد الملك - على رأس فرقة إلى مدينة قرطبة [٧] Cordoba، لكن عظماءها القوط فروا منها إلى طليطلة قبل

---

(١) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ أخبار مجموعة، ص ٩؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠ . واستجة مدينة قديمة إحدى مدن إقليم الكنبانية وتقع على نهر شديل إلى الجنوب الغربى من قرطبة، وبينهما عشر فراسخ، أنظر : الحميرى، صفة، ص ١٤ - ١٥، ابن غالب، تعليق ملتقى، ص ٢٩٥؛ الإدريسى، نزهة، ص ٥٣٧، ٥٧٢ .

(٢) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٤؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١١٣ .

(٣) أنظر : المقرى، أعلاه، أخبار مجموعة، ص ٩؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٨ - ٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٠ - ٢٣١ . وطليطلة من مشاهير مدن الأندلس، وعنها أنظر : ابن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول، ط٢، ليدن ١٩٦٧م، ص ١١٠، الاصطخرى، مسالك الممالك، ليدن ١٩٦٧م، ص ٤١ - ٤٢، اليعقوبى، البلدان، ليدن ١٩٦٧م، ص ٣٥٥ .

(٤) المقرى، نفسه، ص ٢٤٣؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص ٤٨ .

(٥) المقرى، أعلاه، ص ٢٤٤؛ أخبار مجموعة، ص ١٠؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩؛ ابن الأثير، نفسه، ٤ ص ٢٣١؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١ ص ١٠٦ - ١٠٧؛ ابن الكردبوس، نفسه، ص ٤٨، الذى يشير أن عسكر المسلمين انتشروا فى الجزيرة يميناً وشمالاً .

(٦) عنه أنظر : الضبى، بغية الملتمس، ص ٤٦١ رقم ١٣٨٧؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٣٣٣ رقم ٨٣٤ وذكره باسم معتب مثل ابن عبد الحكم (فتوح، ص ٢٠٧) . وسيلمع أحفاد مغيث هذا فى ميدان السياسة والقيادة والحرب فى فترة الدولة الأموية، أى منذ عام ١٣٨ هـ فصاعدا، أنظر : الحجى، التاريخ الأندلسى، ط١، دمشق ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٧) أنظر : ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١ ص ١١٠٧؛ وإن كان ابن الشباط يشير أن طارقا هو الذى تقدم إلى قرطبة، أنظر : وصف الأندلس، ص ١١٣، وانظر أيضاً : المقرى، نفح، ١ ص ٢٤٤ . وعن مناقشة ذلك بتفصيل، أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 1pp 425 - 426 . الذى لا يوافق على رأيى ابن الشباط والرازى . وعن فتح قرطبة بتفصيل أنظر : ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٩ - ١٠؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٧؛ أخبار مجموعة، ص ١٠ - ١١٤؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١١٥ - ١١٦ .

وصول مغيث إليها؛ ولم يبق فيها إلا أربعمائة فارس مع ضعفاء أهلها [١] ، فسهل على مغيث فتحها وأسر حاكمها الذى لم يؤسر من حكام الأندلس غيره؛ إذ منهم من عقد لنفسه أمانا ومنهم من هرب إلى أقصى شمالى البلاد [٢] .

وفى ذات الوقت كان قد أمضى طارق بعثين آخرين إلى جنوب شرقى شبه الجزيرة أولهما إلى مدينة مالقة [٣] Malaga، وثانيهما إلى إلبيرة [٤] Elvira وتدمير[٥] Tudmir . ويفهم من روايات بعض مؤرخى المسلمين [٦] أن البعثين قد نجحا فى فتح هذه المدن آنذاك، إلا أن الراجح أن فتحها لم يتم إلا فيما بعد على يد عبد العزيز بن موسى خلال عام ٩٤ هـ/ ٧١٣م [٧] ، وأن البعثين كانا للاستطلاع فقط [٨] .

أما طارق فكان قد اتجه بمعظم جيشه فى اتجاه الشمال قاصدا مدينة طليطلة[٩]، التى احتشد فيها الهاربون من النبلاء القوط - حكام المدن التى استولى

---

(١) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥؛ أخبار مجموعة، ص ١٠؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠ . وبين قرطبة وطليطلة عشرون ليلة؛ أنظر : الهمذانى، كتاب البلدان، ص ٨٢؛ ويجعلها الاصطخرى (مسالك الممالك، ص ٤٦) والمقدسى (أحسن التقاسيم، ط ٢، ليدن ١٩٦٧م، ص ٢٤٧) تسعة أيام .

(٢) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٦؛ أخبار مجموعة، ص ١٤؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠ .

(٣) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٤، ٢٤٧؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١١؛ ابن الأثير، نفسه، ٤ ص ٢٣١؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١ ص ١٠٧ . وعن المدينة أنظر : الإدريسى، نزهة، ص ٥٣٧، ٥٧٠ - ٥٧١؛ المقرى، نفسه، ١ ص ١٤٥؛ الحميرى، صفة، ص ١٧٧ - ١٧٩؛ ياقوت، معجم، ٧ ص ٣٦٧، ويجعل المقدسى مسافة ما بينها وبين استجة سبعة أيام، أنظر : أحسن التقاسيم، ص ٢٤٨ .

(٤) أنظر : أخبار مجموعة، ص ١٠؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٤؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١ . والبيرة قد يطلق عليها أيضاً بلبيرة أو لبيرة، وهى كورة كبيرة جنوب شرق قرطبة وبينهما تسعون ميلا، قارن : الحميرى، صفة، ص ٢٩ - ٣٠؛ الإدريسى، نزهة، ص ٢٣٧؛ ياقوت، معجم، ١ ص ٣٢٢؛ ابن غالب، تطيق ملتقى، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٥) عن فتحها بتفصيل أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨؛ أخبار مجموعة، ص ١٢ - ١٣ . وكانت تدمير تسمى قبلا أوريولة ثم عرفت بمرسية، قارن : الحميرى، نفسه، ص ٦٢ - ٦٣، ١٥١ - ١٥٢، ١٨١ - ١٨٣؛ ياقوت، معجم، ١ ص ٣٧٣، ٨ص ٢٤ - ٢٥؛ ابن غالب، نفسه، ٢٨٤ - ٢٨٥؛ الإدريسى، نزهة، ١٧٧ - ١٧٨ (طبعة ١٥٩٢م) .

(٦) أنظر : ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٩ - ١١؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٧؛ أخبار مجموعة، ص ١٠ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١ .

(٧) أنظر : ابن الخطيب، الإحاطة، ١ ص ١٠٧ .

(٨) أنظر : مؤنس، فجر، ص ٧٧؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين ص ٨٣؛ Sanchez Albornoz, Itinerario, CHE 1948, 10 pp 34 - 35 .

(٩) أنظر : ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٧؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٤؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص ٤٨ .

عليها المسلمون - ليتدبروا هناك أمرهم؛ على أنهم ما أن وصلوها حتى استبان لهم ضآلة قوتهم وعدتهم إذا ما قيست بما عليه المسلمون من قوة كانوا قد عاينوها بأنفسهم وخبروها . هذا فضلاً عن أن أنباء تساقط المدن الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المسلمين، وما تتوقل على الألسن حينذاك أنهم من أكلة لحوم البشر [١] ؛ قد زاد فى ارتباك هؤلاء النبلاء القوط، وأيقنوا أنهم ليسوا أقوياء بدرجة كافية ليواجهوا ضغطا قويا كضغط المسلمين، الذين كانوا وقتذاك جادين فى السير نحو طليطلة؛ فأسقط فى أيديهم وأدركوا ألا أمل لهم فى دفاع أو مقاومة وبدأت فكرة الهرب إلى مكان آخر آمن تراودهم، فتسارعوا قبل أن تدركهم القوات الإسلامية إلى مدينة خلف الجبل [٢]، ومنها اتخذوا طريقهم إلى أشتوريس Asturias [٣] بالشمال . بحيث أنه عندما وصل المسلمون إلى طليطلة وجدوها خالية ليس فيها إلا اليهود فى قوم قلة فدخلوها دون مقاومة تذكر [٤] ؛ وتركوا بعض جندهم مع يهودها لحراستها، ثم انطلقوا وراء الفارين يتتبعونهم فسلكوا وراءهم إلى مدينة وادى الحجارة [٥] Guadalajara ، حتى أدركوا

---

(١) كان طارق قد عمد إلى خدعة لإرهاب الإسبان، فتشير المصادر إلى أنه عندما نزل بالجزيرة الخضراء وجد بها كرامين ولم يكن بها غيرهم فأخذهم ثم عمد إلى رجل منهم فذبحه وطبخه ومن بقى من أصحابه ينظرون، ولم يشكوا حينئذ أن المسلمين يأكلون لحوم الناس وقصوا عليهم قصة الكرام، أنظر : ابن عبد الحكم، فتوح ص ٢٠٦ . أما الكرديوس (الاكتفاء، ص ٤٧ - ٤٨) فيورد القصة فى شىء من الاختلاف وأن حافظ على المغزى، قائلا إن لذريق أرسل جاسوسا ليعاين صفات المسلمين وهيأتهم، وتمكن الجاسوس من دخول معسكر المسلمين فلما أحس به طارق أمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ، ولم يشك رسول لذريق حينذاك أنهم يأكلونها، فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها، وذبح بقرا وغنما وجعل لحومها فى القدور، فلما أصبح الناس ونودى فيهم بالاجتماع إلى الطعام أكلوا ورسول لذريق يأكل معهم، فلما فرغوا انصرف رسول لذريق وقال له أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم . وانظر أيضاً : ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٤ - ٣٥؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٤٤ .

(٢) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٤٨؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٢ .

(٣) Chron. Sebastiani, ed. Florez, pp 478 - 479; Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 62 .

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٧؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٣٤؛ ابن الكرديوس، الاكتفاء، ص ٤٨؛ المسعودى، مروج الذهب، ط٢، القاهرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، ١ ص ١٦١؛ وإن كان يفهم من روايات الطبرى (تاريخ الأمم، ٨ ص ٩٠)، وابن عبد الحكم (نفسه، ص ٢٠٨)، وابن الشباط (وصف الأندلس، ص ١٠٢)، أن فتحها لم يتم إلا بعد ما دخل موسى إيبيريا عام ٩٣هـ، وأنه أمر طارق بالتوجه إليها ففتحها .

(٥) تقع فى إقليم الشارات وبينها وبين قرطبة خمسة وستون ميلا، وهى من مشاهير المدن القديمة أنظر : الحميرى، صفة، ص ١٩٣؛ الإدريسى، نزهة، ص ٥٥٣؛ ابن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول، ص ١١٠ .

مدينة المائدة ففتحوها [١] ، وهى المدينة التى وجد فيها طارق المائدة المعروفة عند مؤرخى العرب بمائدة سليمان، التى كانت مذبحا لكنيسة طليطلة [٢] .

وهنا اختلف مؤرخو المسلمين فيما بينهم عن تحركات طارق، هل عاد مباشرة من مدينة المائدة إلى طليطلة [٣] ؛ أم أنه لم يرجع إلى هذه الأخيرة إلا بعد ما بلغ مدينة أماية [٤] Amaya فى منطقة برغش Burgos بإقليم كنتبرية فى شمالى شبه الجزيرة؛ أم أنه واصل تقدمه من مدينة أماية حتى وصل مدينة أستورقة Asturica Augusta بأشتوريس ففتحها، واستقر بها حتى وافاه موسى فيها فيما بعد [٥] ؛ أو أنه عاد من هذه الأخيرة إلى طليطلة [٦] أو إلى قرطبة [٧] حتى جاز موسى إلى إيبيريا فى عام ٩٣ هـ/ ٧١٢م فوجده بها [٨] .

وقد استبعد بعض المؤرخين الحديثين أن يكون طارق قد وصل آنذاك إلى أماية بكنتبرية أو إلى أستورقة بأشتوريس، إذ يرون أن الجهد قد نال من جنده وبخاصة أنهم كانوا مثقلين بالغنائم؛ فى الوقت الذى كان على طارق أن يقضى الشتاء فى طليطلة حيث كان قد أقبل الخريف ببرده [٩] . ونضيف أن طارق ما كان

---

(١) أنظر : ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٢؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٨؛ الحميرى وغيره، صفة، ص ١٣٢، ١٣٤، ١٧٩؛ أخبار مجموعة، ص ١٤؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١؛ الرسالة الشريفية، ص ١٩٧، وقد أجمل ابن الكردبوس (الاكتفاء، ص ٤٨) ذلك قائلاً : ومضى طارق على وجهه إلى طليطلة فافتتحها وما وراءها . ويعتقد البعض أن هذه المدينة تقع على مقربة من قلعة هنارس Alcala de Henares أو أنها هى نفسها، وهى التى يسميها ابن عبد الحكم بقلعة فراس (أنظر : فتوح، ص ٢٠٧)، وعن المدينة، أنظر : الحميرى، صفة، ص ١٧٩ .

(٢) عن وصفها أنظر : الحميرى، نفسه، ص ١٣١ وما بعدها .

(٣) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٢ س ٩؛ الرسالة الشريفية، ص ١٩٨ .

(٤) أنظر : أخبار مجموعة، ص ١٥؛ المقرى عن ابن حيان، نفسه، ١ ص ٢٤٨ س ٩ - ١٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١ .

(٥) ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٥؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٣ س ٢٠ .

(٦) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٨ س ١٠ - ١١؛ الحميرى، صفة، ص ١٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١؛ الرسالة الشريفية، ص ١٩٨؛ أما عنان (دولة الإسلام، ص ٥١) فيذهب أبعد من ذلك ويقرر أن طارق قد استرسل فى التقدم حتى أشرف على مدينة خيخون على خليج كنتبرية فى أقصى شمال شبه الجزيرة.

(٧) ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص ٤٩ .

(٨) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٢ س ١٠؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٧ .

(٩) أنظر : Saavedra, Estudio, pp 80 - 81 ؛ مؤنس، فجر، ص ٧٩ - ٨٠؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٨٤؛ وانظر مناقشة Sanchez Albornoz لمدى ما وصل إليه طارق فى مقاله : Itinerario, op cit, p 37 Sqq .

يستطيع أن يسترسل فى السير خلف مدينة المائدة فى الوقت الذى كان يعلم فيه أنه قد خلف وراءه الملك القوطى لذريق، الذى لم يكن يقنع بما حاق به من هزائم دون أن يعمل على الانتقام من المسلمين واسترجاع عاصمته طليطلة منهم؛ وكان طارق يدرك أن ابتعاده عن طليطلة يعنى تسهيل هذه المهمة للذريق . ثم إن هدف طارق وقتذاك لم يكن تتبع الفارين بعد أن حصروا أنفسهم فى أشتوريس بالشمال، بقدر ما كان يكمن فى ضرورة تصفية مراكز المقاومة فى مناطق البلدان التى فتحها، أو التى لم يكن قد أتم فتحها بعد فى منطقة غربى إيبيريا الوعرة؛ وكانت إقامته فى طليطلة وليس فى قرطبة أمرا ضرورياً لتحقيق هذا الهدف عن طريق معاونته لموسى بن نصير- عندما يعبر إلى إيبيريا- فى حصر هذه المقاومة وتشتيت جهدها وإضعاف قواها؛ فضلا عن أن تواجده فى طليطلة يساعده فى حجز الفارين إلى أشتوريس دون تمكينهم من العودة إلى تهديد هذه العاصمة . ولذلك نلاحظ أن طارق لم يسارع إلى لقاء موسى إلا بعد ما كان قد قضى الأخير على معظم المقاومة القرطية بغربى البلاد واقترب من العاصمة طليطلة . ومن ثم نعتقد أن الأمر قد اختلط على بعض المؤرخين المسلمين حينما جعلوا تقدم طارق إلى مدينتى أماية وأستورقة كان فى أعقاب استيلائه على مدينة المائدة مباشرة [1] ؛ ونرجح أن تقدمه إليهما لم يتم إلا فيما بعد عبور موسى إلى إيبيريا، حيث تعاونا سويا فى فتح منطقة الشمال الإيبيرى، وأن تقدم طارق خلف مدينة طليطلة - الذى وصل فيه حتى الحافة الجنوبية لجبال كنتبرية - كان فقط اختبارا لحالة شمالى إيبيريا تمهيدا لفتحه؛ ثم عاد إلى طليطلة ليدرس خطة المرحلة التالية من الفتح فى ضوء ما يستجد من تعليمات موسى والى المغرب . وهكذا ففى أقل من عام بقليل كانت السيادة الإسلامية تزرع أقدامها بثبات فى أرض إيبيريا بعدما أطاحت بنظام القوط المتداعى .

ومع ذلك فقد أدرك موسى خطورة الانتشار الواسع لقوات طارق دون تغطية عسكرية كافية، لا سيما وأن أعمال طارق اقتصرت حتى ذلك الحين على الأقاليم الوسطى من إيبيريا، بينما ظلت أقاليم الغرب والشرق والجنوب الشرقى غير محسومة من الناحية العسكرية . ولذا قرر موسى أن يكون على أرض المعركة بنفسه، ليتمكن من اتخاذ القرارات الحاسمة فى الوقت الملائم، ومراقبة سير العمليات الحربية . فبادر

---

(١) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٤٨؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٥؛ أخبار مجموعة، ص ١٥؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١ .

إلى العبور إليها فى رمضان من عام ٩٣هـ [١] (يونيو ٧٢١م)، فى جيش عربى كثيف قوامه ثمانية عشر ألف جندى، بهدف تكثيف القوة المقاتلة، لتأمين فتوحات طارق، فضلا عن متابعة الفتح الذى بدأه هذا الأخير [٢].

وفى مدينة الجزيرة الخضراء اتخذ موسى بعض الإجراءات التنظيمية، حيث وزع المهام على قواده، وعقد اجتماعا مع يوليان - حاكم سبتة - ناقش فيه تطورات الحرب وتقييم نتائج حملة طارق، والظروف المستجدة بعد دخوله بالقوة الجديدة . ولعل يوليان زوده بالمعلومات اللآزمة عن المعاقل الهامة فى المناطق التى لا زالت خارج نطاق السيادة الإسلامية؛ فضلا عن مناقشة أى الطرق التى سيسلكها؛ وكان قرار السير فى طريق لم تمر عليه أقدام إسلامية هو القرار البديهى من وجهة النظر العسكرية . ومن هنا كان قرار التحرك من الجزيرة الخضراء فى اتجاه غربى إلى مدينة إشبيلية لغزو غربى إيبيريا حتى أقصاه [٣] ؛ بهدف إحكام السيطرة على هذه المنطقة أولا، لا سيما وأنها هى مأوى معظم الفلول الهاربة من الجيش القوطى وعلى رأسهم لذريق .

تقدمت القوات الإسلامية إلى إشبيلية وأخضعت فى الطريق إليها مدينة شذونة بعد ما فتحتها عنوة، ثم مضت بعدها إلى قلعة رعواق (وادى إيرة) Alcala de Guadaira فاستولت عليها؛ ومنها سارت إلى مدينة قرمونة التى كان طارق قد فتحها من قبل ولكنها خرجت عن الطاعة مثل مدينة شذونة؛ ولما كانت المدينة منيعة حصينة لذا استخدم موسى الخدعة فى فتحها، بأن أرسل إليها جندا على هيئة المنهزمين ومعهم السلاح؛ فلما فتح لهم أهل المدينة الأبواب وأدخلوهم، أرسل إليهم الخيل ليلا ففتحوا باب المدينة ووثبوا على الحراس فقتلوهم، وبذلك سيطر المسلمون على قرمونة [٤] ؛ وتم لهم السيطرة على المراكز الدفاعية الأمامية لمدينة إشبيلية،

(١) أنظر : الرسالة الشريفية، ص ٢٠٠؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٢؛ أخبار مجموعة، ص ١٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٢، ١٣؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١ . وإذا كان البعض قد أشار أنه نهض من إفريقية إليها فى رجب من عام ٩٣هـ، فيكون دخوله إليها فى رمضان أمراً معقولاً، أنظر : ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٧؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٩؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٣٤؛ المراكشى، المعجب، ص ١١؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص٥؛ عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٣ . وقد أكد البعض أن دخوله إيبيريا كان بعد عام من دخول طارق إليها، أنظر : ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٢؛ عبد الملك بن حبيب، ص ٢٣١ .

(٢) وعن مناقشة أسباب عبور موسى وموقفه من طارق راجع : محمد عبد الحميد ، الفتح الإسلامى للأندلس، القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٣٠ - ١٣١، ١٣٧ - ١٤٢.

(٣) الرسالة الشريفية عن الرازى، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٤) بتفصيل أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٢؛ أخبار مجموعة، ص ١٥ - ١٦؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٣؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٥ .

فتقدموا إليها وحاصروها حصارا شديداً، ولكنها امتنعت عليهم أشهرا حتى سقطت بفضل مساعدة أسقفها أوباس Oppas وجاليتها اليهودية، بعدما هرب رجال حاميتها إلى مدينة باجة [١] Beja المجاورة .

ثم واصل المسلمون تقدمهم حتى مدينة ماردة [٢] Augusta Emerita (Mérida) وكان قد احتشد فيها بقايا القوط وأنصار الملك لذريق لمناعتها وحصانتها ووعورة المسالك إليها، فتصدوا للمسلمين فيها وقاتلوهم قتالا شديدا، وأبدوا فى الدفاع عنها مقاومة عنيفة [٣] شغلت المسلمين بحصارهم أشهرا عديدة، وشجعت فلول القوط الملتجئة فى مدينتى لبلة [٤] Niebla وباجة على انتهاز الفرصة لمحاولة قطع الطريق على القوات الإسلامية؛ فتقدمت حتى دخلت إشبيلية ثانية وشدت من أزرها؛ وانقضوا سويا على الحامية الإسلامية - التى كان قد خلفها موسى بها - وقتلوا معظمها فى حين فر الباقون إلى موسى [٥] ، الذى ما أن صالح أهل ماردة على أن تكون أموال كنائسهم وقتلاهم والهاربين إلى ولاية جليقية ملكا للمسلمين، ودخل المدينة يوم عيد الفطر عام ٩٤هـ [٦] / ٣٠ يونيو ٧١٣م؛ حتى بادر بإرسال ابنه عبد العزيز - الذى كان قد فرغ لتوه من فتح تدمير بجنوب شرقى شبه الجزيرة، حسبما يدل عليه تاريخ عقد الأمان

(١) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٤؛ أخبار مجموعة، ص ١٦ . وباجة من أقدم مدائن الأندلس، بينها وبين قرطبة مائة فرسخ، ولها معاقل وحصون منيعة حصينة، أنظر : ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١١٨؛ الحميرى، صفة، ص ٣٦ - ٣٧؛ ابن غالب، تعليق منتقى، ص ٢٩٠ . وقد جعلها اليعقوبى إلى الغرب من مدينة لبلة، أنظر : البلدان، ص ٣٥٤ .

(٢) أنظر : ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٥؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٢؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١١٨ . وماردة شمال غرب قرطبة لها سور حصين، أنظر : الحميرى، نفسه، ص ١٧٥ - ١٧٧؛ الإدريسى، نزهة، ص ٥٤٥ - ٥٤٦؛ ياقوت، معجم، ٧ ص ٣٦٠؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١١٩؛ ابن غالب، تعليق منتقى، ص ٢٩٠؛ الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ٤٣؛ اليعقوبى، البلدان، ص ٣٥٤ .

(٣) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣؛ أخبار مجموعة، ص ١٦ - ١٨؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٤ - ١٥؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١؛ مجهول، فتح الأندلس، تحقيق خواكين جونثالث، الجزائر ١٨٨٩م، ص ١٣ .

(٤) مدينة قديمة فى غرب الأندلس ولها سور منيع، ومنها إلى المحيط الأطلسى ستة أميال، وتعرف بالحمراء، أنظر : الحميرى، صفة، ص ١٦٨ - ١٦٩؛ ابن غالب، تعليق منتقى، ص ٢٩١ - ٢٩٢؛ العذرى، نصوص، ص ١١٠ - ١١١ .

(٥) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٣؛ أخبار مجموعة، ص ١٨؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٥ .

(٦) أنظر : أخبار مجموعة، ص ١٧، ١٨؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٥؛ المقرى، نفسه ١ ص ٢٥٣؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٢٠؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٥، وإن جعله Casiri عام ٩٣هـ، أنظر : Bibliotheca, 2p 322 .

الذى منحه لأهلها [١] - لإخماد ما كان قد أطل بإشبيلية من مقاومة [٢] تعتبر أول بادرة لردة فعل إسبانية ضد السيادة الإسلامية تقوم بها فلول القوط المهزومة مستغلة ضعف حاميتها الإسلامية .

نجح عبد العزيز فى فتح إشبيلية ثانية وقبض على الثوار والمتمردين وقتلهم، ثم عاد إلى حيث أبيه فى ماردة [٣] ؛ وقيل إنه تقدم حتى لبلة [٤] أو باجة [٥] فدخلهما وأنهى كل أثر للمقاومة هناك، واحتاط للأمر فترك بهما حاميات عسكرية لتأمينهما فيما لو عاد القوط إلى تدبير آخر؛ فاستقامت أمور هذه النواحى الغربية واستقرت ثم عاد عبد العزيز إلى إشبيلية [٦] ، حيث يعتقد المؤرخ الإسبانى سابدرا Saavedra [٧] أن موسى تركه بها ليقضى على ما قد يظهر فى نواحيها من مقاومة .

ولعل انقضاء عام كامل على موسى وقواته بالجنوب الإيبيرى، حتى تلك اللحظة من عام ٩٤هـ/ ٧١٣م، يدل على عظم المقاومة القوطية التى صادفتهم وعلى الجهد الكبير الذى بذلوه للتغلب عليها؛ الأمر الذى حدا بموسى أن يريح جنده بمدينة ماردة شهراً كاملا بعد دخولها، استعدادا لمتابعة الفتح وتطهير بقية غربى شبه الجزيرة من بقايا القوط التى أخذت فلولها - وعلى رأسها هذه المرة الملك القوطى لذريق وبقايا جيشه المنهزم - تفد إلى المنطقة التى تلى شمال وادى آنة؛ حيث تحصنت بشعاب الهضبة وجبالها، وأقامت هناك إما لاعتقادها أن جيوش المسلمين لن تصل إليها فى هذه المنطقة الجبلية الوعرة، وإما انتظارا للوثوب عليها وعرقلة تقدمها، أو استعدادا للهرب إلى أشتوريس بشمالى البلاد للحاق بزملائهم إذا ما فشلت خطتها فى أن تنال من المسلمين .

ويغلب على الظن أن موسى قد عرف أمر هذا التجمع القوطى الذى يعترض مسيرته فى غربى إيبيريا، فأقدم حينذاك على استدعاء طارق من طليطلة ليقابله فى الطريق، حتى يعاونه فى مواجهة هذا التجمع القوطى والقضاء عليه؛ فاستجاب طارق

---

(١) بتاريخ ٤ رجب عام ٩٤هـ، وعن نصه أنظر : العذرى، نصوص، ص ٤ - ٥؛ الضبى، بغية الملتمس، ص ٢٥٩؛ الحميرى، صفة، ص ٦٢ - ٦٣؛ Casiri, op. cit., 1pp 105 - 106

(٢) Saavedra, Estudio, p 97; The Camb. Med. Hist., 2p 186 .

(٣) أنظر : أخبار مجموعة، ص ١٨ .

(٤) أنظر : المقرى، نفح، ١ص ٢٥٣؛ ابن عذارى، البيان، ٢ص ١٥ .

(٥) أنظر : ابن الأثير، الكامل، ٤ص ٢٣١ .

(٦) أنظر : ابن عذارى، نفس الصفحة والمكان، ابن الأثير، نفس الصفحة والمكان .

(٧) Estudio, pp 126 - 127

لأوامره إذ خرج إليه وقابله فى موضع بكورة طلبيرة على مقربة من طليطلة (١) . ولما كان موسى يتوقع مهاجمة القوط له فى أى موضع بالطريق الممتد بين مدينتى ماردة وطليطلة منذ أن غادر الأولى عقب شوال عام ٩٤هـ (٢) / يوليو ٧١٣م، فيبدو أنه أبطأ السير حتى لا يرهق جنده، وتأهب لمنازلة الخصم بأن استعرض جنده فى موضع أسمته إحدى الروايات الإسلامية بالمعرض (٣) . وقد حدث ما توقعه موسى إذ انتهز القوط تقدمه فى منطقة وعرة أمام بلدة سيجويلا Segoyuela بمنطقة الغرب الإيبيرى، وهى بلدة يسميها أحد المؤرخين المسلمين بالسواقى (٤) ، وانقضوا على قواته اعتقادا منهم أن الفرصة قد واتتهم للانتقام والثأر؛ فاشتعلت المعركة الفاصلة الثانية بين الفريقين فى ذى الحجة ٩٤هـ / سبتمبر ٧١٣م، وانهزم فيها القوط شر هزيمة وأصيب لذريق إصابة بالغة؛ فحمله أتباعه إلى مدينة بيزيو Viseo حيث لقى حتفه متأثراً بجراحه فدفن فيها فى ١٣ من نوفمبر عام ٧١٣م (٥) (١٩ صفر ٩٥هـ) .

وبذلك فتح المسلمون غربى إيبيريا (٦) بعد ما تشتتت فلول الجيش القوطى فى النواحى، وبادرت - حسبما خططت لنفسها من قبل - بالتهارب إلى أشتوريس بشمالى البلاد؛ إذ كانت حتى ذلك الوقت الملجأ الباقى الوحيد لها . فانقضت المقاومة القوطية

---

(١) المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٣؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٦؛ الرسالة الشريفية، ص ١٩٩ . وإذا كان ابن الأثير (الكامل، ٤ ص ٢٣١ - ٢٣٢) وابن الشباط (وصف الأندلس، ص ١٢١) يذكران أن اللقاء كان قبل وصول موسى إلى طليطلة دون تحديد الموضع، فإن صاحب أخبار مجموعة (ص ١٨) قد حدده بمكان باند (Sic) . أما ابن عبد الحكم (فتوح، ص ٢٠٧) وابن الكردبوس (الاكتفاء ، ص ٤٩ - ٥٠) فيشيران أن اللقاء كان قبيل دخول موسى قرطبة وأنهما دخلاها سويا . إلا أنه لما كان موسى لم يدخل قرطبة فى طريق سيره فلا نميل إلى روايتهما . أما ابن حيان برواية المقرى (نفح، ١ ص ٢٥٣) فيشير أنه يقال أنهما تلاقيا بعدما تقدم موسى من ماردة إلى جليقية مباشرة دون أن يعرج موسى إلى طليطلة، وهو ما رواه أيضاً ابن القوطية (تاريخ، ص ٣٥) . وعن طلبيرة أنظر : ياقوت، معجم، ٦ ص ٥٣؛ الحميرى، صفة، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٣؛ أخبار مجموعة، ص ١٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣١ .

(٣) الرسالة الشريفية، ص ١٩٩ .

(٤) ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٠٧ .

(٥) Cron. Rotense, ed. Moreno, p 612; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 386; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 16, 107; Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 478 . وتشير هذه الروايات أنه قد عثر على نقش بمدينة Viseo يشير إلى دفنه بها، ونصه : " Hic Requiescit Rudericus Ultimus Rex Gothorum " أى : هنا يرقد لذريق آخر ملك قوطى .

(٦) الرسالة الشريفية، ص ٢٠٤ .

التى كان يقودها الجيش النظامى وأعضاء الحرس الملكى القوطى الذين أسقط فى أيديهم بمصرع ملكهم .

ومن ثم تابعت القوات الإسلامية بعد هذا النصر مسيرتها دون عناء إلى أن أدركت مدينة طليطلة (١) ، فأمضت بها عيد الأضحى لعام ٩٤هـ / سبتمبر ٧١٣م (٢) حتى نالت قسطا من الراحة، فى الوقت الذى أعد فيه موسى خطته لفتح الشمال الإيبيرى؛ الذى لم يكن قد تبقى غيره فى شبه الجزيرة .

وما أن انقضى فصل شتاء عام٩٥هـ (٧١٣ - ٧١٤م) حتى نهض موسى لمتابعة الفتح فى منطقة شمالى إيبيريا الممتدة من إقليم سرقسطة Saragossa شرقا حتى ساحل إقليم جليقية Galicia على المحيط الأطلنطى غربا، وهى المنطقة التى يحدها نهر دويرة جنوبا وخليج بسكاى شمالا . فجمع موسى جيوشه وزحف بها من طليطلة فى ربيع عام ٩٥هـ/ ٧١٤م قاصداً أولا إقليم سرقسطة فى الشمال الشرقى . وقد صحب الفتح هذه المرة موجة عاتية من التدمير والتخريب ونهب البلاد وإحراقها وبث الرعب فى نفوس سكانها؛ وربما هذا ما أحدث أثره السيئ فى نفس الخليفة الوليد، بحيث لن يمضى إلا وقت قصير حتى يستدعيه الخليفة إلى المشرق ويأمره بالتوقف عن الفتح .

ويفهم من رواية ابن حيان التى يوردها المقرى أن القوات الإسلامية لم تتجه إلى إقليم سرقسطة دفعة واحدة أو تحت قيادة مشتركة أو موحدة من موسى وطارق، وإنما سبق طارق موسى إليها فى أصحابه، فى حين سار موسى خلفه فى جيوشه (٣).

---

(١) أخبار مجموعة، ص ١٩؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢ ص ٦١؛ ابن الكرديوس، الاكتفاء، ص ٥٠ .

(٢) الرسالة الشريفية، ص ٢٠٠ . وإن كان ابن الشباط (وصف الأندلس، ص ١٢٢) يشير إلى أن موسى قد عاد فضحى بقرطبة، إلا أنه لم ينته أن يقول أنه قد ضحى بطليطلة طبقا لبعض الآراء، ثم يعود (ص ١٢٣) فيذكر أنه بعد ما افتتح موسى سرقسطة عاد إلى قرطبة ليضحى بها، كما يشير صاحب الرسالة الشريفية عن الرازى عن عبد الملك بن حبيب (ص ٢٠٩) أن موسى ضحى بقرطبة ذلك العام . وأمام ضيق وقته بالصورة التى لا تجعله يبتعد عن طليطلة فى الوقت الذى كان يدبر فيه أمر فتح الشمال الإيبيرى فإننا لا نميل إلى الاعتقاد بأنه ضحى بقرطبة .

(٣) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٥ ؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٢٢ ؛ الرسالة الشريفية، ص ٢٠٠؛ وإن كان يفهم من رواية ابن القوطية (تاريخ، ص ٣٥) أن موسى لم يذهب إلى طليطلة أو إلى سرقسطة، وإنما اتجه مباشرة من مدينة ماردة إلى جليقية حيث وافى طارقا بمدينة أستورقة . إلا أن هذه الرواية مضطربة ولا تؤيدها الروايات الأخرى، ولا نستبعد أن تكون لأحداث تالية خاصة وأن المؤلف يضغط الأحداث التى يرويها .

فلما اقتربت القوات الإسلامية من مدينة سرقسطة جمع الأسقف بنثيو Bencio ما استطاع جمعه هو وجماعة الرهبان من كتب مقدسة وآثار، وعزموا على الرحيل خوفا من المسلمين؛ إلا أن موسى بعث إليهم من أمنهم وأعطاهم عهده، فهدأت نفوسهم وعدلوا عن مغادرة المدينة؛ التى فتحت أبوابها للمسلمين فدخلوها . ثم جالت القوات الإسلامية فى نواحى هذا الإقليم الذى عرف منذ ذلك الحين بالثغر الأندلسى الأعلى، ففتحت ما يقع فيه من حصون ومعاقل (١) وصالحت هناك أحد زعماء القوط ويدعى قسى Casi على دفع الجزية مقابل احتفاظه ببعض مظاهر الاستقلال فى إقليمه؛ على النحو الذى صولح عليه تدمير فى إقليم تدمير من قبل . وكان هذان الزعيمان الوحيدان من بين حكام القوط اللذين انفردا بمصالحة المسلمين على إقليميهما فتركهما المسلمون فى أيديهما .

وسنلاحظ أن قسى هذا رغم إسلامه وتعاقب أفراد أسرته من بعده على حكم الثغر الأعلى، إلا أنهم ظلوا يعتزون بأصلهم القوطى فلم تربطهم رابطة الولاء التام بحكام الأندلس المسلمين؛ ولذا تطلعوا دوما إلى الانفصال عن سلطانهم وانتهزوا كل فرصة للثورة عليهم أو التآمر ضدهم، ومحالفة خصومهم من نصارى بلاد البشكنس أو أشتوريس؛ ولعبوا بذلك دوراً خطيراً فى تاريخ المسلمين بالأندلس، وفى علاقاتهم بالمسيحيين فى إسبانيا المسيحية . وذلك على عكس كل من تدمير وابنه أثناجيلد اللذين رغم بقائهما على مسيحيتهما فقد حافظا على طاعة المسلمين، فأوفى لهما المسلمون بشروط ما عوهدا عليه؛ حتى آل إقليمهما إلى التبعية الإسلامية المباشرة بوفاة أثناجيلد قبل عام ٧٥٥م/ ١٣٨هـ ؛ لأنه توفى دون أن يترك ذرية تخلفه فى حكم هذا الإقليم .

وبسيطرة المسلمين على إقليم سرقسطة امتدت سيطرتهم على معظم أقاليم إيبيريا فى مدة لم تجاوز ثلاثة أعوام، وطويت صفحة القوط فى إيبيريا لتنفتح أولى صفحات المسلمين هناك؛ دون أن يبقى أمامهم من فتح سوى ولاية جليقية بمفهومها الرومانى، وهى الولاية الممتدة إلى الغرب من إقليم سرقسطة حتى المحيط الأطلسى ويحدها جنوباً نهر دويرة، وهى الولاية التى اشتملت وقتذاك ـ حسبما أشرنا من قبل ـ على إقليم أشتوريس فى الوسط وعلى جارتيها إقليمى جليقية فى الغرب وكنتبرية فى الشرق .

---

(١) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٥؛ أخبار مجموعة، ص ١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٢؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٦، وفى ذلك يقول عبد الملك بن حبيب (ص ٢٢٦) أن موسى خرج من طليطلة فى الجموع غازيا يفتتح المدائن . ومدينة سرقسطة من أعظم مدائن الثغر الأعلى، وتسمى أيضاً المدينة البيضاء، أنظر : الحميرى، صفة، ص ٩٦ ـ ٩٨؛ ابن غالب، تعليق منتقى، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

كان موسى حسبما تذكر المصادر الإسلامية يتعجل اقتحام هذه الولاية شديد الحرص على فتحها [١] ؛ حتى يستكمل فتح أقاليم إيبيريا ويؤمن ما فتحه من أقاليمها؛ لا سيما وأنه كان يعلم أن هذه الولاية هى المأوى الوحيد الذى تهاربت إليه جماعات القوط التى ناهضت تقدم قواته فى النواحى التى تم فتحها [٢] ؛ ولذا كان من الحتمى القضاء عليها قبل أن تلتقط أنفاسها وتعمل على استعادة السيطرة على إيبيريا؛ ولذلك فما أن فرغ موسى من فتح إقليم سرقسطة حتى أعد عدته لفتح هذه الولاية .

ومن أسف فبينما كان موسى يتأهب للزحف نحو تلك الولاية عاد إليه - وهو فى مدينة سرقسطة - مغيث الرومى مبعوثا من قبل الخليفة الوليد يأمره بالتوقف عن الفتوح بالبلاد والمثول بين يديه فى بلاط دمشق على وجه السرعة [٣] ؛ فساءه هذا الاستدعاء فى هذا الوقت بالذات، إذ كان يعنى المغامرة بمستقبل المسلمين فى إيبيريا كلها؛ ومن ثم تباطأ موسى فى الاستجابة لأوامر الخليفة، وتواطأ مع مبعوثه حتى يمهله أياما إلى أن ينفذ عزمه فى الدخول إلى ولاية جليقية، مقابل أن يكون شريكه فى أجر فتحها ويهبه موضعا فى مدينة قرطبة بجميع أرضه [٤] ؛ فوافقه مغيث ورافقه فى حملته على هذه الولاية .

ومن أسف أيضاً فلا تزودنا الروايات اللاتينية بأخبار فتح المسلمين ولاية جليقية بما فيها أشتوريس، مثلما قصرت فى أخبار فتح إيبيريا كلها؛ ويبدو أن مؤلفيها

---

(١) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨ .

(٢) تتفق الروايات الإسلامية والإسبانية على تهارب القوط إلى تلك المنطقة، أنظر على سبيل المثال : المقرى، نفح، ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥؛ ٢٤٨، و٢٥٣؛ أخبار مجموعة، ص ٩، ١٠؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٨ - ٩، ١٠، ١٢؛ الحميرى، صفة، ص ١٣٤؛ Chron . Albeldense, ed Huici, 1p 206; Chron. Sebastiami, ed Florez, pp 478 - 479; Cron . Alfonso III, ed. Villada, p 62 .

(٣) الرسالة الشريفية، ص ٢٠٩؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ١٤ .

(٤) المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٢ . هذا وقد عرف هذا الموضع فيما بعد ببلاط مغيث وهو عبارة عن ضيعة بها قصر كان يسكنه حاكم قرطبة القوطى، ويصفها صاحب أخبار مجموعة (ص ٢١) قائلاً : كانت داراً شريفة ذات سقى وزيتون وثمار يقال له البسانة كان للملك الذى أسره (مغيث) وكان له فيها بلاط منيف شريف . وانظر أيضاً : ابن الشباط، وصف، ص ١٢٣؛ الرسالة الشريفية،؛ص ٢٠٩؛ مؤنس، فجر، ص ٦٣٣؛ الخربوطلى، العرب فى أوربا، المكتبة الثقافية ١٤٣ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م، ص ١٦ .

قد تحاشوا ذلك عن عمد . ومن ناحية أخرى فكان من المأمول أن تغطى الروايات الإسلامية هذا النقص فتستوفيه وتفصله، إلا أنها قد أجملت هى الأخرى الحديث عن فتح هذه الولاية بصورة تبدو ملفتة للنظر؛ إذا ما قورن بما قدمته من معلومات تكاد تكون واضحة عن فتح الأقاليم الأخرى فى شبه الجزيرة الإيبيرية .

ولعل إجمال الروايات الإسلامية لأخبار فتح هذه الولاية بصورة لا تساعدنا على تتبع مراحله وخطواته فى شىء من التفصيل، إنما يرجع إلى كون الجيوش الإسلامية لم تقابل فيها مواجهات جدية أو مقاومات ذات شأن يذكر - إذا قارناها بالمقاومات السابقة - سواء من جانب القوط الفارين هناك أو حتى من جانب السكان - وهو ما يظهر جلياً مما ذكره بعض المؤرخين المسلمين الأوائل حين وصفهم لكيفية تقدم المسلمين فى هذه الولاية بعد ما جاوزوا مدينة سرقسطة Saragossa ، قائلين : «فما كان موسى وطارق يمران بموضع إلا فتح عليهما وغنمهما الله ما به، وألقى الرعب فى قلوب السكان، فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح [(١)] »؛ وعبر عنه بعض المؤرخين الأوربيين الحديثين بالقول أيضاً أن تقدم المسلمين فى منطقة شمالى إيبيريا بصفة عامة كان أشبه بنزهة عسكرية " EL avance de Muza fué casi un paseo militar " [(٢)] تمت دون صعوبات [(٣)] .

وفى الواقع فإننا إذا دققنا النظر فى كيفية تقدم المسلمين بشبه جزيرة إيبيريا منذ أن حلوا بساحلها فى الخامس من رجب عام ٩٢هـ اتضح أنهم لم يواجهوا مقاومة تذكر من جانب السكان الأصليين، الذين كانت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية فى ظل القوط سيئة ومتردية؛ وما كان لديهم ما يغريهم على التمسك بنظام القوط أو الدفاع عنه بعد ما هوى بهزيمة جيشهم مرتين وتشتته، فضلاً عن سقوط عاصمتهم؛ ولذا لم يجدوا ضرورة قوية لمقاومة المسلمين ومدافعتهم . بل ربما لم ينظروا إليهم كغازين مثل الرومان اللاتين أو القوط الجرمان، وإنما منقذين ومخلصين لهم من وطأة هؤلاء الأخيرين . حقيقة كان ذلك يعنى فى الظاهر انتقال السكان من خضوع لسطوة قوطية إلى انضواء تحت حكم إسلامى، إلا أنهم ما كانوا سيخسرون فى هذا التبديل شيئا بقدر ما كانوا سيحققون أملاً لديهم يكمن فى الفكاك من القوط وفى

---

(١) أنظر: المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٥؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٢٢، الذى يقول أن طارقا ما كان يمر بموضع إلا غنمه .

(٢) Dozy, Histoire, 1p 275 .

(٣) Sanchez Albornoz, Origenes, 1p 188 ؛ وانظر تعليق أحمد مختار على كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد ١٣ ص ٤٩ .

تحسين أوضاعهم؛ وبخاصة أنهم بحكم قربهم من الشمال الأفريقى كانوا قد سمعوا بأخلاق المسلمين وتسامحهم وحسن معاملتهم لرعاياهم . مع ملاحظة أنه بعدما حل المسلمون محل القوط فى المدائن الإيبيرية، ثم وقفوا على أبواب الشمال الإيبيرى لفتحه، كان قد مضى من الوقت ما هو كاف ليتأكد سكان شمالى إيبيريا من وفاء المسلمين بعهودهم التى أبرموها والتزموا بها؛ فى نفس الوقت الذى استبان فيه لهؤلاء السكان أيضاً انهيار النظام القوطى من أساسه وتحطيم جيشه وعجزه عن الدفاع عن البلاد وحمايتها، وما عاينوه بأنفسهم من ارتباك واضطراب القوط الذين آووا إليهم، وما سمعوه عن اندفاع المسلمين ومقدرتهم على سحق ما يعترضهم من مقاومة . الأمر الذى لم يجد فيه سكان الشمال الإيبيرى جدوى لمقاومة يبدونها، فسارعوا إلى إعلان خضوعهم للمسلمين؛ وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين المسلمين الأوائل، قائلاً : « إنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلا أذعنوا إلى الصلح » [١] .

أما القوط الذين لاذوا بالهرب بين سكان هذه الولاية، فقد كانوا طائفتين : الأولى التى التجأت إليهم فى الفترة بين هزيمة وادى لكة ووصول المسلمين إلى طليطلة خلال عام ٩٢هـ/ ٧١١م، وكانوا من حكام مدن إيبيريا وحامياتها الذين : «قذف الله الرعب فى قلوبهم، ولم يكن يلتفت أحد منهم إلى شىء سوى الهرب والفرار » [٢] حينما كانوا يتسامعون بأنباء تقدم المسلمين نحوهم، دون أن تتوفر لديهم الجرأة على مواجهتهم عسكرياً؛ وهو ما حدث من عظماء قرطبة وسكانها القوط الذين تهاربوا إلى العاصمة طليطلة بحيث أنه لم يبق بقرطبة حينما وصلها المسلمون إلا أربعمائة فارس مع ضعفاء أهلها؛ أما العاصمة طليطلة فقد أخلاها هى الأخرى كل نبلائها وأرستقراطييها؛ فضلا عن أفراد حاميتها القوط ومن كان قد التجأ إليها من المدن الأخرى من قبل؛ حتى أن المسلمين وجدوها خالية عندما أدركوها . وكان أن اتخذ قوط مدينة إشبيلية وحاميتها نفس الموقف حينما فتحها موسى؛ وكذلك قوط مدينتى ماردة وسرقسطة وغيرهما . ومن ثم فهل كان يتوقع من أفراد هذه الطائفة - وهم على هذه الشاكلة - أن يتمسكوا بمقاومة المسلمين حين اقتحموا عليهم مكان التجائهم؛ فى الوقت الذى تساقطت فيه معظم مدن شبه الجزيرة بما فيها العاصمة، وانفض الجيش القوطى وقضى على أكثريته، وأخذت فلوله الباقية تتوافد على هذه الأرستقراطية مذعورة من جراء ما حل بها وأصابها .

أما الطائفة الثانية من هؤلاء القوط، فهى التى التجأت إلى ولاية جليقية بعد

(١) أنظر : الرسالة الشريفية عن محمد بن موسى الرازى، ص ٢٠٦ .

(٢) ابن الشباط، نفسه، ص ١٠٩؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٧ .

هزيمة معركة السواقى فى عام ٩٤هـ/ ٧١٣م، وتكونت من فلول الجيش وأعضاء الحرس الملكى؛ ولما كان أفراد هذا الفريق هم الذين قادوا المقاومة ضد المسلمين منذ الساعات الأولى لنزولهم إيبيريا، فإننا لا نتوقع انتهاء مقاومتهم إلا بعد ما سقطت عاصمتهم وانهزم جيشهم وتشتت، ولم تعد هناك إمكانية لجمعه من جديد تحت قيادة واحدة بعد مصرع مليكهم . ثم إن هذا الفريق كان قد خبر - أكثر من غيره من القوط - جسارة المسلمين وجرب أكثر من مرة نتائج التصدى لهم؛ سواء فى معركة وادى لكة (٩٢هـ/ ٧١١م)، أو عندما حاولت بعض فلولهم استرداد إشبيلية وقطع الطريق على المسلمين (منتصف ٩٤هـ/ ٧١٣م)، ثم فى معركة السواقى (أواخر ٩٤هـ/ ٧١٣م) . هذا فى نفس الوقت الذى رأوا بأعينهم أرستقراطيتهم - المنوطة بالحكم والقيادة - تتهارب تاركة إياهم وحدهم يتلقون ضربات المسلمين ويتحطمون تحت أقدامهم؛ مما فت فى عضدهم ولم يجدوا هم الآخرون بدا من أن ينهجوا سبيل أرستقراطيتهم، فاندفعوا لاحقين بهم لائذين معهم بالشمال .

وإذا كان أفراد الطائفتين قد تهاربوا إلى ولاية جليقية الشاملة لأشتوريس، فلأنهم جميعاً ما كانوا يعتقدون أن يصل إليهم المسلمون فيها؛ إما لبعدها أو زهدا فيها لبرودتها وكثرة غاباتها، وإما لأنها فى معظمها جبلية وعرة لا تلائم سكناهم، وظنوا أنهم لابد أن يكونوا فيها بمنأى ومأمن . لكنهم لم يلبثوا أن فوجئوا بالمسلمين يقتحمون عليهم المكان، ولم يكونوا قد استعدوا أو استعادوا أنفاسهم بعد من هول الصدمة؛ فأسقط فى أيديهم وما كان باستطاعتهم ساعتئذ إلا أن يسلموا مدنهم - شأنهم شأن مدن إيبيريا الأخرى - ويتخلوا عن فكرة المقاومة حتى ولو إلى حين .

أضف إلى ذلك أن ارتباط موسى بن نصير مع رسول الخليفة بإمهاله أياما معدودات حتى يفتح جليقية، قد جعل موسى ينشط فى حملته هذه ويسرع دون أن يضيع وقتاً فى حصار للمدن أو التحايل على من يعصى من سكانها كما كان الشأن من قبل؛ مما طبع حملته إلى منطقة شمالى إيبيريا بصفة عامة بطابع الشدة والقسوة والعنف المقرون بالتدمير، وهو ما أشارت إليه الرواية الإسلامية قائلة إنه لم تبق هناك : « كنيسة إلا هدمت ولا ناقوس إلا كسر [١] » ، الأمر الذى أدخل الجزع والفزع فى قلوب السكان، وهم الذين لم يكونوا بحاجة إلى من يزيدهم ذعرا ورعبا، فتسارعوا إلى الطاعة وأجفل رؤساؤهم[٢] بين يدى المسلمين راغبين فى الصلح [٣] .

---

(١) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨ ؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٢ .

(٢) أنظر : المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٧ .

(٣) أنظر : عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٦ ؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢ ص ٦٣ ؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٦ . وهم يشيرون إلى قدوم وجوه جليقية على موسى طالبين الصلح .

وإذا ما استبانت لنا الأمور على هذا النحو، كان بإمكاننا أن نفسر إجمال الروايات الإسلامية لفتح ولاية جليقية، وأسباب سهولة تقدم المسلمين فى أراضيها .

نهض موسى من مدينة سرقسطة وقد تولى القيادة العامة للجيوش الإسلامية واصطحبه مولاه طارق فى حملته على ولاية جليقية . ولما كان المسلمون فى زحفهم على بلدان شبه الجزيرة الإيبيرية بصفة عامة يتبعون الطرق الرومانية التى كانت تربط أنحاءها بعضها ببعض ؛ فلابد وأنهم سلكوا أحد الطريقين الرومانيين الممتدين من مدينة سرقسطة فى اتجاه الغرب مخترقين ولاية جليقية حتى أقصى الزاوية الشمالية الغربية لشبه الجزيرة؛ أحدهما يمتد مع الضفة الجنوبية (اليمنى) لنهر إبرو Ebro مارا بعديد من المدن مثل : هارو Haro ، وبرفييسكا Briviesca ، وأماية Amaya فليون Léon وينتهى عند مدينة أستورقة Asturica Augusta (Astorga) . أما الطريق الثانى فكان إلى الجنوب من الأول ويمر أيضاً بعدة مدن مثل : قلونية Clunia ، وبالنثيا Pallaetia (Palencia) حيث يلتقى على مقربة منها بالطريق الذى يربط مدينتى ماردة Mérida وأستورقة [1] .

ومع أنه ليس لزاما أن تكون القوات الإسلامية قد سلكت الطريقين فى آن واحد فى اقتحامها لمنطقة شمالى وشمال غربى إيبيريا بما فيها أشتوريس، فإن المؤرخ الإسبانى الحديث سابدرا Saavedra يذكر أن موسى قد أشار على طارق بأن يسلك الطريق الأول فى حين مضى هو بالطريق الثانى [2] . وإن كنا نوافقه على تقسيم القوات الإسلامية إلى فريقين فلا نسايره فى تحديد مسار كل منهما على هذا النحو، الذى شايعه فيه بعض المؤرخين الحديثين الذين زادوا الأمر خلطا حينما جعلوا خط سير طارق على الضفة اليسرى (الشمالية) لنهر إبرو، وخط سير موسى بحذاء الضفة اليمنى (الجنوبية) لنفس النهر [3] . فى حين أن نظرة سريعة على الخريطة توضح أن كلا من الطريقين يمتد إلى الجنوب من النهر، وفضلا عن ذلك فإن رواية ابن حيان - التى يوردها المقرى - تؤكد أن القائدين لم يسلكا طريقين منفصلين فى اقتحامهما لولاية جليقية؛ وإنما طريقا واحدا حيث تعاونا سويا وكان عمل موسى متمما لما كان يقوم به طارق، إذ أنه « أوغل فى البلاد وطارق أمامه ... وموسى

---

(١) Sanchez Albornoz, Itinerario, pp. 64 - 65, Saavedra, Estudio, p 114 .

(٢) Estudio, p 114

(٣) أنظر : مؤنس، فجر، ص ١٠٤؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٠٢ - ١٠٣؛ الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ١٠٠ - ١٠١ وإن أعطى لروايته صفة الاحتمال دون التأكيد، وانظر أيضاً .- Lévi Provençal, Histoire, 1p 28 .

يجىء على أثر طارق فى ذلك كلـه، ويكمل ابتـداءه ويوثق للناس ما عـاهدوه عليه،(١) .

وعلى ذلك نرجح أن يكون طارق قد سلك طريق الحافة الجنوبية لسلسلة جبال كنتبرية، وهو نفسه الطريق الممتد مع الضفة اليمنى (الجنوبية) لنهر إبرو وتقدم معه مستوليا على ما مر به من مدن مثل مدينة أماية Amaya ومـدينة باروث Villa Baruz ، إلى أن دخل القسم الجنوبى من إقليم أشـتوريس ـ أى أشـتوريس أوغسطانا Asturias Augustana ـ واستولى على مدينتها الرئيسية أستورقة . وأماية وأستورقة هما المدينتان اللتان جعل بعض المؤرخين المسلمين الاستيلاء عليهما فى حملة طارق عام ٩٢هـ/ ٧١١م حسبما أشرنا من قبل . ويكون الأرجح أيضاً أن موسى قد اقتفى أثر طارق ليؤمن ما فتحه حتى وافاه بمدينة أستورقة حسب تدبير سابق، إذ أشارت بعض الروايات الإسلامية إلى نبأ تلاقيهما بها (٢)؛ ومنها سارا سويا لإتمام فتح إقليم أشتوريس، فاخترقا جبال كنتبرية من إحدى ممراتها، ودخلا شماليى أشتوريس أو ما عرف بأشتوريس ما وراء الجبال Asturias Transmontana الواقعة إلى الشمال من جبال كنتبرية .

ولقد علل نفس المؤرخ الإسبانى سابدرا Saavedra أسباب اقتحام المسلمين لأشتوريس ما وراء الجبال آنذاك (٩٥هـ/ ٧١٤م) بما بلغهم من أنباء تدبير القوط الجرمان الهاربين إليها لأمر خطير (٣) ، فسره باختيارهم لإحدى شخصياتهم التى تدعى بلاى Pelayo ـ بلاجيوس Pelagius ـ كأمير أو قائد لهم فى تصديهم للمسلمين(٤) ؛ وكان اعتماد المؤرخ المذكور على مدونة لاتينية واحدة متأخرة كثيرا، يظهر فيها بلاجيوس بعد مقتل الملك القوطى لذريق مباشرة (٥) . على أن هذه

---

(١) أنظر : نفح، ١ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦؛ وانظر أيضاً ص ٢٢٧التى يفهم منها أن طارقا هو الذى تولى عملية الفتح وموسى معه، حتى بلغا جليقية على ساحل البحر المحيط، مما يعنى أنهما لم يسلكا طريقين مختلفين .

(٢) ابن القوطية، تاريخ، ص ١٣٥؛ الرسالة الشريفية، ص ١٩٨؛ المقرى عن ابن حيان، نفح، ١ ص ٢٥٣ . ولئن جعلوا هذا اللقاء بعد وصول موسى إلى أستورقة قادما من ماردة، إلا أن هذا الخلط يبدو أنه ناتج عن ضغط هؤلاء المؤرخين واختصارهم للأحداث .

(٣) Estudio, pp 116 - 117, 139 .

(٤) Ibid, p 138 .

(٥) هى مدونة دون لذريق Don Rodrigo ، وممن شايع هذا القول أيضاً : Setton (ed.), A History of The Crusades, Philadelphia 1958, 1p 32, The Camb. Med. Hist , 3p 409 .

الشخصية لم يكن قد قدر لها أن تظهر على مسرح الأحداث السياسية - وهو ما سنناقشه فيما يلى - إلا بعد أن التقط القوط أنفاسهم حوالى عام ٩٩ - ١٠٠هـ/ ٧١٨م، وذلك باتفاق المدونات اللآتينية الأقدم من المدونة التى اعتمد عليها ذلك المؤرخ؛ وهو ما حدا بمؤرخ إسبانى حديث آخر- سانشيث البرنوث Sanchez Albornoz [١] - إلى دحض ما ذهب إليه زميله .

والتفسير الواقعى لأسباب حملة المسلمين على أشتوريس ما وراء الجبال والشمال الإيبيرى بصفة عامة تكمن فى رغبتهم الأكيدة، إن لم يكن فى استكمال فتح أنحاء شبه الجزيرة؛ فعلى الأقل فى تأمين الحدود الشمالية لإقليم طليطلة وما تم بإيبيريا من فتوحات، وهو ما لا يتم إلا بالقضاء على الجماعات القوطية اللآجئة إلى أشتوريس؛ وبخاصة أن المسلمين كانوا يعلمون أنها المأوى الوحيد الذى التجأ إليه معظم الفارين الذين ناهضوهم أثناء تقدمهم بالأراضى الإيبيرية . ومن ثم فقد كان موسى - حسبما تشير الرواية الإسلامية - شديد الحرص ليس فقط على اقتحام هذه المنطقة بل على فتحها أيضاً . كما نعتقد أنه لو لم يكن موسى يقدر أهمية فتحها وإخضاعها لما ساءه استدعاء خليفته - الوليد بن عبد الملك - للمثول بين يديه فى بلاط دمشق على وجه السرعة، فى الوقت الذى كان يعد العدة فيه لغزو هذه المنطقة؛ ولكان قد أسرع إلى الاستجابة لأوامره بالتوقف عن التوسع فى البلاد؛ بل لما كانت هناك ضرورة تجبر موسى على أن يحنى هامته أمام مغيث الرومى - رسول الخليفة والذى كان منذ وقت قليل مضى أحد جنده الذين يأتمرون بأوامره - ليتحايل عليه ويلاطفه سائلا إياه أن يمهله أياما حتى ينفذ عزمه فى الدخول إلى جليقية ويكون شريكه فى أجر فتحها؛ مانحا إياه بلاطا بقرطبة بجميع أرضه . ثم هل كان بوسع موسى أن يماطل فى الاستجابة لأوامر خليفته لو لم يكن على يقين بأن فتح المنطقة يساوى ويستحق ما قد تجره عليه هذه المماطلة من غضب الخليفة !

وعلى كل فقد سارعت القوات الإسلامية، بقيادة موسى العليا - إلى عبور جبال كنتبرية من إحدى ممراتها، واتبعت مجرى نهر نالون Nalon [٢] مقتحمة منطقة أشتوريس ما وراء الجبال - وتقدمت نحو الشمال حتى أدركت حصنا يقع شمال مدينة أوبييدو Oviedo الحالية - التى كانت تعرف بأوبيط أو أبيط [٣] - أسمته الرواية

---

(١) Origenes, I p 476 .

(٢) Saavedra, Estudio , pp 116 - 117

(٣) هكذا يسميها المؤرخون والجغرافيون المسلمون، أنظر : الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ٤٣، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١١١ .

الإسلامية حصن لوجو Lucus Asturum (وهى Santa Maria de Lugo الحالية)؛ وما زالت به حتى دكته واستولت عليه [١]، ففرت حاميته وأهله إلى صخرة جبلية بأقصى شرقيى أشتوريس، هى صخرة بلاى - المغارة المقدسة Cova Dominica - الواقعة بجبل أوسبة Auseva أحد القمم الغربية لجبال قمم أوربا Los Picos de Europa الوعرة [٢].

أقام موسى بحصن لوجو قليلا ليتدبر كيفية التقدم فى المنطقة الأشتورية، وكان على القوات الإسلامية آنذاك أن تعمل فى عدة جبهات ليتم مسح أشتوريس وما تبقى من الشمال الإيبيرى فى أقصر وقت ممكن؛ وبخاصة أنه كان على موسى أن يستجيب لنداء الخليفة والتعجيل بالعودة إلى دمشق . فاستقر الرأى على أن يبعث موسى سراياه لتتبع وتصفية الفارين إلى صخرة بلاى بشرقى أشتوريس، ثم مواصلة الزحف فى أشتوريس إلى ما يليها شرقا فى المنطقة الشمالية لجبال كنتبرية؛ إلى أن تأتى ثانية إلى شمال شرقى شبه الجزيرة أى الثغر الأعلى، لتوطد هذه المنطقة للمسلمين وتقضى على ما بها من أى أثر للمقاومة، مثلما حدث للمنطقة الواقعة جنوب جبال كنتبرية . وفى ذات الوقت تتقدم سرية أخرى فى اتجاه الشمال لفتح ما تبقى من مدن شمالى أشتوريس، أما موسى فكان عليه اقتحام إقليم جليقية الواقع إلى الغرب من إقليم أشتوريس .

تحركت السرايا كل إلى الوجهة التى حددت لها، فأدركت السرية الأولى - التى

---

(١) المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨ .

(٢) هى كتلة هائلة تشكل قلعة طبيعية ذات قمم عالية تصل فى معظمها إلى ارتفاع يقرب من ٢٦٤٢ مترا فوق سطح البحر وتعتبر لذلك ثانى أعلى جبال الجزيرة الإيبيرية بعد جبال La Sierra Nevada وجبال Los Pirineos de Aragon (حوالى ٢٧٠٠ مترا) ويبلغ طول جبال قمم أوربا أربعون كيلو مترا فى عشرين مثلها عرضا، وتنقسم إلى ثلاث قمم رئيسية، الأولى شرقية فيما بين نهرى ديفا Deva ودوخ Duje وتسمى أندارا Andara ووسطى فيما بين نهرى دوخ وكارس Cares وتسمى أورييلس Urrieles وغربية فيما بين نهرى كارس وسيلا Sella وتسمى الصخور المقدسة Penas Santas ، وهى التى تقع بها صخرة بلاى نسبة إلى الصخرة التى التجأ إليها بلايو وجماعته . وينبع من جبال قمم أوربا عديد من الأنهار، وأهمها تلك التى تشكل حدودها، ففى الشرق والجنوب يجرى نهر ديفا، وفى الغرب نهر سيلا، أما فى الشمال فيجرى نهرى كارس وكاسانيو Casano وتنعزل هذه الجبال عن جبال كنتبرية فى جنوبها ببعض الأودية هى من الشرق وادى ليابانا Liébana ، ووادى فالديون Valdeon، ثم وادى ساخمبرى Sajambre ، وعن الجبال بتفصيل أنظر: Sanchez Albornoz, A Través de los Picos de Europa, R. Oc., 1931, 9 p 254 Sqq ; Burguete, Rectificaciones Historicos, Madrid 1915, p 148 Sqq; Somoza, op cit , 2 p 439 Sqq . ، وأنظر الخريطة .

يقودها طارق - صخرة بلاى على البحر الأخضر [١] أى البحر الكانتبرى فى أقصى شرقى أشتوريس، وجالت هناك حتى أنه لم تبق كنيسة إلا هدمت ولا ناقوس إلا كسر، فطاعت أعاجمها ولانت بالسلم وبذل الجزية [٢] ؛ ومن هناك واصلت هذه القوات الإسلامية تقدمها شرقاً فى بلاد البشكنس حتى أدركت الثغر الأعلى ثانية [٣] . وإذا كانت بعض الروايات الإسلامية قد نسبت الاستيلاء على هذه المنطقة لموسى بن نصير [٤] ، فربما لأنها اعتبرت القيادة العامة والعليا للجيوش الإسلامية فى منطقة الشمال الإيبيرى كله لموسى؛ وإن كان هذا لا يمنع أن يكون طارق هو الذى قام بالعمل فى الناحية الشمالية والشمالية الشرقية، فى الوقت الذى كان فيه موسى مشغولاً فى الناحية الشمالية الغربية؛ وهو ما يفهم من روايات بعض المؤرخين المسلمين الآخرين كالمقرى [٥] وابن الشباط [٦] وابن الأثير [٧] ، التى أشارت - حينما أنبأتنا بأخبار استعداد موسى لمغادرة الشمال الغربى الإيبيرى قاصدا الجنوب - بأن طارق وافاه بالطريق منصرفا من الثغر الأعلى أى الشمال الشرقى . وفضلا عن ذلك فإن الروايات التى ذكرت الاستيلاء على بلاد البشكنس وإخضاعها قد جعلت ذلك تاليا لإدراك المسلمين صخرة بلاى، وسابقاً على العودة إلى سرقسطة (الثغر الأعلى) ؛ وما كانت هذه الروايات تتبع هذا الترتيب لو لم تكن القوات - التى كان على رأسها طارق، والتى تقدمت من غرب الشمال الإيبيرى إلى شرقه - هى التى أنجزت هذه المهمة ، ولا يعقل أن يكون موسى هو الذى أتمها، إذ كان قد تقدم هو من حصن لوجو Lucus Asturum بأشتوريس إلى اتجاه آخر .

وإذا كنا لا نعلم على وجه التأكيد ما إذا كان موسى قد تقدم من هذا الحصن نحو الشمال واستولى على مدينة خيخون Jejone الأشتورية، الواقعة على ساحل بحر

---

(١) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨ ؛ ويفهم من رواية ابن الأثير (الكامل، ٤ ص ٢٣٢) أن موسى هو الذى قام بعبء ذلك .

(٢) المقرى، نفس الصفحة والمكان؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ١٤ .

(٣) عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٧ ؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢ص ٦٢ ؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٦ . ويجعل بعض المورخين الحديثين استيلاء طارق على بلاد البشكنس قبل ذلك أى بعد ما غادر سرقسطة إلى أستورقة وأماية، أنظر : مؤنس، فجر، ص ١٠٤ ؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٠٢ ؛ Saavedra, Estudio, p 114 .

(٤) عبد الملك بن حبيب، نفس المكان؛ ابن قتيبة، نفسه، ٢ ص ٦٣ ؛ ابن عذارى، نفس الصفحة والمكان .

(٥) نفح، ١ ص ٢٥٨ .

(٦) وصف الأندلس، ص ١٢٣ . وهو وإن أشار إلى موافاة طارق لموسى بالطريق دون تحديد مكان قدومه، فإنه يفهم من روايته أنهما كانا فى ناحيتين مختلفتين، ويؤيد ما ذهبنا إليه .

(٧) الكامل، ٤ ص ٢٣٢ .

كنتبرية - خليج بسكاى - أم أنه تقدم منه مباشرة فى اتجاه الغرب واقتحم إقليم جليقية الواقع إلى الغرب من إقليم أشتوريس؛ وأناط بطارق أن يعرج هو على مدينة خيخون ليستولى عليها أثناء زحفه على أراضى شرقى أشتوريس؛ أم أنه أسند مهمة فتحها إلى قائد آخر. إلا أنه بسبب أن خيخون كانت أقرب لموسى من طارق، وكانت تقع فى نطاق الاتجاه الذى أنيط بموسى فتحه، فكان على موسى أن يقوم بهذا العمل؛ ولما كان هو فى عجلة من أمره ليلبى نداء خليفته، فنرجح أنه كان عليه أن يكسب وقتاً، ويرسل سرية إلى خيخون لفتحها، فى حين تقدم هو مباشرة من حصن لوجو بأشتوريس، واقتحم جليقية حتى أدرك فيها مدينة تعرف أيضاً بمدينة لوجو [١] Lucus Augusti(Lugo الحالية) فاستولى عليها .

ومن أسف فالروايات الإسلامية لا تزودنا بتفاصيل أخرى عن أحداث أو مواقع تتعلق بفتح أشتوريس أوجليقية التى اعتبرتها شاملة لأشتوريس . وتنهى تلك الروايات حملة القائدين موسى وطارق بمنطقة الشمال الغربى الإيبيرى كله بما فيها أشتوريس قائلة : أنه بينما كان موسى فى اشتداد الظهور وقوة الأمل، إذ أتاه وهو بمدينة لوجو الجليقية رسول ثان من الخليفة الوليد بن عبد الملك- يكنى أبو نصر- يأمره بالقفول والعودة إلى دمشق، فلم يجد موسى بدا من العودة إلى جنوبى البلاد، ومعه الرسولان - مغيث وأبو نصر- ووافاهم طارق بالطريق؛ فحلوا جميعا بمدينة إشبيلية - حيث استخلف فيها موسى ابنه عبد العزيز ليكون واليا على البلاد [٢] من بعده؛ فأقام يفتتح ما بقى من مدائن الأندلس [٣] ويجاهد أعداءها [٤] ، فى حين بدأ موسى ورفاقه رحلتهم إلى دمشق فى ذى الحجة ٩٥هـ [٥] / أغسطس - سبتمبر ٧١٤م، دون أن تتاح له الفرصة كى يستكمل فتح بقية أقاليم ولاية جليقية الرومانية .

(١) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨ . ومدينة لوجو الجليقية أسسها أوغسطس وكانت عاصمة لإحدى منطقتى جليقية القضائية التى سميت Lucensis فى التقسيم الرومانى لولاية جليقية كما أوضحنا . وعلها أنظر: Diccionario , 2p 293 وانظر أيضاً : الحميرى، صفة، ص ١٨٥، ص ٢٨، ٦٧ حيث يذكرها مرة باسم لكة ومرة باسم أقش على أنها قاعدة للجليقيين، ولعله يقصد بها هذه المدينة ذاتها .

(٢) قارن : المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٣؛ أخبار مجموعة، ص ١٩؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٣٢؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٢٣ - ١٢٤؛ الرسالة الشريفية، ص ٢٠٩، ٢١٣ - ٢١٤، جمال الرمادى، فتوح العرب فى أوربا، دائرة معارف الشعب ٦٤لسنة ١٩٥٩م، ص ٢٢٥ .

(٣) ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٨، وينفرد بالقول أن موسى أقام ابنه بمدينة قرطبة .

(٤) ابن القوطية، نفسه، ص ٣٦ .

(٥) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٨ .

ففيما يختص بإقليم جليقية، الواقع فى أقصى الغرب من ولاية جليقية، فإن الروايات الإسلامية صريحة فى إشارتها أن موسى بعد ما أتم فتح مدينة أستورقة بإقليم أشتوريس اتجه غربا صوب إقليم جليقية فدخله وتقدم فى أراضيه حتى وصل إلى مدينة لوجو الجليقية Lucus Augusti فاستولى عليها . ومن الطبيعى أن يكون موسى قد اتبع فى زحفه إليها الطريق الرومانى الواصل بين مدينتى أستورقة ولوجو مخترقا الجزء الشمالى من إقليم جليقية المحصور بين نهر مينيو Mino جنوبا وبحر كنتبرية شمالا، فاستولى على ما مر به من مدن فى هذا الجزء من إقليم جليقية . لكن حينما كان يستعد لمغادرة مدينة لوجو ليتابع فتوحاته فى بقية هذا الإقليم جاءه مبعوث الخليفة وأجبره على أن يقلع من تلك المدينة عائدا إلى دمشق؛ دون أن يعطيه فرصة إكمال فتح ما تبقى من إقليم جليقية، وعلى الأخص قسمه الجنوبى المحصور بين نهرى مينيو شمالا ودويرة جنوبا .

أما إقليم كنتبرية الممتد إلى الشرق من إقليم أشتوريس مباشرة، وهو الإقليم الذى كان يشغل شمال الحوض الأعلى لنهر إبرة، واشتمل وقتذاك على جزأين أحدهما غربى ملاصق لأشتوريس عرف ببردوليا Bardulia [١] - وهو نواة قشتالة القديمة Castilla La Vieja الذى عرفه المسلمون فيما بعد بالقلاع [٢] ؛ نظرا لكثرة ما أقيم فيه من قلاع لحماية الجبهة الشرقية من مملكة أشتوريس؛ أما الجزء الشرقى فقد عرف بألبة Alava . ولا توجد فى المصادر الإسلامية أدنى إشارة يفهم منها أن الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى أى من نواحى هذا الإقليم، وإنما على العكس فما يفهم منها أن القوات الإسلامية حينما تحركت من مدينة سرقسطة تجاه الغرب لفتح ولاية جليقية، سلكت الطريق الرومانى الممتد إلى الجنوب من نهر إبرة مع السفوح الجنوبية من جبال كنتبرية؛ حتى وصلت إلى مدينة أستورقة فى جنوب أشتوريس، ومنها جالت فى شمالى أشتوريس وشرقيها لتطهيرهما من الفارين إليهما؛ ثم عادت إلى سرقسطة ثانية - وعلى رأسها طارق بن زياد - من نفس الطريق الممتد جنوب نهر إبرة، دون أن تعرج إلى كنتبرية الواقعة إلى شماله؛ لأن طارق كان فى عجلة من أمره ليلحق بموسى حين مغادرة البلاد إلى دمشق حيث كان استدعاء الخليفة يشملهما . كذلك فلم يكن باستطاعة طارق وقتذاك تفريق قواته فى بعوث جانبية لفتح

---

(١) نسبة إلى قبائل بردولى Barduli ، أنظر : Strabo, op. cit., 2pp 101, 103 .

(٢) عن تحديد موقع بردوليا، وتطور اسمها إلى قشتالة القديمة ثم إلى القلاع، أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 2pp 593 - 601 حيث خصص لذلك مقالا بعنوان : " EL Nombre de Castilla " أى اسم قشتالة .

كنتبرية؛ إذ كانت تلك القوات جزءا من القوات الإسلامية وليس كلها، فضلاً عن أن أعدادها كانت قد تناقصت بسبب استقرار بعضها فيما كانوا يمرون به من أراضى استحسنوها، وهو ما انتهجته جماعات كثيرة من القوات الإسلامية فى أراضى ولاية جليقية بعامة [١]؛ وكان موسى نفسه يشجعهم على هذا الاستيطان، حتى أنه أقرهم فيما أقاموا فيه ووطأ لأقدامهم فى الحلول به [٢]؛ فأقاموا هناك حتى بعد مغادرة موسى أراضى إيبيريا عائدا إلى دمشق[٣] . يضاف إلى ذلك أن المصادر اللاتينية - التى عاش مؤلفوها فى فترة قريبة إلى تلك الأحداث عن تلك التى عاش فيها مؤلفو المصادر الإسلامية - تشير صراحة إلى أن المسلمين بعد ما فتحوا إيبيريا فقد عينوا حكاما على كل أقاليمها؛ واستثنت منها الأقاليم التى بقيت دون فتح أو خضوع للسيطرة الإسلامية، وعلى رأسها إقليم كنتبرية الشامل لألبة وبردوليا، وكذلك إقليم نبرة Navarra [٤] المجاور له من ناحية الشرق، وكان هذان الإقليمان يشكلان سويا ما يعرف ببلاد البشكنس Vascones أى بلاد الباسك فى وقتنا الحاضر .

أما فيما يختص بإقليم أشتوريس، فإن بعض المصادر الإسلامية تجمل خلاصة فتحها بالقول أنه لم يبق فيها دون فتح سوى الصخرة [٥] (Pena de Pelayo)، وهو ما اتخذه جمهرة المؤرخين الحديثين فى الشرق [٦] حجة إما بعدم خضوع أجزاء من

---

(١) المقرى، نفح، ١ ص ٢٥٨ .

(٢) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٦ .

(٣) الرسالة الشريفية، ص ٢١٤ .

(٤) قارن : Cron. Rotense, ed. Moreno, p 612, Cron Alfonso III, ed Villada, p 108, 117; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 386; Estoria de Los Godos, ed. Zabalburu, Col. DIHE, Madrid 1887, 88 p 60 .

(٥) أنظر : ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٢؛ أخبار مجموعة، ص ٢٨؛ المقرى، نفح، ٤ ص ١٥، ٦ص ٨٣. وقد جعل هؤلاء المؤرخون الصخرة فى جليقية، لأنهم يقصدون جليقية الولاية المشتملة على أشتوريس، وليس إقليم جليقية وحده أحد أقاليم الولاية .

(٦) أنظر : على سبيل المثال لا الحصر . العبادى، المجمل فى تاريخ الأندلس، ط٢، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٣٩، ١١٥؛ طرخان، دولة المسلمين فى أوربا، الألف كتاب رقم ٥٩٦ ص ١٩٨؛ محمد كرد على، غابر الأندلس وحاضرها، ط١، القاهرة ١٩٢٣م، ص ١٤؛ عبد الرحمن الحجى، أندلسيات، المجموعة الثانية، ط١، بيروت ١٩٦٩م، ص ٣٩ - ٤٠؛ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ط٧، القاهرة ١٩٦٤م؛ ١ ص ٣١٨؛ على حبيبة، مع المسلمين فى الأندلس، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٤١٣ وما بعدها؛ جمال الرمادى، فتوح العرب فى أوربا، دائرة معارف الشعب رقم ٦٤ ص ٢٥٥؛ سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب، ط١، بيروت ١٩٦١م، ص ١١٥، ١١٦، ١١٧؛ محمد لبيب البتنونى، رحلة الأندلس، ص ١١٤؛ محمد دياب، تاريخ العرب فى إسبانيا، ١ ص ٣٠؛ سيدة كاشف، الوليد بن عبد الملك، سلسلة أعلام العرب ١٧، القاهرة ١٩٦٢م، ص ١٤٥ - ١٤٦؛ مؤنس، فجر، ص ٨، ١٠٦، ٣٠٨؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٦٨؛ أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٧٦، عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، ص ١٣٦، ٢٠٥؛ على محمد حمودة، تاريخ الأندلس، ص ١٩٨؛ شكيب أرسلان، الحلل، ١ ص ٣١٧.

أشتوريس أو أشتوريس ذاتها، ومنطقة الشمال الغربى الإيبيرى - أى ولاية جليقية - للمسلمين آنذاك؛ وقد شايعهم فى هذا الرأى معظم مؤرخى الغرب الحديثين [١] . إلا أننا نعتقد أن عبارة المصادر السابقة لا تتعلق بأيام الفتح الأولى وإنما بالسنوات القادمة - أى فى عصر ولاة الأندلس المسلمين كما سنبين فيما بعد - لأن مؤرخين إسلاميين آخرين قد جعلوا فتح المسلمين لأشتوريس ولكل أقاليم إيبيريا فتحا شاملا، حين قالوا أن موسى وطارق قد مضيا سويا فافتتحا جميع حصونها وهزما من لقياه من أمرائها، ولم يلقيا كيدا من أحد، ولا انهزمت لهما راية قط [٢] ، حتى دانت الأندلس [٣] ، وصفا القطر كله للمسلمين [٤] ، ثم شد موسى حصونها فأنزل الرابطة والحاميات بها قبل رحيله إلى المشرق [٥] .

حقيقة ربما يكون القول السابق عاما فى معناه، لا يتصف بتحديد وتمييز المواقع التى خضعت للمسلمين فى إيبيريا أو التى لم تخضع؛ الأمر الذى يحتمل معه ألا تندرج أشتوريس ضمن ما خضع لهم هناك آنذاك، وبخاصة أن بعض المصادر اللاتينية كحوليات كمبلوتى Complutense [٦] وطليطلة Toledano [٧] ؛ فضلاً عن مدونة كمبوستيلا Compostellani [٨] قد نوهت بأن المسلمين لم يفتحوا كل أنحاء

---

(١) O'Callaghan, op. cit., p 98, Hadrill, op cit., p 138; Jackson, The Making of Med Spain, London 1972, p 10, 14; Williams, The Historians' History, USA 1926,10 p 38, Watt, The History of Islamic Spain, Great Britain 1967, p 25; Hallam, The State of Europe, London 1878, 2 p 2; Freeman, op. cit., p 132, 162; Madariaga, Spain, p 20; Atkinson, A History of Spain, p. 45; Livermore, A History of Portugal, p 30, Caveda, Examen Critico, MRAH 1879, 9 p 78 Sqq ; Vives, Approaches to the History of Spain, London 1970, p 32, Dozy, Histoire, 2p 128 .، دوروثى، إسبانيا شعبها وأرضها، ص ٤٥، ٥٩؛ سيديو، تاريخ العرب، ص ٣٠٤ وإن كان قد ناقض نفسه حينما ذكر (ص ١٨٥ بنفس المكان) أن موسى قد زحف إلى أشتوريس ودحر آخر حماة إسبانية بها، وأن جميع إسبانيا قد صارت للمسلمين .

(٢) أنظر : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٢ .

(٣) نفسه، ص ١٦ .

(٤) المقرى عن ابن حيان، نفح، ١ ص ٢٥٦ .

(٥) ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٦؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٨ .

(٦) Ed. Huici, 1p 40 .

(٧) Ibid, 1p 340

(٨) Ed Florez, 23 p 325 .

إيبيريا؛ وأضافت المدونة الشرطانية Chronicon Cerratensis [١] أنهم استولوا عليها حتى كهف سانتا ماريا Covam Sanctae Mariae ، وهو الذى عرف عند مؤرخى المسلمين بالصخرة أو صخرة بلاى .

على أن ذكر المصادر الإسلامية لأسماء مواقع ومدن متفرقة فى نواحى إقليم أشتوريس وصلت إليها الجيوش الإسلامية، مثل مدن : أستورقة Asturica Augusta، ولوجو Lucus Asturum وكانتا من أهم مدن أشتوريس وقتذاك [٢] ، وكذلك صخرة بلاى Pena de Pelayo ، وما اتفقت عليه المصادر اللآتينية أن المدينة الأشتورية الساحلية خيخون Jegione قد صارت قاعدة إسلامية لمنطقة أشتوريس ومقرا لحاكمها المسلم [٣] ، ليقف دليلا على أن المسلمين لم يقتحموا أشتوريس فقط وإنما جالوا أيضاً فى أنحائها المختلفة وخضعت لهم؛ وأن فتحهم لها كان فتحا كاملا دون أن يبقى فيه أى أثر للمقاومة وقتذاك؛ لا سيما وأن غير واحد من مؤرخى المسلمين الأوائل قد أشاروا إلى غلبة العرب على أشتوريس وأن سكانها قدموا للمسلمين رهائن ضماناً لطاعتهم [٤]. يضاف إلى ذلك أن المسلمين - عربا وبربر - كانت تستقر كل جماعة منهم - أثناء تقدمهم بها - فى الأراضى التى كانوا يستحسنونها وينزلون بها قاطنين[٥]، وأن موسى أقرهم فيما أقاموا فيه ووطأ لأقدامهم فى الحلول بها [٦] ، فأقاموا هناك حتى بعد مغادرته شبه الجزيرة [٧] .

ثم إنه للمؤرخ المقرى رواية - ينقلها عن غير واحد من المؤرخين المسلمين

(١) Ed. Huici, 1p 92 .

(٢) Castro, op cit., p 77 .

(٣) Cron. Rotense, ed. Moreno, p 612, 516, Chron Leonaise, ed. Cirot, p 387; Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 66, 108, 114, Chron Albeldense, ed. Florez, p 450 No. 50; Chron. . Sebastiani, ed. Florez, p 480 No 11, Chron. Silense, ed. Florez, p 275 No 25 . ومع أن اسم المدينة قد ظهر فى مدونتى الفونسو الثالث والبلدة على شكل Legione مما يحتمل معه أن تكون هى مدينة ليون الحالية Léon إلا أن نفس المدونتين - متفقتان مع المدونات الأخرى - قد وصفتاها بأنها فى منطقة أشتوريس وأنها مدينة ساحلية Maritimam ، مما يعنى أن مدينة ليون ليست هى المعنية إذ هى ليست ساحلية، وإن كانت ضمن مدن إقليم أشتوريس خلال العصور الوسطى .

(٤) المقرى، نفح، ٦ ص ٨٢ .

(٥) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٨ ؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ١٧ .

(٦) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٥٦ .

(٧) الرسالة الشريفية، ص ٢١٤ .

القدامى - تعتبر أقدم نص إسلامى عن ثورة أشتوريس وتحديد تاريخها، إذ تفيد عبارة وردت فى نهايته أنه كتب بعد انتهاء خلافة عبد الرحمن الناصر، حوالى أواخر القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى ، ونص الرواية أن : « أول من جمع فل النصارى بالأندلس - بعد غلبة العرب لهم - علج يقال له بلاى، من أهل أشتوريس من جليقية، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى، الثانى من أمراء العرب بالأندلس، وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها، وهى سنة ثمان وتسعين من الهجرة، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن » [1] .

ويلاحظ على هذا النص أن « الفل » المذكور هو مجموعة القوط الذين كانوا قد تهاربوا أمام المسلمين بعد الهزائم التى حلت بهم وبجيشهم القوطى، وهم الذين التجأوا ساعة الفتح الإسلامى لإيبيريا إلى أشتوريس حسبما تشير بعض المصادر اللاتينية ذاتها [2] . وأن « بلاى » - وهو حسب النص من أهل أشتوريس - « كان رهينة عن طاعة بلده » لا يبرهن إلا على خضوع هذا البلد وانضوائه للحكم الإسلامى . ويؤكد ذلك فى نفس الوقت قوله « ثار النصارى » - أى سكان أشتوريس اللاتين بما فيهم الفل القوطى - إذ لو لم تكن قد انضوت تحت الحكم الإسلامى لما استعمل المؤرخ كلمة ثار، ولكان قد أبدلها بكلمات أخرى مثل هاجم أو غزا أو حتى أغار التى لا تعنى ما تعنيه كلمة ثار؛ فالفرق واضح بين معانيها جميعا، ولابد أن المؤرخ - وهو عربى - كان يعيها . ولذلك فإن رواية المؤرخ تؤكد حقيقة واقعة لا تقبل الشك، وهى أن أشتوريس قد خضعت بالفعل للمسلمين [3]، حينما فتحوها فى أواخر عام ٩٥هـ/ ٧١٤م بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد؛ وأن فتحها كان شاملا، وأن الأمور قد استقرت لهم

---

(١) أنظر : نفح، ٦ ص ٨٢ . وقد أورد Sanchez Albornoz النص مترجما إلى اللغة الإسبانية فى كتابه : La Espanu Musulmana, 3 ed, Madrid 1973, 1pp 76 - 77

(٢) Chron Sebastiani, ed. Florez, pp 478 - 479; Cron. Alfonso III, ed Villada, p 62 .

(٣) يوافق على ذلك كل من : - Sanchez Albornoz, Origénes, 1p 483, 2pp 7 - 8, 84, Barrau Dihigo, Recherches, p 113, 314, Urbel, op cit., pp 22 - 23 Valldeavellano, op cit., 1p 370 . وإن كان الأخير يحدد ذلك بوقت ما بين غزو موسى بن نصير عام ٩٣هـ/ ٧١٢م وولاية الحر ابن عبد الرحمن عام ١٠٠هـ/ ٧١٩م .

بها حتى أواخر عام ٩٨هـ/٧١٧م على الأقل، وهو العام الذى قامت بعده الثورة بأشتوريس ضد المسلمين حسب الرواية الاسلامية السابقة.

وربما كان هناك من لايثق الثقة كلها فى نزاهة أو صدق الرواية الاسلامية السابقة، لانفرادها دون غيرها من الروايات الإسبانية بهذه المعلومات؛ فضلا عن أنها لا تعبر إلا عن وجهة النظر الاسلامية دون المسيحية. إلا أن هذا الشك يزول كلية لأن المصادر اللآتينية قد شاركتها قولها بل أوضحت ما غمض منه. ذلك أنه إذا كانت مدونة مواسياك Chronicon Moissiacense (١) اللآتينية قد نوهت بأن كل نواحى إيبيريا قد خضعت للمسلمين . فقد أضاف عليها إيزيدور الباجى Isidore Pacense -الذى كان معاصراً لهذه الفترة- أن كل إيبيريا قد انتظم واستقر فى فترة ولاية عبد العزيز بن موسى ٩٥-٩٧هـ/ ٧١٤-٧١٦م وذلك بدفعها الجزية (٢) ؛ وأن الوالى الحر ابن عبد الرحمن ٩٧-١٠٠هـ / ٧١٦-٧١٩م قد عين هو الآخر حكاما أو نوابا عنه لكل أقاليمها (٣) . يضاف إلى ذلك أن مدونات روتنس Rotense (٤) والفونسو الثالث Alfonso III(٥) وليون Léonaise (٦) فى الوقت الذى ذكرت فيه أن المسلمين قد عينوا حكاما على كل أقاليم إيبيريا بعد ما أتموا فتحها، فإنها ميزت أيضا المناطق التى لم تخضع لهم بها أنذاك، وهى : ألفا Albanque ، وبسكاى Biscay، وأوردونيا Ur-dunia، وآلاوون Alaone.وواضح أنها مناطق تخرج عن نطاق أشتوريس ولا تشتمل عليها. وحسمت مدونات بروفتيكا Profetica (٧)، وكمبوستلا Compostellani (٨)، وكمبلوتى Complutense (٩)، ولوزيتانيا Lusitanum (١٠) المشكلة وكانت أكثر وضوحا وتخصيصا لأشتوريس دون سواها؛ حينما أوضحت أن المسلمين قد حكموها

---

(١) Ed. Lafuente, Ajbar Machmua, p 165.

(٢) Ed. Florez, 8p302 No 42

(٣) Ibid, p 303 No 43 وعن الحر بن عبد الرحمن ، أنظر: الضبى، بغية الملتمس، ص ٢٦٥ رقم ٦٨٨ ؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص ١٩١ رقم ٤٠٥ ابن عذارى ، البيان ، ٢ص ٢٥ .

(٤) Ed. Gomez Moreno, p 612, 615.

(٥) Ed. Villada, p 108, 117.

(٦) Ed. Cirot, p 386, 391

(٧) Ed. Gomez Moreno, p 628

(٨) Ed. Huici ,1 p 82.

(٩) Ibid ,1p 52.

(١٠) Ed. Florez, p 402 ; وأنظر أيضا .Sanchez Albornoz, Una Cronica Asturiana : p117 No 7

خمس سنوات قبل أن يبدأ بلاجيوس Pelagius ثورته بها ؛ وأضافت مدونة البلدة Albeldense (١) أنه كان أول من ثار بها على المسلمين، متفقة فى ذلك مع النص الإسلامى السابق .

ولما كنا قد أوضحنا قبلا أن المسلمين قد فتحوا أشتوريس أواخر عام ٩٥هـ/ ٧١٤م، فى الوقت الذى تتفق فيه بعض المصادر اللاتينية السابقة فى القول بأن ثورتها على المسلمين كانت بعد خمس سنوات من فتحها أى أواخر عام ١٠٠هـ/ ٧١٨م (٢)؛ وهى الثورة التى حدد المؤرخ المسلم المقرى بدايتها بعد أواخر عام ٩٨هـ/ ٧١٧م دون تحديد لوقت بذاته؛ فتكون قد اتفقت بذلك وجهتا نظر الجانبين الاسلامى والمسيحى بشأن خضوع أشتوريس للمسلمين حين فتحها أواخر عام ٩٥هـ/٧١٤م خضوعا لا شك فيه وأنه كان فتحا شاملا، إذ لم تذكر المصادر اللاتينية ولو تلميحاً أخبار أى مقاومات اعترضتهم بها وقت فتحها، ولم تذكر أيضا أى أجزاء تركوها بها دون فتح حتى أواخر عهد الحر بن عبد الرحمن الثقفى، أى حتى عام ١٠٠هـ / ٧١٨م على الأقل .

وعلى ذلك يكون من الثابت أن موسى لم يفتح كل نواحى أقاليم ولاية جليقية، لاسيما تلك المنطقة المحصورة بين نهرى ميديو شمالا ودويرة جنوبا، فضلا عن الأراضى الممتدة شمال الحوض الأعلى لنهر إبرة؛ وهى المعروفة بأرض البشكنس الشاملة لكل من إقليمى كنتبرية غربا ونبرة شرقاً . ولذلك ظل موسى يأسف على ما فاته من الجهاد فى هذه الولاية بسبب إزعاج الخليفة له والالحاح عليه بالتوقف عن الفتح فيها للمثول بين يديه فى دمشق(٣)، على الرغم من أنه فتح جزءا كبيرا منها وقضى على مقاومة معظم نواحيها، وطمأن نفوس من أقام على سلمه فيها ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول بها، ثم شد حصونها فأنزل الرابطة والحاميات فيما فتحه هناك قبل رحيله الى المشرق(٤).

ومن الطبيعى ألا يعنى رحيل موسى بن نصير وطارق بن زياد عن أراضى إيبيريا أن تتوقف حركة الفتح الاسلامى فيها، لأن تلك الحركة لم ترتبط وقتذاك بتواجد أو اختفاء شخصية بعينها. ومن ناحية أخرى، فلما كان موسى يعى بخبرته

---

(١) Ed. Huici, 1p 158; Ed Florez, p 450 No 50; Ed Migne, Patrologiae, Paris 1853, 129 p1136; Ed. Moreno, p 601.

(٢) من الجدير بالذكر أن المصادر اللاتينية تعتبر هذا العام هو ذاته عام استقلال أشتوريس عن المسلمين، وسنناقش ذلك فيما بعد.

(٣) مجهول ، فتح الأندلس ، ص ١٧ .

(٤) ابن القوطية، تاريخ ، ص ٣٦ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٤ص ١١٨ .

العسكرية مخاطر تجاهل ما خلفه وراءه دون فتح هناك؛ ولذلك فانه حينما أقام ابنه عبد العزيز واليا – علي البلاد من بعده – حرص فى نفس الوقت على أن يعهد إليه بمهمة فتح تلك النواحى، وترك معه – كما تذكر المصادر الاسلامية – من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد (١)، وغزو ما بقى من مدائن الأندلس وجهاد أعدائها (٢). وهو ما جعل من ولاية عبد العزيز (٩٥ - ٩٧هـ/٧١٤-٧١٦م) امتدادا طبيعيا لموجة فتح إيبيريا من الناحية العملية، وإن كانت من الناحية النظرية بداية لما عرف بعصر ولاة الأندلس ؛ لا سيما وأن عبد العزيز قد نشط فى الفتح بصفة عامة ، فافتتح مدائن كثيرة مما كان قد بقي لأبيه (٣)؛ وضبط سلطان البلاد وسد ثغورها (٤)، حتى انتظمت البلاد خلال ولايته بدفع الجزية (٥).

ومن أسف، فليس لدينا فيما عدا تلك الإشارات العامة الغامضة نصوص واضحة، تفصح عن حجم الانجاز الحقيقى لعبد العزيز فى نطاق ولاية جليقية على الأقل . إذ لم تحدد الإشارات العامة السابقة أسماء المدن التى فتحها عبد العزيز لنتبين منها ما إذا كانت فتوحاته قد اشتملت على ما تركه والده فى تلك الولاية؛ خاصة وأنه يفهم من هذه الإشارات أن فتوحاته لم تمتد إلى كل ما خلفه والده وإنما جزءا منه فقط؛ مما يحتمل معه أن تكون تلك الفتوحات فى خارج نطاق ولاية جليقية.

ومع ذلك ، فنكاد نجزم أن الجزء الجنوبى من إقليم جليقية الممتد بين نهرى مينيو شمالا ودويرة جنوبا كان من بين فتوحات عبد العزيز خلال ولايته ، إذ تطالعنا المصادر الاسلامية واللآتينية بأنباء استرداد المسيحيين لمدن تقع فى هذا الجزء فى حوالى منتصف القرن الثامن الميلادى (٦) ،وهو ما يعنى أن فتح ذلك الجزء قد حدث فى تاريخ غير معلوم يقع بعد رحيل موسى إلى المشرق أواخر عام ٩٥هـ/٧١٤م وقبيل منتصف القرن المذكور . ولما كانت تلك المصادر أو غيرها لا تورد أخبار نشاطات عسكرية لولاة الأندلس فى نطاق ولاية جليقية حتى قرب منتصف ذلك القرن ، وإنما فى غالة من بلاد الفرنجة خارج إيبيريا؛ فلا يعقل أن يتطلعوا إلى فتح فى

---

(١) الحميدى ، جذوة ، ص٦ .

(٢) ابن القوطية ، نفسه ، ص ٣٦؛ ابن خلدون ، نفسه ، ٤ ص ١١٨ .

(٣) ابن خلدون ، نفس الصفحة والمكان ؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٠ - ٢١ .

(٤) مجهول ، نفسه ، ص ٢٠

(٥) Cron Isidore Pacense, ed Escobar,RMFLC1870, 2 p 225.

(٦) ابن خلدون، نفسه ، ٤ص ٢٦٥؛ القلقشندى، صبح الأعشى، القاهرة ١٩١٥م ، ٥ص ٢٦٤؛ وأنظر : Cron Sebastiani, ed. Florez, pp 481 - 482;Cron. Alfonso III,ed. Villada, pp 68-69 ; Prim Cron. General, ed. Pidal, Madrid 1955, 2p 331.

الخارج قبل أن يتموا ما فى الداخل أو على الأقل معظمه . يضاف إلى ذلك أن المصادر اللآتينية التى أجملت خلاصة فتح المسلمين لإيبيريا وقت انتهاء ولاية عبد العزيز لم تستثن ذلك الجزء الجنوبى من إقليم جليقية ضمن ما خلفه المسلمون دون فتح (١).

أما فيما يختص ببلاد البشكنس الشاملة لكنتبرية ونبرة فنؤكد أن القوات الاسلامية قد نشطت فيها فى الأعوام التالية لمغادرة موسى بن نصير إلى المشرق، وإن كان نشاطها قد اقتصر فقط على نبرة من دون كنتبرية؛ إذ ينص المؤرخ ابن الفرضى فى تاريخه (٢) على خضوع بمبلونة Pamplona قاعدة نبرة للمسلمين صلحا، وإلى أن اسمى على بن رباح وحنش بن عبد الله قد وردا فى وثيقة هذا الصلح. ولما كان حنش قد توفى فى عام ١٠٠هـ (أغسطس ٧١٨ - يوليو ٧١٩م) فيكون خضوعها قد حدث قبل هذا التاريخ أى خلال ولايتى عبد العزيز بن موسى وخليفته الحر بن عبد الرحمن فيما بين عامى ٩٦-١٠٠هـ / ٧١٤ - ٧١٩م . ولما كانت المصادر تخلو من أى إشارة تدل على فتحها فى عهد الحر (٣)، فلم يكن هناك ما يمنع قوات عبد العزيز من فتحها فى نطاق فتوحاتها فى منطقة شمال شرقى إيبيريا التى استولت فيها على مدن طركونة Tarragona وجيرندة Gerona وبرشلونة Barcelona وربما نربونة Narbonne أيضاً (٤). ولابد وأن يكون عبد العزيز بعدما فتح بمبلونة صالح حاكمها على دفع الجزية (٥)، مثلما كان الحال مع كل من قسى فى إقليم سرقسطة وتيودميرو فى إقيم تدمير، وإن آلت بمبلونة فيما بعد إلى السيطرة الاسلامية المباشرة فى أيام الوالى عقبة بن الحجاج (٦) فيما بين عامى ١١٦-١٢١هـ / ٧٣٤ - ٧٣٩م.

---

(١) Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 108, 117; Cron. Rotense, ed- Moreno, pp 612, 615; Chron. Léonaise, ed. Cirot, pp 386, 391

(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٥ ، ٣١٠.

(٣)أنظر: Lacarra, Historia del Reino de Navarra, Caja de Ahorros de Navarra 1975, p 24 ; Sanchez Albornoz, " Vascos y Los Arabes durante los Dos Primeros Siglos de La Reconquista " Bol IAEV 1952, 3pp 65-66; Codera, Estudios Criticos de Historia Arabe Espanola, Zaragoza 1917, 7 pp 170 - 171 ;Ibarra y Rodriguez., " La Reconquista de Los Estados Pirenaicos" Hispania 1942, 2 p 9.

(٤) عن فتوحات عبد العزيز فى تلك الناحية ، أنظر. Huerta y Vega, Manuel de las Anales del Reyno de Galicia, Santiago 1733-1736, 2 p 171; Ibarra y Rodriguez., op. cit., 2 p 9 .

(٥) Codera, op. cit., 7p 172.

(٦) أخبار مجموعة ، ص ٢٨ ؛ ابن عذارى، البيان ٢ص ٢٩؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص ٢٩.

وعلى هذا النحو ، يكون الوالى عبد العزيز بن موسى قد استكمل فتح بعض ما خلفه والده، وعلى الأخص الجزء الجنوبى من إقليم جليقية فضلا عن إقليم نبرة؛ دون أن تصل قواته إلى إقليم كنتبرية (ألبة والقلاع)، التى تشير إليها المصادر اللآتينية على أنها بقيت دون أن تفتحها القوات الاسلامية فظلت السيادةعليها لسكانها (١) . ولا تزال أسباب إعراض عبد العزيز عن فتح إقليم كنتبرية غامضة برغم نشاط قواته فيما يجاوره من أقاليم فى شمال شرقى إيبيريا على امتداد السفوح الجنوبية من جبال البرتات. كذلك فتصمت المصادر عن أية تفصيلات أو معلومات يمكن أن تساعدنا فى التعرف على أسباب تجاهله إياه، وهو ما لا يمكن تبريره إلا فى ضوء ما تعرض له عبد العزيز من متاعب داخلية بتألب رءوساء جنده عليه لأسباب نقموها عليه، فاغتالوه فى عام ٩٧هـ/٧١٦م (٢) ؛ مما أدى إلى اضطراب الأمـــور فى الأندلس وتوقف حركة الفتوح فى إيبيريا بعامة ، بحيث لم تتمكن القوات الاسلامية خلال ولايته من فتح إقليم كنتبرية (ألبة والقلاع) ، الذى قدر له أن يلفت للمرة الثالثة من السيطرة الاسلامية من دون إقليمى ولاية جليقية الآخرين أى أشتوريس وجليقية.

ومع أن المصادر اللآتينية تعترف بخضوع أشتوريس للمسلمين، فإنها لم تحدد ما إذا كانت قد خضعت لهم عنوة أم صلحا ولا شروط الصلح، وهو أمر طبيعى إذ أن مؤلفيها قد أهملوا - كما أشرنا - التأريخ لمراحل وكيفية فتح المسلمين ليس فقط لأشتوريس بل لإيبيريا كلها . أما المصادر الاسلامية التى ميزت هذا الجانب واستبان منها أن أشتوريس - ومعظم أقاليم شمالى إيبيريا - قد فتحت صلحا (٣)، وأن أهلها قد نالوا عهدا لأنفسهم يقرر ما عليهم من التزامات وما لهم من حقوق؛ فإنها مع ذلك قد ضنت علينا بنصوص هذا العهد ؛ وما اشتمل عليه من شروط كانت تساعدنا فى تحديد طبيعة العلاقة بين المسلمين وسكان أشتوريس بصورة قاطعة.

وعلى الرغم من ذلك فقد أورد بعض المؤرخين المسلمين - حين حديثهم عن فتح شمالى إيبيريا - شذرات من المعلومات يستنتج منها أن عهود المسلمين لسكان هذا الشمال بما فيهم سكان أشتوريس ، قد نصت - كغيرها من المعاهدات التى يمنحونها

---

(١) Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 108, 117; Cron. Rotense,ed. Moreno, pp 612, 615; Chron Léonaise, ed. Cirot, pp 386, 391; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 60.

(٢) Cron Isidore Pacense, ed. Escobar,2 pp 225-226.

(٣) قارن : ابن قتيبة، الامامة والسياسة ، ٢ص ٦٣؛ الرسالة الشريفية، ص ٢١١ س ٣-٤ ، ٢٠٥ - ٢٠٦؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٦ ؛ عبد الملك بن حبيب، ص ٢٢٦؛ المقرى ، نفح، ١ ص ٢٥٥- ٢٥٦.

لأهالى ما يفتحونه من بلدان فى أى مكان - على تأمين الأهالى على أرواحهم وأموالهم وسائر ممتلكاتهم ودينهم بدفع الجزية (١).

كذلك يبدو واضحاً من نص المقرى (٢) - الذى يورده عن غير واحد من المؤرخين - الذى يتحدث فيه عن أشتوريس، أن المسلمين قد اشترطوا فى عهدهم لأهلها تقديم رهائن وضمانات عن طاعتهم ؛ كانت فى الغالب بعضا أو واحدا من شخصياتهم البارزة . ويبدو أن هذا الشرط كان تقليدا لما كان يحدث فى الدولة القوطية ، التى اعتاد أشرافها أن يبعثوا بأولادهم الذكور والاناث إلى الملك دلالة على ولائهم له (٣).

وفيما يختص بالأرض الزراعية فقد أبقاها المسلمون فى أيدى مزارعيها ومنتفعيها من السكان (٤) دون المساس بها ، مقابل دفع الخراج عنها من غلتها - وكان فى الغالب - عينا (٥). وإن كنا مع ذلك لا نستطيع تحديد قيمته الفعلية لعدم توفر أية بيانات عنه ، ولاختلاف المصادر الاسلامية المتوفرة فى هذا الشأن؛ إذ بينما يذكر بعضها أنه كان حسبما فعله رسول الله ﷺ مع يهود خيبر فى نخيلهم وأرضهم (٦)؛ فإن بعضها الآخر ينوه أنه كان مثالثة ومرابعة - أى ثلث أو ربع المحصول - كيفما كان طيب الأرض وغلتها (٧). ولما كان من الراجح أن الرسول قد صالح يهود خيبر على آداء النصف من غلتهم (٨)، وليس على أداء الثلث والربع الذى يشار أنه كره المزارعة بهما(٩) فاننا نجد أنفسنا أمام آراء مضطربة لا تساعدنا فيه غياب نصوص المصالحة، واختلاف قيمة الخراج من بلد لآخر حسب أحكام الصلح ذاته، ونوعية إنتاج الأرض ومدى جودتها، على تحديد قيمة الخراج الذى صولح عليه أهل أشتوريس .

وإذا كان يصعب التدقيق فى المصادر المتوفرة لتقصى ما اشتمل عليه هذا الصلح من شروط وبنود أخرى، فيما عدا تلك الشروط العامة؛ فإنه ليس بالامكان أيضا

---

(١) أنظر : الرسالة الشريفية ، ص ٢٠٥، ٢١١ س ٤، المقرى ، نفح، ١ ص ٢٥٨.

(٢) نفح ، ٦ ص ٨٢.

(٣) ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ١٩٦٦م، ص ٣١.

(٤) الرسالة الشريفية، ص ٢٠٦ س ٣.

(٥) قارن : الرسالة الشريفية ، ص ٢٠٥ س ٥ - ٦ ، ص ٢١١ س ٤ - ٥ .

(٦) أنظر : الرسالة الشريفية ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، وأنظر أيضاً : Dozy, Recherches, I Apen 3

(٧) أنظر : الرسالة الشريفية ، ص ٢١١ س ٤ - ٦ .

(٨) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٤٦هـ ، ص ٩٥ - ٦٠ ، ١٠٦ - ١٠٧ ؛ القرشى ، كتاب الخراج، القاهرة ١٣٤٧هـ ، ٣٩ - ٤٠ .

(٩) أنظر : مؤنس، فجر ، ص ٦٢٦ والمراجع المعطاه.

أن نطبق شروط صلح المسلمين مع أهالى الأقاليم الأخرى بإيبيريا على تلك التى صالحوا عليها أهل أشتوريس، إذ يبدو أن شروط المعاهدات قد اختلفت من إقليم إلى آخر هناك؛ وإن كان هذا لا ينفى أن أشتوريس قد فتحت صلحا، واعتبرت أرضها لذلك أرض صلح تجرى عليها أحكام الصلح التى عقدها المسلمون مع أهلها .

وكان من الطبيعى بعدما فتح المسلمون أشتوريس أن يقيموا عليها حاكما، يخضع للسلطة المباشرة لوالى الأندلس المقيم فى مدينة قرطبة؛ مثلما كان الشأن فى أقاليم إيبيريا الأخرى. وإن كنا لا نعلم هل اقتصرت سلطاته على حكم إقليم أشتوريس وحده أم امتدت إلى ما فتحه المسلمون فى إقليم جليقية المجاور له غربا؛ وهو أمر لم تزودنا به المصادر الاسلامية على الاطلاق، وانفردت المصادراللآتينية وحدها بالتنويه إليه فى إيجاز،وهو وإن كان لا يكفى لرسم تصور متكامل عن كيفية حكم هذا الأمير لأشتوريس، إلا أنه على الأقل يلقى ضوءا على شخصيته، إذ تشير هذه المصادر أن المدينة الساحلية Maritimam خيخون Jegione التى أصبحت قاعدة إسلامية لأشتوريس، كانت فى ذات الوقت مقرا لأميرها المسلم الذى أسمته Monnuza أو Munnuza (١) أو Munniz (٢) وجعلته عربى الأصل (٣)، ورفيقا لطارق بن زياد (٤)، وأحد قواد أربعة – لم تذكر أسماءهم – دخلوا إيبيريا وشاركوا فى فتحها (٥)، وأنه رافق القوات الاسلامية حتى أقصى الشمال الإيبيرى(٦).

أما المصادر الاسلامية فلم تزودنا بأسماء رفاق طارق سواء فى عبوره إلى إيبيريا أو فى حملته إلى أشتوريس ذاتها (٧)، لنتبين منها ما إذا كان منوزا Munnuza

---

(١) Chron. Sebastiani, ed Florez, p 480 No. 11; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 66. 108; Chron. Silense, ed Florez, p 275 No. 25 ; Chron . Albeldense , ed. Florez, p 540 No. 50. Chron. Rotense,ed Moreno, p 612; Chron. Léonaise,ed Cirot, p 387 .

(٢) Chron. Isidore Pacense, ed. Florez, p 309 No, 58

(٣) وانفردت Chron. Sebastiani,ed. Florez, p 480 No. 11 ; Cron. Alfonso III, ed. Villada, p66 مدونتا Silense, ed Florez, p 275; Isidore Pacense,ed. Florez, p 309 ، بالقول أنه كان من جنس المور Maurorum وهى تسمية عامة كان يطلقها المؤرخون اللآتين على المسلمين بإسبانيا سواء كانوا عربا أم بربرا بسبب أن المسلمين قد جازوهم عن طريق الشمال الافريقى.

(٤) Cron Rotense, ed. Moreno, p 612 ; Cron Alfonso III,ed. Villada, p 108.

(٥) Chron Sebastiani, ed . Florez, p 480 ; Cron. Alfonso III, ed . Viliada ,p 66 ; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 387 .

(٦) Chron, Isidore Pacense, ed. Florez, p 310 No 58

(٧) لا نعرف سوى مغيث الرومى – الذى ذكرناه من قبل – فاتح مدينة قرطبة ، ثم أوفده موسى بن نصير فيما بعد إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق ليعلمه بخبر فتح البلاد ، وعندما عاد إليه رافقه فى حملته إلى أشتوريس ، ثم غادر مع موسى وطارق إلى دمشق ثانية.

(منيز Munniz) قد رافقه فى حملته أم لا. ولكنها أمدتنا فقط بأسماء بعض رفاق موسى بن نصير، الذين عبروا معه إلى إيبيريا وشاركوه فى الفتح، ومنهم تابعى يدعى المنيذر (منيذر – المنذر) الإفريقى(١). فالمنيذر لأنه كان من أحداث الصحابة (٢)، والإفريقى لأن أباه وكان صاحبا لرسول الله ﷺ قد حدث بإفريقية (٣)، وعاش المنيذر نفسه فيها فنسب إليها (٤)، وإن كان هذا النسب لا ينفى أصله العربى (٥)، فضلا عن أن أفراد الجيش الذى عبر به موسى إلى ايبيريا كانوا عربا ولا نعرف أنه اصطحب معه من البربر أحد .

وبمقارنة بسيطة بين الروايات اللآتينية والاسلامية السابقة يمكننا القول بأن اسم منوزا Munnuza (منيز Munniz) اللآتينى لم يكن اسما لمكان كما ذهب بعض المؤرخين الحديثين (٦)؛ وإنما هو لشخصية لم تكن بربرية حسبما اعتقد بعض آخر(٧).

---

(١) عنه قارن : ابن عبد البر ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، القاهرة ١٣٨٠هـ ، ٤ ص ١٤٨٥ رقم ٢٥٧١ ؛ المقرى ،نفح ، ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦١ ؛ الحميرى ، صفة ، ص ٣ – ٤ .

(٢) المقرى ، نفح ، ٤ ص ٤ .

(٣) المقرى ، نفسه ، ٤ ص ٥ . ويلاحظ أن المصادر المذكورة أعلاه جعلت المنيذر نفسه صاحبا لرسول الله، وأنه – وليس والده – هو الذى حدث بإفريقية ، وما لا يجعلنا نركن إلى ذلك أنه بعملية حسابية بسيطة يكون المنيذر قد جاوز المائة عام حينما قتل – عام ١٠٣ هـ / ٧٢٢م أو عام ١١٤هـ / ٧٣٢م كما سيجئ بيانه – وهو أمر وإن كان جائز الوقوع ، إلا أن الأقرب إلى الاحتمال ما جاء عن البخارى بنسبة ذلك إلى أبيه وليس إليه هو .

(٤) أنظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤ص ١٤٨٥؛ المقرى، نفح، ١ص ٢٥٩، ٢٦١؛ الحميرى، صفة، ص٣-٤ .

(٥) كان يمنيا من مذحج أو غيرها أنظر: المقرى ، نفح ، ٤ ص ٤ س ٦ من أسفل ، ص ٥ س ٨ .

(٦) منهم : الحجى ، التاريخ الأندلسى، ص ١٩٢ – ١٩٣ ، واعتقدوا أنها اسم لمدينة قد تكون ماسون Macon الفرنسية على نهر الرون Rhone أو منرسيا Manresa بجنوب فرنسا ، قارن : مؤنس ، فجر ،ص ٢٥٠، ٣١٦ حاشية ١ ؛ عنان ، دولة الاسلام ، العصر الأول ، القسم الأول ، ص ٨٤ . هذا وقد اعتمد أصحاب هذا الرأى على روايتين غامضتين وردتا فى مصدرين إسلاميين ، لا تنقان وحدهما دليلا كافيا لتبرير رأيهم ، وردت العبارة الأولى فى البيان المغرب لابن عذارى (٢ص ٢٨) حين الحديث عن ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى للأندلس (محرم ١١١ – ١١٣هـ) وتقول أنه : « غزا منوسة» ، وأورد الثانية ابن خلدون فى عبره، ونقلها عنه المقرى (نفح، ١ ص ٢٢٠) ، ومؤداها أن نفس الوالى «غزا أرض مقوشة ففتحها» .

(٧) لعل أبرز هؤلاء المؤرخين :Saavedra, Estudio, p 118; Lévi-Provencal, Histoire, 1 p 60 No. 1: Dozy, Histoire, 1 p 160, 2 p 169; Valdeavellano, op. cit., 1 p 370 ; Sanchez Albornoz, Origenes, 2 p 10 ; Lafuente, Ajbar Machmua, Apen. 3 pp 231-232.؛ مؤنس ، فجر ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، ٣١٥؛ عنان ، نفسه ، ص ٨٥ حاشية ٣؛ على حبيبة، مع المسلمين ، ص ٩٥ حاشية ، ص ٤١٨؛ ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٥١؛ السيد سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ١٤١؛ محمد دياب ، تاريخ العرب فى أسبانيا ، ١ ص ٣٩. وجدير بالذكر أن هؤلاء قد اعتمدوا على ما رواه إيزيدور الباجى (ed. Florez, p 309 No. 58.)، من أن طارقا كان من جنس المور Maurorum ، قد سبق مناقشتها .

وإنما عربية الأصل . ونعتقد أنه لا حرج فى القول أن صاحبها هو ذاته المنيذر (منيذر ، المنذر) الوارد فى المصادر الاسلامية.

ثم إنه لما كان هذا المنيذر قد قدم إلى إيبيريا فى عام ٩٣هـ/ ٧١٢م مع موسى ابن نصير واشترك معه فى الفتح، وأنه لم يتولى ولاية الأندلس ، وإنما أصبح أميرا على إقليم أشتوريس وحده؛ فيكون هو ذاته أيضا الذى أوفده موسى إلى مدينة خيخون Jegione لفتحها ، واتخاذها قاعدة إسلامية لاقليم أشتوريس ، فاستقر بها وأقامت معه فرقته الإسلامية إلى أن مات مقتولا بأشتوريس نفسها عام ١٠٣هـ/٧٢٢م أو عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م - كما سيأتى بيانه بعد - دون أن يغادر الأندلس . ولا يكون هناك كذلك محل لما ذهب إليه فريق ثالث من المؤرخين الحديثين [١] الذين خلطوا بينه وبين أحد ولاة الأندلس وهو عثمان بن أبى نسعة الخثعمى، على اعتبار أن أبى نسعة - فى رأيهم - يسهل تحريفه إلى منوزا Munnuza . ووجه الاعتراض يكمن فى أن عثمان هذا لم يقدم إلى الأندلس عام ٩٣هـ / ٧١٢م مثل المنيذر ، وإنما فى شعبان عام ١١٠هـ/٧٢٨م؛ ومع أنه تولى ولاية الأندلس كلها - وليس أشتوريس وحدها - فإن ولايته لم تستمر سوى خمسة أو ستة أشهر، عزل بعدها وظل بالأندلس حتى انصرف عنها عام ١٢٥هـ/٧٤٣م إلى بلاد المغرب حيث توفى هناك [٢]، وذلك بعد مقتل منوزا (المنيذر) باحدى عشرة سنة على الأقل.

ومن ناحية أخرى ، فلا نعلم كيفية وطبيعة استقرار المسلمين فى أشتوريس بعد أن فتحوها ، وهى ناحية تضيع سدى محاولات استيضاحها أو التعرف عليها؛ وذلك لصمت المصادر اللاتينية والاسلامية المتوفرة تجاهها صمتا تاما. فيما عدا إشارة غامضة أوردها المؤرخ الاسلامى المقرى تنوه بأن المسلمون وهم يتقدمون فى فتح نواحى أشتوريس ومنطقة الشمال الايبيرى بعامة. كانت كل جماعة من العرب والبربر تستقر فى المواضع التى كانوا يمرون بها ويستحسنونها فينزلون بها قاطنين[٣]، مثل مدن أستورقة وليون ولوجو وخيخون وغيرها من المدن الاستراتيجية الهامة. مما يعنى

---

(١) على رأسهم : Caveda, op. cit., pp 61 - 62 ; Scott, the Moorish Empire, Philadelphia 1904, 1 pp 343-344; Velasco, Guadalete y Covadonga , Madrid 1882, p 183; Condé, op cit, 1 p 105 Sqq. , Danham, op cit, 1 pp 230-231 ؛ محمد دياب ، تاريخ العرب فى أسبانيا ، ١ ص ٣٩.

(٢) عنه قارن : ابن عذارى ، البيان ، ٢ ص ٢٨ ؛ المقرى ، نفح ، ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٤ ص ٤٥ . وان اختلف عما إذا كان قد مات بالقيروان أم بطنجة. ولمزيد من التفاصيل عن خلط المؤرخين بين عثمان ومونوسة ، ومدى صحة زواج الأخير من ابنة أودو ، راجع : Somoza, op cit, pp 493 - 498

(٣) أنظر : نفح ، ١ ص ٢٥٨ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ،ص ١٧.

أنهم انتشروا فى نواحي أشتوريس؛ ثم أقرهم موسى فيما أقاموا فيه ووطأ لأقدامهم فى الحلول بها قبل أن يغادر إيبيريا الى المشرق. وإن لم تحدد هذه العبارة نوعية هذه المواضع أو كيفية استقرار المسلمين بها، إلا أنه من المعتقد أن تكون أراضي غير مأهولة، إذ أبقى المسلمون - كما نعلم - على الأراضى الزراعية فى أشتوريس بأيدى أهلها دون انتزاعها منهم. مما يرجح أن ما نزل به المسلمون من أراضى كانت ضياعا مملوكة لدولة القوط أو الكنائس والأديرة؛ فصارت قطائع للمسلمين الذين أقاموا فيها يؤخذ منهم خراجها ؛ الذى لم يكن يقل بطبيعة الحال عن الحد الأدنى وهو عشر الانتاج.

وإذا كانت عبارة المقرى السابقة تسمح بالقول أن المسلمين عربا وبربر قد استقروا سويا فى أشتوريس، فهناك نصوص إسلامية أخرى تدل على أن أعداد البربر منهم قد فاقت أعداد العرب (١). وإن كان اعتقادنا أن استقرار المسلمين بصفة عامة فى أشتوريس لم يكن بالكثافة التى كانت فى أقاليم وسط وجنوبى شبه الجزيرة، ربما بسبب بعد أشتوريس عن الشمال الأفريقى الذى وفدوا منه ولتطرفها فى أقصى الشمال، أو لأنها لم تكن تكافئ أقاليم الوسط والجنوب فى اعتدال مناخها وخصوبة أراضيها؛ وما يتبع ذلك من وفرة الانتاج وتنوعه، فضلا عن طبيعتها الجبلية الوعرةوتعقد تضاريسها.

ومن ناحية أخرى، فليس هناك ما يوضح مدى اختلاط سكان أشتوريس بهؤلاء المسلمين المقيمين بينهم رغم قلة أعدادهم. فلم نسمع عن تزاوج أو اختلاط بين الجانبين مثلما كان الحال أيام الرومان ومن بعدهم القوط؛ أو حتى مثلما كان عليه الحال فى أقاليم إيبيريا الأخرى، التى سرعان ما ظهرت فيها أجيال مولدة - عرفت بالمولدين - نتيجة للاختلاط القوى بين المسلمين وسكان البلاد، حتى ازدادت أعداد تلك الأجيال على مر السنين وغلبت على ما عداها من العناصر الأخرى. أما فى أشتوريس فإن الحالة الوحيدة - لو صدقت - التى أراد فيها حاكم المنطقة - المنيذر - الزواج من إحدى نبيلات القوط، قد لاقت معارضة قوية من جانب الأخيرين حتى كانت من بين عوامل إثارتهم وتمردهم عليه؛ وهو ما يسمح بالقول أن الجانبين ظلا متباعدين دون أن يختلطا ؛ فصار المسلمون هناك فى شبه عزلة عن السكان. وهو أمر استتبعه عدم إقبال السكان على اعتناق الاسلام ، أو التخلى عن نمط حياتهم الذى كان لا يزال رومانيا فى أغلبه؛ فتباعدت وجهة نظرهم عن وجهة نظر المسلمين، ونظر كل

(١) أنظر: أخبار مجموعة ،ص ٣٨ س ٥ - ١١ ، ص ٣٩ س ١ - ٢ من أسفل ، ص ٤٠ س ١ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص ٣١.

منهما إلى الآخر بعين الريبة والشك فانعدمت الثقة بينهما انعداما ساعد على سهولة إثارة أى منهما ضد الآخر.

كذلك فقد كان التجاء العناصر القوطية بين سكان المنطقة عاملا هاما من عوامل وقوع الجفوة واتساع الهوة بين هؤلاء السكان وبين المسلمين، إذ كانت معظم هذه العناصر من النبلاء القوط صاحبة الجاه الفاحش والسلطان العريض قبل سقوط دولتهم على أيدى المسلمين فى عام ٩٢هـ/٧١١م؛ أو من رجال الدين الذين كانت ثرواتهم المادية تفوق التصور (١)، وكان نفوذهم السياسى يعلو نفوذ النبلاء ذاتهم، بحيث كان رجال الدين هم الذين يسيرون الدولة ويستبدون بشئونها، حتى وصفت إيبيريا على عهد القوط بدولة يركبها القساوسة A Priest Ridden State (٢). ولكل ذلك فما كان أولئك النبلاء ورجال الدين القوط - وهما جناحا الطبقة الارستقراطية فى مجتمع إيبيريا على عهد القوط - يقنعوا بضياع ثرواتهم الهائلة وسلطانهم العريض ومكانتهم الاجتماعية المتميزة؛ وإنما باتوا يأملون فى استعادة مافقدوه منها، فتربصوا بالمسلمين الدوائر وتحينوا الظروف للانتقام منهم. وكان الشعب هو وسيلتهم لتحقيق تلك الغاية، ومن ثم عملوا على أن يغرسوا فيه روح البغضاء والكراهية للمسلمين حتى يباعدوا بينهما، ولم يتوانوا عن إثارته ضدهم بحجة الدفاع عن المسيحية وإنقاذها. وهكذا تلاقى الطرفان المسيحيان - القوط والاسبان - فى كل واحد على قضية مشتركة هى المسيحية و اندمجا فى بيئة واحدة، حتى صار تاريخ القوط منذ ذلك الحين فصاعدا هو تاريخ الشعب الإسبانى أو الإيبيرى.

ومجمل القول ، فإن المسلمين قد فتحوا إقليم أشتوريس فى أواخر عام ٩٥هـ/٧١٤م ،واستقرت أمورهم بها على الأقل حتى عام ٩٩-١٠٠هـ / ٧١٨م، ولم يكن ما واجههم فيها فيما بعد هذا التاريخ من قلاقل واضطرابات ناتجا عن تركها احتقارا لها أو إهمالا لشأنها، أو حتى زهدا فيها لبرودتها وعدم ملاءمتها لسكناهم،وإنما بسبب عوامل وظروف أخرى سنتبينها فيما يلى.

---

(١) السيد سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٦٣ - ٦٤ ؛ طرخان ، دولة القوط ، ص ١٥٥.

(٢) ماجد ، العلاقات ، ص ٣٠ - ٣١ ، وعن نفوذهم السياسى أنظر : طرخان ، نفسه ، ص ١٤١-١٥٤.

الباب الثانى

المقاومة الإسبانية فى طور التكوين

٧١٤ - ٧٣٩م (٩٥ - ١٢١هـ)



الفصـــل الأول

بلاجيوس وميلاد المقاومة فى إقليم اشتوريس

أصل ونسب بلاجيوس ـ حياته قبيل فتح المسلمين إيبيريا ـ دوره فى مقاومتهم أثناء الفتح ـ التجاؤه إلى إقليم أشتوريس ثم استسلامه لهم ـ وقت وأسباب إيفاده إلى العاصمة قرطبة حتى هروبه منها ـ فشل القوات الإسلامية فى القبض عليه ـ إثارته لسكان أشتوريس ضد المسلمين ـ اختياره زعيما للمقاومة فى أشتوريس ـ مدى مساهمة كل من القوط الجرمان والأشتوريين اللآتين فى هذا الاختيار .



كانت أشتوريس حسبما أوضحنا آخر الأقاليم التى خضعت للمسلمين بإيبيريا، ومع ذلك فقد كانت أسبقها فى التمرد عليهم ومقاومتهم؛ إذ ظهرت فيها علامات المقاومة مبكرة، وارتبطت أساساً بشخصية يحيط الغموض بأصلها، ولم تلق عليها روايات المؤرخين اللاتين القدماء ضياء كثيراً، برغم اعتبارهم صاحبها أول زعيم وقائد لهذه المقاومة . ولعل هذا الغموض ناتج عن كون هذه الروايات قد صنفت فى فترة متأخرة نسبياً، فضلاً عن إيجازها الشديد واضطرابها فيما بينها أحيانا .

وكان من الطبيعى أن تتسم روايات المؤرخين المسلمين الأوائل عنها بنفس هذا الطابع من الإيجاز والاضطراب إن لم يكن أشد؛ لا سيما وأن روايتهم قد جاءت متأخرة عن مثيلاتها اللاتينية بما يقرب من قرن على الأقل [1] . وربما تغافل هؤلاء المؤرخون المسلمون عن تتبع بدايات حركة النشاط المسيحى المضاد للمسلمين فى أشتوريس، فلم يصلنا عنها مؤلف إسلامى واحد؛ وكل ما ورد عنها لا يخرج عن كونه إشارات مقتضبة متفرقة فى ثنايا كتاباتهم التى صنفوها لتاريخ المسلمين فى إيبيريا[2]، الذى استحوذ وحده على جهدهم . فبدت المقاومة فى كتاباتهم وكأنها كانت لديهم مجرد أمور غير مرئية، أو مسألة خلفية لم يتوقعوا لها نجاحاً أو توفيقاً؛ ومن ثم أهملوها تقليلا من شأنها واحتقارا- وهو شأن المنتصرين دائماً- وأشاروا إليها قائلين : « ثلاثون علجا ما عسى أن يجىء منهم ! » [3] .

وكان من نتيجة ذلك أن اختلف المؤرخون الحديثون بدورهم حول بداية هذا النشاط المسيحى المضاد للمسلمين بأشتوريس، وحول أصل القائد الذى تمكن أن يوحد ويثير كلا من بقايا القوط الجرمان التى ألجأها اكتساح المسلمين لإيبيريا إلى أشتوريس، مع سكانها اللاتين الذين كان قد تداول حكمهم الرومان اللاتين والسويف ثم القوط الجرمان . وسجل التاريخ لهؤلاء السكان اللاتين والقوط مقاومة رجحت فيها

---

(١) يرى الدكتور مؤنس أن مصادرنا العربية أقدم من اللاتينية أنظر : فجر، ص٣٤٢ . وللرد على ذلك أنظر: التعريف بمصادر ومراجع هذه الدراسة .

(٢) عن أوفى ما ورد عن بداية المقاومة هذه والذى لم يتعد سطورا قليلة، أنظر : المقرى عن الرازى، نفح، ٦ ص ٨٣، وعن ابن حيان، ٤ ص ١٥ ؛ أخبار مجموعة، ص ٢٨ ؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١٢ - ١٣ ؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٦ .

(٣) أنظر : المقرى أعلاه . وإن اعترفوا بالخطورة التى نجمت عن هؤلاء المعارضين فيما بعد، وعن ذلك أنظر : الروايات التى ينقلها المقرى عن الرازى وابن حيان والمسعودى وابن سعيد، نفح، ٤ ص ١٦، ٦ ص ٨٢- ٨٣ .

كفتهم على المسلمين، وامتدت آثارها بعد حين من الدهر لتشمل تحرير أشتوريس ثم كل إيبيريا من المسلمين، دون أن تقع إيبيريا فريسة لقوى أجنبية مرة أخرى .

هذا وتعزى المصادر اللاتينية أساس المقاومة ضد المسلمين فى أشتوريس لشخصية يدعى صاحبها بلاجيوس Pelagius ، وتقدمه على أنه ابن لدوق اسمه فافيلا Favila (Fafila) [١] . وإن لم يشذ عن هذا الإجماع سوى إحدى نسخ مدونة البلدة Albeldense وهى أقدم المدونات اللاتينية - إذ جعلته ابنا لدوق آخر يدعى برموند Veremundi [٢] دون أن تذكر أى تفصيلات عنه . ولأنها النسخة الوحيدة التى انفردت بذلك، فضلاً عما هو معروف عن دقة مؤلف المدونة وإيجاز عباراته بدرجة لا يحتمل معها أن يناقض نفسه، فقد أكد بعض المؤرخين الحديثين أن هذا لا يعدو إلا أن يكون خطأ فى النسخ [٣] . وهو خطأ سايرتها فيه مدونة أخرى هى مدونة بروفتيكا Proféica [٤] ، التى زادت الأمر خلطاً فجعلته برمود Veremudi بدلاً من برموند . فى حين آثرت مدونة سيلوس Silense [٥] الصمت فلم تتعرض لأصل بلاجيوس، وإن كان يتضح من روايتها جليا أنها تشير إلى القوط مما يوحى بأن الرجل كان قوطيا .

وفى الوقت الذى لم يشذ فيه أحد من المؤرخين الحديثين [٦] عن الإجماع بأن

---

(١) Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 62; Chron Sebastiani, ed. Florez, p 479 No. 8; Emilianense Codice, Esp. Sagr., Madrid 1758, 13 p 449 No. 1; Chron. Lusitanum, ed. Florez, p 402 , Cron de lucas, ed. Puyol, p 272 ؛ وانظر أيضاً . مجهول، فتح الأندلس، ص ١٢٦؛ وإن كنا لا نرى ما يراه الدكتور مؤنس (فجر، ص ٣٢٧) أن صاحب فتح الأندلس قد أخطأ فى نسب بلاجيوس . وانظر أيضاً : ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١٧٩؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٦٣؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٢، وإن كان هو الوحيد من بين المؤرخين المسلمين القدامى الذى يجعل فافيلا هذا دوقاً، وربما يرجع ذلك إلى أنه استقى معلوماته من مدونة ألفونسو العاشر Alfonso X اللاتينية، أما الرازى وابن حيان فقد آثرا الصمت عمن يكون والد بلاجيوس .

(٢) Ed. Florez, p 449 No. 47; Ed Huici, 1p 156 .

(٣) أنظر : Cabal, Covadonga, Madrid 1918, pp 242 - 3; Caveda, op. cit., p 49; Quadrado, op. cit., p 18 No. 2 .

(٤) Ed. Moreno, p 628 .

(٥) Ed. Florez, 17 pp 273 - 275 .

(٦) Quadrado, op. cit., p 18; Risco, Esp. Sagr., 37 p 60 No. 83; Velasco, op. cit., p 180; Caveda, op cit, pp 49 - 50; Saavedra, Pelayo, Madrid 1906, p 24; Danham, op cit, 2 p 121; Barrau - Dihigo, Recherches, p 115; Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 8, 79; Altamira, A History of Spain, p 101; Williams, The Historian's History, 10 p 38; Coppée, op. cit, 1 p 398; Urbel, op cit, p 24; Lévi - Provençal, Histoire, 1p 66; Setton, op cit, p32; A. Bleye, op cit, 1 p 477; Cayetano, op. cit. p 17; Lafuente, Ajbar Machmua, apen. 3, p 229 ؛ مؤنس، فجر، ص ٣٢٣؛ عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٢٠٥ .

بلاجيوس كان قوطياً وأنه ابن لفاڤيلا، فإن إجماعهم كان بداية لاختلافهم عمن يكون والد فاڤيلا وإلى أى جنس من الأجناس ينتمى . وقد نشأ هذا الخلاف من عدم وضوح الصورة فى المصادر اللاتينية، لأنها لم تهتم بإبراز أصل فاڤيلا بطريقة مباشرة؛ فضلاً عن اضطرابها فيما بينها . ولذلك يتطلب الأمر تجميع الإشارات المتفرقة الواردة عنه فى هذه المصادر، ومقارنتها بعضها ببعض لاستخلاص ما يمكن بشأن أصل ونسب فاڤيلا والد بلاجيوس .

فقد جعلت مدونتا سباستيان Sebastiani [١] والفونسو الثالث Alfonso III [٢] فاڤيلا والد بلاجيوس من أصل ملكى . وطبقا لمدونة لوكاس Cron de Lucas [٣] فهو ابن للملك القوطى تشنداسفنت Chindasvinthus [٤] (٦٤٢ - ٦٥٣ م) . وفى الوقت الذى ذكرت فيه مدونة سيلوس Silense [٥] أن ثيودوفريد Theudofredus من أصل ملكى قوطى ولم تحدد اسم والده، فإن مدونات روتنسى Rotense [٦] والفونسو الثالث Alfonso III [٧] وليون Léonaise [٨] بعد ما أوضحت هى الأخرى أن ثيودوفريد من أصل ملكى، أضافت أنه ابن للملك تشنداسفنت أيضاً، وأنه تزوج من ريسيلونا Ricilona (Rizilona) التى أنجب منها لذريق Rudericus (Rodrigo) آخر ملك قوطى [٩] . ومن ذلك يمكن القول بأن فاڤيلا وثيودوفريد أخوان، وأنهما من أصل قوطى جرمانى، وينتسبان إلى الأسرة الملكية إذ هما ابنان للملك القوطى تشنداسفنت .

ولما كان مؤكداً أن الملك القوطى تشنداسفنت، الذى تولى العرش فيما بين ١٠ مايو ٦٤٢م وأول أكتوبر ٦٥٣م، قد أنجب ابنا ثالثا هو رسسفنت Recesventhus، الذى خلفه على عرش المملكة القوطية وتوفى أول ديسمبر عام ٦٧٢م [١٠] . فضلاً

---

(١) Ed. Florez, p 479 No. 8; Ed. Huici, 1p 206 .

(٢) Ed. Villada, p 62 .

(٣) Ed. Puyol, p 272 . وقد علق الدكتور مؤنس على قول مؤلف المدونة بأن فاڤيلا ابن تشنداسفنت، بأنه زعم منه رغبة فى أن يجعل بلاى - بلاجيوس - سليلا للبيت القوطى، أنظر : فجر، ص ٣١٩ .

(٤) عنه أنظر : Diccionario, 1p 847 .

(٥) Ed. Huici, 2p 34; Ed. Florez, p 270 .

(٦) Ed. Moreno, pp 611, 612 .

(٧) Ed Villada, pp 105, 106 .

(٨) Ed. Cirot, p 385 .

(٩) أنظر أيضاً : Bradley, The Goths, 3 ed, London 1891, p 385; Cabal, op cit, p 189 .

(١٠) Chron. Regum Visigothorum, ed. Florez, Esp. Sagr. Madrid 1747, 2 pp 170. 177, 180; Chron. Isidore Pacense, ed Florez, p 290 No. 15; Chron Albeldense, ed. Florez, p 448; Ed Migne, 129 p 1135 .

عن وجود نقش خاص بمقبرة الملكة رسيبرجا Reciberga ينص على أنها قد تزوجت الملك القوطى تشنداسفنت وهى فى الخامسة أو السادسة عشر وأنه توفى فى الثمانين، بعد سبع سنوات فقط من زواجهما [١] ، فقد رأى فريق من المؤرخين الحديثين [٢] أن فافيلا وثيودوفريد ورسسفنت هم أبناء الملك القوطى تشنداسفنت من زوجته رسيبرجا.

وكاد الأمر يستقر على هذا النحو لو لم يعترض فريق آخر من المؤرخين الحديثين [٣] الذين ترسموا خطى إحدى المدونات اللاتينية المتأخرة - وهى مدونة دون لذريق Don Rodrigo [٤] - التى لم تجعل ثيودوفريد، أخ فافيلا، ابنا للملك تشنداسفنت كما ذهبت المدونات الأقدم منها - وإنما انفردت بالقول أنه ابن للملك رسسفنت Recesvinthus . ويؤيدها فى ذلك ما أشار إليه المؤرخ الإسبانى الحديث كابيدا Caveda [٥] بوجود مخطوطة قوطية تحوى نفس مضمون النقش الخاص بمقبرة الملكة رسيبرجا - المشار إليه - والاختلاف الوحيد بينهما، أن اسم رسسفنت قد حل فى المخطوطة محل اسم تشنداسفنت، مما يعنى أن ثيودوفريد وفافيلا ابنان للملك رسسفنت من زوجته رسيبرجا .

على أنه مع اختلاف الفريقين الواضح فى نسبة فافيلا وثيودوفريد، إما إلى تشنداسفنت وإما إلى رسسفنت؛ ولكل منهما حجته الوجيهة لتأكيد ما يذهب إليه، إذ يعتمد أصحاب الرأى الأول على نقش وأصحاب الثانى على مخطوطة، وكلاهما من مصادر الدرجة الأولى فى الأهمية؛ إلا أن الحقيقة لا زالت - رغم هذا الاختلاف - ماثلة فى اعتراف الفريقين بأن فافيلا والد بلاجيوس وثيودوفريد والد لذريق أخوان[٦]، وأنهما من أصل ملكى قوطى سواء أكانا ابنين لهذا الملك أو ذاك .

ولعل فى هذا ما يذهب شكرك أحد المؤرخين الإسبان الحديثين [٧] فى أن

---

(١) عن النقش ونصه، أنظر : Morales. op cit, 3p 138; Caveda, Restauracion, MRAH, Madrid 1879, 9 pp 50 - 51 .

(٢) أنظر : Risco, Esp. Sagr., 37 p 56 No. 77، ومنهم أيضاً Mariana و Morales وعن آرائهما، أنظر: Caveda, op cit, p 51 .

(٣) منهم : Don. Vicente, Ferrerus, Thompson .

(٤) Cron. del Rodrigo, ed . Fuensanta, p 190 . وانظر أيضاً : Saavedra, Pelayo, p 24

(٥) Restauracion, pp 50 - 51 .

(٦) انفردت مدونتا البلدة Ed. Florez, p 449 وبرونتيكا Ed. Moreno, p 628 بالقول أن بلاجيوس ابن أخ للملك القوطى لذريق، وفى هذا مخالفة لإجماع المدونات اللاتينية الأخرى .

(٧) Sanchez Albornoz, Origénes, 2p 80 .

يكون بلاجيوس من أصل ملكي، وإن كان يوافق على أنه من أصل قوطي . وينفي أيضاً الرأي القائل بأنه : « لا معنى للإصرار على أنه - أي بلاجيوس - ينحدر من صلب البيت الحاكم القوطي القديم » [١] . كما يصحح في ذات الوقت اعتقاد بعض مؤرخي المسلمين الأوائل بأن لذريق - آخر ملوك القوط في إيبيريا - لم يكن من أبناء الملوك ولا من سلالة القوط [٢] .

وإذا كانت المدونات اللاتينية على هذا النحو قد جعلت بلاجيوس ابنا للدوق فافيلا الذي ينتسب إلى أسرة ملكية قوطية جرمانية . فقد رأى بعض مؤرخي المسلمين الأوائل أن بلاجيوس - بلاي أو بلاية - أشتوري من إقليم جليقية Galicia ، وإن لم يذكروا شيئا عن والده ، فقالوا : « إن أول من جمع فل النصارى بالأندلس ... علج يقال له بلاي من أهل أشتوريس من جليقية » [٣] .

ومع أن ابن خلدون يرى أيضاً أن بلاجيوس ابن لفافيلا (فافلة) ، لكنه لا يوافق على أن يكون قوطيا؛ لاعتقاده أن أمة القوط قد ولت واندثرت وتبدلت بأمة أخرى بعد غلبة العرب لهم . كما يؤيد أصحاب الرأي السابق في زعمهم أن بلاجيوس أشتوري من جليقية، إذ يقول : « ونسبهم في الجلالقة من العجم كما تقدم، ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب القوط، وعندي أن ذلك ليس بصحيح فإن أمة القوط قد دثرت وغيرت وهلكت، وقل أن يرجع أمر بعد إدباره، وإنما هو ملك مستجد في أمة أخرى، والله أعلم » [٤] . ولنا على هذا الرأي بعض التحفظات :

فقوله أن « أمة القوط قد دثرت وغيرت وهلكت » لا ينطبق على الواقع بأن الأمم لا تندثر أو تفنى وتمحى كلية من الوجود كأنها لم تكن؛ والأولى القول بأنها تنصهر - بمرور الوقت - مع غيرها عن طريق الاندماج والاختلاط مع أمة أخرى؛ لتنشأ أمة جديدة لها صفات وخصائص الأمم التي تكونت منها، وهو ما حدث للقوط الهاربين بين سكان أشتوريس .

ومن ناحية أخرى، فلا نتوقع أن تتم هذه العملية فجأة، وإنما تستمر لأجيال

---

(١) أنظر : مؤنس، فجر، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) أنظر : المقري عن ابن حيان، نفح، ١ ص ٢٢٣، ٢٣٤ - ٢٣٥ ؛ أخبار مجموعة، ص ٥ ؛ ابن عذاري، البيان، ٢ ص ٣ ؛ الحميري، صفة، ص ٦، ١٩٣ ؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٠٣ ؛ وعنهم، أنظر: Cabal, op cit, p 189.

(٣) أنظر : المقري، نفح، ٦ ص ٨٢ .

(٤) أنظر : العبر، ٤ص ١٧٩ - ١٨٠ ؛ وانظر عنه أيضاً : Burguete, Rectificaciones, p 204. ويشارك ابن خلدون في رأيه كل من : مؤنس و Morales و Garibay و Sota و Burguete .

وقرون، وهو ما يتنافى مع قول ابن خلدون حينما يزعم أن القوط تغيروا وهلكوا وانقرضوا [١] بين عشية وضحاها عقب هزيمتهم وسقوط عاصمتهم . ثم يعود ليناقض نفسه قائلا بأنه فى ذات الوقت الذى انقرضت فيه أمة القوط، فمن بقى من أمم العجم - وهم فى رأيه يشتملون على القوط - يأوى مع الجلالقة للتحصن فى الجبال [٢] . ويبدو أن تفسير هذا الخلط يكمن فى أن ابن خلدون، وكان يكتب فى القرن الثامن الهجرى (الخامس عشر الميلادى) - أراد أن يشير إلى القوط فى عهدين مختلفين أحدهما يتعلق بأحوالهم وقت الفتح الإسلامى لإيبيريا حينما صورهم يلتجئون إلى الجبال متحصنين بها مع الجلالقة، والآخر يتعلق بهم على عهده هو؛ وكانوا بالطبع قد اندمجوا وانصهروا مع السكان الأصليين .

وربما يوحى قوله « إنما هو ملك مستجد فى أمة أخرى » أنه يقصد الملك والرئاسة وليس الأمة ذاتها؛ وهو ما نشايعه فيه إذ لا يختلف اثنان فى إمكانية زوال الملك والسيادة وإحيائهما فى أمة أخرى؛ وذلك ما حدث حينما حل المسلمون محل القوط فى شبه الجزيرة الإيبيرية، ولا يمتد قوله ليشمل ذلك الجزء الضئيل الذى استعاده القوط وسكان أشتوريس اللاّتين من المسلمين فى أشتوريس فيما بعد؛ إذ سنرى أن استعادتهم له كانت تمثل إحياء لسيطرة القوط البائدة وهو ما يتنافى مع قول مؤرخنا .

ثم إن قوله « وقل أن يرجع أمر بعد إدباره » فيه اعتراف منه باستثناء تطبيق قاعدته فى بعض الأحوال، وهو ما تحقق للقوى الإسبانية المناهضة للمسلمين فى أشتوريس، ولم يصدق قانونه هذه المرة . وأخيرا فلو افترضنا جدلاً اندثار أمة القوط وهلاكها، فهل ذلك بمبرر كاف عند ابن خلدون لكى يقطع بعدم قوطية بلاجيوس .

وعلى كل فقد تخطى المؤرخون المسلمون الآخرون تعقيدات الخوض فى نسب بلاجيوس وأصله، وآلوا على أنفسهم ألا يتخذوا موقفاً واضحاً صريحاً، فاكتفوا بالقول أنه قد « قام بأرض جليقية علج خبيث يدعى بلاى » [٣] أو « ولم تبق بجليقية قرية لم تفتح غير الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاى » [٤] ، أو « فإنه لجأ إليها ملك

---

(١) أنظر : العبر، ٤ ص ١١٨ (= فى نفح، ١ ص ٢١٩) .

(٢) أنظر أعلاه .

(٣) أنظر : المقرى عن ابن حيان، نفح، ٤ ص ١٥ ، وعن الرازى، نفسه، ٦ ص ٨٣ .

(٤) أنظر : أخبار مجموعة، ص ٢٨ ؛ أرسلان، تاريخ غزوات العرب؛ القاهرة ١٣٥٢ هـ، ص ٥٨ .

جليقية ، [١]، أو حتى ، فأما الصخرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية سوى ثلاثمائة رجل، [٢] .

ويلاحظ أولا على روايات هؤلاء المؤرخين طابع التعميم دون التخصيص، إذ أن الصخرة التى التجأ إليها بلاجيوس وجماعته ليست فى إقليم جليقية Galicia ، وإنما فى أقصى الطرف الشرقى من إقليم أشتوريس إلى الجنوب الشرقى من مدينة خيخون Gigone ، وتحتل جزءاً بإحدى القمم الغربية لجبال قمم أوربا Los Picos de Europa التى تمثل امتداداً غربياً لجبال كنتبرية La Cordillera Cantabrica ، وعلى ذلك فلم يفرق هؤلاء المؤرخون فيما بين إقليمى أشتوريس وجليقية [٣] - حسبما أشرنا آنفا - بل جعلوا الأولى ضمن الثانية على اعتبار أنها كانت جزءا من ولاية جليقية الرومانية .

أما جعلهم بلاجيوس ملكا لجليقية فلا يمكن بحال أن يفسر على أنه كان من مواطنيها، إذ ليس لزاما أن يكون الملك من نفس مواطنى المنطقة أو حتى من نفس الجنس؛ وهو ما يؤكده ابن الخطيب - ناقلا عن مدونة الفونسو العاشر القشتالية - بقوله: ، وإن كان - أى بلاجيوس - غريباً عن أرضه ، [٤] . وربما يقصدون بجعله ملكاً أنه ينتسب إلى أسرة ملكية، وهو ما يتفقون فيه مع المدونات اللآتينية، وإن اختلفوا معها فى القول بأنه ليس قوطياً .

وعلى كل فمثلما لم يدقق المؤرخون اللآتين الأوائل فى دراسة أحوال المسلمين فى تلك الفترة وبخاصة فيما يتعلق بأمر أنسابهم، ولم يعرفوا عنهم فى هذا الخصوص إلا معلومات جد سطحية؛ فإننا لا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا أن المؤرخين المسلمين بدورهم كانوا على هذه الشاكلة، ولم يعرفوا أو يعنوا كثيراً بأمر أنساب هؤلاء الخصوم قدر عنايتهم بشئون الحرب والسياسة معهم .

ومن هنا فإن المصادر اللآتينية أوثق صلة وأقوى ارتباطا بهذا الجانب من مثيلاتها الإسلامية، وهى برغم إيجازها واضطرابها أحيانا فإنها تكاد تكون واضحة فى تحديد نسب هذا الزعيم القوطى؛ كما أنها أقدم من المصادر الإسلامية، وليس من المستبعد أن يكون آباء مؤلفى معظمها - وهم الذين كانوا يدونون فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى - قد عرفوا أناسا عاصروا الفترة الأخيرة

---

(١) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٩ .

(٢) نفسه، ص ١٢ .

(٣) أنظر على سبيل المثال : الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ١٠٧ ؛ وانظر أيضاً : الإدريسى، نزهة، ص ٢٥٠ (طبعة ١٥٩٢م)، الذى يجعل بنبلونة ضمن جليقية على أنها لم تكن كذلك .

(٤) تاريخ، ٢ ص ٣٢٣ .

من عهد بلاجيوس على الأقل، إن لم يكن فترة توليه الرئاسة بأشتوريس . وبذلك كانوا يعرفون أخبارا ومعلومات قاطعة عن نسبه وأصله وزودوا بها مؤرخيهم؛ ومن ثم فلا مجال للشك فيما ذهبت إليه هذه المدونات اللاتينية بشأن قوطية بلاجيوس وانتسابه إلى الأسرة الملكية .

ثم إن اختيار بلاجيوس لرئاسة القوى المسيحية بأشتوريس - والذى كان يعتبر لبنة أولى مهدت الطريق لوضع أساس مملكة فى أشتوريس فيما بعد ذلك - كان تطبيقاً لإحدى قرارات مجالس طليطلة فى العصر القوطى، والتى تنص على أحقية القوط دون غيرهم من الأجناس فى اعتلاء العرش [١] . ولما كانت هذه القاعدة قد أوليت احتراما وصل إلى درجة التقديس، وروعى تطبيقها دون استثناء أو انتهاك طوال فترة حكم القوط بإيبيريا وحتى عهد آخر ملك من ملوكهم؛ فإنه من المستبعد إذن أن ينساها النبلاء القوط الهاربون إلى أشتوريس بهذه السرعة، وهم الذين لعبوا الدور الأساسى فى التمهيد لاختيار بلاجيوس بالذات لرئاستهم ورئاسة الأشتوريين اللاتين . هذا فى نفس الوقت الذى لم يكونوا يعرفون فيه سوى تقاليدهم القوطية، وما كان أمامهم إلا أن يطبقوها عندما سنحت لهم أول بادرة لممارستها؛ وبالتالى فكان ضرورياً بل ومنطقياً أن يسلموها لنبيل قوطى، وليس - كما يعتقد بعض المؤرخين الحديثين - [٢] لمجرد لص أو زعيم عصابة يبحث عن حظ أو جاه .

ومن ناحية أخرى فما كان هؤلاء يسلمون قيادتهم لأى نبيل قوطى مع وجود آخر من أسرة ملكية [٣] ، تحملت كثيراً وقاسى أفرادها من اضطهاد وعسف بعض ملوك القوط القساة الذين ولوا، ولم ينسوا ما حل بأبيه وعمه فى عهد الملك إجيكا

---

(١) عن نص هذه المادة، أنظر : Caveda, op cit, p 45 ، وهى المادة ٧٥ من قرارات مجلس طليطلة الرابع، الذى دعى إليه الملك القوطى سيسناند Sisenand فى عام ٦٣٣م، وحضره اثنان وستون أسقفا يمثلون أساقفة كل إيبيريا، وترأسه ايزيدور Isidore أسقف إشبيليه آنذاك، وعن أسباب انعقاده وأهم قراراته، أنظر : Chron. Regum Visigothorum, ed. Florez, p 194; Ziegler, Church and State in the Visigothic Spain, USA 1930, pp 93 - 95; Thompson, The Goths in Spain, Great Britain 1969, pp 172 - 180; O'Callaghan, op cit, p 48; Bradley, op cit, p 337 .

(٢) Burke, A History of Spain, London 1900, 1p 135

(٣) Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 479, Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 62; Huici, op cit, 1p 206 . ؛ ويشير ابن الخطيب إلى ذلك قائلا : « فاتفق أهل تلك الجهات على تقديمه ملكا بها، لاستحقاقه ذلك بنفسه وبيته » أنظر : تاريخ، ٢ ص ٣٢٣ .

Ejica من نفى وتشريد وتعذيب (١) ، بل ولم يكن قد نجا بلاجيوس نفسه من شدة وطأتهم عليه (٢) .

ومع كل ما سبق فقد رأى بعض المؤرخين الحديثين (٣) أن بلاجيوس لم يخرج عن كونه أشتورى الأصل أى من الكلت الأوربيين Celts أو الإيبيريين الرومان Ibro _ Romano؛ واعتمدوا فى ذلك إما على ما أوردته بعض الروايات الإسلامية القديمة (٤) ، وإما على اشتقاق الاسم لغويا على اعتبار أن أصل اسمه بلايو Pelayo ، الذى تحوى اللغة الأشتورية أسماء وألفاظا تنتهى مثله بالحروف ayo ، مثل Poyayo و Velcayo و Lubayo و Orvayo وغيرها (٥) . إلا أن هذا الرأى لم يعدم فريقاً آخر من المؤرخين (٦) للرد عليه وتأكيد خطورة الاعتماد على التفسير اللغوى وحده فى هذا الشأن، من منطلق أنه كان قد شاع استخدام كثير من نبلاء القوط وعامتهم - بالإضافة إلى أسمائهم القوطية - أسماء لاتينية (٧) ؛ ويدللون على ذلك بأنه قد وردت أسماء لاتينية فى توقيعات مجالس طليطلة لأساقفة ونبلاء لا يشك فى قوطيتهم؛ بل إن الملكين القوطيين إرفيجيو Ervigio وإجيكا Egica (٦٨٧ - ٧٠٠م) كانا قد أضافا اسم فلافيو Flavio اللاتينى إلى اسمهما القوطى .

وفى هذا المجال لا يجب أن ننسى أيضاً أثر التقارب الذى كان قد تم بين القوط وغيرهم من الإيبيريين الرومان أو الكلت بإيبيريا، فى إفساح المجال للتأثير اللغوى المتبادل بينهما، واستعارة كل منهم أسماء من قبل الآخر، وكانت أولى عوامل التقارب - كما أشرنا - إعلان ريكاريد Recaredo (٥٨٧ - ٦٠١ م) المسيحية على

---

(١) عن ذلك أنظر : Chron Albeldense, ed. Florez, p 449 No. 1, Chron. Léonaise, ed Cirot, p 385; Huici, op cit, 1p 156 No 2; Moreno, op cit, p 601; Risco, Esp. Sagr ., 37 p 56 No. 77; Barrau - Dihigo, Recherches, pp 115 - 116; Sanchez Albornoz, Origénes, 2, pp 8, 80; Saavedra, Pelayo. pp 23 - 24; Urbel, op cit, p 24; Cabal, op cit, pp 243 - 245 ؛ وانظر أيضاً : السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ٥٨ .

(٢) Chron. Albeldense, ed Florez, p 450 No. 50 .

(٣) منهم : Morales و Garibay و Sota ، وعن آرائهم، أنظر : Cabal, op cit, pp 235 - 237 .

(٤) وعلى الأخص روايتى : ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠ ؛ المقرى عن الرازى، نفح، ٦ ص ٨٢ .

(٥) أنظر : مؤنس، فجر، ص ٣٤١ - ٣٤٢ ؛ Burguete, op cit, p 204

(٦) Caveda, op cit, pp 42 - 43; Quadrado, op cit, pp 17 - 18 No. 1; Cabal, op cit, pp. 227 - 228, Saavedra, Pelayo, pp 25 - 26

(٧) مثل : Agricio, Foutiniano, Fortunato Reparato, Severino, Urso. Vitula

المذهب الكاثوليكي دينا موحداً للمملكة القوطية في عام ٥٨٧ م [١] ؛ ثم إلغاء رسسفنت Recesvinthus ، في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، القانون الذي كان يحرم التزاوج بين القوط وغيرهم من الأجناس [٢] ، وإحلاله التشريع القوطي محل مثيله الروماني وجعله أداة التعامل لكل رعايا المملكة [٣] .

ثم إن هذا التأثير اللغوي المتبادل لم يتوقف بانقضاء المملكة القوطية على يد المسلمين عام ٩٢هـ/ ٧١١م وإنما استمر فيما بعد، إذ بمراجعة توقيعات الأساقفة ورجال الدين- الذي كانوا من أصل قوطي- على مراسيم خاصة بهبات وعطايا منحت لكنائس وأديرة في أشتوريس حتى القرن التاسع الميلادي [٤] (الثالث الهجري) ، ثبت استخدام بعضهم لأسماء لاتينية [٥] . الأمر الذي لا يجعلنا نعتمد على التفسير اللغوي وحده لتبرير أصل بلاجيوس الأشتوري أو اللاتيني .

وغير هذا وذاك فإن أسماء والد بلاجيوس وابنه فافيلا Favila وابنته إرمسيندا Hermesinda [٦] هي أسماء قوطية، ولا يعقل معها أن يكون بلاجيوس من غير جنس أبيه وابنيه . كما أن مؤلف مدونة البلدة Albeldense قد أورد الحديث عنه تحت عنوان : تتابع ملوك أوفيدو القوط " Item Ordo Gothorum Ovetensium Regum" [٧] ، ولو لم يكن بلاجيوس بالفعل قوطياً لما أورد المؤلف الحديث عنه تحت هذا العنوان .

(١) عن هذا التحول الديني وأثره، أنظر: Chron. Biclarense, ed. Arias, p 138; Isidore of Seville's History, op cit, p 25; Altamira, A History of Spanish Civilization. p 42; Russell, op cit, p 68; Smith, op cit, p 16; King, Law and Society in The Visigothic Kingdom, Great Britain 1972, pp 122 - 125, 132; Ziegler, op cit, pp 32 - 35; Thompson, op cit, pp 94 - 95. ويشير الأخير إلى جزء من محتوى وثيقة التحول إلى الكاثوليكية، وترجمها إلى العربية السيد سالم، أنظر: تاريخ المسلمين، ص ٥٦ حاشية ١ .

(٢) Ziegler, op cit, pp 23, 61; Thompson, op cit, p 58; Chapman, op cit, p 31; Bradley, op cit, p 340; Altamira, A History of Spanish Civilization, p 43. ؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ٥٧ حاشية ١ .

(٣) Ziegler, op cit., pp 59 - 63; 73 - 74; Altamira, A History of Spain, pp 78, 81; Bradley, op cit, pp 340 - 341. وقد نشر هذا التشريع Zeumer بعنوان : Leges Visigothorum Antiquiores .

(٤) عن هذه الوثائق أنظر : Floriano, Diplomatica Espanola, 2 Tomos, Oviedo 1949 .

(٥) مثل : Valero, Flabio, Pompediano, Pompeyano, Claudio . Fortunio, Onorico, Antonio, Maximo ، وانظر عنهم بالترتيب الوثائق أرقام : ٨٠، ٧٧، ٨١، ٧٠، ٥٤، ٨٤، ٨، ٢٤، ٦٠ بالجزء الأول من كتاب فلوريانو Floriano السابق الإشارة إليه .

(٦) Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 62, 67, 115; Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 479 No. 8; Chron Emilianense, ed. Florez, p 449 No. 1; Chron. Albeldense, ed Moreno, p 601; Cron. Rotense, ed Moreno, p 615; Cron. Profetica, ed. Moreno, p 628 .

(٧) Ed. Florez, p 450 .

وإذا كانت بعض الأبحاث الحديثة [١] قد نفت كلية وجود بلاجيوس Pelagius وذلك بالخلط بينه وبين ثيوديمير Theudemir - الذى أسماه مؤرخو المسلمين باسم تدمير، وهو الذى صالحه عبد العزيز بن موسى عام ٩٤هـ /٧١٣م معترفا له بحكم ولاية تدمير (مرسية)، والاحتفاظ ببعض مظاهر الاستقلال فيها [٢] - وجعلتهما شخصية واحدة متمثلة فى الأخير، وجعلت ابنه أثناجيلد Athanagildo هو نفسه الفونسو الأول زوج ابنة بلاجيوس . واستند أصحاب هذه الأبحاث على صمت إيزيدور الباجى Isidore Pacense - الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى معاصرا لهذه الفترة - تجاه بلاجيوس وخلفائه، واهتمامه فقط بثيوديمير وابنه كدليل على ما يذهبون إليه . بيد أنه من المحتمل أن يكون إيزيدور قد تناول الحديث عن بلاجيوس فى إحدى أعماله المفقودة مثلما أشرنا من قبل . ومن ناحية أخرى فإن أقدم مدونتين لاتينيتين [٣] لم تذكرا ولو كلمة واحدة عن ثيوديمير ولا ابنه أثناجيلد أو حتى اسمهما، وإنما اهتمت فقط ببلاجيوس وخلفائه . فهل يعنى ذلك أن ننفى نحن وجود ثيوديمير وابنه استناداً على صمت المدونات اللآتينية عنهما ؟ . وفضلاً عن ذلك فبينما كان بلاجيوس وخلفائه من بعده يسيطرون فى جزء من أشتوريس Asturias مستقلين عن الحكم الإسلامى بالأندلس، كان ثيوديمير وابنه تابعين للمسلمين فى حكم ولاية تدمير (مرسية) بمقتضى المعاهدة التى عقدت بينهما؛ وموقع كل من المنطقتين - أشتوريس وتدمير- واضح لا لبس فيه سواء فى الكتابات اللآتينية أو الإسلامية؛ فالأولى فى أقصى شمال شبه الجزيرة والثانية فى

---

(١) على رأس أصحاب هذا الرأى : Orleans, Voltaire, Pierre de La Marca Archbishop of Paris وعن آرائهم بتفصيل، أنظر : Risco., Esp Sagr., 37 pp 70 - 71 No. 99 - 100; Danham, op cit, 1 p 336 Sqq; Coppée, op cit, p 397; Saavedra, Pelayo, p 27; Cabal, op cit p 43 ؛ أما المؤرخ Somoza فقد نفى كلية وجود شخصية بلاجيوس أنظر: Gigon , 2p 445 Sqq .

(٢) عنه أنظر : ابن الأبار، الحلة، ١ ص ٦٣ ؛ فجر، ص ١٢ وما بعدها . وعن كتاب الصلح بين الطرفين، أنظر: الضبى، بغية الملتمس، ص ٢٥٩ ؛ الحميرى، صفة، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ العذرى، نصوص، ص ٤ - ٥.

(٣) هما مدونتا البلدة Albeldense وسباستيان Sebastiani .

جنوبها الشرقى وشتان ما بين الموقعين، بل لا يوجد تشابه بين اسميهما أو أسماء بلدانهما (١). وعلاوة على ذلك فلدينا وثائق سابقة على عام ٨٨٣م (٢) ورد فيها اسم بلاجيوس مرتبطا بمنطقة أشتوريس دون غيرها . وعلى ذلك فإن أحد المؤرخين (٣) كان محقاً حينما قال : « فلا معنى إذن لإنكار وجوده - أى بلاجيوس - كما فعل بعض المسرفين فى الشك من المؤرخين » .

وإذا كان بعض المؤرخين الحديثين الآخرين (٤) لم يخلطوا بين بلاجيوس وثيوديمير كما فعل السابقون، فإنهم أخروا عهد بلاجيوس هو وابنه فافيلا Favila وخليفتهما الفونسو الأول Alfonso I إلى ما بعد عهد ثيوديمير Theudemir وابنه أثناجيلد Athanagildo، أى لما بعد عام ٧٤٣م/١٢٥هـ . وهذا يتنافى مع تحديد المصادر اللاتينية لفترة زعامة بلاجيوس وابنه وخليفتهما الفونسو الأول -وهو ما سنناقشه فيما بعد - تحديدا واضحا لا جدال فيه فيما بين عامى ٧١٨ - ٧٥٧م/٩٩ - ١٤٠هـ(٥)؛ وفضلاً عن ذلك فقد اتفقت جميعها على تحديد وفاة بلاجيوس فى عام ٧٣٧م (١١٩هـ)؛ ثم وفاة ابنه فافيلا بعد ذلك لعامين، أى فى عام ٧٣٩م/ ١٢١هـ؛ وبالتالى فلا يمكن تأخير فترة حكمهما دون سند إلى ما بعد وفاتهما بسنين عددا - كما يشاء البعض - ليخلفا تيوديمير وابنه أثناجيلد اللذين توقف الحديث عنهما فى مدونة

---

(١) لمقارنة أسماء مدن ولاية تدمير بأسماء مدن إقليم أشتوريس قارن : الضبى، بغية الملتمس، ص ٢٥٩، الحميرى، صفة، ٦٢ - ٦٣، وانظر : Diccionario, 1p 4; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 68 - 69; Cron . Rotense, ed. Moreno, p 615; Casiri, op cit, 1 pp 105 - 106; Chron. Sebastiani, ed. Florez, pp 481 - 482; Huici, op cit, 1pp 116, 214 - 215; Danham, op cit,. 1p 343; Perez de Cao, Estudios Historicos - Militares, R. Esp. 1871, 21 pp 170 - 171 .

(٢) الوثيقة الأولى مؤرخة فيما بين عامى ٧١٨ - ٧٣٧م، والثانية عام ٧٤٠م، والثالثة عام ٧٦٠م، وعنها أنظر : Floriano, op cit, 1p 29 Sqq، وانظر الملاحق عن الوثيقتين الأولى والثانية .

(٣) مؤنس، فجر، ص ٣٤٠ .

(٤) ومنهم : El Marquis de Mondejar, Mariana, Masdeu وعن آرائهم أنظر : Risco, Esp. Sagr., 37 pp 61 - 66 No. 84 - 93; Coppée, op cit, p 396; Watts, op cit, p 21; Danham, op cit., 1 pp 334 - 342; Govantes, Disertacion que contra el neuvos sistema ..., MRAH, Madrid 1847, 8 p 5 Sqq .

(٥) عن ذلك أنظر : Chron. Albeldense, ed. Florez, p 450 No. 50, p 451 No. 51 - 52; Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 481 No. 11, p 482 No. 14 - 15; Cron. Rotense, ed. Moreno, pp 615 - 616 .

إيزيدور الباجى منذ أوائل عهد والى الأندلس أبو الخطار الحسام أى منذ عام ١٢٥هـ/ ٧٤٣م فصاعدا .

والخلاصة أن معظم المؤرخين الحديثين [١] لا ينكرون وجود بلاجيوس Pelagius ابن فافيلا Favila ، ولا أصله القوطى وانتسابه إلى الأسرة الملكية القوطية .

هذا ولا نعلم شيئا عن نشأة بلاجيوس وسنى حياته الأولى، وفضلا عن ذلك فإن المعلومات المتعلقة بحياته فى أواخر العصر القوطى وأثناء الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبيرية قليلة للغاية قد تصل إلى حد الندرة، ومبعثرة فى ثنايا المصادر التاريخية اللاتينية مما يجعلها غامضة بل يشوبها الاضطراب .

ومع ذلك فالمدقق فى هذه المصادر اللاتينية يمكنه القول دونما تحفظ أن الملك القوطى إجيكا Egica - الذى تولى فيما بين عامى ٦٨٧ - ٧٠٠م [٢] - كان موتورا من الأخوين فافيلا Favila وثيودوفريد Theudofredus ودائم التخوف على عرشه من تطلعاتهما إلى استعادته فى أسرتهما، فقرر أن يشغلهما عن التفكير فى هذا الأمر بإبعادهما عن العاصمة القوطية طليطلة Toledo ، والتفريق بينهما ليسهل عليه الإيقاع بكل منهما على انفراد؛ فأبعد ثيودوفريد والد لذريق وعم بلاجيوس إلى قرطبة حيث فقئت عيناه هناك [٣] . فى حين أبعد أخاه فافيلا والد بلاجيوس إلى مدينة توى Tuy بإقليم جليقية، حيث كان وتيزا (غيطشة) Witiza ابن إجيكا - والذى سيتولى عرش مملكة القوط قبل لذريق - موكولا إليه مهمة حكم الإقليم وحفظ النظام

---

(١) Quadrado, op cit, p 18; Velasco, op cit, pp 179 - 180; Altamira, A History of Spain, p 101; Barrau - Dihigo, Recherches, pp 115 - 117; Danham, op cit, 2 p 121; Williams, op cit, 10 p 28; Pidal, op cit, 4 p 41; Lévi - Provençal, Histoire, 1p 66; Setton, op cit, 1p 32; Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 77 - 78; Watts, op cit. p 23; Urbel, op cit, pp 24 - 25; Coppée, op cit, 1 p 399; A. Bleye, op cit, 1 p 477, Perez de Cao, op cit, p 172 . عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، دوروثى، إسبانيا شعبها وأرضها، ص ٥٩ .

(٢) أنظر : Chron. Regum Visigothorum, ed. Florez, p 188 .

(٣) قارن : - Cron Alfonso III, ed. Villada, pp 105 - 106; Cron, Rotense, ed. Moreno, pp 611 - 612; Velasco, op cit, p 180; Quadrado, op cit, p 18 . وإن أشار السيد سالم أن غيطشة هو الذى فقأها بنفسه، أنظر : تاريخ المسلمين، ص ٥٨ .

هناك[1]، فعاش فاڤيلا بجليقية تحت أعين غيطشة وحراسته حينا، متصيدا له سببا للإيقاع به ربما حسب تعليمات من أبيه إجيكا، ولأن فى إيقاعه به تمهيد الطريق له ليخلف أباه على العرش القوطى دون متاعب من فاڤيلا .

ولما لم يكن قد بدر من فاڤيلا ما يستدعى هذا الاضطهاد والتربص، ولم يتعد الأمر مكيدة من مكائد الملك إجيكا وابنه غيطشة للإيقاع به تأميناً لشخصهما، فقد أشفقت زوجة غيطشة على فاڤيلا وتدخلت فى الأمر لدى زوجها محاولة إقناعه بالعدول عن اضطهاد فاڤيلا أو إيذائه؛ ولكنها أخفقت وذهبت محاولاتها أدراج الرياح إذ لم يصغ لها زوجها [2] ، وإنما ازداد تصميماً على ما يدور بخلده تأمينا لعرشه المرتقب، كما أثار تدخلها المتكرر غيرته على زوجته، ولذا فلم يتردد فى وضع نهاية لحياة فاڤيلا، فضربه بطريقة أودت بحياته إذ مات متأثرا بجراحه [3] .

(١) رأى المؤرخون مثل Saavedra, Danham, Caveda, Williams ومؤنس أن فاڤيلا كان دوقا لكنتبرية بشمالى إسبانيا، معتمدين فى ذلك على مدونتى Don Rodrigo و Alfonso X ، إلا أن هاتين المدونتين متأخرتان فى التدوين وتنفردان بهذه الرواية، ولذلك لا نطمئن إلى روايتهما كل الاطمئنان، وفضلا عن ذلك فإن دوق كنتبرية آنذاك كان بدرو Pedro (Petri) الذى تولاها عام ٦٨٧م وظل مستقلاً بها عن حكم المسلمين فيما بعد، وعندما توفى خلفه ابنه الفونسو الأول، الذى تولى حكم أشتوريس أيضاً فيما بين عامى ٧٣٩ - ٧٥٧م/ ١٢١ - ١٤٠هـ . وعن ذلك قارن Cabal, op cit, pp 232 - 233; Cotarelo, : Historia Critica ... de la Vida ... de Alfonso III, Madrid 1933, pp 31 - 32; Chron. Silense, ed. Florez, p 276 No. 26; Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 481 No. 13; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 67 - 68 . وعلى ذلك نستبعد أن يشغل فيها فاڤيلا نفس المنصب فى ذات الوقت، والأقرب إلى الصحة أنه كان صاحب مقام رفيع فى بلاط إجيكا، وأحد الدوقات الذين كانت أروقة البلاط تغص بهم، وكانت مهمتهم التصديق أحيانا على قرارات مجلس طليطلة . أنظر فى ذلك : Barrau - Dihigo, Recherches, p 116; Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 80 .

(٢) فسر البعض ومنهم Barrau - Dihigo و Albornoz ، وحسين مؤنس، أسباب الخلاف بين غيطشة وفاڤيلا بحب الأول لزوجة الثانى، واعتمدوا إما على مدونة الفونسو العاشر أو على مدونة إميليانز Emilianense التى أوردت عبارة غير واضحة فى تحديد ما إذا كانت الزوجة زوجة غيطشة أم فاڤيلا، ونصها : " Quaden Occasione Uxoris " (أنظر Esp. Sagr., 13 p 449) . إلا أن مدونة لوكاس التودى أوردت العبارة التالية : " Uxore Witizae Instigante " (أنظر عنها Quadrado, op cit, p 18 No. 1; Caveda, op cit, p 50) وهى أكثر وضوحاً وتحديداً فى جعلها زوجة لغيطشة، وبالتالى فلا تصدق رواية حب غيطشة لزوجة فاڤيلا، ولا أنها كانت السبب فيما نشب بينهما من خلاف، ولم يتعد الأمر محاولة زوجة غيطشة إثناءه عن فكرة اضطهاد أو قتل فاڤيلا .

(٣) عن هذه الأحداث بتفصيل، أنظر : Emilianense Codice, p 449 ، وانظر رواية مدونة لوكاس التودى التى يوردها Caveda ، فى مقاله ص ٥٠، ورواية الفونسو العاشر التى يرويها مؤنس، فجر، ص ٣١٩ أنظر أيضا : Barrau - Dihigo, Recherches, pp 115 - 116, Risco, Esp Sagr , 37 p 56

كان بلاجيوس عندما قتل أبوه مقيما فى القصر الملكى بطليطلة، يعمل عضواً فى الحرس الملكى Spatarius [1] فى بلاط غيطشة، الذى اعتلى العرش القوطى فى عام ٧٠٠ م . وكان من الطبيعى أن يستاء بلاجيوس منه بسبب ما حل بأبيه على يديه؛ ومن ثم فقد رضاه فأبعده هو الآخر عن العاصمة، ربما ليواجه نفس مصير أبيه وعمه . وما كان من بلاجيوس إلا أن مضى إلى أشتوريس ملتجأ [2] ، وظل مقيما هناك حتى وثب لذريق - ابن عمه - على غيطشة واعتلى العرش مكانه، فانضم - بدافع القرابة - للحزب الذى ناصر لذريق فى حركته، وربما لأنه وجد فى ذلك فرصة مواتية للانتقام من أبناء غيطشة وأفراد حزبه، وأصبح من أتباع لذريق ومؤيديه فكوفىء على ذلك - فضلاً عن قرابتهما - بإعادته إلى منصبه السابق فى القصر عضوا فى الحرس الملكى Spatarius [3] . وبذلك استعاد بلاجيوس مكانته ولم يلق مصير أبيه أو عمه الذى كان قد أراده له غيطشة .

وأغلب الظن أن بلاجيوس ظل شاغلا منصبه هذا حتى شرع المسلمون فى فتح شبه جزيرة إيبيريا، ودارت بينهم وبين جيش القوط معركة وادى لكة فى رمضان - شوال ٩٢هـ/ يوليو ٧١١م . ومن وصف المصادر الإسلامية لموكب الملك لذريق حينما ذهب لملاقاة المسلمين فيها وهو محمول على سريره ومصحوب بخيار العجم

---

(١) اختلف المؤرخون الحديثون فى تفسير ما تعنيه هذه الكلمة، فجعلها البعض « حامل سيف »، أنظر : مؤنس، فجر، ص ٣١٨، ٣٣٣ ,A. Bleye, op cit, 1 p 476 ؛ وجعلها عنان « أحد خاصة الملك وقادته» أنظر : دولة الإسلام، ١ص ٢٠٥ ؛ وفسرها Barrau - Dihigo بأنها « رئيس الحرس الملكى » أنظر : op cit, p 117 ، وفسرها آخرون بأنها « صاحب مقام رفيع » أنظر : Saavedra, Estudio, p 138 . على أنه لما كان منصب Spatarius ، ومنصب Comes Spatariorum معروفين بأسبانيا منذ العصر الرومانى، ويعنى أولهما عضو فى الحرس الملكى، وثانيهما رئيس الحرس الملكى، انظر King, op cit, p 54, Thompson, op cit, p 60 ، فإنا نعتقد أن مؤلفى المدونات اللاتينية كانوا يعرفون الفرق بين المنصبين، وأن بلاجيوس كان مجرد عضو فى الحرس، وإلا لأشاروا إليه على أنه Comes Spatariorum .

(٢) Chron. Albeldense, ed. Florez, p 450 No. 50; Huici, op cit, 1 p 158, Moreno, op cit, p 601 ، ورغم وضوح نص مدونة ابلدة، فقد ترجمه مؤنس على أن لذريق هو الذى نفى بلاجيوس من طليطلة على أثر خلاف بينهما، أنظر : فجر، ص ٣١٨ .

(٣) عن هذه الأحداث قارن : Chron Albeldense, ed Florez, p 450; Cron Alfonso III, ed Villada, p 108, Cron Rotense, ed Moreno, p 612, Chron. Silense, ed Florez, p 273; Velasco, op cit, p 179, Riso, op cit, 37 p 56 No 7.

وأهل ملة النصرانية وأملاكها وملوكها وفرسانها وجميع أهل قوة مملكته [١] ، يتضح أن أفراد الحرس الملكى ورجال القصر القوطى كانوا يصاحبون الملك فى حروبه وتنقلاته . ولما كان بلاجيوس من بين هؤلاء الفرسان باعتباره عضواً فى هذا الحرس، كما تشير المدونات اللاتينية، التى يفهم منها أيضاً أنه كان ملازماً للملك لذريق فى الجنوب الإيبيرى أثناء فتح المسلمين لها وتقدمهم بأراضيها [٢] ؛ فلا بد أنه - فى نطاق أداء واجبه كجندى وقرابته للملك - كان مرافقاً له فى هذا الموكب الذى خرج به لملاقاة المسلمين على وادى لكة، ومن ثم يكون قد شهد المعركة معه[٣] ، ولا نميل إلى الشك فى مشاركته فيها مثلما يذهب بعض المؤرخين الحديثين[٤] .

وعندما انهزم الجيش القوطى فى المعركة، وتسامع بذلك الأرستقراطيون القوط من النبلاء والحكام فى مدن إيبيريا تسارعوا إلى عاصمتهم طليطلة، ومنها اتخذوا طريقهم إلى أشتوريس تاركين المدينة خالية؛ فى ذات الوقت الذى ظل فيه فل الجيش القوطى وأعضاء الحرس الملكى ملازمين للذريق الذى أفلت من المعركة، متنقلين فى ركابه من مكان لآخر بمنطقة الغرب الإيبيرى، حتى تلاقوا مع المسلمين فى معركة السواقى فى عام ٩٤هـ/ ٧١٣م وانهزموا ثانية ولقى لذريق حتفه، فتشتتت فلولهم آنذاك فى أقصى نواحى هذا الغرب الإيبيرى، وتسارعوا إلى التهارب إلى أشتوريس

---

(١) قارن : ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص ٤٧ ؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢ ص ٦٠ ؛ المقرى عن ابن حيان وغيره، نفح، ١ ص ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٥ - ٢٢٦، ٢٤١ ؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٧ ؛ ابن عذارى عن الرازى، البيان، ٢ ص ٧ - ٨ ؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٠٦ .

(٢) Chron . Albeldense, ed. Florez, p 450 No. 50; Chron. Sebastiani, ed. Florez, pp 478 - 479 No. 8; Cron Alfonso III, ed. Villada, pp 62, 108; Cron. Rotense, ed. Moreno, p 612; Huici, op cit, 1 p 158, 2 p 44 .

(٣) Velasco, op cit, p 180; Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 882; Barrau - Dihigo, Recherches, p 117; Coppée, op cit, p 399; A. Bleye . op cit 1 p 476 . ؛ وانظر أيضاً :عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٢٠٥ ؛ محمد دياب، نفسه، ١ ص ١٩ ؛ دوروثى، إسبانيا شعبها وأرضها، ص ٥٩ ؛ الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ٥٤ وما بعدها .

(٤) أنظر : Quadrado, op cit, p 19, Saavedra, Pelayo, p 24 Somoza, op cit, 2p 494; Caveda, op cit, p 57; Risco, Esp. Sagr., 37 pp 56 - 57 No. 77 ، ويبدو أن هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا فى ذلك على ما ذهبت إليه مدونة الفونسو العاشر بأن بلاجيوس كان مقيما بأشتوريس حينذاك . وسنناقش ذلك فيما بعد .

أيضاً دون أن يعرجوا على العاصمة القوطية طليطلة إذ كانت قد وقعت فى أيدى المسلمين .

ولما كان بلاجيوس - كما أسلفنا - واحدا من أعضاء الحرس الملكى الذين واكبوا لذريق ثم تفرقوا بعد مصرعه، فإنه من المنطقى إذن أن يتلجىء إلى أشتوريس مع أفراد هذا الحرس بعد معركة السواقى ٩٤هـ/ ٧١٣م، وليس مع القوط من النبلاء وحكام المدن الذين اتخذوا طريقهم إليها عقب هزيمة وادى لكة مباشرة عام ٩٢هـ/ ٧١١م [١] ؛ خاصة وأن مدونة سيلوس Silense [٢] تصف طبيعة إقامة بلاجيوس فى البلاد فيما بين هزيمتى وادى لكة والسواقى (٩٢ - ٩٤هـ/ ٧١١ - ٧١٣م) قائلة إنه كان يتنقل من مكان لآخر غير معلوم أمام ضغط المسلمين وزحفهم على البلاد؛ وتكمل مدونة البلدة Albeldense [٣] الصورة محددة وقت وصوله إلى أشتوريس إثر سيطرة المسلمين على البلاد، ثم تحسم الأمر مدونتا سباستيان Sebastiani [٤] والفونسو الثالث Alfonso III [٥] حينما تذكران أنه التجأ إلى أشتوريس التى كان قد فر إليها النبلاء القوط؛ وبالتالى فمن المنطقى ألا يبدأ بلاجيوس رحلته إلى أشتوريس إلا بعد هذه الأحداث وبرفقة المجموعة الثانية .

وما كان من سكان أشتوريس اللاتين إلا أن استقبلوا أفراد المجموعتين القوط فى ترحاب، مساندين لهم فى بأسهم معتبرين القضية وقتذاك أمراً مشتركاً معهم، وتناسوا طغيانهم بهم عندما كانوا بالأمس القريب حكامهم؛ وكان على هؤلاء القوط أيضاً أن يتناسوا - ولو إلى حين - الفوارق المرتبطة بالثروة الواسعة والجاه أو الأصل العريق والسلطان، ليعيشوا مع سكان أشتوريس اللاتين على قدم المساواة؛ ومن ثم فقد

---

(١) إذا كان Caveda يرفض أن يكون بلاجيوس برفقة هؤلاء، قائلاً أنه لم يجد أى إشارة أو معلومة تجعله يتعرف عليه ضمن هذه المجموعة أنظر : Restauracion, pp 56 - 57 فإنه يعرض نفسه للمساءلة فيما إذا كانت قد وقعت يداه على أى معلومات جعلته يتعرف على أفراد هذه المجموعة دون أن تحوى معلومات عن بلاجيوس، فى نفس الوقت الذى يعترف فيه المؤرخ نفسه أنه لم يرد فى الروايات اللاتينية أو الإسلامية شىء من هذا القبيل، أو حتى قوائم بأسماء هؤلاء الفارين . ولماذا يتوقع أن يخصه مؤلفو الروايات اللاتينية بذكر معلومات أوفى، أو التركيز على أخباره بالذات فى الوقت الذى لم يكن يعلو فيه على أحد من رفاقه، ولم يكن ذا شأن يذكر يميزه عن غيره حتى تلك اللحظة .

(٢) Ed. Florez, p 273 No. 20

(٣) Ed Florez, p 450 No 50 .

(٤) Ed Florez, p 478 .

(٥) Ed Villada, p 62 .

اجتمع الطرفان وعاشا سويا، واختلطا بحكم البيئة التى ما كانت تتسع أوديتها الضيقة إلا لشعب واحد .

فلما امتدت موجة الفتح الإسلامى إلى أشتوريس واستولى المسلمون عليها، ثم عقدوا المعاهدات مع سكانها من الأشتوريين اللآتين والقوط الآوين بينهم، الذين التزموا بتنفيذ نصوصها، كان بلاجيوس Pelagius واحداً منهم، إذ أنه - على حد تعبير المصادر اللآتينية ذاتها - قد خضع بالفعل للمسلمين فى أشتوريس ودفع لهم الجزية [١] معترفا بالسيادة لهم .

ويلاحظ أن هذه السلسلة المتصلة من الأحداث فى حياة بلاجيوس وهى السلسلة التى بدأت باعتلاء غيطشة Witiza العرش القوطى حوالى عام ٧٠٠م، وانتهت باستيلاء المسلمين على أشتوريس أواخر عام ٩٥هـ/ منتصف ٧١٤م وخضوع بلاجيوس لهم، قد ساهمت المدونات اللآتينية بتزويدنا بها، ولم تتجاهلها سوى مدونة الفونسو العاشر - التى نقلها إلى العربية المؤرخ الإسلامى ابن الخطيب - ووجهتها وجهة أخرى، إذ جعلت بلاجيوس يفارق كنتبرية إلى أشتوريس Asturias على إثر خلاف له مع بعض الرؤساء، ويقيم بها دون أن يغادرها حتى أقدم المسلمون على فتحها، فيتصدى لهم ويدافع عنها هى وما يجاورها من نواح مثل ليون Léon وبرتقال Portucale [٢] . ولأن هذه المدونة انفردت بذلك عن غيرها من المدونات اللآتينية الأقدم؛ فضلا عن أنها كتبت فى فترة بلغ فيها الشعور القومى الإسبانى ذروته، فنعتقد أن كتابها لم يتحللوا من هذا الشعور، خاصة وأنهم كانوا يكتبون بتكليف من الملك الفونسو العاشر Alfonso X نفسه؛ ولذلك ربما شاءوا أن يبعدوا بلاجيوس Pelagius إلى أشتوريس، ولا يشركوه فى أعمال انهزم فيها القوط، ولا أن يشيروا إلى حقيقة خضوعه للمسلمين عندما فتحوا أشتوريس، لأنهم أرادوه منقذاً لها فنسبوا له دوراً بطولياً فى حمايتها والدفاع عنها هى وما يجاورها من مناطق حتى رد المسلمين عنها .

أما المؤرخ الإسبانى الحديث سابدرا Saavedra ، فلم يكتف بأن يجعل من بلاجيوس مدافعا وحاميا لأشتوريس وما يجاورها فقط، وإنما جعله ملكا على أشتوريس وقت اقتحام المسلمين لها فى عام ٩٥هـ/ ٧١٤م، ومدافعاً عنها حتى أعجزهم رغم

---

(١) Cron Rotense, ed Moreno, p 612, Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 108, Chron Léonaise, ed. Cirot, p 387 .

(٢) Antuna, Una Version Arabe, pp 116, 129 . ؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

قلة أتباعه [١] ، فاضطر المسلمون إلى مصالحته على استقلاله بحكم أشتوريس على أن يدفع لهم جزية سنوية؛ مثلما فعلوا مع رؤساء بعض نواحى جنوب شرقى وشمال شرقى شبه الجزيرة الإيبيرية [٢] . وقد سبق أن ذكرنا أن المسلمين فتحوا أشتوريس أواخر عام ٩٥هـ/ منتصف ٧١٤م، دون أن يتركوا بها أجزاء لم تفتح آنذاك، وأن ظهور بلاجيوس على المسرح السياسى كان بعد عام ٩٩هـ/ ٧١٨م؛ وفضلاً عن ذلك فإن المؤرخ السابق يفسر النصوص بحرية فيستخدم ما يشير منها إلى أحداث فى فترة لاحقة ليطبقها على فترة سابقة، وينتقى من المصادرحقائق معينة لتأييد رأيه؛ ويتجاهل غيرها التى من شأنها دحض رأيه كلية . وهو منهج عابه عليه المؤرخ الفرنسى باراو دييجو Barrau - Dihigo [٣] ، ولذلك تتضاءل الثقة فيما أورده المؤرخ ابن الخطيب نقلا عن مدونة الفونسو العاشر Alfonso X وما ذهب إليه سابدرا، وتعجز روايتهما عن نفى ما سبق أن أثبتناه من واقع المصادر الإسلامية واللاتينية بما فيها مدونة الفونسو العاشر نفسه، بشأن خضوع بلاجيوس للمسلمين هو وسكان أشتوريس اللاتين والقوط الجرمان اللاجئين بها .

بيد أننا نجهل مكان إقامة بلاجيوس بأشتوريس وقتذاك، وإن كان أقصى الجزء الشرقى منها الواقع به الصخرة - أو صخرة بلاى Pena de Pelayo وهو كهف سانتاماريا Cova Sanctae Mariae ، أو كوبادونجا Covadonga - قد صار مكانا لإقامته منذ عام ٩٩هـ/ ٧١٨م فصاعدا؛ وبالمثل لا نعلم بالضبط كم من الوقت أمضاه فى أشتوريس منذ خضوعه للمسلمين أواخر عام ٩٥هـ/ منتصف ٧١٤م حتى إيفاده إلى قرطبة عاصمة الأندلس أو وقت هذا الإيفاد وأسبابه .

فقد اكتفت المصادر اللاتينية بالقول أن المنيذر (منوزا) Munuza أمير أشتوريس المسلم قد أوفده إلى قرطبة فى مهمة خاصة، وأن المنيذر هذا أحب أختا لبلاجيوس وتزوجها أثناء غيابه بقرطبة، فلما علم بلاجيوس بأمر هذا الزواج رفض مباركته وثارت ثائرته، فهرب من قرطبة بغية إنقاذ الكنيسة، ولاحقته القوات الإسلامية للقبض عليه وإعادته إلى قرطبة [٤] .

---

(١) Estudio, pp 117 - 118, 138 .

(٢) Saavedra, Pelayo, p 9 . ، ويحدد المؤرخ هذه النواحى بمرسية Murcia وأوريوله Orihuela بالجنوب الشرقى، وألبة Alava وبنبلونة Pamplona وسردانية (شرطانية) Cerdana بالشمال الإيبيرى .

(٣) Recherches, p 315 .

(٤) Cron Rotense, ed. Moreno, pp 612 - 613, Chron. Léonaise, ed. Cirot, pp 387, 389 ; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 108 - 109 ; Cron de Lucas ed. Puyol, pp 272 - 273; Prim. Cron General, ed Pidal, I pp 319 - 320 . وانظر أيضاً : Quadrado, op cit, pp 19 - 20; Caveda, op cit, p 54 . No 5, p 71 No. 2; Barrau - Dihigo, Recherches, pp 117 - 118, Valdeavellano, op cit, I p 370

أما المصادر الإسلامية فقدمت بلاجيوس فى قرطبة أثناء ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفى رهينة وضماناً لطاعة سكان أشتوريس للمسلمين، وأنه هرب منها خلال ولاية نفس الوالى فى السنة السادسة من فتح الأندلس، أى فى عام ٩٨هـ [١]/ ٧١٦ ـ ٧١٧م على وجه التحديد .

وكما هو واضح فلا تحدد الروايتان السابقتان وقتاً بذاته لإرسال بلاجيوس إلى قرطبة، فيما بين فتح المسلمين أشتوريس أواخر عام ٩٥هـ/ منتصف ٧١٤م وهروبه من قرطبة عام ٩٨هـ/ ٧١٧م . على أنه لما كان على سكان أشتوريس ـ تنفيذاً لشروط الصلح مع المسلمين ـ أن يقدموا رهائن من بعض شخصياتهم ربما من ذوى الشأن وكل مدة معينة . فى نفس الوقت الذى ربما أيضاً اتبع الأمراء المسلمون بأقاليم شبه الجزيرة الإيبيرية ـ ومن بينها أشتوريس ـ تقليد إرسال وفد من وجهاء سكان أقاليمهم إلى العاصمة الإسلامية قرطبة، لتهنئة ولاتها الجدد من ناحية، ولتأكيد طاعة سكانها من ناحية أخرى؛ فنعتقد أن قدوم الحر بن عبد الرحمن لولاية الأندلس فى ذى الحجة ٩٧هـ [٢]/ يوليو ٧١٦ م، كان مناسبة لأن يرسل المنيذر أمير أشتوريس؛ وفد سكانها للتهنئة، خاصة وأن الحر كان أول من يفد من خارج شبه الجزيرة الإيبيرية لولايتها منذ إتمام فتحها [٣] . وكان وقت إرسال هذا الوفد فى بداية العام الهجرى ٩٨/ أغسطس ـ سبتمبر ٧١٦م يتفق مع وقت إرسال رهائن أهل أشتوريس فجعلهما المنيذر وفداً واحداً، لتهنئة الوالى ورهينة عن طاعة أهل أشتوريس . ولما كان بلاجيوس نبيل المنبت وأحد أفراد الأسرة القوطية المالكة، التى قام جيشها القوطى ـ ومن بين أفراده بلاجيوس نفسه ـ بمقاومة المسلمين حين فتحهم لإيبيريا؛ فكان فى إرساله إلى قرطبة ـ من وجهة نظر المنيذر ـ برهاناً لوالى الأندلس الجديد على ولاء من تبقى من هؤلاء القوط فاختاره ليكون واحداً من أفراد هذا الوفد .

ولعل ازدواج مهمة هذا الوفد هى التى تسببت فى عدم وضوح الرؤية أمام

---

(١) أنظر : المقرى، نفح، ٦ ص ٨٢ . وهو ينقلها عن بعض المؤرخين المسلمين القدامى دون أن يذكر أسماءهم، وهم ممن فقدت كتاباتهم .

(٢) أنظر : المقرى عن الرازى، نفح، ٤ ص ١٣؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٥ ويخطىء فى جعل التاريخ عام ٩٩ هـ، وكذلك يجعله زامباور عام ٩٨هـ، أنظر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، القاهرة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢م، ١ ص ٨٥ .

(٣) أول من تولى ولاية الأندلس بعد فتحها هو عبد العزيز بن موسى بن نصير، ومن بعده أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى، فيما بين عام ٩٥ ـ ٩٧هـ/ ٧١٤ ـ ٧١٦م . وعندما توليا ولايتها كانا بإيبيريا منذ أن قدما إليها وقت الفتح وبعدهما جاء الحر من خارج الأندلس .

مدونى المدونات اللاتينية فجعلوها مهمة خاصة دون أن يتبينوا بالضبط نوعيتها، وهى طبيعة لم تخف على المؤرخين المسلمين فأشاروا صراحة إلى وجود بلاجيوس بقرطبة كرهينة؛ وليس كما ذهب المؤرخ الإسبانى الحديث سابدرا Saavedra بأنه استدعى إلى قرطبة بهدف تعديل نصوص المعاهدة التى عقدها المسلمون لسكان أشتوريس، لتماثل تلك التى عقدوها لتدمير Theudemir صاحب تدمير Tudmir (مرسيه Murcia) [1] . يضاف إلى ذلك أن اتفاق الرواية الإسلامية مع اللاتينية على هروب بلاجيوس من قرطبة، وانفراد الرواية اللاتينية بالقول بتتبع القوات الإسلامية له للقبض عليه وإعادته إلى قرطبة، ما ينفى ما ذهب إليه المؤرخ المذكور.

وعلى كل فقد ظل بلاجيوس مقيماً فى مدينة قرطبة حتى هرب منها فى نفس عام ٩٨هـ/ ٧١٧م، دون أن تطلعنا المصادر الإسلامية السابقة على دوافع هذا الهرب، وهى دوافع حصرتها المدونات اللاتينية فى انتهاز المنيذر فرصة غياب بلاجيوس فى مدينة قرطبة للزواج من أخته التى أحبها [2]، فرفض بلاجيوس مباركته عندما علم بأمره وثارت ثائرته وأراد إنقاذ الكنيسة !!!

---

(١) Estudio, p 140 .

(٢) وجدير بالذكر أن Isidore Pacense ينسب قصة زواج أخرى للمنيذر الذى يسميه Munnuz، فيقول أنه كان بربرياً، ولأن إخوانه من البربر كانوا يعانون الظلم على أيدى العرب، فقد صاهر أودو Eudo دوق أكويتانية Aquitania من بلاد غالة وتحالف معه، ووثب بالعرب وصار فى حرب دائمة معهم، حتى نهض إليه عبد الرحمن الغافقى وإلى الأندلس، وتتبعه فى خوانق الجبال وممراتها، ووضع نهاية لحياته عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م . أنظر: Esp. Sagr., 8 pp 309 - 310 No . 58 وقد نقل عنه هذه القصة صاحب مدونة دون لذريق Don Rodrigo ، وتابعهما فيها معظم المؤرخين الحديثين، وعلى سبيل المثال أنظر: مؤنس، فجر، ص ٣١٥ - ٣١٧ والمراجع المعطاة؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٤١ وحاشية ٢؛ ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٥١؛ عنان، دولة الإسلام، ١ص ٨٦؛ أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ٨٧ - ٨٩، ٩٨ . على أن المدونات اللاتينية الأخرى التى كتبت فى شمال إسبانيا أو فى غالة لم تشر إلى هذه العلاقة، وانفرد ايزيدور الباجى بها وكان يكتب فى جنوب إسبانيا بعيدا عن الشمال. ثم أن نزاع العرب والبربر لم يبدأ إلا بعد حوالى عشر سنوات من الوقت الذى يحدده ايزيدور، كما كان المنيذر عربيا، وقتل فى أشتوريس ذاتها بأيدى سكانها عام ١٠٣ هـ/ ٧٢٢م، ولهذا لا ننفى كلية قصة ايزيدور، وإنما نرجح أن الأمر اختلط عليه فنسب القصة إلى ابنة أودو، أو إلى منوزا وكانت تخص أميرا غيره ربما خليفة له .

ولا بد من وقفة أولا عند قصة هذا الزواج الذى اعتبره بعض المؤرخين الحديثين [1] مجرد قصة رومانتيكية لا توجد إلا فى القصص الشعبية، واستبعدوا أى تأثير له على مصائر البلاد . وإن كانت لا توجد دوافع قوية تدعونا إلى نفيه كلية إذ لم يكن الأول من نوعه فى تاريخ إيبيريا ذاتها، فقد تزوج الوالى عبد العزيز بن موسى بن نصير من إخيلونا Egilona أرملة لذريق، التى تكنيها المصادر الإسلامية بأم عاصم [2] ، كما تزوج زياد بن نابغة التميمى من إحدى سيدات الأسرة المالكة القوطية [3] ، ولابد أن كثيراً من المسلمين قد حذوا حذوهما لا سيما أنهم لم يصطحبوا نساءهم فاختلطوا بالإيبيريات أهل البلاد .

كذلك فلا نستبعد أن تؤثر مثل هذه الأمور - وإن بدت صغيرة - على مصائر البلاد ومستقبلها، فقد حدث أيضاً فى تاريخ إيبيريا ما كان قريب الشبه من ذلك مع اختلاف قليل، كقصة اغتصاب لذريق لابنة يوليان حاكم مدينة سبتة، مما دفعه إلى الانتقام منه بإرشاد المسلمين ومعاونتهم فى فتح إيبيريا [4] فتغير مصير إيبيريا ومستقبلها لقرون بعد .

ومن ثم فلا نستبعد قصة المنيذر وزواجه من أخت بلاجيوس، إلا أن وجه الاعتراض ينصب على ما تشير إليه المدونات اللاتينية من استغلاله الفرصة للزواج منها فى غياب أخيها؛ إذ يتنافى ذلك مع أخلاق المسلمين وتعاليم الدين الإسلامى، وكان المنيذر من بيت علم وصلاح وتقوى، فأبوه من فقهاء المحدثين وهو ذاته من أصاغر الصحابة؛ الأمر الذى نستبعد معه أن يكون المنيذر قد أقدم على مثل هذا العمل . وربما أبدى المنيذر لبلاجيوس رغبته فى الزواج من أخته ولم يكونا قد أقرا الأمر حتى وقت إرسال بلاجيوس إلى قرطبة ضمن أفراد وفد رهائنها، وهى مهمة

---

(١) Caveda, op cit, p 55, 63; Quadrado, op cit., p 20; Saavedra, Pelayo, pp 28 - 29; Barrau - Dihigo, Recherches, p 117; Somoza, op cit, 2pp 493 - 494 .

(٢) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٦٣؛ أخبار مجموعة، ص ٢٠؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٣؛ ، وانظر أيضاً : الحجى، أندلسيات، ص ٧٦ - ٧٧؛ مؤنس، فجر، ص ٥٠٢؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١١٣، ١١٢٨؛ جمال الرمادى، فتوح العرب فى أوربا، دائرة معارف الشعب رقم ٦٤ ص ٢٢٥؛ Perez de Cao, op cit, p 171 .

(٣) أنظر : أخبار مجموعة، نفس المكان والصفحة؛ ابن عذارى، نفس المكان والصفحة .

(٤) انفرد المؤرخون المسلمون دون اللاتين بإيراد هذه القصة وعنها، أنظر : أخبار مجموعة، ص ٥؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٧ (= فى نفح، ١ ص ٢١٧)؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٣٦؛ المراكشى، المعجب، ص ٩ - ١٠؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٥؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٣ - ٣٤؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٤٢؛ الخانجى، منجم العمران فى المستدرك على كتاب المعجم لياقوت، مصر ١٣٢٥ هـ، ١٠ ص ١٦٨؛ عنان، دولة الإسلام، ١ص ٣٤ - ٣٧ .

اختلط أمرها على بلاجيوس فاعتقد أنها لتهنئة والى الأندلس، فلما طالت به الإقامة بقرطبة استبانت له الرؤية وتأكد أن مقامه بها ليس إلا رهينة، فى وقت كانت لا تزال الهواجس تلعب برأسه منذ أن أبدى له المنيذر رغبته فى الزواج من أخته؛ وبالتالى اعتقد أن المنيذر دبر أمر إبعاده ليسهل عليه إتمام الزواج منها، فوجد فى ذلك امتهاناً لشخصه ولأخته، واجتمعت لديه بذلك عوامل شخصية أثرت فى نفسيته ودفعته لأن يضع خطة الهرب من قرطبة بهدف الانتقام من المنيذر فى شخص المسلمين، فتمكن من الهرب منها فى عام ٩٨هـ/ ٧١٧م لهذا الهدف وليس كما تدعى المدونات اللاتينية التى أضفت على مهمته طابعا دينياً قومياً فجعلتها لتخليص الكنيسة ومن ثم تحرير البلاد !!

ومع أن الرواية الإسلامية - التى يوردها المؤرخ العربى المقرى - حددت وقت هروب بلاجيوس من قرطبة فى أيام الحر بن عبد الرحمن فى السنة السادسة من افتتاح الأندلس أى عام ٩٨هـ [1] (٧١٦ - ٧١٧ م) وهو تحديد غير قاطع؛ إلا أنه يمكن أن نتخذه أساسا لنحدد به تاريخ هذا الهرب خلال عام ٩٨هـ السابق . فقد بدأت سنة ٩٨هـ فى الخامس والعشرين من أغسطس ٧١٦م وانتهت فى الثالث عشر من نفس الشهر عام ٧١٧م [2] ، ولابد وأن تاريخ الهرب كان فى وقت ما يقع بينهما . ولما كان المؤرخ العربى السابق قد حدد أيضاً وقت هذا الهرب فى السنة السادسة من افتتاح الأندلس؛ فإنه إذا حددنا العام الميلادى الموازى لهذه السنة السادسة (٩٨هـ) ، لعرفنا فى شىء من التحديد التقريبى تاريخ الهرب خلال العام الممتد بين الخامس والعشرين من أغسطس عام ٧١٦م والثالث عشر من أغسطس العام الذى يليه .

ونعتقد أن المؤرخ العربى لا يقصد بعام افتتاح الأندلس تاريخ دخول القوات الإسلامية إليها، وإنما بالأولى تاريخ انتصارها على القوات القوطية، وهو ما تم فى معركة وادى لكة فى الخامس من شوال عام ٩٢ هـ/ ٢٦ يوليو ٧١١م، إذ بهزيمة القوط فيها يكون قد تحدد تقريباً مصير البلاد وتكون قد فتحت بالفعل، على الأقل من

---

(١) أنظر : نفح، ٦ ص ٨٢؛ وأنظر: Sanchez Albornoz, La Espana Musulmana, 1 pp 76 - 77; Urbel, op cit, p 23 . هذا وقد نسب مؤنس للمقرى خطأ تحديد تاريخ هذا الهرب بعام ٩٩هـ، وإن عاد بنفس المكان فصححه بعام ٩٨هـ، وإن جعله موازيا لعام ٧١٨م . أنظر : فجر، ص ٣٢٨ . كما أن على حبيبة قد جعله عام ٩٩هـ أنظر : مع المسلمين فى الأندلس، ص ٤١٧ .

(٢) قارن : زامباور، معجم الأنساب، ٢ ص ٥٢٣؛ محمد مختار، التوفيقات الإلهامية، ط١ ، بولاق ١٣١١هـ، ص ٤٩؛ ويستنفلد، جدول السنين ، ترجمة ماجد وعبد المحسن رمضان، ط١ ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ١٦ .

وجهة النظر الإسلامية؛ وهو ما أكده نفس المؤرخ العربي في مكان آخر، بقوله : « أن الفتح كان لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين [١] » . وبذلك تكون السنة السادسة لهذا الفتح قد بدأت في الخامس من شوال عام ٩٨هـ/ الثاني والعشرين من مايو عام ٧١٧م؛ ولما كانت سنة ٩٨هـ تنتهي - كما أسلفنا - في الثالث عشر من أغسطس عام ٧١٧م، فيكون هروب بلاجيوس من قرطبة قد حدث بالتحديد فيما بين الثاني والعشرين من مايو والثالث عشر من أغسطس عام ٧١٧م/ الخامس من شوال - آخر ذي الحجة عام ٩٨هـ . ويكون بلاجيوس قد أمضى بقرطبة أقل من عام بقليل حتى تمكن من الهرب منها .

ولم يكن من الحر بن عبد الرحمن والي قرطبة إلا أن أصدر تعليماته وأوامره لتعقب هذا الهارب واللحاق به وإلقاء القبض عليه وإعادته إلى قرطبة حياً كان أو ميتاً[٢] . وعلى الفورفقد بدأت فرقة من القوات الإسلامية تنفيذ تلك المهمة وكان أملها أن تضع أيديها على هذا الهارب حتى ولو عن طريقة الحيلة والخديعة [٣] ، إذ كان أفرادها يعلمون أن الرحلة فضلاً عن أنها مضنية طويلة في غيبة وسائل سريعة من قرطبة إلى الشمال؛ فهي صعبة لتعقد تضاريس منطقة خط سير الرحلة واختراق الجبال لها من الشرق إلى الغرب، مع كثرة الغابات بمناطق الشمال؛ مما كان يجبرهم على مضاعفة الجهد وضرورة استخدام الحيلة . أما بلاجيوس فقد كان عليه هو الآخر أن يبذل جهداً مضاعفا لجهد هؤلاء ليصل إلى الشمال قبل أن تقع عليه أيديهم، كما كان عليه أن يلتزم جانب الحذر ليتحاشى الوقوع في المصاعب والأخطار وهو في هذه الحالة النفسية السيئة .

كادت القوات الإسلامية المطاردة أن تظفر ببلاجيوس في إحدى مدن أشتوريس التي تسمى بريس Brece [٤] ، إلا أن المقادير ساعفته حينما حذره بعض

---

(١) أنظر : نفح، ٤ ص ٥٣ - ٥٤، وقد أكد ذلك أيضاً ابن حيان برواية المقري، نفح، ١ ص ٢٨٠؛ مجهول، فتح الأندلس ص ٤١؛ وإن أشار المراكشي، المعجب، ص ٩، ٣٦٦ إنها فتحت في رمضان عام ٩٢هـ، أما الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٥ فقد اكتفى بالقول إجمالا بأن أول أوقات افتتاحها عام ٩٢هـ .

(٢) Chron. Léonaise, ed Cirot, p 387; Cron. Rotense, ed. Moreno, p 613; Cron. Alfonso III, ed .Villada, pp 108 - 109, Cron de Lucas, ed. Puyol, P 273 . وإن جعلوا والي قرطبة آنذاك طارق بن زياد بدلا من الحر بن عبد الرحمن .

(٣) أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 11, 89 .

(٤) توجد حاليا بأشتوريس مدينتان بنفس الاسم إحداهما Brezin والأخرى Santa Cruz de Brez ، ولا نعلم أيا من المدينتين تعنيها المدونات اللاتينية وعنهما أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 89 No 88

العارفين له ليتدبر حاله وأمر إفلاته من أيدى المسلمين؛ فعبر نهرا يسمى بيانون Pianoni (Pianoniae) وهو أحد فروع نهر سيا Sella [١] ؛ متخذا طريقه إلى وادى كانجاس Canicas الكثيف بالغابات، ومنه اختفى عن أعين مطارديه كلية فى جبال قمم أوربا Los Picos de Europa المجاورة، التى يستحيل فيها البحث عمن يختفى بها وذلك لوعورتها وتعقدها؛ فعادت القوات الإسلامية إلى قرطبة دون أن تحقق من مهمتها شيئاً [٢] .

ونعتقد أنه لو لم يكن بلاجيوس حقيقة شخصية فذة ذكية لما استطاع أكثر من أن يهرب ويختفى عن أعين مطارديه، مقتنعاً بتوقفهم عن تتبعه وبما آل إليه مصيره. ويبدو أيضاً أنه لم يكن بالشخص الذى يرضى بالقليل أو بما تفرضه عليه الأمور؛ ناسياً ما عقد عليه العزم من إثارة سكان أشتوريس ـ اللاتين والقوط على السواء ـ وتعبئة مشاعرهم ونفوسهم ضد المسلمين، وذلك انتقاماً من المنيذر أمير أشتوريس المسلم؛ بسبب إدراكه أن إرساله إلى قرطبة كان كرهينة، وبسبب هواجس زواج هذا الأمير من أخته فى غيبته؛ وهو ما اعتبره امتهاناً من المسلمين ـ فى شخص المنيذر ـ له ولأخته . وهو وإن لم يكن لديه أيضاً فى ذلك الوقت أدنى فكرة لاستعادة أو إحياء المملكة القوطية البائدة، ولا أى أمل فى أن يكون قائداً أو مرموقاً، فإن الأقدار قد شاءت له أن يرتفع نجمه فى وقت لن يكون بعيداً؛ من مجرد عضو سابق فى الحرس الملكى القوطى إلى زعيم للمقاومة المسيحية ضد المسلمين فى أشتوريس .

فقد وفاته المقادير بفرصة طيبة لم يتردد فى اغتنامها والاستفادة منها، إذ قابل وهو فى طريق اختفائه بجبال قمم أوربا بعض سكان المنطقة الأشتورية؛ وهم فى طريقهم إلى حضور اجتماع Concilium [٣] لا ندرى أسبابه أو نوعيته، فتحدث إليهم حديثاً أثارهم إذ استغل فيهم طباعهم الجبلية سهلة الإثارة؛ كما أنه أثار الحمية فى

---

(١) Ibid .

(٢) عن هذه الأحداث أنظر: Cron Rotense, ed Moreno, p 613, Cron Alfonso III, ed Villada, pp 108 - 109, Chron Léonaise, ed Cirot, p 389, Cron. de Lucas, ed Puyol, p 273; Prim. Cron General, ed Pidal, 1p 320; Sanchez Albornoz, Otra vez de Guadalete y Covadonga, CHE 1944, 1 - 2 pp 85 - 86

(٣) Cron Rotense, ed Moreno, p 613; Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 159, Chron Léonaise, ed. Cirot, p 388, Valdeavellano, op. cit , p 371; Urbel, op cit, p23.

قلوب القوط الجرمان الآوين بينهم، وربما أحيى حديثه فيهم الآمال الكامنة لاستعادة ماضيهم بإحياء مملكتهم البائدة، أو على حد تعبير المؤرخ الإسلامى الكبير ابن حيان، فإنه ألهب حماستهم وأذكى قرائحهم، وعاب عليهم طول الفرار والاستسلام، حتى سما بهم إلى طلب الثأر (١) .

ولا بد وأن بلاجيوس قد أدخل فى روع الأشتوريين اللاتين والقوط الجرمان أنهم سيدافعون عن قضية عامة مشتركة تهم كلا منهم، ولم يفته أيضاً أن يستفيد من الوازع الدينى فى دفع هؤلاء وأولئك للدفاع عن المسيحية وعقيدتها؛ التى كانت على وشك التلاشى فى هذا الركن القصى من إيبيريا . ولذلك ظهر بلاجيوس فى أعينهم ملاكاً زائراً ورجل الساعة مشجعاً لهم فى حالتى بأسهم ويأسهم، منقذاً لصليب المسيح ومحباً له؛ فاقتنعوا به وبندائه وآتى حديثه ثمرته، إذ قرروا على الفور إرسال ممثلين عنهم إلى أنحاء أشتوريس لجمع الجموع وحشدها، داعين إلى عقد اجتماع موسع عام ليضعوا فيه خطتهم ويناقشوا أسلوب عملهم ضد المسلمين .

وتدفق الناس من كل صوب وحدب فى أشتوريس إلى المكان الذى تحدد فى الكهف الآمن- الذى عرفه المسلمون بصخرة بلاى Pena de Pelayo - الكامن بجبل أوسبة Auseva أحد الجبال المعروفة بقمم أوربا، حيث انعقد الاجتماع الذى انتهوا فيه من وضع خطتهم، وقرروا بالإجماع اختيار هذا الداعى بلاجيوس قائدا لهم ينضوون تحت زعامته يوحد صفوفهم ويكون مرجعهم؛ على أن تكون مدينة كانجاس Canicas - كانجاس دى أونيس Cangas de Onis الحالية - مركزاً لهم ومستقرا (٢) . وبذلك استطاع بلاجيوس أن يوحد كلا من القوط الجرمان والأشتوريين اللاتين، ويعبىء نفوسهم ضد المسلمين ويثير اهتمامهم فرضوا به زعيما، وبدأت تتشكل فى أشتوريس بالشمال الإيبيرى منذ ذاك الوقت بوادر حركة تمرد ضد المسلمين؛ الذين لم يكن قد مضى على فتحهم لها سوى سنوات قلائل، لكن سيكون لها أهمية كبرى فى السنوات القليلة القادمة .

---

(١) أنظر : المقرى، نفح، ٤ ص ١٥؛ وانظر أيضاً : مؤنس، فجر، ص ٣٢٤ .

(٢) عن هذه الأحداث أنظر : Cron. Rotense, ed Moreno, p 613; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 62, 109 - 110; Chron Léonaise, ed. Cirot, pp 387 - 388; Chron *Sebastiani*, ed. Florez, p 479 No. 8; Chron. Silense, ed. Florez, p 273 No. 20 . وعن تصوير الشعر الإسبانى الحديث لطريقة هذا الاختيار، الذى حمل فيه المجتمعون بلاجيوس على الأعناق، أنظر : Danham, op cit, 2 : Apen. B, p 294 .

وإذا كانت مدونات كمبوستلا Compostellanum[١] وكمبلوتي Complutense[٢] ولوزيتانيا Lusitanum [٣] لم تحدد تاريخ اختيار بلاجيوس زعيما للأشتوريين اللاتين والقوط الجرمان، واكتفت بالقول أنه تولاها لمدة تسع عشرة سنة . ثم كانت مدونات سباستيان Sebastiani [٤] والفونسو الثالث Alfonso III [٥] وروتنسى Ro-tense [٦] وليون Léonaise [٧] أكثر تحديدا حينما أكدت أنه توفى فى عام ٧٣٧م/ ١١٩هـ، بعد زعامة دامت تسع عشرة سنة كاملة . فقد انفردت مدونة بروفتيكا Pro-fética [٨] بتحديد عام ٧١٨م/ ٩٩هـ عاما لاختياره؛ وكانت أكثر دقة من المدونات السابقة حينما أشارت أنه تولى الزعامة لمدة ثمانى عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً. يضاف إلى ذلك أن شاهد مقبرة بلاجيوس ذاته [٩] والنقش الخاص بتأسيس ابنه فافيلا - الذى خلفه فى الزعامة - لإحدى الكنائس بأشتوريس [١٠] تخليدا لذكرى والده؛ يدلان بصورة لا تقبل الجدال على أن بلاجيوس قد توفى فى عام ٧٣٧م/١١٩هـ وأنه لم يعد على قيد الحياة بعد هذا العام؛ وهو نفس العام الذى قدمته المدونات اللاتينية السابقة تاريخا لوفاته . وبالتالى فلا نشك فى التحديد الذى تقدمه نفس المدونات بشأن مدة زعامة بلاجيوس بحوالى تسع عشرة سنة [١١] ، ويكون اختياره قد تم فى منتصف ٧١٨م / أواخر عام ٩٩هـ .

ومن ناحية أخرى، فكما ذهبنا قبلا بأن هروب بلاجيوس من قرطبة إلى أشتوريس قد تم تحديداً فيما بين الثانى والعشرين من مايو والثالث عشر من أغسطس

---

(١) Ed. Florez, 23 p 325; Ed. Huici, 1 p 82 .

(٢) Ed. Huici, 1 p 52 .

(٣) Ed. Florez, p 402 .

(٤) Ed. Florez, p 481 No 11

(٥) Ed. Villada, p 67 , 115

(٦) Ed. Moreno, p 615 .

(٧) Ed. Cirot, p 390 .

(٨) Ed. Moreno, p 628 .

(٩) عنه أنظر : Quadrado , op cit, p 34; Somoza, op cit, 2 p 482 .

(١٠) عنه أنظر : Risco , Esp. Sagr , 37 pp 86 - 87; Velasco, op cit, p 214 .

(١١) أصاب الاضطراب نسختى مدونة البلدة اللتين نشرهما Florez وMoreno فتظهر وفاة بلاجيوس فى نسخة الأول فى السنة التاسعة عشرة من زعامته، دون أن تحدد ما إذا كانت كاملة أم لا . أما فى نسخة Moreno فيظهر أنه توفى عام ٧٣٧م/١١٩هـ وهو ما تتفقان فيه مع المدونات الأخرى. إلا أن نسخة Moreno تضيف أنه توفى بعد حكم دام ثمانى عشرة سنة فقط، وتشايعها فى ذلك حوليات طليطلة الثالثة، قارن : Chron Albeldense, ed. Florez, p 450 No 50, ed Moreno, p 601, Anales Toledanos III, ed Florez, 23 p 415

عام ٧١٧م/ الخامس من شوال - آخر ذى الحجة ٩٨هـ، فإنه مع احتساب المدة التى استغرقتها الرحلة لوصوله إلى أشتوريس، وفى إثارته لسكانها من القوط والأشتوريين حتى اقتناعهم به؛ فلابد أيضاً أن اختياره للزعامة فى أشتوريس قد حدث فى منتصف ٧١٨م/ أواخر عام ٩٩هـ[1] . أى بعد أن مضى على هروبه من قرطبة ما يقرب من عام .

ولعل فيما سبق ما ينفى ما ذهب إليه المؤرخ الإسبانى الحديث سابدرا Saavedra [2] من أن اختيار بلاجيوس كان فى عام ٧١٤م/ ٩٥هـ، أو ما يراه بعض آخر من المؤرخين ومنهم Pellicer و Mariana و Masdeu بأن هذا الاختيار لم يحدث قبل عام ٧٥٣م /١٣٦هـ [3] ، معتمدين على أن ايزيدور الباجى Isidore Pacense الذى أنهى كتابة مدونته فى عام ٧٥٤م/ ١٣٧هـ - لم يذكر شيئاً عنه على الإطلاق، وعلى ما أشارت إليه مدونة البلدة Chron. Albeldense [4] من أن بلاجيوس كان أول من ثار على المسلمين بأشتوريس فى السنة السابعة من ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى للأندلس أى فى عام ٧٥٣م/ ١٣٦هـ .

ويهمنا فى هذا المجال أيضاً أن نتعرف على نوعية الشخصيات التى اختارت بلاجيوس لهذا المنصب، هل كانت أشتورية لاتينية صرفة أم قوطية جرمانية أم من العنصرين معاً؛ إذ لم يقتصر الخلاف حول ذلك فيما بين المدونات اللاتينية بعضها وبعض، بل إنه شمل نسخ المدونة الواحدة .

---

(١) يوافق معظم المؤرخين الحديثين على هذا التاريخ بداية لاختيار بلاجيوس، وعلى مدة زعامته بتسع عشرة سنة، وعلى وفاته عام ٧٣٧م/ ١١٩هـ، أنظر : Velasco, op cit, p 201; Barrau - Dihigo, Recherches, pp 114, 136; Urbel, op cit, pp 24, 29 - 31; Danham, op cit, 4 p 44; Sanchez Albornoz, Otra Vez, pp 86 - 87; Coppée, op cit, p 412, Williams, op cit, 10 p 40; Peers, Spain, p 39; Hannay, Spain, p 28, A. Bleye, op cit 1 p 475; Livermore, A History of Spain, p 69 . ؛ عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٢١٠ .

(٢) أنظر : Estudio, pp 116 - 117, 138 - 139 . ، ويشايعه فى هذا الرأى Setton (ed) . History of The Crusades, 1 p 32; The Camb. Med Hist., 3 p 409 . ويعتمدون فى ذلك على أن بلاجيوس يظهر فى المدونات اللاتينية بعد مصرع الملك لذريق مباشرة . على أن السبب فى ذلك أن مؤلفى المدونات اللاتينية يعتبرون بلاجيوس خليفة لذريق وإن لم يشيروا إلى اختياره عقب مصرعه مباشرة .

(٣) عن مناقشة آرائهم بتفصيل أنظر : Risco, op cit, 37 pp 61 - 62

(٤) Ed Florez, p 450 No 50

فمن ناحية نسبت مدونات روتنسى Rotense [١] والفونسو الثالث Alfonso III [٢] وليون Léonaise [٣] ، والفونسو العاشر Alfonso X - التى ينقلها ابن الخطيب - [٤] الدور كله لأهل تلك الناحية أى الأشتوريين، ولم تذكر الأرستقراطية القوطية على الإطلاق . كذلك يظهر من مرسوم [٥] أصدره الفونسو الثانى Alfonso II - ملك أشتوريس - فى عام ٨١١م أن بلاجيوس قد تصدى للمسلمين لصالح الأشتوريين وليس لصالح القوط، الذين ينتفى من المرسوم كلمة واحدة تشير إلى مؤازرتهم لبلاجيوس .

ومن ناحية أخرى نجد نفس مدونة الفونسو الثالث Alfonso III السابقة فى نسخة أخرى [٦] ومدونة سباستيان Sebastiani [٧] ومدونة الفونسو العاشر Alfonso X[٨]، تترك ذلك كله لتمدح القوط وحدهم وتعزى الدور الأول والأساسى لهم، إذ تقدم القوط على أنهم الذين تولوا اختيار بلاجيوس للزعامة دونما ذكر للأشتوريين على الإطلاق.

وربما كانت بعض المصادر الإسلامية على هذا الرأى أيضاً، فيشير المؤرخ المقرى [٩] أن بلاجيوس كان أول من جمع فل النصارى بالأندلس، ولما كان هذا الفل قوطياً فيكونوا هم الذين التفوا حوله وأقاموه زعيما . كما يشير ابن خلدون [١٠] والقلقشندى[١١] أيضاً إلى أنه بعدما أجفلت أمم النصرانية أمام المسلمين إلى سيف البحر من جانب الجوف - أى الشمال - وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة، فإنهم قد اجتمعوا بجليقية - أشتوريس - وأقاموه عليهم بلاجيوس ملكا . الأمر الذى يوحى بأن هذا الاختيار قد قام به هؤلاء الجافلون، وقد كانوا قوطا جرمانا .

أما مدونة سيلوس Silense فهى وإن أشارت فى لمحة خاطفة إلى أن الأشتوريين قد قرروا بالإجماع اختيار بلاجيوس زعيماً لهم، إلا أن هذا القول لا يفسر

---

(١) Ed Moreno, p 613

(٢) Ed. Villada, pp 109 - 110 .

(٣) Ed. Cirot, pp 387 - 388 .

(٤) أنظر : ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٣ = (Antuna, Una Version Arabe, p 130)

(٥) عن نص الوثيقة أنظر : Risco, op cit, 37 p 311 Sqq

(٦) Ed. Villada, p 62

(٧) Ed Florez, pp 478 - 479 .

(٨) Prim Cron General, ed Pidal, 2p 321 .

(٩) أنظر : نفح، ٦ ص ٨٢ .

(١٠) أنظر : العبر، ٤ ص ١٧٩ .

(١١) أنظر : صبح، ٥ ص ٢٦٣ .

على أنه استبعاد للقوط، إذ لم يغرب عن بال مؤلف المدونة خلال روايته أن يشير ويشيد دوما بالقوط وحدهم، دون ذكر لأى إسهام من جانب الأشتوريين سوى الإشارة السابقة [١] . أما مدونة لوكاس التودى Lucas de Tuy فكانت أكثر وضوحا حينما أشارت إلى إسهام كل من القوط والأشتوريين فى هذا الاختيار [٢] .

وقد أسهم غموض واختلاف المدونات اللآتينية السابقة على النحو المشار إليه فى انقسام المؤرخين الحديثين على أنفسهم فى هذا الشأن أيضاً، واتخذ المؤرخ سانشيث البرنوث Sanchez Albornoz موقفاً جد متطرف حينما أكد دون أن يبرهن، أن الأشتوريين وحدهم هم الذين اختاروا بلاجيوس لزعامتهم؛ وأنكر أى إسهام فى ذلك للقوط؛ معللاً ما ذهب إليه بأن القوط كانوا حينذاك ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، منهزمين مغلوب على أمرهم، أغرابا فى أرض ليست لهم فكانوا جهلاء بها وبسكانها؛ ولذا فلم يباشروا أدنى تأثير عليهم، بل لم يفكروا فى اختيار زعيم لهم أو قائد [٣] . على أن ذلك تعليل لا يقوى للنقد وليس له سوى تفسير واحد، هو رغبة المؤرخ فى نسبة كل إنجاز للأشتوريين وحدهم، مغمطا دور القوط مجردا لهم من إسهامهم، مدفوعا فى ذلك بنزعة وطنية متعصبة ليس إلا، وهو ما نلمسه فى كل كتاباته .

فى حين نرى فريقا آخر على العكس من ذلك ينسب للقوط وحدهم الدور الأكبر والأساسى، جاعلين إياهم ينفردون باختيار بلاجيوس زعيما لهم كخطوة أولى على طريق التخلص من السيطرة الإسلامية [٤] .

على أننا لا نشارك هذا الفريق أو ذاك فيما ذهب إليه، وليس باستطاعتنا أن نجرد أيا من القوط الجرمان أو الأشتوريين اللآتين إسهامه فى هذا الاختيار؛ فإذا كان

---

(١) على سبيل المثال : أشار أن أمة القوط وجيشها سوف يستعيدان قوتهما رغم ما حل بإسبانيا من دمار وما نتج عن استيلاء المسلمين عليها من تحطيم جيشها، وأن بلاجيوس كان يثق فى أن جنس القوط سينمو سريعاً ويتكاثر من فئة قليلة إلى أعداد كثيرة، وعندما أشار إلى الصدام بين قوات بلاجيوس وقوات المسلمين ذكر أن الشعب القوطى كما لو كان قد استيقظ من غفوته . أنظر : Ed Florez, pp 273 - 274, 276; Ed. Huici, 2 p 44 Sqq .

(٢) Ed. Puyol, pp 273 - 274

(٣) أنظر آرائه بتفصيل فى كتابه : .Origénes, 2 pp 9, 20, 106 وهى نفس الآراء التى ضمنها مقاله : La Sucesion al Trono en Los Reinos de Léon y Castilla, BAAL 1945, 14 pp 38 - 39, 45 - 46.

(٤) Quadrado, op cit, p 12; Barrau - Dihigo, Recherches, p 114; Peers, Spain, London 1929, p 39; Watts, Spain, p 23; Saavedra, Estudio, p 138; Velasco, op cit, p 200; Lévi - Provençal, Histoire, 1 p 66; Hannay, Spain, Great Britain 1917, p 28 .

الأشتوريون قد التفوا وتجمعوا لاختيار بلاجيوس، خاصة وكانت له بهم علاقة سابقة منذ أن التجأ إليهم على عهد الملك القوطي غيطشة، فلنا أن نقبل أيضاً أن القوط ما كانوا يقنعون أبداً بأن يقفوا موقف المشاهد المتفرج، ويقبلوا انفراد الأشتوريين دونهم بمثل هذا العمل . وبالتالى فلا يجب أن نستبعد اشتراك الفريقين، بل ولابد أن نقبل أنه قد وقع على القوط العبء الأكبر والأول فى تهيئة عقول الأشتوريين لفكرة تتويد بلاجيوس، وبخاصة أنهم هم الذين يعلمون جيداً جدارته وأحقيته لمثل هذا المنصب لانتسابه إلى أسرة قوطية لم تكن نبيلة فقط وإنما من العائلة الملكية أيضاً، أو كما أشار ابن الخطيب نقلا عن الفونسو العاشر « لاستحقاقه ذلك بنفسه وبيته » [١] .

ومن ناحية أخرى، فإذا كانت روايات الجانبين الإسلامى واللاتينى قد تأرجحت ـ كما أوضحنا ـ فى إشارتها فيما بين القوط الجرمان والأشتوريين اللاتين، أو ما عبرت عنه بعضها بأهل تلك الجهات ـ أى أشتوريس ـ فإنا يجب ألا نتوقع من هذه الروايات أن تهتم وتتذاك بالتفرقة الدقيقة أو الفصل الواضح بين الفريقين، وبخاصة أنها كتبت جميعها فى وقت كان الاندماج والاختلاط بينهما قد بدأ بالفعل منذ أكثر من قرن على الأقل؛ وأصبحا فى نظر مؤلفى هذه الروايات عنصرا أو بالأحرى شعبا واحدا .

وعلى كل فإنه باختيار القوط الجرمان والأشتوريين اللاتين لبلاجيوس القوطى زعيما لهم منتصف ٧١٨م/ أواخرعام ٩٩هـ، تكون قد تكونت بوادر أولية لحركة تمرد ضد المسلمين فى أشتوريس، وهى حركة اشترك فيها كل من القوط والأشتوريين؛ وكان الدافع إليها أساسا ظروفا شخصية حاقت ببلاجيوس على أيدى المسلمين، أساء فهمها وأراد الانتقام لها منهم . ولما كان بلاجيوس يوقن بضعفه وعجزه عن تحقيق ذلك وحده، فقد كانت مهارته لا تكمن فقط فى استغلاله للآمال الشخصية عند عنصرى سكان المنطقة ـ قوط وأشتوريين ـ لتحفيزهم وإثارتهم ضد المسلمين، وإنما أيضاً فى استغلاله حجة أعم وأشمل هى الثأر من المسلمين؛ فضلا عن الدفاع عن المسيحية وعقيدتها لإنقاذها وخلاصها . ومن ثم توحد الطرفان لقضية اعتبرها كل فرد فيهم تمس آماله الشخصية أولا، ونظروا إليها جميعا فى ذات الوقت على أنها صالح وطنى ودينى عام . وعلى هذا النحو المتواضع بدأت حركة التمرد التى سيصبح لها شأن كبير فى السنوات القليلة القادمة؛ إذ بدأت بها صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات بين المسلمين من جهة وسكان أشتوريس اللاتين والجرمان من جهة أخرى؛ وتمحور حولها الصراع العسكرى والعقائدى بين الطرفين خلال الأجيال اللاحقة .

---

(١) أنظر: تاريخ،٢ ص ٣٢٣ .



الفصـــل الثانى

تطور المقاومة فى اشتوريس

حتى عام ٧٢٢م (١٠٣ هـ)

تاريخ بدء التمرد - مظاهره وموقف السلطة الإسلامية منه - تطوره إلى ثورة وكيفيته - تحرك الجيش الإسلامى إليها - تقدير أعداد جيشى المسلمين والثوار - قائد الجيش الإسلامى وخطته - خطة الثوار وانسحابهم إلى كوبادونجا، ووصف الطريق إليه - اندفاع الجيش الإسلامى وراءهم وتحرج موقف المسلمين عسكريا - المفاوضات وفشلها - وقائع المعركة وانهزام الجيش الإسلامى - مدى إسهام كل من القوط والأشتوريين فى هذا الانتصار وآثاره المباشرة عليهم .



رأينا كيف ساهم سكان أشتوريس اللاتين والقوط الجرمان الآرين بينهم فى اختيار بلاجيوس زعيما لهم فى أشتوريس منتصف ٧١٨م/ أواخر عام ٩٩هـ، بعد ما نجح فى إثارتهم وتعبئة مشاعرهم ضد المسلمين؛ مما شكل نواة لحركة تمرد ضدهم فى أشتوريس، ولم يكن قد مضى سوى سنوات قليلة على فتحهم لها؛ وهى الحركة التى بدأت بها صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات بين المسلمين من جهة وبين سكان أشتوريس اللاتين والجرمان من جهة أخرى .

وقد حددت الرواية الإسلامية - التى ينقلها المؤرخ المقرى عن غيره من المؤرخين المسلمين الأوائل - وقت بدء هذا التمر فى فترة ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفى، فى أعقاب وصول بلاجيوس إلى أشتوريس هاربا من قرطبة؛ إذ يقول : « فهرب - أى بلاجيوس - من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن ... سنة ثمان وتسعين من الهجرة، وثار النصارى معه على نائب الحر » [1] أى على المنيذر نائبه المقيم فى أشتوريس .

وبسبب أن المؤرخين المسلمين الأوائل كانوا يكتبون بعيداً عن أشتوريس، وفى فترة متأخرة نسبيا عن وقوع هذه الأحداث؛ فإنهم يضغطون الأحداث فى رواياتهم السابقة ضغطا واضحا، ولم يحددوا وقت بداية التمرد هل كان خلال عام ٩٨هـ/ ٧١٨م أم بعده . لكن المدقق فى النص السابق يتضح له بما لا يقبل مجالا للشك أن التمرد وقع بعد العام المذكور وقبل أن تنتهى فترة ولاية الحر بالأندلس فى عام ١٠٠هـ/ ٧١٢م؛ إذ كما هو واضح يقرر النص أن النصارى ثاروا مع بلاجيوس على نائب الحر المقيم فى أشتوريس . ومن المنطقى أن يكون التمرد عقب اختيار بلاجيوس فى أواخر عام ٩٩هـ/ ٧١٨م ولم تكن ولاية الحر قد انتهت بعد .

أما أصحاب المدونات اللاتينية الذين كانوا يكتبون فى أشتوريس ذاتها، بعيداً عن العاصمة الإسلامية قرطبة؛ فلم يعرفوا فى دقة مطلوبة أسماء ولاة قرطبة المسلمين وتتابعهم ومدة ولاية كل منهم [2] ؛ واختلط عليهم الأمر فيمن كان واليا بها

---

(١) أنظر : نفح، ٦ ص ٨٢ .

(٢) يظهر ذلك واضحا من قوائمهم التى يوردونها عنهم، فيسقطون بعضهم ويختلط عليهم تتابعهم ومدة ولاية كل منهم . قارن على سبيل المثال : Chron Albeldense, ed Florez, pp 460 - 462; Cron. Profetica, ed Moreno, pp 626 - 627, Huici, op cit, 1 p 184 Sqq وهو أمر يعترف به المؤرخون الإسبان الحديثون أنفسهم، أنظر : Govantes, op cit., p 8 . بل لقد وقع المؤرخون المسلمون الأوائل أنفسهم فى مثل هذا الاضطراب بشأن مدة حكم ولاة قرطبة وتتابعهم، وفى ذلك قارن: ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٥ - ٢١٧ ؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢ ص ٨٤؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٦ - ٧؛ المقرى عن غيره، نفح، ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠، ٤ ص ١٣ - ٢٦؛ أخبار مجموعة، ص ٢٢ - ٢٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٥ وما بعدها؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٨ وما بعدها؛ عبد الملك بن حبيب، ص ٢٣٦، الرازى برواية , Casiri , op cit, 2 pp 325 - 326 .

حينما اندلع التمرد فى أشتوريس؛ فجعله بعضهم أثناء تواجد طارق بن زياد فى الأندلس [١] . ويمكننا استنتاج هذا الخطأ إذ أشاروا أن المنية قد وافت بلاجيوس فى عام ٧٣٧م/١١٩هـ، بعد زعامة دامت تسع عشرة سنة [٢] ، أى أن اختياره تم منتصف عام ٧١٨م/ أواخر عام ٩٩هـ؛ وهو ذاته التاريخ الذى يجعلونه بداية لتمرده، وهو تاريخ لا يتفق مع وقت وجود طارق بالأندلس، إذ كان قد غادرها قبل ذلك بأربع سنوات كاملة .

أما مدونة البلدة Albeldense فقد أرخت لبدء هذا التمرد فى السنة السابعة من ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى [٣] ، الذى بدأ ولايته للأندلس فى ربيع الآخر عام ١٢٩هـ /٧٤٦م ؛ ولأن هذه المدونة تتفق مع المدونات السابقة فى تحديدها لتاريخ وفاة بلاجيوس وفى تاريخ بدء زعامته وتمرده، فتكون قد أبرزت هى الأخرى خطأها بتحديد بدء التمرد بعام ٧٥٣م/ ١٣٦هـ ، فى وقت لم يشهده بلاجيوس على الإطلاق إذ كان قد توفى قبل ذلك بحوالى سبعة عشر عاما .

واشتطت مدونة سباستيان Sebastiani أكثر حينما أخرت التمرد حتى عام ٧٥٦م/١٣٨هـ [٤] ، أى فى السنة الأخيرة من ولاية يوسف الفهرى، وكان عصر الولاة يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ المسلمين هناك بقيام دولة بنى أمية . ونظرة فاحصة إلى عبارات المدونة نجد تحديدها لبداية التمرد قد ورد أثناء روايتها عن فترة الفتح الإسلامى لإيبيريا عام ٧١١م/٩٢هـ والسنوات القليلة التى تلته . وبدهى ألا يكون عام ٧٥٦م / ١٣٨هـ ضمن هذه السنوات القليلة التالية للفتح . ومن ناحية أخرى، فقد اتفقت نفس المدونة مع المدونات السابقة فى تحديد

---

(١) Cron Alfonso III, ed. Villada, pp 108 - 109; Cron. Rotense, ed. Moreno, pp 613, 615; Chron. Silense, ed Florez, p 273; Cron de Lucas, ed Puyol, p 374 ; Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, pp 214 - 215

(٢) أنظر أعلاه .

(٣) . Ed Florez, p 450 No. 50, Ed. Moreno, p 601 ، وهو يوسف بن عبد الرحمن بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى آخر الولاة بالأندلس، الذى هزمه عبد الرحمن بن معاوية ـ الملقب بالداخل ـ واستولى منه على مقاليد الأمور بالأندلس، مؤسساً الدولة الأموية هناك عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م . وعن يوسف أنظر : ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٤٧ وما بعدها . وعن فترة ولايته وعلاقته بعبد الرحمن فى تفصيل أنظر : أخبار مجموعة، ص ٥٧ وما بعدها؛ المقرى عن الرازى، نفح، ٤ ص ٢٤ وما بعدها، ص ٥٣ ـ ٥٤؛ ابن الأبار، الحلة، ١ ص ٣٥ ـ ٣٦، ٦٨؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٥٠ وما بعدها؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٥ وما بعدها .

(٤) Ed Florez, pp 478 - 479 No 8, 11 وقد شايع قولها بعض المؤرخين الحديثين دون أن يتعرضوا لمناقشتها وأخذوا بظاهر روايتها، ومنهم Masdeu و Pellicer و ، وعن آرائهما بتفصيل أنظر : Risco, op cit, 37pp 72 - 73 ؛ هذا وقد نسب الدكتور مؤنس رواية هذه المدونة إلى مؤلف مدونة البلدة أنظر: فجر، ص ٣٣١ حاشية ١ .

تاريخ وفاة بلاجيوس وفى مدة زعامته وتاريخ بدئها؛ ولا يعقل أن يتأخر تمرده حتى عام ٧٥٦م/ ١٣٨هـ، إذ كان التراب قد وارى رفاته منذ حوالى تسع عشرة سنة سبقت هذا التحديد .

والخلاصة أن المدونات اللاتينية السابقة قد اتفقت على أن بلاجيوس قد بدأ تمرده على المسلمين فى أشتوريس بعد وصوله إليها مباشرة واختياره زعيماً فى منتصف ٧١٨م/أواخر عام ٩٩هـ؛ أى فى أواخر ولاية الحر بن عبد الرحمن للأندلس، مثلما ذهبت الرواية الإسلامية التى أشرنا إليها . ويؤيد ذلك أيضاً وثيقة لاتينية ـ صدرت فى أشتوريس ذاتها فى الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ٧٤٠م [١] (٥ ذى الحجة ١٢٢هـ) ـ حددت تاريخ هذا التمرد فى الأول من أغسطس عام ٧١٨م (سلخ ذى الحجة عام ٩٩هـ) .

ويلاحظ أن المؤرخين المسلمين واللاتين على وجه الإجمال لم يميزوا بين كيفية بدء التمرد فى أشتوريس ووقائعه الأولى وبين تطوراته اللاحقة حتى أقدم المسلمون على التصدى له . فتجنب المؤرخون المسلمون ـ ربما عن عمد ـ التأريخ له كلية، واكتفوا بالإشارة السريعة إليه قائلين أن نصارى أشتوريس قد ثاروا مع بلاجيوس على المنيذر نائب الوالى الحر بن عبد الرحمن [٢] . أما المؤرخون اللاتين فلم يعتبروه تمردا أو ثورة مثل المؤرخين المسلمين، وإنما حركة قومية إسبانية تنشد التخلص من السيطرة الإسلامية فى أشتوريس وإيبيريا كلها؛ وتخطوا بدورهم الحديث عن بدايتها ومراحل تطورها الأولى إلى دورها الأخير، الذى تمثل فى وقائع الصدام بين جيش المسلمين وأتباع بلاجيوس فى أشتوريس؛ حتى بدت الأحداث فى روايتهم ـ وأيضاً فى الوثيقة التى أشرنا إليها سابقاً ـ وكأنها حدث واحد وقع منتصف عام ٧١٨م / أواخر عام ٩٩هـ .

لكن بناء على ما أوضحناه من أحداث منذ هروب بلاجيوس من قرطبة، يمكن أن نتصور أن مظاهر وقائع هذا التمرد قد بدأت برفض المتمردين الالتزام بتنفيذ شروط الصلح الذى كان قد عقده المسلمون مع سكان أشتوريس وقت الفتح، وشجعهم على ذلك تواجد والى الأندلس الحر بن عبد الرحمن على رأس جيوشه خارج الأندلس

---

(١) عن نصها، أنظر : Risco, op cit, 37 pp 303 - 304; Floriano, op cit, 1 pp 34 - 35 .

(٢) أنظر : المقرى، نفح، ٦ ص ٨٢ .

منذ ربيع عام ٩٩هـ/ ٧١٨م، فى غزو غالة الدربونية Galiam Narbonensem [1] .
ثم امتنعوا فى بداية العام الهجرى ١٠٠/ ٧١٨م عن دفع الجزية المفروضة على رءوسهم، أو الخراج على أرضهم الزراعية، أو عن تقديم الرهائن المقررة عليهم لضمان ولائهم وطاعتهم للمسلمين .

ولابد أن أخبار هذا التمرد - فضلاً عما حدث وقتذاك من اضطرابات فى قرطبة العاصمة الأندلسية ذاتها - قد وصلت إلى سمع الحر وهو يجاهد فى غالة عن طريق نائبه فى الأندلس، فأنهى حملته وعاد مسرعاً إلى قرطبة ليشرف بنفسه على توطيد الأمن فيها باعتبارها العاصمة؛ ولأن فى اضطراب أمورها ما يشكل خطراً مباشراً على المسلمين . وذلك على عكس التمرد فى أشتوريس الذى كان مجرد بؤرة لفئة قليلة يسهل القضاء عليها؛ فاكتفى الحر بتفويض المنيذر نائبه هناك فى مهمة احتواء الموقف بالقضاء على ما بدأ فيها من تمرد وعصيان .

ويبدو أن المنيذر قد فشل فى مهمته، إذ يذكر المقرى أن النصارى قد « طردوه وامتلكوا البلاد [2] » . وربما كانت هذه العبارة بالذات سببا لما دفع بعض المؤرخين الحديثين إلى التأريخ للصدام بين قوات المسلمين وأتباع بلاجيوس المتمردين فى عهد الحر بن عبد الرحمن، وبالتحديد فى عام ٩٩هـ/ ٧١٨م [3] . على أنه تحديد لا يتفق

---

(١) سميت بغالة لوقوعها فى غالة من أراضى الفرنجة، وبالدربونية نسبة إلى عاصمتها أربونة (نربونة) Narbonne ، الواقعة على ساحل البحر المتوسط بأقصى الشمال الشرقى لإسبانيا، وكانت أقصى ثغر الأندلس . وبينها وبين ساحل قرطبة ألف ميل . وعرفت غالة الدربونية أيضاً بولاية سبتمانيا Septemania أى المدن السبع، وامتدت إلى الشمال من جبال البرتات بحذاء ساحل غالة الجنوبى، قارن: الحميرى، صفة، ص ١١ - ١٢؛ ياقوت، معجم، ١ ص ١٠٢ وعن حملة الحر إليها، قارن : Chron. Isidore Pacense, ed. Florez, pp 303 - 304, Condé, op cit, 1 pp 92 - 93 . Valdeavellano, op cit, 1 p 371 ؛ وانظر أيضاً : أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ١ ص ٣٣؛ عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٧٢ - ٧٣؛ مؤنس، فجر، ص ٢٤٤، ويشير إلى أنه لا يعول على رواية إيزيدور الباجى كثيراً؛ فى حين نراه فى مواطن أخرى يعول عليها ويتخذها دليلا قاطعا لا يقبل الشك .

(٢) أنظر : نفح ٦ ص ٨٢ .

(٣) منهم : Saavedra, Pelayo, p 10; Barrau - Dihigo, Recherches, p 121 . ؛ حسن خليفة، تاريخ المسلمين، ص ٤٨؛ محمد حسونة، الجغرافية التاريخية الإسلامية، القاهرة ١٩٥٠م، ١ ص ٨٩؛ عنان، دولة الإسلام؛ ١ص ٢٠٨ ؛ دورونى، أسبانيا شعبها وأرضها، ص ٦٠ . ورغم أن المؤرخ Danham وافق المؤرخين السابقين فى تحديدهم هذا، (A History of Spain. 2 p 121) فإنه يذكر فى صفحة ١٢٣ حاشية ٣ أن اضطراب وغموض المصادر الإسلامية واللاتينية جعل من الصعب عليه تحديد تاريخ معين فيما بين عامى ٧١٨ - ٧٣٧م/ ٩٩ - ١١٩هـ . ثم يعود فى صفحة ١٢٢ حاشية ٣ ويستخدم أحداثاً وقعت فى أواخر عهد الوالى يوسف الفهرى عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، - مستنداً على ما أورده غزيرى Casiri فى معجمه Bibliotheca، بالجزء الثانى صفحة ٣٣ - ليسبها إلى عام ٩٩هـ/ ٧١٨م مبرراً ذلك باحتمال خطأ Casiri فى تاريخ النص . وقد شايع Danham فى هذا الرأى كل من Caveda, op cit., pp 61, 75 - 76; Velasco, op cit, pp 182 - 183 . 189 . 191 196; Perez de Cao, op cit, pp 172 - 173

مع تسلسل الأحداث السابق الإشارة إليها، فضلاً عن أن ضغط المقرى فى روايته لأحداث عدد من السنين فى كلمات معدودات لا يستبين معها أنه يقصد عام ٩٩هـ/ ٧١٨م بعينه وإنما عاما بعده . وبخاصة أن المقرى نفسه قد أورد روايات أخرى عن الرازى [١] وابن حيان [٢] ؛ مضافاً إليها ما أورده صاحب فتح الأندلس [٣] بما يشير صراحة إلى قيام بلاجيوس وجماعته فى وقت لاحق فيما بين عامى ١٠٣ ـ ١٠٧ هـ/ ٧٢٢ ـ ٧٢٦م . ولو صدق امتلاك النصارى وقتذاك للبلاد كما يشير المقرى، لكان الأمر خطيراً وما كان الحر بن عبد الرحمن توانى عن أن يتصدى له بنفسه مهما كانت مشاغله . ونعتقد أن الأمر لم يخرج عن كون المنيذر لم يوفق فى إقناع المتمردين بالحفاظ على هدوئهم، أو الالتزام بطاعتهم للمسلمين بتقديم ما صولحوا عليه وقت الفتح من جزية وخراج ورهائن . وإنما على العكس فقد انسحب المتمردون إلى مأواهم الحصين وهو كهف سانتا ماريا ـ كوبادونجا ـ يحتمون به تأهباً للدفاع عن أنفسهم، فيما لو أقدم المسلمون على مهاجمتهم أو استخدام العنف معهم . وربما ظل المتمردون على هذا الحال حتى عزل الوالى الحر وخلفه السمح بن مالك الخولانى [٤] على ولاية الأندلس فى رمضان عام ١٠٠هـ/ أبريل ٧١٩م .

ولا نعرف على وجه الدقة مدى تطور حركة التمرد فى أشتوريس خلال ولاية السمح بن مالك، إذ تصمت المصادر الإسلامية واللاتينية عن ذلك كلية؛ وإن كنا نعلم أن السمح قد صرف نشاطه خلال العامين الأولين من ولايته (١٠٠ ـ ١٠٢هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢١م) إلى إكمال التنظيم الداخلى للأندلس [٥] ، بناء على تكليف الخليفة عمر بن

---

(١) أنظر : نفح، ٦ ص ٨٣ .

(٢) نفسه، ٤ ص ١٥ .

(٣) ص ٢٦ .

(٤) عنه أنظر : الضبى، بغية الملتمس، ص ٣٠٣ رقم ٨٣٩؛ ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ١ ص ١٩٥ رقم ٥٨٦؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٢٢٠ رقم ٤٩٨؛ المقرى عن ابن حيان، نفح، ٤ ص ١٣ ـ ١٤؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٨؛ أخبار مجموعة، ص ٢٣؛ مؤنس، فجر، ص ٢٤٥ وإن جعل عام ١٠٠ هـ موازيا لعام ٧٤٠ م؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٣٥؛ - Lafuente, Ajbar Machmua, Apen 2, pp 196 - 197

(٥) عنها بتفصيل أنظر : أخبار مجموعة، ص ٢٣ ـ ٢٤؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٩؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٦؛ الرسالة الشريفية، ص ٢١٠ ـ ٢١١؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٤ ـ ٢٥؛ مؤنس، فجر، ص ١٣٥ وما بعدها؛ عبد الجليل عبد الرضا، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس، الرياض ١٣٨٩هـ، ص ٤٣ ؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٣٥ ـ ١٣٧؛ حسن خليفة، تاريخ العرب فى إفريقية والأندلس، القاهرة ١٣٥٦هـ، ص ٢٨ .

عبد العزيز له؛ مثل حصر الأراضى والتمييز بين ما خضع منها صلحا أو عنوة وتخميسها وتقسيمها بين المسلمين، وإخضاعها للضرائب المستحقة، وتقدير موارد البلاد المالية وتنظيم دخلها، ثم محاولته التوفيق بين جنده وجند سابقيه من الولاة، الذين كانوا يرفضون مشاركة جنده لهم فيما كان بأيديهم من أراضى [١]؛ بالإضافة إلى ما قام به من أعمال معمارية كتجديد قنطرة قرطبة [٢] ؛ لتسهيل الاتصال بها وتقوية الدفاع عنها باعتبارها العاصمة . ولم يكد السمح يفرغ من هذه المهام التى أتت على وقته فى العامين الأولين من ولايته حتى بدأ الجهاد فيما وراء جبال البرتات، فغزا غالة الناربونية [٣] أيضاً فى ربيع عام ٧٢١م/ ١٠٢هـ، وهى الغزوة التي استشهد فيها الوالي السمح نفسه، وانهزمت فيها القوات الإسلامية لأول مرة فى غالة، فى ذى الحجة من نفس العام / يونيو ٧٢١م [٤] .

ولذلك نعتقد أن انصراف السمح خلال ولايته إلى تنظيماته الداخلية فى الأندلس ثم إلى غزو غالة، قد أدى إلى انشغال المسلمين عن حركة التمرد فى أشتوريس لمدة عامين على الأقل، فاطمأن أصحابها على أنفسهم وازدادوا ثقة وأملاً فى نجاح تمردهم حينما انهزمت الجيوش الإسلامية فى غالة؛ لا سيما وقد اضطربت أحوال الأندلس ذاتها نتيجة هذه الهزيمة . فتشجع المتمردون وخرجوا من كهفهم الذى يحتمون به، وربما أقدموا أيضاً على التحرش ببعض الحاميات الإسلامية العسكرية المقيمة فى أشتوريس ومهاجمتها، مع بداية ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى[٥]؛ الذى خلف السمح فى صفر عام ١٠٣هـ/ يوليو- أغسطس ٧٢١م؛ وبخاصة

(١) أنظر بتفصيل : الرسالة الشريفية، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧؛ Chron , Isidore Pacense, ed. Florez, p 305 No. 48

(٢) عن وصفها أنظر : الإدريسى، نزهة، ص ٧٥٩؛ وإن نسب كوندى .Condé (op cit, 1p 99) إلى الوالى عنبسة بن سحيم خليفة السمح هذا التجديد دون أن يشير إلى مصادره .

(٣) عن الحملة بتفصيل أنظر : Chron. Isidore Pacense, ed. Florez, p 305 No. 48; Continuador del Biclarense, ed. Lafuente, p 165 ؛ مؤنس، فجر، ص ٢٤٥؛ الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ١٨٥ ـ ١٨٦؛ أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ٦٣ ـ ٦٤، ٧١؛ طرخان، المسلمون فى أوربا، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٤) انفرد صاحب أخبار مجموعة (ص ٢٤) بالقول أن والى إفريقية بشر بن صفوان عزل السمح وولى مكانه عنبسة بن سحيم، ونعتقد أن الأصح ما أجمعت عليه المصادر الإسلامية بأنه استشهد فى غزوته .

(٥) عنه أنظر : ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ١ ص ٣٤٤ رقم ١٠١٣؛ الضبى، بغية الملتمس، ص ٤٢٠ رقم ١٢٥٩؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٣٠١ رقم ٧٤٠؛ المقرى وابن بشكوال، نفح، ١ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، ٤ص ١٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٥٤؛ الخانجى، منجم العمران، ١٠ ص ٦٩ .

أن المؤرخين المسلمين الأوائل كالرازى [١] وابن حيان [٢] وصاحب فتح الأندلس [٣] يشيرون إلى قيام - أى هجوم - بلاجيوس فى أيام عنبسة هذا .

وعلى هذا النحو تطورت حركة التمرد فى أشتوريس، وأخذت بنص المؤرخين المسلمين الأوائل طابع ثورة [٤] ؛ ازدادخطرها ووقف على تطورها الوالى عنبسة، الذى ما كان له أن يغفل عنها بل وجب عليه التصدى لها . ولكن يبدو أنه لم يفكر فى إمكانية مقاومة بلاجيوس وجماعته مقاومة جدية، أو أنه كان على ثقة كبيرة فى إحراز نصر سريع عليهم يمكنه من إنعاش حماسة جنده ورفع معنوياتهم؛ استعداداً للانتقام لهزيمة سلفه السمح واستشهاده فى غالة . ومن ثم أصدر أوامره بتحرك جمع إسلامى ضد هذه الشرذمة الثائرة .

ويتفق المؤرخون المسلمون الذين سبقت الإشارة إليهم مع بعض المؤرخين اللآتين [٥] فى أن بلاجيوس وجماعته هم الذين بدأوا هذا الهجوم، وتضيف مدونة سيلوس Silense [٦] أن بلاجيوس بدأ بالهجوم عندما تأكد من معاونة الرب ومؤازرة رفاقه له؛ ومع أن مؤلف مدونة سباستيان Sebastiani [٧] قد أظهر المسلمين بمظهر المعتدى والبادئ بالعدوان، لإلقاء التبعة عليهم، حينما ذكر أنهم ما أن علموا بنبأ اختيار بلاجيوس زعيما للمسيحيين فى أشتوريس حتى أرسلوا إليهم جيشاً ضخما؛ فلا ينفى ذلك ما أجمعت عليه وجهات النظر الإسلامية واللآتينية بمبادرة الثوار إلى الهجوم، وهذا أمر منطقى لأنه يتفق مع كونهم ثائرين .

وإذا كان المؤرخون المسلمون الأوائل - الرازى وابن حيان وصاحب فتح الأندلس - لم يحددوا تاريخا معينا خلال ولاية عنبسة لتحرك البعث الإسلامى ضد الثوار بأشتوريس، سوى القول بأنه كان فى أيامه [٨] . فيمكن تحديد تحرك هذا البعث بعام ١٠٣ هـ استناداً إلى الاعتبارين التاليين :

الاعتبار الأول أن المؤرخ إيزيدور الباجى Isidore Pacense يشير فى مدونته

---

(١) برواية المقرى، نفح، ٦ ص ٨٣ .

(٢) برواية المقرى، نفسه، ٤ ص ١٥ .

(٣) ص ٢٦ .

(٤) أنظر : المقرى، نفح، ٦ ص ٨٢ .

(٥) Chron Albeldense, ed. Florez, p 450 No 50, Cron Rotense, ed. Moreno, p 613 .

(٦) Ed. Florez, p 273 No. 20 .

(٧) Ed. Florez, p 497 No. 8 .

(٨) أنظر : المقرى، نفح، ٤ ص ١٥، ٦ ص ٨٣؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٦ .

إلى نبأ انتصار حاسم لعنبسة على الإسبان عام ١٠٣هـ [(١)] / ٧٢١ - ٧٢٢م؛ ولما كان هذا المؤرخ يميز دائماً فى روايته بين الإسبان والفرنجة سكان غالة، فإنه ولا شك يقصد انتصاراً لعنبسة على الإسبان وعلى الأرض الإسبانية ذاتها وليس خارج حدودها؛ ويؤيده فى ذلك أن المصادر الإسلامية واللاتينية على السواء لم تذكر أخباراً عن أى معركة خاضتها الجيوش الإسلامية فى غالة خلال هذا العام .

وربما قد يبدو للبعض أن هناك تضارباً بين ما يذكره إيزيدور الباجى من انتصار عنبسة، وبين ما يشير إليه المؤرخون السابقون - الرازى وابن حيان وصاحب فتح الأندلس - من انتهاء الحملة فى غير صالح المسلمين، إلا أنه يبدو من روايتهم أيضاً أن الجيش الإسلامى قد ألجأ بلاجيوس وجماعته إلى صخرة بلاى Pena de Pelayo - وهى فى ركن قصى من جبال قمم أوربا بأشتوريس - وربما كانت أنباء هذا الإلجاء هى التى وصلت إلى سمع إيزيدور فدونها، وظلت نهاية الحملة خافية عليه . ولذلك فأغلب الظن أن يكون الجمع الإسلامى الذى أرسله عنبسة قد اتجه إلى الثوار فى أشتوريس خلال عام ١٠٣هـ/ ٧٢١ - ٧٢٢م، كما يشير إيزيدور الباجى .

أما الاعتبار الثانى فيرتكز على أن بعض أصحاب التراجم المسلمين قد أوردوا فى تراجمهم نبأ استشهاد شخص يدعى نعيم بن عبد الرحمن بن معاوية على يد الروم بالأندلس، فى يوم عرفة من ذى الحجة عام ١٠٣هـ/ مايو ٧٢٢م [(٢)] . ولأن هؤلاء المترجمين - وغيرهم من المؤرخين المسلمين - كانوا يستخدمون لفظ الأندلس أحياناً ليدل على غالة أيضاً [(٣)] ؛ مما يجعلنا نشك فى أنهم ربما يقصدون بالأندلس

---

(١) Ed. Florez, 8 p 306 No. 52 .

(٢) أنظر : الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ رقم ٨٤٧؛ الضبى، بغية الملتمس، ص ٤٦٤ رقم ١٤٠٢؛ ابن الأبار، التكملة، ٢ ص ٧٥٦ رقم ١٨٧١ . وإن كان كوندى (Condé (op cit, 1 p 96 يخالف هذا التحديد، قائلاً أنه توفى فى حملة السمح بن مالك لغالة عام ١٠٢هـ/ ٧٢١م، ولا ندرى مبرراته فيما ذهب إليه .

(٣) على سبيل المثال أنظر : الضبى، نفسه، ص ٣٠٢ رقم ٨٣٩؛ الحميدى، نفسه، ص ٢٢٠ رقم ٤٩٨ حين ترجمتهما للسمح، ويذكران أنه استشهد فى قتال الروم بالأندلس . وأيضاً الضبى، نفسه، ص ٣٥٣ رقم ١٠٢١ ؛ الحميدى، نفسه، ص ٢٥٦ رقم ٦٠٣، حين ترجمتهما لعبد الرحمن الغافقى فيشيران أنه استشهد فى قتال الروم بالأندلس . أما ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ١ ص ٢٥٦ رقم ٧٧٢، فيذكر أنه قتلته الروم بالأندلس . ويذكر ابن بشكوال براوية المقرى، نفح، ٤ ص ١٤، أنه استشهد فى قتال العدو بالأندلس، وانظر أيضاً : الذهبى، تاريخ الإسلام، مطبعة السعادة ١٣٦٨هـ، ٤ ص ٨٧، الذى يذكر العبارة الخاصة باستشهاد السمح وإن جعل ذلك عام ١٠٣ هـ . وابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٧ حين الحديث عن حملة عنبسة لغالة، فيقول أنه خرج غازياً للروم بالأندلس . ولما كان السمح وعبد الرحمن قد استشهدا فى أرض غالة فيكون المؤرخون المسلمون ومن بينهم الضبى والحميدى يستعملون لفظ الأندلس ليدل أيضاً على غالة .

هذا أرض شبه جزيرة إيبيريا لا سيما وأن الأندلس مقرونة فى رواياتهم بكلمة الروم . إلا أنهم لما كانوا يؤكدون أن نعيم قد استشهد فى ذى الحجة ١٠٣هـ/ مايو ٧٢٢م، فى الوقت الذى لم تورد فيه المصادر التاريخية الإسلامية أخبار أى حملة إلى غالة خلال هذا العام أو بعده، وإنما فى السنة الخامسة من هزيمةالسمح أى فى عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م [١] ، ولذلك تكون وفاة نعيم هذا قد تمت على الأرض الإيبيرية ذاتها؛ وفى أواخر عام ١٠٣هـ/ مايو ٧٢٢م .

على أنه وإن لم تعيننا نصوص أصحاب التراجم المسلمين السابقة على تحديد مكان استشهاد نعيم داخل الأرض الإيبيرية؛ فإن صمت المؤرخين اللآتين عن أى هزيمة حلت بالمسلمين فى عهد عنبسة خلال هذا العام سواء فى غالة أو فى إيبيريا، فى الوقت الذى يتحدث فيه المؤرخون المسلمون [٢] عن إلجاء الجيش الإسلامى لمسيحيى أشتوريس إلى الصخرة؛ فإن ذلك يدل على أن نعيم بن عبد الرحمن قد استشهد فى معركة دارت على الأرض الأشتورية ذاتها فى ذى الحجة من عام ١٠٣هـ/ مايو ٧٢٢م . وتكون الحملة التى أرسلها عنبسة بن سحيم ضد الثوار فى أشتوريس قد بدأت فى أول ربيع تال لاعتلائه ولاية الأندلس [٣] . ومع احتساب الوقت الذى تستغرقه الحملة من قرطبة إلى أشتوريس فإنها تصل فى التاريخ المذكور، وهو نفس التاريخ الذى استشهد فيه نعيم؛ وتكون المصادر الإسلامية بذلك قدمت لنا تاريخا محددا للمعركة بين المسلمين وبين ثوار أشتوريس .

ومن ناحية أخرى فإذا كان عنبسة بن سحيم قد قاد حملته إلى غالة فى عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م [٤] ، فيكون قد مضى وقت كاف بعد حملته إلى أشتوريس استعد فيه

---

(١) أنظر : Chron Moissiacense, Ed Lafuente, p 165 .

(٢) أنظر : المقرى عن الرازى، نفح، ٦ ص ١٨٣؛ وعن ابن حيان، نفسه، ٤ ص ١٥ .

(٣) كانت معظم الحملات الإسلامية تبدأ فى الربيع، فقد دخل طارق بن زياد ومن بعده موسى بن نصير إيبيريا فى الربيع، كما كانت حملة الحر بن عبد الرحمن لغالة، ثم حملة السمح بن مالك من بعده فى ذلك الوقت أيضاً . بل إن الأمويين فى الأندلس ـ فيما بعد ـ كانوا يبدأون حملاتهم العسكرية الهامة فى نفس الوقت من السنة لأنه أنسب الأوقات مناخيا، وكان وقت حصاد يمكن فيه إنزال خسائر جسيمة بالخصم . وذلك مثلما كان خلفاء المشرق يختارون صوائفهم للغزو وشواتيهم للتحصن والدفاع .

(٤) عنها بتفصيل أنظر : ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٥٤؛ المقرى عن ابن بشكوال، نفح، ٤ ص ١٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٧ وإن جعل تاريخها عام ١٠٥هـ، وأنظر أيضاً : مؤنس، فجر، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٣٨ ـ ١٣٩؛ عبد الجليل عبد الرضا، العلاقات السياسية، ص ٤٥ ـ ٤٦؛ الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ١٩٠ ـ ١٩١؛ طرخان، المسلمون فى أوربا، ص ١٠٤ ـ ١٠٦؛ أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٧ .

للانتقام لهزيمة واستشهاد سلفه السمح بن مالك فى غالة؛ مما يبرهن أيضاً على أن الجيش الإسلامى قد تحرك ضد ثوار أشتوريس فى عهد عنبسة هذا وفى أواخر عام ١٠٣هـ/ ربيع عام ٧٢٢م [١] على وجه التحديد .

هذا ولم تحدد المصادر الإسلامية ولو على وجه التقريب أعداد هذا الجيش الإسلامى ولا اسم قائده، وإنما تطوعت المدونات اللاتينية بتحديد هذا الأمر وبالغت بطريقة لا يقبلها العقل فى تقديره بمائة وسبعة وثمانين ألف مقاتل [٢] أو بثمانين ألف [٣] ، وقدرته الوثيقة اللاتينية الصادرة فى أشتوريس عام ٧٤٠م/ ١٢٢هـ بخمسين ألف مقاتل فقط[٤] ؛ وظهر اسم القائد الإسلامى فى هذه الكتابات بأشكال متعددة أبرزها ما يلى : Alchaman و Alkama [٥] وأيضاً Aloamane [٦] .

وليس بمقدورنا تقدير أعداد هذا الجيش الإسلامى تقديراً دقيقاً، ولا قبول التقدير الخيالى للمدونات اللاتينية السابقة؛إذ فى الوقت الذى لم يجهز فيه المسلمون سوى سبعة آلاف مقاتل أردفوها بخمسة أخرى لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية كلها فى

---

(١) يوافق بعض المؤرخين الأوربيين على هذا التاريخ ومنهم : Valdeavellano, op cit, 1 p 381; Sanchez Albornoz, Otra Vez, pp 112 - 114; Vilar, Spain, Great Britain 1977, p 9; Livermore, A History of Spain, p 69. ؛ وإن جعله آخرون فى عهد عنبسة دون تحديد تاريخ معين ومنهم : Scott, op cit, 1 p 349; Stokes, Spanish Islam, 2 ed, London 1972, pp 410 - 411. ؛ Urbel, op cit, pp 26 - 28 . وإن جعلها الأخير فى عام ٩٩هـ/ ٧١٨م أى فى عهد الحر بن عبد الرحمن .

(٢) Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 65, 110; Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 480 No. 10; Chron. Silense, ed. Florez, p 273 No. 20, Cron. Rotense, ed Moreno, p 613; Chron Léonaise, ed Cirot, p 388 . وجعله بعض المؤرخين الأوربيين الحديثين أربعمائة ألف مقاتل أنظر: Burke,op cit, 1 p 134, Williams, op cit, 10 p 40, Hume, op cit, p 83 No. 1

(٣) Prim Cron General, ed Pidal, 2p 321; Cron de Lucas, ed. Puyol, p 277; Quadrado, op cit, p 26 .

(٤) عن نصها أنظر : Risco, op cit, 37 pp 303 - 304; Floriano, op cit, 1 pp 34 - 35 ؛ وأنظر أيضاً الملاحق .

(٥) Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 479 No. p 480 No. 10, Cron Rotense, ed. Moreno, pp 613, 614; Chron. Silense, ed. Florez, p 273 Nol. 20; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 388 Sqq. Chron. Albeldense, ed Moreno, p 601 ; Cron. de Lucas, ed Puyol, p. 274, 276, 277 .

(٦) Chron. Albeldense, ed. Florez, p 450 No. 50 وانفردت هذه الطبعة بإيراد الاسم بهذا الشكل، ويبدو أنه خطأ فى النسخ أو الطبع لسهولة تحريف حرف الـ C إلى O .

عام ٩٢هـ/ ٧١١م، فليس من المعقول أن يجردوا عشرات أضعافه لمجرد القضاء على بؤرة ثورية صغيرة هناك . لا سيما وأنه إذا قدرنا أعداد كل الجنود المسلمين الذين دخلوا شبه الجزيرة منذ فتحها عام ٩٢هـ/ ٧١١م حتى عهد عنبسة بن سحيم عام ١٠٣هـ/ ٧٢١م، ودون احتساب من استشهد منهم فى داخل إيبيريا أو فى غالة، فإنها لا ترقى إلا إلى حوالى ستين ألفا [1] ، فأنى للمسلمين بمثل هذا العدد الرهيب ؟ يضاف إلى ذلك أن انفراد المدونات اللاتينية بهذا التقدير يقتضينا عدم الاعتماد على رواية جانب واحد، أو الاطمئنان كلية إلى صحة تقديراته لا سيما وأنها تقديرات لخصومه [2] .

وإذا وضعنا فى الحسبان أيضاً روح العصر الدينية، وأن مدونى هذه المدونات اللاتينية كانوا رهبانا ورجال دين اتضح السر فى مغالاتهم؛ التى أرادوا بها إظهار مدى تدخل العناية الإلهية فى صف مسيحيى أشتوريس القلائل والتضخيم فى قيمة انتصارهم، أو ليظهروا أنه إذا كان المسلمون قد فتحوا إيبيريا فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م وعاونهم فى ذلك كثرة أعدادهم، فإن مسيحيى أشتوريس القلائل قد ردوا جيشاً هائلاً - ١٨٧ ألفا - على أعقابه؛ حتى يخيل للقارىء أنهم استطاعوا أكثر مما استطاع المسلمون فى عام ٩٢هـ/ ٧١١ م .

ويبدو أيضاً أن طبيعة العصر بصفة عامة كانت مغالاة المنتصر فى تقدير أعداد خصمه المنهزم،إذ اتخذت المصادر الإسلامية نفس الموقف حينما قدرت الجيش

---

(١) رافق طارق فى حملته إلى إيبيريا اثنا عشر ألف مقاتل، ورافق موسى ثمانية عشر ألفا، ورافق الحر بن عبد الرحمن أربعمائة من وجوه إفريقية، وإن كنا لا نعرف عدد الذين رافقوا السمح وعنبسة، يضاف إليهم جميعاً من هاجر إلى الأندلس بعد فتحها ونفترض أن أعدادهم على أقل الفروض تساوى الأعداد المذكورة أعلاه . قارن : المقرى وغيره، نفح، ١ ص ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٥٢، ٢٥٩، ٤ ص ١٣؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٧؛ أخبار مجموعة، ص ٦ - ١٧؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٦، ١٣، ٢٥؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٤٢ .

(٢) يرفض معظم المؤرخين الأوربيين الحديثين - متطرفين ومعتدلين - تقدير المدونات اللاتينية لأعداد هذا الجيش الإسلامى، معترفين بما فيها من مغالاة وبعد عن الحقيقة، قارن : Quadrado, op cit, p 26, Barrau - Dihigo, Recherches, pp 133 - 134; Saavedra, Pelayo, p 14 (قدره بحوالى ١٨٧٠ مقاتل) Urbel, op cit, p 26, Danham, op cit, 2p 122; Velasco, op cit, p 192; Watts, op cit , p 26, Scott, op cit, 1 p 351; Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 20 (قدره بحوالى ألف مقاتل) Perez, de Cao, op cit, p 172 .

القوطى الذى انهزم فى معركة وادى لكة فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م، بستمائة ألف[١] وبمائة ألف [٢] ، أو بسبعين ألف [٣] ، وأقل تقدير بأربعين ألف [٤] . ولذلك وقف ابن خلدون من تقدير المؤرخين - فى العصور الوسطى بعامة - لأعداد الجيوش موقف الرفض [٥] .

ومن ناحية أخرى فلا نملك تقديرا لأعداد الثائرين مع بلاجيوس، إذ لم تفصح المصادر اللاتينية أو الإسلامية عنه؛ وإن أشارت الأخيرة أنه وصل فى أقصى حالات ضعفه إلى ثلاثمائة مقاتل [٦] ؛ فإنها ولاشك لم تقصد حصر كل أعداده بقدر ما تشير إلى عدد الذين التجأوا مع بلاجيوس داخل الكهف واحتموا به؛ وبالطبع فلم يزد عن ذلك كثيراً نظراً لصغر مساحته [٧] ؛ ولما كان من أبسط قواعد فنون الحرب ألا يحصر العدد الأكبر من الجيش نفسه فى مكان مغلق كهذا الكهف، وإلا كان فناؤه أمرا مقضياً؛ فيكون من المنطقى أن غالبية أعداد قوات بلاجيوس قد اتخذت مواقعها خارج الكهف، وفى أماكن تمكنها من الدفاع عن نفسها ومن النيل من المهاجمين، فضلاعن عرقلة وصول الأخيرين إلى الكهف حماية لمن فيه؛ ولذلك فقد كمنت معظم قوات بلاجيوس على قمم الجبل المؤدى إلى مدخل الكهف [٨] ؛ وهى التى قدرها بعض المؤرخين الإسبان الحديثين أمثال بلاسكو Velasco [٩] وسابدرا Saa-vedra[١٠] بأكثر من ألف رجل بقليل . وإذا أضفنا هذا العدد إلى عدد من كانوا

---

(١) أنظر : الحميرى، صفة، ص ١٠؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٤٢ .

(٢) أنظر : ابن الكرديوس، الاكتفاء، ص ٤٧؛ أخبار مجموعة، ص ٧، ٨؛ المقرى عن ابن حيان والرازى، نفح، ١ ص ٢١٦، ٢٤١ .

(٣) أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٢٥ .

(٤) أنظر : ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٧ .

(٥) أنظر : المقدمة، ص ١٤ . هذا وقد رفض كثير من المؤرخين الحديثين مغالاة المدونات اللاتينية فى هذه الأعداد وفى وقائع المعركة، وعلى سبيل المثال أنظر : Urbel, op. cit, pp 26 - 28; Cayetano, op. cit, p 10, pp 17 - 18; Burrau - Dihigo, Recherches, pp 127 - 135 ؛ وعن أسباب هذه المغالاة التى ترجع إلى طبيعة العصر أنظر: Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 50 - 52; Caveda, op cit, pp 70 - 71

(٦) قارن : المقرى عن الرازى وابن حيان، ٤ ص ١٥، ٦ ص ٨٣؛ أخبار مجموعة، ص ٢٨؛ ابن عذارى عن مؤلف كتاب بهجة الأنفس، البيان، ٢ ص ١٢ - ١٣ .

(٧) قدرت بعض المدونات اللاتينية عدد ما يمكن أن يحويه الكهف بألف رجل، أنظر : Chron. Silense, ed. Florez, p 273 No. 20; Prim. Cron General, ed. Pidal, 2p 322، وانظر أيضاً رواية مدونة الفونسو العاشر التى يوردها كل من : Huici, op cit, 2p 44 No 4, Velasco, op cit, pp 193 - 194 .

(٨) أنظر : Cron. Rotense, ed Moreno, p 613، ونص مدونة الفونسو العاشر التى يوردها : Velasco, op cit, p 194، ونص مدونة لذريق التى يوردها : Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 147

(٩) Guadalete y Covadonga, p 189

(١٠) Pelayo, p 12

بالكهف مع بلاجيوس فإنه يقل قليلاً عن ألفى مقاتل وهم كانوا عدد جيشه ؛ الذى نعتقد أن يكون قريباً من عدد الجيش الإسلامى أيضاً .

أما قائد الجيش الإسلامى الذى أشارت إليه المدونات اللاتينية على أنه Alkama بأشكاله المختلفة التى ذكرناها؛ فيبدو أنها الصيغة الأوربية للاسم العربى علقمة . وهو وإن لم يرد اسمه إلا فى كتاب الجغرافى المسلم الحميرى [١] ، باسم علقمة بن عامر كأحد التابعين الذين دخلوا الأندلس؛ فقد حفظت المصادر الإسلامية الأخرى اسمى ابنيه من بعده ، وأولهما عبد الرحمن بن علقمة اللخمى؛ الذى لعب دوراً هاماً فى الصراعات بين العرب البلديين الذين دخلوا الأندلس وقت فتحها وبعده بقليل، وبين العرب الشاميين الذين دخلوها حوالى عام ١٢٣هـ/ ٧٤٢م ؛ وكان عبد الرحمن هذا يلى ثغر أربونة (نربونة) Narbonne ويعد فارس أهل الأندلس؛ ثم اغتيل على أيدى أتباع الوالى يوسف الفهرى حوالى عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م [٢] . أما الابن الآخر فهو تمام بن علقمة - ويكنى بأبى غالب - الذى عاون عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) فى إقامته صرح دولته الأموية فى الأندلس، وظل على قيد الحياة حتى توفى فيما بين عامى ١٧٢ - ١٨٠هـ/ ٧٨٩ - ٧٩٦م [٣] . فوجود الابنين يؤيد وجود أبيهما علقمة بالأندلس أثناء الفتح الإسلامى لها [٤] ؛ وكان - مثلما تشير المدونات اللاتينية - من أعوان طارق بن زياد أو مصاحباً له [٥] ، وبخاصة أن جيش طارق حوى بعض كبار جند ووجوه العرب [٦] . ولأن إيزيدور الباجى Isidore Pacense يذكر أن عنبسة قد أناب عنه فى قيادة الحملات قوادا يسميهم Satrapas[٧]

---

(١) أنظر : صفة، ص ٤ ؛ نقلا عن عبد الملك بن حبيب .

(٢) عن ذلك قارن بتفصيل : أخبار مجموعة، ص ٤٣ - ٤٤؛ المقرى، نفح، ٤ ص ٢٠، ٢١، ٢٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٢، ٣٨؛ ابن القوطية ، تاريخ، ص ٤٢ - ٤٣؛ مؤنس، فجر، ص ٢١٥ وما بعدها ، ص ٢٨٧؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٦٠ - ١٦١؛ الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ١٨٨ .

(٣) عن ذلك قارن بتفصيل : أخبار مجموعة، ص ٧٤ - ٧٥، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣٠٧، ٤ ص ٣٠، ٤٤ - ٥٠؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٤٥ - ٤٦، ٤٨؛ ابن القوطية، نفسه، ص ٤٨؛ مؤنس، فجر، ص ٦٧٣؛ بويكا، المصادر التاريخية، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٤) أنظر : مؤنس، فجر، ص ٣٢١ حاشية ١ .

(٥) Cron Alfonso III, ed. Villada, p 62, Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 479 No. 8; Chron Silense, ed. Florez, p 273 No. 20 . وإن جعله بعض المؤرخين بربرياً، أنظر : Risco, op cit, 37 p 76 No 110; Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 23 .

(٦) كان جيش طارق بربريا باستثناء قلة من العرب اختلف فى عددهم، أنظر : ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٤؛ أخبار مجموعة، ص ٦؛ المقرى عن ابن بشكوال وغيره، نفح، ١ ص ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٣٨، ٢٤٤؛ الحميرى، صفة، ص ٩ . وانظر أيضاً : مؤنس، فجر، ص ٦٨؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ٧١ - ٧٢، وقد أثبتا اسم علقمة ضمن جند طارق دون أن يشيرا إلى مصدرهما .

(٧) أنظر : Ed Florez, p 306

أى نوابا، فترجح أن يكون علقمة واحداً منهم؛ وأنه هو الذى ولاه عنبسة قيادة البعث الإسلامى إلى أشتوريس لقمع ثورتها.

وإذا كانت المعركة بين المسلمين وثوار أشتوريس قد حدثت عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م، واستشهد فيها قائد البعث الإسلامى - كما سيأتى بيانه - فمن المستبعد إذن أن يكون قائده عبد الرحمن بن علقمة أو أخيه تمام، مثلما أشارت إحدى الدراسات العربية الحديثة (١) ؛ إذ ظل أولهما على قيد الحياة حتى عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، وثانيهما فيما بين عامى ١٧٢ - ١٨٠هـ/ ٧٨٩ - ٧٩٦م؛ وعلى افتراض صحة قيادة أى منهما لهذه الحملة، فكان من المنطقى أن تشير المدونات اللاتينية إليه باسمه وليس باسم والده .

كذلك فإن بعض المؤرخين الأوربيين الحديثين (٢) - الذين يحددون تاريخ المعركة بعام ٩٩هـ/ ٧١٨م فى عهد الحر بن عبد الرحمن - ذهبوا إلى القول بأن الاسم الذى تقدمه المدونات اللاتينية لقائد البعث الإسلامى ليس إلا السمح بن مالك والى الأندلس؛ واستطردوا أكثر من ذلك فعارضوا إجماع هذه المدونات بأن أصروا على القول بأنه لم يمت فى المعركة لأنه خلف الحر بن عبد الرحمن على ولاية الأندلس . وتكمن مجانبة هذا الرأى للصواب فى أن السمح لم يكن بالأندلس وإنما قدم إليها من المشرق حينما اختاره الخليفة عمر بن عبد العزيز والياً لها فى رمضان سنة ١٠٠هـ/ ربيع ٧١٩م(٣). وفى الوقت الذى يتمسك فيه المؤرخون السابقون بعام ٩٩هـ/ ٧١٨م لتحديد تاريخ المعركة بين المسلمين والثوار فى أشتوريس، فإنهم يستعيرون نصاً من غزيرى Casiri يشير فيه بوضوح إلى حملة أرسلها يوسف الفهرى أواخر عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب،

---

(١) أنظر : السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٦٩ .

(٢) Velasco, op cit, p 191, Danham, op cit, 2 p 122 No. 3; Caveda, op cit, pp 60 _ 61; Somoza, op cit, 2 p 453 .

(٣) كان السمح مقيماً بافريقية، وعلدما وفد على الخليفة سليمان بن عبد الملك مع وفد إفريقية بجبايتها، عاين عمر بن عبد العزيز فضله وأعجب به فضمه إلى نفسه واستبقاه معه حتى اعتلى الخلافة الأموية فولاه الأندلس، أنظر : أخبار مجموعة، ص ٢٢ - ٢٣؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٩ حيث يشير صراحة إلى أن الخليفة بعثه والياً على الأندلس؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٤ .

ضد بعض المسيحيين بالأندلس دون أن يحدد مكانهم [١]؛ وينسبون أحداث هذا النص لعام ٩٩هـ/ ٧١٨م مع أنها محددة بأواخر عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م وفي ولاية يوسف الفهري؛ وأقحموا على النص أيضاً اسم السمح بن مالك بدلاً من الحصين بن الدجن، وفسروا الحقائق بذلك تفسيراً يتلاءم مع أهوائهم دونما اتباع للمنهج التاريخي.

وعلى كل فقد قاد علقمة اللخمي البعث الإسلامي وقصد بؤرة الثورة ومركز نشاطها بمدينة كانجاس Canicas (Cangas de Onis الحالية) في أشتوريس، وكان على ثقة أكيدة إن لم يكن باستسلام هذه الحفنة الثائرة فبانتصاره عليها إذا رفضت الاستسلام وحاولت المقاومة .

ولما كانت أهداف هذا البعث الإسلامي لا تقتصر على إخضاع الثورة وقمعها، وإنما أيضاً رفع معنويات الجند المسلمين لكي يستعيدوا ثقتهم بعد الهزيمة التي حلت بهم في غالة منذ عام سبق؛ فقد كانت خطة علقمة تحقيق ذلك بأقل الخسائر ودون حرب أو قتال إذا ما تمكن من ذلك، ومن ثم اصطحب معه أسقفاً ـ عرف للمسلمين باسم أبة أو عباس [٢] Oppas ـ كان قد استسلم لموسى بن نصير وفتح له أبواب مدينة

---

(١) أنظر : Bibliothecu, 2 p 23 ، وعن الحملة بتفصيل أنظر : أخبار مجموعة، ص ٧٦ ـ ٧٧ ويجعلها إلى بلاد البشكنس ببنبلونة في شمال شرقي الأندلس، ويبدو أن ذلك صحيحاً إذ يشير أن فلول الجيش التجأت إلى مدينة سرقسطة وهي أقرب إلى بنبلونة منها إلى أشتوريس، وأنظر : مؤنس، فجر، ص ٦٧٥؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٨٣؛ وجعلها مرة إلى البشكنس ومرة أخرى إلى جليقية، وعذره أن ابن عذارى يشير في بيانه (٢ ص ٤٤) إلى بعثين أحدهما إلى جليقية والآخر إلى البشكنس دون تحديد لأسماء قوادهما، كما أن صاحب فتح الأندلس (ص ٤٩) يجعلهما بعثين إلى جليقية . ومع ذلك فنص صاحب أخبار مجموعة أوضح؛ وانظر أيضاً : Condé, op cit, 1 pp 145 - 146 . والحصين سيد جند قنسرين، أما سليمان فسيد جند دمشق وكلاهما من القيسية من الحجاز، أنظر : أخبار مجموعة، ص ٦٥؛ مؤنس، فجر، ص ٢٣٧ . وقد استشهد سليمان ونجا الحصين بفلوله إلى سرقسطة وكان ممن عاون عبدالرحمن بن معاوية ضد يوسف الفهري، أنظر : المقري، نفح، ٤ ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٢) قوطي الأصل واختلف في نسبه، فجعلته المصادر الإسلامية إما ابنا لغيطشة الملك القوطي قبل لذريق، أو من أحفاده . قارن : ابن القوطية، تاريخ، ص ٢٨ ، ٣٠؛ المقري، نفح، ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠؛ أخبار مجموعة، ص ٥، ٨ . أما معظم المدونات اللاتينية فقد جعلته ابناً لغيطشة وإن اختلف فيما إذا كان أسقفاً لطليطلة أم لإشبيلية، قارن : Chron Sebastiani, ed. Florez, p 479 No. 8; Chron Albeldense, ed Florez. p 450 No. 50, Chron Silense. ed Florez, p 273; Cron. Rotense, ed. Moreno, p 613; Cron Alfonso III, ed Villada, 62 .; Cron de Lucas, ed Puyol, p 274. وقد انفرد كل من : Isidore Pacense و Alfonso X بالقول أنه ابن للملك القوطي إجيكا أي أخ لغيطشة، أنظر : Florez, 8 p 299, Prim Cron General, ed Pidal 2p 321 وقارن أيضاً : مؤنس، فجر، ص ٣٢٢؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ٥٩ حاشية ١٤؛ حسن خليفة، تاريخ العرب، ص ١٩؛ Valdeavellano, op cit, p 381, Saavedra, Pelayo, p 11; Velasco, op cit, pp 199 - 200; Barrau - Dihigo, Recherches, p129, Caveda, op cit, p 64 Sqq

إشبيلية [١] ، ويعرف بلاجيوس من قبل فى بلاط العاصمة القوطية طليطلة [٢] ؛ وذلك بهدف إقناع بلاجيوس بالإقلاع عن فكرة مقاومة المسلمين سادة البلاد الجدد، وأصحاب الجيوش الجرارة التى لا تقاس معها جماعة بلاجيوس فى عدد أو عدة . أما إذا فشلت هذه الخطة فكان على علقمة أن يستخدم القوة المسلحة ليخمد أنفاس الثائرين وتكبيل قائدهم بالسلاسل وإحضاره إلى قرطبة العاصمة الإسلامية ليلقى عقابه هناك[٣] .

وصلت أنباء تقدم علقمة مع قواته من القواسين والنشابين والفرسان والراجلة إلى سمع بلاجيوس وأتباعه وهم بمدينتهم كانجاس، ولما كانت أعدادهم قليلة وعدتهم هزيلة؛ فإنهم - على حد تعبير مدونة الفونسو العاشر Alfonso X - قد ارتعدوا خوفاً [٤] ؛ وأدركوا خطورة مقاومة المسلمين أو التصدى لهم فى مكان مكشوف مثل وادى كانجاس . ولذلك أعملوا الفكر ليهديهم إلى مخرج من مأزقهم هذا، وإلا كان هلاكهم محتوماً؛ بل يقال أنهم تضرعوا إلى الرب حينذاك ليهيىء لهم من أمرهم رشدا [٥] . وحينذاك اهتدوا إلى فكرة الانسحاب إلى منطقة يكونون فيها آمنين على أنفسهم، وقادرين على التصدى لهجوم المسلمين ورده إن لم يكن إحباطه وردعه . وعاونتهم فى ذلك معرفتهم بالمنطقة وطبوغرافيتها؛ فكان أنسب الأماكن هو كهف سانتاماريا أى كهف أونجا Covadonga [٦] (Cova Sanctae Mariae)، الذى لا

---

(١) تشير المصادر الإسلامية إلى انتزاع لذريق العرش من أبناء غيطشة ومنهم أبة هذا، لصغرهم أو لعدم تراضى أهل إسبانيا عليهم فكانوا ممن أداروا عليه الهزيمة بانضمامهم إلى المسلمين، قارن : أخبار مجموعة، ص ٥، ٤٨ المقرى عن ابن حيان وغيره، نفح، ١ ص ٢٣٣، ٢٣٤ - ٢٣٥، ٢٤٠ - ٢٤١، ٢٤٢ . وتكتفى المصادر اللاتينية بالقول أنهم خانوا لذريق فى العالم الثالث من حكمه باستدعائهم العرب لغزو البلاد، قارن : Cron. Rotense, ed. Moreno, pp 611 - 612; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 60, 105 - 106, Chron. Léonaise, ed. Cirot, pp 385 - 386; Chron Silense, ed Huici, 2 pp 34 - 36; Chron. Sebastiani, ed. Huici, 1 p 204 .

(٢) Saavedra, Pelayo, pp 11 - 12 ; Caveda, op cit 1 p 66 .

(٣) عن مهمة عباس هذه، أنظر : Chron. Silense, ed Florez, p 273 No. 20 - 21; Huici, op cit, 2 p 46; Cabal, op cit, pp 287 - 288 . وإن كان نفر قليل من المؤرخين الحديثين ومنهم Pellicer و Masdeu يشكون فى مرافقة عباس للجيش الإسلامى، وعن آرائهم، أنظر Danham, op cit, 2 p 123 No. 1; Caveda, op cit, pp 65 - 66 .

(٤) أنظر : Prim. Cron General, ed Pidal, 2 p 322, Velasco, op cit, p 194 .

(٥) أنظر : Saavedra, Pelayo, p 11 .

(٦) عن كيفية تطور اسم الكهف حتى استقر على هذه الصورة فى الوقت الحاضر أنظر : Cabal, op. cit., pp 15 - 25 .

يبعد عن مدينة إقامتهم ومركز ثورتهم بمدينة كانجاس إلا بفرسخين - أى حوالى ستة أميال [١] - ناحية الشرق، ويعرفونه حق المعرفة إذ كان مأواهم فى محنتهم من قبل؛ وسبق لهم الاجتماع فيه حين اختيار بلاجيوس قائدا لهم؛ وله فى نفوسهم قدسية باعتباره مكانا محروسا بالعناية الإلهية .

ويقع هذا الكهف فى جوف صخرة هائلة شديدة الانحدار [٢] بجبل أوسبة Auseva الضخم [٣] ؛ الذى تعلو هامته إلى حوالى أربعة آلاف قدم، وهو أحد الكتل الغربية لجبال قمم أوربا Los Picos de Europa ، التى تشكل بدورها امتدادا غربيا لسلسلة جبال كنتبرية .

أما الطريق ما بين وادى كانجاس Canicas فى الغرب إلى جبل أوسبة Auseva فى الشرق [٤] حيث الكهف، فيبدأ بواد ضيق تحفه التلال العالية وتكسوه الأشجار الكثيفة، ويحاذى فى نفس الوقت امتداد مجرى نهر سيا Sella [٥] (Buena الحالى) . وعندما يتحد هذا النهر على بعد نصف فرسخ من مدينة كانجاس مع نهر ديبا Deva (Devae) [٦] فإن الوادى ينحنى تجاه الجنوب مع اتجاه منبع النهر الأخير؛ ولمسافة فرسخ آخر تكاد التلال تبدو جبالا على ضفتى النهر، ويزداد ارتفاعها مع التقدم فى السير؛ ويختنق الوادى أيضاً ويضيق حتى يصل إلى منطقة تلية تسمى La Riera ، ومنها إلى الصخرة نصف فرسخ آخر أكثر وعورة وتعقيداً ؛ إذ

---

(١) يقدر ياقوت طول الفرسخ بحوالى ثلاثة أميال، وعن ذلك واشتقاق اللفظ لغوياً أنظر: معجم، ١ ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) عن وصفها ومناعتها الطبيعية بتفصيل أنظر : Chron. Silense, ed Florez, p 273 No. 20; Risco, op cit, 37 p 98 No. 149; Morales, op cit, 3 Fol 3 - 4; Perez de Cao, op cit, pp 172 - 173 .
وانظر أيضاً القصيدة الشعرية التى تتناول ذلك فى أسلوب شعرى، وينقلها المؤرخ كابال فى كتابه : Covadonga, pp 292 - 293 .

(٣) يكتب بصيغ مختلفة منها : Asseua و Aseuua و Ascuna والشائعة التى ذكرناها، أنظر : Cron. Rotense, ed. Moreno, p 613; Cron. Alfonso III, ed Villada, pp 62, 109, Chron Silense, ed. Florez, p 273 No. 20

(٤) عن وصف الطريق بتفصيل، قارن : Risco, op cit, 37 pp 97 - 99, Quadrado, op cit, pp 23 - 24, 30 - 32, Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 24 - 26; Saavedra, Pelayo, pp 10 - 11, Morales, op cit, 3 Fol 3 - 4 .

(٥) يسمى أيضاً نهر كانجاس، إذ يصب فى بحر كنتبرية بالقرب من مدينة كانجاس، أنظر : Sanchez Albornoz, op cit, 2 p 13 .

(٦) عنه أنظر : Chron. Silense, ed. Florez, p 275 No. 24; Chron. Sebastiani, ed Florez, p 480 No 10 .

خلاله إلا قمم عالية متراصة تحيط بالوادى من كل جوانبه، يتخيلها المرء فكا مفترساً يطبق على فريسته، ويضيق الوادى وينكمش حتى لا يبقى فيه اتساع أكثر من عرض نهر ديبا ذاته؛ ويبدو الوادى فى النهاية عميقا عند أقدام الكهف الصخرى الذى يرتفع عن الأرض بحوالى ثلاثين مترا؛ وبه ينغلق الوادى تماما وينتهى دون مخرج إلى ما وراءه من كتل جبال قمم أوربا Los Picos de Europa ، بسبب المنحدرات الصخرية الشاهقة المحيطة التى لا تترك سوى منحدر واحد - وهو وإن كان شاقا أيضاً - فإنه أقل صعوبة فى تسلقه من غيره؛ ويؤدى إلى مدخل الكهف الذى يطل على الوادى بفتحة طبيعية، وينفتح إلى الداخل بفجوة لا يمكن لها - على حد تعبير المصادر اللاتينية - أن تحوى فى أقصى حالات تكديسها أكثر من ثلاثمائة رجل؛ وإن انفردت مدونتا سيلوس Silense والفونسو العاشر Alfonso X بتقديرهم بحوالى ألف مثلما أشرنا من قبل .

وفى هذا الكهف انتهى المطاف ببلاجيوس وجماعته المسلحة الذين اتسعت لهم مساحة تلك الفجوة، فى حين تسنمت باقى قواته التى كانت معظم جيشه قمم الجبال المطلة على جانبى الوادى المؤدى إلى مدخل الكهف (١) . وبذلك أصبح بلاجيوس وجماعته فى مأمن، وأخذوا يترقبون وصول القوات الإسلامية وهم مستعدون لملاقاتها؛ بعد أن صار كل شيء تقريباً لصالحهم . وقد صور الأدب الأسبانى الحديث كيفية استعداد رجال بلاجيوس بالأسلحة؛ وكيفية تسنمهم لقمة الجبل فى أسلوب شعرى قصصى تكثر فيه المبالغة والتخيل (٢) .

حقيقة لقد كان هؤلاء الثوار خائفين مرتجفين، إلا أن علقمة الذى وصل بجيشه إلى وادى كانجاس قد فسر تقهقرهم بأنهم لا محالة مستسلمون دون قتال؛ أو أنه لم يقدر الموقف حق قدره فتملكته ثقة زائدة، واندفع وراءهم مقتحما الطريق الذى بدا له فى بدايته وكأنه لا يختلف فى شيء عن غيره من الطرق التى تعبر أشتوريس؛ فتقدم ربما دون تعقل أو حذر وتدبر، ودون أن يفطن إلى الشرك الذى نصب له ولقواته فى منطقة وعرة موحشة (٣) .

---

(١) Chron Sebastiani, ed Florez, p 479 No. 9, Cron. Rotense, ed. Moreno, p 613; Velasco, op cit, pp 193 - 194; Danham, op cit, 1 p 249

(٢) عن نصها أنظر : Danham, op cit, 2 Apen C, pp 295 - 297 .

(٣) أنظر : Williams, op cit, 10 p 39; Scott, op cit, 1 p 349 وانظر التصوير الأدبى لهذه الحالة فى القصيدة الشعرية السابقة . ويتعجب المؤرخون لاقتحام المسلمين لهذه المنطقة التى لا يجدى فيها قتال، إذ تقدم طبيعة الأرض تسهيلات للمدافعين عنها دون المهاجمين، بل ويرى البعض أنه إذا كانت هناك معجزة فى القتال الذى دار بين المسلمين والمسيحيين هناك، فهى معجزة إقحام المسلمين أنفسهم فى هذه المنطقة الوعرة . أنظر : Caveda, op cit, p 84

ولابد أن علقمة قد تنبه إلى مخاطر هذا الطريق ووعورته لكن بعدما قطع فيه شوطاً بعيداً، وربما تحرج موقفه أيضاً حينما وصل إلى أقدام جبل أوسبة؛ وتوقف وجهاً لوجه أمام بلاجيوس وجماعته، وعاين على الطبيعة مدى وعورة الطبيعة الجغرافية للمنطقة وتعقدها بصورة يصعب عليه فيها مواجهة خصمه إلا بجبهة محدودة هى جبهة الملتجئين داخل الكهف؛ تاركاً جناحى جيشه مكشوفين لهجوم من أى اتجاه؛ وبخاصة هجوم الكامنين على قمم الجبل من الجانبين، والذين لم يكن علقمة يدرى عن أمرهم شيئاً .

كذلك فربما أحس علقمة بالشرك الذى أعد له ولرجاله ويتحرج موقفه العسكرى، وفكر فى أن يعود أدراجه ليتحاشى ما قد يجره عليه هذا الموقف من كوارث . بيد أن الوقت أصبح متأخراً، ولم يكن خصمه يمنحه تلك الفرصة قبل أن ينال منه؛ ولذا فلم يكن أمام علقمة سوى أن يجرب أولا أسلوب الملاينة والمفاوضة مع الخصم لعله ينجح فى إقناعه بالعدول عن المقاومة؛ فيحل السلم محل الحرب وسفك الدماء وبالتالى تغيير الموقف لصالحه .

حينئذ جاء دور الأسقف (أبة) عباس فتقدم من بين صفوف الجيش الإسلامى حتى استوى على ربوة تعلو قليلا فى مواجهة الكهف قريباً لبلاجيوس، واستفتح الحوار معه [١] مذكراً إياه بأن إسبانيا (إيبيريا) التى كانت متحدة أيام القوط، ومن ألمع أقطار العالم بعلومها وتعاليمها الدينية ! لم تستطع مع ذلك مقاومة المسلمين أو دفعهم، ولم يقو جيشها على الدفاع عنها وإنما تحطم تحت ضرباتهم . ثم أضاف عباس رغبة منه فى تخويف بلاجيوس وجماعته، وتحطيم معنوياتهم وإحباطها وتبيان عدم جدوى مقاومتهم، قائلاً : فهل بإمكانك أنت وجماعتك القليلة

---

(١) عن نص الحديث بينهما أنظر الملاحق، وانظر أيضاً : Chron. Sebastiani, ed. Florez, pp 479 - 480 No. 9 - 10; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 63 - 64, 111 - 113, Cron Rotense, ed. Moreno, pp 613 - 614; Chron. Silense, ed. Florez, p 271 No 21 - 22, Chron Léonaise, ed Cirot, pp 388 - 389, Cron. de Lucas, ed. Puyol, pp 274 - 276; Prim Cron General, ed. Pidal, 2 p 322 - 323 . ويبدو من تفاصيل هذا الحديث أنه يشكل فى مجموعه تجميلات خطابية بلاغية، من وضع مدونى المدونات اللاتينية، على أن ذلك لا ينفى محاولات عباس مع بلاجيوس لإغرائه بالتخلى عن المقاومة لعدم جدواها، وهذا رأى كثير من المؤرخين الحديثين، أنظر : - Barrau Dihigo, Recherches, p 317, Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 47 - 49, Valdeavellano, op cit, 1 p 381; Cayetano, op. cit, p 17 .

القيام بهذا العبء من صخرتكم هذه ؟!. وفى النهاية أسدى لبلاجيوس نصيحته مرغباً إياه فى الاستسلام بأن يتدبر الأمر جيداً فيثوب إلى رشده، ويتخلى نهائياً عن فكرة المقاومة، ليكون صديقاً للعرب حتى ينال منهم التقدير ويحظى بثروات وممتلكات تتمناها كل نفس .

وكان من المنتظر ـ على الأقل من وجهة نظر عباس والمسلمين ـ أن تجد هذه الإغراءات والوعود المنطوية على التهديد والوعيد سبيلاً إلى نفسية بلاجيوس وإثنائه عن عزمه؛ إلا أنها على العكس زادته إصراراً وعناداً، بل واتهم عباس بأنه ممن ساهم ـ بخضوعه للعرب ـ فى هزيمة الجيش القوطى وضياع إسبانيا؛ وأضاف أنه على الرغم من هزيمة أمة القوط وتبديد جيشها، فأمله كبير وثقته غير محدودة فى تجدد هذا الجيش ونمو تلك الأمة القوطية وتكاثرها حتى تصير أمة كبيرة؛ وأنه بمعاونة الرب وتأييده فسوف تتحرر إسبانيا كلها من هذه الصخرة النائية الصغيرة، ومن ثم فلن يتخذ العرب أصدقاء ولن يخضع لهم؛ ثم اختتم حديثه مع عباس بقراره النهائى أنه لا يهاب المعركة معهم .

عند هذا الحد أيقن عباس أن حديثه لن يجد نفعاً مع بلاجيوس، وألا أمل فى إثنائه عن قصده سلماً؛ فتبددت أمنيته وفشلت مساعيه، بل فاضت نفسه بالأسى من اتهامات بلاجيوس له . ولذا فلم يكن منه إلا أن استدار للجيش الإسلامى حاثا أفراده على الحرب، قائلاً : إنه لمن المستحيل التوصل إلى سلام مع مثل هؤلاء إلا بالسيف وحده .

وربما كانت كلمة واحدة من بلاجيوس كافية لإحلال هذا السلام المنشود لو أنه أراد، ولعاد الأشتوريون اللاتين والقوط الجرمان إلى طاعة المسلمين،؛ إلا أن التاريخ كان على وشك أن يسطر لإسبانيا المسيحية فى هذا الركن القصى من إيبيريا اتجاهاً آخر مستقلاً عن المسلمين، الذين كتب عليهم أن يحاربوا فى يوم عرفة عام ١٠٣هـ/ مايو ٧٢٢م، ويشتعل فيه أوار معركة بينهم وبين ثوار أشتوريس ستكون بداية لتلك السلسلة الطويلة من الحروب الصليبية التى لن تنتهى إلا بإجلاء المسلمين عن إيبيريا كلية بعد ما يقرب من ثمانية قرون على هذا التاريخ.

بدأت المعركة [1] حينما أعطى علقمة إشارة البدء لجيشه، ومع أن ضيق المكان

---

(١) عن المعركة وأحداثها أنظر : Cron. Alfonso III, ed Villada, pp 64, 113 - 114; Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 480 No 10; Cron. Rotense, ed. Moreno, pp 614 - 615, Chron. Silense, ed. Florez, p 274 No. 22 - 23; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 389

قد حال دون اشتراك كل جنده فى المعركة، فقد تقدم منهم فقط حملة المقاليع والسهام والرماح [١] وقصدوا من بالكهف، وأمطروهم بوابل متصل كثيف، نال منهم وكاد أن يأتى عليهم، فظهر تفوق المسلمين واضحاً [٢] . إلا أنه عندما أيقن المتسنمون لقمم الجبل - على جانبى الوادى المؤدى إلى مدخل الكهف - بهلاك رفاقهم ظهروا من مكمنهم وفاجأوا جناحى المسلمين بالحجارة وجذوع الأشجار التى أعدوها من قبل فتمكنوا منهما؛ إذ كانوا فى موقع أعلى والمسلمون مكشوفين لهم دون أن يتمكنوا من تحاشى ما أمطروهم به، فانشلت حركة الأخيرين فى الدفاع عن أنفسهم . كما ضنت عليهم المنطقة بمكان يستترون فيه أو بممرات يتسلقونها للوصول إلى قمة الجبل لمواجهة المتسنمين له مواجهة مباشرة كانوا يخشونها ويعملون على تحاشيها [٣] ؛ وبذلك بدت طبوغرافية المنطقة وكأنها قد أرادت للمسلمين أن يسوء موقفهم أمام خصومهم.

حينئذ أصبح على أفراد الجيش الإسلامى أن يدافعوا عن أنفسهم فى جبهتين كل منهما أقسى من الأخرى؛ الأولى أمامية يحتمى أصحابها داخل الكهف، والثانية جانبية وخلفية . مكنها ارتفاعها من أن تنال من المسلمين بأكثر مما ينال الأخيرون؛ فتحرج موقفهم وبدأ ميزان القوى ينقلب لصالح المسيحيين، الذين أحسنوا اختيار مواقعهم فى أرض وعرة حالت دون إعطاء المسلمين الفرصة ليظهروا مقدرتهم وإقدامهم؛ وهى حقيقة لا ينكرها مؤرخو إسبانيا الحديثون حين وصفهم لظروف البيئة الجغرافية وتعقدها فى أرض المعركة [٤] .

---

(١) Chron. Silense, ed. Florez, p 274 No. 22; Velasco, op. cit, pp 194 - 195; Saavedra, Playo, p 12

(٢) يظهر ذلك واضحا من روايات المدونات اللاتينية، وتضيف أن العناية الإلهية وحدها هى التى أنقذت المسيحيين . أنظر : المدونات أعلاه، وانظر أيضاً : Barrau - Dihigo, Recherches, p 122 الذى يذكر فى تعليقاته على مدونة سباستيان أنه يبدو من أولها حتى نهايتها وكأن الله وحده هو الذى أنقذ المسيحيين، وأن تحرر أشتوريس كان نتيجة الرحمة والعناية الإلهية وحدها بهم (أنظر : ص ١٢٨)، وانظر أيضاً تعليقاته على مبالغة المدونة السابقة، وعدم شكه فى مقدرة وتفوق المسلمين (ص ١٣٤ - ١٣٥) . وإذا كان Sanchez Albornoz من بين الذين سايروا الروايات اللاتينية فى تهويلها ومبالغتها، إلا أنه يعترف فى ذات الوقت بأن العناية الإلهية وحدها هى التى حققت انتصار المسيحيين، أنظر : Origénes, 2 p 37 . هذا ويشيد المؤرخ الإسبانى Caveda بشجاعة المسلمين وإقدامهم، أنظر : Restauracion, p 86

(٣) أنظر : Scott, op cit, 1 p 351 .

(٤) Velasco, op cit, pp 191, 196, Valdeavellano, op cit, 1 p 381; Urbel, op cit, p 27, Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 27; Risco, op cit, 37 p 78 .

حمى وطيس المعركة واشتدت رحاها، وبدا لأصحاب الكهف ساعتئذ تفوق إخوانهم الكامنين على قمم الجبل فخرجوا منه؛ وانضموا إليهم حتى صاروا جميعاً إلى أعلى والمسلمون فى أعماق الوادى يصوبون سهامهم ورماحهم إليهم فيرتد أغلبها دون أن تصل إلى أهدافها بأعلى . وهى ظاهرة رأى فيها مدونو المدونات اللاتينية إرادة ومعاونة سماوية؛ فأطلقوا لأنفسهم عنان الخيال إذ قالوا أن المسلمين قتلوا أنفسهم بسهامهم ورماحهم التى كانت ترتد إلى صدورهم، وهى مبالغة واضحة إذ أن ارتدادها كان أمراً طبيعياً [١] حيث كانت تنطلق فى اتجاه رأسى، ولكنها لم تصل إلى مداها إلى مكان المسيحيين الذى تمكنوا بفضل مواقعهم من النيل من المسلمين؛ فاستشهد منهم كثير قدرتهم المدونات اللاتينية بمائة وأربعة وعشرين ألف قتيل [٢] ، وإن جعلتهم مدونة دون لذريق Don Rodrigo [٣] أكثر من ثلاثين ألف؛ وكانت مدونة الفونسو العاشر Alfonso X [٤] أقل تقدير حيث قللتهم إلى ما يزيد عن عشرين ألف بقليل، وهى أعداد رفض الأخذ بها بعض المنصفين من المؤرخين الحديثين [٥] . وعلى كل فقد كان علقمة من بين الشهداء أما عباس فقد أسر ثم أطيح برأسه بعد المعركة مباشرة على أرضها.

ولا غرابة فى أن يضطرب المسلمون باستشهاد قائدهم أمام أعينهم دون أن يتمكنوا من الانتقام له، أو أن ينظموا أنفسهم حينما شرعوا فى الانسحاب من ميدان المعركة؛ فتقهقرت مؤخرتهم نحو الغرب إلى الطريق الذى أتت منه فى اتجاه مدينة كانجاس Cangas de Onis. أما مقدمتهم فقد حال المسيحيون بينها وبين نفس الطريق، واضطر أفرادها بشق الأنفس إلى تسلق منحدرات جبل أوسبة Auseva الوعرة والهبوط من الناحية الأخرى؛ ثم اتخذوا طريقهم على غير هدى عبر ممرات جبل أموزا Amosa [٦] ، فى غابات ليبانا Liebana، التى أوصلتهم بدورها إلى

---

(١) Caveda, op cit, p 84 .

(٢) Cron. Sebastiani, ed Florez, p 480; Chron Silense, ed. Florez, p 275, Cron. Rotense, ed Moreno, p 614; Cron Alfonso III, ed. Villada, pp 65, 113 .

(٣) أنظر : Prim. Cron General, ed Pidal, 2p 323; Huici, op cit, 2 p 50 No. 9 .

(٤) Cron. del Rodrigo, ed Fuensanta, p 217 - 218; Caveda, op cit, pp 74 - 75 No 2 .

(٥) Saavedra, Pelayo, p 14, Barrau - Dihigo, Recherches, pp 133 - 134; Caveda, op cit, pp 74 - 76; Coppée , op cit, 1 p 408

(٦) انفرد Caveda من بين المؤرخين الحديثين بالقول إن هذا الجبل هو نفسه جبل أوسبة Auseva ، أنظر : Restauracion, p 33 ، فى الوقت الذى تجعلهما المدونات اللاتينية جبلين مختلفين، وإن كانا يقعان فى نفس سلسلة جبال قمم أوربا، قارن : Chron. Sebastiani, ed Florez, p 480 No. 10, Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 65, 113, Cron. Rotense, ed. Moreno, p 614.

شواطىء نهر ديبا Deva ، بالقرب من مدينة كاسجوديا Casegodia (Casgaya) ؛ حيث تذكر المدونات اللآتينية أنباء كارثة أخرى تقضى عليهم بعد هذا العناء، وذلك بانهيار جبل سويبدز Subiedes من الناحية المشرفة على النهر، فاكتسح الانهيار معظمهم أو أن الجبل قد طمرهم جميعاً فيه؛ وكانوا الثلاثة والستين ألفا الباقية . وبذلك أرادت المدونات اللآتينية لأفراد القوة الإسلامية كلهم أن يموتوا عن بكرة أبيهم دون أن يبقى منهم واحد حيا، وكأنه عقاب إلهى . وهذه مبالغات واضحة لم تمنع بعض المؤرخين الإسبان الحديثين من إبداء تهكمهم وسخريتهم منها [١] .

وتضيف نفس المدونات - وهى التى دون أقدمها بعد ما يقرب من قرنين على تاريخ هذه الأحداث - أن عظام هؤلاء المسلمين كانت لا تزال تظهر عندما تنحت مياه نهر ديبا المتدفقة فى سفح الجبل [٢] ، وكأنها بالضرورة عظام المسلمين . وهى قصة نكاد نجد أشباهها فيما تورده المصادر الإسلامية عن قتلى القوط فى معركة وادى لكة عام ٩٢هـ/ ٧١١م، إذ أشارت هى الأخرى أن عظام القوط قد ظلت بأرض المعركة دهراً طويلاً [٣] . وهما قصتان لا تبرهنان إلا على طبيعة العصر فى تضخيم مؤرخى المنتصرين فى تقدير حجم انتصارهم ليبقى ذكراه حيا على مر الأيام .

لم تنته المعركة - من وجهة نظر مدونى المدونات اللآتينية - عند هذا الحد، وإنما يضيفون أن Munuza (المنيذر) أمير أشتوريس المسلم ما أن علم بأنباء هذه الهزيمة حتى بادر بإخلاء مدينة خيخون مقر إقامته وفر هارباً مع أتباعه؛ فتتبعه الأشتوريون وطاردوه فى الجبال المجاورة حتى ظفروا به فى مدينة أولاليس Olaliense (Olalies) ، فأسروه وقتلوه هو ورجاله أجمعين [٤] . وبمقتله ينهى

---

(١) Saavedra, Pelayo, p 13; Caveda, op cit, pp 83 - 84

(٢) Cron. Silense, ed. Florez, p 275 No 24; Cron Rotense, ed. Moreno, pp 614 - 615; Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 480, Cron Alfonso III, ed. Villada, pp 65 - 66

(٣) أنظر : الحميرى، صفة، ص ١٦٩ ؛ المقرى عن الرازى، نفح، ١ ص ٢٤٣ ؛ ابن عذارى عن الواقدى، البيان، ٢ ص ٧ .

(٤) Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 66, 114, Cron Rotense, ed. Moreno, p 615; Chron. Sebastiani, ed. Florez, p 480; No 11, Chron Silense, ed Florez, pp 275 - 276 No 25, Cron Albeldense, ed Florez, p 450, Chron. Léonaise, ed. Cirot, pp 389 - 390; Cron de Lucas, ed. Puyol, pp 277 - 278; Prim Cron General, ed Pidal, 2 p 324 .

ويفهم من رواية بعض هذه المدونات أن المنيذر كما لو لم يعرف بأمر إرسال هذا البعث الإسلامى إلى أشتوريس، مما يوحى بأنه لم يشترك فى المعركة، على أن بعضها الآخر أشار صراحة أنه كان يعلم بأمره، ولم تذكر لنا من هم الذين قتلوه هل الأشتوريون أم المسلمون . ولهذا الاختلاف فضلاً عما صرحت به بعضها من أن الجيش الإسلامى الذى حارب فى كوبادونجا قد اتخذ طريقه إليها مارا بمدينة كانجاس، وهى قريبة من مدينة خيخون مقر الأمير المنيذر، فإنا نرجح ألا يرسل والى قرطبة جيشا للقتال فى منطقة دون علم أميرها، أو دون ترتيب سابق معه على الأقل .

ويشير دوزى أن منوزا لم يكن لديه قوات كافية وأنه ترك خيخون فى طريقه إلى ليون، وفى الطريق هوجم ومنى بخسائر فادحة، وعندما أدرك ليون رفض جلوده العودة إلى أشتوريس مرة أخرى . ودوزى يلخص فى ذلك معركة كوبادونجا، ويفسر النصوص الخاصة بمنوزا بحرية بالغة، أنظر : Histoire, 2 p 129 (= Stokes, Spanish Islam, p 411) وانظر رد Barrau - Dihigo على تفسير رأى دوزى فى مقاله : Recherches, pp 310 - 311 ، وعن الطريق الذى اتبعه منوزا فى هربه، وهو مجرد افتراض، أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 35 - 37 .

المؤرخون اللاّتين وقائع المعركة التى انهزمت فيها القوة الإسلامية بقيادة علقمة أمام بلاجيوس وجماعته القلائل، وهى المعركة التى عرفت فى التاريخ بكوبادونجا La Batalla de Covadonga نسبة إلى ذلك الكهف الذى اتخذت فيه وحوله مسرحها ، وهى المعركة التى اعتبرها مؤلفو المدونات اللاّتينية البداية الحقيقية وأساس حركة الاسترداد الإسبانية .

هذا وقد اتفقت المدونات اللاّتينية فيما بينها على تقديم بلاجيوس يحارب المسلمين فى هذه المعركة مع الأشتوريين اللاّتين والقوط الجرمان، دونما تفرقة بين إسهام أى من الفريقين [١] وهذا أمر يكاد يكون منطقياً؛ وإن انفردت مدونة سيلوس Silense [٢] بتغليب دور القوط فيها فلم تغفل أيضاً دور الأشتوريين اللاّتين معهم . وفى نفس هذا الاتجاه سار المؤرخون الحديثون دون تفرقة [٣] ؛ فيما عدا المؤرخين الإسبانيين سانشيث البورنوث [٤] وكاسترو Castro [٥] ، اللذين اتخذا موقفا متطرفا حينما نسبا الدور كله والفضل للأشتوريين اللاّتين، وأنكرا على القوط أى إسهام فيه ولو قليل؛ دونما دليل قوى فيما ذهبا إليه سوى تفسير أولهما لإحدى عبارات مدونة البلدة Albeldense التى وردت فى نسخة واحدة [٦] دون غيرها من النسخ تفسيراً يخدم هذه الفكرة .

لكن لما كان أتباع بلاجيوس من القوط الجرمان قد لازموه وعاونوه فى كل خطواته منذ اختيارهم له قائدا، وشاركوا الأشتوريين اللاّتين حياتهم فى أشتوريس منذ التجائهم إليها، واعتبروا القضية أمراً مشتركاً معهم . يضاف إلى ذلك أنه بهزيمة القوط فى وادى لكة فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م، وبانقضاء مملكتهم فإنهم هم الذين

---

(١) Chron Albeldense, ed Florez, p 450 No 50; Chron Sebastiani, ed Florez, pp 478 No 8 - 10; Cron Alfonso III, ed. Villada, pp 62 - 66, 108 - 114

(٢) Ed. Florez, pp 273 - 275 No 20 - 24 .

(٣) على سبيل المثال، أنظر: Altamira, A History of Spain, p 101; Watts, op cit, p 25; Chapman, op cit, p 53; Smith, op. cit., pp 52 - 53; Setton, op cit, 1 p 32; Scott, op cit, 1 p 347; Coppée, op cit, 1 p 410 .

(٤) Origénes, 2 pp 37 - 38, 92 - 94 ، ويناقض نفسه بالقول أن الفضل يرجع إلى بلاجيوس وحده .

(٥) The Structure of Spanish History, New Jersey 1954, p 61

(٦) Ed. Moreno, p 601 ؛ ونصها : " Pelagium filim Fafilanis qui postea cum Astures revellauit " ؛ ونص العبارة واضح فى أن بلاجيوس حارب المسلمين متعاوناً مع الأشتوريين، ولا يفهم منها إطلاقا كما يرى سانشيث البورنوث أنهم قاموا وحدهم بعبء المعركة .

أضيروا أكثر من غيرهم من سكان إيبيريا كلها؛ إذ فقدوا سلطانهم وامتيازاتهم وثرواتهم . ولذلك لم يكن لهم فقط - كما تشير المدونات اللاتينية - دور فى هذه الأحداث، وإنما وقع عليهم العبء الأكبر فى إثارة السكان، وفى تعضيد بلاجيوس فى كل أعماله [1] ؛ ومن ثم فإن الرؤية الواقعية تعتبر هذا الانتصار ليس فقط ثمرة لتعاون القوط والأشتوريين، وإنما بالأولى نتاجاً قوطياً فى أغلبه .

وإذا كان القوط الجرمان قد شاركوا على هذا النحو فى المعركة وفى إحراز النصر على المسلمين، فهل يعنى ذلك أن انتصار المسلمين عليهم من قبل فى موقعتى وادى لكة عام ٩٢هـ/ ٧١١م والسواقى عام ٩٤هـ/ ٧١٣م، قد أودى بأمة القوط وأدى بها إلى الانقراض كما ذهب مؤرخنا ابن خلدون [2] ؟. لا ننكر أن انتصار المسلمين فيهما كان حاسما حسماً أنهى السيطرة القوطية فى إيبيريا آنذاك، إلا أنه لم يقض على الأمة القوطية ذاتها وهى التى ظلت متمثلة - على الأقل - فى هؤلاء النبلاء القوط؛ الذين وإن كانوا قد اضطروا أمام هزائمهم إلى الخضوع للمسلمين فى أشتوريس، فإنهم ما كانوا ينسون تلك الهزائم أو ما فقدوه من ثروات واسعة وامتيازات وسلطان . ومن ثم نعتقد أنهم ظلوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتحينون الظروف المواتية للانتقام منهم، وباتوا يأملون فى استعادة ما فقدوه من جاه وسلطان، أو على الأقل استرداد جزء منه .

أما الأشتوريون الذين شاركوهم مقاومة المسلمين فى هذه الموقعة، فما كانوا بدورهم - كما يذهب بعض المؤرخين الإسبان الحديثين [3] - يهتمون على الإطلاق بإيبيريا قدر اهتمامهم بأنفسهم؛ إذ أثرت عليهم الطبيعة بانعزالهم فى هذا الركن القصى من شبه الجزيرة، فضعف ارتباطهم بباقى أنحائها الواقعة إلى الجنوب من جبال كنتبرية؛ وأصبحت آفاقهم التاريخية محدودة على منطقتهم، ولم يشاركوا أو يعرفوا ما يحدث فى غيرها من الأقاليم، سواء فى عهد الرومان اللاتين أو القوط الجرمان أو حتى فى عهد المسلمين؛ وما كانوا يرجون إلا أن يتركوا وشأنهم فى منطقتهم المنعزلة . ولذلك فلم يكن هؤلاء الأشتوريون أو القوط ينظرون إلى إيبيريا وقتذاك على أنها وطن فقد أو ضاع منهم، ولم يفكروا فى استعادتها أو استعادة

---

(١) وقد دفع ذلك مع عوامل أخرى بعض المؤرخين الحديثين أمثال Caveda و Bleye إلى اعتبار المملكة التى قامت بأشتوريس فيما بعد إحياء واستمرارا لمملكة القوط التى قضى عليها المسلمون عام ٩٢هـ/ ٧١١م، وإن لم ينكروا فى ذات الوقت دور الأشتوريين فى هذه الأحداث .

(٢) أنظر : العبر، ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) أنظر : Caveda op cit, p 86; Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 38

أشتوريس على الأقل، بل لم يكن قد ظهرت لدى سكان إيبيريا بعامة فكرة الوحدة الوطنية بعد[١]، ومن ثم فمن المغالاة الاعتقاد بأن مقاومة القوط والأشتوريين للمسلمين فى هذا الركن القصى من إيبيريا كانت مرتبطة أو مصحوبة وقتذاك بشعور قومى أو وطنى يكنه هؤلاء أو أولئك لإيبيريا .

وإذا كانت بعض المدونات اللاتينية [٢] قد أشارت فى لمحة خاطفة إلى أن بلاجيوس وأتباعه قد تلقوا مساعدة من الفونسو Alfonso ابن الدوق بدرو (بطرس) Petrus [٣] دوق منطقة كنتبرية – المجاورة لأشتوريس من ناحية الشرق - فلنا أن نعترف أنه فيما وراء هذه المساعدة التى لا نعرف نوعيتها أو مداها؛ كان الانتصار المسيحى فى معركة كوبادونجا Covadonga عملاً انبثق من داخل أشتوريس ذاتها دون مساعدة خارجية سواء من داخل الأرض الإيبيرية حيث المسيحيون الذين كانوا قد رحبوا بالحكم الإسلامى وانصاعوا له، أو من خارج حدودها إذ كانت حركة المقاومة ضد المسلمين فى طورها الأول وربما دون أن يسمع بها فى خارج حدود شبه الجزيرة؛ ومن ثم فقد كان حتماً على أفراد هذه المقاومة أن يعتمدوا على سواعدهم وحدهم [٤] ، وعلى إمكانياتهم الذاتية المحدودة .

ومع ذلك، فلا جدال أنه كان لهذا الانتصار المحدود ثمرته المباشرة التى أفهمت المسيحيين فى أشتوريس بأن خصومهم المسلمين غير معصومين من الهزيمة؛ فقويت إرادتهم وعزيمتهم لمواصلة تحديهم لهم، ولم يعودوا من ذلك الحين يخشون الإعلان عن معارضتهم الجدية وعدائهم الصريح لهم، واثقين بهذا النصر فى أنفسهم؛ بعد ما كانوا يحاولون التخفى والابتعاد عن إثارتهم، أو جذب الانتباه نحوهم

---

(١) Chaytor, op cit. p 33; The Camb Med. Hist., 3 p 438 .

(٢) Cron. Rotense, ed. Moreno, p 615, Cron Alfonso III, ed Villada, p 115; Chron. Sebastiani, ed Florez, p 276 No 26, Chron Léonaise, ed. Cirot, p 390; Prim. Cron General, ed Pidal, 2 p 328

(٣) كان قائداً عاماً للجيوش القوطية فى عهد الملك إيجيكا ثم فى عهد ابنه غيطشة، وصار دوقا لكنتبرية منذ عام ٦٨٧م . وعنه وعن أصله قارن : Chron. Silense, ed. Florez, p 276 No 26, Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 67 - 68; Chron Sebastiani, ed Florez, p 481 No 13, Anales Toledanos III. ed Florez 23 p 415 .

(٤) ذهب البعض إلى أن كثيرا من اللاجئين انضموا لبلاجيوس قبل المعركة، وأنه قام بهجمات على أرض المسلمين، أنظر : Dozy, Histoire. 2 p 129 ، وذهب بعض آخر إلى أن الأنصار والمؤيدين تجالبوا على بلاجيوس من كل مكان بإسبانيا وغيرها بعد هذا النصر، وأن بلاجيوس تلقى مدداً من غالة خلف جبال البرتات، قارن : على حبيبة، مع المسلمين فى الأندلس، ص ٤٢٣؛ الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ٢٧٠ ولا نميل إلى الأخذ بهذه الآراء لافتقارها إلى أى دليل .

خوفاً من الاشتباك معهم، ولم يتقاعسوا بعد هذا النصر- كما تشير المصادر الإسلامية ذاتها - عن حماية ما اكتسبوه من أرض ما كانوا يطمعون فيها، أو عن الدفاع عنها دفاع المستميتين [١] . وهكذا بدأ الإحساس يزداد بوجود عداء بين المسلمين والمسيحيين فى إقليم أشتوريس فانعدمت الثقة بينهم، وكان لذلك تأثيره الخطير على مستقبل المسلمين فى إيبيريا .

---

(١) قارن : المقرى عن الرازى، نفح، ٦ ص ٨٢، ٨٣؛ وعن ابن حيان، ٤ ص ١٥ .



الفصــل الثالث

رد الفعل الإسلامى للمقاومة فى إقليم أشتوريس

حتى عام ٧٣٩م (١٢١هـ)

ضعف مسيحيى أشتوريس وانصراف عنبسة والى الأندلس عنهم ـ اضطراب أمور الأندلس فى عهد خلفائه وأثرها عند مسيحيى أشتوريس ـ عودة استقرار الأمور فى عهد الوالى عبد الرحمن الغافقى ونشاط حركة الجهاد ـ استشهاد أمير أشتوريس ودلالته على مدى امتداد سيطرة المسيحيين خلال عهد الواليين عبد الرحمن وعبد الملك بن قطن ـ جهاد الوالى عقبة بن الحجاج ضدهم ونتائجه ـ تقييم حصيلة مقاومتهم للمسلمين حتى أواخر عهد عقبة ـ ركائز سياستهم فى مقاومة المسلمين ـ ارتباط المقاومة بالدين ومظاهره ـ وفاة بلاجيوس واستخلاف ابنه فافيلا له وموقفه من المسلمين ـ وفاته ـ طبيعة الحياة السياسية فى أشتوريس خلال عهدى بلاجيوس وابنه فافيلا .



وهكذا قويت مقاومة القوط والأشتوريين بقيادة بلاجيوس فى أشتوريس ضد المسلمين حينما انهزمت قواتهم بقيادة علقمة فى موقعة كوبادونجا Covadonga ، فى عهد والى الأندلس عنبسة بن سحيم فى عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م؛ وهى هزيمة لم ينكرها مؤرخو الإسلام الأوائل، ولم يقللوا من أهميتها على المدى البعيد فى مستقبل المسلمين ومصيرهم بالأندلس [١] .

ومع ذلك فلم تكن تلك الهزيمة ناتجة فى حينها عن ضعف المسلمين أو تهاون منهم، ولا عن كفاءة ومقدرة خصومهم المقاومين لهم؛ وإنما نتجت عن الدور الخطير الذى لعبته الظروف الجغرافية المعقدة للمنطقة التى دارت عليها رحى المعركة [٢] ؛ فطبيعة الأرض فيها تخدم عمليات المقاومة والدفاع، وهى حقيقة تبرز واضحة من وصف الرواة اللاتين الأوائل لحصانة المنطقة ووعورتها الطبيعية .

وحقيقة أيضاً أن تلك المعركة لم تكن سوى مناوشة عسكرية خسرها المسلمون فكانت أهميتها العسكرية فى حينها محدودة، إلا أن أهميتها السياسية كانت خطيرة على مستقبل المسلمين بالبلاد إذ انحسر على إثرها النفوذ الإسلامى عن المنطقة التى دارت فيها وحولها المعركة فى أقصى شرقى أشتوريس ولم يعد إليها ثانية؛ فقويت لذلك عزيمة الثائرين بانتصارهم المحدود فى مواصلة تحديهم للمسلمين، ولم يعودوا يخشون الإعلان عن معارضتهم الجدية وعدائهم الصريح لهم .

ولذلك فلم يتوان الوالى عنبسة بعد هزيمة قواته فى هذه المعركة عن التضييق على بلاجيوس وجماعته المسيحية فى تلك المنطقة، فأقامت تلك القوات تضرب الحصار على المداخل المؤدية إلى ا لمغارة الملتجئين إليها مدة تقارب أربع سنوات، دون أن تمكنهم من الخروج منها حتى فنيت أزودتهم وهلكت منهم أعداد ليست بالقليلة، بحيث أن من بقى منهم لم يجد ما يتقوت به سوى عسل النحل فى خروق صخور المغارة . فلما رأى عنبسة ما آل إليه مصير تلك الجماعة من الضعف والقلة استقلهم واحتقرهم، وقال : « ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم » [٣] ، ورأى أنه

---

(١) أنظر : المقرى، نفح، ٤ ص ١٥، ٦ ص ٨٢، ٨٣؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٦ .

(٢) أنظر : Caveda, op cit., p. 32 .

(٣) المقرى ومجهول أعلاه . هذا ونص المقرى واضح فى نسبة تلك الأحداث إلى عنبسة، فى حين نرى ابن عذارى (البيان، ٢ ص ١٣، ٢٩) وأخبار مجموعة (ص ٢٨) ينسبانها إلى الوالى عقبة بن الحجاج الذى حكم بين عامى ١١٦ - ١٢١هـ . وقد نتج هذا الخلط فى روايتهما بسبب أنهما نقول وتجميع مختصر للأحداث من روايات أخرى، فضلاً عن عدم التزامهما بالتسلسل الزمنى فى غالب الأحيان، وبعدهما عن فترة وقوع الأحداث بعدا أوقعهما فى اضطراب وأدى إلى التداخل فى روايتهما، فنسبا بعض الأحداث إلى غير صاحبها أو زمانها؛ وذلك على عكس المقرى الذى ينقل أحداث روايته عن المؤرخين ابن حيان والرازى على الخصوص وهما أقرب إلى الأحداث من ابن عذارى وصاحب أخبار مجموعة .

من العبث إضاعة وقته وجهده معهم بعد ما حصروا أنفسهم فى تلك البؤرة الصغيرة . أو ربما رأى ألا خطورة منهم لو أجل مهمة إخضاعهم إلى ما بعد عودته من غالة؛ التى كان ينوى غزوها للانتقام لهزيمة سلفه السمح بن مالك فى أراضيها، وكان يأمل فى إحراز نصر هناك يرفع به معنويات قواته . وليس أدل على ذلك من أن غزوته إليها بنفسه فى ربيع عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م [١] ، لا توصف إلا بكونها غارة سريعة بعيدة المدى نشرت الرعب فى نواحى غالة [٢] ، عاد بعدها إلى الأندلس وقواته فى غمرة حماستها بنية الانتقام من مسيحيى أشتوريس؛ إلا أن الموت عاجله فتوفى فى طريق عودته فى شهر شعبان من نفس العام/ ديسمبر ٧٢٥م [٣]، فأراح بذلك مسيحيى أشتوريس وأتاح لهم فرصة للحياة كانوا فى أشد الحاجة إليها لالتقاط أنفاسهم، وتنظيم صفوفهم والاستفادة من نصرهم الهزيل .

ومن حسن حظ تلك الجماعة المسيحية أن ساهمت ظروف الأندلس فى انصراف مسلمى الأندلس عنهم نحوا من تسع سنوات متصلة، أى طوال مدة حكم الولاة الذين خلفوا عنبسة [٤] - منذ شعبان ١٠٧هـ/ ديسمبر ٧٢٥م حتى شوال ١١٦هـ/ نوفمبر ٧٣٤م- فتحرك مسيحيو أشتوريس فى شىء من الأمن فى المنطقة المحيطة بصخرتهم لا سيما وادى كانجاس؛ واثقين من انشغال المسلمين الذين كفوهم جهد حرب أو قتال؛ وهو أقصى ما تطلعت إليه هذه الجماعة المسيحية فى تلك الفترة المبكرة من تاريخها، واعتقدت أن العناية الإلهية عادت تناصرها ضد المسلمين .

---

(١) عن تلك الحملة بتفصيل أنظر : Cron. Isidore Pacense, ed. Florez, pp 306 - 307; Chron. Moissiacense; ed. Lafuente, p 165 . ؛ مؤنس، فجر، ص ٢٤٦- ٢٥٠ ؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) مؤنس، نفسه، ص ٢٤٨ ؛ السيد سالم، نفسه، ص ١٣٩ ؛ إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ١٤٩ .

(٣) قارن : الضبى، بغية، ص ٤٢٠ رقم ١٢٥٩ ، ابن الفرضى، تاريخ، ١ ص ٣٤٤ رقم ١٠١٣ ؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٣٠١ رقم ٧٤٠ . هذا وقد أوصى عنبسة قبيل وفاته لعذرة بن عبد الله الفهرى بقيادة القوات الإسلامية فى العودة إلى الأندلس، أنظر : Cron. Isidore Pacense, ed. Florez, p. 307 No 53

(٤) هم على التوالى : عذرة بن عبد الله الفهرى، يحيى بن سلمة الكلبى، حذيفة بن الأحوص (أو الأبرص) الأشجعى، عثمان بن أبى نسعة الخثعمى، الهيثم بن عبيد الكنانى، محمد بن عبد الله (أو عبد الملك) الأشجعى، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، ثم عبد الملك بن قطن . قارن : ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٦ - ٢١٧ ؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ص ١٦ ؛ ابن قتيبة، الإمامة، ٢ ص ٨٤؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٢٠، ٢٧٩، ٤ ص ١٦ - ١٧ .

وأول ما يلفت النظر خلال تلك السنوات التسع هو كثرة تغير ولاة الأندلس حتى بلغوا ثمانية، بحيث لم يتهيأ لهم استقرار كاف؛ خاصة وأن أمر تقليدهم وإقالتهم كان موكولا لولاة إفريقية تبعاً لرغبة مسلمى الأندلس فى تعيين من يشاءون وعزل من لا يرغبون فيه [1] . يضاف إلى ذلك انغماس عرب الأندلس فى تصفية نزاعاتهم القبلية القديمة، التى زادها اشتعالا محاباة ولاتهم كل لعصبيته التى ينتمى إليها سواء كانت قيسية (مضرية) من الحجاز أو يمنية (كلبية) من جنوبها [2] ؛ رغم أن أصحاب العصبيتين ما كانوا بحاجة إلى من يوغر صدورهم أو يحرك أحقادهم ضد بعضهم البعض؛ فاضطربت شئون الأندلس السياسية وأشيع حولها جو القلق والتوتر، واختلت أحوال العرب الذين لم يترقبوا الأخطار وقتذاك إلا من بين صفوفهم وحدهم .

كذلك فقد ساءت علاقة العرب بشركائهم البربر فى الأندلس، وثار عليهم البربر فى ناحية سردانية (شرطانية) بأقصى شمال شرقى إيبيريا إلى الجنوب من جبال البرتات، وتحالفوا ضدهم مع دوق أكويتانية من بلاد الفرنجة؛ فاشتعلت نيران الحرب الأهلية بين العرب والبربر فى الأندلس فى عام ١١٣هـ/ ٧٣١م، وهى حرب استنفدت كل جهد والى الأندلس وقتذاك بحيث أنها كلفته عشر حملات فى عام واحد[3] ؛ ولم تتوقف تلك الحرب إلا بعد ما تأصلت كراهية البربر للعرب كراهية

---

(١) أنظر : أخبار مجموعة، ص ٢٥ . وقد أكد المؤرخون المسلمون الأوائل تلك الحقيقة، فعندما استشهد السمح قدم أهل الأندلس على أنفسهم بعده عبد الرحمن بن عبد الله (المقرى، نفح، ٤ ص ١٤) . كما أرسل والى إفريقية إلى الأندلس يحيى بن سلمة عندما استدعى منه أهلها واليا بعد مقتل عنبسة (ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٨؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٢٢٠) . وعندما استشهد عنبسة قدم أهل الأندلس على أنفسهم عذرة بن عبد الله (المقرى، نفسه، ٤ ص ١٦ - ١٧)، ثم إن أهل الأندلس أقاموا على أنفسهم محمد بن عبد الله الأشجعى والياً (المقرى، نفسه، ٤ ص ١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٦٨) .

(٢) تناول كثير من المؤرخين أصل وأسباب هذا العداء، وانظر على سبيل المثال : دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٣م، ١ ص ٧٦ - ٧٧، ١٧٩؛ ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، القاهرة ١٩٦٠م، ٢ ص ٩٢ - ٩٤؛ عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٦٦ - ٦٨ . هذا وقد كانت الفترة السابقة على عام ١١٠هـ فترة سيادة اليمنية وتعصبها ضد القيسية فى الأندلس وهو ما ظهر واضحاً فى ولاية كل من عذرة بن عبد الله ويحيى بن سلمة، فى حين كانت الفترة التالية لعام ١١٠هـ انقلاب الآية وابتلى اليمنيون ببلاء شديد من جانب القيسية وخاصة فى ولاية كل من حذيفة بن الأحوص وعثمان بن أبى نسعة والهيثم بن عبيد الله حتى أنكر عليهم خليفة دمشق ذلك، أنظر : Cron Isidore Pacense, ed Florez, pp 308 - 309 No 57 ؛ مؤنس، فجر، ص ١٥١ وما بعدها ؛ دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ١ ص ١٣٤ وما بعدها .

(٣) أنظر بالتفصيل : Cron Isidore Pacense, ed Florez, pp 309 - 310, Prim Cron. General, ed Pidal 2pp 331 - 332; Cron, del Rodrigo, ed Fuensanta, p 234 - 235, Historia Arabum, ed Sanchez, An Uni Hisp, Sevilla 1972, 21 pp 24 - 25

دفعتهم إلى أن يتسببوا فى جلب هزيمة فاحشة على العرب فى العام التالى، حين غزوهم لبلاد غالة فيما عرف بهزيمة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها [(١)] .

ولم تقتصر آثار تلك الهزيمة على زعزعة وضع المسلمين فى غالة؛ وإنما امتدت إلى أودية جبال البرتات فاضطربت هى الأخرى على المسلمين اضطرابا شديداً؛ وعلى الأخص فى نبرة (بمبلونة) من بلاد البشكنس، التى نقض سكانها تبعيتهم للمسلمين مثلما نستنتج من النصوص التى أشارت إلى مهاجمة والى الأندلس وقتذاك - وهو عبد الملك بن قطن - أراضيهم لإعادتهم إلى الطاعة، ولكنه منى بهزيمة ساحقة فى عام ١١٥هـ/ ٧٣٣م [(٢)] ؛ فعمت الفوضى فى تلك الناحية الاستراتيجية الهامة التى كانت مفتاح طريق الجيوش الإسلامية إلى غالة، وقلعة متقدمة للمسلمين لردع أى هجوم قد تفكر فيه بلاد غالة على الأندلس . وفضلاً عن ذلك فإن مجاورة نبرة لكل من كنتبرية التى لم تكن قد خضعت للمسلمين حتى ذلك الوقت، ولأقصى شرقى أشتوريس الذى ظهر فيه بلاجيوس وأتباعه، قد هدد بانفصال كل منطقة شمالى إيبيريا عن النفوذ الإسلامى .

ومع ذلك، فلم يفكر ولاة الأندلس وقتذاك فى درء الأخطار التى هددت وجودهم داخل الأندلس، وإنما صرفوا نشاطهم إلى حركة الجهاد ضد بلاد غالة [(٣)] ؛ التى أوليت معظم الجهود وأعطيت الدرجة الأولى فى الأهمية التى حجبت ما عداها؛ ولم تثن المسلمين عن الاهتمام بها مشاغل أخرى، فانشغلوا بها دون أن يتبقى لديهم وقت ليلتفتوا طويلاً نحو المسيحيين فى أشتوريس، الذين كانوا أهم وأولى بالعناية من الأمر فى داخل الأندلس ذاتها .

ومن ثم قاد الوالى عبد الرحمن الغافقى جيوشه فى ربيع عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م واخترق جبال البرتات مكتسحاً أراضى غالة، فاستولى على مدينة بوردو Bordeaux

---

(١) عنها أنظر : Cron. Isidore Pacense, ed Florez, p 310 - 311; Chron Moissiacense, ed Lafuente, p 166; Codera, op cit, 8 pp 312 - 319

(٢) أنظر : Cron Isidore Pacense, ed Florez, p 312; Cron del Moro Rasis, ed. Gayangos, MRAH, Madrid 1850, 8 p 85, Historia Arabum, ed Sanchez, 21 p 27، فى حين تذكر غيرها من المصادر الإسلامية أن عبد الملك أوقع بالمشركين وغنم فى حملته، أنظر : المقرى، نفح، ١ ص ٢٢٠، ٤ ص ١٧؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٧١ .

(٣) أنظر : السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٤٠؛ أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٧؛ مؤنس، فجر، ص ٢٦١ .

- التى يسميها مؤرخو المسلمين بردال أو برديل - الواقعة على مصب نهر الجارون Garonne ؛ بعد أن أوقع بدوقها هزيمة فادحة، فر على أثرها بفلوله نحو الشمال، فواصل عبد الرحمن زحفه وراءه حتى استولى على مدينة بواتييه Poitiers ومنها اتجه صوب مدينة تور Tours الواقعة على نهر اللوار Loire ، إلا أن الجموع الفرنجية تصدت له قبل أن يدركها وأدارت معه المعركة التى عرفت ببلاط الشهداء، فاستشهد فيها عبد الرحمن نفسه وكثير من المسلمين، وانسحب الباقون إلى الأندلس فى رمضان ١١٤هـ/ أكتوبر ٧٣٢ م [١] .

وجدير بالذكر أن بعض الأبحاث الحديثة [٢] التى اعتمد مؤلفوها على رواية إيزيدور الباجى Isidore Pacense [٣] ، قد ذهبت إلى القول بأن الوالى عبد الرحمن قد أقدم قبيل خروجه فى تلك الحملة فى عام ١١٣هـ/ ٧٣٢م على قتل أحد زعماء البربر المسلمين، التى تجعله أمير أشتوريس أو حاكم الولايات الشمالية فى إيبيريا، بسبب محالفته أودو Eudo دوق أكويتانية Aquitania بغالة وثورته على العرب، وأن البربر الذين كانوا معظم جيش الوالى عبد الرحمن استاءوا من العرب لقتل هذا الزعيم، فبدأت الخصومة بينهم واختلفت أهواؤهم وتفرقت نفوسهم مما جلب على المسلمين الهزيمة فى غالة، وأدى من ناحية أخرى إلى تشجيع مسيحيى أشتوريس على الخروج من صخرتهم ومنازعة جيرانهم، حتى بسطوا سيطرتهم على كل إقليمى أشتوريس وكنتبرية فى شرقها وعلى جزء من إقليم جليقية فى غربها .

ولمناقشة هذا الرأى نتناول أولا رواية إيزيدور نفسه باعتبارها المصدر الذى

---

(١) عن المعركة ووجهات النظر المختلفة فى تقييمها أنظر : Cron Isidore Pacense, ed. Florez, pp 310 - 311 No 59; Chron Moissiacense, ed Lafuente, p 166; Fredegarii Scholastici Continuatio II, ed. Lafuente, Apud Ajbar Machmua, p 163, Lévi - Provençal, Histoire, I p 59 Sqq; Condé, op cit, 1 p 108 Sqq . المقرى، نفح، ٤ ص ١٥ ؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٦٩ ؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٨ ؛ مؤنس، فجر، ص ٢٦٥ - ٢٦٧، ٢٧٤ - ٢٧٥ ؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٤٢ - ١٤٦ ؛ أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ٨٩ - ٩١، ٩٩ وما بعدها؛ الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ١٩٣ - ٢٠٣ ؛ أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٧ - ٩٠ ؛ عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٨٨ وما بعدها .

(٢) قارن : مؤنس، فجر، ص ٢٥١ - ٢٥٣، ٣١٥ - ٣١٧، ٣٣٧؛ على حبيبة، مع المسلمين فى الأندلس، ص ٤١٨ - ٤١٩، ٤٢١ ؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٤١، حاشية ٢ ؛ أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ٨٨ - ٨٩، ٩٧ - ٩٨ ؛ عنان، دولة الإسلام؛ ص ٨٤ وما بعدها، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) عنها أنظر : Ed. Florez, pp 309 - 310 No 58

اعتمد عليه أصحاب هذا الرأى، لنتبين مدى صحتها أو الاطمئنان إليها . ومجملها أن رجلاً بربرياً - هو منيز Munniz - شارك المسلمين فى فتح إيبيريا حتى أقصى شماليها، وساهم معهم فى إخضاع شرطانية Cerritanensi (Cerdana الحالية) واجتهد فى نصرة الإسلام؛ ولكنه ثار على العرب حينما علم بثورة إخوانه البربر عليهم فى إفريقية وأصبح فى حرب دائمة معهم، ثم حالف أودو Eudo وتزوج من ابنته؛ وأنهم أى المسلمين قد أرسلوا إليه نحوا من عشر حملات، نهض إليه بعدها الوالى عبد الرحمن بنفسه وتتبعه فى مضايق الجبال حتى ضيق عليه الخناق وقتله؛ وقبض على زوجته ونكل بأتباعه فى هذه الناحية (١) .

وواضح أن إيزيدور يجعل منيز Munniz بربرياً، وليس هناك ما يدل على أن ولاة قرطبة قد أنابوا عنهم نوابا بربر فى حكم أقاليم إيبيريا وأنحائها فى الفترة الأولى التالية لفتحها . إلا أنه يفهم من الرواية أن منيز Munniz هذا قد تولى أمر ناحية شرطانية وهى الواقعة فى أقصى الطرف الشرقى من جنوب جبال البرتات، وشتان ما بين موقع هذه الناحية وموقع أشتوريس التى كان نائبها عربياً كما أشرنا آنفاً؛ ولا يعقل أن يناصر البربر وينضم إليهم فى الثورة على العرب .

أما قصة تحالف منيز Munniz مع أودو Eudo دوق أكويتانية وزواجه من ابنته؛ فهى قصة انفرد بها إيزيدور وحده، ثم شايعه فيها فقط صاحب مدونة دون لذريق Don Rodrigo المتأخرة؛ أما المؤرخون اللاتين الأوائل الذين اختصوا بالتأريخ لأشتوريس فقد أمدونا بقصة زواج نائب أشتوريس المسلم من أخت بلاجيوس، وهى القصة التى ذكرناها من قبل؛ ولو كان هناك نوع من أنواع الروابط بينه وبين أودو لما تحرج هؤلاء المؤرخون من الإشارة إليها . وإذا صحت قصة تحالف أودو مع أحد أمراء المسلمين بإيبيريا - وهى قصة لا نملك ما ينفيها أو يؤيدها - فالأقرب للمنطق أن يكون أودو قد أقدم على ذلك مع أمير منطقة قريبة من دوقيته لتكون خطا دفاعيا أماميا له ضد العرب، وهو ما يتحقق له فى منطقة شرطانية وليس فى أشتوريس .

وفى الوقت الذى يجعل فيه إيزيدور مقتل منيز Munniz بأيدى الوالى عبد الرحمن والمسلمين فى عام ١١٣ هـ/ ٧٣٢م، فإن المدونات اللاتينية الأخرى تجعل المنيذر نائب أشتوريس، يلقى حتفه بأيدى الأشتوريين ذاتهم فى أعقاب موقعة كوبادونجا Covadonga التى حددناها بعام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م . ونعتقد أن إيزيدور - وهو الذى عاصر هاتين الحادثتين - ما كان يخطىء فى عشر أعوام كاملة لو أنه

---

(١) Ibid .

يقصد نائب أشتوريس، ولكنه - كما رأينا أنفا - تجنب التأريخ لأشتوريس في مدونته التي أورد فيها هذه القصة، حتى أنه لم يخص أشتوريس أو نائبها في المدونة بأكملها بكلمة واحدة [١] .

ولذلك نعتقد أن القصة التي أوردها إيزيدور بشأن مقتل منيز Munniz بأيدي الوالي عبد الرحمن لا تتعلق بنائب أشتوريس، وإنما بنائب ناحية أخرى هي في الغالب شرطانية Cerritanensi (Cerdana الحالية)، التي كانت إحدى أقاليم المنطقة الواقعة جنوب جبال البرتات - البرينوه - وأن الاسم الذي يذكره لنائب هذه الناحية، ومشاركته المسلمين في فتح إيبيريا حتى أقصى شماليها، وزواجه بابنة أودو أحد أمراء الفرنجة؛ إنما هي عناصر تتشابه مع بعض العناصر التي توردها المدونات اللاتينية الأخرى - التي اختصت بالتأريخ لأشتوريس - عن نائب أشتوريس ومشاركته المسلمين أيضاً في الفتح، وزواجه من أخت بلاجيوس القوطي، وهي أمور ربما أوقعت المؤرخين الحديثين - السابق الإشارة إليهم - في الاعتقاد بأنها تتعلق بأشتوريس وبنائبها .

وبغض النظر عن كون استشهاد المنيذر عقب موقعة كوبادونجا Covadonga مباشرة في عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م كما أرادت له المدونات اللاتينية، أو أنه قتل بأيدي الوالي عبد الرحمن والمسلمين فيما بعد في عام ١١٣هـ/ ٧٣٢م، فنعتقد أن موته لم يكن يعني إفساح المجال أمام بلاجيوس وجماعته ليمدوا سيطرتهم على كامل أراضي أشتوريس . ذلك أنه رغم صمت المصادر الإسلامية واللاتينية، فأغلب الظن أن ولاة قرطبة عينوا نائبا آخر لأشتوريس بعد موت نائبها المنيذر دون أن يتركوا منصب هذه الجبهة شاغراً؛ لا سيما أنهم كانوا يعلمون بهزيمة جيشهم فيها، وبميلاد بؤرة للمقاومة أخذت تتربص الدوائر بالمسلمين المقيمين في أشتوريس، وكان على هذا النائب الجديد أن يلح على بلاجيوس وجماعته بالحرب للقضاء عليهم، أو على الأقل ليلجئهم إلى صخرتهم دون أن يتعدوها إلى ما ورائها ليموتوا فيها جوعاً وتضييقاً .

وفضلاً عن ذلك فما كان بلاجيوس يستطيع التوسع خارج إقليم أشتوريس شرقاً في نواحي إقليم كنتبرية، التي كانت قائمة فيها دوقية مسيحية صغيرة - لم تخضع للمسلمين - وكان يحكمها الدوق بدرو (بطرس) Petrus منذ عام ٦٨٧م،

---

(١) أنظر : ما سبق بفصل التعريف بالمصادر والمراجع .

الذى كان من أسرة ملكية قوطية مثل بلاجيوس، وأعانه حين تصديه للمسلمين فى موقعة كوبادونجا كما ذكرنا، الأمر الذى نعتقد معه انتفاء منازعة بلاجيوس له على دوقيته .

أما جليقية الواقعة إلى الغرب من أشتوريس فكانت لا تزال مأهولة بالمسلمين عرباً وبربر، ولم يكونوا قد أقدموا على إخلائها بعد ؛ وهو ما لم يتم إلا بعد استشهاد الوالى عبد الرحمن بنحو عشرة أعوام [١] ، حينما تطور النزاع ثانية بين العرب وانشغلوا بتصفية نزاعاتهم بين بعضهم البعض من ناحية، وبينهم وبين البربر من ناحية أخرى، فضلاً عما أصاب الأندلس من قحط فيما بين عامى ١٣٣ ـ ١٣٦هـ [٢] / ٧٥٠ ـ ٧٥٣م، وهو ما سهل على مسيحيى أشتوريس قرب أواخر تلك الفترة إخراج باقى المسلمين منها ومن جليقية [٣] .

---

(١) سوف نتناول ذلك بتفصيل فيما بعد، وإن كنا نقتصر هنا على الإشارة بأن العرب أخلوا جليقية فى البداية وتركوها للبربر بعد أن انهزموا أمامهم، ولم يلبث البربر أن أخلوها بدورهم عندما حل القحط بالأندلس بصفة عامة، ولذلك لم يكن إخلاء العرب والبربر لجليقية ناتجاً وقتذاك عن ضغط من مسيحيى أشتوريس عليهم .

(٢) عن ذلك بتفصيل أنظر : أخبار مجموعة، ص ٣٨ ـ ٤٦، ٥٦ ـ ٦١ ؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٣٠ ـ ٣٨ ؛ المقرى عن الرازى وابن حيان، نفسه، ٤ ص ٢١ ـ ٢٣ ؛ مؤنس، فجر، ص ٢١٩ وما بعدها ؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٦٠ .

(٣) أنظر : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٣٨ ؛ أخبار مجموعة، ص ٦١ ـ ٦٢ . وينسب صاحب أخبار مجموعة هذا العمل لبلاجيوس، ويحدده بعام ١٣٣هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥١م فصاعدا . لكن لما كان بلاجيوس قد توفى عام ١١٩هـ/ ٧٣٧م، فيكون صاحب أخبار مجموعة قد خلط بينه وبين أحد خلفائه وهو الفونسو الأول، الذى حكم فيما بين عامى ١٢١ ـ ١٤٠هـ/ ٧٣٩ ـ ٧٥٧م، وهو ما أكده بعض المؤرخين الحديثين، أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 102 - 103, Lafuente. Ajhar Machmua, p 66 No 5 ؛ مؤنس، فجر، ص ٣٢٠ حاشية ٢، الذى وإن وافق على ذلك فإنه يعود صفحات ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠ ليناقض نفسه .

وقد كان نص صاحب أخبار مجموعة السابق سببا فى اعتقاد البعض بأن معركة كوبادونجا قد تمت عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥١م، أنظر : مؤنس، نفسه، ص ٣٢٨ وما بعدها، وإن ناقض نفسه صفحة ١٥٤ حيثما جعلها فى ولاية عنبسة بن سحيم (١٠٣ ـ ١٠٧هـ/ ٧٢١ ـ ٧٢٥م) ؛ وانظر أيضاً : السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٦٩ ؛ وإن لم يحدد تاريخا بذاته فيفهم من روايته أنه تاريخ يقع بعد عهد عقبة بن الحجاج، أى بعد عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م . وانظر : على حبيبة، مع المسلمين فى الأندلس، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ ، الذى يجعل علقمة اللخمى قائد البعث الإسلامى ضد بلاجيوس، فى تاريخ كان قد توفى فيه علقمة وبقى ولداه فقط .

ونعتقد أنه لو كان قد بدر من بلاجيوس وجماعته حينذاك شيء من التوسع وبسط السلطان فى أى من الاتجاهات لكان قد ظهر خطرهم للعيان واضحاً، وما كان الوالى عبد الملك بن قطن [١] - الذى خلف عبد الرحمن على ولاية الأندلس فى رمضان - شوال ١١٤هـ/ نوفمبر - ديسمبر ٧٣٢م - قد شغل نفسه بالجهاد فى مناطق أخرى بإيبيريا، حددتها المصادر الإسلامية ببلاد البشكنس Vascones [٢] ، وأشارت إليها المدونات اللاتينية بأنها فى أودية جبال البرتات الوعرة [٣] ، دون أن تحدد مكانها هناك بالضبط . ولا تزودنا أى من المصادر السابقة بنشاط لهذا الوالى ضد مسيحيى أشتوريس طوال مدة ولايته التى انتهت فى رمضان - شوال ١١٦هـ/ أكتوبر - نوفمبر ٧٣٤ م بتولية عقبة بن الحجاج السلولى [٤] .

ومع ذلك أيضاً فنعتقد أن انشغال جيوش المسلمين حتى ذلك الوقت فى مناطق غير أشتوريس سواء فى داخل الأندلس أو فى خارجها، ثم هزيمتها فى غالة فى موقعة بلاط الشهداء؛ كان له أثره عند مسيحيى أشتوريس ليتحركوا فى شيء من الأمن والطمأنينة؛ فى المنطقة المحيطة بالصخرة، وبالتحديد فى وادى كانجاس؛ واثقين من انشغال المسلمين وانصرافهم عنهم انصرافاً كفاهم جهد حرب أو قتال، وهو

---

(١) عنه أنظر : الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٢٦٨ رقم ٦٣٨؛ الضبى، بغية الملتمس، ص ٣٦٩ رقم ١٠٧٨؛ ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ١ ص ٦٢٩ رقم ٨١٤ .

(٢) أنظر : المقرى عن الواقدى، نفح، ١ ص ٢٢٠؛ وعن ابن بشكوال وغيره، ٤ ص ١٧؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٩؛ ابن الأثير، الكامل ٥ ص ٧١ . وقد أشار كل من مؤنس (فجر، ص ٢٧٦، ٢٧٩) والسيد سالم (تاريخ المسلمين، ص ١٤٦) إلى أن الوالى عبد الملك قد جاوز فى حملته هذه بلاد البشكنس إلى غالة، واعتمدوا فى ذلك على الرواية التى يوردها أرسلان فى كتابه : تاريخ غزوات العرب، ص ١٠٣ - ١٠٥ ، وسايرهم أيضا : طرخان، المسلمون فى أوربا، ص ١١٦؛ حسن خليفة، تاريخ العرب، ص ١٣٦؛ عبد الجليل عبد الرضا، العلاقات السياسية، ص ٨٥؛ Condé, op cit, 1 pp 111 113 . على أنه ليس لدينا ما يدل على ذلك فى المصادر الإسلامية، وإن كانت مدونة مواسياك Moissiacense تشير إلى هجوم ليوسف بن عبد الرحمن - وكان حاكما لأربونة - على غالة عام ١١٦هـ/ ٧٣٤م، أنظر : Ajbar Machmua, p 166 .

(٣) أنظر : Chron Isidore Pacense, ed. Florez, p 312 وإن كان Urhel قد فسر رواية إيزيدور السابقة على أنها تعنى حملة لعبد الملك إلى أشتوريس .

(٤) تكاد المصادر الإسلامية تجمع على هذا التاريخ لبدء ولاية عقبة، قارن : ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٧؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٩، ٣٠؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٢٠، ٢٢١، ٤ ص ١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٧٣ . إلا أن صاحب أخبار مجموعة (ص ٢٨) يجعله عام ١١٠ هـ والأرجح أنه عام ١١٦هـ وامتدت ولايته حتى عام ١٢١هـ .

ما كان يتطلع إليه هؤلاء المسيحيون فى تلك الفترة المبكرة من تاريخهم، واعتقدوا بذلك أن الله قد عاد يناصرهم ويؤيدهم ضد المسلمين .

ولذلك فما كاد الوالى عقبة بن الحجاج يلى الأندلس فى شعبان من عام ١١٦هـ/ نوفمبر ٧٣٤م، حتى عبأ قواته منذ العام الأول من ولايته، وانصرف بها إلى الغزو مثابراً على الجهاد [١] ؛ بحيث كانت له فى كل سنة غزاة [٢] . وهو وإن كان قد أولى عنايته لغالة [٣] لأن الفرنجة كانوا يلحون بالضغط على المسلمين منذ موقعة بلاط الشهداء، فإنه لم يهمل أيضاً منطقة شمالى إيبيريا بما فيها أشتوريس . ويبدو أنه كان ينوى القيام بحركة كماشة على تلك المنطقة للقضاء كلية على الاضطراب السائد فيها؛ بأن يبدأ بمهاجمة نبرة (بمبلونة) ثم يواصل منها زحفه غربا إلى كنتبرية (ألبة والقلاع) ثم إلى أشتوريس؛ فى الوقت الذى تعاونه فيه الحاميات الإسلامية المقيمة فى إقليم جليقية فى الغرب بالزحف شرقاً، فيضعف بذلك مقاومة المسيحيين فى تلك النواحى بتشتيت جهدهم وتفريق قواتهم للدفاع عن أنفسهم فى جبهتين . وعلى هذا النحو بات مسيحيو كل من أشتوريس وكنتبرية ونبرة على وشك أن يواجهوا ضغطاً قويا من جانب المسلمين، ويشعروا من جديد بقوتهم وبطش قواتهم .

وعلى حسب تلك الخطة فقد اقتحم عقبة أراضى بمبلونة وفتحها من جديد، وأقام فيها للمرة الأولى حامية إسلامية ثم أسكنها المسلمين [٤] ؛ فصارت بمبلونة تابعة للحكم الإسلامى تبعية مباشرة، بعد ما كانت تتمتع باستقلال ذاتى منذ أن فتحها الوالى عبد العزيز بن موسى . ومن بمبلونة واصل عقبة تقدمه نحو الغرب وهاجم أراضى كنتبرية ففتح جزأها الشرقى المعروف بألبة Alava [٥] ؛ وفى تلك اللحظات الحاسمة يختفى عقبة فجأة من المسرح السياسى والعسكرى إلى الأبد، وتنتهى ولايته نهاية غامضة [٦] فى عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م، قبل أن يستكمل مشروعه فى فتح القسم

---

(١) مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٩ .

(٢) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٧٣ .

(٣) عن نشاطه فى غالة أنظر : Codera, op cit, 8 pp 122 - 123, 319 - 327

(٤) مجهول، نفسه، ص ٢٩؛ أخبار مجموعة، ص ٢٨؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٢٩؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٢٠، ٤ ص ١٨؛ Cron del Moro Rasis, ed Gayangos, p 87

(٥) ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٧٣، وأن أثبتها المحقق : البته ، وهو بلا شك تصحيف؛ أخبار مجموعة، ص ٢٨؛ Codera, op cit, 8 p 121

(٦) المقرى، نفسه، ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١؛ أخبار مجموعة، ص ٢٩؛ ابن حلدون، نفسه، ٤ ص ١١٩، ٢٥٨؛ النويرى، نهاية الأرب، تحقيق جسبار رميرو G. Remuo ، غرناطة ١٩١٧م، ٢٢/١ ص ١٥ .

الغربى من إقليم كنتبرية المعروف ببردوليا؛ أو أن يستعيد السيطرة على ما يجاوره غربا فى شرقى أشتوريس، الذى كان قد خرج عن طاعة المسلمين منذ موقعة كوبادونجا فى عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م . وبذلك تهيأت لمسيحيى أشتوريس فرصة أخرى للحياة فى مكانهم القاحل النائى دون أن تصل إليهم فيه أيدى المسلمين، لا سيما وأن الأخيرين أخذوا منذ ذلك الحين فصاعدا ينشغلون فى نزاعات وخلافات داخلية لا جدوى منها .

وقد أكد صاحب فتح الأندلس [١] استمرار استقلال المسيحيين فى هذه الناحية حتى تلك اللحظة، حينما قال أن بلاجيوس وجماعته قد ظلوا يسيطرون على أطراف جهتهم فقط، وهى الأطراف التى كانت بأيدى المسلمين من قبل . ثم أزال ابن سعيد - برواية المقرى [٢] - الالتباس فى تفسير ما تعنيه هذه الأطراف، حينما حصر حديثه على الصخرة أى المنطقة الجبلية الممتدة من بردوليا شرقا حتى الأطراف الشرقية من أشتوريس غربا.

وإذا كانت مدونة البلدة Albeldense [٣] - وهى أقدم المدونات اللاتينية - قد نوهت أن الأمة الإيبيرية أخذت بعد انتصار كوبادونجا فصاعدا فى التمهيد لاستعادة حريتها؛ وهو ما اتخذه خطأ بعض المؤرخين الحديثين [٤] للقول بتحرر أشتوريس عقب هذا الانتصار مباشرة؛ فإن كلمات المدونة تكاد تكون واضحة محددة، ولا يفهم منها أن أشتوريس قد تحررت من الحكم الإسلامى عقب موقعة كوبادونجا مباشرة وإنما فيما بعد ذلك بسنوات .

ومن ناحية أخرى فقد بالغت مدونتا سباستيان Sebastiani [٥] والفونسو الثالث Alfonso III [٦] حينما ذكرتا أنه لم يبق بعد انتصار كوبادونجا Covadonga مباشرة مسلم واحد داخل حدود جبال البرتات . وهو أمر يتنافى مع ما سبق أن أوضحناه من معاودة المسلمين مهاجمة منطقة جبال البرتات والسيطرة عليها على الأقل خلال ولاية عقبة بن الحجاج (١١٦ - ١٢١هـ/ ٧٣٤ - ٧٣٩م) . وربما يقصد مؤلفا المدونتين بهذه الجبال جبال قمم أوربا Los Picos de Europa الواقعة بأقصى

---

(١) مجهول، ص ٢٦ .

(٢) أنظر : نفح، ٤ ص ١٦ .

(٣) Ed Florez, p 450 .

(٤) أنظر على الخصوص : Risco, op. cit, 37 pp 80 - 81, Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 37

(٥) Ed. Florez pp 480 - 481

(٦) Ed Villada, p 66 .

شرقى أشتوريس وتمتد فى بردوليا وتشمل الصخرة؛ إذ أنها تشكل مع جبال كنتبرية La Cordillera Cantabrica امتدادا غربياً لجبال البرتات، التى كان اسمها فى تلك الفترة يمتد ليشمل كل هذه الجبال .

يضاف إلى ذلك أن المدونات السابق الإشارة إليها ـ وغيرها من المدونات اللاتينية ـ تصمت عن الإشارة إلى أى أعمال عسكرية أو إنجازات لمسيحيى أشتوريس طوال فترة زعامة بلاجيوس Pelagius ومن بعده ابنه فافيلا [1] Favila ، فيما بين عامى ١٠٠ ـ ١٢١ هـ/ ٧١٨ ـ ٧٣٩م، فيما عدا انتصارهم فى موقعة كوبادونجا، ولا تنسب لهما القيام بأى توسعات داخل المنطقة الأشتورية أو فى غيرها من النواحى؛ وإنما نسبته صراحة لخليفتهما الفونسو الأول Alfonso I فيما بين عامى ١٢١ ـ ١٤٠هـ/ ٧٣٩ ـ ٧٥٧م، وذكرت المدن التى استولى عليها فى كل من أشتوريس وجليقية [2] ؛ وأيدتها فى ذلك المصادر الإسلامية إذ يتضح من روايتى المؤرخين الرازى وابن حيان ـ اللتين ينقلهما المقرى [3] ـ أن مسيحيى أشتوريس طوال عهدى بلاجيوس وابنه فافيلا لم يمدوا سيطرتهم على أى من البلاد سوى الصخرة التى حصلوا عليها منذ موقعة كوبادونجا، وكان همهم الدفاع عنها والمحافظة عليها؛ وأضافتا أنهم لم يستردوا ما كان المسلمون قد استولوا عليه من بلادهم فى إقليمى أشتوريس وجليقية إلا فى عهد الفونسو الأول Alfonso I وبخاصة فى السنوات الأخيرة من حكمه. كما يتضح من رواية صاحب أخبار مجموعة [4] أن المسلمين

---

(١) يجعله عنان أخا لبلاجيوس، ربما سهوا منه أنظر: دولة الإسلام، ١ ص ١٠٦ .

(٢) قارن: Chron . Albeldense, ed Florez, p 451 No 52; Chron. Sebastiani, ed Florez, pp 481 - 482; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 68 _ 69, 116; Chron. Léonaise, ed Cirot, pp 390 - 391; Cron. Rotense, ed. Moreno, pp 615 - 616 ولم يشذ عن هذا الإجماع سوى مدونة الفونسو العاشر Alfonso X التى ذكرت أن مدافعة بلاجيوس وحمايته قد عمت أشتوريس وقطرى ليون وبرتقال، وأضافت أنه أحرز انتصارات على المسلمين وهى إضافة سايرتها فيها مدونة دون لذريق Don Rodrigo . إلا أن مدونة الفونسو العاشر تناقض نفسها إذ حينما تؤرخ لفترة حكم أورليو فيما بعد عام ١٥١هـ/ ٧٦٨م تشير أنه هو الذى استولى على أشتوريس وجليقية وبرتقال وبعض ليون، أنظر: Antuna, Una Version, pp 117, 131 ؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٣ . كذلك فإنا ناقشنا من قبل رواية الفونسو العاشر، ولا يوافقها معظم المؤرخين الأوربيين الحديثين قارن: Quadrado, op cit, p 29 No 1, : Cayetano, op cit, p 20, Risco, op cit, 37 pp 85 - 86 No 125, p 355, Danham, op cit, 2 p 124, Barrau - Dihigo, Recherches, pp 135 - 136; Altamira, A History of Spain, p 107

(٣) أنظر: نفح، ٤ ص ١٥، ٦ ص ٨٣ .

(٤) أنظر: ص ٣٨ ـ ٤٠ .

عربا وبربر كانوا لا يزالون يقيمون فى المدائن التى خلف الدروب - أى شمال جبال كنتبرية فى أشتوريس وجليقية - وذلك حتى عام ١٢٣ هـ/ ١ - ، وأنهم ظلوا مدة طويلة على غزوهم للمسيحيين حتى انهزموا أمامهم سنة ٣ هـ/ ٧٥٠ - ٧٥١م؛ فاضطروا إلى إخلاء جليقية كلها وأستورقة Asturica وغيرها من المدائن، وصار فلهم خلف - جنوب - جبال كنتبرية [1] . بل إن بعض المصادر الإسلامية الأخرى قد نسبت هذا التوسع لفرويلة Fruela - ابن الفونسو الأول - فيما بين عامى ١٤٠ - ١٥٠ هـ/ ٧٥٧ - ٧٦٨م، وأضافت أن مسيحيى أشتوريس قد ظلوا حتى أواخر عهد الفونسو الأول (١٤٠هـ/ ٧٥٧م) فى موقف الدفاع عن أنفسهم والحماية عن أراضيهم، ولم يقو أمرهم إلا فيما بعد [2] .

ونعتقد أنه بذلك تضيع أهمية انتصار المسيحيين فى كوبادونجا، كانتصار حاسم أو قاطع رد المسلمين عن أشتوريس، دون أن يبقى فيها - مثلما تشير المدونات اللاتينية [3] - مسلم واحد بعدها، ودون أن يعاودوا مهاجمتها أو الاستيلاء عليها . ولم تخرج عن كونها مناوشة عسكرية [4] خسرها المسلمون لظروف خارجة عن إرادتهم، أدت فى حينها وحتى عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م على الأقل إلى فقدانهم السيطرة على المنطقة الصخرية فى أشتوريس، وهى المعروفة بالصخرة أو صخرة بلاى وما يحيط بها فقط .

والأولى القول أيضاً أن مسيحيى أشتوريس قد ظلوا ضعفاء الجانب حتى أواخر عهد عقبة بن الحجاج فى عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م، لا يقدرون على مواجهة المسلمين مواجهة عسكرية مباشرة فعالة فى أرض مكشوفة، أو أن يتبنوا سياسة هجومية ضدهم، أو حتى تشرأب نفوسهم إلى أى محاولة للتوسع ولو محدودة فى اى من الاتجاهات على حساب المسلمين؛ ولذا صرفوا جهدهم كله للدفاع عما اكتسبوه من أرض دفاعاً مستميتاً ، لأنهم ما كانوا - على حد تعبير بعض المؤرخين المسلمين

---

(١) أنظر : نفسه، ص ٦١ - ٦٢ . وإن كان يلاحظ أنه يخلط فى روايته هذه بين بلاجيوس والفونسو الأول، وينسب هذه الأعمال لبلاجيوس، بيد أن المؤرخ يحددها بأعوام واضحة تقع فى عهد الفونسو الأول .

(٢) قارن : المقرى عن ابن حيان، نفح، ١ ص ٣٠٩، ٤ ص ١٦ س ١؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١٨٠، القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٦٤ ، وينسبون إليه استرجاع مدن لوجو وبرتقال وسمورة وسلمنقة وقشتالة وشقوبية، على أنه لما كانت المدونات اللاتينية تنسبها لألفونسو الأول، وتضيف أن أخاه ويدعى أيضاً فرويلة، قد شاركه فيها فربما يكون المؤرخون المسلمون قد خلطوا بين فرويلة الأخ وفرويلة الابن .

(٣) أنظر : - Chron Albeldense, ed Florez, p 450 No 50, Chron Sebastiani ed Florez, pp 480 - 481 No 11, Chron Alfonso III, ed Villada, p 66, Chron. Silense, ed Florez, p 276 No 25

(٤) أنظر على سبيل المثال : Atkinson, op cit, p 62

الأوائل - يطمعون فيها أو يتطلعون إليها قبلا [1] . واقتنعوا بحياة التقشف فى منطقتهم الصخرية القاحلة النائية الواقعة فى الأطراف الشرقية من إقليم أشتوريس، فيما بين جبال قمم أوربا - Los Picos de Europa فى الجنوب، وبحر كنتبرية EL Mar Cantabrico (خليج بسكاية) فى الشمال، وهى المنطقة التى تشمل وادى كانجاس والصخرة، والتى رأوا فيها مكانا ملائما لخدمة أغراضهم الدفاعية عن أنفسهم فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم، ومن ثم فلم يحاولوا وقتذاك - على الأقل - أن يمتدوا أو يتحركوا بعيداً عنها، لا سيما وأنها شهدت انتصارهم الأول، وكانت عزيزة على أنفسهم، وتوفرت لهم فيها الحماية الطبيعية ضد أى هجوم إسلامى متوقع وهم على تلك الحالة من الضعف .

وفى الواقع، فلا تزودنا المدونات اللاتينية أو غيرها من الكتابات المعاصرة بمعلومات تمكننا من التعرف بوضوح على نوعية ونمط حياة بلاجيوس وأتباعه أو كيفية ممارستهم لها؛ وما إذا كانت قد وجدت لهم مؤسسات أو هيئات نظمت حياتهم ووضعتها فى إطار معين أم لا ؟ وذلك فى فترة ما بعد كوبادونجا حتى عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م؛ وهى الفترة التى شغلت باقى مدة زعامة بلاجيوس ثم ابنه فافيلا من بعده . وإن كان لا مفر أمامنا من ضرورة التعرف على ملامح الحياة السياسية والدينية لهذه الجماعة وقتذاك، باعتبارهما الناحيتين اللتين أثرتا بدرجة كبيرة على المقاومة وأفرادها؛ وشكلتا ركائز سياستهم فى التصدى للمسلمين .

ولا جدال فى أن نجاح بلاجيوس فى إحراز النصر على المسلمين فى موقعة كوبادونجا عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م، ثم نجاحه فى تنظيم عمليات الدفاع عن جماعته المسيحية ضد هجماتهم والصمود أمام تضييق قواتهم على جماعته، وما أبداه من همة ونشاط لتأمين حياة أتباعه قد صادف هوى فى نفوس هؤلاء الأتباع، ورأوا فيه رجلاً قادراً - إن لم يكن الأقدر - على تحمل تبعات القيادة ومتطلباتها، فعلاً شأنه لديه وازدادت هيبته فى أعينهم؛ وأصبح قبلتهم ومحط آمالهم فباركوا بالإجماع جهوده، ومنحوه ثقتهم كاملة مفوضين له رسم سياستهم وتخطيطها، والعمل على إنجازها وتنفيذها مطيعين له ولأوامره . وعلى ذلك فقد أصبح بلاجيوس رأس الجماعة ومتولى أمورها، واتخذ من مدينة كانجاس Canicas (كانجاس دى أونيس Cangas de Onis الحالية) الواقعة إلى الغرب من الصخرة مقراً له ومركزاً [2] .

ولما كان بلاجيوس وجماعته المسيحية رغم انتصارهم على المسلمين فى

---

(١) أنظر : المقرى عن الرازى وابن حيان، نفح، ٦ ص ٨٣، ٤ ص ١٥ .

(٢) أنظر : Chron Albeldense, ed Florez, p 450 No 50, Ed Huici,1 p 158

موقعة كوبادونجا Covadonga ، يعلمون أنهم يواجهون خصما لا يزال قوى البأس شديد المراس، بإمكانه أن يسحقهم إذا ما ظفر بهم خارج مأواهم الجبلى الحصين، أو إذا ما أعد للأمر عدته بعد ما خبر جغرافية المنطقة وطبوغرافيتها وطبيعة طرقها ومسالكها . فقد كان على بلاجيوس وجماعته أن يكرسوا كل طاقاتهم لتحصين مواقعهم وتنظيم عمليات الدفاع عن أنفسهم وتقويتها، ليكونوا على أهبة الاستعداد لملاقاة خصمهم إذا ما عاد يشن عليهم هجوماً جديداً .

ومن ناحية أخرى، فإنه بسبب فقر وضيق المنطقة التى استقل بها هؤلاء المسيحيون فى شرقى أشتوريس فضلاً عن قلة أعدادهم، وبسبب هجمات المسلمين المتكررة عليهم حتى عزل الوالى عقبة بن الحجاج فى عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م، وهى هجمات أدت إلى الحد من زيادة أعداد هؤلاء المسيحيين زيادة ملحوظة، فى الوقت الذى لم يكونوا فيه أصلا بالكثرة التى نتوقعها؛ ولذا كانوا مضطرين فى ظل تلك الظروف أن يعتبروا مقاومة المسلمين أمراً حتمياً ومستمراً من أجل الحفاظ على بقائهم وإلا كان فناؤهم مؤكداً . ومن ثم نظموا هذه المقاومة وتوسعوا فيها أيضاً حتى شملت كل فرد فيهم، وصار الجميع جنوداً قبل كل شىء يتساوى فى ذلك الزعيم والرعية، ولذلك كانت مهام الدفاع والحفاظ على استمرارية الصمود والمقاومة هما محور سياسة بلاجيوس وهدفه الأول طوال فترة زعامته التى استمرت حتى عام ٧٣٧م/ ١١٩هـ، وهو ما يفهم من بعض المصادر الإسلامية [١] ويراه مؤرخو إسبانيا الحديثون ذاتهم[٢]. وإن كان اعتقادنا أنه هدف صار ثانويا فى عهد ابنه وخليفته فاڤيلا Favila ، ليس بسبب قصر مدة زعامته التى لم تزد عن عامين ٧٣٧ - ٧٣٩م / ١١٩ - ١٢١هـ، وإنما لأنه لم يكن على شىء من خصال أبيه فى الهمة والإقدام وإنما متقلب الأهواء، صرف معظم جهده ووقته إلى هوايته المفضلة وهى الجرى وراء الحيوانات البرية وتعقبها لاصطيادها [٣] . ومن ثم فلم يقم بعمل يستحق التسجيل على الإطلاق، كما تشير بذلك مدونتا سباستيان Sebastiani [٤] والفونسو الثالث Alfonso III [٥] وغيرهما .

ورغم أننا نجهل نوعية التنظيم الدفاعى الذى اتبعه بلاجيوس فى هذا الشأن أو

---

(١) أنظر : المقرى عن ابن حيان والرازى، نفح، ٤ ص ١٥، ٦ ص ٨٣ .

(٢) على سبيل المثال أنظر : Risco, op cit, 37 p 85 No 124; Caveda, op cit, pp 38, 91, 93, Cayetano, op cit, p 20, Altamira, A History of Spain, p 107

(٣) قارن : : Chron Albeldense, ed. Florez, p 451 No 51; Chron Lusitanum, ed. Florez, p 402; Cron Rotense, ed Moreno, p 615; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 390 .

(٤) Ed Villada, p 67 .

(٥) Ed Florez, p 481 No 12

كيفيته، فإن بعض تصرفاته تدلنا على أنه استغل منذ البداية عامل الدين وطوعه لصالح قضيته؛ إذ عمل على اكتساب رجال الدين إلى صفه ليقوموا بدورهم فى إذكاء شعلة الغيرة الدينية عند الرعية، وحضهم على التمسك بدينهم، وحملهم على اعتبار مناهضة المسلمين واجباً دينياً على كل فرد فيهم، وبذلك ربط بلاجيوس بين الدين والمقاومة .

وقد تعددت أساليب بلاجيوس فى تطويع الدين لصالح تلك المقاومة، إذ حينما قرر الاجتماع بسكان أشتوريس اللاتين والجرمان فقد اختار المغارة المقدسة (كوبادونجا) مكاناً له؛ وحينما أثارهم ضد المسلمين فى فترة ما قبل كوبادونجا فقد حفزهم باسم إنقاذ العقيدة المسيحية والحفاظ عليها ! ثم كان التجاؤه إلى المغارة المقدسة أيضاً وإدارته للمعركة منها بمثابة إيحاء لأتباعه على أنه يحارب أعداءه برعاية العناية الإلهية وحمايتها؛ كما أنه حينما حاول الأسقف القوطى عباس Oppas إقناعه بالتخلى عن مقاومة المسلمين قبيل نشوب المعركة، نراه يزعم بأن الرب قد وعده بالتغلب على المسلمين إنقاذاً للكنيسة وإعلاء لشأنها . يضاف إلى ذلك أنه أكسب المعركة طابعاً دينياً واضحاً حينما حمل صليباً من خشب كلواء له فيها؛ وهو الصليب الذى عرف فيما بعد بصليب النصر La Cruz de la Victoria أو حتى بالصليب المقدس Sanctae Crucis وأحاطه مسيحيو أشتوريس بهالة من التقديس؛ حتى أن ابنه وخليفته فافيلا أقام كنيسة تخليداً لهذا الصليب فى العام الأول من حكمه ٧٣٧م/ ١١٩هـ، عرفت بكنيسة الصليب المقدس Santa Cruz de Cangas [(١)] فى مدينة كانجاس على ضفة نهر بوينا Buena ، اندثرت فى وقتنا الحاضر، ولم يبق منها سوى نقش تأسيسها .

ويذهب بعض المؤرخين الحديثين [(٢)] إلى أن هذا الصليب هو نفسه الصليب الذى أمر ملك أشتوريس الفونسو الثالث الملقب بالعظيم Alfonso III (EL Magno) فى عام ٨٨٣م أو فى عام ٩٠٨م، بتطعيمه بصفائح الذهب الخالص والأحجار الكريمة، وتزيينه بنقش دينى ذكر فيه اسم بلاجيوس وانتصاره على المسلمين؛ ثم حفظه بالحجرة المقدسة La Camara Santa بكاتدرائية مدينة أوبييدو فى أشتوريس وهى التى لا زالت تحتفظ به . وقد نسجت حول هذا الصليب قصة راجت منذ القرن

---

(١) أنظر : Chron. Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 115; Cron. Rotense, ed. Moreno, p 615; Léonaise, ed. Cirot, p 390; Cron. Sebastiani, ed Florez, p 481 . أنظر الملاحق .

(٢) Caveda, op cit, pp 81 - 83; Risco, op cit, 37 pp 86, 356, Velasco, op cit, pp 197 - 198; Somoza, op cit, 2 pp 482 - 483. واعتمدوا فى ذلك على عبارة وردت فى مدونتى سيلوس Silense ولوكاس Lucas خاصة بصليب الفونسو الثالث، ومؤداها أنه كان من بين أشياء ذهبية أخرى جمعها وأحضرها الفونسو الثالث سويا، واستنتجوا منها دون أساس أن صليب بلاجيوس كان من بينها . وعن نص مدونة سيلوس أنظر : Ed. Huici, 2 pp 84 - 86 .

السابع عشر الميلادى (١١هـ) فصاعدا على أنها إحدى معجزات معركة كوبادونجا وكانت من أسباب المغالاة فيها . ومؤدى هذه القصة أن صليبا ورديا ظهر لبلاجيوس فى السماء فى اليوم السابق للمعركة كبرهان أكيد له على معاونة الرب وتأييد السماء له، ودليل على حتمية انتصاره على المسلمين [١] .

ومن الطبيعى أن شيئا من هذا القبيل لم يحدث قط وإلا لما التزم الصمت تجاهه مدونو المدونات اللاتينية، وهم الذين انكبوا دون أن يألو جهدا على جمع وتدوين كل ما يتعلق بالأعمال الإلهية الخارقة التى تفوق طاقة البشر؛ لإظهار مدى العناية الإلهية ومساندتها لهم ضد المسلمين . وكثيراً ما نجد أشباه تلك القصص أيضاً فى المصادر الإسلامية ذاتها تبين أن ما قام به المسلمون من فتح كان واجباً دينياً يؤيده الله، وذلك مثل القصة التى تشير إلى ظهور النبى (ﷺ) لطارق بن زياد وقت عبوره إلى إيبيريا لفتحها، والخلفاء الأربعة معه يمشون على سطح الماء حتى مروا على طارق، فبشره النبى بالفتح [٢] . وتلك كانت طبيعة العصر ونعتقد أن الأمر لم يتعد أن حمل بلاجيوس صليباً أثناء المعركة وهو شىء طبيعى، مما أكسب المعركة طابعاً دينياً .

كذلك فبعد انتصار بلاجيوس فى المعركة انشغل هو وأتباعه فى شكر الرب وحمده اعترافا بفضله وعونه لهم، واجتهدوا فى تقوية وتدعيم كل ما يتصل بأمور الدين والعبادة؛ فتشير المدونات اللاتينية [٣] إلى نشاط الأعمال المعمارية ونهضتها وقتذاك وهى نهضة تمثلت فى إقامة الكنائس على الخصوص . وتضافر هذا النشاط الدينى الملحوظ مع غيره من النشاطات السلمية من زرع وحرث، حتى إن مؤلفى هذه المدونات يتعجبون من كيفية تضافر تلك النشاطات وتوازيها فى نفس الوقت مع الجهود والاستعدادات العسكرية، فى تلك الفترة المتقدمة من حياة الجماعة المسيحية

---

(١) عنها أنظر : Velasco, op cit, p 198; Cabal, Covadonga, pp 149 - 150 ، ونص هذه القصة كما وردت عندهما هو: " Cuando Pelayo Vencio en Covadonga excelente, a la Sarracena gente, este milagro acaecio y es que el fuerte Caballero vio en el sielo senalada la cruz blanca y colorada, muy ricamente esmaltada " .

(٢) المقرى، نفح، ١ ص ٢١٦، ٢٣٩، ٢٢٤؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٣٤؛ الحميرى، صفة، ص ٩ .

(٣) Cron Sebastiani, ed. Florez, p 481; Cron. Alfonso III, ed Villada, pp 66 - 67; 114 - 115, Cron Rotense, ed Moreno, p 615; Chron. Leonaise, ed. Cirot, p 276

فى أشتوريس . ولا شك أن ظروف البيئة القاسية فى تلك المنطقة الأشتورية وضيقها ؛ فضلا عن الحصار الذى كان يضربه المسلمون عليهم هى التى دفعتهم إلى مضاعفة الجهد والعمل على استغلال مواردهم وتنميتها؛ دون أن ينسوا توفير وسائل الدفاع عن أنفسهم فيما لو أقدم المسلمون على مهاجمتهم .

وقد ضرب بلاجيوس بنفسه المثل والقدوة فى الاعتراف بالفضل الإلهى على هذه الجماعة حينما أقدم على هبة كل ما يملكه من أراضى - إذا ما صدقت الوثيقة الدالة على ذلك[١] - إلى مقدم وآباء دير القديسة هيلانة أو جوليانا . وفى ذات الوقت وضع أساس أول كنيسة فى أشتوريس وهى كنيسة سانتا إيولاليا دى بلاميو Santa Eulalia de Velamio (كنيسة أباميا Abamia الحالية) ، الواقعة قريباً من جبل بلاميو Velamio فى مدينة كانجاس [٢] ؛ وهى الكنيسة التى دفن فيها بلاجيوس إلى جوار زوجته جواديوسا Gaudiosa عندما توفى فى عام ٧٣٧م/ ١١٩هـ [٣] ؛ وإن نقلت رفاتهما فيما بعد إلى كنيسة أخرى وهى سانتا ماريا Santa Maria فى كوبادونجا[٤] . ويبدو أن بلاجيوس قد استلهم فكرة بناء الكنائس كرمز للسيادة المسيحية فى أشتوريس مما كان يقوم به المسلمون من تشييد المساجد كرمز للسيادة الإسلامية فيما يحلون به من بلدان وأماكن؛ فضلا عما كان يؤكده ذلك من ربط بين الدين والمقاومة .

ومن ناحية أخرى، فقد عمل بلاجيوس على استمالة رجال الدين إليه، لما كان يعلمه من مكانتهم الدينية وتأثيرهم على النفوس؛ وهو ما ترك آثاره الطيبة فى نفوسهم أيضاً فأحاطوه وباركوا بالإجماع أعماله باسم السماء . ويبدو أن اهتمام بلاجيوس بالدين ورجاله لم يكن قد نبع من فراغ، فربما فسر انتصارات المسلمين المذهلة بشدة تمسكهم حينذاك بتعاليم دينهم؛ ثم إنه بحكم انتمائه إلى أسرة قوطية ملكية وارتباطه بالعمل فى البلاط القوطى، قد تناهى إلى سمعه عواقب انتهاك بعض ملوك القوط من أمثال وامبا ومن بعده إجيكا ووتيزا وغيرهم لتعاليم الدين المسيحى وللكنيسة وإهانة رجالها [٥] . يضاف إلى ذلك ما قد شاهده بلاجيوس بنفسه لما حدث

---

(١) عن نصها أنظر الملاحق .

(٢) عنها أنظر : Vigil, op cit, 1 pp 308 - 309; Saavedra, Pelayo, p 16

(٣) Cron. Sebastiani, ed. Florez, p481 .

(٤) Somoza, op cit, 2p 481; Saavedra, op cit, p 16

(٥) عن أمثلة لتلك الانتهاكات أنظر : Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, pp 119, 157, 188 .

للذريق آخر ملك قوطي عندما ضرب عرض الحائط بنصائح رجال الدين في دولته[١] ؛ وهي انتهاكات لابد وأن بلاجيوس فسرها - مثل غيره من قوط عصره - على أنها سبب ضياع وزوال المملكة القوطية كعقاب إلهي للجنس القوطي، على ما اقترفه بعض ملوكهم من خطايا وآثام في حق الدين . وعلى هذا النحو ربط بلاجيوس المهام العسكرية بأمور العقيدة فتلازمتا منذ السنوات الأولى للمقاومة المسيحية في أشتوريس، في الوقت الذي لم يكن فيه هناك دعامة من دعامات المؤسسات الحكومية سوى كرسي الزعامة ومذبح الكنيسة .

على أنه منذ انتصار بلاجيوس في معركة كوبادونجا في عام ٧٢٢م/١٠٣هـ فإن اسمه يختفي من المدونات اللاتينية بأسرها، ولا يظهر فيها إلا فجأة حين وفاته في عام ٧٣٧م/١١٩هـ، بعد أن أمضى تسع عشرة سنة زعيما للمقاومة [٢] .

وإذا كانت المدونات اللاتينية والنقش الخاص بمقبرة بلاجيوس تتفق - كما أوضحنا - على تاريخ وفاته بعام ٧٣٧م/١١٩هـ؛ فضلاً عن أن النقش الخاص

---

(١) مثل قصة بيت الحكمة التي رواها المؤرخون العرب ومؤداها أنه كان في طليطلة عاصمة القوط بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط، وكانت العادة أنه إذا تولى من القوط ملك زاد على البيت قفلاً اقتداء منه بفعل من كان قبله، حتى صار عليه أربعة وعشرون قفلاً، فلما تولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخله، قائلاً : والله لا أموت بغم هذا البيت، ولأفتحنه حتى أعلم ما فيه، فأعظم ذلك أكبار القوط وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك قائلين له : ماذا تريد بفتح هذا البيت ؟ فقال لهم : والله لا أموت بغمه ولا علمت ما فيه، فقالوا له أصلحك الله إنه لا خير في مخالفة السلف الصالح، وترك الاقتداء بالأولياء فاقتد بمن كان قبلك وضع عليه قفلا كما صنع غيرك، ولا يحملك الحرص على ما لم يحملهم عليه، فإنهم أولى بالصواب منا ومنك، فأبى لذريق إلا فتحه وظن أنه بيت مال، فقالوا له: انظر ! ما ظننت فيه من المال والجوهر وما خطر على قلبك فإنا ندفعه إليك، ولا تحدث علينا حدثا لم يحدثه فيه من كان قبلك من ملوكنا، فإنهم كانوا أهل معرفة وعلم، فأبى لذريق إلا فتحه ففتحه وفض عنه الأقفال، ودخله فأصابه فارغا لا شيء فيه، إلا المائدة التي تعرف بمائدة سليمان فضلا عن تابوت عليه قفل، فأمر بفتحه فألفاه فارغا أيضاً ليس فيه إلا تصاوير للعرب وهم على الخيول وعليهم العمائم متقلدين السيوف ومتنكبين القسي ورافعين الرايات على الرماح، وفي أعلى الصور كتابة أعجمية فقرئت فإذا هي : إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت، وفتح التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور، فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها، أنظر : ابن القوطية، نفسه، ص ٣٣ ؛ الحميري، صفة، ص ١٣٠ - ١٣١ ؛ ابن الأثير، نفسه، ٤ ص ٢٣٢ ؛ ابن الكردبوس، نفسه، ص ٤٢ - ٤٣ ؛ ابن الشباط، نفسه، ص ١٣١ - ١٣٢، ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) أنظر : Chron Sebastiani ed Florez p 481, Cron Rotense, ed Moreno, p 615, Chron Albeldense ed Florez p 451 No 50, Cron Alfonso III ed Villada, p 67, Chron Leonaise ed Cirot p 390

بتأسيس ابنه لكنيسة الصليب المقدس[1] ينفى هو الآخر أن يكون بلاجيوس قد ظل على قيد الحياة بعد هذا العام؛ فإن مؤرخى الإسلام الأوائل قد خالفوا هذا التحديد مخالفة واضحة لا تخلو من اضطراب . إذ على الرغم من أن معظمهم يتفقون مع أصحاب المدونات اللاتينية بتحديد مدة زعامة بلاجيوس بتسع عشرة سنة، فإنهم ينفردون بجعل وفاته فى عام ١٣٣هـ [2] / ٧٥٠ - ٧٥١م، وتكون بداية هذه الزعامة - من وجهة نظر هؤلاء المؤرخين المسلمين - فى عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م .

ويتضح خطأ تحديد مؤرخى الإسلام السابقين لتاريخ وفاة بلاجيوس، ليس فقط بسبب عدم مسايرته لتحديد المدونات والنقوش اللاتينية، وإنما لمناقضة هؤلاء المؤرخين أنفسهم فى ذات الوقت لأنهم يجعلون تاريخ ظهور بلاجيوس على مسرح الأحداث السياسية، وبداية زعامته فى عهد والى الأندلس عنبسة بن سحيم [3] أى فيما بين عام ١٠٣ - ١٠٧هـ/ ٧٢١ - ٧٢٦م، وإذا ما أضفنا تسع عشرة سنة هى مدة زعامة بلاجيوس - طبقاً لنفس المؤرخين المسلمين أيضاً - فلابد أن تكون وفاته فيما بين عامى ١٢٢ - ١٢٦هـ/ ٧٤٠ - ٧٤٣م وليس عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠ - ٧٥١م، أى بفارق يقدر بإحدى عشرة سنة تقريباً .

ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء المؤرخين المسلمين قد حددوا مدة زعامة فافيلا - خليفة وابن بلاجيوس - وخليفته الفونسو الأول بعشرين عاما تنتهى فى عام ١٤٢هـ[4] / ٧٥٩ - ٧٦٠م . وإذا أضفنا هذه العشرين عاما إلى عام وفاة بلاجيوس فى ١٣٣هـ/ ٧٥٠ - ٧٥١م - الذى حدده نفس المؤرخون - فلا نصل إلى عام ١٤٢هـ / ٧٥٩ - ٧٦٠م وإنما إلى عام ١٥٣هـ/ ٧٧٠م، أى بفارق إحدى عشرة سنة أيضاً .

ومن ناحية ثالثة، فإن نفس المؤرخين المسلمين يتفقون مع أمثالهم اللاتين فى تحديد مدة زعامة بلاجيوس وفافيلا ثم الفونسو الأول من بعدهما بتسع وثلاثين سنة، وإن يجعلونها تنتهى فى عام ١٤٢هـ [5] / ٧٥٩ - ٧٦٠م وهو تاريخ وفاة الفونسو من

---

(١) أنظر صيغة النقش فى الملاحق.

(٢) المقرى عن الرازى، نفح، ٦ ص ٨٣؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١٧٩؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٦٣؛ وانظر أيضاً : مؤنس، فجر، ص ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣؛ على حبيبة، مع المسلمين فى الأندلس، ص ١٢٧ .

(٣) أنظر : المقرى عن الرازى وابن حيان، ٦ ص ٨٣، ٤ ص ١٥ .

(٤) أنظر : ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٥) أنظر : أعلاه .

وجهة نظرهم أيضاً؛ فإن المؤرخين اللاّتين [١] والنقش الخاص بمقبرة الفونسو ذاته [٢] يجعلون نهايتها فى عام ١٤٠هـ/ ٧٥٧م أى بفارق عامين، ناتج عن اعتبار المؤرخين المسلمين بداية زعامة بلاجيوس مع بداية ولاية الوالى عنبسة بن سحيم فى أوائل عام ١٠٣هـ/ ٧٢١م . فى حين يجعلها المؤرخون اللاّتين منذ بداية تمرده قرب نهاية ولاية الحر بن عبد الرحمن، أى فى أواخر عام ٩٩ وأوائل ١٠٠هـ/ ٧١٨م.

وبعملية حسابية بسيطة لما سبق، يتضح أن هناك حوالى ثلاث عشرة سنة زائدة فى تحديد مؤرخى الإسلام لتاريخ وفاة بلاجيوس عن تحديد مؤرخى اللاّتين، وهى زيادة نتجت عن خطأ واقع فى روايات المؤرخين المسلمين أنفسهم . ولكى تستقيم رواياتهم وحساباتهم من ناحية، ولتتفق مع روايات وحسابات المؤرخين والنقوش اللاّتينية من ناحية أخرى، يقتضى الأمر تعديل تاريخ وفاة بلاجيوس من عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥١م الذى يحدده المؤرخون المسلمون إلى عام ١١٩هـ/ ٧٣٧م .

وقد انزلق صاحب نص فتح الأندلس فى مثل هذا الخطأ الحسابى المضلل دون أن يتنبه إليه، إذ أنه حدد مدة حكم بلاجيوس بسنتين فقط، بدأتا بانتصاره على قوات الوالى عنبسة بن سحيم فى موقعة كوبادونجا، وأضاف أنه حين وفاة بلاجيوس فقد خلفه ابنه فافيلا فى الحكم حتى عام ١٣٣هـ [٣] / ٧٥٠ ـ ٧٥١م .

---

(١) أنظر : Chron Sebastiani, ed. Florez, p 482; Cron Rotense, ed. Moreno, p 616; Chron. Lusitanum, ed. Florez, p 402; Chron Léonaise, ed. Cirot, p 391; Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 117 . وأنظر الملاحق.

(٢) ونصه : " AQVI YAZE EL CATOLICO Y SANTO REI DON ALONSO EL PRIMERO I SV MVGER DONA ERMENISENDA ERMANA DE DON FAVILA QVIEM EVZEDIO GANO ESTE REI MVCHAS VITORIAS A LOS MOROS FALECIO EN; CANGAS ANO DE 757 . " أنظر : Vigil, op cit, 1p 307; Somoza, op cit, 2p 482 .

(٣) أنظر : مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٦ . ونص روايته كما يلى : « وقام علج خبيث من أعيانهم فى أيام عنبسة هذا بأرض جليقية، اسمه بلاية بن فافلة، على من كان يملك أطراف جهته من العرب فنفاهم منها، فملك سنتين، ثم ملك ابنه فافله بعده إلى سنة ثلاث وثلاثين ومائة هلك » . وهنا يجب ملاحظة أن جليقية إنما كانت تعنى عند المؤرخين المسلمين بعامة إقليم أشتوريس . كما أن قيام بلاجيوس فى أيام الوالى عنبسة (١٠٣ ـ ١٠٧هـ/ ٧٢١ ـ ٧٢٥م) لا يعنى تحديد بداية ثورة بلاجيوس وإنما بالأولى تحديد تاريخ الصدام بينه وبين قوات الوالى عنبسة فى معركة كوبادونجا فى عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م، وكانت الثورة قد بدأت قبل ذلك بنحو ثلاث سنوات كما أوضحنا من قبل .

وبغض النظر عن كون ذلك المؤرخ قد خالف جمهرة المؤرخين المسلمين والمسيحيين على السواء فضلاً عن الوثائق اللاتينية ذاتها؛ التى أطالت مدة حكم بلاجيوس إلى تسع عشرة سنة وقصرت مدة حكم ابنه بعامين فقط؛ فإن المؤرخ يبرز بنفسه خطأه . ذلك أنه إذا كان قد احتسب إجمالى مدة حكم هذين الزعيمين بإحدى وعشرين سنة، بدأت بمعركة كوبادونجا أى فى عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م، أو على حد تعبيره فى أيام الوالى عنبسة، وانتهت فى عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠ - ٧٥١م؛ فإننا إذا طرحنا هذه الإحدى وعشرين عاما من عام ١٣٣هـ، فنصل إلى عام ١١٢هـ/ ٧٣٠م وهو عام لا يقع فى نطاق مدة حكم عنبسة - كما يذكر المؤرخ - وإنما فى نطاق مدة حكم خلفائه من بعده . ومن الناحية الأخرى، فإذا أضفنا الإحدى وعشرين عاما إلى عام ١٠٣هـ/ ٧٢٢م وهو عام موقعة كوبادونجا، فلا نصل إلى عام ١٣٣هـ وإنما إلى عام ١٢٤هـ فقط . وفى كلتا الحالتين يتأكد لنا خطأ حسابات المؤرخ المذكور.

أما ابن الخطيب - الذى يعتمد على مدونة الفونسو العاشر القشتالية - فقد اتفق مع باقى المدونات اللاتينية فى تحديد بداية زعامة بلاجيوس بعام ٩٩هـ/ ٧١٨م، وإن جعلها لمدة ثلاث عشرة سنة فقط بدلا من تسع عشرة . واتفق معها فى تحديد مدة زعامة ابنه فافيلا بعامين، وإن جعلها أيضاً تنتهى عام ١١٤هـ [(١)] / ٧٣٢م وليس عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م . أى بفارق يقل عن تحديد المدونات اللاتينية القديمة بحوالى ست إلى سبع سنوات ناتجة عن تقليل مدة حكم بلاجيوس وهو تقليل لا يمكن تبريره إلا فى ضوء ما وقع من خطأ فى حسابات مدونة الفونسو - التى يعتمد عليها ابن الخطيب - والتى تجعل بداية زعامة بلاجيوس عقب وفاة لذريق عام ٩٥هـ/ ٧١٤م، مضافا إليها تسع عشرة سنة هى مدة زعامته، وبالتالى صارت وفاته طبقا لذلك عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م [(٢)] .

وعلى كل، فإنه بوفاة بلاجيوس يتغلب حب وولاء سكان أشتوريس اللاتين والجرمان على كل شيء حتى على تقاليدهم، فاختاروا بالإجماع ابنه فافيلا Favila خلفا له فى زعامتهم [(٣)] ، وذلك بطريقة تلقائية ودون أن يعهد بلاجيوس لابنه هذا

---

(١) أنظر : تاريخ، ٢ ص ٣٢٣ = (Antuna, Una Version, pp 117. 130 - 131)

(٢) قارن : Prim Cron General, ed. Pidal, 1p 319, 2p 321, 329؛ وقد استندت هذه المدونة على حسابات مدونة لذريق . أنظر : Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, pp 229 - 230

(٣) تتفق المدونات اللاتينية والإسلامية على استخلاف فافيلا لأبيه، أما مؤلف مدونة سيلوس Chron Silense فيتخطى فافيلا ويسقطه من روايته، جاعلا الفونسو الأول خليفة بلاجيوس مباشرة، أنظر : Ed Florez, p 276, ed Huici, 2 p 54؛ وقد ساير المقرى هذا التخطى، أنظر : نفح، ٤ ص ١٦ س٢ .

من بعده كما يذهب البعض [١] ، أو دون أن يفكر وقتذاك فى إرساء نظام وراثى، وإن كانت هذه السابقة سترسى تقليد حق الابن فى وراثة أبيه، وهو تقليد سيراعى تطبيقه ـ فيما بعد ـ فى المملكة الأشتورية التى قامت هناك؛ إذ على الرغم من أن عرشها كان انتخابيا فإنه انحصر فى أسرة معينة هى أسرة الفونسو الأول ـ زوج ابنة بلاجيوس وسلالته من بعده، فصارت ملكية انتخابية مثلما كانت مملكة القوط البائدة .

وللأسف فلم تخص المدونات اللاَتينية بأسرها فافيلا Favila إلا بترجمة قصيرة لم تتجاوز أسطرا أقل من عدد أنامل اليد الواحدة؛ ولا تنسب إليه أى إسهام أو إنجاز فى المجال العسكرى ضد المسلمين، وتعلل فتور هذا النشاط الحربى وتوقفه فى عهده بقصر مدة زعامته التى لم تتعد العامين [٢] . ونعتقد أنه ليس بمبرر كاف إذ كثير ما تنجز مهام ضخمة فى فترة أقصر، مثلما كان الحال مع بعض ولاة الأندلس المسلمين . والأولى القول أنه لم يكن لديه اهتمام كبير بأعمال البطولة فى ميدان الحرب أو السياسة [٣] ، ولا أمل فى توسيع ممتلكات دولته على حساب المسلمين خاصة وكان يعاصره الوالى عقبة بن الحجاج (١١٦ - ١٢١هـ/ ٧٣٤ - ٧٣٩م) الذى كان ـ على حد تعبير المؤرخين المسلمين ـ [٤] يجاهد العدو ويلح عليهم بالحرب، وكان ذا نكاية للعدو وشدة . فأحس فافيلا بالعجز أمامه، وآثر السلامة وتحاشى القيام بأى عمل عسكرى من شأنه أن يثير غضبة عقبة عليه أو يلفت انتباهه نحوه .

وعلى العكس فقد استسلم فافيلا ـ كما تذكر المدونات اللاَتينية ـ للتافه من الأمور [٥] ، ووجه نشاطه لإشباع هوايته التى سيطرت على كل اهتماماته وهى تعقب الحيوانات البرية واصطيادها؛ فحق لمؤلفى مدونتى سباستيان Chron Sebastiani [٦] والفونسو الثالث Cron. Alfonso III [٧] القول بأنه لم يحدث فى عهده شىء يستحق التسجيل التاريخى على الإطلاق . وأغلب الظن أن ما كان يستحق التسجيل التاريخى

---

(١) أنظر : Risco, op cit, 37p 356, Danham, op cit, 4 p 47, Cotarelo op cit, p 27

(٢) قارن : Chron Sebastiani, ed Florez, p 481 No 12, Cron Rotense, ed Moreno, p 615; Cron Alfonso III, ed Villada, p 67 No 12, p 115 No 12

(٣) أنظر : Scott, op cit, 1 p 356

(٤) قارن : ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٢٩ ؛ المقرى عن ابن بشكوال، نفح، ٤ ص ١٨

(٥) قارن : Chron Albeldense ed Florez, p 451 No 51, Chron Sebastiani, ed Florez, p 481 No 12 Chron Leonense ed Cirot, p 390 No 8 Cron Rotense, ed Moreno, p 615, Cron Alfonso III ed Villada pp 67 115

(٦) Ed. Florez, p 481 No. 12

(٧) Ed Villada, p 67 No 12

وقتذاك عند هؤلاء المؤرخين اللاتين هو الإنجاز العسكرى وأمر مقاومة المسلمين؛ إذ نسمع عن إنجاز لفافيلا من نوع آخر ارتبط بأعمال معمارية دينية، حيث أقام فى عام ٧٣٧م/ ١١٩هـ كنيسة الصليب المقدس التى أشرنا إليها من قبل .

وفى العام الثانى من زعامة فافيلا، قضى نحبه فى غابات منطقة كانجاس Cangas de Onis فى إحدى رحلات صيده العابثة، حيث تملكه فيها دب ومزقه إربا [١] ؛ فدفن إلى جوار زوجته فروليبا Froleba بنفس الكنيسة التى كان قد أقامها تخليداً لصليب النصر . ثم أقيمت كنيسة أخرى فى نفس مكان مصرعه، عرفت بكنيسة سان بدرو دى بلانويبا San Pedro de Villanueva [٢]، على شاطئ نهر سيا Sella إلى الغرب من مدينة كانجاس، وهى التى زين بابها الرئيسى فيما بعد بنقش يمثل آخر مشهد من مشاهد حياة فافيلا وحادثة مصرعه التراجيدية [٣] .

وقد اتفق المؤرخون اللاتين على تحديد تاريخ وفاة فافيلا Favila فى عام ٧٣٩م/ ١٢١هـ، مع أنهم اختلفوا فى مدة زعامته؛ فيفهم من بعضهم أنه لم يستكمل العامين [٤] ، أو أنه أتمهما [٥] - وهو ما عليه رأى مؤرخى المسلمين الأوائل [٦] - فى حين أشار البعض الآخر من المؤرخين اللاتين أنه زاد عليهما ستة أشهر [٧] أو سبعة أشهر وعشر أيام [٨] ، وهى مدد لا نستطيع أن نجزم بصحة أى منها لعدم توفر أدلة قاطعة وإن كانت فترة زعامته لم تتعد عام ٧٣٩م/ ١٢١هـ [٩] .

---

(١) أنظر : Chron. Sebastiani, ed Florez, p 481, Cron Rotense, ed Moreno, p 615, Chron. Albeldense ed Florez, p 451 Cron Alfonso III, ed Villada, pp 67, 115 ؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) عنها أنظر : Quadrado, op cit, p 49 Sqq؛ أنظر الملاحق .

(٣) أنظر : Vigil, op cit, I pp 309 311; Watts, op cit, pp 23 - 27; Danham, op cit, 2 pp 125 - 126; Quadrado, op cit, p 43 .

(٤) أنظر : Cron Rotense, ed Moreno, p 615; Cron Alfonso III, ed. Villada, pp. 67, 115 Chron Sebastiani, ed Florez, p 481 .

(٥) أنظر : Chron Albeldense, ed Florez, p 451; Chron Léonaise, ed Cirot, p 390 ; Annales Toledanos, ed. Huici, 1 p 367 .

(٦) قارن : ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٣ . وإن يجعل تاريخ وفاته عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١٧٩ ؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٦٣ ؛ المقرى عن الرازى، نفح، ٦ ص ١٧٩ ؛ ويجعلون تاريخ الوفاة حوالى عام ١٣٥هـ/ ٧٥٢-٧٥٣ م .

(٧) أنظر : Chron Complutenses, ed Florez, 23 p 310, Chron Compostellanum, ed. Florez, 23 p 325, Huici, op cit, 1 p 52, 82

(٨) أنظر : Cron. Profética, ed. Moreno, p 628 .

(٩) يوافق معظم المؤرخين الحديثين على هذا التحديد، أنظر على سبيل المثال : Caveda, op cit, p 32, Williams, op cit, 10 p 40, Burke, op cit, 1 p 135, A. Bleye, op cit, 1 p 477, Scott, op cit, 1 p 356, Lévi - Provençal, Histoire, 1 p 63; Barrau - Dihigo, Recherches, p 136 ، وإن كان الدكتور مؤنس مقتنعاً بتحديد المصادر الإسلامية لتاريخ وفاته بحوالى عام ١٣٤هـ/ ٧٥٢م ويعتقد أنه الأصح، أنظر : فجر، ص ٣٤٢ .

وبوفاة فافيلا Favila تنتهي ذرية بلاجيوس Pelaguis الذكور، إذ لم ينجب منهم سوى فافيلا الذى لم يترك هو الآخر- على ما يبدو- وريثا [١] يخلفه فى قيادة الجماعة المسيحية المناهضة فى أشتوريس . ولم يكن هناك والحال كذلك أولى بالأمر من ألفنش أو أذفونش (الفونسو الأول Alfonso I) ابن الدوق دون بطره [٢] (بدرو- بطرس Petrus) وكان قد خلفه فى حكم دوقية كنتبرية Cantabria المجاورة لأشتوريس من ناحية الشرق، وكان من أصل ملكى قوطى كما ذكرنا، وزوجا لابنة بلاجيوس [٣] الوحيدة - أخت فافيلا [٤] - التى تدعى إرمسندا Hermesinda .

هذا وقد ذهب المؤرخون الأوربيون الحديثون بلا استثناء إلى أن بلاجيوس قد اتخذ لقب ملك، استنادا على أنه يظهر فى المدونات اللاتينية كخليفة للملك القوطى لذريق Rodrigo ، ويندرج التأريخ عنه فيها ضمن ملوك أشتوريس . على أنه لما كان مؤلفو هذه المدونات على السواء قد اعتبروا المملكة التى ظهرت فى أشتوريس فيما بعد عهد بلاجيوس وابنه فافيلا استمرارا أو إحياء لمملكة القوط البائدة؛ فكان عليهم بالطبع أن يصلوا بينهما حين التأريخ لهما؛ ومن ثم ظهر بلاجيوس فى رواياتهم بعد مقتل لذريق مباشرة وقبل ملوك أشتوريس الذين بدأوا بألفونسو الأول Alfonso I الملقب بالكاثوليكى EL Catolico - الذى بدأ حكمه فى عام ٧٣٩م / ١٢١هـ. ومن ناحية أخرى فلم يرد اسم بلاجيوس أو ابنه فافيلا فى أى من هذه المدونات ولو مرة واحدة مقروناً بأى لقب سياسى، وهو أمر ما كان يغفله مؤلفوها لو أنه كان ملكاً أو حتى أميرا .

---

(١) تصمت المدونات اللاتينية عن ذكر عقب له، وإن كان بعض المؤرخين الحديثين يعتقدون أنه أنجب أبناء يجهلون أسماءهم أو ابنين كانا صغاراً، قارن : Cotarelo, op cit, p 27 No. 1; Coppée, op cit, 1 pp 412 - 413 .

(٢) أنظر : ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٣، ويشير أنه يسمى بالقاطوليقى لمعرفته بأصول شريعة الروم المسمى علمها عندهم قاطوليقى أى كاثوليكى .

(٣) أنظر : ابن الخطيب، نفس الصفحة والمكان، وانظر أيضاً . ;Chron. Albeldense, ed. Florez, p 451 Chron Silense, ed. Florez, p 276; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 390 No. 7, 9; Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 115; Cron. Rotense, ed Moreno, p 615; Annales Toledanos III, ed. Florez, 23 p 415; Prim Cron. General, ed. Pidal, 2p 328 .

(٤) عن نقش شاهد مقبرة الفونسو الأول الذى يتضمن اسمها وأنها أخت فافيلا وزوجة لألفونسو الأول الذى لقب بالكاثوليكى، أنظر : Somoza ,Gijon, 2 p 482; Vigil, op cit, 1p 307 .

وإذا كانت كل من حوليات طليطلة الثالثة Annales Toledanos III [١] ومدونة الفونسو العاشر Alfonso X [٢] قد انفردتا بالقول أن بلاجيوس كان أول ملك يحكم في إسبانيا بعد موت لذريق ودخول المسلمين؛ فقد سبق أن أبدينا عدم ثقتنا الكاملة فيما تورده المدونة الأخيرة على الخصوص . يضاف إلى ذلك أن مؤلفيهما ربما استخدما لقب ملك ليطلقاه مجازاً على من كانوا يشغلون مناصب قيادية ذات شأن وتقل عن مرتبة الملوك بكثير؛ وهما يسايران في ذلك بعض مؤرخي المسلمين الأوائل، مثل عبد الملك بن حبيب [٣] الذي حينما أنبأنا بغياب الملك القوطي لذريق في شمالي البلاد لقمع ثورة فيه وقت إقدام المسلمين على الفتح، أشار أنه استخلف على البلاد ملكا من ملوكه يسمى تدمير . كما أن الرازي [٤] وابن عذاري [٥] وصاحب أخبار مجموعة [٦] حينما أشاروا إلى أنباء أسر حاكم مدينة قرطبة القوطي بأيدي المسلمين أثناء فتحها، قالوا إنه لم يؤسر من ملوك الأندلس غيره؛ ولم يكن تدمير ولا حاكم مدينة قرطبة هذا سوى حاكمين أو نائبين من نواب الملك لذريق على المدن ولم يرتفعا قط إلى درجة الملوك؛ الأمر الذي لا يمكن معه أن تقف المدونتان اللاتينيتان السابقتان، ولا بعض المصادر الإسلامية - التي جعلت من بلاجيوس ملكا لجليقية [٧] - دليلاً على أنه كان ملكاً بالفعل .

حقيقة ورد اسم زوجة بلاجيوس وهي جواديوسا Gaudiosa في مدونة سباستيان Sebastian [٨] وفي نقش مقبرتها [٩] مقرونا بلقب ملكة " Regina " ؛ إلا أن ذلك لا يعدو أن يكون من قبيل التبجيل والاحترام، ولا يكفي وحده للقول بأن بلاجيوس قد اتخذ بالضرورة نفس اللقب؛ وبخاصة أنه توجد وثيقة [١٠] أصدرها

---

(١) أنظر : Ed. Florez, 23 p 415 .

(٢) Prim Cron General, ed. Pidal, 2p 321، وانظر أيضاً : Antuna, op cit, p 117 - (ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٣) .

(٣) أنظر : محمود مكي، مصر والتأريخ العربي الإسباني، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الخامس، ص ٢٢٢ .

(٤) نقلا عن المقري، نفح، ١ ص ٢٤٦ .

(٥) أنظر : البيان، ٢ ص ١٠ .

(٦) أنظر : ص ١٤ .

(٧) أنظر : أخبار مجموعة، ص ٢٨؛ ابن عذاري، البيان، ٢ ص ١٢، ٢٩ .

(٨) Ed. Florez, p 481 No 11

(٩) أنظر : Vigil, op cit, 1p 309 ; Somoza, op cit, p 481 ونصه : " HEIC IACET R(EGIN)A GAUDIOSA UXOR R(EGI)S PELAGII "، وأنظر الملاحق .

(١٠) أنظر : الملاحق وأنظر أيضاً : Floriano, op cit, 1 pp 29 - 30

بلاجيوس نفسه، يهب بمقتضاها كل أملاكه فى أشتوريبس لدير سانت يانة (هيلانة) Santillana - وهى وثيقة وإن يصعب تحديدها بعام معين فيما بين عامى ٧١٨ - ٧٣٧م / ١٠٠ - ١١٩هـ بفعل ما أصابها من أرضه، فإنها تحمل تاريخ الرابع من مارس - وما يعنينا منها الآن أن بلاجيوس لم يظهر فيها إلا باسمه فقط الذى عرف به قبل وبعد كوبادونجا، وهو دون بلايو Don Pelayo ؛ ولو أنه كان قد اتخذ لقب ملك Rex أو أمير Princeps أو سيدنا (حاكمنا) Noster Dominus ، أو حتى سيد (حاكم) Dominus ، مثلما تلقب خلفاؤه منذ الفونسو الأول (٧٣٩م/ ١٢١هـ) فصاعدا [١] ، لكان قد اقترن اسمه فى الوثيقة المذكورة بأى من هذه الألقاب .

كما أن هذه الوثيقة كانت موضوع تحقيق وتحليل من جانب بعض المؤرخين الذين أثبتوا زيفها ووضعيتها فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر الميلاديين (أواخر القرن السابع الهجرى) [٢] ؛ أى فى وقت كانت قد بلغت فيه حماسة الإسبان ومناهضتهم للمسلمين بشبه الجزيرة الإيبيرية شأوا عظيما ونجاحا، وأنزلوا بلاجيوس خلالها منزلة القديسين؛ وكان يتوقع أن يمجد كاتب الوثيقة به ويقرن اسمه فيها بأى لقب سياسى كملك أو أمير أو حاكم، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث .

ولربما كان الأمر مرهونا باكتشاف وثائق أخرى جديدة تتعلق بفترة زعامة بلاجيوس وابنه فافيلا (٧١٨ - ٧٣٩ م/ ١٠٠ - ١٢١هـ) لتقطع برأى يوما ما فى هذا الشأن، إلا أن المتعارف عليه بين المؤرخين الحديثين حتى الآن أنه لا وجود لوثائق أخرى، غير تلك الوثيقة الفريدة التى أشرنا إليها . ومن ثم فلا يسعنا أمام قلة وثائق هذا العهد واختفائها، أن نساير المؤرخين الحديثين فيما يذهبون إليه بشأن اتخاذ بلاجيوس لقب ملك .

---

(١) لدينا وثائق عديدة تحمل هذه الألقاب، وعن نصها على سبيل المثال أنظر : Floriano, op cit, 1 pp 34 - 35, 38 - 39, Risco, op cit, 37 p 303 Sqq

(٢) أول من نقل هذه الوثيقة هو المؤرخ Sota من مخطوط بأرشيف دير سانت يانة *Santillana* فى أشتوريس، ولم يقم بأعمال التمحيص الوثائقى المطلوبة للتأكد من صحتها واعتبرها وثيقة أصلية، وتابعه فى ذلك معظم المؤرخين التاليين له حتى جاء Floriano و Barrau - Dihigo فقاما بفحصها وأثبتا عكس ذلك، أنظر بالتتابع : Diplomatica, 1 pp 30 - 33, Actes de Rois Asturiens, R Hisp, Paris 1919, 46 pp 98 - 100, 109

وحقيقة أيضاً يظهر اسم بلاجيوس Pelagius فى النقش الخاص بمقبرته - التى تقع فى كوبادونجا Covadonga بأشتوريس وفى النقش الخاص بزوجته - مقروناً بلقب ملك Regis, Regina، إلا أن النقشين غير معاصرين لبلاجيوس وإنما يرجعان إلى فترة متأخرة حوالى القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) ؛ وهو ما يتضح جليا من لغة النقش إذ هى بالاسبانية وليست باللاتينية [١] ؛ وبالتالى فلا يمكن الاستناد إليهما هما الآخرين لتحديد ما إذا كان بلاجيوس قد صار ملكاً أم لا.

ومن ناحية أخرى فإن نقش تأسيس ابنه فافيلا كنيسة الصليب المقدس Sanctae Crucis فى عام٧٣٧م/ ١١٩هـ تخليداً لذكرى أبيه وصليبه، لم يظهر فيها فافيلا هو الآخر إلا باسمه فقط وهو Fafila أو Fafella دون أى لقب سياسى على الإطلاق؛ رغم أن النقش كما يرى المؤرخون معاصر ولا يشك فيه . كذلك يظهر اسمه فى نقش مقبرة خليفته الفونسو الأول (٧٣٩ - ٧٥٧م / ١٢١ - ١٤٠هـ) خلوا من ذلك؛ يضاف إلى ذلك أن الفونسو هذا - وكان أول من اتخذ لقب ملك - لم يشر إلى بلاجيوس فى الوثيقة التى أصدرها فى عام ٧٤٠م / ١٢٢هـ [٢] إلا باسمه فقط (Pelagii) دون أى لقب سياسى .

ولعل فيما سبق ما يدلل على أن بلاجيوس وابنه فافيلا من بعده لم يتخذا لقب ملك أو أمير؛ ونعتقد أن الأمر لم يتعد سوى أنهما كانا زعيمين أو قائدين لجماعة من المناوئين للحكم الإسلامى، التفت حولهما دون أن تكون لهما مملكة أو إمارة [٣] . وتبعاً لذلك ينتفى ما ذهب إليه بعض المؤرخين الأوربيين - القدامى والحديثين - بوجود مملكة فى أشتوريس آنذاك؛ وإلا لكان قد صاحب قيامها تواجد مؤسسات وهيئات لا تقوم مملكة أو دولة بدونها؛ ومن ثم إصدار مراسيم وقرارات تنظم وتحدد هيكل هذه الموسسات ومهامها، وتدلنا فى ذات الوقت على طبيعة هذه الأوضاع

---

(١) أنظر : .Somoza, op cit, 2 p 481، أنظر الملاحق .

(٢) أنظر الملاحق وانظر أيضاً : .Floriano, op cit, 1 pp 34 - 35; Risco, op cit, 37 pp 303 - 304

(٣) إذا كان بعض المؤرخين الحديثين يعتمدون على نص مدونة البلدة للقول بوجود مملكة فى أشتوريس بعد انتصار كوبادونجا فإننا نعتقد أنها لم تكن قد قامت فى فترة زعامة بلاجيوس وابنه فافيلا، إذ يلاحظ أن مؤلف المدونة قد أرخ لها تحت عنوان " Item Ordo Gothorum Ovetensium Regum " أى :نظام تتابع ملوك أوبييدو القوط ، ولما لم تكن هذه المدينة قد نشأت وقتذاك، فيكون قصد المؤلف المملكة التى اتخذت من هذه المدينة عاصمة، ولا يسعنا لذلك أن نؤرخ لقيام هذه المملكة إلا مع نشأة هذه المدينة، وعن نص المدونة أنظر : .Ed Florez, p 450

الجديدة وشكلها وحقوق وواجبات الزعيم والرعية، وهو ما لم يتم إلا بعد عهد كل من بلاجيوس وابنه فافيلا، أى بعد عام ٧٣٩ م/ ١٢١هـ .

على أن ذلك لم يمنع بلاجيوس - وابنه من بعده - أن يحيط نفسه بطائفة من الأتباع المقربين على هيئة مجلس استشارى يزوده بالرأى والمشورة ويعاونه فى تصريف شئون جماعته؛ وكان أعضاء هذا المجلس - كما يفهم من مدونة سيلوس Silense [1] - قوط الأصل، وهو أمر طبيعى لما لهذه الفئة القوطية من خبرة سابقة فى ممارسة مهام القيادة والحكم، أكثر من غيرها من العناصر التى عاشت فى أشتوريس وقتذاك . ولا نتوقع أن يكون أعضاء هذا المجلس قد مارسوا ضغطا أو نفوذاً مباشرا على بلاجيوس أو على ابنه من بعده، وإن كان قربهم منهما وارتباط عملهم بأمور الزعامة والقيادة؛ قد ساعدهم على أن يكونوا عنصراً أساسياً فى تكوين طبقة النبلاء الأرستقراط فى مجتمع أشتوريس على المدى البعيد .

ومجمل القول فإنه رغم ما بذله مسلمو الأندلس من جهد فى استكمال فتح إيبيريا، فإنهم عجزوا حتى عام ٧٣٩م / ١٢١ هـ عن فتح بردوليا الواقعة فى غربى إقليم كنتبرية بأقصى شمالى إيبيريا؛ كما عجزوا عن استعادة السيطرة على ما يجاوره غربا فى أقصى شرقى أشتوريس منذ أن استقل به بلاجيوس فى عام ٧٢٢م/ ١٠٣هـ، وكان تجاور هاتين المنطقتين من عوامل تقارب مسيحييها وتعاونهم ضد المسلمين فى الأندلس فيما تلى ذلك من أعوام؛ وكان التاريخ على وشك أن يسطر لمسيحيى هاتين المنطقتين اتجاهاً آخر مستقلاً عن المسلمين فى الأندلس منذ ذلك الحين فصاعداً، إذ صارت هاتان المنطقتان نافذة للحركات القومية الإسبانية ينطلق منها تيار الاسترداد مع تراجع النفوذ الإسلامى وضعفه، بسبب اختلاف المسلمين وتناحرهم وتفرق أهوائهم، مثلما سنرى فيما بعد .

---

(١) أنظر : Ed Florez p 276 No 25, Ed Huici, 2 p 54 .



الباب الثالث

فرض الوجود الإسبانى ورد الفعل الأندلسى

٧٣٩ ـ ٧٨٨ م (١٢١ ـ ١٧٢ هـ)



الفصل الأول

قيام مملكة أشتوريس وتجرؤها علي الأندلس

٧٣٩ـ٧٥٧ م (١٢١ـ١٤٠ هـ)

الفونسو الأول يخلف فافيلا ويعلن قيام مملكة أشتوريس ـ مدة حكمه ـ اضطراب أحوال الأندلس وقتذاك ونتائجه ـ استغلال الفونسو هذا الاضطراب فى انتزاع إقليمى جليقية وأشتوريس من المسلمين ـ غاراته على حوض نهر دويرة وإخلائه من المسلمين ـ تحالفه مع البشكنس وانتزاع إقليمى ألبة ونبرة من المسلمين ـ سياسته فى تأمين دولته من أخطار مسلمى الأندلس .



رأينا كيف بدأت مناهضة بلاجيرس للمسلمين فى أقصى شرقى أشتوريس، واستقلاله فيه عن سلطانهم؛ ودفاعه عنه ضد محاولاتهم المتكررة لاستعادته على مدى نحو ست عشرة سنة حتى توفى فى عام٧٣٧م / ١١٩هـ . وبوفاته تعرضت جماعته المسيحية لتهديد خطير كاد يعصف بها، إذ خلفه ابنه فاڤيلا Favila الذى لم يكن يضاهيه شجاعة أو إقداما وإنما تخاذلا وانصرافا إلى اللهو، فى وقت كان يعاصره فى الأندلس الوالى عقبة بن الحجاج، الذى وضع خطة محكمة كانت كفيلة بالقضاء عليه وعلى جماعته المسيحية؛ لولا أن المقادير لم تمهله لإتمامها باختفائه فجأة من المسرح السياسى عام ١٢١ هـ/ ٧٣٩ م؛ واضطراب الأندلس فى عهد من خلفه من الولاة، فأتيحت لهذه الجماعة المسيحية فرصة أخرى للحياة .

ومرة أخرى تتعرض تلك الجماعة لأزمة سياسية داخلية عقب وفاة فاڤيلا - أى فى ذات العام الذى اختفى فيه عقبة - وتتعلق بمن يخلفه فى الزعامة؛ وهى أزمة يرجعها بعض المؤرخين الحديثين [١] إلى أنه لم يخلف عقبا، استنادا على صمت المدونات اللاتينية عن ذكر ذرية له . إلا أن نقش تأسيس فاڤيلا لكنيسة الصليب المقدس [٢] - التى أشرنا إليها من قبل - وهو نقش أصلى لا يشك فيه يدحض هذا الاعتقاد، ويشير بوضوح إلى أنه أنجب أبناء شاركوه فى حفل افتتاحها؛ وإن كان النقش لا يذكر أسماءهم فربما كانوا إناثا، وما كانت العقلية القوطية لهذه الجماعة تتقبل قيادة النساء، أما لو كانوا ذكورا فلابد وأنهم كانوا دون سن الحكم؛ وفى هذه الحالة فما كان بالإمكان أن يرثه أحدهم ولو فى ظل مجلس وصاية، لأن منصب الزعامة لم يكن قد ثبت بعد؛ كما لم تكن أوضاع تلك الجماعة قد استقرت؛ فى وقت كانت الحاجة فيه ماسة إلى شخصية قوية حازمة ذات حنكة سياسية تؤهلها لتسيير شئون جماعتها فى تلك الظروف الحرجة؛ فضلاً عن خبرة عسكرية تفى بمتطلبات الدفاع عنها وحمايتها من خصم مسلم كان لا يزال قوياً بمقدوره أن يعصف بها إذا ما تهيأت الظروف .

كذلك فربما كان من بين رجال الحاشية التى أحاطت بفاڤيلا من تطلع إلى هذا الدور، ومع ذلك فكان من حسن حظ المقاومة المسيحية أن وجدت شخصية أخرى طغت على هذا وذاك، كانت تقيم آنذاك فى بردوليا التى تشكل الجزء الغربى

---

(١) منهم : - Mariana, The General History of spain, London 1699, p 105, Abdurrahman EL Hajii, Christian states in Northern Spain Islamic Quarterly, 1965, 9 p 47 ؛ مؤنس، فجر، ص ٣٢٤ .

(٢) عن نصه أنظر الملاحق والمصادر المعطاة .

من إقليم كنتبرية المجاور لأشتوريس من ناحية الشرق، توفرت لديها كل مقومات الزعامة؛ فضلاً عن رصيد هائل يزكي أحقيتها وحدها من دون غيرها لهذا المنصب، بحيث لم يكن يوجد - على حد تعبير مؤرخ إسلامي - من هو أولى منه بالملك [(١)] . ذلكم هو الفونسو (الفنش) Alfonso ابن بدرو (بطرس) دوق كنتبرية .

فقد كان الدوق بدرو والد الفونسو قوطي الأصل، علاوة على أنه انحدر من أسرة ملكية هي أسرة الملك ريكاريد Recaredo [(٢)] (٥٨٦ - ٦٠١ م)، وتدرج في سلك الوظائف العسكرية حتى تولى القيادة العامة لجيش القوط في عهد الملكين إجيكا ووينزا فيما بين عامي ٦٨٧ - ٧٠٩ م، ثم اختير قبيل الفتح الإسلامي لإيبيريا دوق إقليم كنتبرية - الشامل وقتذاك لمنطقتي ألبة وبردوليا - وكان من حسن حظه - كما أوضحنا من قبل - أن القوات الإسلامية لم تطأ أراضي دوقيته في موجة الفتح الأولى بسبب احتجاب دوقيته وراء الجبال، وابتعادها عن خط سير الجيش الفاتح بقيادة موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد؛ ثم لظروف استدعاء موسى؛ ومن بعدها اغتيال ابنه عبد العزيز وما ترتب عليه من توقف الفتح للمرة الثانية . فأفلت من السيطرة الإسلامية مؤقتاً واحتفظ باستقلاله في دوقيته . ومع ذلك ظل متخوفاً من امتداد السيطرة الإسلامية على أراضيه خاصة وأن المسلمين كانوا يحيطون بدوقيته من الشرق في بمبلونة (نبرة) ومن الغرب في أشتوريس التي وصلوها واحتلوها كلها إلى حين انسحابهم من جزئها الشرقي عند ظهور بلاجيوس . ولذلك فما أن علم بثورة بلاجيوس في أشتوريس حتى سارع إلى معاونته ضد المسلمين بأن أرسل إليه ابنه الأكبر الفونسو على رأس قوات دوقيته وخاضت إلى جانبه معركة كوبادونجا، وشارك في إحراز النصر على المسلمين . ونتيجة لذلك كافأ بلاجيوس الفونسو بأن زوجه ابنته الوحيدة إرمسندا Hermesinda [(٣)] . وبذلك تقوت الروابط بين الأسرتين الحاكمتين في كل من أشتوريس وكنتبرية .

ومع ذلك، فلم يفلت بدرو من المسلمين إذ حينما تولى عقبة بن الحجاج ولاية

---

(١) ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) عن نص الوثيقتين الدالتين على ذلك أنظر : Valdés, Estudio critico - Filosofico sobre la Monarquia Asturiana, R. Esp. 1870, 69 pp 77 - 78; Floriano, op cit, 1 p 187

(٣) قارن بتفصيل : Cron Albeldense, ed Florez, p 451, Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 481, Cron de Lucas, ed Puyol, pp 278 - 279, Anales Toledanos III, ed Huici, 1 p 367, Estoria de los Godos, ed Zabalburu, p 65; Cron Geral de Espanha, ed Cintra, APH, Lisboa 1954, 2 p 289; 290, Cron . del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 227, 232

الأندلس فيما بين عامى ١١٦ - ١٢١ هـ/ ٧٣٤ - ٧٣٩ م هاجم أراضيه وانتزع منها جزأها الشرقى المعروف بألبة، فاقتصرت دوقية كنتبرية على الجزء الغربى المعروف ببردوليا وهو الملاصق لإقليم أشتوريس من ناحية الشرق . وسيكون تجاور هاتين المنطقتين - مثلما ذكرنا آنفاً - من عوامل تقارب مسيحييها وتعاونهم ضد المسلمين فى الأندلس فيما تلى ذلك من أعوام، وسيكون لهما اتجاهاً آخر مستقلاً عن المسلمين فى الأندلس منذ ذلك الحين فصاعدا .

ذلك أنه حينما توفى بدرو فى عام ٧٣٩م/ ١٢١ هـ وهو نفس العام الذى توفى فيه فافيلا فى أشتوريس، خلفه فى حكم دوقيته ابنه الفونسو، الذى كان بقرطيته الملكية ومعاونته لبلاجيوس ضد المسلمين وزواجه من ابنته، وفوق هذا كله شجاعته وإقدامه، أحق وأجدر من يخلف فافيلا فى زعامة مسيحيى أشتوريس فضلاً عن زعامته لمسيحيى بردوليا . ومع أن بعض مؤرخى الإسبان الحديثين [1] قد أرادوا أن يبرروا هذه الأحقية بدعوى أن بلاجيوس ترك وصية لكى يخلفه الفونسو هذا، إلا أن هذا الادعاء مردود لأنه لو حدث لكان قد خلفه مباشرة بدلاً من فافيلا أو لكان قد تلقى الوصية من فافيلا وليس من بلاجيوس .

ومن ناحية أخرى، فليس بمستبعد أن يكون الفونسو نفسه قد حرص على خلافة فافيلا فى أشتوريس، لأن الأخيرة كانت تمثل عمقاً استراتيجياً حيوياً لدوقيته يحميها من المسلمين من ناحية الغرب؛ وذلك بسبب طبوغرافيتها المعقدة الحصينة التى عاينها هو بنفسه وقت أن عاون بلاجيوس فى معركة كوبادونجا . هذا بالإضافة إلى أن مساحة دوقيته كانت قد تقلصت من ناحية الشرق منذ استيلاء المسلمين على ألبة فى عهد أبيه، وصاروا جيرانه فيها بإمكانهم تهديده؛ ولذا اعتبر الفونسو أشتوريس تعويضاً له فى جهة الغرب عما فقده من دوقيته فى جهة الشرق .

وفى ذات الوقت، فربما تكون الجماعة المسيحية فى أشتوريس قد أيقنت هى الأخرى بعد وفاة فافيلا بفائدة انضوائها تحت زعامة شخصية مثل الفونسو، واتحادها مع أشقائها فى بردوليا لتقوية جبهتها ضد خصومها المسلمين؛ ومن ثم لم يكن لديهم ما يمنع من استخلاف الفونسو لفافيلا، فنادوا به زعيما فى ذات العام الذى توفى فيه الأخير (٧٣٩م / ١٢١ هـ) . وبذلك توحدت لأول مرة جبهة المقاومة المسيحية فى شمالى إيبيريا ضد المسلمين منذ الفتح الإسلامى .

ومن الأمور اللافتة للنظر أن يهجر الفونسو مقر إقامته فى بردوليا منذ العام

---

(١) مثل : Mariana, op cit, p 105

الأول من حكمه لينتقل إلى أشتوريس، ويقيم بلاطه فى مدينة كانجاس الأشتورية التى كانت مقر كل من بلاجيوس وفافيلا من قبل، كما أنه اتخذ اسم أشتوريس وليس بردوليا أو كنتبرية للدلالة على دولته الجديدة التى اتسعت بضم أشتوريس إليها . وإن كنا لا نعرف الدوافع الحقيقية وراء هذا التغيير، كما لا يمكننا أن نؤكد بأن الأشتوريين هم الذين اشترطوا عليه ذلك حينما اختاروه لزعامتهم، فربما لأنه وجد أن موقع وطبوغرافية أشتوريس أنسب من ناحية الدفاع والأمان من بردوليا ذاتها، التى صار المسلمون يجاورونها فى ألبة من ناحية الشرق فضلاً عن أنه بذلك يستميل قلوب أهل أشتوريس فيسهل عليه قيادهم.

وعلى كل فباعتلاء الفونسو الزعامة الموحدة لكل من أشتوريس وبردوليا بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مسيحيى هاتين المنطقتين، إذ ظهرتا إلى الوجود معا فيما عرف بمملكة أشتوريس، التى اعتبرها المؤرخون الإسبان القدامى وريثة مملكة القوط البائدة . ومع أنه لم يصدر بقيامها منشور أو سجل رسمى فقد أشير فى المصادر الإسبانية إلى كل حكامها على أنهم ملوك، واقترنت أسماؤهم فى كل الوثائق [١] التى صدرت فى دولتهم بلقب ملك " Rex " (Regis) وأحياناً بلقب أمير " Princeps " أو حاكم " Dominus " ، إلا وثيقة واحدة [٢] صدرت فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ٧٧٥ م؛ وهى التى أصدرها الملك سيلو (شيلون) Silo حيث ورد اسمه فيها خلوا من أى لقب سياسى . أما قبل الفونسو فقد كانت القوة المسيحية فى أشتوريس على عهد بلاجيوس وابنه فافيلا دون كيان سياسى مثلما أوضحنا من قبل .

كذلك فيعتبر ظهور مملكة أشتوريس لأول مرة انعطافة هائلة ليس فقط فى تاريخ مسيحيى شمالى إيبيريا وحدهم وإنما فى تاريخ إيبيريا كلها فى العصور الوسطى، إذ لم تعد خالصة للمسلمين وإنما شاركهم فيها مسيحيو الشمال الذين أقاموا هذا الكيان السياسى لينهض بعبء مقاومة المسلمين؛ ثم مكنهم من أن يمدوا أنظارهم إلى ما وراء مملكتهم لطرد المسلمين من إيبيريا كلها، ومن ثم أخذوا منذ البداية يزاحمون هذا الوجود الإسلامى ويعارضونه معارضة قوية، ولم يكن أمام المسلمين إلا أن يقاوموا هذا الاتجاه ويدافعوا عن تواجدهم، وبالتالى استمر الصراع بين هاتين القوتين دون هوادة .

---

(١) يبلغ مجموع هذه الوثائق ٢٠٤ وثيقة جمعها وحققها Floriano فى كتابه : Diplomatica Espanola del Periodo Astur 718 - 910, 2 Tomos, Oviedo 1949 - 1951 بخلاف العديد من الوثائق التى اكتشفت بعد ذلك ونشرت فى الدوريات والمجلات العلمية المختلفة .

(٢) عن نصها أنظر : Floriano, op cit, 1 pp 66 - 67; Risco, Esp Sagr 37 p 301

ومع أن الفضل فى إقامة هذا الكيان المسيحى المستقل يرجع إلى الفونسو الذى عرف بالفونسو الأول ولقب بالكاثوليكى EL Catolico لتدينه وورعه، فقد تضاربت المصادر الإسبانية المتأخرة تضارباً بيناً حول تاريخ اعتلائه عرش المملكة فضلاً عن مدة حكمه، بحيث شمل التضارب نسخ المدونة الواحدة . فتحدد إحدى نسخ مدونة دون لذريق Don Rodrigo (١) مدة حكمه بتسع سنوات فقط تبدأ فى عام ٧٣٣ م، وفى نسخة أخرى(٢) تجعلها تسع عشرة سنة تبدأ فى عام ٧٣٥ م . فى حين حددتها مدونة الفونسو العاشر Primera Cronica General (٣) بتسع عشرة سنة أيضاً تمتد بين عامى ٧٣٤ و ٧٥٢م اللذين جعلتهما يقابلان خطأ عامى ١١٤ و ١٣٢ هـ . أما مدونة إسبانيا لعام ١٣٤٤م Cronica General de Espana de 1344 فى نصها الإسبانى(٤) فقد جعلتها مرة ثمانى عشرة سنة تنتهى فى عام ٧٦٣ م، ومرة أخرى تسع عشرة سنة تنتهى فى عام ٧٥٤ م أى بفارق يقل تسع سنوات عن تحديدها الأول؛ ثم يزداد تضاربها فى نسخة أخرى بنص برتغالى Cronica Geral de Espanha de 1344 (٥) قائلة أن الفونسو بدأ حكمه فى عام ٧٤٤ م وحكم إحدى عشرة سنة ثم توفى فى عام ٧٦٣ م ؛ وبغض النظر عن مدى صحة تاريخ بداية ونهاية هذا التحديد فواضح أن مؤلف المدونة - أو محقق النص - وقع فى خطأ حسابى لأن الفارق بين العامين المذكورين تسع عشرة سنة وليست إحدى عشرة .

وإذا كانت المصادر الإسبانية المتأخرة على هذا النحو من الخلط والاضطراب بشأن تحديد مدة حكم واحد من أشهر ملوكهم، فليس من المستغرب أن نجد مثل هذا الخلط فى روايات بعض مؤرخى المسلمين المتأخرين؛ خاصة وأنهم كانوا أبعد من مؤلفى هذه المصادر عن مسرح الأحداث الواقع فى الشمال الإيبيرى . فقد حدد كل من ابن خلدون (٦) والقلقشندى (٧) مدة حكم الفونسو بثمانى عشرة سنة متفقين فى ذلك مع بعض المصادر السابقة الذكر؛ وإن اختلفا عنها فى تحديد نهاية حكمه بعام ١٤٢ هـ (٧٥٩ - ٧٦٠ م) ، وهو اختلاف راجع أيضاً إلى خطأ واقع فى حسابات

---

(١) Estoria de los Godos, ed Zabalburu, p 65 .

(٢) Cron. del Rodrigo, ed Fuensanta, p 232 .

(٣) Ed Pidal. 2 p 330, 337

(٤) Ed Catalan y Andrés, 2 pp 28, 201 .

(٥) Ed Lindley Cintra, 2 p 390, 394

(٦) العبر، ٤ ص ٣٨٦ .

(٧) صبح، ٥ ص ٢٦٤ .

هذين المؤرخين؛ لأنهما يعتبران تاريخ وفاة فافيلا بن بلاجيوس واستخلاف الفونسو له فى عام ١٣٥هـ/ ٧٥٣م، ولو أضفنا إلى هذا التاريخ ثمانى عشرة سنة - هى مدة حكمه حسب روايتهما - فلا نصل إلى عام ١٤٢ هـ (٧٥٩ - ٧٦٠ م) وإنما نتخطاه إلى عام ١٥٣ هـ (٧٧١ م) . ولذلك فلكى تستقيم رواية وحسابات هذين المؤرخين - فضلاً عن رواية الرازى التى ينقلها المقرى [١] - يقتضى الأمر تعديل تاريخ وفاة فافيلا واستخلاف الفونسو له من عام ٧٥٣ م/١٣٥ هـ إلى عام ٧٣٩ م / ١٢١ هـ، وهو عام تؤيده أدلة متعددة .

ذلك أن المدقق فى روايات المصادر الإسبانية القديمة كمدونات البلدة [٢] Albeldense وسباستيان Sebastiani [٣] والفونسو الثالث Alfonso III [٤] وروتنسى Rotense [٥] وليون Léonaise [٦] وسيلوس Silense [٧]؛ فضلاً عن روايات بعض مؤرخى المسلمين كابن الأثير [٨] ، يتضح له أنهم جميعاً يتفقون فيما بينهم على أن تاريخ اعتلاء الفونسو عرش مملكة أشتوريس هو عام ٧٣٩ م / ١٢١هـ، وأنه حكم ثمانى عشرة سنة كاملة ثم توفى فى العام التاسع عشر أى عام ٧٥٧م/ ١٤٠ هـ . ويؤيد هذا التحديد الوثائق اللاتينية التى صدرت خلال عهد الفونسو نفسه، فأقدمها وثيقة مؤرخة فى ٣١ أكتوبر ٧٤٠م (أواخر عام ١٢٢ هـ) أى فى العام الثانى من حكمه مباشرة، فى حين كانت آخر وثيقة بتاريخ ٢٨ فبراير ٧٥٧م (١٣٩ هـ) [٩] . يضاف إلى ذلك نقش مقبرة الفونسو الذى يحدد هو الآخر تاريخ وفاته فى نفس العام الميلادى الأخير.

وعلى كل فكان من حسن حظ مملكة أشتوريس الناشئة أن طالت مدة حكم الفونسو هذا لمدة تسع عشرة سنة فيما بين عامى ٧٣٩ - ٧٥٧م/ ١٢١ - ١٤٠ هـ، فعاصر بذلك ستة من ولاة الأندلس هم على التوالى : عبد الملك بن قطن، بلج بن

---

(١) نفح، ٦ ص ٨٣ .

(٢) Ed. Florez, p 451

(٣) Ed. Florez, p 482

(٤) Ed Villada, p 70, 117

(٥) Ed. Moreno, p 615 .

(٦) Ed. Cirot, p 390

(٧) Ed Florez, p 276

(٨) الكامل، ٤ ص ٣٦٥ .

(٩) عن نص الوثيقتين أنظر بالتتابع : Floriano, op cit, 1 pp 34 - 35, 54 - 56

بشر، ثعلبة بن سلامة العاملي، أبو الخطار الحسام بن ضرار، ثوابة بن سلامة الجذامي، ثم يوسف بن عبد الرحمن فضلاً عن عامين من حكم الأمير عبد الرحمن الداخل مؤسس إمارة بني أمية . وطوال هذه المدة لم ينعم أي من هؤلاء الولاة باستقرار كاف يمكنه من الإجهاز على مملكة أشتوريس الناشئة؛ وإنما شهد عهدهم - مثلما سنرى فيما بعد - معتركا خطيراً من الفتن والصراعات والحروب الأهلية، حتى صارت الأندلس شعلة نار متقدة لم تخمد إلا بعدما مزقت وحدة البلاد وأوصالها وأوهنت قوتها وهناً شديداً .

وقصة هذا الاضطراب ظهرت صداه في بعض المصادر الإسبانية المعاصرة لتلك الفترة، كمدونة إيزيدور الباجي Isidore Pacense [(١)]، التي كتبت في منتصف القرن الثامن الميلادي؛ فأوردت أخباره بدقة وإن كان في نوع من الإيجاز؛ وذلك على عكس المصادر الإسلامية لا سيما كتابي البيان المغرب لابن عذاري [(٢)] وفتح الأندلس لمؤلف مجهول [(٣)] ، اللذين أوردا أخباره في شيء من التفصيل نقلاً عن روايات لأشخاص عاشوا خلال القرن الثامن الميلادي نفسه، وشاركوا في أحداثه السياسية بالأندلس [(٤)] . على أن أوفى ما ورد عنه من أخبار وأكثره تفصيلاً جاء في كتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول [(٥)] ، نقلاً عن شخصية عربية مجهولة أيضاً شاركت وقتذاك في هذه الأحداث؛ فعرفت تفاصيلها وجزئياتها بدقة فريدة .

ولا مندوحة من أن نتناول من قصة هذا الاضطراب ما يفي بوضع تصور لأحوال مسلمي الأندلس، وانعكاساتها على موقفهم من خصومهم المناوئين لهم في مملكة أشتوريس؛ التي تناسوا مجاهدتها فأزاحوا عنها بأنفسهم الخطر، وأتاحوا لها فرصة نادرة في الثبات، استغلتها إلى أبعد الحدود للأخذ بأسباب القوة وتمكيناً لها في

---

(١) Ed. Florez, pp 308 - 328

(٢) ٢ ص ٣٠ - ٤٣ .

(٣) ص ٣٠ - ٤٣، ٤٦ - ٥٠ .

(٤) مثل بدر (ت حوالي ١٧١ - ١٧٢هـ/ ٧٨٨م) مولى عبد الرحمن بن معاوية وساعده الأيمن في إقامة دولة بني أمية في الأندلس عام ١٣٨هـ/ ٧٥٥ - ٧٥٦م؛ وعنه أنظر : ابن الخطيب، الإحاطة، ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٣؛ Sanchez Albornoz, En Torno, 2 pp 19 - 20. وكذلك تمام بن عامر (ت ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م) صاحب الأرجوزة الشهيرة في : ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد وفتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم، وعنه أنظر : ابن الآبار، الحلة، ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ ؛ بويكا، المصادر التاريخية ، ص ٦٧ - ٦٨.

(٥) صفحات ٣٧ - ٤٦، ٥٦ - ٧١، ٧٦ - ٧٩ .

مناهضتهم مناهضة جدية، حتى نجحت فى توسيع رقعتها والخروج من معقلها الجبلى القاحل، ودفع حدودها على حسابهم حتى صارت خطراً عظيما عليهم .

ذلك أنه ما كاد عبد الملك بن قطن يرتقى ولاية الأندلس فى عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م - وهو ذات العام الذى أعلن فيه الفونسو قيام مملكته - حتى كانت نفوس البربر تفيض بالبغض والكراهية للعرب، لاستئثارهم من دونهم بالسيادة المطلقة مما يعنى فقدانهم الاستقلال السياسى؛ فضلاً عن استئثارهم بغنائم البلاد مع أن قطوفها لم تدن للعرب إلا برماح البربر وقسيهم؛ علاوة على معاملة العرب لهم معاملة متدنية قاسية وضحت قسوتها حينما أوقعوا بهم فى ناحية شرطانية بالأطراف الشمالية من الأندلس فى عام ١١٣ هـ/ ٧٣٢م مثلما أشرنا من قبل . فى الوقت الذى كان البربر بإقامتهم فى هذه الأطراف الشمالية قريبا من نصارى أشتوريس وغيرهم من النصارى يتحملون وحدهم عبء مجاهدة هؤلاء النصارى [١] ، كحاميات دفاع عن هؤلاء العرب الذين يذيقونهم من المساوئ السياسية والاجتماعية والاقتصادية ما فاض به الكيل؛ فأضمروا السوء لهم وباتوا ينتظرون أى بادرة ليوجدوا لأنفسهم طريقاً للحياة من دونهم .

وقد قدم عبد الملك بن قطن لهم تلك المبادرة، بما عرف عنه من قسوة وظلم وجبروت أشارت إليها المصادر الإسلامية واللاتينية على السواء [٢] ، إذ يبدو أنه أساء إليهم إساءة بالغة دفعتهم إلى مقابلة عنفه بعنف، خاصة وأن الجو العام كان يوحى لهم بإنجاح ما عزموا عليه من انتقام؛ فالسلطة المحلية بالأندلس تحت حكم هذا الوالى العجوز فى ضياع وتمزق؛ ووالى المغرب المثقل بهموم ولايته لم يعد له سلطان على الأندلس، ولم يكن يستطيع أن يمد يد العون لها وقتذاك حتى لو أراد؛ كما أن أعداد البربر الكبيرة فى مناطق استقرارهم بالأطراف الشمالية من الأندلس قد ساهمت فى إحساسهم بالقوة والقدرة على الثبات أمام العرب؛ لا سيما بعدما بلغتهم أنباء ظهور ذويهم بالمغرب على العرب وانتزاع زمام الموقف منهم بإيقاع عدد من الهزائم بجيوشهم هناك [٣] .

---

(١) Cron. Isidore Pacense, ed. Florez, pp 303 - 304 .

(٢) مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٨؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٢٠؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ١١٩؛ La Cron. del Moro Rasis, ed Gayangos, p 85, Cron General de Espana, ed. Catalan y Andres, 2p 167 .

(٣) تناولت كثير من المصادر والمراجع أسباب نقمة البربر على العرب ووقائع الحرب بينهم، وعلى سبيل المثال أنظر : الرقيق القيروانى، تاريخ إفريقية والمغرب، تونس ١٩٦٨م، ص ٦٩ - ٧١، ٩٩ - ١٠٠، ١٠٧ وما بعدها؛ أخبار مجموعة، ص ٢٨ - ٣٧؛ دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ١ ص ١٤٨ - ١٥٣؛ Cron. Isidore Pacense, ed. Florez, pp 303 - 304, Historia Arabum, ed Sanchez, pp 28 - 29

وهكذا أحسن بربر الأندلس توقيت ثورتهم بنفس المستوى الذى أحسنوا فيه اختيار مسرحها فى المناطق الشمالية من البلاد، حيث مناطق استقرارهم الرئيسية وأعدادهم فيها تفوق أعداد العرب بكثير، وهو ما هيأ لهم جموعاً غفيرة قادرة على مواجهة العرب وتحديهم .

وإذا كنا نملك من تفاصيل هذه الثورة ما يتعلق بأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أن غموضاً يحيط بنواحيها التنظيمية على وجه الخصوص . فليس لدينا ما يشير بوضوح إلى شخصية قائدها أو انتماءاته المذهبية أو الفكرية، وهل كان متأثرا بفكر الخوارج مثل قواد ثورة بربر المغرب، أم أن دوافعه تحكمت فيها ظروف محلية بحتة ؟ فلدينا أسماء غامضة لقائد مثل ابن هدين أو ابن مدين [١] أو زقطرنق[٢] ، وإشارة أخرى إلى رجل زناتي - لم يرد له اسم - يقود الثورة فى مدينة شذونة [٣] . وعلى ذلك فربما تولى أمر هذه الثورة عدة قيادات فى آن واحد نسقت مواقفها ضمن هدف واحد، هو القضاء على السيادة العربية بالأندلس؛ ثم معاونة إخوانهم بربر المغرب على فل العرب المحصورين وقتذاك فى مدينة سبتة - وكانوا نحوا من عشرة آلاف عربى على رأسهم بلج بن بشر - بهدف استصفاء المغرب أيضاً من العرب كلية .

وعلى كل فقد بدأت طلائع ثورة بربر الأندلس فى الأقاليم الشمالية من الأندلس، أى إقليمى أشتوريس وجليقية، وانقض بربرهما على العرب المقيمين بينهم وأعملوا فيهم القتل الذريع حتى « أخرجوهم من جليقية وقتلوهم، وأخرجوا عرب أستورقة والمدائن التى خلف الدروب » [٤] فى أشتوريس، وطاردوا فلولهم دون أن يرفعوا السيف عنهم حتى أخرجوهم كلية من هذين الإقليمين، وألجأوهم إلى وسط الأندلس . وبذلك خلت جليقية وأشتوريس من العرب رغم ما كانوا قد بذلوه من جهد فى فتحهما، فكان ذلك آخر عهدهم بتلك الناحية بحيث لم يعودوا إلى الاستقرار فيهما أبداً.

كانت وقائع هذه الحرب سريعة ولكنها كانت خطيرة إذ شملت كل الأطراف الشمالية من الأندلس، التى كانت تشكل خطاً دفاعياً متقدماً لها فى مواجهة مسيحيى أشتوريس، وزادت خطورة الموقف حينما عجزت قوات عبد الملك عن التصدى

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٣٩ .

(٢) مجهول، فتح الأندلس، ص ٣١ .

(٣) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣١ .

(٤) أخبار مجموعة، ص ٣٨ .

للبربر، الذين انفسح الطريق أمامهم للزحف فى أعداد غفيرة من جليقية وأستورقة Astorga وقورية Coria ومـاردة Mérida وطلبيرة Talavera وغيرها من مدن شمالى الأندلس، بعدما انتظمت فى جيوش ثلاثة هدفها الهجوم على المراكز العربية الرئيسية وفق خطة مرسومة. الجيش الأول مستهدفاً مدينة طليطلة والثانى مدينة قرطبة العاصمة، والثالث مدينة الجزيرة الخضراء المواجهة لسبتة بالمغرب للتنسيق مع بربر المغرب فى انقضاء على العرب المحصورين فى سبتة، لإحكام الحصار عليهم ومنع أى مساعدات عربية لهم للقضاء عليهم جوعى؛ وبذلك يتم الإجهاز على العرب فى كل من المغرب والأندلس وإنهاء سيطرتهم فيهما لاستصفائهما لأنفسهم وحدهم .

وفى الواقع فلم يكن هؤلاء العرب المحصورون فى سبتة فى حاجة إلى كل هذه الاستعدادات، إذ كانوا يمرون بأيام عصيبة كادت تعصف بهم حيث أضر بهم الحصار ضررا بالغا، لأن البربر عمدوا إلى نسف مزارع سبتة وتخريبها حتى أقفرت الأرض حول المدينة مسيرة يومين وقطعوا بذلك المعاش على العرب، فجاعوا حتى أكلوا الدواب فالجلود فالأعشاب وأشرفوا بعد ذلك على الهلاك . وأثناء ذلك لم تنقطع توسلاتهم لدى عبد الملك والى الأندلس كى يسمح لهم بالعبور واللجوء إليه بالأندلس، لكنه كان يصم آذانه عن هذه التوسلات، لحقده الدفين عليهم وعلى الشاميين بعامة منذ أن استحلوا دماء أهل المدينة فى موقعة الحرة عام ٦٣هـ/ ٦٨٣م(١) . فضلاً عن شكوكه فى نواياهم إذا ما أدخلهم الأندلس وتخوفه من أن يكونوا أشد بلاء وشرا عليه وعلى سلطانه من غيرهم .

لكن فى وقت كاد اليأس يسيطر على نفوس هؤلاءالمحصورين ويلغى أى أمل لهم فى الحياة، إذا بالطريق إلى الأندلس تصبح فجأة ممهدة أمامهم؛ وتأتيهم دون توقع منهم أنباء الاستجابة لتوسلاتهم بموافقة عبد الملك على عبورهم إلى الأندلس . ذلك أن عبد الملك لما علم بالهزائم المتلاحقة التى نزلت بجيوشه أمام البربر واستفحال خطرهم بازدياد ضغطهم على قرطبة مع اقترابهم منها واحتشادهم حولها، لم يجد بدا من التقوى مؤقتا بهؤلاء الشاميين لمواجهة البربر . فالدعوة إذن لم تأتيهم من أجل الاستقرار فى الأندلس والتعايش مع عربها، وإنما كانت دعوة للحرب فقط ومشروطة بمغادرة البلاد فور القضاء على البربر . ولم يتخل عبد الملك عن حذره نحوهم فعقد معهم اتفاقا مكتوبا فرض فيه على كل فرقة منهم تسليم عشر رجال

---

(١) عن أسبابها ووقائعها أنظر : ابن قتيبة، الإمامة، ١ ص ٢٠٥ وما بعدها، ٢ ص ٨ ـ ٩؛ اليعقوبى، تاريخ، النجف ١٣٥٨هـ، ٢ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤؛ المسعودى، التنبيه والإشراف، بيروت ١٩٦٥م، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة ١٩٤٤م، ٤ ص ٣٧٨ ـ ٣٩١ .

منها كرهائن يحتفظ بها حتى يضمن تنفيذ هذه الشروط . واضطر الشاميون إلى الخضوع على مضض وقبول هذه الشروط القاسية المجحفة [١] ، لأن بغيتهم الوحيدة كانت تخليص أنفسهم من مأزق الحصار المميت وليكن بعده ما يكون .

وما أن وافق الشاميون على ما اشترطه عبد الملك حتى كانت سفنه جاهزة لتحملهم إلى مدينة الجزيرة الخضراء، فدخلوها عراة لا يواريهم إلا دروعهم وقد بلغ بهم الإجهاد والإعياء والجوع المدى، بحيث أنه ما أن وقف عرب الأندلس على سوء حالهم هذا، حتى أخذتهم الشفقة عليهم فتسابقوا فى كسوتهم وإطعامهم إلى أن شبعوا واستراحوا [٢] ، وآنذاك كان عليهم أن يبدأوا مهمتهم فى معاونة عرب الأندلس على البربر .

وبذلك تعزز الموقف العربى بتوحد عرب الشام والأندلس تحت قيادة واحدة ضد خطر البربر . وكانت الجولة الأولى التى فرضت عليهم فى مدينة شذونة ضد الجيش الثالث، لوقف زحفه ومنع وصوله إلى الجزيرة الخضراء وبالتالى الحيلولة دون اتصاله ببربر المغرب؛ وعند المدينة المذكورة دارت معركة تجلت فيها روح التعاون والتنسيق بين صفوف العرب، كما تجلت فيها الخبرة العسكرية التى اكتسبها عرب الشام من تجربة سبتة فحولتهم إلى نخبة من المقاتلين الأشداء؛ بحيث أنزلوا بالبربر هزيمة ساحقة أبادوا فيها جمعهم بصورة أفقدتهم الأمل فى أى نجاح لخطتهم . ثم تحرك الجيش العربى صوب الجيش البربرى الثانى القاصد مدينة قرطبة، حيث أنزل به ضربة جديدة مريرة تخلصت بها مدينة قرطبة من خطرهم . وبعدها تابع العرب سيرهم نحو الشمال فى اتجاه طليطلة حيث التقوا بالجيش الثالث قريباً منها فى وادى سليط؛ فانقضوا عليه واستباحوا دماءه ومزقوا صفوفه وأبادوا كثرته، بحيث لم ينج إلا الشريد . وبذلك أطفأ العرب نقمتهم من البربر وسحقوا ثورتهم [٣] خلال ذات عام ١٢٣هـ/ ٧٤١م .

وعلى هذا النحو مرت الأزمة الصعبة بفضل ما قدمه الشاميون من معاونة لعرب الأندلس، وتم سحق ثورة بربر الأندلس قبل أن تأخذ حجم جارتها فى المغرب؛ لكن بعدما تأصلت فى نفوس البربر من الكراهية للعرب ما بدد أى أمل فى إمكانية الامتزاج بينهما؛ إلى درجة أن بعضهم لم يجد أدنى غضاضة فى الارتداد عن

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٣٧ - ٣٩؛ ابن عذارى، البيان، ١ ص ٥٦، ٢ ص ٣٠؛ المقرى، نفح، ٤ ص ١٩؛ ابن القوطية، تاريخ ص ٤١ - ٤٢؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٣١ .

(٢) أخبار مجموعة، ص ٣٨ - ٣٩؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣١؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٣١ .

(٣) قارن عن هذه المواقع : أخبار مجموعة، ص ٣٩ - ٤٠؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٣١؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٣١ - ٣٢؛ مؤنس، ثورات البربر فى إفريقية والأندلس، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، ١٩٤٨م، ١/١٠ ص ١٩٣ وما بعدها؛ إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ١١٩ - ١٢٠ .

الإسلام واللحاق بمسيحيى أشتوريس ومعاونتهم ضد المسلمين على ما سنرى . ومن ناحية أخرى فلما كانت هذه الحرب شبه إبادة لبربر إقليمى جليقية وأشتوريس وكافة الأطراف الشمالية من الأندلس؛ فقد أخذوا يخفون عن العيون فى تلك النواحى لقلة أعدادهم؛ ومن بقى منهم تقوقعوا فى مزارعهم يلوذون بالصمت وفوق رءوسهم سيوف العرب مسلطة لا تنفك تهددهم وتلاحق تحركاتهم . وإذا بشبح المجاعة بعد بضع سنين يطل برأسه بينهم فيضطرهم إلى إخلاء مواقع استقرارهم هناك ويتواكبون فى جماعات متلاحقة قافلين إلى المغرب؛ وخلت بذلك جليقية وأشتوريس من أى تمثيل منهم بعدما كانوا يشكلون ما يشبه الحاجز البشرى بين الأندلس جنوبا وإسبانيا المسيحية شمالا؛ وكان لذلك صدى قوى فى إضعاف الجبهة الإسلامية أمام مملكة أشتوريس، وأفسح لها المسلمون المجال لكى تخرج من معاقلها الجبلية، وتتحرك فى شىء من الأمان دونما خوف على نفسها من المسلمين .

ومن جهة ثالثة، فليت هموم الأندلس انتهت عند هذا الحد بغياب البربر عن الساحة السياسية ولعبة التنافس على السلطة، فقد أصابت تلك الحرب عرب الأندلس ذاتهم فى مقتل؛ لأن الكرة انتقلت إلى أيديهم يعبثون بها أو تعبث بهم حتى الاستنزاف، وانفتحت عليهم واجهة جديدة لصراع أشد وأعنف بين بعضهم البعض، بعد ما ثبت أن هواجس عبد الملك بن قطن لم تكن مجرد خواطر سوداء فى غير مكانها؛ حينما ظن الظنون ببلج وجماعته الشامية، ورفض إدخالهم الأندلس إلا بعدما تحرج موقفه وسد عليه المأزق كل المنافذ . وحدث ما توقعه عبد الملك فلا الشروط المكتوبة ولا الرهائن المقبوضة غيرت ما فى نفوس الشاميين، الذين استطاب لهم البقاء فى البلاد، وفعلت الحساسيات فعلها لدى الفريقين حيث الكراهية متبادلة والحقد متوارث محموم، فاندلعت بينهم حروب افترقوا فيها شيعا وأحزابا متنافرة، كما تبادلوا فيها المذابح الدموية على مدى ما يقرب من ست عشرة سنة تالية . وكانت المحصلة أن أضعفوا أنفسهم أمام أعدائهم فى مملكة أشتوريس، وأحلوا الدمار والخراب محل العمران فى كثير من النواحى .

ذلك أنه ما أن وضعت الحرب مع البربر أوزارها حتى انتهت مهمة الشاميين من وجهة نظر عبد الملك، وبدأ يطالبهم بمبارحة البلاد حسبما اشترط عليهم، وأيدته فى الضغط عليهم الزعامات العربية المحلية التى لم تكن تطمئن أيضاً إليهم وإنما اعتبرتهم أعداء دخلاء يزاحمونها فيما هو بأيديها من أراضى ويقاسمونها الأرزاق؛ فطالبتهم هى الأخرى بالخروج من البلاد قائلة لهم : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا[١] . لكن الشاميين ماطلوا عبد الملك بأن سألوه أن يهيىء لهم الرحيل من ساحل إلبيرة أو

---

(١) ابن القوطية، تاريخ، ص ٤٣ .

تدمير فى سفن تنقلهم إلى تونس مباشرة وليس إلى سبتة، فاعتذر عن ذلك بوجود السفن فى الجزيرة الخضراء لكى تنقلهم إلى سبتة، فقالوا له : تعرضنا لبربر طنجة، اقذف بنا فى لجة البحر أهون علينا [١] . ولما تيقنوا مما يريده بهم حسموا الموقف بضربة سريعة أفصحوا بها عن نيتهم فى البقاء وفى مطامعهم فى السلطة ذاتها، بأن انقضوا عليه فجأة واعتقلوه فى داره ورفعوا مكانه زعيمهم بلجا واليا على الأندلس[٢].

وفى أعقاب ذلك، تفجر الموقف فى قرطبة بما حدث للرهائن الشاميين الموجودين فى جزيرة أم حكيم، إذ أمسك والى الجزيرة عن إمداد الرهائن بالطعام والشراب مما أودى بحياة أحدهم، فهاج الشاميون لوفاته جوعا؛ وألقوا على عبد الملك مسئولية ما حدث، وأطاحت حالة الغضب بعقولهم وطالبوا بلجا أن يسلمهم عبد الملك ليقتلوه مقابل رهينتهم المتوفاة . وحاول بلج تهدئة غضبهم الجامح، لأنه يدرك أن الشاميين محاطون بحصار من العداء والكراهية، وأن أى تصرف انفعالى سيختصر المسافة إلى الحرب مع العرب البلديين وهو لم يثبت أقدامه بعد فى الحكم . غير أن الهوة كانت عميقة بين موضوعية بلج وبين جماعته الهائجة بلوثة العصبية، فضاعت محاولاته هباء وانتصر رأى جماعته، وهجموا على عبد الملك فى داره وقتلوه [٣] فى ذى القعدة ١٢٣ هـ/ سبتمبر ٧٤١م، حيث كان الانتقام وحشيا دون اعتبار لشيخوخته أو لانتمائه العربى حيث صلبوه على رأس قنطرة قرطبة . وبذلك تورط بلج فى جريمة غلب فيها على أمره، ولكن كان عليه تسديد حساب ذلك التصرف الذى ارتكبته جماعته دون تقدير لنتائجه .

وكما توقع بلج فقد كان لهذه الحادثة صداها المؤلم فى نفوس عرب الأندلس البلديين، وأثارت بينهم موجة من الغضب وأضافت عنصرا جديدا من عناصر الخصومة بينهم وبين العرب الشاميين . وسرعان ما اندلعت بينهما صراعات عنيفة اختلط خلالها أمر الناس [٤] . ومن غريب الأمور أن انضم البربر فى هذه الحرب إلى البلديين؛ رغم أن دماءهم كانت - بتعبير الرواية الإسلامية - [٥] لا تزال تقطر من

---

(١) راجع : أخبار مجموعة، ص ٤٠ - ٤٢؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٣٢؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٥١.

(٢) الحميدى، جذوة، ص ١٧٠؛ الضبى، بغية، ص ١٢ - ١٣، ٢٣٣ .

(٣) ابن عذارى، ١ ص ٥٦، ٢ ص ٣١ - ٣٢؛ المقرى، نفح، ٤ ص ٢٠؛ إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ١٢٢ - ١٢٣؛ Cron Isidore Pacense, ed. Florez, p 316, Historia Arabum, ed Sanchez, p 30

(٤) أخبار مجموعة، ص ٤١ .

(٥) أعلاه، ص ٤٢ - ٤٣ .

سيوفهم، والسبب فى ذلك أنهم أرادوا أن ينالوا ثأرهم من الشاميين أولا، حتى إذا فرغوا منهم يكون لهم مع البلديين شأن . مما يدل على أن الأهواء والمطامع الذاتية البحتة هى التى تنازعت أهل الأندلس وقتذاك دون نظر إلى المصلحة العامة .

وقد خابت ظنون البربر وتبددت آمال البلديين، إذ عندما نشبت الحرب بينهم وبين الشاميين قرب مدينة قرطبة فى شوال ١٢٤هـ/ أغسطس ٧٤٢ م، انجلت عن هزيمة ساحقة للجماعتين المتحالفتين مخلفين وراءهما أشلاء آلاف القتلى؛ فى حين لم تتجاوز خسارة الشاميين ألف قتيل، فضلا عن قائدهم بلج الذى لم يلبث أن توفى بعد المعركة بقليل متأثرا بجراحه [١] ، فاختاروا مكانه ثعلبة بن سلامة خلفا له على ولاية الأندلس [٢] .

لم تكن هزيمة البلديين والبربر بكافية لكى يلقوا سلاحهم، وإنما واصلوا شهره ضد ثعلبة بن سلامة فثارت الفتنة وتجدد الصراع، حتى قيل إنه كانت بينهم وبينه اثنان وسبعون زحفا؛ كانت تنجلى كل منها عن ألف قتيل أو ألفين وأقل وأكثر [٣] . أى أنها كانت حرب إبادة لكل من الفريقين، وكان أخطرها تلك الحرب التى حصر فيها البلديون ثعلبة وجماعته الشامية فى مدينة ماردة حصارا شديدا كاد يقضى عليه، لولا أنه تمكن منهم على غرة أفقدهم بها مبادرة التحرك، فأفشى فيهم القتل والسبى فى مذبحة رهيبة [٤] ؛ تجلت فيها هذه المرة قساوة الشاميين بحيث لم يتورعوا عن استرقاق أسرى البلديين بمن فيهم الأطفال والنساء، كسابقة لم تحدث من قبل فى صفوف العرب المسلمين؛ إذ أقبلوا بهؤلاء الأسرى على قرطبة وقد اشتبك فى الحبال الولد بالوالد، وعقدوا سوقا لبيعهم فيه لمن ينقص فى أثمانهم وليس لمن يزيد، وذلك إمعانا فى إذلالهم وسحق كبريائهم، حتى أنهم باعوا أحد شيوخ العرب البلديين بكلب[٥] .

استمر الموقف المأساوى فى مدينة قرطبة، فالشاميون أسكرتهم لعبة الدم وأتخمتهم الأسلاب حتى فقدوا القدرة على التصرف الحكيم، واهتزت قرطبة تحت

---

(١) ابن القوطية، تاريخ، ص ٤٢ - ٤٣؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٢١، ٤ ص ٢٠ - ٢١؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٢؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٠٢؛ أخبار مجموعة ٤٣ - ٤٤؛ Codera, op cit, 8 p 125, Lévi - Provencal, Histoire, 1 p 441 - 47 .

(٢) عنه أنظر : الحميدى، جذوة، ص ١٧٤؛ الضبى، بغية، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٣) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٠٢ .

(٤) مجهول، فتح الأندلس، ص ٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٥٤ .

(٥) المقرى، نفح، ٤ ص ٢١؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٢ - ٣٤؛ أخبار مجموعة، ص ٤٤ - ٤٥ .

أقدامهم تعانى الفوضى والاضطراب وتفرق الأهواء وانتشار الإرهاب . وفى غمار ذلك كان لابد من البحث عن مخرج ما يزيح شبح المحنة الأسود؛ مما دفع بعض العقلاء إلى مكاتبة والى المغرب يعلمونه ما هم فيه من بلاء، ويناشدونه إنقاذهم من المحنة الدموية قائلين : أغثنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة، فقد أفنانا القتل (١) .

بادر والى المغرب حينما وقف على حقيقة الأوضاع بتعيين شخصية يمنية هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى (٢) ، الذى ما لبث أن وصل قرطبة فى رجب من عام ١٢٥ هـ/ مايو ٧٤٣م؛ وكان وصوله مفاجأة لم يتوقعها الكثيرون ممن كانوا مستفيدين من الفوضى ويتطلعون من خلالها إلى السلطة . غير أنه لم يصادف متاعب تذكر فى الاستيلاء على الحكم بعد أن غلب الرأى المائل إلى السلام وإنهاء المحنة؛ فالشاميون خضعوا للأمر الواقع ولم يجدوا مانعا من الاعتراف به لاعتبارات سياسية وقبلية فهو شامى مثلهم، أما زعماؤهم فاقتنعوا أخيرا بأن الطريق إلى الحكم ليس مفروشاً بالورود، وآن لهم أن يفسحوا المجال لغيرهم بعدما فشلوا فى تحقيق الاستقرار أو تجميد الصراع الدموى العنيف . فى حين كان البلديون على استعداد لأن يذعنوا بدورهم لأى حاكم يرفع عنهم كابوس الشاميين المتطفلين كمطلب أساسى ومبدئى لهم، ومن هذا المنطلق رضوا هم الآخرون بهذا الوالى الجديد .

وعلى ذلك كانت بداية أبى الخطار مبشرة بالخير حيث أذعن الجميع واعترفوا به، لا سيما حين أعلن العفو العام عن كل أسرى الحرب من البلديين - الذين كان ثعلبة قد أوقفهم يدوى قتلهم بعدما باع منهم من باع - فأنقذهم قرار أبى الخطار (٣) ؛ وكانت خطوة ابتهج لها عرب الأندلس لا تقل عن بهجتهم بقرار آخر قضى بإبعاد زعماء الفتنة من الشاميين عن الأندلس (٤) . إلا أن البلديين ركبوا رأسهم واشتطوا فى مطالبهم ولم يرضوا بديلا عن إخراج بقية الشاميين من مدينة قرطبة جملة،

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٤٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٤؛ ابن الآبار، الحلة، ١ ص ٦١ .

(٢) عنه أنظر : الضبى، بغية، ص ٢٦١ - ٢٦٣ .

(٣) مجهول، فتح الأندلس، ٣٦؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٢٢؛ الرقيق القيروانى، تاريخ، ص ١١٥؛ ابن عذارى، البيان ٢ ص ٣٣؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٢٦٠؛ الضبى، بغية، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٤) ابن القوطية، تاريخ، ص ٤٥، حيث وجه إليهم اتهاما قائلا لهم : لقد ثبت عند أمير المؤمنين وعند عامله أن فساد الأندلس بكم .

وضغطوا على أبى الخطار وقالوا له : سمعنا وأطعنا ... لكن لا محمل فينا لهؤلاء الشاميين فيخرجوا عنا (١) . واضطر أبو الخطار تحت إلحاحهم إلى إبعاد بقية الشاميين عن قرطبة وتفريقهم على مدن أخرى (٢) . وحينذاك فقط استكان البلديون إلى الهدوء، ولاحت فى الأفق بوادر الاستقرار المفقود (٣) ، مما يدل مرة أخرى على سيطرة المصالح الذاتية وتمكنها فى النفوس وقتذاك .

إلا أن هذا الاستقرار لم يكن من أسف سوى مجرد محطة عابرة قصيرة بقيت ما بقى الحاكم اليمنى متحررا من عقدة العصبية، حتى إذا طغت الأهواء على العقل انتسفت كل الجهود الإيجابية وضاعت معها الإصلاحات هباء، وكأن الأندلس وهى بؤرة العصبيات فى ذلك الحين تلوث كل وافد إليها، وتستدرجه إلى ركوب الموجة مهما بلغ منه التجرد والاعتدال .

ذلك أن أبا الخطار - الذى جاء إلى البلاد لينقذها من مهاوى الصراعات - لم يلبث أن خلع ثوب الاعتدال الذى استفتح به عهده ليأخذ موقفا بين الأطراف، فأشعل بنفسه نيران صراع جديد أشد وأقسى، لم يقتصر على الشاميين والبلديين وإنما تعداه إلى مجال أوسع أى بين العصبيتين القيسية واليمنية بعامة . وقصة ذلك تبدأ حينما قتل أحد القيسيين رجلاً من أصحابه اليمنية فغلت مراجل الحقد فى رأسه إلى درجة أفقدته السيطرة على أعصابه (٤) ؛ حتى كانت حادثة أخرى حينما اختلف إليه رجلان متخاصمان أحدهما قيسى والآخر يمنى ليحكم بينهما، فإذا بعواطفه تنحاز لمصلحة الأخير (٥) ؛ ولم يجد القيسى غير زعيم حزبه يلجأ إليه شاكيا، فذهب إلى الصميل بن حاتم (٦) أبرز شيوخ القيسية بعد بلج بن بشر .

ولما جاء الصميل لمقابلة أبى الخطار فى قصره لم يكن اللقاء وديا حيث كان

---

(١) نفسه، ص ٤٤ ، مجهول، فتح الأندلس ص ٣٥ .

(٢) قارن ابن القوطية، نفسه، ص ٤٥ ؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٣٣ ؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧ ؛ ابن الأبار، نفسه، ١ ص ٦٣ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١ ص ١٠٨ الذى يشير إلى أن زعيم أهل الذمة بقرطبة هو الذى أشار على أبى الخطار بهذا الحل .

(٣) الرقيق القيروانى، نفسه، ص ١١٥ ؛ ابن الأبار، الحلة، ١ ص ٦١ ، المقرى؛ نفح، ١ ص ٢٢١ .
Cron Isidore Pacense, ed Florez, p 317 .

(٤) ورد رثاء أبى الخطار فى صديقه المقتول ابن جواس عند : الضبى، بغية، ص ٢٧٦ ؛ وانظر أيضاً : إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ١٢٨ .

(٥) مجهول، فتح الأندلس، ص ٣٧ .

(٦) عنه أنظر : ابن الأبار، التكملة، ١ ص ٦٧ - ٦٨ ؛ Casiri, op cit, 2 p 32 .

الوالى جافيا إلى أبعد الحدود، وتطور الحوار بين الرجلين إلى الملاسنة، وقام أبو الخطار بشتم الشيخ القيسى وطرده وقيل لكزه، فخرج من مجلس الوالى كاتما غيظه وفى رأسه صورة واحدة هى الانتقام والحرب، يدل على ذلك أنه حين خروجه من القصر وعمامته قد حلت أو مالت، نبهه أحد الحراس إلى ذلك قائلاً : « أصلح عمامتك أبا الجوشن » رد عليه بقوله : « إن كان لى قوم فسيقيمونها » [١] ؛ كما أنه حينما اجتمع بقومه لتدبر الأمر أوضح لهم أن صلاح أحوال القيسية فى إبعاد أبى الخطار عن الحكم، قائلاً : « أريد والله إخراج هذا الأعرابى من هذا السلطان » [٢] .

نجح الصميل فى تأليب القيسية على أبى الخطار ويمنيته، واستطاع بذكائه المعهود أن يستميل إليه بعض زعماء اليمنية من المنحرفين على أبى الخطار مثل ثوابة بن سلامة الجذامي [٣] ، الذى وعده الصميل بالولاية إذا ما نصره على أبى الخطار [٤]؛ وهنا أيضاً تسقط مزاعم الروابط القبلية وصلات الدم تحت تأثير المصالح الموحدة للقيادات المتناقضة . وهكذا انقسمت الأندلس على نفسها من جديد بين قيسية ويمنية، ووقعت بينهما حروب ضارية عند شذونة انهزمت فيها اليمنية شر هزيمة، ووقع أبو الخطار نفسه فى أسر القيسية؛ وأوفى الصميل لثوابة بوعده فأعانه على اعتلاء الولاية [٥] فى عام ١٢٨هـ/ ٧٤٥م؛ وباعتلائه عزف الحزب اليمنى عن إثارة المتاعب فى وجه السلطة ورضى بحظه منها أن يكون أحد رجاله فى الواجهة . أما القيسية فقد عاشت أبهج أيامها منذ دخولها الأندلس، إذ استحوذت من وراء ستار على شئون الحكم وأمسكت بيدها كل مقدراته ليس فقط فى الأندلس، وإنما أيضا فى المغرب وفى العاصمة دمشق، إذ كان قد تربع عبد الرحمن بن حبيب على ولاية الأولى إثر انقلابه على حنظلة بن صفوان، واستولى مروان الثانى فى ثورة قيسية على الخلافة فى الثانية . لكن الفرحة لم تطل بقيسية الأندلس سوى عام واحد، إذ مات ثوابة فى مطلع عام ١٢٩هـ/ ٧٤٦م، تاركا وراءه أزمة سياسية عنيفة ستجر البلاد إلى كارثة أو فتنة عظمى كما تصفها بعض المصادر الإسلامية [٦] .

---

(١) مجهول، فتح الأندلس، ص ٣٧ .

(٢) المقرى، نفح، ٤ ص ١٢٢؛ ابن الأثير ، الكامل، ٤ ص ٢٩١ .

(٣) عنه أنظر : الضبى، بغية، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن الأثير، نفسه، ٤ ص ٢٩١؛ Historia Arabum, ed Sanchez, p 31 .

(٥) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٣٤ - ٣٥؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٣٧ - ٣٨؛ أخبار مجموعة، ص ٥٦ - ٥٧؛ المقرى، نفح، ٤ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٦) أخبار مجموعة، ص ٥٩ .

فقد عادت قرطبة من جديد إلى غليانها السياسى حينما شغرت الولاية على مدى أربعة أشهر (١) ، تكاثر خلالها المتنافسون والمغامرون من اليمنية على المنصب؛ مثل عمرو بن ثوابة ابن الوالى المتوفى الذى طالب بوراثة أبيه، ويحيى بن حريث الجذامى، وأبو الخطار نفسه بعد ما تمكن من الفكاك من أسره، وادعى أحقيته وحده قائلاً لابن حريث (٢) : أنا الأمير المخلوع فأنا أقوم بالأمر . إلا أن ابن حريث أنكر عليه هذا الحق وادعاه لنفسه قائلا : بل أنا أقوم به لأن قومى أكثر من قومك . وعلى هذا النحو صار الأمر سدى (٣) ؛خاصة وأن المغرب قد استقلت بشئونها عن الخلافة وعن الأندلس، والخلافة نفسها كانت عاجزة عن إعادة الأمور إلى نصابها فى أى من ولاياتها لاضطراب أمورها بتوالى الثورات عليها فى ولاياتها الشرقية، واشتداد أيدى بنى العباس عليها وكانت آنذاك تلفظ أنفاسها الأخيرة، فأصبح أمر الأندلس بأيدى أهلها وحدهم (٤) ، أى أن مشكلتها صارت محلية صرفة .

وربما يسأل سائل أين الصميل ـ وهو الرجل القوى فى قرطبة آنذاك ـ من هذا التسابق على المنصب؟ فالمناسبة تتكرر له للقفز إلى واجهة السلطة دون مشقة أو عناء، لكنه للمرة الثانية يعزف عنه ويبقى فى المكان الذى اختاره لنفسه . ولعله والحال كذلك كان ميالا إلى ممارسة الحكم من وراء ستار بما يتلاءم مع شخصيته المزاجية، فهو مجموعة أمزجة مختلفة فى شخص واحد، تحركه الغرائز ما استطاعت وتتلاعب به الانفعالات ما شاء لها؛ إلا أنه فى النهاية دائم التمرد على القواعد والاجتماعيات وشتى القيود . ولا ندرى إذا كان قد تجاوز بتفكيره هذه المعطيات إلى تقويم أشمل لهذه المسألة، إذ ربما لم ير ما يشجعه على اقتحام واجهة الحكم فى تلك الظروف حيث يحترق المحترقون، فهو القائل لزعماء قومه حين أراد تعيين ثوابة : « نقدم رجلاً يكون له الاسم ولنا الحظ » (٥) . وربما لم يشأ أيضاً أن ينفر منه حلفاءه اليمنية فيفقد مؤازرتهم إذا ما أصبح ـ وهو قيسى ـ الرجل الأول، وفى ذات الوقت كان حريصاً على ألا تخرج الولاية من أيدى حزبه القيسى؛ ولذا كان أنسب الحلول أمامه أن تجتمع القيسية واليمنية على شخصية غيره؛ خاصة وأن عرب الأندلس ـ يمنية

---

(١) ابن عذارى، نفسه، ١ ص ٦٢، ٢ ص ٣٥؛ المقرى، نفسه، ٤ ص ٢٤؛ ابن الأثير، نفسه، ٤ ص ٣٠٨، ٣٦١؛ Codera, op cit, 8 p 127 .

(٢) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٣٦؛ أخبار مجموعة، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٣) ابن الكردبوس، الاكتفاء، ١٣ ص ١٥٥؛ ابن أبى دينار، المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تونس ١٩٦٧م ص ٤٣ .

(٤) مجهول، فتح الأندلس، ص ٤٠ .

(٥) أخبار مجموعة، ص ٥٧ ؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٣٥ .

وقيسية - فوضوه النظر فى وال يوليه هو عليهم (١) ، ومن هنا كان على الصميل أن يبحث مرة أخرى عن مرشح فى نفس حجم الوالى السابق، إن لم يكن أكثر منه ضعفا؛ لتبقى يده هى الآداة الخفية التى تسوس الأمور وتحرك المقادير .

وجد الصميل ضالته فى رجل أبرز سماته ورع ووقار هادىء ينسجم مع سنواته الستين، وأصالة اجتماعية تتمتع بتقدير خاص كونه حفيدا لعقبة بن نافع، وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (٢) . فلما وقع عليه اختيار الصميل وافقت اليمنية والقيسية، فتولى الولاية فى جمادى الأولى من عام ١٢٩هـ/ ٧٤٧م (٣) .

وهكذا ارتقى يوسف الولاية فى قرطبة بفضل الصميل أيضا ليحكم زهاء عشر سنوات، وهى أطول مدة قضاها وال خلال تلك الفترة القلقة؛ عاصر خلالها سقوط الخلافة الأموية بدمشق فى عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، حتى مجىء عبد الرحمن بن معاوية وتأسيسه إمارة بنى أمية المستقلة فى عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م . فولاية يوسف تمثل مرحلة انتقالية من حكم الفوضى المرتبط اسميا بالمركزية الأموية فى دمشق إلى الاستقرار السياسى فى ظل دولة مستقلة أموية الطابع .

بيد أنه كان فى انتظار يوسف الفهرى معارك طويلة لتثبيت تعيينه من الأطراف الأخرى، التى كان لها مرشحوها ولم تستسغ بسهولة هذا التعيين؛ إذ لم يرض أبو الخطار عن هذا الحل ونشط من جديد يؤلب اليمنية ضد القيسية، وأثارهم بقوله : « إن الصميل عمل على تصيير الأمور للمضرية لأن مضر أقرب إلى فهر من يمن » (٤) . وعلى ذلك تحزبت اليمنية لأبى الخطار، خاصة وأن يوسف قد غدر باليمنية ولم يتنازل لها عن الولاية بعد انقضاء عام من ولايته حسبما اتفقوا عليه حينما اختاروه واليا؛ كما غدر بابن حريث الذى اختصر طموحه السياسى من المطالبة بولاية الأندلس كلها إلى مجرد حاكم على مقاطعة رية Reiyo إلى الجنوب من قرطبة؛ لكن يوسف قرر عزله عنها(٥)، فكان لهذا القرار أثره فى تضامن الزعيمين أبى الخطار وابن حريث هذه المرة ليس كمتنافسين على الولاية وإنما لإزاحة الفهرى عنها؛ فثارت الفتنة من جديد بين القيسية واليمنية، واشتعلت بينهما

---

(١) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٦؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٤٠؛ الناصرى، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤م ١ ص ١٠٦ .

(٢) عنه أنظر: ابن الأبار، التكملة، ١ ص ١٥٣؛ Casiri, op cit, 2 p 32 .

(٣) ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٤٧ - ٣٤٨؛ Historia Arabum, ed Sanchez, p 31; Isidore Pacense, ed Florez, pp 318 - 319 .

(٤) ابن الأثير، نفسه، ٤ ص ٣٠٨؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٤٢ .

(٥) كانت اليمنية والقيسية قد تراضت على أن يلى يوسف الفهرى ممثل القيسية ولاية الأندلس لمدة عام، على أن يتنازل عنها لليمنية وعلى أن يترك كورة رية لابن حريث؛ قارن : أخبار مجموعة، ص ٥٧ - ٥٨؛ المقرى، نفح، ١ ص ٢٢٢؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٣٦١ .

الحرب فى ضواحى قرطبة فى رجب من عام ١٣٠هـ/ مارس ٧٤٧م (١) ، فى أجواء مشحونة بالتوتر والحساسية؛ تمكنت فيها القيسية من اليمنية بحيث نكلت بها وأبادت جمعها، وأسرت أبا الخطار ثانية ومعه ابن حريث فقتلا على الفور؛ كما أسرت من أتباعهما بشرا كثيرا قعد لهم الصميل بنفسه يضرب أعناقهم فى وحشية منقطعة النظير، وكأنه لم يرو عطشه من الدماء؛ بحيث أثارت بشاعة تنكيله بهم بعض عقلاء القوم من حلفائه، فتدخلوا مهددين إياه مما اضطره إلى إغماد سيفه ووقف القتل . فنجا من بقى من اليمنية بعد بلاء عظيم، إثر حرب وصفت بأنها أول حرب فى الإسلام بهذه الدعوة قاطعة للأرحام، وفتنة عظيمة يخاف بها - بنص الرواية الإسلامية - بوار الإسلام فى الأندلس إلا أن يحفظه الله (٢) .

وعلى هذا النحو كانت اتجاهات المسلمين فى الأندلس تائهة، منذ أن ولى عبد الملك بن قطن فى عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م، فى حروب ضارية متواصلة طويلة المدى واسعة الميادين شملت كل أقاليم الأندلس؛ فأتت على كل جهود المسلمين فى استئصال شأفة بعضهم البعض، بدءاً بالصراع بين العرب والبربر ومرورا بالنزاع بين الشاميين والبلديين العرب وانتهاء بالصراع القيسى اليمنى؛ فأبادوا من أنفسهم أعدادا غفيرة قلت معها أعدادهم، وأضعفتهم جميعا ضعفا صرفهم حتى عن النظر فى شئون حياتهم أو مجتمعهم؛ بحيث أهملوا عمارة البلاد وزراعة أراضيها، فخربت كثير من مزارعها وقلت محاصيلها وأقفرت الأرض وقحطت قحطا شديدا أدى إلى مجاعة طاحنة، توالت فيما بين عام ١٣١هـ/ ٧٤٨م حتى بدايات عام ١٣٦هـ/ ٧٥٣م؛ فأودت هى الأخرى بأعداد غفيرة من المسلمين حيث مات البعض وهاجر البعض الآخر إلى المغرب، حتى خف سكان الأندلس وكاد الخلق - كما تشير الرواية الإسلامية - أن ينقرض . كما عظمت البلوى خلال تلك السنين العجاف فانعدم الأمن وتقطعت الصلات بين الأقاليم، ولم يعد فى الناس منهض أو قوة للخروج إلى جهاد أو غزو، بحيث لم يعودوا يتوقعون الأخطار إلا من بين صفوفهم وحدهم؛ فأهملوا مراقبة حدودهم أو الشعور بالخطر الخارجى المتوثب بهم من جانب كل من الفرنجة ونصارى أشتوريس، الذين كادوا يغلبون آنذاك على المسلمين لولا أن الجوع شملهم هم الآخرون (٣) .

---

(١) Cron. del Moro Rasis, ed. Gayangos, p 91 .

(٢) قارن : المصدر أعلاه نفس المكان والصفحة؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٦ - ٣٧؛ المقرى، نفح، ٤ ص ٢٥؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ٤٥؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٤٢ - ٤٣؛ أخبار مجموعة، ص ٥٨ - ٦١ .

(٣) قارن فى ذلك كله : أخبار مجموعة، ص ٦١ - ٦٢، ٧٨؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٤٣ - ٤٤؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٧ - ٣٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٣٦١؛ ابن الشباط، وصف الأندلس، ص ١٠٨؛ Cron. Isidore Pacense, ed. Florez, p 321; a Cron. del MoroRasis, ed. Gayangos, p 91 .

ورغم هذا كله، فلم يعمل المسلمون على جمع شملهم أو وقف حروبهم وتناحرهم، ليتفادوا خطر تلك المجاعة أو ذاك العدو المتربص بهم فى أشتوريس وحتى فى غالة؛ ولكنهم ظلوا فى هرج ومرج كأن مجال العمل كان لهم وحدهم أو كأنهم كانوا يحيون حياة منعزلة عن غيرهم فى هذا البلد، فنشط الثائرون على يوسف والصميل فى مدن أربونة وباجة وإشبيلية وغيرها (١) . وإن كان أخطر هذه الثورات ثورة عامر بن عمرو فى مدينة قرطبة ذاتها، والحباب بن رواحة فى مدينة سرقسطة فى عام ١٣٦هـ/ ٧٥٣م، التى كانت تهدف إلى الدعوة لبنى العباس وإلحاق الأندلس بخلافتهم فى الشرق؛ انتقاما من يوسف والصميل لما صنعا باليمنية والبربر وغيرهم وما سفكا من دمائهم . وتضافر الثائران سويا وحاصرا الصميل فى سرقسطة حصارا يئس معه فى الحياة أو حتى النجاة، لولا أن أنجدته قوة قيسية فكت حصاره وأخرجته من المدينة، فدخلها عامر والحباب وملكاها؛ إلا أن يوسف تمكن من استخلاصها منهما وقتلهما فى أواخر عام ١٣٧هـ/ ٧٥٤م (٢) . وكاد بذلك يستقر سلطان يوسف لولا أن ظهرت شخصية أخرى أقوى منه ومن الصميل، جاءت من خارج البلاد ودخلتها وقتذاك، وما كانت ترضى عن سلطان يوسف بديلا؛ تلكم هى شخصية عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل أو بصقر قريش (٣) ، الذى حالفه الحظ فانتصر على يوسف ودخل مدينة قرطبة؛ وبويع فيها أميرا على الأندلس فى ذى الحجة من عام ١٣٨هـ/ مايو ٧٥٦م، لتطل على الأندلس إشراقة أمل جديدة تمدها بحياة هادئة، وتغذى شرايينها بدم جديد؛ سيعطى للأندلس شخصيتها السياسية والحضارية وبريقها العالمى فى عالم العصور الوسطى .

وعلى ذلك كانت حياة المسلمين فى الأندلس وقتذاك نوعا من الكوارث غير المتوقعة، انشغلوا فيها عن النظر فى تنظيم حياتهم داخل الأندلس، وعن مراقبة حدودهم، وعن الشعور بالخطر المتمثل وقتذاك فى مملكة أشتوريس؛ التى ولدت بين صخور جبال قمم أوربا الوعرة، دون أن تطمئن منذ ولادتها إلى تواجد المسلمين على حدودها فى الغرب والشرق والجنوب، لأنهم كانوا بذلك يوقفون من نموها وامتدادها خارج تلك المنطقة الجبلية الوعرة القاحلة، ويشكلون عليها خطورة بالغة بإمكانهم التضييق عليها وتهديدها فيما لو كانت ظروفهم غير ذلك .

---

(١) المقرى، نفح، ٤ ص ٢٥؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٣٠٨ .

(٢) بتفصيل أنظر : أخبار مجموعة، ٦٣ ـ ٦٤؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٤٦ ـ ٤٩؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥، ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٣؛ Codera, op cit, 8 pp 128 - 132

(٣) عنه أنظر : الضبى، بغية، ص ١٥؛ ابن الفرضى، تاريخ، ص ٤؛ الحميدى، جذوة، ص ٩ ـ ١٠؛ ابن الأبار، الحلة، ١ ص ٣٥ .

ولذلك كان اقتناع الفونسو بتلك المنطقة الجبلية الوعرة اقتناعا موقوتا، طالما وفرت لمملكته فى تلك الأيام الأولى من نشأتها حصونا طبيعية لحمايتها، ومكنت أقدامها وقوت جبهتها الداخلية، وهيأت لها الفرصة لإثبات وجودها بالأمر الواقع والمحاولات الكافية؛ لإرغام المسلمين على قبولها كوحدة سياسية مستقلة محروسة بالقوة اللآزمة لحفظ بقائها؛ وهى حقيقة غابت عن المسلمين وهم فى بحر خصوماتهم ومنازعاتهم الداخلية . فلما تم لألفونسو تحقيق ذلك وأعلن عن قيام مملكته، أخذ يتربص بالمسلمين الدوائر لتحطيم كيانهم كلية، والقضاء على عوامل وجودهم ومحو آثارهم على الأقل فى النواحى المجاورة لمملكته . ومن ثم عمل على استغلال كافة مواطن الضعف عند المسلمين لتحقيق هذا الهدف .

وفى الواقع، فلم يكن يخدم الفونسو ويحقق أهدافه هذه أعظم من أن ينصرف المسلمون عنه بمنازعاتهم فيما بينهم على النحو الذى أوضحناه، فتناسوا أمره وابتعدوا عن مراقبته وكفوه جهد الحرب والصدام معهم؛ فهيأوا له ولمملكته وجودا قويا، ثم ساهموا فى عونه والأخذ بيده؛ حينما اضطر العرب تحت ضغط شركائهم البربر إلى إخلاء مساحات واسعة من الأرض فى إقليمى جليقية وأشتوريس فى عام ١٢٣هـ/ ٧٤٠م (١) - بعدما كانوا قد فتحوها بجهد أبطالهم ومجاهديهم - بحيث لم يبق فيها من المسلمين إلا البربر هم وسكانها الأصليون؛ مما نفس من خناق المسلمين على مملكة أشتوريس من تلك الناحية الغربية . ولما كانت تلك الناحية متنفسا حيويا لأشتوريس، فقد عمل الفونسو وقتذاك على اغتنام الفرصة فى محاولة للقضاء على بقايا الوجود الإسلامى فيها؛ لا سيما وأن البربر بدورهم قد انشغلوا فى محاربة العرب فى وسط وجنوب الأندلس .

ولما لم يكن بمقدور الفونسو آنئذ أن يدخل فى حرب مباشرة مع مسلمى الأندلس، فقد رأى أن صالحه فى استمرارحروبهم - عربا وبربر- فيما بين بعضهم البعض فى وسط وجنوب الأندلس؛ دون أن يلفت انتباههم نحوه حتى لا يوقفوا حروبهم ويوجهوا جيوشهم ضده فى حرب لا يضمن عواقبها . وفى ذات الوقت ما كان بوسعه مع قلة موارد دولته أن يتكلف كثيرا فى إعداد جيوش يهاجم بها مسلمى جليقية وأشتوريس؛ ولذا عمد إلى أن يتحرش بهم ويناوشهم ثم يجرهم إلى حرب مفتعلة داخل أراضى دولته، التى توفر طبيعتها التضريسية تحصينات طبيعية تمكنه من تكبيد عدوه خسائر هائلة . وقد انخدع المسلمون بذلك الشرك فكانوا كلما تحرش

(١) أخبار مجموعة، ص ٣٨ .

بهم الفونسو يقومون بتعبئة جيوشهم وينفقون عليها ما ينفقون؛ ثم يغزونه فى بلاده فيلتجىء إلى تحصيناته مدافعا فيها، فيعودون دون طائل بعد استنزاف مواردهم وإنهاك قواهم، وهو ما اعتبرته المصادر الإسبانية فى حد ذاته انتصارا لألفونسو؛ فذكرت أنه انتصر على المسلمين انتصارات عديدة (١) أذل بها جرأتهم (٢) ؛ دون أن تفصح عن نوعية وكيفية هذه الانتصارات .

أما المؤرخ المسلم صاحب أخبار مجموعة فيرقفنا - فى نص مختصر يورده عن تلك الغزوات - على معلومات غاية فى الدلالة، إذ بعدما يشير إلى ثورة بلاجيوس فى أشتوريس يقول : « ثم غزاه المسلمون من جليقية، وغزاه أهل أستورقة زمانا طويلا حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة، فلما كان فى سنة ثلث وثلاثين هزمهم»(٣) . ويتضح من هذا النص رغم إيجازه الحقائق التالية :

أولا : أن صاحبه يضع تلك الغزوات فى سنوات سبقت فتنة أبى الخطار وثوابة - أى قبل عام ١٢٨هـ/ ٧٤٥م والسنوات التالية له حتى عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م - وهى سنوات تقع خلال عهد الفونسو الأول (٧٣٩ - ٧٥٧م/ ١٢١ - ١٤٠هـ)، وليس خلال عهد بلاجيوس كما يشير صاحب النص؛ وذلك لاعتقاده خطأ أن وفاة بلاجيوس كانت فى عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م . وهو خطأ وقع فيه كغيره من مؤرخى المسلمين مثلما أشرنا من قبل .

ثانيا : أن تلك الغزوات قد توالت على مدى ما يقرب من عشر سنوات، إذا وضعنا فى اعتبارنا أنها بدأت على إثر إخلاء العرب جليقية وأشتوريس فى عام ١٢٣هـ/ ٧٤٠م، رغم أن التمثيل الإسلامى ظل باقيا فيهما ممثلا فى البربر .

ثالثا : أن عبء تلك الغزوات قد وقع على من بقى من مسلمى البربر فى جليقية وأشتوريس وحدهم؛ دون معاونة من مسلمى وسط وجنوب الأندلس الذى كانوا - كما ذكرنا - فى شغل شاغل عن هذا الخطر الشامل، ولم يكن لديهم وقت للالتفات آنذاك لما يقع فى تلك الأطراف الشمالية من الأندلس؛ ولذا فلم يمدوا إخوانهم البربر فيها أو يعملوا على تقويتهم ضد الفونسو، وإنما تركوهم وحدهم ليكابدوا مصيرهم رغبة فى هلاكهم؛ ربما بسبب أنهم كانوا قد أخرجوهم من تلك الأطراف عندما قاموا بالثورة عليهم، كما فصلنا من قبل . وقد بلغ من شدة ضغط الفونسو على هؤلاء البربر فى جليقية وأشتوريس أن خاف بعض عقلاء المسلمين فى وسط وجنوب

(١) عن الوثيقة المؤرخة فى ٢٧ مارس عام ٨٣٢م والدالة على ذلك أنظر: Floriano, General de Espana, 1 p 185 .

(٢) قارن : Cron General de Espana , ed Catalan y Andrés, 2 p 308, Chron. Leonaise, ed. Cirot, p 390, Chron Sebastiani, ed Florez, p 481, Chron Silense, ed Florez, p 276

(٣) أخبار مجموعة، ص ٦١ - ٦٢ .

الأندلس من تغلب العدو على ذراريهم - وذلك كما يشير صاحب النص السابق فى مكان آخر (١) - ولم يأمنوا تغلب العدو عليهم مثلما يذكر مؤرخ إسلامى آخر (٢) .

رابعاً : أنه رغم قيام المسلمين البربر فى إقليمى جليقية وأشتوريس بشن الغارات والغزوات على مملكة أشتوريس طيلة تلك السنين العشر؛ لكنهم لم يحققوا تقدما أو نجاحا يذكر ضد مملكة أشتوريس، بسبب قلة أعدادهم وتخلى مسلمى وسط وجنوب الأندلس عن إنجادهم أو شد أزرهم . وعلى العكس من ذلك فلم تزدهم تلك الغارات إلا إضعافا لإمكانياتهم ووهنا لقواهم؛ من جراء ما كانوا يتكبدونه فيها من عدة وعتاد وأرواح وأموال، مما سهل على الفونسو أن يتمكن منهم ويظهر عليهم .

كان ظهور الفونسو على المسلمين البربر فى جليقية وأشتوريس، مشجعا له على أن يعمل بصورة جدية على إجلاء هؤلاء المسلمين من هاتين المنطقتين إجلاء تاما لاستصفائهما لنفسه، لكنه لم يعمد إلى تنفيذ ذلك دفعة واحدة وإنما على مراحل كى يضمن نجاح مخططه . ولما كان الجزء الشمالى من هاتين المنطقتين - وهو الواقع إلى الشمال من جبال كنتبرية - يمثل عمقا استراتيجيا حيويا لمملكته من ناحيتى الغرب حتى المحيط والجنوب حتى جبال كنتبرية، فقد ركز الفونسو نشاطه فى المرحلة الأولى ضد مسلمى هاتين المنطقتين؛ بهدف أن يدفع بحدود دولته جنوبا حتى جبال كنتبرية وغربا حتى المحيط، ويوفر لها فى ذات الوقت الحماية الطبيعية من هاتين الناحيتين . وكانت وسيلته فى ذلك هى إذكاء حماسة المسيحيين المقيمين بين المسلمين فى هذا الجزء وإثارتهم ضدهم باسم الدين، وتحفيزهم على احتذاء ما قام به مسيحيو شرقى أشتوريس على عهد بلاجيوس من قبل .

وكانت الظروف العامة حينذاك تبشر بنجاح مساعى الفونسو فى إشعال الثورة بين هؤلاء المسيحيين ضد المسلمين، حيث كانت أعداد المسلمين المقيمين بينهم قليلة وعدتهم هزيلة؛ فضلا عن انشغال المسلمين فى وسط وجنوب الأندلس عنهم بالمحن الطاحنة الناجمة عن الحروب الدائرة رحاها بينهم . والأهم من ذلك تلك المجاعة التى ضربت أطنابها فى الأندلس كلها منذ عام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م ولمدة خمس سنوات متواصلة؛ فأدت إلى قلة الأموال والأقوات وغلو الأسعار، بحيث عجز مسيحيو جليقية وأشتوريس - على الخصوص - عن دفع الجزية والخراج للمسلمين، وتغاضى المسلمون من جانبهم عما يعانيه هؤلاء المسيحيون من ضيق ذات اليد وأصروا على تحصيل

---

(١) ص ٤٥ .

(٢) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٤ .

تلك الضرائب كاملة منهم [١] . ومن ثم لم يجد المسيحيون سبيلا للخلاص مما هم فيه سوى الاستجابة إلى ما يدعو إليه الفونسو بالثورة على المسلمين ونقض طاعتهم، فثاروا عليهم فى عام ٧٥٠م/ ١٣٣هـ [٢] ، وتلاقت بذلك أهداف الفونسو مع أهداف مسيحيى شمالى جليقية وأشتوريس .

بدأت وقائع تلك الثورة على نحو يشابه ثورة مسيحيى شرقى أشتوريس على عهد بلاجيوس من قبل؛ إذ أعلن مسيحيو شمالى جليقية وأشتوريس عن امتناعهم صراحة عن دفع الجزية والخراج كلية، وفى ذات الوقت ارتد كثير من المسلمين المتذبذبين فى دينهم إلى مسيحيتهم الأولى [٣] ؛ ربما تحت تأثير دعايات الفونسو بينهم، ثم توافد عليه ممثلو الثورة يعلنون استعدادهم للتعاون معه ضد المسلمين، فنهض معهم بقواته حيث الثورة للإجهاز على البقية الباقية من المسلمين .

كان من الطبيعى ألا يقف المسلمون مكتوفى الأيدى أمام هذا الخطر الداهم الذى اتسع مجاله، وإنما جاهدوا قدر استطاعتهم فى محاولات يائسة دفاعا عن كيانهم فى تلك الناحية المتطرفة من شمالى الأندلس، وغاوروا الثوار فى غارات متتالية مثلما يفهم من المصادر الإسلامية؛ وإن كانت تلك المصادر تموه فى إشارتها إليها فتجعلها غارات فى صيغة المجهول، مثل قول إحداها ما نصه : « فتغاورتهم الجيوش » [٤] وقول أخرى : « فترددت الغارات » [٥] على الثائرين، دون أن تفصح تلك المصادر عن دور والى الأندلس فى هذه الغارات أو رد فعله إزاء هذا الخطر؛ باعتباره المسئول الأول عن درئه وحماية مجتمع المسلمين هناك . وإن كنا نرجح أنه ظل على تجاهله لما كان يحدث فى تلك الأطراف الشمالية النائية من الأندلس، تحت ضغط تردى الأوضاع السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية فى جنوب ووسط الأندلس، من جراء ما توالى من صراعات كانت لا تزال قائمة؛ وما أدى إليه القحط من قلة فى الأقوات، بحيث ما كان يستطيع أن يمد يد العون لمسلمى تلك الأطراف فى جهادهم ضد المسيحيين أو حتى يلتفت إليهم، فكابدوا وحدهم ضغط الثوار وحليفهم الفونسو وعجزوا عن التصدى لهم أو وقف زحفهم، ولكنهم تهاربوا أمامهم فتمكنت منهم سيوف الثوار وأعملت القتل فيمن لحقت به حتى قضت على كثير منهم؛ ولم يتوقف الثوار عن ملاحقتهم إلا بعدما أجبروهم على عبور جبال كنتبرية إلى ما يليها

---

(١) مجهول، فتح الأندلس، ص ٦ .

(٢) أعلاه نفس المكان والصفحة؛ أخبار مجموعة، ص ٦١؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٨ .

(٣) أخبار مجموعة ،ص ٦٢ .

(٤) مجهول، فتح الأندلس، ص ٦ .

(٥) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٨ .

جنوبا؛ حيث احتموا بمدن أستورقة Astorga وليون Léon وبراجا Braga وغيرها من المدن الواقعة إلى الجنوب من جبال كنتبرية (١) .

وهكذا خرج المسلمون من شمالى جليقية وأشتوريس وانحسرت معهم إلى الأبد السيطرة الإسلامية عنهما (٢) ، بعدما كانت مصدر قلق وتهديد لمملكة أشتوريس من الناحيتين الغربية والجنوبية؛ وتحققت بذلك أولى أهداف الفونسو فسارع إلى ضم تلك الناحية إلى مملكته الصغيرة، فازدادت مساحتها زيادة وصلت بها إلى ضعف حجمها الأول، إذ امتدت حتى ساحل البحر المحيط غربا، ولاصقت جبال كنتبرية جنوبا؛ وتوفرت لها بهذا الامتداد الحماية الطبيعية اللآزمة للدفاع عن نفسها . وفوق ذلك كله اكتسبت سواعد مسيحية جديدة كانت فى حاجة إليها لتكوين جيش قادر على الدفاع عن نفسها، بحيث لن تمضى سنوات طويلة إلا وسيصبح هذا الجيش قادرا على شن الهجوم على الأندلس وتهديدها .

وفى الواقع فقد كان نجاح الفونسو فى إخراج المسلمين من شمالى جليقية وأشتوريس، سابقة مثيرة ومشجعة له على متابعة نشاطاته الحربية ضد المسلمين فى جنوبى هذين الإقليمين أيضاً - أى فى المنطقة الممتدة جنوب جبال كنتبرية حتى نهر دويرة - ليخرجهم منها، إذ كان بقاؤهم فيها وسيطرتهم عليها وعلى ممرات جبال كنتبرية المفضية إلى داخل مملكته يعوق نموها ويوقف تقدمها، ويفرض عليها حالة التهديد الدائم من ناحية الجنوب . ولذلك ترقب الفونسو الفرصة ليضع تلك الخطة موضع التنفيذ ويدخل ضد المسلمين فى حوض نهر دويرة معركة الحياة أو الموت .

لم يلبث أن واتت الفونسو الظروف فقد انهالت الثورات على والى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن فى عديد من المدن الأندلسية خلال عام ١٣٦هـ/ ٧٥٤م وما يليه؛ وعلى الأخص ثورة مدينة سرقسطة التى انشغل فى القضاء عليها مثلما أشرنا من قبل . وفى نفس العام اشتدت وطأة القحط واستحكم الجوع بين سكان الأندلس استحكاما أجبر كثيراً منهم إلى هجرة أماكن استقرارهم؛ لا سيما فى منطقة حوض نهر دويرة محط أنظار الفونسو، فارتحل بعضهم إلى إقليم سرقسطة ووادى نهر إبرة، الذى لم تنل منه المجاعة كثيراً بسبب خصبه مثلما نالت من بقية أقاليم الأندلس؛ فى حين ارتحل البعض الآخر إلى جنوب الأندلس فى طريق عودتهم إلى بلاد المغرب،

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٦٢ .

(٢) أخبار مجموعة، نفس المكان والصفحة؛ وانظر أيضاً : Chron Léonaise, ed. Cirot, p 391; Cron. de.Lucas , ed. Puyol, p 280 . وانظر الوثيقة المؤرخة فى ٢٧ مارس عام ٨٣٢م عند : Floriano, op cit, Ip 185.

بحيث خف - بتعبير المصادر الإسلامية - سكان الأندلس بصفة عامة[١]، وسكان حوض نهر دويرة الذى شملت الهجرة معظم سكانه بصفة خاصة، ولم يبق فيه إلا من لم يجد فى نفسه القوة على الارتحال فآثر البقاء فى هذا الصقع رغم الخطر المحدق به .

وحتى تلك القلة المسلمة - وكانت لا تزال حديثة عهد بالإسلام - فقد ضجرت على ما يبدو بالمسلمين وبالإسلام على الجملة، أو أنها تأثرت بدعايات الفونسو وما حققه من انتصار فارتد بعضها إلى المسيحية؛ وهو ما أشارت إليه الرواية الإسلامية وتؤكده أيضا وثائق مدينتى ليون وأستورقة [٢] من مدن حوض نهر دويرة؛ فمعظم ما يرد فيها من أسماء هى أسماء إسلامية أو بالأحرى لبربر يحملون أسماء عربية أو بربرية خالصة مثل : طوريل Tourel وطارق أو طريف Taref [٣] وأبو الفدا بن ديسمبر Avolfeta Iben December [٤] . وبعضها لبربر اتخذوا أسماء مسيحية مثل : عيسى Aiza [٥] ، أو أسماء مشتركة بين المسيحيين والمسلمين مثل : زكريا Zacaria وزاهد Zahed وسليمان Soliman [٦] .

والغريب حقا أن بعض أولئك البربر المرتدين إلى المسيحية قد ظلوا يحتفظون بأسمائهم الإسلامية، رغم أنهم انخرطوا فى سلك الوظائف الدينية فى مملكة أشتوريس فيما بعد، فنجد من بين الكهنة ورجال الدين أسماء مثل : أبو عبد الله Ababdella وعبد الرحمن Abderahana والوليد Alaulit [٧] ومحمود Mahamudi[٨] . كذلك فقد صار بعض هؤلاء المرتدين من أصحاب الأملاك ذوى الصفة العسكرية مثل جونسالفو بن موسى Gonsalvo Iben Muza [٩] الذى امتلك قلعة فى نواحى مدينة سمورة الواقعة على ضفاف نهر دويرة . وكان من نتيجة ذلك أن قلت أعداد من بقى من المسلمين فى منطقة حوض نهر دويرة، قلة يمكننا القول استنادا عليها أنها صارت شبه خالية من التمثيل الإسلامى الحقيقى . فكانت فرصة

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٦٢ .

(٢) عن نصوص هذه الوثائق أنظر على التوالى : Florez, Esp. Sagr., 16p 424 Sqq; 34 p 426 Sqq .

(٣) وردا فى وثيقة من أستورقة مؤرخة بعام ٨٧٨ م، أنظر : Florez, op cit, 16 pp 424 - 426 .

(٤) ورد فى وثيقة من ليون مؤرخة بعام ٩١٧م، أنظر : Florez, op cit, 34 p 447 .

(٥) أنظر وثيقة عام ٨٧٨م السابقة .

(٦) ورد فى ر وثيقة عام ٨٧٤ م أنظر : Florez, op cit, 34 p 430 .

(٧) أنظر وثيقة عام ٨٧٨ م السابقة .

(٨) أنظر على الترتيب وثيقتى عام ٩١٦، ٩١٩ م عند : Florez, op cit, 34 p 439, 449 .

(٩) عنه وعن أمثاله من ذوى الأملاك، أنظر وثيقة يوردها : Florez, op cit, 34 pp 434 _ 437 .

نادرة لألفونسو لأن يتقوى على تلك البقية الباقية من المسلمين بعدما صاروا دونما حماية من جانب والى الأندلس .

لذلك أعد الفونسو قواته فى ذات عام ٧٥٤م/ ١٣٦هـ، وخرج على رأسها بنفسه ويرفقته أخوه الأصغر فرويلة Fruela (١) ، وقاما بحملات سريعة واسعة المدى فى حوض نهر دويرة؛ وهى حملات لم يتوقفا بها إلا عند جبال وسط إيبيريا الممتدة إلى الجنوب من نهر دويرة، وهى من الشرق إلى الغرب جبال وادى رامة (الشارات) Sierra Guadarrama وجريدوس Sierra de Gredos وجاتا Sierra de Gata وإستريا Sierra de Estrella . وكنا نتوقع أن تهتم المدونات اللاتينية بإلقاء الضوء الكافى على أخبار هذه الحملات الهامة الجريئة، التى وصل فيها الفونسو إلى وسط الأندلس؛ فتحدد لنا مسارها وتنفصل أخبار معاركها الحربية؛ ولكنها مع الأسف اقتصرت على ذكر قائمة بأسماء عديد من المدن التى تنسب إلى الفونسو الاستيلاء عليها من المسلمين فى تلك الحملات (٢) ، ومن تلك القائمة يمكننا أن نضع تصورا - مع بعض التحفظ - لخط سير حملات الفونسو فى تلك المنطقة .

فربما بدأ الفونسو حملاته بالهجوم على المنطقة الغربية من شمال نهر دويرة، واقتحم أهم مدنها مثل : أوبورتو Oporto وأنيجا Aniga وبراجا Braga وبراجنثا Braganza وأجواس فلافيا Aguas Flavia (Chaves الحالية) . ثم اندفع فى غمرة حماسه وهاجم المدن التى تليها إلى الجنوب من نفس النهر مثل : لاميجو Lamego وبيزيو Viseo وأجاتا Agata ؛ ومن هناك تقدم نحو الشرق إلى مدن لديسما Ledesma وسلمنكة Salamanca وآبلة Avila وشقوبية Segovia وسبولبيدا Sepulveda ؛ ثم عبر من هناك إلى المنطقة الواقعة بين نهرى إبرة شرقا وبسويرجا Pisuerga غربا فهاجم مدنها مثل : أوسمة Osma وأرجنثا Arganza وقلونية Clunia وأماية Amaya وكاربونيرا Carbonera وأوقة Oca وميراندا دل إبرة Miranda del Ebro ومابى Mabe وربنديكا Rebendica وأبييكا Abieca وسنسيرو Cenicero وأليسانكو Alesanco ؛ ثم تابع زحفه نحو الغرب على الأراضى المحصورة بين نهرى بسويرجا شرقا وإسلا Esla غربا وهاجم مدنها مثل :

---

(١) Cron Silense, ed. Florez, p 276; Cron. Léonaise, ed Cirot, p 390. Prim Cron General, ed. Pidal, 2 p 330 .

(٢) قارن : Cron. Sebastiani, ed Florez, pp 481 - 482; Cron de Lucas, ed Puyol, pp 279 - 280;; Chron. Léonaise, ed. Cirot, pp 390 - 391; Cron. Geral de Espanha, ed. Cintra, 2 pp 391 - 392, Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 233, Prim Cron General, ed Pidal, 2p 330, Cron Alfonso III, ed Villada, p 68, 116 وانظر مواقع هذه المدن على الخريطة .

سمورة Zamora وسلدانيا Saldania وسيمانكس Simancas وقريون Carrion حتى دخل الجزء الجنوبى من إقليم أشتوريس، واستولى على أهم مدنه مثل مدينتى أستورقة Astorga وليون Léon؛ ومنهما اتخذ طريق العودة إلى أراضى دولته بعدما طهر تلك النواحى ممن وجده من المسلمين دونما حماية، فأعمل القتل فيهم ووضع السيف على رقابهم بحيث لم ينج إلا القليل الذى تمكن من الفرار هاربا . وبذلك قضى الفونسو على الوجود الإسلامى فى منطقة حوض نهر دويرة قضاء يكاد يكون تاما، ووفر الأمن والحماية لمملكته الناشئة على طول حدودها الجنوبية التى كان المسلمون يشكلون عليها خطرا غير قليل .

ولا خلاف بين المصادر الإسبانية - التى أشرنا إليها - على خروج منطقة حوض نهر دويرة بمدنه الهامة من أيدى المسلمين إثر حملات الفونسو عليها، وهى الحملات التى شاركه فيها أخوه الأصغر فرويلة؛ وهى حقيقة تتجلى لمن يتصفح بعض الروايات الإسلامية الأولى أيضا وعلى الأخص رواية صاحب أخبار مجموعة[1] . ومع ذلك يؤخر بعض مؤرخى المسلمين الأواخر - كابن الأثير [2] وابن خلدون [3] والقلقشندى [4] والمقرى [5] - خروج هذه المنطقة إلى فترة لاحقة ليست فى عهد الفونسو، وإنما فى عهد ابنه المدعو أيضا فرويلة الذى خلفه على عرش أشتوريس فيما بين عامى ٧٥٧ - ٧٦٨ م/ ١٤٠ - ١٥١ هـ، وقد جاراهم فى هذا الرأى قلة من المؤرخين العرب الحديثين [6] .

لكن المدقق فى روايات أولئك المؤرخين المسلمين الأواخر سرعان ما يتكشف له أنهم يجانبون الواقع؛ ليس بسبب أنهم يخالفون المؤرخين الإسبان وإنما لأنهم يناقضون أنفسهم . ففى الوقت الذى يذكرون فيه أن فرويلة بن الفونسو قد استولى على نواحى حوض نهر دويرة خلال مدة حكمه التى يحددونها - بما فيها من خطأ - بين عام ١٤٢ - ١٥٣هـ/ ٧٥٩ - ٧٧٠ م؛ فهم يبرزون خطأهم بالقول أنه استولى عليها : « عندما شغل المسلمون بعبد الرحمن الداخل وتمهيد أمره » [7] أى خلال صراعه مع يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس وكان ذلك فى عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م،

(١) ص ٦٢ .

(٢) الكامل، ٤ ص ٣٦٥ .

(٣) العبر، ٤ ص ٢٦٥، ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٤) صبح، ٥ ص ٢٦٥ .

(٥) نفح، ١ ص ٣٠٩ .

(٦) مثل : عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٢١٢؛ سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب، بيروت ١٩٦١م، ص ٣٩٣؛ رجب عبد الحليم، العلاقات، ورقة ٩٨؛ Abdurrahman EL - Hajji, Christian States, op cit, 9 p 48 .

(٧) أنظر على الخصوص : ابن خلدون، العبر، ٤ ص ٢٦٥؛ المقرى، نفح، ١ ص ٣٠٩؛ القلقشندى، صبح، ٥ ص ٢٦٤ .

وفى هذا التاريخ كان الفونسو لا يزال على قيد الحياة ولم يكن ابنه فرويلة قد خلفه على العرش بعد . وبذلك يكون المؤرخون المسلمون قد خلطوا بين فرويلة الأخ الذى شارك الفونسو فى الحملات المذكورة، وبين فرويلة الإبن الذى خلف أباه على عرش مملكة أشتوريس .

وما يؤكد هذا الخلط الذى وقع فيه المؤرخون المسلمون أنه لا يوجد بين الروايات الإسبانية نص واحد يضع أحداث تلك الحملات خلال عهد فرويلة الإبن وإنما فى عهد الفونسو نفسه . وتزيدنا مدونة سيلوس Silense الأمر وضوحا لا شك فيه؛ حينما أفردت فقرة مستقلة عن فرويلة الأخ تشير فيها إلى مساعدته لأخيه الفونسو فى تلك الحملات بالذات، فتقول : أن فرويلة أخ الفونسو قد عاونه فى إدارة شئون المملكة، وشاركه مرات عدة فى قيادة الجيوش والهجوم على أراضى المسلمين الممتدة من أقصى أشتوريس وجليقية فى الشمال حتى نهر دويرة فى الجنوب؛ فانتزعا منهم كل مدن وقلاع تلك الناحية، وأعاداها إلى السيادة المسيحية، ثم عين الفونسو أخاه فرويلة هذا حاكما على بعض تلك الناحية، فظل يحكمها إلى أن توفى قبل أن يتوفى الفونسو نفسه (١) .

وعلى ذلك فلا مجال للشك فى أن منطقة حوض نهر دويرة قد خرجت عن السيادة الإسلامية إثر حملات الفونسو عليها . ولكن يبقى خلاف حول الوسيلة التى خرجت بها عن سلطان المسلمين، فبينما ترجعها المصادر الإسبانية السابقة إلى شجاعة الفونسو الشخصية فضلا عن قوة جيشه، بحيث صورت لنا الفونسو ينتزع هذه الأراضى من المسلمين بحد السيف؛ فالمصادر الإسلامية ترجعها إلى تأثير الحرب الأهلية التى كانت تدور رحاها بين المسلمين فى الأندلس وقتذاك، فضلا عن المجاعات المتتالية التى أودت بأعداد غفيرة منهم، وأدت إلى هجرة معظم من تبقى منهم فى حوض نهر دويرة إلى غيره من أقاليم الأندلس كإقليم سرقسطة، فقلت أعدادهم هناك ووهنت قوتهم وهذا جعل الفونسو يتقوى عليهم ويتمكن منهم بسهولة، فأخرجهم منها حتى دون مقاومة تكاد تذكر (٢) .

وأياً ما كان الأمر فلم يبق أمام الفونسو، بعدما أخرج المسلمين من حوض نهر دويرة ووفر الأمن والحماية لمملكته على طول حدودها الجنوبية، سوى تأمين الجبهة

---

(١) Ed . Florez, p 280 No 32 .

(٢) أخبار مجموعة، ص ٦٢ .

الشرقية لمملكته ضد خطر المسلمين الذين كانوا يسيطرون على إقليم ألبة وما يليه شرقا فى إقليم نبرة من أراضى البشكنس . وكان بوسع الفونسو وقتذاك أن يخرج المسلمين من ألبة بنفس الأسلوب الذى أخرجهم به من جليقية وأشتوريس وحوض نهر دويرة؛ دون أن يجد مقاومة جدية من جانب والى الأندلس يوسف الفهرى، الذى كان لا يزال غارقا فى القضاء على ثورة مدينة سرقسطة، ومن بعدها انشغل فى صراع أشد مع عبد الرحمن بن معاوية، الذى دخل الأندلس بنية انتزاعها منه . ومع ذلك فقد أدرك الفونسو ببصيرة ثاقبة أنه لو استعاد إقليم ألبة من المسلمين فسوف يظل خطرهم قائما يأتيه من نبرة المجاورة، ولذلك رأى أن يشرك معه أهل نبرة فى القضاء على تواجد المسلمين فى كل من ألبة ونبرة ليتخلص كلية من خطرهم فى تلك الناحية .

ولا نعلم الوسيلة التى استخدمها الفونسو للتقارب من أهل نبرة أو ما تم الاتفاق عليه بينهما، وإن كان منطق الأمور يوحى بأن نوعا من التفاهم حدث بينهما أقنع فيه الفونسو قيادات بمبلونة بالثورة على المسلمين بعدما ضرب لهم مثلا بثورة أهل جليقية السابقة؛ فى ا لوقت الذى يهاجم هو إقليم ألبة لقتال الحاميات الإسلامية هناك ليخفف من ضغط المسلمين على أهل بمبلونة بتشتيت قواتهم بالحرب فى جبهتين . واقتنع أهل بمبلونة وأعلنوا الثورة فى عام ١٣٨هـ/ ٧٥٥ - ٧٥٦ م ونقضوا طاعة المسلمين اقتداء - كما يذكر صاحب أخبار مجموعة - بثورة أهل جليقية [(١)] ، التى تمت من سنوات خمس مضت .

وقد وصلت أنباء تلك الثورة إلى مسامع والى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن، وهو فى مدينة سرقسطة التى لم يكن قد بارحها بعد هو أو قواته؛ إذ كان قد انتهى لتوه من إخضاع ثورتها . ولما كانت بمبلونة تشكل أهمية استراتيجية كبرى لمسلمى الأندلس لقربها من إقليم سرقسطة، ولأنها كانت بمثابة معبر الجيوش الإسلامية من وإلى غالة من أراضى الفرنجة؛ لذلك لم يتردد يوسف فى تكليف فرقة إسلامية بالمبادرة إلى التحرك نحو بمبلونة لإخماد ثورتها، بعد أن أوكل قيادتها العامة لسليمان بن شهاب وجعل على مقدمة فرسانه الحصين بن الدجن [(٢)] . وما أن تحركت تلك القوة قاصدة بمبلونة حتى غادر يوسف هو الآخر مدينة سرقسطة فى طريقه إلى العاصمة قرطبة خلال ذات عام ١٣٨هـ/ ٧٥٥ - ٧٥٦م .

وردت إلينا أنباء ثورة أهل بمبلونة وموقف والى الأندلس منها فى المصادر

---

(١) ص ٧٦ .

(٢) أعلاه ؛ وأنظر أيضاً : ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٥٥.

الإسلامية وحدها، وفى إشارة مقتضبة تقف نحوها هذه المصادر على طرفى نقيض. فابن عذارى ينص على أن والى الأندلس أمضى بعثين. وليس بعثا واحدا. أحدهما إلى جليقية (أى أشتوريس) والآخر إلى البشكنس فى بمبلونة [١] . أما صاحب فتح الأندلس فهو وإن جعل هذين البعثين إلى بلاد جليقية بصفة عامة [٢] ، فربما لأنه اعتبر بلاد البشكنس داخلة فى نطاق جليقية . وقد استند بعض المؤرخين الحديثين على هاتين الروايتين فى القول بأن والى الأندلس قد أرسل جيشين أحدهما إلى جليقية والآخر إلى بلاد البشكنس لإخماد ثورتهما [٣] ، واشتط بعض آخر فجعل البعثين لإنجاد مدينة أربونة من حصار كان الفرنجة يفرضونه عليها وقتذاك [٤] .

ورغم هذا الاختلاف فرواية صاحب أخبار مجموعة. وتؤيدها رواية ابن الأبار . أدق وأبلغ فى الدلالة من روايتى ابن عذارى وصاحب فتح الأندلس السابقتين، فى أن يوسف لم يرسل سوى بعث واحد إلى بمبلونة (بلاد البشكنس) . وما يجعلنا نركن إلى ذلك أن صاحب أخبار مجموعة أقرب إلى الأحداث من ابن عذارى وصاحب فتح الأندلس؛ إذ كان يكتب خلال نفس القرن الذى وقعت فيه ثورة بمبلونة . كذلك فالمدقق فى روايتى ابن عذارى وصاحب فتح الأندلس يتضح له أنهما فى إشارتهما إلى أنباء الهزيمة التى حلت بالقوة الإسلامية هناك، يقصدان بعثاً واحدا وليس بعثين؛ ولم يخرج الأمر عن كونه قد اختلط عليهما واعتقدا أن كلا من سليمان والحصين قاد بعثا غير بعث الآخر، ولم يفطنا إلى أن الحصين كان على رأس الفرسان أما القيادة العامة فكانت لسليمان .

كانت هذه القوة الإسلامية أول بعث إسلامى يتحرك ضد نصارى الشمال الإسبانى منذ سبع عشرة سنة خلت، وكانت بادرة أمل فى عودة حركة الجهاد الإسلامى إلى سابق نشاطها وقوتها، لولا أنها لم تكن. مع الأسف. بهدف جهاد أو غزو أو إعادة نصارى الشمال الإسبانى إلى الطاعة مثلما يبدو للوهلة الأولى؛ وإنما قصد يوسف من وراء إرساله إقصاء القائدين العربيين ابن شهاب وابن الدجن بسبب موجدته منهما، لمكانتهما فى قومهما ولأنهما كانا أشد العرب اعتراضا وغلظة له حينما أراد الفتك بزعماء ثورة سرقسطة بعد استنزالها [٥] . ولذلك أسر يوسف فى

---

(١) البيان، ٢ ص ٤٤ .

(٢) مجهول، ص ٤٩ .

(٣) Caveda, op cit, 8 p 131, 132, 133, Barrau - Dihigo, Recherches, pp 42 - 43 ؛ رجب عبدالحليم، العلاقات، ورقة ٢٩ .

(٤) عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٢١١ .

(٥) أخبار مجموعة، ص ٧٦؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٤٩؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

نفسه أمر التخلص منهما حتى جاءت ثورة بمبلونة فأرسلهما فى قلة وضعف فى العدد والعدة بهدف هلاكهما - كما يفهم من المصادر الإسلامية - بحيث أنهما ما كادا يصلان بتلك الأعداد الهزيلة إلى بمبلونة حتى تمكن منهم ثوارها وفتكوا بهم فأبادوا عامتهم وعلى رأسهم ابن شهاب، وأوقعوا بهم هزيمة ساحقة لم ينج فيها منهم سوى ابن الدجن وقلة معه تمكنوا من العودة ثانية إلى سرقسطة [١] .

فلما وصلت أنباء هذه الهزيمة القاسية إلى مسامع يوسف الفهرى وكان قد قارب ساعتئذ مدينة طليطلة فى طريقه إلى العاصمة قرطبة، انبسطت أساريره لهلاك ابن شهاب بحيث لم يخف اغتباطه، فأقام - مثلما تشير الرواية الإسلامية - يومين فرحا مسرورا [٢] . ومثل هذا العمل الدنىء المتدنى لا نستبعده على يوسف لأنه يتمشى مع جبنه وضعف سلطانه، وقام بما يشابهه من قبل حينما استغاث به الصميل بن حاتم وقتما كان محصورا فى سرقسطة، ولكنه تقاعس عن إنجاده رغبة فى إهلاكه والتخلص منه [٣] .

وعلى إثر هذه الهزيمة التى أعدها يوسف بنفسه خرجت نبرة عن سلطان المسلمين، وإن كنا لا ندرى ما إذا كانت قد دخلت فى طاعة الفونسو أم استقلت بشئونها عنه؛ فالروايات الإسبانية منقسمة على نفسها فى القول باستقلالها [٤] أو بسيطرة الفونسو عليها [٥] ، وهو انقسام انساق إليه أيضا المؤرخون الحديثون الذين تناولوا بالدراسة تاريخ بمبلونة وقتذاك [٦] . وإن كنا من جانبنا نعتقد أنه فى الوقت الذى استقلت فيه عن سلطان المسلمين فلم تدخل فى طاعة الفونسو على الأقل خلال المدة المتبقية من عهده والتى انتهت فى عام ٧٥٧م/ ١٤٠هـ .

وفى الوقت الذى انصرف فيه المسلمون لإخماد ثورة بمبلونة حتى انهزامهم

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٧٧، ٧٨ - ٧٩ ؛ ابن الأبار، الحلة ، ٢ص ٣٥٥ .

(٢) نفسه، ص ٧٧ .

(٣) قارن : ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٣٧؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٤٧؛ أخبار مجموعة، ص ٦٥؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٣٤٧ .

(٤) Chron Sebastiani, ed. Florez, p 482, Cron. de Lucas, ed Puyol, p 280 .

(٥) Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 391, Prim. Cron. General, ed. Pidal, 2 p 331, 333; Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 233 .

(٦) منهم على سبيل المثال : Lévi - Provençal, De Nouveau sur le Royaume de pampelune ax IX Siécle, Bul Hisp . 1953, 55 pp 5 - 22; Urbel, Lo Viejo y lo Nuevo Sobre el Origen del Reino de Pamplona, AL - Andalus 1954, 19 pp 1 - 42, Lacarra, Historia del Reino de Navarra, Caja de Ahorros de Navarra 1975, Sanchez Albornoz, Los Vascos y los Arabes, Bol. IAEV 1952, p 65 Sqq

كان الفونسو قد هجم على إقليم ألبة فانتصر هو الآخر على حاميته الإسلامية واستعاد السيطرة عليه؛ فامتدت حدود مملكته شرقا حتى جاورت أراضى بمبلونة . وعلى هذا النحو تمكن من تحقيق ما خطط له فأخرج المسلمين من ألبة مثلما أخرجهم من قبل من جليقية وأشتوريس وحوض نهر دويرة، كما ساهم فى فقدهم إقليم نبرة . فأبعد خطرهم المباشر عن دولته ووفر لها ما كان يبغيه من حماية وأمن على طول حدودها الشرقية والغربية والجنوبية .

إن نظرة على الخريطة فى محاولة لتتبع حملات الفونسو على الأراضى الإسلامية المتاخمة لمملكته فى الغرب فى إقليمى جليقية وأشتوريس حتى ساحل المحيط الأطلنطى، وفى الجنوب فى حوض نهر دويرة ثم فى الشرق فى إقليم ألبة؛ تبين مدى الاتساع الجغرافى لتلك الحملات اتساعا يدفعنا إلى أن نتساءل فى دهشة ممزوجة بالإعجاب عن الكيفية التى استطاع بها الفونسو السيطرة على كل تلك المساحة الشاسعة، ولم يكن قد انقضى من عمر مملكته إلا أقل من عشرين عاما؛ بما يعنيه ذلك من قلة إمكانياتها المادية والبشرية قلة تحول دون إمكانية احتلالها، أو توفير وسائل الدفاع عنها على الأقل على امتداد حدودها الجنوبية الطويلة المواجهة للأندلس .

وعلى ما يبدو فقد كان الفونسو مدركا لواقع الأمور فى دولته الناشئة الضعيفة من حيث قدرتها ومتطلباتها، بحيث لم تكن حاجتها ماسة وقتذاك إلى زيادة مساحتها تلك الزيادة الهائلة؛ وإنما إلى توفير حماية طبيعية حصينة فى المقام الأول لتقيها أخطار أى هجوم إسلامى متوقع؛ فضلا عن تنمية طاقاتها المادية والبشرية المحدودة تنمية حقيقية تأخذ بيدها نحو التقدم والقوة لمواجهة خصمها الإسلامى، الذى لا يزال قويا رغم كل ما يمر به من صعاب وعقبات .

ولذلك فلم يعمد الفونسو إلى مد سيطرته أو الاستقرار فى كل الأراضى الإسلامية التى هاجمها، ولم يحتفظ منها إلا بالأراضى الواقعة إلى الشمال من جبال كنتبرية فقط؛ وهى الأراضى التى تمتد على جانبى دولته شرقا فى إقليم ألبة وغربا فى إقليمى جليقية وأشتوريس . أما منطقة حوض نهر دويرة الممتدة إلى الجنوب من جبال كنتبرية فلم يكن فى نية الفونسو منذ البداية احتلالها أو الاستقرار فيها؛ وإنما جعلها أرضا قفرة مهجورة لتكون حاجزا طبيعيا بين مملكته فى الشمال والأندلس فى الجنوب، وهو ما جعل حملاته على تلك المنطقة أشبه بغارات تخريبية لعمرانها .

فتذكر الروايات الإسبانية المشار إليها سابقا أن الفونسو دمر فى هذه المنطقة كل ما مر به من مدن وقرى وقلاع تدميرا كاملا حتى سواها بالأرض، وقضى على كل من وجده فيها من المسلمين؛ لا سيما فى الأراضى الجديدة التى أضافها إلى مملكته فى ألبة شرقا وجليقية وأشتوريس غربا . وتضيف تلك الروايات أنه لم يحتفظ من كل تلك المساحة الواسعة فى حوض نهر دويرة إلا ببعض المواقع الاستراتيجية الهامة، المتحكمة فى المداخل المفضية إلى داخل مملكته على طول السفوح الجنوبية لجبال كنتبرية؛ فقوى تحصيناتها ودفاعاتها وزودها بما يكفيها من الجند والحاميات، بحيث صارت هذه المواقع ثغورا لمملكة أشتوريس ناحية الجنوب فى مواجهة الأندلس، وسارت حدودها فى خط يصل بين هذه الثغور، التى كان أهمها من الغرب قلاع توى Tuy وأورنس Orense الواقعتين على نهر مينيو فى إقليم جليقية؛ ثم أستورقة Astorga وليون Léon فى إقليم أشتوريس؛ ثم قلاع سلدانيا Saldana وأماية Amaya وريبنديكا Revendeca وميراندا دل إبرة Miranda del Ebro وأليسانكو Alesanco فى الشرق . أو بعبارة أخرى امتدت تلك الحدود من الغرب إلى الشرق مع امتداد السفوح الجنوبية لجبال كنتبرية .

وفى المقابل تقهقرت الحدود الأندلسية عن منطقة حوض نهر دويرة وسارت مع خط يمتد من مدينة قلمرية Coimbra على نهر منديق Mondego فى أقصى الغرب؛ ثم قورية Coria وطلبيرة Talavera وطليطلة Toledo على نهر تاجة Tajo ؛ ومنها إلى وادى الحجارة Guadalajara وتطيلة Tudela على نهر إبرة [١] . وصار هذا الخط ثغورا إسلامية فى مواجهة الثغور الإسبانية، وقسمه المسلمون إلى ثلاث مناطق ثغرية هى الثغر الأدنى فى أقصى الغرب وقاعدته مدينة ماردة Mérida ، والثغر الأوسط فى الوسط وقاعدته مدينة طليطلة Tolédo ، ثم الثغر الأعلى فى أقصى الشمال الشرقى وقاعدته مدينة سرقسطة Saragoza [٢] .

وامتدت فيما بين هذين الثغرين الإسلامى والإسبانى منطقة حوض نهر دويرة كأرض عازلة بين إسبانيا المسيحية فى الشمال والأندلس فى الجنوب، وظلت مقفرة خالية من مظاهر الحياة والعمران لعشرات تالية من السنين، حتى قام خلفاء الفونسو فيما بعد بإعادة تعميرها والاستيطان فيها، وحينذاك صارت مثار صراع وميدان معارك عديدة عنيفة بين الأندلس وإسبانيا المسيحية فى العصور التالية .

---

(١) أنظر : مؤنس، فجر، ص ٢٠٣؛ Suarez Fernandez, Historia de Espana, Madrid 1970, p 18; Chapman, op cit, p 54; Valdeavellano, op cit, 1 p 397 ؛ وأنظر للخريطة .

(٢) Afif Turk, EL Reino de Zaragoza, Madrid 1978, p 7 - 8 .

كذلك فليس إلى الشك سبيل فى أن تلك السياسة الإخلائية التى عمد إليها الفونسو فى منطقة حوض نهر دويرة، وما أقامه على أطرافها الشمالية من قلاع وحصون قد قطعت على المسلمين خط الرجعة؛ فلم يركزوا هجماتهم على مملكة أشتوريس منذ ذلك الحين فصاعدا من تلك الناحية، إذ كان الأمر يقتضى منهم عبور ذلك الحاجز الواسع القفر من حوض نهر دويرة، ثم التغلب على الحصون والقلاع القائمة على أطرافه الشمالية، وعبور ممرات جبال كنتبرية الوعرة وكان فى ذلك متاعب ومخاطر جمة . ولذا سنرى المسلمين يركزون هجماتهم على مملكة أشتوريس من ناحية الشرق، أى من إقليم سرقسطة (الثغر الأعلى) فاحتل هذا الثغر أهمية عسكرية خاصة عندهم فى صراعهم ضد مملكة أشتوريس .

على أن نشاط الفونسو فى تدعيم مملكته لم يقتصر على ذلك الجانب الدفاعى التحصينى، وإنما امتد ليشمل أيضا التنمية الاقتصادية والعمرانية فى داخل مملكته، وكانت وسيلته فى ذلك هو الاعتماد على رجال الدين بخاصة لما لهم من تأثير روحى كبير على عامة الشعب؛ وخولهم الحق فى تشييد ما يرونه من الكنائس ودور العبادة فى كافة أنحاء مملكته (١) ، فظهر منها آنذاك العديد مثل : كنيسة سانتا ماريا Santa Maria فى منطقة كانجاس بإقليم أشتوريس التى افتتحت فى يوم ٣١ أكتوبر عام ٧٤٠م (٢) ، وهى التى دفن فيها الفونسو وزوجته حين وفاتهما (٣) ؛ وكنيسة سان بدرو دى بلانويبا San Pedro de Villanueva (٤) الواقعة على شاطىء نهر سيا Sella إلى الغرب من مدينة كانجاس مقر البلاط الأشتورى آنذاك .

وبالإضافة إلى تلك الكنائس وغيرها مما أقيم فى قلب مملكة أشتوريس، فقد أولى الفونسو عناية فائقة لتشجيع رجال الدين فى إقامة الكنائس ودور العبادة؛ فى المناطق التى استردها من المسلمين فى ألبة وأشتوريس وجليقية، بحيث تسابق هؤلاء الرجال فى بناء وتجديد كنائس تلك المناطق، وبالغوا فى تزيينها وتجميلها واهتموا بتزويد مكتباتها بما تحتاج إليه من كتب مقدسة وشروحاتها وكتب الثقافة والقوانين

(١) Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 482; Chron. Léonaise, ed Cirot, p 391; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 66 .

(٢) عن الوثيقة الدالة على ذلك أنظر : Floriano, op cit, 1 pp 34 - 35; Risco, Esp . Sagr. 37 pp 303 - 304 .

(٣) Cron de Lucas, ed Puyol, pp 280 - 281, Prim Cron . General, ed Pidal, 2 p 337 .
وعن وصف تلك الكنيسة أنظر : Risco, op cit, 37 pp 96 - 102 .

(٤) عن وصف تلك الكنيسة أنظر : Quadrado, op cit, p 49 Sqq .

الدينية (١) ؛ ولعل أبرز تلك الكنائس الكنيسة تلك التى شيدها الأسقف أدواريو Odoario فى مدينة لوجو Lugo بإقليم جليقية، بحيث صارت أشهر كنائس ذلك الإقليم آنذاك (٢) .

والجدير بالذكر أن هذا النشاط العمرانى المتعلق بالكنيسة قد لازمه تنمية اقتصادية على نطاق واسع، إذ لم يقتصر دورها على كونها دور عبادة ومراكز ثقافة دينية؛ وإنما كانت أشبه بمؤسسات اقتصادية إنتاجية يديرها رجال الدين الذين منحهم الفونسو حرية تامة فى إقامة كنائسهم فيما يختارونه من أراض، مع إعفاءات ضريبية وتسهيلات فى استغلال الأراضى بالطريقة التى يرونها لا سيما فى الزراعة، إلى غير ذلك من الامتيازات التى تزخر بها وثائق العصر (٣) . مما كان له أثره المباشر والواضح على إنعاش الحياة الاقتصادية والدينية فى مملكة أشتوريس .

ولا يجب أن نستهين بدور تلك المؤسسات الدينية فى إنعاش الحياة الاقتصادية فى أشتوريس وقتذاك؛ ولعل نظرة سريعة إلى وثائق تأسيس كنيسة مدينة لوجو فى جليقية تبين لنا كثرة أعداد أتباع الأسقف أدواريو- وهو الذى أقامها- وضخامة نشاطهم فى تعمير نواحى تلك المدينة . فمن هؤلاء الأتباع أسرة Avezano التى استقرت فى أحد ضواحى تلك المدينة بحيث أطلقت اسمها عليها؛ وأسرات Icka و Felix و Riccilana وغيرها من الأسرات التى شاركت فى تأسيس كنيسة Columba فى ضاحية Marci بنفس المدينة أيضا، وعائلات : Malelo و Framirus و Maure و Provecendo التى استقرت كل منها فى ناحية من المدينة أطلقت اسمها عليها؛ أما العبيد فكانوا كثيرين أيضا ومنهم : Censerico أحد الذين شاركوا فى بناء كنيسة Columba وتأسيس ضاحيتها، و Abdo الذى يبدو من اسمه أنه كان مسلما، وعائلات Sunnila و Donell و Gundesindus و Bennato التى شاركت جميعها فى تأسيس كنيسة San Esteban فى ضاحية Benati شرقى مدينة لوجو ذاتها، وهى ضاحية اشتقت اسمها كما هو واضح من اسم إحدى العائلات المشاركة فى تعميرها؛

---

(١) أنظر : Cron Geral de Espanha, ed Cintra, 2 p 393; Chron. Silense, ed Florez, p 276; Cron. de Lucas, ed Puyol, p 280, Prim Cron General, ed. Pidal, 2 p 333, 337; Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 237, 242, 243

(٢) عن تعمير مدينة لوجو وإقامة كنيستها، أنظر على الترتيب وثائق أول فبراير ٧٤٥م، ١٥ مايو ٧٤٧م، ٢٨ فبراير عام ٧٥٧م، عند : Floriano, op cit, 1 pp 40 - 59, 62 - 66 .

(٣) أنظر على سبيل المثال وثيقة ١١ نوفمبر عام ٧٤١م، التى منح الفونسو بموجبها أسقف كنيسة سان بدرو دى بلانوبيا كثيرا من الامتيازات والإعفاءات والمنح، Floriano, op cit, 1 p 38 - 39; Risco, Esp. Sagr., 37 pp 304 - 305 .

إلى غير ذلك من الأسماء العديدة التى تحويها الوثائق المذكورة . ومثل هذا النشاط التعميرى قد امتد أيضاً - كما تذكر المصادر الإسبانية (١) - إلى كل أودية مملكة أشتوريس، التى أخذت تخطو منذ عهد أول ملوكها خطوات واسعة سريعة نحو التقدم والقوة .

وعلى هذا النحو كان ظهور مملكة أشتوريس انعطافة هائلة فى تاريخ إيبيريا العصور الوسطى بشقيه الإسلامى والمسيحى، لكونها كانت تعبيرا ملموسا عن قيام أول جبهة إسبانية مسيحية تناهض الحكم الإسلامى هناك؛ وتفرض وجودها عليه وترغمه على قبولها كقوة سياسية مستقلة عنه، فبدأت تتغير بها ولأول مرة شكل الخريطة السياسية لإيبيريا منذ أن فتحها المسلمون . وسيظل هذا التغيير قائما على مر العصور التى تلت سواء من جانب مملكة أشتوريس أو الممالك الإسبانية التى خلفتها؛ فى محاولات كانت تتعثر أحيانا لكنها كانت تستعاد دون كلل، لترسم للإسبان طريق التحرر وتحمل أمامهم مشعل الاسترداد، الذى كان يزداد سطوعا كلما انطفأت شمعة فى مدينة أو قرية إسلامية حتى اختفى التواجد الإسلامى هناك .

ولا شك أيضا أن التوفيق حالف مملكة أشتوريس وهى فى بداية طريقها، فيما بين عامى ٧٣٩ - ٧٥٦م/ ١٢١ - ١٣٨هـ أى خلال النصف الأخير من عصر ولاة الأندلس المسلمين، الذى انغمس فيه مسلمو الأندلس فيما بين بعضهم البعض فى حروب وصراعات داخلية طاحنة متصلة، لم يتوقعوا بسببها الأخطار إلا من بين صفوفهم وحدهم؛ ولم يدركوا ما تشكله هذه المملكة الناشئة عليهم من خطر داهم . وإنما استقلوا أمرها وأهملوا مراقبة حدودهم معها، فكفوها بذلك جهد حرب أو صدام، فى وقت كانت تعجز عن مواجهتهم مواجهة عسكرية مباشرة فى أرض مكشوفة، أو تنتهج ضدهم سياسة هجومية . وعلى هذا النحو أفسح لها المسلمون على نحو غير محسوس المجال كى ترسى قواعدها وتثبت أقدامها وتقوى جبهتها الداخلية، حتى دبت القوة فى أوصالها بعد ضعف؛ وصارت قادرة على الثبات لهم، فأخذت تزاحمهم فيما يسيطرون عليه من أراض، وتجرأت عليهم بوسائل مرنة أخرجتهم بها من نحو ربع مساحة ما كانوا يسيطرون عليه، حتى اتسعت حدودها على حسابهم اتساعا وصلت به أكثر من ضعف حجم مساحتها الأولى، وبلغت من القوة والكثرة - كما تذكر المصادر الإسلامية - ما لاخفاء به (٢) ؛ ولم ترض بديلا عن القضاء على

---

(١) Cron Alfonso III, ed Villada, p 64, 116; Chron. Sebastiani, ed Florez, p 452, Cron. de Lucas, ed. Puyol, pp 279 - 280; Prim Cron General, ed. Pidal, 2 p 331 .

(٢) المقرى، نفح، ٤ ص ١٦، ٦ ص ٨٣ .

التواجد الإسلامى فى البلاد . وبالتالى صارت الحرب بينهما حرب وجود لا حرب حدود ، ولم يعد فى الإمكان أن تلتقى هذه المملكة مع المسلمين حول شىء يجمعهما سوى عداوة كل منهما للآخر .

ذلك أن قيام مملكة أشتوريس على هذا النحو، ونموها فى تلك الفترة المبكرة من التواجد الإسلامى فى شبه الجزيرة، قد أوجد هناك قوتين متعارضتين فى كل شىء، عرقا وديانة وثقافة بل وهدفا؛ إحداهما قوة غالبة غريبة ستبقى فى البلاد ما حفظت لها قوتها هذا البقاء، أما الأخرى فهى وإن كانت ضعيفة لكنها كانت مستبسلة مليئة بالكراهية نحو القوة الغالبة . وبالتالى فلم يقدر لهما مطلقا الانسجام فى حياة واحدة، وإنما غلبت عليهما عداوة جرت إلى صراع شبه متصل وعنيف على مدار العصور المتوالية، لن يكتب له التوقف إلا بإجلاء المسلمين كلية عن شبه الجزيرة، واستخلاص المسيحيين لها من أيديهم لتعود إليهم السيطرة عليها من جديد؛ وهو ما تحقق مع أواخر القرن الخامس عشر الميلادى / أواخر التاسع الهجرى .



الفصل الثانى

الانتكاسة الإسبانية ومهادنة الأندلس

٧٥٧ - ٧٨٨م (١٤٠ - ١٧٢هـ)

مظاهر اضطراب أشتوريس فى عهد فرويلة الأول - ثورة الأقنان فى عهد خليفته أوريليو - ثورة جليقية فى عهد سيلو وانصرافه إلى تعمير نواحى مملكته - موريجاتو يغتصب العرش من خليفته الفونسو الثانى - عبد الرحمن بن معاوية ينتزع حكم الأندلس - همومه الداخلية - الأخطار الخارجية - أولى حملات عبد الرحمن إلى أشتوريس وفشلها - أثرها فى انصراف فرويلة وعبد الرحمن إلى إعادة تحصين ثغورهما - حملة مزعومة لعبد الرحمن على أشتوريس - موالاته الضغط عليها بقية عهد فرويلة - خليفته أوريليو يسالم عبد الرحمن - تجديد السلم فى عهد خليفتيه سيلو وموريجاتو.



على النحو السابق تمكنت أشتوريس، خلال عهد مؤسسها الفونسو الأول، من فرض وجودها على المسلمين فى إيبيريا، حتى أرغمتهم على قبولها كقوة سياسية مستقلة عنهم؛ ثم زاحمتهم فيما كانوا يسيطرون عليه من أراض، وتجرأت عليهم بوسائل مرنة أخرجتهم بها من نحو ربع ما كانوا يسيطرون عليه؛ حتى اتسعت مساحتها على حسابهم اتساعا وصلت به ضعف حجمها الأول.

وبوفاة الفونسو الأول فى عام ٧٥٧م/ ١٤٠هـ توالى على عرش أشتوريس أربعة ملوك لم يقارن أى منهم به من حيث جرأته وطموحه وإقدامه، وهم على التوالى : فرويلة الأول Fruela 1 ٧٥٧ - ٧٦٨م/ ١٤٠ - ١٥١هـ؛ أوريليو Aurelio ٧٦٨ - ٧٧٤م / ١٥١ - ١٥٨هـ ؛ سيلو Silo ٧٧٤ - ٧٨٤م / ١٥٨ - ١٦٨هـ، ثم موريجاتو Mauregato ٧٨٤ - ٧٨٨م / ١٦٨ - ١٧٢هـ؛ فبدأت بهم مرحلة جديدة فى تاريخ مملكة أشتوريس اضطربت خلالها أمورها الداخلية، من جراء الفتن المتوالية والحركات الانفصالية والمطامع فى السلطة؛ فانصرفوا إلى قمعها وتأثرت بالسلب سياستهم نحو الأندلس، بحيث لم تعد تقوم على الهجوم والتوسع كما كان الحال على أيام الفونسو من قبل، وإنما على التقوقع والدفاع عن أنفسهم؛ حتى اضطروا فى كثير من الأحيان إلى مسالمة الأندلس وعقد الهدنة مع أميرها عبد الرحمن الداخل الذى عاصرهم جميعاً ؛ إذ أنه حكم فيما بين عامى ١٣٨ - ١٧٢هـ/ ٧٥٦ - ٧٨٨م ، و استطاع بفضل شجاعته وإقدامه (١) وحسن تدبيره وقوة شكيمته(٢) أن ينهى حالة الجمود واللامبالاة التى سار عليها ولاة الأندلس قبله نحو أشتوريس.

ذلك أنه حينما توفى الفونسو الأول فى عام ٧٥٧م / ١٤٠هـ؛ فقد خلفه ابنه الأكبر فرويلة الذى امتد حكمه إحدى عشرة سنة حتى عام ٧٦٨م/ ١٥١هـ (٣). لكنه

---

(١) مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، ص ١٠٩.

(٢) أخبار مجموعة، ص ١١٩؛ ابن الخطيب ، تاريخ، ٢ص ٩ -١٠ ؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٦٠.

(٣) تضاربت أقوال مؤلفى المصادر الإسبانية حول بداية ومدة حكمه، فمدونة البلدة (ed.Florez, p 450) تجعلها إحدى عشرة سنة تالية لوفاة الفونسو فى عام ٧٥٧م؛ وتجعلها مدونتا لوزيتانيا (ed. Florez, p403) وسباستيان (ed. Florez, p 483) . إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر تبدأ بذات العام السابق ؛ فى حين تجعلها مدونتا كمبوستلا (ed. Huici, 1p 82) وكمبلوتى (ed. Huici, 1p 52) إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرين يوما، أما مدونة لوكاس (ed. Puyol, p 282) فتجعلها اثنتى عشرة سنة؛ فى حين تجعلها مدونة بروفنكا (ed Moreno, p 623) اثنتى عشرة سنة ونصف وعشرين يوما؛ أما مدونتا لذريق (ed. Fuensanta, p 243) والفونسو العاشر (ed. Pidal, 2p 337) . فتجعلها ثلاث عشرة سنة تبدأ بعام ٧٥٣م (١٣٦هـ) ، وهو ما عليه رأى ابن الخطيب (تاريخ، ٢ص٣٢٣) الذى ينقل عن مدونة الفونسو العاشر؛ أما القلقشندى (صبح، ٥ ص ٢٦٤) وابن خلدون (العبر، ٤ ص ٣٨٦) فيجعلاها إحدى عشرة سنة تبدأ بعام ١٤٢هـ، إلا أن رأى الباحثين الحديثين منعقد على ما أوردناه بشأن بداية حكمه فى عام ٧٥٧م. وعن مناقشة ذلك أنظر بتفصيل ; Risco, Esp. Sagr. , 37 pp 103 - 105

لم يخلفه فى شئ من قدراته الحربية أو مهاراته السياسية؛ حتى أنه لم يثن عليه أحد من المؤرخين الإسبان القدامى مثلما أثنوا على والده، وإنما رسموا له صورة قاتمة وجعلوه فظاً غليظ القلب (١) خشن الطباع قاسيا (٢) سيئ التدبير طاغيا فى كل الأمور(٣) ؛ وإذا كان ابن الأثير يخالف هذا الوصف، فجعله ، أشجع من أبيه وأحسن سياسة للملك وضبطا له، قوى أمره وعظم سلطانه ، (٤)؛ فذلك راجع إلى اختلاط الأمر عليه بين فرويلة هذا وبين سميه الذى كان أخا لألفونسو مثلما أشرنا من قبل.

ومع ذلك فلا يقلل هذا الوصف، الذى وصفه به معاصروه من أهل ملته، من أنه كان مثل أبيه فى غيرته الدينية؛ بحيث هاله تراخى رجال دين دولته فى اتباع تعاليم دينهم، وانصرافهم عن أمور الدين إلى أمور الدنيا؛ كاقبالهم على الزواج حتى صار عادة بينهم منذ أن سمح لهم به الملك القوطى وتيزا (٧٠٠ - ٧١٠م) (٥)؛وهو ما اعتبره فرويلة ومعاصروه من أهل ملته من أفظع ما ارتكبه هذا الملك فى حق الدين(٦) ؛ حتى جلب على المسيحيين وقتذاك غضب الرب ونقمته(٧)؛ وكان من أسباب ضياع إيبيريا على يد المسلمين (٨) عام ٩٢هـ/٧١١م. ولذلك عزم فرويلة على تقويم حال رجال الدين فى دولته، وإلزامهم باتباع شرائع دينهم وتعاليم آبائهم الكنسيين، وتكريس حياتهم فى خدمة الرب وعبادته، والتفرغ كلية لأمور الدين دون الانشغال بأمور الحكم والسياسة، حتى يعود للكنيسة صفاؤها ونقاؤها الأول (٩)؛ ومن ثم استفتح فرويلة عهده باصدار مجموعة من القوانين التى تكفل تحقيق ذلك.

ومن الطبيعى أن يكون لمثل تلك القوانين وقع عنيف بين رجال الدين لما سلبتهم من نفوذ وسلطان وحرية ؛ وما كانوا يقبلون بسهولة أن ينتزع منهم هذا النفوذ، أو يحال بينهم وبين حرية الزواج بعدما اعتادوا عليه تلك المدة الطويلة؛ فصبوا نقمتهم على فرويلة وأخذوا يثيرون العامة ضده بما لهم من تأثير على النفوس.

---

(١) Chron Albeldense, ed. Flórez, p 451.

(٢) Chrón Léonaise, ed. Cirot, p391, 392

(٣) Crón . Silense, ed. Florez, p 277; Crón. de Lucas, ed. Puyol, p281; Prim Crón. General, ed. Pidal, 2p 338; Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 244, Estoria de los Godos, ed Zabalburu, p 66.

(٤) الكامل، ٤ ص ٣٦٥ .

(٥) Cron. Rotense ed Moreno, p 616; Crón Alfonso III, ed Villada, p 59 118; Crón Sebastiani , ed. Huici, 1p 204 - 205

(٦) Crón Silense, ed. Flórez, p 277.

(٧) Prim. Cron. General, ed. Pidal 2p 338, Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, pp 243 - 244; Estoria de los Godos, de. Zabalburu, p 66.

(٨) Crón Rotense, ed. Moreno, p 611.

(٩) Prim Crón. General, Loc. Cit

وذلك على النحو الذى سيفعله فقهاء قرطبة مع عامتها ضد الأمير الحكم بن هشام فى الأندلس ، حينما وضع حدا لنفوذهم - فهبت العامة فى ثورة عاتية لم يتردد إزاءها فرويلة فى استخدام أشد أساليب العنف والقسوة لاخمادها؛ فتمكن من القبض على زعمائها وبطش بهم ثم جلدهم وزج بهم إلى الأديرة؛ ليقضوا فيها ما تبقى لهم من عمر بعيداً عن زوجاتهم وعن السياسة أيضاً (١) .

وما من شك فى أن قسوة فرويلة وتشدده فى تنفيذ تلك القوانين قد أثمرت فى شئون الكنيسة على المدى البعيد، إذ أعلى التزام رجال الدين بها من هيبتهم فى عيون الرعية، وأنعش الكنيسة وأصلح حالها(٢)؛ وهو ما اعتبره بعض مؤرخى إسبانيا الأوائل الحسنة الوحيدة المأثورة عن فرويلة ؛ والتى بسببها وحدها تداركته العناية الإلهية فنصرته على مناوئيه (٣) .

ومع ذلك فقد كانت هذه الاجراءات وتلك القوانين وبالا على فرويلة فى حينها، إذ لم تكن كفيلة باستكانة رجال الدين ، فلم يغفروا له حرمانهم من نفوذهم السياسى المتنامى، أو تنكيله بزملائهم وإهانتهم؛ وإنما عزموا على مواصلة تحديه بما لهم من نفوذ روحى على عامة الشعب فتربصوا به الدوائر، واختاروا مجال عملهم فى المناطق المتطرفة من الدولة، لاسيما إقليمى ألبة شرقا وجليقية غربا وكانا وقتذاك مخالفين على فرويلة (٤)؛ مما يسر على رجال الدين تعبئة نفوس أهاليهما وإثارة مشاعرهم ضده وضد السيطرة الأشتورية بعامة. فثار أهل جليقية أولا فى عام ٧٥٨م/١٤١هـ ؛ ولم يلبث أن اقتدى بهم أهل إقليم ألبة فثاروا بعد ذلك بعامين أى فى عام ٧٦٠م/ ١٤٣ هـ(٥)؛ على النحو الذى يذكرنا بموقف الخوارج من السلطتين الأموية والعباسية والعمل ضدهما فى الأقاليم المتطرفة من الدولة فى المشرق وفى المغرب على السواء؛ ويذكرنا أيضا باقتداء بربر الأندلس ببربر المغرب فى الثورة على السيادة العربية فيهما.

كانت هاتان الثورتان نذير خطر داهم على فرويلة نفسه وعلى مستقبل مملكته الناشئة، وكان عليه بما عرف عنه من قسوة وبطش إحباطهما بالسرعة الممكنة

---

(١) Chron. Léonaise, ed. Cirot, p391.

(٢) Loc cit, p 392 .

(٣) قارن: Crón. de Lucas, ed Puyol,p 201; Chrón. Silense, ed. Flórez, p 277, Chrón. Léonaise, ed. Cirot, p 392, Crón del Rodrigo, ed Fuensanta, p 244, Prim Crón General., ed Pidal, 2p 338

(٤) Crón del Rodrigo, ed Fuensanta, p 244, 248; Estoria de los Godos, ed. Zabalhuru, p 66; Prim Crón. General,ed. Pidal, 2p 338

(٥) عن الثورتين قارن: Crón Alfonso III, ed. Villada, p 438, Cron de Lucas, ed Puyol, p 281; Prim Crón General , ed Pidal, 2p 338, Crón. del Rodrigo, ed Fuensanta, p 244, 247.

وإلاتفككت الوحدة التى جاهد والده فى إقامتها؛ ولذا قاد جيوشه بنفسه وباغت ثوار جليقية فانقض عليهم واحتوى ثورتهم ، بعدما خرب معاقلهم ودمرها ، واستعاد بذلك سيطرته على الاقليم . ومن هناك سارع إلى إقليم ألبة شرقا فأوقع بثواره أيضا وقضى عليهم وأعاد أهله إلى الطاعة (١)؛ وانتهز فرصة تواجده فى هذا الإقليم وعمل على توسيع حدود مملكته من تلك الناحية الشرقية، فهاجم أراضى البشكنس المجاورة وجال فيها حتى أخضعها لسلطانه (٢)، ثم عاد إلى مقر مملكته وفى ركابه الأسرى من تلك النواحى، ومن بينهم إحدى أميرات إقليم ألبة وتدعى مونيا Muna التى تزوجها بعدما وقع فى حبها؛ وربما كان زواجه منها لهدف سياسى أيضا وهو تدعيم أحقيته فى حكم هذا الإقليم. وقد أثمر هذا الزواج بانجاب ابن أسماه على اسم أبيه وهو الفونسو Alfonso (٣)، الذى سيرتقى عرش المملكة فيما بعد باسم الفونسو العفيف El Casto أو الثانى El Segundo . ومن فرط شغف فرويلة وحبه لتلك الأميرة الألبية أن صار لها تأثير قوى عليه،بحيث حملته على معاملة أهالى إقليمها باللين، مما كان له أثره على تقوية روابط ألبة بأشتوريس على أساس متين (٤).

ورغم استكانة الأمور فى المملكة بعد القضاء على هاتين الثورتين ، فلم يلبث فرويلة أن انجر وراء تهوره وقلة كياسته ليعجل باضطرابها ثانية، مما جر إلى كثير من المؤامرات والانقسامات والصراعات بين أفراد البيت المالك منذ ذلك الحين فصاعدا. فقد آلى فرويلة على نفسه أن يعيد إلى الأذهان ذكرى قصص الاغتيالات التى كثيرا ما كان يشهدها بلاط القوط فى مدينة طليطلة من قبل (٥)، فابتدأ بنفسه أولى فصول تلك القصص حينما أقدم فى عام ٧٦٧م/١٥١هـ على قتل أخيه الأصغر بيمارانو Vemarano ، تخوفا على عرشه منه (٦)؛ وغيرة وحقدا عليه لأنه كان يفوقه

---

(١) قارن: Crón. Silense, ed. Flórez, p 277; Crón . de Lucas, ed. Puyol, p 281; Crón. Alfonso III, ed. Villada, p 71, 118; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 66; Crón. Sebastiani, ed. Flórez, p 483; Crón. Rotense, ed. Moreno, p 616; Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p244.

(٢) Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 248; Prim Crón General, ed. Pidal, 2 p 338.

(٣) Crón. Rotense, ed. Moreno, p 616; Crón. Alfonso III, ed. Villada, p 71, 118; Crón Sebastiani, ed. Flórez, p 483; Crón Léonaise, ed. Cirot, p 391

(٤) Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 247; Estoria de los Godos, ed Zabalburu, p 66

(٥) مثل قصة اغتيال الملك توريسمند على يد أخيه ثيودوريك فى عام ٤٥٣م؛ واغتيال هذا الأخير على يد أخيه يوريك عام ٤٦٦م، وغير ذلك من الاغتيالات ، وعنها أنظر: طرخان ، تاريخ القوط الغربيين، القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٩٢، ٩٣. King, Law and Society in the Visigothic Kingdom, p3.

(٦) Crón. Albeldense, ed. Florez, p 451; Crón. Léonaise, ed. Cirot, p 392; Crón de Lucas, ed. Puyol, p 281; Prim Crón General, ed. Pidal, 2p 343; Crón del Rodrigo, ed Fuensanta, p 254.

شجاعة ونجدة وطيب سمعة حتى صار موضع حب كافة الشعب وتقديره (١)؛ إلى درجة لم يتردد فيها فرويلة - بما عرف عنه من قسوة - من أن يقتله بنفسه دون أن يعهد بتلك المهمة إلى غيره(٢)؛ وهو ما أثار ضده موجة من التذمر والسخط لاسيما بين نبلاء البلاط، فانشقوا عليه إلى الحد الذى قرروا فيه التخلص منه؛ فدبروا مؤامرة اغتالوه فيها بقصره فى مدينة كانجاس دى أونيس Cangas de Onis فى عام ٧٦٨م/ ١٥١هـ؛ ثم نقلوه إلى كنيسة سان سلفادور San Salvador فى مدينة أوبييدو Oviedo التى كان قد أرسى بنفسه أساسها حيث واروا فيها جثمانه إلى جوار زوجته(٣)، فنال بنص المصادر الإسبانية عقابا عادلا(٤)على ما اقترفه فى حق أخيه بيمارانو دونما جريرة (٥)؛ وإن تلمس بعض المؤرخين الحديثين العذر لفرويلة، فأقاموا علاقة بين قتل بيمارانو وثورة إقليم جليقية، زاعمين أن بيمارانو كان زعيم ثورتها ضد أخيه، فلما انتصر فرويلة عليها قبض عليه وقتله ليقضى على كل أمل لأهل جليقية فى الثورة عليه ثانية (٦)؛ فى حين ذهب آخرون إلى تورط بيمارانو فى مؤامرة النبلاء ضد فرويلة فقتله الأخير (٧) . ولم يدرك هؤلاء ولا أولئك أن ثورة جليقية كانت فى بدايات عهد فرويلة، وسابقة على قتل بيمارانو بسنوات عديدة؛ كما أن ثورة النبلاء كانت لاحقة لقتل بيمارانو الذى كان السبب الرئيسى فى مؤامرة هؤلاء النبلاء. وعلى كل فما أن فرغ النبلاء من مواراة جثمان فرويلة حتى اختاروا ابن عمه ويدعى أوريليو Aurelio - ابن فرويلة أخ الفونسو الأول (٨) - فأقاموه خلفا له على عرش المملكة.

---

(١) Crón. de Lucas, ed. Puyol, p 282, Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 254, Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 67; Prim Crón General , ed. Pidal, 2 p 343

(٢) Crón. Rotense, ed. Moreno, p 616, Crón. Sebastiani, ed. Flórez, p 482; Crón Léonaise, ed. Cirot, p 392

(٣) Crón. Sebastiani, ed Flórez, p 483; Crón. de Lucas, ed. Puyol, p 282; Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 254; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 67

(٤) Crón Alfonso III, ed. Villada, p 72, 119, Crón sebastiani, ed Flórez, p 483.

(٥) Cron. de Lucas, ed Puyol, p 281 - 282

(٦) Cotarelo, op cit, p 80.

(٧) رجب عبد الحليم، نفسه، ورقات ٧٠ ؛ Cabal, op cit p35

(٨) Crón.Alfonso III, ed Villada, p 72'; Crón. Sebastiani, ed. Flórez, p 483 ؛ وهو نسب أجمع المؤرخون الحديثون عليه ؛ وإن خالفته المدونات اللاتينية والاسلامية المتأخرة ؛ فتجعله بعضها أخا لفرويلة المقتول، أنظر Prim Crón General, ed Pidal, 2 p 343; Crón del Rodrigo, ed Fuensanta, p 255, Estoria de los Godos , ed. Zabalburu, p 67; ابن الخطيب ، تاريخ، ٢ص ٣٢٣. فى حين تجعله بعضها الآخر عم فرويلة، أنظر Crón de Lucas, ed. Puyol, p 282؛ أما القلقشندى (صبح، ٥ ص ٢٦٤)، فيجعله ابنا له ، فى حين نرى ابن خلدون (العبر ، ٤ ص ٢٨٦ - ٣٨٧) يسقط أوريليو من حسابه ويجعل مدة حكم فرويلة تمتد لتشمل مدة حكم أوريليو أيضا أى حتى عام ١٥٨هـ/ ٧٧٤م على أن كل هذه المدونات متأخرة ومضطربة فى روايتها عن تسلسل ونسب ملوك أشتوريس. وعن أصل وذرية أوريليو أنظر بتفصيل: Cotarelo, op cit , pp 33 - 36. .

وهنا أيضا نود التنويه إلى أن بعض المؤرخين الحديثين قد اعتقدوا أن أوريليو لم يحكم مملكة أشتوريس كلها ، وإنما أقاليمها الشرقية فقط؛ مبررين هذا الاعتقاد بانقسام المملكة على نفسها وقتذاك إلى إمارتين، إحداهما فى الشرق هى نبرة (بمبلونة) وهى التى حكمها أوريليو ؛ والثانية فى الغرب وهى جليقية التى كان يحكمها سيلو ؛ ويضيفون أن المملكة مع هذا الانقسام لم يقع فيها حرب أو منافسة (١) لكن هذا الاعتقاد خاطئ ويعوزه دليل ولا يقوى لنقد؛ ففضلا عن خروج نبرة وقتذاك عن سلطان أشتوريس كما أشرنا من قبل، ولا يعقل أن يحكم أوريليو إقليما خارجا أصلا عن سلطان مملكته؛ فإن رواية ابن الخطيب (٢) عن حكم أوريليو تنفى هذا الاعتقاد؛ إذ يتضح من روايته عنه أن سلطته امتدت على كل نواحى المملكة شرقا فى إقليم أشتوريس وغربا فى إقليم جليقية. وعلاوة على ذلك فالمصادر الإسبانية ذاتها لا تشير تصريحا أو حتى تلميحا إلى مثل هذا الانقسام؛ وعلى العكس فما يتضح من روايتها أن المملكة قد نعمت بالوحدة طوال مدة حكم أوريليو؛ ولم يكن سيلو معاصراً له فى الحكم وإنما خليفة له، ومدة حكم كل منهما ليست محل جدل بين هذه المصادر أو حتى بين المؤرخين الحديثين الذين تخصصوا فى دراسة تاريخ الممالك المسيحية الإسبانية.

والذى لا شك فيه أنه باعتلاء أوريليو عرش مملكة أشتوريس عام ٧٦٨م/ ١٥١هـ هدأت أمور البلاط، وعادت الأوضاع إلى سابق طبيعتها المستقرة، طوال مدة حكمه التى بلغت ست سنوات ونصف (٣) انتهت فى عام ٧٧٤م / ١٥٨هـ ، لم يتعكر

---

(١) أنظر: ..Abdurrahman El - Hajji , Christian States, op cit , p48؛ عنان ، دولة الاسلام ، ١ ص ٢١٤؛ رجب عبد الحليم، نفسه ، ورقات ، ٧٠ - ٧١ ، ٩٩.

(٢) تاريخ ، ٢ص ٣٢٣.

(٣) قارن: Crón. Profetica, ed. Moreno, p 623; Chron. Compostellani, ed. Flórez , 23 p 325; Chrón., Complutense, ed Huici, 1 p 52; Chron Lusitanum, ed. Flórez, p 402. فى حين تجعلها ست سنوات وبعض العام السابع الموافق لعام ٧٧٤ م / ١٥٨هـ كل من مدونات ليون (ed. Cirot, p392) ، والفونسو الثالث (ed. Villada, p 72, 119). وسباستيان (ed. Flórez,p 483) ؛ أما مدونة البلدة (ed. Flórez,p 451) فتجعلها سبع سنوات تنتهى فى ذلك العام أيضا. فى حين نرى ابن الأثير الكامل، (٥ ص ٥١) والقلقشندى (صبح، ٥ ص ٢٦٤) ومدونة لوكاس (ed. Puyol, p 282) يجعلونها ست سنوات فقط تنتهى فى نفس العام. أما ابن الخطيب (تاريخ، ٢ ص ٣٢٣) فيجعلها ست سنوات تبدأ فى عام ٧٦٦م الذى يجعله خطأ موافقا لعام ١٤٨هـ مثله فى ذلك مثل مدونة الفونسو العاشر (Primera Crón. General, ed. Pidal, 2 p 343) وإن كانت المدونة الأخيرة تبرز خطأها قائلة إن عام ٧٦٦م مقابل للعام الثالث عشر من حكم عبد الرحمن الداخل أى أنه عام ١٥١ هـ/ ٧٦٨م . أما مدونتا : Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 67; Crón del Rodrigo, ed. Fuensanta, p255 . فتجعلها سبع سنوات تبدأ بعام ٧٦٦م أيضا ، ويبرزان خطأهما بنفس الطريقة. وعن مناقشة مدة حكم أوريليو أنظر بتفصيل : Risco, Esp . Sagr. 37 pp 118 - 120 .

خلالها صفو هدوئه فى داخل دولته إلا فى العام الثانى من اعتلائه العرش(١)، أى فى عام ٧٦٩م / ١٥٢هـ حينما ظهر خطر جديد فريد من نوعه لم تشهده مملكة أشتوريس من قبل، ممثلا فى ثورة الأقنان ضد سادتهم (٢).

ومع أن المصادر الإسبانية لا تسمح لنا بتقصى دوافع تلك الثورة، لكن الذى لا شك فيه أنها تشابهت مع غيرها من دوافع كل ثورات الأقنان فى العصور الوسطى، حيث كان تردى أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية يلعب فيها دورا رئيسيا . ولسنا فى حاجة إلى الاستطراد فى أوضاع أقنان أشتوريس الاجتماعية والاقتصادية، ويكفى الإشارة إلى حقيقتين هامتين عنهم (٣). أولهما هى كثرة أعدادهم فى مجتمع أشتوريس وقتذاك(٤) حتى أن المتصفح لوثائق هذه الفترة يهوله ما تزخر به من أسمائهم(٥)، وعلى الأخص أقنان الملك والنبلاء ناهيك عن أقنان رجال الدين؛ وثانيهما أنهم كانوا يقومون بكل أنواع الخدمة بحيث يقع عليهم وحدهم أعباء كافة الانتاج الزراعى والحيوانى والصناعى؛ وباختصار كل ما يتطلبه سادتهم من أنواع الخدمة المتعددة.

ويكفينا هنا أن نلقى ـ على سبيل التمثيل ـ نظرة سريعة على قائمة واحدة لأقنان أحد أساقفة مدينة أوبييدو (٦)، لنتبين مدى كثرتهم وتنوع ما يؤدونه من أعمال. فمن أقنان هذا الأسقف أسرة جورماندو Gormando التى أوكل إليها تنظيف

---

(١) Prim Crón. General, ed. Pidal, 2 p343; Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 255 ; Crón. Albeldense, ed. Flórez, p 451; Crón. de Lucas, ed. Puyol, p 282; chrón Léonaise, ed. Cirot, p 392.

(٢) Crón. Alfonso III, ed. Villada, p 119. ، هذا وتسميها مدونة سباستيان (ed. Flórez, p 483). ثورة العتقاء ؛ أما مدونة الفونسو العاشر (ed. Pidal, 2p 343). فتسميها ثورة رقيق الأرض أى الأقنان؛ ويسميها بعض المؤرخين الحديثين ثورة الفلاحين ومنهم : رجب عبد الحليم ، نفسه ، ورقة ٧٠: ؛ Lomax, The Reconquest of spain, London 1978, p 28; Livermore, History of Spain, p 79

(٣) عن نظام الأقنان والعبيد بصفة عامة ومدى انتشاره فى مملكة أشتوريس، أنظر بتفصيل : Sánchez Albornoz, Origénes, 2pp 209 - 210, Cayetano Rusell, op cit, pp 26 - 27..

(٤) انقسم المجتمع الأشتورى إلى طبقتين أساسيتين هما الأحرار الشاملة للملك وخاصته والنبلاء ورجال الدين والملاك وغيرهم من العامة ؛ وطبقة العبيد . وعن ذلك فضلا عن حقوق وواجبات كل طبقة ، أنظر على سبيل المثال: عنان، دولة الاسلام، ٢ ص ٦٠١ – ٦٠٣؛ Somoza, op cit, 2pp 548 - 550

(٥) تتوفر وثائق عديدة من هذا النوع، وعلى سبيل المثال وثيقة هبة بعض المنح والأعطيات لكنيسة سان سلفادور بأوبييدو، المؤرخة فى عام ٨١٢م؛ وكذلك وثيقة الأسقف أدراريو فى مدينة لوجو الجليقية ، والأسقف ما كسيمو فى مدينة أوبييدو ؛ وعن نصوصها أنظر على التوالى : Floriano, op cit, 1 pp 118 - 113, 40 - 44, 48 - 53, 54 - 56, 62 - 65, 78 - 80.

(٦) عن نصها اللاتينى وترجمته إلى الإسبانية ، أنظر : Somoza, op cit, 2 pp 55 7 - 560

وإخلاء كل الطرق التى يرتادها الأسقف، فضلا عما يكلفها به من أعمال أخرى إضافية؛ أما أسرة برمودو إكتاث Vermudo Ectaz فكان عليها اصطياد الأسماك من نهر نالون Nalón؛ فى حين اختصت أسرتى جوان لينيث Juan Lainez ومارتين بييدو Martin Vellido بالاصطياد من البحر (خليج بسكاى) وتمليح ما تصطاده؛ أما أسرة سبريانو Cipriano فلتربية مواشى الأسقف ورعايتها؛ وأسرة لين جوتيريث Lain Gutierrez فلتربية دواجنه وطيوره؛ وأسرتى جومارثو Gomarzo وفرويلة كالبو Fruela Calvo لتغذية جياده والعناية بها ؛ وأسرة رومان نونييث Roman Nunez لقطع الأخشاب وتجميعها ونقلها والقيام بأعمال التجارة اللازمة؛ فى حين تفرغت ثلاث أسرات للقيام بكل الأعمال الزراعية نظرا لكثرتها وتعددها ؛ وهى أسرات سيد فاخيلاث Cid Fagilaz وبييدو جارسياث Vellido Garciaz وجارسيا سيديث Garcia Cidez ،إلى غير ذلك من الأسرات الموكل إليها القيام بأنواع الخدمات الأخرى التى تتطلبها حياة السيد وأسرته. وقس على ذلك أقنان رجال الدين الأخر والملك والنبلاء وغيرهم من أسياد المملكة؛ وهو ما يجعلنا نتصور أنه لو قدر لثورة أقنان أشتوريس هذه النجاح لأصابت اقتصادها أنذاك بالشلل التام وما يستتبعه ذلك من خلل اجتماعى وفوضى سياسية.

ولعل ذلك هو ما دفع الملك أوريليو إلى التدخل بنفسه لقمعها تحاشيا لأخطارها؛ وقد حالفه الحظ فى ذلك أيما توفيق ، فتمكن من القضاء عليها وإعادة الأقنان إلى قنيتهم الأولى مثلما تذكر المصادر الإسبانية ذاتها؛ التى يبدو منها أيضاً أن الملك لم يستخدم أيا من وسائل العنف فى القضاء عليها؛ وإنما الدبلوماسية والملاينة فكانا أجدى وأنفع لإعادة الأقنان إلى هدوئهم (١). ومن ثم خيم السكون من جديد بقية عهد أوريليو الذى انتهى بوفاته فى عام ٧٧٤م / ١٥٨هـ، فخلفه على العرش الملك سيلو، المعروف فى المصادر العربية باسم شيلون أوشيلة.

وليس هناك من شك فى أن معالجة أوريليو السلمية لهذه الثورة، مع ما كانت تنطوى عليه من أخطار مهددة لكيان دولته الاقتصادى؛ قد أفصح عن طبيعته السلمية. ومثل تلك الطبيعة لا يتوقع منها ميل إلى عنف وشدة أو سفك دماء حتى فى مواجهة ما يهدد كيان دولته من أخطار خارجية؛ وهو ما انعكس بوضوح على علاقته السلمية بالأندلس على نحو ما سنرى فيما بعد

لم يكن سيلو من الأسرة المالكة ذاتها سواء المنحدرة من بلايو أو من الفونسو، وذلك عكس ما أرادت له بعض المصادر الاسلامية واللاتينية المتأخرة التى جعلته

---

(١) عن الثورة وأحداثها بتفصيل قارن: Crón. Albeldense, ed. Flórez, p 451; Crón. Alfonso III, ed. Villada, p 119; Chrón Léonaise, ed. Cirot,p 392; Crón de Lucas, ed Puyol, p 282, Prim Crón General, ed. Pidal, 2 p 343.

بعضها ابنا لأوريليو (١) أو أخاً له (٢)؛ وبعضها الآخر جعله ابنا لفرويلة بن الفونسو الأول(٣)- الكاثوليكى أول ملوك اشتوريس- وإن اكتفى بعضها الرابع بالقول أنه ينحدر من أصل ملكى (٤). والواقع أن انتسابه إلى الأسرة المالكة كان حديثا حينما زوجه الملك أوريليو من أدوسندا Adosinda - ابنة الفونسو الأول الكاثوليكى - فى العام الخامس من حكمه أى فى عام ٧٧١ - ٧٧٢م/ ١٥٥هـ؛ وبسبب هذا الزواج وحده تمكن سيلو - كما تشير أقدم المصادر الإسبانية (٥) - من ارتقاء العرش، الذى كان مقصورا وقتذاك على الأسرة المالكة وحدها (٦) . وقد ظل سيلو متربعا على هذا العرش تسع سنوات كاملة، إلى أن توفى خلال السنة العاشرة من حكمه (٧) أى فى عام ٧٨٤م /١٦٨هـ .

لكن ما كاد سيلو يرتقى العرش حتى اضطربت عليه هو الآخر أمور دولته بثورة مفاجئة لأهل إقليم جليقية ؛ وهى ثورة لم تفصح المصادر الإسبانية كعادتها عن أسبابها أو تطوراتها؛ وإن كانت فى اعتقادنا لاتخرج عن كونها كانت تهدف إلى الانفصال عن المملكة، مثلما كانت ثورتهم على أيام الملك فرويلة فى عام ٧٥٨م / ١٤١هـ من قبل. وتكتفى تلك المصادر بالقول أن الملك سيلو نجح فى التصدى لهذه الثورة، وأوقع بنفسه بالثوار في جبل كوبييرو Cupeiro (Cubeiro) القريب من مدينة لوجو الجليقية (٨)، وأعاد أهل جليقية إلى طاعته (٩). ويبدو أن هذه الثورة كانت

---

(١) القلقشندى، صبح، ٥ ص ٤٦٢.

(٢) ابن الخطيب، تاريخ، ٢ص ٣٢٣؛ Prim Crón. General, ed. Pidal, 2p 343; Crón del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 255 .

(٣) ابن خلدون، العبر،٤ص ٣٨٧.

(٤) Crón de Lucas, ed. Puyol, p 282

(٥) قارن ; Crón. Alfonso III, ed. Villada, pp 72 - 73 , 119, Crón. Albeldense, ed. Flórez, p 451 ; Crón. Sebastiani, ed. Flórez,p 483; Crón. Rotense, ed. Moreno, p 617, Chron. Léonaise, ed Cirot, p 393; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 67 .

(٦) عن نظام تتابع العرش فى مملكة أشتوريس وقتذاك أنظر : Sanchez Albornoz, La Sucesion al Trono en los Reinos de Léon y Castilla, BAAL 1945, 14 p 36 Sqq, Barrau - Dihigo, Recherches, pp 213 - 220.

(٧) Crón Sebastiani, ed Florez,pp483 - 484 ; Chrón Léonaise, ed Cirot, p403 ؛ وتحددها غيرهما من المدونات بتسع سنوات وشهر ويوم واحد، أنظر: Crón. Profética, ed. Moreno, p 623 ; Chron Compluttense ed. Huici, 1 p 52, Chron Compostellanum, ed Florez, 23 p 325؛ أما مدونة البلدة (ed. Flórez, p 451) فتجعلها تسع سنوات فقط . ويكتفى ابن الأثير (الكامل، ٥ص ٧٠) بالقول أنه توفى فى عام ١٦٨ هـ (٧٨٤م). فى حين يجعلها ابن خلدون (العبر، ٤ ص ٣٨٧) عشرة سنوات ممتدة بين عامى ١٥٨ - ١٦٨ هـ (٧٧٤ - ٧٨٤م).

(٨) عن موقع هذا الجبل أنظر : Sánchez Albornoz, Origénes , 2p 212, 347 - 348 . ويعتقد بعض المؤرخين أنه جبل Cebrero ، أنظر: Quadrado, op cit, p 60 ; Valdeavellano, op cit, p 399; Barrau - Dihigo, Recherches, p 24 No 2

(٩) Crón. Sebastiani, ed. Flórez,p 483; Crón. Alfonso III, ed Villada, p73 , 120, Chrón Léonaise, ed. Cirot, p 393; Crón de Lucas, ed Puyol, p 282.

من الخطورة بحيث اضطر سيلو إلى نقل عاصمة المملكة من مقرها القديم مدينة كانجاس دى أونيس إلى مدينة برافيا Pravia (١)، الواقعة على شاطئ نهر نالون Nalon قرب الحدود الشرقية لإقليم جليقية ذاته، ربما ليسهل عليه رصد تحركات أهل جليقية عن كثب، وكبح جماحهم بالسرعة المطلوبة إذا ما عادوا إلى الثورة من جديد؛ ولابد وأنه مع هذه الاجراءات الأمنية قد كثف من تواجد قواته العسكرية فى تلك المنطقة تكثيفا يكفل له إخماد أى ثورة من جانب السكان. ومن ثم أمن سيلو شرهم ونعم بالهدوء حتى نهاية حكمه.

وقد استغل سيلو هذا الهدوء فى التفرغ للإشراف على إعادة تخطيط عاصمته الجديدة برافيا وتعميرها لترقى إلى مصاف العواصم؛ ولعل من أبرز مظاهر هذا التعمير ما شيده فيها من كنائس عدة وعلى رأسها كنيسة سان چوان San Juan ؛ التى يعتبر نقش تأسيسها فريدا فى شكله وطريقة كتابته (٢)، إذ رغم أنه يتكون من عبارة واحدة هى " Silo Princeps Fecit " وتعنى : شيدها الملك سيلو(٣)، فإنها كتبت فى خمسة عشر سطرا، وبكل سطر تسعة عشر حرفا، ومجموعها مائتى خمسة وثمانين حرفا، يمكن قراءتها بثلاثمائة طريقة وحتى خمسمائة؛ ولا زالت تلك الكنيسة باقية وإن اندثرت معالم مبانيها الأصلية لكثرة ما شملها من تجديد منذ ذلك الحين فصاعدا (٤)؛ وهى الكنيسة التى دفن فيها سيلو فيما بعد هو وزوجته أدوسندا كما تشير إلى ذلك المدونات الإسبانية(٥)، ووثيقة عام ٩٠٥م(٦)، ونقش مقبرة سيلونفسه(٧).

إلا أن هذا الاهتمام الذى نالته مدينة برافيا لم ينس سيلو غيرها من النواحى على امتداد دولته، فعمر بعض نواحيها بما أقامه فيها من منشآت معمارية جديدة أو بما أضافه إلى ما كان قائما فيها، وكان أغلبها منشآت دينية من كنائس وأديرة(٨) ؛ مثل

---

(١) Chrón. Albeldense,ed. Flórez, p 451.

(٢) عن نصه أنظر : Hubner, op cit , p 46 No 145; Vigil, op cit, p 475; Risco, op cit, 37p 117.

(٣) أنظر النقش فى الملاحق .

(٤) Cayetano Rusell, op cit , p 28

(٥) Chrón. Sebastiani, ed. Flórez, p 484; Crón de Lucas, ed Puyol, p 283 ; Prim. Crón General, ed. Pidal, 2 p 344; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p67

(٦) عن نصها أنظر: Risco, op cit, 37 pp 331 - 332 حيث تقول : أن جثمان سيلو وزوجته أدوسندا يرقدان فى تلك الكنيسة ، ونصها : "In Territorio Praviae Monasterium Sancti Iohannis Evangelistae, ubi Iacet Silux, Rex, et Uxor ejus Adosinda Regina"، وهى وثيقة أصلية لا تزال تحفظ فى هذه الكنيسة، أنظر : Vigil, op cit, p 476

(٧) وهو مكتوب بالأحرف الأولى ونصه "H.S.E.S.S.S.T.L." ويرى المؤرخون أن هذه الأحرف إختصار للكلمات التالية: Hic Situs est Silus, Sit Sibi Terra Levis ؛ أنظر: Vigil, op cit ,pp 143 - 144

(٨) Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 349 sqq

كنيسة لوكيس Lucis فى إقليم جليقية بين نهرى إيو Eo وماسما Masma التى أقامها فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ٧٧٥م / شوال ١٥٨هـ مثلما تدل وثيقة تأسيسها(١)؛ وكذلك توسيع كنيسة سان بيسنت San Vicente فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ٧٨١م(٢) /ربيع آخر ١٦٥هـ، وهى الكنيسة التى كان قد أقامها كل من مكسيمو Maximo وابن عمه فرومستانو Fromestano بمدينة أوبييدو خلال عهد فروبلة مثلما أشرنا من قبل.

وعلى ما يبدو فلكي يتفرغ سيلو لمتابعة هذا النشاط التعميرى ؛ فقد أشرك معه فى الحكم ابن أخى زوجته الفونسو بن فروبلة، بأن عهد إليه إدارة كافة شئون البلاط(٣)؛ ولا نستبعد أن تكون زوجته أدوسندا وراء هذا القرار لا سيما وأنه لم ينجب منها أى أبناء، وكان ابنه أدلجاستر Adelgaster (٤) غير شرعى من سيدة أخرى لا تنتسب إلى الأسرة المالكة، ولم يكن بمقدور سيلو إشراكه فى الحكم، أو يتوقع له أن يخلفه على العرش،لأن الملكية الأشتورية لم تكن تعترف بمثل هؤلاء الأبناء (٥). ومن ناحية أخرى لم تكن أدوسندا تميل إلى أحد من بقية أفراد أسرتها بقدر ميلها إلى ابن أخيها هذا، لدرجة أنها هى التى احتضنته بعد اغتيال أبيه عام ٧٦٨م / ١٥٠هـ، وتولت تربيته وتنشأته حتى اشتد عوده؛ ولابد وأن تخوفها من أن يرتقى أحد غيره عرش المملكة بعد وفاة زوجها؛ هو الذى دفعها ألا تعدم الوسيلة لإقناعه بأن يشركه معه تمهيدا لأن يخلفه فى الحكم. وتلك كانت المحاولة الثانية لإحلال نظام التوريث محل الانتخاب(٦)، بعد محاولة الفونسو الأول الكاثوليكى الذى أشرك معه أخاه فروبلة لكنه توفى قبل الفونسو نفسه(٧)؛ أما محاولة أدوسندا فقد قدر لها النجاح، بفضل

---

(١) وهى وثيقة أصلية لازالت محفوظة فى أرشيف كاتدرائية ليون Léon برقم (1. Perg.) وعن نصها أنظر: Floriano, op cit, 1pp 66 - 68.

(٢) لازالت الوثيقة الدالة على ذلك محفوظة فى أرشيف نفس الكنيسة، وعن نصها أنظر: Floriano, op cit, 1 p 78 - 80; Risco, op cit, 37p 309 - 311 ، وعن التوسعات التى أجراها سيلو فيما بعد على الكنيسة ، أنظر: Risco, op. cit, 37 p 114

(٣) أنظر: Crón. Rotense, ed. Moreno, p 617; Crón. Alfonso III, ed. Villada, p 120; Crón. Léonaise, ed. Cirot, p 393; Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 356; Prim Crón.General, ed. Pidal , 2 p 344.

(٤) لم يرد اسمه فى المصادر الاسبانية ؛ وإنما ورد مع اسم زوجته برونلد Brunildi. فى وثيقة تأسيسهما لكنيسة سانتا ماريا .Santa Maria (San Antolin الحالية) فى أوبونا .Obona الواقعة إلى الجنوب الغربى من مدينة براقيا؛ والوثيقة مؤرخة فى ١٧ من يناير عام ٧٨٠ م وعن نصها أنظر Risco, op cit, 37 pp 308 - 309; Floriano, op cit, 1 pp 72 - 74 وعن النقوش الخاصة بتأسيس هذه الكنيسة وتجديدها أنظر: .Vigil, op cit, pp 571 - 572 وعن الكنيسة بتفصيل أنظر : Risco, op cit, 37 pp 183 - 185

(٥) أنظر: Barrau - Dihigo, Recherches, p 218.

(٦) عن تلك المحاولات أنظر بتفصيل : Barrau - Dihigo, op cit, pp 328 - 330

(٧) Chrón Silense, ed. Flórez, p 280.

دورها البارز أيضا فى التأثير على نبلاء البلاط المنوط إليهم الاختيار، بحيث إنه حينما توفى زوجها فى عام ٧٨٤م / ١٦٨هـ لم يعارض أحد منهم فى اختيار الفونسو هذا؛ وهو دور أشارت إليه المصادر الإسبانية (١)٠ وتلك كانت الإشارة الأولى والأخيرة إلى دور نسائى فى تاريخ مملكة أشتوريس .

ارتقى إذن الفونسو بن فرويلة عرش أشتوريس خلفا لسيلو فى عام ٧٨٤م/ ١٦٨هـ؛ ولقب بالعفيف El Casto كما عرف بالفونسو الثانى Alfonso El Segundo؛ ولكنه من أسف لم يقدر له أن يهنأ بعرشه إلا أياما معدودات ؛ إذ وثب عليه منافس قوى اتصف بالصلف والكبرياء (٢) والطموح الجارف(٣)، هو عمه موريجاتو Mauregato(مورقاط أو سمول ماط عند المؤرخين المسلمين)؛ الذى لم ير فى الفونسو ما يفضله، فإن كان هو ابن غير شرعى فالفونسو ابن أسيرة حرب بشكنسية الأصل؛ ولذلك أعد ضربة مفاجئة جريئة فرض نفسه بها ملكا على البلاد واغتصب العرش لنفسه (٤)؛ فى انقلاب كان أول انقلاب ناجح لاغتصاب عرش المملكة بالقوة؛ ولكنه جر بطبيعة الحال إلى صراع استغرق مدة من الزمن، اختلت خلالها الأمور اختلالا وصلت أنباؤه إلى المؤرخين المسلمين (٥) فدونوه؛ وإن أخطأوا فى القول باقدام موريجاتو على قتل الفونسو عقب نجاح انقلابه هذا، إذ سيظهر الفونسو ثانية على مسرح الأحداث السياسية بعد نحو ثمانى سنوات كأقوى ملوك أشتوريس وأطولهم بقاء على عرشها.

ذلك أن الفونسو وعمته أدوسندا لم يستسلما للمغتصب بسهولة، وإنما قاوماه لاسترداد العرش منه ؛ لكنهما حينما يئسا فى استرداده أو فى النيل من المغتصب؛ آثرا التخلى عن المضى فى مقاومته وسلما بالأمر الواقع، وكان على أدوسندا أن تنفذ فى هذه الحالة ما تقضى به المادة الخامسة من قرارى مجمعى طليطلة الثالث عشر(عام ٦٨٣م) وسرقسطة الثالث (عام ٦٩١م)؛ التى تنص على وجوب انتظام أرملة الملك فى سلك الرهبنة بعد وفاته (٦)، فاختارت دير سان جوان San Juan الذى كان قد أقامه زوجها سيلو فى مدينة برافيا، لتقضى فيه بقية حياتها طالت أم قصرت.

(١) قارن : Crón. Sebastiani, ed. Flórez, p 484, Crón. Rotense, ed Moreno, p 617; Crón. Alfonso III, ed Villada, p 73, 120; Crón del Rodrigo, ed Fuensanta, p 257; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 67.

(٢) Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 393.

(٣) Prim. Crón. General, ed. Pidal, 2p 345.

(٤) Crón. Sebastiani, ed. Flórez, p 484; Crón. Albeldense, ed Moreno, p 617; Crón. Alfonso III, ed Villada, p 73, 120; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 393

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٥ص ٧٠؛ ابن خلدون ، العبر، ٤ص ٣٨٧ ؛ القلقشندى، صبح، ٥ص ٢٦٤.

(٦) عن نص هذه المادة أنظر: Sanchez Albornoz, Origénes, 2 p 358 No 20

أما الفونسو فلم يجد بدآ من الفرار إلى دير ساموس Samos فى إقليم جليقية لائذا به (١)، وفيه تخفى إلى أن اتخذ طريقه إلى إقليم ألبة - وكان وقتذاك تحت السيادة الاسلامية - ليقيم هناك فى كنف أخواله البشكنس (٢). وبذلك خلا الجو لموريجاتو فظل متربعا على عرش أشتوريس دون منافس على مدى خمس سنوات كاملة حتى توفى مع بداية العام السادس أواخر عام ٧٨٨م(٣) /١٧٢هـ، وهو ذات العام الذى توفى فيه عبد الرحمن الداخل فى الأندلس.

وجدير الإشارة أن بعض مؤرخى العرب الحديثين يوردون أنباء اغتصاب موريجاتو العرش، وماتلاه من أحداث على صورة مغايرة للواقع؛ فذهبوا إلى القول بانقسام مملكة أشتوريس على نفسها إثر موت سيلو، لأنه أوصى بالعرش من بعده لألفونسو بوصاية عمته أدوسندا - زوجة سيلو- فلم يقبل الأشراف حكمها، ونشبت ضدهما ثورة بزعامة موريجاتو فى إقليم جليقية، ففر الفونسو إلى ألبة ومن هناك استنجد بالفرنجة فأعانوه ضد موريجاتو، فى حين استعان موريجاتو بالمسلمين لأنه كان يمت لهم بصلة القرابة من ناحية أمه، وبالغ فى التودد إليهم مبالغة أثارت ضده رجال الدين فى دولته حتى بغضوه وأثاروا الشعب ضده (٤).

ولنا على هذا الرأى بعض التحفظات التى قد تبين مجانبته للواقع، إذ لم يحدث أن طبق نظام الوصاية على العرش فى مملكة أشتوريس ولو لمرة واحدة طوال مدة تواجدها على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان؛ ولا وجود علاوة على ذلك لنص واحد مؤكد يثبت أن سيلو أوصى من بعده لألفونسو، لكن الثابت أن نبلاء البلاط - المنوط إليهم اختيارالملك الجديد حسب النظام المتبع آنذاك - قد أجمعوا دون خلاف على اختيار الفونسو إثر وفاة سيلو . كما أن وثوب موريجاتو بالفونسو قد وقع فجأة (٥) فى العاصمة براڤيا بإقليم أشتوريس، دون أن يمهد موريجاتو لوثبته بالثورة فى إقليم جليقية؛ ولا يظهر فى أى نص ما يفيد استنجاد الفونسو بالفرنجة ضد

---

(١) عن نص الوثيقة الدالة على ذلك، وهى مؤرخة فى أول أغسطس عام ٩٢٢م أنظر: Flórez, Esp Sagr. , 14 p 369 .

(٢) Crón. Alfonso III, ed. Villada, p 63, 120; Crón. Sebastiani, ed Flórez, p 484; Crón de Lucas, ed. Puyol, p 283; Prim Crón General, ed. Pidal, 2 p 345

(٣) تحددها مدونات Crón. Proféuca,ed. Moreno, p 623; Chrón Compostellani. ed. Huici, 1p82; Chrón Complutense ,ed Huici, 1 p 52, بخمس سنوات ونصف؛ وتحددها بست سنوات كاملة مدونات Sebastiani, ed. Flórez, p 484; Crón Rotense, ed. Moreno, p 617; Crón Lusitanum , ed .Flórez, p403; Chrón. Léonaise, ed. Cirot, p393

(٤) أنظر: عنان، دولة الاسلام ١ص ٢١٤ - ٢١٦؛ رجب عبد الحليم، نفسه، ورقات ٧٠، ١٠١، ٣٢٤؛ Abdulrahman El - Hajji, Christian States, p 48.

(٥) أنظر : Crón Sebastiani, ed. Flórez, p 484; Crón. Alfonso III, ed Villada, p 73

المغتصب، إذ لم يقدر للعلاقات بين أشتوريس والفرنجة أن تبدأ بعد؛ وإنما تأخرت إلى ما قبل منتصف القرن التاسع الميلادى بقليل - أى بعد هذه الأحداث بنحو قرن من الزمان - واقتصرت حينذاك على تبادل المودة بينهما، دون أن تتعداها إلى أى شكل من أشكال التعاون أو العمل الحربى أو الدفاعى المشترك. أما القول بأن أم موريجاتو كانت عربية فهو استنتاج لم يقم عليه أى دليل بعد، ولا زال كثير من المؤرخين يرفضون الأخذ به ويؤكدون أنها من أصل أشتورى إسبانى(١).

ومن جهة أخرى فإن قصة استنجاد موريجاتو بالمسلمين ومعاونتهم له لم تظهر فى المصادر الإسبانية السابقة على القرن الثانى عشر الميلادى، وإنما فى المصادر التالية له التى انفردت بالقول أن موريجاتو وفد على الأندلس حينما اعتلى الفونسو العرش؛ وسأل المسلمين معاونته للإستيلاء على العرش منه فى مقابل اعترافه بالتبعية لهم، فأمدوه بجيش ضخم فيه بعض المسيحيين عاد به موريجاتو إلى إقليم أشتوريس، وتمكن من انتزاع العرش من غريمه ، فخشى الأخير على نفسه وفر إلى إقليم ألبة، فى الوقت الذى حافظ موريجاتو على صداقته للمسلمين والتودد إليهم بما يتنافى مع تعاليم الدين المسيحى؛ إذ اشترى مسالمتهم ومودتهم بتقديم مائة عذراء من عذراوات أشتوريس المسيحيات - منهن خمسين من طبقة النبلاء ومثلها من عامة الشعب - كجزية سنوية يرفه بها المسلمون عن أنفسهم؛ فجلب موريجاتو بذلك على نفسه نقمة الرب وغضب الشعب (٢).

ومن المخاطرة الأخذ بتلك القصة فى مجملها أو تفاصيلها التى لاتعدو أن تكون من نسج خيال المؤلفين الإسبان المتأخرين (٣) ؛ ربما بدافع من تحاملهم على موريجاتو بسبب اغتصابه العرش من الفونسو الذى اختاره النبلاء كملك شرعى؛ ولا أدل على ذلك من أن بداية الجزية المشار إليها لا ترتبط فى رواياتهم بموريجاتو وإنما بالملك أوريليو قبله، وأنها ظلت تدفع للمسلمين منذ ذلك الحين ولمدة ثلاثة أرباع قرن حتى أوقفها الملك راميرو Ramiro فى بداية عهده (٤) الذى بدأ عام ٨٤٢م. ومع ذلك فلم يتحامل هؤلاء المؤلفون على أى من ملوك تلك الفترة مثلما تحاملوا على موريجاتو. يضاف إلى ذلك أن المصادر الإسبانية السابقة على القرن الثانى عشر الميلادى لم تشر إلى قصة معاونة المسلمين لموريجاتو أو دفعه الجزية لهم ، وهو أمر نؤكد معه أنها ما كانت تصمت عن ذكره والإشارة إليه فيما لو حدث منه شئ .

---

(١) أنظر على سبيل المثال : Risco, Esp Sagr., 37 p 121; Quadrado, op cit, p 63; Cabal, op cit, pp 89 - 93.

(٢) قارن: Crón de Lucas, ed. Puyol, p 283 ; Crón del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 258, Estoria de los Godos , ed. Zabalburu, p 67 - 68 ; Prim Crón. General,ed. Pidal, 2 p 345

(٣) Sánchez Albornoz , Orígenes, 2 p355

(٤) قارن : Crón de Lucas, ed. Puyol, p 282, 290, Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 255, 286; Prim Crón. General, ed. Pidal, 2pp 243, 359 - 360 .

ومن ناحية ثالثة فإن المصادر الإسلامية ذاتها (١) تنفى تأييد المسلمين أو معاونتهم لموريجاتو، بما تشير إليه من غزو هؤلاء المسلمين أراضى أشتوريس فى أعقاب اغتصابه العرش؛ مستغلة ما نتج عنه من اضطراب أمورها واختلالها. فكيف إذن تستقيم أمور غزو المسلمين لمملكة أشتوريس حسب الرواية الإسلامية مع صداقتهم ومساندتهم لملكها حسب الرواية الإسبانية ؟ وخلاصة الأمر فقد ظل موريجاتو على عرش أشتوريس بقية عهده دون أن تنسب إليه المدونات الإسبانية شيئا يذكر، حتى توفى فى ذات العام الذى توفى فيه الأمير عبد الرحمن فى الأندلس أواخر عام ٧٨٨م /١٧٢هـ.

وعلى النحو السابق كان اضطراب أحوال أشتوريس فى عهد الملوك الأربعة الذين خلفوا الفونسو الأول؛ بما توالى عليها من فتن وحركات انفصالية ومطامع فى السلطة؛ وكان بالإمكان أن تستغل الأندلس هذا الاضطراب لتقتص منها على جرأتها السابقة، لولا أن كانت هى الأخرى - وبقية العالم الاسلامى - غارقة طوال تلك الفترة فى همومها ومتاعبهاحتى أذنيها.

ذلك أنه حينما سقطت الخلافة الأموية فى المشرق عام ١٣٢هـ/٧٥٠م على أيدى بنى العباس، تفرغ الأخيرون لتثبيت سلطانهم فيما ورثوه من أقاليم، وكان من بين وسائلهم فى ذلك أن عملوا على إشفاء صدورهم من الأمويين ؛ فبحثوا عنهم فى كل مكان، وبطشوا بأمرائهم دونما رحمة أو شفقه. وتاق الأمويون من جانبهم إلى النجاة من هذا البطش، فاختفى بعضهم عن الأنظار وفر آخرون إلى ولايات العالم الإسلامى المتطرفة ناجين بأنفسهم (٢) ؛ وكان من بين هؤلاء الفارين ممن لم تدركهم سيوف العباسيين شاب يدعى عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك ،حملته الطريق إلى بلاد المغرب حيث كانت السيطرة لحاكم شبه مستقل عن العباسيين هو عبد الرحمن بن حبيب الفهرى؛ الذى عرفته أحداث المغرب والأندلس كشخصية طموحة، حتى انتهى به الأمر إلى انتزاع ولاية المغرب إثر انقلاب ضد أميرها حنظلة بن صفوان؛ فاستقر الأمير الأموى إلى حين يلتقط أنفاسه ليقرر بعدها أى طريق يمضى إليه .

كان هذا الأمير الأموى شابا ممتلئا بالعافية مشعا بالذكاء طموحا بلا حدود؛ وتلك صفات تؤهل صاحبها لجسام المسئولية. وهذا ما حدث لذلك الطريد الذى نجا

---

(١) أنظر: ابن الأثير، الكامل، ٥ص ٧٠؛ ابن خلدون ، العبر، ٤ ص ٣٨٧.

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٤٦ وما بعدها .

من القتل بأعجوبة، فهو لم يفر رغبة فى النجاة وحدها وإنما تحركت فيه أحلام السلطة؛ ونازعته شهوة الملك يدفعه إليها نبوءة فى الزمان سبقت (١)، ولم تكن ولاية المغرب على بعدها عن مركز الخلافة العباسية تكفى طموحه العريض؛ وما كانت هى بالأمر اليسير عليه حتى لو أرادها. لأن هذه الولاية التى نالت حينذاك بعض الاستقلال لم تكن مؤهلة لقبول هذا الأمير، فحاكمها الفهرى لم يكن يستسيغ وجود منافسين له فى مكان ناضل كثيرا قبل الوصول إليه، خاصة إذا كانوا ينحدرون من أسرة ملكية مثله؛ وقد تجلى هذا الشعور العدائى الذى يكنه الفهرى فى تصفيته لاثنين من أبناء الخليفة الأموى الوليد بن يزيد؛ كانا قد لجآ إلى المغرب شأن عبد الرحمن الأموى (٢). فما كان من هذا الأخير إلا أن تجنب الظهور واختفى إلى حين فى الظلام حتى ينجلى الموقف؛ ومضت عليه وهوعلى هذا الحال سنوات أربعة متنقلا بين قبائل البربر فى المغربين الأوسط والأقصى، دون أن يثيرغباراً وراء تنقلاته الخفية. وكانت أخبار الأندلس القريبة تترى عليه بما فيها من فوضى واضطراب، حيث كانت تمزقها الحرب الأهلية بين القيسية واليمنية على النحو الذى فصلناه من قبل؛ فى الوقت الذى كانت فيه غالبية البربر مقهورة مغلوبة على أمرها فى انتظار نتيجة الصراع ، فما كان من عبد الرحمن إلا أن توجه بطموحه إلى هذا الاقليم الذى وجد فيه فرصة أكثر منالا من المغرب، لاسيما وأن عددا كبيرا من موالى بنى أمية يتواجدون فيه.

ومع نهاية عام ١٣٦هـ/٧٥٤م كان بدر مولاه يشق طريقه إلى الأندلس فى مهمة سرية للاطلاع عن كثب على أجوائه السياسية، ودراسة السبل التى تمهد لسيده العبور، واتخاذ ركائز فيه حيث الفرص مواتية والمتخاصمون ليس فيهم من له صفات القيادة ، أو مواهب الحكم التى تتوفر لعبد الرحمن.

كانت أولى مهام بدر الاتصال بموالى بنى أمية (٣)- وهم فى معظمهم من بقايا الشاميين- فالتقى باثنين من زعمائهم ، وفى الاجتماع أسهب فى عرض مأساة الأمويين والكارثة المفجعة التى حلت بهم على أيدى بنى العباس؛ ثم عرج على وصف المطاردة الوحشية التى تعرض لها أمراؤهم على أيديهم، وما عاناه سيده هذا على الخصوص حتى أدرك النجاة . فلما تأكد من تنشيط مشاعرهم وإثارة شفقتهم على بنى أمية بعامة ؛ بدأ فى عرض الموضوع الرئيسى من مهمته فأسهب فى الإشادة بصفات عبد الرحمن ومؤهلاته كحفيد لهشام، ومقدرته على رد الاعتبار

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٥١ - ٥٢؛ المقرى ، نفح، ١ ص ٣٢٨ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ٢ ص ٤٠، ٤١ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٥٠ ، ٥٥ .

لجماعته الأموية إذا ما أتيحت له فرص المساعدة[1]. والحق أن اللقاء كان وديا للغاية بحيث لم يتردد الزعيمان الشاميان - عقب هذا الاجتماع المثير - فى إبداء رغبتهما للبدء على الفور فى تنفيذ رغبة الأمير الأموى؛ وهكذا أسفرت أولى اتصالات بدر عن قيام نواة لفريق مؤيد للأمير القابع فى سبتة.

ثم كانت الخطوة التالية حينما توجه هذا الفريق إلى الحزب المعارض من القبائل اليمنية، التى كانت لا تزال تستأثر بالكثافة العددية فى البلاد، وتتخذ موقفا عدائيا ثابتا من الحكم القيسى الموزع بين يوسف الفهرى ورفيقه الصميل. ولم تكن هناك عوائق فى الاتصال بهذا الحزب المرتبط عضويا بالأسرة الأموية، منذ أن انتصر لهم مروان بن الحكم على القيسية في موقعة مرج راهط عام ٦٤هـ؛ والآن يدعى لحفيده عبد الرحمن بإمارة الأندلس. وكانت البداية مع هذا الحزب طيبة باستجابته للفكرة والتحمس لها، إذ لم يكن هناك ما يدفع هذا الحزب اليمنى إلى التردد فى قبول العرض، لاسيما وأن فيه الفرصة التاريخية للتحرر من قيود القيسية، والانتقام منها لما أنزلته بهم من ذل وهوان فى شقندة وغيرها من المواقع.

وعلى هذا النحو بات موالى بنى أمية واليمنية يملكون من المعطيات ما يشجعهم على دعوة عبد الرحمن، خاصة وأن الظروف بدت مواتية إلى حد ما ، فى وقت غاب فيه كل من يوسف والصميل عن عاصمة البلاد فى مهمة حربية بالشمال. وكان على بدر أن يضع سيده فى الأجواء المشجعة للموقف السياسى هناك، حيث لاحت بشائر الفرصة التاريخية أمامه بعد ما ضاقت بطموحه رمال الشاطئ المغربى وهو يذرعها تسكعا فى انتظار الخبر الموعود. وسرعان ما قفز عبد الرحمن بذلك الطموح إلى الضفة الأخرى من المضيق لينزل ضيفا على أبى عثمان عبيد الله بن عثمان زعيم موالى بنى أمية، الذى كان فى استقباله فى قرية طرش Torrox على ساحل إلبيرة Elvira فى ربيع الآخر عام ١٣٨هـ/٧٥٥م [2]؛ فسرى خبر وصوله كالبرق واجتمع حوله الأنصار يتدافعون وراء بعضهم، مأخوذين بشخصيته القوية وجرأته النادرة، بعدما وجدوا فيه مما سمعوه طرازا جديدا فى الزعامة السياسية.

ومع بداية ربيع ذات العام ١٣٨هـ/٧٥٦م كانت طلائع الجيش الذى التف

---

(١) أعلاه ، ص ٦٧ .

(٢) عن قصة هروب عبد الرحمن حتى عبوره إلى الأندلس، أنظر على سبيل المثال : المقرى، نفح، ٤ ص ٢٨ - ٣١ ، ٤٩ - ٥١ ؛ أخبار مجموعة، ص ٤٦ - ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٩ - ٧٠ ؛ ابن عذارى، البيان ، ٢ص ٤١ ، ٤٣ - ٤٤ ؛ مجهول ، فتح الأندلس، ص ٤٤ - ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ - ٥١ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، ص ١١٠ - ١١٢ ؛ النويرى ، نهاية ، ٢٢ / ١ص ١ - ٤ .

حول عبد الرحمن ـ وقد بلغت ألفى فارس، تغادر معسكره إلى أرشذونة Archidona، التى كانت أول مدينة تجهر بتأييدها العلنى له؛ ومنها خرج ليلقى الترحاب فى المدن الأخرى ويستقطب أجنادها، حتى أدرك إشبيلية وبدأ يعد العدة للتقدم إلى قرطبة العاصمة الخالية وقتذاك من قوتها الدفاعية. وهناك وافته الأنباء بعودة يوسف والصميل من الشمال وزحفهما نحوه باتجاه إشبيلية لوقف تقدمه ؛ لكنه فى مبادرة ذكية سريعة نفذها تحت ستار الليل لم ينتظرهما وإنما تجاوز إشبيلية فى اتجاه قرطبة؛ فاضطرب يوسف والصميل بهذه الخطوة غير المتوقعة وتراجعا مرتبكين ، ليكونا طرف السباق الآخر فى الوصول إلى قرطبة ليحولا دون دخوله إياها . وهكذا امتد الجيشان على ضفتى نهر الوادى الكبير فإلى الشمال عسكر يوسف والصميل فى المصارة، وإلى الجنوب اتخذ عبد الرحمن معسكره (١)، ومضت أيام والفريقان يرقب أحدهما الآخر، وقرطبة عن كثب ترقب بدورها من سيكون له حظ امتلاكها والسيطرة من خلالها على الأندلس كلها.

وفى التاسع من ذى الحجة عشية عيد الأضحى دعا عبد الرحمن إلى مجلس حرب قبل أن يحسم الأمر، فإذا بأركانه يجمعون على القتال؛ وفى صباح اليوم التالى كانت الظروف مواتية للهجوم الذى قرره، وبسرعة تحولت المعركة إلى معسكر يوسف ورفيقه فى المصارة، وبنفس السرعة تمزق جيشهما المتهالك، وألقى يوسف بقدميه رغم شيخوخته للريح ولاذ بطليطلة ، بينما أخذ الصميل وقد سقط كل غروره فى المعركة طريق الهرب إلى جيان؛ فدخل عبد الرحمن قرطبة وخطب فى الناس معلنا انتهاء تبعية الأندلس للمشرق وقيام دولته الجديدة (٢)، التى أعاد بها إلى الوجود دولة بنى أمية التى انهارت فى المشرق على أيدى بنى العباس.

لكن إذا كانت المصارة قد فتحت أبواب الحظ أمام عبد الرحمن الأموى ليحتل عرش الإمارة فى قرطبة وبعض المدن القليلة الأخرى التى أعلنت تأييدها واعترفت بسيادته، فقد كان الجزء الأكبر من البلاد لا يزال فى قبضة القيسية، وبعضها الآخر فى موقف المتردد الذى لم ينته بعد إلى اقتناع نهائى أو استيعاب المتغيرات المستجدة. ولأن عبد الرحمن كان يفتقد إلى عصبية تؤازره فقد طمع فى إزالته عن سلطانه كثيرون، منهم من كان لحكمه معارض، وآخر لما بلغ من سلطان حاسد،

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٨٦ ؛ وأنظر أيضاً: إبراهيم بيضون، الدولة العربية ، ص ١٧٧ .

(٢) عن الصراع بين عبد الرحمن ويوسف حتى اعلان الدولة الاموية ، أنظر : ابن القوطية، تاريخ ص ٤٦ – ٥٤ ؛ ابن عذارى ، نفسه، ٢ص ٤٤ – ٤٧ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص ٥١ – ٥٦ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، ص ١١٢ – ١١٤ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٧٩ وما بعدها؛ المقرى نفح، ٤ ص ٣٢ – ٣٣ ، ٥١ ، ٥٣.

وفريق على سياسة الشدة التى اتبعها لإرساء قواعد دولته ناقم، وآخرون ساندوه طمعا فى السلطان فلما لم يتحقق لهم الرجاء خرجوا عليه ثائرين. لذلك كان عليه أن يقضى فترة حكمه التى طالت حتى عام ١٧٢هـ/٧٨٨م فى مقارعة هذه العناصر المعارضة من العرب قيسية كانت أم يمنية فضلا عن البربر.

ومن الطبيعى أن تبدأ المعارضة لعبد الرحمن من زعيمى القيسية يوسف والصميل صاحبى السلطان القديم، إذ مالبث يوسف - وكان لايزال متعلقا بأمل استعادة سلطانه - أن تحرك مع أنصاره القيسية إلى جيان، حيث الصميل الذى استنفر هو الآخر حلفاءه وحشدهم من مختلف المعسكرات الموالية له آنذاك؛ وقام الزعيمان بهجوم خاطف على حامية مدينة جيان وسيطرا على زمام الأمور فيها وفى إلبيرة وبهذه التحركات لم يعد أمام عبد الرحمن مجال للاستهانة بقوة يوسف ورفيقه، أوبالتهديد الذى يشكلانه على قرطبة العاصمة؛ فبادر إلى التحرك نحوهما فى إلبيرة، قبل أن تتسع دائرة تمردهما كلما ازداد اقترابا من العاصمة؛ وما أن اقترب عبد الرحمن من معسكرهما حتى غاب فجأة شبح الحرب، وحلت مكانه مفاوضات سلمية انتهت فى صفر عام ١٣٩هـ/ يوليو ٧٥٦م بالاتفاق على أن يمنح عبد الرحمن العفو للزعيمين ويأخذ اثنين من أبناء يوسف هما أبو زيد وأبو الأسود كرهينة ضمانا لحسن النوايا ؛ ثم عاد الزعيمان معه إلى قرطبة ليكونا تحت مراقبته (١).

لكن لوثة الزعامة ظلت تطارد يوسف وهو فى قرطبة؛ خاصة وأن عبد الرحمن شدد الرقابة على تحركاته، وألب عليه صنائعه ينازعونه فى أملاكه «حتى توحش يوسف منه » (٢)؛ وفى العام التالى ينكث يوسف بالصلح (٣) ويختفى فجأة من قرطبة ليظهر فى ماردة؛ مدفوعا إلى محاولة جديدة بتحريض عدد من أنصاره المغامرين الذين ظلوا « يلقون عليه التحريف ويندمونه على ما كان » (٤) له من سلطان. وفى ماردة اجتمعت ليوسف حشود هائلة من العرب والبربر زحف بهم إلى مدينتى لقنت وإشبيلية حيث انضمت إليه أعداد أخرى تضخمت بها أعداد قواته حتى بلغت عشرين ألفا أو يزيد؛ مضى بهم فى اتجاه مدينة قرطبة بغية استعادتها. إلا أن رد فعل عبد الرحمن على هذه التحركات كان عنيفا، وانعكست حالته النفسية على قراراته السريعة بالقبض على ابنى يوسف المرتهنين، وعلى الصميل أيضا بتهمة التآمر وتحريض يوسف، وأودع ثلاثتهم السجن (٥) ليرى ما بشأنهم بعد الفراغ من يوسف الذى أعد له خطة يوقعه بها بين شقى الرحى.

---

(١) قارن فى ذلك : أخبار مجموعة، ص ٩١ - ٩٤ ؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٥٦ - ٥٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٣ ص ٤٦٩؛ ابراهيم بيضون، نفسه ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) قارن : المقرى ، نفح ، ٤ ص ٣٤؛ النويرى ، نهاية، ٢٢ / ١ ص ٥.

(٣) ابن عذارى، البيان ، ٢ ص ٤٨ .

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٩٥.

(٥) المقرى ، نفح ، ٤ ص ٣٥.

ففى الوقت الذى كمن له عبد الرحمن فى حصن المدور Almodavar فى مكان غير بعيد إلى الغرب من العاصمة، أمر نائبيه (١) على إشبيلية ومورور Moron بملاحقته والايقاع به من الخلف ؛ ولما فطن يوسف للشرك حينما رأى الغبار يرتفع وراء فرسان هذين النائبين، اضطرب وتثاقلت قدماه ولم يجرؤ على متابعة الطريق إلى قرطبة ، وإنما انكفأ إلى الوراء للتخلص من مطاردتهما له أولا؛ واستعجل لقاءهما وأدار القتال معهما (٢). غير أن المعركة اقتصرت على مشهد استعراضى قصير لم يلبث أن انتهى بفقدان يوسف لعدد كبير من قواته صرعى فى أرض المعركة، ومن نجا تبعثر فى عدة اتجاهات ومن بينهم يوسف نفسه.

أخذ يوسف يبحث عن مأمن يتوارى فيه فلم يجد غير طليطلة دون أن يكتب له بلوغ غايته هذه المرة، لأنه وهو يتردد على مشارفها وصلت أخباره إلى بعض من عرفوه فتصايحوا قائلين : « نقتله ونريح الدنيا منه، ونريحه من الدنيا، ونريح الناس من شره ، فقد صار ناجشا للحرب » (٣)، وطاردوه حتى تمكنوا منه على مسافة أميال قليلة من المدينة فاحتزوا رأسه وأرسلوها إلى عبد الرحمن فى قرطبة؛ الذى كان هو الآخر قد ضرب عنق ابنه أبى زيد وعلقها إلى جوار رأس أبيه على باب قصره فى رجب عام ١٤٢هـ / أكتوبر ٧٥٩م ؛ لكنه أبقى على الابن الآخر استصغارا لسنه ؛ وأدخل على الصميل من خنقه فى سجنه (٤)، ثم قام بتصفية من هادنهم من رجال الحكم السابق؛ وتكررت عملية قطع الرءوس فى ذلك العام؛ بحيث أخذت سياسة عبد الرحمن تصطبغ منذ ذلك الحين بلون الدم ، بعدما أدرك أن إمارته السابحة فى محيط من الخصوم والعداوات لن يكتب لها البقاء وسيفه فى الغمد لا يتحرك، فاستله وقليلا ما أعاده، وإن أسرف فى القتل فقد وجد من المؤرخين من سوغ له ذلك كسبيل لامفر منه، لأن الأخطار التى داهمته منذ أن عبر إلى السلطة فى قرطبة كانت أقوى من أن يحمل ثقلها رجل لا يمتلك من القدرة والشجاعة ما يجعله يثبت فى وجه العواصف دون أن يلين (٥).

---

(١) هما عبد الملك بن عمر بن مروان وابنه عمر، وهما من أبناء عمومة عبد الرحمن ، وفدا عليه من المشرق عام ١٤١هـ / ٧٥٨م، فأقام الأب عاملا على إشبيلة، وولى الابن على مورور، أنظر: ابن خلدون، العبر، ٤ ص ٢٦٣ - ٢٦٤؛ المقرى ، نفح، ١ ص ٣٠٨؛ مجهول فتح الأندلس، ص ٥٩؛ ابن الأبار، الحلة، ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) مجهول ، فتح الأندلس ، ص ٦٠ .

(٣) أخبار مجموعة، ص ٩٩.

(٤) قارن : أخبار مجموعة ، ص ٩٦ - ١٠١؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٥٩ - ٦١؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٤٩ - ٥٠ ؛ المقرى ، نفسه، ٤ ص ٣٤ - ٣٥؛ النويرى، نفسه، ٢٢ / ١ ص ٥ - ٦.

(٥) ابراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ١٨٤ .

كان عبد الرحمن مدركا لهذه الحقيقة إذ ما كاد يلتقط أنفاسه بعد القضاء على أخطر عدوين في الداخل، حتى وجد أن الانتقال من مرحلة السلطة المحلية في قرطبة إلى السيادة الكاملة على الأندلس لازال محاطا بالألغام، وأن سنوات أخرى شاقة في انتظاره قبل أن يبلغ الهدف الذي يريد . فبعد هدوء لم يجاوز العام بكثير إذا بثورة قيسية أخرى تطل برأسها في عام ١٤٣ هـ / ٧٦٠م في مدينة الجزيرة الخضراء، يقودها رزق بن النعمان أحد أنصار يوسف؛ ويتمكن من فرض سيطرته على مدينتي شذونة وإشبيلية أيضا. فتقدم إليه عبد الرحمن وحاصره في إشبيلية حصارا طويلا أضر بأهلها ضررا دفعهم إلى تسليم الثائر لعبد الرحمن فقتله وأنهى ثورته (١)؛ ليلاحق ثائرا قيسيا آخر هو هشام بن عروة في مدينة طليطلة؛ ويأخذه عبد الرحمن على غرة لم يجد معها بدا من الاستسلام وتقديم ابنه رهينة؛ واضطر عبد الرحمن أن يقبل استسلامه دون مناقشة، والعودة مسرعا إلى قرطبة حيث كانت أجواؤها تنذر بشئ ما تعده الخلافة العباسية على نحو ما سنرى فيما بعد.

وما أن وصل عبد الرحمن قرطبة حتى عاد ثائر طليطلة المستسلم إلى عصيانه، فانكفأ إليه بنفس السرعة وحاصره بالمدينة بعدما نصب المجانيق عليها دون جدوى لحصانتها، وطال الحصار إلى العام التالي (١٤٦هـ / ٧٦٣م) حتى يئس عبد الرحمن؛ وكمحاولة أخيرة لإجبار الثائر على الاستسلام احتز عبد الرحمن رأس ابنه المرتهن ورماها إليه داخل المدينة فلم يفت ذلك أيضا في عضده (٢)؛ واضطر عبد الرحمن أمام طول الحصار واشتداد قلقه بشأن التحركات العباسية أن يرفع الحصار ليطوى المراحل إلى قرطبة، مؤجلا أمر هذا الثائر إلى ما بعد الانتهاء من تصفية جيوب الانقلاب العباسي، وهو ما لم يتم إلا عام ١٤٧هـ / ٧٦٤م .

وحينذاك سير عبد الرحمن جيشا كثيفا إلى ثائر طليطلة ضرب عليه حصارا طويلا تداوله الجند فيما بينهم، حتى ضاق الحال بأهل المدينة ضيقا تضاعفت حدته بما أصاب البلاد وقتذاك من قحط (٣)؛ أجبرهم على تسليم الثائر وأتباعه خلاصا لما هم فيه من ضيق؛ فعوقب الثائر وأتباعه بطريقة ساخرة هزلية إذ جئ بهم إلى قرطبة على ظهور الدواب، وهم مقيدون بالسلاسل وقد ألبسوا جباب صوف بالية ، وحلقت رءوسهم ولحاهم، وطيف بهم في شوارع العاصمة واستهزاء العامة يلاحقهم، ثم أخذوا

---

(١) قارن : العذرى ، نصوص، ص ١٢٠؛ النويرى، نفسه، ٢٢ / ١ ص ٦؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ ؛ مجهول ، فتح الأندلس، ص ٦١ الذى سقط من روايته اسم الثائر.

(٢) أنظر بتفصيل : أخبار مجموعة، ص ١٠١؛ النويرى ، نفسه، ٢٢ / ١ ص ٦؛ ابن الأثير، نفسه ٤ ص ٣٧٦؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٦١ - ٦٢ ؛ ابن خلدون ،نفسه ، ٣ ص ٢٦٦؛ ابراهيم بيضون نفسه، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١١٥ .

فقتلوا على تلك الحال وصلبوا [١]؛ وبذلك عادت طليطلة إلى الطاعة [٢]، وقضى عبد الرحمن على أنصار القيسية فاستراح من أخطارهم كلية؛ فيما عدا ثورة قادها أبو الأسود بن يوسف الفهرى بعد ذلك بنحو عشرين عاما، أى فى عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م ثم واصلها من بعده أحد أقاربه حتى أواخر عام ١٧١هـ / ٧٨٨م [٣]، لكنها لم تشكل تهديدا كبيرا لعبد الرحمن ولم تكلفه جهدا كبيرا فى القضاء عليها .

وإذا كانت أخطار القيسية من خصوم عبد الرحمن قد اختفت من الساحة، فقد كان خطر اليمنية قائما طوال تلك المدة بانتفاضات متلاحقة، كان أولها تلك التى قادها عبد الغافر اليمانى فى مدينة إشبيلية عام ١٤٢هـ/ ٧٥٩م[٤]، والتى كانت بداية الافتراق بين عبد الرحمن وبين اليمنية. غير أنه خلافه مع الأخيرة - التى اعتقدت أن باستطاعتها احتواءه وتسخيره لمصلحتها السياسية والقبلية - لم يكن له تأثير كبير عليه لأنه استطاع خلال سنوات قليلة من بدء إمارته إنشاء قوة ذاتية [٥] تملك القدرة على إحباط كل الحركات المحلية . كما وضع عبد الرحمن فى حساباته أن معارضة الحزبين القيسى واليمنى لنظامه لن يؤدى بينهما إلى أى نوع من أنواع التحالف الجدى ضده، بسبب أجواء العداوة المستحكمة بينهما، وتلك هى نقطة الضعف التى استفاد منها إلى حد كبير فى صراعه ضد هذين الحزبين.

ومع ذلك مضى شريط عصيان اليمنية دون توقف، فعاودت - وهى المتحفزة إلى انتزاع السلطة - إضرام نار الثورة فى مدينة لبلة عام ١٤٨هـ / ٧٦٥م بزعامة سعيد اليحصبى؛ الذى تمكن بمن توافد عليه الاستيلاء على مدينة إشبيلية واتخذ من قلعة رعواق (وادى إيرة Guadaira) المجاورة معسكرا يعتصم فيه. لكنه لم يصمد لجيش عبد الرحمن طويلا بعدما أحكم عليه الحصار ومنع وصول أى إمدادات إليه ، فتمكن منه الأمير وسقط فى معركة عنيفة انتهت بسحق ثورته ومقتله هو وجمع غفير من أتباعه عام ١٤٩هـ / ٧٦٦م[٦]؛ لتنضم رأسه إلى مجموعة الرءوس المقطوعة التى أصبحت تقليدا متبعا فى ذلك الحين .

---

(١) راجع بتفصيل : أخبار مجموعة، ص١٠٣ - ١٠٥ ؛ ابن عذارى ، نفسه ، ٢ ص ٥٣؛ ابن الأثير، نفسه ، ٥ ص ٢٥ ؛ النويرى، نفسه، ٢٢ / ١ ص ٦ - ٧ .

(٢) ابن عذارى، نفسه ، ٢ص ٥٣ ؛ أخبار مجموعة ، ص ١٠٤ .

(٣) قارن عنها : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٥٠، ٥٧ - ٥٨ ؛ أخبار مجموعة، ص ١١٦ ؛ العذرى ، نصوص، ص ١١ ؛ ابن الأثير، نفسه ، ٥ ص ٧٠ ؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٣٦٩.

(٤) ابن عذارى، نفسه ، ٢ص ٥٠ - ٥١ .

(٥) المقرى، نفح، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ٣ص ٣٦ - ٣٧ .

(٦) قارن بتفصيل : أخبار مجموعة، ص ١٠٥؛ النويرى، نفسه، ٢٢ / ١ ص ٨ -٩؛ العذرى، نفسه، ص ١١١ ؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٦ -٢٧ ، ٢٩؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ؛ ابن عذارى، نفسه ، ٢ ص ٥٢ - ٥٣.

وعلى الرغم من تدحرج الرءوس على هذا النحو ، فلم تتوقف حركات اليمنية المعادية لعبد الرحمن ، حيث الجشع إلى السلطة كان يبتلع الخوف من العقاب. فثمة يمينى آخر هو أبو الصباح بن يحيى يشق عصا الطاعة فى مدينة إشبيلية - وفى نفس السنة التى ثار فيها قريبه اليحصبى - وكان أبو الصباح هذا يطمع فى السلطة منذ اليوم الذى انتصر فيه عبد الرحمن على يوسف فى المصارة؛ حينما أغرى أصحابه اليمنية بالتآمر على عبد الرحمن والتخلص منه قائلا لهم: « هل لكم فى فتحين فى يوم واحد، قيل له وما ذاك ؟ ، قال : قد فرغنا من يوسف والصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر بأيدينا، وتصير الأندلس قحطانية آخر الدهر، فكره كاره ورضى راض ،[1] مما أفشل مؤامرته. ولأن أبا الصباح كان زعيما بارزا أكبر حجما وأشد خطرا من غيره من زعماء اليمنية ، تساعده على ذلك شجاعة نادرة وقوة بدنية فائقة، فقد تردد عبد الرحمن فى مجابهته وقتذاك قبل أن تتهيأ له فرصة مناسبة ؛ فلما حانت له تلك الفرصة عمد إلى مراوغته واستحثه على القدوم إلى قرطبة ليلقاه على الرحب والسعة،موحيا إليه بأن العلاقة بينهما حميمة راسخة منذ اللحظة التى قدم فيها إلى الأندلس ، وبعد لأى استجاب أبو الصباح للدعوة لكن دون أن يتخلى عن شكوكه، فاصطحب معه أربعمائة فارس كاجراء احتياطى؛ غير أن حذره لم يعفيه من الانزلاق إلى الموقف الذى تمناه عبد الرحمن ، إذ ما كاد يدخل القصر وحيدا وفرسانه فى الخارج، حتى انقض عليه عبد الرحمن - ملتمسا طريقة الخليفة المنصور مع أبى مسلم الخراسانى - وطعنه بسيفه فأرداه على الفور قتيلا. وبذلك تخلص من هذا الزعيم الخطير دون أدنى ضجة وبأقل جهد فى ذات عام ثورته [2].

على أن اغتيال هذا الزعيم أثار ثائرة اليمنية بأسرها ضد عبد الرحمن ، وعزموا على الانتقام منه [3]، فهبوا من مدن غربى الأندلس مثل إشبيلية وباجة ولبلة فى عام ١٥٤هـ / ٧٧١م، وزحفوا فى اتجاه قرطبة العاصمة قاصدين الاستيلاء عليها - وكان عبد الرحمن غائبا عنها يحارب زعيما بربريا سنشير إليه بعد قليل - فلما تناهت إليه أخبار تحركات اليمنية بهذه الكثرة الهائلة اضطر إلى وقف محاربة

---

(١) أنظر : ابن القوطية، تاريخ ، ص ٥٥ ؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٥٦؛ أخبار مجموعة، ص ٩٠ - ٩١؛ المقرى ، نفح، ٤ ص ٣٣.

(٢) قارن : ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٨ ؛ أخبار مجموعة، ص ١٠٥ - ١٠٧ ؛ ابن عذارى، نفسه ، ٢ص ٥٣ - ٥٤ ؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٦٠ - ٦٤.

(٣) المقرى ، نفسه، ٤ص ٤٨؛ مجهول ، فتح الأندلس، ص ٦٥ - ٦٦؛ ابن القوطية، نفسه، ص ٥٥.

البربرى، والعودة لانقاذ عاصمته [١]؛ فسبقهم إليها وعبأ فيها قواته واستقدم من جاوره من عماله لمعاونته ضدهم [٢]؛ ثم خرج للقائهم حتى اقترب منهم فخندقوا على أنفسهم [٣]. لكنه مع ذلك نازلهم أياما دون طائل، فلما فشلت القوة أعمل الحيلة فأضعف صفوفهم [٤]، ونال منهم فى هجوم دموى عنيف أعمل فيه القتل فى رقابهم بصورة غير مسبوقة [٥]، حتى بلغت قتلاهم ثلاثين ألفا، جمعت رءوسها ووضعت فى حفرة ظل ذكرها مشهوراً لقرون تلت [٦]، ثم تتبع الفارين منهم فقضى عليهم فى مدينة إشبيلية عام ١٥٧هـ / ٧٧٣م ، بحيث لم تقم لليمنية بعدها قائمة تذكر [٧]، فتلاشى خطرهم من الساحة مثل القيسية.

ومع ذلك فلم يقدر لذلك المسلسل الدموى من حركات التمرد والعصيان أن ينتهى بعد، وبقيت فيه فصول أخرى تنتظر دورها فوق هذا المسرح الساخن ، ذلك أن قدر هذه الأرض الاسبانية منذ أن ارتبطت بالسيادة الاسلامية أن تنبت ثورات محمومة ، وتستسقى أنهر الدماء وتغرق فى جنون الحقد حتى الفناء؛ حيث جاء دور البربر كأحد أقطاب الصراع على السلطة إلى جانب العرب يمنية وقيسية. ولا ننكر أن البربر انزووا عن ساحة هذا الصراع منذ الضربة الأليمة ، التى حلت بهم على أيدى الوالى عبد الملك بن قطن؛ وكان ظهورهم على مسرح الأحداث بعد ذلك من خلال مساندة القيسية تارة واليمنية تارة أخرى، أما الآن فصاروا مؤهلين ليلعبوا دورهم بشكل مباشر ومنفرد، لاسيما وقد مضى على هذه الضربة ما يربو على ربع قرن من الزمان فاستعادوا قوتهم الأولى، بحيث إنهم حينما هبوا فى عام ١٥١هـ/ ٧٦٨م ضد عبد الرحمن كانت هبتهم عاتية انتزعت من جهده تسع سنوات كاملة؛ وكادت تقضى على ملكه الذى جاهد فى إقامته على مدى ثلاث عشرة سنة خلت.

---

(١) ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٩؛ النويرى، نفسه، ٢٢ / ١ ص ١١ .

(٢) مجهول، فتح الأندلس، ص ٦٥.

(٣) قارن : مجهول، نفس المكان والصفحة؛ ابن القوطية، نفسه، ص ٥٦ ؛ أخبار مجموعة، ص ١٠٨ وقد ورد عندهم اسم مكان معسكر الثوار بصيغ متعددة هى : انبسر، مبسر ، انبشر، أمنيس، منيس، ميسر. وأسماه ابن عذارى (البيان، ٢ ص ٥١) بوادى قيس ، فى حين كان العذرى (نصوص، ص ١٠١) أكثر تفصيلا فأسماه مبسر وحدد موقعه خلف مدينة المدور بخمسة أميال فى وادى الكلبيين ربما نسبة للهزيمة التى حلت بهم .

(٤) عنها أنظر: ابن القوطية، نفسه، ص ٥٦؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٦٦.

(٥) أخبار مجموعة ، ص ١٠٨.

(٦) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٥١ ؛ ابن القوطية ، نفسه، ص ٥٦ .

(٧) قارن : ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٩ - ٤٠ ؛ النويرى، نفسه، ٢٢/ ١ ص ١٢؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٥٥ ؛ ابن خلدون ، نفسه ٤ ص ٢٦٨.

فقد احتشد البربر فى مقاطعة شنتبرية Santaver الواقعة إلى الشرق من وادى الحجارة ، والتفوا حول زعيم منهم يدعى سفين بن عبد الواحد [(١)]، الذى تحيطه الروايات التاريخية باطار من الشعوذة والمراوغة، وتنسب إليه ادعاءه أنه فاطمى، ربما استئلافا للأنصار لأن التشيع وقتذاك اتخذ صبغة مضادة للعرب [(٢)]، فانحاشت إليه جموع غفيرة من البربر فضلا عن بعض العرب [(٣)]؛ وتغلب بهم على كل المنطقة المحصورة بين نهرى آنة وتاجة، من مدينتى ماردة وقورية غربا حتى وادى الحجارة شرقا - أى منطقة وسط الأندلس - فقويت دعوته واشتدت شوكته [(٤)]؛ لا سيما وأنه تغلب على كل ما أرسله إليه عبد الرحمن من قوات على مدار تسع سنوات، بسبب أنه كان يتحاشى الصدام المباشرمعها فى معارك حاسمة فى السهول؛ مؤثرا الهجمات السريعة ثم الاختفاء فى كهوف الجبال حتى ينقطع أثره [(٥)]، فأعيى أمره عبد الرحمن واضطر إلى تدمير وتخريب كل مظاهر العمران فى أراضى أتباعه والتنكيل بمن يجده منهم [(٦)]. ومع ذلك ظلت هذه الثورة هاجس الأمير حتى عام ١٦٠هـ/ ٧٧٧م، عندما تفرغت حملة عسكرية ضخمة تمكنت أخيرا من سحقها بعد تدبير اغتيال متقن لقائدها [(٧)]؛ منهية بذلك أخطر ثورة بربرية فى تاريخ الأندلس حتى ذلك الحين .

لكن إذا كانت رياح الخطر ظلت تهب على عبد الرحمن طوال مدة حكمه من المتوثبين والمتآمرين عليه من كافة فئات المجتمع الأندلسى بانتماءاته القبلية والعنصرية المتنوعة، فإن هبوبها العاصف جاءه أيضا من الخارج لاسيما من الفرنجة فى غالة ومن العباسيين فى المشرق.

---

(١) يدعى أيضا شقيا أو شقنا بن عبد الواحد، وانفرد صاحب ذكر بلاد الأندلس (ص١١٥) بتسميته تاشفين بن عبد الواحد . وعله وعن ثورته بتفصيل أنظر: أخبار مجموعة، ص١٠٧، ١٠٩، ١١١؛ ابن عذارى، نفسه ، ٢ص ٥٤ - ٥٥ ؛ مجهول ، فتح الأندلس، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) أنظر : محمود مكى، التشيع فى الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، ج ٢ عدد ١ -٢ ، مدريد ١٩٥٤م، ص ٩٧.

(٣) منهم على سبيل المثال دحية (أو وجيه) الغسانى أحد قادة عبد الرحمن نفسه الذين سيرهم لقتاله لكنه انضم إليه ضد عبد الرحمن، أنظر : أخبار مجموعة، ص ١١١ ؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٦٢؛ النويرى ، نفسه، ٢٢ / ١ ص ١٣.

(٤) النويرى، نفسه، ٢٢ / ١ ص ١٠ ؛ ابن الأثير، نفسه ، ٥ ص ٣٥.

(٥)قارن : النويرى أعلاه ؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٤ ؛ ابن عذارى ، نفسه، ٢ص ٥٤.

(٦)النويرى، نفسه، ٢٢ / ١ ص ١٢ ؛ أخبار مجموعة، ص ١٠٧

(٧)عن تلك الحيلة ، أنظر: النويرى، نفسه، ٢٢ / ١ ص ١٠ - ١١ ؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٥٨؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٥٥ ؛ المقرى، نفح، ٤ ص ٤٨.

فالفرنجة ظلوا يكنون عداءا سافرا لمسلمى الأندلس منذ أن اجتاحوا أراضيهم على عصر الولاة؛ ودرءا لأخطارهم كانوا قد عمدوا إلى إقامة خط دفاعى أمامى ومراكز محصنة فى منطقة شمال شرقى الأندلس على امتداد الأودية الجنوبية لجبال البرتات ؛ ومن ثم قامت سياستهم على زعزعة سلطان المسلمين فيها بتأييد وتشجيع كل ما يظهر فيها من مناوءات لهذا السلطان. وجاءتهم الفرصة على أيام عبد الرحمن فأزروا [١] ضده سليمان بن يقظان الكلبى [٢] فى مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى؛ ولم يكتفوا بذلك وإنما تحركت جيوشهم بقيادة ملكهم شارلمان - بالاتفاق مع الثائر - واقتحمت أراضى الأندلس حتى وصلت إلى تلك المدينة؛ لكنها فشلت فى الاستيلاء عليها، واضطرت إلى العودة فى أغسطس ٧٧٨م / ذى الحجة ١٦١هـ دون أن تحقق شيئا [٣]. وهكذا فشلت أول محاولة فرنجية منظمة مدعومة من البابوية لطرد المسلمين من الأندلس ؛ وأصيب الكبرياء العسكرى لشارلمان بطعنة كبيرة أضرت بمشاريعه الامبراطورية التى كان يعمل لها بنشاط جم ، فانطوى حلمه التوسعى المطبوع بسمات صليبية واضحة . ومع ذلك عاود الفرنجة العمل على اضطراب منطقة سرقسطة وما والاها شمالا من أودية جنوب جبال البرتات حتى اضطربت أمورها وانتفض زعماؤها على عبد الرحمن.

وللقضاء على اضطرابات هذه المنطقة بدأ عبد الرحمن بتدبير أمر التخلص من سليمان بن يقظان[٤] فى مدينة سرقسطة مسرح التآمر عليه، فقاد جيوشه إليه عام

---

(١) عن هذه المؤازرة أنظر: ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٤١ ، ٦٤؛ أخبار مجموعة، ص ١١٣؛ العذرى ، نفسه، ص ٢٥ ؛ Annales Francorum, ed. Pertzii, Hannoverae 1895, p 48; Annales Einhardi, ed. Pertzii, MGH, Hannoverae 1895, p 49; Annales Tiliani, ed Pertz, MGH, Hannoverae 1826, 1p 220; Annales Laurissenses, ed Pertz, op cit, 1p158; Enhardi Fuldensis Annales, ed. Pertz, op cit, 1p 349; Chrón. Léonaise,ed. Cirot, p 392 .

(٢) كان سليمان مقيما فى سرقسطة قبل القيام بثورته؛ فأبعده مولى عبد الرحمن إلى قرطبة عام ١٥٦هـ / ٧٧٣م ، فورد عليه فيها شعر قاله المشهر بن هلال القضاعى يحضه على الثأر لقومه اليمنية، ففر من قرطبة ودخل سرقسطة وأعلن فيها ثورته؛ أنظر: العذرى ، نفسه، ص ٢٥؛ النويرى ، نفسه، نهاية ٢٢ / ١ ص ١٢ .

(٣) قارن: ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٤١ ، ٦٤ ؛ أخبار مجموعة ، ص ١١٣؛ العذرى، نفسه، ص ٢٥ ؛ Chron Silense , ed. Huici, 2 pp 40 - 42 ; Chrón Léonaise, ed. Cirot, p 392; Prim Crón General, ed. Pidal, 2 p 344. ؛ هذا وقد تناولت هذه الغزوة وتفاصيلها ودوافعها ومدى علاقتها بالعباسيين عديد من الدراسات الحديثة، ومنها على سبيل المثال : Codera, op cit, 8 p 136 Sqq, Ramon de Abadal, La Expedition de Carlomagno a Zaragoza, Zaragoza 1956, pp 39 - 71 محمد مرسى، دولة الفرنجة وعلاقتها بالمسلمين فى الأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية ١٩٨١م ، ص ١٣٦ وما بعدها ؛ دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ١ ص ٢٢٨ وما بعدها؛ عنان ، دولة الاسلام، ١ ص ١٦٩ وما بعدها؛ ابراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ١٩٥ وما بعدها .

(٤) العذرى، نفسه ، ص ٢٦ ؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٤١.

١٦٤هـ/ ٧٨٠ - ٧٨١م، فاستنزله وضيق عليه حتى أذعن للطاعة؛ ثم تقدم إلى أودية جبال البرتات فوصل مدينتى قلهرة Calahorra وفجيرة Viguera وظل على محاربتهما حتى استولى عليهما ، وجال فى تلك الناحية من بمبلونة غربا حتى شرطانية Cerdana[1] شرقا، يقتل ويسبى ويخرب القرى ويدمر الحصون [2]؛ مثل حصن مثمين الأقرع (؟)، وقلعة بلدوين (بلدوئون) بن أطلال (؟) التى استولى عليها عنوة وقاتل حاميتها بعدما فرت إلى الجبال؛ وبلاد جالندو بلاسكوت Galindo Belascotenes [3]، فاستولى عليها وأجبره على الطاعة والتزم بدفع الجزية له، بل وقدم ابنه رهينة [4]؛ وآل الحال بتلك النواحى - كما يشير صاحب فتح الأندلس - إلى بذل الرهان والجزية والتزام الطاعة [5]. وبذلك عاد الهدوء إلى هذه المنطقة من شرطانية شرقا حتى بمبلونة غربا [6]؛ وإن اضطربت الأوضاع ثانية فى مدينة سرقسطة ذاتها فى العام التالى ١٦٥هـ / ٧٨٢م، فأقام عبد الرحمن على حصارها بعدما نصب حولها ستا وثلاثين منجنيقا ، وأجبر أهلها تحت ضغط هذا الحصار على تسليمه الثائر فقتله واستعاد المدينة فى العام التالى [7] ؛وبعدها عاد إلى قرطبة ليكتشف فيها مؤامرة بعض أفراد أسرته للإطاحة به، فلم يتردد فى قتلهم فى عام ١٦٨هـ / ٧٨٤م [8]، فكانت آخر متاعبه معهم.

---

(١) تقع فى المنطقة الوسطى من جنوب جبال البرتات، ومن أهم مدنها أورجل Urgel وبليارش Pallars وريباجورثا Ribagorza، أنظر: De La Torre, Las Etapas de La Reconquista, EMA 1971, pp: 140-141.

(٢) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١١٧.

(٣) أنظر: Textos Navarros del Codice de Roda, ed. Lacarra, Est. EMCA 1945, 1 p 49. ويشير المحقق فى هامش نفس الصفحة أنه كان من زعماء البشكنس من عائلة Vela فى إقليم ألبة.

(٤) عن تلك الغزوة قارن بتفصيل : ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٦٤ - ٦٥ ؛ أخبار مجموعة ، ص ١١٤؛ Lacarra, Las Relaciones entre el Reino de Asturias y el de Pamplona, EMA1971 , p 227.

(٥) ص ٦٨.

(٦) قارن: Codera, op cit, 7pp 177 - 178; 8 p 143; Saavedra, Abderrahman I , RABM, Madrid 1910 , 23 p 37, De La Torre, Las Etapas de la Reconquista, p 149, Afif Turk, El Reino de Zaragoza, Madrid 1978,p9.

(٧) قارن بتفصيل : ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٦٤، ٦٦ ؛ أخبار مجموعة ، ١١٤ - ١١٦؛ مجهول، فتح الأندلس، ص ٦٨، ٦٩؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٥٦ - ٥٧؛ العذرى نفسه، ص ٢٦.

(٨) أنظر : أخبار مجموعة ، ص ١١٦ ، ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٥٧ ؛ المقرى، نفح ٤ ص ٤٦ - ٤٨ ؛ ولم تكن هذه أولى مؤامرات أفراد أسرة عبد الرحمن ضده، ولكن سبقتها محاولة فى عام ١٦٣هـ / ٧٧٩ - ٧٨٠م قضى عليها . أنظر عنها: المقرى، نفسه، ٤ ص ٤٣ - ٤٤ ، ٤٦؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص ٦٨ - ٦٩؛ الخشنى، قضاة قرطبة، القاهرة ١٣٧٢ هـ ،ص ٢٩.

أما الخلافة العباسية التى كانت صاحبة القوة العظمى وتتمنى أن تطيح بعبد الرحمن وتنسف كل جهوده،خاصة وكان على رأسها وقتذاك أخطر خلفائها وأشدهم دهاء وعناداً فى تسويغ الوسيلة من أجل الغاية؛ دون أن يعبأ بالمثاليات فى السياسة، وهو أبو جعفر المنصور الذى اعتبر أن حسابه مع عبد الرحمن قد آن أوانه؛ لاسيما وأنه انتهى من تصفية خصومه السياسيين فى المشرق. فإلى جانب العداوة التقليدية والسياسية بين بنى هاشم وبنى أمية، نشأت بينهما خصومة شخصية بسبب تجاهل عبد الرحمن له حينما كتب إليه عاتبا عليه قطع الدعوة لبنى العباس ولعنهم على منابر الأندلس، داعيا إياه إلى العودة لطاعتهم، فلم يرد عليه عبد الرحمن [١]؛ فقرر المنصور معاقبته بتحطيم مشاريعه وتصفيته.

ومع أن المهمة مع تحفز المنصور لها كانت عسيرة إلى حد كبير بسبب البعد الجغرافى؛ إلا أنه لم يعدم الوسيلة واتصل سراً فى عام ١٤٦هـ /٧٦٢م بزعيم عربى كان قائدا لحامية مدينة باجة، وهو العلاء بن مغيث اليحصبى من اليمنية، مشجعا له على الثورة على عبد الرحمن قائلا له: «إن كان فيك محمل لمناهضة عبد الرحمن وإلا فابعث إليك من يعينك» [٢] وبعث إليه بسجله ولوائه .

بذل هذا الزعيم غاية جهده فى الدعوة لبنى العباس ، وفى استمالة كل العناصر الساخطة على عبد الرحمن من اليمنية والقيسية على السواء، بحيث اجتمع إليه منهم خلق لا يحصى، فأسفر حينذاك عن هويته ورفع الأعلام السوداء فى باجة معلنا الثورة عام ١٤٧هـ / ٧٦٤م، ومد سيطرته إلى قرمونة وبلاد شرقى الأندلس[٣]، وكادت دولة عبد الرحمن بتعبير المصادر الاسلامية أن تنصرم[٤]. إلا أن عبد الرحمن لم تخنه شجاعته وقوة إرادته بحيث نهض إليه من فوره وتحصن فى حصن قرمونة المنيع ، كحيلة لجذبه إليه والايقاع به، واختالت الحيلة على العلاء فقدم عليه وحاصره قريبا من شهرين، حتى مل العلاء الحصار وانخذل عنه كثير من جنده فتخلخل عسكره، وحينذاك باغته عبد الرحمن ومزق أتباعه شر تمزيق فقتل منهم سبعة آلاف من بينهم العلاء نفسه، فارتبك بقية عسكره وولوا فارين[٥] ولما اتصل

---

(١) قارن فى ذلك : مجهول، فتح الأندلس، ص ٥٩؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٤٠ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١١٤.

(٢) ابن القوطية ، نفسه ، ص ٥٧.

(٣) مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، ص ١١٤.

(٤) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٥١؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص٩.

(٥) قارن : النويرى، نفسه، ٢٢/ ١ ص٧؛ابن القوطية، نفسه، ص ٥٧-٥٨؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٢١؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص٥١-٥٢؛ أخبار مجموعة ، ص ١٠١-١٠٢؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١١٤-١١٥؛ المقرى، نفح ١ ص ٣١١، ٤ص ٣٥-٣٦.

خبر تلك الهزيمة إلى المنصور ارتاع وانكسرت حدته[١]؛ ولم يعد إلى تحدى عبد الرحمن ثانية.

لكن هذا الفشل لم يثن خلفاء بنى العباس عن معاودة الكرة، إذ لم يكد يحل عام ١٦٢هـ / ٧٧٨م حتى شبت ثورة فى ولاية تدمير بجنوب شرقى الأندلس، يؤيدها الخليفة العباسى المهدى، فتصدى لها عبد الرحمن وضيق على صاحبها؛ ولما تعلق بالوعر وتحصن بالجبال - على طريقة البربرى سفين - اضطر عبد الرحمن أن يقضى عليه بنفس الأسلوب الذى قضى به على سفين؛ إذ دبر اغتياله وفرغ منه فى نفس العام [٢]. ثم كان على عبد الرحمن أيضا أن يتصدى لمحاولة أخرى لنفس الخليفة مع والى الجزيرة الخضراء فى عام ١٦٤هـ/ ٧٨٠م فلقيت نفس المصير[٣]. وفقد بنو العباس بذلك الأمل فى استعادة الأندلس أو تصفية حاكمها، فانقطع رجاؤهم وإن بقى عداؤهم.

إلى هذا الحد كان قدر عبد الرحمن أن يلهث ما بين شمال الأندلس وجنوبه، ويغرق فى الدفاع عنها بدأب وصبر وسط هذا الكم الهائل المتلاطم من التيارات العاتية المعادية له فى الداخل والخارج على السواء. وإذا كانت هذه التيارات قد أخذت كل وقته دون أن يخلد إلى راحة أو يركن إلى دعة [٤]؛ حتى فاز بالتحدى وانتزع النصر من خصومه، فإن الثمن كان باهظا إذ انعكس على تشكيل سياسته الخارجية بعامة؛ سواء مع مملكة الفرنجة أو مع مملكة أشتوريس الإسبانية الناشئة باعتبارها كانت أخطر التحديات المباشرة على دولته. ومع أنه لم تتح له من الفرص إلا قليلها للاهتمام بأمر المملكة الأخيرة على الخصوص اهتماما كافيا، فقد تمكن من إنهاء حالة الجمود واللامبالاة التى سار عليها ولاة الأندلس قبله نحوها؛ ولم يتوان عن مهاجمتها والضغط عليها كلما بدت له بادرة حتى فتح من أراضيها ما لم يكن لأحد قبله [٥]؛ وقهر فيها من عاصره من ملوكها[٦]؛ وكانوا أربعة هم فرويلة وأوريليو وسيلو وموريجاتو كما أشرنا من قبل.

---

(١) ابن عذارى، نفسه ، ٢ص ٥٢.

(٢) قارن : أخبار مجموعة، ص ١١٠- ١١١؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٥٥-٥٦؛ ابن الأثير ، نفسه، ٥ص٦٠ ؛ ابن خلدون ، العبر، ٣ص ٤٤٦، ٤ص٢٦٩؛ العذرى، نفسه، ص ١١.

(٣) بتفصيل أنظر: ابن عذارى نفسه، ٢ ص ٥٦؛ العذرى، نفسه، ص ١١٧- ١١٨؛ وإن جعلها فى عام ١٥٠هـ/٧٦٧م؛ المقرى، نفسه، ٤ص ٤٨ ويضعها فى عام ١٦٣هـ/٧٧٩-٧٨٠م؛ أخبار مجموعة، ص ١١٢ الذى اختلط عليه اسم الخليفة العباسى فجعله المنصور.

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ٣ص ٤٦٨ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١١٠.

(٥) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١١٨.

(٦) ابن الخطيب، تاريخ،٢ ص ٩.

ذلك أنه ما كادت أمورالأندلس تهدأ إلى حد ما باستكانة يوسف والصميل بعقد الصلح معهما فى صفر من عام ١٣٩هـ / ٧٥٦م؛ فى وقت بدأت تضطرب فيه أحوال أشتوريس فى بدايات عهد فرويلة، حتى عزم عبد الرحمن على أن يبدأ جهاده ضد أشتوريس ؛ إن لم يكن للقضاء عليها فعلى الأقل لاسترداد ما كان قد انتزعه الفونسو الأول من أراضيها من قبل لاسيما إقليمى ألبة وجليقية . لكن لما كان الإقليم الأخير قد أصبح يشكل تهديدا خطيرا على الأندلس، فضلا عن أهميته الاستراتيجية الفائقة لأمن مملكة أشتوريس يحميها من ناحية الغرب، ويعوق أى محاولة من جانب الأندلس ؛ فقد قرر عبد الرحمن أن يبدأ به لاسيما وأن أهله كانوا وقتذاك مخالفين على فرويلة.

ولذلك أعد عبد الرحمن حملة لغزو إقليم جليقية أولا؛ وهى حملة لم تشر إليها المصادر الإسلامية وانفردت المدونات اللاتينية بالإشارة إليها وذكر أنبائها؛ ووضعتها على رأس قائمة الأخطار التى هددت فرويلة وهو لايزال فى بداية عهده ؛ دون أن تحدد هذه المدونات تاريخاً معينا لها ، باستثناء مدونتى الفونسو العاشر Primera Crón. General (١) ولذريق Crón. del Rodrigo (٢)؛ اللتين حددتا تاريخها بالعام الثانى من حكمه؛ أى فى عام ٧٥٨م / ١٤١هـ(٣). وهو تحديد يبدو مقبولا للغاية إذ كانت ثورة جليقية ضده على أشدها؛ فى حين كان عبد الرحمن لايزال ينعم بالهدوء المؤقت منذ عقد الصلح مع يوسف والصميل، ولم يكن هناك ما يمنعه من غزو أشتوريس وقتذاك.

لم يخرج عبد الرحمن بتلك الحملة وإنما عهد بقيادتها إلى أمير شاب أسمته الرواية اللاتينية عمرا Haumer أو Auermarino وجعلته بعضها ابنا له (٤). وإن لم نعثر ضمن ذريته فى المصادر الإسلامية المتوفرة مانستدل به على تأكيد ذلك؛ فالأقرب إلى الصحة أن هذا الأمير الشاب هو الذى وفد إلى الأندلس مع أبيه عبد

(١) Ed. Pidal, 2 p 338

(٢) Ed. Fuensanta, p 244.

(٣) حددت المدونتان السابقتان بداية عهد فرويلة بعام ٧٥٣م /١٣٦هـ؛ ولذلك فهو - برأيهما - معاصر ليوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس الذى انتهت مدة حكمه أواخر عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م . على أن هذا التحديد يخالف إجماع المدونات الأقدم منهما فى أن بداية حكم فرويلة كانت عام ٧٥٧م/ ١٤٠هـ، فى وقت كان عبد الرحمن أمير الأندلس ؛ وأكدت هذه المدونات ذلك بالقول أن الحملة تمت فى عهد عبد الرحمن وأنه أرسل ابنه على رأسها .

(٤) Crón. Albeldense, ed Flórez, p 451; Crón. Sebastiani, ed Flórez, p482 ؛ فى حين يجعله لذريق دوقا لقرطبة، أنظر: Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p66؛ ويجعله المؤرخ الإسبانى A. Bleye (op cit, 1 p 408) أحد أبناء عمومته.

الملك بن عمر بن مروان - ابن عم عبد الرحمن - فتولى حكم مدينة مورور Mororn في حين تولى أباه حكم إشبيلية (١)؛ وسيعهد إليهما بمعاونته في القضاء على يوسف حينما نقض الصلح وعاد إلى الثورة عام ١٤٢هـ/ ٧٥٩م؛ مثلما أشرنا من قبل.

ومن ناحية أخرى فلم تهتم المدونات اللاتينية بتحديد الطريق الذي سلكته الحملة في تقدمها نحو أراضي إقليم جليقية ؛ وإن كان يفهم من روايتها أن قائدها تحاشى السير في المنطقة الداخلية من حوض نهر دويرة - إذ كانت لازالت خالية مهجورة من مظاهر العمران والحياة منذ أيام الفونسو الأول - واخترق طريق الساحل مع امتداد شاطئ المحيط نحو الشمال حتى تجاوز نهر دويرة ؛ ثم واصل زحفه حتى عبر نهر مينيو وهاجم قلعة مدينة توى Tuy أولى الثغور الأشتورية في هذه الناحية، ولما تغلب على حاميتها تمكن من التوغل إلى ما يليها شمالا في اتجاه نهر أوميا Umia، الذي تحدد عنده المدونات اللاتينية مكان اللقاء بين الجيشين الاسلامي والمسيحي.

وليس هناك من شك في أن نجاح هذه الحملة في اقتحام هذه النواحي، ومفاجأة أولى حصون أشتوريس وإسقاطه، ثم التوغل إلى ما يليه شمالا في أراضي إقليم جليقية ، كان مفاجأة كبرى للملك فرويلة؛ خاصة وأنه ما كان يتوقع هجوما إسلاميا على أراضيه من تلك الناحية التي كان يعتبرها مثبطة لهمة أي حملة تنوى اجتيازها ، لخلوها من أي مظاهر للعمران وما يوجد على أطرافها من قلاع وحصون. ولذلك فما أن نما إليه الخبر حتى هرول لتوه يستجمع حشوده وقادها بنفسه لملاقاة المسلمين الزاحفين، ووقف تقدمهم قبل أن يجتازوا جليقية إلى إقليم أشتوريس قلب المملكة، وتهديد عاصمتها فتكون الطامة الكبرى؛ في وقت لم تكن قواته قد نالت قسطها من الراحة في أعقاب ثورة أهل جليقية.

وما كاد فرويلة يصل بقواته قرب مصب نهر أوميا في أقصى غربي إقليم جليقية حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام الجيش الإسلامي ، الذي كان وقتذاك قد توقف يرتب قواته وينظمها استعدادا لعبور النهر إلى ضفته الشمالية لمنازلة فرويلة. لكن من المؤكد أن هذا الأخير لم يمنحه فرصة إتمام الاستعداد، وإنما سارع فعبر إليه وبادأه بالمناوشة حتى اشتعلت رحى المعركة على أشدها في مكان يسمى بونتوميو Pontomio على الضفة الجنوبية من نهر أوميا مباشرة (٢)؛ وهي معركة انتهت بهزيمة القوات الإسلامية هزيمة بالغت المدونات اللاتينية في تقدير حجم الخسارة

---

(١) أنظر : مجهول، فتح الأندلس ، ص ٥٩؛ ابن الأبار، الحلة، ١ ص ٥٦ - ٥٧؛ المقرى، نفسه ١ ص٣٠٨؛ ابن خلدون ، نفسه ، ٤ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) عن موقعها بتفصيل انظر: . Cotarelo, op cit, p79; Sanchez Alhornoz, Origénes, 2p200 ؛ وإن كان بعض المؤرخين يجعلونها على الشاطئ الشمالي للنهر، أنظر: , Saavedra, Abderrahman I RABM, 2p37، ويشتط آخرون فيجعلونها في إقليم أشتوريس عند نهر Pontón في جبال بنفس الاسم بين مدينتي كانجاس وأرسنوريو Arcenorio ؛ مع أن تحديد المدونات اللاتينية واضح في أنها باقليم جليقية، أنظر: .Burguete, rectificaciones, pp 234 -235؛ وأنظر الخريطة .

فيها ؛ بحيث جعلت أعداد قتلاهم تقفز إلى ما بين خمسين ألف إلى أربعة وخمسين ألف؛ بخلاف أسراهم ومن بينهم قائدهم، الذى لم يتردد فرويلة فى الإطاحة برأسه فى أرض المعركة ذاتها. ثم عاد إلى مقر مملكته بعد هذا النصر الذى حققه - بتعبير هذه المدونات - على أعدائه المسلمين بقوة جيشه ومساندة العناية الإلهية (١).

لكن لايجب أن نعول كثيراً على تلك المبالغات الواضحة سواء فى تضخم قوة الجيش المسيحى أو حجم هزيمة المسلمين وتقدير خسائرهم؛ فمثل تلك المبالغات كانت أخص كتابات العصر، تساوت فيها الكتابات المسيحية والاسلامية ؛ ولا أدل على ذلك من أن قائد الجيش سيعاود الظهور ثانية فيما بعد مشاركا للأمير عبد الرحمن فى توطيد سلطانه بالأندلس. أما الحقيقة المؤكدة التى يمكن استخلاصها من تلك الحملة هى أن أولى محاولات عبد الرحمن فى غزو مملكة أشتوريس باءت بالفشل بهزيمة جيشه فى بونتوميو؛ وهى هزيمة ترجع فى الدرجة الأولى إلى طول المسافة التى قطعها الجيش من قرطبة إلى أقصى شمالى إيبيريا، دون أن يتوفر له على امتداد هذه المسافة خطوط إمداد وتموين كافية؛ بحيث لا نتوقع مع وصوله إلى نهاية تلك المسافة إلاويكون الإعياء والإنهاك قد أصابا أفراده ؛ مضافا إلى ذلك أن فرويلة لم يمنحه وقتا لينال حظا من الراحة بعد تلك الرحلة الطويلة المضنية أو بعد مقاتلة حاميات الحصون الأشتورية ، أو حتى لترتيب صفوفه استعدادا لملاقاته، وإنما أدار معه معركة بغتة، فكان من السهل إيقاع الهزيمة به دون جهد كبير . ولامحل هنا لما أبداه بعض المؤرخين الحديثين فى أمر هذه الحملة بالتشكيك فى صحة وقوعها ، استنادا إلى انفراد المدونات اللاتينية بالاشارة إليها وإلى ما لازمها من هزيمة (٢)؛ فذلك مبرر غير كاف وإلا لرفضنا أيضا روايات المصادر الإسلامية عما تورده من أخبار حملات وجهت ضد مملكة أشتوريس، دون أن تشير المدونات اللاتينية إليها ولو تلميحا.

ورغم نجاح فرويلة فى التصدى لهذا الهجوم وإيقاع الهزيمة به فى إقليم جليقية، فكان نجاح الجيش الإسلامى فى التوغل حتى أقصى شمالى هذا الاقليم، وما أحدثه من تخريب لبعض عمرانه وتحصيناته؛ مضافا إلى ما كان قد خربه فرويلة نفسه - حينما كان يقاتل ثوار هذا الاقليم فى ذات العام - قد أوقف فرويلة على مدى حاجة الإقليم إلى إعادة تعمير ما خرب فى نواحيه، وإلى مزيد من التحصينات

---

(١) قارن : Crón Alfonso III,ed. Villada,pp 71, 118 , Crón. Sebastiani,ed. Flørez, p 482 - 483; Crón. Rotense,ed. Moreno, p 616; Crón. Léonaise, ed. Cirot, p391; Cron. de Lucas, ed. Puyol, p 281; Cron. Silense, ed. Flórez, p277; Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p244.

(٢)أنظر على سبيل المثال: عنان، دولة الاسلام، ١ ص ٢١٣.

لتقوية دفاعات قلاعه بما يحول دون مهاجمة المسلمين له ثانية، وبما يوفرلعمق مملكته أمنا أكثر من ناحيته، بسبب أهميته الاستراتيجية الفائقة فى حماية المملكة أكثر من أهمية الأقاليم الشرقية، بحيث كان ملوك أشتوريس يفضلون فى غالب الأحيان التركيز على حماية هذه الجبهة الغربية والدفاع عنها. أكثر من تركيزهم على الجبهة الشرقية فى إقليمى ألبة والقلاع وحتى بمبلونة، حينما كانوا يتعرضون لهجوم إسلامى على هاتين الجبهتين فى آن واحد.

لذلك أولى فروبلة اهتمامه لإقليم جليقية منذ ذاك الحين فصاعدا، فنشط فى تعمير أراضيه وتقوية حصونه، وكانت سياسته فى ذلك هى ذات سياسة أبيه من قبل بالاعتماد على رجال الدين وتشجيعهم بما يقدمه لهم من تسهيلات على إقامة الكنائس والأديرة وغيرها من دور العبادة فى مختلف النواحى، لتكون أماكن جذب يتجمع حولها السكان ويعمرون ضواحيها. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك تأسيس كنيسة ساموس Samos (١)، فى منطقة سبريرو Cebrero على الطريق الواصل بين مدينتى أستورقة فى أشتوريس ولوجو فى جليقية، بحيث لم يقف فروبلة فى تعمير إقليم جليقية إلا عند شواطئ نهر مينيو ذاتها (٢) . على أن إقليم جليقية لم يستأثر وحده بهذا النشاط التعميرى الدينى – الحربى؛ وإنما شهد إقليم أشتوريس هو الآخر نشاطا تعميريا وإن كان مدنيا؛ إذ شغل فروبلة نفسه ببناء قصر خاص لإقامة زوجته البشكنسية مونيا Muna ،على ربوة من أجمل بقاع وسط هذا الإقليم قريبا من مدينة لوجو الأشتورية، امتازت بموقعها الطبيعى الحصين بين نهرى نالون Nalón ونورا Nora؛ فضلا عن جبل نارانكو Naranco الذى يحتضنها من ناحيتى الجنوب والجنوب الغربى؛ كما يربطها بغيرها من نواحى أشتوريس طريقان، يمتد أحدهما إلى الجنوب فى اتجاه مدينة ليون Léon ، والآخر إلى الغرب نحو إقليم جليقية(٣). وهذا القصر هو الذى شهد مسقط رأس ابنه الفونسو- الذى سيعرف بالثانى ويلقب بالعفيف El Casto وسيكون أيضا مقر تنشئته وتربيته (٤) ؛ومن ثم ظل الحنين يراوده إليه بحيث إنه لم يتردد فى أن ينقل إليه مقر بلاطه حينما اعتلى عرش المملكة فيما بعد .

وإلى جانب هذا القصر أقام فروبلة كنيسة سان سلفادور San Salvador الضخمة، وهى التى أقيم فيها فيما بعد اثنى عشرمذبحا بعدد حواريى السيد المسيح

---

(١) عنها بتفصيل أنظر: Sanchez Albornoz, Origénes, 1pp 203-204.

(٢) Crón. Alfonso III , ed. Villada, p 72, 119, Crón Rotense, ed. Moreno, p 616, Crón Léo-naise, ed. Cirot, p 392

(٣) عنها بتفصيل أنظر: Sánchez Albornoz, Origénes, 2p305.

(٤) عن نص وثيقة عام ٨١٢م الدالة على ذلك، أنظر: Floriano, op cit, 1p121

مثلما هو واضح من نقش تجديدها على عهد الفونسو الثانى فى أكتوبر من عام ٨٠٢م(١) (١٨٦هـ)، ومن وثيقة عام ٨١٢م(٢)(١٩٦-١٩٧هـ)؛ ثم نقل فرويلة إليها سلطة الإشراف على كنائس أشتوريس بدلا من كنيسة لوجو الأشتورية (٣)، فعلا شأنها ونالت اهتمام ملوك أشتوريس فتعهدوها بالتجديد والتوسيع مرات عدة، مثلما حدث فى عهد الفونسو الثانى عام ٨٠٢م (١٨٦هـ)؛ وخلال عهد الفونسو الثالث ٨٦٦-٩١٠م(٤) (٢٥٢- ٢٩٧هـ). ومنذ ذلك الحين بدأت تدب الحياة فى نواحى تلك الربوة فاستقطبت إليها مثلا فى عام ٧٦١م (١٤٣-١٤٤هـ) راهبان هما مكسيمو Maximo وابن عمه فرومستانو Fromistano ومعهما جمع غفير من أتباعهما، وأقاموا دير سان بيست San Vicente ، وبدأوا فى استصلاح أراضيها واستغلالها (٥) ، فنمت هناك نواة مدينة جديدة عرفت باسم أوبييدوOviedo (٦)، وهى المدينة التى سيتخذها الفونسو الثانى عاصمة مملكة أشتوريس فيما بعد ، واحتلت مكانة خاصة بين مدن أشتوريس حتى السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى).

لم يقدر لعبد الرحمن أن يستغل انصراف فرويلة إلى هذا النشاط التعميرى لكى يثأر لهزيمة جيشه فى بونتوميو، إذ كان قد ماج عليه هو الآخر بحر الخلاف والمنازعة(٧)؛ وكان عليه أن يتفرغ لمقارعة الثوار والمتوثبين عليه (٨) من القيسية كيوسف وأتباعه من الموالين له ؛ أو من اليمنية كالعلاء بن مغيث وسعيد اليحصبى وأبو الصباح بن يحيى مثلما أشرنا من قبل ، على مدى ما يقرب من عشر سنوات كاملة فيما بين عامى ١٤١-١٤٩هـ / ٧٥٨- ٧٦٦م.

على أن الذى لا شك فيه أن عبد الرحمن لم يتجاهل كلية أمر مملكة أشتوريس، وإنما اتخذ وقتذاك بعض الاجراءات والترتيبات الدفاعية ، التى يحول بها

---

(١) عن نصه أنظر الملاحق وأنظر أيضاً : Hubner, op cit, p104 No 93 - 94; Vigil, op cit; pp 6-7; Risco , op cit, 37pp 140 -141; Somoza, op cit, 2pp 525 - 526.

(٢) عن نصها أنظر: Floriano, op cit, 1p 121

(٣) Crón. Sebastiani, ed. Flórez, p 438; Crón. de Lucas ,ed. Puyol, p 281; Prim Crón. General, ed. Pidal, 2 p337; Crón del Rodrigo, ed. Fuensanta, p243

(٤) عن النقش الدال على ذلك أنظر: Vigil, op cit, pp 7 -8; Risco, op cit, 37 p 216; Somoza, op cit, 2pp 526 - 527.

(٥) عن الوثيقة الدالة على ذلك أنظر: Floriano,op cit, 1pp 78 - 80 وعن تطور بناء هذا الدير أنظر: Risco, op cit, 37 pp 309 - 311

(٦) عن اشتقاق اسمها والآراء المختلفة حول تأسيسها أنظر: Risco, op cit, 37 pp 108 - 111; Cayetano Rosell, op cit , pp 24 - 26, Cabal, op cit, pp 27 - 32، هذا والشائع ان اسمها مشتق من اسم النهرين Deva و Ove أو من الكلمة اللاتينية ubi - Ede

(٧) ابن الخطيب ، تاريخ ، ٢ص ٨ - ٩ .

(٨) أخبار مجموعة ، ص ٩٠ .

دون انتهاز فرويلة أى فرصة لتهديد الأندلس خلال تلك السنوات الحرجة . وقد تمثلت تلك الاجراءات الدفاعية فى حرص عبد الرحمن على الاهتمام الملحوظ بثغوره وإعادة بناء أسوارها وقلاعاتها وتدعيم دفاعاتها ، لتكون قادرة على الدفاع عن البلاد وقتما تتعرض لأى هجوم مفاجئ من أشتوريس . وقد بلغ من اهتمامه بهذه الثغور أنه أشرف بنفسه على سير هذه الأعمال التحصينية، والوقوف على تفاصيل أمورها ودقائق أحوالها ، فيشير المؤرخ ابن عذارى(١) مثلا ـ ضمن روايته عن أحداث وقعت فيما بين عامى ١٤٢-١٤٥هـ /٧٥٩-٧٦٢م ـ أن عبد الرحمن كان فى منطقة الثغر يسد خلله ويحسم علله. ويضيف عليه صاحب ذكر بلاد الأندلس(٢) أنه أمر بإصلاح كل ثغور الأندلس وتجديد بناء أسوارها فى عام ١٤٨هـ /٧٦٥م ؛ ثم يكمل ابن عذارى (٣) ثانية الصورة بالقول أنه امتحن فى عام ١٥٠هـ /٧٦٧م رجال الثغر وخاصة فى الثغر الأعلى ، واختبر بصائرهم ، واستقدم منهم من اطلع له على شبهة أو سوء سريرة . والمتتبع لترتيب السنوات كما وردت فى الروايات السابقة يدرك بما لا يدع مجالا للشك، أن اهتمام عبد الرحمن بثغوره لم يكن عابرا وإنما شكل وقتذاك إحدى ركائز سياسته الخارجية مع أشتوريس ؛ وليس أدل على ذلك من أنه لم يدخر وسعا فى توفير الحماية اللآزمة لدولته، وفى الضغط على أشتوريس ومهاجمة أراضيها كلما سنحت له سانحة ، دون أن يورط نفسه معها وقتذاك فى حروب حاسمة فاصلة تشغله عن إقرار أمور دولته الداخلية أولا .

ومن ناحية أخرى ، استفاد عبد الرحمن من فشل حملته على إقليم جليقية فى إجراء تعديل على استراتيجيته فى غزو مملكة أشتوريس مستقبلا؛ فقد أدرك مدى ما تتجشمه قواته من مخاطر ومتاعب فى منطقة حوض نهر دويرة ، بسبب نقص وسائل اتصالاته وإمداده، فضلا عن ندرة مظاهر عمرانه ؛ هذا إلى جانب أن ما أقامه فرويلة من تحصينات فى ثغور هذا الإقليم يضاعف من معاناة هذه القوات إذا ما فكرت فى غزو أشتوريس من هذه الناحية . وقد تغلب عبد الرحمن على كل هذه الصعوبات بأن جعل غزواته إلى أشتوريس منذ ذلك الحين فصاعدا من ناحية الجبهة الشرقية فى إقليمى ألبة والقلاع ، وهما إقليمان تسهل على القوات مهاجمتهما واقتحام أراضيهما بأقل تكلفة ممكنة سواء فى الأرواح أو العتاد، بسبب قربهما من الثغرين الأوسط (طليطلة) والأعلى (سرقسطة) الأندلسيين.

---

(١) البيان، ٢ ص ٥٠ .

(٢) مجهول ، ص ١١٥.

(٣) نفسه ، ٢ ص ٥٤ .

على أن أولى الحملات التى نفذها عبد الرحمن ضد أشتوريس استناداً على هذه الاستراتيجية الجديدة فيها شك كبير ؛ إذ لم يرد ذكرها لا فى المصادر الإسلامية أو الإسبانية؛ وإنما تستنتج من نص - أورده المؤرخ الإسلامى ابن الخطيب - يمنح بمقتضاه عبد الرحمن الأمان لأهل إقليم قشتالة فى الثالث من صفر عام ١٤٢هـ (٥ يونيو ٧٥٩م) ؛ وهو نص يوحى بهجوم له على هذا الإقليم فى ربيع العام المذكور أعقبه صلح بين الأندلس وأشتوريس؛ وهاك صيغة الأمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم »، كتاب أمان الملك المعظم عبد الرحمن، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان ، كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا يفسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب ، وعشرة آلاف رطل من الفضة ، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح، فى كل عام إلى خمس سنين، كتب بمدينة قرطبة ثلاثة من صفر عام اثنين وأربعين ومائة»(١) .

وما ورد فى هذا النص يجعلنا نميل إلى الاعتقاد فى زيفه وفى أنه لم يكن لأهل إقليم قشتالة أحد أقاليم مملكة أشتوريس ، وإنما لأهل إقليم آخر لا يتبع أشتوريس، وذلك للاعتبارات التالية:

أولاً : أن تاريخ الأمان فى وقت يستحيل على عبد الرحمن أن يورط نفسه فى حرب مع أشتوريس، لانصرافه كلية - كما ذكرنا من قبل - إلى مقارعة ثوار القيسية واليمنية فيما بين عامى ١٤١ - ١٤٩ هـ / ٧٥٨ - ٧٦٦ م، ولا يوجد فى المصادر إسلامية كانت أو إسبانية ما يشكك فى ذلك أو ما يؤيد عكسه .

ثانياً : لم يتحدد فى النص اسم حاكم الإقليم المعقود معه الأمان، على النحو الذى ورد فى صيغة نص أمان عبد العزيز بن موسى لتدمير القوطى صاحب إقليم تدمير، المعقود فى الرابع من رجب عام ٩٤هـ، إذ يبتدئ بما نصه : كتاب أمان من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح وأن .....»(٢). أما فى هذا النص فإن المعقود معهم الأمان إنما هم « أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان ». ولما كانت مثل هذه الوثائق تصدر محددة تحديداً دقيقاً بما لا يقبل أى اجتهاد لتفسير المقصود ؛ فيكون المقصود فى هذا النص إنما هم أهل قشتالة بصفة تضامنية ، ونستبعد أن يكون المقصود بهم أهل إقليم قشتالة أحد أقاليم مملكة أشتوريس، وإلا لعقد الأمان باسم ملكها آنذاك وهو فرويلة .

---

(١) أنظر: Casiri, op cit, 2p104؛ وقد أورده بالعربية أيضاً: عنان ، دولة الاسلام، ١ ص ١٩٦؛ وأورده كثير من المؤرخين الأوربيين مترجما إلى لغاتهم ، أنظر على سبيل المثال : Condé, op cit, 1p 187

(٢) عن نصه كاملاً أنظر : العذرى، نصوص ، ص ٤-٥؛ الضبى، بغية، ص ٢٥٩ ؛ الحميرى، صفة، ص ٦٢ - ٦٣ (طبعة ليفى بروفنسال) = ص ١٣٢ (طبعة إحسان عباس).

ثالثاً : أن صدور الأمان للبطارقة والرهبان (وهم مسيحيون) والأعيان (مسيحيون ومسلمون) والنصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان على عمومهم مسلمين ومسيحيين؛ لا يدل إلا على أن هذا الإقليم إقليم أندلسى تحت السيادة الإسلامية وليس المسيحية ، وإلا لما أشير إليهم «بالأندلسيين» أى المقيمين فى الأندلس.

رابعاً : أن لفظ قشتالة الوارد فى النص لم يكن قد ظهر بعد فى الكتابات والوثائق اللاتينية الإسبانية، وإنما كان معروفا بإقليم بردوليا Bardulia؛ ولم يستبدل بلفظ قشتالة Castilla إلا مع بدايات القرن التاسع الميلادى. فأقدم وثيقة لاتينية يرد فيها اسم قشتالة بديلا عن بردوليا مؤرخة في الخامس عشر من سبتمبر عام ٨٠٠ م (١) (٢٢ شعبان ١٨٤هـ) . أما المؤرخون المسلمون الأوائل فقد عرفوه بإقليم القلاع - لكثرة ما أقامه ملوك أشتوريس فيه من قلاع - وكان يرد فى كتاباتهم متلازما دوما مع إقليم ألبة بسبب تجاور الإقليمين .

ولهذه الاعتبارات تردد كثير من المؤرخين فى قبول صحة هذا الأمان وأكدوا زيفه (٢)، أما القلة التى اقتنعت بصحته فانقسمت على نفسها؛ فمنهم من رجح أن يكون لفظ قشتالة Castilla الوارد فى النص تحريفاً غيرمقصود من ابن الخطيب للفظ جليقية Galicia ، بسبب التشابه بين اللفظين فى اللغة اللاتينية (٣)؛ ومنهم من أرجع الأمان إلى تاريخ لاحق فيما بين عامى ٧٨١ - ٧٨٨م (٤) أى خلال السنوات الأخيرة من عهد عبد الرحمن ؛ وبعد وفاة الملك الأشتورى فرويلة بسنين عدداً، وبالتحديد خلال مدة حكم سيلو وموريجاتو ملكى أشتوريس؛ وبعض ثالث يرى أن الأمان معقود لأهل إقليم غرناطة (إلبيرة) بجنوب شرقى الأندلس (٥). وتؤكد الدلائل صحة هذا الرأى الأخير للأسباب التالية:

أولاً : أن انفراد ابن الخطيب - وهو غرناطى - بإيراد هذا الأمان دليل على أنه يتعلق بوطنه هذا .

ثانياً : أن غرناطة اشتهرت - بتعريف ابن الخطيب (٦) - منذ القدم بقسطيلية؛ التى

---

(١) عن نصها أنظر : Floriano, op cit , 1 p 95

(٢) ومنهم على سبيل المثال: Pidal, Historia, 6p 37; Danham, op cit, 1 p 258 Note, Hume, the Spanish People, London 1901, p 85; Barrau- Dihigo, Reherches, p 149 Note.

(٣) منهم : Condé, op cit , 1p 186 Note

(٤) منهم :Saavedra, Abderrahman I , RABM, 23p 28 Note.

(٥) أنظر على الخصوص: Sánchez Albornoz, Origénes, 2 pp 323 - 328 حيث خصص هذه الصفحات لمقال يؤيد نظريته وعنوانه : Advertencia Sobre el Kitab Aman de Abdal - Rahman a Castilla

(٦) ابن الخطيب ، الاحاطة، ١ ص ٩١ ، ٩٨، وأنظر : . Lévi - Provençal, Histoire, 1 p 343

كانت فى بداية أمرها أحد حصون مدينة إلبيرة ؛ ثم نمت حولها مدينة صارت لعظمتها قاعدة الإقليم بدلا من إلبيرة.

ثالثاً : ارتباط يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس بأهل هذا الإقليم، وهو ارتباط يرجع إلى ما قبل اعتلائه ولاية الأندلس بمدة طويلة ، لامتلاكه فيه ضياعا وأملاكا كان كثير التردد عليها حتى صار يحسب من أمرائه الأصلاء(١) وله فيه أتباع كثيرون ؛ وهذا يفسر كثرة التجائه إلى هذا الاقليم خلال جولاته مع عبد الرحمن سواء قبل صلحه معه فى صفر عام ١٣٩هـ / يوليو ٧٥٦م أو بعده (٢). وبالتالى يكون عبد الرحمن قد عمد إلى تجريده من أتباعه هناك فى الجولة الأخيرة من الصراع بعقد هذا الأمان مع أهل الإقليم فى الثالث من صفر عام ١٤٢م (الخامس من يونيو ٧٥٩م) ، كوسيلة للضغط عليه وإضعافه. وقد نجحت هذه الوسيلة حيث فقد يوسف أنصاره فى هذا الإقليم، واضطر إلى الالتجاء إلى مدينة طليطلة؛ ولما لم يكن له فيها من يجيره من أتباع، فقد ظل - بتعبير الرواية الإسلامية- يتردد فى نواحيها مدة محاولاً إيجاد السبيل إلى دخولها ، فحال أهلها بينه وبين ما يسعى إليه واغتالوه؛ ثم أرسلوا رأسه إلى عبد الرحمن فوصلته فى رجب من نفس عام ١٤٢هـ/أكتوبر- نوفمبر ٧٥٩م(٣).

رابعاً: وإذا كانت الشدة والقسوة بادية فى الشروط التى فرضها عبد الرحمن على أهل الإقليم ، فهى شدة تتفق مع سياسته مع كل المناوئين له بصفة عامة ؛ وهى هنا شدة مقصودة عقابا لأهل الإقليم على مساندتهم ليوسف، وترهيبا لهم حتى ينفضوا أيديهم منه.

وفيما عدا تلك الحملة المزعومة فقد والى عبد الرحمن حملاته على أقاليم مملكة أشتوريس، بقدر ما أتيحت له الظروف خلال صراعه المتواصل مع المناوئين له فى الأندلس . مثل حملته إليها فى عام ١٤٤هـ / ٧٦١م ، فى أعقاب إخضاعه لثورة هشام بن عروة فى طليطلة ؛ إذ ما كاد يعيد الهدوء إلى هذه المدينة الثائرة حتى استغل فرصة تواجده فيها ليشن هجوما على مملكة أشتوريس كرد فعل على ما قام به فرويلة فى العام السابق (١٤٣هـ / ٧٦٠م) بمهاجمة بمبلونة التابعة للأندلس - فى أعقاب إخضاعه ثورة إقليم ألبة - فاستولى عليها(٤)، مستغلاً انشغال عبد الرحمن

---

(١) نفسه، ٤ ص ٣٤٠.

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٤٨، ٤ص ٣٤٠.

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٩٩.

(٤) Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 248'; Prim Crón. General, ed. Pidal, 2p 338 .

فى إخضاع ثورة طليطلة هذه ومن قبلها ثورة أخرى سبقتها فى ذات العام بمدينة الجزيرة الخضراء . ويشير صاحب فتح الأندلس إلى حملة عبد الرحمن هذه بقوله أنه : «أنفذ بعثا إلى بلاد الروم كعادته، فغاب فى بلاد العدو وانصرف غانما »(١).

وواضح من هذا النص أن عبد الرحمن لم يخرج على رأس تلك الحملة ، وإنما عهد بقيادتها إلى أحد قواده لأنه كان عليه العودة إلى قرطبة، ليتصدى لما كانت تدبره الخلافة العباسية ضده وقتذاك. كما يجعل النص وجهة الحملة إلى بلاد الروم وبلاد العدو بصفة مجردة؛ وهما لفظان اعتاد مؤرخو ذلك العصر إطلاقهما على بلاد العدو فى غالة من بلاد الفرنجة وفى إسبانيا المسيحية أيضاً دون تفرقة . لكن لما كانت المصادر تخلو مما يشير إلى أى نشاط إسلامى فى بلاد غالة ذلك العام ، فلا يبقى إلا أن تكون وجهة الحملة أراضى مملكة أشتوريس ،لا سيما أطرافها الشرقية فى ألبة وبمبلونة القريبتين من طليطلة التى تحركت منها الحملة.

ويفهم من النص أيضاً أن هذه الغزوة استغرقت وقتا فى هذين الإقليمين ، وربما يدل هذا على توغلها هناك ثم عادت ظافرة، دون أن يحدد النص ما إذا كانت قد نجحت فى استعادة أى منهما من أيدى أشتوريس ؛ أم أنها كانت غزوة تبغى الغنيمة وإنهاك العدو واستطلاع أحواله فى تلك الأطراف ، دونما هدف فى فتح أو استقرار وقتذاك وإنما تمهيداً لغزوة تالية. وما يؤيد هذا الترجيح الأخير أن النص السابق يجعل أعداد جند هذه الغزوة من القلة بحيث أطلق عليها بعثا وليس حملة.

لكن متاعب الأندلس المتتالية فرضت على عبد الرحمن الإبقاء على سياسة إنهاك قوى أعدائه فى أشتوريس ، دون أن يعمد إلى فتح أو استيلاء على أى من أراضيهم طالما بقيت متاعبه الداخلية قائمة. ويؤيدنا فى ذلك أنباء تلك الغزوة التى عاود فيها عبد الرحمن بنفسه غزو أراضى ألبة وبمبلونة فى عام ١٤٧هـ/ ٧٦٤م ؛ إثر انتهائه من ثورة العلاء بن مغيث التى دبرتها الخلافة العباسية ضده . وهى الغزوة التى يذكرها المؤرخ المقرى بقوله : «غزا – أى عبد الرحمن – بلاد الإفرنج والبشكنس ومن وراءهم ورجع بالظفر» (٢)؛ وهو قول يستنتج منه أن عبد الرحمن لم يعمد فى هذه الغزوة أيضاً إلى ما يشبه الفتح أو الاستيلاء وإنما الاستطلاع، مثلما كانت غزوة عام ١٤٤هـ / ٧٦١م.

إلا أنه مع حلول عام ١٤٩هـ/٧٦٦م وانتهاء عبد الرحمن من معظم متاعبه الداخلية فقد تغير موقفه من أشتوريس؛ فلم تعد سياسته نحوها قائمة على إنهاك قواها

---

(١) مجهول ، ص ٦٢.
(٢) نفح ، ١ ص ٣١٢.

وإنما تعدتها إلى فتح ما يستطيع من أراضيها؛ وهو ما تبرهن عليه حملته التى سيرها إليها فى العام المذكور، بقيادة مولاه بدر فانتصر فيها وأرغم الأهالى على دفع الجزية السنوية اعترافا منهم بالتبعية للمسلمين فى الأندلس (١).

ومع أن المصادر التى أشارت إلى تلك الحملة لم تفصح عن مجال عملها فى الأراضى الأشتورية ، فإن الشواهد تدل على أنها كانت موجهة إما ضد ألبة أو بمبلونة؛ وذلك استمرارا لسياسة عبد الرحمن فى التركيز على مهاجمة أشتوريس من هذه الجبهة الشرقية. ومن المؤكد أن مجال عملها اقتصر على إقليم بمبلونة، إذ تدل الشواهد على أن هذا الإقليم ظل يعترف بالتبعية الإسلامية منذ هذا التاريخ دونما متاعب ودون رد فعل من أشتوريس حتى عام ١٦٤هـ/ ٧٨٠- ٧٨١م ؛حينما تطلبت الأمور إعادة إقرار الأوضاع فيه على النحو الذى سنفصله فيما بعد.

أما إقليم ألبة فلم يكن له نصيب فى هذه الحملة، وإنما فى العام التالى أى عام ١٥٠هـ/٧٦٧م، حينما وجه عبد الرحمن مولاه بدرا أيضا على رأس جيش اقتحم به أراضيه ، وحارب أهله حتى أذعنوا هم الآخرون له وأدوا الجزية (٢)؛ فأقاموا على ذلك حتى انتهاء مدة حكم عبد الرحمن فى عام ١٧٢هـ/٧٨٨م. ويبدو أن هذه الحملة هى التى أشار إليها أيضا صاحب ذكر بلاد الأندلس (٣) بقوله : «غزا الإمام بلاد جليقية فدوخها وقتل فيها وسبى»؛ إذ على الرغم مما قد يفهم من هذا النص أن عبد الرحمن قاد هذه الحملة بنفسه وهاجم إقليم جليقية، وهو ما يميزها عن غزوة بدر السابقة، إلا أن استخدام المؤرخين المسلمين للفظ جليقية لم يكن يقتصر على معناه الضيق أى إقليم جليقية وحده، وإنما بمعناه الواسع أى أراضى مملكة أشتوريس بعامة. ومن ناحية أخرى فما كان عبد الرحمن يغامر ثانية بمهاجمة إقليم جليقية ، بعدما أدرك خطورة ذلك على القوات الإسلامية بسبب بعد المسافة، وخلو منطقة حوض دويرة- وهى المدخل إلى إقليم جليقية- من الحياة والعمران ، فضلا عما أقامه الملك فرويلة هناك من تحصينات دفاعية جديدة. يضاف إلى ذلك أن تحديد صاحب النص لتاريخ هذه الحملة بعام ١٥٠هـ/ ٧٦٧م الذى اتجهت فيه قوات بدر إلى إقليم ألبة إنما يؤكد اعتقادنا بأنها هى ذاتها حملة بدر إلى إقليم ألبة.

ولعل ما يلفت الانتباه فى أمر هذا النشاط الحربى المتوالى لعبد الرحمن ضد مملكة أشتوريس هو تجاهل المصادر الإسلامية فيه الإشارة إلى دور أو رد فعل مملكة

---

(١) قارن : ابن الأثير ، نفسه ، ٥ ص ١٢٨؛ النويرى ، نفسه ، ٢٢/ ١ ص ٩.

(٢) ابن عذارى ، نفسه ، ٢ ص ٥٤.

(٣) مجهول ص ١١٥.

أشتوريس إزاءه؛ بحيث يخيل أنها لم تحرك ساكنا وكأنها تركت الأمور تجرى على أعنتها، رغم ما كان يسودها وقتذاك من هدوء داخلى وانصراف ملكها فرويلة إلى نشاطه التعميرى. والأغرب من ذلك أن المصادر الإسبانية ذاتها لاذت بالصمت التام عن الإشارة إلى أى من ذلك النشاط الحربى لعبد الرحمن ؛ وربما يرجع ذلك إلى أنه كان نشاطا فى صالح الأندلس من دون أشتوريس، ومن ثم آثرت هذه المصادر تجاهل ذكره واكتفت منه بما كان فى صالح أشتوريس ؛ مثل الحملة التى وجهها عبد الرحمن إلى إقليم جليقية عام ١٤٣هـ/٧٦٠م لأن قوات أشتوريس كانت هى المنتصرة

لكن الذى لاشك فيه أن سياسة عبد الرحمن ضد أشتوريس لم تتوقف عند حد تقوية ثغوره ورفع كفاءتها الدفاعية والقتالية، وإنما الضغط عليها وتهديدها واقتحام أراضيها كلما سنحت له بادرة فى خضم بحر الخلاف الذى هاج عليه فى داخل الأندلس ؛ فتمكن بتلك السياسة من ردع جرأة أشتوريس ووقف توسعاتها، بل وتقليص مساحتها بانتزاع إقليمى ألبة وبمبلونة بالقوة. وبفضل هذه السياسة تحقق له التفوق على أشتوريس طوال المدة التى عاصره فيها فرويلة؛ بحيث اكتفى هذا الأخير بموقف الدفاع عن دولته بما أقامه فى إقليم جليقية من تحصينات لمواجهة أخطار الأندلس، وتخلى بذلك عن سياسة والده الهجومية فلم يجرؤ على القيام بأى نشاط حربى ضد الأندلس، رغم ما كانت تجتازه الأخيرة من مصاعب كان فى إمكانه استغلالها لصالح دولته؛ وظل الحال على ذلك حتى اغتيل فرويلة وخلفه أوريليو Aurelio على العرش عام ٧٦٨م/ ١٥١هـ؛ فاضطربت عليه أمور مملكته فى العام الثانى من حكمه بثورة الأقنان مثلما أشرنا من قبل.

وليس هناك من شك فى أن معالجة أوريليو السلمية لهذه الثورة، مع ما كانت تنطوى عليه من أخطار مهددة لكيان دولته الاقتصادى والاجتماعى، قد أفصح عن طبيعته السلمية. ومثل تلك الطبيعة لا يتوقع منها ميل إلى عنف وشدة أو سفك دماء، حتى فى مواجهة ما يهدد كيان دولته السياسى من أخطار خارجية متوقعة بين الحين والآخر من جانب الأندلس، بحيث إنه لم يقم طوال مدة حكمه - باعتراف المدونات الإسبانية ذاتها - بشن أى هجوم عليها؛ وإنما على العكس سعى منذ بداية حكمه إلى كسب صداقة عبد الرحمن ومخاطبة وده درءاً لخطره ؛ ونجح فى هذا المسعى فبدأت بينه وبين عبد الرحمن علاقة من الود ساد خلالها السلام بين الدولتين طوال مدة حكم أوريليو (١) ،التى امتدت ست سنوات ونصف فيما بين عامى ٧٦٨-٧٧٤م/ ١٥١-١٥٨هـ. ويزيد الأمر تحديداً ووضوحاً بما تضيفه مدونات الفونسو

---

(١) Crón Rotense, ed. Moreno, p 617, Crón. Sebastiani, ed. Flórez, p483, Crón. Alfonso III, ed. Villada, pp 72, 119; Chrón. Léonaise , ed. Cirot, p 392

العاشر Primera Crón General(١) ولذريق Crón. del Rodrigo(٢)، ولوكاس Crón. de Lucas(٣)، أنه وقعت فى بداية عهد أوريليو معاهدة بين الطرفين؛ وهى معاهدة لا نستطيع التكهن بنصوصها لغيابها وعدم إيراد أى من المصادر لنصها مكتفية بالإشارة إليها.

وإذا كانت طبيعة أوريليو السلمية هى التى مالت به إلى مسالمة عبد الرحمن فى الأندلس؛ فقد أجبرت أوضاع الأندلس الملتهبة بدورها عبد الرحمن إلى قبول تلك المهادنة؛ إذ كان عليه وقتذاك التفرغ كلية لمواجهة أخطر ثورة هددت دولته، وهى ثورة البربرى سفين التى كانت كفيلة بتقويض ملكه؛ فضلا عما لازمها فى ذات الوقت من ثورات اليمنية التى لم تقل عنها خطورة فى غربى الأندلس، وهى ثورات استحوذت على جهد عبد الرحمن طوال عشر سنوات فيما بين عامى ١٥١-١٦٠هـ/ ٧٦٨-٧٧٧م؛ أى حتى بعد وفاة أوريليو بثلاثة أعوام واستخلاف الملك سيلو Silo له، الذى اضطربت عليه هو الآخر أمور دولته فى بداية حكمه بثورة أهل إقليم جليقية.

كانت هذه الثورة ورغبة سيلو فى توطيد أمور دولته الداخلية فى أعقاب إخضاعه لها ؛ فضلا عن تخوفه من استغلال المسلمين الفرصة لمهاجمة بلاده وهى على هذا الاضطراب قد دفعته إلى تجديد معاهدة السلم، التى كان قد عقدها سلفه أوريليو مع عبد الرحمن؛ فاستمرت العلاقات السلمية بينهما طوال عهده الذى امتد حتى بدايات عام ٧٨٤م / ١٦٨هـ ، دون أن تقع أية اشتباكات أو حروب بين الدولتين (٤). وتضيف مدونة البلدة Albeldense (٥) فى عبارة غامضة أن هذا السلم إنما يرجع الفضل فيه إلى أم سيلو، بقولها ما نصه: " Spania ab causam matris pacem habuit " ، وهى عبارة دفعت بعض المؤرخين الحديثين إلى الاعتقاد بأن أم سيلو كانت مسلمة تربطها علاقة قرابة بعبد الرحمن فى الأندلس (٦) وهو اعتقاد لازال عرضة للتشكيك ولم يقم عليه دليل بعد، بحيث رفضه بعض آخر من المؤرخين (٧) .

(١) Ed. Pidal, 2 p 343.

(٢) Ed. Fuensanta , p 255

(٣) Ed. Puyol, p 282.

(٤) Crón Sebastiani, ed. Flórez, p 483; Crón Alfonso III, ed. Villada, p73, 119; Cron Rotense, ed Moreno, p 617; Crón de Lucas, ed. Puyol, p 282; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu,, p 67.

(٥) Ed. Flórez, p 451

(٦) أنظر على سبيل المثال: Barrau - Dihigo, Recherches, p 149; Valdeavellano, op cit, p 398; Suárez Fernandez, Historia de Espana, Madrid 1970, p24; Danham, op cit, 2p 128, Pidal, op cit, 6 p 38.

(٧) منهم على سبيل المثال: Sánchez Albornoz, Origénes, 2 p 211; Risco, Esp. Sagr,. 37 p 113.

كذلك فقد انفرد أحد مؤرخى الإسبان الذين عاشوا فى القرن الثانى عشر الميلادى، وهو الأسقف بلايو Pelayo أسقف مدينة أوبييدو (١١٠١ - ١١٢٩م) ؛ بذكر حملة وهمية قام بها سيلو على الأندلس فى أعقاب انتصاره على ثورة إقليم جليقية، فيقول أنه انتهز فرصة تواجده فى هذا الاقليم وشن هجوما على الأراضى الإسلامية لم يتوقف به إلا عندمدينة ماردة فى غربى الأندلس فاستولى عليها ؛ ثم عاد إلى مملكته محملاً بكثير من الأسرى والغنائم، ومنها رفات القديس إيولاليا Eulalia، التى صنع لها خصيصا صندوقاً من الفضة الخالصة وضعها فيه وحفظها فى كنيسة عاصمته الجديدة مدينة برافيا Pravia (١). وهى رواية لم يعرها أحد من مؤرخى إسبانيا الحديثين أى اهتمام ورفضوا الأخذ بها جملة (٢)، فكفونا الرد عليها أو مناقشتها.

ومن جهة أخرى، فلا شك أن الظروف التى حملت عبد الرحمن على الموافقة بتجديد معاهدة السلم مع سيلو هى ذات الظروف التى حملته على عقدها مع سلفه أوريليو من قبل؛ إذ انشغل عبد الرحمن منذ بداية عهد سيلو فى القضاء على ثورة سفين البربرى - وكانت على أشدها وقتذاك - وما لازمها من ثورات لليمنية، استحوذت كلها على طاقته الحربية حتى عام ١٦٠هـ / ٧٧٧م ، وما كاد ينتهى منها حتى داهمته ثورات متتالية أخرى لا سيما ثورة سرقسطة التى استعدت شارلمان الفرنجى، وثورتى تدمير والجزيرة الخضراء بتأييد الخليفة العباسى المهدى، فضلاً عن مؤامرة بعض أفراد أسرته للإطاحة به مثلما أشرنا من قبل؛ بحيث لم يكن يمر عليه عام واحد إلا وهو وسط غمارحروب ومعارك ضارية فرضها عليه هؤلاء الثوار، وهو ما أجبر عبد الرحمن على مواصلة علاقته السلمية مع أشتوريس طوال بقية عهد سيلو الذى انتهى عام ٧٨٤م/١٦٨هـ.

وبانتهاء عبد الرحمن من تصفية المتآمرين عليه من أفراد أسرته للإطاحة به فى ذات العام، لم يعد أمامه ما يشغله فى الأندلس بقية هذا العام وبداية العام الذى يليه سوى مهاجمة أشتوريس؛ التى صار فى حل من غزوها بانتهاء معاهدة السلم بوفاة سيلو؛ لا سيما وقد اضطربت أمورها من جراء الصراع بين الفونسو بن فرويلة - خليفة سيلو - وعمته أدوسندا من ناحية وبين مغتصب العرش موريجاتو من ناحية أخرى على النحو الذى أشرنا إليه من قبل.

لذلك أغزى عبد الرحمن - برواية المصادر الإسلامية (٣) - جيوشه إلى

---

(١) Ed Risco, Esp Sagr, 37 p 354 apen 15

(٢) ومنهم على سبيل المثال : Cabal, op cit, pp 65 - 67; Barrau Dihigo, Recherches, p 253

(٣) ابن الأثير، نفسه ٥٢ص ٧٠؛ ابن خلدون ، نفسه، ٤ص ٣٨٧.

أشتوريس بقيادة نائبه على مدينة طليطلة عاصمة الثغر الأوسط، فى أعقاب اغتصاب موريجاتو العرش من الفونسو وما نتج عنه من اضطراب واختلال؛ وهى وإن لم تحدد المناطق التى هاجمها فنتوقع أن تكون الأطراف الشرقية من المملكة، بسبب قربها من هذا الثغر؛ وتكتفى هذه الرواية بالقول أن هذه الجيوش فتحت وقتلت وسبت فى أراضى أشتوريس ثم عادت سالمة.

كذلك فإن كنا نجهل نوعية وتفاصيل هذه الفتوحات بسبب غموض الرواية السابقة، أو مدى تأثيرها على العلاقة بين عبد الرحمن وموريجاتو؛ فنعتقد أن موريجاتو سارع إلى درء خطر المسلمين ، وهو فى قمة انشغاله عنهم بالصراع مع الفونسو، بطلب تجديد معاهدة السلم مع عبد الرحمن، فأجابه إلى طلبه لا سيما وأنه بدأ هو الآخر ينشغل خلال عام ١٦٩ هـ/ ٧٨٦م فى قمع ثورة جديدة قام بها أحد أبناء يوسف الفهرى، ثم واصلها من بعده أحد أقاربه بحيث امتدت حتى أواخر عام ١٧١ هـ/ ٧٨٨م؛ حتى أنه لم يذكر عن عبد الرحمن أنه قام بحملة أخرى ضد أشتوريس طوال تلك المدة وحتى وفاته فى ربيع آخر- جمادى أول عام ١٧٢هـ/ سبتمبر- أكتوبر ٧٨٨م؛ وهو ذات العام الذى توفى فيه موريجاتو فى أشتوريس. وبوفاتهما ينقضى الصلح بين الدولتين وتنتهى مرحلة الهدنة التى استمرت ما يقرب من ربع قرن؛ لتبدأ مرحلة أخرى سيشتد خلالها الصراع بينهما بصورة خطيرة وينقلب فيها ميزان التفوق واضحا لصالح أشتوريس.

وعلى هذا النحو يمكن القول أن عبد الرحمن قد بدأ حكمه بالجهاد ضد أشتوريس وغزو أراضيها فى حملات مكثفة حسبما أتيحت له الظروف، نجح بها خلال السنوات الأولى من حكمه فى اقتطاع بعض أطرافها الشرقية وبخاصة إقليمى ألبة وبمبلونة؛ فأجبرها على التقوقع داخل حدودها والتخلى عن تطلعاتها فى التوسع على حساب المسلمين، مما عاد بأشتوريس خلال عهد فرويلة إلى اتخاذ سياسة دفاعية لتجنب ضغط الأندلس وتهديداتها. ثم مال خلفاء فرويلة - الذى عاصروا بقية عهد عبد الرحمن - إلى التقرب منه وخطب وده، فأجبرته ظروف دولته الداخلية إلى الجنوح أيضاً لمهادنتهم ، لكى يتفرغ لمقارعة الثوار والمتوثبين عليه فى الداخل، ودرء أخطارهم التى توالت دون انقطاع إلا قليلا. ومن ثم ساد السلم بين الدولتين على مدار العشرين عاما التالية لوفاة فرويلة؛ بصورة مكنت عبد الرحمن من تحقيق النصر على خصومه فى الداخل، إلا أن الثمن كما قلنا كان باهظا إذ تخلى عن سياسته الهجومية المكثفة التى بدأ بها حكمه ضد أشتوريس وتوقف عن تهديدها؛ فأتيح لملوكها هم الآخرون الفرصة للاهتمام بشئون دولتهم وتقوية تحصيناتها استعدادا لجولة أخرى جديدة فى علاقتهم بالأندلس، لن تقف فيها أشتوريس هذه المرة موقف المسالم أو المدافع ضد تهديدات الأندلس كما سنتبين فيما يلى من فصول.

الباب الرابع

الصحوة الإسبانية واشتداد الضغط على الأندلس

٧٨٨ - ٩١٠م (١٧٢ - ٢٩٧ هـ)



الفصل الأول

مرونة أشتوريس وصمودها للضغط الأندلسى

٧٨٨ـ٨٥٢م (١٧٢ـ٢٣٨ هـ)

برمودو يخلف موريجاتو وجوانب من معالم شخصيته. متاعب الأندلس فى بداية عهد هشام الأول. غزو هشام أراضى أشتوريس. أثرها فى تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثانى. تحرشات الأخير بهشام واشتعال الحرب بينهما حتى انتهت بهزيمة هشام فى لوتوس. تحالف الفونسو ضده مع البشكنس والفرنجة. رد فعل هشام على التحالف وهزيمته لألفونسو. تولية الحكم بن هشام واضطراب أحوال الأندلس منذ بداية عهده. تحالف أشتوريس والفرنجة ضده ونتائجه. تصدع التحالف وانصراف الفونسو إلى تنظيم شئون مملكته الداخلية. حروب الحكم ضد أشتوريس وحليفتها بمبلونة. مواصلة الحروب ضدها فى عهد خليفته عبد الرحمن الثانى. متاعبه الداخلية واستغلال أشتوريس والفرنجة لها. استئناف عبد الرحمن ضغطه على أشتوريس. وفاة الفونسو الثانى واضطراب أشتوريس فى عهد خليفته راميرو. متاعب عبد الرحمن الداخلية ومدى انعكاساتها على علاقته بأشتوريس .



ظل موريجاتو متربعاً على عرش أشتوريس حتى وفاته قرب نهايات عام ٧٨٨م (١٧٢هـ)، وهو نفس العام الذى توفى فيه عبد الرحمن الداخل فى الأندلس؛ وبوفاتهما تنقضى الهدنة بين البلدين لتعود علاقتهما إلى سابق سخونتها وتوترها.

ويعتقد المؤرخ الهولندى دوزى R. Dozy أن الذى خلف موريجاتو على عرش أشتوريس إنما هو الفونسو بن فرويلة - شقيق الفونسو الأول - وليس الفونسو بن فرويلة ابن الفونسو الأول؛ وأنه لم يستمر فى الحكم سوى عامين فقط، تفجرت خلالهما براكين الثورات والفتن، التى علق عليها دوزى بقوله إنه وإن كان يجهل تفاصيلها فإنها أطاحت بعرش الفونسو ليتربع عليه برمودو Vermudo ، الذى كان أول ما فعله هو القبض على الفونسو واعتقاله فى أحد صوامع المملكة؛ فظل حبيسها حتى دبر أمر الهرب منها بمعاونة بعض أتباعه وخلصائه؛ وحينذاك أرغم برمودر على أن يتنازل له عن عرشه، ومع ذلك عاش الأخير بقية حياته دون أن يناله مكروه من الفونسو، لأنه صار مقربا إليه وكثيراً ما كان يشاوره فى كل أموره[١] .ومنطق تطور الأحداث على هذا النحو يلقى عليها كثيراً من الشك، خاصة وأن دوزى يفتقد دليلاً من الأصول التاريخية إسبانية كانت أم إسلامية لتأييد ما يذهب إليه.

وإذا كان قد انقضى ما يجاوز القرن على اعتقاد دوزى دون أن يستجد ما يدعمه؛ فلا يوجد سند تاريخى أيضاً يجعلنا نميل إلى ما افترضته قلة من الباحثين العرب التى تصورت انقسام مملكة أشتوريس آنذاك على نفسها؛ قائلة أن عرش أشتوريس قد عاد إثر وفاة موريجاتو إلى صاحبه الشرعى الفونسو (حفيد الفونسو الأول)، إلا أن هواجس الأشراف وتخوفهم من نقمته دفعتهم إلى اختيار برمودو فتولى العرش على غضاضة منه، لكنه لم يحكم إلا الجزء الغربى من المملكة أى إقليم جليقية، فى حين لبث الفونسو أميراً على الأنحاء الشرقية؛ وظل الأمر على هذا النحو حتى وضحت نية أمير الأندلس وقتذاك على غزو أشتوريس، وحينذاك خشى برمودو خطر الانقسام على مستقبل مملكته، فعقد الصلح مع الفونسو وولاه قيادة الجيش؛ ثم لم يلبث برمودو بعد مضى سنوات ثلاث أن ضاق بمهام الملك، فتنازل عن العرش طواعية لألفونسو، وبذلك عادت المملكة النصرانية إلى سابق اتحادها مرة أخرى[٢].

ولا تؤيد الروايات الإسبانية أياً من تفاصيل هذه الافتراضات وإنما تنفيها، إذ تؤكد أن برمودو خلف موريجاتو على العرش باجماع آراء نبلاء المملكة دون أن

---

(١) Recherches, 1pp128- 129

(٢)عنان، دولة الاسلام، ١ص ٢١٦ – ٢١٧؛ وانظر أيضاً : رجب عبد الحليم، العلاقات، ورقات ٧٠، ١٠٠-١٠١ .

ينازعه فى ذلك منازع[1]؛ كما يفهم منها أنه أقام ملكاً على كل نواحى المملكة دون أن يعكر صفوه فى داخل دولته معكر؛ إلى أن أقدم على التنازل عن العرش طواعية ويكامل إرادته لألفونسو بن فرويلة[2]، فى شهر سبتمبر من عام ٧٩١م[3] (جمادى أول عام ١٧٥هـ)؛ وهو تاريخ تؤكده أيضاً وثيقة أصلية لايشك أحد من المؤرخين فى صحتها، ولازالت محفوظة فى أرشيف كنيسة سان بيسنت دى منفورت San Vicente de Monforte بمدينة أوبييدو[4].

كذلك فالمدقق فيما ورد من إشارات متناثرة فى ثنايا المصادر الإسبانية[5] عن نشأة برمودو وحياته حتى توليه عرش المملكة، يتأكد له أن والده فرويلة - الذى كان أخاً لألفونسو الأول - قد أراد أن يجنبه متاعب الحياة الحربية التى عايش مخاطرها بنفسه وقت أن شارك أخاه الفونسو الأول، أو أنه ما كان يتوقع لابنه برمودو أن تتاح له فرصة اعتلاء عرش أشتوريس مع وجود أبناء أخيه الفونسو، ولذلك أراد أن يضمن له حياة هادئة مستقرة بعيداً عن أجواء الحرب وتقلبات السياسة ومسئولياتها؛ ولما لم تكن تتوفر مثل تلك الحياة وقتذاك إلا داخل صوامع الأديرة، فقد عهد به منذ سنوات عمره الأولى إلى إحداها لينشأ فى أحضانها؛ وفيها انكب الصغير على التعبد والدراسة لا سيما الدراسات اللاهوتية، حتى صار عالماً فيها فلقب بالدياكونو El Diacono أى القس، ولم يقدر له أن يفارق حياة العزلة والرهبنة هذه إلا حينما وقع عليه اختيار نبلاء المملكة إثر وفاة موريجاتو، فاستدعوه ليرفعوه على كرسى العرش؛ ومع أنه كان يدرك جيداً أن عسكريته هزيلة تفتقر إلى كل فنون الحرب ومهارات القتال، فما كان بوسعه أن يرفض ما أجمع عليه النبلاء ومن ثم قبل المهمة. ولاشك أن مثل تلك الشخصية لا تميل إلى حرب أو قتال أو حتى عنف؛ ولا تملك من المبادرة ما تقتضيه

---

(١) قارن: : Crón. Sebastiani, ed. Flórez, p 484; Crón. Geral de Espanha, ed Cintra, p. 396; Chrón Léonaise, ed. Cirot, p 393 ؛ وإن أخطأ بعض مؤلفى المدونات المتأخرة حين جعلوا برمودو ابن فيمارانو الذى قتله أخوه فرويلة مثلما أشرنا من قبل، ومن هؤلاء : Crón. de Lucas, ed. Puyol, p 383; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p68.

(٢) Crón. Albeldense, ed. Florez, p 451; Cron Alfonso III, ed Villada, pp 73- 74; Cron Rotense, ed Moreno, p 617; Crón Sebastiani, ed Florez, p 484; Chrón Lusitanum, ed Florez, p403.

(٣) Crón. Rotense, ed. Moreno, p617; Crón. Alfonso III, ed. Villada, p121, Chron Léonaise, ed Cirot, p394 ، وإن كانت مدونة Crón Complutense, ed. Huici, 1p54 تجعله سبتمبر من عام ٧٩٠م فهو بلا شك تحديد خاطئ .

(٤) علها وعن نصها أنظر : Cabal, Alfonso III, p201; Risco, Esp Sagr, 37 p133

(٥) قارن: Crón. Silense, ed. Flórez, p280; Crón de Lucas, ed. Puyol, p 283, Crón del Rodrigo, ed. Fuensanta p259.

المواقف الحرجة خاصة ما كانت تمر به دولته؛ ومن ثم فلم يقدر له أن يستثمر الهدوء الذى نعم به داخل مملكته كى يقتص من أعدائه فى الأندلس، الذين أذلوا أسلافه من قبل وأرغموهم على مسالمتهم؛ أو يبادر بحربهم فى وقت كان أميرهم هشام - خليفة عبد الرحمن الداخل - منصرفاً كلية إلى القضاء على حوادث العنف والاضطرابات الداخلية، التى أطلت برأسها بعيد استلامه الحكم؛ وشغلته على مدى السنوات الثلاث الأولى من عهده؛ وكان فى إمكان برمودو استغلالها فيما لو أراد، لكنه على كل حال لم يفعل فهيأ الفرصة لهشام كى يفرغ من خصومه فى أقل مدة ممكنة لم تجاوز عام ١٧٥هـ / ٧٩١م.

وربما لم تكن حوادث العنف هذه من الخطورة إلى درجة تحرم الأندلس المناخ الهادئ الذى كان من ثمرات أعمال عبد الرحمن، إلا أنها مع ذلك استحوذت على كل اهتمامات هشام وصرفته عما عداها؛ فتوقيتها بعيد استلامه الحكم مباشرة شكل حرجاً بالغا له؛ لاسيما وأنها حدثت فى منطقتى طليطلة وسرقسطة، وكلتاهما منطقة ثغرية هامة فى مواجهة القوى المسيحية فى أشتوريس وفى غالة أيضاً ؛ كما أن قربهما من هاتين القوتين يجعل إمكانية الاستنجاد بأى منهما أمراً واردا؛ يضاف إلى ذلك أن عرب سرقسطة وهم يمنية كانت لا تزال تتنازعهم رواسب الكراهية لأمير قرطبة الأموى؛ وطليطلة هى الأخرى كان لديها من الأسباب ما يجعلها تجنح إلى رفض سيادة قرطبة، لكونها كانت فى الماضى عاصمة لها بريقها السياسى وزعامتها الدينية؛ وظلت بحكم استمرار الأسقفية فيها تستقطب نسبة كبيرة من المستعربين، إلى جانب سكانها المولدين والقليل من العرب؛ فصارت التركيبة السكانية غير مستقرة فى هذه المدينة القوطية، التى وقفت أسوارها العالية الحصينة الرابضة فوق منحدر يطل على نهر تاجة تدفعها دوما إلى انتحال دور يعيد لها بعض أهميتها الماضية؛ ولكل هذه الاعتبارات كان إنهاء اضطراب هاتين المنطقتين وإقرار أوضاعهما يفوق أى اعتبار لدى الأمير هشام.

ففى طليطلة أعلن سليمان أخو الأمير الخلاف رافضاً الاعتراف بإمارة أخيه لاعتقاده فى أحقيته بها من دونه[١] ؛ ولم يلبث أهل المدينة ومن جاورهم أن بايعوه بالإمارة[٢] واحتشدوا له؛ وآنذاك انحاز إليه بأتباعه أخوه عبد الله الذى لعبت أبهة

(١) قارن : مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١١٩؛ ابن عذارى، البيان، ٢ص ٦٢؛ ابن سعيد، المغرب، ٢ص ٢٤٦؛ ابن الأثير، الكامل، ٦ص ٨٥؛ النويرى، نهاية ، ٢٢/ ١ ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٦٢ .

السلطان وبريقه برأسه هو الآخر. وكان من الطبيعى ألا يتردد هشام - رغم مزاجه الهادئ وانطباعه على السلام - فى استعمال العنف مع الأخوين، فبادر إليهما فى طليطلة وضرب عليها الحصار - بعد سبعة أشهر فقط من بدء إمارته - لكن سليمان تركه ينشغل فى حصار طليطلة وتسلل منها خفية، قاصداً قرطبة يبغى الاستيلاء عليها فى غياب هشام عنها؛ فما كان من الأخير إلا أن بعث فى إثره جيشاً وصل قرطبة وأهلها يقاتلون سليمان ويدفعونه عنها؛ ففر سليمان إلى مدينة ماردة فى غربى البلاد يبغى الاستيلاء عليها، لاتخاذها قاعدة تهديد لقرطبة إلى أن تحين فرصة الاستيلاء عليها؛ إلا أن عامل المدينة صده عنها وأوقع به هزيمة أجبرته على الفرار إلى تدمير بأقصى شرقى البلاد؛ وحينذاك رفع هشام الحصار عن طليطلة وعاد إلى عاصمته ليتولى منها محاربته فى تدمير؛ وما أن وصل عاصمته حتى جاءه أخوه عبد الله مستأمناً فأمنه؛ وأرسل إلى سليمان جيشاً لاستنزاله فى تدمير، لكن الجيش لم يتمكن من الظفر به، إذ فر إلى مدينة بلنسية Valencia واعتصم فى جبالها ومسالكها الوعرة . واستمر الصراع دون أن تستقر الأحوال بين الأخوين إلا عام ١٧٤هـ/ ٧٩٠م، حينما رضخ سليمان للأمر الواقع وقبل شروط هشام بالنفى خارج البلاد، مقابل مبلغ نقدى كبير، فغادر الأندلس إلى طنجة[١]؛ واستعاد هشام مع مطلع العام التالى (١٧٥هـ / ٧٩١م) سيطرته على منطقة طليطلة فولى عليها ابنه الحكم لضبطها[٢].

لم تكن ثورة سليمان هى كل هموم الأمير هشام وقتذاك ؛ وإنما كانت الأحداث متفجرة عليه أيضاً فى مدينة طرطوشة Tortosa ، التى حمل راية ثورتها سعيد بن الحسين الأنصارى، بعدما اجتمع إليه خلق كثير من قومه اليمنية، وتمكن بهم من السيطرة على مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى؛ فأناب هشام عنه فى محاربته موسى بن فرتون أحد زعماء الثغر، الذى تقدم إليه وناجزه حتى قتله واستعاد المدينة[٣]. وبمقتله انتقلت راية العصيان إلى يمنى آخر فى مدينة برشلونة Barcelona، هو مطروح بن سليمان الأعرابى، الذى استشرى خطره بالاستيلاء على سرقسطة وما يجاورها من مدن، حتى بسط سلطانه على منطقة الثغر الأعلى كلها .

(١) قارن بتفصيل: مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١١٩ – ١٢٠؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٦١،٦٢،٦٣؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٨٥ – ٨٦؛ ابن خلدون، العبر، ٤ص ٢٧٠ .

(٢) أنظر : ابن خلدون، نفسه، ٤ص ٢٧١؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٩٤؛ النويرى، نفسه، ٢٢/ ١ص ٢٣؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢١ .

(٣) قارن : ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٨٦؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٦٢؛ النويرى، نفسه، ٢٢/ ١ص ٢١؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ص ٢٧٠.

ولم يجد هشام بدا من إمهاله حتى يفرغ من أمر أخويه عبد الله وسليمان؛ الذى لم يتم إلا مع مطلع عام ١٧٥هـ / ٧٩١م ، حيث أرسل جيشاً على رأسه وزيره أبى عثمان عبيد الله لمنازلة مطروح؛ ولما حاصره فى سرقسطة لم يظفر به فرجع عنه إلى طرسونة Tarazona ومنها رتب سراياه، التى أخذت تغير على سرقسطة وتمنع عنها الأقوات حتى ضاقت الحال بأهلها، فاغتالوا مطروحا وقدموا برأسه إلى أبى عثمان، الذى أرسلها بدوره إلى هشام فى ذات عام ١٧٥هـ / ٧٩١م[١].

وبانتهاء هشام من اضطرابات الثغرين الأوسط والأعلى انقضت كل متاعبه الداخلية، وتابعت مسيرة السلام خطها المطمئن بقية عهده دون أن يعكر صفاءها متمرد أو عابث، حيث احتوى الأمير بمزاجه الهادئ كل الزعامات القبلية فأذعنت له كل الإذعان، بحيث صارت الأندلس ، من الدعة والعافية والهدوء ما لم يعلم مثلها[٢]. غير أن هشام لم يستسلم لهذه الدعة فوق وثير الأرائك فى قصر الإمارة، ولكنه امتاز بحس جهادى كان دافعه إلى تحقيق ما لم يتح لأبيه تحقيقه، وذلك بتأديب المملكة المسيحية المجاورة؛ التى رأى فيها عدوا لا تجب مهادنته أو مسالمته مثلما فعل والده من قبل، وإنما محاربته والضغط عليه.

ولذلك صرف هشام اهتمامه إلى أشتوريس، ووضع جهاده ضدها على رأس قائمة أعماله، فبادأها الحرب فى غزوات متتالية أكدت بوضوح ما أشارت إليه المصادر الإسلامية من رغبته الجامحة فى الجهاد فى سبيل الله[٣]. وقد أعانه الحظ بقواد مشهورين ذوى كفاءة عالية فى شئون الحرب والقتال، اشتهر منهم أبو عثمان عبيد الله، ويوسف بن بخت[٤] وعبد الكريم[٥] وشقيقه عبد الملك ابنى عبد الواحد؛ ولما لم يكن هشام بطبعه ذلك الرجل العسكرى مثل والده فلم يقد الحملات بنفسه، وإنما أناب عنه هؤلاء القواد فى الحملات إلى أشتوريس وغيرها من القوى المعادية. وعلاوة على ذلك شد هشام من عزيمة أهل الأندلس، وحمسهم على الانخراط فى جيوشه بوسائل مرنة، ومنها أنه ، لم يكن يقتل أحد من جنده فى شئ من ثغوره أو

---

(١) قارن : ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٦٢ – ٦٣؛ النويرى، نفسه، ٢٢/ ١ص ٢١ ـ ٢٢؛ Codera, op cit, 8pp159 - 161,335 - 336

(٢) ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٦٦؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ص ١٤.

(٣) أنظر: مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢٠؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٢٥ .

(٤) عنه أنظر: ابن الأبار، الحلة، ٢ص ٣٧٥.

(٥) عنه أنظر : ابن الأبار، نفسه، ١ص١٣٥ – ١٣٦؛ ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق مكى، بيروت ١٩٧٣م، ص ٣٩.

جيوشه إلا ويلحق ولده فى ديوان أرزاقه ، [١]. ومن جهة ثالثة اتبع فى غزواته إلى أشتوريس سياسة جديدة قامت على مهاجمتها فى وقت واحد من جبهتيها المتباعدتين الشرقية والغربية بهدف تشتيت قواتها إضعافاً لقوتها ومقاومتها، وهى سياسة وضحت منذ أولى غزواته إليها فى ذات عام ١٧٥هـ / ٧٩١م، الذى فرغ فيه من مشاكله الداخلية.

ففى ذلك العام نظم هشام جيشين، عهد بأولهما إلى أبى عثمان عبيد الله - وكان لايزال مقيما فى الثغر الأعلى يحفظه منذ أن قضى على ثورة مطروح فى سرقسطة[٢] - لمهاجمة إقليم القلاع بالجبهة الشرقية لأشتوريس؛ فتقدم إليه واجتاحه ولقى جموع الأعداء متوافين، فقاتلهم حتى أنزل بهم الهزيمة، وتتبع الفارين منهم فى الجبال والأودية دون أن يرفع عنهم السيف حتى بلغ عدد قتلاهم تسعة آلاف ونيف[٣] . وأغلب الظن أن أبا عثمان عبيد الله قد فتح فى هذه الحملة إقليم القلاع، خاصة وأن لصاحب ذكر بلاد الأندلس نص يذكر فيه : ، وهشام هو الذى فتح القلاع من بلاد جليقية، وقتل فيها تسعة آلاف ،[٤]؛ فهذا النص يؤكد أولاً فتح المسلمين هذا الإقليم فى تاريخ غير معين من عهد هشام؛ لكن لما كانت أعداد القتلى فيه تتساوى مع الأعداد التى تقدرها بقية المصادر الإسلامية فهذا يدل بلاشك على أنها نفس حملة عام ١٧٥هـ / ٧٩١م؛ وبالتالى فتح إقليم القلاع الذى صار تابعاً للمسلمين مثل إقليم ألبة، وبذلك يكون لهشام فضل استكمال فتح الجبهة الشرقية لمملكة أشتوريس فى أولى غزواته إليها.

أما الجيش الآخر فكان قد عهد به هشام إلى قائده يوسف بن بخت لمهاجمة إقليم جليقية، فاقتحمه وتوغل فى أراضيه يخرب كل ما مر به دون أن يلقى مقاومة تذكر، ودون أن يتصدى له الملك برمودو فى زحفه على أراضيه، وإنما تركه على أمل أن يقطع عليه طريق عودته وهو متعب مثقل بالغنائم، فيسهل عليه الإيقاع به ؛

---

(١) أخبار مجموعة، ص ١٢٠.

(٢) ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٨٩.

(٣) قارن : ابن الأثير، أعلاه ؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٢٢؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ص ٢٧١ ؛ المقرى، نفح، ١ص ٣١٦ . وقد أجمعت هذه المصادر على تحديد تاريخ الحملة قبل تنازل برمودو عن العرش فى سبتمبر ٧٩١م/ جمادى أول ١٧٥هـ، ولم يشذ عن هذا الإجماع سوى ابن عذارى (البيان، ٢ص٦٣) ومؤلف حوليات كمبو ستلا Annales Compostellani (Ed. Huici, 1p60) فأورداها ضمن أحداث العام التالى ١٧٦هـ/ ٧٩٢م؛ أى بعد تنازل برمودو عن العرش، وهو خطأ مردود لأن الحملة الأخرى الملازمة لها زمنياً كانت وقتذاك تعمل على الجبهة الغربية فى إقليم جليقية، وكان الملك برمودو بنفسه على رأس المدافعين عنها، مما يؤكد إجماع المصادر الإسلامية السابقة وينفى أيضاً التحديدات المخالفة لبعض المؤرخين الحديثين وعلى رأسهم Codera, op cit, 8p 162.

(٤) ص ١٢١.

فكمن له على رأس قواته فى طريق العودة[١]، الممتد بين مدينتى أستورقة Astorga شرقاً فى أشتوريس ولوجو Lugo غرباً فى جليقية ، وانقض عليه عند شاطئ نهر بوربيا Burbia فى منطقة إلبيرزو El Bierzo [٢]، الواقعة فى إقليم جليقية إلى الجنوب من جبال كنتبرية مباشرة، ودارت بين الفريقين معركة ضارية استبسل فيها المسلمون دفاعاً عن أنفسهم حتى تمكنوا من هزيمة قوات برمودو هزيمة ساحقة، قتلوا فيها مقتلة عظيمة بلغت عشرة آلاف سوى من لم يتمكنوا منه ممن سقط فى الجبال والوعر والوهاد[٣]، وانتهبوا معسكرها وأثخنوا فيه[٤] حتى بلغ الفئ تسعة وثلاثين ألفاً كما يذكر أحد المؤرخين المسلمين[٥]؛ ويضيف عليه آخر أن أنباء هذا النصر طارت إلى الأمير هشام في قرطبة فوصلته فى أعقاب أنباء انتصارات أبى عثمان على الجبهة الشرقية[٦].

وليس هناك من شك فى أن مثل تلك الهزيمة المزدوجة كانت ذا وقع أليم على نفوس مسيحيى أشتوريس بعامة، بحيث تفاوت صداها بين مؤرخيهم فلاذوا نحوها بالصمت التام إمعاناً فى إخفائها؛ ولم يشر إليها إلا اثنان فى إشارة مقتضبة غامضة أوفاهما ما أورده أحدهما بقوله : « هاجم المسلمون جليقية وخربوها فى عام ١٧٥هـ فتصدى لهم برمودو وهم فى طريق عودتهم»[٧]؛ فى حين اكتفى الثانى بالقول : «حدثت معركة بوربيا فى عهد الملك برمودو » [٨].

ورغم غموض هذين النصين فواضح من كلمات النص الأول أن المعركة وقعت فى إقليم جليقية، وفى بوربيا حسب النص الثانى؛ وهو نهر يجرى فى منطقة إلبيرزو El Bierzo فى جليقية؛ وهى حقائق أجمع عليها معظم المؤرخين الحديثين[٩]. ولكن بسبب وجود جبال باسم بوربيا Bureba فى إقليم القلاع - الذى كان مجال تحركات أبى عثمان عبيد الله وقتذاك - وهى جبال يتشابه اسمها مع اسم نهر بوربيا Burbia فى إقليم جليقية، الذى وقعت عنده المعركة بين جيشى يوسف والملك

---

(١) Historia Arabum, ed Sanchez, p36

(٢) Crón. Albeldense,ed. Florez, p451

(٣) ابن عذارى، البيان ، ٢ ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) قارن : ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٨٩؛ المقرى، نفح، ١ ص ٣١٦ ؛ النويرى ، نهاية، ٢٢/١ ص ٢٢؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ٢٧١ .

(٥) ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٧٥.

(٦) ابن عذارى ، نفسه، ٢ ص ٦٤.

(٧) أنظر : Historia Arabum, ed Sanchez, p 36، ونص العبارة : "Hic Galleciam deuastauit anno Arabum CLXXV et in reditu obuium habuit Veremundum "

(٨) أنظر : Chrón Albeldense, ed Huici, 1 p163، ونص العبارة : " Regnante eo factum est praelium In Burebia"

(٩) منهم على سبيل المثال : Sanchez Albornoz, Origénes, 2p 401; Urbel, Espana Cristiana, 6pp 41 - 42, Valdeavellano, op cit, 1p403.

برمودو؛ فكان هذا التشابه مع تواجد جيشين إسلاميين فى هذين الإقليمين فى وقت واحد، مدعاة لاختلاط الأمر على أحد الباحثين الأوربيين الحديثين[١]؛ فنسب انتصار يوسف إلى أبى عثمان، وأورده ضمن حملة الأخير على إقليم القلاع.

ولا جدال أيضاً فى أن هذه الهزيمة قد أثبتت للملك برمودو مدى افتقاره إلى أى كفاءة عسكرية؛ وأقنعته بعجزه عن تحمل تبعة ما بدأته الأندلس من هجوم مكثف مزدوج على مملكته؛ فقد فى الجولة الأولى منه إقليماً من أهم أقاليمه الثغرية هو إقليم القلاع. ولذلك أيقن أن بقاء مملكته مرهون بمقدرتها على الدفاع عن نفسها ضد خصم بإمكانه أن يشكل خطراً كبيراً عليها، وهو ما يتطلب رجال حرب بالدرجة الأولى لديهم من الكفاءة والخبرة ما يمكنهم من مقاومة هذا الخصم ومدافعته؛ وهى صفات يدرك أنه يفتقدها كلية مثلما صرحت واحدة من المدونات اللاتينية ذاتها[٢]؛ لذلك آثر أن يتخلى طواعية عن تلك المهمة مثلما قبلها من قبل طواعية؛ ولم يجد أمامه من هم فى سن الحكم من أبناء الأسرة المالكة سوى الفونسو بن فرويلة، ذلك الطريد الذى كان لا يزال مقيما فى إقليم ألبة متخفيا بين أخواله، منذ أن انتزع موريجاتو منه العرش من سنوات سبع مضت، فاستدعاه إليه وتنازل له - مثلما أشرنا من قبل - عن العرش فى الرابع عشر من سبتمبر عام ٧٩١م (التاسع من جمادى أول عام ١٧٥هـ). أما هو فعاد إلى حياة العزلة والرهبنة الهادئة التى كان يحياها قبل توليه الملك؛ وهو حدث لم يفت بعض مؤرخى المسلمين الإشارة إليه، فقالوا أنه على أيام الأمير هشام بالأندلس « خرج ملك جليقية عن ملكه وترهب »[٣].

ومراعاة لتقاليد الرهبنة كان عليه أيضاً أن يتخلى عن أسرته، فهجر زوجته التى لم يكن قد مضى على زواجه منها أكثر من سنوات ثلاث؛ بعدما عهد بابنيها منه - وهما غرسية Garcia وراميرو Ramiro - إلى الفونسو هذا ليتولى تربيتهما ورعايتهما[٤]. فكان برمودو بذلك أول ملك يتنازل عن عرش أشتوريس طائعاً مختاراً، لملك قدر له أن يتولى عرشها لأطول مدة فى تاريخها؛ إذ شغله ما يزيد عن نصف قرن بعامين حتى توفى عام ٨٤٢م /٢٢٧هـ؛ وعاصر بذلك ثلاثة من أمراء الأندلس هم : هشام بن عبد الرحمن فى بقية عهده، ومن بعده ابنه الحكم فحفيده عبد الرحمن الثانى المعروف بالأوسط.

---

(١) Barrau - Dihigo, Recherches, p 151

(٢) Crón. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 259

(٣) أنظر : مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢٤.

(٤) Crón Sebastiani, ed. Florez, p 484; Crón. del Rodrigo, ed Fuensanta, p261, Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p68

ما كاد الفونسو - وهو الذى لقب بالعفيف El Casto وعرف بالفونسو الثانى Alfonso II - يعتلى عرش أشتوريس عام ٧٩١م /١٧٥هـ، حتى اضطربت الأمور فى العام الذى يليه مباشرة على الأمير هشام فى إقليمى ألبة والقلاع، اضطرابا تصمت المصادر عن ذكر أسبابه أو طبيعته وتطوراته. ونعتقد أن يكون وراءه الفونسو لأنه ما كان ينظر بعين الارتياح إلى استمرار احتلال المسلمين لهذين الإقليمين؛ وليس هناك ما ينفى أنه تطلع إلى استعادتهما منذ اللحظة التى ولى فيها العرش؛ فهما جبهة مملكته من ناحية الشرق وأهميتهما فى حمايتها لاجدال فيها، وبقاؤهما فى أيدى المسلمين يهدد أمنها؛ وعلاوة على ذلك فلإقليم ألبة - على الخصوص - مكانة وأهمية خاصة فى نفسه باعتباره مسقط رأس والدته. لكن لما كان الفونسو لايزال فى بداية عهده، ولم يكن قد أعد نفسه لاستعادة هذين الإقليمين بالقوة الحربية، فلا أقل من أن يثير المتاعب فيهما على المسلمين بأن يحرض سكانهما ويشجعهما على نقض طاعتهم؛ لاسيما وقد كانت له عصبيته فى ألبة. وربما تكون هذه السياسة التحرشية هى التى دفعت الأمير هشام إلى توجيه حملة تأديبية إلى هذين الإقليمين، لإعادة الأمور فيهما إلى نصابها على وجه السرعة؛ فبعث فى ذات عام ١٧٦هـ/٧٩٢م ابنه الحكم[١] أو وزيره عبد الملك بن عبد الواحد، على رأس جيش اقتحمهما وأثخن فى نواحيهما[٢] وخرب حصونهما وغنم[٣]. ويضيف على ذلك أحد المؤرخين المسلمين أنه فتح مدينة ألبة[٤]، التى ربما يقصد بها قاعدة الإقليم، وكانت تسمى أيضاً بنفس الإسم (Alba) وهى مدينة سلفاتيرا Salvatierra الحالية [٥] .

وعلى ما يبدو فهذه الحملة وإن حققت بعض الانتصارات فإنها لم تحقق هدفها كاملاً، وهو تأكيد السيطرة الإسلامية على إقليمى ألبة والقلاع؛ إذ سيوجه الأمير هشام إليهما ضربة ثانية فى صيف عام ١٧٨هـ/٧٩٤م؛ أو ربما كان هدف هذه الضربة الثانية تلقين الفونسو - وهو فى بداية عهده - درسا لا يجرؤ معه على تحدى سلطان المسلمين ثانية، لأن هشام سيجعل الضربة مزدوجة لا تقتصر على مهاجمة إقليمى ألبة والقلاع فقط، وإنما أيضاً مهاجمة قلب المملكة والوصول إلى عاصمتها الجديدة أوبييدو Oviedo بهدف تدميرها وتخريبها، لا سيما وأن الفونسو ما فتئ أن نقل إليها

---

(١) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢١ .

(٢) ابن خلدون، نفسه، ٤ص ٢٧١؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣١٦.

(٣) ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٩٤؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٢٣.

(٤) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢١ .

(٥) عنها أنظر: Sanchez Albornoz, Vascos y Navarros, 2 ed, Madrid 1976, p 130.

بلاطه[١] - بدلاً من مدينة براڤيا - وكان العمل فى تحصينها بما يلزمها من أسوار وقلاع وغيرها من المنشآت الدفاعية والمدنية يجرى وقتذاك على قدم وساق .

ولذلك فما أن حل صيف عام ١٧٨هـ/٧٩٤م حتى شهدت مدينة قرطبة تحرك جيشين أحدهما بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد قاصداً الجبهة الشرقية فى ألبة والقلاع، والثانى بقيادة شقيقه عبد الملك[٢] - الذى أسمته الروايات اللاتينية باسم جده مغيث (Mugays - Mugait)[٣] - إلى قلب المملكة قاصدة عاصمتها أوبييدو. ولا تتوفر معلومات كافية عن إنجازات الجيش الأول على الجبهة الشرقية، فأوفى ما ورد عنه قول المؤرخ المقرى أن هشاما « بعث العساكر مع عبد الكريم إلى ألبة والقلاع»[٤]؛ وأضاف عليه ابن الأثير[٥] والنويرى[٦] قولهما « فغنم وسلم»، دون أن يطلعنا أى من هذين المؤرخين على تفاصيل كانت تساعدنا فى التعرف على نوعية هذا الغنم وتلك السلامة. أما الجيش الثانى فتوفرت عنه معلومات تتصل بنجاحه فى الوصول إلى هدفه مدينة أوبييدو العاصمة، وبما أحدثه فيها من تخريب وتدمير .

وتعتبر روايتا ابن الأثير والنويرى - رغم إيجازهما - أوفى ما ورد من معلومات عن تلك الحملة الأخيرة الهامة؛ فيذكران أن هشاما سيرها بقيادة « عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية، فخرب دار ملكهم وكنائسه وغنم، فلما قفل المسلمون ضل الدليل بهم فنالهم مشقة شديدة ، ومات منهم خلق كثير ونفقت دوابهم وتلفت آلاتهم، وعاد من سلم منهم»[٧] .

وواضح أن هذه الرواية تجاهلت تحديد الطريق الذى سلكته الحملة حتى وصلت إلى العاصمة الأشتورية؛ لكن لما كان أقصر طريق إليها من قرطبة هو الطريق الممتد مباشرة إلى أستورقة Astorga[٨]، التى كانت أهم القلاع الأشتورية لحماية ممرات جبال كنتبرية المفضية إلى تلك العاصمة الواقعة فى قلب إقليم أشتوريس؛ فنتوقع أن يكون هو ذاته طريق الحملة، وبالتالى تكون قد تحركت من قرطبة إلى

---

(١) Crón Sebastiani, ed. Florez, p 485; Crón. Alfonso III, ed. Villada, p 74, 121; Crón Rotense, ed. Moreno, p 617; Chrón. Silense, ed. Florez, p 277; Crón. Albeldense, ed. Florez, p 451.

(٢) ابن خلدون ، نفسه، ٤ص ٢٧١ - ٢٧٢؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢٢.

(٣) Crón Sebastiani, ed. Florez, p 484; Chrón. Léonaise, ed. Cirot, p394; Crón. de. Lucas, ed. Puyol, p 286; Prim. Crón. General, ed. Pidal, 2p 436.

(٤) نفح، ١ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٥) الكامل، ٥ ص ٩٩.

(٦) نهاية، ٢٢/ ١ ص ٢٣.

(٧) قارن: ابن الأثير أعلاه ؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ص ٢٤.

(٨) عن وصف هذا الطريق أنظر : Uria Rui, "Las Campanas Enviadas por Hixem I Contra Asturias", EMA, Oviedo 1971, p 487 sqq; Sanchez Albornoz. Asturias Resiste , RFPL, Buenos - Aires 1946, 5p 17 sqq.

ماردة Mérida أولاً ومنها تقدمت مع الطريق الروماني الذى يصلها مباشرة بأستورقة، مارا بمدينتى سلمنكة Salamanca وسمورةZamora، فلما وصلت إلى أستورقة صعدت مع الطريق الذى يمتد إلى أعالى نهر لونا Luna، عبر منطقة جبلية يطلق عليها بابياس Babias، حيث أفضى بها إلى الأودية التى تقع خلفها شمالاً ممرات جبال كنتبرية[1] فعبرتها من ممر ميسا Mesa على الخصوص ، إذ هو الممر الذى يمتد وراءه طريق رومانى آخر يصل إلى مدينة جرادو Grado ومنها إلى مدينة أوبييدو العاصمة هدف الحملة.

كذلك فتختفى من الرواية السابقة الإشارة إلى ما اعترض القوات الإسلامية من مقاومات على طول هذا الطريق فى داخل إقليم أشتوريس، وهو مالا يجب أن نفسره على انتفاء أى مقاومة من جانب أشتوريس، وإنما على العكس نتوقع أنها كانت مقاومات عنيفة متلاحقة لاسيما فى مدينة أستورقة أولى الحصون الأشتورية؛ التى تحمى مداخل إقليم أشتوريس من ناحية الجنوب وتعتبر خط الدفاع الأول عن المملكة من هذه الناحية؛ ولذلك لابد أن حاميتها قد استبسلت فى مدافعة المسلمين ومقاومتهم لوقف زحفهم فى اتجاه ممرات جبال كنتبرية المفضية إلى داخل المملكة، ومثل تلك المقاومة لابد وأن تكون قد أبدتها أيضاً حاميات المدن العديدة التى كانت على امتداد الطريق الطويل الذى سلكه المسلمون فى داخل أشتوريس. على أن نجاح المسلمين فى اجتياز هذا الطريق والوصول إلى العاصمة الأشتورية - كما يشير النص السابق - يؤكد من جهة أخرى انتصار المسلمين على كل تلك المقاومات، بما فيها المقاومة العنيفة التى أبدتها حامية مدينة أوبييدو للدفاع عنها باعتبارها العاصمة ولأن سقوطها يعنى سقوط المملكة، فتغلب المسلمون عليها أيضاً واقتحموا المدينة وعاثوا ينشرون التخريب والتدمير والرعب فى « دار ملكهم أذفونش وكنائسه»[2]؛ وهو تخريب أشار إليه أحد مؤرخى المسلمين الأوائل بقوله فى شئ من التفصيل أن الجيش الإسلامى خرب فى هذه المدينة « الكنائس وهدم الحصون وهدم كنيستها العظمى، وهدم ديار الأذفونش وأفسد عمائرها»[3].

وليس بمستغرب أن تنفرد الروايات الإسلامية بذكر أنباء اقتحام تلك الحملة الإسلامية قلب مملكة أشتوريس ووصولها إلى عاصمتها أوبييدو فألحقت التدمير بعمرانها؛ دون أن يذكر أحد من مؤلفى المصادر الإسبانية شيئاً عن ذلك؛ وهو ما قد

---

(١) وأهم تلك الممرات من الغرب إلى الشرق ما يلى : Leitariegos, Somiedo, Mesa, Ventana, Cubilla, Pajares، أنظر : Uria Rui, op cit, pp 471 - 485 ؛ وانظر الخريطة.

(٢) ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٩٩.

(٣) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢٢.

يعتبره البعض مزعزعاً للثقة فى الرواية الإسلامية، لكن ما يبدد هذا الشك ما أوردته تلك الروايات وبخاصة ما يتعلق بتدمير الكنيسة العظمى فى مدينة أوبييدو، وهى كنيسة سان سلفادور San Salvador - التى كان قد بناها الملك فرويلة والد الفونسو الثانى كما ذكرنا من قبل - يتفق مع نقش تجديدها فى اليوم الثالث عشر من أكتوبر عام ٨٠٢م، أى بعد تدمير المسلمين لها بحوالى ثمانى سنوات؛ فيشير النقش إلى أن الفونسو أمر بتجديدها بعدما دنسها الأمميون (Gentilibus) ودمروا بعض أجزائها[١]؛ ولاجدال فى أن الأمميين المشار إليهم هم المسلمون وهى إحدى المسميات التى أطلقها مسيحيو أشتوريس عليهم.

لكن بعدما استباح المسلمون مدينة أوبييدو على النحو السابق، وبدأوا وهم مثقلون بالغنائم والأسلاب رحلة عودتهم إلى الأندلس من نفس الطريق الذى اقتحموا منه أشتوريس؛ وقعت لهم كارثة كبرى غير متوقعة أضاعت ثمار ما أحرزوه من نجاح، وهى كارثة يلخصها ابن الأثير والنويرى - فى روايتهما السابقتين - بأن الدليل ضل الطريق بالمسلمين، فهاموا على وجوههم على غير هدى لجهلهم بمسالك المنطقة وطرقها؛ حتى نالوا مشقة كبيرة نفقت فيها دوابهم وتلفت آلاتهم ، ومات منهم خلق كثير ولم يتمكن من العودة إلى الأندلس منهم إلا من كتبت له النجاة. ولم يفت مؤلفو المصادر الإسبانية تسجيل نبأ تلك الكارثة وإن كان بصورة مخالفة؛ فذكروا أن قوات أشتوريس وعلى رأسها الملك الفونسو الثانى نفسه كمنت للمسلمين فى طريق عودتهم، وفاجأتهم عند مكان يسمى لوتوس Lutos [٢] (Lodos الحالية)؛ وانقضت عليهم فأنزلت بهم هزيمة ساحقة، أبادت منهم فيها أعدادا كبيرة[٣]، بلغت ستين ألفا[٤]وفى رواية أخرى سبعين ألفا بما فيهم قائد الحملة [٥].

لكن رغم مبالغات الروايات الإسبانية الواضحة بشأن أعداد القتلى المسلمين، فضلا عن الخطأ الذى وقعت فيه فيما يتعلق بقتل قائد الحملة ضمن القتلى، لأنه سيتولى قيادة حملات أخرى فيما بعد؛ إلا أننا نفضل تلك الرواية عن مثيلتها الإسلامية وذلك من منطلق عدة اعتبارات؛ لعل أهمها اعتقادنا بأن ما تقدمه روايتا

---

(١) عن نص النقش أنظر الملاحق وأنظر أيضاً : Hubner, Inscriptiones, p 104; Risco, Esp. Sagr., 37p 140; Vigil, Asturias, 1p 6; Somoza, op cit, 2p 526

(٢) Crón Albeldense,ed. Florez, p 452؛ وأنظر أيضاً وثيقة San Vicente de Monforte التى يوردها : Cabal, op cit, p 201

(٣) Crón del Rodrigo, ed Fuensanta, p 260

(٤) قارن : Crón. Sebastiani, ed. Florez, p484; Crón Alfonso III, ed. Villada, pp 74, 121, Crón Rotense, ed. Moreno, p 617; Crón de Lucas, ed. Poyol, p 286; Chrón Silense, ed. Florez, p 277; Prim. Crón. General, ed. Pidal, 2p 346.

(٥) Chrón Léonaise, ed Cirot, p 394

ابن الأثير والنويرى لأسباب الكارثة يعتبر تمويها وإخفاء لما حل بالمسلمين من هزيمة بعد نصر باهر، ومثل هذا التمويه المقصود به إخفاء الحقيقة لجأ إليه أيضا المؤرخون المسلمون الأوائل مثل أمثالهم المسيحيون؛ حتى إن المؤرخ المقرى حذف كل ما يتعلق بنبأ تلك الكارثة فى روايته عن الحملة، ولم يذكر إلا بدايات الحملة بقوله أن الأمير هشاما بعث جيشا ، مع عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية فانتهى إلى أسترقة،[١] ؛ ثم استكمل حديثه عن الحملة من أحداث حملة أخرى إلى مملكة أشتوريس فى عام تال؛ فخلط بذلك بين أحداث الحملتين ربما دون قصد أو زيادة منه فى التمويه، وهو ما وقع فيه أيضاً صاحب ذكر بلاد الأندلس[٢] الذى كان كتابه من أهم مصادر المقرى.

ومن جهة أخرى، فمن المستبعد أن يخلى الفونسو للمسلمين ـ مثلما يفهم من الروايات الإسلامية ـ طريق عودتهم من أشتوريس بعدما خربوا وعاثوا فى نواحيها، وعلى الأخص فى عاصمته التى كان يستكمل عمارتها ، دون أن يضع خطة للانتقام منهم . وإذا كانت عدته وقوته الحربية أضعف مما كانت عليه قوة المسلمين فجعلته يتحاشى مواجهتهم مواجهة عسكرية مباشرة فى أرض مكشوفة لا يضمن عواقبها، فهذا لا يعنى أن يقلع عن فكرة الانتقام والنيل منهم بأن يعد لهم كميناً فى طريق عودتهم، وهو الذى لم يعوزه الخبراء العارفون بكل خبايا طبوغرافية الطريق وأماكنه الوعرة التى تقدم له أماكن صالحة لمثل هذه الكمائن، وتوفر له وسائل المباغتة فى هجوم يضمن عاقبته، وما أكثر تلك الأماكن فى نواحى أشتوريس وبالذات فى طريق عودة المسلمين.

كذلك فلا بد أن موقع لوتوس Lutos الذى كمن فيه الفونسو للمسلمين فى طريق عودتهم كان من أنسب تلك الأماكن؛ ولكن بسبب عدم تحديد المصادر الإسبانية له تحديداً دقيقاً، فكان ذلك مدعاة لاختلاف المؤرخين الحديثين ، بحيث اعتقد بعضهم[٣] أنه المكان المعروف ـ فى الوقت الحاضر ـ باسم ، مذبحة المور ، Llamo del Mouro، و، بلاط المذبحة ، Campo de la Matanza، الواقع فى أشتوريس عند جبال Cangas de Tineo قرب مدينة بنفس الاسم. فى حين حدده آخرون[٤] بمستنقعات Lugo de Llanera فى أشتوريس أيضاً؛ لكن فات على هؤلاء

---

(١) نفح، ١ ص ٣١٧.

(٢) أنظر: ص ١٢٢.

(٣) منهم : Risco, op cit, 37 pp 136 - 137; Dozy, Recherches,1p 130, Barrau - Dihigo, : Recherches, p 153, A Bleye, op cit, 1p 480

(٤) أنظر على الخصوص : Burguete, op cit, p 276

وأولئك أن هذين المكانين لايقعان فى طريق عودة المسلمين من أوبييدو إلى الأندلس فى الجنوب. وظلت المشكلة معلقة إلى أن حالف الحظ المؤرخ الإسبانى سانشيث البورنث Sanchez Albornoz واكتشف فى الأرشيف القومى التاريخى Archivo Historico Nacional بمدينة مدريد Madrid وثيقة مؤرخة بعام ١٠٣٢م[١]، تنازل بموجبها برمودو الثالث ملك ليون وقتذاك عن منطقة Lapedo فى إقليم أشتوريس للكونت بلايو فريولاث Pelayo Froilaz فى مقابل حصول الأول على منطقة Fromilan بإقليم قشتالة. فانكب البورنث على دراسة الوثيقة [٢] وأثبت منها بما لا يقبل الجدل موقع لوتس إلى الجنوب الغربى من مدينة جرادو Grado فيما بين نهرى بيونيا Pionia وبيجا Vega، فى مكان يضيق فيه الطريق ويمتد بين منحدرين من التلال ضيقا لا يسمح للمارين فيه إلا بالسير فى صفوف ممتدة وراء بعضها البعض، مثلما هى حال ممرات رونسڤالة التى أصيب فيها جيش شارلمان الفرنجى من قبل. ومثل هذا الموقع هو غاية الفونسو الثانى وأقصى أمانيه ، لكى يسهل عليه أن ينقض منه على المسلمين ويقتص منهم فكان له ما أراد؛ إذ هاجمهم حين عبورهم ذلك الطريق وأنزل بهم هزيمة أضاعت نصرهم، وقتل منهم من استطاع وشتت جمعهم، فهام كثير منهم على وجهه دون أن يعرف إلى أين تحمله قدماه فانقطع أثره، وتمكن الباقى من العودة إلى الأندلس بعد أن فقد عدته وآلاته.

ارتفعت معنويات الفونسو بهذا النصر ولكنه وعى أنه بداية لصراع عنيف مع الأندلس، التى ما كانت تقنع بالهزيمة أو تتغافل عن الانتقام؛ ولذا اتخذ تدابير مدافعة هذا الانتقام المتوقع فحشد قواته ورفع درجة استعدادها. ومن ناحية أخرى أذكى هذا النصر قرائح جيرانه البشكنس أيضاً لا سيما فى إقليمى ألبة والقلاع وشجعهم على الوقوف إلى جانب الفونسو فى مناوأة المسلمين؛ أو ربما كان الفونسو هو الذى روج لنصره بينهم واستمدهم فاحتشدوا له وأمدوه، وهو ما عبرت عنه الرواية الإسلامية بقولها أن الفونسو ، جمع وحشد وأمده ملك البشكنس وهم جيرانه ومن يليهم من المجوس وأهل تلك النواحى فصار فى جمع عظيم، [٣] .

ومن هذا النص يبدو أن الفونسو لم يقتصر على استمداد جيرانه البشكنس

---

(١) محفوظة فى الأرشيف تحت اسم : Clero Belmonte برقم Leg 1066

(٢) أنظر تلك الدراسة وهى بعنوان : "Una Via Romana en Asturias, La Via de la Mesa y de Lutos"، فى كتابه : Origénes, 1p 119 - 127 وقد وافقه على تحديده كل من : Uria Rui, op cit , p 490, Cabal, op cit, pp 207 - 210, Valdeavellano, op cit, 1p 404, Suarez Fernandez, op cit, p 27; Urbel, Esp. Cristiana, 6p44

(٣) قارن : ابن الأثير، نفسه، ٥ص ١٠٠؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ١٢٤؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٦٤.

وحدهم، وإنما عمل لأول مرة على توسيع نطاق العمل ضد المسلمين والتقوى عليهم بأعدائهم الفرنجة أيضاً، وهم الذين ربما يشار إليهم فى النص على أنهم ، وأهل تلك النواحي، . وما يدفعنا إلى هذا الاعتقاد أنه فضلا عن الخصومة السياسية القائمة بين كل من الفرنجة وأشتوريس من ناحية وبين الأندلس من ناحية أخرى، فقد كانت هناك وقتذاك خصومة عقائدية حادة مثلما كان فى الشرق المسيحى، وهى خصومة بدأتها الأندلس فى تاريخ غير معلوم قبل عام ٧٨٥م (١) / ١٦٩-١٧٠هـ ، مست بها أصول المذهب الكاثوليكى وهددت أركانه فى هاتين الدولتين؛ وذلك حينما خالف الأسقف إليباندو Elepando أسقف مدينة طليطلة فى الأندلس ما يعتقده أصحاب هذا المذهب فى الطبيعة الإلهية للسيد المسيح أى أن المسيح هو الله، ونادى بأنه ليس إلا ابن الله بالتبنى وهو ما عرف بقضية التبنى El Adopcionismo (٢)، وأوفد كتبه إلى أصدقائه فى بلاد الفرنجة وأشتوريس يشرح لهم أسس اعتقاده ويحضهم على نشره فى بلادهم. وكان من أبرز أصدقائه الذين اعتنقوا رأيه وعملوا على ترويجه الأسقف فيلكس Félix أسقف أورجل Urgel التابعة للفرنجة ، والأسقف فيدل Fidel فى أشتوريس؛ ولم يمض وقت طويل حتى لقيت أراء إليباندو رواجا واجتذبت بعض المؤيدين فى أشتوريس وفى بلاد الفرنجة، فاشتدت المناقشات العنيفة بينهم وبين المعارضين كل يدافع عن معتقده، حتى صار الأمر خطيراً يهدد بوقوع انشقاق كنسى فى الكنيسة الكاثوليكية.

حينئذ نشط شارلمان Carlomagno - الذى اعتبر نفسه حامى الكنيسة الكاثوليكية والمدافع عنها - لمحاربة تلك الهرطقة وإدانة أصحابها سواء فى داخل مملكته أو فى أشتوريس. ففى الوقت الذى عقد فيه المجامع فى مملكته منذ عام ٧٩٢م/ ١٧٦هـ فصاعدا(٣)، كان بعض أساقفته وعلى رأسهم جوناس Jonas(٤) وثيودولفو Theodulfo (٥)، يشدون الرحال إلى أشتوريس يؤازرون فيها زملاءهم ، لا

---

(١) عنها أنظر: Barrau - Dihigo, Recherches, p 159

(٢) عنها وعن انتشارها فى بلاد الفرنجة وأشتوريس أنظر : Risco, Esp Sagr 37pp122 - 125; Danham, op cit, 4 pp 305 - 306, Sanchez Albornoz, Origénes, 2pp 216 - 221.

(٢) مثل مجمع راتسبون Ratisbon عام ٧٩٢م ؛ وفرانكفورت Francfort عام ٧٩٤م؛ وآخر فى روما عام ٧٩٨م؛ واكويسجرام Aquisgram عام ٨٠٠م؛ وعن هذه المجامع أنظر: Danham, op cit, 4pp 305 - 306, Suarez Fernandez, op cit, p28 .

(٤) أسقف مدينة أورليانز Orléans؛ وقد أشار إلى رحلته إلى أشتوريس من قبل شارلمان فى إحدى صفحات عمله المسمى De Cultu Imaginum المنشور فى : Patrologiae, ed Migne, t 106 col. 308 - 388

(٥) جاء ذكر نشاطه ضد الهرطقة فى أشتوريس فى المجمع الذى عقد فى أوبييدو عاصمة أشتوريس عام ٨١٢م وعن نصه أنظر : Risco, op cit, 37 pp 295 - 301 ; كما يشير إلى رحلته إلى أشتوريس فى عمله المنشور فى : Patrologiae, op cit, t 105 col 191 - 380

سيما الأسقفين بياتو Beato وإتريو Eterio فى التصدى لأتباع تلك الهرطقة[١]. وربما كان هذا التقارب الأشتورى الفرنجى مشجعاً لألفونسو الثانى على طلب معاونة الفرنجة الحربية ضد مسلمى الأندلس، وهو افتراض لا تسمح غياب النصوص بتأكيده مثلما لا تسمح بتأكيده الكلمات الغامضة فى النص الإسلامى السابق الإشارة إليه، لكنه لو صح فيكون الفونسو الثانى قد وطد انتصاره على هشام فى موقعة لوتوس بتحالفه مع البشكنس والفرنجة المجاورين له؛ فأخرج صراعه مع مسلمى الأندلس من إطاره المحلى الإسبانى المعتاد إلى إطار أوربى أوسع ، وهو ما أعطى لصراعه مع هؤلاء المسلمين طابعاً صليبيا واضحاً .

لم تكد أنباء استعدادات الفونسو ومحالفته جيرانه البشكنس والفرنجة تصل إلى أسماع الأمير هشام فى قرطبة، حتى أعد الأخير عدته لضرب هذا التحالف الجديد وللانتقام من الفونسو لهزيمة لوتوس فى العام السابق، بحيث ماكاد يحل ربيع عام ١٧٩هـ/ ٧٩٥م حتى كان قائده عبد الكريم بن عبد الواحد يتحرك من قرطبة على رأس جيش كثيف [٢]، بلغت أعداد فرسانه وحدها حوالى عشرة آلاف فارس [٣]، قاصدا مملكة أشتوريس ثانية من نفس الطريق الذى سلكته حملة العام السابق فانتهى إلى مدينة أستورقة أولى القلاع الأشتورية[٤]. وهناك جاءته الأنباء بأن الفونسو حشد جموعاً ضخمة وأقام فى انتظاره فى مكان حدده ابن عذارى فيما « بين جوز جليقية والصخرة » [٥] ، وفسره بعض المؤرخين الحديثين بأنه المنطقة الممتدة بين حدود إقليم جليقية غربا وجبال كوبادونجا Covadonga شرقا إلى الشمال من جبال كنتبرية فى داخل إقليم أشتوريس ذاته[٦] ؛ وهو أمر نستبعده من الناحية التكتيكية على الأقل ، إذ لا يعقل أن يضرب الفونسو معسكره فى داخل دولته انتظاراً لأعدائه، والأولى القول بأنه عسكر على حدودها فى مكان يسهل عليه منه مدافعة المسلمين ويحول دون تقدمهم إلى داخل أراضى دولته، ويوفر له إمكانية التقهقر إذا ما اضطر إلى ذلك ،

---

(١) أصدر بياتو وإتريو عام ٧٨٥م كتاباً للدفاع عن الكاثوليكية ضد آراء إليباندو بعنوان : Tratado Apologetico أنظر : Risco, op cit, 37 p 124; Suarez Fernandez, op cit, p 28 ؛ وعن رد إليباندو عليهما أنظر : . Florez, Esp. Sagr., t 5, apen. 10

(٢) قارن : ابن الأثير ، نفسه، ٥ ص ٩٩؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٢٤؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣١٧؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس « ص ١٢٢؛ وإن تجعله بعض تلك المصادر عبد الملك وليس أخيه عبد الكريم قائداً للحملة وذلك بسبب خلطها بين هذه الحملة وحملة العام السابق.

(٣) قارن : ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ١٢؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٦٥.

(٤) قارن : ابن الأثير، نفسه ٥ ص ١٠٠؛ ابن عذارى، نفسه ٢ ص ٦٤؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٢٤؛ ابن الخطيب، نفسه، ٢ ص ١٢؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٧٢.

(٥) البيان ، ٢ ص ٦٤.

(٦) Dozy, Recherches, 1 p 133; Codera, op cit, 8pp 165 - 166 ؛ وشايعهما فى ذلك بعض الباحثين العرب مثل : عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٢٢٥؛ رجب عبد الحليم، نفسه، ورقة ١٠٣، الذى اشتط فى تحديده قائلاً أنه : « مكان بين الصخرة وجليقية فى أقصى الشمال على ساحل خليج بسكاى » .

وهو مكان لا يتوفر إلا فى المنطقة الممتدة بين مدينة أستورقة جنوبا وما يليها شمالاً حتى جبال كنتبرية، وهى التى توجد فيها الممرات المؤدية إلى داخل أشتوريس وعلى الأخص ممرى ميسا Mesa وبنتانا Ventana .

وما يرجع هذا الافتراض أن « حوز جليقية » أى حدود جليقية، الواردة فى الرواية الإسلامية قد يعنى حدود مملكة أشتوريس؛ لأن استخدام معظم مؤرخى المسلمين لهذا اللفظ لم يكن بمعناه الضيق الذى يقتصر على إقليم جليقية وحده، وإنما بمعناه الواسع الذى يعنى كل أقاليم مملكة أشتوريس؛ وبالمثل فإن استخدامهم للفظ «الصخرة » قد امتد ليشمل جبال كنتبرية وليس جبال كوبادرنجا فقط. وبذلك نفسر عبارتها « بين حوز جليقية والصخرة » على أنها « بين حدود مملكة أشتوريس وجبال كنتبرية » وهى كما أشرنا المنطقة الممتدة بين مدينة أستورقة وجبال كنتبرية؛ ويؤكد ذلك التحديد أيضاً أن الرواية الإسلامية ذاتها تجعل مكان اللقاء الأول بين جيشى المسلمين والمسيحيين فى نواحى مدينة أستورقة، التى كان الفونسو قد أمر سكان نواحيها السهلية بالتفرق فى شواهق الجبال المجاورة[1] أى جبال كنتبرية، ليكمنوا على مداخلها المفضية إلى داخل مملكته، بهدف حمايتها والإيقاع بالمسلمين إذا ما فشل فى مدافعتهم أو وقف زحفهم.

وعلى كل فلم يبالى عبد الكريم بكثرة جموع الفونسو[2] المحتشدة قرب نواحى مدينة أستورقة، وإنما قدم لمناجزتها قائده فرج بن كنانة [3] فى أربعة آلاف فارس، فهاجمها وواضعها الحرب حتى أنزل بها هزيمة ساحقة قتل فيها حماتها ، وأسر منها جماعة أخرى لم يتردد فى أن يطيح برءوسها بعدما انتهت المعركة[4]؛ التى كانت كارثة على الفونسو إذ أربكته ففر على أثرها فى جموعه إلى داخل دولته « هيبة للمسلمين » مثلما تذكر المصادر الإسلامية[5] ، وإن كان هذا لا يمنع أنه ربما عمد إلى استدراجهم إلى منطقة جبلية ليسهل عليه الإيقاع بهم، بعدما فشل فى مواجهتهم فى معركة مكشوفة.

انتهز المسلمون فرصة تراجع الفونسو فبثوا خيولهم فى القرى المجاورة تخرب عمرانها وتنسف زروعها وتهلك كل من تخلف من قوات الفونسو، ثم تقدمت فى حذر

---

(١) ابن عذارى ، نفسه ، ٢ ص ٦٤.
(٢) مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، ص ١٢٢.
(٣) عنه قارن : ابن الفرضى، تاريخ، ١ ص ٣٤٩؛ النباهى، قضاة قرطبة، تحقيق ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٤٨م، ص ٥٣ - ٥٤.
(٤) قارن : ابن عذارى ، نفسه، ٢ ص ٦٤؛ النباهى، نفسه، ص ٥٤؛ الخشنى، قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٤١.
(٥) قارن : ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٠٠؛ النويرى، نفسه ، ٢٢/١ ص ٢٤؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣١٧.

لتتبع الفونسو نفسه ومطاردته. فاقتحمت وراءه ممر بنتانا Ventana على الأرجح، حتى وصلت إلى منابع نهر قيروس Quiros الذى يسميه ابن عذارى بوادى كوثية[(١)]، فصعدت معه حتى وصلت إلى قرب التقائه بنهر بيلجو Pielgo [(٢)] حيث انقض عليهم هناك ثلاثة آلاف فارس من فرسان الفونسو يقودهم قائد يسميه ابن عذارى غندماره[(٣)] Gondemarus كانوا قد كمنوا للمسلمين ، فدارت بينهم معركة دامية كانت الدائرة فيها على غندماره حتى وقع فى الأسر وقتل من فرسانه عدد كبير ، وأصاب المسلمون جميع ما فى تلك الناحية [(٤)]؛ ثم تقدموا فى إثر الفونسو الذى كان قد واصل تراجعه نحو الشمال وضرب معسكره فى جبل [(٥)]، ربما هو جبل أرامو Aramo [(٦)]، فلما اقتربوا منه خشى على نفسه، وفر إلى حصن كان قد بناه وأتقنه على نهر نالون Nalón ، اختلف المؤرخون الحديثون فى تعيين موقعه[(٧)]، فلاحقه المسلمون إليه لايمرون بموضع إلا أحرقوه ولابمال إلا أصابوه حتى اقتربوا من الحصن، ولما لم يجد الفونسو فى نفسه الجرأة على مدافعتهم أو مهاجمتهم فر إلى عاصمته أوبييدو، فتقدم المسلمون إلى الحصن واحتلوه دونما مقاومة، وغنموا كل مافيه من أطعمة وذخائر خلفها وراءه دون أن تتاح له فرصة حملها بسبب ارتباكه، فأمضى المسلمون يومهم فى الحصن حتى نالوا قسطا من الراحة . ثم جرد عبد الكريم قائده فرج فى عشرة آلاف فارس لملاحقة الفونسو فى عاصمته، فتقدموا إليها فى حذر واقتحموها عليه يخربون ويقتلون دونما مقاومة إذ لم تكن قد اكتملت تحصيناتها بعد أو أعيد إصلاح ما خربه المسلمون من حصونها فى العام الماضى، ولذلك ما كاد المسلمون يقتحمونها من ناحية حتى فر عنها الفونسو من الناحية الأخرى متخذا طريقه إلى جبال قمم أوربا Los Picos de Europa المجاورة لها من ناحية الشرق، تاركا جميع عدته وذخائره وحتى حريمه فى أوبييدو فغنمها المسلمون بعدما انتهبوا المدينة ، ثم عادوا [(٨)] دون أن يتابعوا مطاردته فى الجبال التى التجأ إليها.

---

(١) أنظر : البيان، ٢ ص ٦٤؛ وإن كان بعض المؤرخين يرون أنه ربما يكون نهر Narcea أو Trubia ، أنظر:
Dozy, Recherches, 1p 134; Barrau - Dihigo, Recherches, 1p 155.

(٢) Sanchez Albornoz, Asturias Resiste, RFPL, Buenos - Aires 1945, 7p26.

(٣) البيان ، ٢ ص ٦٤ – ٦٥ .

(٤) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٦٥.

(٥) عن وصف طريق تراجع الفونسو أنظر : Sánchez Albornoz, Asturias Resiste, pp 26 - 27.

(٦) Uria Rui, op cit, p 496

(٧) حدد البعض موقعه بين مدينتى جودوس Godos ولاس كلداس Las Caldas، أنظر: Uria Rui, op cit, p 498 ؛ وحدده آخرون بين مدينتى سوتو Soto وبريورى Priori أنظر : Sánchez Albornoz, Asturias Resiste, p 27

(٨) قارن : ابن عذارى ، نفسه، ٢ ص ٦٥؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٠٠؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ص ١٢٤ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢٢.

وما من شك فى أن توقف المسلمين عن مطاردة الفونسو فى تلك الجبال إنما يرجع إلى تخوفهم من أخطار اقتحامها وراءه، وهم الذين خبروا وعورتها وتعقيداتها التى تخدم عمليات الدفاع دون الهجوم، ولم ينسوا أنهم حينما حاربوا فيها بلاى Pelayo فى عام ١٠٣هـ/٧٢٢م من قبل تمكن من هزيمتهم بسهولة رغم قلة أعداد قواته. وفضلا عن ذلك فقد كان الشتاء قد اقترب ببرودته القارسة فى تلك النواحى وكان عليهم أن يتخذوا طريق عودتهم قانعين بما حققوه من نصر وغنائم وأسلاب، وبما أنزلوه بقوات الفونسو من هزائم فى تلك الحملة الكبرى، التى وصفتها الرواية الإسلامية بأنها «غزاة شهيرة» [١]، وبدأوا طريق عودتهم إلى الأندلس من نفس الطريق الذى اقتحموا منه البلاد فوصلوها فى شهر رجب - شعبان من عام ١٧٩هـ / سبتمبر - أكتوبر عام ٧٩٥م.

انتقم هشام فى تلك الحملة الشهيرة من الفونسو ولم يبق أمامه سوى حلفائه البشكنس فى إقليمي ألبة والقلاع فضلا عن الفرنجة، ولذلك عقد العزم على غزو بلادهم فى ربيع العام التالى، لكن الموت عاجله وهو يعد لهذا الأمر فتوفى فى صفر عام ١٨٠هـ/ أبريل ٧٩٦م، ولم يقدر لتلك الحملة أن تتحرك إلا بعدما اعتلى خليفته الحكم الأول عرش الإمارة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن جهود هشام ضد أشتوريس وحلفائها لم تقتصر على ذلك النشاط الحربى فى غزو أراضيها والضغط عليها فى حملات كبرى بلغت أعماقها واقتحمت عاصمتها مرتين، وإنما امتدت لتشمل اهتمامه بثغور بلاده اهتماما بالغا، فضبط أمورها وقوى من تحصيناتها [٢] لرفع كفاءتها القتالية فى الدفاع عن الأندلس ضد ماقد تتعرض له من هجوم خارجي، وقد أثمرت هذه السياسة ثمارا طيبة بحيث لم تفكر أشتوريس طوال مدة حكمه فى غزو الأندلس أو القيام بنشاط حربى ضدها، وهو مالم يجد معه أحد مؤرخى الإسبان الأوائل حرجاً فى التأكيد عليه [٣].

كذلك فقد امتد نشاط هشام إلى الاهتمام بافتكاك أسرى المسلمين فى بلاد العدو بما فيها أشتوريس، فصرف عنايته إلى افتدائهم حتى لم يبق فى بلادهم - كما تذكر المصادر الإسلامية - أسير واحد يشترى ويفك، بحيث إن رجلا مات فى أيامه وأوصى بمال يفتك به أسرى من أرض العدو، فلما طلبت لم توجد فأمر هشام

---

(١) ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ١٢.
(٢) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢١؛ أخبار مجموعة، ص ١٢٠.
(٣) Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 259.

بافتكاك أسرى غيرهم بذلك المال، وهو مايرى فيه المؤرخون المسلمون دليلاً على عزة الإسلام وقوة المسلمين فى أيام هشام وضعف العدو وانقباضه عن الضرب فى بلاد المسلمين وخوفه منهم (١).

بوفاة الأمير هشام اعتلى عرش الإمارة ابنه الحكم، الذى كان نموذجاً خاصاً وفريدا بين أمراء بين أمية ، فقد أخذ من ملامح جده الكثير من الحزم والجدية والشجاعة وكثير من العنف (٢)؛ كما كان على نفس همة والده فى تتبع أعدائه وإذلالهم فى كل أفق (٣). ومع ذلك فقد اضطربت أحوال الأندلس منذ بداية إمارته فى كثير من نواحيها اضطرابا خطيراً ، أتى على معظم نشاطه وجهده، لاسيما فى الثغرين الأعلى والأوسط .

كانت فاتحة هذا الاضطراب فى العام التالى مباشرة لاعتلائه الحكم، بثورة عبيد بن حميد فى مدينة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط، فنصب الحكم لحربه من ردد عليه غاراته حتى تمكن منه باستمالة بعض قيادات ثورته فاغتالوه، وحينذاك أذعنت المدينة للطاعة (٤). إلا أن ثائرا آخر يدعى بهلول بن مرزوق كان قد استغل الفرصة وجاهر بالعصيان فى منطقة الثغر الأعلى، وعاث فى نواحيها على أهل الطاعة ، واستولى على مدينة سرقسطة وما والاها من مدن مثل وشقة Huesca وطرطوشة Tortosa حتى انتهت ولايته إلى مدينة طليطلة (٥) ذاتها ؛ ولم يكتف بذلك نفوذاً وإنما استعدى الفرنجة(٦) الذين ألبوه على إثارة المتاعب فى وجه الحكم؛ فناصبته قوات الحكم الحرب، ولكنها لم تتمكن منه أيضا إلا عن طريق أحد خاصته فاغتاله عام ١٨٦هـ/ ٨٠٢م (٧). ومع ذلك فلم تستقر الأوضاع فى الثغر الأعلى إذ ثار فى ذات العام الأخير حاكم مدينة سرقسطة فرتون بن موسى، أحد زعماء أسرة بنى قسى، ونجحت قوات الحكم فى الإطاحة برأسه فى ذى الحجة من نفس العام (٨).

---

(١) قارن : أخبار مجموعة ، ص ١٢٠؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢١، ١٢٢؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٠١ ؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٢٦؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة ١٩٤٤م ، ٤ص ٤٩٠.

(٢) ابن الأثير ، نفسه ، ٥ ص ٢٠٣؛ ابن سعيد، المغرب ، ١ ص ٣٩.

(٣) أخبار مجموعة ، ص ١٢٤.

(٤) قارن بتفصيل : النويرى ، نفسه، ٢٢/١ ص ٢٨ - ٢٩؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ١٠٥؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٦٩؛ ابن حيان، المقتبس الثانى، مخطوط الأكاديمية الملكية للتاريخ، مدريد ١٩٩٩م، ص٩.

(٥) قارن : العذرى، نصوص، ص ٦٠؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٠٩؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ص ٢٨؛ ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ٩.

(٦) Vita Hludowici, ed Pertz, MGH, Hannoverae 1829, 2 p 611

(٧) العذرى، نصوص، ص ٢٧، ٦١؛ ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ١٧.

(٨) العذرى أعلاه ، ص ٢٧.

ولكى يقضى الحكم على نفوذ أسرة بنى قسى فى الثغر الأعلى، أقام المولد عمروس ابن يوسف حاكما عليه، فاتخذ مقره فى مدينة سرقسطة فى حين بعث ابنه يوسف ليقيم فى مدينة تطيلة Tudela، بهدف أن يحكما السيطرة على المنطقة ضد أطماع بنى قسى. فما كان من زعماء الأسرة الأخيرة إلا أن تحالفوا مع الفرنجة، وقامت قواتهما المتحالفة بالزحف على مدينة تطيلة واستولت عليها وأسرت يوسف، فأنجده والده بجيش مكنه من هزيمة المتحالفين واسترداد المدينة منهم [١]. ومنذ ذلك الحين ظل عمروس وابنه مقيمين فى الثغر الأعلى بتكليف من الأمير ليحفظاه من أطماع كل من بنى قسى والفرنجة وغيرهم من أهل الشرك والخلاف.

أما الأمير الحكم فكان منصرفاً طوال تلك المدة إلى مواجهة عميه سليمان وعبد الله، اللذين دخلا الأندلس فى أوائل عهده واتخذا من مدينة بلنسية مركزا لمنازعته فى سلطانه ؛ وبينما استقر سليمان فيها يؤلب الناس عليه مضى عبد الله إلى الثغر الأعلى يحرض أهله على الحكم ؛ ومن هناك اتجه مع ولديه إلى عاصمة الفرنجة لاستعداء ملكها عليه [٢]. فلما تكاثر أهل الشقاق والفتنة زحف بهم سليمان يريد قرطبة؛ فنهض إليه الحكم بنفسه فى شوال ١٨٢هـ / ٧٩٨م، ودارت بينهما ملاحم متلاحقة على مدى سنوات ثلاث، امتدت فيها رحى المعارك إلى مناطق متفرقة من ولاية تدمير فى جنوب شرقى الأندلس، منى سليمان فى جميعها بالهزائم، وانتهى به المطاف إلى غربى الأندلس حيث لاحقته قوات الحكم، فكانت نهايته فى نواحى مدينة ماردة التى شهدت الإطاحة برأسه عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م [٣]. أما عبد الله الذى عاد فى ذات العام من بلاد الفرنجة فاستقر حينا فى مدينة وشقة، ولما لم يطب له المقام فيها غادرها إلى بلنسية ليتخذها مقراً، ومن هناك جنح إلى موادعة أخيه الأمير عام ١٨٧هـ / ٨٠٣م [٤].

وليت هموم الحكم انتهت عند هذا الحد ، وانما كان فقهاء عاصمته قد انتهوا

---

(١) قارن بتفصيل : ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٧ – ١٨؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١١٩؛ النويرى، نفسه ، ٢٢/١ ص ٣١؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ص ٢٧٣ – ٢٧٤ الذى بدل اسم المدينة فجعلها طليطلة وليس تطيلة.

(٢) أنظر : Annales Regni Francorum, ed Kurze, Hannoverae 1895, p 100, 102; Annales Mettense, ed. Simson, Hannoverae 1905, p 82; Annales Tiliani, ed Pertz, MGH, Hannoverae 1826, 1 p 122; Poetae Saxonis, ed Pertz, MGH, Hannoverae 1826, 1 p 253; وأنظر أيضاً : ابن عذارى، البيان ، ٢ ص ٦٩؛ النويرى، نهاية، ١/٢٢ص ٢٨؛ ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٣، ٥، ٦ .

(٣) بتفصيل أنظر : ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٣ – ٥، ٦؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٦ – ٧٠؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ١٠٢، ١٠٧ – ١٠٨، ١١٠؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٢٩؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ٤، ٧، ١٦، ١٨ ؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧٠ – ٧١؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٠٢، ١١٢.

من تدبيـر انقـلاب للإطاحـة به من العـرش عـام ١٨٩هـ /٨٠٥م[١]، متهمين إياه بالخـروج على أحكام الدين والمجاهرة بالمعاصى[٢]؛ لكن مـا أن اكتشف مؤامـرتهم حتى كان فى منتهى القسوة معهم، بحيث فتك باثنين وسبعين منهم صلبهم جميعا أمام باب قصر إمارته؛ بصورة أثارت نقمة عامة قرطبة عليه [٣] نقمة جعلته يحتاط منهم، بأن اتخذ بعض الإجـراءات الوقائيـة التى تمثلت فى تحصين أسوار المدينة وترميم ما تصدع منها، وإحاطتها بخنادق من جميع جهاتها، فضلاً عن تكثيف عناصر الحرس على أبواب قصره [٤]. ولما تيقن الأهالى أنه لايفعل ذلك إلا للانتقام منهم أضرموها عليه ثورة شعواء عام ١٩٠هـ/٨٠٦م، مستغلين انشغاله فى إخماد ثورة بمدينة ماردة ؛ لكنه طوى إليهم المراحل وبنفس السرعة كشف عن مثيرى الفتنة ، وصلب بعضهم منكسين وضرب أعناق بعض آخر حتى ارتدع الباقى؛ ثم عاد إلى ماردة لمنازلة ثوارها فى غارات متعددة، وهم يطيعونه تارة ويعصونه تارة أخرى حتى تمكن منهم بعد سبع سنوات [٥] أى عام ١٩٦هـ / ٨١٢م.

كان انشغال الحكم على هذا النحو مشجعاً لمولدى طليطلة على خلع طاعته والثورة عليه عـام ١٩١هـ/٨٠٧م [٦]، لكنهم لم يتركوا لديه قلقا شديداً وإنما عالج ثورتهم بمنتهى الهدوء ، إذ اختار عمروس بن يوسف وأرسله حاكما على المدينة الثائرة ليقوم باجهاض الثورة؛ ولم يكن عمروس موضع ارتياب منهم حينما تظاهر بأنه أكثر حقدا على الأمير، فأصبح بنظرهم من رجالات الثورة دون أن يشعروا بما يخططه لهم حسب توجيهات أميره.

ومضى عمروس حسب المخطط يتلاعب بعواطف إخوانه المولدين، فأنشأ لهم قلعة على ضفة نهر تاجة، لتكون بزعمه قاعدة للثوار ومركزا للتدريب، فلما انتهى من بنائها دعا فيها زعماء الثورة على مأدبة كبيرة، ثم بعث إلى الحكم سرا ليوافيه

---

(١) عن تفاصيل هذه المؤامرة وموقف الحكم منها أنظر : ابن حيان،المقتبس الثانى، ص ١٩ - ٢٣؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧١ - ٧٢؛ ابن القوطية، نفسه، ٧٢ - ٧٣؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) قارن : مجهول ، نفسه، ١٢٧؛ ابن سعيد، المغرب، ١ص ٤٤؛ المقرى، ١ ص ٣١٨؛ ابن خلدون ، نفسه، ٤ص ٢٧٤.

(٣) فقد أخذوا يتعرضون له ولجنده بالأذى والسب، ويصفقون عليه بالأيدى، وينادونه عند انقضاء الصلاة «يامخمور الصلاة »، وشافهه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف، أنظر: ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٢٠، ١٧٢؛ النويرى، نفسه ، ١/٢٢ ص ٣٥؛ ابن سعيد، نفسه، ١ ص ٤٣.

(٤) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٤٧؛ ابن عذارى ، نفسه ، ٢ص ٧١؛ مجهول، نفسه، ص١٣٢.

(٥) ابن حيان، نفسه، ص ٢٣ - ٢٤؛ وأنظر أيضاً : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧٢؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٢٥، ١٤١ - ١٤٢؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ص ٣٤ - ٣٥، ٣٦ - ٣٧؛ ابن سعيد ، نفسه، ١ ص ٤٣.

(٦) عن أحداث هذه الثورة أنظر روايات المؤرخين التى أوردها ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٩ - ١٥؛ وانظر أيضاً : ابن الأثير، نفسه،٥ ص ١٢٤؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ص ٣٣؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٧٥.

بقوة عسكرية فى الوقت المحدد، وانسجاما مع سرية الخطة وإتقانها أعلن الحكم عن إرسال حملة عسكرية إلى الحدود الإسبانية فى الشمال بقيادة ابنه عبد الرحمن ، فكان كل من دخل من باب القلعة من زعماء الثورة وتجاوزه قتل وألقيت جثته عند مؤخرة القلعة فى حفرة عظيمة، تصاعد منها بخار الدم الذى فطن إليه أحد هؤلاء الزعماء فتصايح قائلاً : هذا والله بخار الدم لا بخار الطعام يا أهل طليطلة، قتل والله أشرافكم وخياركم وفقهاؤكم (١)؛ فكان لتلك المجزرة الرهيبة التى لم يتفق المؤرخون على رقم دقيق لأعدادها (٢)؛ أثرها فى تجريد المدينة من زعامتها بحيث استقامت ولانت بقية عهد الحكم وابنه من بعده (٣).

وإذا كانت طليطلة قد استكانت بعد هذه المجزرة، فقد ظلت قرطبة العاصمة على اضطرابها منذ عام ١٩٠هـ/٨٠٦م بسبب ما كان قد فرضه الحكم عليها من إجراءات قاسية (٤)، حتى بلغ به الأمر أن أخصى كل من اشتهر من أبنائها بالجمال وصرفهم إلى الخدمة فى قصره (٥)؛ واستهان برعيتها فجعلهم يقبلون يديه، وعندما يخلو إلى خاصته يدعو بالماء ويقول : اغسلوا ما نجست الكلاب (٦)، كما فوض جميع أموره إلى نصرانى كان يؤثره وولاه جباية المغارم والخراج؛ فجار على الناس وقتل منهم كثيرا بالسياط والتعذيب (٧)؛ حتى استحكم عداء أهل قرطبة للأمير ولأثيره النصرانى ولجنده بعامة؛ بحيث إن نزاعا بسيطا بين أحدهم وأحد حراسه كان كافيا لاشعال نيران ثورة جامحة ضده فى رمضان عام ٢٠٢هـ/ مارس ٨١٨م (٨)، زحفت فيها عامة قرطبة فى أعداد هائلة إلى قصر الأمير ، وكادت تدور عليه الدائرة لولا أنه أعمل الحيلة ، فتمكنت منهم جنوده وقتلت منهم مقتلة لم ينج منها إلا من تأخر أجله. وكان على ضفة الوادى الكبير أن تشهد موكبا آخر من المصلوبين قارب

---

(١) أنظر : مجهول، ذكربلاد الأندلس، ص ١٣٢؛ ابن القوطية، نفسه، ص ٧١؛ ابن الخطيب ، تاريخ، ٢ ص ١٥؛ ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ١٤.

(٢) قيل سبعمائة أو مايزيد عن ألف أو خمسة آلاف ويزيد؛ قارن : ابن حيان، أعلاه، ص ١٠، ١٥ ؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧٠؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٣٢ ؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٢٤؛ ابن القوطية، نفسه، ص ٧٠؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٣٢.

(٣) ابن حيان، نفسه، ص ١٤ ، ١٥؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٣٤؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٢٥؛ ابن القوطية ، نفسه، ص ٧١.

(٤) الحميدى، جذوة، ص ١١ ؛ الضبى، بغية ، ص ١٦ ، مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٣٢، المراكشى، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة ١٣٦٨هـ، ص ١٩.

(٥) ابن سعيد، المغرب، ١ ص ٤٤؛ ابن حزم، جمهرة، ص ٩٥-٩٦؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢٧.

(٦) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٣٢.

(٧) ابن الخطيب، تاريخ، ص ١٥؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٣٢؛ ابن حزم، جمهرة، ص ٩٦.

(٨) أورد ابن حيان فى مقتبسه (مخطوط الأكاديمية) تفاصيل متنوعة ودقيقة لروايات المؤرخين السابقين عليه عن أحداث وتطورات هذه الثورة التى عرفت بهيج الربض، شغلت ثمانى عشرة صفحة من مخطوطته (ص٣١ – ٤٩) .

الثلاثمائة ممن ثبتت عليهم الإدانة، واستباح جنده السلب والنهب والقتل والتدمير فى ضواحى المدينة على مدى أيام ثلاثة؛ أمهل بعدها الحكم الأهالى ثلاثة أيام أخر لمغادرة البلاد، فخرجوا متسللين بأبنائهم وماخف من متاعهم؛ ومع ذلك ترصد لهم الجند ينهبون مامعهم ومن امتنع عليهم قتلوه، ثم أمر الحكم بهدم هذه الضاحية وصيرها على عظمة بنائها مزرعة [1] ، بحيث صارت هذه الثورة آخر متاعب الأمير الحكم فى الداخل .

كان من الطبيعى والحال كذلك أن تستغل أشتوريس هذه الاضطرابات المتواصلة للتدخل فى شئون الأندلس لمضاعفة حدة اضطراباتها؛ بهدف الانتقام منها على غزواتها المتكررة على أراضيها وما أحدثته من تدمير فى عاصمتها ؛ فعاود الفونسو الثانى الاتصال بالفرنجة وأرسل إليهم مع أواخر عام ٧٩٧م/ ١٨١هـ مبعوثه فرويلة Froila،على رأس وفد يحمل هدية عبارة عن خيمة عربية تصفها الرواية الفرنجية بأنها ذات صنعة عجيبة - كان الفونسو قد غنمها من المسلمين فى حروبه السابقة معهم على أيام الأمير هشام - ومع أن الرواية الفرنجية حددت أهداف هذه السفارة فى إقامة علاقات المودة بين الملكين الفرنجي والأشتورى[2]، فكانت تهدف ولاشك إلى تنسيق خطة العمل بينهما ضد المسلمين باعتبارهم عدوهما المشترك، إذ شهدت السنوات التالية نشاطاً حربياً مكثفاً لهذين المتحالفين ضدهم .

ولسنا نعلم على وجه التحديد ما أسفرت عنه المباحثات بين سفراء الملك الفونسو وملك الفرنجة، إلا أن شواهد الأمور تدل على أنهم اتفقوا على البدء فى سياسة هجومية على الأراضى الأندلسية، على أن يعمل كل منهما فى ناحيته؛ فيقوم الفرنجة بمهاجمة الأراضى المجاورة لهم على امتداد السفوح الجنوبية لجبال البرتات وهى أودية سردانية Cerdana ؛ وبلیارش Pallars وريباجورثا Ribagorza وسوبرارب Sobrarbe؛ فى حين تقوم أشتوريس بمهاجمة أراضى الثغر الأندلسى الأدنى فى أقصى الغرب؛ ليتم بذلك تشتيت جهد المسلمين وإضعاف مقاومتهم باجبارهم على القتال فى جبهتين متباعدتين .

ولذلك نشط الفرنجة منذ أواخر عام ٧٩٧م / ١٨١هـ فقاموا بحملة تخريبية

(١) قارن : ابن سعيد ، نفسه، ١ ص ٤٢؛ ابن الأبار، الحلة، ١ ص ٤٤ - ٤٥؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ١٧٢-١٧٣؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٣٧ - ٣٩ ؛ ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٤٩.

(٢) عن هذه السفارة أنظر : Annales Mettense, ed. Simson, p 82'; Annales Regni Francorum, ed. Kurze, p 102; Annales Einhardi, ed Pertz, MGH, Hannoverae 1895, p 101, 103; Vita Hludowici, ed. Pertz, 2p 611.

على الأراضى الإسلامية فى الأودية الجنوبية من جبال البرتات[1]، ثم كثفوا غاراتهم عليها فى العام الذى تلاه، حتى استولوا على أهم مدنها مثل مدن أوسونة Ausona (Vic الحالية) وكردونة Cardona وكاسيراس Caserras وغيرها من مدن تلك الناحية [2] ، ولم يلبثوا أن مدوا سيطرتهم على بمبلونة من بلاد البشكنس بعدما أثاروا أهلها [3] ضد عاملها المسلم مطرف بن موسى أحد زعماء بنى قسى، فوثبوا عليه واغتالوه فى عام ٧٩٩م/١٨٣هـ [4]. كما تطلع الفرنجة إلى مدينة برشلونة Barcelona أمنع معاقل المسلمين على ساحل البحر المتوسط فهاجموها فى عام ٨٠٠م/١٨٤هـ؛ ولما لم يظفروا بها لحصانتها وقوة أسوارها أغاروا على مايليها غربا فخربوا مدينتى لاردة Lérida ووشقة Huesca [5] ؛ ثم أعدوا العدة ثانية للإستيلاء على برشلونة فى العام الذى يليه وتقدموا إليها فى جيش ضخم قسموه إلى ثلاثة أقسام، أولها حاصر المدينة وثانيها أغار على ماجاورها أما الثالث فرابط فى منطقة سرقسطة ليحول دون وصول النجدات الإسلامية القادمة إليها من قرطبة؛ وظلوا على ذلك إلى أن سقطت المدينة فى أيديهم عنوة[6] فنقلوا إليها حماة ثغورهم[7] ،واتخذوها قاعدة لإمارة ثغرية لهم فى الأراضى الإسبانية عرفت وقتذاك بمنطقة الثغر الإسبانى La Marca Hispanica [8] – وفيما بعد بإمارة قطلونية Cataluna – وكان فقدانها خسارة فادحة للمسلمين بحيث عظمت حسرتهم عليها [9]. خاصة وأن الصائفة التى أرسلها الحكم إليها فى ذات العام بقيادة أخيه معاوية فشلت فى استرجاعها؛ بل ودفعت ثمنا إضافيا حينما حلت بها هزيمة قاسية على مسافة غير بعيدة من أحد روافد نهر إبرو.

وبذلك نجح الفرنجة فى فرض سيطرتهم على الأراضى الإسلامية الممتدة

---

(١) Chron Moissiacense, ed. Pertz, MGH, Hannoverae 1826, 2 pp 202 - 203

(٢) Vita Hludowici, ed Pertz, 2 p 611.

(٣) Urbel, Lo Viego y lo Nuevo sobre el Origen del Reino de Pamplona, AL- Andalus1954, 19p4

(٤) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١١٥؛ وانظر أيضا : Lévi - Provencal, Textos Inéditos del Muqtabis, Al. Andalus 1954, 19 p 296.

(٥) ابن حيان ، أعلاه ، ص ١٦؛ Vita Hludowici, ed. Pertz, 2 p 611

(٦) Vita Hludowici, ed Pertz, 2 p 612; Annales Regni Francorum, ed. Kurze, p 116; Annales Tiliani, ed. Pertz, 1 p 222; Annales Mettense, ed. Simson, p. 88؛ أنظر أيضا : ابن حيان أعلاه، ص ١٦.

(٧)قارن : ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٠٢، ١١١؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٣٠؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٧٣؛ المقرى، نفسه، ١ ص ١٣٧.

(٨) عنه أنظر: Martin, La Peninsula en Edad Media, Barcelona 1978, p 189 sqq ; Lévi-Provencal, Histoire, 1 p 181.

(٩) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٣٢؛ ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ١٦.

على طول الحافة الجنوبية من جبال البرتات؛ من بمبلونة غرباً حتى برشلونة شرقاً؛ ومن الأخيرة طمعوا فى مدن الأندلس المجاورة، فحاولوا عام ٨٠٨م / ١٩٢هـ الاستيلاء على مدينة طرطوشة، لكن المحاولة فشلت تحت ضغط حملة عسكرية أرسلها الحكم؛ ثم تكررت المحاولة فى العام التالى وتكرر معها التصدى من جانب الحكم، فأنقذت المدينة بعدما ألحقت الهزيمة بالجيش الفرنجى[١]. ومع ذلك فلم ينجح الحكم فى وقف غارات الفرنجة على مدن المنطقة ونواحيها التى عاثوا فيها بالقتل والسلب والنهب، كما فشلت محاولته استرداد مدينة برشلونة عام ١٩٧هـ/٨١٣[٢]؛ وإن أسفرت نشاطاته هذه عن عقد معاهدة مع شارلمان؛ نصت على احترام الهدنة فى منطقة الحدود بينهما ، وإن لم يطل أمدها إلى ما بعد وفاة الأخير[٣] .

هذا عن الفرنجة؛ أما عن الفونسو ملك أشتوريس فكان قد قاد جيوشه عام ٧٩٨م/١٨١هـ وعبر جبال كنتبرية ومنها اجتاز حوض نهر دويرة واقتحم الأراضى الإسلامية؛ وهاجم أطراف الثغر الأدنى وعاث فى نواحيه حتى وصل إلى مدينة لشبونة Lisboa الواقعة عند مصب نهر تاجة Tagus على ساحل المحيط الأطلسى؛ فانقض على حاميتها وهزمها واقتحم المدينة فخربها ونهب كنوزها[٤]. ويضيف بعض المؤرخين الحديثين أنه استولى عليها فظلت فى يديه إحدى عشرة سنة دون أن يتمكن المسلمون من استعادتها منه إلا فى عام ١٩٣هـ/٨٠٨ - ٨٠٩م[٥] ، وإن كان لايوجد فى المصادر ما يؤكد هذا القول أو حتى يرجحه؛ والأولى القول بأن حملة الفونسو هذه لم تكن سوى غارة بعيدة المدى بهدف السلب والنهب والتخريب وإشاعة الاضطراب فى أراضى الثغر الأدنى الأندلسى دون أن يتطلع إلى احتلالها، إذ كانت تنفصل عن أراضى مملكته بمساحات واسعة خالية مهجورة فى حوض نهر دويرة؛ وكان على الفونسو أن يسيطر على هذه المساحات الواسعة أولا قبل أن يتطلع إلى السيطرة على ما يقع جنوبها من أراضى الأندلس.

---

(١) عن هذه الحملات قارن : ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ٢٥ - ٢٦؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧٢ - ٧٣؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٢٥ ، ١٤٢؛ المقرى، نفسه ، ١ص ٣١٨؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ص ٣٥؛ وانظر أيضاً : Annales Regni Francorum, ed. Kurze, p 127; Vita Hludowici, ed Pertz, 2 pp 614 - 615.

(٢) ابن حيان، المقتبس الثاني، ص ٢٨ - ٢٩؛ وانظر أيضاً : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧٤، الذى يحدد هذه المحاولة بعام ١٩٩هـ / ٨١٥م.

(٣) ابن حيان، أعلاه، ص ٢٥.

(٤) قارن : Annales Regni Francorum, ed. Kurze, p 104; Annales Mettense, ed Simons, p 84; Annales Tiliani, ed. Pertz, 1 p 222, Annales Einhardi, ed. Pertz, p 105

(٥) Lévi - Provençal, Histoire, 1 p 174, Barrau - Dihigo, Recherches, p 158

وما كاد الفونسو ينهى حملته ويعود إلى بلاده حتى زف خبر انتصاره إلى الفرنجة، فأوفد إلى ملكهم ثانية رسوله فرويلة Froila ، ويرفقته رسول آخر يدعى بازيليسكوس Basiliscus، يحملان النبأ ومعهما هدية من أسرى المسلمين مكونة من سبعة فرسان بكامل أسلحتهم وجيادهم كدليل مادى على هذا النصر[١] .

على أنه لم يكن لتلك السفارة الأشتورية نتائج ذى جدوى فى تقوية جبهة التحالف الأشتورى الفرنجى ضد الأندلس وإنما بدأت تتصدع بعدها أركانه ؛ لأن نبلاء مملكة أشتوريس ما كانوا ينظرون بعين الارتياح إلى طبيعة علاقة ملكهم الفونسو غير المتكافئة بالملك الفرنجى، منذ أن اعترف بالتبعية لهذا الأخير [٢] حينما اشترطها عليه ثمنا للتحالف معه، بحيث أنه لم يتردد فى أن يصف نفسه فى خطاباته إليه بأنه « تابعه الخاص » [٣] ؛ وهى علاقة أنكرها عليه نبلاء أشتوريس وعارضوه فيها، قائلين له : إنهم يفضلون الموت جوعا على أن يكونوا أتباع الفرنجة يوما ما[٤]. وقد تجسدت تلك المعارضة فى الأسطورة الشعبية الإسبانية، التى راجت فيما بعد منذ القرن الثانى عشر الميلادى فصاعدا؛ فيما عرف بقصة برنارد الكاريبو Bernardo El Carpio، ومؤداها أن برنارد هذا - ابن أخت الملك الفونسو وأقوى فرسان عصره - كان من أشد المعارضين له فى علاقته المشينة بالفرنجة ، ولم يتردد برنارد فى الانتقام منهم بالتحالف مع مسلمى مدينة طليطلة فأعلن الحرب عليهم، ولما تقدم الفرنجة إلى المدينة وحاصروها فشلوا فى الاستيلاء عليها ، بسبب خيانة أحد نبلائهم ويدعى جلالون Galalon (Galaron)، وهو ما اضطرهم إلى رفع الحصار عنها، والزحف إلى مدينة ناجرة Najera فاستولوا عليها وعلى منطقة جبل خاردين Jardin ثم عادوا إلى بلادهم. لكن عاد برنارد إلى التحالف ضدهم مع حاكم مدينة سرقسطة المسلم ومع أهل نبرة، فحاربهم الفرنجة وهزمهم برنارد هذه المرة وقتل من نبلائهم الكثير، فاندفع الفرنجة بدافع الانتقام لنبلائهم القتلى إلى اكتساح كل شمالى إسبانيا؛ بما فيها أراضى أشتوريس حتى وصلوا إلى أقصى غربيها عند مدينة سنتياجو Saintiago ، ومنها عادوا إلى بلادهم يحملون برنارد أسيرا[٥] .

---

(١) Annales Regni Francorum, ed. Kurze, p 104; Annales Mettense, ed Simson, p 84; Annales Einhardi, ed Pertz , p 105

(٢) Crón del Rodrigo, ed Fuensanta, p 268; Crón de Lucas, ed. Poyul, p 287

(٣) Vita Caroli, trans Lewis Thorpe, London 1971 - 1972, p 70.

(٤) Crón del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 268.

(٥) عن تفاصيل هذه الأسطورة أنظر: Cron del Rodrigo, ed Fuensanta, pp 264 - 271; Cron de Lucas, ed Puyol , pp 286 - 288; Prim. Cron General, ed Pidal, 2 pp 350 - 351, 352 - 355, Cron Geral de Espanha, ed. Cintra, 2 pp 432 - 436; 437 - 445, Aragonese Text, ed. Umphrey, Rev. Hisp 1907, 16 pp 262 - 282.

والمهم فى ذلك أن العلاقة بين الفونسو ونبلاء دولته تطورت تطوراً سيئا ربما بسبب مخالفته لهم فى الرأى؛ ولما ضرب عرض الحائط بمعارضتهم التى كانت تشتد يوما بعد يوم دون جدوى، لم يجدوا مناصا من استخدام القوة ضده فتآمروا عليه لاغتياله والإطاحة به، وتمكنوا من اغتصاب العرش منه بالقوة فى العام الثانى عشر من حكمه أى فى عام ٨٠٣م/١٨٧هـ، لكنهم لم يظفروا به إذ أفلت من أيديهم وفر ناجيا بحياته إلى دير أبلانيا Abilania فى إقليم جليقية، ومن هناك نجح فى استرداد عرشه المغتصب بمعاونة خلصائه وأتباعه، وعلى رأسهم أثيره الفارس ثيوديوس Theudius فعاد إلى اعتلائه فى ذات العام[١] ؛ وربما تلى عودته إلى عرشه انشغاله فى تصفية النبلاء المنشقين عليه ، فظلت الحالة مضطربة إلى أن تخلص منهم وإن نفض يده من تحالفه مع الفرنجة أيضاً.

وبانهيار هذا التحالف عادت أشتوريس إلى انتهاج سياستها الدفاعية القديمة ضد أى هجوم متوقع من جانب المسلمين، وصرفت نشاطها وطاقاتها إلى العناية بشئونها الداخلية الصرفة، وتنظيم هيكلها السياسى والإدارى والدينى فضلاً عن تعمير أراضيها؛ وذلك كوسيلة من وسائل تقوية جبهتها ضد المسلمين. ولا شك أن تستأثر العاصمة أوبييدو بالنصيب الأوفى من هذا النشاط التنظيمى العمرانى بسبب ما خرب من عمارتها أثناء اقتحام المسلمين لها عامى ١٧٨، ١٧٩هـ/ ٧٩٤، ٧٩٥م ؛ فضلا عن أن عمارتها لم تكن قد اكتملت بعد؛ ولذا اجتهد الفونسو فى تعميرها وتحصينها وإصلاح عمارتها، فجدد فيها كنيسة سان سلفادور التى أقامها والده كما أشرنا، فوسع من بنايتها وأضاف إليها اثنى عشر مذبحا بعدد حواريى السيد المسيح[٢] ، وأقام مقبرة ملكية فى الجانب الغربى منها، أما فى الجانب الجنوبى فقد أضاف حجرة عرفت بالحجرة المقدسةLa Camara Santa [٣] لتوضع فيها المقدسات والآثار ذات القيمة الدينية والتاريخية؛ وذلك على غرار بيت الحكمة الذى كان القوط قد أقاموه فى عاصمتهم طليطلة ، ثم افتتح الفونسو الكنيسة رسمياً فى أكتوبر ٨٠٢م/١٨٦هـ.

وإذا كان الفونسو قد استخدم فى توسيع هذه الكنيسة وتجديدها ما كان سائداً

---

(١) أنظر : : Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, P. 263; Prim. Cron General, ed. Pidal, 2p 347; Chron Léonaise, ed Cirot, p 394; Risco, Esp Sagr , 37pp 137 - 138

(٢) عن النقش الدال عن ذلك أنظر الملاحق، وأنظر أيضاً : Hubner, op cit, p 104, Vigil, op cit, 1p6 - 7; Risco, op cit, 37 pp 140 - 141, Somoza, op cit, 2 pp 525 - 526.

(٣) عنها بتفصيل أنظر : Vigil, op cit, 1pp 13 - 14

عند الفرنجة من فن معمارى[١] ، فما تركه فيها من آثار فنية يدل على تأثره أيضاً بالفن الزخرفى القوطى؛ وهو مايبدو واضحاً من الصليب المعروف بصليب الملائكة La Cruz de los Angeles الذى أمر بصنعه عام ٨٠٨م/١٩٤هـ من ذهب خالص مطعم بأحجار كريمة، مثلما هو ثابت فيما عليه من نقش [٢] ، ووضعه على مذبح تلك الكنيسة وإن كان يحفظ فى وقتنا الحاضر فى الحجرة المقدسة.

ولهذا الصليب قصة أسطورية هى سبب تسميته بصليب الملائكة، ولا بأس من أن نشير إليها بإيجاز، باعتبارها نموذجاً طريفا للحياة الروحية السائدة فى أشتوريس وقتذاك . فتذكر الروايات الإسبانية المتأخرة أنه حينما توفر لدى ألفونسو الثانى قدراً من الذهب والأحجار الكريمة، اعتزم أن يستغلها فى صنع صليب يضعه على المذبح الرئيسى لكنيسة سان سلفادور ، ولكنه احتار فى طريقة صنعه؛ وظل هذا الهدف المقدس يشغل باله إلى أن قابل وهو فى طريقه من قصره إلى تلك الكنيسة ملاكين فى هيئة الحجاج، استوقفاه وأسرا إليه أنهما صائغين يجيدان تشكيل الذهب؛ فسر بذلك أيما سرور وطلب منهما أن يصنعا له صليبا يبذلان فيه كل ما لديهما من خبرة متقنة وإجادة؛ وقدم لهما ما يلزمهما من ذهب وأحجار، وأنزلهما فى مكان يصنعان فيه الصليب، وعاد هو إلى قصره. لكن الظنون ساورته فى أمر الرجلين وعاتب نفسه على ما عهده إليهما دون معرفة سابقة بهما؛ فبعث عيونه واحدا بعد الآخر لاستطلاع أمرهما فى مقرهما؛ فلما وصلوا إليهما لم يجدوهما وإن وجدوا الصليب قد اكتمل صنعه وانبعث منه ضوء وهاج أنار كل جوانب المكان ؛ فعادوا إلى الملك وأخبروه بما كان . ولما ذهب الملك ورأى بنفسه ذلك النور الساطع، واكتمال صنع الصليب فى إتقان وسرعة مذهلتين، أدرك أنه ليس من صنع بشر، وإنما هو معجزة إلهية عليه أن يشكر الرب عليها؛ فاستدعى من فوره رجال الدين ورعيته، ونقلوا الصليب إلى كنيسة سان سلفادور فى احتفال مهيب، حيث تناوله الملك بنفسه ووضعه على مذبحها الرئيسى، ولم يفته أن يرسل بأنباء تلك المعجزة إلى البابا فى روما، الذى اغتبط أيما اغتباط بسماعها؛ وأصدر قراره البابوى بأن ترقى تلك الكنيسة إلى مرتبة الأبروشية لتكون مقر رئيس أساقفة أشتوريس [٣].

---

(١) Valdeavellano, op cit, 1p 418.

(٢) عن الصليب وما عليه من نقوش أنظر : Hubner, op cit, p 79 No 247; Risco, Esp. Sagr., 37 p 146; Vigil, op cit, 1 p 17; Cabal, op cit, p 340 ؛ وأنظر الملاحق .

(٣) Cron de Lucas, ed. Puyol, pp 285 - 286; Cron. Silense, ed. Florez, pp 278 - 279; Prim. Cron. General, ed. Pidal, 2 p 349; Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 69.

كذلك فمن بين ما احتفظ به الفونسو من آثار فى تلك الكنيسة صندوقا خشبياً يطلق عليه صندوق الآثار المقدسة La Arca de las Santas Reliquias [١]، الذى لا يزال يوجد فى الحجرة المقدسة حتى وقتنا الحاضر، ويحتوى على آثار ومخلفات متعددةللسيد المسيح ولبعض حوارييه، ومنها بعض دماء المسيح فى أنبوب من الكريستال وبعض عظامه وجزء من صليبه الخشبى وبعض ردائه؛ وقطع من خبز تناول منه الحواريون عشاءهم، وأيدى القديس ستيفان Stevan، ونعل القديس بطرس Peter الأيمن، وجبهة القديس جون John ؛ وغير ذلك من المقدسات والمخلفات. وتضيف الرواية الإسبانية على قصة هذا الصندوق بأن صنع فى أورشليم ثم حمل بحرا إلى مدينة إشبيلية بإسبانيا، ومنها نقل إلى مدينة طليطلة حيث استقر فيها حتى وقت الفتح الإسلامى، فنقله رجال الدين سرا إلى أشتوريس وأخفوه فى الجبل المقدس Monte Sagro قرب مدينة أوبييدو، فظل به نحوا من مائة عام إلى أن نقله الفونسو إلى كنيسة سان سلفادور بعدما انتهى من تجديدها وتوسيعها [٢].

وبجانب ما قام به الفونسو من تجديد وتوسيع كنيسة سان سلفادور فى أوبييدو، فقد أرسى أساس أربع كنائس أخرى فى ذات المدينة؛ وكلها ذات بناء متقن وصنعة دقيقة، مثل كنيسة سان ميجيل San Miguel التى وضح فيها التأثير المعمارى الفرنجى [٣]؛ وكنيسة سانتا ماريا Santa Maria ، وكنيسة سان ترزو San Tirso التى لا يزال برجها القديم قائماً حتى وقتنا الحاضر[٤]، وكنيسة سان جوليان San Julian؛ واجتهد الفونسو فى تزيين كل هذه الكنائس حتى أنه كسا عقودها وأعمدتها بالذهب والفضة. ثم امتد نشاطه ليشمل كافة مرافق المدينة ومبانيها العامة من قصور وحمامات واستراحات وقباب وحصون وقلاع [٥]، حتى غدت المدينة خليقة بأن تكون عاصمة المملكة.

---

(١) عنه وما عليه من نقوش أنظر : Vigil, op cit, 1 pp 14 - 16

(٢) قارن بتفصيل : Cron. de. Lucas, ed. Puyol, pp 282 - 285; Pelagii Ovetense Episcopi, ed. Risco, Esp Sagr., 37 pp 279 - 294, 352 - 358; Cron. Silense, ed. Florez, pp 277 - 278 ؛ Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, pp 68 - 69, Prim Cron. General, ed. Pidal, 2 p 348 وإن كان المؤرخ كابيدا يرى أن الصندوق لم ينقل من طليطلة إلى أشتوريس إلا فى عهد الفونسو الثانى، أنظر : Caveda, op cit, pp 87 - 90

(٣) Valdeavellano, op cit, 1 p 418

(٤) Somoza, op cit, 2 p 414

(٥) قارن : Cron Albeldense, ed. Florez, p 452; Cron Rotense, ed. Moreno, pp 617 - 618, Crón. Alfonso III, ed. Villada, pp 74 - 75, 121 - 122; Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 485; Cron. de Lucas, ed. Puyol, p 284; Prim Cron General, ed Pidal, 2p 348, Cron Silense, ed. Florez, p 278; Cron leonaise, ed. Cirot, pp 394 - 395.

وقد امتد هذا النشاط التعميرى إلى إقليم جليقية أيضاً فأقام الفونسو فى عام ٨١٣م / ١٩٨ - ١٩٩هـ كنيسة متواضعة باسم القديس يعقوب « سنتياجو » Saintiago، فى منطقة ريفية مهجورة قرب المدينة الرومانية القديمة إيريا فلافيا Iria Flavia (El Padrón الحالية)، التى ارتبط بتأسيسها هى الأخرى أسطورة جعلت منها أكبر المزارات المسيحية فى إسبانيا وفى العالم المسيحى الأوربى بعامة . فتقول الأسطورة أن القديس يعقوب أحد حواريى السيد المسيح كان قد بشر بالمسيحية فى إيبيريا، ولما عاد إلى أورشليم وتوفى فيها حمل تلامذته جثمانه بحرا حتى انتهوا به إلى شاطئ إقليم جليقية، حيث دفنوه فى سفح تلال عند مدينة إيريا فلافيا؛ ومضت به القرون وغاص القبر ونسيه الناس حتى بدايات القرن التاسع الميلادى، حينما شاهد الأسقف تيودميرTheodomir أسقف المدينة المذكورة أضواء غريبة تتلألأ ليلا فى سماء المكان ، فلما استقصى الأمر اكتشف المقبرة، وعلم مما شاهده من رؤيا وما نزل عليه من وحى أن ما عثر عليه هو رفات القديس يعقوب؛ فحمل النبأ إلى الملك الفونسو الذى أمر ببناء كنيسة فوق تلك البقعة المقدسة؛ ثم أعلم بابا روما بالنبأ فأذاعه بدوره على العالم المسيحى أجمع[1] .

وبانتشار تلك الأسطورة وتصديق المسيحيين لها انتظمت وفود الحجاج من إسبانيا ومن خارجها إلى ذلك الضريح المتواضع ، فصار بمرور الوقت أعظم كنائس إسبانيا المسيحية ضخامة وروعة وفخامة، كما نمت حوله مدينة حيوية مزدهرة عرفت بمدينة سنتياجو دى كمبوستلا Santiago de Compostella ؛ التى غدت مركزا دينيا وتجاريا وثقافيا هاما لتلك الجموع المسيحية الغفيرة التى تفد إليها من كافة أنحاء العالم المسيحى. يضاف إلى ذلك أن الأسطورة قد أثرت تأثيرا روحيا عميقا على مسيحيى إسبانيا، وهو تأثير سيستفيد منه خلفاء الفونسو الثانى فى إذكاء الحماسة الدينية لرعاياهم ، وفى استغلاله استغلالا حربيا فى صراعهم ضد المسلمين، حتى ادعوا لرعاياهم أن القديس يعقوب يبشرهم بالنصر ويحارب معهم ضد المسلمين، فصار القديس فى أعين هؤلاء الرعايا « حامى إسبانيا » ، وأصبحت صيحة الحرب بين القوات الإسبانية عبارة « Saintiago y Cirre Espana » .

كانت تلك النهضة العمرانية - الدينية المدنية - إحدى جوانب نهضة شاملة فى أشتوريس ، بهدف تطوير أنظمتها السياسية والإدارية والدينية والقضائية؛ وهى

(١) عن القصة بتفصيل أنظر: Huerta y Vega , Manuel de las Anales del Reyno de Galicia, Santiago 1736, 2pp 309 - 321; Danham, op cit, 1 pp 313 - 317

نهضة وضح فيها تأثيرات الأنظمة الفرنجية التى تعرف عليها الفونسو الثانى من خلال علاقته بالفرنجة، وكذلك تأثيرات الأنظمة الإسلامية فى الأندلس التى نقلها المستعربون المهاجرون إلى أشتوريس، وإن كان تأثير الأنظمة القوطية قد فاق هذا وذاك؛ فأحيا الفونسو - مثلما تذكر بعض المصادر الإسبانية - كل الأنظمة القوطية التى تتصل بالبلاط والكنيسة على غرار ما كانت عليه فى مدينة طليطلة من قبل [١]. ولذلك بدأت تظهر فى بلاط أشتوريس منذ أيام الفونسو هذا مناصب متعددة مثل : كونتات البلاط Comes Palatii والحاجب Major Domus وهو تقليد فرنجى، والكاتب الملكى Notarius Regis ، وقائد الفرنسان Strator [٢]. أما فى الشئون الكنسية فقد نظم الفونسو الهيئة الدينية وأسس مقاعد أسقفية متعددة وعين لها الأساقفة، مثلما هو واضح من نص أعمال مجمع أوبييدو الأول الذى عقده فى عام ٨١٢م[٣] / ١٩٧ - ١٩٨هـ. كما أعاد تقسيم المملكة إلى مناطق إدارية يحكم كل منها كونت ؛ وأدخل القانون القوطى Liber Judiciorum ، وهو القانون الذى وضعه الملكين القوطيين تشندا سفنت وابنه رسسفنت (٦٤٢ - ٦٧٢م) وصار - مع ما أضيف عليه من تعديلات - أساس التعامل لكل الرعايا فى مملكة القوط على عهدهما فصاعدا [٤]، فأعاد الفونسو العمل به . وبذلك اتخذت مملكة أشتوريس طابعا إداريا وسياسيا منظما مثل مملكة القوط البائدة ، حتى اعتبر مؤلفو المصادر الإسبانية الفونسو وغيره من ملوك أشتوريس ليسوا إلا ملوكا قوط؛ فيؤرخ لهم صاحب مدونة البلدة مثلا تحت عنوان : (ORDO GOTHORUM OVETENSIUM REGUM)[٥]. أى تتابع ملوك أوبييدو القوط.

لم يقدر للأمير الحكم، بسبب متاعبه الداخلية المتلاحقة طوال تلك المدة، أن يستفيد من اضطراب أشتوريس أو انصرافها إلى شئونها الداخلية للقيام بحملات مكثفة على أراضيها؛ أو للانتقام منها على سابق تحالفها ضده مع الفرنجة فى غزو بلاده ؛ ولذلك كانت نشاطاته الحربية ضدها متباعدة وحملاته إليها ضعيفة الأثر، بل

---

(١) Cron. Albeldense, ed. Florez, p 452.، ونص عبارتها : " Omnemque Gothorum ordinem, Sicuti Toleto fuerat, tam in ecclesia,quam Palatio in Oveto, Cuncta Statuit" ، وانظر أيضاً : Cron de Lucas, ed Puyol, p 284.

(٢) Urbel, Esp. Cristiana, 6 pp 47 - 48, Valdeavellano, op cit, 1 p 418

(٣) عن جدول أعماله ومناقشاته وقراراته أنظر : Risco, op cit, 37 pp 295 - 301.

(٤) عن هذا القانون وتعديلاته بتفصيل أنظر : Ziegler, Church and State in the Visigothic Spain, Washington 1930, pp 59 - 65, 73 - 74 ؛ طرخان ، دولة القوط، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٥) Cron. Albeldense, ed. Florez, p 450

إنه افتقد بعض أطراف بلاده خلال تلك الحملات مثلما سنرى فيما بعد. حقيقة كان أول ما بدأ به الحكم عهده هو الغزو والجهاد فى سبيل الله مثلما يذكر المؤرخ الإسلامى النويرى [١]، بحيث أنفذ فى نفس ربيع العام الذى اعتلى فيه الإمارة، أى ربيع عام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، جيشاً بقيادة عبد الكريم بن مغيث إلى أراضى مسيحيى الشمال؛ إلا أن هذا الجيش لا يرجع الفضل فى إعداده إلى الحكم وإنما إلى أبيه الذى وافته المنية قبيل أن ينتهى من استكمال عدته؛ فلما تولى الحكم وكان مدركا لخطر الفونسو، الذى اتخذت حملاته على الأندلس بعدا صليبيا واضحا ينم عن حماسته الشديدة للتوسع على حساب المسلمين، لم ير ما يمنعه من تنفيذ ما عزم عليه والده بتسيير هذا الجيش إلى وجهته؛ ربما تأسيا بما فعله الخليفة أبو بكر الصديق بجيش أسامة بن زيد الذى كان رسول الله ﷺ قد أعده قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ويبدو أن مهمة هذا الجيش قد ازدوجت بحيث لم تكن لغزو إقليمى ألبة والقلاع[٢] فقط، وهما من بلاد البشكنس التابعة وقتذاك لأشتوريس؛ وإنما لغزو أراضى الفرنجة المجاورة لها أيضاً، إذ كان الأمير هشام قد أعده لينتقم به من البشكنس والفرنجة معا لمؤازرتهم الفونسو الثانى ضده. ولكى يتاح لهذا الجيش سرعة التحرك فى هذه المنطقة الواسعة، وفى غير صعوبة فى أراضيها الوعرة، فلم يضم على ما يبدو سوى الفرسان فقط. يضاف إلى ذلك أن تعميم الروايات الإسلامية لوجهة الجيش إلى دار الحرب مرة [٣]، وإلى بلاد الفرنجة [٤] بصفة عامة مرة أخرى يرجح ازدواج مهمته؛ إذ أن لفظ بلاد الفرنجة غالباً ما استخدمه المؤرخون المسلمون للدلالة على أراضى مسيحيى إسبانيا فضلا عن فرنجة غالة فى الشمال.

وعلى كل فقد تقدم القائد عبد الكريم واحتل بإقليم الثغر الأعلى – سرقسطة – إلى أن توافت عليه الحشود، فتقدم إلى قلهرة ومنها زحف قاصدا إقليمى ألبة والقلاع. ويذكر ابن عذارى [٥] أنه اقتحمه وتوغل فيه حتى وصل إلى شاطئ بحر كنتبرية فى أقصى الشمال، وهناك قسم الجيش على ثلاثة أقسام وقدم على كل قسم رئيسا، وأمر كل واحد منهم أن يغير على الناحية التى قصدها ووجه إليها؛ فمضوا وأغاروا واستباحوا وانصرفوا غانمين ظافرين، ثم عادوا ثانية إلى الإغارة وجاوزوا خلجا كانت تمد وتحصر، كان أهل تلك النواحى قد تحرزوا بها، ونقلوا إليها العيال والماشية والأموال، فأغاروا عليها واحتووا على جميع ما وجدوا فيها وانصرفوا سالمين غانمين.

---

(١) نهاية، ٢٢/١ ص ٢٧.
(٢) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٨؛ وانظر أيضاً : Lévi - Provencal, Histoire, 1pp 173 - 174.
(٣) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٦٩؛ ابن حيان، أعلاه.
(٤) ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٠٢؛ النويرى نفسه، ٢٢/١ص ٢٧.
(٥) البيان، ٢ ص ٦٩؛ وأنظر أيضاً : ابن حيان، أعلاه، ص ٨.

ويضيف على ذلك ابن الأثير[١] والنويرى[٢] أنهم لما عادوا إلى عبد الكريم وقد ملأوا أيديهم من الغنائم، سير طائفة أخرى فخربوا كثيرا من بلاد فرنسية وغنموا الأموال وأسروا الرجال، فأخبرهم بعض الأسرى أن جماعة من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى واد وعر المسلك على طريقهم، وبلغ ذلك عبد الكريم فجمع عساكره وسارعلى تعبية، وجد فى السير فلم يشعر الكفار إلا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم، فانهزموا وغنم المسلمون ما معهم وعادوا بالظفر والغنيمة والسلامة. وعلى هذا النحو من التعميم وعدم التحديد سجلت الروايات الإسلامية أخبار تلك الحملة المزدوجة على بلاد البشكنس فى إقليمى ألبة والقلاع وعلى بلاد الفرنجة؛ وإن يتضح من روايتها على كل حال أن المسلمين قد ظفروا فيها على أعدائهم البشكنس أتباع أشتوريس وعلى الفرنجة أيضا.

غير أن مؤامرات العمين سليمان وعبد الله وثورات المولدين فى الثغرين الأعلى والأوسط جمدت النشاط الحربى للأمير الحكم ضد إسبانيا المسيحية، على مدار السنوات الخمس التالية لهذه الحملة الناجحة، فلما فرغ من عمه سليمان عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م ؛ وكفاه قائده عمروس شرور الثغر الأعلى، بادر إلى تجريد حملة فى العام التالى مباشرة، بقيادة أخيه معاوية إلى برشلونة Barcelona لإنجادها من أيدى الفرنجة. فلما عجز معاوية عن إنجادها لم يشأ أن يرجع إلى الأندلس مباشرة خالى الوفاض، وإنما غير وجهته – مثلما يذكر مؤلف حياة لويس – وهاجم أراضى أشتوريس [٣] فى ألبة والقلاع؛ دون أن يوقفنا على أى معلومة أخرى تبين مدى توفيقه فى هذا الهجوم أو مصيره. وهو ما أوضحه ابن حيان مؤكدا على أن الفشل لازم معاوية منذ أول لقاء مع قواتهما، التى أنزلت به فى شهر رمضان هزيمة ساحقة عند فج (ممر) أرغنسون (Arganzon) – وهو الواقع قرب التقاء نهرى زادورا Zadora وإيرة Ebro [٤]- فقد فيها خيرة جنده مثل منصور الخصى وذو القرنين وابن الخولانى وامرؤ القيس بن حيوة وعبدوس بن السمح وغيرهم ؛ ثم عاد إلى قرطبة شديد الاغتمام لما وقع بعسكره ، فلم يلبث أن مات فى ذى القعدة أى بعد نحو شهرين فقط من تاريخ هزيمته[٥]. وبذلك انفصل إقليما ألبة والقلاع بصورة عملية عن سلطان الأندلس وعادا إلى السيطرة الأشتورية.

---

(١) الكامل، ٥ ص ١٠٢.

(٢) نهاية، ٢٢/ ١ ص ٢٧ – ٢٨ .

(٣) Vita Hludowici, ed Pertz, 2 p 612

(٤) عن هذا التحديد أنظر : Sanchez Albornoz, La Campana de la Morcuera, Anales de Historia Antigua y Medieval, Buenos - Aires 1948, 1 p 22 ؛ وأنظر الخريطة .

(٥) المقتبس الثانى ، ص ١٦ – ١٧ .

وعبثا حاول الحكم استعادة هذين الإقليمين، فسير إليهما صائفة فى عام ١٨٧هـ / ٨٠٣م تولى قيادتها عبد الملك بن عبد الواحد وبرفقته الأمير عبد الرحمن(١)، وإن كان كل من المقرى وابن خلدون(٢) قد جعلاها إلى بلاد جليقية بصفة عامة ، فإن نص ابن حيان واضح فى تحديدها بإقليمى ألبة والقلاع؛ ويضيفان عليه القول أن الصائفة أثخنت فى أراضيهما، ولما خالفها العدو إلى المضايق عادت إلى التعبئة وظفرت به ، ثم عادت إلى الأندلس غانمة. وكان صمت ابن حيان عن مثل هذا النصر أو الظفر، فضلا عن قلة المعلومات عن الحملة بما لا يكفى لتقييم نجاحها، مدعاة لبعض المؤرخين للقول بسلبية نتائجها فى أنها لم تترك أثرا يذكر، وأنها لم تختلف عن غيرها من الحملات التقليدية، التى كانت تشق طريقها كل صيف إلى الشمال، ما لم يكن هناك مشاكل داخلية تستوجب تجنيد كافة الطاقات العسكرية فى الدولة(٣). وكما فشلت هذه الحملة فقد فشلت حملة أخرى أوفدت إلى هذين الإقليمين فى عام ١٩٠هـ/ ٨٠٦م؛ وفقدت قائدها الذى تسميه الرواية اللاتينية باسم أبو تمام أو أبو عثمان Albutaman ، فى معركة على شواطئ نهر بسويرجا Pisuerga (٤)؛ فكانت آخر نشاطات الأمير الحكم على الجبهة الشرقية لمملكة أشتوريس.

هذا الفشل الذى لازم محاولات الأمير الحكم على الجبهة الشرقية، لم يثنيه عن أن يجرب حظه على الجبهة الغربية فى إقليم جليقية، فأرسل إليها ابنه هشاما على رأس قواته فى عام ١٩٢هـ/ ٨٠٨م؛ وهى حملة أورد ابن حيان نبأها الموجز قائلا أنها اقتحمت جليقية وعادت منتصرة دونما تفصيلات أخرى(٥). وإن كنا نعتقد أنها لم تكن سوى غارة تهدف إلى السلب والنهب والتخريب إظهاراً للقوة واليقظة ، مثلها فى ذلك مثل حملة الفونسو الثانى على مدينة لشبونة عام ١٨١هـ / ٧٩٧م؛ لا سيما أن ما كان يفصل بين الأندلس وأشتوريس فى تلك الناحية من أراضى واسعة قفر مهجورة فى حوض نهر دويرة، تمنع أن يكون لأى حملة سواء من أشتوريس أو الأندلس من هدف فى فتح أو استقرار فى أراضى الجانب الآخر، قبل أن يسيطر على تلك المساحة الخالية.

---

(١) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٨.

(٢) أنظر على التتابع، نفح، ١ ص ٣١٧ - ٣١٨؛ العبر، ٤ص ٢٧٣.

(٣) Lévi - Provencal, Histoire, 1p 175. ؛ إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ٢٢٨.

(٤) Annales Compostellani, ed. Huici, 1 p 60 فنذكرها نصه : " Qui (Albutaman) et Occisus Fuit era DCCCXL IIII in Pisuerga, quando Venit In Bardulias. "

(٥) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٢٥.

وعلى هذا النحو، فشلت أيضاً حملة الحكم ضد إقليم جليقية على الجبهة الغربية من مملكة أشتوريس، مثلما فشلت حملاته السابقة على الجبهة الشرقية فى إقليمى ألبة والقلاع اللذين خرجا بصورة فعلية عن السيطرة الإسلامية إلى سيطرة أشتوريس منذ عام ١٨٥هـ/١٠٨م؛ فتجاورت بذلك أراضى أشتوريس فى هذين الإقليمين مع أراضى بمبلونة التى كان النفوذ الفرنجى قد تقوى فيها - منذ أن أثار الفرنجة أهلها ضد عاملها المسلم فقتلوه قبل ذلك بعامين مثلما ذكرنا من قبل - ثم أكدوا سيطرتهم عليها حينما أقاموا على حكمها حاكما تابعا لهم يدعى بلاسكو Velasco فى عام ٨٠٦م/ ١٩٠هـ[١]. فأدى هذا التجاور إلى تقارب الفرنجة وأشتوريس ثانية وتجدد تحالفهما الدفاعى ضد عدوهما المشترك، وهو تحالف نستنتج نبأه من رواية المؤرخ ابن حيان[٢]؛ مما دفع بالأمير الحكم إلى توجيه حملة ضخمة إلى بلادهم بقيادة حاجبه عبد الكريم بن مغيث فى عام ٢٠٠هـ[٣]/ ٨١٥ - ٨١٦م، تعتبر آخر النشاطات الحربية للحكم ضد أشتوريس ، وهى حملة ذكرتها الروايات الإسبانية [٤] أيضاً واتفقت فى أخبارها مع الروايات الإسلامية وإن اختلفت معها فى ثلاث نقاط جوهرية.

النقطة الأولى تتعلق بقائد الحملة، فبينما تجعله الروايات الإسلامية عبد الكريم ابن مغيث ، فإن الروايات الإسبانية تجعلهما قائدين تسمى أحدهما باسم Alhabez (الحاجب ؟) ، والآخر باسم Melik (ملك) ؛ وهو خلط نتج عن اعتقاد مؤلفى تلك الروايات بأن لفظ الحاجب اسما لعلم، ثم إن خلطهم بين ملك (عبد الملك) وشقيقه عبد الكريم القائد الفعلى للحملة كان كثير الوقوع؛ أو ربما رافق عبد الملك شقيقه عبد الكريم فى تلك الحملة مثلما حدث فى حملات سابقة، وإن جعلت الروايات الإسبانية كلا منهما قائداً فى تلك الحملة لجيش غير جيش الآخر.

---

(١) أنظر : Annales Regni Francorum, ed. Kurze, p. 122, Annales Tiliani, ed. Pertz, 1p 224, ويفترض ليفى بروفنسال (Histoire, 1 p 176) أن بلاسكو هذا من أصل بشكنسى وأنه ربما يكون نفس الشخص الذى كان ضمن سفارة الفونسو إلى شارلمان عام ٧٩٨م مع فرويلة، وهو المسمى فى المصادر اللاتينية Basiliscus ، ويوافقه على هذا الافتراض Barrau- Dihigo ، أنظر (Recherches, 1 p 158) ، لكن يخالفهما فى الرأى المؤرخ Sanchez Albornoz ، أنظر : La Auténtica Batalla de Clavijo, CHE 1948, 9p 101 No 6.

(٢) ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ٣١؛ وانظر أيضاً : Textos Inéditos del Muqtabis, 19p 296.

(٣) قارن : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧٥؛ المقرى ، نفسه، ١ ص ٣١٩؛ ابن خلدون ، نفسه، ٤ ص ٢٧٦؛ ابن الأثير ، نفسه، ٥ ص ١٨٠؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٣٩.

(٤) Cron. Albeldense, ed. Florez, p452; Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 485, Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 76, 122, Cron. Rotense, ed Moreno, p 618; Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 276, Prim. Cron. General, ed. Pidal, 2p 352.

أما الاختلاف الثانى فيتصل بتحديد هذه الروايات الإسبانية لتاريخ الحملة بالعام الثلاثين من حكم الفونسو، وهو الذى يقابل عام ٨٢١م (٢٠٥ - ٢٠٦هـ)، وهو تاريخ لاحق لتحديد الروايات الإسلامية بخمس سنوات؛ وربما نتج هذا الفارق بسبب أن مؤرخى الروايات الأولى اعتبروا مدة حكم موريجاتو- باعتباره مغتصبا للعرش من الفونسو - داخلة ضمن مدة حكم الأخير. وإذا ما صدق هذا الافتراض يكون الاختلاف بين الروايتين اختلافا ظاهريا فقط؛ وما يؤيد هذه الافتراض أن المصادر الإسلامية لا تشير ولو تلميحا إلى أى نشاط حربى للحكم فى خارج الأندلس، سواء ضد الفرنجة أو إسبانيا المسيحية خلال عام ٨٢١م / ٢٠٥ - ٢٠٦هـ. وبذلك تكون كل من الروايات الإسبانية والإسلامية قد اتفقتا بطريقة غير مباشرة على تاريخ الحملة بعام ٢٠٠هـ/ ٨١٥ - ٨١٦م.

فى حين يكمن الاختلاف الثالث حول تحدد وجهة الحملة، فبينما يجعلها المؤرخون المسلمون إلى بلاد المشركين أو بلاد الفرنجة بصفة عامة، فإن المؤرخين الإسبان يجعلونها ضد إقليم جليقية على وجه التحديد ، وهو الجبهة الغربية لمملكة أشتوريس، ويحددون أماكن اللقاء بين جيشى القوتين فى مكانين يقعان فى إقليم جليقية ، أحدهما يسمى Naron أو Naharon والثانى يسمى Anceo ؛ وهو ما جعل بعض المؤرخين الحديثين يؤكدون أن الحملة كانت ضد إقليم جليقية[١]، لكن ما يزعزع الثقة فى هذا التحديد أن نص ابن حيان واضح وضوحا لا يقبل الشك فى أنها لم تكن ضد إقليم جليقية؛ وإنما ضد بمبلونة التى كان يحكمها بلاسكو Velasco باسم الفرنجة ، إذ يقول ما نصه : « وفى هذه السنة كانت غزوة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة إلى عدو الله بلشك الجلشقى صاحب بمبلونة »[٢]. يضاف إلى ذلك أن لفظى Naron و Anceo لايقتصر وجودهما فى إقليم جليقية وحده[٣] وإنما فى إقليم القلاع أيضاً ، فنهر أرون (Oroncillo الحالى) أحد روافد نهر إبرة الذى يصب قريبا من مدينة ميراندا Miranda del Ebro ، وتقع عليه أيضا مدينة إنثيو Encio . هذا الاختلاف بين وجهتى نظر المؤرخين المسلمين والإسبان

---

(١) أنظر : Risco, Esp sagr, 37 pp 146 - 147; Velasco, Guadalete y Covadonga, Madrid 1882, p 235, Codera, op cit, 8pp 179 - 180, Dozy, Recherches, 1 p 137, Barrau - Dihigo, Recherches, p 163, Cotarelo, op cit, p 83.

(٢) المقتبس الثانى، ص ٣١ ؛ وانظر أيضاً : Textos Inéditos del Muqtabis, 19 p 296

(٣) توجد فى جليقية عدة أماكن باسم Naron و Naharon ، فى مناطق مثل Becerrea و Ortigueria و Ferrol, Chantada ؛ أما اسم Anceo فيوجد بين مدينتى Túy و Pontevedra ؛ أنظر بتفصيل : Risco, Esp Sagr , 37 p 147; Barrau - Dihigo, op cit, p 162, 164 ؛ وأنظر الخريطة .

حول هدف الحملة ضد بمبلونة أم ضد أشتوريس، دفع بعض المؤرخين الحديثين إلى دراسته وتوصلوا فى النهاية إلى أن الحملة وإن توجهت ضد بمبلونة فإنها فى طريق عودتها منها هاجمت أيضا إقليم القلاع من أراضى أشتوريس[١]، وذلك بهدف معاقبة كل من بلاسكو والفونسو الثانى على تحالفهما ضد المسلمين؛ وبذلك كان هدف الحملة مزدوجا .

وتعتبر المصادر الإسلامية وعلى الأخص رواية ابن عذارى [٢] أوفى الروايات عن أحداث تلك الحملة وأخبارها، وهى وإن كانت لاتحدد الطريق الذى سلكه عبد الكريم فى غزوته إلى أراضى بمبلونة، فإنها تتفق على أنه وصلها ودخلها وتوسطها وأهلك معايشها ومرافقها وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها، كلما أهلك موضعا وصل إلى غيره حتى استنفد خزائنها، فلما رأى بلاسكو ماخربه المسلمون فى بلاده وعجز عن مدافعتهم كاتب جموع المسيحية واستنصر بهم، فاجتمعوا إليه فى جموع عظيمة على رأسها حليفه الفونسو ملك أشتوريس، وتقدمت لملاقاة المسلمين الذين كانوا قد اكتفوا بما فعلوه فى بمبلونة ، وزحفوا منها صوب إقليم القلاع غرباً حتى وصلوا إلى نهر أرون Oron على مشارف هذا الإقليم وأقاموا معسكرهم على ضفته . وحينذاك وصلت الجموع المسيحية بقيادة الفونسو وضربت معسكرها على الضفة الأخرى بإزاء معسكر المسلمين ومنعتهم من عبور النهر، فنشب القتال بينهما على مخائض النهر عدة أيام ، وجالدهم المسلمون مجالدة الصابرين حتى يئسوا من عبور النهر فعمدوا إلى الحيلة وتظاهروا بالتراجع ، فلما اختالت الحيلة على المسيحيين واندفعوا يعبرون النهر لمطاردتهم واللحاق بهم، باغتهم المسلمون قبل أن يتموا عبوره، وحملوا عليهم حملة صادقة أضغطوهم بها فى المضايق وأدخلوهم على غير طريق، وأخذوهم بالسيوف والطعن بالرماح وحتى القذف بالحجارة حتى قتلوا فيهم مقتلة عظيمة؛ وأحدثوا فى صفوفهم ارتباكا كبيرا بحيث درس بعضهم بعضا فى النهر ومات كثير منهم بالتردى، وعلى رأسهم خال الملك الفونسو ويدعى غرسية Garcia وهو ابن أخت برمودو الأول؛ فضلا عن شقيقة الأخير، وسانشو Sancho أحد كبار النبلاء الذى يلقبه ابن حيان بفارس بمبلونة وغيرهم آخرون؛ فلما تيقن المسيحيون من الهزيمة اضطروا إلى عبور النهر ثانية ليستجمعوا صفوفهم وينظموا مقاومتهم، فأكثروا الحراس على مخائضه ووعروها بالخشب وحفروا الحفائر وخندقوا الخنادق، بحيث

---

(١) وعلى رأس هؤلاء المؤرخين Sánchez Albornoz ، فى مقال بعنوان : La Batalla de Wadi Arun, pp 108 - 127. فى كتابه بعنوان : Vascos y Navarros السابق الذكر.

(٢) البيان ، ٢ ص ٧٥ .

عجز المسلمون عن اجتياز النهر إليهم على مدى ثلاثة عشر يوما متصلة حتى صدر ذى القعدة من عام ٢٠٠ هـ /أول يونيو ٨١٦م، فضاقت الحال بالمسلمين ونفدت أيضا مؤن المسيحيين، وهطلت الأمطار فزادت مياه النهر وصار من المستحيل على أى من الفريقين عبوره، فاضطر المسلمون إلى إنهاء حملتهم والعودة إلى الأندلس فوصلوا إلى حدودها فى اليوم السابع من ذى القعدة[١] ، الموافق السابع من يونيو عام ٨١٦م.

على هذا النحو أنهى المؤرخون المسلمون تلك الحملة، التى امتدت فيها ساحات المعركة فى بمبلونة ثم على شواطئ نهر أرون فى إقليم القلاع، دون أن يحاولوا إخفاء حقيقة عجز الحملة عن تحقيق هدفها فى ضرب التحالف المسيحى بين أشتوريس وبمبلونة رغم ما أحدثته فى بلادهم من تخريب وتدمير. وعلى العكس فقد أضفى المؤرخون الإسبان كعادتهم نصرا زائفا لمسيحييهم فى تلك الحملة على القوات الإسلامية، فيذكرون أن قواتهم هاجمت القوات الإسلامية بجسارة وجرأة فائقتين وأبادتهم فى موقعتين حاسمتين إحداهما فى وادى أرون Naron والأخرى فى أنثيو Anceo .

وبانتهاء تلك الحملة تتوقف الأعمال العسكرية فى الشمال وتنحصر جهود الأمير الحكم فى تطويق مؤامرات فقهاء قرطبة التى هددت عرشه، فيعود الاسترخاء الحربى مرة أخرى بين الأندلس من ناحية وبين أشتوريس وحليفتها بمبلونة من ناحية أخرى، وتختفى أنباء النشاطات الحربية لأى منهما ضد الآخر، إلى أن يتوفى الأمير الحكم فى أواخر ذى الحجة من عام ٢٠٦هـ/ مايو ٨٢٢م، ويخلفه ابنه عبد الرحمن على ملك الأندلس وهى منقوصة الأطراف، إذ خرجت منطقة أودية جبال البرنات من برشلونة شرقاً حتى بمبلونة غربا عن أيديهم إلى السيطرة الفرنجية؛ كما استعادت أشتوريس إقليمى ألبة والقلاع . ولذا كان على عبد الرحمن إذا ما أراد استعادة تلك النواحى أن يصارع كلا من الفرنجة وأشتوريس، وهو ما جعل مدة إمارته - التى امتدت ما يقرب من ثلاثة وثلاثين عاما - جهادا متصلا لايفرغ من هؤلاء إلا ليقارع أولئك، فصارت له فى بلادهم - كما يذكر ابن عذارى - غزوات كثيرة وفتوحات شهيرة يخرج إليها فى العدد الجم والعسكر الضخم ، يخرب ديارهم ويعفى آثارهم ويقتل ظاهر الاعتلاء قاهر الأعداء[٢] . وساعده فى ذلك أن الظروف كانت

---

(١) أنظر : ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ٣١؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٧٥؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٧٦؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣١٩؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ١٨٠؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ٣٩ - ٤٠؛ وإن كان المؤرخان الأخيران يجعلونها ذى الحجة وهو خطأ فى النقل .

(٢) البيان ، ٢ ص ٩١.

مهيأة لتحريك جيوشه والقيام بعمليات عسكرية ضد أشتوريس وغيرها من أعداء الأندلس المتربصين بها؛ فالحركات الثورية فى الداخل كان من السهولة حصرها والقضاء عليها، ولم يكن هناك ما يعوق السياسة الجهادية من اتخاذ المبادرات خلال السنوات الطويلة التى قضاها هذا الأمير فى الحكم.

وقد أولى عبد الرحمن منذ بداية حكمه اهتماما خاصا لمملكة أشتوريس بهدف ضرب تحالفها مع بمبلونة واستعادة إقليمى ألبة والقلاع منها ، ولذلك غزا أراضيها بنفسه فى الصيف التالى لاعتلائه الإمارة مباشرة أى صيف عام ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م، وهى غزوة انفرد بذكرها فى اختصار كل من ابن خلدون[١] والمقرى[٢]، قائلين: «غزا عبد الرحمن لأول ولايته إلى جليقية فأبعد وأطال الغيبة وأثخن فى أمم النصرانية هناك ورجع» .

ويتضح من تلك الرواية مع اختصارها أن التوفيق لازم عبد الرحمن فى حملته، وأنه لم يكتف بمهاجمة حدود أشتوريس والتغلب على حاميات ثغورها فى إقليم جليقية، وإنما اقتحم أراضيها يشن غاراته على نواحيها ويثخن فيها متوغلا فى أراضيها حتى طالت غيبته، ربما حتى اقترب فصل الشتاء؛ فعاد إلى قرطبة دون أن يشير صاحبا المصدرين السابقين إلى اشتباكه مع قوات أشتوريس، مما يرجح اقتصاره على الذخائر والغنائم التى عاد بها، والقلاع التى دمرها حيث وصل؛ وهو ما يجعلنا نفترض أن هدفه كان الوقوف على مدى استعداد قوات أشتوريس وإمكانيات ثغورها الدفاعية على الجبهة الغربية فى إقليم جليقية، فضلا عن صرف اهتمامات أشتوريس إلى تلك الجبهة، ليضرب هو ضربته على الجبهة الشرقية فى إقليمى ألبة والقلاع، ولذا فما كاد يعود إلى قرطبة حتى رتب لغزو هذين الإقليمين فى الصيف التالى ٢٠٨هـ/٨٢٣م.

وقد ترك عبد الرحمن مهمة وضع خطة الزحف على هذين الإقليمين لقائده عبد الكريم بن مغيث بسبب معرفته السابقة بأراضيهما؛ ومع ذلك فلم ينفرد عبد الكريم بدوره برأيه من دون رؤساء جنده؛ وإنما حرص على الاجتماع بهم فى مدينة سرقسطة - التى اتخذها مركزا لتجمع الحشود ثم التحرك - وتشاور معهم حتى استقر رأيهم بعد اختلاف - كما يشير ابن عذارى - على أن يكون زحفهم « من باب ألبة إذ كان ذلك الباب أنكى للعدو وأحسم لدائه، فاقتحموا من فج يقال له جرنيق [٣]، أو

---

(١) العبر، ٤ ص ٢٧٧.

(٢) نفح، ١ ص ٣٢٢.

(٣) البيان، ٢ ص ٨١ - ٨٢.

جرنيو [١] Los Puertos de Herrench - Guerenu أحد معابر إقليم ألبة المفضية إلى إقليم القلاع، ويمتد بين جبال إنثيا La Sierra de Encia وإيتوريتا Iturrieta جنوبا ونهر زادورا Zadora شمالا [٢] . ويستكمل ابن عذارى روايته قائلا أنه كان يمتد وراء هذا الفج «بسيط للعدو به حزائنه وذخره فوقع أهل العسكر على تلك البسائط فاستصفوها، وعلى ذخر تلك الخزائن فانتهبوها، واستوعبوا خراب كل ما مروا عليه من العمران والقرى وأقفروها ، وانصرف المسلمون غانمين ظافرين » [٣].

على أن هدف الحملة لم يقتصر – كما يفهم من الرواية السابقة – على الإغارة والسلب واستصفاء الغنائم وإنما تعداه إلى الفتح واستخلاص أسرى المسلمين وسبيهم في إقليمي ألبة والقلاع، وهما هدفان يوضحهما المؤرخون المسلمون [٤]وعلى الأخص ابن الأثير[٥] في قوله «وحصر المسلمون « عدة من الحصون ففتحوا بعضها، وصالحه – أي صالح عبد الكريم – بعضها على مال وإطلاق الأسرى من المسلمين، فغنم أموالا جليلة القدر واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيرا ، وكان ذلك في جمادى الآخرة » .

ومع ذلك فلم تحدد رواية ابن الأثير أو غيرها من الروايات الإسلامية أسماء أو مواقع الحصون التي فتحها المسلمون عنوة، أو التي فتحوها صلحا على الجزية وعلى إطلاق أسرى المسلمين، وإن كان في رواية النويري[٦] ما يفهم منه أنها كانت حصونا في إقليم ألبة على الخصوص، إذ يقول أن المسلمين ساروا « إلى بلاد ألبة والقلاع فنهبوا بلاد ألبة وخربوها وأحرقوها، وفتح – أي عبد الكريم – حصونا، وصالحهم أهل حصون أخر على مال وإطلاق أسرى المسلمين» .

كذلك فيفهم من روايتي ابن الأثير والنويري السابقتين أن الحملة أقامت في إقليم ألبة تنهب وتخرب وتحرق وتفتح طوال فصلي الصيف والخريف حتى اقترب شتاء عام ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م ؛ وبذلك أمضت الحملة في ألبة وقتا طويلا عادت بعده إلى قرطبة دون أن تدخل إقليم القلاع، رغم أنه كان – هو وألبة – هدفا الحملة الرئيسي، بحيث أطلق المؤرخون المسلمون على تلك الحملة « غزوة ألبة والقلاع »[٧]. وقد

(١) ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ١٩ ، ويسميه ابن حيان (المقتبس الثاني، ص ١٧٨) جولبن، وانظر أيضاً : Lévi - Provencal, Histoire, 1p 203

(٢) عن هذا التحديد أنظر : Sánchez Albornoz, Vascos y Navarros, p 136, Barrau - Dihigo, Recherches, pp 164 - 165 ; Lévi - Provençal, op cit, 1p 203. ؛ وأنظر الخريطة .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٨٢.

(٤) قارن : ابن الخطيب، نفسه، ٢ ص٢٠؛ المقري ، نفح، ١ ص ٣٢٢ – ٣٢٣؛ ابن خلدون ، نفسه، ٤ ص ٢٧٨ .

(٥) الكامل، ٥ ص ٢٠٦ .

(٦) نهاية، ٢٢/١ ص ٤٣ .

(٧) ابن عذاري، نفسه ، ٢ ص ٨١، ابن الخطيب، نفسه، ٢ ص ١٩؛ ابن حيان ، المقتبس الثاني، ص ١٧٨ .

ترجع طول المدة التى أمضتها فى إقليم ألبة وحده إلى شدة المقاومة التى لاقتها القوات الإسلامية هناك واستماتة أهل الإقليم فى مدافعة المسلمين ، وهو ما دفع الأمير عبد الرحمن إلى أن يعد هجوما مكثفا ومتلازما على جبهتى مملكة أشتوريس الشرقية والغربية فى صيف عام ٢١٠هـ / ٨٢٥م ، بهدف تشتيت جهد قواتها وإضعاف مقاومتها فيسهل عليه استكمال فتح إقليم ألبة .

ولما كان عبد الرحمن يدرك أن ملوك أشتوريس يركزون الدفاع عن جبهة مملكتهم الغربية فى إقليم جليقية حينما يتعرضون لهجوم إسلامى مزدوج على الجبهتين الشرقية والغربية ، بسبب أن أهمية هذا الإقليم كانت تفوق أهمية إقليمى ألبة والقلاع بالنسبة لأمن المملكة وحمايتها، فقد أدخل عبد الرحمن على هذا الهجوم المزدوج تطويرا يجعله أكثر فاعلية فى تشتيت قوات أشتوريس، بأن سير جيشا واحدا ضد إقليم ألبة بقيادة صاحب صوائفه عبيد الله بن عبد الله ؛ فى الوقت الذى سير فيه جيشين آخرين ضد إقليم جليقية لمهاجمتها من مكانين مختلفين؛ أحدهما بقيادة مالك بن عبد الله والآخر بقيادة شقيقه العباس، ليكون الهجوم الإسلامى ثلاثيا وليس ثنائيا كما كان الحال من قبل .

وقد أعد عبد الرحمن لهذا الهجوم إعدادا جيداً ، بحيث أنه أمر قائده عبيد الله بأن يحشد فى طريقه ما يستطيع من حشود المدن الواقعة فى طريقه إلى ألبة؛ فلما احتشدت إليه جنودها أرسل إليه عبد الرحمن أعطيات فرقها عليهم [١] . وكان من الطبيعى أن يهرع الفونسو بنفسه حينما علم بنبأ هذا الهجوم المكثف، على رأس قواته للدفاع عن إقليم جليقية، فى حين ترك مهمة الدفاع عن إقليمى ألبة والقلاع لحاميات مدنها وقلاعها. ولعل هذا ما يفسر سهولة اقتحام عبيد الله أراضى ألبة فى ربيع أول من العام المذكور (يونيو - يوليو ٨٢٥م) ؛ فتردد فيها بالغارات يسبى ويقتل ويغنم وينتسف إلى أن التقى بجيوش أعدائهم[٢]، عند جبل يسميه ابن حيان جبل المجوس[٣]؛ وهناك منحه الله أكتافهم فهزمهم وأكثر فيهم القتل بحيث أطلق المؤرخون المسلمون الأوائل على غزوته هذه غزوة الفتح. أما الجيشان الآخران فقد اقتحم أحدهما جليقية من ناحية مدينة بيزيو Viseo أى طريق البر الداخلى؛ واقتحمها الثانى من ناحية مدينة قلمرية Coimbra أى طريق الساحل ، وعجزا عن الالتقاء داخل أراضى إقليم جليقية حسبما تواعدا[٤]؛ مما يدل على عظم ما لقياه من مقاومة

---

(١) ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ١٧٩.

(٢) قارن : ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢١٣؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ص ٤٣؛ ابن حيان ، نفس المكان والصفحة .

(٣) ابن حيان ، نفس المكان والصفحة .

(٤) أعلاه، ص ١٧٩ - ١٨٠.

حالت دون التقائهما؛ يضاف إلى ذلك أن التزام ابن حيان - وهو مصدرنا الوحيد عنهما - الصمت التام عن إنجازاتهما ومصيرهما؛ قد حدا ببعض المؤرخين الحديثين إلى القول بأن الهزيمة لازمتهما وأنهما ربما أبيدا (١).

وربما كانت هذه الهزيمة هى التى دفعت الأمير عبد الرحمن إلى معاودة إرسال جيش آخر بقيادة فرج بن مسرة في ذات العام إلى أشتوريس، بهدف الانتقام منها على هذه الهزيمة؛ فاقتحم أراضى إقليمى ألبة والقلاع فى منتصف رمضان ٢١٠هـ/ ديسمبر ٨٢٥م، وفتح حصن القلعة (٢)(القليعة)(٣)؛ الذى لم يتمكن أحد من المؤرخين الحديثين من التعرف على موقعه فى أى من هذين الإقليمين(٤) . ولم يكتف عبد الرحمن بذلك وإنما عاود تسيير حملة ثالثة بقيادة عبيد الله بن عبد الله، فى العام الذى يليه أى عام ٢١١هـ / ٨٢٦م، وهى حملة لا تلقى عليها رواية ابن حيان تفاصيل شافية ، سوى القول بأنها انتهت إلى جليقية وأفسدت زروع القلاع(٥)؛ وعلق عليها أحد المؤرخين الحديثين قائلا إنها وإن وصلت إلى حوض نهر مينيو وإقليم القلاع فلم تخرج عن كونها نزهة عسكرية لم تتجشم فيها عناء يذكر (٦).

وعلى إثر هذه الحملة يتوقف نشاط الأمير عبد الرحمن ضد أشتوريس على مدى اثنتى عشرة سنة متصلة، ولم يستأنفه إلا فى عام ٢٢٣هـ/٨٣٨م، وهو توقف افترض معه بعض المؤرخين الحديثين عقد هدنة بينه وبين ألفونسو الثانى (٧)؛ وإن كنا نرجح أنه توقف يرجع بالأولى إلى مشاغل الأمير فى داخل الأندلس بسبب ما وقع فيها من فتن وثورات متلاحقة ، استحوذت على كل نشاطه واهتماماته طوال تلك المدة؛ ومنها فتنة عرب مدينة تدمير فى جنوب شرقى الأندلس، وهى الفتنة التى كانت قد دخلت عامها الخامس عام ٢١١هـ/ ٨٢٦م، بعدما أعيت الحيل قوات الأمير فى إخمادها، إذ كان الثوار يفترقون ويتركون قتال بعضهم البعض كلما كانت تقترب قوات الأمير منهم، وحينما تنصرف عنهم يعودون إلى فتنتهم ، التى لم تنته إلا

---

(١) Lévi - Provençal, Histoire, 1p 204, Sanchez Albornoz, Vascos y Navarros, p 141.

(٢) ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢١٣؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٤٣؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٨٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس الثانى ، ص ١٧٩.

(٤) أنظر مثلا : Lévi - Provençal, Histoire, 1p 204

(٥) ابن حيان، أعلاه ، ص ١٨٠.

(٦) Lévi - Provençal, Histoire, 1p 204.

(٧) Lévi - Provençal, Histoire, 1p 204 - 205, Barrau - Dihigo, Recherches, p 65; Atkinson, History of Spain and Portugal, London 1961, p 49.

بتدمير الأمير للمدينة كلية فى عام ٢١٣هـ/٨٢٨م (١)؛ ليواجه ثورتين أخريتين خطيرتين تعاقبتا وتلازمتا لسنوات طويلة ، إحداهما بدأت فى ذات العام السابق بمدينة ماردة قاعدة الثغر الأدنى ، التى ظلت قوات الأمير تقارعها على مدى سبع سنوات متصلة إلى أن قضت عليها عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م (٢)، أما الثورة الأخرى فكانت بمدينة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط ودامت هى الأخرى ثمانى سنوات ولم تنته إلا عام ٢٢٢هـ/ ٨٣٧م (٣).

وبطبيعة الحال لم تكن هذه المتاعب بخافية على كل من أشتوريس والفرنجة؛ فاستغلتها لزيادة حدة اضطراب الأندلس ومتاعب أميرها؛ بحيث اتصل الملك الفرنجى لويس بن شارلمان بثوار مدينة ماردة وحرضهم على الثبات فى مقاومة الأمير ، ومناهم بالمساعدة ضده ، مثلما هو واضح من نص الرسالة المطولة التى أرسلها إليهم(٤). لكن لما كانت تلك المساعدة قد اقتصرت على التأييد المعنوى وحده فقد تلمس ثوار المدينة وعلى رأسهم محمود بن عبد الجبار عونا ماديا من الفونسو ملك أشتوريس، إلا أنه كان حذرا هو الآخر فلم يورط نفسه فى مثل هذا العمل خشية أن يجلب به على نفسه متاعب هو فى غنى عنها؛ لاسيما وأنه لم يكن قد انتهى كلية من تقوية الشئون الداخلية فى دولته وتدعيمها؛ ولذا اكتفى بإبداء استعداده للترحيب بمحمود وأتباعه للإقامة فى دولته إذا مارغبوا فى الالتجاء إليه(٥). فلما يئس محمود من عون الفونسو المادى، فى الوقت الذى اشتد طلب الأمير عليه فر هاربا إلى أشتوريس فى عام ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م فأكرم الفونسو وفادته هو ومن معه ، وأقطعهم أرضا على أطراف إقليم جليقية فيما بين مدينتى أوبورتو Oporto ولاميجو Lamego على نهر مينيو. ويكتشف محمود بعد خمسة أعوام وثلاثة أشهر أن الفونسو

---

(١) عن تفاصيل هذه الفتنة أنظر : ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٧٤، ١٧٨؛ ١٧٩، ١٨٠؛ ابن عذارى ، نفسه، ٢ ص ٨١، ٨٢؛ العذرى، نصوص ، ص ٥ – ٦؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٠٥، ٢١٣.

(٢) عن تفاصيلها أنظر : ابن حيان ، أعلاه، ص ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٨ – ١٩٣ ؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢١٧ ؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٤٣ – ٤٤؛ أخبارمجموعة ، ص ١٣٨ – ١٣٩؛ ابن خلدون ، نفسه، ٤ ص ٢٧٨ – ٢٧٩.

(٣) أنظر : ابن حيان، أعلاه ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣؛ ابن عذارى، نفسه ، ٢ ص ٨٣، ٨٤؛ ابن الأثير، نفسه ، ٥ ص ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣، ٢٣٧ ، ٢٤٥؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٤٤ – ٤٦ .

(٤) عن نصها باللاتينية وهى لغتها الأصلية أنظر : Florez, Esp. Sagr; 13 pp 416 - 417 ؛ وقد ترجمت إلى لغات متعددة مثل العربية، وعنها أنظر : أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ١٤٨؛ والفرنسية وعنها أنظر : Lévi - Provençal, Histoire, 1pp 228 - 229 ؛ والإسبانية وعنها أنظر : Simonet, Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid 1897, 1 pp 313 - 314 ، وأنظر الملاحق .

(٥) Lévi - Provençal, Histoire, 1pp209 - 210 .

يستخدمه كأداة لتحقيق مكاسب سياسية لمملكته على حساب الإمارة الأموية، وتيقن أنه تورط فى تحالفه، ورأى أن العودة إلى حظيرة الإمارة أسلم عاقبة وأقل حرجا؛ فكاتب الأمير عبد الرحمن يسأله العفو والصفح؛ ولما وقف الفونسو على خبر تلك الاتصالات خشى أن ينقلب عليه محمود ويعود لنصرة الإمارة؛ فتقدم إليه وحاصره فى قلعة سانتا كرستينا Santa Cristina على مقربة من مدينة لوجو Lugo ، وجره إلى معركة قاتل فيها محمود باستماتة دفاعا عن نفسه، لكنه لما يئس من الحصار الذى فرضه الفونسو عليه، وضع خطة للتسلل من الحصن خفية، إلا أن جواده جمح به واصطدم بشجرة أردته قتيلا وبقى مجدلا فى الأرض حيناً، وفرسان الفونسو قيام على ربوة مجاورة يهابون الدنو منه خوفا أن تكون حيلة منه ؛ إلى أن تقدم الفونسو وملك الحصن وأسر بقية أصحاب محمود وأهله، فى رجب من عام ٢٢٥هـ/ مايو ٨٤٠م؛ وكان من بين الأسرى أخته جملة ، التى اعتنقت المسيحية فيما بعد فتزوجها أحد نبلاء أشتوريس، وأنجبت منه ابنا اعتلى أسقفية مدينة سنتياجو Santiago بجليقية[1].

ولا تختلف الروايات الإسبانية عما أوردته الروايات الإسلامية بشأن تلك القضية إلا فى بعض جزئياتها، فحددت تاريخ هروب محمود إلى أشتوريس بعام ٨٢١م (٢٠٥ - ٢٠٦هـ) ، وأطالت إقامته هناك سبعة أعوام كاملة، إلى أن ساءت علاقته بالفونسو فى العام الثامن، بسبب ماقام به من حشد قوات إسلامية ضخمة وفدت إليه من الأندلس -- وكأنها بتدبير من أميرها - ثم إغارته على إقليم جليقية حتى خرب كل نواحيه؛ مما أثار حفيظة الفونسو عليه فتقدم إليه فى آلاف عديدة وحاصره بالقلعة ، فظفر به فى أول لقاء وأطاح برأسه، ثم حمل على بقية أصحابه فى ذات اليوم وقتل منهم خمسين ألف مقاتل، ثم عاد إلى أوبييدو محملا بما غنمه من أموال وأسرى كثيرة[2]؛ وتلك مبالغات واضحة أراد بها المؤلفون الإسبان إضفاء نصر وهمى لألفونسو على قوات إسلامية فضلاً عن الإيحاء بتآمر محمود مع أمير الأندلس ضد أشتوريس.

على أنه ما كاد الهدوء يعود إلى الأندلس بدءاً من عام ٢٢٢هـ/٨٣٧م بالقضاء

---

(١) قارن : ابن حيان، المقتبس الثانى ، ص ١٩١ - ١٩٣؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢١٧؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ٤٤ ؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٧٩؛ ابن سعيد، المغرب، ١ ص ٤٨؛ ابن القوطية ، تاريخ، ص ٨٩؛ وأنظر أيضاً : Codera, op cit, 9pp 8 - 23

(٢) قارن Cron. Sebastiani, ed. Florez, pp 485 - 486; Cron. Alfonso III, ed. Villada, p 618; Cron Alheldense, ed Florez, p 452; Cron. de Lucas, ed Puyol, pp 288 - 289; Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, pp 281, 282 - 283; Cron Silense, ed. Florez, pp 279 - 280. هذا وقد وردت نفس الأخبار فى نص أعمال مجمع أوبييدو الأول أنظر عنها : Risco, Esp. Sagr., 37p 300 ، كما وردت فى وثيقتين الأولى بتاريخ ٢٧ مارس ٨٣٢م والثانية بتاريخ أول يناير ٨٤١م ، أنظرعنهما على التوالى : Floriano, op cit, 1pp 186 - 188, 204 - 209

على المتاعب الداخلية، حتى استأنف عبد الرحمن جهاده ضد أشتوريس، انتقاما منها على إيوائها المناهضين له؛ فأعد فى صيف العام التالى ثلاثة جيوش بقيادة أشقائه لمهاجمة أراضيها فى آن واحد. قاد الجيش الأول الوليد ضد إقليم جليقية ، فاقتحمه من ناحية مدينة بيزيو أى طريق الداخل، وخرب نواحيه ونهبه، وكانت له فيه - كما يذكر المؤرخون المسلمون فتوحات كثيرة [١]، دون أن يبينوا نوعيتها أو ماهيتها. وقاد الجيش الثانى أمية ضد ألبة والقلاع فهاجم أراضيها ونزل على حصن من حصونها، فقتل أهله وسبى نساءه وذريته، ثم فتحه بعد معركة أنزل فيها بلاء جسيما بحاميته[٢]. فى حين قاد الجيش الثالث سعيد الخير إلى ألبة والقلاع أيضاً ، واقتصر ابن حيان - الذى انفرد بذكر أخباره - بالقول أنه انتصر [٣]؛ وفى اعتقاد ليفى بروفنسال Lévi - Provençal [٤] أنه نفس الجيش الذى تشير إليه حوليتا كمبلوتى Annales Complutense [٥] وطليطلة الأولى Annales Toledanos I [٦] بقولهما أنه وصل إلى منطقة سوتوسكويبا Soutus - Cueva ودمرها؛ وهى المنطقة التى تقع فى إقليم القلاع إلى الشمال من جبال برغش Burgos [٧].

ثم أردف عبد الرحمن هذا الهجوم الثلاثى بآخر ثنائى فى أواخر العام التالى ٢٢٤هـ / ٨٣٩م، قاد أولهما ابنه الحكم إلى ألبة والقلاع أيضاً ؛ فلما اقتحمهما خرج إليه الأعداء على عادتهم، واشتعلت بينهما حرب شديدة وقتال عظيم انهزم فيه المشركون ، وقتل منهم مالا يحصى بحيث إنه حينما جمعت رءوسهم أكداسا كالجبال، كان الفارس - بتعبير المصادر الإسلامية - يقف من ناحية فلا يرى صاحبه فى الناحية الأخرى [٨]. أما الجيش الآخر فقاده موسى بن موسى - أحد زعماء الثغر الأعلى من بنى قسى - فاقتحم فى ذات الوقت إقليم القلاع من جهة أخرى، وتوغل فى أراضيه يقتل ويغنم، وكان عليه - حسب تعليمات الأمير - ملاقاة الجيش الآخر على أرض هذا الإقليم، والتعاون معه فى غزو المنطقة [٩].

---

(١) أنظر : ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٨٤؛ ابن عذارى ، البيان، ٢ ص ٨٥.

(٢) اختلف المؤرخون المسلمون الأوائل فى تسمية هذا الحصن، وبالتالى لم يهتد المؤرخون الحديثون إلى تحديد موقعه. فيسميه ابن حيان (المقتبس الثانى، ص ١٨٤) القرية، ويضيف أن الأمير عبد الرحمن كان قد خرج على رأس هذا الجيش بنفسه لكنه عدل عن ذلك واستخلف على قيادته شقيقه أمية، أما ابن الأثير (الكامل، ٥ ص ٢٥٣) فيسمى الحصن الفرات ؛ فى حين يسميه النويرى (نهاية، ٢٢/١ ص ٤٦) القرابة.

(٣) المقتبس الثانى، ص ١٨٤.

(٤) Histoire, 1p 205 No 3

(٥) Ed Huici, 1p 40

(٦) Ed Huici, 1p 340

(٧) عن تحديد موقعها أنظر : Sanchez Albornoz, Vascos y Navarros, pp 143 - 144.

(٨) قارن : ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ١٨٤؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٨٥؛ ابن الأثير ، نفسه، ٥ ص ٢٥٨؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٤٦؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣٢٣؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٨٠.

(٩) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٨٥.

وإزاء هذا الهجوم الإسلامى المتوالى على أراضى أشتوريس فى إقليمى ألبة والقلاع، وما أحدثه فيها من تدمير وتخريب، كان على الفونسو الدفاع عن أراضيه والانتقام من المسلمين؛ فبعث فى ذات العام جيشا يقوده لذريق أحد قادته فى منطقة القلاع، للإغارة على مدينة سالم Medinaceli من مدن الثغر الأوسط؛ إلا أن موسى ابن موسى عامل الثغر عاجله بابنه فرتون فى جيش جرار ناجزه الحرب ، فهزمه وأكثر القتل فى قواته وكان من بين القتلى لذريق نفسه؛ ثم طارد فلولهم إلى ألبة حيث شن غاراته عليها، وانقض على حصن - كان أهل ألبة قد أقاموه بإزاء ثغور المسلمين نكاية فيهم - فافتتحه ثم هدمه [١]، وأضاع فرتون بذلك الفرصة على قوات الفونسو فى النيل من المسلمين، وأناب هو وأبوه عن الأمير فى التصدى لها والنكاية فى بلادها.

ومع ذلك فلم يتنازل الأمير عبد الرحمن عن مواجهة الفونسو بنفسه، لمعاقبته على تلك الجرأة المتناهية؛ ولذلك خرج إليه عقب شعبان عام ٢٢٥هـ/يوليو ٨٤٠م على رأس جيش كثيف، وتقدم حتى احتل مدينة وادى الحجارة Guadalajara إحدى مدن الثغر الأوسط على نية غزو إقليمى ألبة والقلاع [٢]. لكنه ما أن وصل المدينة الأخيرة حتى ألمت به ظروف شخصية دعته يترك قيادة الحملة إلى ابنه الحكم [٣]؛ وكان يمكن اعتبار عدوله عن قيادة الحملة بعدما تحرك بها أمراً عادياً، لو توفرت أسباب قوية لذلك؛ لكن عدوله من أسف كان لإشباع إحدى نزواته؛ فكان كما يشير المؤرخون المسلمون كثير الانصراف إلى ملذاته وشهواته [٤]، شديد الهوى فى النساء

---

(١) ابن حيان ، أعلاه ؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٥٨؛ وقد جعل ابن خلدون (نفسه، ٤ ص ٢٨٠) والمقرى (نفسه، ١ ص ٣٢٣) لذريق ، ملك الجلالقة ،؛ مما أوحى إلى بعض المؤرخين الحديثين بأن الفونسو الثانى كان قائد الحملة، أنظر : Barrau - Dihigo, Recherches, p 176, Sanchez Albornoz, La Autentica Batalla de Clavijo, CHE, 9p106. ؛ إلا أنه لما كان نص ابن حيان يؤكد أن قائد الحملة قتل فى المعركة فهذا يعنى أن الفونسو - الذى توفى بعد ذلك بثلاث سنوات وفاة طبيعية - لم يتول قيادتها وإنما عهد بها إلى أحد قادته؛ أما ليفى بروفنسال (Histoire, 1 p 205 No 2) فكان يعتقد أن لذريق المقصود إنما هو الملك الفرنجى لويس ، ثم عدل عن هذا الاعتقاد فى طبعته الثانية للكتاب.

(٢) نصت المصادر الإسلامية على أنه غزا ، أرض جليقية ، أو ، بلاد جليقية ، أو ، جليقية ، فقط، قارن : ابن عذارى ، نفسه ، ٢ ص ٨٥؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٤٥ ؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ص ٤٦؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣٢٣؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٦٢؛ ابن خلدون، ٤ ص ٢٨٠؛ ابن الخطيب، تاريخ ، ٢ ص ١٨ . وهذا لايعنى بالضرورة إقليم جليقية أى الجبهة الغربية لمملكة أشتوريس، وإنما جليقية بمعناها الرومانى الواسع أى مملكة أشتوريس؛ وما يجعلنا نرجح أنها كانت إلى بلاد ألبة والقلاع أن عبد الرحمن تقدم من قرطبة إلى الثغر الأوسط - مثلما هو واضح من النص - وهو المدخل إلى تلك البلاد مثله مثل الثغر الأعلى.

(٣) ابن القوطية ، تاريخ، ص ٨٣.

(٤) أنظر: مجهول،ذكر بلاد الأندلس، ص ١٣٩ ؛ أخبار مجموعة، ص ١٣٥ ؛ ابن سعيد، المغرب، ١ص ٤٧.

لاسيما جاريته طروب [١] التى ولع بها ولعا شديدا[٢]، بحيث لم يكن يستطيع الابتعاد عنها طويلا، ولذلك فما أن وصل إلى مدينة وادى الحجارة حتى غلبته شهوته واشتد حنينه إليها [٣]، فاحتلم وأرق وقام إلى الطهر فلما انتهى منه والوصيف يجفف له شعره، استدعى شاعره الخاص ووصف له أرقه وأسبابه فأنشده شعرا هيجه وطربه إلى جاريته[٤] وشجعه على الانصراف إليها.

وعلى كل حال واصل الحكم مسيرته بالحملة وبرفقته القائد عبيد الله بن عبد الله، فاقتحما ألبة وجالا فيها قتلا وتخريبا وتحطيما حتى فتحا بعض حصونها؛ وعادا إلى قرطبة ظافرين محملين بالسبى والغنائم[٥]؛ وبذلك انتقما من الفونسو على جرأته فى الإغارة على مدن الثغر الأوسط. وعلى هذا النحو من الإيجاز أوردت المصادر الإسلامية أنباء تلك الحملة، لكنها مع إيجازها فكلماتها بالغة الدلالة على نجاحها فتقول إحداها عنها: «ففتحت حصونها وسبت حريمها وقتلت مقاتلها [٦]»، وتقول أخرى أن قائدها: افتتح حصونا وجال فيها وحطم معايشها وأوغل فيها فطال بغزاته وقفل ظافرا[٧]. ومع ذلك فقد قلل بعض المؤرخين الحديثين مع قيمة تلك الحملة وافترضوا أن هذا الإيجاز يخفى وراءه هزيمة أثبتت عدم كفاءة الأمير عبد الرحمن الحربية، بحيث إنه لم يعد يتولى قيادة حملات أخرى ضد أعدائه بقية عهده الذى امتد حتى عام ٢٣٨هـ/٨٥٢م[٨]. وتلك افتراضات مردودة، إذ لا يمكن أن نعتبر الإيجاز وحده حجة على الفشل، فكثيرا ما أوردت المصادر أخبار حملات ناجحة فى إيجاز شديد؛ ومن ناحية أخرى فلم يكن عبد الرحمن على رأس الحملة كى نحكم على مقدرته الحربية من عدمها؛ ولم يتسبب عنها إعراضه عن قيادة حملات أخرى، إذ

---

(١) ابن القوطية، نفسه، ص ٩٦؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٨.

(٢) أنظر: مجهول، أعلاه، وعن شدة هواه بتلك الجارية والقصص التى يسوقها المؤرخون المسلمون فى ذلك أنظر: ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٢؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٤٤؛ أخبار مجموعة، ص ١٣٦-١٣٧.

(٣) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٤٠.

(٤) قارن: ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٨٥ - ٨٦؛ ابن القوطية، نفسه، ص ٨٢ - ٨٣؛ ابن سعيد، نفسه، ١ ص ٤٧؛ أما ابن حيان (المقتبس الثانى، ص ١٨٤) فينسب هذه الواقعة إلى غزوة لعبد الرحمن عام ٢٢٣هـ.

(٥) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٨٥؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٤٥؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٨٥؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣٢٣؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٦٢.

(٦) ابن الخطيب، تاريخ، ٢ص ١٨.

(٧) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٨٥.

(٨) Lévi - Provençal, Histoire, 1 pp 206 - 207

سنراه فيما بعد يقود الحملات ضد أعدائه، لاسيما البشكنس فى بمبلونة عامى ٢٢٨هـ/٨٤٣م و ٢٢٩هـ/٨٤٤م؛ كما لم يتسبب عن تلك الحملة توقف حملاته ضد أشتوريس؛ وليس أدل على ذلك أنه عاود غزوها فى العام التالى مباشرة بصائفة يذكرها ابن عذارى بقوله : « وفى سنة ٢٢٦هـ غزا بالصائفة إلى جليقية من بلاد العدو مطرف بن عبد الرحمن ، فتوسط بسيطهم وذهب بنعمتهم، وكان القائد عبد الواحد بن يزيد الاسكندرانى »[١].

لكن فى أعقاب هذه الحملة الأخيرة تضطرب الأمور فى أشتوريس هى الأخرى، إذ يتوفى الفونسو الثانى فى عام ٨٤٢م / ٢٢٧هـ[٢]، ويخلفه راميرو Ramiro ابن برمودو[٣] الذى ظل يصارع أعداءه فى الداخل والخارج معظم مدة حكمه التى انتهت بوفاته فى الأول من فبراير عام ٨٥٠م[٤] (١٤ رجب عام ٢٣٥هـ).

---

(١) البيان، ٢ ص ٨٦؛ وهى حملة جعلها ليفى بروفنسال ضد بلاد الفرنجة مع أن النص واضح فى أنها ضد إقليم جليقية من أقاليم مملكة أشتوريس، أنظر : Lévi - Provençal, Histoire, 1 p 206.

(٢) Cron Sebastiani, ed. Florez, p 486; Cron. Rotense, ed. Moreno, p 618; Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp77, 124; Cron. Silense, ed. Florez, p 280; Chron. Leonaise, ed. Cirot, p 396; Cron. de Lucas, ed. Puyol, p 290. ؛ ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٩٤؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٦٧. وعن مناقشة تحديد هذا التاريخ أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 2 pp 713 - 717; Cabal, op cit, pp 514 - 517. ولا يزال نقش مقبرة الفونسو موجودا فى كنيسة سانتا ماريا التى دفن فيها ونصه : Qui Cuncta In Pace Egit, In Pace Quievit, Bisena Ouibus Haec Altaria Sanctu Fundatisque Vigent, Hic Tumulatus Jacet ". ؛ ومعناه : وكما عاش فى سلام فقد مات فى سلام، وتشهد على ذلك الأماكن المقدسة العشرون التى بناها ودفن فى إحداها. وعن نص النقش أنظر الملاحق وانظر أيضاً : Chron Albeldense, ed. Florez, p 452; Florez, Esp. Sagr, 13 p 431. ؛

(٣) لاخلاف بين المصادر الإسبانية على أنه ابن برمودو؛ وان خالف ابن حيان (المقتبس الثانى، ص ١٩٤) وابن الخطيب (تاريخ ، ٢ص ٣٢٤) هذا الإجماع فجعله الأول ابن الفونسو الثانى، وجعله الثانى ابن الفونسو الأول؛ وشايع بعض المورخين الحديثين تحديد ابن حيان، أنظر : الحجى، التاريخ الأندلسى، دمشق ١٩٧٦م، ص ٢٧١؛ عنان ، دولة الإسلام، ١ ص ٢٥٧؛ رجب عبد الحليم، العلاقات ، ورقة ٧٢؛ ولاشك أن هذه النسبة خاطئة.

(٤) Cron Albeldense, ed Florez, p 452; Chron. Léonaise, ed. Cirot p397 ، وانظر أيضاً : ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٨٥؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكي، ص ٦ . ويؤكد وفاته فى هذا التاريخ نقش مقبرته، ونصه : " Obit Divae Memoriae Ranimirus Rex, Die Kal Februarrii era DCCCLXXXVIII, Obtestor Vol Omnes Qui Haec Lecturi Estis Ut Pro Requie Illius Orare Non Desinatis " ؛ أنظر : Hubner, op cit, p 79 No 248; Vigil, op cit, p 9 ; Risco, op cit, 37 p 199. ؛ ومعناه « توفى الملك راميرو صاحب الذكرى العطرة، فى اليوم الأول من فبراير عام ٨٥٠م، وعلى كل من يقرأ ذلك عليه أن يترحم عليه ويصلى من أجله » ؛ وأنظر الملاحق .

ذلك أنه حينما وقع اختيار النبلاء على راميرو ليتولى العرش خلفا لألفونسو الثانى، وكان بعيداً عن أشتوريس يحتفل بزواجه من إحدى أميرات إقليم القلاع، وثب على العرش أحد كونتات البلاط المغمورين ويدعى نبرقيانو Nepociano واغتصبه بالقوة، وأيده فى ذلك أهل إقليمى أشتوريس وألبة، فى حين انحاز إلى راميرو أهل إقليمى القلاع وجليقية؛ وبذلك انقسمت المملكة على نفسها وتسابق الفريقان فى التسلح والاستعداد، وأصبحت الحرب الأهلية وشيكة الوقوع، إذ اتخذ راميرو من مدينة لوجو Lugo بجليقية وكرا لحشد مؤيديه وأنصاره إلى أن جمع جيشاً تقدم به لمقاتلة نبرقيانو فى أشتوريس؛ وتلاقيا على ضفاف نهر نارسية Narcea؛ ولما استعر القتال انفض البشكنس والأشتوريون عن نبرقيانو وانحازوا إلى راميرو؛ فوجد نبرقيانو نفسه وحيداً وحاول الإفلات حيا، لكن اثنين من كونتاته وهما سكبيو Scipio وسومنة Somna لاحقاه وظفرا به عند نهر بيونيا Pionia قريباً من مدينة براڤيا Pravia، فقبضا عليه وسملا عينيه وأتيا به إلى راميرو الذى زج به إلى أحد الأديرة ليقضى فيه بقية عمره أعمى جزاء له على فعلته(١).

لكن لم يكد راميرو يسترد عرشه المغتصب ويعيد الوحدة إلى المملكة حتى دهمه خطر خارجى لم تعرفه أشتوريس من قبل ، حيث ظهرت على ساحل أشتوريس المطل على بحر كنتبرية مراكب النورمان Normandos - الذين يعرفهم المؤرخون المسلمون بالأردمانيين أو بالمجوس لأنهم كانوا يشعلون النيران فى كل مكان يمرون به حتى حسبوهم من عباد النار (٢) -وشنوا غاراتهم على ساحل أشتوريس الشمالى، ونزلوا عند مدينة خيخون Gigón - التى كانت مقرا للحاكم المسلم من قبل - ونهبوا إقليمها ثم واصلوا غاراتهم غربا حتى وصلوا إلى إقليم جليقية عند برج هرقل، الذى كان يسمى فاروم بريجانتيوم Farum Brigantium على مقربة من مدينة كرونية Coruna الحالية وأغاروا عليها أيضا؛ ولم يكادوا يتوغلون داخل جليقية حتى تصدت لهم قوات أشتوريس التى يفهم من بعض الروايات الإسبانية أن راميرو كان يقودها بنفسه(٣)، فأجبرهم على العودة إلى مراكبهم وحاربهم فى البحر حتى هزمهم وقتل

---

(١) قارن : Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 486; Cron Alfonso III, ed, Villada, pp 78, 124; Crón Rotense, ed. Moreno, pp 618 - 619 ; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 396; Cron de Lucas, ed. Puyol, p 290; Chron Silense, ed. Florez, p 281; Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 285, Prim Cron, General, ed Pidal, 2p 359, Estoria de los Godos, ed. Zabalburu, p 75.

(٢) أنظر : مؤنس، غارات النورمانيين على الأندلس، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢، عدد ١، مايو ١٩٤٩م ، ص ٢٤ - ٢٥ ؛ مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٤٨.

(٣) أنظر: Cron. Alfonso III, ed. Villada, pp 78 - 79, 125, Cron Rotense, ed. Moreno, p 619; Cron. Sebastiani, ed Florez, p 486; Cron de Lucas, ed. Puyol, pp 293 - 294; Cron Léonaise, ed Cirot, p 396; Prim Cron General, ed Pidal, 2pp 362 - 363 ؛ وانظر بتفصيل : Sanchez Albornoz, Normandos en Espana, CHE, t 25 - 26 pp 304 - 316

كثيرا من رجالهم، وسلب غنائمهم واشعل النيران فى ستين[١] أو سبعين[٢] مركبا من مراكبهم ، فاضطر الباقى إلى المضى بما تبقى لهم من مراكب إلى غزو شواطئ الأندلس، فوصلوها فى ذى الحجة من عام ٢٢٩هـ/ أغسطس ٨٤٤م، واستباحوا بعض مدنها إلى أن أبعدهم المسلمون عن البلاد فى صفر من العام التالى ٢٣٠هـ/ نوفمبر ٨٤٤م[٣].

وبعدما تخلص راميرو من أخطار النورمان بحوالى العام كان عليه أن يتصدى لمؤامرتين متتاليتين دبرهما ضده كونتات بلاطه للإطاحة به من العرش. قاد أولهما الكونت ألدريوتو Alderioto عام ٨٤٦م/ ٢٣١ - ٢٣٢هـ، فقبض عليه راميرو وسمل عينيه وتخلص من مؤامرته. أما الثانية فدبرها الكونت بنيولو Piniolo عام ٨٤٨م / ٢٣٣ - ٢٣٤هـ فاكتشفها راميرو أيضا، ولما كان بنيولو موظفا حكوميا كبيرا منوطا به إدارة شئون البلاد فقد قدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، وحكم عليه بقطع رأسه ورءوس أبنائه السبعة ضربا بالسيف[٤].

وحينما تخلص راميرو من هاتين الثورتين ، لم يكن قد بقى له فى الحكم سوى أقل من عامين تفرغ فيهما لتوطيد الأمن فى داخل دولته، فتعقب اللصوص وقطاع الطرق وعاقبهم بسمل الأعين ، وقضى على السحرة والمشعوذين حرقا فى النار[٥]، كما استكمل تجميل مدينة أوبييدو العاصمة[٦] واهتم بتعمير ضواحيها، فأقام فى يونيو من عام ٨٤٨م (ذى القعدة ٢٣٤هـ) كنيستين الأولى باسم سانتا ماريا دل نارانكو Santa Maria del Naranco [٧] عند سفح جبل نارانكو Naranco، التى بناها بالحجارة والرخام، وجعل لها عقودا مركزية، وزينها بكثير من الصور والرسوم، حتى

---

(١) Cron. de Lucas, ed Puyol, p 294.

(٢) Cron. Silense, ed. Florez, p 281; Cron. Cardena II, ed. Huici, 1 p 378; Prim. Cron. General, ed. Pidal, 2 p 363.

(٣) تناولت المصادر الإسلامية أخبار تلك الغزوة بتفصيل؛ قارن على سبيل المثال : ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ١٩٥ - ٢٠٢؛ ابن القوطية، تاريخ ، ص ٨٤ - ٨٨؛ العذرى، نصوص، ص ٩٨- ١٠٠؛ النويرى، نهاية ، ٢٢/١ص ٤٨ - ٥٠؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٨٧ - ٨٨؛ وانظر أيضاً : Historia Arabum, ed. Sanchez, pp 41-42. ؛ وأنظر الخريطة .

(٤) Cron. Sebastiani, ed. Florez, pp 486 - 487; Cron Rotense, ed. Moreno, p 619; Cron. Alfonso III, ed Villada, p 79, 126; Chron. Silense, ed. Florez, p 281; Chron. Léonaise, ed Cirot, p 397.

(٥) Cron Albeldense, ed Florez, p 452; Cron. de. Lucas, ed. Puyol, p 293.

(٦) Prim. Cron. General, ed Pidal, 2p 363.

(٧) ولازال نقش تأسيسها باقيا، أنظر : Risco, Esp Sagr, 37p 196 ؛ وعن نصه أنظر الملاحق وانظر أيضاً: Hubner, Suppl , pp 113 - 114, Vigil, op cit, pp 219 - 220 .

صارت غاية فى الجمال قل أن يوجد له مثيل فى كل إسبانيا[١]، وأهم ما يميز تلك الكنيسة من ناحية الطراز هو واجهتاها الأمامية والخلفية، فكل منهما عبارة عن شرفة عربية ذات ثلاثة عقود صغيرة جميلة، وفى أعلاها شباك صغير ذو ثلاثة عقود صغيرة أيضاً، ومداخلها كلها ذات عقود عربية وأعمدة رومانية ، وفوق صحنها الداخلى قبو قوطى مستطيل يقوم فوق بهو يصل ما بين الواجهتين [٢].

أما الكنيسة الأخرى المجاورة لها فهى كنيسة سان ميجيل دى لينو San Miguel de Lino [٣]، وكانت ذات بناء عادى لايميزها بشئ من الخواص الفنية إلا نوافذها الثلاثة الصغيرة على الجانبين، فكل منها ذو عقدين صغيرين على الطراز الإسلامى، وفى أعلا كل من جانبيها نافذة عربية ذات ثلاثة عقود صغيرة أيضا؛ وهى ظاهرة تدل على تأثير الطراز الأندلسى فى طراز كنائس أشتوريس منذ وقت مبكر[٤]. وإلى جانب هاتين الكنيستين فقد أقام راميرو عديدا من القصور والحمامات[٥] لتكون استراحات لملوك أشتوريس [٦]، وعلى إثر ذلك توفى راميرو عام ٨٥٠م/ ٢٣٥هـ، فخلفه ابنه أردونيو الذى عرف بأردونيو الأول Ordono I [٧].

كان من المتوقع أن يستفيد الأمير عبد الرحمن من انصراف راميرو إلى مشاغله كى يغزو أراضيه، لولا أنه كان مشغولاً هو الآخر طوال تلك المدة فى مواجهة غارات النورمان الذين حلوا على سواحل بلاده لأول مرة منذ ذى الحجة ٢٢٩هـ/ أغسطس ٨٤٤م وحتى صفر من العام الذى يليه مثلما أشرنا من قبل ؛ وفى

(١) Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 487; Cron Rotense, ed Moreno, p 619; Cron Alfonso III, ed. Villada, pp 97 - 80, 126, Chron. Silense, ed. Florez, pp 281 - 282; Cron del Rodrigo, ed. fuensanta, p 289.

(٢) عنان، الآثار الأندلسية ، ط٢، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٣٦٤.

(٣) Cron. Albeldense, ed. Florez, p 452; Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 289; Prim Cron. General, ed. Pidal, 2p 363 . ؛ وأنظر الملاحق .

(٤) عنان ، الآثار الأندلسية، ص ٣٦٤.

(٥) Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 487, Cron. Silense, ed. Florez, p 282, Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 289; Prim Cron. General, ed. Pidal, 2p 363.

(٦) Risco, Esp. Sagr., 37pp 196 - 197.

(٧) جعله المؤرخون المسلمون ابنا لألفونسو، أنظر : ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣١٠، ٣١٨؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٤، ٩٨؛ ابن الخطيب، تاريخ ، ٢ص ٢١؛ المقرى، نفسه، ١ ص ٣٢٨. والواقع أنه ليس من بين أجداد أردونيو من سمى بالفونسو ، فاسمه تبعا للمصادر اللاتينية هو : أردونيو بن راميرو بن برمودو بن فرويلة بن بدرو دوق كنتبرية. وانظر فى ذلك أيضا تعليق محمود مكى على كتاب المقتبس لابن حيان، ص ٦٠٠ - ٦٠١.

غزو جزيرتى ميورقة ومنورقة بعد نقضهم العهد له وإضرارهم بمراكبه المارة عليهم، إلى أن عـادوا إلى طاعتـه فى عـام ٢٣٤هـ/ ٨٤٨ - ٩٤٨م [١]. والأهـم من ذلـك انصرافـه إلى محاربة زعيم أسرة بنى قسى موسى بن مـوسى، عامله على مـدينة تطيلة بالثغر الأعلى، الذى ظل ينزع إلى الانفصال متكاتفا فى ذلك مع أقربائه أمراء البشكنس فى بمبلونة [٢]، ومستمدين العون من القوى الخارجية وعلى رأسها ملك أشتوريس ، بحيث كان الأمير مضطرا إلى التفرغ لهم منذ عام ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م وحتى قرب نهاية عـهده؛ إلى الدرجة التى لم يكن يمضى عـام إلا وكانت منطقتا الثغر الأعلى وبمبلونة مسرحا لجيوش الأمير القرطبى لمصارعة هاتين الأسرتين .

ففى عام ٢٢٧هـ / ٨٤٢م بدأ موسى يكشف وجهه بالخلاف بتأييد أخيه لأمه إنييجو إنييجيز Inigo Iniguez أمير بمبلونة ، الذى لم يحفظ لعبد الرحمن ما قدمه لأسرته من معاونة عسكرية للتخلص من السيطرة الفرنجية عام ٢٠٨ - ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م [٣]؛ كما لم يحفظ له مباركته ما قام بين أسرته وأسرة قسى من مصاهرات متعددة [٤]، رغم ما كانت تشكله هذه المصاهرات من خطر حقيقى على قرطبة. فما كان من عبد الرحمن إلا أن عـزل موسى عن مدينة تطيلة Tudela وأسند حكمها لعامر بن كليب وأمره بمناهضته؛ فأغار على أمواله وضياعه وهدم أرضه وعقر خيله وانتـهب أمواله وقطع ثمـاره؛ فى الوقت الذى أمر شقـيقـه الذى ولاه على مـدينة سرقـسطة بمناهضـة إنييـجو فى بمبلونة. ولم يكتف الأمـيـر بذلك وإنما أرسل ابنه مطرفا على رأس حملة أخرى بقيادة حارث بن بزيع ضد موسى وكان قد اشتد عيثه،

---

(١) أنظر بتفصيل : ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص٢ - ١٣؛ ابن عذارى ، نفسه ، ٢ ص ٨٩؛ ابن الخطيب، تاريخ ، ٢ ص ١٨؛ ابن سعيد، المغرب، ١ ص ٤٩ .

(٢) عن أوليات هذه الأسرة البمبلونية راجع ماكتبه عنها : Serrano y Sanz, Noticias y Documentos Historicos del Condado de Rebagorza hasta la Muerte de Sancho Garces III, Madrid 1912; Jaurgain, La Vasconie, Pau 1898 - 1902; Barrau - Dihigo, Les Premiers Rois de Navarre, R. Hisp., Paris 1906, 15 pp 614 - 644; Levi - Provencal, De Nouveau sur le Royaume de Pamplune, Bul. Hisp. 1953, t 55 pp 5 - 25 .

(٣) هاجم الفرنجة أراضى بمبلونة بجيش قاده أزنار Aznar وإبلو Eblo رداً على مناهضة أسرة بنى قسى للسيطرة الفرنجية على بمبلونة، فأوقعت بهما أسرة إنييجو بمعاونة بنى قسى وموافقة الأمير القرطبى فى أحواز بمبلونة ، وأسرتهما فاطلقت سراح الأول لأصله البمبلونى، وأرسلت الثانى إلى قرطبة حيث ظل معتقلا بها بعض الوقت ؛ أنظر فى ذلك : Annales Regni Francorum, ed. Kurze, 1p 213, Vita Hludowici, ed Pertz, 2 p 628.

(٤) فقد تزوجت أم إنييجو بعد وفاة زوجها فى حوالى عام ٧٨٠م من موسى بن فرتون وأنجبت منه موسى ابن موسى، كما تزوج هذا الأخير من أسونة Assuna أخت إنييجو، أنظر : Textos Navarros, ed. Lacarra; Est EMCA 1945, 1p 229 ، ثم زوج موسى ابنته أورية Aurea إلى غرسية أحد نبلاء هذه الأسرة؛ وزوج بنات أخيه لب Lup من أبناء إنييجو أنظر : ابن حزم، جمهرة ، ص ٢٠٥ .

فالتقيا فى مدينة برجة Borja؛ وظهر حارث عليه وأصاب كثيرا من رجاله، وأسر ابنه لب Lup واستولى على المدينة ومنها تقدم إلى تطيلة. وآنذاك اضطر موسى إلى مصالحته على أن ينتقل منها؛ وما كاد حارث ينصرف عنه حتى نكث العهد، وظاهره غرسية ابن إنييجو البمبلونى، فعاد حارث إلى محاربتهما إلا أنهما هزماه فى موضع على نهر إبرة يقال له بلمة Palma، وأسراه بعدما نالته ضربة على عينه اليمنى ففقأتها، وإزاء ذلك كان على الأمير أن يقتص منهما؛ فقاد بنفسه حملة فى منتصف رجب من نفس العام (أول مايو ٨٤٢م) إلى بمبلونة، عم فيها نواحيها نسفا وغارة وسبيا حتى بلغ صخرة قيس على وادى أرغة Arga ففتحها وعاد غانما [١].

ومع ذلك اضطر الأمير إلى معاودة غزو بمبلونة بنفسه أيضا فى منتصف شعبان من العام التالى (٢٢٨هـ/ مايو٨٤٣م) ؛ ومعه ابنيه محمدا ومطرفا، فأوغل فى أراضيها وعارضته قوات موسى ونصيره غرسية، فيمن استجاشا به من أهل شرطانية وأشتوريس وألبة والقلاع وغيرهم، والتقوا فى آخر شوال/ آخر يوليو، فكانت الهزيمة من نصيب المتحالفين بعدما فقدوا عددا غفيرا من أهل البأس والنجدة؛ على رأسهم فرتون بن إنييجو، الذى بعث الأمير برأسه مع رءوس غيره من المشهورين إلى قرطبة؛ أما موسى وغرسية فقد فرا جريحين ومعهما جالندو Galindo ابن الأخير؛ ولم يلبثا أن طلبا الصلح من الأمير، فصالح موسى على أن يتولى مدينة أرنيط Arnedo ويطلق سراح حارث ومن معه من الأسرى؛ كما صالحه غرسية فأقره على بلده مقابل سبعمائة دينار كجزية سنوية؛ ويرد جميع مابقى عنده من سبى المسلمين وأسراهم؛ وعاد الأمير إلى قرطبة فدخلها فى ذى القعدة/ أغسطس، بعدما أثخن فى بمبلونة نسفا وغارة [٢]، وغنم من ذراريها وخيلها وأسلحتها الكثير [٣]، واعترف أميرها بتبعيته للأندلس.

ومع ذلك عاود كل من موسى وغرسية نقض صلحهما مع الأمير فى العام التالى (٢٢٩هـ / ٨٤٤م) ؛ مما حدا بالأخير إلى غزوهما بنفسه ومعه ابنه محمدا، فلما وصلا إلى وادى آنة، قدم الأمير ابنه ومعه الوزير محمد بن يحيى إلى مدينة

---

(١) قارن فى ذلك كله : ابن حيان، المقتبس الثانى ، ص ١٩٤؛ العذرى، نصوص، ص ٢٩ – ٣٠ ؛ ابن الأثير ، نفسه ، ٥ص ٢٦٨ – ٢٦٩؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٤٧؛ ابن خلدون ، نفسه، ٤ص ٢٨٠ – ٢٨١ ؛ Textos Inéditos del Muqtabis, 19 pp 298 - 300 ؛ وعن تحديد موقع صخرة قيس ، أنظر : Lévi - Provençal, Histoire, 1p 216 No1. والمراجع المعطاه.

(٢) قارن : ابن حيان ، المقتبس الثانى، ص ١٩٥؛ العذرى، نفسه، ص ٣٠، Textos Inéditos dél Muqtabis, 19 p 300, 302.

(٣) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٨٦.

تطيلة فحاصراها وضيقا على أهلها وأهلكا زرعها، حتى أذعن موسى إلى مصالحتهما[1]؛ ثم تقدما إلى بمبلونة فأوقعا عندها بجيش ضخم لأعدائهم وقتلا منه جمعا غفيرا، من بينهم غرسية نفسه [2]. ولم يكد يحل العام التالى (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) حتى عاود موسى الخلاف فأغزى إليه الأمير ابنه هشاما فى جيش كثيف، أجبره على الصلح بعدما قدم ابنه اسماعيل رهينة [3]، لكنه كان صلحا قصير الأمد لم يمتد إلا إلى بدايات عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٦ - ٨٤٧م، حينما كشف موسى وظهيره ابن غرسية وجههما بالمعصية، وحاصر الأول مدينة تطيلة وبداخلها عامل الأمير الذى استغاث به، فأمده بجيش أجبر موسى على الإذعان والتماس العفو فأجيب إليه، ثم تقدم الجيش إلى بمبلونة فجال فى أراضيها وأداخها ونكأ بعدوه أبرح نكاية [4] ؛ وإن عاد موسى إلى الخلاف فى أواخر عام ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م، وأفسد ما حول مدينة تطيلة، وعاث فى طرسونة وبرجة وظاهره فى ذلك أيضاً ابن غرسية ؛ فبعث الأمير إليهما صائفة أعادتهما إلى الطاعة، وقدم موسى ابنه اسماعيل ثانية كرهينة عند الأمير فجدد له الولاية على تطيلة، ودخل معه فى الأمان أمير بمبلونة [5] ، وحينذاك فقط استقامت طاعتهما بقية عهد الأمير عبد الرحمن، وأخلص موسى على الأخص له وأبلى بلاء حسنا فى خدمته [6] ، فأضاف إليه الأمير عام ٢٣٨هـ / ٨٥٢م حكم مدينة سرقسطة إلى جانب مدينة تطيلة [7].

ولا مراء فى أن انصراف الأمير عبد الرحمن إلى مقارعة موسى وظهيره البمبلونى كان مشجعا لراميرو ملك أشتوريس لأنه يمد لهما يد العون ، فلم يتردد فى إمدادهما بجموع كثيفة من بشكنس ألبة والقلاع وغيرها حينما استمدا به عام ٢٢٨هـ / ٨٤٣م . كما أدى إلى تجميد نشاطه الحربى ضد أعدائه فى الخارج بصفة عامة، وإلى إعاقته عن الانتقام من راميرو على معاونته لمناوئيه بصفة خاصة ، وبالتالى فلم يستطع غزو أشتوريس طوال تلك المدة إلا مرتين فقط؛ الأولى فى عام ٢٣١هـ/

(١) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ١٩٥؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٤٤٧؛ Textos Inéditos del Muqtabis, 19 p 302.

(٢) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٨٧.

(٣) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٢٠٢؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٢٦٩؛ النويرى، نفسه ، ٢٢/١ ص ٤٤٧؛ ابن خلدون ، نفسه، ٤ ص ٢٨١؛ المقرى، نفح، ١ ص ٣٢٣.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص٤؛ العذرى، نصوص، ص ٣٠؛ Textos Inéditos del Muqtabis, 19 p 304

(٥) ابن حيان ، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٤ - ٥؛ Textos Inéditos del Muqtabis, 19 pp 304, 306.

(٦) من أمثلة ذلك، أنظر : ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ١٦.

(٧) العذرى، نفسه، ص ٣٠.

٨٤٦م حينما سير ابنه محمدا على رأس جيش قصد به إقليم جليقية، فأغار على أراضيها حتى وصل إلى مدينة ليون ، فضرب عليها الحصار ورماها بالمجانيق، فلما خاف أهلها على أنفسهم وأيقنوا بالهلاك تهاربوا منها فى جنح الظلام والتجأوا إلى الجبال والغياض المجاورة يحتمون بها؛ فتقدم المسلمون واقتحموا المدينة مستبيحين ما أرادوا من غنائمها ثم أشعلوا النيران فيها، ولكنهم حينما أرادوا هدم سورها لم يقدروا عليه لضخامته، إذ بلغ سمكه نحوا من ثمانية عشر ذراعا، فاكتفوا بأن أحدثوا فيه ثغرات كبيرة وتركوه، ومضوا يغيرون على البلدان المجاورة ويمعنون فيها قتلا وسبيا [١]؛ فكان لتلك الغزوة أثرها الفعال على راميرو، بحيث لم يعد بعد ذلك إلى التدخل فى شئون الأندلس أو مناصرة خصومها.

أما الغزوة الثانية فكانت فى أواخر عام ٢٣٤ وبداية عام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م، التى قادها عبد الواحد بن يزيد الاسكندرانى ومعه المنذر بن الأمير، إلى إقليمى ألبة والقلاع، ولكنهما لم يحققا فيها نتائج تذكر، إذ يبدو أن الأمير لم يكن قد أعد لها الإعداد الكافى أو أنها كانت لاستعراض القوة فقط.

وفى أعقاب هذه الحملة يتوقف النشاط الحربى للأمير عبد الرحمن كلية ضد مملكة أشتوريس إلى وقت وفاته فى شهر ربيع الآخر عام ٢٣٨هـ/ سبتمبر ٨٥٢م؛ وهو النشاط الذى اشتد بين الأندلس وأشتوريس على مدى ما يزيد عن ستين عاما، اختلف الصراع فيه شدة وضعفا بحسب أحوال كل من الدولتين، تبادلا فيه النصر والهزيمة؛ وإن كان ميزان القوى قد مال لصالح أشتوريس ، فاستعادت إقليمى ألبة والقلاع وتمكنت من الدفاع عنهما وحمايتهما ؛ ونجحت فى إنهاك قوة مسلمى الأندلس نتيجة لمرونة سياستها فى مواجهة ضغطهم عليها، ومحالفاتها للفرنجة تارة وللبشكنس فى بمبلونة تارة أخرى؛ ومساندتها للمناوئين لهم فى داخل الأندلس تارة ثالثة؛ بحيث عجز مسلمو الأندلس رغم حملاتهم المتكررة عن استعادة هذين الإقليمين، وانطبعت حملاتهم عليها فى الغالب بطابع الإغارة لتخريب نواحيها، ولاستعراض القوة إبعادا لمطامعها عن الأندلس؛ وليس للقضاء عليها باعتبار أن وجودها يهدد كيانهم فى الأندلس.

---

(١) ابن حيان، المقتبس الثانى، ص ٢٠٢؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٨٨؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٢٧٥؛ النويرى، نفسه، ٢٢/ ١ص ٥٠؛ المقرى ، نفسه، ١ ص ٣٢٣؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٨٢.

الفصل الثانى

تمزق وحدة الأندلس وتفوق أشتوريس

٨٥٢ - ٩١٠ م (٢٣٨ - ٢٩٧ هـ)

تمزق وحدة الأندلس بعد عبد الرحمن الثانى وأسبابه - طليطلة تستنجد بأردونيو ملك أشتوريس ضد الأمير محمد خليفة عبد الرحمن - الأخطار الداخلية والخارجية وأثرها فى انصراف الأمير عن أشتوريس - استغلال أردونيو الفرصة لتهديد الثغور الأندلسية - اشتداد صراعه مع الأندلس حتى وفاته وارتقاء الفونسو الثالث العرش - اختلال أحوال مملكته فى بدايات عهده - عودة الاضطراب الداخلى فى الأندلس ومعاونة الفونسو ثوار ماردة - التجاء زعيم الثورة إليه وترحيبه به فى أشتوريس - أثره فى تجدد الحرب بين الأندلس وأشتوريس فى حوض دويرة - ندم زعيم الثورة وعودته إلى الأندلس - فشل محاولة الأمير محمد غزو أشتوريس بحرا - تحالف الفونسو ضده مع أمراء بمبلونة وحكام الثغر الأعلى وأثره فى اشتداد حدة الصراع بينهما فى حوض إبرة حتى قرب نهاية عهد الأمير محمد - انهيار أوضاع الأندلس الداخلية فى عهد المنذر وعبد الله ابنى الأمير محمد وتوقف جهادهما ضد أشتوريس - انتهاز الفونسو الفرصة لتدعيم دولته ودفع حدودها حتى نهر دويرة جنوبا - رد فعل مسلمى الثغرين الأوسط والأدنى وهزيمتهم فى سمورة - وفاة الفونسو الثالث وبداية مرحلة جديدة من مراحل الحروب الصليبية الإسبانية .



بوفاة الأمير عبد الرحمن الثانى عام ٢٣٨هـ/ ٨٢٥ هـ كان على الأندلس أن تدخل مرحلة حرجة امتدت حتى مطلع القرن الرابع الهجرى، أى طوال مدة حكم خليفته محمد وابنيه من بعده؛ حيث اختلت خلالها السيادة العربية وانتكست لأول مرة منذ ارتباطها بالأسرة الأموية؛ وتراجع نفوذ قرطبة تدريجيا حتى فقدت مركزيتها السياسية، ومعها ذلك الوهج الذى تألقت به فى ظل أمرائها الأوائل. والواقع أن هذه المرحلة كانت موحدة الملامح متشابهة الظروف؛ فتلاحمت فى عصر واحد أطلق عليه المؤرخون الحديثون دويلات الطوائف الأولى؛ ولعل فى هذه التسمية تعبيرا واضحا عن موجة التمزق والتفرق التى اجتاحت البلاد، فحولتها إلى دويلات صغيرة متناثرة تزداد أهمية أى منها أو تقل بحسب نفوذ الأسر المهيمنة عليها؛ فى وقت عجزت فيه السلطة المركزية بقرطبة عن التصدى لهذا التيار الانفصالى الذى هب عليها من كل النواحي؛ حتى نشرت المأساة أجنحتها السوداء على الأندلس فصارت منهكة متداعية طوال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى . وبطبيعة الحال فقد انعكس هذا الوضع على سياستها الخارجية بالسلب فصارت سياسة تقليدية عقيمة عديمة الجدوى؛ لاسيما مع مملكة أشتوريس التى أخذت تنهض من كبوتها، وتتبنى سياسة مطورة مكنتها من التحدى وجعلت لها اليد الطولى فى علاقتها بالأندلس؛ وفى وضع مطامعها التوسعية موضع التنفيذ، فبدأت معه أولى مراحل التقلص الأندلسى الملموس.

ولاشك أن جمود موقف الأخيرة وعقم سياستها نحو أشتوريس وقتذاك ، إنما يرجع إلى عدة عوامل يأتى على رأسها العامل الجغرافى الذى يكمن فى طبيعة طبوغرافية البلاد، التى تتكون فى معظمها من هضبة تخترقها مجموعة من السلاسل الجبلية المستعرضة، التى تحصر بينها وديانا طويلة تشقها أنهار تجرى مع امتداد تلك السلاسل وهذه الوديان. ومثل تلك الطبيعة لا تؤدى إلى تكتل أو توحد بقدر ما تتيح فرص التفتت والتمزق، وما يترتب عليهما من تأصيل ظاهرة الانعزالية والإقليمية.

أضف إلى ذلك طبيعة بنية المجتمع غير المتجانسة بسبب تعدد عناصره وتوزعها على أساس إقليمى؛ وهى عناصر وإن خضعت للسيادة المركزية بقرطبة ، إما طوعا أو كرها أو ابتغاء مصلحة، فلم يجمع بينها قاسم مشترك من الولاء أو الشعور بالمسئولية الجماعية، وإنما ظلت كل طائفة غير راضية بنصيبها، بحيث لم تكن تخلو مدينة من جماعات تتحدث باسم الناس، وتنتقد أعمال الحكام وتشهر بهم؛ فى حين استمر الحكام أنفسهم – رغم ذكائهم وإدراكهم السياسى – يحكمون بأسلوب الشرق من

قهر وعنف ؛ ومن هنا كان التحدى بينهم وبين طوائف مجتمعهم غير المتجانس مستمرا؛ وطال التحدى وخسر الجانبان كثيرا؛ إلا أن خسارة الأندلس كانت فى النهاية أكثر، إذ وقفت القوى المعادية الخارجية – وعلى رأسها بطبيعة الحال مملكة أشتوريس – وراء هذا التنافر والتناحر تغذيه وتلهبه، فاستفادت من اختلال السلطة المركزية لحساب مصالحها ومطامعها التوسعية.

وليس إلى الشك سبيل فى أن كافة طوائف المجتمع الأندلسى هى المسئولة عن الوصول بالأندلس إلى هذه الحالة المتردية، باسهامها جميعا – وكل بنصيبها – فى تشكيل نسيج هذا الواقع المرير. ذلك أن العرب – وهم على رأس تلك الطوائف – قد استقروا فى الأقاليم الجنوبية على أساس النسب والعصبية ، وتوزعت معهم انتماءاتهم قبليا بين قيسى ويمنى، وإقليميا بين شامى وحجازى؛ لكنهم شكلوا فى ذات الوقت أقلية أرستقراطية احتفظت لنفسها بمكان اجتماعى رفيع، واختصت نفسها بمراكز الرئاسة والصدارة؛ فجلبت على نفسها بغض الطوائف الأخرى من ناحية؛ وظلت هى من ناحية أخرى متحفزة لاستغلال ضعف السلطة المركزية. وحينما واتتها الفرصة – فى فترة ما بعد عبد الرحمن الثانى – لم تتردد فى القيام بسلسلة من الحركات الانفصالية، ونجح زعماؤها فى فرض سيطرتهم على مناطق استقرارهم، بحيث لم يعد نفوذهم فيها موضع جدل من حكومة قرطبة التى اضطرت أخيراً إلى الاعتراف بسيادتهم عليها .

أما الطائفة الإسلامية الأخرى فكانت ممثلة فى البربر، الذين استوطنوا الأقاليم الشمالية والوسطى وغيرها من الجهات ذات الطبيعة الوعرة، وأنكروا على العرب ما يدعونه من امتياز ؛ ونازعوهم مشاعر النفوذ والسيطرة، وظلوا يبغضون السلطة المركزية ويقاومونها ؛ وهم وإن أخفقوا فى ذلك مرارا من قبل إلا أنهم لم يتخلوا عن طموحهم؛ الذى استمدوه من دعم القوة الأساسية لهم فى المغرب؛ حتى نجحوا – مع اختلال السلطة المركزية بعد عبد الرحمن الثانى – فى الاستقلال بأقاليمهم؛ لاسيما إقليم طليطلة أى الثغر الأوسط ، بما له من أهمية بالغة فى مواجهة ثغور أشتوريس فى إقليمى ألبة والقلاع.

أما أهل البلاد الأصليون الذين انتشروا في كافة الأقاليم والنواحى بين المسلمين من البربر والعرب؛ فقد تأقلم بعضهم مع الوقت مع النظام الأموى هوية دون عقيدة ؛ وهؤلاء هم المستعربون Mozarabes أى الذين استعربوا لسانا وأسلوب حياة، لكنهم ظلوا نصارى على دينهم؛ وكانوا يشكلون غالبية السكان أول الأمر ثم أخذت تتناقص

أعدادهم مع الزمن؛ وفى كل الحالات لم يقدر لهم الاندماج مع بقية طوائف المجتمع ، إذ لعب القساوسة دورهم فى حضهم على التمسك بنصرانيتهم، وفى تأليبهم على المسلمين؛ ومن ثم كان بغضهم لبقية طوائف المجتمع من المسلمين بعامة وللسيادة العربية بصفة خاصة. فى حين نرى الفئة الأخرى من أهل البلاد الأصليين، وهم الذين عرفوا بالمولدين Mulades، فإنهم وإن تأقلموا هوية وعقيدة إلا أنهم مع ذلك لم يتمكنوا من كبح جماح بغضهم لغيرهم من بقية فئات المجتمع، وللسلطة العربية التى ظلت تنظر إليهم كموالى؛ وفى وقت كانت أعدادهم تتكاثر مع الأيام حتى صاروا يشكلون غالبية السكان؛ وبالتالى فلم يفتهم أن يسهموا بالنصيب الأكبر فى ظاهرة التقسيم التى خرجوا منها بنصيب الأسد، حيث استقلوا فى نحو ثلاث عشرة مقاطعة وعلى رأسها أقاليم الجنوب، التى كانت درع الأندلس ضد الأخطار التى ستهب عليها من المغرب بقيام الدولة الفاطمية مع أواخر القرن الثالث الهجرى؛ فضلاً عن استقلال الثغرين الأعلى (سرقسطة) والأدنى (ماردة) مع أهميتهما الاستراتيجية فى مواجهة ثغور أشتوريس الشرقية فى حوض نهر إبرة والجنوبية فى حوض نهر دويرة.

وعلى هذا النحو كانت ظروف الأندلس منذ عشية إمارة محمد بن عبد الرحمن، تناقضات هائلة وحركات استقلالية مكبوتة انفجرت فى كل مقاطعة، كأنها على موعد مع خطة مشتركة مدبرة لاقتسام الأندلس، نتج عنها أن صارت البلاد مسرحا ملتهبا لاضطرابات سياسية عنيفة، كادت تطيح بدعائم سلامة الدولة، بعدما استنفدت طاقة الأمراء وهددت عروشهم بأعظم الأخطار؛ بحيث لم يعد يبقى لديهم وقت أو جهد يصرفونه إلى مجابهة جرأة أشتوريس ، أو الحد من طموحاتها المتنامية على حسابهم.

ذلك أنه ما كادت تمر بضعة أيام على اعتلاء الأمير محمد حتى بدأت طلائع ثورة للمولدين فى طليطلة – رائدة العصيان فى كل عهد – حينما امتنعت عن مبايعة الأمير ، وأوقعت بقواته شر هزيمة وقبضت على عامله فى المدينة وأودعته السجن[١]، مساومة على رهائن لها فى قرطبة ؛ ورغم استجابة الأمير باطلاق سراحهم[٢] ، فلم تهدأ الثورة وظل زعماؤها على تحديهم له حتى اتسعت دائرة أخطارهم إلى ما يجاورهم من مدن، لا سيما مدينة قلعة رباح[٣] Calatrava

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٢٩٢ – ٢٩٣.

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ٢ ص ٤٩.

(٣) عنها أنظر : ابن غالب ، تعليق ملتقى، ص ٢٨٩؛ الحميرى، صفة، ص ١٦٣؛ Lévi - Provençal, La Description pp 82-83

المجاورة، التى أغاروا عليها يخربون ويدمرون ويعملون السيف فى رقاب أهلها، بحيث لم ينج منهم إلا من تمكن من الهرب، حتى أقفرت المدينة وخربت؛ وكان على الأمير أن يعيد تعميرها وتأمينها فصرف جهده إلى بناء أسوارها وإتقانها وتحصينها(١)، ثم رتب فيها جيشاً كثيفا لحمايتها، كما استرجع إليها من فر من سكانها؛ فى الوقت الذى كان جند صائفته بقيادة ابنه الحكم تعمل على تطهير المنطقة المجاورة لها من ثوارها. ومع كل هذه الاجراءات ظلت طليطلة مضطربة؛ وفشل جيش آخر أرسله الأمير فى العام التالى (٢٣٩هـ / ٨٥٣م) فى إعادة الأوضاع إلى سابق استقرارها ؛ وإنما على العكس منى بهزيمة ساحقة قريبا من قلعة رباح، حيث ترصد له الثوار عند فحص أندوجر Andujar، وتمكنوا منه فى معركة حامية فى شوال من نفس العام / مارس ٨٥٣م؛ وعادت فلوله إلى قرطبة بخسارة فادحة (٢).

كان هذا النصر كافيا لإعلان العصيان المنظم فى طليطلة، ومعاودة الثوار العيث فى المدن القريبة؛ فلما اشتدت وطأتهم أخذ الأمير فى التأهب لهم؛ فحصن مدينة أبدة Ubeda (٣) بكورة جيان بمعاقل منيعة، واستنفر إليه العرب المقيمين على الطاعة؛ وحينذاك استشعر الثوار عزمه على قتالهم، فبادروا إلى الاستعانة ضده بأشتوريس لاسيما وأنها قريبة منهم، واتصلوا بملكها أردونيو الأول Ordono I، وأعلموه بحركة الأمير ضدهم وسألوه أن يعينهم عليه (٤) ، فكانت فرصته لينقل أرض الصراع مع الأندلس إلى داخل أراضيها ذاتها.

ويرى ابن حيان أن أهل طليطلة كانوا بذلك « أول من استجاش بالمشركين جيرانهم نصارى أهل دار الحرب على المسلمين إخوانهم » (٥)، وفاته أن ثوار مدينة ماردة استجاشوا من قبل بالملك الفونسو الثانى ضد عبد الرحمن الثانى. وإذا كان

---

(١) الحميرى، الروض المعطار ، تحقيق إحسان عباس، ص ٤٦٩.

(٢) قارن ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق مكى، ص ٢٩٣ - ٢٩٤؛ ابن خلدون، العبر، ٤ ص ٢٨٣؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٤؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٥ ص ٢٩٣.

(٣) عنها أنظر: ابن غالب، نفسه، ص ٢٨٤، الحميرى، نفسه، ص ١١؛ Lévi - Provençal, La Description, pp68-70. ؛ويشير ابن حيان (المقتبس، تحقيق مكى، ص ٢٩٤) أن الأمير محمدا هو الذى بنى هذه المدينة، ولكنها فى الواقع كانت من بناء أبيه، أما هو فقد زاد فى بنائها وتحصينها مثلما يفهم من نص ابن غالب أعلاه ومن نص ابن الأبار ، الحلة، ١ص ١٣٧.

(٤) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٤ - ٩٥؛ ابن الخطيب، تاريخ ، ٢ ص ٢٠؛ النويرى، نهاية ، ٢٢/١ص١٥٠٣؛ Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 296, Prim Cron. General, ed. Pidal, 2p364.

(٥) المقتبس ، تحقيق مكى، ص ٢٩٥.

الفونسو قد أحجم وقتذاك عن إمدادهم، فقد غامر أردونيو ولم يتردد فى أن يمد ثوار طليطلة بجيش ضخم من قواته نصارى أشتوريس والبشكنس، وفى ذلك دلالة على مدى ما كان يجيش به صدر أردونيو ضد الأندلس، ومدى ما وصلت إليه أشتوريس من جرأة . وقد عهد أردونيو بقيادة هذا الجيش الضخم إلى أحد أشقائه (١)، الذى يسميه ابن عذارى(٢) غشتون أو غتون (Gatón) ؛ فى حين يدعوه ابن حيان (٣) باسم برمند القس؛ وهو اسم يتطابق مع اسم الملك برمودو الملقب بالقس، الذى ولى عرش أشتوريس عام ٧٨٨م (١٧٢هـ)، واعتزله طواعية بعد ذلك بثلاث سنوات مثلما أشرنا من قبل ؛ لينخرط فى سلك الرهبنة على إثر هزيمته أمام قوات الأمير هشام، فتوارى منذ ذلك الحين عن المسرح السياسى والحربى دون أن يسمع به؛ ولذا فمن المستبعد أن يكون هو قائد الجيش؛ إضافة إلى أنه ليس هناك ما يؤكد أنه كان على قيد الحياة وقتذاك ، إذ اختفى ذكره فى المصادر الإسبانية مع تنازله عن العرش؛ وحتى لو كان حيا فلا يعقل أن يعهد إليه أردونيو بهذه المهمة بعدما أثبت هزالة كفاءته الحربية.

كذلك فقد توحى رواية ابن حيان السابقة أن أهل طليطلة قد استمدوا أيضا - إلى جانب أشوريس - بكل قوى المسيحية المعادية فى شمالى إيبيريا، وذلك من قوله: « بالمشركين جيرانهم نصارى أهل دار الحرب »، وهو مادفع المؤرخين المسلمين مثل ابن الأثير(٤) وابن خلدون(٥) والمقرى(٦) إلى النص صراحة أن أهل طليطلة قد استمدوا «ملك البشكنس» أى غرسية إنييجيز Garcia Iniguez الذى كان قد خلف والده فى حكم إمارة نبرة منذ عام ٢٣٨هـ/٨٥١ - ٨٥٢م(٧)؛ وإن كنا نستبعد ذلك أيضا لا سيما وأن غرسية كان لايزال على طاعته لأمير قرطبة ولم تكن قد ساءت علاقتهما بعد؛ ثم إن المؤرخين الإسبان الذين أشاروا إلى استمداد أهل طليطلة بملك أشتوريس لم

(١) Historia Arabum, ed. Sanchez, p 43; Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 290; Prim. Cron. General, ed. Pidal, 2 p 364; Cron. Geral de Espanha, ed. Cintra, 2 p 416. ؛ وإن كان بعض المؤرخين الحديثين يتفقون مع هذه المدونات بأن قائد الجيش شقيق الملك أردونيو فإن فريقا آخر يرى أنه زوج شقيقته ، قارن : Emilio Saez, los Ascendientes de San Rosendo, Hispania 1948, 30 pp 39 - 48, 94 - 97; Lévi - Provençal, Histoire, 1p 293; Barrau - Dihigo, Recherches, p 172; Cotarelo, op cit, pp 65 - 67

(٢) البيان ، ٢ص ٩٥.

(٣) المقتبس، تحقيق مكى، ص ٢٩٧.

(٤) الكامل، ٥ص ٢٩٤.

(٥) العبر، ٤ص ٢٨٤.

(٦) نفح ، ١ ص ٣٢٨.

(٧) Textos Inéditos del Muqtabis, pp 306, 308.

يذكروا شيئا عن استمدادهم بملك البشكنس، ونعتقد أنهم ما كانوا يغفلون الإشارة إليه فيما لو حدث شيئ من هذا القبيل.

وعلى كل حال كان لمبادرة طليطلة فى الاستنجاد بقوة معادية أثر فى ترويع الجو العام فى قرطبة، التى كان لايزال لديها القدرة - رغم كل الظروف - على تجميع قوات ضخمة، بحيث إنه حينما أعلن الأمير محمد النفير استعدادا للزحف نحو المتحالفين بادر إليه المسلمون رجالا وركبانا يطلبون الشهادة فى وجهتهم [(١)]، فلما اكتملت الحشود قادها الأمير فى المحرم عام ٢٤٠هـ/ يونيو ٨٥٤م فى أول حملة يقودها بنفسه لقمع هذه الحركة الخطيرة، فقصد طليطلة عبر الطريق الرومانى الممتد من مدينة قرطبة، وما أن وصل إلى الفحص الواقع جنوب غربى طليطلة - الذى يخترقه وادى سليط Guadacelete أحد فروع نهر تاجة ، فى نفس المكان الذى دارت عليه رحى الحروب الدامية بين العرب والبربر منذ مايزيد عن قرن من الزمان - حتى وجد ثوار طليطلة وحلفاءهم الأشتوريين قد تأهبوا للقائه ، وقايضوه فى اعتزامه، وصاروا عن طليطلة نحوه يبغون صده عن وجهه والإيقاع به وبمن معه،[(٢)] . فلما عاين الأمير بنفسه كثرتهم التى ضاق بخيلهم الفضاء الواسع والمكان الدانى الشاسع؛ خامره الجزع وشابه الروع والفزع وظن ألا منجاة له منهم ، وأن المسلمين سيكونون هناك طعن الشفار؛ وحينذاك هم بالعودة إلى قرطبة والرجوع عن تلك الحركة لقوله تعالى : (ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ، فقام إليه أحد تجار قرطبة ممن كانوا يرافقونه يثنيه عن تراجعه ويشجعه على منازلة العدو دونما تخوف قائلا له : أيها الأمير قال الله تعالى: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ..) فرد عليه الأمير : رحمك الله أيها الشيخ ، والله ما جبنت نفسى إلا أنه لا رأى لمن يطاع ولست أستطيع أن أجاهد وحدى، فرد عليه العتبى الفقيه : «والله ما أراه قذف بها على لسانه إلا ملك ، فاستخر الله ليلك هذا وفى يومك »؛ فأراه الله فى مقابلة العدو الرشاد والهمة والسداد، وقام يندب الناس إلى لقاء العدو وأمر أن يكون كل على حسن ظنه من الظفر ويقينه؛ وقال لهم إن كنتم تشكرون للخلفاء نعمة وترتجون منى مكافأة فأريحونى من هذا العدو، فإن انتحارى واتكائى على سيفى أهون على من أن يقال ولول عليه العدو من شاهق الجبل ففر عنه ؛ فلما انعقدت رايات المسلمين وتأكدت نياتهم على المقارعة[(٣)]، رتبهم الأمير وأكمن

---

(١) ابن حيان ، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٢٩٦.

(٢) ابن عذارى، البيان، ٢ ص ١١٢.

(٣) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١١٢ - ١١٣؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ١١٤ - ١١٥.

معظمهم فى كمائن خلف النتوءات البارزة فى نواحى وادى سليط، فى حين تقدم هو بقلة من الجند نحو العدو كحيلة منه ليطمعه فى منازلته، وحينذاك يوقعه فى الشرك الذى نصبه له .

كانت الخطة متقنة إلى حد كبير بحيث اختالت على أهل طليطلة وحلفائهم وتم تضليلهم، إذ حينما عاين أهل طليطلة قلة أعداد الجند الزاحفة نحوهم أعلموا غثون قائد قوات أشتوريس، فتحركوا فرحين لا يشكون فى الظفر والغنيمة منهم؛ حتى التقوا بهم على وادى سليط فى معركة طاحنة نسبت إلى هذا الوادى ؛ وحينذاك برزت قوات المسلمين من مكامنها وتتابعت ردودهم من اليمين والشمال، وتواترت خيلهم أرسالا على أرسال، فأطبقت على ثوار طليطلة وحلفائهم النصارى من كل جانب حتى غشيتهم منهم ظلل كالجبال[١]؛ واستعرت رحى القتال واختلط الفريقان واجتلدا مليا بصدق ما شوهد أجد منه، وأبلى المسلمون بلاء لاشئ فوقه ؛ أخذت فيه ضربات سيوفهم وطعون رماحهم كل مأخذ من خصومهم[٢]، بحيث أنه ما أن انتصف النهار حتى كانوا قد أبادوا جموعهم وقتلوا عامتهم؛ فبلغت رءوس ما احتزوه منهم أعداداً غفيرة، اختلف المؤرخون المسلمون فى حصرها فقيل ثمانية آلاف[٣] وأحد عشر ألفا[٤]، وعشرين ألفا[٥] وثلاثين ألفا[٦] أو حتى مائة خمسة وأربعين ألفا[٧]، وإن حددتهم الروايات الإسبانية بعشرين ألف فقط، منهم اثنى عشر ألفا من أهل طليطلة وثمانية آلاف من قوات أشتوريس[٨]؛ جمعت ورصعت بين أيدى الأمير فأمر بقناة طويلة علقت عليها رأس قائد قوات أشتوريس، وأحدقت حولها الرءوس المحتزة وتراصت ذروتها حتى استوت مع السنان، فشوهد من كثرتهم مالم يكن يعهد بمثله، وصار منها جبل اعتلاه المسلمون يهللون ويحمدون ربهم على النصر، وحينما حانت وقت صلاة الظهر صعد المؤذن هذا الجبل الآدمى ونادى بالآذان من أعلاه[٩]، ثم بقيت تلك الجثث على أرض المعركة فى وادى سليط دهرا طويلا[١٠].

---

(١) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٥.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٢٩٧

(٣) ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٢٩٤؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٢١؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٥٣.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٢٩٧ .

(٥) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٥؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٨٤.

(٦) ابن القوطية ، نفسه، ص ١١٥.

(٧) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٤٧.

(٨) Historia Arabum, ed Sanchez, p 43; Cron. del Rodrigo, ed Fuensanta, p 296; Cron. Geral de Espanha, ed Cintra, 2 p 417.

(٩) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى ، ص ٢٩٧ – ٢٩٨.

(١٠) ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٩٤.

وعلى هذا النحو أورد المؤرخون المسلمون تفاصيل معركة وادى سليط بين قوات الأمير محمد وقوات خصومه من ثوار طليطلة وحلفائهم من أشتوريس؛ ووصفت بأنها كانت من أمهات وأعظم الوقائع التى لم ير أهل الأندلس مثلها من قبل[١] ؛ كما تغنى بها الشعراء المسلمون وامتدحوا بها الأمير فى قصائد مطولة[٢].

وعلى الرغم من أهمية هذا الانتصار والكسب المعنوى الذى تحقق للأمير محمد وهو فى مطلع إمارته، إلا أن مشكلة طليطلة ظلت قائمة تنذر بالخطر بين الحين والآخر، وأضحت المدينة ملجأ مختلف التيارات السياسية والدينية، وهى فى مجملها حاقدة على السيادة الأموية ؛ وينجح الأمير فى قمع عدة انتفاضات بها على جانب من الخطورة حتى انتهى أمرها مؤقتاً عام ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م إلى الرضوخ والاعتراف بسيادته بعد الضربة العنيفة التى تلقتها على يديه ؛ إذ لم تلبث المدينة أن عادت إلى خطها السلبى لتعود معها محاولات الأمير لتطويق ما بها من اضطرابات؛ فعمل على رصد تحركات أهلها والتضييق عليهم بتحصين ما يجاور مدينتهم من قلاع مثل قلعتى رباح وطلبيرة ، وشحنهما بالجند والفرسان الكثيفة فى عام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م [٣]؛ وفى العام التالى باغتتهم قوات الأمير تنسف معايشهم وتعيث فى نواحيها ، لكنها ما كادت تعود عنهم حتى زحفوا على قلعة طلبيرة وهاجموا حاميتها عام ٢٤٣هـ/٨٥٧م، فخرج قائدها إلى لقائهم بعدما أكمن لهم الكمائن وانقض عليهم فى معركة بالغة الشدة، قتل فيهم قتلا ذريعا حتى بلغت أعداد قتلى أكابرهم وحدها سبعمائة قتيل؛ لم تشف غليل الأميرحيث خرج بنفسه إليهم لمعاقبتهم فى صيف العام التالى بجيش ضخم ، لكنه ما كاد يصل إليهم حتى وجدهم قد تأهبوا لمنازلته على باب مدينتهم وواضعوه الحرب أياما دون أن يتمكن منهم، فعمد إلى الحيلة وتظاهر بالتقهقر فاندفعوا وراءه يلاحقونه دون أن يدروا أن مهندسيه قوضوا قواعد القنطرة، بحيث أنهم حينما احتشدوا عليها سقطت بهم هاوية فى النهر، وتدهدهت صخورها عليهم من كل ناحية فهلك كثير منهم، ومن نجا تمكن منه الأمير فوضع

---

(١) ابن عذارى، نفسه، ٢ص ١١١؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٤٧؛ ابن عبد ربه، العقد ،٤ص٤٩٥.

(٢) أنظر هذه القصائد عند كل من : ابن حيان ، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٢٩٨ - ٣٠١ ، ٣٠٣ - ٣٠٤؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١١١ - ١١٢؛ ابن عبد ربه، نفسه، ٤ص ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٣) أنظر : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٥؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٢٩٦؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ١٥٣؛ Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 297; Historia Arabum, ed Sanchez, p 43; Prim Cron General, ed Pidal, 2 p 364.

السيف على رقابهم قتلا وتشريدا حتى قل سكان المدينة قلة ظاهرة، وضاقت بهم معايشهم فانكسرت حدتهم [١] واضطروا إلى الاذعان لطاعته في عام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م. إلا أن كل ذلك كان تدبيرا موقوتا لأن المدينة وقعت بعد ذلك تحت سيطرة بنى ذى النون البربروتحولت إلى إقليم مستقل بموافقة الأمير كما سنتبين فيما بعد .

وإذا كان الأمير قد نجح في إخضاع مدينة طليطلة مع بدايات عام ٢٤٥هـ / ٨٥٩م ، لكنه دهم من جديد بخطر النورمان الذين عاودوا الإغارة على سواحل الأندلس الغربية وهاجموا مدن إشبيلية والجزيرة الخضراء وغيرهما، ثم واصلوا زحفهم على السواحل الشرقية فهاجموا بعض مدنها مستبيحين إياها سفكا ودما[٢] ، حتى وصلوا إلى مصب نهر إبرة فدخلوه واقتحموا بلاد البشكنس وأغاروا على مدينتها بمبلونة وأسروا فيها ملكها غرسية ، الذى افتدى نفسه منهم بفدية ضخمة عجز عن الوفاء بها بالكامل؛ إذ بلغت تسعين[٣] أو سبعين ألف دينار[٤] بحيث ارتهن أبناءه عندهم في بعضها .

لم يكن انصراف الأمير محمد إلى مصارعة ثوار طليطلة ومن بعدهم درء خطر النورمان يعنى أنه غض النظر عن الاهتمام بأمر أشتوريس ، إذ كان يتوقع أن يستغل ملكها أردونيو فرصة متاعبه ليغير بين لحظة وأخرى على الأندلس، انتقاما لهزيمة قواته في وادى سليط. ولذلك لم يتوان الأمير عن معاقبته في العام التالى لهذه الهزيمة أى عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م، بأن أعلن النفير العام وكاتب أهل الثغور للاحتشاد فلما توافدوا عليه قادهم بنفسه [٥]، أو أنه عهد بقيادتهم إلى موسى بن موسى عامله على الثغر الأعلى [٦] - وكان لازال على طاعته واشترك معه في معركة وادى سليط من قبل - واقتحم بهم أرض إقليمى ألبة والقلاع من أراضى أشتوريس، فجال فيهما يدوخ أهلهما وينسف بسائطهما ويفتح حصونهما حتى بلغ أقصى هذين الاقليمين ثم عاد إلى قرطبة[٧] .

---

(١) قارن : ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣٠٤ - ٣٠٧؛ ابن عذارى ، نفسه، ٢ ص ٩٦، وهو وإن يجعل تاريخ إذعان المدينة عام ٢٤٠هـ فواضح من سياق روايته أنه إما خطأ مطبعى أو تصحيف من المحقق أو ربما من ابن عذارى نفسه . وأنظر أيضاً : Cron. del Rodrigo, ed Fuensanla, p 297, Historia Arabum, ed. Sanchez, pp 43 - 44, Prim Cron General, ed. Pidal, 2 pp 364 - 365, Cron Geral de Espanha, ed. Cintra, 2 pp 417 - 418

(٢) عن تلك الغزوة قارن بتفصيل : ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ٣٠٩ - ٣١١؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٦ - ٩٧؛ العذرى، نصوص، ص ١١٨ - ١١٩.

(٣) أنظر : ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٠٠؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ٥٤.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣٠٩، ٣١٣؛ ابن خلدون ، العبر، ٤ ص ٢٨٤؛ العذرى، نفسه، ص ١١٩؛ Textos Inéditos del Muqtabis, p 306.

(٥) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٥ ؛ Textos Inéditos, p 308

(٦) قارن : ابن الأثير ، نفسه، ٥ ص ٢٩٦؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ٥٣؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٨٣؛ المقرى، نفح، ١ ص ٣٢٨.

(٧) ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٩٥؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٢٩٦؛ Textos Inéditos, Lox cit

ولكن لما لم يكن لدى الأمير وقت أو جهد كاف لكى يواصل نشاطه الحربى ضد أشتوريس ، فإنه على إثر هذه الحملة يقتصر على اتخاذ بعض الإجراءات الوقائية ضد ما قد تقوم به أشتوريس من هجوم ، وليحول دون إمكانية معاونتها أى من المناهضين له فى داخل الأندلس، ولذلك نشط فى ضبط أطراف بلاده وتقوية ثغوره ببناء حصون ثغرية جديدة مثل حصن طلمنكة Talamanca الواقع على ضفة نهر شرنبة Jarama أحد فروع نهر تاجة ، حتى صار حصنا منيعا لايرام فى نحر العدو؛ وحصن إستيرش (Esteras de Madina الحالية) إلى الجنوب الغربى من مدينة سالم؛ وحصن مجريط (Madrid الحالية) إلى الشمال الشرقى من طليطلة؛ وحصن بنة فراطة (Pena Forata الحالية) على ملتقى نهرى سورب Sorbe وإينارس Henares من فروع تاجة[1]؛ وصارت هذه الحصون منيعة وتشكل نطاقا دفاعيا وشجا فى نحر العدو فى الجزء الجنوبى من الثغر الأوسط بين مدينتى سالم وطليطلة. وقد بلغ من اهتمام الأمير بالوقوف على أحوال ثغوره والاطمئنان على هدوئه واستقراره أنه كان شديد الاستخبار عنها والتطلع إلى ما يحدث فيها وإرسال الثقات للبحث فى مصالحها ، وليس أدل على هذا الاهتمام مما حكاه مطرف بن نصير بقوله: « أبطأ عن الأمير وقتا من أيامه خبر الثغر وفترت عنه رسلهم فاشتد لذلك قلقه وساء ظنه، فدعانى وأنفذنى لاستعلام ذلك والكشف عنه ... وأوعدنى بسفك دمى إن زدت عليها» [2].

وإذا كان الأمير محمد قد تخوف من استغلال أردونيو متاعبه الداخلية فاهتم بثغوره وحصنها تأهبا للدفاع عن بلاده، فقد بادله أردونيو نفس المخاوف ولم يغب عن باله أن انصراف الأمير عن غزو بلاده إنما هو أمر موقوت لن يلبث أن ينتهى حالما يفرغ من متاعبه؛ ولذلك سارع أردونيو بدوره إلى الاستفادة من تلك الهدنة فى القيام بحركة تحصينية تعميرية واسعة النطاق فى منطقة ثغوره المواجهة للأندلس، فأحاط قلاعاتها بأسوار متقنة وأبراج عالية منيعة وتحصينات قوية ثم حشدها بالجند والمرابطة مثلما فعل فى قلعة مدينة أستورقة عام ٨٥٥م[3] (٢٤٠هـ) ، وفى قلعة

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ١٣٢ ؛ وقارن أيضاً : الحميرى، صفة، ص ١٢٨ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ٥٠ – ٥١ ؛ ابن سعيد، المغرب، ٢ ص ٤٢ – ٤٤.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ١٣٢ – ١٣٣.

(٣) عن الوثيقة الدالة على ذلك أنظر : Sanchz Albornoz, Serie de Documentos Inéditos del Reino de Asturias, CHE 1944, 1 - 2 pp 327 - 328.

مدينة ليون فى العام الذى تلاه [١]، وهى القلعة التى كان المسلمون قد خربوها حينما أغاروا عليها قبل ذلك بعشر سنوات؛ وقد كان لهاتين القلعتين أهمية استراتيجية فائقة وقتذاك فى حماية مملكة أشتوريس، لتحكمهما فى ممرات جبال كنتبرية المفضية إلى قلب المملكة من ناحية الجنوب . كما اهتم بتحصين أطراف مملكته مثل قلعة توى Túy للدفاع عن حوض نهر مينيو والساحل الغربى لإقليم جليقية فى الغرب؛ أما فى الشرق فقد عهد إلى الكونت لذريق Rodrigo بتحصين قلعة أماية Amaya فى إقليم قشتالة عام ٨٦٠م[٢] (٢٤٥ - ٢٤٦هـ)، لحماية إقليمى ألبة والقلاع؛ وقد امتد هذا النشاط التحصينى إلى قلاع أخرى عديدة مثلما تذكر المصادر الإسبانية[٣]، وهى وإن لم تحدد أسماءها فمن الطبيعى أن تكون قلاعا على امتداد السفوح الجنوبية لجبال كنتبرية التى تحمى المداخل الرئيسية إلى قلب مملكة أشتوريس.

لم يكتف أردونيو بتحصين قلاعات ثغوره وإنما اهتم أيضا بإعادة تعمير مدنها ونواحيها التى كان قد أخلاها الفونسو الأول من سكانها إثر استعادته لها من المسلمين منذ ما يزيد عن قرن من الزمان ، فظلت خالية مهجورة إلى أن استقدم إليها أردونيو سكانا جددا وطنهم فيها ليعيدوا إليها الحياة ، وتحدد المصادر الإسبانية نوعية هؤلاء السكان الجدد بأنهم من مسيحيى المملكة ذاتها ومن المسيحيين القادمين من الأندلس فى الجنوب [٤].

ومع أن نشاط أردونيو التعميرى التحصينى فى منطقة ثغوره كان رد فعل لما يقوم به الأمير محمد فى منطقة الثغور الأندلسية ، فقد عمد أردونيو فى ذات الوقت إلى إعاقة أعمال الأمير التحصينية ، فأغار على منطقة الثغور الأندلسية فى حملتين

---

(١) Cron Burguense, ed. Huici, 1 p 32, Annales Compostellani, ed. Huici, 1p 60; Annales Complutense, ed Huici, 1 p 40. ؛ وإن كانت الحوليتان الأخيرتان تجعلها فى عام ٨٥٦م وليس عام ٨٥٥م مثل المدونة الأولى، فى حين تجعلها حوليات طليطلة الأولى عام ٨٦١م، أنظر : Anales Toledanos I, ed. Huici, 1 p 340

(٢) Cron. Burgense, ed. Huici, 1 p 32; Annales Compostellani, ed. Huici, 1 p 40; Chron Léoneise, ed. Cirot, p 397; Cron Cardena I, ed. Huici, 1 p 373 التى تجعلها عام ٨٥٦م؛ Anales Toledanos, ed. Huici, 1 p 340 التى تجعلها عام ٨٨٢م وهو عام لايقع فى عهد أردونيو وإنما فى عهد خليفته. وعن موقع قلعة أماية وأهميتها الاستراتيجية فى حماية مملكة أشتوريس وقتذاك، أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 3 pp 315 - 316.

(٣) Cron Albeldense, ed. Florez, p 453; Cron Sebastiani, ed. Florez, p 487; Cron. Alfonso III, ed Villada, p 127; Cron. de. Lucas , ed. Puyol, pp 294 - 295; Cron. Geral de Espanha, ed. Cintra, 2 p 415; Cron Silense, ed Florez, p 282.

(٤) Cron Alfonso III, ed Villada, p 80, Estoria de los Godos, ed Zabalburu, p 76; Cron. del Rodrigo, ed Fuensanta, p 292; Prim. Cron. General, ed Pidal, 2 p 364; Chron. Leonaise, ed Cirot, p 397.

جريئتين مستغلا في ذلك معاناة الأندلس وانشغال أميرها في القضاء على ثورة طليطلة وفي صد هجوم النورمان. وهما حملتان انفردت الروايات الإسبانية بالإشارة إليهما دون أن تحدد لأي منهما تاريخا بعينه، قائلة إن الملك أردونيو قاد بنفسه أولهما إلى أراضي الثغر الأدنى الأندلسي في الغرب؛ فهاجم أراضيه حتى وصل إلى مدينة قورية Coria واستولى عليها بعد معركة عنيفة قتل فيها المسلمين المدافعين عنها، وأسر كثيرا من أهلها وعلى رأسهم حاكمها الذي تسميه زيد أو زياد Zeit- Zeith . في حين قاد الحملة الثانية الكونت لذريق إلى أراضي الثغر الأوسط فاقتحم حصن طلمنكة Talamanca وقتل كل أفراد حاميته، وأسر عامله الذي تسميه بعضها باسم Mozeror وبعضها الآخر باسم Mozeor وزوجته بلقيس Balkaiz وإن أطلق سراحهما فيما بعد؛ وعادت القوات الأشتورية من هاتين الحملتين محملة بكثير من الغنائم والأسرى من الرجال والنساء وحتى الأطفال، فباعهم أردونيو في سوق العبيد لصالح العرش[١].

ومع أننا لا نستبعد حدوث هاتين الحملتين وقتذاك، إلا أن ما يساورنا الشك فيه هو أن تكون القوات الأشتورية قد استولت على أي من القلاع أو المدن الأندلسية؛ إذ كانت هاتان الحملتان على الأرجح غارتين بهدف تدمير تحصينات ما استجده الأمير محمد في قلاعهما، والحصول على ما يمكن من غنائم وأسلاب. كذلك فعلى الرغم من تضخيم الروايات الإسبانية في حجم انتصار هاتين الحملتين وفي أعداد الأسرى المسلمين، فيبدو أن النجاح قد أصاب القوات الأشتورية في مهمتها.

هذا النجاح الذي حققه أردونيو في أراضي الثغرين الأدنى والأوسط شجعه ولاشك على مواصلة نشاطه الحربي ضد الثغر الأعلى، خاصة وأن تحصينات قلاعه كان تجري وقتذاك على قدم وساق، وكان قد انتهى موسى بن موسى – زعيم أسرة بني قسي – لتوه من بناء قلعة جديدة في منطقة ريوخا Rioja عرفت بقلعة البيضاء أو البلدةAlbialda[٢]على ضفة نهر إريجوا Iregua أحد فروع نهر إبرة، وصفتها الرواية الإسبانية بالمناعة والحصانة بفضل أبراجها وأسوارها القوية[٣]؛ فضلاً عن

(١) Cron. Sebastiani, ed Florez, p488; Cron Alfonso III, ed. Villada, pp 84, 130; Cron .Rotense, ed. Moreno, p 621; Cron. Albeldense, ed. Florez, p 453, Cron. del Rodrigo, ed Fuensanta, p 295; Prim Cron General, ed Pidal, 2p 366; Cron. Geral de Espanha, ed. Cintra, 2 p 421; Chron. Léonaise, ed. Cirot, pp 397 - 398, 399 - 400.

(٢) Cron Sebastiani, ed. Florez, p 488, Cron de lucas, ed. Puyol, p 296, Chron Silense, ed Florez, p 283, Chron. Léonaise, ed Cirot, p 398 ؛ بناها في تاريخ غير معلوم قبل عام ٢٣٨هـ/ ٨٥٠ – ٨٥١م مباشرة، وهو ما يفهم من رواية ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكي، ص ١٦ .

(٣) Cron Albeldense, ed. Florez, p 453; Cron Alfonso III, ed . Villada, p 82, 128, Cron Geral de Espanha, ed. Cintra, 2 p 420.

موقعها الاستراتيجى الذى يحميه جبل لاتورثى Laturce من الشرق وتلال كلابيخو Clavijo من الغرب؛ وتتحكم فى المداخل المؤدية إلى إقليمى ألبة والقلاع، بحيث صارت شوكة فى جنب أشتوريس تهدد أمنها وسلامتها تهديدا خطيرا[١] ؛ لم يجد معه أردونيو بدا من العمل على إزالته مهما كلفه ذلك من تضحية. يضاف إلى ذلك عداوة أردونيو المستحكمة لموسى بن موسى منذ أن شارك فى إيقاع الهزيمة بقواته فى معركة وادى سليط، ثم قام بنفسه بغزو إقليمى ألبة والقلاع كما أشرنا من قبل، ولذلك كان أردونيو يتوق إلى الثأر منه والقضاء عليه، باعتباره سيف أمير الأندلس المسلط على رقاب أهل مملكة أشتوريس فى إقليمى ألبة والقلاع.

وقد أدرك أردونيو منذ البداية جسامة ما هو مقدم عليه من مهمة، ولذا أعد لها إعدادا جيدا حشد فيه كل إمكانياته الحربية؛ وعبأ كل قوات مملكته التى ضمت خيرة جنده وأقواهم، ولم يعهد بقيادتهم إلى أى من قواده وإنما حرص على أن يقودهم بنفسه، فزحف بهم على أراضى الثغر الأعلى فى عام ٨٥٩م / ٢٤٥هـ.

وتفصل الروايات الإسبانية[٢] أنباء هذه الحملة قائلة أن أردونيو لم يتوقف فى زحفه على أراضى هذا الثغر إلا أمام أسوار قلعة البيضاء الحصينة، فضرب عليها حصارا نما خبره على وجه السرعة إلى موسى بن موسى، الذى جمع جيشه بنفس السرعة وهرول نحو قلعته لإنقاذها من هذا الخطر؛ ولكنه حينما اقترب منها لم يغامر بمهاجمة جيش أردونيو وإنما ضرب معسكره عند جبل لاتورثى المجاور لها شرقا ، حالما يتدبر خطته فى تطويق جيش أردونيو وإجباره على رفع الحصار عن القلعة؛ إلا أن الأخير لم يهيئ له تلك الغاية إذ بادر بتقسيم جيشه إلى قسمين ترك أحدهما مقيما على حصار القلعة، فى حين تقدم بالقسم الآخر نحو موسى وباغته قبل أن يستكمل تنفيذ خطته أو استعداداته، فدارت بينهما رحى معركة قاسية عنيفة؛ كانت وبالا على قوات موسى إذ فقدت أعدادا غفيرة تخطت بتقدير الروايات الإسبانية عشرة آلاف من كبار الفرسان، ومنهم غرسية Garcia زوج ابنة موسى نفسه، بخلاف من قتل من عامة الجند الذين فاقت أعدادهم أعداد من قتل من الفرسان؛ بحيث فاضت دماء أولئك القتلى المسلمين - كتعبير مدونة ليون Chron . Léonaise [٣] مثل ماء البحر.

(١) عن أهمية موقعها أنظر : Sanchez Albornoz, Origénes, 3p 298 Sqq ؛ وأنظر الملاحق .

(٢) Cron Sebastiani, ed Florez, p 488, Cron. Rotense, ed Moreno, p 620, Cron. Alfonso III, ed Villada, pp 82 - 83 ; 128 - 129, Estoria de los Godos, ed Zabalburu, p 77; Cron del Rodrigo, ed Fuensanta, pp 294 - 295, Cron de Lucas, ed Puyol, p 296; Cron Silense, ed Florez, pp 283 - 284

(٣) Ed Cirot, p 399.

أما موسى فقد أصيب بجراح خطيرة إذ نالته ثلاث طعنات، وإن تمكن من الإفلات على ظهر جواده من أرض المعركة وهو نصف حى، تاركا خلفه قواته دون قيادة فاضطربت صفوفها وحلت عليها الهزيمة الساحقة فتهاربت؛ ولم ترفع قوات أردونيو السيف عنها فطاردتها فى النواحى حتى شتتت شملها، ثم عاد أردونيو إلى القلعة فشدد حصاره عليها على مدى سبعة أيام كاملة ضاقت خلالها الحال بأهلها وبحاميتها؛ فاقتحمها ووضع السيف على رقاب حاميتها وفتك بأفرادها؛ ثم نهب المدينة نهبا كاملا وسبى ماشاء من النساء والأطفال، ولم يترك القلعة إلا بعدما دمر أسوارها وحصونها وسواها بالأرض.

وبذلك انتهت أحداث تلك الحملة الجريئة، التى وإن كانت أقرب إلى غارة انتقامية صاحبها كثير من التدمير والنهب والتخريب دون الفتح الثابت أو الاستقرار فى أى من نواحى الثغر الأعلى؛ فقد أشفى بها أردونيو غليله من الأمير محمد ومن موسى بن موسى عامله على الثغر الأعلى ، وانتهت بانتصاره فى موقعة كلابيخو Clavijo أو لاتورثى Laturce وتدميره لقلعة البيضاء « البلدة ».

كان لتلك الحملة آثار على جانب كبير من الأهمية لكل من أشتوريس والأندلس، إذ كانت هزيمة موسى فى تلك الحملة بداية أفول نجمه وانهيار قوته[1]؛ فانتهى تهديده وخطره على مملكة أشتوريس. ومن ناحية أخرى بدأت تتدهور علاقته بأمير الأندلس بحيث كتب إليه يذكر ما ناله ونال أهل بلده وما وصل إليه من النصب، وسأله أن يكون دخول العسكر الإسلامى إلى أرض أشتوريس فيما بعد على غير ناحيته[2]؛ فتأذى الأمير ورأى فى ذلك بوادر عصيان جديد يوشك موسى أن يعلنه. ولذا بادر بعزله عن الثغر فى عام ٢٤٦هـ[3]/ ٨٦٠م، وعين مكانه أحد ثقاته وأمره أن يقيم على مغاورة موسى وبنيه [4]؛ فانقلب موسى على الأمير وجاهر بعصيانه وخلافه وتطلع إلى السيطرة على ثغر طليطلة (الثغر الأوسط) فى عام ٢٤٨هـ/٨٦٢م، بأن صاهر صاحب مدينة وادى الحجارة Guadalajara أزراق بن منتيل بن سالم وزوجه من ابنته، لكن لم تلبث أن ساءت علاقته به هو الآخر، ووقعت

---

(١) Cron. de Lucas, ed Puyol, p 296.

(٢) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٧.

(٣) العذرى، نصوص، ص ٣٠ .

(٤) أعلاه ، ص ٤٩.

بينهما حرب أصيب فيها موسى بجراح أدت إلى وفاته إثر عودته إلى مدينة تطيلة [١] فى رجب من العام المذكور[٢]. فتخلص الأمير من موسى وإن ظل خطر أبنائه من بعده قائما يهدد الأندلس، إذ انقلبوا عليه وارتموا فى أحضان أعدائه من مسيحيى الشمال الإسبانى، مثلما فعل ابنه لب Lup الذى اعترف بتبعيته للملك أردونيو ودفع له الجزية طوال حياته كما حارب إلى جانبه مرات عديدة ضد المسلمين[٣]؛ بل إنه تحالف مع غرسية بن إنييجيز أمير بمبلونة [٤]، مما أدى إلى ازدياد حدة الصراع بينهم وبين الأمير من ناحية، وإلى اضطراب الثغر الأعلى عليه من ناحية أخرى اضطرابا استنفد معظم طاقاته وجهده.

كذلك تمخض عن انتصار أردونيو على القوات الإسلامية فى موقعة البلدة نوع من التقارب بينه وبين غرسية أمير بمبلونة، الذى كانت قد تغيرت نفسيته على موسى وعلى الأمير الأندلسى بسبب عدم إنجادهما له حينما هاجم النورمان بلاده؛ وتقاعس كل منهما عن معاونته فى دفع قيمة الفدية الضخمة التى فرضوها عليه افتداء لنفسه. فاستغل أردونيو الموقف لصالحه وتحالف مع غرسية على الخروج إلى الأراضى الأندلسية ومهاجمتها[٥]. فلما وقف الأمير محمد على نية المتحالفين بادر بالاستعداد لضرب تحالفهما وإحباط مشروعهما؛ وخرج إليهما بنفسه فى عام ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م فى جمع غفير، لم يخرج قبله مثله جمعا وكثرة وكمال عدة وظهور هيبة، [٦] قاصدا أولا أراضى بمبلونة فأقام يدوخ أراضيها على مدى اثنين وثلاثين يوما يخرب المنازل وينسف الثمار ويفتح القرى والحصون[٧]، مثل حصن فيروس «قبروش» Caparroso على الشاطئ الأيسر لنهر أراجون Aragón، وحصن فالحس «فالجش»[٨] Falchas على وادى أرجة Arga، وحصن قشتيل [٩] الذى يعتقد المؤرخون أنه المكان المعروف باسم Castillo Milagro [١٠] أو أنه قرية أونة قشتيل

---

(١) عن تفاصيل الحرب بينهما أنظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣١٥ - ٣١٨؛ ابن القوطية، تاريخ ص ١١٧ - ١١٨؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٧؛ Dozy, Recherches, 1 pp 214 - 215

(٢) العذرى، نفسه، ص ٣٠ - ٣١.

(٣) Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 488, Cron de Lucas, ed. Puyol, p 297; Cron Silense, ed. Florez, p 284; Chron Léonaise ed Cirot, p 399.

(٤) العذرى، نفسه، ص ٣١.

(٥) ابن عذارى، أعلاه؛ Textos Inéditos del Muqtabis, p 308

(٦) ابن عذارى، أعلاه.

(٧) ابن عذارى، أعلاه؛ ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣١٠؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٠١؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ٥٤.

(٨) ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٠١؛ وعن هذين الحصنين أنظر: العذرى، نفسه، ص ١٣٦؛ lévi - Provençal, Histoire, 1p 323 No 1.

(٩) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٧.

(١٠) Lévi - Provençal, Loc. Cit.

Uno - Castillo الحالية، الواقعة فى وادى عميق بين فرعى ريجل Riguel وكرديناس Cardenas من فروع نهر إيرة إلى الشمال الشرقى من مدينة تطيلة[١]؛ وهو الحصن الذى أسرت فيه القوات الإسلامية فرتون Fortun المعروف بالأنقر ابن غرسية أمير بمبلونة ، فظل أسيرا فى قرطبة نحوا من عشرين عاما أطلقه بعدها الأمير محمد ، فعاد إلى بلاده وعمره يناهز المائة عام [٢].

وما من شك فى أن تؤدى هذه الغزوة إلى إثارة غضب الأمير غرسية البمبلونى وحليفه الملك أردونيو، فعزما على الانتقام من الأمير الأندلسى؛ ولذلك اشتركت قواتهما فى مهاجمة نواحى الثغر الأوسط عام ٢٤٨هـ/ ٨٦٢ - ٨٦٣م وعاثت فى أراضيه، إلا أن القوات الإسلامية تصدت لها فى معركة حامية عند ذى تروجة Torrejon إلى الجنوب الشرقى من مدينة طلمنكة وأوقعت بها هزيمة قتلت فيها كثيرا منهم [٣].

ورغم هذا الانتصار الإسلامى على القوات المسيحية المتحالفة، كان على الأمير محمد أن يركز نشاطه الحربى ضد أردونيو باعتباره رأس الفساد وأقوى أعدائه؛ فأغزى إلى بلاده فى إقليمى ألبة والقلاع ابنه عبد الرحمن ويرفقته القائد عبد الملك بن العباس القرشى فى العام التالى، فاقتحماها وترددا فيها بالغارات يقتلان الرجال ويهدمان البنيان، وتنقلا فى بسائطها من موضع إلى آخر يحطمان الزروع ويقطعان الثمار ويفتحان الحصون، فلما خرج إليهما أردونيو بنفسه فى حماة رجاله[٤]؛ أو أنه أخرج إليهما أحد أشقائه ، ليقطع عليهما الطريق عند مضيق يسميه ابن عذارى الفج[٥] ، تقدم إليه عبد الملك وقاتله عند الضيق وأبلى هو ومن معه من المسلمين فى حربه بلاء حسنا حتى وافتهم بقية قواتهم، فتكاثروا على العدو وأظلوه من كل ناحية وقتلوا فيه أبرح قتل ، حتى بددوا جمعه وأوقعوا به أبرح هزيمة [٦].

---

(١) أنظر تعليق مكى على كتاب المقتبس لابن حيان، ص ٦٠٣ حاشية ٥٠٨.

(٢) قارن : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٧؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣١٠؛ المقرى، نفح، ١ ص ٣٢٨؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٠١؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٥٤؛ Historia Arabum, ed. Sanchez, p 44; Cron Geral de Espanha, ed. Cintra, 2p 425 . هذا وقد ولدت لفرتون ابنة فى قرطبة تدعى إنيجا Onneca (Iniga)، عادت معه إلى بمبلونة ، وتزوجت هناك من أحد نبلائها هو أثنار سانشيث Aznar Sanchez . فلما توفى بنى بها عبد الله بن الأمير محمد قبل أن يتولى الإمارة وأنجب منها ابنه محمدا والد عبد الرحمن الذى عرف بالناصر، أنظر : Textos Navarros, p 231; Lévi - Provençal, Histoire, 1 p 333 ، والمصادر المعطاة .

(٣) ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣١٢.

(٤) ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣١٨.

(٥) البيان، ٢ ص ٩٨.

(٦) قارن : ابن حيان وابن عذارى أعلاه؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣١٤؛ النويرى، نفسه، ٢٢/ ١ ص ٥٥.

ويبدو أن هذه الهزيمة لم تكن بكافية من وجهة نظر الأمير محمد لإذلال أردونيو ، لذلك أعد لحملة أخرى على أراضيه إعدادا جيداً، بحيث بلغت أعداد المستنفرين لها من الفرسان وحدهم نحواً من عشرين ألف فارس[١]؛ بخلاف الحشود من الراجلة والمتطوعة الذين عهد الأمير بقيادتهم إلى ابنه عبد الرحمن وبرفقته عبد الملك بن العباس القرشي؛ وإما إلى ابنه الآخر المنذر وبرفقته الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة؛ أو أنه المنذر شقيق الأمير وليس ابنه[٢]. ثم خرجوا قاصدين ألبة والقلاع من أراضى أشتوريس فى عام ٢٥١هـ/ ٨٦٥م، واخترقوا حوض نهر دويرة حتى تجمعوا على شاطئه الشمالى، وهناك رتبهم قائدهم وزحف بهم إلى أراضى العدو حتى وصلوا إلى فج برذنش أو برذيش[٣]؛ الذى يجعله بعض المؤرخين الحديثين فج برادانوس Prádanos[٤]، أو فج باراديس La Hoz de Páradiso[٥] الواقع عند نهر بارايسو Paraiso الحالى؛ قريبا من مدينة أماية التى كان أردونيو قد بنى قلعتها وحصنها منذ سنوات خمس مضت، وهناك انقض المسلمون على الحصون الأربعة الواقعة عند مدخل الفج فتغلبوا على حامياتها وغنموا جميع ما فيها وخربوها؛ وتنقلوا فيما يجاورها من مواضع يحرقون ويخربون حتى اتصل تدميرهم بكل نواحى ألبة والقلاع وما يقع فيهما من حصون وقلاع؛ لاسيما حصنى لذريق Rodrigo وراميرو Ramiro فى ترقة ، أوقة Oca ، أى منطقة بوريبا Bureba؛ وحصن غندشلب ، جونسالفو ، Gundisalvo فى برغش Burgos ؛ وحصن غومث Gómez فى مسانقة Mijangos فى أعالى نهر إبرة[٦]؛ ثم تقدموا حتى وصلوا إلى ، الملاحة ،[٧] Salinas de Anana التى كانت من أجل أعمال لذريق فى منطقة القلاع [٨]، فحطموا ما حولها وعفوا آثارها[٩].

---

(١) جاءوا من كور الأندلس المختلفة بأعداد متفاوتة ؛ يمكن الرجوع إليها عند : ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى ص ٢٧١ - ٢٧٢؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠٩ ، ومن هذه الأعداد يمكن التعرف على ما كان مفروضا على كل كورة من جند حين الاستنفار .

(٢) قارن ابن عذارى، نفسه، ٢ص ٩٨؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٢٩؛ ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣١٩؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ص ٢٨٤؛ المقرى، نفح، ١ص ٣٢٨ ، Historia Arabum, ed. Sanchez, p 44 .

(٣) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٨ ؛ وعن تحديد الطريق الذى سلكه الجيش عبر منطقة حوض نهر دويرة حتى أرض العدو فى الشمال، أنظر بتفصيل : Sánchez Albornoz, Origénes, 3 pp 348 - 352

(٤) Barrau - Dihigo, Recherches, p 185; Lévi - Provençal, Histoire, 1 p 317

(٥) Sánchez Albornoz, Origénes, 3 pp 346 - 347.

(٦) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٨ ؛ وعن تحديد مواقعها أنظر:- Sánchez Albomoz, Origénes, 3 pp 358 - 359, Lvi - Provençal, Histoire, 1 p 177 No 3, P 318 No 1.

(٧) عنها بتفصيل أنظر: Sánchez Albornoz, Origénes, 3pp 355 - 357 وبسبب كثرة ملاحات تلك المنطقة فقد اعتقد البعض أن الملاحة المقصودة ربما تكون إحدى ملاحات منطقة بوريبا، أنظر :- Lévi - Provençal , Histoire, 1 p 177 No3, p 318 No 1. حيث يذكر أسماء بعض هذه الملاحات ؛ وهو رأى لم يوافق عليه البورنوث.

(٨) ابن الأثير ، نفسه، ٥ ص ٣٢٩؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٥٥.

(٩) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٨ .

بعد تلك الانتصارات انتوى المسلمون العودة إلى الأندلس، فتقدموا يؤمون الخروج من بلاد ألبة والقلاع عبر فج المركوير[١] la Hoz de la Morcuera ؛ وهو هضبة تخترقها سلسلة جبال Obarenes التى تشقها وديان عميقة إلى الجنوب الغربى من مدينة ميراندا دل إبرة Miranda del Ebro على نهر إبرة، الذى كان المسلمون قد حاربوا عنده الفونسو الثانى من قبل فى معركة وادى أرون فى عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥ – ٨١٦م. وبينما كان المسلمون ماضون فى طريق عودتهم نحو هذا الفج؛ كان لذريق حاكم إقليم القلاع قد حشد جنده عند مداخله، وأكمن الكمائن على ميمنته وميسرته؛ ليوقع بالمسلمين عنده على غرة دون أن يشك وقتذاك فى الظفر بهم هناك[٢]؛ لاسيما وأنه كان قد أمضى سنوات مضت فى توعير هذا الفج، وسخر فيه أهل الإقليم فقطعوه من جانب الهضبة بخندق عميق، حتى ارتفع جرف الفج وانقطع مسلكه[٣]. وما أن وصل المسلمون إلى الفج وعاينوا استعدادات لذريق عنده حتى أقاموا معسكرهم بإزاء معسكره؛ وعبأوا قواتهم واستعدوا لمنازلته، ثم نهضوا إلى لقائه وتلاقوا معه فى قتال عنيف أظهروا فيه شجاعة نادرة، وأفشوا القتل فى قواته بحيث وقع الاضطراب فى صفوفها فانكشفت عن الخندق؛ واضطرت إلى الانسحاب من غير نظام إلى هضبة مجاورة تحتمى فيها، فلاحقتها القوات الإسلامية دون أن ترفع السيف عنها فى مطاردة استمرت من الضحى حتى وقت الظهيرة، وقوات لذريق جادة فى التراجع حتى وصلت إلى نهر إبرة، فاقتحمته تحت ضغط المسلمين فى غير مخاضة بحيث غرق منها خلق كثير. وحينذاك رأى المسلمون أن يتوقفوا عن مطاردتهم وعادوا إلى الفج فردموا الخندق الذى يعترضه ثم سلكوه فى غير خوف أو ضغط من أعدائهم[٤]، الذين تفرقت جموعهم بهزيمتهم هزيمة ساحقة، ووقعت فى الأسر منهم جماعات وأبيدت كثرتهم بمن قتل منهم، بحيث خلف المسلمون وراءهم من رءوسهم عشرين ألف وأربعمائة اثنين وسبعين رأسا[٥]، وإن قللهم ابن الأثير والنويرى[٦] إلى ألفين وأربعمائة اثنين وتسعين رأسا فقط، أما ابن حيان فلم يحددها واكتفى بالقول أنها كانت أعدادا عظيمة[٧]؛ وبهذا النصر أمن الجيش الإسلامى طريق عودته إلى قرطبة.

---

(١) ابن عذارى أعلاه، وإن كان ابن الأثير والنويرى يسميانه باسم ؛ المركوين ، أنظر : أعلاه .

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣١٩.

(٣) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٨ – ٩٩؛ وابن حيان، أعلاه.

(٤) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ٩٩؛ ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣١٩ – ٣٢٠؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٣٢٩؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ص ٥٥.

(٥) ابن عذارى أعلاه.

(٦) أنظر على التتابع، الكامل، ٥ ص ٣٢٩؛ نهاية، ٢٢/١ ص ٥٥.

(٧) المقتبس، تحقيق مكى ، ص ٣١٩.

كان لهذا النصر الساحق الذى حققه المسلمون على قوات أشتوريس فيما عرف بموقعة المركوير فى الثانى عشر من رجب عام ٢٥١هـ/ التاسع من أغسطس عام ٨٦٥م، أثر مباشر فى إضعاف قوة أهل إقليمى ألبة والقلاع ضعفا شديداً؛ بسبب ما نالهم فيه من نهب وقتل وأسر أعجزهم عن إمكانية التجمع أو الاحتشاد لصد هجوم إسلامى جديد، قاده ضدهم عبد الرحمن ابن الأمير فى العام التالى ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م، بحيث تمكن من إفساد زروعهم التى لم يغادرها إلا هشيماً [١]، وتقدم فى بلادهم دونما مقاومة إلى أن بلغ مدينة أماية Amaya التى كان أردونيو قد عمرها وقوى تحصيناتها من سنوات قليلة مضت، ونجح عبد الرحمن فى الإيقاع بحاميتها وقتل أعداداً كبيرة من أهلها ثم عاد إلى قرطبة [٢]، بعد غزوة يمكن أن توصف أنها تقليدية لاستعراض القوة وحسب ، دون أن تقع فيها معركة حاسمة.

أما الملك أردونيو فلم تواتيه فرصة إنجاد أهل ألبة والقلاع لصد تلك الحملة الأخيرة، أو الانتقام من المسلمين بهجوم مضاد على أراضى الأندلس؛ إذ كان وقتذاك طريح الفراش يصارع آلام النقرس [٣] ولم يلبث أن وافته المنية فى السابع والعشرين من شهر مايو من نفس عام ٨٦٦م[٤] (الثامن عشر جمادى أول عام ٢٥٢هـ)؛ وكان ابنه الأكبر الفونسو الذى أعده ليخلفه على العرش غائبا عن العاصمة أوبييدو [٥] ، فطارت إليه أنباء وفاة والده وعاد مسرعا، حيث تمت ترتيبات اختياره خلفا لأبيه[٦]،

---

(١) ابن عذارى ، نفسه، ٢ ص ٩٩.

(٢) ابن الأثير، نفسه، ٥ص ٣٣٥؛ الذى يرسم اسم المدينة على شكل (مانة) وهو بلاشك تصحيف لاسم أماية.

(٣) أنظر : Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 297; Prim. Cron General, ed. Pidal, 2p 366; Cron. Geral de Espanha, ed. Cintra, 2p 423.

(٤) Cron. Albeldense, ed. Florez, p 453; Cron. Sebastiani, ed. Florez, p 489; Chron. Léonaise, ed. Cirot, pp 399 - 400. ؛ وقد دفن فى أوبييدو فى كنيسة سانتا ماريا التى كان قد أسسها الفونسو الثانى ونص نقش مقبرته هو : " Ordonius Ille Princeps Quem Fama Loquetur Cuique Reor Similem Secula Nulla Ferentingens Consiliis Et Dexterae Belliger Actis Omnipotensque Tuis Non Reddat Debita Culpis Obiit Sexto Kal Iunii Era DCCCCIIII " ، أنظر : Vigil, op cit, 1 pp 9 - 10; Hubner, op cit, p 80 No 251; Risco, Esp Sagr, 37 p 204. ؛ وإن كان ابن الأثير (نفسه، ٥ ص ٣٣٩) يؤخر وفاته عامين فيجعلها عام ٢٥٤هـ، فهو خطأ لا شك فيه؛ وأنظر الملاحق .

(٥) Prim. Cron. General, ed Pidal, 2 p 367; Cron Silense, ed Florez, p 284; Cron. Geral de Espanha, ed. Cintra, 2 p 424

(٦) Cron Silense, ed. Florez, p 284; Cron. de Lucas, ed. Puyol, p 298.

فارتقى العرش ولم يكد يجاوز من العمر ثمانية عشر عاماً [١]، وهو الذى لقب بالفونسو الكبير El Magno وعرف بالثالث El Tercero تمييزا له عن كل من الفونسو الأول والثانى.

وما كاد الفونسو الثالث هذا يتربع على عرش مملكة أشتوريس حتى هب ضده نبلاء إقليم جليقية فى ثورة جامحة، قادتهم فيها شخصية طموحة مغمورة يدعى صاحبها فرويلة برموديث Fruela Bermúdez كونت مدينة لوجو الجليقية . وما يميز هذه الثورة أنها لم تهدف إلى الاستقلال بإقليم جليقية عن سلطان مملكة أشتوريس كما كان شأن الثورات السابقة عليها، وإنما احتجاجا من النبلاء على اقتصار عرش المملكة على سلالة الدوق بدرو الكانتبرى، وعلى استئثار نبلاء البلاط فى إقليم أشتوريس من دونهم باختيار الملوك الجدد من تلك الأسرة؛ ولذلك كانت هذه الثورة محاولة لنقل الزعامة فى المملكة من إقليمى أشتوريس وكنتبرية إلى إقليم جليقية. ومما يؤكد ذلك أن أحداث الثورة لم تقع فى إقليم جليقية وإنما فى إقليم أشتوريس؛ إذ بعدما نظم فرويلة قائد الثورة صفوف الثوار زحف بهم إلى هذا الإقليم فباغت المدينة الملكية واقتحم القصر الملكى وفرض نفسه على العرش بالقوة دون أن يواجه مقاومة من جانب الفونسو الثالث ؛ الذى لم تكن قد تمت سيطرته الكلية على زمام الأمور، بحيث إنه لم يجد مفرا من إخلاء البلاط والفرار من أوبييدو ناجيا بنفسه إلى إقليم القلاع فى أقصى الشرق، لاجئا إلى قريبه الكونت لذريق يستعين به على مقاومة المغتصب لاسترداد العرش، فأعد الأخير قواته على التو وكر بها على أوبييدو حيث انضمت إليه فيها أنصار الفونسو ومؤيدوه؛ فازدادت بهم أعداد قواته زيادة مكنته من الوثوب على المغتصب فرويلة واغتياله فى داخل القصر الملكى؛ وبذلك أعيد الفونسو الثالث إلى عرشه مع أواخر العام الأول من حكمه [٢].

---

(١) أنظر : Cron Albeldense, ed. Florez, p 453 ؛ وهى أقدم المدونات وكان كاتبها معاصرا لألفونسو الثالث؛ ومع ذلك فهى تخالف غيرها من المدونات فى هذا التحديد، فترى بعضها أن الفونسو لم يجاوز ثلاثة عشر عاما وقت اعتلائه العرش، أنظر: Chron. Léonaise, ed Cirot, p 400, Cron Silense, ed. Florez, p 284 ؛ فى حين تجعلها بعضها الآخر أربعة عشر عاما ، أنظر : Cron. de Lucas, ed. Puyol, p 298; Cron Sampiro, ed. Florez, p 438; Chron. Lusitanum, ed. Florez, p 403; Prim. Cron General, ed. Pidal, 2p 367; ويبدو أن هذا الاختلاف راجع إلى احتساب أصحاب هذه المدونات للسنوات الأربع التى كان فيها الفونسو حاكما على إقليم جليقية فى حياة أبيه؛ فى حين احتسب مؤرخ مدونة البلدة – وكان معاصراً له – عمره من تاريخ اعتلائه العرش منفرداً عقب وفاة والده، أنظر فى ذلك : Risco, Esp Sagr, 37 pp 210 - 211; Cotarelo, op cit, pp 105 - 107.

(٢) Chron Albeldense, ed Florez, p 453; Cron . Sampiro, ed Florez, p 438, Cron de Lucas, ed. Puyol, p 298, Chron. Lusitanum, ed Florez, p 403; Cron Geral de Espanha, ed Cintra, 2p 426

كان من المتوقع أن تستقيم الأمور على الفونسو الثالث باسترداده العرش، لولا أن انقلب عليه فجأة بشكنس إقليم ألبة فى أقصى الشرق [١]- مثلما انقلبوا على والده أردونيو من قبل وهو فى بداية عهده أيضاً- ربما بسبب ضجرهم مما نال بلادهم فى السنوات السابقة من تخريب وتدمير من جراء غارات المسلمين المتكررة دونما حماية كافية من ملوكهم. وعلى أية حال وقف الفونسو الثالث من هذه الثورة موقفا مغايرا عن موقفه من ثورة نبلاء إقليم جليقية؛ إذ لم يتوان عن حشد قواته وقوات الكونت لذريق وتولى بنفسه قيادتها نحو بؤرة الثورة، وما أن ظهر أمام الثوار حتى تملكهم فزع ورعب دفعهم إلى الاستسلام له دونما مقاومة، وقدموا له- على حد تعبير المصادر الإسبانية- فروض الطاعة والولاء دون قيد أوشرط، بحيث دفعوا إليه بزعيم الثورة إيلون Eylon فكبله بالأغلال وعاد به إلى عاصمته أوبييدو[٢]. إلا أن طاعتهم لم تكن صادقة فلم يلبثوا أن نقضوا طاعته خلال العام الثالث من حكمه [٣] أى فى النصف الأخير من عام ٨٦٨م / ٢٥٤هـ؛ ولما لم تفلح معهم الملاينة اضطر إلى استخدام القوة فأخضعهم بها لسيطرته بقية عهده[٤] الذى امتد حتى عام ٩١٠م / ٢٩٧ - ٢٩٨هـ .

كانت ظروف تلك الاضطرابات مواتية للأمير الأندلسى محمد لكى يضاعف من حدة التوتر فى أشتوريس، فأعد جيشا قود عليه ابنه الحكم [٥] وبرفقته القائد خالد ابن خالد [٦]؛ هاجما به إقليم ألبة فى عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، وجالا فى أراضيه حتى وصلا إلى حصن جرنيق Gernica وحاصراه ومازالا به حتى دكاه وفتحاه عنوة ثم عادا إلى قرطبة[٧] . ومع ذلك لم يستطع الأمير مواصلة نشاطه الحربى ضد أشتوريس فى أعقاب تلك الحملة، إذ تكاثر عليه أهل الشقاق فى الأندلس ونجمت الفرقة فى كل ناحية من نواحيها[٨]؛ فاختلت أمورها اختلالا مزق أوصالها لاسيما فى مناطق الثغور المجاورة لأشتوريس، فانصرف نشاط الأمير كلية إلى احتواء هذا الاضطراب الداخلى الذى حاولت أشتوريس الاستفادة منه لصالحها؛ ومن ثم ارتبط نشاطه الحربى ضدها ارتباطا وثيقا بمجريات الأحداث فى مناطق الثغور الأندلسية.

---

(١) عن هذه الثورة أنظر : Cron Sebastiani, ed Florez, p 487; Cron Alfonso III, ed Villada, p: 80, 127, Cron Cardena II, ed Huici, 1 p 378.

(٢) Cron Sampiro, ed Florez, p 438, Cron, del Rodrigo, ed Fuensanta, p 298; Prim Cron. General, ed Pidal, 2 p 368; Cron Geral de Espanha, ed Cintra, 2 p 427.

(٣) Prim Cron General, ed. Pidal, 2p369, Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 300.

(٤) Cron. Albeldense, ed. Florez, p 453.

(٥) ابن عذارى ، البيان، ٢ ص ٩٩؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣٢٠.

(٦) ابن حيان ، نفسه، ص ٣٢١.

(٧) ابن عذارى وابن حيان أعلاه؛ ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٣٣٧.

(٨) ابن القوطية ، تاريخ، ص ١٠٧؛ ابن حيان ، نفسه، ص ٣٤٣.

فقد غدر أهل مدينة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط بالأمير من جديد، وأطلت الثورة فيها عام ٢٥٧هـ[١]/ ٨٧١م ، وحاربهم الأمير بنفسه مرتين فى العامين التاليين[٢]، حتى أجبرهم على أن يلقوا إليه بطاعتهم ويقدموا رهائنهم ويؤدوا قطيعا من العشور فى كل عام؛ وفى المقابل خيرهم فيمن يوليه عليهم من أنفسهم؛ وإن لم يكن ذلك بالحل الجذرى إذ اختلفت أهواؤهم على اثنين تنازعا الأمر فيما بينهما[٣]، وبقيت الفتنة تضرب بأطنابها بين أهل المدينة بصورة شجعت أحد مغامرى مدينة شنت برية Castro de Santaver من مدن وادى الحجارة - ويدعى موسى بن ذى النون - إلى استغلالها ليستولى على حكم المدينة، فأغار عليها وآذى أهلها، ثم دارت بينه وبين قوات الأمير منازلات على مدى سنوات تالية[٤]، انتهت باستقلاله فى إقليم طليطلة بموافقة الأمير نفسه.

وليت الأمر قد اقتصر على استقلال عاصمة الثغر الأوسط وإقليمها عن سلطان قرطبة؛ وإنما كانت قد سبقتها فى نفس الاتجاه مدينة ماردة Mérida قاعدة الثغر الأدنى؛ وأعلنت الثورة منذ عام ٢٥٢هـ / ٨٦٦م بزعامة أحد المولدين ويدعى عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقى[٥]، الذى يوصف بأنه : كان ذا بأس شديد وكيد عظيم إلى دهاء ومكر وبعد بالشر لا يلحقه فيهن أحد من نظرائه[٦]. ومع أن الأ مير تمكن من احتواء ثورته فى ذات العام [٧] فلم يحل ذلك دون استمرار اختلال أحوال المدينة؛ فغزاها الأمير بنفسه فى شوال من العام التالى ، وأقام فيها ينسف عمرانها حتى ذى القعدة[٨]؛ ثم عاود غزوها على غرة فى عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م ، لكنه فشل فى اقتحام أسوارها لمنعتها ومدافعة أهلها؛ فاضطر إلى دك أسوارها وحصونها ولم يبق فيها إلا على القصبة لتكون مقرا لحاكمها وحاميته؛ ثم دخل المدينة وناشب أهلها القتال حتى هزمهم، فتقبض على زعماء الثورة وحملهم هم وذراريهم معه إلى قرطبة وعلى رأسهم عبد الرحمن نفسه[٩]، ليفل من شوكة المدينة بتجريدها من زعمائها.

---

(١) ابن حيان ، نفسه، ص ٣٢٦.

(٢) أعلاه ص ٣٢٨.

(٣) أعلاه ص ٣٢٩ - ٣٣٠؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠١؛ النويرى ، نهاية، ١/٢٢ ص ٥٥.

(٤) عن هذه المنازلات قارن : ابن حيان، نفسه، ص ٣٣٠ - ٣٣١؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٧٠، ٣٧٢.

(٥) عنه أنظر : الحميدى، جذوة، ص ٢٦٠؛ ابن حيان، المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق أنطونية، باريس ١٩٣٧م، ص ١٥؛ Codera, op cit, 9 p1 Sqq

(٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

(٧) ابن حيان ، أعلاه ، ص ٣٢٠.

(٨) نفسه، ص ٣٢١.

(٩) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠٠؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣٢١ - ٣٢٢؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٣٩.

وبذلك خيم السكون على ماردة لكن لسبع سنوات فقط؛ عاد بعدها الاضطراب في المدينة ومعها كل نواحي الثغر الأدنى إلى سابق غليانه، وبصورة أشد منذ عام ٢٦١هـ/ ٨٧٤م فصاعدا، على إثر ما ألحقه الوزير هاشم بن عبد العزيز[١] بعبد الرحمن من إهانات استبلغ فيها في خزيه، حتى أنه صفعه على قفاه وقال له : «الكلب خير منك »[٢]؛ وهي إهانة لم يتحملها عبد الرحمن أو رجال ماردة النازلون معه في قرطبة؛ بحيث إنه حينما واتتهم الفرصة لم يترددوا في الهرب من قرطبة، لاجئين إلى قلعة الحنشAlange [٣] الواقعة إلى الجنوب الشرقي من ماردة ، فنزلوا بها متحصنين فيها لمناعتها؛ ومنها أخذوا يغيرون على أهل الطاعة بكل سبيل وناحية ، فأوقعوا بكل من وجدوه أو عثروا عليه من رجال الأمير محمد، وأرجلوهم عن خيلهم وسلبوهم أمتعتهم وجردوهم من ثيابهم، وامتدوا إلى خيل من جاورهم من العرب والبربر فأخذوها منهم، حتى اجتمع لهم في ثلاثة أيام فقط نحوا من خمسمائة فرس حملوا عليها رجالهم وقووا بها شأنهم، وأفزعوا الناس منهم حتى تهاربوا أمامهم من البسائط إلى الحصون، ومن هناك توالت رسلهم على الأمير محمد يستغيثون به من عبث وعيث قوات عبد الرحمن [٤]؛ الذي أعلن نفسه قائد الانفصال في منطقة الغرب الأندلسي.

والحقيقة أن الأمير لم يتباطأ في إنجاد هؤلاء المستغيثين، وعلى الفور قاد قواته في الخامس من شعبان عام ٢٦١هـ/ الخامس عشر من مايو ٨٧٥م قاصدا قلعة الحنش حيث ابن مروان ورفاقه ؛ الذين ما أن سمعوا بخروج الأمير إليهم حتى قرروا الاستعانة على حربه بأحد أصحابهم وهو سعدون بن فتح المعروف بالسرنباقي [٥]؛ وكان يعيش هو وأصحابه وقتذاك في مدينة برتقال[٦](Oporto الحالية) في كنف الفونسو الثالث ملك أشتوريس؛ فخاطبوه وأوقفوه على حالهم وسألوه العون ضد قوات

---

(١) أصله من موالي عثمان بن عفان، اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في سواه من أهل زمانه ، حتى عظم قدره عند الأمير محمد، وصار أخص وزرائه، وأسند إليه أمور البلاد وعساكرها، أنظر: ابن سعيد ، المغرب ، ١ ص ٥٢ – ٥٣، ٢ ص ١٩٤؛ ابن الأبار ، الحلة، ١ ص ١٣٧ وما بعدها.

(٢) ابن عذاري ، البيان ، ٢ ص ١٠٢؛ ابن الخطيب، تاريخ ، ٢ ص ٢١.

(٣) عنها أنظر : ابن حيان ، المقتبس، تحقيق مكي، ص ٦٣٢ هامش ٥٧٨.

(٤) ابن حيان، أعلاه ، ص ٣٤٦ – ٣٤٨.

(٥) أنظر: ابن حيان ، المقتبس، تحقيق أنطونية، ص ١٥؛ وان كان يسميه في مكان آخر باسم سعدون بن غار أنظر : المقتبس، تحقيق مكي، ص ٣٤٩؛ أما ابن عذاري (البيان، ٢ ص ١٠٢) فيسميه سعدون الرماري أو المرماري.

(٦) تقع قرب مصب نهر دويرة على مسافة ثمانين ميلا إلى الشمال من مدينة قلمرية، أي في الأرض الخالية الفاصلة بين أشتوريس والأندلس، وكانت ذات أسواق عظيمة وأبواب منيعة، أنظر : مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ٥٥.

الأمير الزاحفة نحوهم[١]. وكان من الطبيعي أن يستأذن سعدون حاميه الفونسو، فلما عرض عليه الأمر انتهز الأخير الفرصة التي واتته دون سعي منه؛ لكي يشتت المسلمين ويشيع الفرقة بينهم ، فينتقم بذلك من الأمير على غزو إقليم ألبة من قبل في عام ٢٥٣هـ / ٨٦٧م. ولذلك أذن لسعدون في إمداد ابن مروان ضد الأمير كما أمده بقوات من أشترريس، سارع بها سعدون حتى لحق بابن مروان وتحصن معه بداخل الحصن إلى أن وصلت القوات الإسلامية في اليوم العشرين من شعبان عام ٢٦١هـ/ الثلاثين من مايو ٨٧٥م.

لم يشأ الأمير محمد أن يجرب أسلوب الملاينة مع ابن مروان ورفاقه المنشقين، وإنما ضرب الحصار على القلعة وأمطرها بوابل من المجانيق على مدى ثلاثة أشهر وعشر أيام متصلة؛ حتى أرهق المدافعين عنها وضيق عليهم بأن منع عنهم الماء والمؤن حتى فنيت مؤنهم فأكلوا الدواب، ولما ضاقوا ذرعا بالحصار اضطر زعيمهم ابن مروان إلى أن يستجير بعبد الله ابن الأمير، ووسطه في الشفاعة له عند أبيه، فألح الإبن على أبيه إلى أن منح ابن مروان الأمان على أن ينصرف وقومه من القلعة إلى بطليوس Badajoz، وكانت وقتذاك قرية صغيرة خالية من الحصون فينزلون بها ويعمرونها[٢] بهدف أن يشغلهم عن مناوأته؛ وبذلك فوت الأمير على الفونسو الثالث الفرصة ، فعادت قواته وعلى رأسها سعدون إلى أشتوريس ثانية دون أن تحقق شيئا.

أما ابن مروان فقد ظل حذرا كثير الاحتراس من الأمير، يدس عليه جواسيسه في قرطبة ذاتها يتعرفون أخباره ويرصدون حركاته أولا بأول، فلا يكاد يغيب شيئا منها عن ابن مروان، الذي اجتهد في ذات الوقت في تحصين بطليوس لإعدادها للمقاومة والدفاع عن نفسه؛ فبنى فيها حصنا آوى فيه أهل ماردة وغيرهم من أهل المكانفة على الشر، بحيث لم تلبث هذه البلدة القديمة أن تحولت مع ابن مروان إلى معقل حصين ومركز لنشاطه الثوري ضد الأمير، حتى أنه حينما أحس في نفسه القوة على مناوأته نقض طاعته من جديد [٣]. ولاجدال في أنه كان يرتكن في هذا أيضا على استعداد الفونسو الثالث تقديم المعاونة له وقتما يطلبها.

وإزاء هذا التحدي، أعد الأمير محمد حملة كبيرة بالغ في الاستعداد لها بحيث حشد فيها أهل الكور، وأوكل قيادتهم إلى ابنه المنذر ومعه الوزير هاشم الذي كان قد

---

(١) ابن حيان ، نفسه، تحقيق مكي، ص ٣٤٩ – ٣٥٠.

(٢) أنظر: ابن حيان، نفسه، تحقيق مكي ، ص ٣٥١ – ٣٥٦؛ ابن عذاري، نفسه، ٢ ص ١٠٢؛ ابن الأثير، نفسه، ٦ ص ٧. وبطليوس مدينة قديمة على نهر آنة من أعمال ماردة، أنظر : الحميري، صفة، ص ٤٦؛ البكري، جغرافية، ص ١٢١ – ١٢٢؛ ابن سعيد ، المغرب، ١ ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

(٣) ابن حيان، نفسه، تحقيق مكي، ص ٣٥٦.

أهان ابن مروان فى قرطبة من قبل ؛ فلما اكتملت استعدادات الحملة تحركت من قرطبة فى شعبان من عام ٢٦٢هـ/ مايو ٨٧٦م ، وهى تسرع الخطى إلى مقر ابن مروان فى بطليوس ؛ لكنها قبل أن تصل إلى ابن مروان كانت جواسيسه قد سبقوها وأعلموه بزحفها نحوه ، فبادر وأرسل رسوله إلى سعدون فى أشتوريس يسأله الإقبال ثانية لنصرته؛ فى الوقت الذى تأهب هو فيه لملاقاة قوات الأمير خارج بطليوس إلى حين وصول المساعدة المنشودةمن سعدون ؛ وقصد مع أتباعه إلى حصن كركر Albuquerque[1] الواقع إلى الشمال من بطليوس، واعتصم به فى انتظار قوات الأمير التى كانت قد وصلت إلى بطليوس وعلمت بإخلاء ابن مروان له ؛ فجدت فى إثره تنسف كل ما مرت به وتقتل من وجدته فى طريقها حتى وصلت إليه فى حصنه ، فى صدر رمضان/ التاسع والعشرين من مايو؛ فحاصرته حصارا شديدا لم تتوقف فيه عن ضرب الحصن بالمجانيق ليلا أو نهارا حتى قضت على مؤنه ، ولم يبق لابن مروان وأتباعه مايقتاتون به إلا الدواب والهوام والكلاب فأتوا عليها حتى نفدت ؛ فاستداروا إلى لحوم قتلاهم فأكلوها[2] وضاقت بهم الحال، ومع ذلك فقد ظلوا يقاومون والأمل يراودهم فى وصول إمدادات سعدون والفونسو لإنجادهم مما هم فيه من بلاء.

لم تصل قوات سعدون بالسرعة المتوقعة حتى أوشكت قوات ابن مروان على التسليم، لكن حدث وقتذاك ما غير الموقف فجأة لصالح ابن مروان ؛ إذ وصلت إلى المنذر والوزير هاشم رسل مدينة قلمرية Coimbra - أول مدن الثغر الأدنى الأندلسى المواجهة لإقليم جليقية من أقاليم أشتوريس - تحذرهما من سعدون وتخبرهما بأن حامية المدينة تصدت لما رافقه من قوات واعترضت طريقها، فى محاولة للحيلولة دون وصولها إلى ابن مروان؛ فاشتبكت معها فى معركة عنيفة تمكن فيها سعدون - بمن معه من قوات غفيرة من الفرسان والراجلة والرماة - من إعمال السيف فى رقاب حامية المدينة حتى فتك بها وهزمها وعقر خيلها. وقد حمست تلك الرسل المنذر وهاشم على أن يثأرا لقتلى الحامية بأن حملت معها ثياب قتلاها المدماة ، فأثار منظرها الحمية فى نفس هاشم وتحمس للقاء سعدون والانتقام منه؛ فترك المنذر مقيما على حصار ابن مروان، ونهض هو متعجلا السير إلى سعدون فى قلة من الخيل دون تعبئة ولا أهبة، واقتحم عليه الوعر وأساء الحركة فتمكنت منه قوات سعدون حين اللقاء، بحيث أوقعت به هو الآخر فى معركة حامية قتلت فيها خمسين من أشراف

(١) عن موقعه بتفصيل أنظر : Codera, op cit, 9 p.52 No 3

(٢) ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٦٠ وما بعدها.

جنده، وأصابت هاشم نفسه وأسرته فى الثانى عشر من شوال عام ٢٦٢هـ[(١)]/التاسع من يوليو ٨٧٦م.

وصلت أنباء تلك الهزيمة القاسية إلى المنذر وهو بحاله مقيم على حصار ابن مروان فى كركر، وحينذاك أظهر الحزم وتمادى فى حربه ثلاثة أيام متصلة بأشد مما سلف؛ بهدف أن يثأر لما حل بهاشم وبجنده، إلا أن الأخير كاتب المنذر وقتذاك بضغط من سعدون يرجوه ويشير عليه بوقف محاربة ابن مروان والرحيل عنه، وإزاء ذلك اضطر المنذر إلى الاستجابة لرغبته وانصرف بجنده إلى قرطبة[(٢)]؛ وبانسحابه انفسح الطريق لسعدون فتقدم حتى وصل إلى ابن مروان فى حصنه، ومنه زحفا على مدينة لشبونة Lisboa [(٣)] وهاشم فى أسرهما، فأغارا عليها واكتسحاها وانتهبا أطعمتها وعاثا فيها فسادا بقية عام ٢٦٢هـ [(٤)]/ ٨٧٦م.

انتهت بذلك مهمة سعدون فى إنجاد ابن مروان حتى أنه أسلم إليه هاشما، لحرص الأخير على الاحتفاظ به طمعا فى أن يصالح عليه الأمير محمدا، ويستأمنه به على نفسه وقومه؛ لا سيما وأن هاشم نفسه تعهد لابن مروان بذلك وضمنه له [(٥)]، لكن حينما حانت ساعة انصراف سعدون إلى أشتوريس راجع نفسه فاستدرك خطأه فى تخليه عن هاشم. وخشى من غضب الفونسو الثالث عليه إذا ما عاد بدونه؛ خاصة وأن أصحابه لاموه على تسليم هاشم لابن مروان، وذكروه بفضل الفونسو عليهم وإيوائه لهم وتوسيعه لهم فى بلده، وحذروه من تغير نفسية الفونسو عليهم جميعا قائلين: «فالله الله فى أن تغير علينا نيته!» [(٦)]، وحينذاك بدأت المساومة بين سعدون ورفيقه ابن مروان على هذا الأسير؛ وهى مساومة انفرد المؤرخ ابن حيان بذكر تفاصيلها فى نص واضح دقيق، فيبين كيف اختلى سعدون بابن مروان وحادثه فيما بدا له سائلا إياه أن يعيد إليه أسيره، ليحمله إلى الفونسو الثالث ويفتخر على النصرانية بأسره، فلم يخذل ابن مروان رفيقه فيما سأله وأوجب عذره فى إعادة هاشم

---

(١) قارن: ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٤٤، ٣٦٨ وما بعدها؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣؛ ابن الخطيب، تاريخ، ص ٢١؛ ابن القوطية، تاريخ، ص ١٠٨؛ وقد أشار إلى تلك الهزيمة بصورة عابرة: ابن سعيد، المغرب، ١ ص ٥٣، ٢ ص ٩٤.

(٢) ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٣) مدينة أزلية قرب مصب نهر تاجة، أنظر: مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ٥١؛ الحميرى، صفة، ص ١٦ - ١٨؛ ابن غالب، تعليق منتقى، ص ٢٩١.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣٧٥.

(٥) ابن حيان، أعلاه، ص ٣٧٦.

(٦) نفسه، ص ٣٧٧.

قائلا له : « معاذ الله أن نرضى لك ولقومك بما يلحق بكم غضاضة، ويدخل عليكم غم ساعة ، فضلا عما تتوقعونه من إهلاككم وإجلائكم عن بلد استقرت فيه حالكم وأمن به سربكم، وما هذا جزاء بلائكم عندنا ولاحق مشاركتكم إيانا، لو احتجتم إلينا لوقيناكم بأنفسنا وفديناكم بأولادنا وأموالنا، وإنما كنا رجونا بأخذه معنا وصرفه عن صاحبه أن يستأمن لنا به ، ليردنا إلى بلدنا الذى أخرجنا عنه على مانشترطه عليه، فإذا تخوفتم ما ذكرتموه من الطاغية الذى أنتم فى كنفه فأنتم أحرى بأخذه منا وأولى ، بورك لكم فيه! » [1] ثم دفع بهاشم إلى سعدون.

شكر سعدون لابن مروان مروءته ثم ودعه وانصرف والفرحة تملأه على استعادة هاشم ، وجد فى السير به إلى أشتوريس ليقدمه إلى الفونسو دليلاً على النصر، فيدخل الفرحة إلى نفسه ويزداد رضاه عنه؛ ومن نفاد صبر سعدون كان يستبطئ الساعات ولم يطق الانتظار حتى يصل إلى الفونسو، فكتب إليه رسالة تسبقه برسول يزف فيها الخبر ويبشره بما فتح الله له بهزيمة قوات الأمير وأسر قائده وأنه قادم به عليه [2] .

تلقى الفونسو الرسالة وسر بمحتواها أيما سرور، فتعجل هو الآخر لقاء سعدون وأسيره، بحيث أنه أرسل من قبله رسولا إلى سعدون يأمره بالإعجال إليه بهاشم والنهوض به نحوه دون تأخير؛ فأغذ سعدون السير تلبية لأوامر مليكه حتى وصل إلى مقر البلاط الملكى فى أوبييدو بالسرعة الممكنة، وهناك كانت الأوامر قد صدرت إلى حجاب القصر بأن يدخلوه على الملك فور وصوله فأدخلوه عليه بهاشم، وحينما وقعت أنظار الملك عليه طار به الفرح أى مطير، وظهرت عليه الفرحة بوقوعه فى أسره، فشمخت نفسه وتعاظم على النصرانية، فلما باشر هاشم ووقف على براعته وحلاوة شمائله « استحلاه جدا وخف على قلبه وأصغى إلى حديثه وأكثر الخلوة به، فقلما كان يقعد لأهل مملكته أو يتفرغ لطعامه وشرابه إلا ومعه هاشم ... ويعتمد بمشورته، فصار مقامه لديه عاليا »[3].

هذا النص الفريد يدلنا على مدى مابهر به هاشم عيون الفونسو الثالث ورجال بلاطه، من لباقة وذكاء وسعة ثقافة ورقة طباع؛ وهى صفات أكدها لنا ابن الأبار فى قوله: « إنه اجتمعت فيه خصال لم تجتمع فى سواه من أهل زمانه، إلى ماكان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة وقرض الأشعار البديعة »[4].

---

(١) نفسه، ص ٣٧٧ – ٣٧٨.
(٢) نفسه، ص ٣٨٧.
(٣) نفسه، ص ٣٧٨ – ٣٧٩.
(٤) الحلة، ١ ص ١٣٧.

كما يدلنا على مالقيه هاشم من معاملة طيبة وهو فى أسره ؛لاسيما وقد كانت له - إلى جانب صفاته هذه - مكانته العالية فى الأندلس؛ ومن ثم شمخت نفس الفونسو بأسره .

ومع تلك المعاملة الطيبة التى لاقاها هاشم فى أسره الذى استطال مدة عامين، كان من الطبيعى ألا يتوانى الأمير محمد عن إعمال الحيلة فى افتكاكه، إذ كان وزيره الأثير على الرغم مما كان يبديه أحيانا من التبرم لسوء تصرفه، حتى إنه حينما وقع فى الأسر وقع الأمير على ذلك بقوله : « هذا أمر جناه على نفسه بعجلته وطيشه »[١]؛ وعلى الرغم أيضاً من استغلال خصوم هاشم تلك المحنة لإظهار الشماتة به وإساءة القول فيه عند الأمير [٢] . ولم تكن محاولات الأمير افتكاك هاشم من أسره تتم بصورة مباشرة؛ وإنما كان يدس من أهل هاشم إلى الفونسو من يستأمنه لفدائه وإطلاق سراحه؛ كما جعل مكاتباته إلى الفونسو بهذا الشأن على أنها من أهل هاشم نفسه وليس منه[٣]؛ ومازال الأمير يجرب تلك الوسائل حتى نجح فى إطلاق سراحه لقاء فدية قدرتها المصادر الإسلامية [٤] بمائة وخمسين ألف قطعة ذهبية، وإن قللتها الروايات الإسبانية إلى مائة ألف قطعة فقط، وأضافت أن هاشم ارتهن فى دفعها اثنين من أهله هما ابنه وابن أخيه[٥]، فأطلق سراحه فى عام ٢٦٤هـ/ ٨٧٧ - ٨٧٨م[٦]؛ وهو مايدل على أن قيمة الفدية كانت كبيرة، بحيث ناءت بدفعها أسرة هاشم فتحمل الأمير دفعها عنهم[٧]؛ ووقرت بذلك عينه على ما قام به خفية فى سبيل إطلاق سراح وزيره الأثير.

أما ابن مروان فكان قد عظم أمره وبسط فى الرعية وقطع السبل وأفسد فى

---

(١) ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٢١؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠٣.

(٢) كان من أبرز هؤلاء الخصوم مؤمن بن سعيد، أفحل شعراء قرطبة الذى كان يهاجى ثمانية عشر شاعرا فيعلوهم ، وكانت آفته التهكم بالناس وتتبع زلاتهم وتمزيق أعراضهم ، فنظم قصيدة فى الشماتة بهاشم، أسرها هاشم له إلى ما بعد اطلاق سراحه ، فنصب له حبائل السعاية عند الأمير محمد فحبسه وطال حبسه إلى أن مات فيه يائسا عام ٢٦٧ هـ، أنظر : ابن سعيد، المغرب ، ١ ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٣٨٦ .

(٤) ابن القوطية ، تاريخ ، ص ١٠٨ ؛ ابن حيان ، نفسه ، ص ٢٤٤ ؛ ويكتفى ابن سعيد بالقول أنه افتدى لقاء أموال عظيمة أنظر : المغرب ، ١ ص ٥٣ .

(٥) قارن : Cron Sampiro, ed. Florez, p 440; Cron Albeldense, ed Florez, p 454, 461; Cron de Lucas, ed Puyol, p 302.

(٦) ابن الخطيب ، تاريخ ، ٢ ص ٢١ ؛ ابن عذارى ، نفسه ، ٢ ص ١٠٣ .

(٧) أنظر تعليق مكى على كتاب المقتبس لابن حيان ، ص ٣٨٦ هامش ٧ .

الأرض وعلا علوا كبيرا، فوطئ بالغارات كورة إشبيلية Sevilla ولبلة Niebla وباجة Beja وأكشونبة Oconoba وماياليها؛ وملك جبلا منيعا بأكشونبة يقال له منت شاقر[1]، وتوافد إليه أهل الشر من كل ناحية؛ لكنهم لم يلبثوا أن سئموا البلاء والفتنة فاختلفوا عليه وانصرفوا عنه[2]، وبقى هو وحيدا فى خاصته؛ فضاقت به الأرض لاسيما بعدما غزته فى بطليوس قوات الأمير التى قادها ابنه المنذر وخربت ديارها فى عام ٢٦٣هـ/ ٨٧٦ - ٨٧٧م[3]، فاشتدت مخافته ولم يجد عند المسلمين مكانا يؤويه أو يستقر فيه ، وحينذاك قرر أن يسلك سبيل خليله سعدون فى مفارقة المسلمين والالتجاء إلى أعدائهم فى أشتوريس، فخاطب الفونسو الثالث يستجديه أن يتقبله ويتوسع له فى أرضه وينزله ببعض أطراف بلاده[4].

وصلت رسالة ابن مروان إلى الفونسو وهو فى مدينة ليون León، فى وقت ملائم قبيل صيف عام ٢٦٣هـ/ ٨٧٦ - ٨٧٧م؛ إذ كان قد انتهى لتوه من إخضاع ثورة أخيه فرويلة Fruela فى مدينة أستورقة Astorga وقبض عليه وعلى كل من تواطأ معه من إخوته الآخرين، ثم أودعهم السجن بعدما سمل عيونهم[5]؛ ولذلك كان على استعداد لتبنى مثل هذه الحركات الانفصالية، فسر بما خاطبه به ابن مروان وأعاد إليه رسوله ومعه كتاب يفيد تقبل الفونسو استجداءه وإجابته إلى ما سأل؛ مع الوعد بإقطاعه والتوسعة عليه، ويأمره بالتعجيل فى القدوم نحوه، وزيادة على ذلك بعث الفونسو إليه خيلا مع بعض قواميسه لتلقيه وإخراجه من الأندلس إليه ، فعبرت تلك العساكر وادى تاجة وشنت الغارات فى نواحيه حتى وصلت إلى مقر ابن مروان فتلقاها؛ ثم رافقها هو وجميع من معه من أتباعه يشقون طريقهم إلى أشتوريس[6].

وما أن وصل ابن مروان ورفاقه إليها حتى تقدم فى خاصته إلى العاصمة أوبييدو للقاء الفونسو، الذى رحب به وأدناه منه وبسط أمله قائلا له : « دونك بلدى انزل فيه بحيث شئت، وتوسع منه وقومك حيثما أحببت، فلا منازع لك فيه ! ولك

---

(١) ابن القوطية ، نفسه ، ص ١٠٨ ؛ ابن حيان ، المقتبس، تحقيق مكى ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ . يرى كوديرا أنه جبل Monte Seco أو Secor أى الجبل اليابس دون أن يحدد موضعه ، أنظر : Codera, op cit, 9 p37، أما ليفى بروفنسال فيعتقد أنه الجبل المقدس Monte Sacro القريب من بلدة فارو التى كان العرب يسمونها شنتمرية الغرب أو أكشونبة (أنظر Histoire , Ip 208)؛ ويرى مكى فى تعليقه على كتاب المقتبس لابن حيان (ص٦٢٧ هامش ٥٧٤) أنه سلسلة جبال Sierra de Monchique الممتدة شمال مدينة شلب قرب الساحل الجنوبى الغربى لإيبيريا .

(٢) ابن حيان ، نفسه ، ص ٣٨٠ -٣٨١ .

(٣) ابن عذارى ، نفسه، ٢ ص ١٠٣ .

(٤) ابن حيان ، نفسه ، تحقيق مكى، ص ٣٨٢ .

(٥) Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 302; Cron Sampiro, ed Florez, p 349, Cron de Lucas, ed. Puyol, p 301.

(٦) ابن حيان ، نفسه ، تحقيق مكى ، ص ٣٨٢ .

عندى بعد ما أردت ، واختار له حصن بطرلسة؟ [1] على وادى دويرة بالعدوة القصوى من ليون، فنزل ابن مروان فيه بمن معه وانبسط فى عمارة ماحوله ،[2] بحيث تركوا آثارا واضحة فى تلك البقعة تدل عليها كثرة الأعلام الجغرافية ذات الأصل العربى لاسيما قرية Vezdemarban أى فحص مروان [3].

وليس إلى الشك سبيل فى أن قبول الفونسو الثالث لابن مروان وأشباهه من الخارجين على طاعة الأمير الأندلسى كسعدون السرنباقى، وإيوائه لهم وإنزالهم فى أراضيه إنما كان لحرصه على الايقاع بين المسلمين حتى تنبسط أيدى أمثال هؤلاء الثوار فى بلاد الأندلس، واستخدامهم للإغارة على ثغورها والعمل على اضطراب أمورها. ثم إن إقطاعه لهم إقطاعات فى أطراف بلاده - فى المساحة الخالية المهجورة من حوض نهردويرة الفاصلة بين الأندلس وأشتوريس - كان بغرض أن يجعل منهم حاجزاً ينوب عنه فى صد الهجمات الأندلسية والدفاع عن أطراف بلاده؛ فضلا عن الاستفادة بهم فى تنفيذ مخططه الذى يرمى إلى تعمير تلك الأطراف، للوصول بحدود أشتوريس إلى نهر دويرة فى الجنوب وتوطيد سلطانه فيها، وهو مخطط أولى الفونسو تنفيذه عناية فائقة منذ أن اعتلى عرش المملكة .

وقد رأى الأمير محمد فى معاونة الفونسو الثالث لابن مروان ثم إيوائه له لاستغلاله ضده جرأة متناهية لن يتراجع عنها إلا بالقوة وحدها؛ ولذلك عزم على الانتقام منه بغزوه فى عقر داره، فأعلن النفير العام واستجمع قواته وأغزاها إليها فى نفس عام ٢٦٣هـ / ٨٧٦ - ٨٧٧م ؛ فى حملة وردت أنباؤها فى الروايات الإسلامية والإسبانية على السواء ، وإن كان يوجد بينهما اختلاف فى التفاصيل؛ وربما يكون من المفيد أن نورد نصوص تلك الروايات ليسهل علينا مقارنتها ببعض.

وأهم الروايات الإسلامية هى رواية المؤرخ ابن حيان، وإن كان قد وقع - لسوء الحظ - قطع فى مخطوطه ذهب بما يتصل بأوليات الحملة؛ وماتبقى منه يتعلق بأخبار نهايات الحملة فقط، ونصه : « .. عسكره رابطة من روابط المسلمين، فجمعت أهل الكور، وخرجت مبطنة - أى تسلك بطون الأودية - طامعة فى لحوق الصائفة

---

(١) يحتمل قراءته بطريسة ، أنظر : تحقيق مكى لكتاب المقتبس أعلاه ، ص ٣٨٣ هامش ٢ ، وفى صفحة ٦٥٥ هامش ٦١٥ يخلص المحقق إلى أنه من الصعوبة التكهن بموضع هذا الحصن رغم تحديد ابن حيان له على وادى دويرة فى أطراف مملكة أشتوريس ، ويفترض أنه ربما يكون الموضع المعروف فى وقتنا الحاضر باسم لا بدراخا La Padraja إلى الجنوب الغربى من مدينة ليون شمال نهر دويرة .

(٢) ابن حيان ، نفسه، حقيق مكى، ص ٣٨٣ ،

(٣) أنظر بتفصيل : مكى فى تعليقه على كتاب المقتبس لابن حيان ، ص ٦٥٦.

وهم فى نحو سبعمائة فارس، فخرج عليهم الفاسق عبد الرحمن بن مروان بمن معه من المشركين، وهم قد بعدوا عن لحاق العسكر، فأوقع بهم فى موضع يعرف بالبربرية، وصبر له المجاهدون فقاتلوه قتالا شديدا حتى قتلوا من المشركين عدة، ثم كثرهم أعداء الله فقتلوا الرابطة عن آخرهم، وحلت بالمسلمين فيهم مصيبة عظيمة، فهى الوقيعة المعروفة هنالك بالبربرية إلى اليوم » [١].

وتلى هذه الرواية فى الأهمية رواية المؤرخ ابن الأثير، التى ترتكز أهميتها على أنها تعين على استكمال ما ذهب من نص ابن حيان خاصا ببدايات الحملة، وإن كنا سنلاحظ أن ابن الأثير يخالفه فى بعض التفصيلات لاسيما فى أعداد السرية التى خرجت لتلحق بالصائفة، فيقول ابن الأثير: « وفيها - أى فى عام ٢٦٣هـ - سير محمد صاحب الأندلس ابنه المنذر فى جيش كثيف، وجعل طريقه على ماردة، فلما جاوز ماردة إلى أرض العدو تبعه تسعمائة فارس من العسكر، فخرج عليهم جمع كثير من المشركين قد استظهر فاقتتلوا قتالا كثيرا صبروا فيه، وقتل من المشركين عدد كثير، ثم استظهر ابن الجليقى ومن معه من المشركين على التسعمائة فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم على آخرهم، أكرمهم الله بالشهادة »[٢].

كذلك أشار ابن خلدون إلى تلك الحملة، بقوله : « وفى سنة ثلاث وستين - ومائتين - أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب ،وجعل طريقه على ماردة وكان بها ابن مروان الجليقى، ومرت طائفة من عسكر المنذر بماردة فخرج إليهم ابن مروان ومعه جمع من المشركين استظهر بهم، فقتل تلك الطائفة عن آخرهم »[٣]. وواضح أن تلك الرواية ليست إلا إيجاز غير دقيق لروايتى ابن حيان وابن الأثير، إذ لم يكن ابن مروان وقتذاك مقيما فى ماردة وإنما فى مملكة أشتوريس فى كنف الفونسو الثالث؛ وبالتالى فلا يصدق ماتوهمه ابن خلدون من أن اللقاء بين ابن مروان وبين طائفة المسلمين قد وقع فى مدينة ماردة قاعدة الثغر الأدنى الأندلسى.

ثم هناك الرواية العارضة التى رواها الخشنى عن تلك الحملة ، فى ترجمته لقاضى الجماعة عمرو بن عبد الله، الذى ولى القضاء للمرة الثانية فى عام ٢٦٠هـ / ٨٧٤م وظل فى هذا المنصب « إلى أن غزا وليد بن هاشم - كذا ، والصواب: الوليد ابن غانم - الغزاة التى تعرف بغزاة البرير، فغزا القاضى عمرو تلك الغزاة » [٤].

وبمقارنة الروايات الإسلامية السابقة يتضح أن الأمير محمدا كان قد أعد

---

(١) المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٣٥٤ .

(٢) الكامل ، ٦ ص ١٥ - ١٦ .

(٣) العبر ، ٤ ص ٢٨٦ .

(٤) قضاة قرطبة ، ص ٨٣ .

لجيش إسلامي بهدف غزو أراضي أشتوريس، لكنه تعجل تسييره قبل أن يكتمل توافد جند إحدى الكور الأندلسية؛ فتحرك الجيش من قرطبة تحت إمرة ابنه المنذر وبرفقته القائد وليد بن غانم والقاضي عمرو بن عبد الله فى صيف عام ٢٦٣هـ/ ٨٧٧م؛ فاجتاز إلى مدينة ماردة ومنها واصل زحفه مع الطريق الذى ينتهى عند قلعة أستورقة – أول القلاع الأشتورية ناحية الجنوب – فاقتحم منها أراضى أشتوريس. وبدلا من أن تتابع تلك الروايات الحديث عن مدى تقدم هذا الجيش فى أراضيها وإنجازاته فيما أوفد من أجله، فقد تتبعت جند إحدى الكور وكانوا فى سبعمائة أو تسعمائة فارس؛ وفدوا إلى قرطبة بعد مغادرة الجيش لها بوقت يكاد يكون طويلاً، فخرجوا في إثره ليلحقوا به فى الطريق وسلكوا وراءه بطون الأودية التى أوصلتهم إلى داخل أراضى أشتوريس فى اتجاه مدينتى ليون وأستورقة ، من طريق غير طريق الجيش الرئيسى فلم يوفقوا فى اللحاق به أو الالتقاء معه، ومن سوء حظهم أن كمن لهم ابن مروان بجمع كبير من رفاقه وحلفائه نصارى أشتوريس عند مكان يسمى البربرية أو البربر Polvoraria على ضفاف نهر أوربيجو Orbigo أحد روافد نهر دويرة، وانقض عليهم عنده فاشتعلت بينهما معركة عنيفة دافع فيها فرسان تلك السرية عن أنفسهم دفاعا مستميتا، وجالدوا قوات ابن مروان الغفيرة حتى قتلوا منها أعدادا غير قليلة، لكنها لكثرتها أطبقت عليهم حتى أبادتهم عن آخرهم، وحلت بالمسلمين هزيمة شنيعة فى تلك الموقعة التى نسبت إلى المكان الذى دارت عليه فعرفت بموقعة البربرية.

ومن الطبيعى ألا يغفل المؤرخون الإسبان عن ذكر هذا الانتصار المسيحى [(١)] بما عهد عنهم من مغالاة وتهويل؛ نترك النصوص الإسبانية تكشفها لنا من خلال نصين نوردهما كنمط للمصادر الإسبانية؛ وأولهما رواية مدونة البلدة .Crón Albeldense كأقدم مدونة كتبت بعد وقوع الحملة بسنوات قليلة لم تجاوز ست سنوات، ونصها بما ترجمته : «أن المنذر بن الأمير محمد قدم بجيش عربى من قرطبة ومعه القائد ابن غانم نحو مدينتى أستورقة وليون لمهاجمتهما، وفى أعقابه وصل جيش عربى آخر من نواحى مدن طليطلة وطلمنكة ووادى الحجارة وما فى نواحيها من مدن وقلاع، فتلاقى الملك الفونسو مع هذا الجيش الأخير فى معركة عند البربرية على نهر أوربيجو، وقاتله حتى هزمه وقتل من أفراده ثلاثة عشر ألفا، ولما وقف المنذر على أنباء تلك الهزيمة عمل على مهاجمة قلعة سوبلانثيا Sublancia

---

(١) Cron de Lucas, ed Puyol p 299, Cron del Rodrigo, ed Fuensanta, p 301, Prim Cron General, ed Pidal, 2 p 370; Cron Geral de Espanha, ed Cintra 2pp 431 - 432

فزحف إليها ، إلا أن الملك الفونسو استجمع قواته وسبقه إليها فأقام فيها حتى وصل المنذر بجيشه ودارت بينهما ملحمة قاسية، نجح فيها الفونسو من إفساد خطة المنذر وإجباره على الفرار قبل بزوغ النهار » (١).

أما النص الثاني فمن مدونة الأسقف سامبيرو Crón. Sampiro التي كتبت في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر الميلاديين، واعتمدت عليها المدونات اللاحقة لها اعتمادا وصل إلى حد نقل عباراتها نقلا يكاد يكون حرفيا؛ وجاءت روايتها عن نفس الحملة بما ترجمته: « أن جيشا عربيا قدم من قرطبة نحو مدينتى ليون وأستورقة ليدمر فيهما كنيسة الله، كما قدم جيش عربي آخر من نواحي مدينة طليطلة وغيرها من مدن الأندلس، ولكن سرعان ما وصل نبأ زحفه إلى الفونسو عن طريق عيونه، فتنكب السيف في غاية الحذر، وتمكن بفضل العناية الإلهية أن يوقع الهزيمة بالجيش الأول، وحينذاك كان قد وصل الجيش الثاني إلى البربرية فاندفع الفونسو نحوه دون أن يعبأ بقواته الغفيرة، وكمن له في غابات المنطقة على نهر أوربيجو فانقض عليه وقتل منه اثنى عشر ألفا وهزمه، ثم سارع الفونسو إلى ملاحقة فلول الجيش الأول في هروبهم نحو وادى مورا Mora ، فطاردهم ووضع السيف على رقابهم حتى قتلهم جميعا دون أن ينجو منهم أحد سوى عشر أفراد، تمكنوا من الاستخفاء مضرجين بالدماء بين جثث القتلى » (٢).

---

(١) Ed Florez, p 454 ونصها اللآتيلى : " Ipsisque diebus, Sub Era DCCCCXVI, Almundar Filius Regis Mahomat Cum Duce Ibenganim atque hoste Sarracenorum Ex Cordoba Ad Asturicam at Legionem Venit. Sed Manus Idem Hostis Ex Adverso Exercitum Sequens Quit Erat De Toleto, Talamanca, Vathlelhara, Val De Aliis Castris, Sub Uno XIII, Millia In Locum Polboraria Apud Flubium Urbicum a Principe Nostro Interfecti Sunt Idem Almundar ad Castrum Sublantium Volens Pertendere, Cognovit Quod Gestum Fuerat In Polhoraria, Etiam Comperiens, Quod Rex Noster Jam In Sublantio Castro Cum Omni Exercitu Eum Bellaturus Expectabat, Metuens Retro Ante Lucentem Diem Vertitur In Fugam ".

(٢) Ed. Florez, p . 440. ونصها اللآتيلى : Per Idem Fere Tempus Exercitus Cordubensis Venit Ad Civitatem Legionensem, Atque Astoricensem Et Exercit Toletanae Urbis, Atque Alium Ex Aliis Hispaniae Civitatibus Post Urbem In Eum Venientem, In Unum Secum Aggregari Voluit, Ad Destruendam Dei Ecclesiam, Sed Prudentissimus Rex Per Exploratores Omnia Noscens, Magno Consilio Dei Juvante, Instat Adjutus· Nam Cordubense Agmen Post Tergum Relinquens, Sequenti Exercitui Obuiam Properavit Illi Quidem Prae Multitudine Armatorum Nil Metuentes, Polvorariam Tendentes Venerunt. Sed Gloriosissimus Rex Ex latere Sylvae Progressus, Irruit Super Eos In praedictum Locum Polvorariae, Juxta Flumen Cui Nomen Est Urbicum. Ubi Interempti Ad XII Millia Corruerunt Ille Quidem Alius Exercitus Cordubensis Vallem De Mora Venit Fugiendo, Rege Vero Eos Persequente, Omnes Ibidem Gladio Interempti Sunt. Nullus Inde Evasit Praeter Decem Involutus Sanguine Inter Cadavera Mortuorum "

وعلى هذا النحو، أوردت المدونتان الإسبانيتان وغيرهما من المدونات اللاّحقة لهما أخبار الحملة الإسلامية على أشتوريس فى صيف عام ٢٦٣هـ/٨٧٧م؛ وهى روايات نقلها على علاتها كثير من المؤرخين الأوربيين الحديثين وعلى رأسهم الإسبان [١] فى أبحاثهم عن هذه الحملة؛ وإن قاموا بالتوفيق بين ماجاء فى تلك المدونات من تضارب وتناقض فى بعض الجزئيات.

لكن نظرة محايدة إلى الروايتين السابقتين توضح مدى تضخيمهما فى حجم الهجوم الإسلامى على أشتوريس فى تلك الحملة؛ بحيث جعلت المسلمين يهاجمونها بجيشين كبيرين، واعتبرتا السرية الإسلامية المتواضعة التى خرجت للحاق الجيش الرئيسى وكأنها جيش آخر ثانى مستقل عنه؛ وبالغتا فى أعداد القتلى المسلمين وفى تقدير خسارتهم وفى دور الفونسو فى صد هذا الهجوم وإحباطه، وأهملت دور ابن مروان ربما على اعتبار أن ما قام به فى التصدى للسرية الإسلامية وهزيمتها كان لحساب الفونسو.

ومع ذلك ، فلو جردنا هاتين الروايتين من مغالاتهما وتهويلهما، فهما تتفقان مع الرواية الإسلامية فى هزيمة السرية الإسلامية فى معركة البربرية؛ وتكملان ماشاب الرواية الإسلامية من نقص فيما تعلق بمصير الجيش الإسلامى الرئيسى ومدى تقدمه فى أراضى أشتوريس، فأوضحتا أنه وصل إلى مدينتى أستورقة وليون والقلاع المجاورة التى أقامها الفونسو فى تلك الناحية تدعيما لإمكانيات دفاعاتها، مثل قلعة سوبلانثيا التى قبعت فيها القوات المسيحية بقيادة الفونسو نفسه فى انتظار الجيش الإسلامى الرئيسى الذى قاده المنذر، فاشتعلت بينهما رحى معركة ربما كانت فى غير صالح المنذر؛ أو أن يكون المنذر قد آثر الانسحاب قبل أن تبدأ خشية تطويق القوات المسيحية له؛ فطاردته قوات الفونسو حتى أخرجته بقواته من أراضى أشتوريس. وأيا كان الأمر فقد عادت القوات الإسلامية من تلك الحملة بعدما حاقت بها هزيمة شنيعة، وهى هزيمة لم ينكرها المؤرخون المسلمون أنفسهم.

لم تمنع تلك الهزيمة الأمير محمد من معاودة غزو أشتوريس فى صيف العام التالى ٢٦٤هـ/٨٧٨م، ولكنه لم يستطع أن يجمع لهذه الغزوة كل قواته العسكرية إذ كانت تحارب وقتذاك عماله المخالفين عليه فى الثغر الأعلى وحلفاءهم فى

---

(١) من أمثال : Cotarelo, op cit , pp 261 - 265; Sanchez Albornoz, " La Batalla de Polvoraria " Anal Uni Madrid 1932, 1 pp 225 - 238 ؛ وهذه الدراسة الأخيرة أردفها البورنوث بمقال كملاحظات عنت له عن تلك الحملة بعنوان: "Notas al Relata de la Batalla de Polvoraria" فى كتابه : Origénes, 3 pp 703 - 707

بمبلونة[١]؛ ولذلك لم يتمكن من حشد أى قوات سوى قوات غربى الأندلس فقط - أى الثغر الأدنى وحدها - وعهد بقيادتهم إلى قائده البراء بن مالك ؛ فسار بهم من مدينة قلمرية أقصى ثغور المسلمين فى الغرب حتى دخل إقليم جليقية واقتحم أراضيه؛ ويضيف ابن عذارى[٢] أنه تردد هناك حتى أذهب نعيم المسيحيين؛ مما يفهم منه أن الحملة قد كللت بالنجاح. وإن كان ابن الأثير يشير إلى أنه وقعت بينه وبين القوات المسيحية وقعة عظيمة قتل فيها من الطائفتين كثير[٣]، دون أن يبين ما إذا كان النصر حالف المسلمين من عدمه؛ وإن كان يفهم منه أن المسلمين قد كثرت فيهم الخسائر. أما ابن حيان فلم يحل تلك المشكلة واكتفى بوصف المعركة وصفا مبهما بقوله إن البراء أوقع بالمسيحيين في معركة ضرلسه [٤] ، هكذا ، أى شديدة شرسة، أو أنه يشير بها إلى اسم موضع المعركة؛ وبالتالى فغموض نص ابن حيان ومظنة التحريف فيه لاتسمح لنا بتبين حقيقة نتيجة المعركة بين الجانبين، وإن كنا نعتقد أنها لم تحقق الهدف الذى أرسلت من أجله؛ رغم تصريح ابن حيان بأن البراء أوقع بالمسيحيين فى المعركة .

كانت نتيجة فشل حملتى الأمير محمد على أراضى أشتوريس فى عامى ٢٦٣ - ٢٦٤هـ/٨٧٧ - ٨٧٨م أن غلت مراحل الغضب فى رأس الفونسو وتشجع على الانتقام؛ فغزا أراضى الثغر الأدنى المواجهة لإقليم جليقية فى صيف عام ٢٦٦هـ/٨٨٠م ، فى حملة لم يشر إليها من المؤرخين المسلمين سوى ابن حيان[٥]، تفيد أن الفونسو حشد لها عسكرا كثيفا من نصرانية بلاده؛ وانضم إليها ابن مروان بكل قواته المستأمنة معه فى أشتوريس، وخرجت تلك الجموع الكبيرة تحت قيادة الفونسو نفسه تبغى وطء بلاد المسلمين، فأظهر الفونسو أنه قاصد إلى طليطلة قاعدة الثغر الأوسط للتمويه على القوات الإسلامية؛ ولذا فما أن جاوز وادى تاجة حتى أمر الأدلاء بالعدول إلى ماردة بلد ابن مروان وقاعدة الثغر الأدنى، فاجتاحت قواته أراضى هذا الثغر ووصلت خيوله إلى حصن دويل Adobales الواقع جنوب شرقى مدينة بطليوس؛ وكان قد اعتصم به أهل الإقليم فاقتحمته ونازلتهم حتى فتحته، وسبيت أهله بعدما قتلت منهم خلقا كثيرا.

ومن الملفت للانتباه ألا يسجل المؤرخون الإسبان بدورهم أنباء تلك الحملة

---

(١) عن تلك الحملة أنظر : ابن حيان ، نفسه ، تحقيق مكى ، ص ٣٨٥ ؛ ابن الأثير ، نفسه ، ٦ ص ١٩ ؛ ابن خلدون ، نفسه ، ٤ ص ٢٨٦ ؛ Textos Inéditos del Muqtabis, pp 312, 314.

(٢) البيان، ٢ ص ١٠٣.

(٣) الكامل، ٦ ص ١٩.

(٤) المقتبس ، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٨٥.

(٥) أعلاه، ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

الجريئة، باستثناء أقدمهم صاحب مدونة البلدة Crón. Albeldense ؛ وإن كانت روايته عنها تحوى بعض المبالغة المعهودة فى الروايات الإسبانية فإنها تتفق فى بعض تفاصيلها مع الرواية الإسلامية؛ إذ تذكر أن الملك الفونسو جمع قواته وقادها بنفسه إلى الأندلس لمحاربة العرب، فاقتحم إقليم لوزيتانيا Lusitania – أى المنطقة الغربية من الأندلس، وهو لفظ قديم كان يطلق على جنوبى إقليم جليقية وشمال البرتغال ولازال يستخدم حتى وقتنا الحاضر للدلالة على البرتغال – واخترق منطقة نفزة Nepza – نسبة إلى قبيلة نفزة البربرية فيما بين مدينة ترجالة Trujillo ووادى آنة Guadiana – وتقدم حتى حدود ماردة وجاوزها جنوبا بعشرات الأميال حتى وصل إلى جبل Oxiferio؛ أحد سلاسل جبال مورينا Sierra Morena الممتدة إلى الشمال من مدينة قرطبة ؛ وهو مدى لم يصل إليه أحد من ملوك أشتوريس قبل الفونسو الثالث، وهناك انتصر على أعدائه العرب انتصارا ساحقا، وقتل منهم مايزيد عن خمسة عشر ألفا ثم عاد إلى بلاده[1].

وبمقابلة تلك الرواية مع الرواية الإسلامية السابقة يتضح اتفاقهما فى وقوع الحملة، وتوغلها فى أراضى الثغر الأدنى حتى جنوب وادى آنة، وإيقاع الفونسو ببعض مامر عليه من بلاد؛ ثم هزيمته لقوات إسلامية فى معركة ربما هى التى دارت عند حصن دويل المشار إليه فى الرواية الإسلامية، وكانت خسائر المسلمين فيها عظيمة، وقتلاهم كثيرة وإن لم تصل بحال من الأحوال إلى تلك الأعداد الخيالية التى تقدمها الرواية الإسبانية.

كان لتلك الحملة وقع أليم عند ابن مروان رغم مشاركته فيها لألفونسو، إذ أنها أصابت بلده ماردة ونواحيها؛ وعز عليه ما أحدثه الفونسو فيها وفى أهلها من تخريب وإبادة وأسر وتشريد؛ فثاب إلى رشده وتغيرت نفسيته عليه حتى كرهه، وهو كره لاحظه الفونسو بنفسه؛ وقرر أن يفاتح ابن مراون فيه، فاستدعاه إليه وقال له : «ماشك أنه قد ساءك وطؤنا لبلدك، وأخذنا لمن فى هذا الحصن من قومك؛ وشريعتنا تضطرنا إلى رفع الهوادة واعتماد أولى الشوكة». ولم يكن أمام ابن مروان إلا أن ينافق فى رده عليه وينفى له ما يظنه فيه، فرد عليه بقوله: «أيها الملك، وكيف يسوؤنى ما كان إليك منهم وأنت تعلم أنهم عدو لى؛ والذين نفونى عن وطنى؛ وغدروا بى وخلونى طريدا فى البلاد لا قرار بى». فبادره الفونسو قائلا : «بلى، فإنه

---

(١) Ed Florez, pp 454 - 455

قد ظهر عليك وعلى قومك لانقباضك وانقباضهم عما كنتم تنبسطون إليه فى غير قومكم، وأنت معذور فى أهل ديانتك مطلوب بالوفاء بعهدك؛ فلا يتغيرن لنا ضميرك، فإنا لم نقصد مساءتك ». واضطر ابن مروان ثانية أن يظهر التبرؤ مما ظنه به الفونسو والقبول لما اعتذر عنه؛ وإن لم تغير كلمات الفونسو من نفسيته، وارتحل إلى حصنه وغيظه منه لايدانيه شعور بحيث ظل مدة مقاطعا له، مستوحشا منه مذيعا من غدره ؛ مذكرا بقبيح فعله[١]، مما أدى إلى وقوع القطيعة بينهما فساءت علاقتهما .

وكان على ابن مروان أن يغادر أشتوريس هو وقومه إلى الأندلس ثانية فى عام ٨٨٥م/٢٧٢هـ فنزل ببطليوس، ولكنه لما كان يخشى الأمير محمدا فقد تحصن بجبل أشبرغزة Esparragos المجاور[٢]؛ بحيث لم تتمكن قوات الأمير من الظفر به[٣]، فلما أعيا أمره الأمير دارت بينهما مفاوضات اضطر فيها الأمير مكرها إلى مهادنته والاعتراف به حاكما على بطليوس والمنطقة المحيطة بها[٤]؛ ولم يجد خليفتا الأمير محمد - وهما المنذر وعبد الله - مناصا من إقراره على استقلاله بتلك الناحية المنيعة، ولم تنتزع منه إلا فى عهد خليفتهما الأمير عبد الرحمن الثالث فى بداية القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، مثلها فى ذلك مثل منطقة الثغر الأوسط.

أما بالنسبة لأشتوريس فقد وصل الأمير محمد إلى مرحلة اليأس فى النيل منها برا، ولذا فكر فى أن ينزل بها ضربة جريئة لم يفكر فيها أحد من الأمراء قبله؛ وذلك بغزوها بحرا من ناحية ساحل إقليم جليقية فى الغرب، بعدما وجد من بين رؤساء أسطوله من زين له ضمان نجاح هذا المشروع وسهولته، فقيل له : « إن بلد جليقية من ناحية البحر عورة لامعقل لها ولاحصن، وأن ساحلها نزهة لمن قصده [٥] »؛ وأن «أهلها لايمتنعون من جيش إن غشيهم من تلك الناحية » [٦]، فطمع الأمير وأنشأ المراكب فى نهر قرطبة أى الوادى الكبير، فلما اكتملت قطعها قود عليها عبد الملك بن عبد الله بن مغيث، وعقد لواءه فى المسجد الجامع بعد أن قرأ عليه القراء على عادتهم [٧] .

---

(١) أنظر : ابن حيان ، نفسه ، تحقيق مكى، ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٢) عن موقعه أنظر : Lévi - Provençal, Histoire, 1p 298 No3.

(٣) ابن عذارى، نفسه ، ٢ ص ١٠٥ ؛ ابن الأثير، نفسه، ٦ ص ٦٠.

(٤) عن تلك المفاوضات أنظر : ابن القوطية ، نفسه ، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٥) ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٩٨.

(٦) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠٤.

(٧) أعلاه، ٢ ص ١٠٣ ؛ ابن حيان، نفسه ، تحقيق مكى، ص ٣٩٨.

وتجمع المصادر الإسلامية على أن هذا الأسطول قد تحرك فى نهر قرطبة قاصدا شاطئ إقليم جليقية فى عام ٢٦٦هـ/ ٨٧٩ - ٨٨٠م أى خلال عهد الفونسو الثالث، فى حين تصر الروايات الإسبانية - باستثناء مدونة تاريخ العرب Historia Arabum للذريق Rodrigo [١] ومدونة تاريخ إسبانيا العام Primera Crón. General لألفونسو العاشر Alfonso X [٢] - على جعل تلك الغزوة البحرية فى أواخر عهد سلفه ووالده أردونيو Ordono دون تحديد تاريخ بذاته[٣]، وهو خلاف يصعب تبريره، وإن كنا نميل فيه إلى تحديد الرواية الإسلامية بالعام المذكور.

وعلى كل فما كاد يخرج هذا الأسطول من الوادى الكبير ويدخل مياه البحر المحيط أى المحيط الأطلسى حتى « قضى الله بالخيبة فيما قصد بإرساله، وخسران الإنفاق عليه » [٤]، إذ تولته عواصف شديدة بعثرت مراكبه ومزقتها شر ممزق بحيث لم يجتمع بعضها إلى بعض، وغرق أكثر من فيها من الناس إلا قائدها ابن مغيث، فقد سلم مع فل يسير عاد به إلى قرطبة ثانية[٥]. أما الروايات الإسبانية السابقة فتسير بأحداث تلك الغزوة سيرة أخرى، وتجعل الأسطول يصل سالما إلى ساحل جليقية وهناك يتصدى له الملك الأشتورى بنفسه ، أو أحد قواده ويدعى الكونت بدرو Pedro، فى معركة عنيفة حال بها دون إرسائه على الشاطئ، بعدما قتل طاقمه فولى بقية أفراده مهزومين.

وسواء اعترض ملك أشتوريس طريق هذا الأسطول الإسلامى فأوقع به كما أرادت الرواية الإسبانية، أو أن العاصفة هى التى فرقت سفنه وحطمتها مثلما ذهبت الرواية الإسلامية ، فلم يغير هذا من حقيقة فشل تلك المحاولة البحرية الأولى للنيل من أشتوريس، بحيث كانت أول وآخر محاولات أمراء الأندلس لغزوها بحراً، ومن ثم ظل الصراع بين الدولتين صراعا برياً، وإن لم يقتصر على أراضيهما المصاقبة لحوض نهر دويرة على النحو السابق ذكره، وإنما كان قائما بينهما أيضا فى الشرق فى حوض نهر إبرة الذى تجاورت فيه أراضى كل من الدولتين.

ذلك أن الخطر الذى هيأه أبناء موسى بن موسى من أسرة بنى قسى بتطلعاتهم

---

(١) Ed Sanchez, p 45.

(٢) Ed. Pidal, 2 p 376 - 377، الذى يجعل قائد الحملة عبد الحميد.

(٣) Cron. Albeldense, ed. Florez, p 435; Chron Lónaise, ed. Cirot, p 400.

(٤) ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٩٨.

(٥) ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٩٩؛ ابن عذارى، نفسه ٢، ص ١٠٤؛ ابن الأثير، نفسه ٦ ص ٢٥؛ النويرى، نهاية، ٢٢/ ١ ص ١٥٦؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٨٦.

إلى الانفصال بالثغر الأعلى عن سلطان الأمير محمد، كان فرصة نادرة استغلها الفونسو ليضعف بقدر الإمكان من سلطة الأمير فى هذا الثغر الهام؛ الذى كان قاعدة لمعظم الحملات الإسلامية فى غزوها لإقليمى ألبة والقلاع من أقاليم أشتوريس. ولذلك تقرب الفونسو من أفراد تلك الأسرة الطموحة - أبناء موسى - وهم لب Lupe وفرتون Fortún ومطرف Mutarrif واسماعيل، وشجعهم على مواصلة مناوأة الأمير وتحدى سلطانه حتى كشفوا وجوههم بالخلاف عليه، وتمكن لب من السيطرة على مدن الثغر الأعلى كله بعدما أخرج منها عمال الأمير محمد، ثم ولى إخوته على حكم بعض مدنه، فعهد إلى مطرف بحكم مدينة وشقة Huesca، وإلى اسماعيل بحكم مدينة سرقسطة Saragossa[١]. وتعبيرا عن ثقة الفونسو بهؤلاء المنشقين فقد عهد إلى إسماعيل وفرتون بتربية وتثقيف ابنه الأمير أردونيو Ordono[٢]؛ الذى سيرتقى العرش فيما بعد وعرف بأردونيو الثانى.

ولكى يقوى الفونسو من جبهة المعارضة ضد الأمير محمد فى حوض نهر إبرة فقد وطد أيضا علاقته بأمراء بمبلونة، وصاهر أحدهم فتزوج ابنته وتدعى دونيا خيمينا Dona Jimena[٣]، وهى التى أنجب منها أبناءه الذين خلفوه على العرش؛ وفى ذات الوقت زف أخته ليوديجندا Leodegunda إلى أحد أفراد البيت الحاكم البمبلونى[٤]، وبذلك نجح فى إدخال علاقات مملكته مع بمبلونة مرحلة من التعاون الوثيق، بنفس قدر نجاحه فى تكوين محور ثلاثى ضد الأمير محمد فى حوض نهر إبرة.

وكان من الطبيعى ألا يقف الأمير محمد مكتوف الأيدى أمام هذا المحور الخطير الذى نتج عنه انفصال الثغر الأعلى عن سيطرته؛ ولذلك عمل على إحباط فعاليته وفصم عراه واستعادة سيطرته على الثغر الأعلى بالقوة العسكرية وحدها. ولما كان هذا الثغر يشكل أهمية استراتيجية فائقة لمواجهة أراضى كل من بمبلونة فى الشمال وأشتوريس فى الغرب، فقد وجه الأمير نشاطه الحربى أولا ضد بنى قسى فى الثغر الأعلى لاستعادته منهم أولا ولعزلهم هم وأمير بمبلونة عن تحالفهم مع الفونسو

---

(١) أنظر : العذرى ، نصوص، ص ٣١ - ٣٢؛ ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٢٦؛ ابن عذارى ، نفسه ، ٢ ص ١٠٢؛ Textos Inéditos del Muqtabis, p 312

(٢) Chron. Alheldense, ed. Florez, p 455.

(٣) Cron Sampiro, ed Florez, p 438 - 439, Cron Silense, ed. Florez, p 285; Cron de Lucas, ed Puyol, p 300 ; Chron. Léonaise, ed Cirot, p 401 .

(٤) Textos Navarros, p 255، وعن هذا الزواج أنظر على سبيل المثال : Urbel, Lo Viejo y Lo Nuevo, pp 31 - 34

فى أشتوريس ثانياً ، فإذا ما تم له ذلك ركز نشاطه وقوته ضد أشتوريس باعتبارها رأس الأفعى.

وقد اعتقد الأمير أنه بهذا التخطيط - الذى لن يبعثر فيه قواته أو يشتت جهده ضد أعضاء التحالف الثلاثى فى وقت واحد - يمكن أن يتغلب على أطراف التحالف فى وقت قصير ودون جهد كبير؛ لكن فمن سوء طالعه أن سارت الأمور على غير ماتمناه،إذ ما كاد يفرغ من حملتين متتاليتين على الثغر الأعلى وبمبلونة فى عامى ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م و ٢٦٠هـ / ٨٧٤م دون نتيجة حاسمة سوى النهب والتخريب[١]؛ حتى اضطربت عليه جنبات الأندلس بسلسلة من الثورات والفتن الداخلية، لاسيما ثورة عمر بن حفصون[٢] زعيم المولدين فى كورة رية Reiyo بالجنوب الأندلسى؛ وهى ثورة كانت من الشدة والقوة بحيث وصفت بأنها « طمت على جميع فتن الأندلس بعمومها وامتداد أيامها، ورفع أهل الشر رءوسهم نحوها »[٣] ؛ حتى صار ابن حفصون - بتعبير المؤرخ ابن حيان - إمام الثوار وقدوتهم وأعلاهم ذكرا فى الباطل وأضخمهم بصيرة فى الخلاف وأشدهم سلطانا، وأعظمهم كيدا وأبعدهم أثرا[٤]. وهو ما أجبر الأمير على أن يؤجل نشاطه الحربى ضد بنى قسى فى الثغر الأعلى وضد بمبلونة ليصرفه فى المقام الأول إلى إقرار هذا الاضطراب الداخلى؛ ومن ثم لم يعاود غزوهما إلا عامى ٢٦٤هـ / ٨٧٨م و ٢٦٥هـ / ٨٧٩م فى حملتين [٥] لم تسفرا أيضا عن نتائج ذى بال بالنسبة لبنى قسى فى الثغر الأعلى؛ وإن يبدو أنهما نجحتا فى عزل بمبلونة عن التحالف مع أشتوريس تحت تأثير ما أحدثته الحملتان من تخريب وتدمير فى بلادها، فآثرت أن تنفض يدها من هذا التحالف أو أن تقف منه موقفا سلبيا، بحيث لم نعد نسمع عن تعاونها مع الفونسو الثالث فى أى نشاط حربى ضد الأندلس إلا بعد ذلك بحوالى عشرين عاما، وهو تعاون لم يكن موجها وقتذاك ضد الأمير الأندلسى نفسه وإنما ضد عماله فى الثغر الأعلى.

---

(١) عن الحملة الأولى أنظر: ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٣٢؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠١؛ ابن الأثير، نفسه، ٥ ص ٣٧. وعن الحملة الثانية أنظر : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠٢؛ العذرى، نصوص، ص١٣٥؛ Textos Inéditos del Muqtabis, p 312.

(٢) عنه وأسباب ثورته وتطوراتها أنظر : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠٤؛ ١٠٥؛ ١٠٦؛ ابن القوطية، نفسه، ص ١٠٩، ١١٢؛ Lévi - Provençal, Histoire, 1 pp 300 Sqq.

(٣) ابن حيان ، المقتبس، تحقيق مكى، ص ٣٩٣.

(٤) ابن حيان ، المقتبس، تحقيق أنطونية، ص ٩؛ وانظر أيضاً : ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٢٢.

(٥) عن الحملة الأولى أنظر : ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٨٥؛ ابن عذارى،نفسه، ٢ ص ١٠٣؛ ابن الأثير، نفسه، ٦ ص ١١٩؛ ابن خلدون، نفسه، ٤ ص ٢٨٦؛ المقرى، نفح، ١ ص ٣٢٩؛ وانظر أيضاً : Textos Inéditos del Muqtabis, pp 312 - 314 ؛ وعن الحملة الثانية أنظر : العذرى، نصوص، ص ١٣٣؛ ابن حيان، نفسه، تحقيق مكى، ص ٣٩٢.

أما بالنسبة للثغر الأعلى، فلم يتمكن الأمير من استعادته واستنزال أسرة بنى قسى فيه، إلا بوقوع الانشقاق بين أفرادها فيما تلى ذلك من أعوام، حينما سخط محمد بن لب بن موسى على عميه إسماعيل وفرتون لاستحواذهما على ثقة الفرنسو الثالث، فكادهما بالعودة إلى طاعة الأمير وأبدى استعداده لمعاونته ضدهما [١]، بحيث إنه حينما سير الأمير قواته إلى الثغر الأعلى عام ٢٦٨هـ / ٨٨٢م بقيادة ابنه المنذر ومعه القائد هاشم انضم إليها ابن لب بقواته، وانقضوا على اسماعيل وفرتون فأنزلوا بهما هزيمة، وصفتها الرواية الإسلامية بأنه لم يكن أشد وأنكى منها عليهما، فأذعنا بسببها إلى طاعة الأمير بعدما قدم اسماعيل رهائنه ضمانا لطاعته وطاعة أخيه [٢]. وبذلك خدمت الظروف الأمير محمد فى استعادة الثغر الأعلى، وفى عزل بنى قسى عن التحالف مع أشتوريس أو التعاون معها؛ ومع ذلك فلم تعد قواته التى أخضعت اسماعيل وفرتون إلى قرطبة مباشرة، وإنما تابعت زحفها غربا ومعها قوات ابن لب لاقتحام أراضى أشتوريس؛ بهدف إعاقة عمليات تحصين القلاع التى كانت جارية وقتذاك فى إقليمى ألبة والقلاع، وذلك عقابا لألفونسو عما أثاره من متاعب ضده.

وصلت القوات الإسلامية إلى أعتاب مملكة أشتوريس فى حملة ستترك الرواية الإسبانية تحكى لنا قصتها فتقول : أن هذه القوات بدأت باقتحام ألبة أولاً حتى وصلت إلى قلعة كلوريجو Cellorigo عند ممرات إبرة إلى الجنوب من جبال أوبريئيس Obarenes، التى كان كونت ألبة بيلا خيمينيث Vila Jimenez قد بدأ فى تحصينها؛ فحاصرتها القوات الإسلامية ودافعت عنها حاميتها دفاعا مستميتا أفقد المسلمين بعض رجالهم، فاضطروا إلى رفع الحصار ومتابعة الزحف نحو إقليم قشتالة فى الغرب حتى اقتحموه؛ إلا أن كونت الإقليم دييجو رود ريجيث Diego Rodriguez تصدى لهم أيضا أمام أسوار قلعة بانكوربو Pancorbo – التى كان قد انتهى تحصينها حديثا – لمدة ثلاثة أيام خسر فيها المسلمون عددا آخر من جنودهم؛ ولما عجزوا عن اقتحامها قصدوا قلعة أخرى فى نفس الإقليم وهى قلعة كاستروخيريث Castrojerez؛ ولما لم تكن قد اكتمل تحصينها بعد فقد أخلاها حاكمها نونيو نونييث Nuno Nunez قبل وصول المسلمين إليها، فدخلوها دون مقاومة وأقاموا فيها بعض الوقت لينالوا قسطا من الراحة؛ ثم غادروها وتابعوا زحفهم غربا نحو نهر إسلا، فعبروه واقتحموا إقليم أشتوريس وهم يشعلون النيران وينزلون التدمير والتخريب بكل ما يمرون عليه

---

(١) Cron Albeldense, ed. Florez, pp 455 - 456.

(٢) أنظر بتفصيل : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٠٥؛ ابن الأثير، نفسه ٦، ص ١٣٩؛ النويرى، نفسه، ٢٢/١ ص ٥٦؛ العذرى، نصوص، ص ٣٣ – ٣٤؛ Chron Albeldense, ed. Florez, p 455

من قرى وعمران؛ فلما وصلوا إلى نهر أوربيجو Orbigo، وجاءتهم الأنباء بأن الفونسو حشد قواته وتأهب لمصادمتهم بنفسه على مشارف مدينة ليون Léon دفاعا عن قلب مملكته، اختفى فجأة شبح الحرب إذ آثروا الاكتفاء بما أنزلوه فى بلاده من تخريب والدخول معه فى مفاوضات ، وجرت المراسلات وانعقد الاتفاق على أن يعيد الفونسو إلى هاشم بن عبد العزيز ابنه أبا القاسم الذى كان لايزال يحتفظ به؛ فى مقابل أن يتسلم من هاشم رهائن اسماعيل بن موسى، وما أن تم تبادل الرهائن حتى غادرت القوات الإسلامية أشتوريس فى طريق عودتها إلى قرطبة، فوصلتها فى شهر سبتمبر من نفس عام ٨٨٢م[١]/ ربيع أول عام ٢٦٩هـ، بعد غياب طال نحوا من سبعة أشهر.

وفى اعتقادنا أن شروط هذا الاتفاق كانت من إملاء الفونسو على قائدى الجيش الإسلامى لعلمه مدى حرص هاشم على استعادة ابنه؛ فتسرعا فى قبولها إنقاذا لهذا الابن، وربما دون أن يفطنا إلى أن تنازلهما عن رهائن اسماعيل بن موسى فى مقابل ذلك كان فى صالح الفونسو، إذ لم يعد ابن هاشم ورقة رابحة فى يده يمكن أن يساوم بها على السلام مع أمير الأندلس، بقدر ما كانت رهائن اسماعيل هى الرابحة؛ إذ بإعادتهم إلى إسماعيل يمكن لألفونسو إقناعه بنقض طاعته للأمير القرطبى، ويكون لألفونسو بذلك عند اسماعيل فضل يأسره به ، ويعيده إلى صفه ثانية ضد الأمير وضد تابعه الجديد محمد بن لب.

وأغلب الظن أن هذا هو ما فعله الفونسو الثالث مع اسماعيل، إذ ماكادت القوات الإسلامية تصل إلى قرطبة حتى نشب الخلاف فى الثغر الأعلى بين اسماعيل بن موسى واسماعيل ولب ابنى أخيه فرتون من ناحية وبين محمد بن لب من ناحية أخرى؛ اشتعلت على إثره الحرب بين الفريقين فى نواحى مدينة قلهرةCalahorra، حتى مالت لصالح ابن لب فأنزل الهزيمة باسماعيل ولب فى جمادى أول من عام ٢٧٠هـ/ نوفمبر ٨٨٣م ، ثم زحف على سرقسطة فاستولى عليها دون أدنى مقاومة، ومن هناك أبلغ نبأ هذا النصر المبين للأمير محمد؛ لكن الأخير أساء التصرف معه وقتذاك، إذ عنفه على احتفاظه بالرهائن وطالبه بتسليمهم له هم ومدينة سرقسطة؛ فاستاء ابن لب من هذا المطلب وانقلب عليه وخلع طاعته؛ ومبالغة فى نكايته أطلق سراح أقاربه الأسرى فتنازلوا له عن قلاع بلتيرة Valtierra وتطيلة Tudela وسان استبان "San Esteban de Deyo "Monjardin؛ فضمها بموافقتهم إلى حكمه مع

---

(١) Chron Albeldense, ed Florez, p 456

سرقسطة(١). وعلى هذا النحو أغضب ابن لب الأمير بعصيانه كما بدد تطلعات الفونسو فى استمالة اسماعيل بن موسى؛ وكان على كل من الأمير والفونسو أن يتسابقا فى وضع حد لابن لب الذى بدأ نجمه يعلو فى الثغر الأعلى مهددا أراضيهما المجاورة له، ولذلك عهد الفونسو إلى نائبيه فى إقليمى ألبة والقلاع - بيلاVilla ودييجو Diego - بكبح جماح ابن لب، فغاوراه فى إقليم الثغر الأعلى وضيقا عليه تضييقا جعله يستنجد بالفونسو ثانية ويسأله الصفح عنه، وألح عليه فى عقد الصلح معه، إلا أن الفونسو كان قد فقد الثقة به لطبيعته المتقلبة، ولم يغفر له مشاركة قوات قرطبة فى غزو بلاده فى عام ٢٦٨ - ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م؛ فضلا عن تسببه فى تبديد مشاريعه التى كانت ترمى إلى إعادة اسماعيل إلى صفه، ولذا فلم يستجب لتوسلاته وظلت العلاقة بينهما متوترة(٢).

أما الأمير محمد فقد كان من مصلحته أن يظل التباعد بين ابن لب والفونسو لكى يسهل عليه إعادة ابن لب إلى طاعته، أو القضاء على سلطانه باستعادة الثغر الأعلى منه؛ ولذا سير إليه عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م ابنه المنذر ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز فى جيش حمل عليه بمدينة سرقسطة، وحاربه فيها يومين حتى أخرجه منها، كما استعاد منه مدينة سان استبان، وأحدث تخريبا هائلا فى مناطق نفوذه ونفوذ أبناء عمومته. فلما رأى ابن لب أنه واقع بين شقى الرحى - أى بين الفونسو من ناحية والأمير من ناحية أخرى - لم يجد بدا من إعلان طاعته للأمير، فقبلها منه وأرضاه بأن سجل له على مدينتى طرسونة Tarazona وتطيلة Tudela عوضا عن المدينتين اللتين انتزعتا منه فبدأت تستقيم طاعته للأمير منذ ذلك الحين(٣). ومع ذلك فلم يتخل الأخير كلية عن حذره من ابن لب أو أى من أفراد أسرته، لتوقع عودتهم إلى معاداته فى أى وقت؛ فاتخذ عددا من الاحتياطات التى توفر عليه مشقة التصدى لهم، بأن عقد لزعماء بنى تجيب العرب المجاورين لهم فى قلعتى أيوب ودروقة، ومنحهم بعض الامتيازات التى تمكنهم من رصد تحركات بنى قسى ومدافعتهم، وبنى لهم قلاع المنطقة وسمح لهم بالاحتفاظ فيها بما يشاءون من حاميات، وأجرى عليهم من «المعارف لكل واحد عند كل غزاة مائة دينار»(٤)؛ فكان لمثل تلك الاحتياطات أثر بالغ فى الحد من نشاط ابن لب وأفراد أسرته بصورة ملحوظة؛

---

(١) قارن: العذرى، نصوص، ص ٣٤؛ Chron. Albeldense, ed Florez, p 457

(٢) Chron Albeldense, ed Florez, p 457, 459

(٣) قارن: العذرى، نفسه، ص ٣٦؛ Chron. Albeldense, Loc Cit

(٤) أنظر: العذرى، نفسه، ص ٤١.

واستمر الوضع على هذا الحال حتى توفى ابن لب، ولم يتمكن أبناؤه من بعده من الاتفاق فيما بينهم فازدادوا ضعفا لانقسامهم على أنفسهم؛ فلما اعتلى الأمير عبد الله إمارة الأندلس شهدت المنطقة صراعا عنيفا بينهم وبين زعماء بنى تجيب من ناحية، كما وجهوا نشاطهم الحربى ضد جيرانهم من نصارى البشكنس فى بمبلونة وضد الفرنجة فى الثغر الإسبانى، فضلا عن نصارى ألبة التابعة لمملكة أشتوريس؛ ومن ثم استراح الأمير القرطبى من تهديداتهم [١].

بذلك لم يبق أمام الأمير من أعضاء التحالف سوى الفونسو، ولذا صدرت الأوامر إلى المنذر وهاشم بعدم العودة إلى قرطبة ـ بعدما استنزلا ابن لب ـ قبل أن يقتحما أراضى أشتوريس، فتقدما إليها من الثغر الأعلى فى حملة تخريبية تتشابة كثير من أحداثها مع حملة العام المنصرم؛ إذ سلكا نفس الطريق فاقتحما ألبة والقلاع وهاجما نفس القلاع، مثل قلعة كلوريجو Cellorigo فى اقليم ألبة التى دافع عنها الكونت بيلا دفاعا مستميتا؛ ثم تقدما إلى قلاع إقليم القلاع مثل قلعة بانكوربو Pancorbo، التى دارت عندها معركة على مدار ثلاثة أيام انتهت بهزيمة الكونت دييجو وجيشه؛ وبعدها زحفا إلى قلعة كاستروخيريث Castrojerez فألفياها منيعة صعبة المرام، ولما لم ينالا منها شيئا واصلا زحفهما حتى دخلا إقليم أشتوريس قاصدين مدينة ليون، وأشعلا النيران فى كل ما مرا به حتى وصلا إلى قلعة سوبلانثيا Sublancia إلى الجنوب من مدينة ليون، التى كان الملك الفونسو أيضاً ينتظرهما عند مشارفها ، فلم يتقدما للقائه وإنما اكتفيا بما خرباه ودمراه فى بلاده؛ ثم اتخذا طريق العودة دون أن يتوقفا عن التخريب، بحيث لم تنج منه الأماكن الدينية المقدسة مثل دير سهاجون Sahagún فى نواحى ليون، فأحرقاه وأطاحا برءوس كل رهبانه. ومع ذلك فلم يفكر الفونسو فى ملاحقتهم ومطاردتهم ربما مكتفيا هو الآخر بما أصاب بلاده من تخريب، بحيث إنه لم يتردد فى إجراء المفاوضات مع المسلمين حينما خاطبه هاشم بن عبد العزيز فى ذلك ، ثم أوفد رسوله دولسيديو Dulcidio – وكان أسقفا لمدينة طليطلة فى وقت سابق – إلى العاصمة الإسلامية قرطبة فى شهر سبتمبر، للاتفاق مع الأمير محمد على شروط الصلح [٢]، فرحب به الأمير ووقع معه المعاهدة ولم يعد هذا السفير إلى أوبييدو إلا فى التاسع من يناير عام ٨٨٤م [٣] / السادس من رجب عام ٢٧٠هـ ؛ أى بعد أن أمضى نحواً من أربعة أشهر فى قرطبة.

---

(١) قارن : العذرى، نفسه، ص ٣٦ – ٣٨؛ Lévi - Provençal, Histoire, 1 pp 328, 389 - 390

(٢) Chron. Albeldense, ed. Florez, pp 458 - 459

(٣) Lévi - Provençal, Histoire, 1 p 326, Urbel, Espana Cristiana, 6p 89.

وقد ضنت المصادر إسبانية وإسلامية بشروط هذه المعاهدة، شأنها في ذلك شأن موقفها من غيرها من المعاهدات التي عقدت من قبل بين الأندلس وأشتوريس؛ وإن نصت مدونة سامبيرو Cron. Sampiro على أن الملك الفونسو الثالث قد فرض فيها ، شروطا محددة على المسلمين أذل بها كبرياءهم ،[1]. ومع ذلك ففي اعتقادنا أنها لم تكن معاهدة لتحديد إطار للسلام بين الدولتين بقدر ما كانت نوعا من الهدنة المؤقتة ؛ تعهد بموجبها الطرفان بوقف الأعمال العدوانية بينهما لمدة معينة، والتخلي عن تأييد أو إيواء الثوار والمنشقين على أي منهما؛ فساد الاسترخاء العسكري بينهما دون أن تقع أية اشتباكات أو حروب فيما بقي من عهد الأمير محمد ، الذي انتهى في ربيع أول عام ٢٧٣ هـ/ أغسطس ٨٨٦م، أي ا ا يقرب من ثلاث سنوات تفرغ خلالها كل من الطرفين لشئون دولته الداخلية.

وإذا كان الأمير محمد قد ترك الأندلس لابنه المنذر وهي تنعم بالهدوء المؤقت على حدودها مع أشتوريس، فقد ترك له تراثا ثقيلا من المشاكل الداخلية التي لم يكن من السهل الخروج بحلول لها ولو بصورة جزئية. ذلك أن التمزق السياسي كان قد بلغ مداه، وتفشت الحركات الانفصالية التي انتظرت لحظة الانفجار منذ مدة في كل الأقاليم؛ حتى خرجت – في عهده القصير الذي لم يجاوز العامين – كثير من البلدان عن سلطانه[2] ؛ واستنزفت حروبه ضدها كثيرا من مالية البلاد؛ التي كانت قد تناقصت كثيرا منذ انفصال أقاليم الثغور الثلاثة في عهد أبيه، وتوقف ورود جبايتها السنوية على خزينة قرطبة؛ فعانت البلاد من أزمة مالية، زادت واستشرت وطأتها بما اتبعه الأمير من مظاهر الإسراف المبالغ فيها منذ اليوم الأول من إمارته وعلى مدى عامي حكمه؛ فيشير المؤرخون المسلمون[3] أنه في يوم مبايعته بالإمارة أخرج الأموال من خزائن المال، وفرق على الجند عطاءين في وقت واحد، كما أسقط ما على الرعية من عشور وخراج ذات العام؛ ويضيفون أن هذا الإسراف كان ، فعله في جميع أسبابه، أي أموره، حتى أوشكت مالية البلاد أن تنضب فاضطر إلى فرض الجزية على أهل الذمة[4]، لتغطية نفقات حروبه ضد المنشقين عليه وعلى رأسهم الثائر عمر بن حفصون، الذي كان يشكل خطرا مباشرا على قرطبة مركز الإمارة[5].

---

(١) Ed. Florez, P 440.

(٢) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٥١ .

(٣) قارن : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٢٠ ؛ ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٢٤ ؛ مجهول ، نفسه، ص ١٥٠ .

(٤)مجهول ، نفسه، ص ١٥١ .

(٥) عن حروب الأمير ضده أنظر على سبيل المثال : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١١٤، ١١٦ – ١١٩؛ السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٥١ ومابعدها؛ عنان، دولة الإسلام، ١ ص ٣١٤ – ٣١٦.

وكان من الطبيعي والحال كذلك أن يعجز المنذر عن وضع حد لتلك الأزمة المالية الطاحنة، أو لاضطراب البلاد وفوضاها السياسية، لاسيما وأن منيته عاجلته سريعا فى صفر عام ٢٧٥هـ/ يونيو ٨٨٨م دون أن يجاوز العامين؛ فتوفى ، والفتنة ظاهرة، والنفاق باديا لاختلاف العرب والموالى على البلدان، [١]، وتقلص سلطانه بحيث لم يعد يجاوز مدينة قرطبة وحدها كأى إقليم آخر من أقاليم الإمارة المنهارة [٢].

فلما أفضت الإمارة إلى أخيه عبد الله تكالب الثوار عليه هو الآخر، واشتدت شوكتهم بكل ناحية بحيث لم تبق مدينة إلا خالفت عليه، فانطبقت البلاد نفاقا واستعرت خلافا، وتحيفها النكث ومزقها الشقاق[٣]. فشمر الأمير عن ساعد الجد فى محاولات دائبة لإقرار الأوضاع على مدى حكمه الطويل الذى امتد حتى عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، ولكنها ذهبت كلها أدراج الرياح وظلت ، الفتنة مستولية، والدجنة متكاثفة، والقلوب مختلفة، وعصى الجماعة متصدعة، والباطل قد أعلن، والشر قد اشتهر، وقد تمالأ على أهل الإيمان حزب الشيطان، وصار الناس من ذلك فى ظلماء ليل داج، لا إشراق لصباحه ولا أفول لنجمه ،[٤].

ولاجدال فى أن مثل تلك الفوضى السياسية التى انشغل فيها الناس بالفتن ، قد واكبها تدهور الحياة الاقتصادية وانحطاطها بسبب توقف الحرث [٥] وغيره من أمور الحياة المعيشية ، فقلت الأموال فى أيدى الناس قلة واضحة أعجزتهم عدة أعوام عن آداء ما عليهم من جبايات[٦]؛ وتأثرت لذلك مالية الدولة تأثرا واضحا عجز معه الأمير عن صرف أعطيات الجند والموالى فتخلى معظمهم عنه، ومن بقى منهم فقد ظل الأمير - بما عرف عنه من بخل وتقتير [٧] - يضيق عليه فى الإنفاق العسكرى توفيرا لما فى خزائن المال، حتى عجزوا بدورهم عن نصرته أو الانتصار له على خصومه ومناوئيه[٨]؛ فلما أتى الأمير على ما فى خزائنه استدار إلى رعيته ففرض عليهم الفرض[٩] ؛ لكنهم ضجوا منه لضيق ذات أيديهم وعزموا على الدعوة للخليفة

---

(١) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٥٠.

(٢) قارن : مجهول، نفسه، ص ١٥٤؛ ابن الخطيب، نفسه، ٢ ص ٢٧؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ٥٩.

(٣) قارن : ابن حيان، المقتبس، تحقيق أنطونية، ص ١٠٤؛ مجهول، نفسه، ص ١٥٥. هذا وتفيض المصادر بأخبار تلك الثورات، أنظر فى ذلك على الخصوص: ابن حيان، نفسه، تحقيق أنطونية، ص ٩ - ٣٣؛ ٥٠ - ١٤٧؛ ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٢١ - ١٤٩.

(٤) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٢١.

(٥) أعلاه.

(٦) عن أمثلة لذلك أنظر: ابن القوطية ، تاريخ، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٧) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٥؛ ابن حيان، نفسه، تحقيق أنطونية، ص ٣٩.

(٨) أخبار مجموعة ، ص ١٥٠- ١٥١؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ٥٩.

(٩) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٥٥ ؛ النويرى، نفسه، ١/٢٢ ص ٦٠

العباسى [١]، وكاتبوا بالفعل عامله فى إفريقية يسألونه أن يبعث إليهم رجلا من قبله، ولولا أنه تغافل عنهم بسبب متاعبه واضطراب بلاده هو الآخر لما تراجع أهل الأندلس عما هموا به [٢].

ومن ناحية ثالثة، فلم يفلت أهل الأندلس من قسوة الطبيعة وشدتها معهم فضنت عليهم بغيثها فى الأعوام ٢٧٤هـ/ ٨٨٧ - ٨٨٨م، ٢٨٥هـ/٨٩٨م ، ٢٨٨هـ/ ٩٠١م[٣]، حتى أقحلت أراضيهم وساد الجوع بينهم؛ وانتشرت الأوبئة فهلك منهم ما لا يحصى عددا بحيث كان يدفن فى القبر الواحد عدد كثير، لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم من غير غسل أو صلاة [٤]؛ فكاد النسل أن ينقطع ولم يعد فى الناس قوة أو منهض، ونتيجة لذلك انقطع جهاد الأمير في دار الحرب[٥]؛ بل وتوقف اهتمامه كلية بثغور بلاده المواجهة لثغور مملكة أشتوريس، فلم يقم بأدنى محاولة لتقوية دفاعاتها وتحصيناتها، أو إمداد حامياتها بما هى فى حاجة إليه للتقوى على من يجاورهم من الأعداء . وعلى ذلك فقد انهارت الأندلس من الداخل وتوقف جهادها ضد أعدائها - وعلى رأسهم مملكة أشتوريس - فى الخارج، وهى حالة تعود بنا إلى ما كانت عليه الأندلس من قبل، فى أيام يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس منذ مايزيد عن قرن ونصف من الزمان.

وعلى العكس، ففى الوقت الذى تردت فيه الأندلس نحو هذا المنحدر الخطير من الانحطاط السياسى والعسكرى والاقتصادى، على مدى أكثر من ربع قرن من الزمان، أى طوال مدة حكم المنذر ومن بعده أخيه عبد الله ٢٧٣ - ٣٠٠هـ / ٨٨٦ - ٩١٢م؛ كانت أشتوريس قد حققت إنجازات هائلة على طريق التقدم والرقى فى شتى المجالات ، بفضل تماسكها وهمة ملكها الفونسو الثالث ٨٦٦ - ٩١٠م/٢٥٢ - ٢٩٧هـ، الذى ترسم خطى والده أردونيو فى تدعيم دولته وتنظيم مؤسساتها.

ويأتى فى مقدمة اهتمامات الفونسو الثالث تنظيم شئون دولته الدينية والدنيوية، فعقد المجالس المتعددة لهذا الشأن لاسيما المجلس المنعقد فى مدينة أوبييدو

---

(١) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٥٥.

(٢) النويرى، نفسه، ٢٢/١ص ٥٩.

(٣) قارن : ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١١٩، ١٣٩؛ ابن حيان، نفسه، تحقيق أنطونية، ص ١٢٧؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٥٦.

(٤) مجهول ، نفسه، ص ١٥٦.

(٥) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٢١.

فى عام ٩٠٠م/ ٢٨٧هـ؛ بحضور كبار رجال الدين والنبلاء ، واتخذت فيه قرارات وتوصيات هامة [١] تعلق بعضها بتنظيم الهيئة الكنسية، وبعضها الآخر بدفع عجلة التنمية الاقتصادية والعمرانية فى الدولة؛ فضلا عن تركيز الجهود على تماسك الجبهة الداخلية للتقوى على المسلمين فى الأندلس.

كذلك فقد أولى الفونسو اهتماما واضحا للشئون الكنسية فأرسيت فى عهده قواعد عديد من الكنائس فى شتى أرجاء البلاد، مثل كنيسة أندريان دى تونيون Andrian de Tunon عند التقاء نهرى تروبيا Trubia ونالون Nalón؛ وكنيسة بالدى ديوس Valde Dios قرب مدينة بلابسيوسا Villaviciosa التى لازالت بقاياها قائمة حتى وقتنا الحاضر، فضلا عن نقش تأسيسها الذى يكشف قدم هذا البناء ورقته وأسماء من افتتحوه[٢]؛ وكنائس سهاجون Sahagún واسكالادا Escalada[٣] فى نواحى مدينة ليون Léon؛ وكاردينيا Cardena [٤] جنوب مدينة برغش Burgos. وإلى جانب ذلك فقد وسع الفونسو بعض الكنائس التى كانت قد أقيمت فى عهد أسلافه مثل كنيسة سنتياجو فى مدينة سنتياجو دى كمبوستلا Santiago de Compostella بإقليم جليقية بهدف أن تستوعب أعداد الحجاج المسيحيين المتزايدة التى وفدت إليها من مختلف أنحاء العالم المسيحى وقتذاك، وكنيسة سان سلفادورSan Salvador فى مدينة أوبييدو العاصمة[٥].

وقد يكون ورع الفونسو الثالث وتقواه الدينية فضلا عن رغبته فى إرضاء الرب عنه هو ما دفعه إلى ذلك النشاط العمرانى الكنسى، مثلما تذكر المصادر الإسبانية ذاتها. ومع ذلك ، فلا يخامرنا أدنى شك فى أنه كان يرمى من وراء ذلك أيضا إلى الاستفادة من رجال الدين؛ بما لهم من سلطان روحى على الرعية فى استغلال موارد دولته المعطلة، لتحقيق انتعاش اقتصادى يزيد من درجة اكتفائها ذاتيا؛ وهى ركيزة هامة لقوة الدولة سياسيا وحتى عسكريا، فتثبت وثائق تلك الفترة[٦] بما لايقبل الجدل

---

(١) عن قراراته أنظر: Cron Sampiro, ed. Florez, pp 443 - 445; Cotarelo, op cit, pp 425 - 429

(٢) أنظر : Risco, Esp Sagr, 37 pp 218 - 219

(٣) عن هاتين الكنيستين والوثائق الدالة على إقامتهما فى عهد الفونسو الثالث، وما منحه لهما من أراضى وامتيازات، أنظر : Diaz - Jimenez, Inmigracion Mozarabes, BRAH 1892, 20 pp 123 - 125

(٤) Annales Compostellani, ed. Huici, 1p 60, Cron de Cardena, ed. Huici, 1 p 373

(٥) عن توسيع هاتين الكنيستين أنظر : Cron Silense, ed Florez, pp 285 - 286, Cron. Sampiro, ed Florez, p 285 - 286, Cron. Sampiro, ed. Florez, p 439; Chron. Léonaise, ed Cirot, p 302
أما عن مراسم افتتاحهما فانظر : Cron. Sampiro, ed Florez, pp 442 - 446; Cron del Rodrigo, ed Fuensanta, pp 305 - 306؛ وعن نقش توسيع الكنيسة الأخيرة أنظر الملاحق .

(٦) وهى أكثر من مائة وثيقة وعن نصوصها أنظر على سبيل المثال: Floriano, op cit, pp 19 Sqq; Belda, op cit, pp 31 - 35.

أن معظم ما أصدره الفونسو الثالث من وثائق كانت لرجال الدين يمنحهم بمقتضاها هبات وعطايا، وأغلبها أراضى غير مأهولة أو مستغلة تقع فى نواحى كنائسهم، لكى يقوموا باستصلاحها أو استغلالها بالصورة التى يرونها مناسبة ؛ وهو ما يدل على أن كنائس أشتوريس لم تقتصر وقتذاك على مهمتها الدينية التثقيفية، وإنما امتدت أيضا لتكون مؤسسات اقتصادية انتاجية مثلما أشرنا من قبل. وما يؤكد ذلك أنه لم يفته فى كلمته التى ألقاها على المجتمعين فى مجلس أوبييدو- أن يركز على مطالبة رجال الدين مطالبة صريحة ببذل أقصى الجهد لتعمير الأماكن الخالية أو غير المستغلة فى دولته؛ ويذكرهم بأن ما يقيمه فى تلك الأماكن إنما هولنفس الهدف ؛ ثم يختتم كلمته إليهم بما نصه : « إن الذى يقيم دارا لعبادة الرب، فإنه حتما سيقيم منزلا يقيم فيه»[١]، وفى ذلك أيضاً دلالة على ما كان يسعى إليه الفونسو من هدف اقتصادى وتوسعى من وراء اهتمامه بذلك النشاط الكنسى.

وأيا ما كان الأمر، فقد كان اهتمام الفونسو بالكنيسة ورجالاتها مبعث اغتباط بابا روما وقتذاك فباركه ، وتبودلت بينهما فى هذا الصدد سفارات ورسائل عديدة[٢]؛ أدت إلى قيام علاقات وطيدة بينهما، ومهدت لتغلغل النفوذ البابوى فى أشتوريس، بحيث كان الفونسو يرجع إلى البابا ويستأذنه فى عقد المجالس الدينية وتعيين الأساقفة ورجال الدين، إلى غير ذلك مما كان يمس الكنيسة؛ كما التزم رجال الدين فى أشتوريس بتعاليم البابوية وقرارتها منذ ذلك الحين فصاعدا، بعدما كانوا يتبعون قرارات مجالس طليطلة التى عقدت على أيام القوط. ولم تنس البابوية من جانبها أن تثير حماس مسيحيى أشتوريس ضد المسلمين وتحضهم على التمسك بمحاربتهم كعدو للمسيحية، ليس فقط فى إسبانيا وإنما أيضاً على نطاق أوربا كلها، حتى بلغ الأمر أن طلب البابا من الفونسو بعض فرق الفرسان ليعاونوه فى محاربة مسلمى صقلية وجنوب إيطاليا[٣] .

وفى خضم تلك الجهود لتقوية دعائم دولته اقتصاديا ودينيا، لم ينس الفونسو الاهتمام بتقوية وسائل الدفاع عن دولته وتوفير الحماية اللآزمة لها، لاسيما ضد تهديدات المسلمين أو النورمان البحرية؛ فأقام قلاعا حصينة على سواحل مملكته

---

(١) Cron Sampiro, ed. Florez, p 444

(٢) وصلتنا منها رسالتان من الباباجوان الثامن إلى الفونسو الثالث، وعن نصهما أنظر الملاحق، وانظر أيضاً Cron Sampiro, ed. Florez, pp 441 - 442, Cron. del Rodrigo, ed Fuensanta, pp 303 - 305.

(٣) أنظر أعلاه.

وأبرزها قلعة جاوثون Gauzón[١] الواقعةعلى قمة صخرية بين مدينتى أبيليس Avilés وخيخون Gijónعلى ساحل بحر كنتبرية فى الشمال؛ ولازال نقش تأسيسها فى عام ٨٧٨م (٢٦٤ - ٢٦٥هـ) باقيا على أحد أبواب أبراجها[٢] ؛ وفى داخل هذه القلعة أقام الفونسو كنيسة للقديس سلفادور أوقف عليها ريع بعض الأراضى والأملاك، مثلما يدل على ذلك الوثيقة المؤرخة فى عام ٩٠٥م (٢٩٢ - ٢٩٣هـ) التى لازالت محفوظة فى كنيسة سان سلفادور بمدينة أوبييدو[٣]. والجدير بالذكر أن هذه القلعة هى التى أمر الفونسو الثالث أن يتم فيها تطعيم الصليب الخشبى - الذى كان قد اتخذه بلاى من قبل كلواء له فى معركة كوبادونجا ضد المسلمين فى عام ٧٢٢م/ ١٠٣هـ - بالذهب الخالص والأحجار الكريمة[٤]، وعرف بصليب النصر La Cruz de la Victoria أو بصليب بلاى La Cruz de Pelayo ؛ وحينما اكتمل تطعيمه حوالى عام ٩٠٨م (٢٩٥ - ٢٩٦هـ) نقله الفونسو ليوضع فى كنيسة سان سلفادور، التى لازالت تحتفظ به حتى وقتنا الحاضر فى حجرتها المقدسة.

على أن أخطر وأهم نشاطات الفونسو الثالث فى سبيل تدعيم دولته والنهوض بها، هو ماقام به من جهود مكثفة متواصلة على امتداد دولته من ناحيتى الجنوب والشرق فى الحوض الشمالى لنهر دويرة؛ الذى خطط الفونسو للإستيلاء عليه وإضافته إلى ملكية دولته بصورة عملية حتى يصل بحدودها إلى نهر دويرة ذاته؛ مما يدل على أن صراعه مع المسلمين قد تعدى حدود حرب الحدود إلى حرب الوجود بينهما على شبه الجزيرة . ولما كانت تلك المساحة من حوض نهر دويرة قد ظلت خالية مهجورة من التمثيل الإسلامى منذ غارات الفونسو الأول عليها من قبل (٧٣٩ - ٧٥٧م / ١٢١ - ١٤٠هـ) ؛ فضلا عن انشغال مسلمى الأندلس بما كانت تجتازه بلادهم وقتذاك من محن سياسية واقتصادية طاحنة ، فقد وجد الفونسو فرصته لتنفيذ هذا المشروع الجرئ غير المسبوق دون عقبات أو متاعب؛ وتجلت فطنته فيما اتبعه من أسلوب فى تنفيذه، إذ اهتم أولا بالسيطرة على أماكن لها أهميتها الاستراتيجية على نهر دويرة ذاته، مقيما فيها قلاعا وحصونا قوية مؤهلة لحماية

---

(١) Cron. Silense, ed. Florez, p 286; Cron. Sampiro, ed. Florez, p 439; Chron. Léonaise, ed. Cirot, p 401; Cron. de Lucas, ed. Puyol, pp 302 - 303; Cron. del Rodrigo, ed Fuensanta, p 303.

(٢) عن نصه أنظر Vigil , op cit, p 385, Urbil, Espana Cristiana, 6 p 98.

(٣) راجع : Risco, Esp. Sagr, 37p 216

(٤) Cron. Silense, ed. Florez, p 286, Chron Leonaise, ed. Cirot, p 401; Prim Cron General, ed. Pidal, 2 p 379 ؛ وعن الصليب والنقش الموجود عليه أنظر : Vigil, op cit, p 18; Hubner, op cit.

مملكته؛ وأهمها من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق : أوبورتو Oporto قرب مصب نهر دويرة، تليها سمورةZamora التى أعيد بناؤها بمساعدة أهل طليطلة عام ٨٩٣م /٢٨٠هـ؛ وتورو Toro ثم سيمانكس Simancas الواقعة عند التقاء نهرى دويرة وبسيورجا Pisuerga والتى أعيد بناؤها وتعميرها بالسكان حوالى عام ٨٩٩م /٢٨٦هـ؛ ودوينياس Duenas[١] على المجرى الأوسط لنهر دويرة، ثم برغشBurgos التى أنشأها كونت قشتالة دييجو رودريجيث Diego Rodriguez على نهر أرلنثون Arlanzon حوالى عام ٨٨٢م أو ٨٨٤م/ ٢٧٠ أو ٢٧٢هـ؛ ثم أوبييرنا Ubierna[٢] فى أقصى الشرق؛ وغير ذلك من القلاع التى صارت خطوطا دفاعية متقدمة لمملكة أشتوريس على امتداد نهر دويرة، لمواجهة الثغور الأندلسية الدنيا والوسطى والعليا.

وفى الوقت الذى كان العمل متواصلا لتقوية دفاعات تلك القلاع الجديدة بكل وسائل التحصينات من أسوار وأبراج ومرابطة[٣]، لم يتوقف الفونسو لحظة عن إعادة تعمير مدن تلك القلاع وغيرها من المدن المنتشرة على امتداد الحوض الشمالى لنهر دويرة، مثل سوبلانيا Sublancia وسيا Cea بنواحى مدينة ليون، وبراجا Braga فى إقليم جليقية ؛ إلى غير ذلك من المدن التى دبت فيها الحياة من جديد بما توافد إليها من سكان من نواحى مملكة أشتوريس ومن الأندلس أيضاً؛ وبما زاولوه فيها من كافة الأنشطة الاقتصادية.

وبذلك نجح الفونسو الثالث فى مد سيطرته على الحوض الشمالى من نهر دويرة فدفع حدود دولته جنوبا حتى شاطئ هذا النهر، بحيث عظم - مثلما يشير المؤرخ ابن الخطيب - ملكه واتسعت دولته[٤]؛ اتساعاً لم تصل إليه من قبل ، وكان لذلك أعظم الأثر فى تدعيم قوة أشتوريس السياسية والاقتصادية والعسكرية قوة تجاوزت بها مرحلة الخطر على نفسها من مسلمى الأندلس، ولم تعد بحاجة إلى القيام بحملات بعيدة المدى على قلب الأندلس التى كان يقوض أركانها وقتذاك ما انحدرت إليه من تمزق سياسى وانحطاط اقتصادى وتنافر اجتماعى.

---

(١) قارن : Cron. Albeldense, ed Florez p 454, Cron Sampiro, ed Florez, pp 438, 440, 446; Cron de Lucas, ed Puyol, pp 298, 302, Cron. del Rodrigo, ed Fuensanta, pp 298, 302 - 303; Prim Cron. General, ed Pidal, 2 pp 368, 377 - 378, 379.

(٢) قارن : Anales Toledanos, ed Huici, 1p 340, Annales Compostellani, ed. Huici, 1 p 60; Annales Complutense, ed Huici, 1 p 40, Chron Cerratensis, ed Huici , 1 p 92; Chron Burgense, ed Huici, 1p 32

(٣) Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, p 300, Prim, Cron General, ed Pidal, 2pp 368, 369.

(٤) تاريخ، ٢ص ٣٢٤؛ وأنظر الخريطة .

ولكل ذلك فقد أدرك أهل الثغرين الأدنى والأوسط على الخصوص أن اتساع أشتوريس واقتراب حدودها منهم على هذا النحو ، فضلا عما تقيمه من تحصينات وقلاع جديدة على شاطئ نهر دويرة - كانت يوما بعيدة عنهم في الشمال عند مدن مثل أستورقة وليون - يشكل عليهم تهديدا مباشرا خطيراً يمكن أن يصيبهم بالضرر البالغ؛ فعظم عليهم الأمر وأكبروه وأخذوا يتندرون به ويقولون : « قد كان أذاهم – أي أذى قوات أشتوريس – وطرقهم أرضنا من ليون كالمتوالى عندنا ، فكيف يكون من سمورة وقد اقتربوا منا ودبروا كيدنا فأصابوا مقتلنا »[١].

لكن أهل هذين الثغرين لم يقفوا عند حد القول وندب الحال، وإنما بادروا فأوقفوا الأمير عبد الله على مدى الخطر واستغاثوا به على دريئه قبل استفحاله، إلا أنهم لم يجدوا منه إلا تسويفا وإعراضا، إذ اعتذر بانشغاله في مقارعة المنشقين والمخالفين عليه في داخل الأندلس[٢]؛ وبذلك تركهم وحدهم دون عون أو تأييد ليكابدوا مصيرهم المحتوم، وهو موقف يسترجع إلى ذاكرتنا موقف والى الأندلس يوسف الفهرى من قبل. وحينذاك لم يجد أهل الثغرين الأدنى والأوسط بدا من أن يعتمدوا على قوتهم الذاتية وإمكانياتهم المحدودة في التصدى لأشتوريس؛ فأغاروا عليها غارات انتحارية بهدف إعاقتها عن إتمام تحصيناتها وقلاعاتها الجديدة على شاطئ نهر دويرة، ولكنهم كانوا دون هذه الغاية إذ « ألفوا بها عدوا شديدا يحميها ويمنع أطرافها »[٣].

كان على الفونسو الثالث أن يرد على تلك الغارات ليحمى مشروعاته التعميرية التحصينية، وليعاقب أهل الثغرين الأدنى والأوسط على جرأتهم، فجردت قواته سيوفها عليهم في حملات تخريبية انتقامية متتابعة استأسدت فيها برجال حامياتها حتى جعلوهم « بين قتيل ومحروب ومحصور يعيش مجهودا ويموت هزلا »[٤]؛ دون أن يحرك الأمير عبد الله ساكنا أو أن يعمل على إنقاذهم، ولذا صاروا على استعداد لمحالفة الشيطان إن وجدوا منه معاونة للثأر خلاصا لما هم فيه من بلاء وضيق.

كان هذا الشيطان أحمد بن معاوية المعروف بابن القط [٥]، أحد أشراف بنى أمية ذاتهم، الذى انشق عن طاعة الأمير عبد الله وادعى الإمارة لنفسه [٦]، داعيا إلى

(١) ابن حيان، المقتبس ، تحقيق أنطونية، ص ١٣٤.

(٢) أعلاه، نفس المكان والصفحة .

(٣) أعلاه ، نفس المكان والصفحة

(٤) ابن عذارى، نفسه، ٢ ص ١٢١ .

(٥) هو أحمد بن معاوية بن هشام بن معاوية بن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، أنظر عنه : ابن حيان، نفسه، تحقيق أنطونية ، ص ١٣٣ ، ١٣٨ – ١٣٩ ؛ ابن حزم، جمهرة، ص ٩٧ ؛ ابن الأبار، الحلة، ٢ ص ٣٦٨.

(٦) ابن حيان ، نفسه، تحقيق أنطونية، ص ١٣٣، ١٣٧، ١٣٩.

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله، كنوع من أنواع التمويه لجذب الأنصار والأتباع؛ ووجد فى حالة الثغرين الأدنى والأوسط مناخا خصبا لتأييد دعوته ضد الأمير، فتنقل بنفسه بين الأهالى ومعظمهم من البربر يحرضهم ضده ويدعوهم إلى نفسه ويعدهم بالانتقام لهم من أشتوريس، ويمديهم بالنصر عليها وتدمير قلاعاتها لاسيما قلعة سمورة التى كانت أهم قواعدها فى الإغارة عليهم، موهما إياهم أنه : « لن يأتى مدينة ويدنو إلى سورها إلا خر قدامه وانفتحت له » [1]. وكانت خطورة حركته أنه أضفى عليها لونا شيعيا فزعم أنه « المهدى فائز الدين وعاصم المسلمين »[2]؛ كما اصطنع حيلا من الشعوذة أدخل بها فى روع الناس أنها بعض الكرامات، « كأن يأخذ عدة أعواد يابسة فيضعها فى كمه ويشد عليها شبه المعتصر حتى يقطر منها رشح يشبه الماء بحيلة من الشعباذ قد أحكمها... ويقول هذه من بعض ما أعطانيه الله من الكرامة وسأريكم أكثر من هذه فى أوقاته » [3]. ففتن به كثير من ضعاف العقول وسفهائها، وأحلوه فى نفوسهم محلا عظيما حتى أقاموه مقام النبى الصادق، وانثالوا عليه « مبادرين إليه مستبقين نحوه كأنما صيح فيهم لقدر مكتوب وحين مجلوب وصاروا إليه على الصعب والذلول، فاجتمع عنده من الفرسان والرجالة نحوا من ستين ألف وقيل أكثر »[4]، من بربر مدن الثغرين الأدنى والأوسط، وعلى الأخص ماردة وبطليوس وطليطلة وطلبيرة ووادى الحجارة وشنت برية وذواتها؛ وهم متهافتون إلى الجهاد ضد أشتوريس لايشكون فى الظفر عليها بقيادة هذا الدعى، دون أن يدركوا أنهم بذلك يسارعون إلى حتفهم ويحفرون قبورهم بأيديهم.

ذلك أنه ما أن توافت تلك الحشود الضخمة إلى ابن القط حتى تحرك بها من نفزة على وادى آنة قاصدا قلعة سمورة بأشتوريس، فعبر وادى تاجة وجاوزه إلى أن انتهى إلى الشاطئ الجنوبى لنهر دويرة قبالة سمورة فضرب معسكره؛ ثم بعث برسالة جافة مغلظة إلى الفونسو يدعوه فيها وأهل مملكته إلى الإسلام وينذرهم بالصاعقة، وأمر رسوله أن يستعجل منه الجواب ولا يتوقف عنده، وإن أبى مجاوبته فليعد إليه بالخبر دون تباطؤ[5].

تسلم الفونسو مكتوب ابن القط وقرئ عليه فلم يتمالك نفسه من الغيظ، ونهض من فوره فاستجمع قواته ثم زخف بها بنفسه يبغى ملاقاة ابن القط وقواته عند نهر

(١) ابن حيان ، نفسه، تحقيق أنطونية، ص ١٣٥.

(٢) ابن حيان، نفسه، ص ١٣٤؛ وعن مدى تأثر حركته بالدعوة الفاطمية الشيعية، أنظر : محمود مكى ، التشيع فى الأندلس، ص ١٠١ - ١٠٣.

(٣) ابن حيان ، أعلاه ، ص ١٣٥.

(٤) أعلاه ، ص ١٣٤، ١٣٨؛ ابن الأبار، نفسه، ٢ ص ٣٦٩.

(٥) ابن حيان، نفسه، ص ١٣٥ ، ١٣٦؛ ابن الأبار، أعلاه.

دويرة؛ وما أن وصل بإزاء معسكره على الضفة الأخرى حتى عبأ قواته وناشبه القتال على التو، وتأججت نيران المعركة وحمى وطيسها؛ وحينذاك انكشفت قوات الفونسو فولت المسلمين الأكتاف قاصدة سمورة ثانية لتحتمى بتحصيناتها؛ إلا أن المسلمين لاحقوها وأقحموها فى وادى وعر ضيق المسلك بالقرب من سمورة وأفشوا فيها القتل والأسر؛ ومن كتبت له النجاة نكب عن سمورة وجاوزها إلى ما يليها شمالا بأكثر من عشرة أميال فى داخل أشتوريس، هروبا من سيوف المسلمين التى تلاحقهم[1]؛ وعند ذلك أوقف المسلمون مطاردتهم لتلك الفلول ليعودوا إلى سمورة بغية الاستيلاء عليها.

ولم يكن يدرى ابن القط وهو فى طريق عودته نحو سمورة أن طامة كبرى سوف تحل عليه بعد هذا النصر المبدئى، إذ تغيرت نفوس زعماء بربر نفزة عليه لاستنكارهم بعض تصرفاته معهم [2] وتواطأوا فيما بينهم على الغدر به خوفا من أن يغلبهم على رئاسة البربر إذا ماتم له النصر، فقرروا أن يجلبوا عليه الهزيمة قبل أن يصل إلى سمورة، وتهامسوا فيما بينهم قائلين : «إن تم لهذا الرجل هذا الفتح العظيم ... لم نسكن بلدنا معه وخرجنا عنه من أجله ... فهلم فلنفر عليه الهزيمة»[3]. ثم تنادوا بشعارهم فولوا بنودهم وانسحبوا عن ركبه ومعهم قبائلهم، حتى نزلوا بالمعسكر على ضفة نهر دويرة فأخذوا كل ما كان لهم فيه، وهولوا على من لقوه من المسلمين بأن الهزيمة قد استمرت بهم وأن العدو يلاحقهم، فقفل جميع من رآهم من المسلمين حتى لم يبق ابن القط إلا فى نفر يسير من خاصته وأتباعه.

لم تخف على الفونسو أنباء تلك الانشقاقات الواقعة فى صفوف المسلمين، فكانت فرصته لينتقم منهم على ما أنزلوه به من هزيمة؛ وليحول أيضا دون وصولهم إلى سمورة أو التفكير فى الاستيلاء عليها، ولذلك سارع إلى استجماع من بقى من قواته وكر على المسلمين فباغتهم وركب أكتافهم، فاضطربت صفوفهم ولم يقووا على مدافعته وإنما تهاربوا أمامه لا يلوون على شئ إلا الوصول إلى نهر دويرة والاحتماء بمعسكرهم على ضفته الجنوبية؛ فلما وصلوا إليه ازدحموا وتدافعوا يعبرونه فى غير نظام فتمكن منهم الفونسو وقتل فيهم مقتلة عظيمة، ثم لاحقهم إلى معسكرهم وقاتلهم عنده حتى غشيهم الليل فحال بينهم. ومع ذلك فلم ينصرف عنهم الفونسو وإنما أقام على حصرهم والاحتراس بهم والتضييق عليهم إلى أن أسفر الصباح فبادأهم بالقتال النهار كله حتى جن الليل؛ فأقام أيضاً على حصرهم حتى صباح اليوم التالى

---

(١) ابن حيان، أعلاه، ص ١٣٦.
(٢) عن أمثلة لهذه التصرفات أنظر : ابن حيان، أعلاه، ص ١٣٥، ١٣٨.
(٣) أعلاه، ص ١٣٦.

وناهضهم بمثل ما ناهضهم به من قبل ، وحينذاك تيقن ابن القط أنه غير ناج فشد على نفسه وأقبل هو ومن بقى معه بوجوههم على قوات الفونسو فثبتوا لها، لكنهم عجزوا عن النيل منها وحلت عليهم المصيبة بكثرة من قتل منهم حتى استؤصلوا إلا قليلاً ممن نجا منهم، ثم انتسفت قوات الفونسو ما فى معسكرهم واحتزت رأس ابن القط ، ولما جئ بها إلى الفونسو أمر بنصبها على باب سمورة فى نفس يوم انتهاء المعركة فى العشرين من رجب عام ٢٨٨هـ[١] / العاشر من يوليو ٩٠١م. وبذلك تحطمت حركة ابن القط على أبواب سمورة وأبيد فيها من تبعه من مسلمى الثغرين الأدنى والأوسط.

بعد هذا الانتصار الذى حققه الفونسو الثالث على القوات الإسلامية التى قادها ابن القط فى الموقعة التى اشتهرت بيوم سمورة، لم يفكر مسلمو الأندلس - لا على المستوى الرسمى أو الشعبى - فى معاودة الهجوم على أشتوريس فتوقف نشاطهم الحربى ضدها؛ خاصة وأن أحوال الأندلس الداخلية ظلت على اضطرابها حتى وفاة الأمير عبد الله فى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢م. فى حين اقتنع الفونسو بما حققه عليهم من نصر، فأولى اهتمامه هو الآخر لشئون دولته الداخلية فيما بقى من عهده؛ بحيث كانت معركة سمورة آخر ماوقع من معارك حاسمة بين الأندلس ومملكة أشتوريس حتى وفاة الفونسو الثالث ، أى قبل وفاة الأمير عبد الله بنحو ثلاثة أعوام .

على أن أهم ما يميز السنوات الأخيرة من حكم الفونسو الثالث تلك المؤامرة التى دبرها ضده ابنه الأكبر غرسية Garcia لانتزاع العرش منه[٢] خلال عام ٩٠٩م /٢٩٦ - ٢٩٧هـ ، وهى مؤامرة كان لها آثارها الخطيرة على مستقبل مملكة أشتوريس وموقف مسلمى الأندلس منها. ومع أن المصادر الإسبانية لم توقفنا على دوافع تلك المؤامرة، إلا أن الفونسو يتحمل جانبا كبيرا منها بسبب اتسام معاملته لغرسية بالجفاء وعدم ميله إليه بالقدر الذى أبداه نحو ابنه الآخر أردونيو Ordono الذى عنى به منذ صغره مثلما أشرنا من قبل؛ ثم أشركه معه فى الحكم بأن عينه حاكما على إقليم جليقية [٣] فى تاريخ غير معلوم قبيل عام ٩٠٩م /٢٩٦ - ٢٩٧هـ؛

---

(١) ابن حيان، نفسه، تحقيق أنطونية، ص ١٣٧، ١٣٩؛ ابن الأبار، نفسه، ٢ ص ٣٦٩ - ٣٧٠؛ Cron. Sampiro, ed. Florez, p 447; Cron. de Lucas, ed. Puyol, p 301.

(٢) قارن بتفصيل : Cron. de Lucas, ed. Puyol, p 303; Cron. Sampiro, ed. Florez, p 447; Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, pp 306 - 307; Prim Cron. General, ed. Pidal, 2 p 382; Cotarelo, op cit, pp 511 - 250.

(٣) Cron. Silense, ed. Florez, p 286

كتمهيد الطريق له لخلافته على عرش أشتوريس، فكان ذلك القرار بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير إذ ثارت ثائرة غرسية باعتباره أكبر إخوته وأولى من أردونيو بهذا الأمر، فوطد العزم على تأكيد أحقيته فى اعتلاء العرش بانتزاعه من والده بالقوة، ووجد تأييدا من والد زوجته نونيو فرنانديث Nuno Fernández أحد كونتات إقليم قشتالة ؛ فحاكا سويا خيوط المؤامرة بهدف الإطاحة بالفونسو، وإن لم تكشف المصادر الإسبانية عن تفاصيلها، فيبدو أن نونيو قد شارك فيها من وراء ستار، إذ حينما اكتشفها الفونسو وأحبطها فقد اكتفى بالقبض على ابنه غرسية واعتقاله فى قلعة جاوثون Gauzón فى أشتوريس، معتقدا أن ذلك كفيل بإعادة الأمور إلى استقرارها.

لكن خابت ظنون الفونسو وتبددت أمام احتجاج نونيو على ما أنزله الفونسو بغرسية، وقاد ضده فى إقليم قشتالة ثورة جامحة أيدته فيها زوجة الفونسو نفسه وابنها الآخر فرويلة Fruela، وحينذاك أدرك الفونسو خطورة الموقف وخشى اتساع نطاق الثورة وتطورها إلى حرب أهلية، فآثر تهدئة خواطر الثوار وأفرج عن ابنه غرسية ، ثم استدعى نبلاء دولته إلى اجتماع فى مدينة بويدس Boides (Puelles الحالية) على مقربة من مدينة خيخون Gijón على ساحل أشتوريس، وفيه عهد إلى غرسية بحكم المنطقة التى أعيد تعميرها حديثا فيما بين جبال كنتبرية شمالا ونهر دويرة جنوبا فيما عرف بإقليم ليون؛ وإلى ابنه الآخر فرويلة بحكم إقليم أشتوريس الممتد شمال جبال كنتبرية ، وذلك مساواة لهما بأخيهما أردونيو الذى كان يحكم إقليم جليقية فى الغرب؛ فى حين احتفظ هو بالسلطة العليا واختار مدينة سمورة التى شهدت آخر انتصاراته على المسلمين مقرا لإقامته. وبهذا التقسيم هدأت خواطر أبناء الفونسو وعادت الأمور إلى طبيعتها، ولم يلبث أن أصيب هو بالحمى فلزم فراشه سبعة أيام ثم توفى فى منتصف ليلة العشرين من ديسمبر عام ٩١٠م/٢٩٧هـ،وعمره نحواً من ثمانى وخمسين عاماً؛ ونقل جثمانه إلى مدينة أستورقة Astorga فدفن فيها، ثم نقلت رفاته فيما بعد إلى مدينة أربييدو حيث توارت فى مثواها الأخير(١).

وبوفاة الفونسو الثالث يتخذ أبناؤه الثلاثة ألقاب الملوك ويستقل كل منهم بما فى يده من أقسام المملكة فتوزعت فيما بينهم، فاختفت المملكة كقوة إسبانية موحدة

---

(١) Cron. Silense, ed Florez, p 286; Cron, de Lucas, ed. Puyol, p 304; Chron Léonaise, ed. Cirot, p 401; Cron. Sampiro, ed Florez, p447 ؛ وإن كان ابن عذارى (البيان، ٢ص ١٤٩) يؤخر وفاته حتى عام ٢٩٩هـ/ ٩١١ – ٩١٢م . وعن مناقشة تحديد وفاته بتفصيل وآراء المؤرخين فيه أنظر : Risco, Esp. Sagr, 37 pp 223 - 224; Cotarelo, op cit, pp 532 - 537

ناهضت مسلمى الأندلس على مدى قرن وثلاثة أرباع قرن؛ وحلت محلها عدة ممالك بمسميات جديدة تصارعت الأمر فيما بينها مدة من الزمن فأضعفت نفسها أمام مسلمى الأندلس . فى الوقت الذى كان قد اعتلى فيه إمارة الأندلس عبد الرحمن ابن محمد حفيد الأمير عبد الله فى عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م ، فأخمد نيران الفتن بها وسكن زلازلها وأعاد إليها وحدتها وتماسكها وسيطر على زمام أمورها بيد من حديد ، ثم وجه نشاطا حربيا خارقا ضد تلك الممالك المسيحية، فكان ذلك بداية لمرحلة جديدة من مراحل الحروب الصليبية الإسبانية فى الأندلس.



الخاتمة



وعلى هذا النحو ، يعتبر ظهور مملكة أشتوريس في عام ٧٣٩م / ١٢١هـ انعطافة هائلة في تاريخ إيبيريا العصور الوسطى بشقيه الاسلامي والمسيحي ، إذ كانت تلك المملكة تعبيرا ملموسا عن قيام أول جبهة إسبانية مسيحية فرضت وجودها على المسلمين في إيبيريا ، وأرغمتهم على قبولها كقوة منعزلة ومستقلة عن كيانهم السياسي ، وتبعا لذلك تغيرت لأول مرة شكل الخريطة السياسية لإيبيريا منذ أن فتحها المسلمون في عام ٩٢ هـ/ ٧١١م وصارت شركة موضع صراع بين قوتين أو نظامين مختلفين ومتعارضين في كل شئ في الجنس والدين والثقافة والهدف ، أحدهما مسيحي في الشمال ظلت مملكة أشتوريس تجسيدا له طوال مدة وجودها على المسرح السياسي لما يقرب من قرن وثلاثة أرباع قرن من الزمان ، والآخر إسلامي في الجنوب هو الأندلس أو ما عرف أيضا بإسبانيا الإسلامية .

وكان من حسن طالع مملكة أشتوريس ، وهي لا تزال تسير في بداية الطريق ، في السنوات الملازمة والمواكبة لقيامها فيما بين عامي ٧٣٩ -٧٥٦م (١٢١ – ١٣٨هـ) أي خلال النصف الأخير من عصر ولاة الأندلس المسلمين، أن كانت اتجاهات المسلمين في الأندلس تائهة في الحروب الداخلية الضارية المتواصلة ، التي أتت على كل جهودهم في استئصال شأفة بعضهم البعض ، فراحت ضحيتها أعداد غفيرة من بينهم قلت بها أعدادهم ، وأضعفتهم جميعا ضعفا صرفهم حتى عن النظر في شئون حياتهم أو مجتمعهم ، بحيث أهملوا عمارة البلاد أو زراعة أراضيها ، فخربت كثير من المزارع وقلت المحاصيل ،وأقفرت الأرض وقحطت قحطا شديدا ، أدى الى مجاعات متتالية أودت بحياة أعداد أخرى من المسلمين حتى خف سكان الأندلس ، ولم يعد فيهم منهض أو قوة ، وعظمت البلوى عليهم فانعدم الأمن وتقطعت الصلات بينهم ، بحيث لم يعودوا يتوقعون الأخطار إلا من بين صفوفهم وحدهم ، فأهملوا مراقبة حدودهم ، أو الشعور بالخطر المتمثل في مملكة أشتوريس فاستقلوا أمرها وكفوها جهد الحرب أو الصدام معهم ، في وقت كانت تعجز عن مواجهتهم مواجهة عسكرية مباشرة في أرض مكشوفة ، أو تبني سياسة هجومية ضدهم ، وبذلك أفسح لها المسلمون المجال على نحو غير محسوس لإرساء قواعدها ، وتمكين أقدامها ، وتقوية جبهتها الداخلية ، حتى دبت القوة في أوصالها بعد ضعف. وصارت نواة صلبة قادرة على الثبات لهم والتجرؤ عليهم؛ وحينذاك أخذت مملكة أشتوريس في مزاحمة المسلمين جديا فيما يسيطرون عليه من أرض ، واقتطعت

بالفعل بعض أطراف الأندلس المجاورة لأراضيها ، فوضحت مطامع أشتوريس فى السيطرة على إيبيريا من دون المسلمين؛ ولم يعد فى الإمكان والحال كذلك أن تلتقى أشتوريس والأندلس حول شئ يجمعهما سوى عداوة كل منهما للأخرى، ولم تعد الحروب بينهماحرب حدود وإنما حرب وجود .

فلما انقضى عصر ولاة الأندلس المسلمين وقامت دولة بنى أمية فى عام ١٣٨هـ / ٧٥٦م ، كان على أمراء بنى أمية الاقتناع بالأندلس كما آلت إليهم منقوصة الأطراف ، فصرفوا عنايتهم إلى الحفاظ عليها ضد أطماع أشتوريس ، وتثبيت حدودها على ما وجدوها عليه ،دون أن يضعوا ضمن سياستهم خطة واضحة للقضاء على مملكة أشتوريس أو إزالتها بعد ما صار وجودها أمرا لا بد من التسليم به ، وكان يشفع لهم هذا الاتجاه أن مملكة أشتوريس لم تنتزع من دولتهم شيئا ، وأن ما استولت عليه كان قبل قيام دولتهم أى خلال عصر الولاة ؛ ولذلك فلم يعتبروا أنفسهم مسئولين عن أخطاء من سبقوهم أو هكذا كان رأيهم . وفى ذات الوقت فقد ماج على أولئك الأمراء دون استثناء بحر من الخلاف والفتن والمنازعات الداخلية ، التى أثارتها ضدهم عناصر شعبهم المتنوعة ، بهدف القضاء على إمارة بنى أمية ، ومن ثم فلم يكن بوسع أولئك الأمراء أن يورطوا أنفسهم فى حروب ومعارك خارج حدود بلادهم ضد أشتوريس قبل أن يوطدوا سلطانهم فى الداخل ، فاكتفوا بالتصدى لأطماعها لحين الانتهاء من متاعبهم الداخلية .

وعلى العكس من ذلك ، فلم يغب عن خواطر ملوك أشتوريس أنهم ملتزمون بتحقيق هدف محدد، يتلخص فى خلق المتاعب أمام المسلمين فى داخل الأندلس وعلى حدودها؛ بهدف إجهادهم إلى أن تحين الفرصة المناسبة لتوجيه ضربة عاتية لهم؛ يستعيدون بها منهم الأرض التى اعتبروا المسلمين مغتصبين لها .

وهكذا تباعدت وجهتا نظر هاتين القوتين المتعاديتين ، وكان من الطبيعى أن ينشب بينهما الصراع لأتفه الأسباب ، واختلف شدة وضعفا بحسب أحوال كل منهما الداخلية ، كما حفل بعديد من المعارك البرية المشهورة بين القوات الأندلسية والأشتورية ، مثل معارك : بونتوميو ، ولوتوس ، وأرون ، وأنثيو ، وجرنيق ، وليون ، وكلابيخو ، والمركوير ، والبربرية ، ودويل ، وسمورة ، وهى معارك دارت رحاها على أراضى كل من الدولتين ، وتبادلا فيها النصر والهزيمة مثلما تبين بالتفصيل فى ثنايا الدراسة .

ومن الملاحظ على هذا الصراع أن انتهج فيه أمراء بنى أمية – فى كثير من

الأحيان – سياسة تقليدية ثابتة، اقتصرت على تنظيم إرسال الحملات العسكرية ضد أشتوريس ، فوصلت بعضها إلى عاصمتها وهددت أعماق بلادها، ولكنها كانت حملات انتقامية وقائية . وإلى جانب تلك الحملات فقد أبدى معظم أمراء بنى أمية اهتماما فائقا بتحصين الثغور وتقوية دفاعاتها، كوسيلة لاتقاء هجوم أشتوريس على الأرض الأندلسية أو النيل منها؛ ومع ذلك ، فلم تنجح أى من الوسيلتين النجاح المأمول فى وقف مطامع أشتوريس وتطلعاتها، وإن كانت قد أعاقتها وحدت منها فى بعض الأحيان .

وليس هناك من شك فى أن جمود موقف أمراء بنى أمية تجاه أشتوريس على النحو السابق ، إنما يرجع مثلما ذكرنا من قبل إلى كثرة متاعبهم فى الداخل وتنوع خصومهم فى الخارج لا سيما الفرنجة فى بلاد غالة ، وحتى المسلمين فى المشرق الاسلامى؛ وذلك على عكس مملكة أشتوريس ، التى وإن لم تخل من مثل تلك المتاعب الداخلية – كمحاولات اغتصاب العرش أو ثورات بعض نواحيها – إلا أنها لم تكن بمثل القوة والشدة التى كانت عليها فى الأندلس، ولم يكن معظمها إلا بهدف تغيير ملك بآخر؛ فضلا عن تجانس سكان أشتوريس على عكس سكان الأندلس ، ولذلك كان الحكم فى أشتوريس مستقرا إلى حد بعيد ، وصارت الدولة شعبا وحاكما إلبا واحداً ضد عدوهم المشترك من المسلمين، وهو ما كان أحد أسرار نجاح أشتوريس وتفوقها على مسلمى الأندلس .

كذلك فمن أسرار تفوق أشتوريس أنها لم تأل جهدا فى اتباع أساليب مرنة سرية وعلنية للفت من عضد المسلمين ، فاستخدمت معهم الحرب السافرة وجها لوجه؛ فضلا عن حرب العصابات الاستنزافية وحرضت ضدهم المارقين والمنشقين فى داخل الأندلس ، وعاونت عسكريا وماديا بعضهم الآخر ، وآوت عندها فريقا ثالثا. وعلاوة على ذلك فقد وسعت من نطاق الصراع معهم، فاستعدت عليهم الفرنجة فى غالة، والبشكنس فى بمبلونة وعقدت معهم المحالفات ؛ كما اتصلت بالبابوية فى روما التى أضفت الشرعية الدينية على صراعهم السياسى ضد المسلمين ، وهى أساليب مكنت أشتوريس من إجهاد المسلمين والتقوى عليهم .

وفى خضم ذلك كله ، فلم تغفل أشتوريس عن تدعيم وسائل الدفاع على حدودها مع الأندلس ، فأقامت العديد من القلاع وزودتها بالأسوار والأبراج والحاميات، فضلا عن عنايتها بتنمية مواردها الاقتصادية ، وتطوير أجهزتها الإدارية والسياسية ، واستغلال طاقاتها البشرية إلى أقصى حدود ؛ وهو ما كان له أثره فى دعم جبهة أشتوريس فى صراعها ضد الأندلس .

وعلى الرغم من هذا الصراع شبه المتواصل، فقد فرضت الأوضاع الداخلية في كل من الأندلس وأشتوريس أن يعقدا معاهدات صلح مؤقتة، ساد خلالها الاسترخاء العسكرى بينهما ؛ مثلما حدث بين الأمير عبد الرحمن الداخل وبين ملوك أشتوريس المعاصرين له ، فيما بين عامى ١٥١ - ١٧٢هـ / ٧٦٨ - ٧٨٨ م ؛ وكذلك بين الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط والفونسو الثالث آخر ملوك أشتوريس فى عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م . لكن كانت كل تلك المصالحات نوعا من الهدنة المسلحة التى لم تلبث أن انتقضت شروطها ليعود الصراع بين الدولتين إلى اشتداده .

وعلى كل ، فقد كانت محصلة هذا الصراع أن تفوقت مملكة أشتوريس على مسلمى الأندلس ، ووسعت مساحة أراضيها اتساعا شمل كل ما يقع إلى الشمال من نهر دويرة ، وقاربت بحدودها الحافة الشمالية لجبال وسط إيبيريا ، وهى مساحة كانت كافية لأن يتوزعها أبناء آخر ملوك أشتوريس فيما بينهم، ليقيموا عليها ثلاث ممالك مسيحية حلت محل مملكة أشتوريس مع بدايات القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ؛ لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع مع الأندلس.

وعلى ذلك كانت مملكة أشتوريس البؤرة التى انبثقت منها فكرة المقاومة الإسبانية للمسلمين فى الأندلس قبل أن تظهر فى غيرها من أقاليم إيبيريا ، وناءت بالدور الأكبر فى بلورتها وتطويرها فابتدأت بها فترة هامة وحرجة للغاية من تاريخ المسلمين فى الأندلس ، وأدت إلى أول مراحل التقلص التدريجى البطئ للنفوذ الإسلامى هناك ، وهو تقلص تكفلت القوى المسيحية التى تلت مملكة أشتوريس - لا سيما ليون وجليقية وقشتالة - بإتمام مراحله على صورة أشد وأعنف ، وذلك فيما عرف بحركة الاسترداد La Reconquista التى انتهت بالفعل بإجلاء المسلمين عن آخر معاقلهم فى إيبيريا ، واستعادة الاسبان السيطرة عليها كلية فى عام١٤٩٢م/ ٨٩٧هـ، أى بعد ما يقرب من سبعة قرون ونصف من قيام مملكة أشتوريس الإسبانية. وعلى هذا النحو أرست مملكة أشتوريس قواعد الحروب الصليبية فى الأندلس فى تلك الفترة المبكرة. ومهدت لاشتدادها فيما تلى ذلك من قرون، ولم يقتصر رحاها وقتذاك على الأندلس وحدها، وإنما اتسع نطاقها وامتدت لتشمل الشرق العربى؛ فيما عرف بالحروب الصليبية التى شاركت فيها كثير من الدول الأوربية .

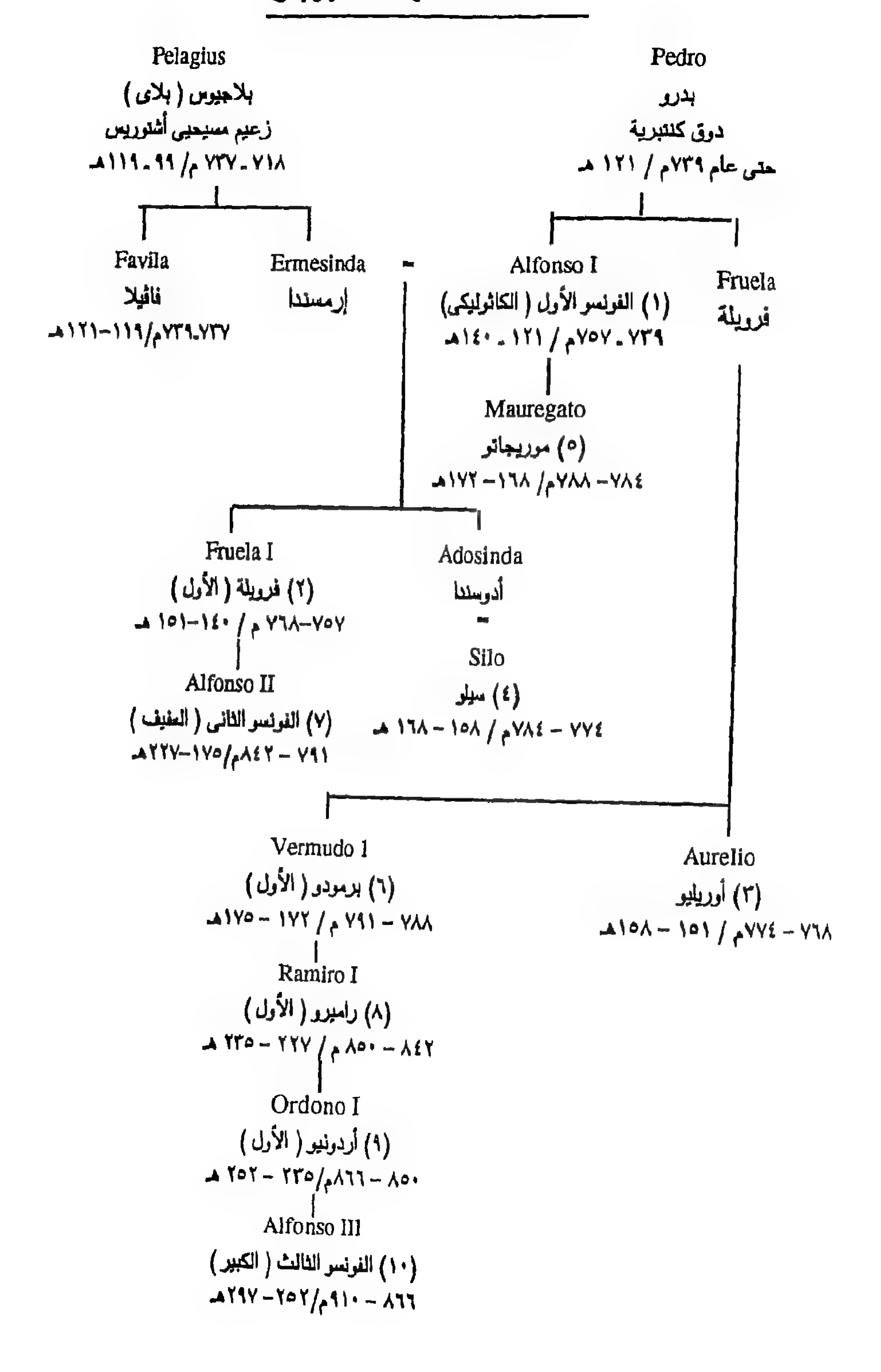
الملاحق



أولاً : قوائم حكام أشتوريس والأندلس



١ - سلالة ملوك أشتوريس



٢ - تتابع حكام الأندلس

أ - ولاة بنى أمية :

١ - عبد العزيز بن موسى بن نصير ٩٥ - ٩٧هـ/ ٧١٤ - ٧١٦م
٢ - أيوب بن حبيب اللخمى ٩٧هـ / ٧١٦م
٣ - الحر بن عبد الرحمن الثقفى ٩٧ - ١٠٠هـ / ٧١٦ - ٧١٩م
٤ - السمح بن مالك الخولانى ١٠٠ - ١٠٢هـ/ ٧١٩ - ٧٢١م
٥ - عنبسة بن سحيم الكلبى ١٠٣ - ١٠٧هـ/ ٧٢١ - ٧٢٥م
٦ - عذرة بن عبد الله الفهرى ١٠٧هـ / ٧٢٥م
٧ - يحيى بن سلمة الكلبى ١٠٧ - ١١٠هـ/ ٧٢٥ - ٧٢٨م
٨ - حذيفة بن الأحوص القيسى ١١٠هـ/٧٢٨م
٩ - عثمان بن أبى نسعة ١١٠هـ/٧٢٨ - ٧٢٩م
١٠ - الهيثم بن عبيد الكلاعى ١١١ - ١١٣هـ/ ٧٢٩ - ٧٣١م
١١ - محمد عبد الله الأشجعى ١١٣هـ/٧٣١م
١٢ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ١١٣ - ١١٤هـ/ ٧٣١ - ٧٣٢م
١٣ - عبد الملك بن قطن الفهرى ١١٤ - ١١٥هـ/٧٣٢ - ٧٣٣م
١٤ - عقبة بن الحجاج السلولى ١١٦ - ١٢١هـ/ ٧٣٤ - ٧٣٩م
١٥ - عبد الملك بن قطن الفهرى ١٢١ - ١٢٣هـ/ ٧٣٩ - ٧٤١م
١٦ - بلج بن بشر القشيرى ١٢٣ - ١٢٤هـ/٧٤١ - ٧٤٢م
١٧ - ثعلبة بن سلامة العاملى ١٢٤ - ١٢٥هـ/ ٧٤٢ - ٧٤٣م
١٨ - أبو الخطار الحسام بن ضرار ١٢٥ - ١٢٨هـ/ ٧٤٣ - ٧٤٥م
١٩ - ثوابة بن سلامة الجذامى ١٢٨ - ١٢٩هـ/ ٧٤٥ - ٧٤٦م
٢٠ - يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ١٢٩ - ١٣٨هـ/ ٧٤٦ - ٧٥٦م

ب - أمراء بنى أمية :

١ - عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ١٣٨ - ١٧٢هـ/ ٧٥٦ - ٧٨٨م
٢ - هشام بن عبد الرحمن (الأول) ١٧٢ - ١٨٠هـ/ ٧٨٩ - ٧٩٦م
٣ - الحكم بن هشام (الأول) ١٨٠ - ٢٠٦هـ/ ٧٩٦ - ٨٢٢م
٤ - عبد الرحمن بن الحكم (الثانى) ٢٠٦ - ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ - ٨٥٢م
٥ - محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨ - ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ - ٨٨٦م
٦ - المنذر بن محمد ٢٧٣ - ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ - ٨٨٨م
٧ - عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢م.

ثـانـيـاً : الـوثــائــق والمراسلات


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثيقة يمنح بموجبها بلاجيوس Pelagius كل أملاكه لدير سانت هيلانة Santillana بأشتوريس. (١)

In Dei nomine, et eius indiuiduae Trinitatis Patris, et filius, et Spiritus Sanctus. Ego Don Pelayo .... Sinistram, et nullum Cogentis imperio, nec Suadentis articulo integro sensu, Spontaneaque mea voluntates, per remedium de Animas nostras, et de Parentum nostrorum, trado mea haereditate Deo, et a Sancta Juliana in Planes, et ad Abbate Don Pero, et ad Seniores, qui in eodem Loco die, noctuque serviunt. sic trado mea Haereditate de Campo Longo, Loco praedicto, el Valengo. Quantum ibi habui, et quantumcunque pertinet in partes in Haereditatibus, Pomares, Exitus, et Regressus in Monte, et in Fonte invenietis in illo silo in Pratis, et Haereditatibus cum Pomares : Solar, qui fuit de Maria Joannes, Filia de Joanne Sansigez, cum Haereditates, et Pomares. Et la terra del Solare de Michael Flanco, qui fuit de Illana Miguelez, cum Terras, et Haereditates, et Pomares. Sic trado, et affirmo stabile per semper omne sirmamentum suum. quod do in censum in meas Hermanas Dosindo, et Anna, et post obitum. suum. De nunc si habuerit aver vivo, non det maneria, nin det anuba de Heredad, nin Albrero, nin cuxhu, non intret in praestamo, non det conduchu, non intre Merino, nin Sayon, nisi Prior de Sancta Iuliana. Si culpa sicier, endereciela por querela a Rey .... Et si Merino, o Sayon torto les sicieren in suos Solares, aut in suas Haereditates, et Liberos los prendieren gente .... et si los mataren .... Et quantum Ganates de Sancta Iuliana, aut divisa .... ad istum forum vestris Filijs .... Et omne Sirmamentum habeat usque ad sinem. Si quis vero testimonium hoc fregerit, expers diuinae misericordiae vel factum irrumpere quaesierit, sit ille maledictus, et excomunicatus, et Luat poenas inferni usque in perpetuum. Facta Carta instuus Testamenti sub era .... cc .... quarto Kalendas Martias.

(١) نقلا عن : Floriano, Diplomatic. Espanola del period. Astur, I pp 29 - 30.

وثيقة مؤرخة فى ٣١ أكتوبر عام ٧٤٠م يمنح بمقتضاها الفونسو الأول Alfonso I هبات وأعطيات لكنيسة سانتا ماريا دى كوبادونجا Santa Maria de Covadonga. [١]

SUB Christi nomine, et individuae Trinitatis, Patris Videlicét, et Filii quoque, et Spiritus Sancti, et gloriosissimae Virginis, et semper immaculatae Mariae Dei Genitricis, Angelorum, et omnium Sanctorum, Apostolorum, Prophetarum, Martyrum, Virginum, et Confessorum. Ego Aldefonsus Dei gratia Rex, et uxor mea Hermesendis Regina, aedificamus Ecclesiam Sanctae de Covadefonga in Asturiis, et transtulimus in ipsam Ecclesiam imaginem Beatae Mariae de Monte Sacro, et sacravimus ipsam basilicam per manus duodecim Episcoporum, et totidem Abbatum, in praesentia Palatinorum, et Optimatum nostrorum, in tradditione Soceris mei Principis excellentissimi et strenuissimi Pelagii, qui auxiliante Deo in ipsa specu superavit quinquaginta millia barbaros Mauros Kalendis augusti Era DCCLVI. et posuimus ibi collegium duodecim monachorum cum Abbate, ut semper servarent normam Sancti Benedicti: Et fecimus in ipsa Basilica tria altaria, Sanctae Maria sub titulo navitatis suae unum, Sancto Joanni Baptistae aliud, et aliud Sancto Apostolo Andreae, Propterea damus vobis Abbati Adulpho et Monachis clericis et fratribus ibi degentibus, et Jugum Christi portantibus, duas campanas de ferro, et duas cruces, unam auri purissimi, et aliam argenti cocti, et tres calices argenti, tres casullas de syrgo, et tres pallias, et quinque capas, et tres candelabros, quatuor fumiferos, et tres patenas, et duodecim paliares plumaticos, viginti equos, et totidem equas, quatuor asinos, centum

(١) نقلاً عن : Risco, Esp. Sagr., 37 pp 303 - 304, Floriano, Diplomatica , 1 pp 34 - 35

arietes, quadraginta bobes, triginta porcos. Et donamus item vobis ipsum locum, ubi edificavimus ipsum caenobium, et ipsum monasterium : tali modo ut nullus Episcopus,nec Rex, nec Comes, nec Potestas, nec Dux, nec miles, nec sayonis, nec regulus, nec aliquis homo habeat potestatem in ipsum monasterium, nisi Abbas qui fuerit, et succesores eorum omni tempore, sed maneat in potestate eorum. Jubemus quoque vobis quidquid in ipso monte habeo, ut in eo habeatis licentiam caedendi ligna, et pascere pecora vestra, et facere cellulas eremiticis in quacumque parte ipsius montis. Si quis autem meorum posterorum, vel alienorum irrumpere, vel infringere voluerit, iram Dei omnipotentis incurrat, et sit in inferni voragine demersus, et pectet secundum legem Gothorum Abbati mille libras auri purissimi, et Regi terrae duplicatum. Facta carta in ipso capitulo pridie Kalendas Novembris Era DCCLXXVIII. = Ego Rex Aldefonsus signum + injeci. = Ego Hermesendis Regina manu mea + feci. = Ego Petrus Episcopus signum + feci. = Ego Aldefonsus Episcopus signum + feci. = In christi nomine Pena Episcopus + feci. = Anectus Comes + feci. = Belasicus Abbas + feci. Bitremirus Abbas + feci. = Surianus Potestas + feci. = Avitus Presbyter, qui notavit + feci.

وثيقة أخرى مؤرخة فى ١١ نوفمبر عام ٧٤١م، يمنح بمقتضاها الفونسو الأول هبات وأعطيات وأراضى لكنيسة سانتا ماريا دى كوبادونجا. (١)

In momine Patris, et Filii.; et Spiritus Sancti, Amen. Ego Aldefonsus Rex, et uxor mea Hermesendis Regina tibi Adulfo Abbati gloriosissimo domino meo, et avunculo meo, et tuis clericis, qui in monasterio Beatae Mariae de Covadefonga die, nocteque Deum semper laudant, et in orationibus non desistunt; ideo donamus vobis Ecclesiam Sanctae Mariae de Ponteferrato, et Ecclesiam Sanctae Mariae de .... et Ecclesiam Sancti Andreae de Benavente. et Ecclesiam Sancti Martini de ponte Reginae, et Ecclesiam Sancti Pantaleonis de Onis, et Monasterium Sancti Michaelis, de..... et omnes Ecclesias quae sunt ab ipso Monasterio usque ad Guixonem, et Sausonem, et deinceps usque ad mare Cantabricum, scilicet villas, Ecclesias, Monasteria cum suis directuris er praeminentiis jure hereditario possidendum, et jubeo ut nullus Rex, seu Comes, seu Episcopus, seu Mertropolitanus, seu Dux, vel Potestas, vel Sayonis, nec homo aliquis de genere meo, vel alieno, sit ausus huc intrare, nisi Abbas Monasterii Sanctae Mariae de Covadefonga, aut successores eorum, nec pro homicidio, nec pro fornicio, nec pro aliqua causa,sed ipsa Ecclesia, et ipsum Monasterium sit jure haereditario in potestate Abbatis praefati caenobii. Et si homo latro huc intraverit, punietur ad voluntatem ipsius Abbatis, et sit mancipatus in Palatio Regis. usque pectet Abbati suum placitum. Similiter donamus inquam vobis omnes Ecclesias, quae suntin circuitu et giro ipsius caenobii ad XII mille passus, et in Civitate Legionense Monasterium Sancti Vicentis Martyris, cum suis directuris, et

(١) نقلاً عن : Floriano, Diplomatica, 1pp 38 - 39, Risco, Esp Sagr., pp 304 - 305

Decaneis. Donamus item vobis omnis Pisacarios ab ipso mari Cantabrico pro luminario dictae Ecclesiae Mariae de Covadefonga, et pro elemosyna pauperum et peregrinorum. Itaque jubeo ut nullus ex genere Gothorum Princeps, aut Dux, aut Potestas non sit ausus huc intrare, et si intraverit sine alia licentia, occidatur anethem..... et pectet Imperatori terrae centum libras auri purissimi, et Abbati ipsius Monasterii duplatum. Facta charta...... III. Idus Novembris Era DCCLXXIX. = Ego Aldefonsus Rex, manu mea signum + impresi. = Ego Hermesendis Regina quoque + = Ego Aldefonsus Episcopus + feci. = Ego Penapus Episcopus + feci. = Abbas Adulfus praefati Monasterii, qui notavit + feci.

وثيقة تأسيس أتباع الأسقف أودواريو كنيسةسانتا كولومبا Santa columba فى ضاحية Villa Marci المهجورة بمدينة لوجو بإقليم جليقية، مؤرخة فى الأول من فبراير عام ٧٤٥م.(١)

In nomine Dei Patris Omnipotentis, factoris mundi,et in nomine Ihesu Christi mundi Redemptoris, et in uirtute Spiritus almi inluminatoris mundi, et consolatoris, et in honore et ueneratione omnium celestium terrestrium uirtutum, et beatorum spiritum, necnon et Gloriose Uirginis Marie Genitricis Dei, et Domini nostri et beatorum apostolorum Petri et Pauli, ac ceterorum apostolorum, simul etiam et beatorum martirum Stephani leuite, et laurentii Martiris ac sociorum martirum etiam et in Sanctorum Confesorum Martini atque Isidori, uidelicet in laude etiam Sanctarum Uirginum Columbe atque Agnetis, simul et omnium Sanctorum patrocinia petentes, et remissionem peccatorum nostrorum a Deo poposcentes; qui non vult mortem peccatoris, sed uitam desiderat . In eius misericordia, et pietate confidentes, qui cunta disponit, simul, et ordinat: Nos homines humillimi, ego uidelicet Haloitus et uxor mea nomine Icka, et propinqui mei nominibus : Gemeno, Riccilone Dulcidilo, felice, Margarita, Censerigo, Berosindo, Ermosinda, Trasildi, Sisenando, et Kagilda, qui omnes simul cum ceteris plurimis ex Affrice partibus exeuntes cum domno Odoario Episcopo, cuius eramus famuli et seruitores, cum ad Lucensem urbem Gallecie Prouincie . ingressi fuissemus, inuenimus presul ipsam Ciuitatem desertam, et inabitabilem factam cum suis terminis. Prefatus uero gloriosus Odoarius presul ipsam urbem, et uniuersam Prouinciam studuit restaurare, hac propria familia stipauit Nos uero supra nominati, qui ex eius eramus familia, perseuerantes in illius seruitio

(١) نقلاً عن : Floriano, Diplomatica, 1 pp40- 44

per multorum. curriguIa annorum petiuimus cum omni subgectione, ut nobis concederet et donaret unam uillam, ex illis quas ipse prendiderat, quod facere misericordia motus non distullit; et dedit nobis unam uillam prenominatam Uilla Marci quam ipse prendiderat et dederat Marco sobr[ino suo; a q]uo nomen accepit Uilla Marci, et est ipsa uilla. in sub urbio Lucense ciuitatis, territorio dicto flamoso. Hanc itaque uillam nobis donauit pro seruitio quod ei fecimus, et uerirate quam ei tenuimus sub[tali tenore et pactu]ut cunctis diebus uite nostre tam nos nominati, quam etiam successores nostri iussionem eius et uolumptatem successorum eius, qui in eadem urbe fuerint, faciamus in perpetuum. Hac itaque donatione seu con[firmatione facta, non long]o post tempore, ego supra nominatus Aloitus amonitus in somnis multoties, ut in eadem uilla Domum Dei edifigarem, uisionem et admonicionem supradicto pontifici retullit, quod[ille benigne consider]ans, iussit nobis construit Ecclesiam in honorem Dei et Sancte Columbe Uirginis; tribuitque nobis adiutorium, et omines concessit, quos tenebamus de manu illius qui erant ex familia illius, ut Ecclesiam ipsam construerent, ipse presul ponens propria manu in fundamento lapidem. Itaque auxiliante Deo cum perfecta fuisser ipsa Ecclesia : ego iam dictus Aloitus, qui unas eram ex familia ipsius presulis uocaui et adduxi ipsum prefatum presulem, ut ipsam dedicaret Ecclesiam e Deo consegrare domum, quam illius construxerat familia, et dotem cimiteriumque et terminos ad stipendia clericorum Deo seruientium disponeret, quod ita perfectam est, consegrauitque ipsam Ecclesiam, et ex propriis tensauris reliquias Sancte Columbe ibi recondidit, et dotem et terminos definiuit. Sunt uero ipsi termini per termino de Castro Recmiri, euenitque in termino Venatorii de inc per ribulo, que discurrit ad Minco, et hinc per negrellos uaditque ad Uillam, quos uocitant Cabanas, et inde ubi intra flamoso in Mineo. Quiquid is terminis continetur in decimis, et primiciis ad

ipsam Eclesiam Sancte columbe seruire perpetualiter iubemus, et ego ipse Aloitus quintam de omni mea hereditate, quam de manu ipsius pontficis per presura acceperat die dedicationis super altare offero ornamenta etiam eclesie seu altaris concedo pro remedio anime mee, idest libros, cruces, calices, et uestimenta tam siriga, quam linea et omnia utensilia eclesiastica, et uasa consegrata in opus ministerii similiter offero. Concedo etiam ad stipendia clericorum, ibi Deo seruientium, terras, arbores fructiferas, et ceteratque sunt necesaria tam in terris quam in aquis omnia Domino Deo offero et gloriose Uirginis alme Columbe, et uobis glorioso Pontifici domno Odoario Episcopo, pro pecatis, et offensionibus meis; et mee progenie, ut a Deo accipiamus remissionem; et ereditatem glorie celestis, cum angelis sanctis; sub tali confirmatione, ut habeamus ego et omnis posteritas mea, partem, et societatem in omnibus obsegrationibus, orationibus, uigiliis. ingnis, et canticis, et et elemosinis, que in predicto loco fuerint Deo redite. Sub tali pactu et confirmatione tenoris, ut ego et omnis posteritas mea uobis domno Hodoario, et omnibus sucessoribus uestris Lucense sedis Episcopis, quasi ex propria ereditate seruicium, et ueritatem faciamus uobis iure ereditario, et omnem censuram canonicalem per singulis annis Domino Deo et Sancte Marie persoluamus; et illam uillam et ecclesiam que est in eam fundatam de uestra manu, et successorum uestrorum teneamus, et possideamus Domino seruientes, et ueritatem prestolantes aduentus illius in quo possimus audire uocem illam Domini : Uenite Benedicti Patris mei, participite Regnum uobis paratum ad origine mundi Si quis anc seriem dotis uiolauerit sit anatema ad concilio, uidelicet sanctorum segregatus, nisi conuersus egerit penitentiam. Facta series dotis Ecclesie istius Sancte Columbe uel testationis primo kalendas februarias era DCCLXXX III.

Ego Odoarius gratia Dei Episcopus, pui presens fui, et Ecclesiam pro-

pria familia construxi, et altare consegraui, anc seriem dotis a me facta manu propria confirma. (Signum).

a) Adulfus Aepiscopus (Signum). - Aego Aloitus et uxor mea Icka qui fundatores fuimus manus nostras roboramus (Signa). - Damundus Arcidianus (Signum). - Ermeties Diaconus hic testis (Signum).

b) Ero Eita presbyter ubi preses fui. - Froyla presbyter ubi preses fui- Maternus presbyter ubi preses Fui.

c) Gemeno cf. - Censerigo Cf.

d) Ricilone cf. - Berosindo cf.

e) Dulcido cf. - Ermosinda cf.

f) Arias presbyter ubi preses fui testis. - Manualdus presbyter ubi preses fui testis. - Nandulfus presbyter ubi preses fui testis.

Margarita confirma. Sisenando confirma.

Gersemundus presbyter, qui notuit (Signum).

وثيقة تأسيس الملك سيلو Silo كنيسة لوكيس Lucis مؤرخة فى ٢٣ أغسطس عام ٧٧٥م.(١)

(Christus) Silo. Macnum adque preclarum est locum abitacjonis propter mercedem anime mee facere donatjonem ad fratres et seruos Dei Perti presuiteri, alantj conuersj, Lubinj conuersj, Aujtj pre [bi]tjri, Ualentjnj presbiteri, uel aliorum fratrum qui In ipso loco sunt, uel quem Deus Ibi adduxserit qui a nobis pedes obsculauerit sunt Ipsi serui Dei, ut darent eis locum oratjonjs in cellario nostro qui est Inter Iube et Masoma, Inter ribulum Alesancia et Mera, locum que dicitur Lucis determinatum de Ipsa uilla ubi Ipse noster mellarius abitauit Espasandus, et per IIlum pelagum nigrum, et lusta montem que dicitur Farum, et per IIlas sasas aluas et per llla lacuna usque in alia lacuna, et usque ad petra ficta et per lla lagenam et per Ipsum ullare que dicitur Desiderii et per IIlum arogium que dicitur Alesantjam et per alia petra ficta quistatin montem super Tabulata per ipsa strata qui escIude terminum; usque In locum que dicitur Arcas, et arogium que dicitur Comasio cum omnem exitum et regresu suo, castros duos quum omne prestacione suam montjbus et felgarias parietes qui Iui sunt et omnem exitum, ec omnia supra nominatum dono uobis Deo adque concedo per nostrum fidelem faratrem Sperautane abatem, ut oretjs pro mercedem annime mee In eclesia que Ibi edificata fuerjt et omnia de meo lure abrasum et In uestro lure traditum et confirmatum abeatjs omnia firmiter adquem Inreuocauiliter, et quem Deus adduserit ad confesio nem In Ipso loco uindicent omnia qum omnem uoce oposuitjonis mee et Iudicent adque defendant de omnem omine et si post odie aliquis eos Inquietare uoluerit pro Ipso loco uel pro omnia

---

(١) نقلاعن : Floriano, Diplomotica 1pp 66 - 68

quod seritum est. In primis sit sebaratus ad co munione sancta, et a conuentu cristianorum et eclesie sancte permaneat extraneus et cum Iuda traditore deputetur danandus talisque Illum ultjo Consequatur diuina que omnis uidentes terreant et audientes contremescant Facta karta donacionis sub die X kalendas setenberes era dccccxIII. + Silo anc escritura donacionis manu mea + (Sign) + Esperauta aba anc escritura ubi preses fui (Sign) . Teodenandus conuersus manu mea (Sign.) feci Nepozanus testis anc escritura donatjonis ubi preses fui et testis (Sign) ... clerjcus manu mea sinum (Sign.) feci Florentjus presbiteri testjs (Sign.) ... (Sign .) feci. Seluatus presbiteri (Sign.) .... testis (Sign.) feci.

+ Adefonsus confirmans (Signum).

وثيقة تأسيس أدلجاستر Adelgaster ابن الملك سيلو كنيسة سانتا ماريا دى أوبونا Santa Maria de Obona مؤرخة فى ١٧ يناير عام ٧٨٠م.(١)

In nomine Sanctae et individuae Trinitatis Patris, et Filii, et Spiritus Sancti, cuius regnum et imperium permanet in saecula saeculorum Amen. Ego Addelgaster filius Silonis Regis, una cum coniuge mea Brunildi, inflamati divino spiritu, et a Deo omnipotenti visitati: metuque mortis inspicientis, placuit nobis, et in propria nostra venit voluntate, ut edificaremus Monasterium in propria nostra haereditate, quam habemus iuxta rivulo discurrente Erdeina, loco nominato Obona, in qua primum pro remedio animae nostrae, et parentum nostrorum; ad honorem Dei, et Beatae Mariae matris eius, et Sancti Michaelis Archangeli, et Sancti Ioannis Evangelistae et Sancti Antonini Martiris, et Sancti Benedicti Abbatiscuius ordinem in ipso Monasterio instituimus, et omnium Sanctorum Dei: ut dignam remunerationem recipiamus, et in perpetua vica cum sanctis et electis Dei partem habeamus. Damus et concedimus in ipso Monasterio Sanctae Mariae de Obona, nostras haereditates, et criationes, scilicet ipso loco de Obona, per suos terminos antiquos, per illo rio qui vadit inter Sabbadel, et villa Luz, et inde ad illum molem de illa strada de Patrunel et inde per illa via quae vadit ad illo Castro de Pozo, et per illa via quae vadit ad Petra tecta. Et per Petra et deinde per illa strata de Guardia, et inde per illa arelia de Branas, et per illo rivulo de inter Brana travessa, et Branas. Et per illa Brana de Ordial, et per illas mestas de Freznedo, et per Conforquellos, et inde ad illo rio Rivilla, et per Brana de Rivilla, et ad illo pozo detrave, et per pena Malore, et per pena

(١) نقلاً عن : Floriano, Diplomatica, 1pp 71 - 74; Risco, Esp. Sagr., 37 pp 308 - 309.

Sarnosa, et per illo molon de inter ambos rios, et per Lumbillas, et per pena de Felgueros, et per Fontalel, et per illas penas inter Villaluz et Sabadel, et ad illo rio quod prius diximus, et quidquid infra istos terminos continetur, villas populatas, et illa villa de Sancto Romano, et muries Vaccello, et Villaluz, montes, fontes, molinarias Branas. Totum a bintegro damus Deo, et Monasterio Sanctae Mariae de Obona, excepto Villatrice, quae damus a Dona Elo. Extra istos terminos damus Simproniana, et Baorres, et Piando et Laenes. Damus siquidem nostras criationes nominatas Saderno cum filiis et filiabus suis, Thotmiro cum filiis et filiabus suis, Fiela cum filiis et filiabus suis, Xemena cum filiis et filiabus suis, Elosina cum filiis et filiabus suis; et isti serviant Monasterio Sanctae Mariae de Obona in quantum et quale servitium ab Abbate, vel Vicario uius Monasterii eos vocaverint, vel iniungerint, et habeant illa hereditate de Perella, et prestimonia in hereditate Sanctae Mariae, ubi Abbas Monasterii huius, et eius vicarius dederit. Et in die qua vocati ad servitium fuerint, habeant portionem edendi et bibendi, scilicet libra una, et quarta panis milli, vel de alio seundo. Et portionem favae, et milli, vel de alia edulia, et sicere si potest esse. Et si in Monasterio assiduitas fuerit serviendi, habeant praedictam portionem victualis et vestimentum sicut ipsa domus Dei sufficere potuerit, Et si forte aliquis ex istis socium fratrem percussent pugno, vel manu, aut virga, vel aliquo ligno, aut ferro, ita ut non effundat sanguinem, solvat quinque solidos, et tres flageilas accipiat. Si autem eum percusserit, aut sanguinem effundat, reddat decem solidos, et quindecim flagellas accipiat. Si forte in ipsis plagis, brachium, vel aliquod ex membris fregerit, reddat triginta solidos, et vigini flagellas accipiat. Si forte caso veniente, aut propria voluntate eum occiderit, reddat centum et sexaginta solidos, et quingentas flagellas accipiat: tamen in suo praestimonium, et in servitio sibi iniuncto permaneat. Nullum ex eis damus licenciando

potestatem ullum dominium accipere, nec habere comendarium nisi soli Deo, et Beatae Mariae matris eius, et Abbatem, et Monachos in loco isto sancto de Obona Deo servientes, et cui ipse Abbas et monachi voluerint. Et quanta calumnia fecerint sistant et emendent sicuti Abbas, et eius vicario omnem iustitiam observantes et metu gehennae iudicaverint, et mandaverint. Damus siquidem in ipsa domus Dei, viginti vacas, et quinque iuga boum, cum omnia instrumenta arandi, et duos carros, et viginti modios de pane,, et duas equas et uno rocino, et una mulla, et tres asinos, et duodecim porcos, et quatuor porcas, et triginta oves, et viginti et duae caprae : mantas sex, quinque feltros, et septem lectulos, et tres scanos. Ad ornamentum Eclesiae damus octo vestimentis, et tres mantos, et sex stollas, et quinque manipulos, et quatuor corporalia, et quinque pallas, et sex sabbanas. Duas literatas, et quatuor sine serico, et tres hacelellas, et duas siacatas, et una capa serica, et tres calices, duo de argento, et unum de petra, et unum misale, et una cruce de argento, et duas de ligno, et quatuor frontales de serico, et duas campanas de ferro, et lectionarium, et responsorium. et duos psalterios, et uno dialogorum, et passionarium, et una regula de ordine Sancti Benedicti, et quinque quitrabes, et quatuor tapetes et tres vasos salomoniegos, et duodecim culiares argenteas, et unum argentum trulionem. In ipsa autem domus Dei non damus nulla potestatem ad aliquam porsonam, nisi tantum ad Abbatem et Monachis ibi sub regula Beati Benedicti Abbatis, Deo servientibus. Damus siquidem, et concedimus huius serie testamenti Deo, et Beatae Mariae, et omnium sanctorum Dei in quorum honore Ecclesiam et Monasterium fundamus. Et in manu Felici Abbatis cum omnia suprataxata tradimus, ita ut semper permaneat in servitio Dei , in Abbatem et Monachis regula Beati Benedicti perenniter custodientes, Et hanc cartam testamenti firmisimum robur obtineat per saecula cuncta. Si aliquis ex progenie nostra vel extranea, hoc

testamentum nostrum infringere vouerit, iram Dei omnipotentis incurrat, anathemate perpetuo subiaceat. Maledictiones, quae in libro Moysi servi Dei maledictis dantur habeat, in praesenti vita semper in oprobium vivat, membris magis necesariis careat, et in futura vita cum Dathan et Abiron participium teneat, et cum diabolo et angelis eius ignibus aeternis mancipatus permaneat. Et quantum in calumniam miserit, in quadruplum reddat, et mille libras purissimi auri pulsanti voce Monasterii persolvat; et ad partem Regis aliud tantum. Facta charta testamenti XVI. Kalendas Februarii, Era DCCCXVIII. Regnante Principe nostro Silone cum uxore sua Odosinda. Et ego iam dicto Adelgaster Siliz, una cum supradicta uxore mea Brunildi, hoc testamentum a nobis factum confirmamus, et roboramus, et in eo propria iniecimus. Qui ad confirmandi fuerunt. Saderno confirmat Aello confirmat cum ceteris.

وثيقة توسيع كنيسة سان بيسنت San Vicente بأوبييدو
فى ٢٥ ديسمبر عام ٧٨١م فى عهد الملك سيلو(١)

Christus. - In nomine Domini nostri Ihesu Christi. Ego Montanus presbiter, simul et Omnes servi servorum Dei mecum, uno animo et concordantes et consistentes in agone Domini, id est, nominibus designatis, Sperantius, Belasco, Reconsindus, Ierulfus, Gualamarius, Florentius, Ioannes, Senior, Letimius, Fulgentius, Vasconius, Flainus, Valentinus, Leander, Liberius, Proellus, Basilius, Luvinius. Faviolus, Ega, Paternus, Aspidius, Aurelius, Ferriolus Luvinianus, qui sub domino abbate Fromistano et sobrino suo Maximo presbitero in istum locum sanctum venimus cum averes nostros et subtus roboraturi sumus et signa facturi sumus, volumus facere testamentum in simul cum ipso abbate nostro predicto, iam quomodo Deo serviamus. Non est dubium sed multis manet notissimum quod istum locum, quod dicunt Oveto, tu iam dicte Maximus prius eexisti, et aplanasti illum una cum servos tuos, ex scalido nemine posidente, et populasti de monte; et sic postea coniunctus pariter cum ide predicto tuo tio domino Fromistano abbate, fundastis in isto loco iam dicto Oveto basilicam sancti Vincentii, levite, et maritiris Christi; et obinde placuit nobis omnibus iam nominatis, qui subtus roboraturi vel signa facturi sumus, sana mente integroque consilio, ut, sicut mos est ecclesiarum et tradictio regule, abrenuntiamus seculum, et concedimus tibi sepedicto nostro abbati Fromistano sive et maximo presbitero nosmetipsos cum omne nostro peculio, sicut iam diximus in alio testamento, tam in terris quam etiam in vineis, pomiferis edificiis, aquis aquarumve ductibus, que nos omnes competit unumquemque in loco suo inter nostros heredes, seu etiam ego

(١) نقلاً عن : Floriano, Diplomatica, 1pp 78 - 80

Montanus presbiter libros, ornatum ecclesie et nos omnes sub uno, caballos, equas, boves, vaccas, omnia pecora, vestitum sive et omne rem, quicquid ad usu hominis pertinet, tradimus et concedimus post partem idem sancte ecclesie Sancti Vincentii martiris Christi, ubi nobis omnibus et eis qui ibidem sancte, iuste et pie vixerint in presenti seculo et ante Deum permaneat merces atributa. Et ego fromista abbas qui iam xx annos sunt quod simul cum meo sobrino Maximo presbitero hunc locum squalidum a nemine habitante irrumpimus et funda mus in honore Sancti Vincentii martiris Christi atque levite; et accepimus regulam beati Benedicti abbatis, ubi omnes nostras facultates dedimus, sic recipimus vos ad servitium Dei, et facio cum vos omnes et cum sobrino meo maximo presbitero firmamentum et testamentum ut qui extra nostram traditionem et sancte regule fuerit inde ausu auferre at subtrahere, vendere vel donare voluerit, aut abbatem eligere extra regulam beati Benedicti aut extra comunem ut canones sancti et legum decreta constituerunt, ordinationem nostram frangere aut ipsum locum sanctum alicui homini tradiderit vel subiugaverit, nullam habeat firmitatem; et insuper sit maledictus et excomunicatus et cum Datan et Abiron dampnatus; et quidquid exinde aliquis ex his que dedit ibi voluerit accipere et ad alium locum pergere et dare, segregatus a Corpus Christi sit et nichil in sua potestate sit, set sit excomunicatus qui talia fecerit. Facta scriptura donationis et firmamenti nostri sub die septimo kalendas Decembres, discurrente era DCCCXVIIII, regnate domino Silone principe.

Ego Fromista abbas roboro cum Maximo presbitero meo sobrino, et signum + inicio. - Et ego Montanus presbiter cum omnes servi servorum Dei, quos iam prenominavi, hoc scriptum in perpetuum firmamus et roboramus, et signum + coram Deo et isto loco sancto teste.

نص رسالة لويس بن شارلمان امبراطور الفرنجة إلى أهل مدينة ماردة يحرضهم ضد الأمير عبد الرحمن الثانى (١)

" Audivimus tribulationem vestram, & multimodas angustias, quas patimini per crudelitatem regis Abdiraman, qui vos per nimiam cupiditatem rerum vestrarum, quas vobis auferre conatus est, saepissime violenter opressit. Sicut & patrem ejus Abolaz fecisse comperimus : qui injustis superprositionibus censum, sujus debitores non eratis, sibi solvere cogebat, & propter hoc de amicis inimicos, & de obedientibus sibi contrarios atque inobedientes effecerat, quia & libertatem vobis tollere, & injustis censibus ac tributis vos onerare, atque humiliare molitus est. Sed ut audivimus, vos semper sicut viri fortes injurias ab iniquis regibus vobis inlatas fortiter repulistis, & crudelitati atque aviditati eorum viriliter restitistis, quod & vos modo facere multorum relatione didicimus, Quapropter complacuit nobis ad vos has literas dirigere, vosque consolari, atque exhortari, ut in ea qua coepistis libertatis vestrae defensione contra crudelissimum regem perseveretis : & furori atque saevitiae illius, sicut hactenus fecistis, cedere non dignemini. Et quia idem Rex certissimus adversarius & inimicus tam noster quam & Vester est, communi consilio contra saevitiam ejus dimicemus.Volumus cum Dei omnipotentis adjutorio , proxima aestate exercitum nostrum ad marcam nostram mittere, ut ibi praeparatus sedeat, & expectet donec vos mandetis quando promovere debeat; si ita vobis bonum visum fuerit, ut propter vos adjuvandos eumdem exercitum contra communes inimicos nostros, qui in marca nostra resident, dirigamus. Ad hoc ut si Abdiraman, vel exercitus ejus, contra vos venire vo-

(١) نقلاً عن : Florez, Esp sagr, t13, apen 6 pp 416 - 417 ، وقد ترجمها إلى الفرنسية المؤرخ Lévi-Provençal, Histoire, 1pp228 - 229 ، كما ترجمها غيره إلى لغات أخرى.

luerit, isti per nostrum exercitum impediantur, ut illi & exercitus ejus in adjutorium contra vos venire non valeant. Nam certos vos facimus, quod si ab illo vos avertere, & ad nos convertere volueritis, antiquam libertatem vestram plenissime & sine ulla diminutione vobis uti concedimus; & absque censu, vel tributo , immunes vos esse permittimus : & non aliam legem, nisi qua ipsi vivere volueritis, vos tenere jubemus : nec aliter erga vos agere volumus, nisi ut vos amicos & socios in defensione regni nostri honorifice habeamus, Optamus vos in Domino semper bene valere.

وترجمتها إلى العربية كما يلى[1]:

« باسم ربنا الاله وباسم مخلصنا يسوع المسيح، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة الالهية، إلى الأساقفة والشعب فى ماردة . قد اتصل بنا ما تقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن الذى لا يزال يرهقكم عسرا متبعاً فى ذلك طريقة أبيه أبولاز الذ كان يبتزكم أموالكم والذى كان جعل أصدقاءه أعداء وجعل الطائع عاصيا، فاليوم يريدون أن يحرموكم حريتكم. وأن يثقلوا كواهلكم بالضرائب، وأن يمسوا كرامتكم ويهينوكم. وقد علمنا أنكم أبيتم تحمل الاهانة، ودفعتم عنكم ظلم ملوككم ووقفتم فى وجه طمعهم وغدرهم. وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة، فرأينا أن نكتب هذا الكتاب لتعزيتكم على ما أنتم فيه، ولتحريضكم على الثبات فى خطتكم هذه. ولما كان هذا الملك البربرى عدوا لنا، كما هو عدو لكم، فإننا حاضرون للإشتراك معكم فى قتاله. ومرادنا فى هذا الصيف بعون الله تعالى أن نرسل جيشا يجتاز البيرانة، ويكون حاضرا للعمل بإشارتكم، فإن كان عبد الرحمن سيزحف إليكم فيكون جيشنا بالمرصاد له ، وترانا نعلمكم من الآن أنكم إن كنتم تخلعون طاعة عبد الرحمن وتصيرون من رعايانا، فنحن حاضرون أن نعيد إليكم حريتكم الأولى، بدون مساس بها وبدون أن نطالبكم بأدنى مال تؤدونه لنا، وأنتم تختارون القانون الذى تريدون أن تسيروا عليه، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون أن يشتركوا فى الدفاع عن سلطتنا ، ونسأل الله أن يسبغ عليكم أبواب العافية » .

---

(١) نقلاً عن : شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ١٤٨ .

وثيقة مؤرخة فى ١٣ يوليو عام ٨٥٣م، يؤكد فيها الملك أردنيو الأول Ordono I الامتيازات التى منحها أسلافه لكنيسة ساموس Samos. (١)

In Dei nomine. Tibi Patri Fatali Episcopo Ordonius Rex. Non est dubium, sed multis manet cognitum, eo quod Iocum, quem dicunt Samanos, ubi Monasterium est sancti Juliani juxta Fluvium Sarriae cum omnia, quidquid ibidem Argericus Abba obtinuit, concesit tibi illud genitor noster Dominus Ranemirus Rex, dum de ipsa Spania in regione ista ingressus fuisti. Et ideo per hujus nostrae praeceptionis jusionem, donamus, atque concedimus tibi ipsum jam dictum Monasterium, cum terris edificiis, voluminibus librorum, vineas, vestimenta, reddita, seu omnes monachos qui pie sancteque vixerint. Necnon, omnia, quidquid jam dictus Argericus Abba inde obtinuit, tibi maneat peremniter concessum. Addicimus etiam tibi Monasteria, quae subdita extiterunt de ipso jam dicto loco Samanos, Idest : in Lauzara Monasterium Sancti Christophori et Sancti Joannis Cum omnia quidquid ibidem dominus Adefonsus concessit. in Laure; Monasterium Suberetum, Ecclesiam in Arioca, et villam. In Jures terram. In Vergido Monasterium vocabula Sancti Johannis, et alium Sancti Stephani cum omni accossu suo in Villa Biogio. In Billa Naragia terras in Bubal Monasterium quod dicunt Cela - Ichorantes Ecclesiam Sancti Juliani, et Sancti Petri cum omnis suis rebus, et suis piscariis, quae sunt super Portum, ubi se miscent Sile et Mineo, ex ambabus partibus fluvii, quae fuerunt de ratione Avorum nostrorum, quas dicunt Fucales. In Arnego villa Cumarro. In Salinense villam vocabulo Pinaria cum terras, et sus salinas. Quam vero supradicta loca Monasteria, cum omnibus

(١) نقلاً عن : Floriano, Diplomatica, I pp 254 - 256

adjacentiis, vel exsitibus suis, sicut dudum idem Argericum abba obtinuit. Ita et tibi posssidenda cuncta concedimus secundum quod de ratione dominica nobis pertinet. Utabeat illud per nostra auctoritatem habiturum tantum quam monachi qui sub tua religione vixerint. De caetera terras, quas de ipsa supradicta loca monachi negligentes uendiderunt, et de ecclesia extraneauerunt post mortem Argerici Abbatis, apprehendi omnia regiliter post partem idem ecclesiae, et careant eas ipsi, qui eas comparaverunt, et terras et pretium pro eo, quod sic docent Sancti Canones, ad ipsum locum Sancti Juliani in Samanos, nullus laicus reddita sua ibidem ad gubernandum ducere praesumat, aut quamlibet inquietationem ibidem faciat; sed quantum continet milliarium, et semis ex omni parte per gyrum idem Ecclesia illud perpetim habiturum obtineat. Notum die III Idus Julii, Era DCCCLXI, Hordonius Rex, confirmans. Sub Christi nomine Ovecus Episcopus, confirmans. Joannes abba confirmans. Petruinus testis. Hossorius testis.

وثيقة مؤرخة فى ١٧ أبريل عام ٨٥٤م، يمنح بمقتضاها الملك أردونيوعديدا من المدن والكنائس لكنيسة ساموس. (١)

In nomine Domini. Ordonius Rex.... a presbitero et Audofrido Dubium quidem non est, sed multis cognitum manet ... advenae Corduvenses, ex qua patria properantes, temporibus nostris pervenientes ad urbem Galletie ... jussionem damus adque concedimus vobis monasterium quod est in Samanos circa rivulum Sarriae... Iuliani et Baselisae cum bonis ipsius, villas vel monasteria, quidquid ad ipsum locum de Samanos ... villas in territorio Bergido, villam vocabulo Viegio, ecclesia vocabulo S. Ioannis et S. Stephani..., villa in locum Naragiae, villa juxta rivulum Laurem quae vocitatur Survetum, ecclesia vocabulo... villas qui sunt vel villares et ecclesias circa ribulum Louzara, ecclesia vocabulo S. Christophori, villa.... in ripa Minei ubi dicunt Cella hic orantes, in territorio Saliniensi villa qui vocitant Lustris, et ecclesia S. Petri, et salinas Samanenses integras, vel omnia quidquid ad ipsum locum de Samanos pertinet, sive erga arborum... Cuniarrum cum ecclesia S. Marinae habeatis de nostrum datum ipsum monasterium de Samanos cum omne sua adjacentiam, qui ad ipsum locum pertinet jure perenni, secundum quod dudum obtinuit... sive... lix episcopus per donationem genitoris nostri dive memoriae dominus Ranemirus; ita et nos illum vobis vindimus atque concedimus, jure quieto illum obtineatis absque ulla inquietatione vos et omnis posteritas vestra perpetim habiturum; et qui hunc factum nostrum ausus fuerit irrumpere, pariet illum vobis vel posteritas vestra quantum irrumpit de quo agitur in duplum; et pro id quod superius reronat, accepimus de vos in munificentiis nostris duo auri talenta in aurum et ar-

(١) نقلاً عن : Floriano, Diplomatica, I pp 261 - 262

gentum. Facta scriptura venditionis vel donationis XV kalendas majas in era DCCCLX . Ordonius Rex confirmat. Adefonsus secundum quod genitrix nostri fecit, ita et nos illum confirmamus. Sub Christi nomine, Rodesindo episcopo quod vidi cf. Sub Christi nomine, Gumillus episcopus vidi. Nebocianus presens fuit. Bonellus abba cf. Nunus cf. Ovecus Dvecus Didaci cf. Flacentius presbiter cf. Censerigus testis . Iustus presbiter testis.

وثيقة مؤرخة فى ٣٠ ديسمبر عام ٨٩٩م؛ يعطى بمقتضاها الفونسو الثالث Alfonso III كنيسة سنتياجو دى كمبوستلا حق الإشراف على مناطق ومدن مستردة من المسلمين فى إقليم قلمرية Coimbra . (١)

In nomine Sancte et indiuidue Trinitatis. Domino sancto glorioso ac post Deum fortissimo patrono Iacobo apóstolo, cuius corpus tumulatum esse dignoscitur sub arcis marmoricis prouincia Gallicie. Ego Adefonsus princeps in Domini nostri Ihesu Christi amore et uestre perpetue glorie honore. Quatinus presentis uite fruamur utilitate et eterne hereditatis habeamus societatem; offerimus atque concedimus memorie uestre, pro uictu monachorum,, pro subsidio pauperum et susceptione peregrinorum siue aduenum, uillas in suburbio conimbriense quas nuper Dominus de manu gentilium abstulit sancta uestra intercessione dicioni nostre subdidit, id est: uilla in ripa de fluuio Ulaster, cum ecclesia uocabulo Sancti Martini; et uilla Crescemiri, siue et iuxta fluuio, uilla cum ecclesia Sancti Laurenti; et terciam partem de uilla Trauazolum inter Agatam at Uaugam. Omnes has uillas cum terminis adiacentiis seu cum omni prestancia sua quicquid ad easdem uillas pertinet uel pertinere uidetur. Quas suprataxatas ecclesias et uillas Sancte Aule uestre subditas tradimus iure perhenni. Quisquis, uero spiritu rapacitatis deceptus hanc nostram donationem usurpare uel infringere conatus fuerit, sit ab omni Deo confusus et ab ecclesia Dei presenti seculo segregatus et in eterna dampnatione cum Iuda Christi traditore dampnatus. Facta scriptura testamenti in die festiuitatis supradicti patronis nostri Sancti Iacobi III kalendas Ienuarii. Era DCCCCXXXVII. Adicimus etiam atque confirmamus ec-

(١) نقلاً عن : Floriano, Diplomatica, 2pp 260 - 261.

clesias quas Itila abba per textum scripture sacte uestre ecclesie concessit: cum omni prestancia sua.

Adefonsus rex conf. (Signum). - Hordonius conf. - Iacobus episcopus conf. - Naustus episcopus conf. - Froila rex conf. (Signum).- Lucidus conf. - Pelagius conf. - Hermegildus conf. - Segeredus conf. - Erus. conf. - Vilifonsus conf. - Sauaricus conf. - Telo conf. - Fredosindus ts. - Adefonsus ts - Hermegildus ts. - Gundesindus ts.- Didacus ts. - Egas ts.

وثيقة مؤرخة فى ١٩ أبريل عام ٩٠٢م؛ يؤسس بمقتضاها بعض الملاك كنائس باسم سان جوان Sán Juan فى أراضى بإقليم قلمرية Coimbra. (١)

In nomine Domini nostri Ihesu Christi et indiuidue Sancte Trinitatis Patria et filii et Spiritus Sancti. Inuictissimis ac triumphatoribus sanctisque martiribus gloriosis quorum baselica discernimus et fundamus loci illius Sancti Iohannis Babtiste et Sancti Iacobi Apostoli. Ego Cagildo presbiter et Recacis presuiter uenit nobis punctum et metum de peccatis nostris, et ad timendum diem iudicci iuxtati sumus cum fratribus nostris et suprinis nostris iam prenominamus, indignus famulus Deis Tesulfus presbiter Adefonsus Froila presbiter, et alius Tesulfus presbiter, Seruandus presbiter Gunsaluus presbiter filii Recarecis spem fiduci aliterque sanctis illis meritis respiciamur, non usquequaque disperatione deicimur, qui uero iam teste conscientia meriri suffragium fidei supplicationum modia omnibus imploramus. Et ideo serue peuesco ut nos per uos santi martires reconciliari mereamur Domnino Deo uestro atque sanctorum omnium extitit ut paupertate nostra sancte ecclesie nostre aliquantulum et uoto imploramus pro uere scriptum est: Voluete et reddite Domnino Deo uestro. Et ideo omnia (?) fac et operi et ..... ipsa nostra deuotione implere procurauimus atque concedimus ipsis sacris altaribus ab ea de sanguinibus aut de propinquis qui in uita sancta perseuerauerint habeant omnes nostra hereditates quantas habemus augmentare potuarimus usque ad obitum nostrum uillas prenominatas ipso acisterio quod fundamus cenobio Sancti Iohannis de uilla de ualeri et uilla Fontanelas et uilla canelas medietate et uilla pinopero et Condesindo duas partes uilla

(١) نقلا عن : Floriano, Diplomatica, 2pp 277 - 279

Cortegaza va et uilla sinobilani IIIa et uenit ad nos arias Mauriniz qui erat nepos de Cagido presbitero qui fuit filius Maurini qui fuit presor et adtestauit ipsam uillam que iacet ubi rius medianus discurrit, et ex parte cum uilla Eurobas uoso et leuase ad illum portum de ..... et inde per illo aroio et fer in illa fonte et exinde per illo uado quia auia ad illum montem et torna ad illo rio et concludit integro et ego esdulfu et Andeiro et Gontado uenit nobis infirmitas prope obito nostro, et placuit nobis pro remedio animarum nostrarum. Damus et concedimus ad locum illius Sancti Iohannis Babtiste medietates de omnibus nostris hereditatibus quantas habuimus, et ibi concedimus ipsam hereditatem qui dicent Medianas, et iacent inter uilla de patres et uilla Canelas et uilla auelaneda, et de hereditate de pater donelizi IIIa pro remedio anime mee, et medietatem de Sancti Iacobi de Eurobas uoso quos fui de Aspaio baloremoto damus ipsas uillas ad locum illius sanctis, tam in uita nostra etiam et post obitum, et habent iacentiam ipsas uillas subtus mons sauto rodondo territorio portugalensi per suis terminis et locis antiquis cum quanto in se continet et adprestitum hominis est. Damus illas pro uictu atque uestitu monachorum uel pro uolumine librorum in locis illius ad acclesie deseruiendum uel elemosinas pauperum, tam in uita nostram quam..... obitum nostrum usque in sempiternum. Et si ex propinquis nostris aut de sanguinibus nostris uel extraneis que contra hanc seriem testamenti ad irrumpendum uenerit uel uenerimus

aut uendere aut extraneare in aliaque parta aut auctorizare noluerimus illas uel non potuerimus illas uillas et extraniamus illas de illo testamento quod facimus ad locum illius Sancti Iohannis, in primis sit excommunicatus et extraneatus et separatus de Domini nostri Ihesu Christi, et cum Iuda traditore habeat participium et damna secularia amen. Et si unus ex nobis uel aliquis homo uenerit uel uenerimus hunc nostrum factum ad irrum-

pendum pariemus post parte et qui isto testamento tenuerit duo auri talenta et quantum infringere in duplo et indicatum et qui urbem ciuitas imperauerit et hunc factum nostrum habeat firmitatem. Facta series testamenti nodum erit XIII kalendas magii Era DCCCa. Nos supranomi. Cagidus presbiter et Careus presbiter, Gesulfus presbiter Adefonso presbiter Froila presbiter et alio Gesulfo presbiter Seruandus presbiter Conaluo presbiter in hac serie scripture manus nostras roboramus (Signa) Et addimus Sancti Mametis qui est fundatus inter uilla Palaciolo et uilella minus inde IIIa ...

Aias (sic) Mauraniz conf. - Gontemiro M. conf. - Salmiro M. conf. - Nebozanom conf. - visterga conf. - Abba Siluani conf.

Cidi Nebozaniz test. - Egareus ts. = Gontado test. - Dino pataizi. - Abomas Diazta.

Gondesindus eitor test. - Donanna niconiz test.- Eita baltasariz conf. - Donfacame conf. - Abacatom conf.

نص جواب البابا جوان Juan على رسالة الملك الفونسو الثالث Alfonso III ، مع سيفيرو Severo وسيدريكو Siderico مبعوثي الملك، في يونيو عام ٩٠٩م. (١)

Joannes episcopus servus Dei Adefonso christianissimo regi, seu cunctis venerabilibus episcopis, abbatibus, vel orthodoxis christianis . Quia Nos in curia totius christianitatis beati Petri apostolorum principis sempiterna providentia efficit succesores, ea domini nostri Jesu Christi constringimur adhortatione, qua beatum Petum apostolum quadam voce privilegii monuit, dicens: " Tu es Petrus, et super hanc petram aedificabo ecclesiam meam ", et " tibi dabo claves regni caelorum ", et reliqua. Huic rursus imminenti domini nostri articulo gloriosae passionis, inquit : " Ego pro te rogavi, ut non deficiat fides tua, et tu aliquando conversus confirma fratres tuos ". Ideoque, quia vestrae notitiae fama per hos fratres, limina apostolorum lustrantes, per Severum presbyterum et Sidericum necnon presbyterum, nobis miro odore bonitatis est revelata, paterna vos adhortatione admoneo in caeptis bonis operibus, gratia Dei duce, perseverare , quatenus copiosa vos beati Petri protectoris vestri, et nostra protegat benedictio : et quotiescumque, fili charissime, ad Nos venire quilibet vestrum, aut transmittere voluerit, tota cordis exultatione et animi gaudio de ultimis Gallaeciae finibus, cui vos praeter me dominus rectores constituit, tamquam jure filios nostros vos colligemus, et ecclesiae ovetensi quam vestro consilio, et assidua petitione metropolitanam constituimus, omnes vos subditos esse mandamus et concedimus, etiam praedictae sedi,ut ea, quae reges, seu quilibet fideles juste obtulerint, vel in futurum, domino opitulante, contulerint, ratum, firmum, et inconcursum ma-

(١) نقلا عن : Cron Sampiro, ed Huici, Las Cronicas Latinas, 1 p 248 - 250 = (Ed. Florez, Esp Sagr . 14 p 441).

nere in perpetuum praecipimus. Hos quoque latores litterarum nostrarum omnes hortor, ut habeatis commendatos, Bene valete.

وترجمته إلى القشتالية كما يلى : (١)

Juan obispo, siervo de los siervos de Dios á Alfonso cristianisimo rey, y á todos los venerables obispos, abades y ortodoxos cristianos porque la sempiterna providencia hácenos en la curia de toda la cristiandad sucesores del beato Pedro principe de los apóstoles, somos constrenidos por aquella exhortación de nuestro senor Jesucristo en que amonestó al beato Pedro apóstol concierta voz de privilegio, diciendo : " Tú eres Pedro y sobre esta piedra edificaré mi iglesia " y " te daré las llaves del reino de los cielos ", etcétera. De nuevo estando inminente el articulo de la gloriosa pasión de nuestro Senor dice á éste: "Yo rogué por ti para que tu fe no decaiga y tú alguna vez convertido con firma á tus hermanos". Y por eso porque la fama de vuestra noticia fué revelada á nos con admirable olor de bondad, por estos hermanos visitantes los dinteles de los apóstoles, por Severo presbitero y Siderico también presbitero, os amonestó con paterna exhortación á perseverar en las buenas obras empezadas, con la gracia de Dios por guia, para que la copiosa bendición del beato Pedro vuestro protector y la nuestra os proteja y cuantas veces, hijo carisimo, quisiere cualquiera de vosotros venir á nos ó transmitir, os acogeremos como de derecho hijos nuestros con toda exultación de corazón y gozo de alma desde los ultimos confines de Galicia, para la cual el Senor os ha constituido rectores además de mi y mandamos ser todos vosotros subditos de la iglesia ovetense, que constituimos metropolitana por vuestro consejo y asidua peticion y también concedemos á la predicta sede que aquellas cosas, que los reyes ó cualesquiera fieles justamente ofrecieren ó en lo futuro confiriesen ayudando Dios, preceptuamos permanecer rato, firme é inconcuso en perpetuo. Exhorto también que tengáis por recomendados á todos estos portadores de nuestras letras. valed bien.

(١) نقلا عن : Huici, las Cronicas Latinas, 1 pp 249 - 251 ؛ وانظر أيضا : Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, 105 pp 303 - 304, Risco, Esp. Sagr , 37 pp 228 - 229 ; Mariana, Historia de Rebus, Toleto 1592, Lib 7, cap. 18.

نص رسالة أخرى من البابا جوان مع مبعوثه رينالدو Reinaldo إلى الملك الفونسو الثالث في يوليو من نفس عام ٩٠٩م. (١)

Joannes episcopus servus servorum Dei , dilecto filio Adefonso glorioso regi Gallaeciarum. Litteras devotionis vestrae suscipientes, quia devotum vos esse cognovimos erga nostram sanctam ecclesiam, gratias vobis multiplices referimus, dominum exorantes, ut vigor regni vestri abundet, de inimicis vestris victoriam vobis concedat. Nam Nos, fili charissime, sicut petistis,sedulas preces domino fundimus, ut regnum vestrum gubernet, vos salvos faciat, custodiat, et protegat, et super omnes inimicos vestros erigat. Ecclesiam autem beati Jacobi apostoli ab hispanis episcopis consecrari facite : et cum eis concilium celebrate. Et Nos quidem, gloriose rex, sicuti vos, a paganis jam constringimur, et die ac nocte cum illis bella committimus ; sed omnipotens Deus donat nobis de illis triumphum. Hujus rei gratia rogamus dilectionem vestram, et animum deprecamur, ut quia, ut diximus, valde a paganis opprimimur, aliquantos utiles et optimos mauriscos cum armis., quos hispani caballos Alfaraces vocant, ad Nos dirigere non omittatis, qualiter Nos recipientes, Dominum collaudemus, vobis gratias referamus, et per eorum portitorem de benedictionibus sancti Petri vos remuneremus. Bene vale, dilectissime fili et charissime rex.

وترجمتها إلى القشتالية كما يلي: (٢)

Juan obispo siervo de los siervos de Dios al dilecto hijo Alfonso glorioso rey de las Galicias. Recibiendo las letras de vuestra devoción, porque

(١) نقلا عن : Cron. Sampiro, ed Huici, Las Cronicas latinas, 1 p 252 - 254 = (Ed. Florez, Esp. Sagr , 14 pp 441 - 442).

(٢) نقلا عن : Huici, op cit, 1 pp 253 - 255 ؛ وانظر أيضا : Cron. del Rodrigo, ed. Fuensanta, 105 pp 304 - 305; Risco, Esp Sagr., 37 p 229, Mariana, op cit, Lib. 7, cap. 18.

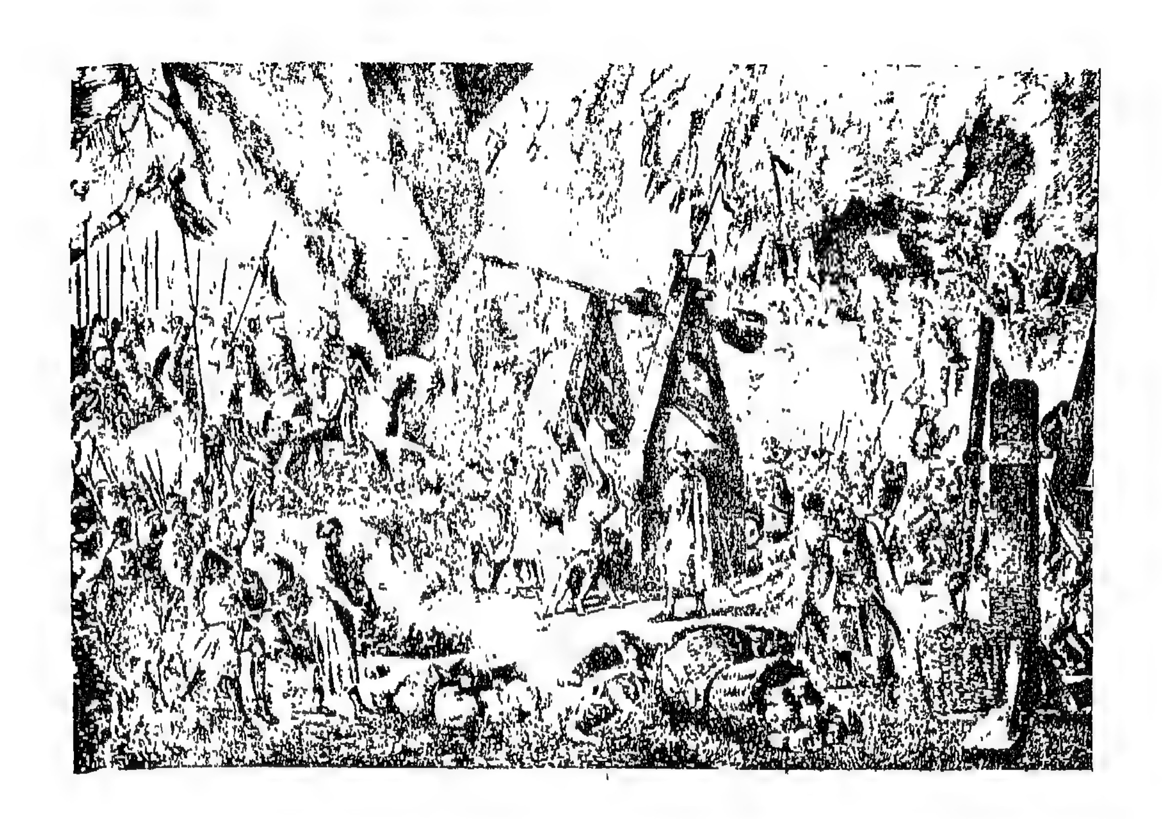
conocimos ser vos devoto hacia nuestra santa iglesia, os damos múltiples gracias, orando al senor para que abunde el vigor de vuestro reino y os conceda victoria de vuestros enemigos. pues nos , hijo carisimo, según pedisteis derramamos preces sin-dolo al Senor para que gobierne vuestro reino, os haga salvos, custodie y proteja y erija sobre todos vuestros enemigos. Pues haced consagrar por los obispos hispanos la iglesia del beato Jacobo apóstol y celebrad con ellos concilio, y cierto nos, como vos, glorioso rey, ya somos constrenidos por los paganos y de dia y de noche cometemos batallas con ellos; pero el omnipotente Dios nos da triunfo de ellos. En gracia de esta cosa rogamos á vuestro amor y pedimos el ánimo para que porque, como dijimos, somos oprimidos fuertemente por los paganos, no omitáis dirigir á nos algunos ultiles y óptimos moriscos con armas, á los cuales los hispanos llaman caballos alféreces con lo cual nos recibiendo alabemos al Senor, os demos gracias y por el portador de ellos os remuneremos de las bendiciones de san Pedro, pásalo bien, dilectisimo hijo y carisimo rey.

ثـالثـاً : النقــوش والأشكال





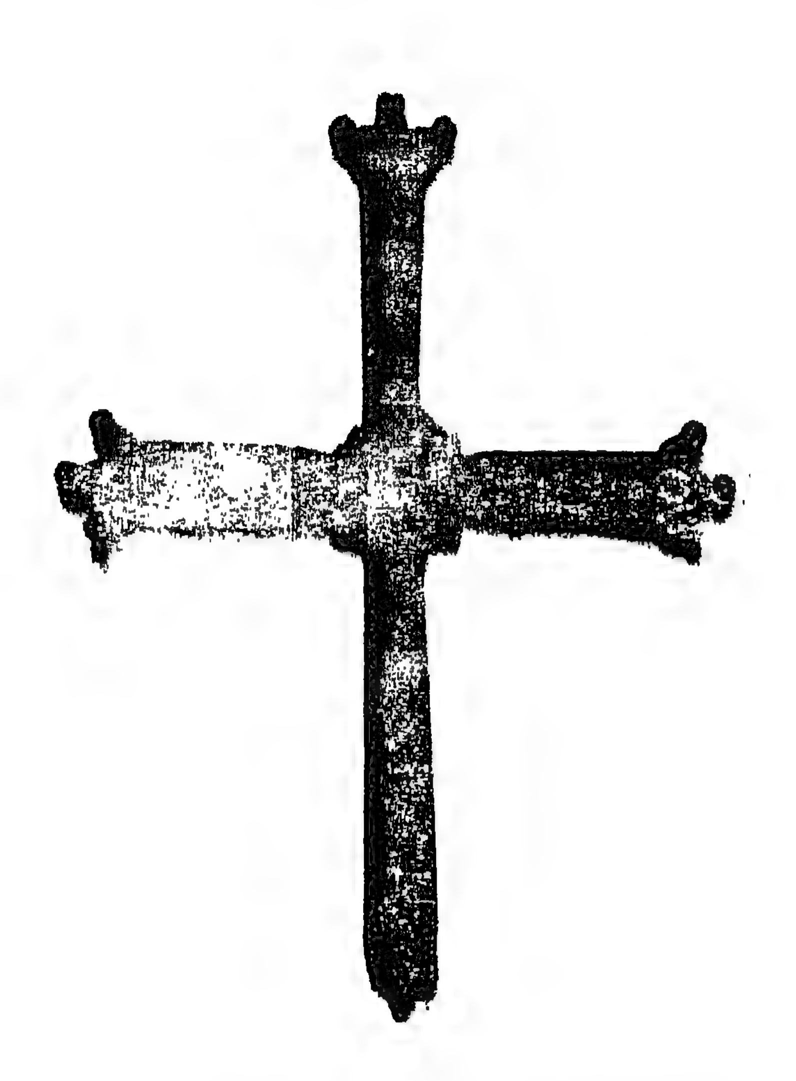
منظر لفنان إسبانى من القرن الثامن عشر الميلادى لقطاع داخلى بكهف أرنجا (كوبادونجا) يظهر فيه السيدة العذراء؛ أما خارجه (أعلى اليمين) فتظهر ملائكة حاملة سهاماً مما يعنى حمايتها للكهف، الذى يرتبط فى الأذهان لذلك بطابع دينى . كما يتضح أيضاً أن الكهف يعلو عن سطح الأرض . أما باقى المنظر فهو للمنطقة الأمامية للكهف الذى يتصف الطريق إليه بأنه ضيق .



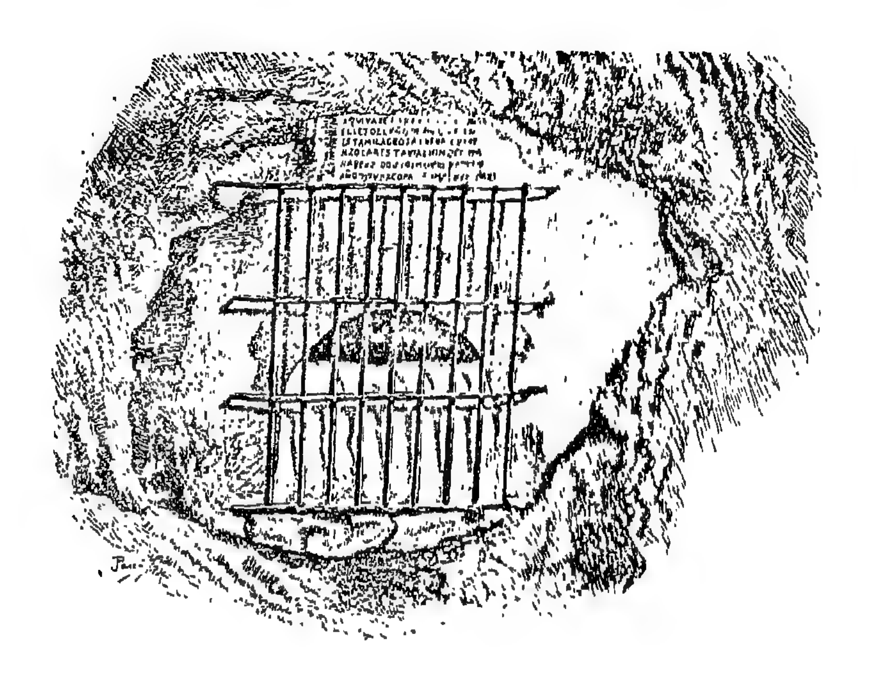
منظر لفنان إسباني من القرن التاسع عشر الميلادي لجانب من الجيش الإسلامي أثناء معركة كوبادونجا، يظهر منه ضيق المكان وإحاطته بالجبال، مما حال دون اشتراك كل أفراده فيها، فالفرسان (على الشمال) دون حراك، ولم يشترك سوى حملة المقاليع (على اليمين)، ورماة السهام والرماح (إلى أعلى اليمين) . وكان أفراد الجيش في موقع منخفض وخصومهم إلى أعلى، وهو ما يظهر من الاتجاه الذي يصوب إليه الرماة سهامهم ورماحهم .



منظر آخر لفنان من القرن التاسع عشر الميلادى أيضاً لجانب من جيش بلاجيوس، الذى يظهر فيه بلاجيوس حاملا سيفا فى إحدى يديه وصليباً في اليد الأخرى . ورافعاً كلتا يديه فى حركة تعبر عن أنه يحث ويشجع أتباعه الذين يتضح أنهم يحاربون فى اتجاهين؛ وموقعهم صخرى مرتفع عن موقع الجيش الإسلامى وهو ما يظهر أيضاً من الاتجاه الذى يصوبون إليه سهامهم . ويظهر أنهم استخدموا أيضاً الحجارة (الوسط الأعلى من المنظر) .



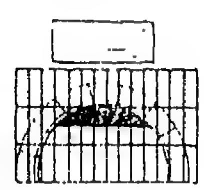
الصليب الخشبى الذى يعتقد أن بلاجيوس Pelagius حمله خلال معركة كوبادونجا Covadonga ؛ ويعرف بالصليب المقدس Sanctae Crucis أو بصليب النصر La Cruz de la Victoria .



مقبرة بلاجيوس Pelagius فى كوبادونجا بأشتوريس .

وصورة النقش كما يلى (١) :

AQVI YAZE EL REY DON PELAIO
ELLETOEL ANO DE 7'6 QVE EN
ESTAMILAGROSACVEBA COME
NZOLARESTAVTACION DE ESPA
ÑABENZIDOSLOSMOTOSFALLECIO
AÑO 737 YLEACOPAÑASSMVGE YYERMANA



ونصه كما يلى (٢) :

' AQUI YAZE EL SENOR REY DON PELAIO

ELLETO EL ANO 716 QUE EN

ESTA MILAGROSA CUEBA COME-

NZO LA RESTAURACION DAE ESPA-

NA BENZIDOS LOS MOROS FALLECIO

ANO 737 Y LE ACCOMPANAN SU MUGER Y ERMANA"

---

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, Lamina J VI Num J 20

(٢) أنظر : Vigil, Asturias, 1p 307; Quadrado, Espana, p 34; Somoza, Gijon, 2p 482

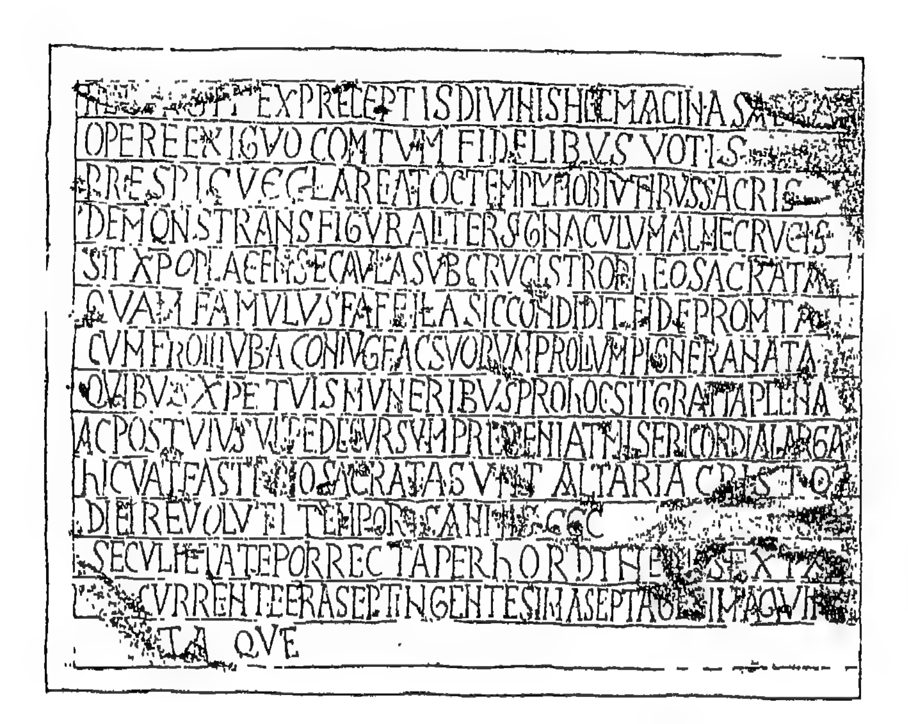
نص وشكل نقش مقبرة جواديوسا Gaudiosa زوجة بلاجيوس، فى كنيسة أباميا [١].

HEIC IACET REGINA GAUDIOSA UX-

OR REGIS PELAGII .

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, 1 p 309

نقش تأسيس فافيلا Favila – ابن بلاجيوس Pelagius – كنيسة الصليب المقدس (Santa Cruz de Cangas) ، فى مدينة كانجاس بأشتوريس فى عام ٧٣٧م[١].



ونصه كما يلى[٢]:

" RESURGIT EX PRECEPTIS DIVINIS HEC MACINA SACRA OPERE EXIGUO COMTUM FIDELIBUS VOTIS, PRESPICUE CLAREAT OC TEMPLUM OBTUTIBUS SACRIS DEMONSTRANS

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, Lamina J V Num . 18

(٢) أنظر : Vigil, Asturias, p 305 ، وأنظر أيضا : : Caveda, Restauracion, p 16; Risco, Esp. Sagr., 37 pp 86- 87; Hubner, Inscriptiones Hispaniae Christianae, Berolini 1871, p 47 No 149

FIGURALITER SIGNACULUM ALME CRUCIS SIT CHRISTO PLACENS EC AULA SUB CRUCLS TROPHEO SACRATA, QUAM FAMULUS FAFEILA SIC CONDIDIT FIDE PROMTA CUM FROIL- IUBA CONIUGE AC SUORUM PROLIUM PIGNERA NATA, QUIBUS CHRISTE TUIS MUNERIBUS PRO HOC SIT GRATIA PLENA AC POST UIUS VITE DECURSUM PREVENIAT MISERICORDIA LARGA HIC VATE ASTERIO SACRATA SUNT ALTARIA CRISTO DIEI REVOLUTI TEMPORIS ANNIS CCC. SECULI ETATE PORRECTA PER HORDINEM SEXTA CURRENTE ERA SEPTINGENTESIMA SEPTAGESIMA QUIN TAQUE

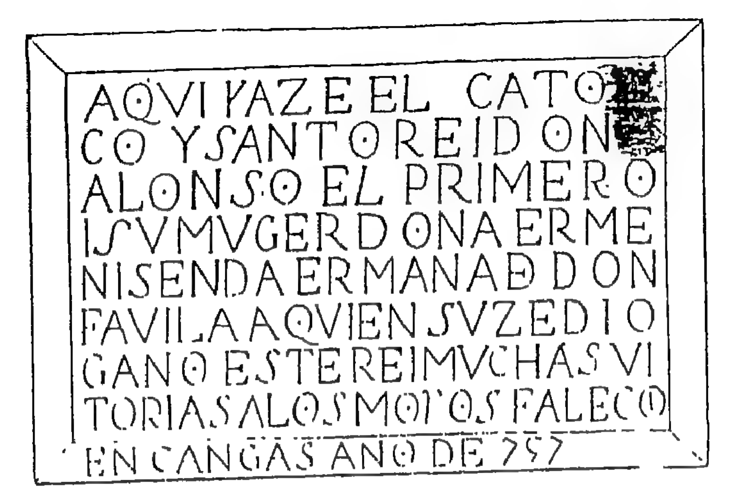
أما ترجمته إلى القشتالية فهى كما يلى :

" Alzase de nuevo por precepto divino este monumento sagrado. Aun cuando humilde la obra, rico el templo con votos de ardentisima fé, resplandezca en viva claridad á las piadosas miradas manifestando simbólicamente la senal de la Santa Cruz. Sea grato al Redentor del mundo este santuario consagrado bajo el trofeo de la Cruz vencedora. Con fe pronta lo erigió el siervo fafeila, juntamente con su muger froiliuba y con todos sus hijos por lo cual oh divino Cristo, segun tu liberalidad inagotable concédeles plena gracia, y en su muerte misericordia abundante, aqui en el mismo lugar donde el obispo Astemo consagró altares á Cristo en lós revueltos dias de la centuria trigentésina, adelantada ya la sexta edad del mundo, segun el órden de los tiempos y corriendo la era espanola de 775; de nuestra redencion 737. "



مهشد صراع فاڤيلا مع الدب الذى قضى عليه .

صورة نقش مقبرة الفونسو الأول Alfonso I[(١)] .



ونصه كما يلى : [(٢)]

AQUI YAZE EL CATOLI-

CO Y SANTO REI DON

ALONSO EL PRIMERO

I SU MUGER DONA ERME-

NISENDA ERMANA DE DON

FAVILA A QUIEN SUZEDIO

GANO ESTE REI MUCHAS VI-

TORIAS A LOS MOROS FALECIO

EN CANGAS ANO DE 757.

---

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, Lamina J VI Num J21

(٢) أنظر : Vigil, Asturias, 1p 307

صورة نقش تأسيس الملك سيلو Silo كنيسة سان جوان San Juan فى مدينة براڤيا Pravia (١).

T	I	C	E	F	S	P	E	C	N	C	E	P	S	F	E	C	I	T
I	C	E	F	S	P	E	C	N	I	N	C	E	P	S	F	E	C	I
C	E	F	S	P	E	C	N	I	R	I	N	C	E	P	S	F	E	C
E	F	S	P	E	C	N	I	R	P	R	I	N	C	E	P	S	F	E
F	S	P	E	C	N	I	R	P	O	P	R	I	N	C	E	P	S	F
S	P	E	C	N	I	R	P	O	L	O	P	R	I	N	C	E	P	S
P	E	C	N	I	R	P	O	L	I	L	O	P	R	I	N	C	E	P
E	C	N	I	R	P	O	L	I	S	I	L	O	P	R	I	N	C	E
P	E	C	N	I	R	P	O	L	I	L	O	P	R	I	N	C	E	P
S	P	E	C	N	I	R	P	O	L	O	P	R	I	N	C	E	P	S
F	S	P	E	C	N	I	R	P	O	P	R	I	N	C	E	P	S	F
E	F	S	P	E	C	N	I	R	P	R	I	N	C	E	P	S	F	E
C	E	F	S	P	E	C	N	I	R	I	N	C	E	P	S	F	E	C
I	C	E	F	S	P	E	C	N	I	N	C	E	P	S	F	E	C	I
T	I	C	E	F	S	P	E	C	N	C	E	P	S	F	E	C	I	T

ونصه كما يلى(٢) :

" SILO PRINCEPS FECIT. "

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, LaminaUa1, Num Ua 4

(٢) أنظر : Hubner, Inscriptiones, p 46 No 154; Vigil, Asturias, 1p 475; Risco, Esp Sagr., 37 p 117.

نص نقش تجديد الملك الفونسو الثانى كنيسة سان سلفادور San Salvador بأوبييدو فى ١٣ أكتوبر ٨٠٢م، وهى من بناء أبيه الملك فرويلة(١).

" QUICUMQUE CERNIS HOC TEMPLUM DEI HONORE DIGNUM, NOSCITO,

HIC ANTE ISTUM FUISSE ALTERUM HOC EODEM ORDINE

SITUM. QUOD PRINCEPS CONDIDIT SALUATORI DOMINO SUPPLEX.

PER OMNIA FROILA, DUODECIM APOS. TOLIS DEDICANS

BIS-SENA ALTARIA PRO QUO AD DEUM SIT UESTRA CUNCTORUM ORATIO

PIA, UT UOBIS DET DOMINUS SINE FINE PREMIA DIGNA.

PRETERITUM HIC ANTEA EDIFICIUM FUIT PARTIM A GENTILIBUS

DIRUTUM SORDIBUSQUE CONTAMINATUM. QUOD DENUO

TOTUM A FAMULO DEI ADEFONSO COGNOSCITUR ESSE FUNDATUM

ET OMNE IN MELIUS RENOVATUM.

SIC MERCES ILLI PRO TALE CHRISTE LABORE

ET LAUS HICIUGIS SIT SINE FINE TIBI ."

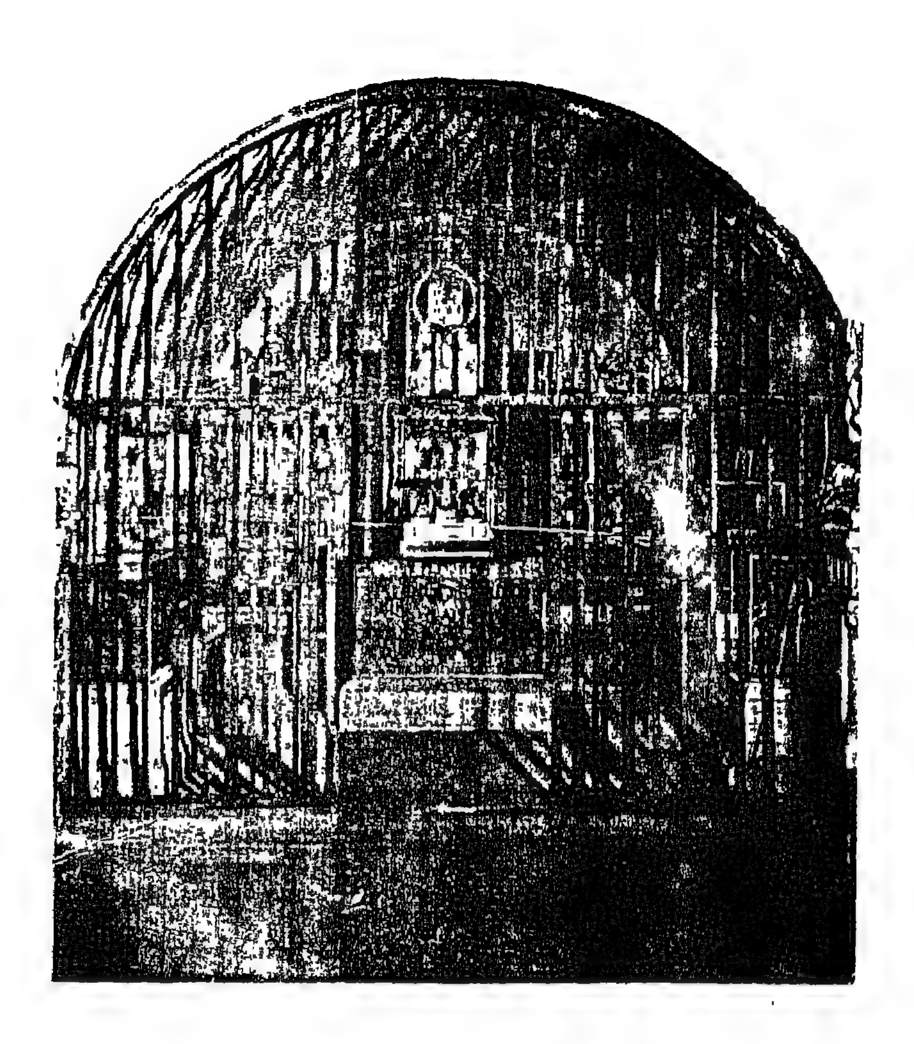
وترجمته إلى القشتالية كما يلى(٢):

" Los que vieredes este Templo digno del hónor de Dios, sabed; que antes hubo aqui otro dispuesto con el mismo órden, y que lo levantó al Salvador y Senor Nuestro el religiosisimo Froila; dedicando en él doce altares á los doce Apóstoles. Rogad á Dios todos los fieles por él, para que el Senor os

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, 1p 6 ; Hubner, Inscriptiones, p 104 No 93 - 94, Risco, Esp Sagr. 37 p 140; Somoza, Gijon, 2pp 525 - 526.

(٢) أنظر : Vigil, Asturias,1 pp 6-7

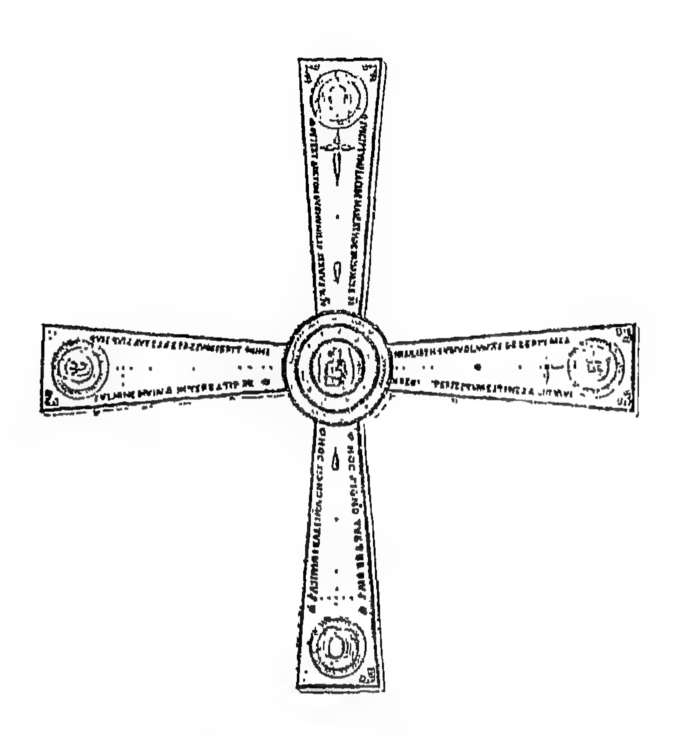
conceda eternamente el premio merecido. Los Gentiles destruyeron en parte el edificio que habia antes, y lo profanaron, y el siervo de Dios Adefonso lo volvió á levantar, y lo renovó y mejoró. Págale tú, ó Jesu- Cristo, esta buena obra, y dése aqui alabanza perpétua á tu Santo Nombre. "



جانب من الحجرة المقدسة La Camara Santa فى كنيسة أوبييدو، من بناء الفونسو الثانى؛ ويحفظ فيها صليب النصر وصليب الملائكة وغيرهما من الآثار المماثلة .



الوجه الأمامى لصليب الملائكة La Cruz de los Angeles
الذى صنع فى عهد الفونسو الثانى فى عام ٨٠٨م.



الوجه الخلفى لصليب الملائكة

وعلى كل ذراعٍ يوجد النقش التالى [١] :

الذراع الأعلى : Susceptum Placidé Meneat Hoc In Honore Dei Offert Adefonsus Humilis Servus Christi.

الذراع الأيسر : Quisquis Auferre Presumserit Michi Fulmine Divino Intereat Ipse.

الذراع الأيمن : Nisi Libens Ubi Voluntas Dederit mea Hoc Opus Perfectum Est In Era: ECCCXLVI.

الذراع الأسفل : Hoc Signo Tuetur Pius. Hoc Signo Vincitur Inimicus

وترجمته إلى الاسبانية كما يلى : " Esta Dádiva, Recibida Con Agrado, Quédese Aqui En Honra De Dios, La Ofrece Adefonso, Humilde Siervo De Jesucristo. Con Esta Senal Se Ampara El Hombre Piadoso, Y Con Ella Se Vence El Enemigo, Quien Se Atreviese a Quitarla Del Lugar En Que La Pusiere Mi Libre Volunted, Matele Dios Con Un Rayo. Se Acabó De Hacer Esta Obra En El Era 846" Ano De 808 A,D.

---

(١) Hubner, op cit, p79 No 247; Vigil, Asturias, Ip17; Risco, Esp. Sagr., 37 p 146.

نص نقش مقبرة الفونسو الثانى Alfonso II [١] .

" QUI CUNCTA PACE EGIT IN PAC

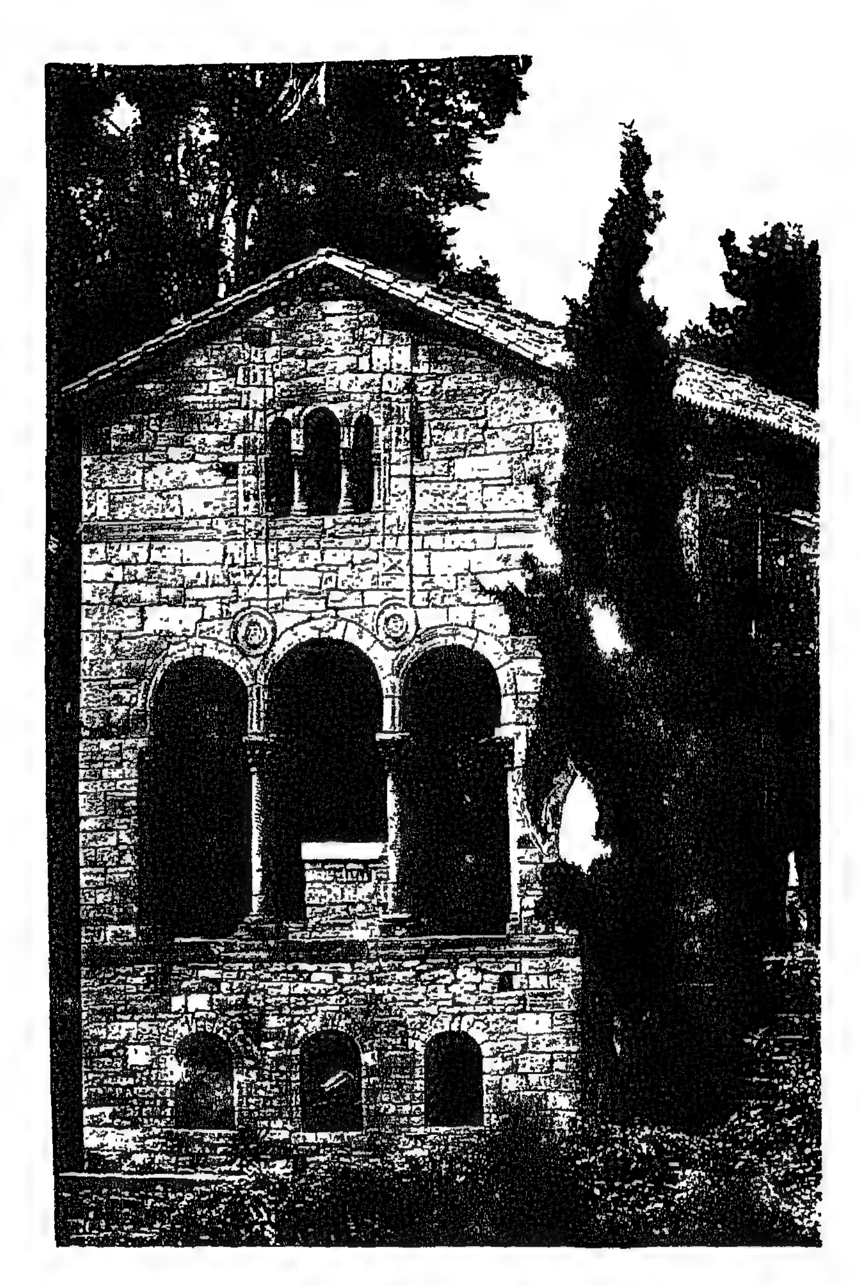
QUIEVIT. BISENA QUIBUS HAEC

ALTARIA SANCTA. FUNDATAQUE

VIGENT, HIC TUMULATUS JACET. "

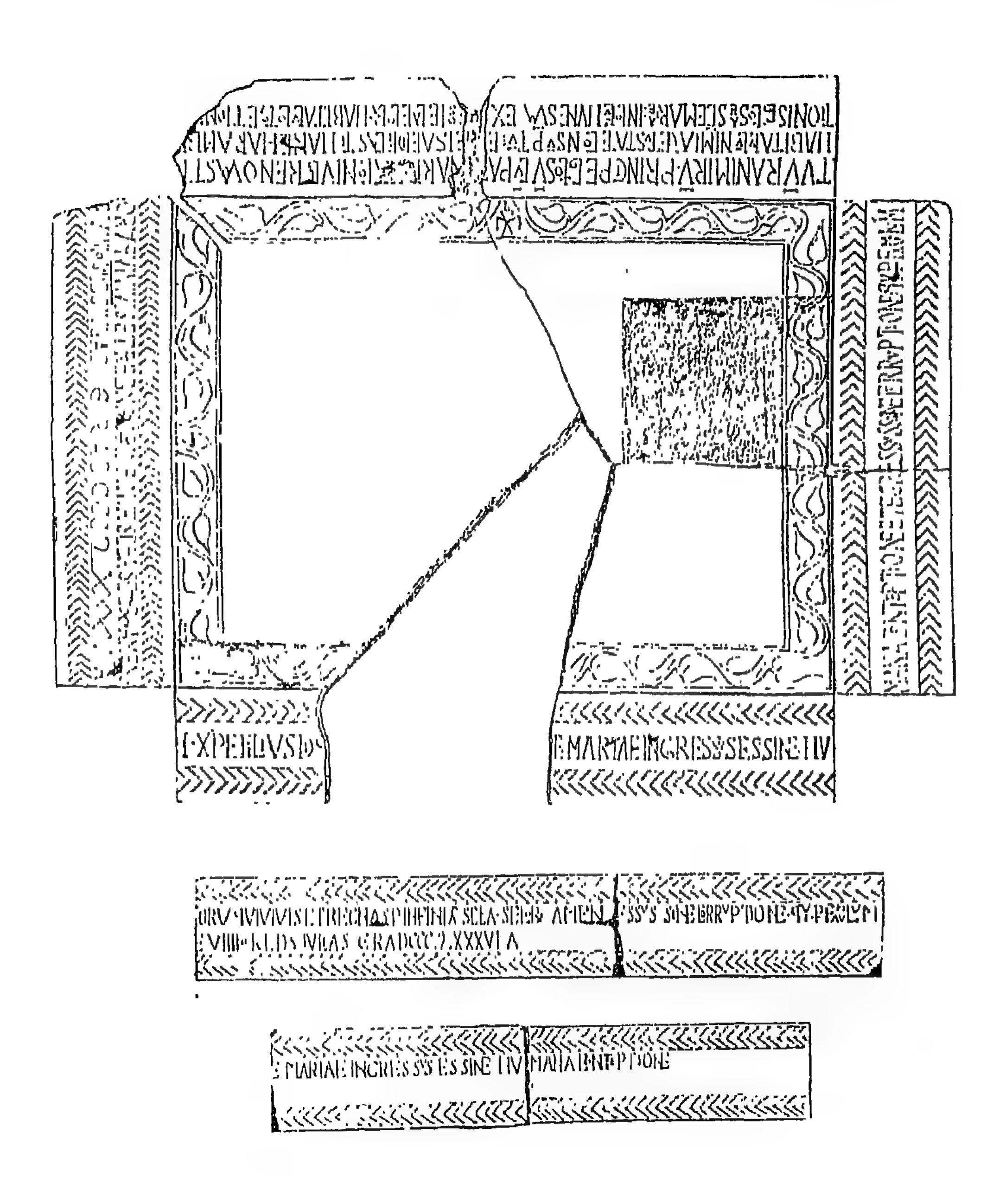
---

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, 1 p 9; Chron Albeldense, ed. Florez, Esp Sagr., 13 p 452.



كنيسة سانتا ماريا دل نارانكو Santa Maria Del Naranco
التى بناها الملك راميرو فى الثالث والعشرين من يونيو
عام ٨٤٨م (٢٣٤هـ)، فى مدينة أوبييدو .

وصورة نقش تأسيسها (١) :



(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, Lamina L III , Num. L6; Hubner, supplementum, Berolini 1900, pp 113 - 114 No 483 .

ونصه كما يلي[1] :

" CHRISTE FILIUS DEI, QUI IN UTERUM VIRGINALEM BEATAE MARIAE INGRESSUS ES SINE HUMANA CONTEPCIONE, ET EGRESSUS SINE CORRUPTIONE, QUI PER FAMULUM TUUM RANIMIRUM, PRINCIPE GLORIOSUM CUM PATERNA REGINA CONIUGE RENOVASTI HOC HABITACULUM NIMIA VETUSTATE CONSUMPTUM, ET PRO EIS AEDIFICASTI HANC HARAM BENEDICTIONIS GLORIOSAE SANCTAE MARIAE IN LOCUM HUNC SANCTUM, EXAUDI EOS DE CAELORUM HABITACULO TUO, ET DIMITTE PECCATA EORUM, QUI VIVIS ET REGNAS PER INFINITA SECULA SECULORUM. AMEN. DIE VIIII KALENDAS IULIAS ERA DCCLXXXVIa. "

وترجمته إلى القشتالية[2] :

" Cristo, hijo de Dios, que en el vientre virginal de la bienaventurada Maria entraste sin humana concepcion y saliste sin corrupcion que por tu siervo Ramiro, Principe glorioso, con paterna Reina, su mujer, renovaste este templo por su escesiva antiguedad consumido, y por ellos edificaste esta arade bendicion á la gloriosa Santa Maria en este lugar santo, óyelos desde tu habitacion de los Cielos, y perdona sus pecados, Que vives y reinas por infinitos siglos de los siglos. Amen. A 9 dias de las calendas de Julio de la Era 886. " (23 Junio ano 848).

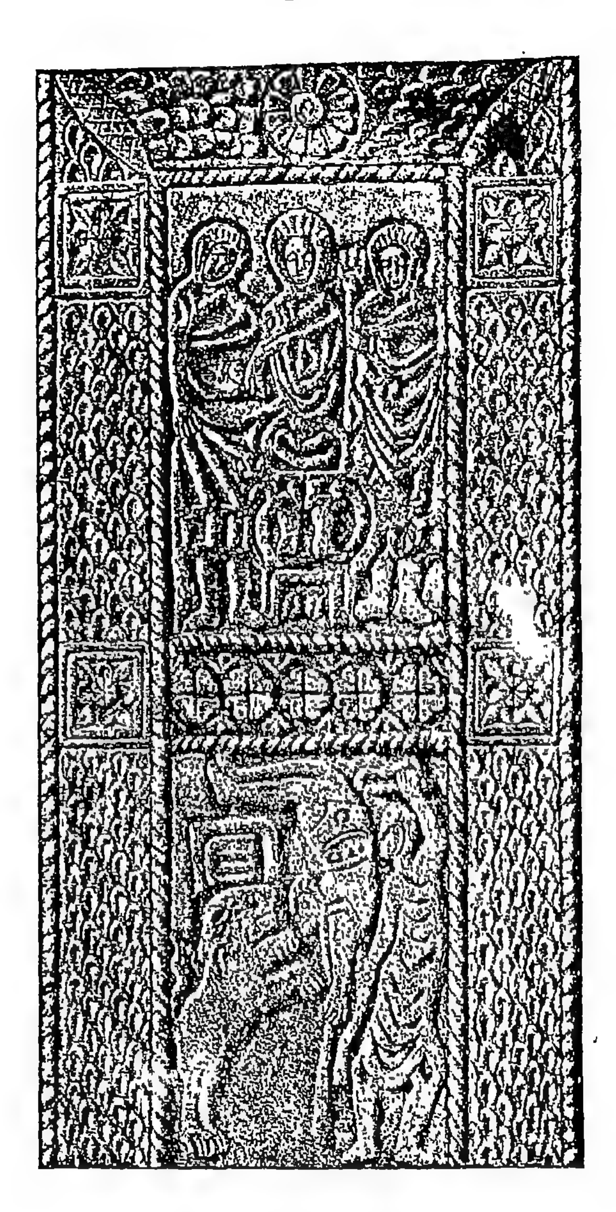
---

(١) نقلاً عن : Vigil, Asturias, 1p 219; Hubner, supplementum, p 114.

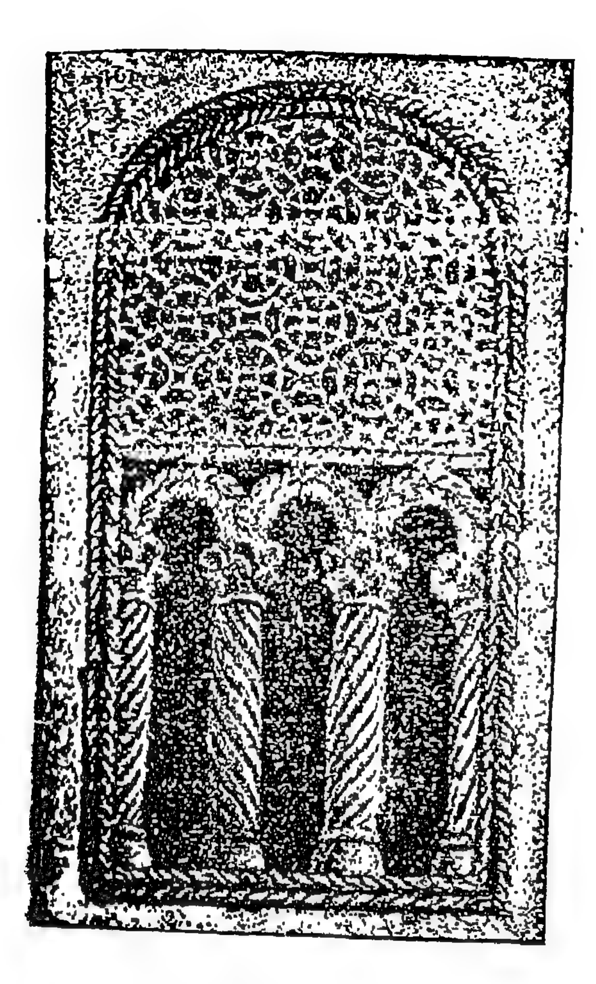
(٢) أنظر : Vigil, Asturias, 1 pp 219 - 220



كنيسة سان ميجيل دى لينو San Miguel De Lino
التى بناها الملك راميرو فى يونيو عام ٨٤٨م (٢٣٤هـ) ، فى مدينة أوبييدو .



نموذج زخارف الجدران الداخلية للكنيسة .



نموذج لزخارف نوافذ الكنيسة .

نص نقش مقبرة الملك راميرو Ramiro (١).

" OBIIT DIVAE MEMORIAE RANIMIRUS REX
DIE KAL. FEBRUARII, ERA DCCCLXXXVIII
OBTESTOR VOS OMNES , QUI HAEC LECTURI
ESTIS, UT PRO REQUIE ILLIUS ORARE NON
DESINATIS. "

وترجمته إلى القشتالية(٢) :

" Morió el Rey Ramiro de santa memoria, á primero de Febrero de la era de ochocientos ochenta y ocho (ano de 850) . Os suplico á todos los que esto Léyeredes, que no dejeis de rogar por el reposo de su alma. "

(١) نقلاً عن : Vigil, Asturias, 1p 9; Risco, Esp. Sagr, 37 pp 198 - 199; Hubner, Inscriptiones, p 79 No 248.

(٢) أنظر : Vigil, loc cit.

نص نقش مقبرة الملك أردونيو Ordono[١] .

ORDONIUS ILLE PRINCEPS, QUEM FAMA LOQUETUR,

CUIQUE REOR SIMILEM SECULA NULLA FERENT-

INGENS CONSILIIS, ET DEXTERAE BELLIGER ACTIS,

OMNIPOTENSQUE TUIS NON REDDAT DEBITA CULPIS.

OBIIT SEXTO KAL IUNII ERA DCCCCIIII.

وترجمته إلى القشتالية كما يلى:

" Aqui yace Ordono el principe de quien siempre hablará la fama, y cuyo semejante no verán quizá los siglos venideros : hombre acertado en las deliberaciones y muy valiente en la guerra. No le pague Dios segun merecen sus culpas. Murió á veinte y siete de Mayo del ano de nuevecientos y cuatro de la Era. "

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias, 1pp 9 - 10; Hubner, Inscriptiones, p 80 No 251, Risco, Esp Sagr,. 37 p 204.

نص نقش تجديد وتوسيع وتحصين الفونسو الثالث Alfonso III كنيسة سان سلفادور San salvador فى أوبييدو (١).

IN NOMINE DOMINI DEI ET SALVATORIS NOSTRI IESUCHISTI, SIVE OM-NIUM CECUS CLORIOSE SANCTAE MARIE VIRGINIS. BISSENIS APOS-TOLIS, CETRRISQUE SANCTIS MARTIRIBUS OB CUIUS HONOREM TEM-PLUM EDIFICATUM EST IN HUNC LOCUM OVETAO, A CONDAM RELIG-IOSO ADEFONSO. PRINCIPE, AB EIUS NAMQUE DISCESSUUS QUE NUNC QUARTUS EX ILLIUS PROSAPIE IN REGNO SUBCEDENS CONSIMILI NO-MINE

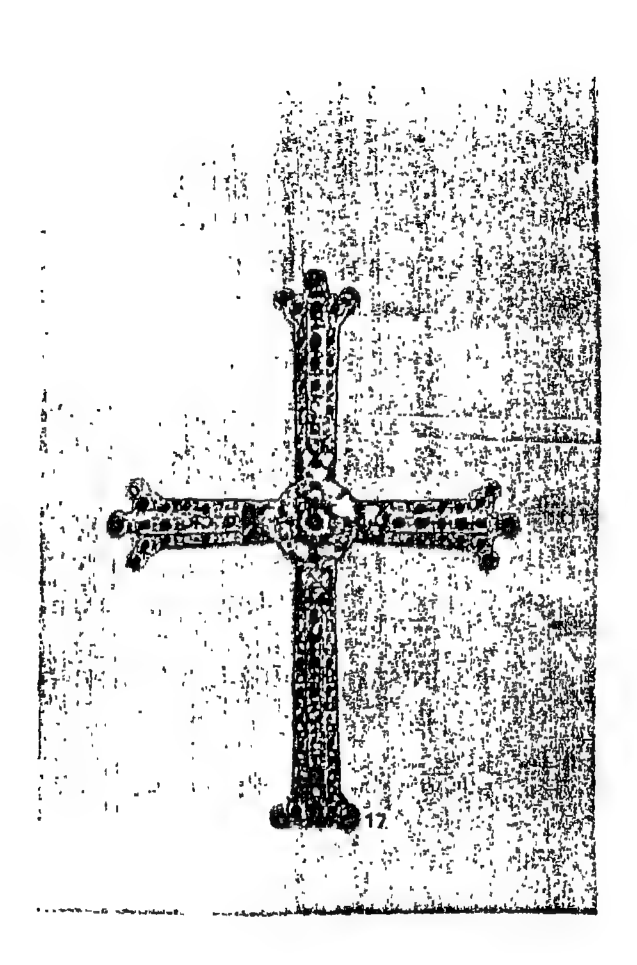
ADEFONSUS PRINCEPS, DIVE QUIDEM MEMORIAE HORDONI REGIS FIL-IUS. HANC AEDIFICARI SANCSIT. MUNICCIONEM CUM CONIUGE SCEM-ENA DUOBUSQUE PIGNERE NATIS, AD TUICCIONEM MUNIMINIS. TEN-SAURI AULAE HUIUS SANCTAE AECCLESIAE RESIDENDUM INDEMNEM, CAVENTES, QUOD ABSIT DUM NAVALI GENTILITAS PIRA-TO SOLENT EXERCITU PROPERARE, NE VIDEATUR ALIQUID DEPER-IRE, HOC OPUS A NOBIS OFFERTUM IDEM AECCLESIAE PERENNI SIT IURE CONCESSUM.

وترجمته إلى القشتالية كما يلى:

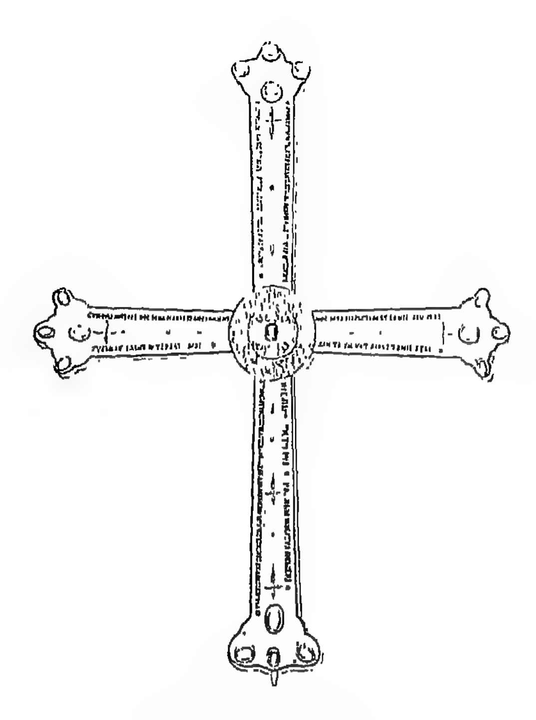
" EL religioso Principe Adefonso, que Dios haya, edifico este Templo en este lugar de la Ciudad de Oviedo , en nombre y honra de Dios, de nues-tro Salvador Jesucristo, de la Gloriosisima Virgen Maria, de los doce Apos-toles, y de los demás Santos Mártires que aqui se veneran El Principe Ade-

(١) نقلا عن : Vigil, Asturias,1 pp 7 - 8 ; Hubner, Inscriptiones, p 84 No 259; Somoza, Gij-on, 2pp 526 - 527. Risco, Esp. Sagr, 37 p 216 .

fonso que tiene el mismo nombre del arriba dicho y es el cuarto Rey de su linage, e es hijo del Rey Ordono,de santa memoria, mandó juntamente con su muger Scemena y con sus dos hijos, que se fabricára esta fortificacion para seguridad y defensa del Tesoro de esta Santa Iglesia , y para que viniendo, como suelen, con su ejército los Gentiles corsarios, no perezca alguna de estas alhajas, lo que Dios no permita. Esta nuestra ofrenda quédese quédese perpétuamente á disposicion y favor de la misma Iglesia ."



الوجه الأمامى لصليب النصر La Cruz de la Victoria
الذى صنع فى عهد الفونسو الثالث حوالى عام ٩٠٨ م .



الوجه الخلفي لصليب النصر

وعلى كل ذراع يوجد النقش التالي (١):

الذراع الأعلى : Susceptum Placide Maneat Hoc In Honore Dei Quod Offerunt . Famula Christi Adefonsus Princes Et Scemena Regina .

الذراع الأيسر : Quisquis Auferre Hoc Donaria Nostra Presumserit Fulmine Divino Intereat Ipse .

الذراع الأيمن: Hoc Opus Perfectum Et Concessum est. Santo Salvatori Ovetense Sedis .

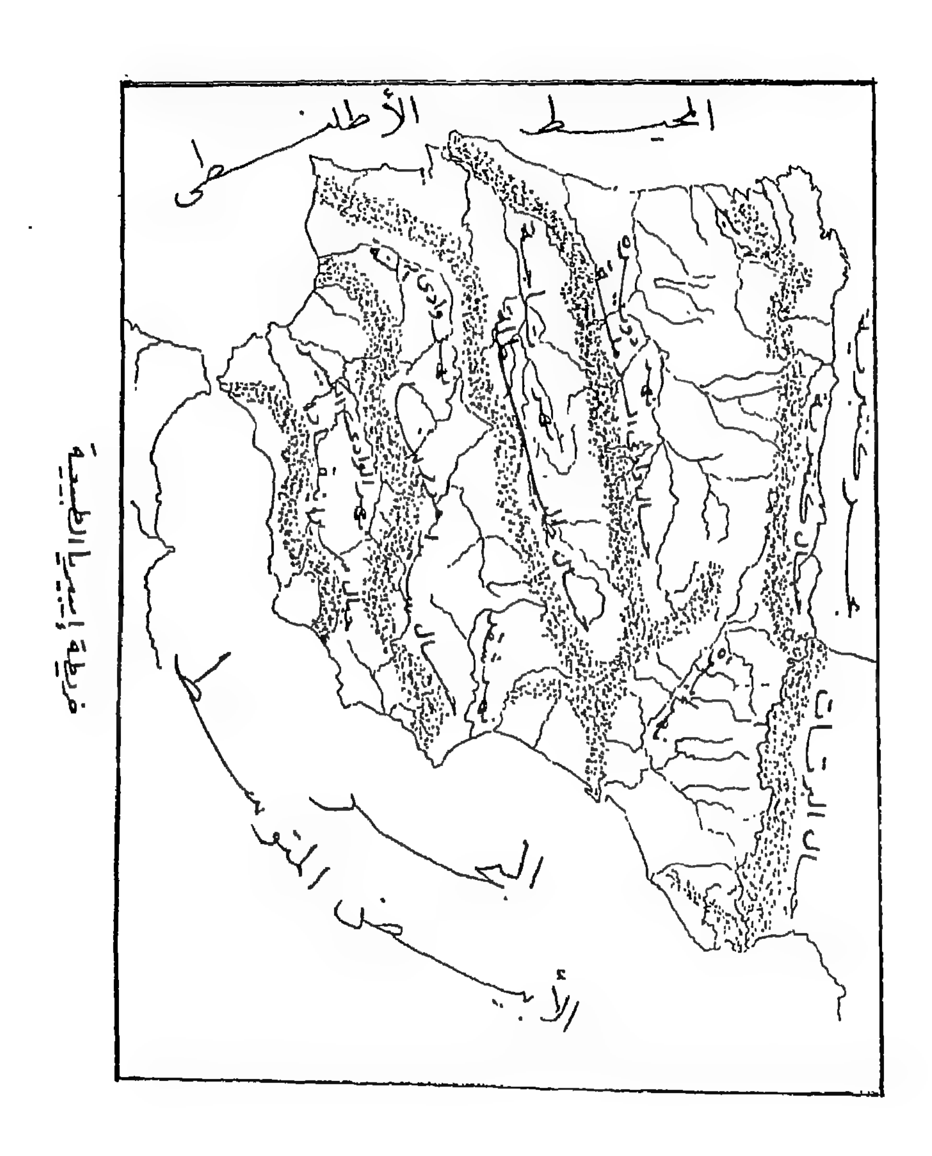
الذراع الأسفل: Hoc Signo Tuetur Pius . Hoc Signo Vincitur Inimicus Et Operatum Es In Castello Gauzon Anno Regni Nostri XII. Discurrente Era DCCCCXVI a .

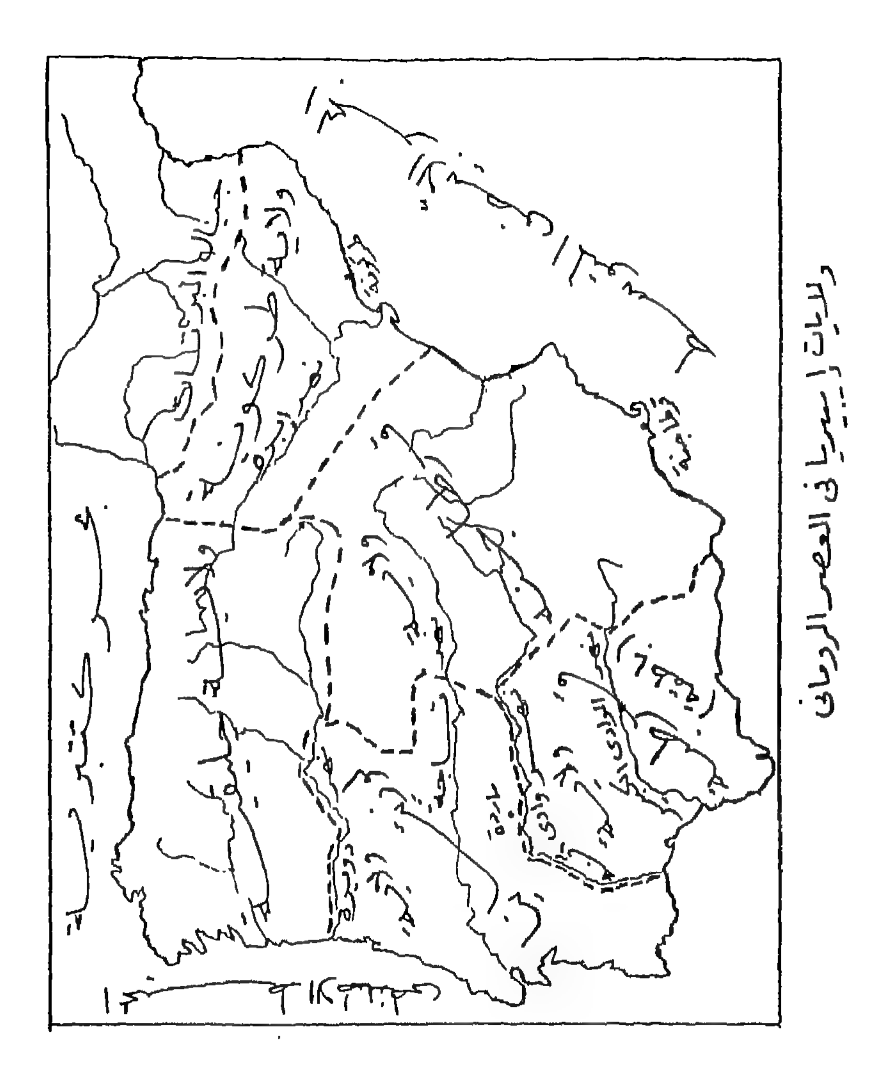
وترجمته إلى الاسبانية كما يلي : " Esta Cruz, recibida con agrado, quédese aqui en honra de Dios, La ofrecen el Principe Adefonso siervo de Jesu - Cristo, y la Reina Ximena, Se labró en el Castillo de Gauzon el ano 42 de nuestro reinado, que es el de 946 de la era (ano de 908) , Quien se atreviese á quitar la esta nuestra ofrenda mátele Dios con un rayo, Acabada la obra se dió á Catedral de Oviedo, dedicada al Santo Salvador. Con esta senal se defiende el hombre Piadoso, y con ellla se alcanza victoria del enemigo ".

(١) Vigil, op cit, 1p 18; Hubner, op cit, p 80 No 249; Risco, op cit, 37 pp 220 221 .

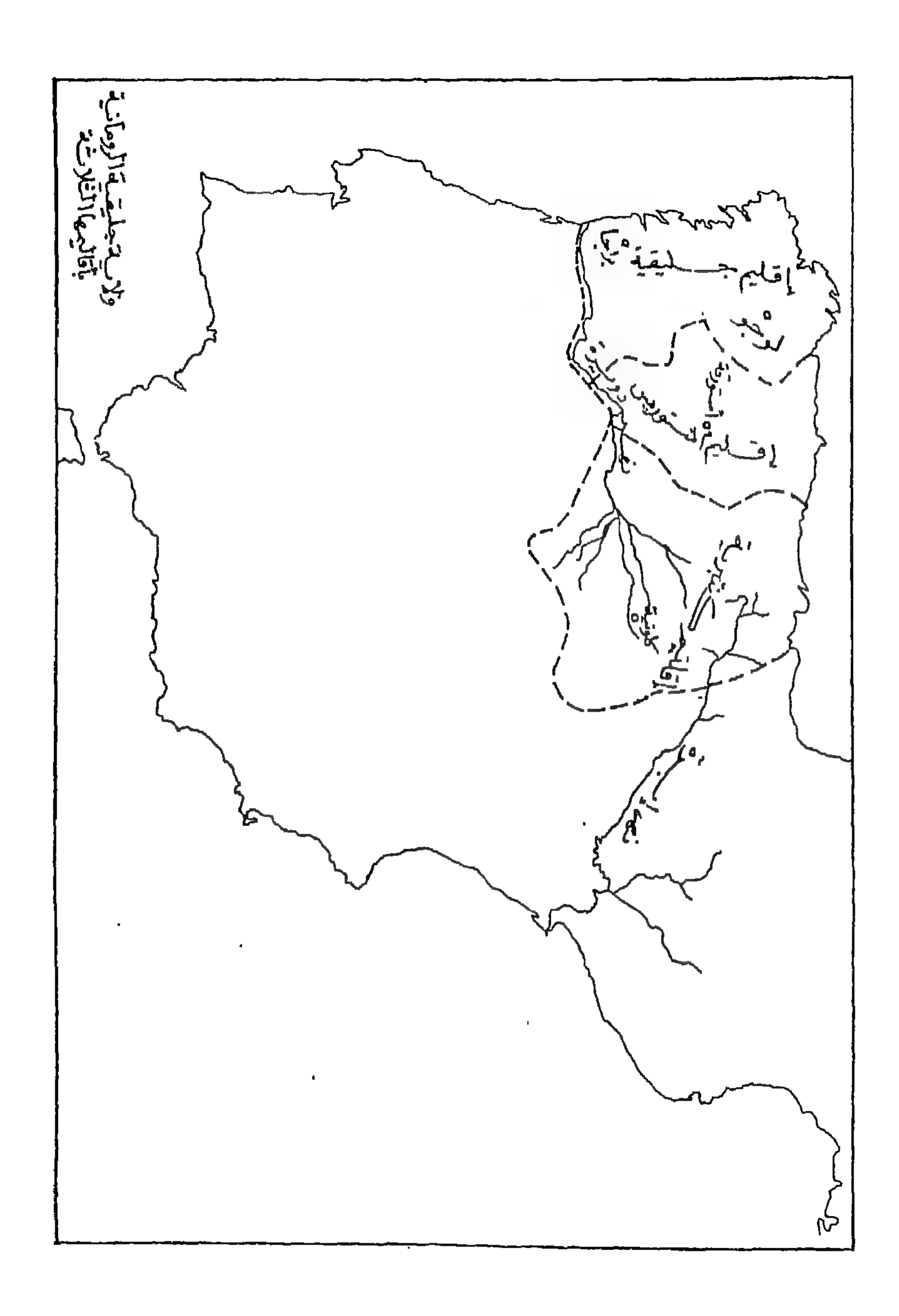
رابعاً : الخرائط

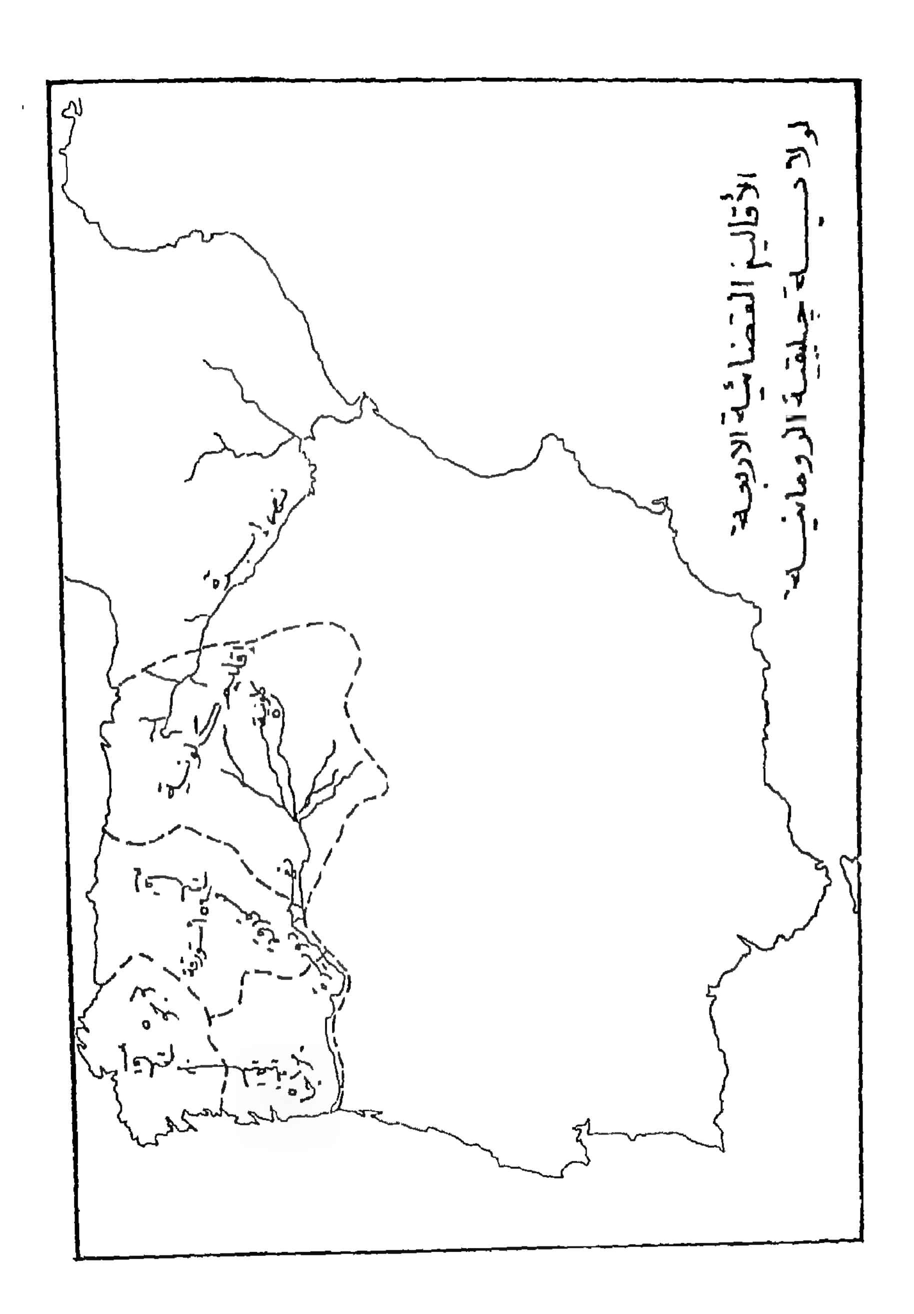


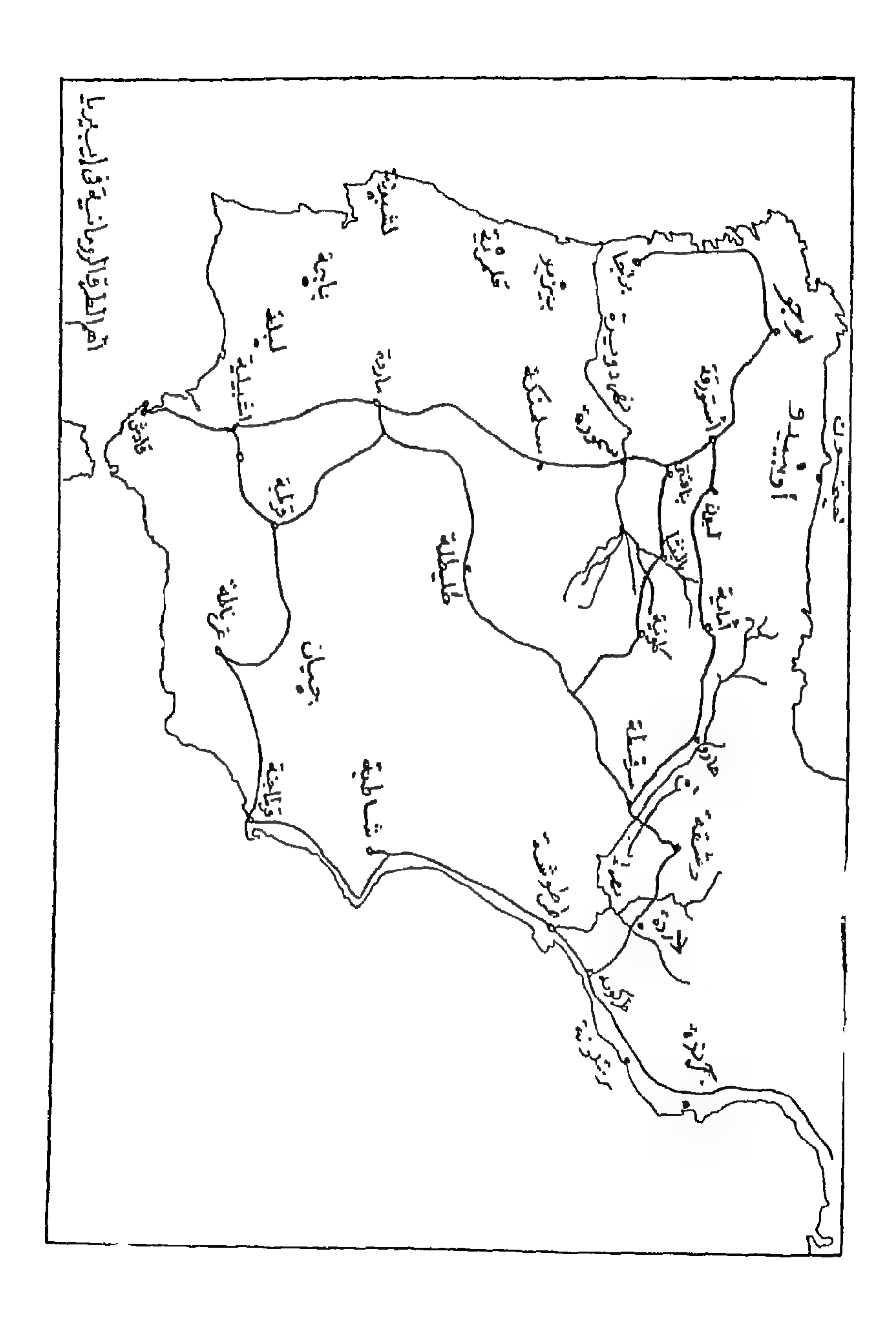

المحيط الأطلنطى
خريطة إسبانيا الطبيعية

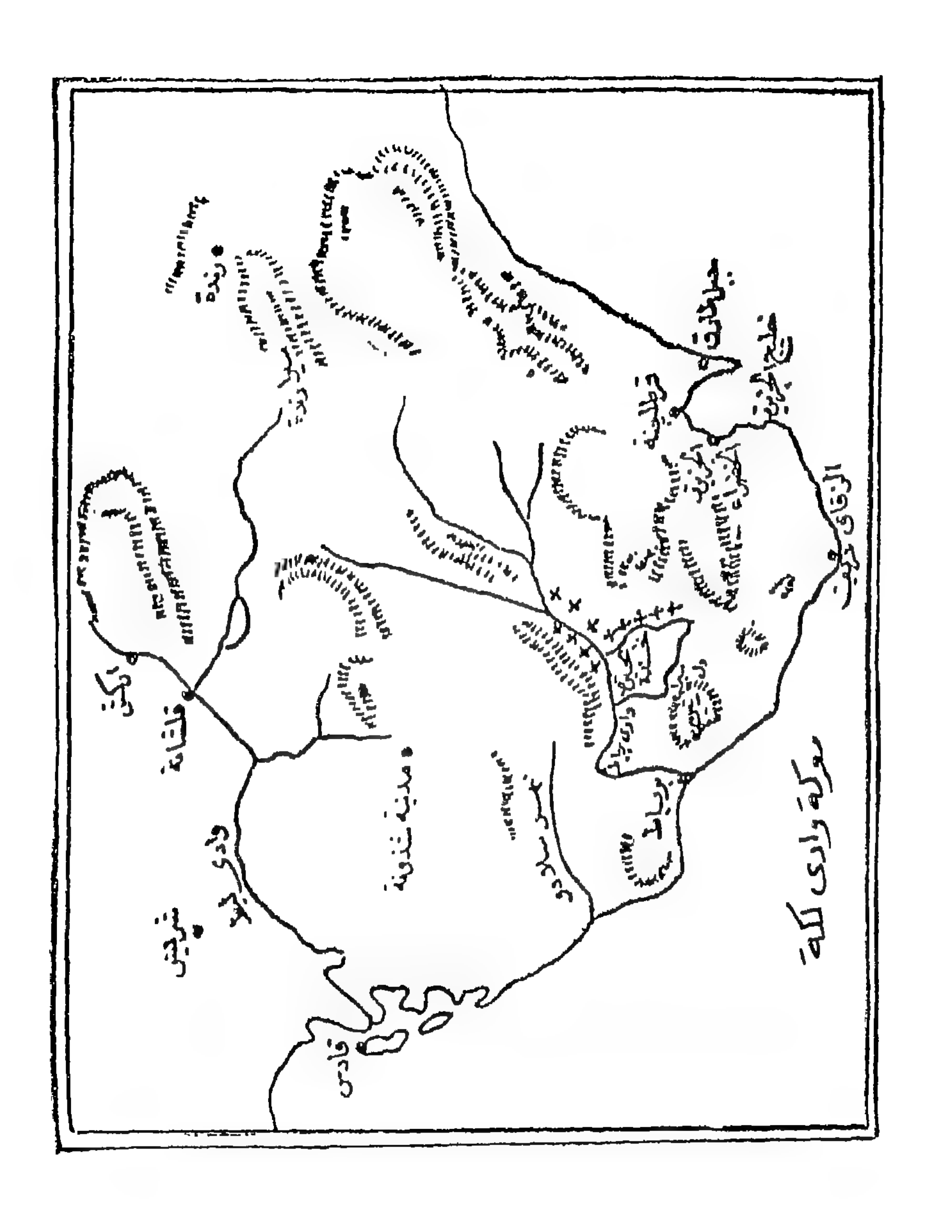


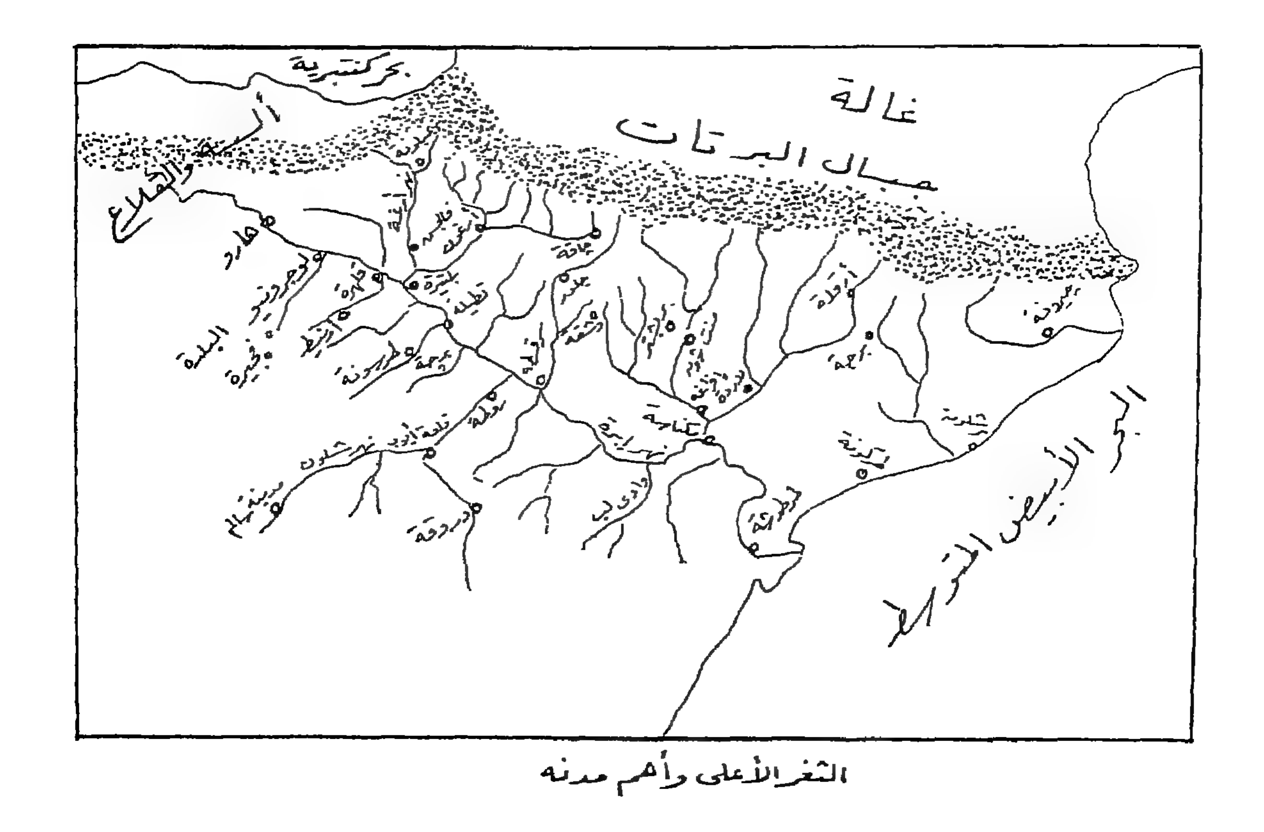
ولايات إسبانيا في العصر الروماني


ولاية جليقية الرومانية
بأقاليمها الثلاثة
أستورقة
كلونية
براجا
لوجو

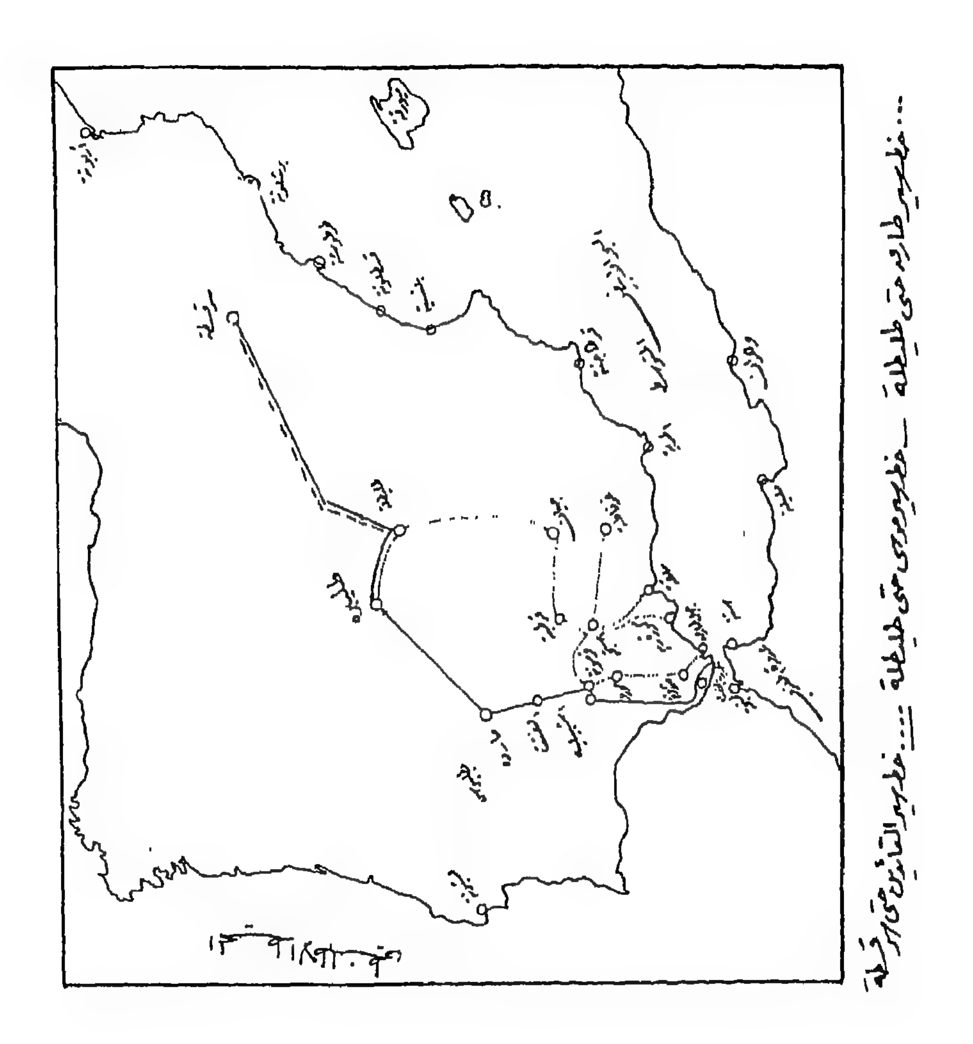

الأقاليم القضائية الأربعة
لولاية جليقية الرومانية




معركة وادي لكة
جبل طارق
خليج الجزيرة
قرطاجنة
الجزيرة الخضراء
الزقاق
طريف
برباط
نهر سلادو
مدينة شذونة
قادس
وادي لكة
شريش
قلشانة
اركش
رندة

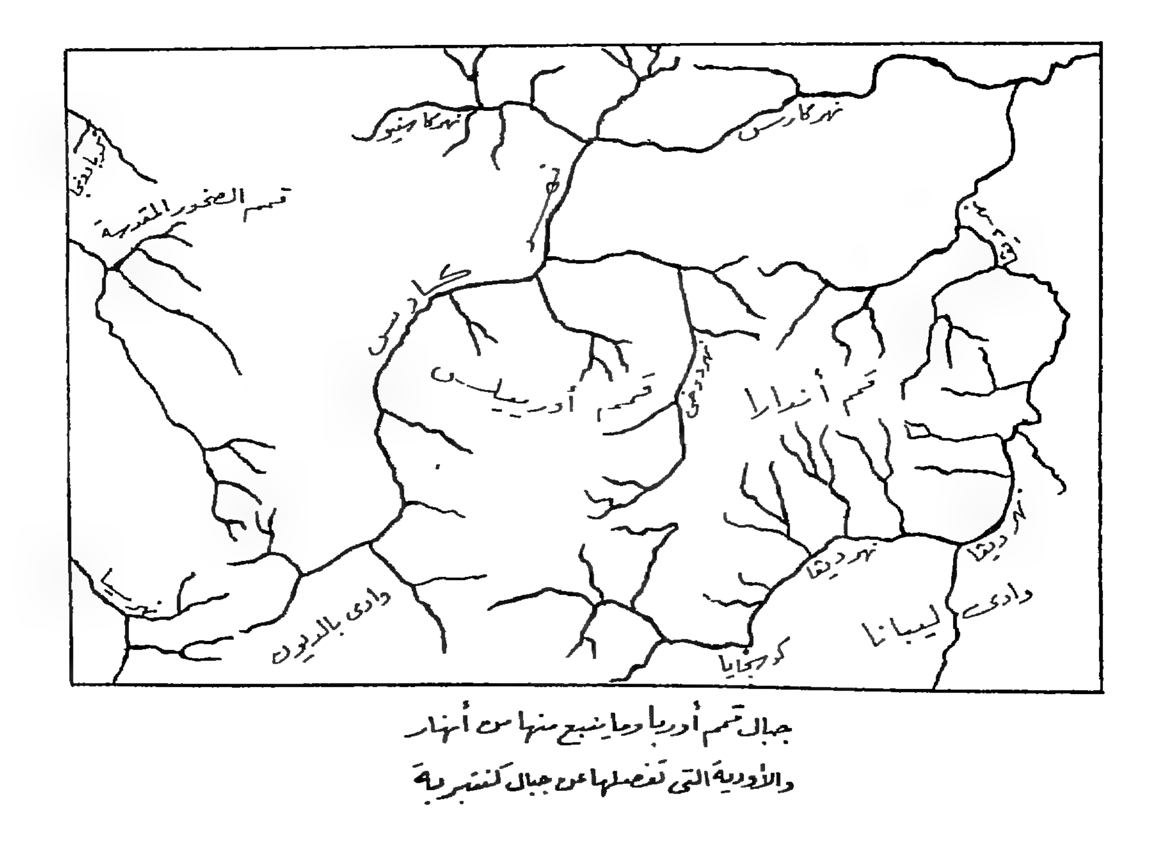


الثغر الأعلى وأهم مدنه

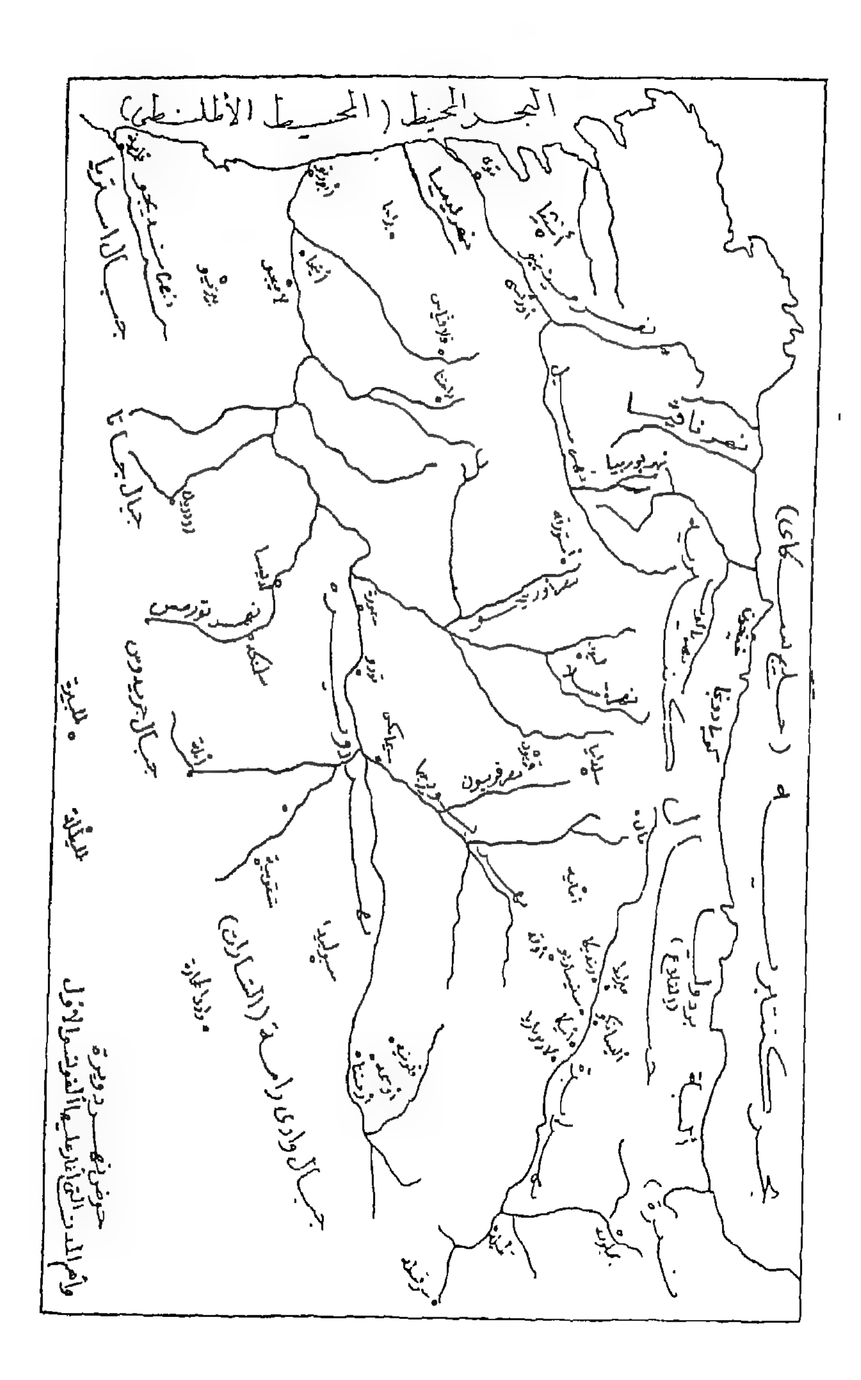


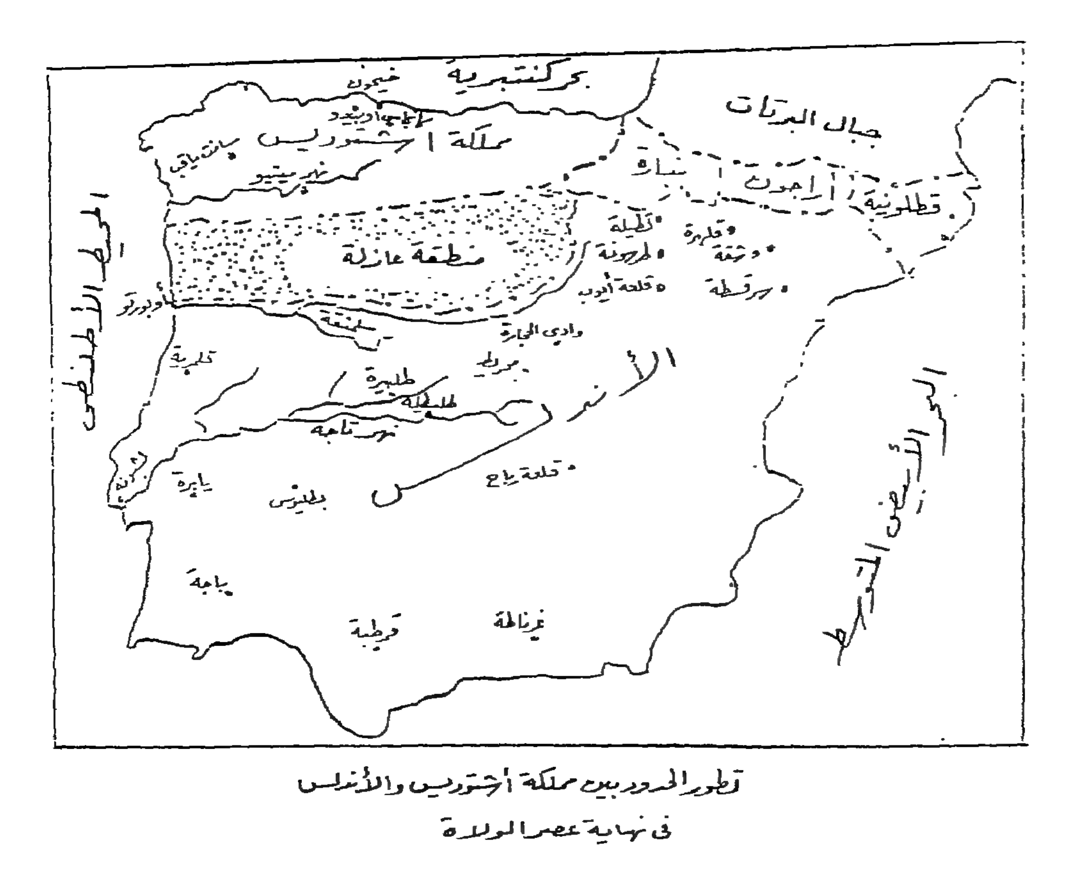
بحر كنتبرية
المحيط الأطلنطى
جبال كنتبرية
أشتوريس جليقية
نبارة
نهر دويرة
البحر الأبيض المتوسط

حملة موسى وطارق على ولاية جليقية الرومانية

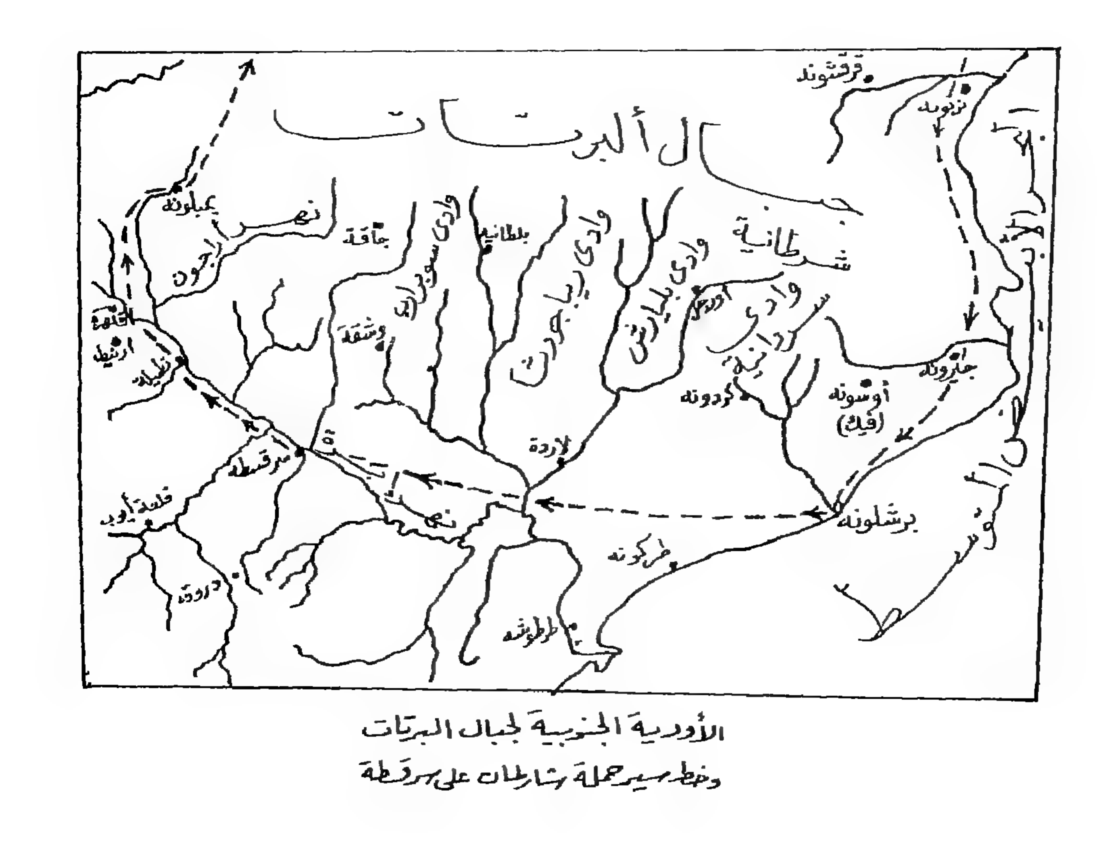


جبال قمم أوربا وما ينبع منها من أنهار
والأودية التي تفصلها عن جبال كنتبرية

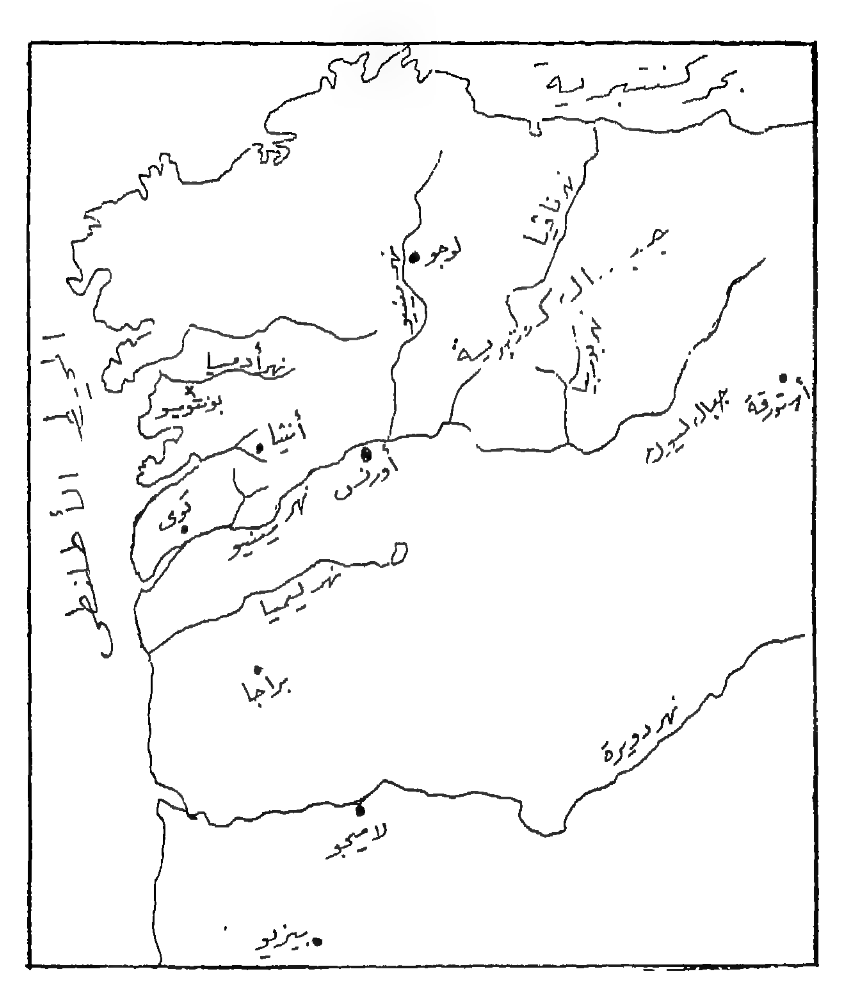

البحر المحيط (المحيط الأطلنطي)



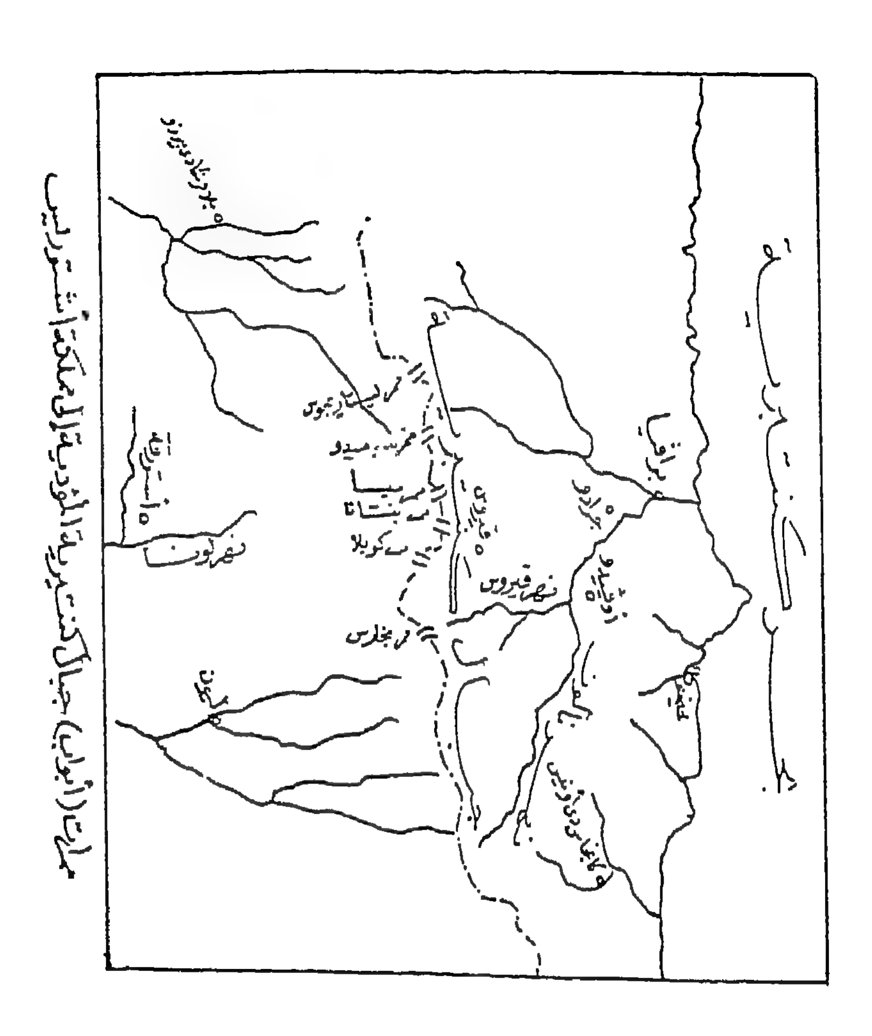
تطور الحدود بين مملكة أشتوريس والأندلس
فى نهاية عصر الولاة



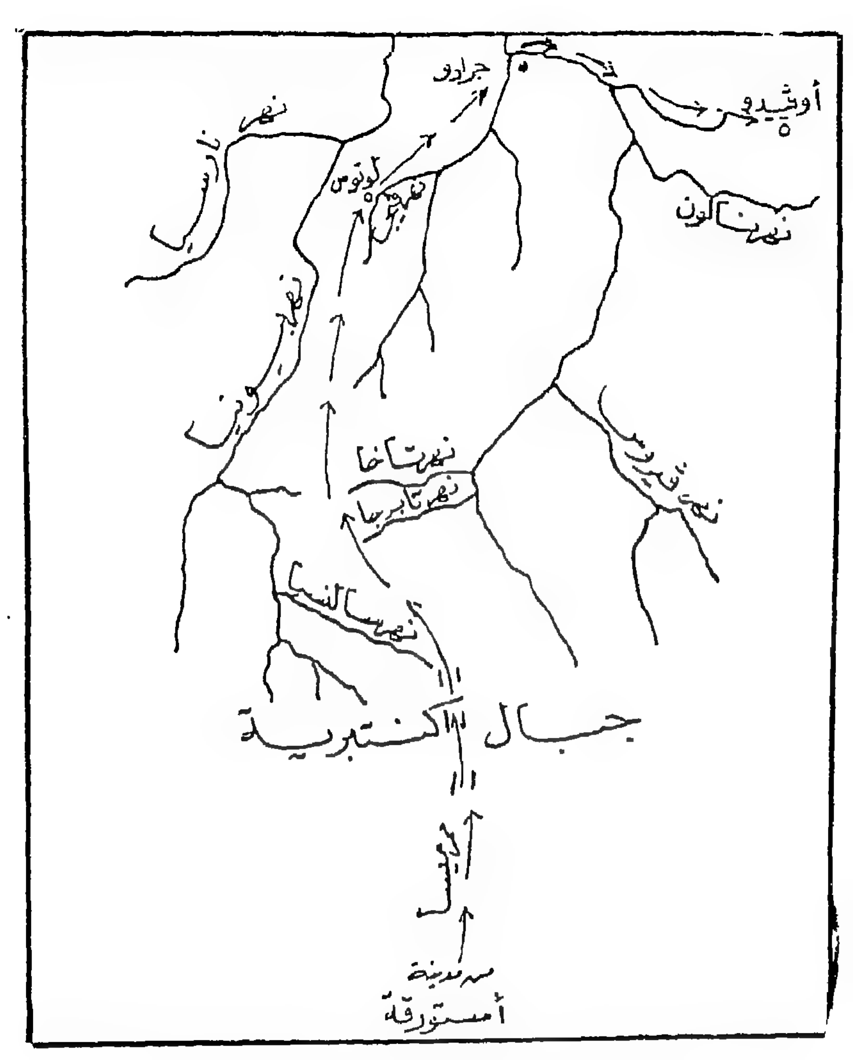
الأودية الجنوبية لجبال البرتات
وخط سير حملة شارلمان على سرقسطة



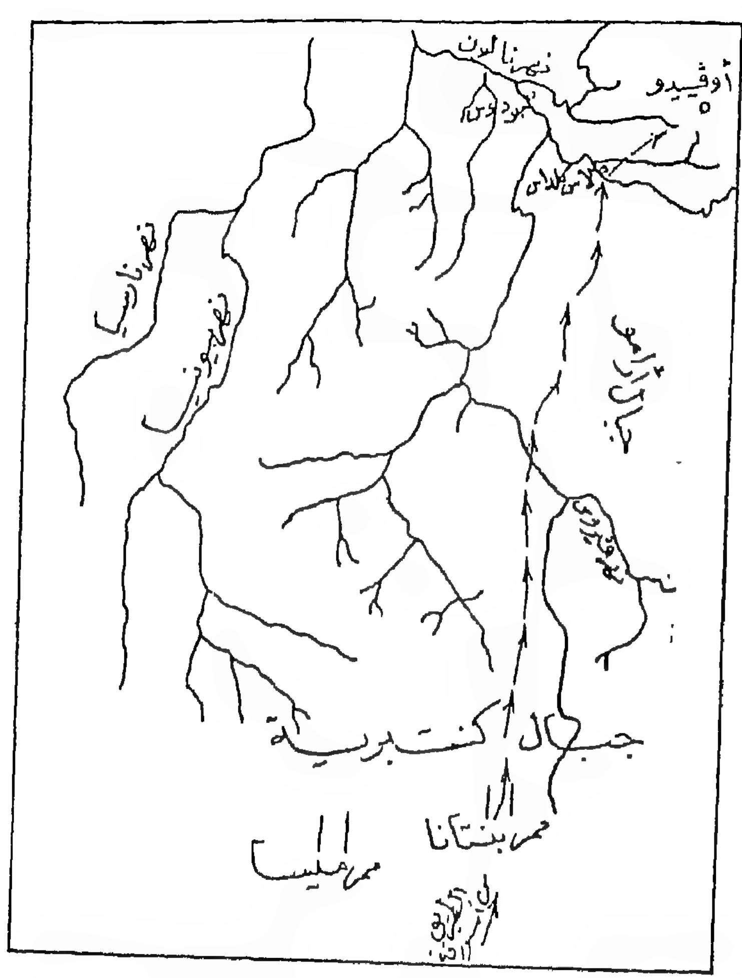
موقعة بونتوميو (أوميا) باقليم جليقية



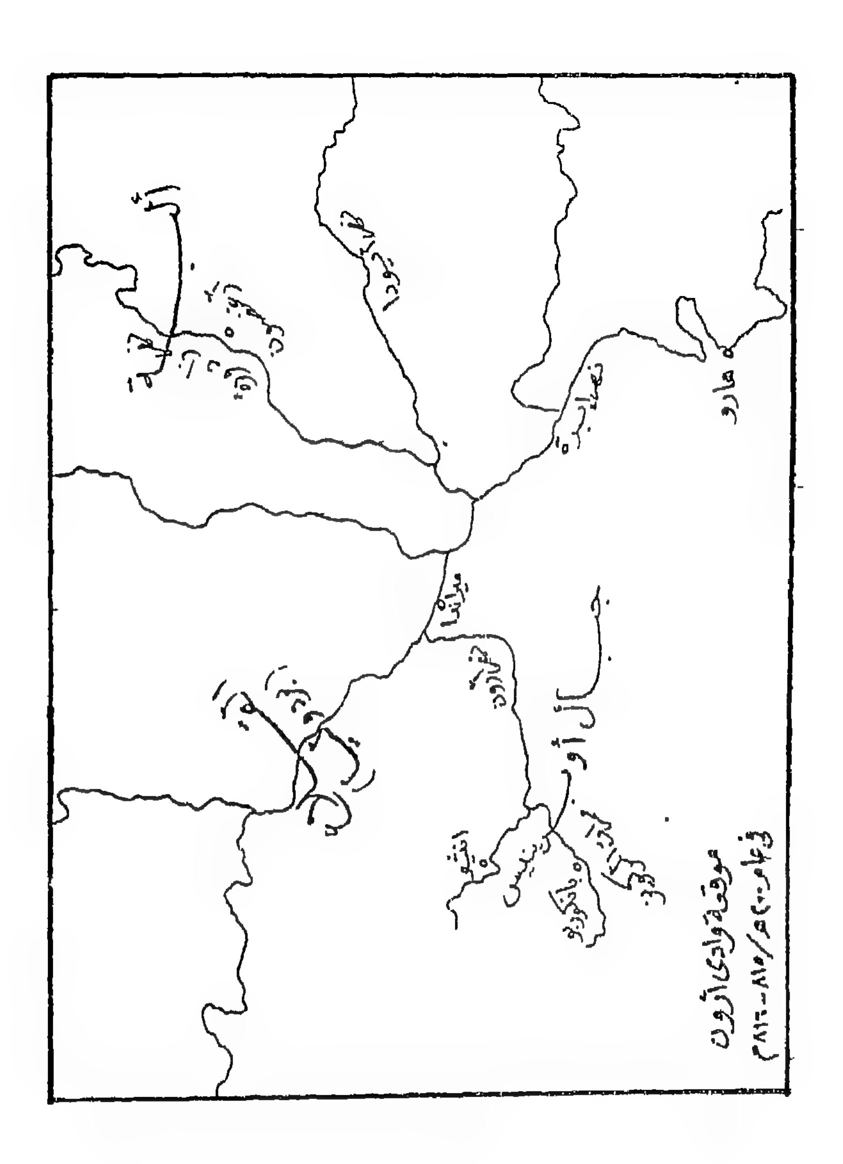
ممرات (أبواب) جبال كنتبرية المؤدية إلى مملكة أشتوريس

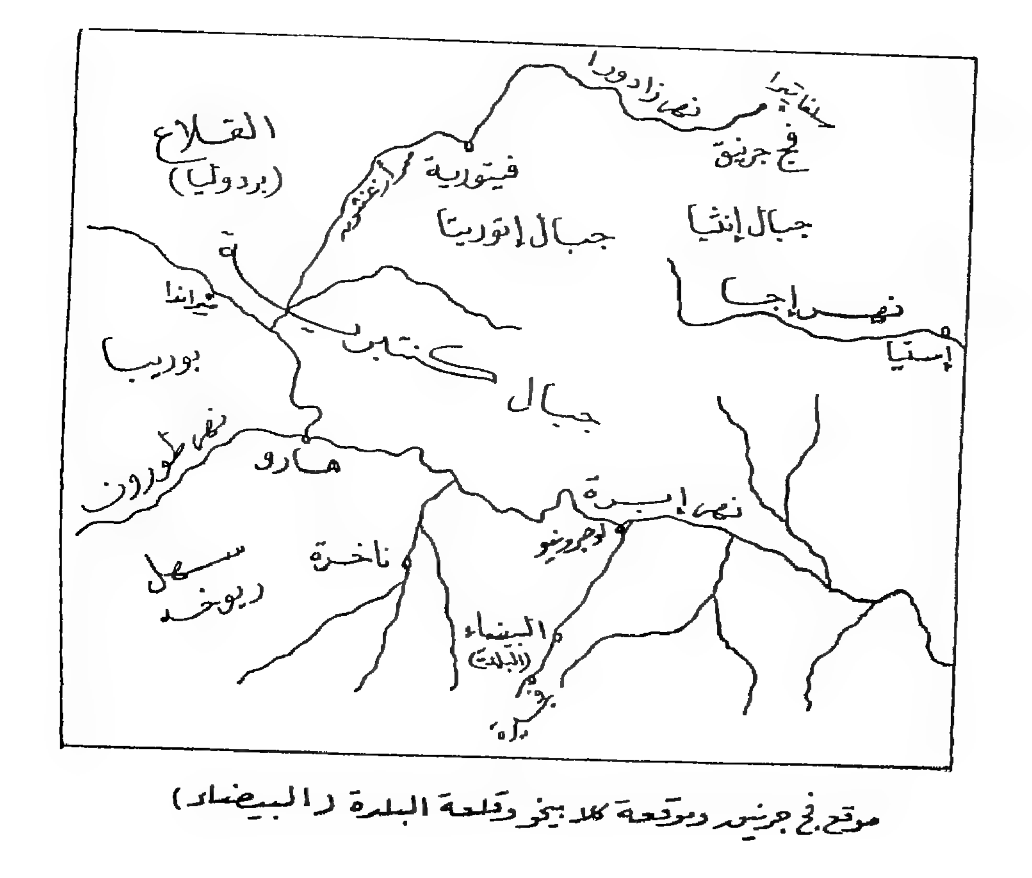


حملة عام ١٧٨هـ/٧٩٤م على أشتوريس

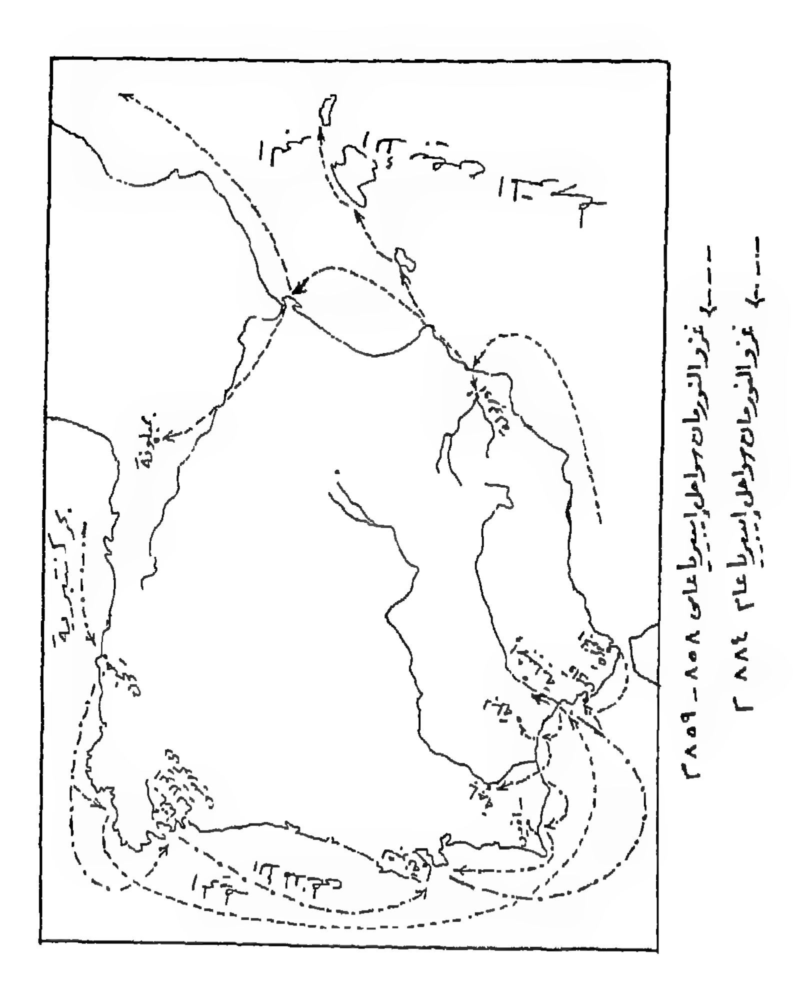


حملة عام ١٧٩هـ/٧٩٥م على أشتوريس

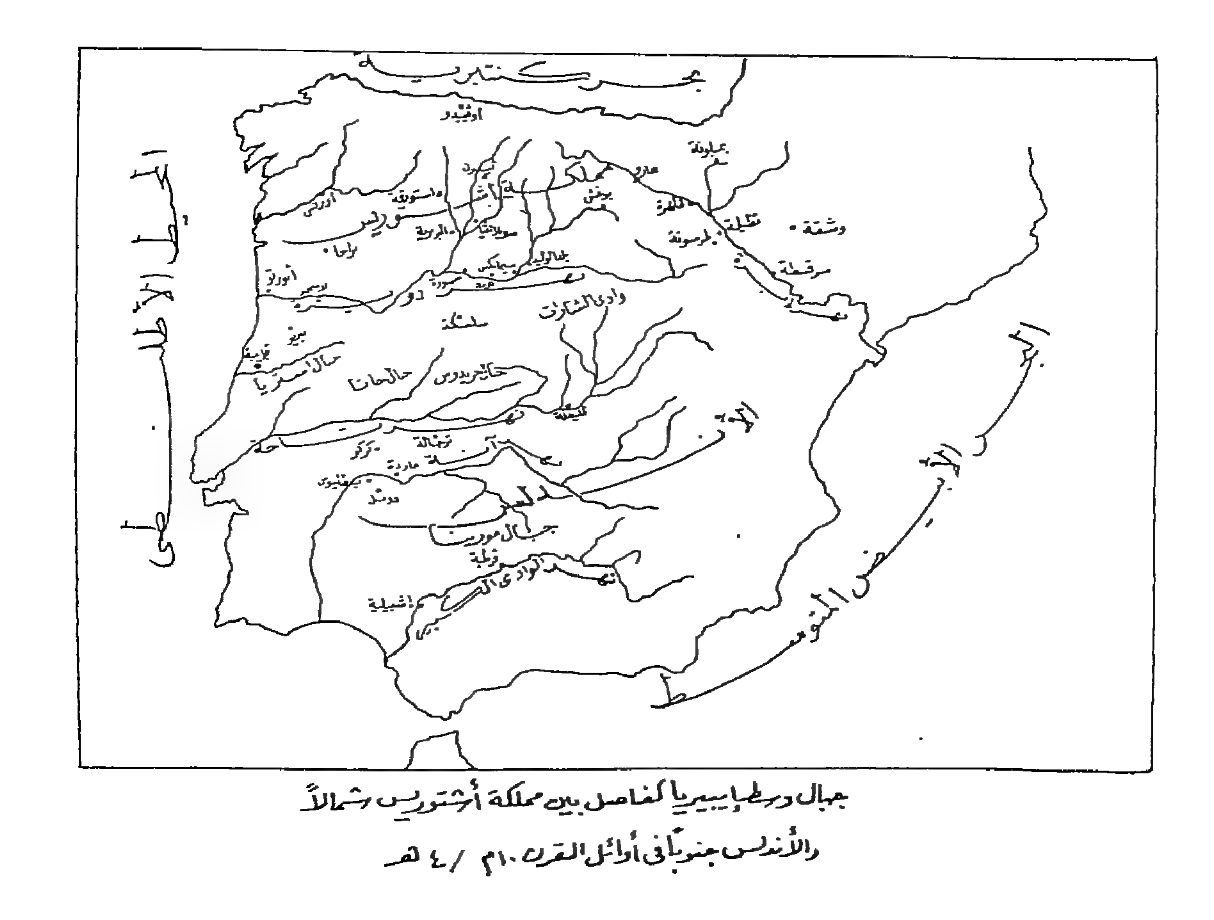

ألبة
أرغنصون
نهر أبيودا
ميراندا
نهر أرون
انشيو
بانكوربو
نهر إبرة
هارو
موقعة وادى أرون
فى عام ٢٠٠هـ/٨١٥-٨١٦م



موقع فج جرنيق وموقعة كلابيخو وقلعة البلدة (البيضاء)



بحر كنتبرية
بنبلونة
البحر الأطلنطي
غزو النورمان سواحل إسبانيا عامي ٨٥٨ - ٨٥٩م
غزو النورمان سواحل إسبانيا عام ٨٤٤م



جبال وسط إيبيريا كفاصل بين مملكة أشتوريس شمالاً والأندلس جنوباً في أوائل القرن ١٠م / ٤هـ



خامساً : المصادر والمراجع



أولاً : المصادر

(أ) المصادر الأوربية والمترجمة :

- Annales Complutenses :

(a) Ed. F. Berganza, Antiguedades de Espana, Madrid 1721, t 2pp 565 - 567.

(b) Ed. J. de Ferreras, Sinopsis Historica Cronologica de Espana (Historia de Espana), t16, Madrid 1727.

(c) Ed.H. Florez, Espana Sagrada, Ist ed, Madrid 1767, t 23 (apen.3), pp 310-314.

(d) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1 pp 40 - 53. ؛ نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية .

- Annales Compostellani :

(a) Ed. F. Berganza, Antiguedades de Espana, Madrid 1721, t 2pp 562-565.

(b) Ed. J. de Ferreras, Historia de Espana, t 16, Madrid 1727.

(c) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1 st ed, Madrid 1767, t 23 (apen. 5), pp 317 - 324.

(d) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1pp 58 - 80. نشر بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية .

- Annales Laurissenses et Einhardi : Ed. G. H. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptorum, Hannoverae 1826, t 1 pp 112 - 218.

- Annales Mettenses Priores:

(a) Ed. G. H. Pertz, Monumenta Germaniae Histouica Scriptorum, Hannoverae 1826, t 1 pp 314-336.

(b) Ed. B. de Simson, Hannoverae et Lipsiae 1905.

- Annales Regni Francorum Qui Dicuntur Annales Laurissenses Maiores et Einhardi:

Ed. Kurze.Hannoverae 1895.

- Annales Tiliani :

Ed. G. H. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptorum, Hannoverae 1826, t 1pp 219-224.

- Annales Toledanos I, II, III :

(a) Ed. F. Berganza, Antiguedades de Espana, Madrid 1721, t 2pp 567-577. حيث نشر الحوليتين الأولى والثانية فقط.

(b) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1767. t 23 (apen 2) pp 382-423.

(c) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista. Valencia 1913, t 1pp 339-373.، نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية

- EL Anonimo de Sahagun :

(a) Ed.P.R. Escalona, La Historia del Real Monasterio de sahagun, sacada de la que dejo escrita el Mtro. P.José Pérez, t1, Madrid - Ibarra 1782.

(b) Ed. J. Puyol, Las Cronicas Anonimas de Sahagun, Buletin de la Real Academia de la Historia de Madrid, t 76, 1920.

- Aragonese Text now edited for the first time :

Ed. G. U. Umphrey, Revue Hispanique, Paris - New York 1907, t 16 pp 244- 287.

- Belda, L.S.:

Documentos Reales de la Edad Media Referentes a Galicia, Madrid 1953.

- Berganza, F. de :

(a) Antiguedades de Espana, 2 vols, Madrid 1719-1721.

(b) Ferreras Convencido con Critico Desengano en el Tribunal de los Doctos con los Chronicones Corregidos, Madrid 1729.

- Bouquet, M.:

Recueil de Historiens de la Gaule et de la France, 24 t, Paris 1738-1904.

- Carvallo, L.A. de:

Antiguedades y Cosas Memorables del Principado de Asturias, Salinas - Asturias 1977.

- Casiri, M.:

Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis, 2 Vols, Matriti 1760 - 1770.

- Chronicon Albeldense :

(a) Ed. J. Pellicer, Chronica de Espana de Dulcidio, Presbytero de Toledo, Obispo de Salamanca, Barcelona 1663؛ نشرها كاملة فيما عدا الفقرات ٤٧ – ٤٩، ٨٤ – ٨٧ من المدونة التى تتضمن قوائم بتتابع ملوك أشتوريس ونبرة فضلاً عن أصل القوط.

(b) Ed. F. Berganza, Antiguedades de Espana, Madrid 1721, t 2pp 548-560؛ نشرها كاملة بعنوان: Chronicon Emilianense فيما عدا الفقرات ٤٧ – ٥٠ التى تتضمن قوائم بتتابع ملوك أشتوريس ونبرة .

(c) Ed. P. M. J. del Saz, Chronica de Espana Emilianense, explicada con notas latinas y traducida con adiciones al idioma castellana, Madrid 1742، نشرها كاملة فيما عدا الفقرات ٤٧-٥٠، ٨٤ – ٨٧ من المدونة.

(d) Ed. J. de Ferreras, Historia de Espana,t 16, Madrid 1727.

(e) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1 st ed. Madrid 1756, t 13 (apen 6), pp 417- 464.

(f) Ed. J. P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Prima (Latina) , Paris 1853,t 129 pp 1124-1146.

(g) Ed.Lafuente y Alcantara, Ajbar Machmua, Madrid 1867, (apen 3), p163-165، لم ينشر منها سوى ما يتعلق بالفتح الإسلامى لإسبانيا، وقائمتين بتتابع ولاة الأندلس وأمرائها.

(h) Ed. R. Bocanegra, Cronica Albeldense, Revista Mensual de Filosofia, Literatura y Ciencias de Sevilla, Sevilla 1871, t 3 pp 171-176, 217-221, 270-274, 306-310, 342-347, 403-408, 446-456, 550-558. ؛ وقد نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية.

(i) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1 pp 114-197 ؛ نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية.

(j) Ed. G. Moreno, Las Primeras Cronicas de la Reconquista, el Ciclo de Alfonso III, Boletin de la Real Academia de la Historia de Madrid, Madrid 1932, t 100 pp 600-609. ، اقتصر على نشر ما يتعلق بتتابع ملوك القوط الأواخر من وامبا حتى لذريق، وتاريخ أشتوريس من بلاجيوس حتى الفونسو الثالث، ثم قائمة بأسماء أساقفة إسبانيا.

- Chronicon Burgense :

(a) Ed. F. Berganza, Antiguedades de Espana, Madrid 1721, t 2pp560 - 562. ، وقد نشرها بعنوان : Cronicon Sacada del libro de la Calenda Antigua de la Catedral de Burgos.

(b) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1767, t 23 (apen 2), pp 305 - 311.

(c) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1pp 28 - 41. ؛ نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية.

- Chronicon Cerratensis :

(a) Ed. H. Florez , Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1747,t 2pp 210 Sqq.

(b) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1 pp 90 - 95. ؛ نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية.

- Chronicon Complutenses :

(a) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1767, t 23 (apen 4), pp 298 - 299, 315 - 317.

(b) Ed.M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1pp 52 - 57. ؛ نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية.

- Chronicon Compostellanum :

(a) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1767, t 23 (apen 6), pp 325 - 328.

(b) Ed. M. Huici, las Cronicas Latinas de la Reconquista Valencia. 1913, t 1pp 80-91 ؛ نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية.

- Chronicon de Isidore Pacense :

(a) Ed. P. de Sandoval, Cinco Obispos, 1st. ed., Pamplona 1615 (2nd ed. 1634).

(b) Ed. F. Berganza, Ferreras Convencido ----, Madrid 1729.

(c) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 2nd ed, Madrid 1769, t8 (apen 2), pp 269 - 325.

(d) Ed. J. P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Prima (Latina), Paris 1851, t 95 pp 1251 - 1280.

(e) Ed. M. de Escobar, Cronica de Isidoro Pacanse, Texto Latina y Version Castellana, Revista Mansual de Filosofia Litiratura y Ciencias de Sevilla, Sevilla 1870, t 2 pp 21-28, 74 - 79, 118 - 126, 216-226, 264- 272, 317-327, 361-371, 412-417. ؛ نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية.

(f) Ed. Lafuente y Alcantara, Ajbar Machmua, Madrid 1867,

(apen 2), pp 146 - 162. ؛ اقتصر على نشر ما يتصل بتاريخ مسلمي الأندلس فقط.

(g) Ed. R. P. Tailhan, Anonyme de Cordoba, Chronique de rimée de derniers rois de Tolédo et de la conquete de l'Espagne par les Arabes, Paris 1885.

(h) Ed. T. Mommsen, Chronica Minora, Saec 4, 5 , 6 Volume 2(MGH), t XI, Berolini 1961, pp 323 - 369.

- Chronicon Lusitanum:

(a) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1758, t 14 (apen 12), pp 402- 419.

(b) Ed. A.Brandao, Monarchia Lusitana, t 3.

(c) Ed. Portugal Monumenta Historica Scriptores, Lisboa 1806, t 1pp 8 - 17.

- Chronicon Moissiacense :

(a) Ed. G. H. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptorum , Hannoverae, t 1 (1826) pp 280 - 313; t 2 (1829) pp 257 - 259.

(b) Ed. Lafuente y Alcantara, Ajbar Machmua, Madrid 1867, pp165 - 166.

- Chronicon Regum Vvisigothorum:

ed H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1747, t 2 pp 172 - 208.

- Chronicon Sampiri Asturicensis Episcopi :

(a) Ed. P. de. Sandoval, Cinco Obispos, 1st ed., Pamplona 1615.(2nd ed.)1634.

(b) Ed. J. de Ferreras, Historia de Espana, t 14, Madrid 1727.

(c) Ed. F. Berganza, Ferreras Convencido, Madrid 1729.

(d) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1758, t 14 pp 419 - 457.

(e) Ed. R. Cobo y Sampedro, Revista Mensual de Filosofia Literatura y Ciencias de Sevilla, Sevilla, t 4 (1872) pp 62-71; t 5 (1873) pp 379 - 383, 422 - 428, 449 - 458. ؛ نشرها بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية .

(f) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1 pp 240 - 306. ؛ نشرها بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية.

- Chronicon Sebastiani :

(a) Ed. P. de. Sandoval, Cinco Opispos, 1st ed., Pamplona 1615 (2nd ed. 1634).

(b) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1756, t 13 (apen7), pp 464 - 489.

(c) Ed. J. P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Prima (Latina) , Paris 1853, t 129 pp 1111 - 1124.

(d) Ed. R. Cobo y Sampedro, Revista Mensual de Filosofia, Literatura y Ciencias de Sevilla, Sevilla 1870, t 2 pp 453-461, 490 - 494, 535 - 541. ؛ نشرها بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية .

(e) Ed. Barrau - Dihigo, Une Redaction Inédite du Pseudo - Sebastien de Salamanque, Revue Hispanique, Paris 1910, t 23 pp 235 - 264.

(f) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1pp 196 - 239. ؛ نشرها بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية.

(g) Ed. Z. Villada, La Cronica de Alfonso III, Madrid 1918, (text B, pp 99 - 131).

- Chronicom. Monachi Silensis :

(a) Ed. P . de Sandoval, Cinco Obispos, 1st ed, Pamplona 1615 (2nd ed. 1634).

(b) Ed. F. Berganza, Antiguedades de Espana, Madrid 1721, t 2pp 521 - 548 .

(c) ed. H. Florez, Espana Sagrada, 2st ed, Madrid 1789, t 17 pp 256 - 323.

(d) Ed.M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista. Valencia 1913, t 2pp 8-169.. ؛ نشرها بنصها اللآتينى مع ترجمة قشتالية.

(e) Ed. F. S. Coco, La Cronica Silense, Madrid 1919.

ثم أعاد نشرها عام ١٩٢١م بعنوان: La Historia Silense, ضمن منشورات مركز الدراسات التاريخية بمدريد ؛ El Centro de Estudios Historicos de Madrid, ؛ وفى ذات العام تولى نفس المركز نشر ترجمة إسبانية لها قام بها المؤرخ جومث مورينو Gomez Moreno بعنوان : Introduccion a la Historia Silense, con Version Castellana, Madrid 1921 .

- Une Chronique Léonaise Inédite:

Ed. G. Cirot, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1909 (t 11) No 3 pp259, 282; 1911 (t 13) No 2 pp 133 - 156, No 4 pp 381 - 439; 1912 (t 14) No 1 pp30 - 46, No 2 pp 109 - 118, No 3 pp 244 - 274, No 4 pp 353 - 374; 1913 (t 15) No 1 pp 18 - 37, No 2 pp 170 - 187, No 3 pp 268 - 283, No 4 pp 411 - 427. .

- Continuador del Biclarense:

(a) Ed. H. Florez, Esp. Sagr., 1st. ed, Madrid 1751, t6 (apen. 10) , 422 - 146 .

(b) Ed. Lafuente y Alcantara, Ajbar Machmua, Madrid 1867, pp 145 - 146. ؛ حيث نشر مقتطفات منها .

- La Cronica de Alfonso III :

(a) Ed. J. de Ferreras, Historia de Espana, Madrid 1727, t 16 pp 9 - 25.

(b) Ed. F. Berganza, Ferreras Convencido, Madrid 1729, pp 371 - 389.

(c) Ed. Gomez Moreno, Las Primeras Cronicas de la Reconquista, el Ciclo de Alfonso III , Boletin de la Real Academia de la Historia, Madrid 1932, t 100 pp 609 - 621.

حيث نشرها بعنوان : La Cronica Rotense

(d) Ed. Z. Villada, La Cronica de Alfonso III, Madrid 1918 (Text A, pp 53 - 85).

- La Cronica Biclarense:

(a) Ed. I. A. Arias, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1948, t 10 pp 129 - 141 .

(b) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1751, t 6 (apen 9), pp 353 - 421 .

- La Cronica General de Espana de 1344 :

Edicion del Texto Espanol de la Cronica de 1344, que Ordeno el Conde de Barcelos don Pedro Alfonso, Preparada por Diego Catalan y Maria Soledad de Andrés, tomo 2 de las Fuentes Cronisticas de la Historia de Espana, Madrid 1970.

- La Cronica Geral de Espanha de 1344 :

Ed. L.F.L. Cintra, Academia Portuguesa da Historia, 3 tomos, Lisboa 1951, 1954, 1961.

- La Cronica Profética :

Ed. Gomez. Moreno, Las Primeras Cronicas de la Reconquista, el Ciclo de Alfonso III, Boletin de la Real Academia de la Historia, Madrid 1932, t 100 pp 622 - 628.

- Cronicon de Cardena I - II :

(a) Ed. F. Berganza, Antiguedades de Espana, Madrid 1721, t 2 pp 578 - 590.

(b) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1767, t 23 (apen 1), pp 370 - 381 .

(c) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t 1pp 373 - 381 . نشرها بنصها اللاتينى مع ترجمة قشتالية.

- Cronicon Conimbricense :

(a) Ed. C. de Sousa, Las Pruebas de la Historia Genealogica de la Casa Real de Portugal, pp 375 Sqq.

(b) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1767 , t 23 (apen 7), pp 329 - 355.

- Cronicon Villarense :

Ed. Serrano y Sanz, Boletin de la Real Academia Espanola, Madrid (1919) t 6 pp 192 - 220; (1921) t 8 pp 267 - 382.

- Davila G.G. :

Teatro Eclesiastico de la Iglesias Metropolitanas ... etc., Madrid 1645 - 1650.

- Einhardi Fuldensis Annales a 680 - 838:

Ed. G.H. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptorum, Hannoverae 1826, t 1 pp 343 - 361.

- Einhardi Vita Karoli Imperatoris :

Ed. G.H. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptorum, Hannoverae 1829. t 2 pp 426 - 463. وقد ترجمها إلى الانجليزية لويس ثورب Lewis Thorpe ونشرها بعنوان: Einhard and Notker The Stummerer, Two Lives of Charlemagne, Penguin Classics, England 1971 - 1972.

- Escandon J. M.:

Historia Monumental del Heroico Rey Pelayo y Su Cesores en el Trono Cristiano de Asturias, Madrid 1865.

- Ferreras J.de :

Sinopsis Historica Chronologica de Espana, 16 tomos, Madrid 1700 - 1727.

- Florez H. :

(a) Espana Sagrada, 56 Tomos, Madrid 1747 - 1886.

(b) Nombre, Limites y Memorias de las Asturias Antiguas, Espana Sagrada, t 16, Madrid 1762.

- Floriano A.C. :

Diplomatica Espanola del Periodo Astur 718 - 910, 2 tomos, Oviedo 1949.

- Florus L.A :

Epitome of Roman History, The Leob Classical Library, London 1960.

- Fredegarii Scholastici Chronicum :

Ed. M. Pouquet , Reueil de Historiens de la Gaule et de la France, Paris 1869, t2 pp 413 - 464

- Garibay E:

Compendio Historial de los Chronicas, 4 tomos, Barcelona 1628.

- Gascon de Torquemada J. :

Compendio de los Reyes de Espana desde Adam hasta el Rey D. Phelipe el Quarto Nuestro Senor, Ms. del Siglo 17. No 1296 en La Biblioteca Nacional de Madrid .

- Gesta Abbatum Fontanellensium :

Ed.S. Loewenfeld, Hannoverae 1886

- Hubner A . :

(a) Inscriptiones Hispaniae Christianae, Berolini 1871.

(b) Inscriptiones Hispaniae Christianorum Supplementum, Berolini 1900.

- Huerta y Vega. F. X. : Manuel de las Anales del Reyno de Galicia, 2 tomos, Santiago 1733 - 1736.

- Huici M. :

Las Cronicas Latinas de la Reconquista, 2 tomos, Valencia 1913.

- Isidori Hispalensis Episcopi :

(a) Historia de Regibus Gothorum, Vandalorum et Suevorum; Ed. Florez, Espana Sagrada, 1st ed. Madrid 1751,t6 (apen12),
G . Ford وله ترجمة انجليزية قام بها كل من فورد ، pp 473-506
History of the Kings of Goths, : بعنوان F. G. Donino ودونينو
J. L. كما ترجم روميرو ؛ Vandals and Suevi, Leiden - Brill 1966
الجزء الخاص بتاريخ الوندال والسويف إلى الإسبانية بعنوان : Romero
La Historia de los Vandalos y Suevos de San Isidore de Sevilla, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1944, t 1- 2 pp 289 - 297.

(b) Etymologiarum Sive Originum, 2 tomos, Oxford University Press 1965.

- Lucas Obispo de Tuy :

La Cronica de Espana, Primera Edicion del Texto Romanceado, Conferme a un Códice de la Academia de Madrid, Preparada y
Andreas وكان أندريه سكوت ، Prologada por J. Puyol, Madrid 1926.
: في كتابه Chronicon Mundi : قد نشر النص اللاتيني بعنوان Schott
Hispaniae Illustratae, Francfort 1608, t 4 pp 1 - 116.

- Mariana J. de : Historiae de Rebus Hispaniae, Toleto 1592.

Hispaniae : بنفس العنوان في الجزء الأول من كتابه Schott ونشره سكوت
Marcelino Menendez كما أعاد نشره ، Illustratae, Francfort 1603.
Nueva Biblioteca de : مترجماً إلى الاسبانية في مجموعة ، y Pelayo
Autores Espanoles desde la Formacion del lenguaje hasta

Nuestros Dias, Vols 30 - 31, Madrid 1912 - 1919. وكان قد نشر بالإسبانية من قبل بعنوان: Historia General de Espana, 2 tomos,: Madrid 1650؛ ثم قام ستيفنز J.Stevens بترجمته ترجمة مختصرة إلى الإنجليزية ونشره بعنوان: The General History of Spain, London 1699.

- Monumenta Germaniae Historica Scriptorum:

Ed. G. H. Pertz, 2 tomus, Hannoverae 1826 - 1829.

- Morales A. de:

La Cronica General de Espana, 4 tomos, Alcala de Henares 1574 - 1582.

- Moreno G. :

Las Primeras Cronicas de la Reconquista, el Ciclo de Alfonso III, Boletin de la Real Academia de la Historia, Madrid 1932, t 100 pp 609 - 621.

- Patrologiae Cursus Completus, Series Prima (Latina) :

Ed.P. Migne, t 95, 105, 106, 129. Paris 1851, 1853.

- Pelagii Ovetnsis Episcopi Chronicon, Regum Legionensium :

(a) Ed. J. de Sandoval, Cinco Obispos, 1st ed., Pamplona 1615 (2 nd ed 1634).

(b) Ed. J. de Ferreras, Historia de Espana, t 16, Madrid 1727.

(c) Ed. H. Florez, Espana Sagrada, 1st ed, Madrid 1857, t 14 pp 458 - 475.

(d) Ed. J. G. Corral, Revista Mensual de Filosofia, Literatura y Ciencias de Sevilla, Sevilla 1869, t 1 pp 53 - 56, 103 - 104, 133 - 136, 168 - 173؛ نشرها بنصها اللآتيني مع ترجمة قشتالية.

(e) Ed. M. Huici, Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, t1 pp 306 - 337؛ نشرها بنصها اللآتيني مع ترجمة قشتالية أيضاً.

(f) Ed. Sanchez Alonso, Cronica del Obispo don Pelayo, Madrid
Coleccion de Textos : وهى الجزء الثالث من مجموعة ، 1924.
El Centro de التى يصدرها Latinos de la Edad Media
Estudios Historicos.

- Pellicer de Tovar :

Libro Segundo de los Annales de la Grande, Imperial, Catolica Monarquia de los Espanas, Ms. del ano 1638, No 2472 en la Biblioteca Nacional de Madrid .

- Pliny :

Natural History, Leob Classical Library, Vol. 2, London 1947.

- Poetae Saxonis Annales de Gestis Caroli Magni Imperatoris a 771-841: Ed. G.H. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptorum, Hannoverae 1826. t 1 pp 225 - 279 .

- Primera Cronica General de Espana, que Mando Componer Alfonso El Sabio y su Continuaba bajo Sancho IV en 1289. Publicada por R. M. Pidal, 2 tomos, Universidad de Madrid - Facultad de Filosofia y Letras, Madrid 1955.

- Risco M :

(a) Antiguedades Concernientes a la Region de los Astures Transmontanos desde los tiempos mas remotos hasta el siglo X, Espana Sagrada, t 37, Madrid 1789.

(b) Historia de la Ciudad y Corte de Léon y de Sus Reyes, 2 t, Madrid 1792.

- Rodrigo de Rada, Rerum In Hispania Gestarum Chronicon:

(a) Ed. A. Wechelus, Rerum Hispanicarum Scriptorum Aliquot Quorum Nomina Versa Pagina Indicabit, Francofurti 1579, 1 pp 135 - 290.

(b) Ed. A. Schott, Hispania Illustratae, Francfort 1603, t 2 pp 25-194.

(c) Ed. M. de Mondejar, Memorias Historicas de la Vida y Acciones del Rey Don AlfonsoVIII de este Nombre llamado el Noble y el Bueno, t 1, Madrid 1783.

(d) Ed. F. de Lorenzana, p.p. Toletanorum Quotquot Extent Opera, tomus tertius, Roderici Ximeni de Rada, Toletanae Ecclesiae Praesulis, Opera Praecipua Complectens, Matriti 1793.

(e) Ed. G. H. Pertz, Monumenta Germaniae Historica, Berolini 1826.

(f) Ed. de la Fuensanta, Cronica de Espana del don Rodrigo Jimenez de Rada, Tradujola en Castellano y la Continuo hasta su Tiempo don Gonzalo de la Hinojosa, Obispo de Burgos, y después un Anonimo hasta el ano de 1454. Coleccion de Documentos Ineditos para la Historia de Espana, t 105 - 106, Madrid 1893.

- Estoria de los Godos del Rodrigo de Rada :

Ed. F. de Zabalburu - D. J. Rayon, Coleccion de Documentos Inéditos para la Historia de Espana, Madrid 1887, t 88 pp 1 - 173.

- Historia Arabum del Rodrigo de Rada :

Ed. J. Lozano. Sanchez , Anales de la Universidad Hispalense, Publicaciones de la Universidad de Sevilla, Serie Filosofia y Letras, Sevilla 1974, t 21 pp 1 - 79.

- Rodriguez de Castro :

Biblioteca Espanola, 2 tomos, Madrid 1781 - 1786.

- Salinas el. L. :

Sumario de la Batalla de Clavijo, Madrid 1601.

- Sandoval P. de:

Cinco Obispos, Historias de Idacio Obispo, de Isidoro Obispo

de Badajoz, de Sebastian Obispo de Astorga, de Pelagio Obispo de Oviedo ... nunca hasta agora impresas, 1 st ed, Pamplona 1615 (2 nd ed 1634).

- Schott A.:

Hispaniae Illustratae ..., 4 tomos, Francfort 1603 - 1608.

- Segovia, G. I de :

Memorias Historicas del Rei D. Alfonso el Sabio, Observaciones a su Cronica, Madrid 1777.

- Serna J. de La :

Historia Breve de los Cinquenta Reyes de Asturias, Léon, Castilla y Reynos Unidos, desde el Rey don Pelayo después de la Perdida de Espana hasta el Rey Felipe Quatro, 3 Vols, MS. del Siglo 17 Nos 7043 - 7045 en la Biblioteca Nacional de Madrid.

- Sota F. de :

Cronica de los Principes de Asturias y Cantabria, Madrid 1681.

- Soto y Aguilar D. de :

Historia General de Espana desde Adam hasta 1621, MS. del Siglo 17 No 8366 en la Biblioteca Nacional de Madrid.

- Strabo:

The Geography, translated by H. L. Jones, Leob Classical Library Vol 2, London 1923.

- Textos Navarros del Codice de Roda :

(a) Ed. J. M. Lacarra, Estudios de Edad Media de la Corona de Aragon 1945, t 1 pp 193 - 283.

(b) Ed. Traggia, Boletin de la Real Academia de la Historia de Madrid, t 4 p 52 Sqq.

(c) Jaurqain J. de, La Vasconie, Pau 1898, t 1 (apen 1), pp 267-282.

- Terelles y Vallademoros, J. :

Asturias Illustrada, Origen de la Nobleza de Espana, su Antiguedad y Diferencias, 3 tomos, Madrid 1736 - 1739.

- Vicente de la Fuente :

Elogio del Arzobispo don Rodrigo Ximénez de Rada y Juicio sus Escritos Historicos, Madrid 1862.

- Vigil C. M. :

Asturias : Monumental, Epigrafica y Diplomatica, 2 Vols, Oviedo 1887.

- Vita Hludowici Pii Imperatoris Caroli Magni Filii :

(a) Ed. G. H. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptorum, Hannoverae 1829, t 2pp 607 - 648.

(b) Ed. M. Bouquet, Recueil de Historiens de la Gaule et de la France, Paris 1870, t 6 pp 87 - 125.

- Wechelus A. :

Rerum Hispanicarum Scriptorum Aliquot Quorum Nomina Versa Pagina Indicabit, 3 tomos, Francofurti 1579 -1581.

- Zurita G. :

Los Anales de la Corona de Aragon, t 1 , Zaragossa 1669 (Valencia 1967).

(ب) المصادر العربية والمترجمة [١]:

- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد ...) ٥٩٤ - ٦٥٩هـ / ١١٩٨ - ١٢٦٠م :

(أ) التكملة لكتاب الصلة، جزءان، نشر وتصحيح السيد عزت العطار، تراث الأندلس(٥)، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥ - ١٩٥٦م.

(ب) الحلة السيراء،جزءان، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣م .

---

(١) لم نراع في الترتيب كلمات : ابن - أبو - ال التعريف .

- ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم) ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م :

الكامل فى التاريخ، تسعة أجزاء، تصحيح عبد الوهاب النجار؛ أنظر على الخصوص : الجزء الثالث، القاهرة ١٣٥٦هـ ؛ والجزأين الرابع والخامس، القاهرة ١٣٥٧هـ ؛ والجزء السادس، القاهرة ١٣٥٣هـ.

- الإدريسى (أبو عبد الله محمد) ٤٩٣ - ٥٤٨هـ / ١١٠٠ - ١١٥٤م :

(أ) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، طبعة روما ١٥٩٢م؛ والجزء الرابع الخاص بالأندلس، طبعة روما ١٩٧٥م .

(ب) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جزءان ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

- الاصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى) حوالى ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م: مسالك الممالك، ليدن ١٩٦٧م .

- الانصارى (عمر بن إبراهيم الأوسى) القرن التاسع الهجرى:

تفريج الكروب فى تدبير الحروب ، تحقيق Scanlon، جامعة برنستون الأمريكية ١٩٥٩م.

- ابن بسام (أبو الحسن على) ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م :

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول - المجلد الثانى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م.

- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف) ت ٤٩٤ - ٥٧٨هـ / ١١٠٠ - ١١٨٢م :

كتاب الصلة ، قسمان فى مجلد واحد، المكتبة الأندلسية (٤ - ٥)، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .

- البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م :

(أ) جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

(ب) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر ١٨٥٧م.

(جـ) قطعة من وصف إسبانيا، نشرها ليفى بروفنسال Lévi - Provençal فى الملحق الأول من كتابه : صفة جزيرة الأندلس، القاهرة ١٩٣٧م، ص ٢٤٥ - ٢٥٢؛ بعنوان : Texte et Traduction de Passages du

Début de la Description de l'Espagne D'Al - Bakri, Non Utilisés par la Rédactur D'AR - RAWD AL- MI'TAR.

(د) المسالك والممالك، تحقيق ڤان ليوڤن Van Leeuven وأندرى فيرى A.Ferre ، جزءان ، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة بقرطاج - تونس ١٩٩٢م .

- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى) ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م :

فتوح البلدان ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م .

- ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد) ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤م :
جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، ذخائر العرب (٢)، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .

- الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) ت ٤٨٨هـ ١٠٩٥م :

جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقة والأدب وذوى النباهة والشعر، تحقيق محمد بن تاويت ، الطبعة الأولى، تراث الأندلس (١) ، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م .

- الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) عاش فى القرن الثامن الهجرى :

(أ) صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، حققه ليڤى بروفنسال، القاهرة ١٩٣٦م . وقد أعاد نشره مع الترجمة الفرنسية بعنوان : - La Péninsula Ibérique au Moyen Age,Leiden 1938.

(ب) الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٥م (الطبعة الثانية ١٩٨٤م) .

- ابن حوقل (أبو القاسم ابن حوقل النصيبى) حوالى ٣٦٧هـ / ٩٧٧م :

كتاب صورة الأرض، القسم الأول ، الطبعة الأولى ، ليدن ١٩٣٨م .

- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) ٣٧٧ - ٤٦٩هـ / ٩٩٧ - ١٠٧٦م :

(أ) قطعة مخطوطة من كتاب : المقتبس، تتناول عصر الأمير الحكم ومعظم عصر عبد الرحمن الثانى (١٨٠ - ٢٣٢هـ / ٧٩٦ - ٨٤٧م)، وهى

محفوظة بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد La Real Academia de la Historia de Madrid بعنوان : المقتبس الثانى، طبعة فكسملية ، مدريد ١٩٩٩م.

(ب) المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه وقدم له وعلق عليه محمود على مكى ، دار الكتاب العربى، بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

(جـ) المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق أنطونية M.M. Antuna، باريس ١٩٣٧م؛ والكتاب هو الجزء الثالث من مجموعة النصوص العربية المتعلقة بتاريخ المغرب الإسلامى Textes Arabes Relatifs a l'Histoire de l'Occident Musuiman التى أشرف على إصدارها ليفى بروفنسال؛ وقد ترجم المؤرخ الإسبانى جريب J. E. Guraieb هذا الكتاب إلى الإسبانية ونشره فى مجلة : Cuadernos de Historia de Espana، التى تصدر فى بونيس أيرس Buenos - Aires ، وذلك فى الأعداد ١٣ - ٣٢ على التوالى، فيما بين عامى ١٩٥٠ - ١٩٦٠م .

(د) قطعة من كتاب المقتبس ، عن : أصول مملكة بمبلونة (نبرة)، نشرها ليفى بروفنسال Lévi-Provençal بالاشتراك مع جومث مورينو Gomez Moreno بعنوان : " Textos Inéditos del Muqtabis de Ibn Hayyan sobre los Origénes del Reino de Pamplona ", AL-Andalus 1954, t 19 pp 295 - 315.

- ابن خاقان (أبو نصر الفتح) :

مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس، الطبعة الأولى، قسطنطينية ١٣٠٢هـ.

- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله) ت حوالى ٣٠٠هـ / ٩١٢م - ٩١٣م :

المسالك والممالك، ليدن ١٩٦٧م.

- ابن الخطيب (لسان الدين) ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م :

(أ) الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى بالقاهرة؛ المجلد الأول، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ؛ المجلد الثانى، الطبعة الأولى ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م؛ المجلد الثالث، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م؛ المجلد الرابع، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ / ١٩٧٧م .

(ب) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، تحقيق ليفى بروفنسال، الجزء الثانى بعنوان : تاريخ إسبانيا الإسلامية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٦م. وقد نشر أنطونية M.Antuna الفصل الخاص بملوك إسبانيا المسيحية بعنوان : Una Version Arabe Compendiada de la Estoria de Espana de Alfonso el Sabio, AL-Andalus 1933, t1pp 105-154.

(جـ) معيار الأخبار فى ذكر المعاهد والديار، دراسة وترجمة إسبانية للنص العربى لمحمد كمال شبانة، نشر المعهد الجامعى للبحث العلمى بالمغرب ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

(د) اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، الطبعة الثانية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م :

(أ) المقدمة ، دار التحرير، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

(ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر، منشورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر، (أنظر على الخصوص : الجزأين الثالث ١٩٧٧م، والرابع ١٩٦٨م) .

- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م :

وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت ، (أنظر على الخصوص الأجزاء : الأول ١٩٦٨م، والثانى ١٩٦٩م، والثالث ١٩٧٧م، والرابع ١٩٧١م).

- الخشنى (أبو عبد الله بن حارث) ت ٣٦١هـ/ ٩٧١ - ٩٧٢م:

قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، المكتبة الأندلسية (١)، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

- ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن) ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥ - ١٢٣٦م :

المطرب فى أشعار أهل المغرب، حققه مصطفى عوض الكريم، الطبعة الأولى، مصر - الخرطوم ١٩٥٤م.

- ابن أبى دينار (محمد بن أبى القاسم) :

المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، من تراثنا الإسلامى (٣) ، الطبعة الثالثة، تونس ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد) ٦٧٣ - ٧٤٨هـ/ ١٢٧٤ - ١٣٤٨م :

(أ) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، خمسة أجزاء، مكتبة القدس، القاهرة ١٣٦٧ - ١٣٦٩هـ .

(ب) العبر فى خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، سلسلة التراث العربى (٤)، دائرة المطبوعات والنشر بالكويت ١٩٦٠م.

- الرازى (أبو بكر أحمد بن محمد) ٢٧٤ - ٣٤٤هـ/ ٨٨٨ - ٩٥٥م :

(أ) أخبار ملوك الأندلس، النص العربى لا زال مفقودا ؛ وله ترجمة برتغالية حققها لويس فيليب لندلى سنترا Luis Filipe Lindley Cintra، ونشرها ضمن مدونة: La Cronica Geral de Espanha de 1344، التى أصدرتها الأكاديمية البرتغالية للتاريخ Academia Portuguesa da Historia، بمدينة لشبونة Lisboa ، فى جزأين هما الثانى عام ١٩٥٤م، والثالث عام ١٩٦١م من إصدارات الأكاديمية ؛ وجاء النص البرتغالى لكتاب الرازى فى الجزء الأول منهما فى الصفحات ٣٩ - ٣٧٨ .

ثم عثر كل من دييجو كتلان Diego Catalan وماريا سوليداد دى أندريس Maria Soledad de Andrés على نص إسبانى لمدونة الرازى فنشراه بعنوان : La Cronica del Moro Rasis, Version del Ajbar Muluk Al-Andalus de Ahmad Ibn Muhammad Ibn Musa Al-Razi 889 - 955, Romanzada para el Rey Don Dionis de Portugol hacia 1300, por Mohamed Alarif y Gil Pérez Clérigo de don Perianes Porçel ، بالجزء الثالث من منشورات : Fuentes Cronisticas de la Historia de Espana, Madrid 1974.

(ب) قطعة تشمل وصفا لجغرافية إيبيريا وحدودها حتى عصر المؤلف، حققها دى جايانجوس P. de Gayangos، ونشرها بالإسبانية كملحق أول على مقاله بعنوان : La Cronica del Moro Rasis, Memorias de la Real Academia de la Historia, Madrid 1850, t 8 pp 33-63.

وهى ذات القطعة التى ترجمها ليفى برفنسال Lévi - Provençal إلى الفرنسية من النص البرتغالى، ونشرها مع تعليقات بعنوان : La

Discription de L'Espagne d'Ahmad Al - Razi, Essai de Reconstitution de L'Original Arab et Traduction Française, Al-Andalus 1953, t 18pp 51 - 108.

(جـ) قطعة أخرى تشمل مختصرا لتاريخ إيبيريا منذ القديم حتى عشية الفتح الإسلامى، وهى التى حقق إدوارد سابدرا E. Saavedra جزءاً منها يتعلق بتاريخ ملوك القوط الأواخر منذ وامبا Wamba حتى الفتح الإسلامى، ونشرها مترجمة إلى الإسبانية كملحق على كتابه : Estudio Sobre la Invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1892, pp145 - 154 . وهى ذات القطعة التى نشرها المؤرخ سانشيث البرنوث Sanchez Albornoz ، لكن مع زيادة فى أولها للفترة السابقة على عهد الملك وامبا، فى الوقت الذى حذف فى آخرها ما يتعلق بالفتح الإسلامى حتى مقتل الملك القوطى لذريق، وذلك ملحقة على مقاله بعنوان : La Cronica del Moro Rasis y la Contiuatio Hispana, Anales de la Universidad de Madrid. 1934, t 3pp 229 - 265. ؛ ثم أعاد نشرها ضمن كتابه : Investigaciones sobre la Historiografia Hispana Medieval, Buenos - Aires 1967 , pp 267 - 302.

(د) قطعة من تاريخ الأندلس من الفتح حتى عصر المؤلف، وهى التى ترجمها دى جايانجوس إلى الإسبانية أيضاً ونشرها كملحق ثانى على مقالته السابق الإشارة إليها، صفحات ٦٤ - ١٠٠ .

- الرقيق القيروانى (إبراهيم بن القاسم) ت النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / ١١م :

تاريخ إفريقية والمغرب، قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الثانى الهجرى، تحقيق المنجى الكعبى، تونس ١٩٦٨م.

- ابن أبى زرع (أبو الحسن بن عبد الله) ت النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / ١٤م :

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أوبسالة ١٨٤٣م.

- ابن سعيد (على بن موسى بن محمد) ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م :

(أ) المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف، جزءان، ذخائر العرب(١٠)، دار المعارف بمصر ١٩٥٥م.

(ب) كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه اسماعيل العربى، الطبعة الأولى، ذخائر التراث العربى، بيروت ١٩٧٠م.

- ابن الشباط (محمد بن على بن الشباط المصرى التوزرى) ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م : وصف الأندلس وصقلية، وهو قطعة من كتاب : صلة السمط وسمة المرط فى شرح الهدى فى الفخر المحمدى، تحقيق أحمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد ١٤، مدريد ١٩٦٧م، ص ٩٩ - ١٦٣. وقد أعاد المحقق نشر هذه القطعة مع قطعة من كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء لابن الكردبوس، بعنوان : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، ضمن منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م.

- الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م :

بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، مجريط ١٨٨٤م.

- ابن أبى الضياف، ت ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤م :

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار، فى عدة أجزاء ، الجزء الأول، تونس ١٩٦٣م.

- الطبرى (محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ / ٩٢٢ - ٩٢٣م :

تاريخ الأمم والملوك، فى عدة أجزاء ، الجزءان الخامس والثامن، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية المصرية ، بدون تاريخ.

- طريف بن طارق (أبو القاسم ؟) Tarif Aben Tarique (Abulcacim) Pseud :

ضاع النص العربى بعدما ترجمه دى لونا M.de luna إلى الإسبانية، ونشره للمرة الأولى بعنوان: La Verdadera Historia del Rey Don Rodrigo, Çaragoça 1603 ؛ ثم أعيد طبعه فى مدينة بلنسية Valencia عام ١٦٠٦م، وفى مدينة مدريد Madrid أعوام ١٦٥٤، ١٦٧٥، ١٦٧٦م على التوالى.

- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله) ت ٣٦٨ - ٤٦٣هـ/ ٩٧٨- ١٠٧٠م: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، تحقيق على محمد البجاوى، الجزء الرابع، القاهرة . ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن) ١٨٧ - ٢٥٧هـ/ ٨٠٣ - ٨٧١م :

فتوح مصر وأخبارها، حققه Charles C. Torrey ونشره بعنوان : The History of the Conquest of Egypt, North Africa and Spain, yale Oriental Series Researches III, leiden 1920.

- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) ٢٤٦ - ٣٢٨ هـ/ ٨٦٠ - ٩٤٠م :

العقد الفريد، شرحه وضبطه أحمد أمين وغيره، أربعة أجزاء، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م .

- عبد الملك بن حبيب، ١٧٩ - ٢٣٨هـ/ ٧٩٦ - ٨٥٣ أو ٨٥٤م :

مبتدأ خلق الدنيا ، حقق القسم الأندلسي منه محمود مكي، بعنوان: باب استفتاح الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الخامس، العدد ١-٢، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م ، ص ٢٢١ وما بعدها.

- ابن عذارى المراكشي، ت أواخر القرن السابع الهجري / ١٣م :

(أ) تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري، تحقيق ومراجعة كولان وليفي برفنسال ، المكتبة الأندلسية (٢١)، بيروت بدون تاريخ .

(ب) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثاني، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال، المكتبة الأندلسية (٢٢)، بيروت بدون تاريخ.

- العذري (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي) ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م :

نصوص عن الأندلس، قطعة من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦٥م. وقد ترجم دي لاجرانخا de la Granja هذه القطعة إلى الإسبانية ونشرها بعنوان : La Marca Superior en la Obra de Al-Udri, Estudios de Edad Media de la Corona de Aragon, vol 8, Zaragoza 1967.

- ابن غالب الغرناطي (محمد بن أيوب) حوالي القرن ٦ هـ / ١٢م :

قطعة من فرحة الأنفس، بعنوان : تعليق منتقى من فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد

المخطوطات العربية (جامعة الدول العربية)، المجلد الأول، الجزء الثانى ، نوفمبر ١٩٥٥م /ربيع أول ١٣٧٤هـ ، ص ٢٧٢ - ٣١٠.

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١ - ١٣٣٢م :

(أ) المختصر في أخبار البشر، الجزء الثانى، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥هـ .

(ب) كتاب تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م .

- ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدى) ٣٥١-٤٠٣هـ/٩٦٢-١٠١٢م: تاريخ علماء الأندلس، قسمان فى مجلد واحد، المكتبة الأندلسية(٢)، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ٢١٣ - ٢٧٠هـ / ٨٢٨- ٨٨٣ أو ٨٨٤م: الإمامة والسياسة، جزءان، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٢٥هـ.

- القرشى (يحيى بن آدم) ٢٠٣ هـ :

كتاب الخراج ، تصحيح وشرح أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٤٧هـ .

- قسطنطين السابع بورفيرو جنيتوس :

إدارة الامبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق محمود سيد عمران ، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦م.

- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م :

صبح الأعشى، عدة أجزاء ، أنظر على الخصوص الجزء الخامس، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣١ هـ/١٩١٣م .

- ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر الأندلسى) ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م :

تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٥٨م . كما حققه شيربونيه M. A. Cherbonneau ونشره مترجما إلى الفرنسية بعنوان Histoire de la Conquete: de L'Espagne par les Musulmans, traduite de la Chronique d'Ibn el - Kouthya, Journal Asiatique, Paris 1853, t I pp 458 - 474; t 8 (1856) pp 428 - 482. كما ترجمه نيكولس J.M. Nichols إلى الإنجليزية ونشره بعنوان : The History of the Conquest of AL-Andalus, by Ibn AL-Qutiya the Cordoban , The University of North Carolina at Chapel Hill 1975.

- ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك) عاش أواخر القرن ٦هـ / ١٢ م :

قطعة من كتاب : الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، بعنوان : تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مجلد ١٣، مدريد ١٩٦٥ - ١٩٦٦م ، ص٧ - ١٢٦ . وقد أعيد نشر تلك القطعة مع القطعة المستخلصة من كتاب ابن الشباط، بعنوان: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان؛ منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م.

- المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله) ت نهاية القرن ٤هـ / ١٠م :

رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، الجزء الأول، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٩م.

- مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، حققه وترجمه إلى الإسبانية مع بعض الملاحق ، لافونتى إى الكانترا Lafuente y Alcantara، ونشره كجزء أول من أجزاء مجموعة: Coleccion de Obras Arabicas de Historia y Geografia التى تصدرها La Real Academia de la Historia ، مدريد ١٨٦٧م.

-مجهول : ذكر بلاد الأندلس، حققه وترجمه إلى الإسبانية لويس مولينا L. Molina، ونشره ضمن منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية Consejo Superior de Investigaciones Cientificas ، جزءان ، مدريد ١٩٨٣م؛ الجزء الأول للنص العربى والثانى للترجمة الإسبانية.

- مجهول: فتح الأندلس، حققه وترجمه إلى الإسبانية جونثالث J. de Gonzalez ، بعنوان : Fatho - L - Andaluci, Historia de la Conquista de Espana, Argel 1889.

- مجهول : قطعة بعنوان : وصف الأندلس، ترجمها إلى الإسبانية ماركيث R.C. Marquez بعنوان: Description de Al- Andalus segun un Ms. de la Biblioteca de Palacio, Al - Andalus 1969, t 34 - pp 83-103.

- المراكشى (عبد الواحد) حوالى ٥٨١ - ٦٦٩هـ / ١١٨٤ - ١٢٧٠م :

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر

الموحدين مع مايتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب، ضبطه وصححه وعلق حواشيه محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م .

- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م :

(أ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزءان الأول والثانى، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

(ب) التنبيه والإشراف ، بيروت ١٩٦٥م.

- المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت حوالى ٣٧٨هـ / ٩٨٨م:

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٠٧م.

- المقرى (أبو العباس أحمد بن محمد) ت ١١٠٤هـ / ١٦٣٣م :

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، عدة أجزاء (الأجزاء ١ ، ٤، ٦) ، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م . وقد جمع دوزى R. Dozy. ما يتصل فى هذا الكتاب بتاريخ الأندلس وحده ونشره بعنوان : Analectes sur L'Histoire et Litterature des Arabes d'Espagne, 2 tomos, leyde 1855 - 1861 ؛ وكان قد ترجمه جاينجوس P. de Gayangos إلى الانجليزية ونشره بعنوان : The History of the Mohamedan Dynasties in Spain, 2 vols, London 1840 - 1843.

- الناصرى (أبو العباس أحمد بن خالد) ١٢٥٠ - ١٣١٥هـ / ١٨٣٥ - ١٨٩٧م :

كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدى المؤلف جعفر ومحمد، الجزء الأول، دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٥٤م.

- النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) ولد ٧١٣هـ / ١٣١٣م :

تاريخ قضاة قرطبة ، المسمى : المرقبة العليا فيمن يستحق القضا والفتيا، تحقيق ليفى بروفنسال، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٨م .

- نبذة من أخبار فتح الأندلس، مأخوذة من الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ونشرها ملحقة بكتاب : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، بيروت ١٩٥٨م .

- النويرى (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد) ٦٧٧ - ٧٣٢هـ / ١٢٦٧ - ١٣٣٢م :

نهاية الأرب فى فنون الأدب، الجزء ٢٢ مجلد ١-٢، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة، ثم نشرته الهيئة العامة للكتاب، ضمن الجزء الثالث والعشرين (١٩٨٠م) والجزء الرابع والعشرين (١٩٨٣م)؛ وكان قد حققهما جسبار رميرو G. Remiro ونشرهما فى جزأين بعنوان : Historia de los Musulmanes de Espana y Africa, Texto Arabe y Traduccion Espanola, Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino, 1917.

- الهمذانى (أبو بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه) ت ٢٩٠هـ / ٩٠٣م :

مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٩٦٧م.

- ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى البغدادى)ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م:

معجم البلدان، ثمانية أجزاء ، بيروت ١٣٧٤ - ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ - ١٩٥٦م .

- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب ابن واضح الكاتب) ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م :

(أ) البلدان، ليدن ١٨٩٢ م .

(ب) تاريخ اليعقوبى، جزءان، النجف ١٣٥٨هـ.

- أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م :

كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧م .

ثانيا: المراجع

(أ) المراجع الأوربية :

- Aguado Bleye, P. : Manual de Historia de Espana,t 1 , Madrid 1975.

- Altamira, R. :

(a) A History of Spain From the Beginnigs to the Present day, trans. from Spanish into English by Muna Lee, 6th. ed. USA 1966.

(b) A History of Spanish Civilzation, trans. From Spanish by P. Volkov, London 1930.

(c) Histoire d' Espagne, Paris 1931.

- Alvarez, de la Brana R. : Galicia, Léon y Asturias, Coruna 1894 (Biblioteca Gallego vol. 37).

- Aramburu, F. de : Monografia de Asturias, Oviedo 1899.

- Atkinson, W.C. : A History of Spain and Portugal, 2nd. ed., Great Britain 1961.

- Atlas Geogra[illegible]us, vol 2 (Europe), Savoy 1711.

- Ballester, R. : Las Fuentes Narrativas de la Historia de Espana durante la Edad Media 417 - 1474, Palma de Mallorca 1908.

- Ballesteros y Beretta , D. A. : Historia de Espana y su Influencia en la Historia Universal, t 2, Barcelona 1920.

- Bernard and Whishaw : Arabic Spain, London. 1912.

- Bouchier, E. S. : Spain under the Roman Empire, Oxford 1914.

- Bradley, H. : The Goths, 3 rd. ed., London 1891.

- Brooke, Z. N. : A History of Europe from 900-1198, London 1938.

- Burguete, R. : Rectificaciones Historicos de Guadalete a Covadonga y Primer Siglo de la Reconquista, Madrid 1915.

- Burke, U. R. : A History of Spain, vol. I, 2nd ed, London 1900.

- Cabal, C. :

(a) Covadonga, Madrid 1918.

(b) Alfonso II el Casto, Oviedo 1943.

- Canals, P. : Memorias Historicas de Principado de Asturias y Obispado de Oviedo, Tarragona 1794.

- Canellu : Asturias, su Historia y sus Monumentes, 3 tomos, Gijon 1895 - 1897 .

- Cantera Orive, J. : La Batalla de Clavijo y Aparicion en ella de Nuestro Santiago, Vitoria 1944.

- Cantor : The Medieval World 300 - 1300, New York 1968.

- Castro, A. : The Structure of Spanish History, trans. from Spanish into English by Edmund L. King, New Jersey - US A 1954.

- Catalonia : A Geographical and Historical Account of the Principality of Catalonia and Earldom of Barcelona, London 1705.

- Caveda, J. : La Poesia Castellana Considerada como Elemento de la Historia, Discursos de Recepcion en la Academia Espanola, t 1, Madrid 1860.

- Cerralbo, Marqués de : El Arzobispo D. Rodrigo Ximénez de Rada y el Monasterio de sta.Maria de Huerta, Madrid 1908.

- Chapman, C.E. : A History of Spain, New York 1948.

- Chaytor, H.J. : A History of Aragon and Catalonia, 1 ed, London 1933.

- Chejne, A. : Muslim Spain, Its History and Culture, Minnesota, USA 1974.

- Codera, F. :

  (a) Bibliotheca Arabico - Hispana, 10 vols, Madrid 1882 - 1890.

  (b) Estudios Criticos de Historia Arabe Espanola, Coleccion de Estudios Arabes, t 7 - 9 , Zaragoza 1903 - 1917.

- Condé, J. A. :

  (a) A History of Dominion of the Arabs in spain, trans. from Spanish into English by Jonathan Foster, 3 vols, London 1854 .

  (b) Descripcion de Espana de Xerif Aledrisi Conocido por el Nubiense, con Traduccion y Notas, Madrid 1799.

- Coppée, H. : History of the Conquest of Spain by the Arab - Moors, 2 vols, Boston 1881.

- Coronel, D.G. : Historia del Origen y Soberania del Condado de Castilla, Madrid 1752.

- Cortambert, E.et R. : Cours de Géographie Comprenant la Description Physique et Politique et la Géographie Historique de Diverse Contrées du globe, Dix - Septiéme éd., Paris 1885.

- Cotarelo , A.C.V. : Historia Critica y Documentada de la Vida y Acciones de Alfonso III el Magno Ultimo Rey de Asturias, Madrid 1933.

- Danham, S.A. : The History of Spain and Portugal, 5 vols, London 1832.

- David, P. : Études Historiques sur la Galicia et la Portugal de VI au XII Siécle, 3 tomos, Coimbra 1947.

- Davis, H.W.C. : Medieval Europe, 3 rd. ed, London 1919.

- Davis, R.H.C. : A. History of Medieval Europe, From Constantine to Saint Louis, London 1975.

- Deanesly, M. : A.History of Early Medieval Europe 476 - 911, London 1956.

- Defourneau, M. : Carlomagno y el Reino Asturiano, " Estudios sobre la Monarquia Asturiana, 2nd. ed, Oviedo 1971, pp 91 - 114.

- Desmond, S. : The Monks of war, Great Britain 1974.

- Diccionario de Historia de Espana desde los Origénes hasta el fin del Reinado de Alfonso III, 2 tomos, Madrid 1952.

- Dozy. R. :

(a) Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu'a la Conquete de l'andalausie par les Almoravides 711 - 1110, 3 tomos, leyde

1932. وقد ترجمه G.Stokes إلـى الانجليزية بعنـوان: Spanish Islam, A History of the Muslems in Spain, London 1913 (2nd. ed 1972). وكـان حسن حبشى قد ترجم جزءا منه بعنوان : الحروب الأهلية ، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م ؛ ثم استكمل ترجمة بقية الكتـاب فى ثلاثة أجـزاء ، بعنوان : المسلمـون فى الأندلس ، الهيـئـة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ١٩٩٤ ، ١٩٩٥م على التوالى.

(b) Recherches sur L' Histoire et la Littérature de L'Espagne pendant le Moyen Age, 2 tomos, 3rd.ed Paris - Leyden 1881.

(c) Introduction a la Histoire de L' Afrique de Ibn - Adhari, leiden 1848, pp 55 - 107.

(b) Description de L'Afrique et de l'Espagne par Edrisi, leiden 1866.

- Dubois, E. : L'Espagne Ancienne et Moderne, Rouen 1859.

- Edwyn Hole : Andalus : Spain under the Muslims, London 1958.

- Entwistle, W. J. : The Spanish Language together with Portuguese, Catalan and Basque, 2 nd. ed, London 1962.

- Escalera, E. : Principado de Asturias, " Cronica General de Espana", dirigada por Cayetano Rosell, Madrid 1865.

- Estudios sobre la Monarquia Asturiana, Coleccion de Trabajos Realizdos con Motivo del XI Centenario de Alfonso el Casto, Celebrado en 1942, 2 nd. ed., Oviedo 1971.

- Fernandez de Navarrete, M. : Coleccion de Documentos sobre la Historia de Espana,5 vols, Madrid 1842 - 1844.

- Ferreia J.P : Evolucion Civil, Organizacion Agraria de Asturias, Apuntes para la Historia Politica del Principado, Rosario de Santa fe (Republica Argentina) 1914.

- Flich, A. : Alphonse II el Chaste et les Origines de la Reconquete Chrétienne, "Estudios sobre la Monarquia Astriana", 2nd. ed, Oviedo 1971, pp 117 - 131.

- Font Rius, J.M. :

  (a) Instituciones Medievales, la Organizacion Politica Economica, y Social de los Reinos Cristianos de la Reconquista, Madrid 1949.

  (b) La Sociedad en Asturias, Léon y Castilla en los Primeros Siglos Medievales, t 1, Barcelona 1954.

- Ferreiro, L. : Galicia en los Primeros Siglos de la Reconquista , t 2, Galicia Historica 1903.

- Freeman, E.A. : General Sketch of European History, London 1907.

- Freeman - Grinville: The Muslim and Christian Calendars, 2nd. ed., Great Britain 1977.

- Gonzalez Solis, P. : Memorias Asturianas, Madrid 1890.

- Gomez Moreno : Las Eglisias Mozarabes, Art Espanol de los Siglos IX al XI, 2 vols, Madrid 1919 .

- Hallam, H. : View of the state of Europe during the Middle Ages , vol. 2, London 1878.

- Hannay, D. : Spain, Great Britain 1917.

- Hume, M.A.S. : The Spanish People, their Origin, Growth and Influence, London 1901.

- Jackson, G. : The Making of Medieval Spain, London 1972.

- Jaurgain, J. de : la Vasconie, Etude Historique et Critique sur les Origines du Royaume de Navarre, du Duché de Gascogne, des Comtés de Comminges, d' Aragon, de Foix, de Bigorre, d' Alava et de Biscaye, de la Vicomté de Bearn et du Grands Fiefs du Duché de Gascogne, 2 Volumens, Pau 1898-1902.

- Javier, G. : Don Rodrigo Ximénez de Rada, Estadista, Escritor y Prelado, Pamplona 1925.

- King, P.D. : Law and Society in the Visigothic kingdom, Cambridge University Press, Great Britain 1972.

- Labrouche, P. : Los Picos de Europo, Paris 1894.

- Lacarra, J.M :

  (a) Historia del Reino de Navarra en la Edad Media, Caja de Ahorros de Navarra 1975.

  (b) La Reconquista Espanola y la Repoblacion del Pais, Zaragoza 1951. (Editor).

  (c) Estudios de Alta Edad Media Espanola, Valencia 1917.

  (d) Las Relaciones entre el Reino de Asturias y el Reino de Pamplona, " Estudios sobre la Monarquia Asturiana, 2nd.ed., Oviedo 1971, pp 223 - 243.

- Leclercq, Dom H. : L' Espagne Chrétienne, Paris 1906.

- Lévi - Provençal, E. : Histoire de L'Espagne Musulmane, tomo I, Paris - Leiden 1950. وقد ترجمه غرسية جومث E. Garcia Gomez إلى اللغة الإسبانية ونشره بالجزء الرابع من مجموعة Historia de Espana التى أشرف بيدال R.M. Pidal على إصدارها بعنوان : Historia de Espana Musulmane, t4, Madrid 1950، ومؤخراً نقل على البمبى وآخرون هذه الترجمة الإسبانية إلى العربية ونشروها بعنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٠م

- Livermore , H. V. :

  (a) A History of Portugal, Cambridge 1947.

  (b) A History of Spain, London 1958.

- Lomax, D. W. : The Reconquest of spain, Great Britain 1978.

- Madariaga, S. de : Spain, 2 nd. ed, Oxford 1946.

- Madoz, P. : Diccionario Geografico - Estadistico - Historico de Espana y sus Posesiones de Ultramar, 16 tomos, Madrid 1846 - 1856.

- Mahmud, S. Fayyaz : A Short History of Islam, Oxford University Press, 1960.

- Maldonado, B. P. : Tudela, Ciudad Medieval : Arte Islamico y Mudéjar, vol. I, Instituto Hispano Arabe de Cultura, Madrid 1978.

- Martin, J.L.: La Peninsula en la Edad Media, Teide - Barcelona 1978.

- Martinez de Velasco D.E. : Guadalete y Covadonga del ano 600 al 900, 3 rd. ed. , Madrid 1882.

- Mendez, F. : Indice - Catalogo de Espana Sagrada, Madrid 1952.

- Menendez Pidal. R :

  (a) La Historiografia Medieval Sobre Alfonso II, " Estudios Sobre la Monarquia Asturiana, 2nd. ed., Oviedo 1971, pp 9-41.

  (b) Las Cronicas Generales de Espana, 3 rd. ed, Madrid 1918.

  (c) La Cronica General de Espana Que Mando Componer el Rey Alfonso el Sabio, Madrid 1916.

  (d) La leyenda de los Infantes de Lara, Madrid 1896. (2nd. ed 1934, 3rd. ed 1970).

  (e) El Catalogo de la Real Bibliotéca de SM, Madrid 1899.

  (f) Estudios Literarios, Madrid 1920.

- Merriman, R. B: The Rise of Spanish Empire in the Old World and in the New, Vol.1 (Middle Ages), New York 1918.

- Modesto, L.: Historia General de Espana, Vol. 2, Barcelona 1922.

- Mommsen, T. : The History of Rome, trans. by William P. Dickson, in Two Parts, London 1886.

- Mondejar, M. de, (editor) : Las Memorias Historicas de Rei D. Alfonso el Sabio, Observaciones a su Cronica, Madrid 1777.

- Murphy: History of the Mahometan Empire in Spain, 4 vols, London 1816.

- Nunoz y Romero, T.:

  (a) Diccionario Bibliografico -Historico de los Antiguos Reinos, Provincias, Ciudades, Villas, Iglesias y Santuarios de Espana, Madrid 1858.

  (b) Del Estado de las Personas en los Reinos de Asturias y Léon en los Primeros Siglos Posteriores a la Invasion de los Arabes, Madrid 1883

- O' callaghan, J. F.: A History of Medieval Spain, USA 1975.

- Paetow, L.J. : Guide to the Study of Medieval History, Revised editon, New York 1964.

- Palencia, A. G. : Indice de Espana Sagrada, Madrid 1918.

-Peers, E. A. (editor) : Spain, A Companion to Spanish Studies, 1st. ed., London 1929.

- Pons Boigues, F. : Los Historiadores y Geografos Arabigo - Espanoles 800 - 1450 AD., Amsterdam 1972.

- Powers, J. F. : The Municipal Armies of Léon and Castile from the early Reconquest to 1252, A study in the Expansion of the Medieval Iberian Frontier, University of Virginia 1966.

- Quadrado, A. J. : Espana, sus Monumentes y Artes, su Naturaleza É.Historia (Asturias y Léon), Barcelona 1885.

- Read, J.: The Moors in Spain and Portugal, London 1974.

- Rendueles Llanos, E. : Historia de la Villa de Gijon desde los Tiempos mas Remotos hasta Nuestros, Gijon 1867.

- Richers, J. R. : The History of the Royal Genealogy of Spain, London 1724.

- Rios, A. de los :

(a) Historia Critica de la Literatura Espanola, 3 tomos, Madrid 1861-1865.

(b) Cronica General de Alfonso el Sabio y los Elementos que Concurren a la Cultura de la Epoca, Discursos leido ante la Real Academia de la Historia, Madrid 1869.

- Rita Lejeune : Localisation de la Defaite de Charlemagne aux Pyrenees en 778, D' apres les Chroniqueurs Carolingiens, Universidad de Zaragoza , Facultad de Filosofia y Letras, Zaragoza 1956.

- Rodriguez de Cuenca, J. : Sumario de los Reyes de Espana, Publicado por D.E. de Llaguno Amirola, Madrid- A. de Sancha 1781.

- Roolvink, R. : Historical Atlas of the Muslim Peoples, Djambatan - Amesterdam 1957.

- Rusell, P. E. (editor) : Spain, A Companion to Spanish studies, Great Britain 1973.

- Saavedra, E. de :

(a) Estudio sobre la Invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1892.

(b) Pelayo, Conferencia dada el 6 de Febrero de 1906 en la Asociacion de Conferencias Topogr. Espanola, Madrid 1906.

- Sanchez Albornoz, C :

(a) Origénes de la Nacion Espanola, 3 Tomos, Oviedo 1972-1975.

(b) La Espana Musulmana segun los Autores Islamitas y Cristianos Medievales, 3 rd ed., tomo I, Madrid 1973.

(c) Investigaciones sobre Historiografia Hispana Medieval Siglos 8 al 12, Buenos-Aires 1967.

(d) Investigaciones y Documentos, Sobre las Instituciones Hispanas, Santiago 1970.

(e) Vascos y Navarros en su Primera Historia, 2nd ed, Madrid 1976.

(f) En Torno a los Origénes del Feudalismo, tomo 2, Los Arabes y el Regimen Prefeudal Carolingio Fuentes de la Historia Hispano - Musulmana del Siglo 8, 2nd ed., Buenos-Aires 1977.

(g) Una Ciudad de la Espana Cristiana Hace Mil Anos, 7th ed., Madrid 1978.

(h) Adiciones al Estudio de la Cronica del Moro Rasis, Madrid 1978.

- Sanchez Alonso, B. :

(a) Fuentes de la Historia Espanola, Ensayo de Bibliografia Sistematica de Las Monografias Impresas que Ilustran la Historia Politica Nacional de Espana, Madrid 1919.

(b) Fuentes de la Historia Espanola E Hispano Amiricana, Ensayo de Bibliografia Sistematica de Impresos y manuscritos que Illustran la Historia Politica de Espana y sus Antiguas Provincias de Ultramar, tomo I, 3rd ed., Madrid 1952.

(c) Historia de la Historiografia Espanola, 3 tomos, Madrid 1941, 1944, 1956.

- Sangrador y Vitores, M. : Historia de la Administracion de Justicia y del Antiguo Gobierno del Principado de Asturias, Oviedo 1864.

- Scott, S. P. : History of the Moorish Empire in Europe, vol I, Philadelphia 1904.

- Serrano, L, : Historia del Obispado de Burgos y Castilla Primitiva desde el Siglo 5 al 13, 3 tomos, Madrid 1935.

- Serrano y Sanz, M. : Noticias y Documentos Historicos del Condado de Ribagorza hasta la Muerte de Sancho Garces III (ano 1030), Madrid 1912.

- Setton, R. M. (editor) : A History of the Crusades, vol I, Philadelphia 1958 ". Chapter II : the Reconquest of Spain before 1095, by B.W. Wheeler ".

- Smith, R. M. : Spain, USA 1965.

- Simonet; Historia de los Mozarabes de Espana, t1, Madrid 1897.

- Somoza, J.G.S. : Gijon en la Historia General de Asturias, vol 2 (Tiempos Medievales), Gigione 1908.

- Suarez Fernandez, L. : Historia de Espana Edad Media, Madrid 1970.

- Thompson, E.A. : The Goths in Spain, Great Britain 1969.

- Torre, A. de La : Las Etapas de la Reconquista hasta Alfonso II, " Estudio Sobre la Monarquia Asturiana, 2nd ed, Oviedo 1971, pp 133 - 174 .

- Trend, J. B. : The Civlization of Spain, Great Britain 1946.

- Turk, A. : El Reino de Zaragoza in el Siglo XI, Publicaciones del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid, Madrid1978.

- Urbel Josto, P, de :

(a) Historia del Condado de Castilla, t 1 , Madrid 1945.

(b) Espana Cristiana Comienzo de la Reconquista 711 - 1038, Madrid 1956، وهو الجزء السادس من مجموعة Historia de Espana التي أشرف على إصدارها R. M. Pidal

- Uria Riu, J. : Las Campanas Enviadas por Hixam I Contra Asturias

(794 - 795) y su Probable Geografia, " Estudios sobre la Monarquia Asturiana, 2nd ed , Oviedo 1971, pp 469 - 515.

- Valdeavellano L.G. de : Historia de Espana, vol I (de los Origenes a la baja Edad Media), Madrid 1952.

- Van Nostrand, J.J. : The Reorganization of Spain by Augustus, University of California Publications in History, vol 4, Barkely - California 1916 - 1917.

- Vicente, C.A. : Indices del Boletin de la Real Academia de la Historia, 2 vols, Madrid 1945, 1947.

- Vilar, P. : Spain, A brief History, 2nd ed., trans, From French into English by Brain Tale, Great Britain 1977.

- Vives, J. V. : Approaches to the History of Spain, 2nd ed, trans, and edited by J. C. Ullman, London 1970.

- Wallace - Hadrill, J. M. : The Barbarian West 400 - 1000, 3rd ed., London 1967.

- Watt, W. M. : A History of Islamic Spain, Great Britain 1967.

- Watts, H. E. : Spain, 2nd ed, London 1893.

- Williams H. S. (editor) : The Historians' History of the world, vol X, 5th ed, USA 1926.

- Ziegler, A.K. : Church and State in the Visigothic Spain, Washington, USA 1930.

- Zurita, G. : Anales de la Corona de Aragon, Libro I, Valencia 1967.

(ب) المراجع العربية والمعربة [1] :

- أحمد ، نفيس : جهود المسلمين فى الجغرافية، ترجمة فتحى عثمان ، مجموعة الألف كتاب، القاهرة بدون تاريخ.

(١) لم نراع فى الترتيب كلمات: ابن - أبو - عبد - الـ التعريف

- أرسلان، شكيب :

(أ) الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، ثلاثة أجزاء ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م.

(ب) تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، القاهرة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م ، وهو ترجمة الكتاب : M. Reinaud : Invasion des Sarrazins en France et de France en Savoie, en Piémont et dans la Suisse pendant les Huitiéme, Neuviéme et Dixiéme Siécles de Notre ére d'aprés les Auteurs Chrétiens et Mohametans، مع إضافات كثيرة للمترجم .

- أشباخ، يوسف : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٨م.

- أمارى ، ميخائيل : المكتبة العربية الصقلية، نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ، ليبسك ١٨٥٧م.

- بالنثيا، أنجل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٥م.

- البتنونى، محمد لبيب : رحلة الأندلس، الطبعة الثانية ، القاهرة د ت .

- عبد البديع، لطفى : الإسلام فى إسبانيا، الطبعة الأولى، المكتبة التاريخية، القاهرة ١٩٥٨م.

- بروفنسال، ليفى :

(أ) الحضارة العربية فى إسبانيا ، ترجمةالطاهر مكى، الطبعة الأولى، دار المعارف بمصر ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

(ب) الاسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين ، سلسلة الألف كتاب ٨٩، القاهرة ١٩٥٦م .

- بروكلمان ، كارل :

(أ) تاريخ الشعوب الاسلامية، الجزءان الأول والثانى، نقلهما إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكى، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٨ - ١٩٤٩م.

(ب) تاريخ الأدب العربى، خمسة أجزاء ، دار المعارف مصر ١٩٦١م

ومابعدها، شارك فى نقلها إلى العربية عبد الحليم النجار ورمضان عبد التواب.

- بويكا، ك : المصادر التاريخية العربية فى الأندلس ، نقله إلى العربية نايف أبو كرم ، الطبعة الأولى، منشورات دار علاء الدين ، دمشق ١٩٩٩م.

- بيضون ، إبراهيم : الدولة العربية فى إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ، الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٦م .

- تراث الإسلام، ترجمة لجنة الجامعيين لنشر العلم، جزءان فى مجلد واحد، القاهرة ١٩٣٦م، وانظر الجزء الأول : فصل بعنوان : إسبانيا والبرتغال، وضعه ترند ، عربه وعلق عليه حسين مؤنس، ص ١ - ٧٩.

- حبيبة ، على : مع المسلمين فى الأندلس، القاهرة ١٩٧٢م .

- حتى ، فيليب خورى : تاريخ العرب، ترجمة محمد مبروك نافع ، المجلد الثانى، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٢م .

- الحجى، عبد الرحمن :

(أ) التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة، الطبعة الأولى، دار القلم بدمشق ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦م.

(ب) أندلسيات، مجموعتان، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.

- حسن ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، الجزء الأول، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٦٤م؛ والجزء الرابع ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٨م.

- حسن ، حسن على : تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة) ، القاهرة ١٩٧٧م.

- حسن، محمد عبد الغنى : المقرى صاحب نفح الطيب ، سلسلة أعلام العرب ٦٠، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

- حسونة ، محمد أحمد : الجغرافية التاريخية الإسلامية، القاهرة ١٩٥٠م

- عبد الحليم ، رجب محمد : العلاقات بين الممالك الإسلامية والنصرانية فى إسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

- حمودة ، على محمد : تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

- عبد الحميد، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى، دار المعارف ١٩٦٥م .

- الخانجى ، محمد أمين : منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان، جزءان ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧م.

- الخربوطلى، على حسنى : العرب فى أوربا ، المكتبة الثقافية ١٤٣ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م .

- خليفة وآخرون، حسن : تاريخ العرب فى إفريقية والأندلس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م.

- أبو خليل، شوقى : فتح الأندلس، معركة وادى لكة، الطبعة الأولى، دمشق ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

- دياب، محمد : تاريخ العرب فى إسبانيا، الجزء الأول، القاهرة ١٣٣١هـ / ١٩١٣م.

- دبوز، محمد على : تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثانى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.

- دوروثى ، لودر : إسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة طارق فودة، سلسلة حول العالم فى كتب ٧، القاهرة ١٩٦٥م.

- دوزى، رينهارت :

(أ) تاريخ مسلمى إسبانيا (الحروب الأهلية)، دار المعارف ١٩٦٣م .

(ب) المسلمون فى الأندلس، ثلاثة أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م (الجزء الأول)، ١٩٩٤م (الجزء الثانى)، ١٩٩٥م (الجزء الثالث) .

وهذه الأجزاء الأربعة هى ترجمة كاملة لكتاب دوزى بعنوان: Histoire des Musulmans D' Espagne Jusqu'A La conquete de l' Andalousie par les Almoravides (711 - 1110), .3 tomos, leyde 1932.

- عبد الرازق، أحمد : دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ١٩٧٤م.

- عبد الرازق، محمود اسماعيل :

(أ) الأغالبة وسياستهم الخارجية ١٨٤ - ٢٩٦هـ، القاهرة ١٩٧٢م .

(ب) نهاية أسطورة نظريات ابن خلدون، الطبعة الأولى، عامر للطباعة والنشر، المنصورة ١٩٩٦ م.

– عبد الراشد، عبد الجليل عبد الرضا : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس فى القرنين الثانى والثالث للهجرة، الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م

– ريسلر، جاك : الحضارة العربية ، تعريب خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى، منشورات عويدات، بيروت – باريس ١٩٩٣م.

– زامباور، إدوارد فون : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى، جزءان ، أخرجه زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ١٩٥١ – ١٩٥٢م .

– سالم ، السيد عبد العزيز :

(أ) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف ببيروت ومصر ١٩٦٢م.

(ب) المغرب الكبير، الجزء الثانى (العصر الاسلامى) ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦ م .

(جـ) تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية ١٩٧٣م .

(د) التاريخ والمؤرخون العرب،الاسكندرية ١٩٨١م .

– السائح، الحسن بن محمد : منوعات ابن الخطيب، وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية، المملكة المغربية ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

– سوسة ، أحمد : الشريف الإدريسى فى الجغرافية العربية، جزءان ، بغداد ١٩٧٤م .

– سيبل، الكسندر : أخبار أمم المجوس من الأرمان والروس ، أوسلو ١٩٢٨م.

– سيديو ، ل .أ : تاريخ العرب العام ، نقله إلى العربية عادل زعيتر، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٤٨م.

– الشيخ ، محمد محمد مرسى : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ٧٥٥ – ٩٧٦م/ ١٣٨ – ٣٦٦هـ.، مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية ١٩٨١م / ١٤٠١هـ.

– الصوفى، خالد : تارخ العرب فى الأندلس، جزءان ، الطبعة الثالثة، منشورات

جامعة قاريونس ١٩٨٠م.

- طرخان ، إبراهيم على :

(أ) دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨م .

(ب) المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى، الألف كتاب ٥٩٦ ، القاهرة ١٩٦٦م.

- طليمات ، عبد القادر أحمد: ابن الأثير الجزرى، سلسة أعلام العرب ٨٣، القاهرة ١٩٦٩م.

- عاشور، سعيد عبد الفتاح : أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول التاريخ السياسى، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٨م .

- العبادى، أحمد مختار :

(أ) فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية دت.

(ب) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية د ت .

- العبادى، عبد الحميد : المجمل فى تاريخ الأندلس، سلسة المكتبة التاريخية ١٤ ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٤م .

- عباس ، إحسان : تاريخ الأدب الأندلسى- عصر سيادة قرطبة، الطبعة الثانية، المكتبة الأندلسية ٢ ، دار الثقافة ببيروت ١٩٦٩م.

- عبيد، اسحق تاوضروس : من ألاريك إلى جستنيان ، دراسة فى حوليات العصور المظلمة ، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٧٧م .

- العدوى ، إبراهيم أحمد : السفارات الإسلامية إلى أوربا فى العصور الوسطى، سلسلة إقرأ ١٧٩ ، دار المعارف بمصر ١٩٥٧م.

- العقيقى، نجيب : المستشرقون، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

- على ، سيد أمير : مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكى، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦١م.

- على ، محمد كرد : غابر الأندلس وحاضرها، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م.

- عنان، محمد عبد الله:

(أ) دولة الإسلام فى الأندلس، العصر الأول ، القسمين الأول والثانى، جزءان ، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .

(ب) الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية،٦٥٤ الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦٠م .

(جـ) تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الأولى، دار المعارف بمصر ١٩٤٧م.

(د) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م .

- عيسى، محمد عبد الحميد : الفتح الإسلامى للأندلس، مكتبة سعيد رأفت جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٨٥م.

- الغنيم : عبد الله يوسف : حصاد البكرى ومنهجه التاريخى، منشورات دار ذات السلاسل، الكويت ١٩٧٤م.

- فازلييف : العرب والروم ، ترجمة عبد الهادى شعيرة وفؤاد حسنين على، دار الفكر العربى، دت .

- فلهوزن ، يوليوس : تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة، الألف كتاب ١٣٦، القاهرة ١٩٥٨م.

- فلوتن ، ڤان : السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٤م.

- ابن كنون ، عبد الله : الشريف الإدريسى، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ٢٤ ، تطوان دت .

- كولان : الأندلس ، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون ، كتب دائرة المعارف الإسلامية ٢ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٠م .

- الكيلانى، كامل : نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى، عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها فى الجامعة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م .

- لويس، أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة دت .

- لين بول ، ستانلى : العرب فى إسبانيا ، ترجمة على الجارم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م .

- ماجد، عبد المنعم :

(أ) العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، بيروت ١٩٦٦م .

(ب) التاريخ السياسى للدولة العربية، الجزء الثانى، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٠م .

(جـ) الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى، بالاشتراك مع على البنا، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربى، القاهرة دت .

- مختار ، محمد : التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر ١٣١١هـ.

- مكى، الطاهر أحمد :

(أ) دراسة فى مصادر الأدب، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.

(ب) دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٣م.

- مؤنس ، حسين :

(أ) فجر الأندلس، دراسة فى تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الأموية ٧١١ - ٧٥٦م، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩م.

(ب) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

(جـ) شيوخ العصر فى الأندلس ، المكتبة الثقافية ١٤٦ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م.

(د) رحلة الأندلس، حديث الفردوس المفقود ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٩م.

- وافى ، على عبد الواحد : عبد الرحمن بن خلدون، الأعلام ٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م .

- وستنفلد، جداول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م.

ثالثا: الدوريات والمجلات

(أ) الدوريات والمجلات الأوربية :

- Altamira, R. :

(a) Spain Under the Visigoths, The Cambridge Medieval History 1936, t 2 pp 159 - 193.

(b) The Western Caliphate, The Cambridge Medieval History 1936, t 3pp 409 - 442.

- Antonio del Camino , J. : Nueva Demostracion Sobre la falsedad del Privilegio del Rey Don Ramiro I, Memorias de la Real Academia de la Historia, Madrid, t 4pp 1-34.

- Antuna, M. : Ibn Hayyan de Cordoba y su Historia de la Espana Musulmana, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1946, t 4 pp 5-72.

- Arias de Miranda, J. : Recuerdos Historico - Geograficos del Antiguo Principado de Asturias, Revista de Espana, Madrid 1879, t 66 pp 447 - 473.

- Bahamonde y de Lanz D. : Origenes de las Nuevas Nacionalidades qui Inician la Reconquista durante los Siglos 8 - 9 en la Peninsula Espanola, Discurso Leido Ante el Claustro de la Universidad central, Madrid 1868, pp 1 - 30.

- Barrau - Dihigo :

(a) Les Origines du Royaume de Navarre, Revue Hispanique, Paris 1900, t 7 pp 141-222.

(b) Les Premiers Rois de Navarre, Notes Critiques, Revue Hispanique, Paris 1906, t 15pp 614-644.

(c) Etude sur les Actes des Rois Asturiens 718-910, Revue Hispanique, Paris 1919, t 46 pp 1-192.

(d) Remarques sur la Chronique dite d' Alphons III, Revue Hispanique, Paris 1919, t 46 pp 323-381.

(e) Recherches sur L' Histoire Politique de Royaume Asturien 718-910, Revue Hispanique , Paris 1921, t 52 pp 1-360.

- Becker: The Expansion of the Saracens, The Cambridge Medieval History 1936, t 2pp 365 - 390.

- Blazquez, A. :

(a) Pelayo de Oviedo y el Silense, Observaciones acerca del Cronicon del Monje Silense, Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos, Madrid 1908, t 18 pp 187 - 202.

(b) El Silense, Su Cronica y sus Colaboradores, Ciudad de Dios 1925, t CXLII PP 275 - 291 .

- Bolana i Abadia, P. : Toponimia arabigo - Catalana : LLeida, Tortosa i Tarragona segons un Manuscrit Arab Inedit de La Biblioteca Reial de Rabat, Extret de Treballs de la Seccio de Filologia i Historia Literaria II, Istitut d'Estudis Tarraconenses Ramon Berenguer IV, Tarracona 1981.

- Bolufer, J.A. : Geografia de la Peninsula Iberia en los Escritores Arabs, Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino, Granada 1919, t IX mans 3 - 4.

- Braga, T. : La Invasion de los Arabes en Espana y su Influencia en la Desenvolvimiento de la Poblacion Libre, Revista des Estudios Livres, Lisboa 1884.

- Campion, A. : los Origenes de la monarquia Navarra, Revista In - ternacional de Estudios Vascos 1925, t 16 pp 241 - 288.

- Caveda, J. : Examen Critico de la Restauracion de la Monarquia Visigoda en el Siglo 8, Memorias de la Real Academia de la Historia, Madrid 1879, t 9 pp 1 - 107.

- Cirot, G. :

(a) La Chronique Léonaise et la Chronque dite de silos, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1914, t 16 No 1 pp 15 - 34.

(b) La Chronique Léonaise et les Chroniques de Sebastien et de Silos, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1916, t 18 No 1pp 1- 25.

(c) La Chronique Léonaise et les Chroniques de Pelage et de Silos, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1916, 18 No 3pp 141-154.

(d) A Propos d'une Édition Récente de la Chronique d'Alphonse III, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1919, t 21 No 1 pp 1- 8.

(e) La Chronique Léonaise et les Petites Annales de Castilla, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1919, t 21 No 2 pp 93 - 102.

(f) Index Onomastique et Geographique de la Chronique Léonaise, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1934, t 35 pp 401-425.

- Diaz - Jiménez, J. E. : Inmigracion Mozarabe en el Reino de Léon - El Monasterio de Abellar Ó de los Santos Martires Cosme y Damian, Boletin de la Real Academia de la Historia, Madrid1892, t 20 pp 123 - 151.

- Diego Clemencin : Examen y Juicio de la Descripcion Geografica de Espana Atribuida al Moro Rasis, Memorias de la Real Academia de la Historia, Madrid 1832, t 7pp 239 - 248.

- Dubler, C. :

(a) Los Caminos a Compostella en la Obra de Idrisi, AL-Andalus 1949, t 14pp 59 - 122.

(b) Las Laderas del Pirineo Segun Idrisi, Al - Andalus, t18 pp337-373.

- EL -Hajji, A.A. :

(a) Christian States in Northern Spain during the Umayyad Period, The Islamic Quartery 1965, t 9 nos 1-2, pp 46 - 55.

نشر هذا البحث مع بعض الاختصار ضمن المجموعة الثانية من أندلسيات، دار الإرشاد، الطبعة الأولى، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م، ص ٣٩ - ٥٦.

(b) Political Relations between the Andalusian Rebels and Christian Spain during the Umayyad Period, The Islamic Quarterly 1966, t 10 nos 3-4 pp 84 - 94، ونشره أيضاً في مجلة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة ١٨، الجزء الأول مارس ١٩٦٥م؛ كما نشره ضمن المجموعة الثانية من أندلسيات، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ١٠٧-١٢٧.

(c) Intermarriage between Andalusia and Northern Spain in the Umayyad Period, The Islamic Quarterly 1967, t 11 nos 1-2 نشره أيضاً في مجلة الأقلام التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد العراقية، الجزء السادس، السنة الثالثة، بغداد ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

- Emilio sáez :

(a) Nuevos Documentos Inéditos del Reino de Asturias, Revista Portuguesa de Historia 1945, t 3pp 161 - 188.

(b) Los Ascendientes de San Rosendo, Hispania, Madrid 1948, t 30 pp 179 S qq.

- Ferré, E. : Una Source Nouvelle pour l'Histoire de L'Espagne Musulmane, Revue d'Études Arabes 1967, t 14, Fasc 3.

- Fita, L.P. : Sebastian, Obispo de Arcavica y de Orense, Su Cronica y la del Rey Alfonso III, Boletin de la Real Academia de la Historia, Madrid 1902, t 41 pp 324 - 344.

- Gabriel Ferrand : Abu Hamid AL - Garnati, Tuhfat Al - Albab, Journal Asiatique, Paris 1923, t 207.

- Garcia Alvarez M.R.: Mas Documentos Gallegos Inéditos del Periodo Asturiano, Boletin del Instituto de Estudios Asturianos, ano 19 No 55, Oviedo 1965, pp 3 - 40.

- Garcia Gomez, E. :

(a) A Proposito de Ibn Hayyan, Al-Andalus 1946, t 11, fasc2, pp395- 423.

(b) Novedades sobre la Cronica Anonima Titulada Fath Al - Andalus, Annales de L'Institut d'Etudes Oriental de la Faculté des lettres d'Alger 1945, t 14pp 31-42.

- Gendron P.C. : Historiografia Medieval Hispania Arabica, Al - Andalus 1972, fasc 2, t 37 pp 353 - 404.

- Gomez Moreno M.: La Cronica de Alfonso III, por el Padre Zacarias Villada, Boletin de la Real Academia de la Historia, Madrid 1918, caud 1, t 73 pp 54 - 58.

- Govantes, A.C. de: Disertacion que contra el Nuevos sistema Establecido por el Abate Masdeu en la Cronologia de los Ocho Primeros Reyes de Asturias, Memorias de la Real Academia de la Historia de Madrid, Madrid 1847, t 8 pp 3-20.

- Hogberg, P. : La Chronique de Lucas de Tuy, Revue Hispanique, Paris 1933, t 80 , part 1, pp 404 - 420.

- Ibarra y Rodriguez, E. : La Reconquista de los Estados Pirenaicos hasta la Muerte de Sancho el Mayor 1034, Hispania 1942, t 2 pp3 - 63.

- Lacarra, J.M. :

(a) Expediciones Musulmanes Contra Sancho Garces 905-925, Revue Principe de Viana, Pampelune 1940, No 1.

(b) Documentos para el Estudio de la Reconquista y Repoblacion del Valle del Ebro, Estudios de la Edad Media de la Corona de Aragon 1952, t 5pp 511-668.

- Lévi - Provençal :

(a) De Nouveau sur le Royaume de Pampelune au IX Siécle, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1953, t 55 No1, pp 5 - 22 .

(b) Sur l'Installation de Razi en Espagne , Arabica 1955, t 2, fasc. 2pp 228 - 230.

- Makki, M. : Egipto y los Origénes de la Historiografia fia Arabigo - Espanola, Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid, Madrid 1377/ 1957, t 5 fasc 1 - 2, pp 157 - 220.

- Martinez Diaz, G. : Las Instituciones del Reino Astur a través de los Diplomas 718 - 910, Anuario de Historia del Derecho Espanol 1965, t 35 pp 59 - 167.

- Mawer, A. : The Vikings, The Cambridge Medieval History 1936, t 3 pp 309 - 339.

- Menéndez - Pidal, G. :

(a) Mozarabes y Asturianos en la Cultura de la Alta Edad Media, Boletin de la Real Academia de la Historia 1954, t 134 cuad. 1, pp 137 - 291.

(b) El Lábaro Primitivo de la Reconquista, Cruces Asturianas y Cruces Visigodas, Boletin de la Real Academia de la Historia 1955, t 136 cuad. 2, pp 275 - 296.

- Menendez Pidal, R. :

(a) El Caracter Originario de Castilla, Revista de Estudios Politicus 1944, t 14 pp 383 - 408.

(b) Tradicionalidad de las Cronicas Generales de Espana, Boletin de la Real Academia de la Historia 1955, t 136 pp cuad 2, 131 - 197.

- Menéndez Valdés, M. :

(a) Estudio Critico - Filosofico de la Monarquia Asturiana, Revista de Espana, Madrid 1879 - 1880, vol 69 pp 356 - 372, 486 - 508; vol 70 pp 64 - 92, 212- 248, 327 - 350, 521 - 544; vol 71 pp72 - 95, 232 - 248, 361 - 378, 499 - 516; vol 72 pp 81 - 100 -, 218 - 233, 345 - 359, 495 - 504.

(b) El Concepto Politico - Social que Informa el Origen de la Monarquia Navarro - Aragonesa, Revista de Espana, Madrid 1881, t 82 pp 510 - 524 .

- Oman, Giovanni : Notizie Bibliograpiche sul Geografo Arabe Al-Idrisi (XII secolo) a sulle sue Opere, Estrato dagli Annali dell' Instituto Universitario Orientale di Napoli, Nuova Serie, vol. XI, Roma 1961.

- Perez de Cao, M. : Estudios Historico - Militares : Batalla del Monte Auseva (Covadonga), La Revista de Espana, Madrid 1871, t 21pp 168-175.

- Poupardin, R. : Louis the Pious, The Cambridge Medieval History 1936, t 3pp 1-22.

- Puyol, J. : Antecedentes para una Nueva Edicion de la Cronica de Don Lucas de Tuy, Boletin de la Real Academia de la Historia, Madrid 1916,t 69, pp 21 - 32.

- Ramon de Abdal : La Expedicion de Carlomagno a Zaragoza, El Hecho Historico, su Caracter y su Significaciones, Universidad de Zaragoza, Facultad de Filosofia y Letras, Zaragoza 1956, pp 39 - 71.

- Rusell, J.C. : Chronicles of Medieval Spain, Hispanic Review 1938, t 6 pp 218 - 235.

- Saavedra, E. :

(a) La Geografia de Espana del Idrisi, Boletin de la Sociedad Geografica, Madrid 1885, t 18 pp 224 - 242.

(b) Abderrahmen I Monografia Historica, Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos, Madrid1910, t 22 pp 341 - 359; t 23 pp 28- 44.

- Salvador Vila : El Nombramiento de los Walis de Al - andalus, Al - Andalus (Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada) 1936 - 1939, t 4 fasc. 1, pp 215 - 220.

- Sanchez Albornoz, C. :

(a) La Potestad Real y los Senorios en Asturias, Léon y Castilla en los Siglos 8 al 13, Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos, Madrid 1914, t 31 pp 263 - 290.

(b) La Cronica de Albelda y la de Alfonso III, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1930, t 32 (No 4)pp 305 - 325.

(c) A Través de los Picos de Europa Una Ruta Historica, Revista de Occidente 1931, t 9 pp 250 - 275.

(d) El Autor de la Cronica llamada de Albelda, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1948, t 50 (No 3 - 4) pp 291 - 304.

(e) Otra Vez de Guadalete y Covadonga, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1944, t 1-2 pp 11 - 114.

(f) La Sucesion al Trono en los Rienos de Léon y Castilla, Boletin de la Academia Argentina de Letras 1945, t 14 pp 35 - 124.

(g) Una Cronica Asturiana Perdida, Revista de Filologia Hispanica de Buenos - Aires 1945, t 7 (No 2)pp 105 - 146.

(h) Asturias Resiste, Alfonso el Casto Salva a la Espana Cristiana, Revue de la Faculte de Philosophie et Lettres de Buenos - Aires 1946, t 5 pp 9 - 33.

(i) Sobre La Autoridad de las Cronicas de Albelda y de Alfonso III, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1947, t 49 (Nos 3 - 4)pp 283 - 298 .

(j) La Auténtica Batalla de Clavijo, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1948, t 9 pp 94 - 139.

(k) Los Vascos y los Arabes durante los Dos Primeros Siglos de la Reconquista, Boletin del Instituto Americano de Estudios Vascos 1952, t 3 (No 9) pp 65 - 75.

(l) Itinerario de la Conquista de Espana por los Musulmanes, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos-Aires 1948, t 10 pp 21 - 74.

(m) Serie de Documentos Inéditos de Asturias, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos-Aires 1944, t 1-2 pp 298 - 351.

(n) La Redaccion Origenal de la Cronica de Alfonso III, Spanische Forschungen der Gorresgesellschaft Munster 1930, t 2 pp 47-66.

(o) Donde y Cuando Murio don Rodrigo Ultimo Rey de los Godos, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1945, t 3 pp 5-105.

(p) La Jornada del Guadacelete, Boletin de la Real Academia de Historia de Madrid, Madrid 1932, t 100 pp 691 Sqq.

(q) La Campana de la Morcuera, Anales de Historia Antigua y Medieval, Buenos - Aires 1948, t 1 pp 5 - 50.

(r) Los Libertos en el Reino Astur-Léones, Revista Portuguesa de Historia 1949, t 4 pp 9 - 45.

(s) Precisiones Sobre Fath al - Andalus, Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid 1961 - 1962, t 9-10 pp 1 - 22.

(t) Normandos en Espana durante el Siglo VIII, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires, t 25 - 26, pp 304 - 316.s

(u) Las Behetrias, La encomendacion en Asturias, Léon y Castilla, Anuario de Historia del Derecho Espanol 1924, t 1 pp 196 - 202; 1928, t 4 pp 158 - 336.

(v) Documentos de Samos de los Reyes de Asturias, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1946, t 4 pp 147 - 160.

(w) Contratos de Arrendamiento en el Reino Asturléonés, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1948, t 10 pp 142 - 179 .

(x) Alfonso III y el Particularismo Castellano, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1950, t 13 pp 19 - 100.

(y) La Batalla de Polvoraria, Anales de la Universidad de Madrid 1932, t 1, fasc 3, pp 225 - 238.

- Sanchez Candeira, A. : EL "Regnum - Imperium" Léones hasta 1037, Escuela de Estudios Medievales 1, Madrid 1951, pp1-72.

- Semper y Miguel S : Los Origénes del Condado de Pallás y su Historiador Fray Francisco Llobet y Mas, Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos 1904, t10 pp 373 - 398.

- Stero, M. : El Latin de la Cronica de Alfonso III, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1946, t4 pp 125 - 135.

- Traggia, J. :

(a) Memoria sobre el Origen del Condado de Ribagorza y Sucesion de Sus Condes Hasta que se Incorporo en la Corona del Pirineo, Memorias de la Real Academia de la Historia, Madrid 1817, t 5 pp 315-359.

(b) Discurso Historico sobre el Origen y Succesion del Reino Pirenaico Hasta Sancho el Mayor, Memorias de la Real Acacdemia de la Historia, Madrid, t 4 pp 1 - 84.

- Urbel, J.P. de :

(a) Los Monjes Espanoles en los Tres Primeros Siglos de la Reconquista, Boletin de la Real Academia de la Historia de Madrid 1932, t 101pp 23 - 113.

(b) Lo Viejo y lo Nuevo sobre el Origen del Reino de Pamplona, Al - Andalus (Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada) 1954, , t 19 Fasc. I pp 1 - 42.

- Valls Taberner, F. :

(a) Les Genealogies de Roda O de Meya, Discurso de Ingreso en La Real Academia de Buenas Letras de Barcelona 1920, pp 1 - 31.

(b) Els Origéns dels Comtats de Pallars i Ribagorça, Studis Universitaris Catalans 1915 - 1916, t 9 pp 1 - 101.

- Vazquez de Praga, L. : Sobre la Cronica Najerense, Hispania 1941, t1 pp 108 - 109.

- The Cambridge Medieval History, vols 2 - 3, London.

- The Encyclopaedia of Islam, New édition, London - Leiden 1960.

(ب) الدوريات والمجلات العربية :

- أدهم ، على : عبد الرحمن الداخل، دائرة معارف الشعب ، كتاب الشعب ٦٧ لسنة١٩٥٩م.

- ابن تاويت ، محمد : دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، المجلد الخامس، العدد ١ - ٢ ، مدريد ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ص ١٠٥ - ١٢٨ .

- الحمارنة ، صالح : من هو مؤلف الروض المعطار فى خبر الأقطار، مجلة المؤرخ العربى، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد السابع، بغداد.

- الرمادى، جمال: فتوح العرب فى أوربا، دائرة معارف الشعب ٦٤ لسنة ١٩٥٩م.

- سالم، السيد عبد العزيز :

(أ) قرطبة فى العصر الإسلامى، مجلة المؤرخ العربى، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد ١٣ بغداد ١٩٨٠م.

(ب) دائرة معارف الشعب، كتاب الشعب ٦١ لسنة ١٩٥٩م (مواد : قرطبة، طليطلة، ماردة، بطليوس، مرسية، سرقسطة، إشبيلية).

(جـ) دائرة معارف الشعب، كتاب الشعب ٦٤ لسنة ١٩٥٩م، مقال بعنوان : التأثيرات المعمارية فى الأندلس، وآخر بعنوان : تأثير الثقافة الأندلسية فى إسبانيا وأوربا، وثالث بعنوان : العمارة المدنية بالأندلس.

(د) دائرة معارف الشعب، كتاب الشعب ٦٧ لسنة ١٩٥٩م، مقال بعنوان : الحكم بن هشام، وآخر بعنوان : عبد الرحمن الأوسط.

- مكى ، الطاهر أحمد : الأندلس تاريخ اسمه وتطوره، مجلة الثقافة، السنة الثانية، العد ٢٢، يوليو ١٩٥٧م، ص ٢٥ - ٣١.

- مكى، محمود على : التشيع فى الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى، العدد ١-٢، مدريد ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ص ٩٣ - ١٤٩.

- مؤنس، حسين :

(أ) صورة الأندلس ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، المجلد ١٤ لسنة ١٩٦٠م، ص ٣٣ - ٦٠.

(ب) غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ و ٢٤٥هـ/ ٨٤٤ و ٨٥٩م، وسفارة يحيى الغزال إلى ملك النورمان فى سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثانى، العدد الأول، مايو ١٩٤٩م، ص ١٩ - ٧٣.

(جـ) ثورات البربر فى إفريقية والأندلس، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول ، المجلد العاشر، الجزء الأول، مايو ١٩٤٨م، ص ١٤٣ - ٢٠٦.

(د) بلاى وميلاد أشتوريس ، وقيام حركة المقاومة النصرانية فى شمال إسبانيا، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، المجلد الحادى عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٤٩م ، ص ٥٧ -٨٣.

(هـ) وصف جديد لقرطبة الإسلامية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد ١٣، مدريد ١٩٦٥ - ١٩٦٦م ، ص ١٦١ - ١٨١.

(و) رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد ١٨، مدريد ١٩٧٤ - ١٩٧٥م، ص ٧٩ - ١٣٠.

المحتوى

الباب الثانى
المقاومة الإسبانية فى طور التكوين
٧١٤ - ٧٣٩م (٩٥ - ١٢١ هـ)









هذا الكتاب

لاجدال فى أن الحروب الصليبية ، التى شهدها المشرق العربى منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، كانت امتدادا للحروب الدائرة رحاها وقتذاك على الأرض الإسبانية ضد مسلمى الأندلس فيما عرف بحركة الاسترداد La Reconquista . وإذا كانت هذه الحركة قد صادفت اهتماما بالغا من المؤرخين القدامى ، فتتبعوا تطوراتها فى أدق جزئياتها وتفاصيلها ، فإن موقفهم من بداياتها والملابسات المحيطة بنشأتها واطرادها قبل القرن الحادى عشر مغاير تماما ، بحيث بدت فى كتابات العرب وكأنها مجرد أمر غير مرئى أو مسألة خلفية لم يتوقعوا لها نجاحا أو توفيقا ، فأهملوها تقليلا من شأنها واحتقارا . فى حين غالى الأوربيون فى تقييمها ، وأحاطوها بهالة من الأساطير ، حتى أوشكت معالمها الحقيقية تضيع.

وإزاء هذا التفاوت جاءت هذه الدراسة - فى أربعة أبواب - لتخرج هذه الحروب من حيز التحرج العربى ، وتبعدها عن التهويل الأوربى ؛ فكشفت النقاب عن أصولها البعيدة وتطوراتها المتعاقبة حتى القرن العاشر الميلادى . وأثبتت أنها وإن تعثرت فى بداياتها أحيانا لكنها كانت تستعاد دون كلل ، لترسم للإسبان طريق التحرر حتى أخذت ملامحها الصليبية الجديدة تتضح لترسى أساس حركة استرداد الأندلس ، التى تجاوزت وقتذاك إطارها المحلى الإسبانى لتشمل المشرق الإسلامى حيث الحروب الصليبية التى شارك فيها كثير من الدول الأوربية .

وتمتد أهمية هذه الدراسة إلى أنها تناولت بلدا إسلاميا على أرض أوربية شكلت فيه العناصر الأوربية البعد الآخر فى تكوينه البشرى والطبيعى ، ولذا استندت على كافة مصادره العربية والأوربية من لاتينية وقشتالية،أفرد لها المؤلف دراسة تعريفية نقدية، تشكل - ولأول مرة فى الشرق العربى - مرجعا ببليوجرافيا هاما لمصادر تاريخ إسبانيا العصور الوسطى بشقيه الإسلامى والمسيحى .

الناشر